

صيد الخاطر

للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن جعفر
المعروف بابن الجوزي







تحقيق

أبي معاذ طارق بن عوض الله بن محمد



إعتمادا على عدة مخطوطات

متضمنة زيادات هائلة لم تطبع من قبل



مدار الوطن للنشر





للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن جعفر
المعروف بابن الجوزي

تحقيق

أبي معاذ طارق بن عوض الله بن محمد

إعتماداً على عدة مخطوطات
متضمنة زيادات هائلة لم تطبع من قبل




مدار الوطن للنشر


بسم الله الرحمن الرحيم

© مدار الوطن للنشر، ١٤٣٧ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

ابن الجوزي، أبي الفرج

صيد الخاطر.

/ أبي الفرج ابن الجوزي، طارق عوض الله محمد. ـ الرياض، ١٤٣٧هـ

٨٨٨؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٥ ـ ٤٥ ـ ٨١٧١ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

١ ـ الوعظ والإرشاد أ. محمد، طارق عوض الله (محقق) ب ـ العنوان

ديوي: ٢١٣ ١٤٣٧/٢٧٨٦

رقم الإيداع: ١٤٣٧/٢٧٨٦

ردمك: ٥ـ ٤٥ ـ ٨١٧١ـ ٦٠٣ـ ٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣٧ هـ ـ ٢٠١٦م



مدار الوطن للنشر

المقر الجديد

المملكة العربية السعودية

الرياض ـ الروضة ـ مخرج ١١

شارع ابي سعيد الخدري متفرع

من شارع خالد بن الوليد

هاتف: ٠١١٢٣١٣٠١٨ (٣ خطوط)

٠١١٤٧٩٢٠٤٢

فاكس: ٠١١٢٣٢٢٠٩٦

فرع الملز ـ مخرج ١٥ ـ مقابل جامع الراجحي

هاتف: ٠١١٤٤٥٤١٢٤ ـ جوال: ٠٥٠٦٤٣٦٨٠٤

مندوب الرياض: ٠٥٠٣٢٦٩٣١٦

مندوب الغربية: ٠٥٠٤١٤٣١٩٨

مندوب الجنوبية: ٠٥٠٣١٩٣٢٦٩

مندوب الشرقية والدمام: ٠٥٠٣١٩٣٢٦٨

مندوب الشمالية والقصيم: ٠٥٠٤١٣٠٧٢٨

مسؤول التوزيع الخيري: ٠٥٠٣١٩٣٢٦٩

لطلبات الجهات الحكومية: ٠٥٠٠٩٩٦٩٨٧

www.madaralwatan.com • pop@madaralwatan.com • madaralwatan@hotmail.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إنَّ الحَمدَ للهِ نحمدُهُ، ونستعينُهُ ونستغفرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرورِ أَنْفُسنا، ومن سَيئاتِ أَعمالِنا، مَن يَهْدِه اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضلل فلا هَاديَ لَه، وأَشْهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا الله وَحْدَهُ لا شَريكَ لَه، وأَشهدُ أَنَّ مُحمدًا عَبدُه ورسولُه.

وبَعْدُ.

فهَذا كِتابُ «صَيد الخاطِر» للإمام أبي الفَرج ابنِ الجَوزيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، قد اعتنيتُ به عِنايةً فائقةً بحسبِ الطَّاقةِ، من حيثُ ضبطُ نصِّه، وتصحِيحُه، وتحقِيقُه، وتخريجُ أحاديثِه، والحكمُ عليها، والتعليقُ علىٰ بعض المَواضعِ المُهمَّة، وإخراجُه في هذه الصُّورة؛ مَضْبُوطًا بالشَّكل، مُقَسَّمًا لفقراتٍ بحسبِ المَعاني، مُوضَّحًا بعلاماتِ التَّرقيم، مُمَيَّزَةً بدايات فُصولِه باللَّونِ والتَّنسيقِ.

فقد جَعلتُ بدايةَ كُلِّ فَصْل من فُصوله بمقامِ العُنوانِ والتَّرجمةِ، عِوضًا عمَّا صنعهُ بعضُ أفاضِل المحقِّقين مِن إضافَتهم مِن قِبل أنفُسهم عناوينَ لفصوله، بحسبِ ما فَهمه كُل محقِّق من كُل فَصْل، فرأيتُ أن أجعلَ العُنوانَ من كَلام المؤلِّف نَفسه؛ لأنَّ مِن عَادته أنَّه يبدأُ الفَصل بجُملة أو أكثرَ يُجملُ فيها مُقصودَه من الفَصْل، فكانَ جَعْلُ هذه البدايةِ في مقامِ العُنوانِ أَفْضَلَ؛ لأنَّ ربَّ الدَّار أَدْرَىٰ بما فِيه.

وقَد وقفتُ لهَذا الكتابِ عَلىٰ ستِّ نُسخٍ، أهداها لي بعضُ إخوانِي الفُضلاءِ، فجزاهُ اللهُ خيرًا، وهي كلُّها مُتقاربةٌ فِي الصِّحة، لكنْ ليسَ من بَيْنها نسخةٌ كاملةٌ، وقدْ طُبع الكتابُ من قبلُ علىٰ إحداهَا، وكَان يُظنُّ أنَّ النسخَ المطبوعةَ منهُ كاملةٌ، معَ العلمِ بأنَّها مأخُوذةٌ من بعضِها، لكنْ بالنظرِ فِي النُّسخِ الأُخرىٰ الَّتي وقفتُ عليها تبيَّنَ أن النُّسخَ المطبوعةَ لا تُمثِّلُ إلا قدرَ نصفِ

الكتابِ فِي أعلىٰ تَقديرٍ إنْ لم يَكُنْ أقلَّ، فقدْ تضمَّنتْ بعضُ النسخِ الَّتي لديَّ علىٰ فُصولٍ كاملةٍ وكثيرةٍ لم تُطبعْ من قبلُ ولا لَها أثرٌ فِي النُّسخِ المَطْبوعةِ، وهَذِه الزِّيادَاتُ تَجِدُها فِي طَبْعَتي هَذه مِن (ص٣٢١) إلىٰ (ص٥٥٨).

وقد كنتُ أشكُّ مدةً في كونِ المطبوعاتِ من هذا الكتابِ ناقصةً، فتأكدتُ من ذلكَ الآنَ؛ لأنَّ العلماءَ الَّذينَ ذكروا هذا الكتابَ في تَراجِمهم للإمامِ ابن الجوزيِّ قد ذَكروا في حَجمِهِ ما يَقْتضي أنَّه أكبرُ منهُ في النُّسخِ المطبوعةِ، فقد ذكرَ الذهبيُّ في «سِير أعلامِ النُّبلاء» (٢١/ ٣٦٩) أنه في ثلاثِ مجلداتٍ، وذكرَ ابنُ رجبٍ في «ذَيل طَبقاتِ الحنابلةِ» (٢/ ٤٩٤) أنه في خمسةٍ وستينَ جُزءًا، وهَذا قريبٌ مما ذكَرَهُ الذهبيُّ؛ لأنَّ المجلدَ في عُرفِهِمْ يتكوَّنُ من أجزاءٍ من عشرةٍ إلىٰ عشرينَ، بحسبِ كِبرِهِ وصِغرِهِ.

هَذا؛ ولَم أُعنَ كَثيرًا بِذكرِ اختِلافاتِ النُّسخِ إلَّا فِي القَليلِ النَّادرِ، وذَلكَ حيثُ يَكونُ الاختلافُ مُحْتَملًا، أمَّا إذا كَانَ الخطأُ وَاضحًا لَا لَبْسَ فيه، فَلا مَعْنَىٰ لِذكرِه ولا لِشَغْلِ القَارِئِ بِه، لا سيَّما فِي مِثلِ هَذه الكُتبِ الوَعْظِيَّةِ والَّتي لا يَحتاجُ القَارِئُ لَها إلىٰ مَعْرفَةِ ذلكَ، نَاهيكَ عن أنَّ بعضَ هَذه النُّسخِ مَلِيئةٌ بالأخطاءِ، فَتَجَشُّمُ ذِكر ذَلكَ يُضخِّمُ الحَواشِي مِن دُونِ طَائلٍ.

فأمَّا الأُولىٰ: فهِي مُصوَّرةٌ من مَكْتبةِ الأَوقافِ الكُويتيَّةِ، وهِي فِي (٣٤٢) لَوْحَة، أي (١٧١) وَرَقَة، وهِي نُسْخَة لا بأسَ بِها، بِخطٍّ مُعتادٍ.

والثَّانيةُ: فهِي مُصوَّرةٌ من مَكتبةِ جَامعِ الرِّياضِ، وهِي فِي (١٩٨) وَرَقَة، وهِي نُسخةٌ جَيِّدَةٌ، خَطُّها معتادٌ، وهِي الَّتي يُشارُ إلَيْها بالرَّمزِ «أ»، وهِي تَشْتَمل عَلىٰ زِياداتٍ هَائلَةٍ وعَلىٰ نُقْصانٍ أيضًا، والزِّياداتُ فِيها تَبْدَأُ من أثناءِ الوَجْهِ الأوَّل من الوَرَقة (١١٠) حتَّىٰ نِهايةِ النُّسخةِ.

والثَّالثةُ: فهِي مُصوَّرةٌ من مَكتبةِ جَامعِ الرِّياضِ، وهِي فِي (٨٩) وَرَقة، وهِي نُسخةٌ حَسَنةٌ فِي الجُملةِ، وخطُّها نَسخٌ نَفيسٌ، لكنَّها ناقِصةُ الأوَّلِ والآخِرِ والأَثناءِ.

والرَّابعةُ: فهِي قِطعةٌ صَغيرةٌ فِي عِدَّةِ وَرَقاتٍ، مُصوَّرةٌ مِن مَكتبةِ المَلِكِ عبدِ العزِيزِ، بخطٍّ مُعتادٍ، لكنَّها كلَّها زِياداتٌ لا تُوجدُ فِي غَيرِها، وهِي الَّتي يُشارُ إليها بِالرَّمزِ «ن».

والخَامِسةُ: فهِي مُصوَّرةٌ من مَكتبةِ الفاتِحِ باستانبولِ، وهِي في (٢١٨) وَرَقة، وهِي المُشارُ إليها بالرَّمزِ «ي»، وخطُّها مُعتادٌ، ومُشتبهٌ فِي مَواضعَ، لكنَّها متَّفقةٌ معَ النُّسخةِ الثَّانيةِ «أ» فِي كلِّ شيءٍ حتَّىٰ فِي الزِّياداتِ، والزِّياداتُ فِيها تَبدأُ من الوَجْهِ الأوَّلِ من الوَرَقة (١١٢) حتَّىٰ نِهايةِ النُّسخةِ، وقد ضَاعَتْ آخِرُ ورقةٍ منها، والظَّاهرُ أنَّ هذِه النُّسخةَ هِي أَصْل الثَّانيةِ، أو أَنَّهما مأخُوذتانِ من أصلٍ واحدٍ.

السَّادسةُ: فهِي مُصوَّرةٌ من مَكتبةِ الفاتِحِ باستانبولِ، وهِي في (١٩٩) وَرَقة، وخطُّها نَسْخِي جميلٌ، وعَلىٰ طرَّتِها إجازةٌ وأوقافٌ.

هذا؛ والإمامُ ابنُ الجوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هُو من عُلماءِ الإسلام الكبارِ، ومن أئمةِ السُّنَّةِ الأبرارِ، وله اليدُ الطُّولَىٰ في الوَعْظِ والتَّذكيرِ والإرشادِ؛ لكنَّه مع ذلكَ كانَ له ميلٌ قليلٌ إلىٰ التَّأويلِ في بابِ الصِّفاتِ، يَظهرُ ذلك في مواضعَ من هذا الكتابِ وغيرِه من كُتبه، وقد عابَ عليه أهلُ العلمِ ذلك، وحَرصُوا علىٰ بيانِه حتىٰ لا يُغترَّ به.

وقد نبَّهتُ علىٰ بعض ذلك في تَعليقِي علىٰ هذا الكتابِ، واستغنيتُ بِهذا التَّنبيه هُنا وبما سيأتي في ترجمةِ ابنِ الجوزيِّ -لابن رجبِ الحنبليِّ- عنِ التَّنبيه في كُل موضعٍ موضعٍ؛ فليُعْلَم ذلك. واللهُ من وراءِ القَصْدِ.

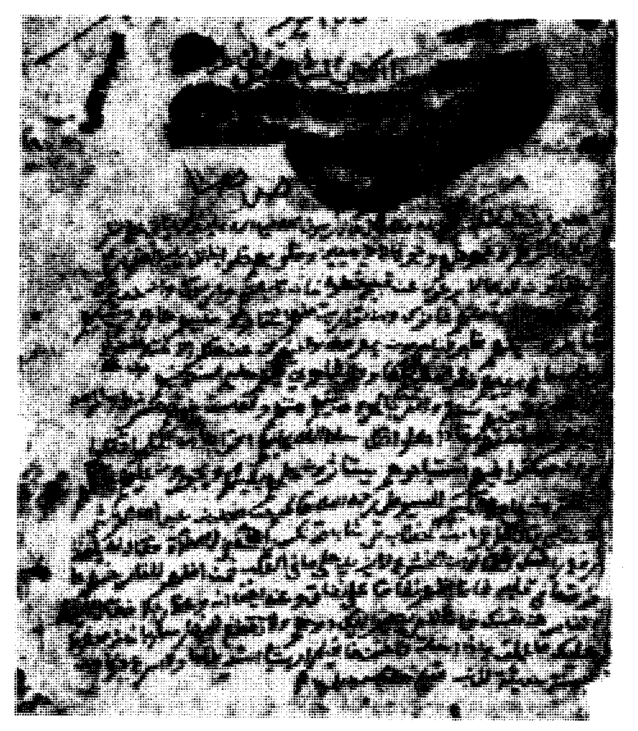
ولقد صدقَ الإمامُ مالكِ بنِ أنسٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حينَ قالَ: «كُلٌّ يُؤخذُ من قوله ويُردُّ؛ إلَّا صَاحبُ هذا المَقام» وأشارَ إلىٰ قَبرِ النَّبيِّ ﷺ. واللهُ سبحانَه يَغفرُ لنا ولإمامِنا، ويُسامِحُنا وإيَّاهُ، بفَضْلِه ومَنِّه.

ولسنا نَرضَىٰ لنا ولا لغَيْرنا إلَّا ما رَضِيه اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ورسولُه ﷺ لنا، وكانَ عليه خِيارُ هذه الأمَّةِ: الصَّحابةُ والتَّابعونَ والأئمَّةُ المَتْبوعونَ؛ مِن الإيمانِ الكامِلِ بكلِّ ما جاء من صفاتِ المَوْلىٰ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كتابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وسنةِ رَسُول الله ﷺ الصَّحيحةِ الثَّابتةِ، وهو إثباتُها وإمرارُها كما جاءتْ، من غير تأويلٍ ولا تمثيلٍ ولا تعطيلٍ. وباللهِ التوفيقُ.

والحمدُ للهِ أوَّلًا وآخِرًا، ظَاهرًا وباطِنًا، والصَّلاةُ والسَّلامُ علىٰ عَبْدِه المُصْطَفىٰ، ورسُولِهِ المُجْتَبىٰ، وعَلىٰ آلِه وصَحْبِه أَجْمعينَ، وعَلىٰ مَن تَبِعهُم بِإحسانٍ إلىٰ يَوم الدِّينِ.

وكتب

أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد

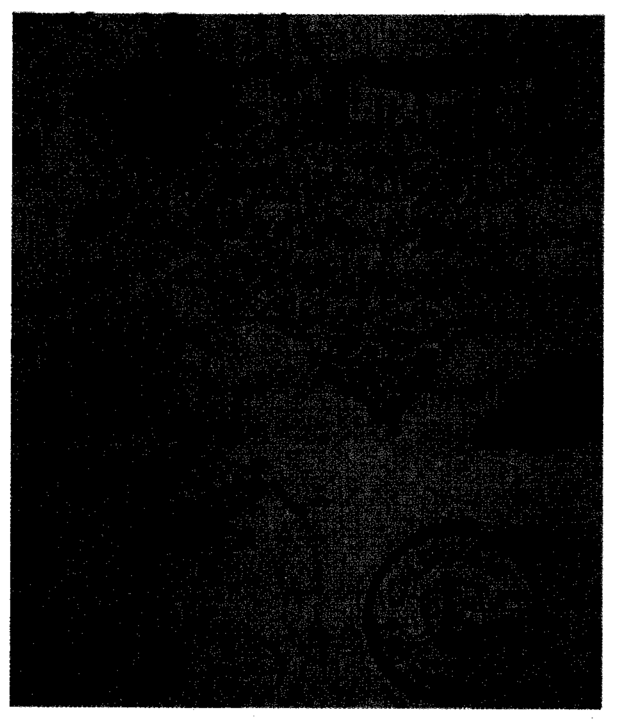



اللوحة الأولىٰ من النسخة الأولىٰ

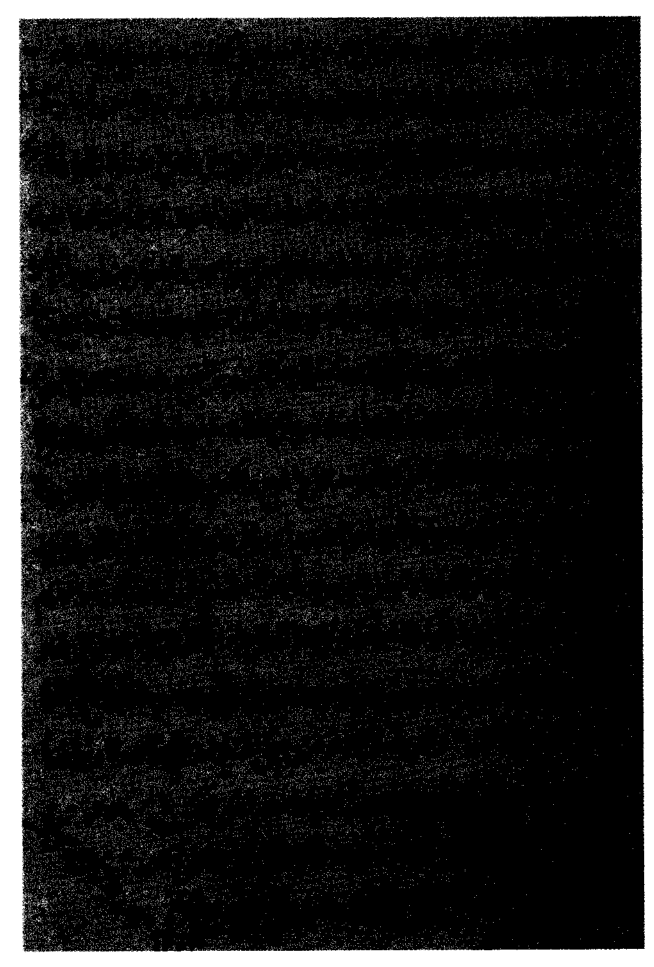
١٧٣

الى الذل للخلق ومن البلية ... في النفقة ... [illegible]
الا عباء ... [illegible] ... بالعبيد وينبغي التوسط
في الاحوال وكتمان ما يصلح كتمانه ولقد ... [illegible]
مالا فاكثر النفقة فعلى ... فاخذ هذا المال وعاد الى الفقر واني
التدبير حفظ المال والتوسط في الانفاق وكتمان ما لا يصلح
اظهاره ومن الغلط ... الزوجة على قدر المال ... [illegible]
... [illegible] ... كثير اطلبت زيادة
الكسوة والحلي قال الله عز وجل ولا تؤتوا السفهاء اموالكم
... [illegible] ... وكذلك الاسرار ... [illegible]
... [illegible] ... فقال الشاعر ... [illegible]
فلما انقلب ... [illegible] ... فكان ادرى بالمعذرة
تم بحمد الله كتاب صيد الخاطر كتبه الحقير الفقير الراجي
عفو ربه العلي الكبير محمد بن عبد الله بن احمد ... [illegible]
غفر الله له ولوالديه ولاجداده وجداته ... [illegible]
ومشايخه وللمسلمين كان الفراغ من النسخ ... [illegible]
... [illegible] ... سنة الف ومائتين وسبعة وثمانين ... [illegible]
... [illegible] ... والحمد لله رب العالمين

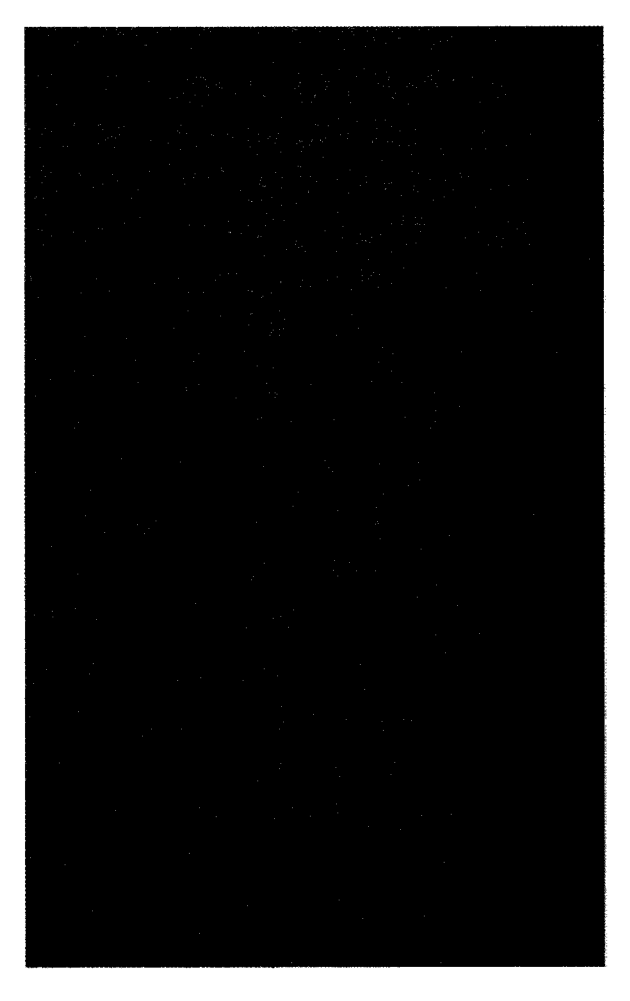
اللوحة الأخيرة من النسخة الأولىٰ



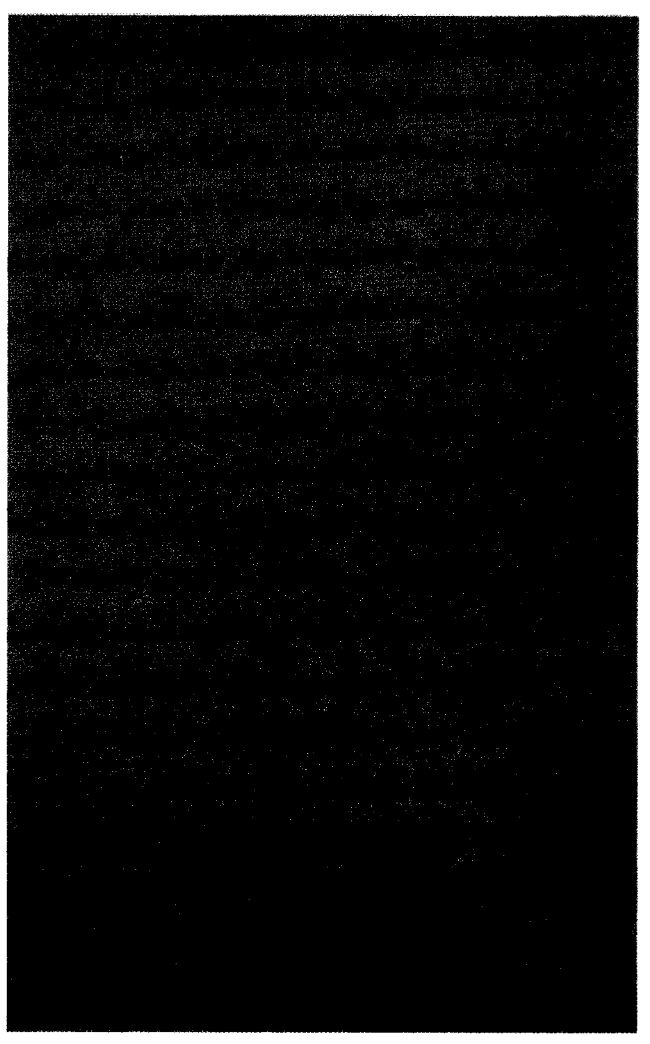
اللوحة الأولىٰ من النسخة الثانية



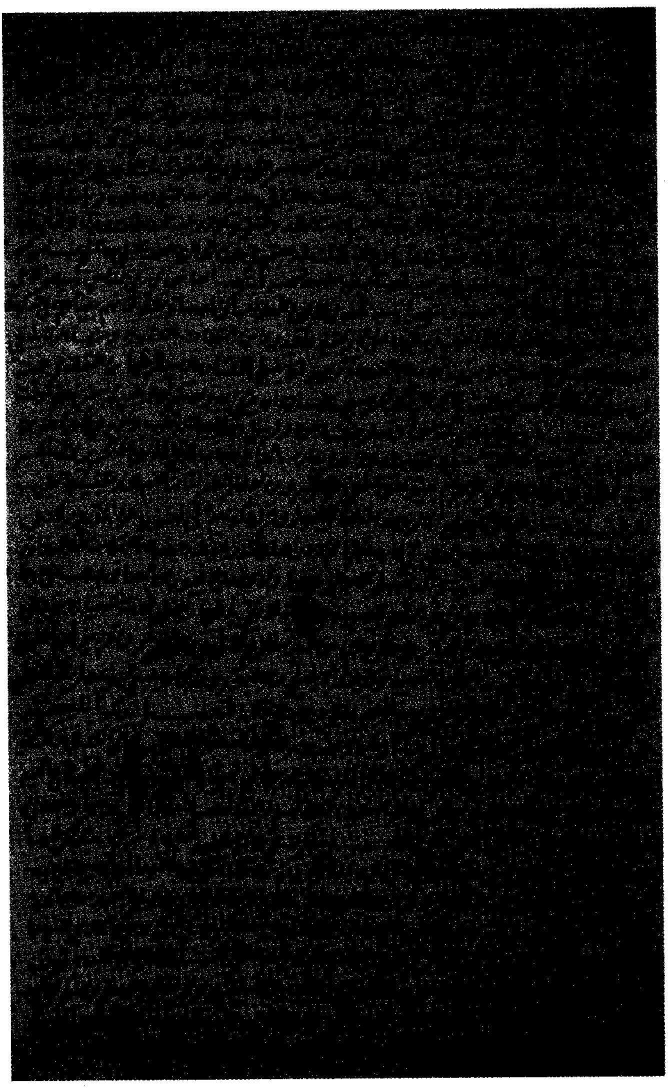
اللوحة الأخيرة من النسخة الثانية



اللوحة الأولىٰ من النسخة الثالثة

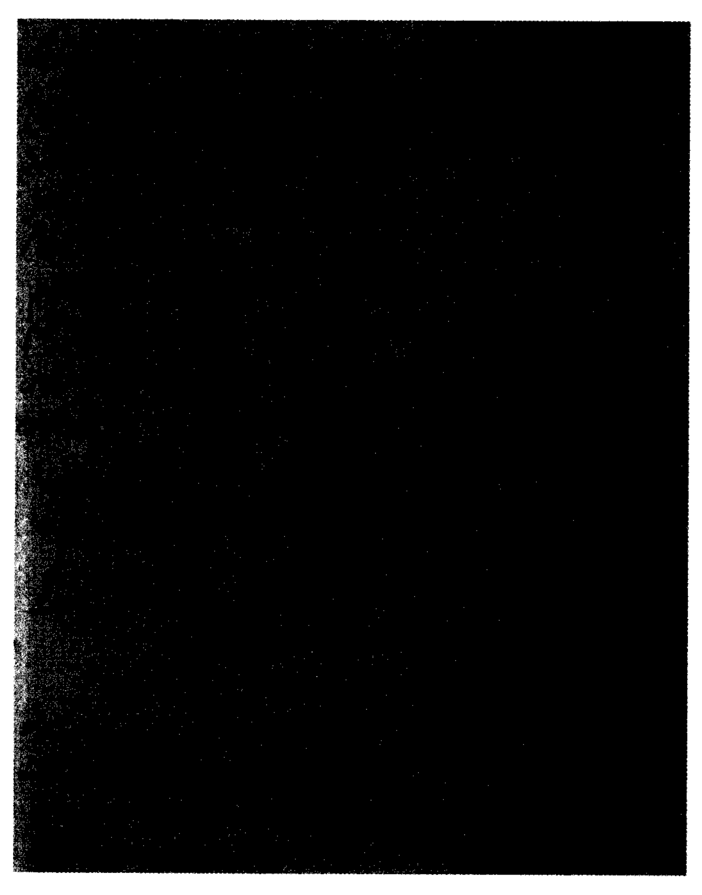


اللوحة الأخيرة من النسخة الثالثة



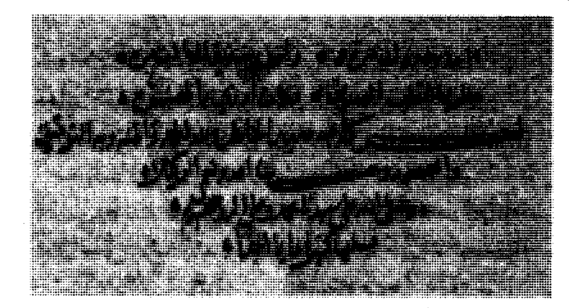
اللوحة الأولىٰ من النسخة الرابعة

اللوحة الأولىٰ من النسخة الخامسة

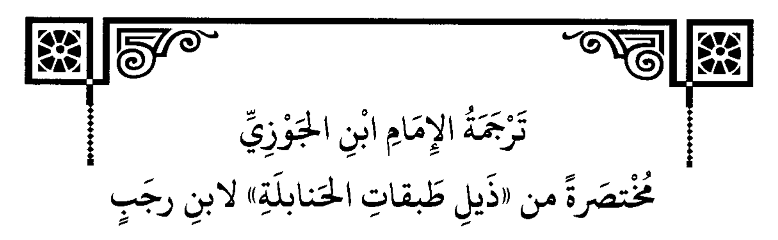


اللوحة الأخيرة من النسخة الخامسة

اللوحة الأولىٰ من النسخة السادسة



اللوحة الأخيرة من النسخة السادسة



تَرْجَمَةُ الإِمَامِ ابْنِ الجَوْزِيِّ

مُخْتصَرةً من «ذَيلِ طَبقاتِ الحَنابلَةِ» لابنِ رجَبٍ

عبدُ الرَّحمنِ بنُ عليِّ بنِ محمَّدِ بنِ عليِّ بنِ عُبيدِ اللهِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ حمادىٰ بنِ أحمدَ بنِ محمَّدِ بنِ جعفرِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ القاسمِ بنِ النَّضرِ بنِ القاسمِ بنِ محمَّدِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ عبدِ الرَّحمنِ بنِ القاسمِ بنِ محمَّدِ بنِ أَبِي بَكْرٍ الصِّديقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، القُرشيُّ التَّيميُّ البَكريُّ البَغْداديُّ، الحافظُ المُفسِّرُ، الفَقِيهُ الواعِظُ، الأَديبُ، جَمالُ الدِّينِ أَبُو الفَرَجِ، المَعْروفُ بابنِ الجَوْزِيِّ، شيخُ وَقْتِه، وإمامُ عَصْرِه.

واختُلفَ في هذه النِّسبةِ: فقيلَ: إنَّ جدَّه جعفرَ نُسبَ إلىٰ فُرْضَة من فُرضِ البَصْرَة، يُقال لها: جَوْزَة.

وفُرضةُ النَّهر: ثُلْمَتُه التي يُستقي منها، وفرضةُ البحر: محطُّ السُّفن. ذكر هذا غيرُ واحد.

قال المُنْذري: هو نسبة إلىٰ موضعٍ يقال له: فُرضةُ الجَوْز.

وذكر الشَّيخُ عبدُ الصَّمد بنُ أبي الجَيْش: أنَّه مَنسوبٌ إلىٰ مَحلَّة بالبصرة تُسمىٰ محلة الجَوْز.

وقيل: بل كانت بداره في واسطٍ جَوْزَةٌ، لم يكن بواسط جوزة سواها.

واختُلف أيضًا في مَولِده: فقيلَ: سنةَ ثمانٍ وخَمْسمائةٍ.

وقال القادسيُّ: ذكره الشيخ عن أخيه أبي محمَّدٍ: أنه أخبره بذلكَ.

وقيلَ: سنةَ تسعٍ. وقيلَ: سنةَ عشرٍ.

ووُجد بخطِّه: لا أُحقِّق مولدي، غيرَ أنَّه ماتَ والدي في سنةِ أربعَ عشرةَ، وقالتِ الوالدةُ: كان لك من العُمر نحوُ ثلاثِ سنينَ. فعلىٰ هذا: يكون مَولدُه سنةَ إحدىٰ عشرةَ، أو اثني عشرةَ.

وقال ابن القَطِيعيِّ: سألته عن مَولده. فقال: ما أحقِّق الوقتَ، إلَّا أنَّني أعلمُ أنِّي احتلمتُ في سنةِ وفاةِ شيخنا ابن الزَّاغُونيِّ، وكان توفي سنةَ سبعٍ وعشرينَ.

قلت: وهذا يُؤْذن أن مولدَه بعد العشرةِ.

ووُجد بخطِّه تصنيفٌ له في الوعظِ، ذكر: أنه صنَّفه سنة ثمانٍ وعشرينَ وخمسمائةٍ، وقال: ولِي من العُمر سبعَ عشرةَ سنةً.

قال ابنُ القَطِيعيِّ: وحُكي لي أنه كان يُسمَّىٰ المُباركَ إلىٰ سنةِ عشرينَ وخمسمائةٍ. وقالَ: سمَّاني وأخَوايَ شيخُنا ابنُ ناصرٍ: عبدَ الله، وعبدَ الرَّحمن، وعبدَ الرَّازق. وإنَّما كنَّا نُعرفُ بالكُنىٰ.

وكان مَولِدُه ببغدادَ بدَرْبِ حبيبٍ، فلمَّا تُوفي والدُه -وهو صَغيرٌ- كَفَلَتْهُ أُمُّه وعمَّتُه.

وكانَ أهلُه تجَّارًا في النُّحاس، فلهذا يُوجد في بعضِ سَماعاته القَديمةِ: ابنُ جوزيٍّ الصَّفَّارُ. ولمَّا تَرَعْرَعَ حملته عمَّتُه إلىٰ مسجدِ أبي الفَضْل ابنِ ناصرٍ، فاعتَنىٰ به؛ أَسْمَعَه الحديثَ. وقد قيلَ: إنَّ أولَ سماعاته سنةَ ستٍّ عشرةَ وخمسمائةٍ.

وحفظَ القرآنَ وقرأَهُ علىٰ جماعةٍ من أئمةِ القُرَّاءِ. وقد قرأَ بالرواياتِ في كِبَرِه بواسطٍ علىٰ ابن الباقلَّانِيِّ. وسمعَ بنفسِه الكثيرَ، وقرأَ وعُني بالطَّلَبِ.

قال في أولِ مشيختِه: حَمَلني شيخُنا ابنُ ناصرٍ إلىٰ الأشياخِ في الصِّغَر، وأَسْمعَني العَواليَ، وأثبتَ سماعاتي كلَّها بخطِّه، وأخذَ لي إجازاتٍ منهُم. فلمَّا فهمتُ الطَّلَبَ كنتُ أُلازمُ مِن الشُّيوخِ أعلَمَهم، وأُوثِرُ من أربابِ النَّقل أَفْهَمَهُم،

فكانتْ همَّتي تَجويدُ العُدد لا تكثيرُ العَدد. ولما رأيتُ من أصحابي مَن يُؤثرُ الاطلاعَ علىٰ كبارِ مشايخي ذكرتُ عن كلِّ واحدٍ منهم حديثًا. ثم ذكر في هذه المشيخةِ له سبعةً وثمانينَ شيخًا.

وقد سمعَ من جماعةٍ غيرِهِم، لكنَّه اقتصرَ علىٰ أكابر الشُّيوخِ وعواليهم، فمنهم: ابنُ الحُصين، والقاضي أَبُو بَكرٍ الأنصاريُّ، وأَبُو بَكْرٍ المزرفي، وأَبُو القاسم الحريريُّ، وعليُّ بنُ عبد الواحدِ الدِّينَوَريُّ، وأَبُو السَّعاداتِ المتوكليُّ، وأَبُو غالبِ ابن البَنَّا، وأخوه يحيىٰ، وأَبُو عبد الله البارعُ، وأَبُو الحسن عليُّ بن أحمدَ الموحدُ، وأَبُو غالبِ الماورديُّ، والحسنُ بن الزاغونِيُّ، وأَبُو منصور بن خَيْرونَ، وأَبُو القاسم السَّمرقنديُّ، وعبد الوهاب الأَنْماطيُّ، وعبد الملك الكروخيُّ، وأَبُو القاسم عبد الله بن محمد الأصبهانِيُّ - خطيبُها -، وأَبُو سعد الزَّوزنِيُّ، وأَبُو سعد البغداديُّ، ويحيىٰ بن الطَّراحِ، وإسماعيل بن أبي صالح المؤذنُ، وأَبُو القاسم علي بن مُعَلَّىٰ العلويُّ الهَرويُّ الواعظُ، وأَبُو منصورٍ القزَّازُ، وعبد الجبَّار بن إبراهيم بن عبد الوهَّاب بن مَنْدَهْ. وتفرَّد بالرِّوايةِ عن طائفةٍ منهُم، كالمتوكِّل والدِّينَوَريِّ.

وسمعَ الكتبَ الكبارَ، كـ «المُسندِ» و«جامعِ التِّرمذيِّ» و«تاريخِ الخطيبِ» وله فيه فواتُ جزءٍ واحدٍ.

وسمعَ «صحيحَ البخاريِّ» علىٰ أبي الوَقْت، و«صحيحَ مسلمٍ» بنزولٍ، وما لا يُحصىٰ من الأجزاءِ، وتصنيفَ ابن أبي الدُّنيا وغيرها. ووعظَ وهو صغيرٌ جدًّا.

قال: حملني ابنُ ناصرٍ إلىٰ أبي القاسمِ العلويِّ الهرويِّ في سنة عشرين، فلقَّنني كلماتٍ من الوعظِ، وجلسَ لوداعِ أهل بغدادَ مستندًا إلىٰ الرِّباطِ الذي عند السُّور في الحلبةِ، ورقاني يومئذٍ المنبرَ، فقلتُ الكلماتِ، وحُرِزَ الجمعُ بخمسين ألفًا.

ثم صحب أبا الحسنِ ابن الزَّاغونِيِّ، ولازَمَه، وعلق عنه الفقهَ والوعظَ.

وذكر القادسيُّ: أنه تفقَّه علىٰ أبي حكيم، وأبي يَعْلَىٰ ابنِ الفرَّاءِ.

وكذا ذكر ابن النَّجَّار أنَّه بعد وفاة ابن الزَّاغونيِّ قرأ الفقهَ والخلافَ والجدلَ والأصولَ علىٰ أَبِي بَكْرٍ الدِّينَوَرِيِّ، والقاضي أبي يَعْلَىٰ الصغيرِ، وأبي حكيم النهروانِيِّ. وصار مفيدَ المدرسةِ.

وقرأَ الأدبَ علىٰ أبي منصورٍ الجَواليقيِّ.

ولما تُوفي ابنُ الزاغونِيِّ في سنة سبع وعشرين طلبَ حلقتَهُ، فلم يُعطها لصِغَرِه؛ فإنَّه كانَ في ذلك العامِ قد احتلمَ كما تقدَّم، فحضرَ بينَ يَدَيِ الوزيرِ، وأوردَ فصلًا في المواعظِ، فأذِنَ له في الجلوسِ في جامعِ المنصورِ.

قالَ: فتكلَّمتُ فيه، فحضرَ مجلسي أولَ يومٍ جماعةٌ من أصحابنا الكبارِ من الفقهاءِ، منهم عبدُ الواحدِ بنُ سيفٍ، وأَبُو عليٍّ ابنُ القاضي، وأَبُو بَكْرٍ ابنُ عيسىٰ، وابن قثامي وغيرُهم. ثم تكلَّمتُ في مسجدٍ معروفٍ، وفي بابِ البصرةِ، وبنهرِ المُعَلَّىٰ، فاتَّصلتِ المجالسُ، وقويَ الزِّحامُ، وقويَ اشتغالي بفنونِ العلومِ. وسمعتُ علىٰ أَبِي بَكْرٍ الدِّينَوَرِيِّ الفقهَ، وعلىٰ أبي منصورٍ ابن الجواليقيِّ اللغةَ. وتتبَّعْتُ مشايخَ الحديثِ، وانقطعتْ مجالسُ أبي عليٍّ الراذانِيِّ - يعني الذي أخذَ حلقةَ شيخِه ابنِ الزَّاغونِيِّ - واتصلتْ مجالسي؛ لكثرةِ اشتغالي بالعلمِ.

واشتهرَ أمرُ الشَّيخِ أَبِي الفَرَجِ من ذلك الوقتِ، وأخذَ في التَّصنيفِ والجمعِ. وقد كانَ بدأَ بالتَّصنيفِ من قبلِ ذلكَ.

وذكَرَ: أنَّه سَرَدَ الصومَ مدَّةً، واتَّبعَ الزُّهَّادَ، ثم رأىٰ أنَّ العلمَ أفضلُ من كلِّ نافلةٍ، فانجَمَعَ عليهِ، ونظرَ في جميعِ الفُنونِ، وألَّف فيها. وكانتْ أكثرُ علومِه يَستفِيدُهَا من الكُتبِ، ولم يُحْكِم ممارسةَ أهلِها فيها.

وعظُم شأنُ الشيخ في ولاية الوزيرِ ابن هُبيرَةَ. وكان يتكلَّم عنده في داره كلَّ جُمعة. ولمَّا وَلِي المستنجدُ الخلافةَ خلعَ عليه خلعةً مع الشيخِ عبدِ القادرِ وغيرِه من الأَكابرِ، وأذنَ له في الجلوسِ بجامعِ القصرِ.

قالَ: فتكلَّمْتُ. وكان يُحزرُ جمعُ مجلسي علىٰ الدَّوامِ بعشرةِ آلافٍ، وخمسةَ عشرَ ألفًا.

قالَ: وظهرَ أقوامٌ يتكلَّمونَ بالبدعِ ويتعصَّبونَ في المذاهبِ، فأعانني اللهُ تعالىٰ عليهم، وكانتْ كلمتُنا هي العُليا.

وكان الشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُظهر في مجالسِه مدحَ السُّنةِ، والإمامِ أحمدَ وأصحابِه، ويذمُّ من يخالفُهم، يصرِّح بمذاهِبِهم في مسائل الأُصولِ، لا سيَّما في مسألةِ القُرآنِ. وكلامُه في كُتبه الوَعظيَّة في ذلك كثيرٌ جدًّا.

وقالَ يومًا علىٰ المِنبرِ: أهلُ البدعِ يقولونَ: ما في السَّماءِ أحدٌ، ولا في المُصحفِ قرآنٌ، ولا في القبرِ نبيٌّ؛ ثلاثُ عوراتٍ لكُم.

وقدم مرةً إلىٰ بغدادَ واعظٌ يقالُ له البرويُّ، فتعصب في كلامه علىٰ الحنابلةِ كثيرًا، فلم تَطُلْ مدَّتُه حتَّىٰ هلكَ. وكان في تلك الأيامِ قد غدا ساعٍ أسودُ للشيعةِ، خرجُوا للقائهِ، فانبطَّ ووقع ميتًا، فضاقتْ صدورُهم لذلك، فجلس الشيخُ عقيبَ ذلك، وقال في أثناء كلامِه: كمْ أَبْرَقَ مبتدعٌ بأصحابِ أحمدَ وأَرْعَد، فحظي يومًا له وهو بالعيشِ الأَرْغَد، وأما أنت يا أَبْعَد، فإنْ أردتَ أن تموتَ، وإن أردتَ أن تُحْرَد، مات البرويُّ وانبطَّ الأَسْوَد.

ومن كلامِه في بعضِ المجالسِ: مَن مبلغَ أحمدَ بن حنبلٍ، إن زرعَ؛ كيف أقول ما لم يَقُل سنبل؟

وقيل له مرةً: قلِّلْ مِن ذكرِ أهل البدعِ مخافةَ الفتنِ، فأنشدَ:

أتـوبُ إليـكَ يـا رحمـنُ ممَّـا ** جنيـتُ، فقـد تعاظَمَـتِ الـذُّنوبُ
وأمَّـا مِـن هَـوىٰ لَيلَـىٰ وتَرْكـي ** زِيارَتَهـا، فـإنِّي لا أتُـوبُ

وقال له قائلٌ: ما فيكَ عيبٌ إلَّا أنَّك حَنبليٌّ، فأنشدَ:

وعيَّرنِـي الواشُـونَ أنِّـي أُحِبُّهـا ** وتلـكَ شَـكَاةٌ ظـاهرٌ عنـكَ عارُهَـا

ثم قَالَ: أهَذا عَيْبي، ولا عيبَ في وجهٍ نُقِطَ صَحْنُه بالخال. وأنشدَ:

ولا عيـبَ فـيهِم غيـرَ أنَّ سُـيوفَهم ** بِهـنَّ فُلـولٌ مِـن قـراعِ الكَتائـبِ

وكتبَ إليه رجلٌ في رقعةٍ: واللهِ، ما أستطيعُ أراكَ! فقالَ: أَعْمَشُ وشَمْسٌ؛ كيفَ يَرَاهَا؟!

ثم قَالَ: إذا خلوتُ في البيتِ غرستُ الدُّرَّ في أرضِ القراطيسِ، إذا جلستُ للناسِ دفعتُ بترياقِ العلمِ سمومَ الهَوىٰ، أحمِيكُم عن طعامِ البدعِ، وتأبَوْنَ إلَّا التخليطَ، والطبيبُ مبغوضٌ.

وكان الشيخ أَبُو الفرجِ معيدًا عند الشيخِ أبي حكيم النَّهروانِيِّ. وكان قد قرأَ عليه الفقهَ أيضًا والفرائضَ بالمدرسةِ التي بناها ابنُ السمحل بالمأمُونِيَّةِ. وكان لأبي حكيمٍ مدرسةٌ ببابِ الأزجِّ، فلما احتُضِرَ أسندَها إلي أبي الفرجِ، فأخذَها جميعًا بعدَه.

وفي خلافةِ المستضيءِ قويَ اتصالُ الشيخِ أبي الفرجِ، وصنَّف له الكتابَ الَّذي سمَّاه «المِصباح المُضيء في دولةِ المُسْتضيء»، وصنفَ كتابًا آخر لمَّا خطبَ للمستضيءِ بمصرَ، وانقطعَ أثرُ العُبيديِّين عنها، سماه: «النَّصْر علىٰ مِصْر» وعَرَضه عليه، وحَضَر عندَه، ثم أذنَ له في سنةِ ثمانٍ وستينَ أن يجلسَ للوعظِ في باب بدرٍ بحضرةِ الخليفةِ، وأعطاهُ مالًا.

قال الشيخُ: فأخذَ الناسُ أماكنَ من وقتِ الضُّحىٰ للمجلسِ بعدَ العصرِ، وكانتْ هناكَ دِكاكٌ فأُكْرِيَتْ، حتَّىٰ إنَّ الرجلَ كان يَكتَري موضعًا لنفسِه بقِراطَين وثلاثةٍ.

قالَ: وكنتُ أتكلَّمُ أسبوعًا، وأَبُو الخَير القزوينيُّ أسبوعًا، وجَمْعي عظيمٌ، وعندَه عددٌ يسيرٌ، ثم شاعَ أنَّ أميرَ المؤمنينَ لا يَحضُر إلا مجلسي، وذلكَ في الأَشْهُر الثلاثةِ.

قالَ: ثم تقدَّم إليَّ بالجلوسِ ببابِ بدرٍ يومَ عرفةَ، فحضرَ الناسُ من وقتِ الضُّحَىٰ، وكانَ الحرُّ شديدًا، والناسُ صيامٌ.

قالَ: ومن أعجبِ ما جرىٰ أن حمَّالًا حملَ علىٰ رأسِه دارَ بونةٍ من وقتِ الظُّهر إلىٰ وقت العَصر، ظلَّل بها من الشَّمس عشرةَ أنفسٍ، فأعطوه خمسَ قراريطَ، واشتُريتْ مراوحُ كثيرةٌ بضعفِ ثمنِها، وصاحَ رجلٌ يومئذٍ: قد سُرقَ منِّي الآنَ مائةُ دينارٍ في هذه الزَّحمةِ، فوقَّع له أميرُ المؤمنينَ بمائةِ دينارٍ.

قالَ: وفي هذه السَّنةِ عقدتُ المجلسَ بجامعِ المنصورِ يومَ عاشوراءَ، وحضرَ مِن الجمعِ ما حُرزَ بمائةِ ألفٍ، وجَرىٰ في سنةٍ تسعٍ مثلُ ذلكَ أيضًا.

قالَ: وسألني أهلُ الحربيَّةِ أن أعقدَ عندَهم مجلسًا للوعظِ ليلةً. فوعدتُهم ليلةَ الجُمعةِ سادسَ ربيعٍ الأولِ - يعني سنةَ تسعٍ - وانقلبتْ بغدادُ، وعبرَ أهلُها عبورًا زادَ علىٰ نصفِ شعبانَ زيادةً كبيرةً، فعبرتُ إلىٰ بابِ البصرةِ، فدخلتُها بعدَ المغربِ، فتلقَّاني أهلُها بالشُّموعِ الكثيرةِ، وصحبَني منها خلقٌ عظيمٌ، فلمَّا خرجتُ من بابِ البصرةِ رأيتُ أهلَ الحربيَّةِ قد أقبلُوا بشُموعٍ لا يمكن إحصاؤها، فأُضيفتْ إلىٰ شُموعِ أهلِ بابِ البصرةِ، فحُزِرَتْ بألفِ شمعةٍ، وما رأيتُ البرِّيَّةَ إلَّا مملُوءةً بالأضواءِ. وخرجَ أهلُ المحالِّ والنساءُ والصبيانُ ينظرونَ، وكان الزِّحامُ في البرِّيَّةِ كالزِّحامِ

بسُوقِ الثُّلاثاءِ، فدخلتُ الحربيةَ وقد امتلأَ الشارعُ وأُكْرِيَت الرواشينُ من وقتِ الضُّحىٰ، ولو قيلَ: إنَّ الذينَ خَرجوا يطلبونَ المجلسَ وسَعَوا في الصَّحراءِ بينَ بابِ البصرةِ والحربيةِ مع المُجتمعينَ في المجلسِ كانوا ثلاثمائةِ ألفٍ، ما أَبْعَدَ القائلُ.

قالَ: وفي هذا الشَّهرِ خَتَنَ الوزيرُ رئيسُ الرؤساءِ أولادَهُ، وعملَ الدَّعوةَ العَظيمةَ، وأَنْفَذَ إلي أشياءٍ كثيرةٍ، وقالَ: هذا نَصيبُكَ؛ لأنِّي علمتُ أنَّك لا تَحْضُرُ مكانًا يُغَنَّىٰ فيه.

ثم إنَّ الشيخَ أبا الفرجِ بَنىٰ مدرسةً بدربِ دينارٍ، ودرَّس بِها سنةَ سبعينَ وذكر أولَ يومِ تدريسِه بِها أربعةَ عشرَ درسًا من فُنونِ العلمِ.

قالَ: وفي هذه السنةِ انتهىٰ تَفسيري في القُرآنِ في المجلسِ علىٰ المِنبرِ، إلىٰ أن تمَّ، فسجدتُ علىٰ المنبر سجدةَ الشُّكرِ، وقلتُ: ما عرفتُ أنَّ واعظًا فسَّر القرآنَ كلَّه في مجلسِ الوعظِ منذُ نزلَ القرآنُ، ثم ابتدأتُ في ختمةٍ أفسِّرُها علىٰ الترتيبِ، واللهُ قادرٌ علىٰ الإنعامِ والإتمامِ، والزيادةِ من فضلِه.

قالَ: وتقدَّم إليَّ بالجلوسِ تحتَ المنظرةِ في رجبٍ، فتكلَّمتُ يومَ الخميسِ خامسَ رجبٍ بعدَ العصرِ، وحضرَ السلطانُ، وأخذَ الناسُ أماكنَهُم من بعدِ صلاةِ الفجرِ، وأُكْرِيَت دكاكينُ، فكانَ موضعُ كلِّ رجلٍ بقيراطٍ، حتىٰ إنه اكترىٰ دكانًا لثمانيةَ عشرَ رجلًا بثمانية عشر قيراطًا، ثم جاء رجل فأعطاهم ستةَ قراريطَ حتىٰ جلسَ معهُم. وكانَ الناسُ يقفونَ يومَ مجلِسي من بابِ بدرٍ إلىٰ بابِ النُّوبي كأنَّه العِيدُ، ينظرُ بعضُهم بعضًا، وينظرونَ قطعَ المجلسِ.

قالَ: وفي شعبانَ سلمت إليَّ المدرسةُ التي للجهةِ بنفشا، وكانتْ قد سلمتها إلىٰ أبي جعفرِ ابن الصَّباغِ، فبقي المفتاحُ معه أيامًا، ثم استعادتْ منه المفتاحَ، وسلمتْهُ إليَّ من غير طلبٍ كان منِّي، وكتبتْ في كتابِ الوقفِ: إنَّها وقفٌ علىٰ

أصحابِ أحمدَ، وأسندَتْها إليَّ، ثم كتبتْ علىٰ حائطِها اسمَ الإمامِ أحمدَ، وأنَّها مفوَّضةٌ إلىٰ ناصرِ السُّنةِ ابنِ الجوزيِّ. وتقدم إليَّ بذكرِ الدرسِ فيها. وحضرَ قاضِي القُضاةِ، وحاجبُ البابِ، وفقهاءُ بغدادَ، وخلعتْ عليَّ خلعةً، وخرجَ الدُّعاةُ بين يَدَي والخَدَمِ، ووقفَ أهلُ بغدادَ من بابِ النُّوبي إلىٰ بابِ المَدْرسةِ، كما يكونُ في العيدِ وأكثرُ. وكان علىٰ بابِ المدرسةِ ألوفٌ، وألقيتُ يومئذٍ دروسًا كثيرةً من الأصولِ والفروعِ، وكان يومًا مشهودًا لم يُر مثلُه، ودخلَ علىٰ قُلوب أهلِ المذاهبِ غمٌّ عظيمٌ. وتقدمَ ببناءِ دكةٍ لنا في جَامعِ القَصرِ. فانزَعَجَ لهذَا جماعةٌ من الأكابرِ، وقَالوا: ما جَرَتْ عادةُ الحنابلةِ بدكةٍ، فبُنيتْ، فجلستُ فيها يومَ الجمعةِ ثالثَ رمضانَ.

وذكرَ بعضُ أصحابِ أبي حنيفةَ في الإفطارِ بالأكلِ - يعني ناسيًا - واعترضتُ عليهِ يومئذٍ، وازدَحَمَتِ العوامُّ حتىٰ امتلأَ صَحْنُ الجامعِ، ولم يُمكنِ الأكثرينَ حصولَ النظرِ إلينا، وحفظ النَّاس بالرَّجَّالةِ، خوفًا من فتنةٍ، وما زالَ الزحامُ علىٰ حَلقتنا كلَّ جمعةٍ.

ثم ذكرَ مَجالِسَه سنةَ إحدىٰ وسبعينَ ببابِ بدرٍ، وحضورَ الخَليفةِ عندَه غيرَ مرةٍ، وازدحامَ الناسِ من نِصفِ اللَّيلِ. وكانَ يَعِظُ هو وأَبُو الخيرِ القَزْوينيُّ.

قَال: وبعثَ إليَّ بعضُ الأمراءِ من أقاربِ أميرِ المؤمنينَ: واللهِ، ما أحضُرُ أنا ولا أميرُ المؤمنينَ غيرَ مجلسكَ، وإنَّما تَلمَّحْنَا مجلسَ غيركَ يومًا وبعضَ يومٍ آخرَ.

قَال: حدَّثني بعضُ خَدمِ الخليفةِ: أنَّ الخليفةَ حضرَ يومًا المجلسَ مُتحاملًا؛ لمرضٍ حصلَ له، ولولا شِدَّةُ محبَّتكَ لما حَضرَ، لما كان اعْتَراهُ من الألَمِ.

وحدَّثني صاحبُ المخزنِ، قَالَ: كتبَ إليَّ أميرُ المؤمنينَ في كلام كنتُ ذكرتُهُ: هلْ وقعَ ما ذَكرَه فلانٌ بالفرضِ؟ فكتبَ أميرُ المؤمنينَ: ما عَلىٰ ما ذَكرَهُ فلانٌ مزيدٌ.

قَال: وكانَ الرَّفضُ في هَذه الأيامِ قد كَثُر، فكتبَ صاحبُ المخزنِ إلىٰ الخَليفةِ: إن لم تُقَوِّ يدَ ابنِ الجوزيِّ لم يُطِقْ دفعَ البدعِ. فكتبَ الخليفةُ بتقويةِ يَدِي، فأخبرتُ النَّاسَ ذلكَ علىٰ المنبرِ، وقلتُ: إنَّ أميرَ المؤمنينَ قد بَلغَهُ كثرةُ الرَّفضِ، وقد خرجَ توقيعُه بتقويةِ يدِي في إزالةِ البدعِ، فمَن سَمعتُموهُ من العوامِّ ينتقصُ الصحابةَ فأخبِرُوني حتَّىٰ أنقض دارَهُ، وأخلدَهُ الحبسَ، فإنْ كانَ من الوُعَّاظِ حفرته إلىٰ المثالِ. فانكفَّ الناسُ.

قَالَ: وتكلمتُ يومَ عرفةَ ببابِ بدرٍ، فكانَ مجلسًا عظيمًا، تابَ فيه خلقٌ كثيرٌ، وقُطعتْ شعورٌ كثيرةٌ، وكانَ السُّلطانُ حاضرًا، ثمَّ في يومِ عاشُوراءَ سنةَ اثنينِ وسبعينَ تكلمتُ ببابِ بدرٍ، وامتلأَ المكانُ مِن السَّحَرِ، وطلعَ الفجرُ وليسَ لأحدٍ طريقٌ، فرجعَ الناسُ وامتلأتِ الطُّرقُ بالناسِ قيامًا، يتأسَّفونَ علىٰ فَوْتِ الحُضورِ، وقامَ من يتكلَّمُ في المجلسِ، فبعثَ أميرُ المؤمنينَ فكتبت ظلَامَته.

قَال: وفي جُمادَىٰ الآخرةِ عَبَرْتُ إلىٰ جامعِ المَنْصورِ، فَوعَظْتُ فيهِ بعدَ العَصْرِ، واجتمعَ الناسُ، فحُرزَ الجَمْعُ مائةَ ألفٍ، ورجَعْنا إلىٰ نَهر مُعلَّىٰ، والناسُ مُمْتدُّونَ من بابِ البَصْرةِ كالشِّراكِ إلىٰ الجِسْر. وكَان يومًا مشهودًا.

ثم ذكرَ مَجالسَه في هذه السَّنةِ، قريبًا ممَّا تقدَّمَ ببابِ بدرٍ.

قَال: وكانَ يومُ المَجْلسِ تُغلقُ أبوابُ المكانِ بعدَ الظُّهرِ لشِدَّةِ الزِّحامِ، فإذا جِئتُ بعدَ العَصْرِ فُتحَ لي، وزَاحَمَ مَعي من يُمْكِنه أنْ يُزاحمَ.

قَال: وفي رَمَضانَ تقدَّم إليَّ بالجلوسِ في دارِ ظَهيرِ الدِّينِ صاحبُ المخزنِ، وحضرَ أميرُ المُؤمنينَ، وأُذنَ للعوامِّ في الدُّخولِ، وتَكلَّمتُ فأعجَبَهُم، حتَّىٰ قَالَ ظَهيرُ الدينِ: قد قَالَ أميرُ المؤمنينَ: ما كَان هذا الرَّجُل آدميًّا لما يَقدرُ عليهِ منَ الكلامِ!

وذكرَ مَجالسَه سنةَ ثلاثٍ وسنةَ أربعٍ بنحوِ ما تقدَّمَ.

قَال: وتكلَّمتُ يومَ عاشوراءَ سنةَ أربعٍ تحتَ منظرةِ بابِ بدرٍ، وأميرُ المؤمنينَ حاضرٌ، فقلتُ: لو أنِّي مَثلتُ بينَ يَدَي السدةِ الشَّريفةِ، لقلتُ: يا أميرَ المُؤمنينَ؛ كنْ لله سبحانَه مع حاجَتِكَ إليهِ، كمَا كَان لكَ مع غِناهُ عنكَ، إنَّه لم يَجْعَلْ أحدًا فوقَكَ، فلا تَرْضَىٰ أن يكونَ أحدٌ أشكرَ له منكَ. فتصدَّقَ أميرُ المؤمنينَ يومئذٍ بصدقاتٍ، وأطلقَ مَحْبوسينَ.

قَال: وتقدَّم أميرُ المؤمنينَ في هذِه السَّنةِ بعملِ لوحٍ يُنصبُ علىٰ قَبْر الإمامِ أحمدَ، ونُقضتِ السُّترةِ جميعِها، وبُنيتْ بآجُرٍّ مقطوعٍ جديدٍ، وبُني لها جانِبانِ، وبُني اللَّوحُ الجديدُ، وفي رَأْسِه مَكْتُوبٌ: هَذا ما أَمر بِعملِه سَيِّدُنا ومَوْلانا أميرُ المؤمنينَ الإمامُ المُستضيءُ باللهِ. وفي وَسَطِه مَكتوبٌ: هَذا قَبْر تاجِ السُّنةِ، وَحيدِ الأمَّةِ، العالِي الهِمَّةِ، العالِمِ العابِدِ، الفَقيهِ الزَّاهِدِ. زَاد القَطِيعيُّ: الوَرِع المُجاهِدِ، العامِلِ بكتابِ اللهِ، وسنةِ رَسُول اللهِ - قَال: واستعظمَ كثيرٌ من الناسِ أَمرَهُ بكتابةِ الإمامِ أحمدَ علىٰ لَوْحةٍ، فإنَّ عادةَ الخُلفاءِ لا يُقال لغيرِ الخَليفةِ: إمامٌ - الإمامِ أبي عبدِ الله أحمدَ بنِ محمَّدِ بنِ حنبلٍ الشيبانِيِّ رَحِمَهُ اللهُ. وكتبَ تاريخَ وفاتِه، وآيةَ الكُرسيِّ.

قَال: وتكلَّمتُ في جامعِ المنصورِ هَذه الأيامَ. فباتَ ليلتَهُ في الجامعِ خلقٌ كثيرٌ. وخُتمتِ الخَتماتُ. واجتمعَ الناسُ بكثرةٍ. فحُرزَ الجمعُ بمائةِ ألفٍ. وتابَ خلقٌ كثيرٌ. وقُطعتْ شُعورُهُم، ثمَّ نزلتُ فمضيتُ إلىٰ قبرِ أحمدَ. فتَبِعَني خلقٌ كثيرٌ حُرزوا بخمسةِ آلافٍ.

قَال: وبُني للشيخِ أبي الفتحِ ابنِ المنِّيِّ دِكَّةٌ في موضعِ جُلوسِهِ في الجامعِ. فتأثَّرَ أهلُ المذاهبِ من ذلكَ، وجعلَ الناسُ يقولونَ لي: هَذا بِسببكَ، فإنَّه ما ارتفعَ هذا المذهبُ عندَ السلطانِ حتَّىٰ مال إلىٰ الحنابلةِ إلا بسماعِ كلامِكَ، فشكرتُ الله تعالىٰ علىٰ ذلكَ.

ولقدْ قَالَ لي صاحبُ المخزنِ: ما يُخرجُ إليَّ شيءٌ من عندِ السلطانِ فيه ذِكركَ، إلا ويُثْنِي عليكَ، وقال له يومًا بختاجِ الخادمِ: أنتَ تَتعصَّبُ لفلانٍ؟ فقالَ له: والله ما يتعصَّبُ له سيِّدكَ إلا بقدرِ ما تَتعصَّبُ له خَمْسينَ مرةً، وما يُعْجبُهُ كلامُ غيرِهِ.

وكانَ الوزيرُ ابنُ رئيسِ الرُّؤساءِ يقولُ: ما دخلتُ قطُّ علىٰ الخَليفةِ إلا أَجْرىٰ ذكرَ فلانٍ. يَعْنيني.

قَال الشَّيخُ: وصارَ ليَ اليومَ خمسَ مدارسَ، ومائةً وخمسين مصنَّفًا في كلِّ فنٍّ، وقد تابَ علىٰ يَدِي أكثرُ من مائةِ ألفٍ، وقُطعتْ أكثر من عشرةِ آلافِ طائلةٍ، ولم يُر واعظٌ مثل جَمْعي، فقدْ حضَرَ مَجْلسي الخليفَةُ والوزيرُ، وصاحبُ المخزنِ، وكبارُ العلماءِ، والحمدُ لله علىٰ نِعَمِه.

وذكر في هذه السنة: أنه تكلم يومًا بحضرة الخليفة، وحكىٰ له موعظة شيبان للرشيد، قَالَ: وقلت له في كلامي: يا أمير المؤمنين، إن تكلمتُ خفتُ منك، وإن سكتُّ خفتُ عليك، وأنا أُقدِّم خوفي عليك علىٰ خوفي منك.

قَال ابنُ القَطِيعيِّ: سمعتُ من أثقُ بِه قَالَ: لمَّا سمعَ أميرُ المؤمنينَ المُستضيءُ ابنَ الجَوزيِّ يَنْشُدُ تحتَ دارِهِ:

سَتنقُلُكَ المَنايا عَنْ دِيارِكْ ** وَيُبْدِلُكَ الرَّدىٰ دارًا بِدارِكْ
وتَتْرُكُ ما عُنِيتَ بِه زَمانًا ** وَتَنْقُلُ مِن غِناكَ إلَىٰ افْتِقارِكْ
فَدُودُ القَبْرِ فِي عَيْنَيْكَ يَرْعَىٰ ** وَتَرْعَىٰ عَيْنُ غَيرِكَ فِي دِيارِكْ

فَجَعَلَ المُسْتضيءُ يَمْشي في قَصْرِه ويقولُ: إي واللهِ؛ «وَتَرْعَىٰ عَيْنُ غَيرِكَ فِي دِيارِكْ»؛ ويُكرِّرُها ويَبْكي حتَّىٰ اللَّيلِ.

وحاصِلُ الأمرِ: أنَّ مَجالِسَهُ الوَعْظيةَ لم يَكُنْ لها نظيرٌ، ولم يُسْمعْ بِمِثْلِها. وكانتْ عظيمةَ النفعِ، يتذكَّر بِها الغافِلُونَ، ويتعلَّمُ مِنها الجاهِلُونَ، ويتوبُ فيها المُذْنِبونَ، ويُسلِمُ فيها المُشرِكُونَ.

وقد ذَكر في «تارِيخِهِ»: أنَّه تكلَّمَ مرَّةً، فتابَ في المَجْلسِ علىٰ يَدِه نحوُ مائتَيْ رَجُلٍ، وقطعتْ شُعور مائةٍ وعشرينَ منهُم.

وقَال في آخر «كتابِ القُصَّاص والمُذَكِّرينَ» له: ما زلتُ أعظُ الناسَ وأُحرِّضُهم علىٰ التَّوبةِ والتَّقْوىٰ، فقد تابَ علَىٰ يَدِي إلىٰ أنْ جمعتُ هَذا الكتابَ أكثرَ من مائةِ ألفِ رجلٍ، وقد قطعتْ من شُعورِ الصِّبيانِ اللَّاهينَ أكثر من عَشرةِ آلافِ طائلةٍ. وأَسْلَمَ علىٰ يَدِي أكثرُ من مائةِ ألفٍ.

قَال: ولا يكادُ يُذكرُ لي حديثٌ إلا ويُمكنُني أن أقولَ: صحيحٌ أو حسنٌ أو محالٌ. ولقد أقدرُ علىٰ أن أَرْتَجِلَ المَجلسَ كلَّه من غيرِ ذِكرِ مَحفوظٍ، وربما قُرِئتْ عِندِي في المَجلسِ خَمسة عَشرة آية، فآتي علىٰ كلِّ آيةٍ بخطبةٍ تُناسبُها في الحالِ.

وقَال سِبطُه أَبُو المُظفَّر: أقلُّ ما كان يَحضُرُ مجلسَه عشرةُ آلافٍ، وربمَّا حضَر عندَه مائةُ ألفٍ، وأوقعَ الله له في القُلوبِ القَبولَ والهَيبةَ، وكانَ زاهدًا في الدُّنيا، مُتقلِّلًا منها. وسمعتُه يقولُ علىٰ المِنبرِ في آخرِ عُمُرِه: كتبتُ بإِصْبَعَيَّ هاتَيْنِ أَلْفَيْ مُجلَّدةٍ، وتابَ علىٰ يَدِي مائةُ ألفٍ، وأسلمَ علىٰ يَدِي عِشرونَ ألفِ يَهُوديٍّ ونَصرانِيٍّ.

قَال: وكانَ يَخْتمُ القرآنَ في كلِّ سبعةِ أيامٍ، ولا يَخرجُ من بيتِه إلا إلىٰ الجامعِ للجُمعةِ وللمَجْلسِ. وما مازحَ أحدًا قطُّ، ولا لعبَ مع صَبيٍّ، ولا أكلَ من جهةٍ لا يَتيقَّنُ حِلَّهَا. وما زالَ علىٰ ذلكَ الأسلوبِ حتَّىٰ توفَّاه الله تَعالَىٰ.

وقَال ابنُ القَطِيعيِّ: انتفعَ الناسُ بكلامِه، فكانَ يتوبُ في المَجلسِ الواحدِ مائةٌ وأكثرُ في بعضِ الأيامِ. وكانَ يجلسُ بجامعِ المنصورِ يومًا أو يومينِ في السَّنةِ. فتُغلقُ المحالُّ، ويُحرزُ الجمعُ بمائةِ ألفٍ.

قرأتُ بخطِّ الإمامِ ناصحِ الدينِ ابنِ الحنبليِّ الواعظِ في حقِّ الشيخِ أبي الفَرجِ: اجتمعَ فيهِ منَ العُلومِ ما لم يَجْتمعْ في غيرِه. وكانتْ مجالِسُه الوعظيةُ جامعةً للحُسنِ والإحسانِ باجتماعِ ظرافِ بغدادَ، ونظافِ الناسِ، وحُسنِ الكلماتِ المسجعةِ والمَعانِي المُودَعةِ في الألفاظِ الرَّائجةِ، وقراءةِ القرآنِ بالأصواتِ المرجِّعةِ، والنَّغماتِ المُطربةِ، وصيحاتِ الواجِدينَ، ودَمعاتِ الخاشِعينَ، وإنابةِ النَّادمينَ، وذلِّ التَّائبينَ، والإحسانِ بما يُفاضُ علىٰ المُستمعينَ، من رَحْمةِ أرحَمِ الرَّاحمينَ.

ووعَظَ وهو ابنُ عشرِ سنينَ إلىٰ أن ماتَ، ولم يشغَلْهُ عن الاشتِغالِ بالعلمِ شاغلٌ، ولا لَعِبٌ ولا لَهَا، ولا سافَرَ إلا إلىٰ مكةَ. ولقدْ كانَ فيه جَمالٌ لأهلِ بغدادَ خاصةً، وللمسلمينَ عامةً، ولمذهَبِ أحمدَ منهُ ما لصَخْرَةِ بيتِ المقدسِ من المقدسِ.

حضرتُ مجالسَهُ الوعظيةَ ببابِ بدرٍ عندَ الخليفةِ المستضيءِ، ومجالسَهُ بدَرْبِ دينارٍ في مدرسَتِه، ومجالسَهُ ببابِ الأزجِ علىٰ شاطئِ دجلةَ، وسمعتُ عليهِ «مناقبَ الإمامِ أحمدَ»، وبعثتُ إليه من دمشقٍ، فنقلَ سماعي بخطِّه وسيَّره إليَّ، حضرتُ معه في دَعْوتينِ. فكانَ طيبَ النَّفسِ علىٰ الطَّعامِ. وكانتْ مجالسُهُ أكثرَ فائدةً من مُجالسَتِه.

وذكرَه الحافظُ ابنُ الدُّبيثيِّ في «ذيلِه علىٰ تاريخِ ابنِ السَّمعانِيِّ»، فقالَ: شيخُنا الإمامُ جمالُ الدينِ ابنُ الجَوزيِّ، صاحبُ التَّصانيفِ في فُنونِ العلمِ: من التفاسِيرِ، والفقهِ، والحديثِ، والوعظِ، والرَّقائقِ، والتَّواريخِ، وغيرِ ذلكَ، وإليهِ انْتَهتْ معرفةُ الحديثِ وعلومِهِ، والوقوفُ علىٰ صحيحِهِ من سقيمِهِ، وله فيه المصنَّفاتُ من المسانيدِ والأبوابِ

والرجالِ، ومعرفةُ ما يُحتجُّ به في أبوابِ الأحكامِ والفقهِ، وما لا يُحتجُّ به من الأحاديثِ الواهيةِ الموضوعةِ، والانقطاعِ والاتصالِ، وله في الوعظِ العبارةُ الرائقةُ، والإشاراتُ الفائقةُ، والمعاني الدقيقةُ، والاستعارةُ الرشيقةُ. وكانَ من أحسنِ الناسِ كلامًا، وأتمِّهم نظامًا، وأعذَبِهم لسانًا، وأجودِهم بيانًا، وبوركَ له في عُمره وعَمله؛ فروىٰ الكثيرَ، وسمعَ الناسُ منه أكثرَ من أربعينَ سنةً، وحدَّثَ بمصنفاتِهِ مِرارًا.

قَال: وأَنْشدنِي بِواسطٍ لنفسِهِ:

يَـــا سَـــاكِنَ الـــدُّنيا تَأَهَّـــبْ ** وانْتَظِـــرْ يَـــوْمَ الفِـــرَاقِ
وَأَعِـــدَّ زَادًا للرَّحِيـــلِ ** فَـــسَوْفَ يُحْـــدَىٰ بالرِّفَـــاقِ
وَابْـــكِ الـــذُّنُوبَ بِـــأَدْمُعٍ ** تَنْهَـــلُ مِـــنْ سُـــحُبِ المَـــآقِي
يَـــا مَـــنْ أَضَـــاعَ زَمَانَـــهُ ** أَرَضِـــيتَ مَـــا يَفْنَـــىٰ بِبَـــاقِ

قَال: وأَنْشدنِي:

إِذَا رَضِـــيتَ بِمَيْـــسُورٍ مِـــن القُـــوتِ ** أَصْبَحْتَ فِي النَّاسِ حُرًّا غَيْرَ مَمْقُوتِ
يَـا قُوتُ نَفْسِي إِذَا مَـا دَرَّ خُلقكِ لِي ** فَلَـــسْتُ آسَـــىٰ عَلَـــىٰ دُرٍّ وَيَـــاقُوتِ

وقَال الموفَّق عبدُ اللطيفِ: كان ابن الجوزيِّ لطيفَ الصورةِ، حلوَ الشمائلِ، رخيمَ النغمةِ، موزونَ الحركاتِ والنغماتِ، لذيذَ المفاكَهةِ، يحضُر مجلسَه مائةُ ألفٍ أو يزيدونَ، لا يضيِّع من زمانه شيئًا، يكتبُ في اليوم أربعةَ كراريسَ، ويرتفعُ له كلَّ سنةٍ من كتابتِه ما بينَ خمسينَ مجلدًا إلىٰ ستينَ.

وله في كلِّ علمٍ مشاركةٌ، لكنهُ كان في التفسيرِ من الأعيانِ، وفي الحديثِ من الحفاظِ، وفي التاريخِ من المتوسِّعينَ، ولدَيْهِ فقهٌ كافٍ. وأما السَّجعُ الوَعْظيُّ فله فيه ملكةٌ قويةٌ؛ إن ارتَجَلَ أجادَ، وإن روَّىٰ أبدعَ.

وله في الطبِّ كتابُ «اللقط» مجلدانِ. وكان يراعي حفظ صحتِه، وتلطيفَ مزاجِه، وما يفيدُ عقلِه قوةً، وذهنِه حِدَّةً. جُلُّ غذائهِ الفراريجُ والمزاويرُ. ويعتاضُ عن الفاكهةِ بالأشربةِ والمعجوناتِ. ولباسُه أفضلُ لباسٍ: الأبيضُ الناعمُ المطيَّبُ.

ونشأَ يتيمًا علىٰ العفافِ والصلاحِ. وله ذهنٌ وقادٌ، وجوابٌ حاضرٌ، ومُجونٌ لطيفةٌ، ومداعباتٌ حلوةٌ، لا ينفكُّ من جاريةٍ حسناءَ.

ومعَ هذا؛ فللناسِ فيهِ رَحِمَهُ اللَّهُ كلامٌ من وُجوهٍ.

منها: كثرةُ أغلاطِه في تصانيفِه. وعُذرُه في هذا واضحٌ، وهو أنه كان مكثرًا من التصانيفِ، فيصنفُ الكتابَ ولا يعتبرُه، بل يشتغلُ بغيرِه. وربَّما كتبَ في الوقتِ الواحدِ من تصانيفَ عديدةٍ. ولولا ذلك لم يجتمع له هذه المصنفاتُ الكثيرةُ. ومع هذا فكانَ تصنيفُه في فنونٍ من العلومِ بمنزلةِ الاختصارِ من كتبٍ في تلكَ العلومِ، فينقلُ من التصانيفِ من غير أن يكونَ متقنًا لذلك العلمِ من جهةِ الشيوخِ والبحثِ، ولهذا نُقل عنه أنه قَالَ: أنا مُرتِّبٌ، ولستُ بمصنِّفٍ.

ومنها: ما يوجد في كَلامِه من الثَّناءِ والترفُّعِ والتعاظُمِ، كثرةِ الدَّعاوَىٰ. ولا ريبَ أنه كانَ عندَه من ذلكَ طَرفٌ، واللهُ يسامِحُهُ.

ومنها - وهو الذي من أجلِه نَقَم جماعةٌ من مشايخِ أصحابِنا وأئمتِهِم من المَقَادِسَةِ والعلْثِيِّينَ -: من ميلِه إلىٰ التأوِيلِ في بعضِ كلامِه، واشتدَّ نُكْرُهُمْ عليهِ في ذلكَ. ولا ريبَ أن كلامَه في ذلكَ مضطربٌ مختلفٌ، وهو وإن كان مطلعًا علىٰ الأحاديثِ والآثارِ في هذا البابِ، فلم يكُن خبيرًا بحلِّ شُبهِ المتكلمينَ، وبيانِ فسادِها.

وكان معظمًا لأبي الوفاء ابن عقيل، يتابعُه في أكثرِ ما يجدُ في كلامِه، وإن كان قد ردَّ عليه في بعضِ المسائلِ. وكان ابنُ عقيلٍ بارعًا في الكلامِ، ولم يكن تامَّ الخبرةِ

بالحديثِ والآثارِ؛ فلهذا يضطربُ في هذا البابِ، وتتلوَّنُ فيه آراؤه. وأَبُو الفرجِ تابعٌ له في هذا التلوُّنِ.

قَال الشيخُ موفقُ الدين المقدسيُّ: كان ابنُ الجوزيِّ إمامَ أهل عصره في الوعظِ، وصنفَ في فنونِ العلم تصانيفَ حسنةً. وكان صاحبَ قبولٍ. وكان يدرسُ الفقهَ ويصنفُ فيه. وكانَ حافظًا للحديثِ. وصنفَ فيه، إلا أننا لم نرضَ تصانيفَه في السنةِ، ولا طَريقتَه فيها. انتهىٰ.

وأما تصانيفُه فكثيرةٌ جدًّا. ومن أحسنِ تصانيفِه: ما يجمعُه من أخبارِ الأولينَ، مثلُ «المناقبِ» التي صنَّفها؛ فإنه ثقةٌ، كثيرُ الاطلاعِ علىٰ مصنفاتِ الناسِ، حسنُ الترتيبِ والتبويبِ، قادرٌ علىٰ الجمعِ والكتابةِ. وكان من أحسنِ المصنفينَ في هذه الأبوابِ تمييزًا؛ فإن كثيرًا من المصنفينَ فيه لا يميزُ الصدقَ فيه من الكذبِ.

قَال ابنُ القَطِيعيِّ في «تاريخه»: ناولَني ابن الجوزيِّ كتابًا بخطِّه فيه فهرست التصانيفِ لي. وأظنُّ ابنُ القَطيعي زاد فيها أشياء أُخر:

قال أَبُو الفرج: أول ما صنفت وألفت -ولي من العمر نحوُ ثلاث عشرة سنة-: «ثبت التصانيفِ المتعلقةِ بالقرآنِ وعلومِهِ»، كتاب «المُغني في التفسير» أحد وثمانون جزءًا، كتاب «زاد المَسير في علم التفسير» أربع مجلدات، كتاب «تَيسير البيان في تفسير القرآن» مجلد، كتاب «تذكرة الأَرِيب في تفسير الغريب» مجلد، و«غريب الغريب» جزء، كتاب «نزهة العيون النواظر في الوجوه والنظائر» مجلد. واختصرت من هذا الكتاب كتابًا يسمىٰ بـ «الوجوه النواضر في الوجوه والنظائر» مجلد، كتاب «الإشارة إلىٰ القراءة المختارة» أربعة أجزاء، كتاب «تذكرة المنتبه في عيون المشتبه» جزء، كتاب «فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» مجلد، كتاب «ورد الأغصان في فنون الأفنان» جزء، كتاب «عمدة الراسخ في معرفة المنسوخ

والناسخ» خمسة أجزاء، «المصفىٰ بأكف أهل الرسوخ من علم الناسخ والمنسوخ» جزء، «ثبت التصانيف في أصول الدين»، كتاب «منتقد المعتقد» جزء، كتاب «منهاج الوصول إلىٰ علم الأصول» خمسة أجزاء، كتاب «بيان غفلة القائل بقدم أفعال العباد» جزء، «غوامض الإلاهيات» جزء، «مسلك العقل» جزء، «منهاج أهل الإصابة»، «السر المصون» مجلد، «دفع شبه التشبيه» أربعة أجزاء، «الرد علىٰ المتعصب العنيد»، «ثبت التصانيف في علم الحديث والزهديات»، كتاب «جامع المسانيد بألخص الأسانيد»، كتاب «الحدائق» أربعة وثلاثون جزءًا، كتاب «نفي النقل» خمسة أجزاء، كتاب «الحدائق» أربعة وثلاثون جزءًا، كتاب «المجتبي» مجلد، كتاب «النزهة» جزآن، كتاب «عيون الحكايات» مجلد، كتاب «ملتقط الحكايات» ثلاثة عشر جزءًا، كتاب «إرشاد المريدين في حكايات السلف الصالحين» مجلد، كتاب «روضة الناقل» جزء، كتاب «غرر الآثر» ثلاثون جزءًا، كتاب «التحقيق في أحاديث التعليق» مجلدان، كتاب «المديح» سبعة أجزاء، كتاب «الموضوعات من الأحاديث المرفوعات» مجلدان، كتاب «العلل المتناهية في الأحاديث الواهية» مجلدان، كتاب «الكشف لمشكل الصحيحين» أربع مجلدات، كتاب «الضعفاء والمتروكين» مجلد، كتاب «إعلام العالم بعد رسوخه بحقائق ناسخ الحديث ومنسوخه» مجلد، كتاب «أخبار أهل الرسوخ في الفقه والتحديث بمقدار المنسوخ من الحديث» جزء، كتاب «السهم المصيب» جزآن، «أخاير الذخائر» ثلاثة أجزاء، «الفوائد عن الشيوخ» ستون جزءًا، «مناقب أصحاب الحديث» مجلد، «موت الخضر» مجلد، «مختصره» جزء، «المشيخة» جزء، «المسلسلات» جزء، «المحتسب في النسب» مجلد، «تحفة الطلاب» ثلاثة أجزاء، «تنوير مدلهم الشرف» جزء، «الألقاب» جزء.

إلىٰ هنا. زاده ابن القطيعي: كتاب «فضائل عمر بن الخطاب» مجلد، «فضائل عمر بن عبد العزيز» مجلد، «فضائل سعيد بن المسيب» مجلد، «فضائل الحسن البصري» مجلد، «مناقب الفضيل بن عياض» أربعة أجزاء، «مناقب بِشْر الحافي» سبعة أجزاء، «مناقب إبراهيم بن أَدْهَم» ستة أجزاء، «مناقب سفيان الثوري» مجلد، «مناقب أحمد بن حنبل» مجلد، «مناقب معروف الكرخي» جزآن، «مناقب رابعة العدوية» جزء، «مثير العزم الساكن إلىٰ أشرف الأماكن» مجلد، «صفوة الصفوة» خمس مجلدات، «منهاج القاصدين» أربع مجلدات، «المختار من أخبار الأخيار» مجلد، «القاطع لمحال للحجاج بمحال الحجاج» جزء، «عجالة المنتظر، لشرح حال الخضر» جزء، كتاب «النساء وما يتعلق بآدابهن» مجلد، كتاب «علم الحديث المنقول في أن أبا بكر أَمَّ الرسول» جزء، كتاب «الجوهر»، كتاب «المغلق»، «ثبت ما يتعلق بالتاريخ»، «تلقيح فهوم أهل الأثر، في عيون التواريخ والسير» مجلد، كتاب «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» عشر مجلدات، كتاب «شذور العقود، في تاريخ المعهود» مجلد، كتاب «طرائف الظرائف، في تاريخ السوالف» جزء، «مناقب بغداد» مجلد، «ثبت المصنفات في الفقه»، «الإنصاف في مسائل الخلاف»، كتاب «جنة النظر، وجنة النظر» وهي التعليقة الوسطىٰ، كتاب «معتصر المختصر في مسائل النظر» وهي دون تلك، كتاب «عمد الدلائل، في مشتهر المسائل» وهي التعليقة الصغرىٰ، كتاب «المذهب في المذهب»، «مسبوك الذهب» مجلد، كتاب «النبذة» جزء، كتاب «العبادات الخمس» جزء، كتاب «أسباب الهداية لأرباب البداية» مجلد، كتاب «كشف الظلمة عن الضياء في رد دعوىٰ»، كتاب «رد اللوم والضيم في صوم يوم الغيم»، «ثبت المصنفات في علم الوعظ»، كتاب «اليواقيت في الخطب» مجلد، «المنتخب في النوب» مجلد، «منتخب المنتخب» مجلد.

مصنفاته في الوعظ أكثر من مائة مجلدة؛ قاله ابن القادسي: «منتخب المنتخب» مجلد، «نسيم الرياض» مجلد، «اللؤلؤ» مجلد، «كنز المذكر» مجلد، كتاب «الأزج» مجلد، كتاب «اللطائف» مجلد، كتاب «كنوز الرموز» مجلد، كتاب «المقتبس» مجلد، «زين القصص» مجلد، «موافق المرافق» مجلد، «شاهد ومشهود» مجلد، «واسطات العقود من شاهد ومشهود» مجلد، «اللهب» جزآن، «المدهش» مجلدان، «صبا نجد» جزء، «محادثة العقل» جزء، «لقط الجمان» جزء، «معاني المعاني» جزء، «فتوح الفتوح» مجلد، «التعازي الملوكية» جزء، «العقد المقيم» جزء، كتاب «إيقاظ الوسنان من الرقدات بأحوال الحيوان والنبات» جزآن، «نكث المجالس البدرية» جزآن، «نزهة الأديب» جزآن، «منتهىٰ المنتهىٰ» مجلد، «تبصرة المبتدئ» عشرون جزءًا، كتاب «الياقوتة» جزآن، كتاب «تحفة الوعاظ» مجلد، «ثبت تصانيف في فنون ذم الهوىٰ» مجلدان، «صيد الخاطر» خمسة وستون جزءًا، كتاب «أحكام الإشعار، بإحكام الإشعار» عشرون جزءًا، كتاب «القصاص والمذكرين»، كتاب «تقويم اللسان» مجلد، كتاب «الأذكياء» مجلد، «الحمقىٰ» مجلد، «تلبيس إبليس» مجلدان، «لقط المنافع في الطب» مجلدان، «الشيب والخضاب» مجلد، «أعمار الأعيان» جزء، «الثبات عند الممات» جزآن، «تنوير الغبش، في فضل السود والحبش» مجلد، «الحث علىٰ حفظ العلم، وذكر كبار الحفاظ» جزء، «أشراف الموالي» جزآن، كتاب «إعلام الأحياء، بأغلاط الإحياء»، كتاب «تحريم المحل المكروه» جزء، كتاب «المصباح المضيء لدعوة الإمام المستضيء» مجلد، كتاب «عطف العلماء علىٰ الأمراء، والأمراء علىٰ العلماء» جزء، كتاب «النصر علىٰ مصر» جزء، «المجد العضدي» مجلد، «الفجر النوري» مجلد، «مناقب الستر الرفيع» جزء، «ما قلته من الأشعار» جزء، «المقامات» مجلد، «من رسائلي» جزء، «الطب الروحاني» جزء.

فهذا ما نقله ابن القطيعي من خطه، وقرأهَ عليه، وزاد فيه. ومع هذا، فلأبي الفرج تصانيف كثيرة غير ما ذكر في هذا الفهرست، كأنه صنفها بعد ذلك.

فمنها: كتاب «بيان الخطإ والصواب عن أحاديث الشهاب» ستة عشر جزءًا، كتاب «الباز الأشهب المنقض علىٰ من خالف المذهب» وهو تعليقه في الفقه كبير، كتاب «الوفا بفضائل المصطفىٰ ﷺ» مجلدان، كتاب «النور في فضائل الأيام والشهور» مجلد، «تقريب الطريق الأبعد، في فضائل مقبرة أحمد»، كتاب «مناقب الإمام الشافعي»، كتاب «العزلة»، كتاب «الرياضة»، كتاب «منهاج الإصابة في محبة الصحابة»، «فنون الألباب»، «الظرفاء والمتحابين»، «تقويم الأسنان»، «مناقب أَبِي بَكْرٍ» مجلد، «مناقب علي» مجلد، «فضائل العرب» مجلد، «درة الإكليل في التاريخ» أربع مجلدات؛ ذكره سبطه، «الأمثال» مجلد، «المنفعة في المذاهب الأربعة» مجلدان، «المختار من الأشعار» عشر مجلدات، «رؤوس القوارير» مجلدان، «المرتجل في الوعظ» مجلد كبير، «نسيم الرياض» مجلد، «ذخيرة الواعظ» أجزاء، «الزجرُ المخوف»، «الأنس والمحبة»، «المطرب الملهب»، «الزند الوري في الوعظ الناصري» جزآن، «الفاخر في أيام الإمام الناصر» مجلد، «المجد الصلاحي» مجلد، «لغة الفقه» جزآن. وقيل: إن له غيره، «عقد الخناصر في ذم الخليفة الناصر»، وكتاب «في ذم عبد القادر»، «غريب الحديث» مجلد، «ملح الأحاديث» جزآن، «الفصول الوعظية علىٰ حروف المعجم»، «سلوة الأحزان» عشر مجلدات، «المعشوق في الوعظ»، «المجالس اليوسفية في الوعظ» كتبها لابنه يوسف، «الوعظ المقبري» جزء، «قيام الليل» ثلاثة أجزاء، «المحادثة» جزء، «المناجاة» جزء، «زاهر الجواهر في الوعظ» أربعة أجزاء، «كنز المذكر»، «النحاة الخواتيم» جزآن، «المرتقىٰ لمن اتقىٰ»، وتصانيف أخر غير هذه.

وسمعت أن له حواشي علىٰ «صحاح الجوهري»، وما أخذ عليها. واختصر «فنون ابن عقيل» في بضعة عشر مجلدًا.

قال الحافظ الذهبي: ما علمت أن أحدًا من العلماء صنف ما صنف هذا الرجل.

ومن لفظ كلامه الحسن في المجالس:

قال يومًا وقد طوب أهل مجلسه: فهمتم. فهمتم. وقام إليه سائل، فقال: كيف أصادق من ذا وقته. فقال: ما ذا وقته.

وقال يومًا: شهوات الدنيا أنموذج، والأنموذج يعرض ولا يقبض.

وقال مرة: من وقف علىٰ صراط الاستقامة، وبيده ميزان المراقبة، ومحك الورع يستعرض أعمال النفس، ويرد البهرج إلىٰ كير التوبة؛ سلم من رد الناقد يوم التنقيض.

وقال يومًا: بقايا الشهوات في سوق الهوىٰ متبهرجات، يمسكن ثياب الطبع، فإن خرج الزاهد من بيت عزلته خاطر بذنوبه.

وسأله رجل يومًا: أيما أفضل، أُسَبِّحُ، أمْ أستَغْفِر؟ فقال: الثوب الوسخ أحوج إلىٰ الصابون من البخور.

وقال في حديث «أعمار أمتي ما بين الستين إلىٰ السبعين»: إنما طالت أعمار الأوائل لطول البادية، فلما شارف الركب بلد الإقامة. قيل: حُثُّوا المطي.

ومن كلامه الحسن: من قنع طاب عيشه. ومن طمع طال طيشه.

وقال لصاحب له: أنت في أوسع العذر من المتأخر عني لثقتي بك، وفي أضيقه من شوقي إليك.

وسأله سائل فأجاب، فقال السائل: ما فهمتُ، فأنشد:

عَلـيَّ نَـصْبُ المَعَـانِي فِـي مَنَاصِـبِهَا ** فَـإِنْ كَبَّـتْ دُونَهـا الأَفْهَـامُ لَـمْ أُلَـمِ

وسئل: وكيف ضرب عمر بالدرَّة الأرض. فقال: الخائن خائف، والبريء جريء.

وذكر الوفاء، فقال: ما أعرف الوفيَّ، وما فيَّ.

وتاب على يده يومًا بعض الخدم، فقال: لما عدم آلة الشهوة صلح لصحبة الملوك. فخرج الخادم على وجهه، فقال: من يعطيه قصة يوصلها؟ وقال: الدنيا دار الإله، والمتصرف في الدار بغير أمر صاحبها لص.

وقيل له: إن فلانًا وصى عند موته. فقال: يا مفرطين؛ ما تطينون سطوحكم إلا في كانون.

وسأله سائل: أيجوز أن أفسح لنفسي في مباح الملاهي؟ فقال: عند نفسك من الغفلة ما يكفيها. فلا تشغلها بالملاهي ملاهي.

قال يومًا في قول فرعون: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾ [الزخرف: ٥١] ويحه! افتخر بنهر ما أجراه، ما أجراه.

وقرئ بين يديه: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ [السجدة: ١٦] فقال: لا تحلوا، رزمة رفيعة، فما عندنا مشترى.

وسئل يومًا: ما تقول في الغناء. فقال: أقسم بالله لهوَ لَهْوٌ.

وقال: ما عَزَّ يوسف إلا بترك ما ذل به ما عز.

وقال: ما نفشت غنم العيون النواظر في زروع الوجوه النواضر إلا وأغير على السرح.

وقال: المتعرض للنبلة أبله.

وقرئ بين يديه يومًا: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن: ٢٦] فقال: والله هذا توقيع بخراب البيوت.

وقال يومًا في مناجاته: إلهي لا تعذب لسانًا يخبر عنك، ولا عينًا تنظر إلىٰ علوم تدل عليك، ولا قدمًا تمشي إلىٰ خدمتك، ولا يدًا تكتب حديث رسولك، فبعزتك لا تدخلني النار؛ فقد علم أهلها أني كنت أذبُّ عن دينك.

ومنه: ارحم عبرة ترقرق علىٰ ما فاتها منك. وكبدًا تحترق علىٰ بعدها عنك.

إلهي؛ علمي بفضلك يطمعني فيك، ويقيني بسطوتك يؤيسني منك، وكلما رفعت ستر الشوق إليك، أمسكه الحياء منك.

إلهي؛ لك أذل، وبك أذل، وعليك أُدُل. وأنشد:

أَحْيَىٰ بِذِكْرِكَ سَاعَةً وَأَمُوتُ ** لَوْلَا التَّعَلُّلُ بِالمُنَىٰ لَفَنِيتُ

وللشيخ أبي الفرج أشعار حسنة كثيرة. قَالَ أَبُو شامة: قيل: إنها عشر مجلدات.

فمما أنشده عنه القطيعي:

وَلَمَّا رَأَيْتُ دِيَارَ الصَّفَا ** أَقْوَتَ مِن إِخْوانِ أَهْلِ الصَّفَاءِ

سَعَيْتُ إِلَىٰ سَدِّ بَابِ الوِدَادِ ** وَأَحْزَنَ قَلْبِي وَفَاةُ الوَفَاءِ

فَلَمَّا اصْطَحَبْنَا وعَاشَرْتُكُمْ ** عَلِمْتُ أَنَّ رَأْيِي وَرَائِي

قرأ علىٰ الشيخ أبي الفرج العلم جماعة، منهم طلحة العلثي، ومنهم أبو عبد الله ابن تيمية خطيب حران، وذكر في أول تفسيره أنه قرأ عليه كتابه «زاد المسير في التفسير» قراءة بحث ومراجعة.

وسمع الحديث وغيره من تصانيفه منه خلق لا يحصون كثرة من الأئمة والحفاظ والفقهاء وغيرهم.

وروىٰ عنه خلق، منهم ولده الصاحب محيي الدين، وسبطه أَبُو المظفر الواعظ، والشيخ موفق الدين، والحافظ عبد الغني، وابن الدبيثي، وابن القطيعي، وابن النجار، وابن خليل، وابن عبد الدائم، والنجيب عبد اللطيف الحراني، وهو خاتمة أصحابه بالسماع.

وروىٰ عنه آخرون بالإجازة، آخرهم الفخر علي بن البخاري.

وقد نالته محنة في آخر عمره رَحِمَهُ ٱللَّهُ، **وحديثها يطول:**

وملخصها: أن الوزير ابن يونس الحنبلي كان في ولايته قد عقد مجلسًا للركن عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر الجيلي، وأحرقت كتبه. وكان فيها من الزندقة وعبادة النجوم ورأي الأوائل شيء كثير، وذلك بمحضر من ابن الجوزي وغيره من العلماء، وانتزع الوزير منه مدرسة جده، وسلمها إلىٰ ابن الجوزي.

فلما ولي الوزارة ابن القصاب - وكان رافضيًّا خبيثًا - سعىٰ في القبض علىٰ ابن يونس، وتتبع أصحابه، فقال له الركن: أين أنت عن ابن الجوزي؛ فإنه ناصبي، ومن أولاد أَبِي بَكْرٍ؛ فهو من أكبر أصحاب ابن يونس، وأعطاه مدرسة جدي، وأحرقت كتبي بمشورته. فكتب ابن القصاب إلىٰ الخليفة الناصر - وكان الناصر له ميل إلىٰ الشيعة، ولم يكن له ميل إلىٰ الشيخ أبي الفرج، بل قد قيل: إنه كان يقصد أذاه، وقيل: إن الشيخ ربما كان يعرض في مجالسه بذم الناصر - فأمر بتسليمه إلىٰ الركن عبد السلام، فجاء إلىٰ دار الشيخ وشتمه، وأغلظ عليه، وختم علىٰ كتبه وداره، وشتت عياله.

فلما كان في أول الليل حُمل في سفينة وليس معه إلا عدوه الركن، وعلىٰ الشيخ غلالة بلا سراويل، وعلىٰ رأسه تخفيفة، فأحدر إلىٰ واسط - وكان ناظرُها شيعيًّا - فقال له الركن: مكِّنِّي من عدوي لأرميه في المطمورة، فزبره، فقال: يا زنديق، ارميه بقولك، هات خط الخليفة، والله لو كان من أهل مذهبي لبذلت روحي، ومالي في خدمته. فعاد الركن إلىٰ بغداد.

قال ابن القادسي: لما حضروا واسط جُمع الناس، وادعىٰ ابن عبد القادر علىٰ الشيخ أنه تصرف في وقف المدرسة، واقتطع من مالها كذا وكذا. وكذب فيما ادعاه، وأنكر الشيخ، وصدق وبر، أفرد للشيخ دار بدرب الديوان، وأفرد له من يخدمه، وبقي الشيخ محبوسًا بواسط في دار بدرب الديوان، وعلىٰ بابها بواب. كان بعض الناس يدخلون عليه، ويستمعون منه، ويملي عليهم. كان يرسل أشعارًا كثيرة إلىٰ بغداد. وأقام بها خمس سنين يخدم نفسه بنفسه، ويغسل ثوبه ويطبخ، ويستقي الماء من البئر، ولا يتمكن من خروج إلىٰ حمام ولا غيره، وقد قارب الثمانين. ويقال: إنه بقي خمسة أيام في السفينة حتىٰ وصل إلىٰ واسط، لم يأكل فيها طعامًا.

وذُكر عنه أنه قَالَ: قرأت بواسط مدة مقامي بها كل يوم ختمة، ما قرأت فيها سورة يوسف؛ من حزني علىٰ ولدي يوسف.

والذي ذكره أَبُو الفرج ابن الحنبلي عن طلحة العلثي، أن الشيخ كان يقرأ في تلك المدة ما بين المغرب العشاء ثلاثة أجزاء أو أربعة من القرآن. وبقي علىٰ ذلك من سنة تسعين إلىٰ سنة خمس وتسعين، فأُفرج عنه، وقدم إلىٰ بغداد، وخرج خلق كثير يوم دخوله لتلقيه، وفرح به أهل بغداد فرحًا زائدًا، ونودي له بالجلوس يوم السبت، فصلىٰ الناس الجمعة، وعبروا يأخذون مكانات موضع المجلس عند تربة أم الخليفة. فوقع تلك الليلة مطر كثير ملأ الطرقات، فأحضر في الليل فراشون وروز جارية، فنظفوا موضع الجلوس، وفرشوا فيه دقاق الجص والبواري، ومضىٰ

الناس وقت المطر إلىٰ قبر معروف تحت الساباط، حتىٰ سكن المطر، ثم جلس الشيخ بكرة السبت وعبر الخلق، وحضر أرباب المدارس والصوفية ومشايخ الربط، وامتلأت البرية حتىٰ ما كان يصل صوت الشيخ إلىٰ آخرهم.

وكان السبب في الإفراج عن الشيخ: أن ولده محيي الدين يوسف ترعرع وأنجب، وقرأ الوعظ ووعظ، وتوصل وساعدته أم الخليفة، وكانت تتعصب للشيخ أبي الفرج، فشفعت فيه عند ابنها الناصر، حتىٰ أمر بإعادة الشيخ، فعاد إلىٰ بغداد، وخلع عليه، وجلس عند تربة أم الخليفة للوعظ، وأنشد:

شقينا بالنوىٰ زمنًا فلما ** تلاقينا كأنا ما شقينا

سخطنا عندما جنت الليالي ** فما زالت بنا حتىٰ رضينا

سعدنا بالوصال وكم شقينا ** بكاسات الصدود وكم فَنِينا

فمن لم يحي بعد الموت يومًا ** فإنا بعدما متنا حيينا

ولم يزل الشيخ علىٰ عادته الأولىٰ في الوعظ ونشر العلم وكتابته إلىٰ أن مات.

قال سبطه أَبُو المظفر: جلس جدي يوم السبت سابع شهر رمضان - يعني سنة سبع وتسعين وخمسمائة - تحت تربة أم الخليفة المجاورة لمعروف الكرخي، وكنت حاضرًا، فأنشد أبياتًا قطع عليها المجلس، وهي هذه:

اللهَ أسأل أن يطول مدتي ** وأنال بالإنعام ما في نيتي

لي همة في العلم ما من مثلها ** وهي التي جَنت النحول هي التي

حلفت من الفلق العظيم إلىٰ المنىٰ ** دعيت إلىٰ نيل الكمال فلبَّتِ

كم كان لي من مجلس لو شبهت ** حالاته لتشبهت بالجنةِ

اشتاقه لما مضت أيامه ** علا تعذر ناقة إن حنتِ

يـا هـل للـيلات بجمـع عـودة ** أم هـل إلـىٰ وادي منـىٰ مـن نظـرةِ
قد كان أحلىٰ من تصاريف الصبي ** ومـن الحمـام مغنيًـا في الأيكـةِ
فيـه البـديهات التـي مـا نالهـا ** خلـق بغيـر مخمـر ومبيـتِ
برجاحـة وفـصاحة وملاحـة ** تقـضي لهـا عـدنان بالعربيـةِ
وبلاغـة وبراعـة ويراعـة ** ظـن النبـاتي أنهـا لـم تنبـتِ
وإشـارة تبكـي الجنيـد وصـحبه ** في رقـة مـا نالهـا ذو الرمـةِ

قال أَبُو شامة: هذه الأبيات أظنها كان نظمها في أيام محنته، إذْ كان محبوسًا بواسط، فمعانيها دالة علىٰ ذلك. والله أعلم.

ثم قَالَ أَبُو المظفر: ثم نزل عن المنبر، فمرض خمسة أيام، وتوفي ليلة الجمعة بين العشاءين في داره بقطفتنا.

قال: وحكت لي والدتي أنها سمعته يقول قبل موته: إيش أعمل بطواويس؟! يرددها. قد جئتم لي هذه الطواويس. وحضر غسله شيخنا ضياء الدين ابن سكينة وضياء الدين ابن الجبير وقت السحر. واجتمع أهل بغداد، وغلقت الأسواق، وجاء أهل المحال، وشددنا التابوت بالحبال، وسلمناه إليهم، فذهبوا به إلىٰ تحت التربة مكان جلوسه، فصلىٰ عليه ابنه أبو القاسم عليه اتفاقًا؛ لأن الأعيان لم يقدروا علىٰ الوصول إليه، ثم ذهبوا به إلىٰ جامع المنصور، فصلوا عليه، وضاق بالناس، وكان يوما مشهودًا، لم يصل إلىٰ حفرته عند قبر الإمام أحمد بن حنبل إلىٰ وقت صلاة الجمعة.

وكان في تموز، وأفطر خلق كثير ممن صحبه، رموا أنفسهم في خندق الطاهرية في الماء، وما وصل إلىٰ حفرته من الكفن إلا القليل، ونزل في الحفرة والمؤذن يقول:

الله أكبر، وحزن الناس عليه حزنًا شديدًا، وبكوا عليه بكاء كثيرًا، وباتوا عند قبره طول شهر رمضان يختمون الختمات بالقناديل والشموع والجماعات.

قال: ورآه تلك الليلة المحدث أحمد بن سلمان الحربي علىٰ منبر من ياقوت مُرصَّع بالجوهر، والملائكة جلوس بين يديه، والحق تعالىٰ حاضر يسمع كلامه.

قلت: وأنبأني أَبُو الربيع علي بن عبد الصَّمد بن أحمد بن أبي الجيش عن أبيه قَالَ: قَالَ عفيف الدين معتوق القليوبي: رأيت فيما يرىٰ النائم قائلًا يقول:

لعمرك قد أوذي وعطل منبر ** وأعيا علىٰ المستفهمين جوابُ

قال: فانتبهت من نومي، فقلت: ترىٰ أي شيء قد جرىٰ. فجاءنا الخبر وقت العصر بموت الشيخ ابن الجوزي، فقلت:

ولم يبق من يرجىٰ لإيضاح مشكل ** وأصبح ربع العلم وهو خرابُ

ثم قَالَ أَبُو المظفر: أصبحنا عملنا عزاه، وتكلمت فيه، وحضر خلق عظيم، وأنشد القادري العلوي:

الدهر عن طمع يغر ويخدع ** وزخارف الدنيا الدنية تطمعُ

وأعنة الآمال يطلقها الرجىٰ ** طمعًا وأسياف المنية تقطعُ

والموت آتٍ، والحياة مريرة ** والناس بعضهم لبعض يتبعُ

واعلم بأنك عن قليل صائر ** خبرًا فكن خبرًا بخير يسمعُ

لعُلا أبي الفرج الذي بعد التقىٰ ** والعلم يوم حواه هذا المجمعُ

خبرٌ عليه الشرع أصبح والِهًا ** ذا مقلة حرًّا عليه تدمعُ

مَن للفتاوىٰ المشكلات وحلها ** من ذا لخرق الشرع يوما يرفعُ؟

من للمنابر أن يقوم خطيبها ** ولرد مسألة يقول فيسمعُ؟

مــن للجــدال إذا الــشفاه تقلــصت ** وتــأخر القــوم الهزبــر المــصقعُ؟
مــن للــدياجي قائمًــا ديجورهــا ** يتلــو الكتــاب بمقلــة لا تهجــعُ
أجمــال ديــن محمــد، مــات التقىٰ ** والعلــم بعــدك، واســتحم المجمــعُ
يــا قبــره جادتــك كــل غمامــة ** هطالــــة ركانـــــة لا تقلـــعُ
قيــل الــصلاة مــع الــصلاة فِتْــه بــه ** وانظــر بــه يــا رمــل مــاذا يــصنعُ
يــا أحمــد أخــذ أحمــد الثــاني الــذي ** مــا زال عنــدك مــدافعًا لا يرجــعُ
أقــسمت لــو كــشف الغطَــا لــرأيتم ** وفــد الملائــك حولــه تتــسرعُ
ومحمــــد يبكـــي عليـــه وآلـــه ** خيــر البريــة والبطــين الأنــزعُ

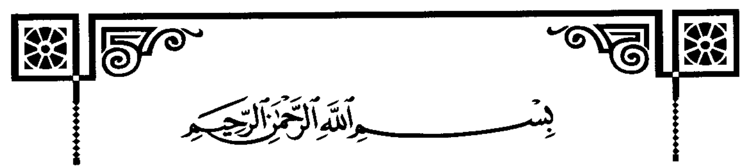
وذكر تمام القصيدة.

قال: ومن العجائب: أنا كنا جلوسًا عند قبره بعد انفضاض العزاء، وإذا بخالي محيي الدين يوسف قد صعد من الشط، وخلفه تابوت، فعجبنا وقلنا: ترىٰ من مات في الدار. وإذا بها خاتون أم ولد جدي، والدة محيي الدين، وعهدي بها في ليلة الجمعة التي مات فيها جدي في عافية، قائمة ليس بها مرض، فكان بين موتها وموته يوم وليلة، وعد الناس ذلك من كراماته؛ لأنه كان مغري بها في حال حياته.

وأوصىٰ جدي أن يكتب علىٰ قبره:

يـــا كثيـــر العفـــو عمَّـــــ ** ـــن كثـــر الـــذنب لديـــه
جـــــاءك المـــــذنب يـــــر ** جــو الــصفح عــن جــرم يديــه
أنــــا ضـــــيف وجـــــزا ** ء الـــضيف إحـــسان إليـــه

فرحمه الله تعالىٰ وغفر له، ورحم سائر علماء المسلمين.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَبِهِ نَسْتَعِينُ، وَصَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ

قَالَ الشَّيْخُ الإِمَامُ العَالِمُ أَبُو الفَرَجِ؛ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بن عَلِيٍّ بن مُحَمَّدِ بْن الجَوْزِيِّ -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيهِ-:

الحَمْدُ للهِ حَمْدًا يبْلغُ رِضاهُ، وصَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ أشْرَفِ مَنِ اجْتَباهُ، وعَلَىٰ مَنْ صَاحَبهُ ووَالَاهُ، وسَلَّمْ تسْليمًا لا يُدرَكُ مُنتَهاهُ.

لَمَّا كَانَتْ الخَواطِرُ تجولُ في تَصفُّحِ أَشْياء تَعرِضُ لَهَا ثُمَّ تُعْرِضُ عَنْهَا فتَذهَبُ، كَانَ مِنْ أوْلَىٰ الأُمُور حِفْظ مَا يخطُرُ؛ كَيْ لَا يُنْسَىٰ. وقَد قَالَ ﷺ: «**قَيِّدُوا العِلمَ بالكِتابَةِ**»[1].

وكَمْ قَدْ خَطَرَ لِي شَيْءٌ فَأَتَشَاغَلُ عَنْ إثْباتِهِ، فيَذْهَبُ، فَأتأسَّفُ عَلَيهِ، ورَأَيتُ مِنْ نفْسِي أَنَّنِي كُلَّمَا فَتحْتُ بَصرَ التَّفكُّرِ سنَحَ لَهُ مِنْ عَجَائبِ الغَيْبِ مَا لَمْ يَكُنْ في حِسابِهِ، فَانثَال عَلَيهِ مِنْ كَثيبِ التَّفهيمِ مَا لا يَجوزُ التَّفرِيطُ فِيهِ، فجَعلْتُ هَذَا الكِتَاب قَيْدًا لـ «صَيدِ الخَاطِرِ»، واللهُ ولِيُّ النَّفْعِ، إِنَّهُ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

---

(١) موقوف: روي من حديث أنس مرفوعًا: أخرجه الخطيب (١٠/ ٤٦)، وابن عساكر (٣٧/ ٣٥٣). وموقوفًا: أخرجه الطبراني (١/ ٢٤٦)، والحاكم (٣٦١)، ورجح الدارقطني في «العلل» (٢٣٨٩) الموقوف. ومن حديث ابن عباس مرفوعًا: أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٣/ ٢٧٧) وأنكره. والصواب عنه موقوفًا، كما في «العلل» لعبد الله بن أحمد عن أبيه (٢٣٢). ومن حديث عمر بن الخطاب موقوفًا: أخرجه ابن أبي شيبة (٢٦٤٢٧)، والدارمي (٤٩٧)، والحاكم (٣٥٩). ومن حديث عبد الله بن عمرو مرفوعًا: أخرجه الحاكم (٣٦٢). والصواب الموقوف. وقد ضعف ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١/ ٧٨) المرفوع من جميع طرقه ورجح الموقوف. والله أعلم.

۞ فَصْل ۞

قَدْ تَعْرِضُ عِنْدَ سَمَاعِ المَواعِظِ للسَّامِعِ يقَظةٌ فَإذَا انفَصَلَ عَنْ مَجلِسِ الذِّكْرِ عَادتِ القَسَاوَةُ والغَفلَةُ

فتدبَّرْتُ السَّببَ في ذَلِكَ، فعَرَفتُهُ.

ثُمَّ رَأيْتُ النَّاسَ يتفَاوَتُون في ذَلِكَ؛ فالحَالةُ العَامَّة أنَّ القَلْبَ لا يَكُون عَلَىٰ [صِفتهِ] مِنَ اليَقظَةِ عِنْدَ سَمَاع المَوعِظةِ وبَعدَهَا لِسببَين:

أحَدُهُمَا: أنَّ المَواعِظَ كالسِّياطِ، والسِّياطُ لا تُؤلِمُ بَعدَ انقِضائِهَا إيلامُهَا وقْتَ وقُوعِهَا.

والثَّانِي: أنَّ حالَةَ سَمَاعِ المَواعِظ يَكُونُ الإنْسَانُ فِيهَا مُزَاحَ العِلَّةِ، قَدْ تخَلَّىٰ بجِسمِهِ وفِكرِهِ عَنْ أسْبابِ الدُّنْيَا، وأنْصتَ بحُضورِ قَلبِهِ، فَإذَا عَادَ إلَىٰ الشَّواغِلِ اجْتذبَتهُ بآفَاتِها، وكَيفَ يصِحُّ أنْ يَكُونَ كَمَا كَانَ وهَذِهِ حَالَةٌ تعُمُّ الخَلقَ؟!

إلَّا أنَّ أرْبابَ اليَقَظَةِ يتَفاوتُونَ في بِقاءِ الأثَرِ.

فمِنْهُم من يعْزِمُ بلا تَردُّدٍ، ويمْضِي مِنْ غَيرِ التِفاتٍ، فَلوْ توَقَّفَ بِهِمْ رَكبُ الطَّبْعِ لضَجُّوا كَمَا قَالَ حنْظَلة عَنْ نفْسِهِ: نَافَقَ حَنظَلَة.

ومِنْهُم أقْوامٌ يمِيلُ بِهِمُ الطَّبعُ إلَىٰ الغَفلَةِ أحْيانًا، ويَدْعُوهُم مَا تقَدّم مِنَ المَواعِظِ إلَىٰ العَمَلِ أحْيَانًا، فهُمْ كالسُّنبُلةِ تُميلُها الرِّياحُ.

وأَقْوَام لا يُؤثِّرُ فِيهِمْ مَا تَقَدَّم مِن المَواعِظِ إلَّا بمِقدَارِ سَماعِهِ، كمَاءٍ دحْرَجْتهُ عَلَىٰ صَفوانٍ.

۞ فَصْل ۞

جَواذِبُ الطَّبعِ إلَى الدُّنْيَا كَثيرَةٌ

ثُمَّ هي مِنْ دَاخلٍ، وذِكرُ الآخِرَةِ أمْرٌ خَارجٌ عَنِ الطَّبعِ، ثُمَّ هِي مِنْ خَارجٍ.

ورُبَّما ظَنَّ مَن لا عِلمَ لَهُ أنَّ جَوَاذِبَ الآخِرَةِ أقْوَىٰ، لِمَا يَسمَعُ مِنَ الوَعِيد في القُرْآن، ولَيْسَ كَذَلكَ؛ لأنَّ مَثلَ الطَّبْع في مَيْلِهِ إلَىٰ الدُّنْيَا كالمَاءِ الجَارِي؛ فإنَّه يطْلُب الهُبُوط، وإنَّمَا رَفْعُهُ إلىٰ فَوقَ يحْتَاجُ إلَىٰ الكَلَفِ.

ولهَذَا جَاءَتْ مَعَارِفُ الشَّرْع: بالتَّرغِيبِ والتَّرهِيبِ، تُقوِّي جُندَ العَقلِ.

فأَمَّا الطَّبْعُ فجَواذبُهُ كَثيرَةٌ، ولَيْسَ العَجَبُ أنْ يَغْلِب، إنَّمَا العَجبُ أنْ يُغْلَب.

۞ فَصْل ۞

مَنْ عَاينَ بعَينِ بصِيرَتهِ تَناهِي الأُمُور في بِدايَاتِها؛ نَالَ خَيرَها، ونَجَا مِنْ شَرِّها ومَنْ لَمْ يرَ العَواقِبَ غَلبَ عَلَيهِ الحِسُّ، فعَادَ عَلَيهِ بالألَمِ مَا طَلبَ مِنْهُ السَّلامَةَ، وبالنَّصَبِ مَا رَجَا مِنْهُ الرَّاحَة

وبَيانُ هَذَا في المُستقْبلِ يتَبيَّنُ بذِكْرِ المَاضِي، وهُوَ أنَّكَ لا تَخْلُو أنْ تَكُونَ عصَيتَ اللهَ في عُمرِكَ، أوْ أطَعتَهُ.

فأيْنَ لذَّةُ معْصِيتِكَ؟ وأيْنَ تعَبُ طَاعتِكَ؟ هَيهاتَ رحَلَ كلٌّ بِمَا فِيهِ، فلَيتَ الذُّنُوب إذْ تخلَّتْ خَلَّتِ.

وأَزيدُكَ هَذَا بَيَانًا: مَثِّلْ سَاعةَ المَوتِ السَّاعَةَ، وانظُرْ إِلَىٰ مَرارةِ الحَسراتِ عَلَىٰ التَّفريطِ، ولا أقُولُ: كَيفَ تغْلبُ حَلاوَة اللَّذاتِ؛ لأَنَّ حَلاوةَ اللَّذاتِ اسْتحَالتْ حَنظَلًا، فبَقيَتْ مَرارةُ الأَسَىٰ بِلا مُقاومٍ.

أَتُراكَ مَا عَلمْتَ أنَّ الأمْرَ بعَواقِبِهِ؟ فرَاقِبِ العَواقِبَ تَسلَمْ، ولا تَمِلْ مَعَ هَوىٰ الحِسِّ فتَندَمْ.

فَصْلٌ

مَنْ تفكَّر في عَواقِبِ الدُّنْيَا، أَخَذَ الحَذَر، ومَنْ أيْقنَ بطُولِ الطَّريقِ تَأَهَّبَ للسَّفرِ

مَا أَعْجَب أمْركَ يَا مَنْ يُوقنُ بأمْرٍ ثمَّ ينْساهُ، ويَتحقَّقُ ضَررَ حَالٍ ثُمَّ يغْشاهُ ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

تغْلبُكَ نفْسُكَ عَلَىٰ مَا تَظُنُّ، ولا تَغلِبهَا عَلَىٰ مَا تَستيْقِن!

أَعْجبُ العَجائِبِ سُرورِكَ بغُرورِكَ، وسَهوِكَ في لهْوِكَ عمَّا قَدْ خُبِّئَ لَكَ!

تغْترُّ بِصِحَّتكَ وتَنسَىٰ دُنوَّ السّقَمِ، وتفْرحُ بعَافِيتِكَ غَافِلًا عَنْ قُربِ الألَمِ!

لقَدْ أَرَاكَ مصْرَعُ غَيركَ مصْرعَكَ، وأبْدَىٰ مضْجَعُ سِواكَ قَبْلَ المَماتِ مضْجَعكَ.

وقَدْ شَغلكَ نَيْلُ لذَّاتكَ عَنْ ذِكرِ خَرابِ ذَاتكَ:

كَأَنَّكَ لَمْ تَسمعْ بِأَخْبارِ مَنْ مَضَىٰ ** ولَمْ تَرَ فِي البَاقِينَ مَا يَصْنَعُ الدَّهْرُ!

فَإِنْ كُنْتَ لا تَدْرِي فَتِلْكَ دِيَارُهُمْ ** مَحَاهَا مَجَالُ الرِّيحِ بَعْدَكَ وَالقَطْرُ!

كَمْ رأَيتَ صَاحبَ منْزلٍ مَا نَزلَ لحْدَهُ حَتَّىٰ نُزِلَ! وكَمْ شَاهدْتَ والِيَ قَصرٍ وَلِيهُ عدُوّهُ لَمَّا عُزِلَ!

فَيَا مِنْ هُو فِي كُلِّ لحْظةٍ إِلَىٰ هَذَا يَسْرِي، وفِعْلُهُ فِعلُ مَنْ لا يَفهَمُ ولا يَدرِي!

وَكَيْـفَ تَنَـامُ العَـيْنُ وَهْـيَ قَرِيـرَةٌ ** وَلَـمْ تَـدْرِ فِـي أَيِّ المَحلَّـيْنِ تَنْـزِلُ

۞ فَصْل ۞

مَنْ قَاربَ الفِتنةَ بعُدَتْ عنهُ السَّلامَةُ، ومَنِ ادَّعَى الصَّبرَ وُكِلَ إِلَى نَفْسهِ

ورُبَّ نظْرَةٍ لَمْ تُناظِرْ، وأحَقُّ الأشْياءِ بالضَّبْطِ والقهرِ اللِّسانُ والعَيْنُ.

فإيَّاكَ إِيَّاكَ أنْ تغْترَّ بعزْمِكَ عَلَىٰ تَركِ الهَوَىٰ مَعَ مُقاربَةِ الفِتنَةِ؛ فَإنَّ الهَوَىٰ مَكايِدٌ.

وكَمْ مِنْ شُجاعٍ في صَفِّ الحَربِ اغْتيلَ فأتَاهُ مَا لَمْ يحْتسِب ممَّنْ يَأنفُ مِن النَّظرِ إلَيهِ، واذْكُرْ حَمزَةَ مَعَ وحْشِيٍّ.

فتبَـصَّرْ وَلا تَـشِمْ كُـلَّ بَـرْقٍ ** رُبَّ بَـرْقٍ فِيـهِ صَـوَاعِقُ حَـيْنِ

واغْـضُضِ الطَّـرْفَ تَسْتَرِحْ مِنْ غَـرَامٍ ** تَكْتَـسِي فِيـهِ ثَـوْبَ ذُلٍّ وَشَـيْنِ

فَـبَلَاءُ الفَتَـىٰ مُوَافَقَـةُ النَّفْـ ** ـسِ وَبَـدْءُ الهَـوَىٰ طُمُـوحُ العَـيْنِ

۞ فَصْل ۞

أعْظمُ المُعَاقَبة أنْ لا يُحِسَّ المُعاقَبُ بالعُقوبَةِ

وأشَدُّ مِنْ ذَلِكَ السُّرورِ بِمَا هُوَ عُقوبَة كالفَرَحِ بالمَالِ الحَرامِ، والتَّمكُّنِ مِنَ الذُّنُوب.

وَمَنْ هَذهِ حَالُهُ لا يَحْزَنُ لِفَوْتِ طَاعَةٍ .

وإنِّي تدبَّرتُ أحوالَ أكْثرِ العُلماءِ والمُتزهِّدينَ فرَأيتُهمْ في عُقوبَاتٍ لا يحِسُّونَ بِهَا، ومُعظَمُها مِنْ قِبلِ طَلَبِهِمْ للرِّياسَةِ.

فالعَالِمُ مِنهُمْ يغْضبُ إنْ رُدَّ عَلَيهِ خَطؤُهُ، والوَاعظُ متَصنِّعٌ بوَعظِهِ، والمُتزهِّدُ مُنافقٌ أوْ مُراءٍ.

فَأوَّلُ عُقوبَاتهِمْ إعْرَاضُهمْ عَنِ الحقِّ شُغلًا بالخَلقِ، ومِنْ خَفِيِّ عُقوبَاتهِمْ سَلبُ حَلاوةِ المُناجَاةِ، ولَذَّةِ التَّعبُّدِ.

إلَّا رِجالٌ مُؤمِنونَ ونِساءٌ مُؤمنَاتٌ يحْفظُ اللهُ بِهمُ الأرْضَ، بَواطِنُهمْ كظَوَاهِرهمْ، بَلْ أجْلَىٰ، وسَرائِرُهمْ كعَلانِيَتهِمْ، بَلْ أحْلَىٰ، وهِممُهُمْ عِنْدَ الثُّريَّا، بلْ أعْلَىٰ، إنْ عُرِفُوا تَنكَّرُوا، وإنْ رُؤيَتْ لَهمْ كَرامةٌ أنْكرُوا.

فالنَّاسُ في غَفلاتِهِمْ وهُمْ في قَطعِ فَلاتِهِمْ، تُحبُّهمْ بِقاعُ الأرْضِ، وتفْرحُ بِهمْ أمْلاكُ السَّماءِ.

نَسْألُ اللهَ ﷻ التَّوفِيقَ لاتِّباعِهِمْ، وأنْ يجْعلَنَا مِنْ أتْباعِهِمْ.

فَصْلٌ
مِنْ عَلامَةِ كَمالِ العَقلِ عُلوُّ الهِمَّةِ

والرَّاضِي بالدُّونِ دَنِيءٌ.

وَلَـمْ أَرَ فِـي عُيُـوبِ النَّـاسِ عَيْبًـا ** كَـنَقْصِ القَـادِرِينَ عَلَـىٰ التَّمَـامِ

۞ فَصْلٌ ۞

سُبحَانَ مَنْ سَبقتْ محَبَّتُهُ لأحْبابِهِ

فمَدحَهُمْ عَلَىٰ مَا وَهبَ لَهمْ، واشْترَىٰ مِنْهُمْ مَا أعْطاهُمْ، وقَدَّمَ المُتأخِّرَ مِنْ أوصَافِهمْ لمَوضِعِ إيثَارِهمْ، فبَاهَىٰ بِهمْ في صَومِهمْ، وأحَبَّ خلُوفَ أفْواهِهمْ.

يَا لَهَا مِنْ حَالَةٍ مصُونةٍ، لا يَقدِرُ علَيهَا كُلُّ طَالبٍ، ولا يبْلُغُ كُنْهَ وصْفهَا خَاطبٌ.

۞ فَصْلٌ ۞

الوَاجبُ عَلَى العَاقِلِ أَخْذُ العُدَّةِ لِلرَّحِيلِ

فَإِنَّه لا يَعْلمُ متَىٰ يفْجؤُهُ أمْرُ ربِّهِ، ولا يَدرِي متَىٰ يُستدْعَىٰ.

وإنِّي رَأيتُ خلقًا كَثيرًا غَرَّهُم الشَّبابُ، ونسُوا فَقْدَ الأقْرانِ، وألهَاهُمْ طُولُ الأمَلِ.

ورُبَّمَا قَالَ العَالِمُ المحْضُ لنفْسِه: أشْتغِلُ بالعِلمِ اليَومَ ثُمَّ أعْملُ بِهِ غَدًا. فيَتَساهلُ في الزَّللِ بحُجَّة الرَّاحةِ، ويُؤخِّرُ الأهبةَ لتَحقيقِ التَّوبةِ، ولا يتَحاشَىٰ مِنْ غِيبةٍ أَوْ سَماعِهَا، ومِنْ كَسبِ شُبهةٍ يُؤمِّلُ أنْ يمْحوهَا بالوَرَعِ، وينْسَىٰ أنَّ المَوتَ قَدْ يَبْغَتُ.

فالعَاقلُ مَنْ أعطَىٰ كُلَّ لحْظةٍ حقَّهَا مِنَ الوَاجبِ عَلَيهِ، فإنْ بغَتهُ المَوتُ رُؤيَ مُستعِدًّا، وإنْ نَالَ الأمَلَ ازْدادَ خَيْرًا.

۞ فَصْلٌ ۞

خَطرتْ لِي فِكرةٌ؛ فِيمَا يجْرِي عَلَى كَثيرٍ مِنَ العَالَم مِنَ المَصائِبِ الشَّديدَةِ، والبَلايَا العَظيمَةِ الَّتِي تَتنَاهَى إلَى نِهايَةِ الصُّعوبَةِ

فَقُلْتُ: سُبحَانَ اللهِ، إنَّ اللهَ أكْرمُ الأكْرمِينَ، والكَرمُ يُوجِبُ المُسامَحَة، فمَا وجْهُ هَذهِ المُعَاقَبة؟!

فتفكَّرتُ فرَأيْتُ كَثيرًا مِنَ النَّاسِ في وُجودِهِمْ كَالعَدَم، لا يتَصفَّحُونَ أدِلَّةَ الوَحْدانِيَّةِ، ولا يَنظُرونَ في أوامِرِ اللهِ -تعالىٰ- ونَواهِيهِ، بَلْ يَجْرُونَ - عَلَىٰ عَاداتِهِمْ - كالبَهَائِمِ، فَإنْ وافَقَ الشَّرْعُ مُرَادَهمْ قَبِلُوهُ؛ وإلا فمُعوَّلُهُمْ عَلَىٰ أغْراضِهِمْ.

وبَعدَ حُصولِ الدِّينارِ لا يُبالُونَ أمِنْ حَلالٍ كَانَ أمْ مِنْ حَرامٍ. وإنْ سهلَتْ عَليْهِمُ الصَّلاةُ فَعلُوهَا، وإنْ لَمْ تسْهلْ تَركُوهَا.

وفِيهِمْ مَنْ يُبارِزُ بالذُّنُوبِ العَظيمَةِ مَعَ نوْعِ معْرِفةِ [النَّاهِي]. ورُبَّمَا قَوِيَتْ مَعرِفَةُ عَالمٍ مِنهُمْ وتَفاقَمتْ ذُنُوبُه.

فعَلِمْتُ أنَّ العُقوبَاتِ -وإنْ عظُمتْ- دُونَ إجْرامِهِمْ، فَإذَا وقَعتْ عُقوبَةٌ لتُمحِّصَ ذَنبًا صَاحَ مُستغيثُهمْ: تُرَىٰ هَذَا بأيِّ ذَنبٍ؟! وينْسَىٰ مَا قَدْ كَانَ مِمَّا تتزَلزَلُ الأرْضُ لبَعضِهِ.

وقَدْ يُهانُ الشَّيْخُ في كِبَرِهِ حتىٰ تَرحَمهُ القُلوبُ ولا يَدرِي أنَّ ذَلِكَ لإهْمالِهِ حَقَّ اللهِ -تعالَىٰ- في شَبابِهِ.

فمَتَىٰ رَأيْتَ مُعاقَبًا فاعْلَمْ أنَّهُ لذُنوبٍ.

فصل

تأمَّلتُ التَّحاسُدَ بيْنَ العُلمَاءِ، فرَأيْتُ مَنشَأهُ مِنْ حُبِّ الدُّنْيَا

فإنَّ عُلماءَ الآخِرَةِ يتَوادُّونَ ولا يتَحاسَدُونَ، كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ ﴾ [الحشر: ٩]، وقَالَ تعَالَىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [الحشر: ١٠].

وقَدْ كَانَ أَبُو الدَّرداءِ يدْعُو كُلَّ ليْلةٍ لجَماعَةٍ مِنْ إخْوانِهِ.

وقَالَ الإمَامُ أحْمدُ بْن حَنبَلٍ لوَلدِ الشَّافعِيِّ: أَبُوكَ مِنَ السِّتَّةِ الَّذينَ أدْعُو لَهمْ كُلَّ لَيلةٍ وقْتَ السَّحرِ.

والأمْرُ الفَارِقُ بيْنَ الفِئتيْنِ أنَّ عُلماءَ الدُّنْيَا ينْظرونَ إلىٰ الرِّياسَةِ فِيهَا، ويُحبُّونَ كثْرةَ الجمعِ والثَّناءِ، وعُلماءَ الآخِرَةِ بمَعْزلٍ مِنْ إيثَارِ ذَلِكَ، وقَدْ كَانُوا يتخَوَّفُونهُ، ويرْحمُونَ مَنْ بُلِيَ بِهِ.

وكَانَ النَّخعِيُّ لا يسْتنِدُ إلىٰ سَاريَةٍ.

وقَالَ عَلقَمَةُ: أكْرَهُ أنْ يُوطَأَ عَقِبي، وَيُقَالَ: عَلْقَمَةُ.

وكَانَ بعْضُهم إذَا جَلسَ إلَيهِ أكْثرُ مِنْ أرْبعةٍ قَامَ عنْهُمْ.

وكَانُوا يتدَافعُونَ الفَتوَىٰ، ويُحبُّونَ الخُمُولَ.

ومَثلُ القَومِ كمَثلِ راكِبِ البَحرِ وقَدْ خبَّ، فعِندَهُ شُغلٌ إلىٰ أنْ يوقِنَ بالنَّجاةِ، وإنَّمَا كَانَ بعْضهُم يَدعُو لبَعضٍ ويسْتفيدُ منْهُ؛ لأنَّهمْ رَكْبٌ تَصاحَبُوا فتَوادُّوا، فالأيَّامُ واللَّيالِي مَراحِلُهمْ إلىٰ سَفرِ الجَنَّةِ.

فَصْلٌ

مَنْ أَحَبَّ تصْفِيةَ الأحْوالِ، فليَجتَهدْ في تَصفِيةِ الأعْمالِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

وقَالَ النَّبيُّ ﷺ فِيمَا يرْوِي عَنْ رَبِّه تَعَالَى: «**لَوْ أنَّ عِبادِي أطَاعُونِي لسَقيتُهُم المَطرَ باللَّيلِ، وأطْلعتُ عَليهِم الشَّمسَ بالنَّهارِ، ولَمْ أُسْمِعهُمْ صَوتَ الرَّعدِ**»(١)(٢).

وقَالَ ﷺ: «**البِرُّ لا يبْلَىٰ، والإثْمُ لا يُنْسَىٰ، والدَّيَّانُ لا يَنامُ، وكَمَا تَدينُ تُدانُ**»(٣).

وقَالَ أَبُو سُليمَانَ الدَّارانِيُّ: مَنْ صَفَّىٰ صُفِّيَ لَهُ، ومَنْ كَدَّرَ كُدِّرَ عَلَيهِ، ومنْ أَحْسنَ في لَيلِهِ كُوفِئَ في نَهارِهِ، ومَنْ أَحْسنَ في نَهارِه كُوفِئ في لَيلِهِ.

وكَانَ شَيْخٌ يدُورُ في المَجالِسِ ويَقُول: مَنْ سَرَّه أنْ تَدومَ لَهُ العَافيةُ فليتَّقِ اللهَ تَعَالَى.

وكَانَ الفُضيْلُ بْنُ عِياضٍ يَقُولُ: إِنِّي لأعْصِي اللهَ فأعْرِفُ ذَلِكَ في خُلُق دَابَّتي، وجَارِيتِي.

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه من حديث أبي هريرة: أحمد (٨٧٠٨)، وعبد بن حميد (١٤٢٤)، والطيالسي (٢٥٨٦)، والبزار (٩٥٦٩)، والحاكم (٣٣٣١) (٧٦٥٧) وقال: صحيح الإسناد، وتعقبه الذهبي. ويروىٰ من حديث أبي سعيد الخدري: ذكره الدارقطني في «العلل» (٢٣٠٦) وقال: «والحديث غير ثابت».

(٢) حاشية: ومصداقه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

(٣) إسناده ضعيف: أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (١١/ ١٧٨)، والبيهقي في «الزهد» (٧١٠) من مرسل أبي قلابة، وأخرجه أحمد في «الزهد» (ص ١٤٢) عن أبي قلابة عن أبي الدرداء موقوفًا، وأبو قلابة لم يدرك أبا الدرداء، وروي مرفوعًا من حديث ابن عمر، أخرجه الديلمي (٢٢٠٣) وابن عدي (٦/ ١٥٨) وضعفه.

واعْلَمْ -وفَّقَكَ اللهُ- أَنَّهُ لا يُحِسُّ بضَربةٍ مُبَنَّجٌ، وإِنَّمَا يَعرِفُ الزِّيَادةَ مِنَ النُّقصَانِ المُحَاسِبُ لنفْسِهِ، ومَتَىٰ رَأَيْتَ تكْدِيرًا في حَالٍ فاذْكُر نِعمَةً مَا شُكِرَتْ، أَوْ زَلَّةً قَدْ فُعِلَتْ، واحْذَرْ مِنْ نفَارِ النِّعَم، ومُفاجَأةِ النِّقَم، ولا تغْترَّ بِسعَةِ بسَاطِ الحِلمِ، فرُبَّمَا عجلَ انْقبَاضُهُ، وقَدْ قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وكَانَ أَبُو عَليٍّ الرُّوذْبَارِيّ يَقُولُ: مِنَ الاغْترارِ أَنْ تُسيءَ فيُحْسَن إِلَيْكَ فتَترُكَ التَّوبَةَ توهُّمًا أَنَّكَ تُسامَحُ في الهفوَاتِ.

* * *

❁ فَصْل ❁

تفكَّرتُ يَومًا في التَّكليفِ؛ فرَأيتُه ينْقسِمُ إلى سَهلٍ وصَعبٍ

فأَمَّا السَّهلُ فهُوَ أعْمالُ الجَوارِحِ، إلَّا أنَّ مِنْهُ مَا هُوَ أصْعبُ مِن بَعضٍ؛ فالوُضوءُ والصَّلاةُ أسْهلُ مِنَ الصَّومِ، والصَّومُ رُبَّمَا كَانَ عِنْدَ قَومٍ أسْهلُ من الزَّكاةِ.

وأمَّا الصَّعبُ فيَتفَاوَتُ، فبعْضُها أصْعبُ مِنْ بَعضٍ.

فمِنَ المُستصعَبِ النَّظرُ والاسْتدْلالُ المُوصِّلانِ إلىٰ معْرفةِ الخَالِقِ، فهَذَا صَعبٌ عِنْدَ مَنْ غلَبَتْ عَلَيهِ أمُورُ الحِسِّ، سهْلٌ عِنْدَ أهْلِ العَقْلِ.

ومِنَ المُستصعَبِ غَلبةُ الهَوَىٰ، وقَهرُ النُّفوسِ، وكَفُّ أكُفِّ الطِّباعِ عَنِ التَّصرُّف فِيمَا يؤْثِرُه، وكُلُّ هَذَا يَسهُلُ عَلَىٰ العَاقلِ النَّظر في ثَوابِهِ، ورَجَاء عَاقِبتِه وإِنْ شَقَّ عَاجِلًا.

وإِنَّمَا أصْعبُ التَّكاليفِ وأعْجبُها أَنَّهُ قَدْ ثَبتَت حِكمةُ الخَالقِ عِنْدَ العَقلِ، ثُمَّ نَراهُ يفْقرُ المُتشاغِلَ بالعِلمِ، المُقبلَ عَلَىٰ العِبادَةِ حَتَّىٰ يَعُضَّهُ الفَقْرُ بنَاجِذيْهِ، فَيذِلّ للجَاهِلِ في طَلَبِ القُوتِ، ويُغْنِي الفَاسِق مَعَ الجَهلِ حَتَّىٰ تَفِيضَ الدُّنْيَا عَليْهِ.

ثُمَّ تَراهُ يُنشِئ الأجْسامَ ويُحكِمهَا، ثُمَّ ينقُضُ بِناءَ الشَّبابِ في مَبدَإِ أمْرِهِ وعِنْدَ اسْتكمَالِ بِنائِهِ فَإِذَا بِهِ قَدْ عَادَ هَشِيمًا.

ثُمَّ تراهُ يُؤلِمُ الأطْفالَ حَتَّىٰ يرحمَهُم كُلُّ طَبعٍ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: إيَّاكَ أنْ تشُكَّ في أنَّهُ أرْحمُ الرَّاحِمِينَ.

ثُمَّ يَسْمعُ بإرْسَالِ مُوسَىٰ إلىٰ فِرعَونَ، ويُقَال لَهُ: اعتَقدْ أنَّ اللهَ تَعالَىٰ أضَلَّ فِرعَونَ، واعْلَم أنَّهُ مَا كَانَ لآدمَ بُدٌّ مِنْ أكْلِ الشَّجرَةِ، وقَدْ وُبِّخَ بقَولِهِ: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ [طه: ١٢١].

وفي مِثْلِ هَذِهِ الأَشْيَاء تَحيَّرَ خَلقٌ حَتَّىٰ خَرجُوا إلىٰ الكُفرِ والتَّكذِيبِ، ولَوْ فتَّشُوا عَلَىٰ سِرِّ هَذِهِ الأَشْيَاء لعَلِموا أنَّ تَسليمَ هَذِهِ الأُمُور تَكلِيفُ العَقْل ليُذْعِن، وهَذَا أصْلٌ إِذَا فُهِمَ حَصلَ السَّلامَة والتَّسْلِيم. نَسْأَلُ اللهَ ﷻ أنْ يكْشِف لَنَا الغَوامِضَ الَّتِي حَيَّرَت مَنْ ضَلَّ، إنَّهُ قَرِيبٌ مُجيبٌ.

۞ فَصْل ۞

يَنْبغِي للإِنْسَانِ أنْ يَعرِفَ شَرفَ زَمانِهِ وقَدرَ وقْتِهِ

فَلا يُضيِّعَ مِنْهُ لحْظَةً في غَيْر قُربةٍ، ويُقدِّمَ الأفْضلَ فَالأفْضلَ مِنَ القَولِ والعَملِ، وَلتكُنْ نِيَّتُهُ في الخَيرِ قَائِمَة، مِنْ غَيْر فُتورٍ بِمَا يَعجزُ عَنهُ البَدنُ مِنَ العَملِ، كَمَا جَاءَ في الحَديثِ: «**نِيَّةُ المُؤمِنِ خَيرٌ مِنْ عَملِهِ**»(١).

---

(١) ضعيف: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٦/ ١٨٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٥٥)، والخطيب (٩/ ٢٣٧) من حديث سهل بن سعد، وأخرجه القضاعي (١٤٨) من حديث النواس بن سمعان، وأخرجه الديلمي (٦٨٤٣) من حديث أبي موسىٰ.

وقَد كَانَ جَماعةٌ مِنَ السَّلفِ يُبادِرونَ اللَّحظَاتِ:

فنُقِلَ عَنْ عَامِرِ بْن عَبْد قَيسٍ أَنَّ رَجلًا قَالَ لَهُ: كَلِّمنِي فقَالَ لَهُ: أَمْسِكِ الشَّمسَ.

وقَالَ ابْنُ ثَابتٍ البُنَانيِّ: ذَهبْتُ أَلقِّن أَبِي فقَالَ: يَا بُنيَّ دَعنِي؛ فَإنِّي فِي وِرْدِي السَّادِس.

ودَخلُوا عَلَىٰ بَعْضِ السَّلَف عِنْدَ مَوتِهِ وهُوَ يُصَلِّي، فقِيلَ لَهُ، فقَالَ: الآنَ تُطوَىٰ صَحِيفتِي.

فَإذَا عَلِمَ الإنْسَانُ أَنَّهُ، وإنْ بَالغَ فِي الجِدِّ؛ فَإنَّ المَوْت يقْطَعهُ عَنِ العَمَلِ، عَمِلَ فِي حَيَاتِهِ مَا يَدُومُ لَهُ أَجْرُه بَعدَ مَوتِهِ؛ فَإنْ كَانَ لَهُ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا وَقفَ وَقفًا، وغَرسَ غَرسًا، وأَجْرَىٰ نَهرًا، ويَسعَىٰ فِي تَحصِيلِ ذُرِّيَّةٍ تَذكُرُ اللهَ بَعدَهُ فيَكُون الأَجْرُ لَهُ، أَوْ أَنْ يصَنِّف كِتابًا مِنَ العِلمِ؛ فَإنَّ تَصنِيفَ العَالِم وَلَدُه المُخلَّدُ، وأَنْ يَكُونَ عَامِلًا بالخَيرِ، عَالمًا فِيهِ، فيُنقَلُ مِنْ فِعلِهِ مَا يَقتدِي الغَيرُ بِهِ فلذلك الَّذِي لَمْ يَمُتْ. قَدْ مَاتَ قَومٌ وهُمْ فِي النَّاسِ أَحْياءُ.

۞ فَصْلٌ ۞

رَأيْتُ مِنْ أَعْظمِ حِيلِ الشَّيْطَان ومَكرِهِ أَنْ يُحيطَ أَرْبابَ الأَموالِ بالآمَالِ، والتَّشاغُلِ باللَّذَّاتِ القَاطعَةِ عَنِ الآخِرَة وأَعْمالِهَا

فَإذَا [عَلَّقَهُم] بالمَالِ تَحرِيضًا عَلَىٰ جَمعِهِ، وحَثًّا عَلَىٰ تَحصِيلِهِ - أَمَرهُم بحِرَاستِه بُخْلًا بِهِ، فذَلكَ مِنْ مَتِينِ حِيَلِهِ، وقَويِّ مَكرِهِ.

ثُمَّ دفَنَ فِي هَذَا الأَمْرِ مِنْ دَقائِقِ الحِيلِ الخَفيَّةِ أَنْ خَوَّفَ مِنْ جَمْعِهِ المُؤمِنينَ، فَنفَّر طَالبَ الآخِرَة مِنهُ، وبَادرَ التَّائبَ يُخرِج مَا فِي يَدهِ. ولا يَزالُ الشَّيْطَان يُحرِّضهُ

عَلَىٰ الزُّهْدِ، ويَأْمُرهُ بالتَّركِ، ويُخوِّفهُ مِنْ طُرقَاتِ الكَسبِ؛ إظْهارًا لنُصحِهِ وحِفظِ دِينهِ، وفي خَفايَا ذَلِكَ عَجائِب مِنْ مَكرِهِ.

ورُبَّما تَكلَّمَ الشَّيْطَانُ عَلَىٰ لِسانِ بَعْضِ المشَايخِ الَّذينَ يَقتدِي بِهمُ التَّائِبُ فيقُولُ لَهُ: اخْرُجْ مِنْ مَالكَ وادْخُل في زُمرَة الزُّهَّاد، ومَتىٰ كَانَ لَكَ غَداءٌ وَعَشاءٌ فَلسْتَ مِنْ أهْلِ الزُّهْدِ، ولا تَنالُ مَراتِبَ العَزمِ. ورُبَّما كرَّرَ عَلَيهِ الأحَاديثَ البَعيدَةَ عَنِ الصِّحَّةِ، والوَاردَة عَلَىٰ سَببٍ ولِمعْنَىٰ.

فَإذَا أخْرجَ مَا في يَدهِ، وتعطَّلَ عَنْ مَكاسِبهِ عَادَ يُعلِّقُ طُموحَهُ بصِلَةِ الإخْوانِ، أوْ يُحسِّنَ عِندَهُ صُحبَة السُّلطَانِ؛ لأنَّهُ لا يَقوَىٰ عَلَىٰ طريق الزُّهْد والتَّركِ إلَّا أيَّامًا، ثُمَّ يَعودُ الطَّبْعُ فيتَقاضَىٰ مَطلُوباتِهِ، فيَقَع في أقْبحِ مِمَّا فرَّ مِنهُ، ويبْذُلُ أوَّلَ السِّلعِ في التَّحصِيلِ دِينَهُ وعِرضَهُ، ويَصيرُ مُتمَندِلًا بِهِ، ويَقفُ في مَقامِ اليَدِ السُّفْلَىٰ.

ولَوْ أنَّهُ نَظرَ في سِيرِ الرِّجَالِ ونُبلائِهِمْ، وتَأمَّلَ صِحاحَ الأحَاديثِ عَنْ رُؤسَائِهِم لعَلمَ أنَّ الخليلَ عليه السلام كَانَ كَثيرَ المَالِ حَتَّىٰ ضَاقتْ بَلدتُهُ بمَواشِيهِ.

وكَذَلكَ لُوطٌ عليه السلام، وكَثيرٌ منَ الأنْبياءِ عليهم السلام والجَمُّ الغَفيرُ من الصَّحابَةِ.

وإنَّمَا صَبرُوا عِنْدَ العُدْمِ، ولَمْ يمْتنِعُوا مِنْ كَسبِ مَا يُصلِحهُمْ، ولا مِنْ تَناوُلِ المُباحِ عِنْدَ الوُجودِ.

وكَانَ أَبُو بَكرٍ رضي الله عنه يَخرُجُ للتِّجارَةِ والرَّسولُ ﷺ حَيٌّ.

وكَانَ أكْثرُهُم يُخْرجُ فَاضِلَ مَا يَأخُذُ مِنْ بَيتِ المَالِ، ويَسلَم مِنْ ذُلِّ الحَاجَة إلىٰ الإخْوانِ.

وقَد كَانَ ابْنُ عُمرَ لا يَردُّ شَيئًا، ولا يَسألُ.

وإنِّي تأمَّلتُ علَىٰ أكثرِ أَهْلِ الدّين والعِلْم هَذِهِ الحَال، فوَجدْتُ العِلْمَ شَغلَهُم عَنِ المَكاسِبِ في بِدايَاتِهِمْ، فلَمَّا احْتاجُوا إلىٰ قِوَامِ نُفوسِهمْ ذَلُّوا، وهُمْ أحَقُّ بالعِزِّ. وقَدْ كَانُوا قَدِيمًا يَكفِيهم مِنْ بَيتِ المَالِ فَضلاتُ الإخْوانِ؛ فلَمَّا عُدِمَا في هَذَا الأوَانِ لَمْ يَقدِرْ مُتديِّنٌ عَلَىٰ شَيْءٍ إلَّا بِبَذْلِ شَيْءٍ مِنْ دِينِه، ولَيتَهُ قَدَرَ؛ فرُبَّما تَلِفَ الدِّينُ ولَمْ يَحْصُل لَهُ شَيْءٌ.

فَالواجِبُ عَلَىٰ العَاقِلِ أنْ يَحفَظ مَا مَعهُ، وأنْ يجْتَهِد في الكَسبِ ليَربحَ مُدارَاةَ ظَالمٍ أوْ مُداهنَةَ جَاهلٍ، ولا يَلتفِتْ إلىٰ تُرَّهاتِ المُتصوِّفةِ الَّذِينَ يَدَّعُون في الفَقْر مَا يَدَّعونَ.

فَمَا الفَقْرُ إلَّا مَرضُ العَجزَةِ، ولِلصَّابرِ عَلَىٰ الفَقْرِ ثَواب الصَّابرِ عَلَىٰ المَرضِ، اللَّهُمَّ إلَّا أنْ يَكُون جَبانًا عَنِ التَّصرُّف، مُقتَنعًا بالكَفافِ؛ فَليسَ ذَلِكَ مِنْ مَراتِبِ الأبْطالِ، بَلْ هُوَ مِنْ مَقامَاتِ الجُبناءِ الزُّهَّادِ.

وأمَّا الكَاسبُ لِيكونَ المعْطِي لا المُعطَىٰ، والمُتصدِّق لا المُتصدَّق عَلَيهِ؛ فَهِيَ من مَراتبِ الشُّجعانِ الفُضلاءِ، ومَنْ تَأمَّل هَذَا عَلمَ شَرفَ الغِنَىٰ ومُخاطَرةَ الفَقرِ.

فَصْل

تَأمَّلتُ أحْوَالَ الفُضَلاءِ فوَجدْتُهمْ - في الأغْلَبِ - قَدْ بُخِسُوا من حُظُوظ الدُّنْيَا ورَأيْت الدُّنْيَا - غَالِبًا - في أيْدِي أَهْل النَّقَائِصِ

فنَظرتُ في الفُضَلاءِ فَإذَا هُم يَتأسَّفونَ عَلَىٰ مَا فَاتهُم مِمَّا نَالهُ أُولُوا النَّقصِ، ورُبَّما تقطَّعَ بعْضُهم أسَفًا عَلَىٰ ذَلكَ.

فخَاطبْتُ بَعْضَ المُتأسِّفينَ فقُلتُ لَهُ: ويْحكَ تَدبَّر أمْركَ؛ فَإنَّكَ غَالطٌ من وُجوهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ إنْ كَانَتْ لَكَ هِمَّةٌ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا فاجْتهِدْ في طَلَبها تَربَحْ عَدَمَ التَّأسُّفِ عَلَىٰ فوتِها، فَإِنَّ قُعودَكَ مُتأسِّفًا عَلَىٰ مَا نَالهُ غَيرُكَ مع قُصُور اجْتهادِكَ غَايةُ العَجزِ.

والثَّانِي: أنَّ الدُّنْيَا إنَّمَا تُرادُ لتُعبَر لا لتُعمَر، وهَذَا هو الَّذِي يدُلُّك عَلَيهِ عِلمُكَ ويبْلُغهُ فَهمُكَ، ومَا يَنالُه أَهْلُ النَّقصِ من فُضولِها يُؤذِي أَبْدانَهمْ وأَدْيانَهُم، فَإِذَا عَرفْتَ ذَلِكَ ثُمَّ تَأسَّفتَ عَلَىٰ فَقدِ مَا فَقْدُهُ أَصْلحُ لَكَ كَانَ تَأسُّفُك عُقوبَةٌ لتَأسُّفِك عَلَىٰ مَا تَعلَم المَصلَحةَ في بُعْدِهِ، فَاقنَعْ بذَلِكَ عَذابًا عَاجلًا إنْ سَلمْتَ منَ العَذابِ الآجلِ.

والثَّالثُ: أَنَّكَ قَدْ عَلمْتَ بَخسَ حَظِّ الآدَميِّ فِي الجُملَةِ مِن مَطاعمِ الدُّنْيَا ولذَّاتِها بالإِضَافةِ إلىٰ الحَيوانِ البَهيمِ؛ لأَنَّهُ ينَالُ ذَلِكَ أَكْثرُ مِقدَارًا مع أَمْنٍ، وأَنتَ تَنالهُ مع خَوفٍ وقِلَّةِ مِقدارٍ، فَإِذَا ضُوعِفَ حَظُّكَ مِنْ ذَلِكَ لِجِنسِكَ كَانَ ذَلِكَ لاحِقًا بالحَيوانِ البَهيمِ مِنْ جِهةِ أَنَّهُ يَشغَلهُ ذَلِكَ عَنْ تَحصِيلِ الفَضائِلِ، وتَخفِيفِ المُؤنِ يَحُثُّ صَاحبَهُ عَلَىٰ نَيلِ المَراتِبِ.

فَإِذَا آثرْتَ -مع قِلَّةِ الفُضُولِ- الفُضُولَ؛ عُدْتَ عَلَىٰ مَا عَلمْتَ بالإِزْرَاءِ، فَشِنْتَ عِلمَكَ، ودلَّلتَ عَلَىٰ اخْتلاطِ رَأيِكَ.

۞ فَصْل ۞

تَأمَّلتُ إِقْدامَ العُلَمَاءِ بالعِقابِ عَلَىٰ شَهواتِ النَّفْسِ المَنهيِّ عَنْهَا

فَرَأَيْتُها مَرتَبَةً تُزاحِمُ الكُفرَ لَوْلا تَلوُّحُ مَعْنًىٰ، وهُو: أَنَّ النَّاسَ عِنْدَ مُواقعَةِ المَحظُورِ ينْقسِمُونَ:

فمِنْهُم جاهل بالمَحظُورِ أَنَّهُ مَحظورٌ، فهَذَا لَهُ نَوعُ عُذرٍ.

ومِنْهُم مَن يظُنُّ المَحظُورَ مَكرُوهًا لا مُحرَّمًا، فهَذَا قَريبٌ منَ الأوَّلِ، ورُبَّما دَخلَ في هَذَا القِسْم آدمُ ﷺ.

ومِنْهُم مَنْ يَتأوَّلُ فيغْلَطُ، كَمَا يُقالُ: إنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ نُهِيَ عَنْ شَجرَةٍ بعَينِها فأكَلَ من جِنسِها لا مِنْ عَينِهَا.

ومِنْهُم من يعْلَمُ التَّحرِيمَ، غَيْر أنَّ غَلباتِ الشَّهْوةِ أنْستْهُ تذَكُّرَ ذَلكَ، فشَغلَهُ مَا رَأىٰ عَمَّا يَعلَمُ؛ ولِهذَا لا يذْكُر السَّارقُ القَطعَ، بَلْ يَغيبُ بكُلِّيَّتِهِ في نَيلِ الحَظِّ. ولا يَذكُرُ رَاكِبُ الفَاحِشةِ الفَضِيحةَ ولا الحَدَّ؛ لأَنَّ مَا رَأىٰ يُذهِلُه عَمَّا يَعلَمُ.

ومِنْهُم منْ يَعلَمُ [الحَظرَ] ويذْكُرهُ، غَير أَنَّهُ يعْلَمُ سَعَةَ العَفوِ وعُمومَ المُسامَحةِ، فيَجعَلُ في نفْسهِ التَّوبَةَ وإنْ قدَّمَ المَعصِيةَ، كَمَا قَالَ إخْوةُ يُوسُفَ: ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ٩]، فهَذَا مُخاطرٌ، ورُبَّما استُنقِذَ بالتَّوبَةِ؛ لأَنَّهُ رَأَىٰ عَفوَ الكَريمِ أعْظَمَ من ذَنبِه.

غَيْر أنَّ الأَخْذَ بالحَزمِ أوْلَىٰ بالعَاقِلِ، كَيفَ وقَدْ عَلمَ أنَّ هَذَا المَلِك الحَليم قَطعَ اليَدَ في رُبعِ دِينارٍ، وهَدمَ بِناءَ الجِسمِ المُحكَمِ بالرَّجمِ بالحِجارَة لِالْتِذَاذِ سَاعةٍ، وخَسفَ، ومَسخَ، وأغْرقَ.

فَصْل

مَنْ تَأمَّلَ أفْعالَ [البَارِي] سُبحانَه رَآهَا عَلَى قَانونِ العَدلِ

وشَاهدَ الجَزاءَ مُرصَدًا للمُجازَىٰ ولَوْ بَعدَ حِينٍ، فَلا يَنْبغِي أَنْ يغْترَّ مُسامَحٌ؛ فالجَزاءُ قَدْ يَتأخَّرُ.

ومِنْ أقْبحِ الذُّنُوبِ الَّتِي قَدْ أُعِدَّ لَهَا الجَزاءُ العَظِيمُ: الإصْرارُ عَلَىٰ الذَّنْبِ، ثُمَّ يصَانعُ صَاحِبُه باسْتغفَارٍ، وصَلاةٍ، وتعَبُّدٍ، وعِندَه أنَّ المُصانَعةَ تَنفَعُ.

وأعْظَمُ الخَلقِ اغْترَارًا مَنْ أتَىٰ مَا يَكرهُهُ اللهُ وطَلَبَ مِنْهُ مَا يُحبُّهُ هُوَ، كَمَا رُوِيَ في الحَديثِ: «**والعَاجزُ منْ أتْبعَ نَفسهُ هواهَا وتَمنَّىٰ عَلَىٰ اللهِ الأمَانِيِّ**»(١).

ومِمَّا يَنْبَغِي للعَاقِلِ أَنْ يترَصَّد وُقوعَ الجَزاءِ؛ فَإِنَّ ابنَ سِيرينَ قَالَ: عَيَّرتُ رَجُلًا فقُلتُ: يَا مُفلِسْ. فَأفلَستُ بَعدَ أرْبعِينَ سَنةٍ.

وقَالَ ابنُ الجَلَّاءِ: رَآنِي شَيْخٌ لي وأنَا أنْظرُ إلىٰ أمْردَ فَقَالَ: مَا هَذَا؟ لتجِدنَّ غبَّهَا، فنَسيتُ القُرْآنَ بَعدَ أرْبعِينَ سَنَةٍ.

وبالضِّدِّ مِن هَذَا، كُلُّ مَنْ عَملَ خَيرًا أوْ صَحَّح نِيَّةً فليَنتَظرْ جَزاءَها الحَسَن، وإنِ امْتدَّتِ المُدَّةُ؛ قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٠]، وقَالَ ﷺ: «**مَنْ غَضَّ بَصرَه عَنْ مَحاسِنِ امْرأةٍ أثَابهُ اللهُ إيمَانًا يَجدُ حَلاوَتهُ في قَلبِهِ**»(٢).

فليَعلَمِ العَاقِلُ أنَّ مِيزَانَ العَدلِ لا يُحَابي.

---

(١) **إسناده ضعيف**: أخرجه من حديث شداد بن أوس: الترمذي (٢٤٥٩) وحسنه، وابن ماجه (٤٢٦٠)، وأحمد (١٧١٢٣)، وصححه الحاكم (١٩١) (٧٦٣٩) وتعقبه الذهبي. وقال ابن حجر في «تخريج مشكاة المصابيح» (٥/ ٤٩): «إسناده ضعيف».

(٢) **ضعف**: أخرجه: أحمد (٢٢٢٧٨)، والطبراني في (٧٨٤٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٤٣١) من حديث أبي أمامة. وأخرجه الحاكم (٧٨٧٥) وقال: صحيح الإسناد. وتعقبه الذهبي. والطبراني (١٠١٦٨)، والقضاعي (٢٩٢) من حديث حذيفة، بلفظ «إن النظرة سهم من سهام إبليس مسموم، من تركها من خوف الله أثابه ﷻ إيمانًا يجد حلاوته في قلبه». وأخرجه الطبراني أيضًا (١٠٣٦٢) من حديث ابن مسعود، بإسناد ضعيف. ويروىٰ عن ابن عمر عند القضاعي (٢٩٣)، وإسناده ضعيف أيضًا.

۞ فَصْلٌ ۞

تَأَمَّلتُ أحْوَالَ الصُّوفِيَّة والزُّهَّاد، فَوَجَدْتُ أكْثَرَها مُنحرِفًا عَنِ الشَّرِيعَةِ: بيْنَ جَهلٍ بالشَّرْعِ، وابْتداعٍ بالرَّأْيِ

يَستدِلُّونَ بآيَاتٍ لا يفْهمُونَ مَعناهَا، وبأَحادِيثَ لَها أَسْبابٌ وجُمهورُها لا يَثبُتْ.

فمِنْ ذَلِكَ: أَنَّهُمْ سَمِعُوا في القُرْآنِ العَزيزِ: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ ﴾ [الحديد: ٢٠]، ثُمَّ سَمِعُوا في الحَديثِ: «**لَلدُّنْيَا أَهْونُ عَلَىٰ اللهِ مِن شَاةٍ مَيتَةٍ عَلَىٰ أَهْلِهَا**»[1]، فبَالغُوا في هَجرِها مِن غَيْر بَحثٍ عَنْ حَقيقَتهَا، وذَلكَ أَنَّهُ مَا لَمْ يُعرَف حَقيقَةَ الشَّيْءِ فَلا يَجوزُ أَنْ يَمدَحَ، ولا أَنْ يَذمَّ.

فَإِذَا بَحثْنَا عَنِ الدُّنْيَا رَأينَا هَذِهِ الأَرْضَ البَسيطَةَ الَّتِي جُعلَتْ قَرارًا للخَلقِ تَخْرُجُ مِنهَا أَقْواتُهُم، ويُدْفَنُ فِيهَا أَمْواتُهُم، ومِثْل هَذَا لا يُذمُّ لمَوضعِ المَصلَحَة فِيهِ، ورَأيْنَا

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (٣٠٤٧)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٣٧٢١)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (٦٠)، وابن أبي الدنيا في «ذم الدنيا» (٣)، وأبو يعلىٰ (٢٥٩٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٨٩)، والبزار (٣٦٩١) من حديث ابن عباس. وهو معلول بعلة قد بينتها في «الإرشادات»، لكن المتن له شواهد عن أبي هريرة عند أحمد (٨٤٦٤)، والدارمي (٢٧٣٧)، وهناد في «الزهد» (٥٧٩)، وعن ابن أبي عاصم في «الزهد» (١٣٤). وعن جابر عند مسلم (٢٩٥٧)، وأحمد (١٤٩٣٠)، وأبي داود (١٨٦)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٩٦٢). وعن المستورد بن شداد عند أحمد (١٨٠١٣، ١٨٠٢١)، وابن ماجه (٤١١١). وعن عبد الله بن ربيعة السلمي عند أحمد (١٨٩٦٤)، والنسائي (٢/ ١٩). وعن سهل بن سعد عند ابن ماجه (٤١١٠). وعن أبي الدرداء عند البزار (٤١١٣). وعن أنس عنده أيضًا (٧٢٠١).

مَا عَلَيْهَا من مَاءٍ وزَرعٍ وحَيوانٍ كُلِّه لمَصالِحِ الآدمِيِّ، وفِيهِ حِفظٌ لسَببِ بَقائِهِ، ورَأَيْنا بَقاءَ الآدميِّ سَببًا لمَعرفةِ رَبِّه، وطَاعتِهِ إِيَّاهُ، وخِدمَتِه، ومَا كَانَ سَببًا لبَقاءِ العَارفِ العَابدِ يُمدَحُ ولا يُذَمُّ.

فبَانَ لَنَا أَنَّ الذَّمَّ إِنَّمَا هو لأفْعالِ الجَاهلِ أَوِ العَاصِي في الدُّنْيا؛ فإِنَّه إِذَا اقْتنَىٰ المَالَ المُباحَ وأَدَّىٰ زَكاتَه لَمْ يُلَمْ، فقَد عُلِمَ مَا خَلَّف الزُّبَيرُ وابنُ عوفٍ وغَيْرهمَا، وبَلغتْ صَدقةُ عَليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ أَرْبعِينَ أَلفًا، وخَلَّف ابنُ مَسعودٍ تِسعينَ أَلْفًا، وكَانَ اللَّيثُ بْن سَعدٍ يَستغلُّ كُلَّ سَنةٍ عِشرينَ أَلفًا، وكَانَ سُفيانُ يتَّجرُ بمَالٍ، وكَانَ ابنُ مَهديّ يَستغلُّ كُلَّ سَنةٍ أَلفَيْ دِينارٍ.

وإِنْ أَكْثَرَ من النِّكاحِ والسَّرارِي كَانَ مَمدُوحًا لا مَذمُومًا؛ فقَدْ كَانَ للنَّبيِّ ﷺ زَوجاتٌ وسَرَارِي، وجُمهُورُ الصَّحَابَة كَانُوا عَلَىٰ الإِكْثارِ مِنْ ذَلِكَ، وكَانَ لعَليِّ بْنِ أَبي طَالبٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ أَرْبعُ حَرائرَ، وسَبعَ عَشرَةَ أَمَة، وتزَوَّجَ ولَدُه الحَسنُ نَحوًا مِنْ أَرْبعمَائةٍ.

فإِنْ طَلبَ التَزوُّجَ للأَولادِ فهُو الغَايةُ في التَّعبُّدِ، وإِنْ أَرادَ التَّلذُّذَ فمُباحٌ يَندرِجُ فِيهِ مِنَ التَّعبُّد مَا لا يُحصَىٰ مِنْ إِعْفافِ نَفسهِ والمَرأَةِ، إِلىٰ غَيْرِ ذَلِكَ.

وقَد أَنفَقَ مُوسَىٰ عَلَيهِ السَّلامُ من عُمرِهِ الشَّرِيف عَشرَ سِنينَ في مَهرِ ابنةِ شُعيبٍ عَلَيهِ السَّلامُ؛ فَلَوْلا أَنَّ النِّكاحَ من أَفْضَل الأَشْياء، لَمَا ذَهبَ كَثِيرٌ من زَمَان الأَنْبيَاءِ فِيهِ، وقَدْ قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا: «خِيارُ هَذِهِ الأُمَّة أَكْثرُها نِساءً»[1]، وكَانَ يَطأُ جَاريةً لَهُ ويُنْزلُ في أُخْرَىٰ.

وقَالَت سُرِّيَّةُ الرَّبيع بْنِ خُيثم: كَانَ الرَّبيعُ يَعزِلُ.

وأَمَّا المَطْعَمُ؛ فالمُرادُ مِنْهُ تَقْويَة هَذَا البَدنِ لخِدمَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وحقٌّ عَلَىٰ ذِي النَّاقةِ أَنْ يُكرِمَها لتَحمِلهُ.

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠٦٩)، وأحمد (٢٠٤٨، ٢١٧٩، ٣٥٠٧)، والحاكم (٢٦٧٤).

وقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يأكُل مَا وَجدَ، فَإِنْ وَجدَ اللَّحمَ أكَلهُ، ويَأكُل لَحمَ الدَّجاجِ[١]، وأَحَبُّ الأَشْيَاء إِلَيْهِ الحَلوَىٰ والعَسَل[٢]، ومَا نُقِلَ عَنْهُ أَنَّهُ امْتنعَ مِنْ مُباحٍ.

وجِيءَ عَليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بفَالوذَجَ فأكلَ مِنْهُ، وقَالَ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: يَوْمَ النَّيْـرُوزِ. فقَالَ: نَورِزونَا كُلَّ يَوْمٍ.

وإِنَّمَا يُكرَهُ الأَكْلُ فَوْقَ الشِّبَعِ، واللُّبْسُ عَلَىٰ وَجْهِ الاخْتِيالِ والبَطرِ.

وقَدِ اقْتنَعَ أَقْوامٌ بالدُّونِ مِن ذَلِكَ؛ لأَنَّ الحَلال الصَّافِي لا يَكادُ يُمكِنُ فِيهِ تَحْصِيل المُرَادِ، وإِلَّا فَقدْ لَبسَ النَّبِيُّ ﷺ حُلَّةً اشْتُرِيَت بِسبعَةٍ وعِشرينَ بَعِيرًا.

وكَانَ لتَمِيم الدَّارِيِّ حُلَّةٌ اشْتُرِيتْ بأَلفِ دِرهَمٍ، يُصلِّي فِيهَا باللَّيلِ.

فَجاءَ أَقْوَامٌ فأَظْهرُوا التزهُّدَ، وابْتكَرُوا طَرِيقَةً زَيَّنَهَا لَهُمُ الهَوَىٰ، ثُمَّ تطلَّبُوا لَهَا الدَّلِيل، وإِنَّمَا يَنْبغِي للإِنْسَانِ أَنْ يتَّبعَ الدَّلِيلَ لا أَنْ يتَّبعَ طَرِيقًا ويتَطلَّبُ دَليلَهَا.

ثُمَّ انْقَسمُوا:

ومِنْهُم مُتصنِّعٌ فِي الظَّاهِر لَيثُ الشَّرَىٰ فِي البَاطنِ، يتَناولُ فِي خَلوَاتهِ الشَّهوَات، وينْعكِفُ عَلَىٰ اللَّذَّاتِ، ويُرِي النَّاسَ بِزِيِّهِ أَنَّهُ مُتصوِّف مُتزهِّدٌ، ومَا تَزَهَّدَ إِلَّا القَمِيصُ، وإِذَا نُظر إِلىٰ أَحْوَالِه فَعِنْدَه كِبْرُ فِرْعَوْنَ.

ومِنْهُم سَليمُ البَاطِنِ، إِلَّا أَنَّهُ بالشَّرْعِ جَاهِلٌ.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٣٨٥، ٥٥١٧)، ومسلم (١٦٤٩) من حديث أبي موسىٰ.

(٢) صحيح: أخرج البخاري (٥٤٣١)، ومسلم (١٤٧٤) من حديث عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل.

ومِنْهُم مَنْ تَصدَّرَ وصنَّفَ، فاقْتدَىٰ بِهِ الجَاهلُونَ في هَذِهِ الطَّرِيقَةِ، فكَانُوا كعُمْيٍ تَبِعُوا أعْمَىٰ، ولَوْ أنَّهُمْ تلمَّحُوا الأمْرَ الأوَّلَ الَّذِي كَانَ عَلَيهِ الرَّسُولُ ﷺ والصَّحَابَةُ رضي الله عنهم لَمَا زَلُّوا.

ولَقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ المُحقِّقينَ لا يُبالُونَ بمُعظَّمٍ في النُّفُوسِ إِذَا حَادَ عَنْ الشَّرِيعَةِ، بَلْ يُوسِعُونهُ لَوْمًا:

فنُقِلَ عَنْ أحْمدَ أنَّهُ قَالَ لَهُ المروزيُّ: مَا تَقُولُ في النِّكَاحِ؟ فَقَالَ: سُنَّة النَّبِيِّ ﷺ. فَقَالَ: فَقَدْ قَالَ إِبْرَاهيمُ بنُ أدْهَم. قَالَ: فَصاحَ بِي، وقَالَ: جِئتَنا ببُنيَّاتِ الطَّرِيقِ؟!

وقِيلَ لَهُ: إنَّ سرِيًّا السَّقطِيَّ قَالَ: لَمَّا خَلقَ اللهُ الحُروفَ وَقفَ الألِفُ وسَجدَتِ البَاءُ. فَقَالَ: نفِّرُوا النَّاسَ عَنهُ.

واعْلَمْ؛ أنَّ المُحقِّق لا يهولهُ اسْمُ مُعظَّمٍ، كَمَا قَالَ رَجلٌ لعَليِّ بْنِ أبِي طَالبٍ رضي الله عنه: أتَظنُّ أنَّا نَظنُّ أنَّ طَلحَةَ والزُّبَيْرَ كَانَا عَلَىٰ البَاطِلِ؟ فَقَالَ لَهُ: إنَّ الحَقَّ لا يُعرَفُ بالرِّجالِ، اعْرفِ الحَقَّ تَعرفْ أهْلَهُ.

ولَعمْرِي إنَّهُ قَدْ وَقرَ في النُّفُوسِ تَعظيمُ أقْوام، فَإذَا نُقِلَ عَنْهُم شَيْءٌ فسَمَعهُ جَاهِلٌ بالشَّرْعِ قَبلَهُ؛ لتَعْظِيمهِمْ في نَفْسِه، كَمَا يُنقَلُ عَنْ أبي يَزِيدِ رضي الله عنه أنَّهُ قَالَ: تَراعَنَتْ عَليَّ نَفْسِي فحَلفْتُ أنْ لا أشْرَب المَاءَ سَنةً.

وهَذَا إِذَا صَحَّ عَنْهُ كَانَ خَطأً قَبيحًا، وزَلَّةً فَاحِشَةً؛ لأَنَّ المَاءَ يُنفِذُ الأغْذِيَةَ إلىٰ البَدنِ، ولا يَقُومُ مَقامَهُ شَيْءٌ، فَإذَا لَمْ يَشرَبْ فَقدْ سَعَىٰ في أذَىٰ بَدنِهِ، وقَدْ كَانَ يُستعْذَبُ المَاءُ لرَسُولِ اللهِ ﷺ[1].

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٠٣٨) من حديث أبي هريرة. وأبو داود (٣٧٣٥) من حديث عائشة.

أفترىٰ هَذَا فِعْلَ مَنْ يعْلمُ أنَّ نَفْسه لَيسَتْ لَهُ، وأَنَّهُ لا يَجُوزُ التَّصرُّفُ فِيهَا إلَّا عَنْ إذْنِ مالِكِها!

وكَذَلكَ يَنقلُونَ عَنْ بَعْضِ الصُّوفِيَّةِ أَنَّهُ قَالَ: «سِرتُ إلىٰ مَكَّةَ عَلَىٰ طَرِيقِ التَّوكُّلِ حَافيًا، فكَانتْ الشَّوكَةُ تَدخلُ في رِجْلي فأحُكَّها بالأَرْضِ ولا أرْفَعهَا، وكَانَ عَليَّ مسْحٌ، فكَانتْ عَينِي إذَا آلَمتْنِي أدْلكُهَا بالمسْحِ؛ فذَهبَتْ إحْدَىٰ عَينَيَّ»، وأمْثَالُ هَذَا كَثِيرٌ.

ورُبَّما حَملَهَا القصَاصُ عَلَىٰ الكَرامَاتِ، وعظَّمُوها عِنْدَ العَوامِّ، فيُخَايلُ لَهُم أنَّ فَاعِلَ هَذَا أعْلَىٰ مَرتَبةً من الشَّافِعيِّ، وأحْمَد.

ولَعَمْرِي، إنَّ هَذَا من أعْظَمِ الذُّنُوبِ وأقْبحِ العُيوبِ؛ لأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَالَ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ﴾ [النساء: ٢٩].

وقَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**إنَّ لنَفسِكَ عَليكَ حَقًّا**»(١).

وقَد طَلبَ أَبُو بَكْر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في طَرِيق الهِجْرَةِ للنَّبيِّ ﷺ ظِلًّا، حَتَّىٰ رَأَىٰ صَخرَةً ففَرشَ لَهُ في ظِلِّهَا.

وقَدْ نُقلَ عَنْ قُدماءِ هَذِهِ الأُمَّةِ بِدايَات هَذَا التَّفرِيطِ، وكَانَ سَببهُ مِنْ وَجهَينِ:

أحَدُهُمَا: الجَهلُ بالعِلمِ، والثَّانِي: قُربُ العَهدِ بالرَّهبانِيَّةِ.

وقَدْ كَانَ الحَسنُ يَعيبُ فَرقَدَ السّنجِيَّ ومَالكَ بْنَ دِينارٍ في زُهدهِمَا، فرُؤيَ عِندَهُ طَعامٌ فِيهِ لَحمٌ، فَقَالَ: لا رَغيفَيْ مَالِك، ولا صحْنَيْ فَرْقَد.

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (١٣٦٩)، وأحمد (٢٦٣٠٨) من حديث عائشة. والدارمي (٢١٦٩) من حديث سعد بن أبي وقاص. والترمذي (٢٤١٣)، وابن خزيمة (٢١٤٤) من حديث أبي جحيفة. وأحمد (٦٨٧٨) والحاكم (٦٩٠٠) من حديث عبد الله بن عمرو.

ورَأَىٰ عَلَىٰ فرقد كِساءً فقَالَ: يَا فرقدُ، إنَّ أكثر أَهْلِ النَّارِ أصْحَابُ الأكْسيَةِ.

وكَمْ قَدْ زَوَّق قَاصٌّ مَجلِسهُ بذِكرِ أقْوَام خَرجُوا إلىٰ السِّياحَةِ بلا زَاد ولا مَاء وهُوَ لا يعْلمُ أنَّ هَذَا من أقْبحِ الأفْعَالِ، وأنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لا يُجرَّبُ عَليْهِ.

فرُبَّمَا سَمِعهُ جَاهِلٌ من التَّائِبِينَ فخَرجَ فَماتَ في الطَّرِيقِ، فصَارَ للقَائلِ نَصيبٌ من إثْمِهِ.

وكَمْ يَرْوونَ عَنْ ذِي النُّونِ أنَّهُ لَقِي امْرأةً في السِّياحَةِ فكلَّمهَا وكَلَّمتهُ، وينْسُونَ الأحَاديثَ الصِّحاحَ: «**لا يَحلُّ لامْرأةٍ أنْ تُسافِرَ يومًا ولَيلةً إلَّا بِمحْرَمٍ**»[1].

وكَمْ ينْقلُونَ أنَّ أقْوَامًا مَشَوْا عَلَىٰ المَاءِ، وقَدْ قَالَ إبْرَاهِيمُ الحَرِبيّ: «لا يَصِحُّ أنَّ أحَدًا مَشَىٰ عَلَىٰ المَاءِ قَطُّ».

فَإذَا سَمِعُوا هَذَا قَالُوا: أتُنكِرونَ كَرَامَاتِ الأوْليَاءِ الصَّالِحِينَ؟ فنَقُولُ: لَسنَا من المُنكِرينَ لَهَا، بَلْ نَتَّبِعُ مَا صَحَّ، والصَّالحُونَ هُمُ الَّذِينَ يتَّبعونَ الشَّرْعَ، ولا يتعبَّدُونَ بآرَائِهمْ. وفي الحَديثِ: «**إنَّ بَنِي إسْرَائِيلَ شَدَّدُوا فشَدَّدَ اللهُ عَلَيهِم**».

وكَمْ يحُثُّونَ عَلَىٰ الفقْرِ حَتَّىٰ حملُوا خَلْقًا عَلَىٰ إخْراجِ أمْوالِهمْ، ثُمَّ آلَ بِهِمُ الأمْرُ إمَّا إلىٰ التَّسخُّطِ عِنْدَ الحَاجةِ، وإمَّا إلىٰ التَّعرُّضِ بسُؤالِ النَّاسِ.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٠٨٨)، ومسلم (١٣٣٩)، وأحمد (٧٢٢٢)، وأبو داود (١٧٢٤)، والترمذي (١١٧٠)، وابن ماجه (٢٨٩٩)، وابن خزيمة (٢٥٢٣)، وابن حبان (٢٧٣٢، ٣٧٥٨) من حديث أبي هريرة. ويروىٰ بنحوه عن ابن عباس، عند مسلم (١٣٤١) وأحمد (٣٢٣١). وعن ابن عمر، عند البخاري (١٠٨٧)، ومسلم (١٣٣٨). وعن عبد الله بن عمرو، عند أحمد (٦٧١٢). وعن أبي سعيد الخدري، عند أحمد (١١٠٤٠).

وكَمْ تَأذَّىٰ مُسلِمٌ بأمْرِهِم النَّاسَ بالتَّقلُّلِ، وقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**ثُلُثٌ طَعامٌ، وثُلُثٌ شَرابٌ، وثُلُثٌ نَفَسٌ**»(١)، فَمَا قَنعُوا حَتَّىٰ أمَرُوا بالمُبالغَةِ في التَّقلُّلِ، فحَكَىٰ أَبُو طَالِب المَكيِّ في «قُوتِ القُلوبِ»: أنَّ فِيهِمْ مَنْ كَانَ يزِنُ قُوتَهُ بكَرْبَةٍ رَطبَةٍ، ففِي كُلِّ لَيلَةٍ يذْهبُ مِنْ رُطوبَتها قَليلٌ، وكُنتُ أنَا مِمَّنْ اقْتدَىٰ بقَوْلِه في الصِّبَا فضَاقَ المَعيُ وأوْجبَ ذَلِكَ مَرضَ سِنينَ.

أفتَرَىٰ هَذَا شَيئًا تَقتضِيهِ الحِكمَةُ، أوْ نَدبَ إلَيْهِ الشَّرْعُ؟! وإنَّمَا مَطيَّةُ الآدَميِّ قُواهُ، فَإذَا سَعَىٰ في تَقليلِها ضَعفَ عَنِ العِبادَةِ.

ولا تَقُولنَّ: الحُصولُ عَلَىٰ الحَلالِ المَحضِ مُستحِيلٌ، لِذلِكَ وَجبَ الزُّهْد تَجنُّبًا للشُّبُهاتِ، فَإنَّ المُؤمنَ حَسْبهُ أَنْ يتَحرَّىٰ في كَسبِهِ هُوَ الحَلالُ ولا عَلَيهِ مِنَ الأصُولِ الَّتِي نَبتتْ مِنْ هَذِهِ الأمْوالِ.

فإنَّا لَوْ دَخلنَا دَيارَ الرُّومِ فوَجدْنَا أثْمانَ الخُمورِ وأُجرَةَ الفُجُورِ كَانَ لَنَا حَلالًا بوصْفِ الغَنيمَةِ.

أفتُرِيدُ حَلالًا عَلَىٰ مَعْنىٰ أنَّ الحَبَّة مِنَ الذَّهبِ لَمْ تَنتقِلْ مُذْ خَرجَتْ من المَعدَنِ عَلَىٰ وَجْهٍ لا يَجُوزُ.

فَهذَا شَيْءٌ لَمْ يَنظرْ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

أوَلَيْس قَدْ سَمعْتَ أنَّ الصَّدقَةَ عَلَيهِ حَرامٌ، فلَمَّا تُصُدِّقَ عَلَىٰ بَرِيرَةَ بلَحْمٍ فأهْدتْهُ جَازَ لَهُ أكْلُ تِلْكَ العَينِ؛ لتَغيُّرِ الوَصفِ.

---

(١) **صحيح**: أخرجه من حديث المقدام بن معد يكرب: الترمذي (٢٣٨٠) وقال: حسن صحيح، والنسائي (٦٧٦٨)، وابن ماجه (٣٣٤٩)، وابن حبان (٥٢٣٦)، والحاكم (٧١٣٩، ٧٩٤٥) وقال: صحيح الإسناد.

وقَدْ قَالَ أحْمَدُ بْن حَنبْلَ: أكْرَه التَّقلُّل من الطَّعَامِ؛ فَإِنَّ أقْوَامًا فَعلُوهُ فعَجزُوا عَنِ الفَرَائِضِ.

وهَذَا صَحِيحٌ؛ فَإن المُتقَلِّل لا يَزَال يَتقلَّل إلىٰ أَنْ يعْجَز عَنِ النَّوافِلَ ثُمَّ الفَرَائِض، ثُمَّ يعْجَزُ عَنْ مُباشَرةِ أهْلهِ وإعْفافِهِمْ، وعَنْ بَذلِ القُوَىٰ في الكَسبِ لَهُمْ، وعَنْ فِعلِ خَيرٍ قَدْ كَانَ يفْعلُهُ، ولا يَهُولنَّكَ مَا تَسمَعهُ من الأحَادِيثِ الَّتِي تَحُثُّ عَلَىٰ الجُوعِ؛ فَإنَّ المُرَاد بِهَا إمَّا الحَثُّ عَلَىٰ الصَّوْمِ، وإمَّا النَّهْيُ عَنْ مُقَاومَة الشِّبَعِ، فأمَّا تَنقِيصُ المَطْعمِ عَلَىٰ الدَّوَامِ، فمُؤثِّرٌ في القُوَىٰ، فَلا يَجُوزُ.

ثُمَّ في هَؤُلاءِ المَذْمُومِينَ من يَرَىٰ هَجرَ اللَّحْمِ والنَّبِيُّ ﷺ كَانَ يودُّ أَنْ يَأكُلهُ كُلَّ يَوْمٍ.

واسْمَعْ مِنِّي بلا مُحَاباةَ: لا تَحتجَّنَّ عَليَّ بأسْماءِ الرِّجَالِ فتَقُولُ: قَالَ بِشرٌ، وقَالَ إبْرَاهِيمُ بْن أدْهَم؛ فَإنَّ من احْتجَّ بالرَّسُولِ ﷺ وأصْحَابه -رِضْوانُ اللهِ عَلَيهِم- أقْوَىٰ حُجَّةً، عَلَىٰ أنَّ لأفعالِ أولَئِكَ وُجُوهًا نحْملُها عَلَيهِم بحُسْنِ الظَّنِّ.

ولَقَدْ ذَاكرْتُ بَعْضَ مَشَايخنَا مَا يُروَىٰ عَنْ جَمَاعَةٍ من السَّادَاتِ أنَّهُمْ دَفنُوا كُتبَهِمْ، فقُلتُ لَهُ: مَا وَجْهُ هَذَا؟ فقَالَ: أحْسنُ مَا نَقُولُ أنْ نَسكُتَ؛ يُشيرُ إلىٰ أنَّ هَذَا جَهلٌ من فَاعِلهِ.

وتَأوَّلتُ أنَا لَهُمْ فقُلْتُ: مَا دَفنُوا من كُتبِهِمْ فِيهِ شَيْءٌ منَ الرَّأْي، فَمَا رَأوْا أَنْ يَعمَلَ النَّاسُ بِهِ.

ولَقَدْ رُوِّينَا في الحَدِيثِ عَنْ أحْمَد بْن أَبِي الحَوارِيِّ: أَنَّهُ أخَذَ كُتبَه فرَمَىٰ بِهَا في البَحرِ وقَالَ: نِعمَ الدَّلِيلُ كُنتَ، ولا حَاجَةَ لَنَا إلىٰ الدَّلِيل بَعْدَ الوُصُولِ إلىٰ المَدلُولِ؟

وهَذَا - إِذَا أحْسنَّا بِهِ الظَّنَّ - قُلنَا: كَانَ فِيهَا من كَلامهم مَا لا يرتَضيهِ. فأَمَّا إِذَا كَانَتْ عُلومًا صَحِيحةً كَانَ هَذَا من أفْحشِ الإضَاعةِ، وأنَا وإنْ تَأوَّلتُ لَهُمْ هَذَا فَهُو

تَأْوِيلٌ صَحِيحٌ فِي حَقِّ العُلَمَاءِ مِنْهُم؛ لأَنَّا قَدْ رُوِّينا عَنْ سُفيَان الثَّورِيِّ أَنَّهُ قَدْ أَوْصَىٰ بدَفنِ كُتبِهِ، وكَانَ نَدِمَ عَلَىٰ أَشْيَاءَ كَتَبهَا عَنْ قَوْمٍ وقَالَ: «حَملَنِي شَهْوَةُ الحَدِيثِ»، وهَذَا لأَنَّهُ كَانَ يَكتُبُ عَنِ الضُّعفَاءِ والمَترُوكِين، فكَأَنَّهُ لَمَّا عَسُرَ عَلَيهِ التَّمْيِيزُ أَوْصَىٰ بدَفْنِ الكُلِّ.

وكَذَلكَ من كَانَ لَهُ رَأْيٌ من كَلامِهِ ثُمَّ رَجعَ عَنْهُ جَازَ أَنْ يَدفِنَ الكُتُب الَّتِي فِيهَا ذَلِكَ، فهَذَا وَجْهُ التَّأْوِيل لِلعُلَماءِ.

فأَمَّا المُتزهِّدونَ الَّذِينَ رَأَوْا صُورَةَ فِعلِ العُلَمَاء، ودَفنُوا كُتبًا صَالِحَةً؛ لِئلَّا تَشغلَهُم عَنِ التَّعبُّد فإِنَّه جَهلٌ مِنهُم؛ لأَنَّهُم شَرَعُوا في إِطْفاءِ مِصْبَاح يُضِيءُ لَهُمْ، مع الإِقْدَام عَلَىٰ تَضيِيعِ مَال لا يَحِلُّ تَضْيِيعهُ.

ومن جُمْلَة من عَملَ بوَاقِعَةِ دَفنِ كُتُبِ العِلْمِ يُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ، ثُمَّ لَمْ يَصْبِرْ عَنِ التَّحْدِيثِ فخَلطَ فعُدَّ في الضُّعفَاءِ.

أَنْبَأَنَا عَبْدُ الوَهَّابِ بْن المُبَارَك قَالَ: أَخْبَرَنا مُحمَّد بْن المُظفَّرِ الشَّامِيُّ قَالَ: أَخْبَرَنا أَحْمَدُ بْن مُحمَّد العُتَيقِيّ قَالَ: حدَّثَنَا يُوسُفُ بْن أَحْمَد قَالَ: حدَّثَنَا مُحمَّد بْن عَمْرو العُقيلِيّ، قَالَ: حدَّثَنَا مُحمَّد بْن عِيسَىٰ قَالَ: أَخْبَرَنا أَحْمَد بْن خَالِد الخَلَّال قَالَ: سَمِعتُ شُعَيْبَ بْنَ حَربٍ يَقُولُ: قُلْتُ لِيُوسُفَ بْنَ أَسْبَاطٍ: كَيْفَ صَنعْتَ بكُتبِكَ؟ قَالَ: «جِئتُ إِلىٰ الجَزيرَةِ، فلَمَّا نَضبَ المَاءُ دفَنْتُها حَتَّىٰ جَاءَ المَاءُ عَلَيْهَا فذَهَبتْ.

قُلْتُ: مَا حَملكَ عَلَىٰ ذَلِكَ؟ قَالَ: أَرَدْتُ أَنْ يَكُونَ الهَمُّ هَمًّا وَاحِدًا».

قَالَ العُقَيليّ: وحَدَّثنِي آدمُ قَالَ: سَمِعتُ البُخَاريَّ قَالَ: قَالَ صَدَقَةُ: دَفنَ يُوسُفُ بْن أَسْبَاطٍ كُتبَه، وكَانَ بَعدُ يَغلِبُ عَلَيهِ الوَهْم فَلا يَجِيءُ كَمَا يَنبَغِي.

قَالَ المُؤلِّفُ: قُلْتُ: الظَّاهِرُ أَنَّ هَذِهِ كُتُب عِلمٍ يَنفَعُ، ولَكِنَّ قِلَّةَ العِلْمِ أوْجَبَتْ هَذَا التَّفرِيط الَّذِي قُصِدَ بِهِ الخَيْر وهُوَ شَرٌّ.

فَلَوْ كَانَتْ كُتبَهُ من جِنْسِ كُتُبِ الثَّورِيِّ فَإِن فِيهَا عَنْ ضُعَفَاءَ ولَمْ يَصِحَّ لَهُ التَّمْييزُ قُرْب الحَال، إنَّمَا تَعلِيلهُ بجَمْعِ الهَمِّ هُوَ الدَّلِيلُ عَلَىٰ أَنَّهَا لَيسَتْ كَذَلكَ، فانْظُر إلىٰ قِلَّةِ العِلْمِ مَاذَا تُؤثِّرُ مع أَهْلِ الخَيْرِ.

ولَقَدْ بَلغَنَا فِي الحَدِيثِ عَنْ بَعْضِ من نُعظِّمهُ، ونَزُورهُ أَنَّهُ كَانَ عَلَىٰ شَاطِئِ دِجْلَة فَبالَ ثُمَّ تيمَّم، فقِيلَ لَهُ: المَاءُ قَرِيبٌ مِنْك. فَقَالَ: خِفتُ أنْ لا أبْلغَهُ.

وهَذَا وإنْ كَانَ يَدُلّ عَلَىٰ قِصْرِ الأَمَلِ إلَّا أَنَّ الفُقَهَاء إِذَا سَمِعُوا عَنْهُ مِثلَ هَذَا الحَدِيثِ تَلاعَبُوا بِهِ من جِهَةِ أَنَّ التَّيمُّم إِنَّمَا يَصِحُّ عِنْدَ عَدَمِ المَاء.

فَإِذَا كَانَ المَاءُ مَوجُودًا كَانَ تَحرِيكُ اليَديْنِ بالتَّيمُّم عَبثًا، ولَيْسَ من الضَّروريِّ وُجُود المَاء أَنْ يَكُونَ إلىٰ جَانِبِ المُحدِث، بَلْ لَوْ كَانَ عَلَىٰ أذْرُعَ كَثيرَةٍ كَانَ مَوجُودًا، فَلا فِعلَ للتَّيمُّمِ ولا أثَرَ حِينئِذٍ.

ومَن تَأمَّل هَذِهِ الأَشْيَاءَ عَلمَ أنَّ فَقِيهًا وَاحِدًا -وإنْ قَلَّ أَتبَاعهُ وخفت إِذَا مَاتَ أشْياعَهُ- أفْضَلُ من أُلوفٍ تَتمسَّحُ العَوامُّ بِهِمْ تبرُّكًا، ويُشيِّعُ جَنَائِزهُم مَا لا يُحْصَىٰ.

وهَلِ النَّاسُ إلَّا صَاحِبُ أَثَرٍ نَتَّبعهُ، أوْ فَقِيهُ يفْهَمُ مُرَادَ الشَّرْعِ ويُفتِي بِهِ؟

نَعُوذُ باللهِ من الجَهْلِ، وتَعظِيمِ الأَسْلافِ تَقلِيدًا لَهُم بغَيْرِ دَلِيل.

فإن مَنْ وَردَ المَشرَب الأَوَّل رَأَىٰ سَائِر المَشَارِب كُدرةً.

والمِحنَة العُظمَىٰ مَدائحُ العَوامِّ؛ فَكَمْ غرَّتْ؟!

كَمَا قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «مَا أَبقَىٰ خَفق النِّعَالِ وَراءَ الحَمقَىٰ من عُقُولِهم شَيئًا».

ولَقَدْ رَأينا وسَمِعْنا من العَوامِّ أَنَّهُمْ يمْدحُون الشَّخْصَ فيَقُولُونَ: لا يَنام اللَّيْل، ولا يُفطِرُ النَّهار، ولا يَعرِفُ زَوجَة، ولا يذُوقُ من شَهَواتِ الدُّنْيَا شَيئًا، قَدْ نَحلَ جِسْمهُ، ودَقَّ عَظمُهُ، حَتَّىٰ إِنَّهُ يُصلِّي قَاعِدًا، فَهُو خَيرٌ من العُلَمَاءِ الَّذِي يَأكلُونَ ويتَمتَّعُونَ.

ذَلِكَ مَبلَغهُم من العِلْمِ، ولَوْ فقهُوا علمُوا أَنَّ الدُّنْيَا لَوْ اجْتمَعتْ في لُقمَة فتَناوَلَها عَالِمٌ يُفتِي عَنِ الله، ويُخبِرُ بشَرِيعَتِهِ كَانَتْ فَتوَىٰ وَاحِدَةٌ مِنْهُ يُرشِدُ بِهَا إِلىٰ اللهِ تَعالَىٰ خَيرًا وأَفْضَلَ من عِبادَةِ ذَلِكَ العَابِد بَاقِي عُمرِهِ.

وقَدْ قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «فَقيهٌ وَاحِدٌ أَشدُّ عَلَىٰ إبْلِيسَ من أَلْفِ عَابِد».

ومن سَمعَ هَذَا الكَلامَ فَلا يظُنَّنَ أَنَّنِي أَمْدَحُ من لا يعْمَلُ بعِلمِهِ، وإنَّمَا أَمْدَحُ العَامِلِينَ بالعِلْمِ، وهُم أَعْلَمُ بمَصَالحِ أَنْفُسهُمْ، فَقدْ كَانَ فِيهِمْ من يصْلُح عَلَىٰ خَشِنِ العَيْشِ كأَحْمَد بْن حَنْبَل، وكَانَ فِيهِمْ من يَسْتعمِلُ رَقِيق العَيْشِ كسُفيَانِ الثَّورِيِّ مع وَرَعِهِ، ومَالِك مع تَديُّنِهِ، والشَّافِعيّ مع قُوَّة فِقهِهِ.

ولا يَنْبغِي أَنْ يُطالَبَ الإنْسَانُ بما يقْوَىٰ عَلَيهِ غَيرُهُ فيَضعُف هُوَ عَنْهُ؛ فَإِنَّ الإنْسَانَ أَعْرفُ بصَلاحِ نَفْسهِ، وقَدْ قَالَتْ رَابعَةُ: «إنْ كَانَ صَلاحُ قَلْبكَ فِي الفَالوذَج فكُلْهُ»، ولا تَكونَنَّ أَيُّهَا السَّامِعُ مِمَّنْ يَرَىٰ صُوَر الزُّهْد؛ فرُبَّ مُتنعِّمٍ لا يُرِيدُ التَّنعُّم، وإنَّمَا يقْصِد المَصلَحَةَ.

ولَيْسَ كُلُّ بَدَنٍ يقْوَىٰ عَلَىٰ الخُشُونَةِ خُصوصًا مَنْ قَدْ لاقَىٰ الكَدَّ، وأَجْهدَهُ الفِكرُ، أَوْ أَمَضَّهُ الفَقْرُ، فإِنَّه إنْ لَمْ يرْفِقْ بنَفْسهِ تَركَ وَاجِبًا عَلَيهِ من الرِّفْقِ بِهَا.

فهَذِهِ جُمْلَةٌ لَوْ شَرحْتُها بذِكرِ الأَخْبَار والمنَقُولاتِ لَطالَتْ، غَيْرَ أَنِّي سَطرتُها عَلَىٰ عَجَلٍ حِينَ جَالتْ فِي خَاطِرِي، واللهُ وَلِيُّ النَّفع بِرحْمتِهِ.

فَصْل

قَدْ أُشكِلَ عَلَى النَّاسِ أمْرُ النَّفْسِ ومَاهيَّتها؛ مع إجْماعِهِمْ عَلَى وُجودِهَا ولا يَضرُّ الجَهْل بذَاتِها مع إثْباتِهَا، ثُمَّ أُشكِلَ عَلَيهِم مَصيرُهَا بَعدَ المَوْتِ

ومَذْهَبُ أَهْلِ الحَقِّ أنَّ لَهَا وُجُودًا بَعدَ مَوتِها، وأنَّهَا تُنعَّمُ وتُعذَّبُ.

قَالَ أحْمَدُ بْن حَنْبَل: «أرْوَاحُ المُؤْمِنينَ في الجَنَّةِ، وأرْوَاحُ الكُفَّارِ في النَّارِ».

وقَدْ جَاءَ في أحَادِيثِ الشُّهَداءِ: «أنَّهَا في حَواصِلِ طَيرٍ خُضرٍ تعلقُ من شَجرِ الجَنَّةِ»[1].

وقَدْ أخَذَ بَعْضُ الجَهْلةِ بظَواهِرِ أحَادِيثَ النَّعِيمِ فقَالَ: إنَّ المَوْتَىٰ يَأكلُونَ في القُبُورِ، ويَنكِحُونَ.

والصَّوَابُ من ذَلِكَ أنَّ النَّفْسَ تَخرُجُ بَعدَ المَوْتِ إلىٰ نَعِيمٍ أوْ عَذابٍ، وأنَّهَا تَجدُ ذَلِكَ إلىٰ يَوْمِ القِيامَةِ، فإذَا كَانَتْ القِيامَةُ أعِيدتْ إلىٰ الجَسَدِ؛ ليتكامَلَ لَهَا التَّنعُّم بالوَسائِطِ، وقَولُهُ: «في حَواصِلِ طَيرٍ خُضرٍ» دَلِيلٌ عَلَىٰ أنَّ النُّفُوسَ لا تنالُ لَذَّة إلَّا بوَاسِطَة، إلَّا أنَّ تِلْكَ اللَّذَّة لَذَّةُ مَطعَمٍ أوْ مَشرَبٍ، فأمَّا لذَّاتُ المَعارِفِ والعُلومِ فيَجُوزُ أنْ تنالَها بذَاتِها مع عَدَمِ الوَسَائِط.

والمَقصُودُ من هَذَا المَذكُور أنِّي رَأيْتُ بَعْضَ الانْزِعاجِ من المَوْتِ، ومُلاحَظةَ النَّفْسِ بعَينِ العَدَمِ عِندَهُ فقُلتُ لَهَا: إنَّ كُنْتِ مصدَقَةً للشَّريعَةِ فقدْ أخبرتِ بمَا تَعرِفينَ، ولا وَجْهَ للإنْكَارِ، وإنْ كَانَتْ هُنَاكَ رِيبٌ في أخْبَارِ الشَّرِيعَةِ صَارَ الكَلامُ في بَيَانِ صِحَّةِ الشَّريعَةِ.

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٨٨٧) من حديث عبد الله بن مسعود بنحوه. وأخرجه أحمد (٢٣٨٨) من حديث ابن عباس.

فَقَالَت: لا رَيبَ عِندِي، قُلْتُ: فاجْتهِدِي في تصَحِيحِ الإِيمَانِ، وتَحقِيقِ التَّقوَىٰ، وأبشِرِي حِينئِذٍ بالرَّاحَةِ من سَاعَةِ المَوْتِ.

فَإنِّي لا أخَافُ عَلَيْكِ إلَّا من التَّقصِيرِ في العَمَلِ.

واعْلمِي أنَّ تفَاوُتَ النَّعِيمِ بمِقدَارِ دَرجَاتِ الفَضائِلِ، فارْتفِعِي بأجْنِحَةِ الجِدِّ إلىٰ أعْلَىٰ أبْراجِها، واحْذَرِي من قَانصِ هَوَىٰ، أوْ شَرَكِ غِرَّةٍ، واللهُ المُوفِّقُ.

❁ فَصْل ❁

قُلتُ يومًا في مَجلِسِي: لَوْ أنَّ الجِبالَ حَمَلَتْ مَا حُمِّلْتُ لعَجزَتْ

فلَمَّا عُدتُ إلىٰ مَنزِلِي قَالَتْ لِي النَّفْسُ: كَيْفَ قُلْتَ هَذَا؟ ورُبَّما أوهمَ النَّاسَ أنَّ بِكَ بَلاءٌ، وأَنتَ في عَافِيَةٍ في نَفْسِكَ وأهْلكَ! وهَلِ الَّذِي حُمِّلْتَ إلَّا التَّكلِيفُ الَّذِي يحْملُهُ الخَلْقُ كُلُّهُم؛ فَمَا وَجْهُ هَذِهِ الشَّكوَىٰ؟!

فأجَبتُها: إنِّي لَمَّا عَجزْتُ عَمَّا حَملتُ قُلْتُ هَذِهِ الكَلمَةَ لا عَلَىٰ سَبيلِ الشَّكوَىٰ ولَكِنْ للاسْتروَاحِ، وقَدْ قَالَ كَثِيرٌ من الصَّحَابَةِ والتَّابِعينَ قَبلِي: لَيتَنا لَمْ نُخلَقْ؛ ومَا ذَاكَ إلَّا لأثْقالٍ عَجزُوا عنهَا.

ثُمَّ من ظَنَّ أنَّ التَّكالِيف سَهلةٌ فَمَا عرفَها.

أتُرَىٰ يَظُنُّ الظَّانُّ أنَّ التَّكالِيفَ غَسلُ الأعْضاءِ برَطلٍ من المَاءِ، أوْ الوُقوفُ في مِحرابٍ لأدَاءِ رَكعتَينِ؟ هَيهاتَ! هَذَا أسْهلُ التَّكلِيفِ.

وإنَّ التَّكلِيفَ هُوَ الَّذِي عَجزَتْ عَنْهُ الجِبَالُ، ومن جُملَتِهِ: أنَّنِي إذَا رَأيْتُ القَدرَ يَجرِي بِمَا لا يَفهَمهُ العَقْلُ ألزمتُ العَقْلَ الإذْعانَ للمُقدِّرِ، فكَانَ من أصْعبِ

التَّكلِيفِ، وخُصوصًا فِيمَا لا يَعلمُ العَقْلُ مَعنَاهُ كإِيلامِ الأطْفالِ، وذَبحِ الحَيوانِ، مع الاعْتِقَادِ بأنَّ المُقدِّر لِذلِكَ والآمِرَ بِهِ أرْحمُ الرَّاحِمين.

فَهذَا مِمَّا يَتحيَّرُ العَقْلُ فِيهِ فيَكُونُ تَكلِيفهُ التَّسْلِيمُ وتَرْك الاعْتِرَاضِ.

فكَمْ بَينَ تَكليفِ البَدَنِ وتَكليفِ العَقْلِ!

ولَوْ شَرحتُ هَذَا لَطالَ، غَيرَ أنِّي أعتَذِرُ عمَّا قُلتُه فَأقُولُ عَنْ نَفْسِي، ومَا يلْزمُنِي حَالُ غَيرِي: إنِّي رَجُلٌ حُبِّب إليَّ العِلْمُ من زَمَنِ الطُّفُولَةِ فتَشاغَلتُ بِهِ، ثُمَّ لَمْ يُحبَّبْ إليَّ فَنٌّ وَاحِدٌ مِنهُ بَلْ فُنونَه كُلَّها، ثُمَّ لا تَقتصِرُ هِمَّتِي في فَنٍّ عَلَىٰ بَعضِهِ بَلْ [تَرومُ] اسْتقصَاءَه، والزَّمَانُ لا يَسعُ، والعُمرُ أضْيقُ، والشَّوقُ يَقْوَىٰ، والعَجزُ يَظهرُ فَيبقَىٰ وقُوفُ بَعْضِ المَطلُوباتِ حَسراتٌ، ثُمَّ إنَّ العِلْمَ دلَّنِي عَلَىٰ مَعرفَةِ المَعبُودِ، وحثَّنِي عَلَىٰ خِدمَتِه، ثُمَّ صَاحتْ بي الأدِلَّةُ عَلَيهِ إلَيْهِ، فوقَفتُ بَينَ يَديهِ فرَأيتُه في نَعتِهِ، وعَرفتُهُ بصِفاتِهِ.

وعَاينَتْ بَصيرَتِي من ألْطافِهِ مَا دَعانِي إلىٰ الهَيمَانِ في مَحبَّتِهِ، وحرَّكنِي إلىٰ التَّخلِّي لخِدمتهِ، وصَارَ يمْلكُنِي أمْرٌ كالوَجدِ كُلَّمَا ذَكرتُهُ، فعَادتْ خَلوتِي في خِدمتِي لَهُ أحْلَىٰ عِندِي من كُلِّ حَلاوَةٍ، فكُلَّما مِلتُ إلىٰ الانْقِطَاعِ عَنِ الشَّواغِلِ إلىٰ الخَلوَةِ صَاحَ بِي العِلْمُ: أيْنَ تَمضِي؟! أتُعرِضُ عَنِّي وأنَا سَبَبُ مَعرِفتكَ بِهِ!

فأَقُولُ لَهُ: إنَّمَا كُنْتَ دَلِيلًا، وبعْدَ الوُصُولِ يُستغنَىٰ عَنِ الدَّلِيلِ.

قَالَ: هَيهَاتَ! كُلَّمَا زِدتَ زَادتْ مَعرِفتَكَ بمَحبُوبِكَ، وفَهمتَ كَيْفَ القُربَ مِنْهُ، ودَلِيلُ هَذَا أنَّكَ تَعلمُ غَدًا أنَّكَ اليَومَ في نُقصَانٍ، أوْ مَا تَسمَعهُ يَقُولُ لنبيِّهِ ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] ثُمَّ ألستَ تَبغِي القُربَ مِنهُ؟ فاشْتغلَ بدَلالَةِ عِبادِهِ عَلَيْهِ؛ فَهِيَ حَالاتُ الأنْبيَاءِ عَلَيهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ، أمَا عَلِمتَ أنَّهُمْ آثَرُوا تَعلِيمَ الخَلْقِ عَلَىٰ خَلوَاتِ التَّعبُّدِ؛ لعِلمِهِمْ أنَّ ذَلِكَ آثَرُ عِنْدَ حَبِيبِهِمْ؟

أَمَا قَالَ الرَّسُولُ ﷺ لعَليٍّ رضي الله عنه: «لأَنْ يَهدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا، خَيرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعمْ»[(١)].

فلَمَّا فَهمْت صِدقَ هَذِهِ المَقالَةِ تهَوَّستُ عَلَىٰ تِلْكَ الحَالةِ، وكُلَّمَا تَشاغَلتُ بجَمْعِ النَّاسِ تفَرَّقَ هَمِّي.

وإذَا وَجدتُ مُرادِي من نَفعهِمْ ضَعفْتُ أَنَا، فَأبقَىٰ في حَيِّزِ التَّحيُّرِ مُتردِّدًا، لا أدْرِي عَلَىٰ أيِّ القَدمَينِ أعْتمِدُ.

فَإذَا وَقفْتُ مُتحيِّرًا صَاحَ العِلْمُ: قُمْ لكَسبِ العِيالِ، وادْأَبْ في تَحصيلِ ولَدٍ يذْكُرُ اللهَ، فَإذَا شَرعتُ في ذَلِكَ قلَصَ ضَرعُ الدُّنْيَا وَقتَ الحَلبِ، ورَأيْتُ بَابَ المَعاشِ مَسدُودًا في وجْهِي؛ لأَنَّ صِناعَةَ العِلْمِ شَغلتْنِي عَنْ تعَلُّمِ صِناعَةٍ.

فَإذَا الْتَفَتُّ إلىٰ أَبْناءِ الدُّنْيَا رَأيتُهمْ لا يَبيعُونَ شَيئًا من سِلَعهَا إلَّا بدِينِ المُشْترِي.

وليْتَ مَنْ نَافقهُمْ أَوْ رَاءاهُمْ نَالَ من دُنياهُمْ، بَلْ رُبَّمَا ذَهبَ دِينُه ولَمْ يحصلْ مُرادَهُ.

فَإنْ قَالَ الضَّجرْ: اهْربْ. قَالَ الشَّرْعِ: «كَفَىٰ بالمَرءِ إثْمًا أَنْ يُضيِّعَ مَنْ يَقُوتُ»[(٢)].

وإنْ قَالَ العَزْمُ: انفَرِدْ. قَالَ: فَكيفَ بمَنْ تَعُولُ؟

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٩٤٢)، ومسلم (٢٤٠٦) من حديث سهل بن سعد الساعدي. وأخرج أحمد (٢٢٠٧٤) من حديث معاذ أن النبي ﷺ قال له: «يا معاذ، أن يهدي الله علىٰ يديك رجلًا من أهل الشرك خير لك من أن يكون لك حمر النعم».

(٢) صحيح: أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو: أحمد (٦٤٩٥)، أبو داود (١٦٩٢)، وابن حبان (٤٢٤٠)، والحاكم (١٥١٥) (٨٥٢٦) وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين. وقال الذهبي في «العلو» (١٠٠): «قال ابن منده: إسناده صحيح». وقال النووي في «رياض الصالحين» (١٥٣): «صحيح». وأخرجه مسلم (٩٩٦)، وابن حبان (٤٢٤١) بلفظ: «كفىٰ بالمرء إثمًا أن يحبس عمن يملك قوته».

فغَايَةُ الأَمْرِ أَنَّنِي أشْرعُ في التَّقلُّلِ من الدُّنْيَا وقَدْ رُبيتُ في نَعيمِها، وغُذِّيتُ بلَبَانِهَا، ولَطُفَ مِزاجِي فَوْقَ لُطفِ وضْعِهِ بالعَادةِ.

فَإذَا غيَّرتُ لبَاسِي وخَشَّنتُ مَطعَمِي؛ لأَنَّ القُوتَ لا يحْتمِلُ الانْبسَاطَ نفر الطَّبْعِ لِفراقِ العَادةِ، فحَلَّ المَرَضُ فقُطِعَ عَنْ وَاجبَاتٍ، وأوقِعَ في آنَاتٍ.

ومَعلومٌ أنَّ لِينَ اللُّقمَةِ بَعدَ التَّحصِيلِ من الوُجوهِ المُستطَابَةِ ثُمَّ تَخشِينهَا لمَنْ لَمْ يَألَفْ سَعْيٌ في تَلفِ النَّفْسِ.

فَأقُولُ: كَيْفَ أصْنعُ ومَا الَّذِي أفْعلُ؟ وأخْلُو بنَفْسِي في خَلواتِي، وأتَزيَّدُ من البُكاءِ عَلَىٰ نَقصِ حَالاتِي.

وأقُولُ: أصِفُ حَالَ العُلَمَاءِ وجِسمِي يضْعفُ عَنْ إعَادَةِ العِلْمِ! وحَالَ الزُّهَّاد، وبَدنِي لا يَقْوَىٰ عَلَىٰ الزُّهْدِ! وحَالَ المُحبِّينَ ومُخالطَةُ الخَلْقِ تُشتِّتُ هَمِّي، وتُنقُشُ صُورَ المَحبُوباتِ من الهَوَىٰ في نَفْسِي، فتَصدَأُ مِرآةُ قَلبِي!

وشَجرةُ المَحبَّةِ تَحتاجُ إلىٰ تَربيةٍ في تُربةٍ طَيِّبةٍ؛ لتُسقَىٰ مَاءَ الخَلوَةِ من دُولابِ الفِكرَةِ.

وإنْ آثرْتُ التَّكسُّبَ لَمْ أطِقْ، وإنْ تعرَّضتُ لأبْناءِ الدُّنْيَا -مع أنَّ طَبعِي الأَنَفَةُ من الذُّلِّ وتَديُّني يمْنعُني- فَلا يَبقَىٰ للمَيلِ مع هَذيْنِ الجَاذِبينِ أثَرٌ، ومُخالطَةُ الخَلْقِ تُؤذِي النَّفْسَ مع الأنْفاسِ.

ولا تَحقِيقَ التَّوبةِ أقْدِرُ عَليهِ، ولا نَيلَ مَرتَبةٍ من عِلمٍ أوْ عَملٍ أوْ مَحبَّةٍ يَصِحُّ لِي، فَإذَا رَأيتُني كَمَا قَالَ القَائلُ:

ألْقَاهُ في اليمِّ مَكتُوفًا وقَالَ لَهُ: ** إيَّاكَ إيَّاكَ أنْ تَبْتَلَّ بالمَاءِ

تَحيَّرتُ في أمْرِي، وبَكيتُ علَىٰ عُمرِي، وأُنادِي في فَلواتِ خَلَواتِي بِمَا سَمعتُه مِنْ بَعْضِ العَوامِّ وكأنَّه وصَفَ حَالِي:

وا حَسْرتِي! كَمْ أُدارِي فِيكَ تَعثِيرِي ** مِثْلَ الأسِيرِ بِلا حَبلٍ ولا سَيْرِي
مَا حِيلَتي في الهَوَىٰ قَدْ ضَاعَ تَدبِيري ** لَمَّا شَكَلْتَ جَناحِي قُلْتَ لِي: طِيرِي

❁ فَصْلٌ ❁

تَأمَّلتُ أمْرَ الدُّنْيَا والآخِرَةَ، فوَجدْتُ حَوادثَ الدُّنْيَا حسِّيَّةٌ طَبعِيَّةٌ، وحَوادِثَ الآخِرَةِ إيمَانيَّةٌ يَقينِيَّةٌ

والحِسِّيَّاتُ أقْوَىٰ جَذبًا لِمنْ لَمْ يَقْوَ عِلمُه ويَقينُهُ.

والحَوادِثُ إنَّمَا تَبقَىٰ بكَثْرَةِ أسْبابِهَا، فمُخالَطةُ النَّاسِ، ورُؤيةُ المُستحسَناتِ، والتَّعرُّضُ بالمَلذُوذَاتِ يُقوِّي حَوادثَ الحِسِّ، والعُزلَةُ والفِكرُ والنَّظرُ في العِلْمِ يُقوِّي حَوادثَ الآخِرَةِ، ويُبيِّنُ هَذَا بأنَّ الإنْسَانَ إِذَا خرجَ يَمشِي في الأسْواقِ، ويُبصِرُ زِينةَ الدُّنْيَا، ثُمَّ دَخَل إلىٰ المَقابِر، فتفَكَّرَ ورَقَّ قَلبُه فإنَّه يُحِسُّ بينَ الحَالَتينِ فرقًا بيِّنًا، وسَبَبُ ذَلِكَ التَّعرُّض بأسْبابِ الحَوادِثِ، فعَلَيْكَ بالعُزلةِ والذِّكرِ والنَّظرِ في العِلْمِ؛ فَإنَّ العُزلةَ حَميَّةٌ، والفِكرَ والعِلْمَ أدْويةٌ، والدَّواءُ مع التَّخلِيطِ لا يَنفعُ.

وقَدْ تَمكَّنَتْ مِنكَ أخْلاطُ المُخالَطةِ للخَلقِ والتَّخليطُ في الأفْعَالِ، فَليسَ لكَ دَواءٌ إلَّا مَا وصَفتُ لَكَ.

فأَمَّا إِذَا خَالطْتَ الخَلْقَ، وتَعرَّضتَ للشَهواتِ ثُمَّ رُمْتَ صَلاحَ القَلْبِ رُمْتَ المُمتَنِع.

فَصْل

تَأَمَّلتُ حِرصَ النَّفْسِ عَلَى مَا مُنعَتْ مِنْهُ، فرَأَيْتُ حِرصَها يَزيدُ عَلَى قَدرِ قُوَّة المَنعِ

ورَأَيْتُ في الشِّرْبِ الأَوَّلِ أنَّ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا نُهِي عَنْ الشَّجرَةِ حَرِصَ عَلَيْهَا مع كَثرَةِ الأشْجَارِ المُغْنِيةِ عَنهَا.

وفي الأمْثالِ: المَرءُ حَريصٌ عَلَىٰ مَا مُنعَ، وتوَّاقٌ إلىٰ مَا لَمْ يَنَلْ.

ويُقَالُ: لَوْ أُمِرَ النَّاسُ بالجُوعِ لصَبرُوا، ولَوْ نُهُوا عَنْ تَفتِيتِ البَعرِ لرَغبُوا فِيهِ وقَالُوا: مَا نُهينَا عَنْهُ إلَّا لشَيْءٍ. وقَد قِيلَ: أَحَبُّ شَيْءٍ إلىٰ الإنْسَانِ مَا منعا.

فلَمَّا بحَثتُ عَنْ سَبَبِ ذَلِكَ وجَدتُ سَببَيْنِ:

أحَدُهُمَا: أنَّ النَّفْسَ لا تَصبِرُ عَلَىٰ الحَصرِ، فإنَّه يَكفِي حَصرُها في صُورَةِ البَدَنِ، فَإذَا حُصِرتْ في المَعنَىٰ بمَنعٍ زَادَ طَيشُها؛ ولِهذَا لَوْ قَعدَ الإنْسَانُ في بَيتِهِ شَهْرًا لَمْ يَصعُبْ عَلَيْهِ. ولَوْ قِيلَ لَهُ: لا تَخرُجْ من بَيتِكَ يَومًا طَالَ عَلَيْهِ.

والثَّانِي: أنَّهَا يَشُقُّ عَلَيْهَا الدُّخولُ تَحتَ حُكمٍ؛ ولِهذَا تَستَلذُّ الحَرَامَ ولا تَكَادُ تَستطِيبُ المُبَاحَ؛ ولِذلِكَ يَسهُلُ عَلَيْهَا التَّعبُّد عَلَىٰ مَا تَرَىٰ وتُؤثِر لا عَلَىٰ مَا يُؤْثَر.

فَصْلٌ

مَا زَالَتْ نَفْسِي تُنازِعُني بِمَا يُوجِبهُ مَجلسُ الوَعظِ، وتَوبةُ التَّائِبِينَ

ورُؤيَةُ الزَّاهِدينَ إلىٰ الزُّهْدِ، والانْقِطَاعُ عَنْ الخَلْقِ، والانْفِرَادُ بالآخِرَةِ.

فتَأمَّلتُ ذَلِكَ فَوجَدتُ عُمُومهُ من الشَّيطَانِ؛ فَإِن الشَّيْطَانَ يَرَىٰ أَنَّهُ لا يَخلُو لِي مَجْلِس من خَلقٍ لا يُحْصَوْنَ، يَبكُونَ ويَنْدبُونَ عَلَىٰ ذُنوبِهِمْ، ويَقومُ في الغَالِبِ جَمَاعَةٌ يتُوبونَ ويقطِّعونَ شُعورَ الصِّبَا، ورُبَّما اتَّفقَ خمسُونَ ومائَةٌ، ولَقَدْ تَابَ عِنْدِي في بَعْضِ الأيَّامِ أَكْثَرُ مِنْ مائَةٍ، وعُمُومُهمْ صِبيَانٌ قَدْ نَشأُوا عَلَىٰ اللَّعِبِ والانْهِماكِ في المَعاصِي.

فَكأَنَّ الشَّيْطَانَ - لبُعدِ غَورِهِ في الشَّرّ - رَآنِي أَجْتَذِبُ إليَّ مَنْ أَجْتَذِب مِنْهُ فَأَرَادَ أَنْ يشْغلَنِي عَنْ ذَلِكَ بِمَا يُزخْرِفهُ؛ لِيخْلُوَ هُوَ بِمنْ أَجْتذِبُهُ من يَدهِ.

ولَقَدْ حَسَّن إليَّ الانْقِطَاعَ عَنْ المَجَالِسِ، وقَالَ: لا يَخْلُو من تَصَنُّعٍ للخَلقِ. فقُلْتُ له: أَمَّا زَخرَفةُ الأَلْفَاظِ وتَزوِيقُها، وإخْراجُ المَعنَىٰ من مُستحْسَنِ العِبَارَةِ؛ ففَضِيلَةٌ لا رَذِيلَة. وأَمَّا أَنْ أَقصدَ النَّاسَ بِمَا لا يَجُوزُ في الشَّرْعِ؛ فمَعاذَ اللهِ.

ثُمَّ رَأَيْتهُ يُرِينِي التَّزهُّد في قَطع أَسْبَابِ ظَاهِرَة الإبَاحَة من الاكْتسَابِ.

فقُلتُ لَهُ: فَإِن طَابَ لِي الزُّهْدُ وتَمكَّنتُ من العُزلَة، فنَفد مَا بِيدِي، أوِ احْتاجَ بَعْضُ عَائلَتِي أَلَسْتُ أَعُودُ القهْقرَىٰ؟ فدَعنِي أَجْمعُ مَا يَسُدُّ خُلَّتي، ويصُونُني عَنْ مَسألَةِ النَّاسِ، فَإِنْ مُدَّ عُمرِي كَانَ نِعمَ السَّبَب، وإلَّا كَانَ للعَائِلةِ، ولا أَكُونُ كَراكِبٍ أَرَاقَ مَاءَه لرُؤيَةِ سَرابٍ فلَمَّا ندمَ وقْتَ الفَواتِ لَمْ ينْتَفِعْ بالنَّدم. وإنَّمَا الصَّوَابُ تَوطِئَةَ المَضجَعِ قَبلَ النَّومِ، وجَمعَ المَالِ السَّادِّ للخُلَّةِ قَبلَ الكِبَرِ أَخْذًا بالحَزمِ، وقَدْ

قَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «لأنْ تَترُكَ ورثَتكَ أغْنيَاءَ خَيرٌ لَكَ مِنْ أنْ تَترُكهُمْ عَالةً يتكفَّفُونَ النَّاسَ»[1]، وقَالَ: «نِعمَ المَالُ الصَّالحُ للرَّجُلِ الصَّالِحِ»[2].

وأمَّا الانْقِطَاعُ فيَنْبغِي أَنْ تكُون العُزلَةُ عَنْ الشَّرِّ لا عَنِ الخَيْرِ، والعُزلَةُ عَنْ الشَّرِّ وَاجبَةٌ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ، وأمَّا تَعلِيمُ الطَّالِبينَ، وهِدَايَةُ المُرِيدِينَ فإِنَّه عِبادَةُ العَالِمِ.

وإنَّ من تَغفِيلِ بَعْضِ العُلَمَاءِ إيثَارَهُ للتَّنفُّلِ بالصَّلاةِ والصَّوْمِ عَنْ تَصنيفِ كِتابٍ، أوْ تَعلِيمِ عِلمٍ يَنفَعُ؛ لأنَّ ذَلِكَ بذْرٌ يكْثُر رِيعُهُ، ويمْتدُّ زَمَانَ نَفعِهِ.

وإنَّمَا تَميلُ النَّفْسُ إلىٰ مَا يُزخْرِفه الشَّيْطَانُ من ذَلِكَ لمَعنَيينِ:

أَحَدُهُمَا: حُبُّ البطَالَةِ؛ لأنَّ الانْقِطَاعَ عِندَهَا أَسْهَلُ.

والثَّانِي: حُبُّ المِدْحَةِ؛ فإِنَّها إِذَا تَرَسَّمتْ بالزُّهْدِ كَانَ مَيلُ العَوامِّ إلَيهَا أَكْثَرُ.

فعَلَيْك بالنَّظَرِ في الشِّرْبِ الأَوَّلِ، فكُنْ مع الشِّرْبِ المُقدَّم وهُمُ الرَّسُولُ ﷺ وأَصْحَابُه رضي الله عنهم.

فهَلْ نُقلَ عَنْ أحَدٍ مِنهُم مَا ابتَدعَهُ جَهلَةُ المُتزَهِّدينَ والمُتصوِّفَةِ من الانْقِطَاعِ عَنْ العِلْمِ، والانْفِرَادِ عَنْ الخَلْقِ؟ وهَل كَانَ شُغلُ الأنْبيَاءِ إلَّا مُعانَاةِ الخَلْقِ، وحَثِّهم عَلَىٰ الخَيْرِ، ونَهيهِمْ عَنْ الشَّرِّ؟ إلا أَنْ يَنقَطِعَ من لَيسَ بعَالِمٍ بقَصدِ الكَفِّ عَنْ الشَّرِّ فذَاكَ في مَرتَبَة المُحتَمِي يخَافُ شَرّ التَّخلِيط، فأَمَّا الطَّبيبُ العَالِمُ بِمَا يتَنَاوَل فإِنَّه ينْتَفِعُ بِمَا يَنالهُ.

---

(١) صحيح: أخرجه مالك (١٤٥٦)، والبخاري (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨)، وأحمد (١٤٤٠)، وأبو داود (٢٨٦٤)، والترمذي (٢١١٦) وقال: حسن صحيح. والنسائي (٣٦٢٦)، وابن ماجه (٢٧٠٨)، وابن خزيمة (٢٣٥٥) من حديث سعد بن أبي وقاص.

(٢) صحيح: أخرجه من حديث عمرو بن العاص: أحمد (١٧٧٦٣)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٩٩)، وابن حبان (٣٢١٠)، والحاكم (٢١٣٠، ٢٩٢٦) وقال: صحيح علىٰ شرط مسلم.

۞ فَصْل ۞

تَأمَّلتُ المُرَادَ من الخَلْقِ، فَإذَا هُوَ الذُّلُّ، واعْتِقَادُ التَّقصِيرِ والعَجْزِ

ومثَّلتُ العُلَمَاءَ والزُّهَّادَ العَامِلينَ صِنفَينِ: فأقَمتُ في صِنْفِ العُلَمَاءِ: مَالكًا، وسُفيَانَ، وأبا حَنيفَةَ، والشَّافِعيَّ، وأحْمدَ، وفي صِنْفِ العُبَّادِ: مَالكَ بْنَ دِينارٍ، ورَابعَةَ، ومَعرُوفًا الكَرْخِيَّ، وبِشْرَ بْنَ الحَارِثِ.

فكُلَّما جَدَّ العُبَّادُ في العِبادَةِ، صَاحَ بِهِم لِسانُ الحَالِ: عِبادَاتكُمْ لا يتَعدَّاكُم نَفعُهَا وإنَّمَا يتَعدَّىٰ نَفعُ العُلَمَاءِ، وهُمْ وَرثَةُ الأنبِيَاء، وخُلفاءُ اللهِ في الأَرْض، هُمُ الَّذِينَ عَلَيهِمُ المُعوَّلُ، ولَهُم الفَضْلُ إِذَا أطْرقُوا وانكَسرُوا وعَلمُوا صِدقَ تِلْكَ الحَالِ، وجَاءَ مَالكُ بْن دِينارٍ إلىٰ الحَسنِ يتَعلَّمُ مِنْهُ ويَقُولُ: الحَسنُ أُستَاذُنا.

وإذا رَأَىٰ العُلَمَاءُ أنَّ لَهُم بالعِلْمِ فَضلًا، صَاحَ لِسانُ الحَالِ بالعُلَمَاءِ: وهَلِ المُرَادُ من العِلْمِ إلَّا العَمَل؟!

وقَالَ أحْمَدُ بْن حَنْبَل: وهَلْ يُرادُ بالعِلْمِ إلَّا مَا وَصلَ إلَيْهِ مَعرُوفٌ؟. وصَحَّ عَنْ سُفيَانِ الثَّورِيِّ قَالَ: وددتُ أَنْ يَدِي قُطعَتْ ولَمْ أكْتبِ الحَدِيثَ.

وقَالَتْ أمُّ الدَّردَاءَ لرَجُلٍ: أَعَمِلْتَ بِمَا عَلِمتَ؟ قَالَ: لا. قَالَتْ: فلِمَ تَستكْثِر من حُجَّةِ اللهِ عَليكَ؟.

وقَالَ أَبُو الدَّردَاءِ: وَيلٌ لمَنْ لَم يَعلَم ولَمْ يعْمَلْ مَرَّةً، ووَيلٌ لمَنْ عَلمَ ولَمْ يعْمَلْ سَبعينَ مَرَّةٍ.

وقَالَ الفُضَيْلُ: يُغفَرُ للجَاهلِ سَبعُونَ ذنبًا قَبلَ أَنْ يُغفَرَ للعَالِمِ ذَنبٌ وَاحِدٌ، فمَا يبلُغُ من الكُلِّ قَولُهُ تعَالَىٰ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

وجَاءَ سُفيَانُ إلىٰ رَابعَةَ فجَلسَ بَينَ يَديهَا لِيَنتفِعَ بكَلامِها.

فدَلَّ العُلَمَاءَ العِلْمُ عَلَىٰ أنَّ المَقصُودَ مِنْهُ العَمَل بِهِ وأَنَّهُ آلةٌ، فانْكسَرُوا واعْترَفُوا بالتَّقصِيرِ، فحَصلَ الكُلُّ عَلَىٰ الاعْترَافِ والذُّلِّ، فاسْتخرَجَتِ المَعرِفَةُ مِنهُم حَقيقَةَ العُبودِيَّةِ باعْترَافِهم، فذَلِكَ هُوَ المَقصُودُ من التَّكلِيفِ.

فَصْلٌ

تَأمَّلْتُ قَولَهُ تَعَالَى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]

فَإِذَا النَّفْسُ تَأبَىٰ إثْباتَ مَحبَّةٍ للخَالِقِ تُوجِبُ قَلقًا وقَالَتْ: مَحبَّتهُ طَاعتُهُ. فتَدبَّرتُ ذَلِكَ فَإِذَا بِهَا قَدْ جَهِلتْ ذَلِكَ لغَلَبةِ الحِسِّ.

وبَيانُ هَذَا: أنَّ مَحبَّةَ الحِسِّ لا تَتعدَّىٰ الصُّورَ الذَّاتِيَّة، ومَحبَّةَ العِلْمِ والعَمَلِ تَرَىٰ الصُّورَ المَعنوِيَّةَ فتُحبُّهَا؛ فإنَّا نَرَىٰ خَلقًا يُحبُّونَ أبَا بَكرٍ رضي الله عنه، وخَلقًا يُحبُّونَ عَليَّ بْنَ أبِي طَالِبٍ رضي الله عنه، وقَومًا يتَعصَّبُونَ لأحْمَد بْن حَنْبَل، وقَومًا للأشْعرِيِّ فيَقتَتلُونَ ويبْذُلونَ النُّفُوسَ في ذَلِكَ؛ ولَيْسُوا مِمَّنْ رَأَىٰ صُورَ القَوْمِ، ولا صُورَ القَومِ تُوجِبُ المَحبَّةَ، ولَكِنْ لَمَّا تَصوَّرتْ لَهُم المَعانِي فدَلَّتهُم عَلَىٰ كَمالِ القَومِ في العُلومِ وقَعَ الحُبُّ لِتلكَ الصُّوَرِ الَّتِي شُوهِدَتْ بأعْيُنِ البَصائِرِ.

فكَيفَ بمَنْ صَنعَ تِلْكَ الصُّوَر المَعنوِّيةِ وبَذلَهَا؟ وكَيفَ لا أُحبُّ مَنْ وَهبَ لِي مَلذُوذَاتِ حُبِّي، وعرَّفنِي مَلذُوذاتِ عِلمِي؟! فَإِن التِذَاذِي بالعِلْم وإِدْراكِ العُلوم أَوْلَىٰ منْ جَميعِ اللَّذَّاتِ الحِسِّيَّةِ، فَهُو الَّذِي علَّمنِي، وخَلقَ لِي إِدْراكًا، وهَدانِي إِلىٰ مَا أَدْركْتُهُ.

ثُمَّ إِنَّهُ يتجَلَّىٰ لِي فِي كُلِّ لَحظَةٍ فِي مخْلُوقٍ جَديدٍ أَرَاهُ فِيهِ بإِتْقَانِ ذَلِكَ الصُّنعِ، وحُسنِ ذَلِكَ المَصنُوعِ، فكُلُّ مَحبُوبَاتِي فِيهِ وعَنهُ وبِهِ؛ الحِسِّيَّة والمَعنوِّيَّة، وتَسهِيلُ سُبُلِ الإِدْرَاكِ بِهِ، والمُدْرَكَات مِنْهُ.

وألَذُّ مِنْ كُلِّ لَذَّةٍ عِرفَاني لَهُ، فلَوْلا تَعلِيمَه مَا عَرفْتُهُ.

وكَيفَ لا أُحبُّ من أنَا بِهِ، وبَقائِي مِنْهُ، وتَدبِيري بِيدِهِ، ورُجُوعِي إلَيْهِ، وكُلُّ مُستحسَنٍ مَحبُوبٍ هُوَ صُنْعُه، وحَسَّنهُ وزيَّنَهُ، وعَطفَ النُّفُوسَ إلَيه.

فذَلكَ الكَامِلُ القُدرَةِ أحْسنُ من المَقدُورِ، والعَجِيبُ الصَّنعَةِ أكْملُ من المَصنُوعِ، ومَعنَىٰ الإدْرَاك أحْلَىٰ عِرفَانًا من المُدْرَكِ.

ولَوْ أنَّنا رَأينَا نَقشًا عَجِيبًا، لاسْتغرَقَنا تَعظِيمُ النَّقَّاش، وتَهوِيلُ شَأنِهِ، وظَرِيفِ حِكمتِه عَنْ حُبِّ المَنقُوشِ، وهَذَا مِمَّا تَترقَّىٰ إلَيْهِ الأفْكارُ الصَّافيةُ إذَا خَرقَ نَظرَها الحِسِّيَّاتُ ونَفذَ إلىٰ مَا وَراءَها، فحِينئِذٍ تَقعُ مَحبَّةُ الخَالقِ ضَرورَةً.

وعَلَىٰ قَدرِ رُؤيَةِ الصَّانعِ في المَصنُوعِ يَقعُ الحُبُّ لَهُ، فَإن قَويَ أوجَبَ قَلقًا وشَوقًا، وإنْ مَالَ بالعَارفِ إلىٰ مَقامِ الهَيبَةِ أوْجَبَ خَوفًا، وإنِ انْحرَفَ بِهِ إلىٰ تلمُّحِ الكَرَم أوْجَبَ رَجاءً قَويًّا، و﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠].

فَصْل

تَأمَّلتُ حَالةً عَجيبَةً

وهِي: أنَّ اللهَ ﷻ قَدْ بَنَىٰ هَذِهِ الأجْسامَ مُتقَنةً عَلَىٰ قَانُونِ الحِكمةِ، فدَلَّ بذَلِكَ المَصنُوعِ عَلَىٰ كَمالِ قُدرَتِه، ولَطِيفِ حِكمتِهِ، ثُمَّ عَادَ فنقَضَها فتَحيَّرتِ العُقُولُ بَعدَ إذْعَانِها لَهُ بالحِكمَةِ فِي سِرِّ ذَلِكَ الفِعْلِ، فأُعْلِمَتْ أنَّهَا ستُعَادُ للمَعَادِ، وأنَّ هَذِهِ البِنيَة لَمْ تُخلَقْ إلَّا لتَجوزَ فِي مَجازِ المَعرفَةِ، وتَتَّجرَ فِي مَوسِمِ المُعامَلةِ، فسَكنَتِ العُقُولُ لِذلِكَ.

ثُمَّ رَأتْ أشْيَاءَ مِنْ هَذَا الجِنْسِ أظْرَفُ مِنْهُ مِثلَ اخْترَامِ شَابٍّ مَا بَلغَ بَعْضَ المَقصُودِ بُنْيَانه.

وأعْجبُ من ذَلِكَ: أخْذُ طِفل من أكُفِّ أبَويْهِ يتملمَلانِ لِفَقْدِه، ولا يَظهرُ سِرُّ سَلبِهِ، واللهُ الغَنيُّ عَنْ أخْذِه، وهُمَا أشدُّ الخَلْقِ فَقرًا إلىٰ بَقائِهِ، وأظْرفُ مِنْهُ إبْقاءُ هَرِمٍ لا يَدرِي مَعنَىٰ البَقاءِ، ولَيْسَ لَهُ فِيهِ إلَّا مُجرَّد أذًىٰ.

ومن هَذَا الجِنْسِ: تَقتيرُ الرِّزقِ عَلَىٰ المُؤمنِ الحَكيمِ، وتَوسِيعُه عَلَىٰ الكَافِرِ الأَحْمقِ؛ فِي نَظائِرَ لِهَذهِ المَذكُوراتِ يتحيَّرُ العَقْلُ فِي تَعليلِهَا فيبقَىٰ مَبهُوتًا.

فَلَمْ أزَلْ أتَلمَّحُ أسَرارَ هَذهِ الأشْيَاء حتَّىٰ بَانَ لي أنَّ تَسليمَ ذَلكَ والرِّضَا بِهِ فَرضُ العَقلِ مِنْ جُمْلَةِ التَّكالِيفِ، فَإذَا عَجزَتْ قُوَىٰ العَقْلِ عَنْ الاطِّلاعِ عَلَىٰ حِكمَةِ ذَلِكَ - وقَدْ ثَبتَ لَهَا حِكمةُ الفَاعلِ - عَلمَتْ قُصورَها عَنْ دَرْكِ جَميعِ المَطلُوبِ فأذْعنَتْ مُقرَّةً بالعَجْزِ، وبذَلِكَ تُؤدِّي مَفرُوضَ تكليفِها.

فَلوْ قِيلَ للعَقل: قَدْ ثَبتَ عِندَكَ حِكمةُ الخَالِقِ بِمَا بَنَىٰ، أفيَجُوزُ أَنْ ينْقدِحَ فِي حِكمَتهِ أَنَّهُ نقض؟ لَقَالَ: لا؛ لأنِّي عَرفْتُ بالبُرهَانِ أَنَّهُ حَكيمٌ، وأنَا أعْجزُ عَنْ إدْراكِ عِللِ أَفْعالِهِ؛ فأُسلِّمُ عَلَىٰ رَغمِي مُقرًّا بعَجزِي.

۞ فَصْل ۞

تَأمَّلتُ فَوائِدَ النِّكَاح ومَعانِيَهُ ومَوضُوعَهُ

فرَأيْتُ أنَّ الأصْلَ الأكْبَرَ فِي وضْعهِ وُجُود النَّسلِ؛ لأَنَّ هَذَا الحَيَوان لا يَزالُ يتحلَّلُ، ثُمَّ يُخْلِفُ المُتحلِّلَ الغِذاءُ، ثُمَّ يَتحلَّلُ منَ الأَجْزاءِ الأصْليَّةِ ما لا يَخلُفهُ شَيْءٌ، فَإذَا لَمْ يَكُنْ بُدٌّ من فَنائِهِ، وكَانَ المُرَادُ امْتدَاد زَمانِ الدُّنْيَا جعلَ النَّسلَ خَلَفًا عَنِ الأصْلِ.

ولَمَّا كَانَتْ صُورَةُ النِّكَاح تأبَاهَا النُّفُوسُ الشَّرِيفَةُ من كَشفِ عَورةٍ ومُلاقَاة مَا لا يَستحْسِنُ لنَفْسهِ؛ جُعلَتِ الشَّهْوةُ تحُثُّ عَلَيهِ، ليَحصُل المَقصُودُ.

ثُمَّ رَأيْتُ هَذَا المَقصُودَ الأَصْليَّ يتبَعُهُ شَيْءٌ آخَرُ، وهُوَ استِفرَاغ هَذَا المَاء الَّذِي يؤْذِي دَوامُ احْتِقانِه؛ فإنَّ المَنيَّ يَنفصِلُ من الهَضمِ الرَّابعِ، فَهُو من أَصْفَىٰ جَوهَرِ الغِذاءِ وأَجْودِه، ثُمَّ يجْتمِعُ، فَهُو أَحَدُ الذَّخائِر للنَّفسِ؛ فإِنَّه تدَّخِرُ - لبَقائِها وقُوَّتها - الدَّمَ ثُمَّ المَنيَّ، ثُمَّ تدَّخرُ الثُّفْلَ الَّذِي هُوَ من أعْمدَةِ البَدَنِ؛ كَأَنَّه لخَوفِ عَدَم غَيرِه.

فَإِذَا زَادَ اجْتمَاعُ المَنيِّ أَقْلَقَ عَلَىٰ نَحوِ إقْلاقِ البَولِ للحَاقنِ، إِلَّا أنَّ إِقْلاقهُ من حَيثُ المَعنَىٰ أَكْثَرُ من إقْلاقِ البَولِ من حَيثُ الصُّورَةِ، فتُوجِبُ كَثرَةُ اجْتمَاعِه وطُولُ احْتبَاسِه أمْرَاضًا صَعبةً؛ لأَنَّهُ يترَقَّىٰ من بُخارِهِ إلىٰ الدِّماغِ فيُؤذِي، ورُبَّما أَحْدثَ سُمِّيَّةً.

ومَتىٰ كَانَ المِزاجُ سَليمًا فالطَّبْعُ يَطلُبُ بُروزَ المَنيِّ إِذَا اجْتمعَ كَمَا يَطلُبُ بُروزَ البَولِ، وقَد تَنحرِفُ بَعْضُ الأَمْزجَة فيَقلُّ اجْتمَاعُه عِندَه فيَندُر طَلَبهُ لإخْراجِه، وإنَّمَا نَتكلَّمُ عَنِ المِزاجِ الصَحِيحِ، فَأقُولُ: قَدْ بيَّنتُ أَنَّهُ إِذَا وقَعَ بِهِ الإِنْسَانُ وَطَالَ احْتِباسَه أوْجبَ أمْرَاضًا، وجدَّدَ أفْكارًا رَديئةً، وجَلبَ العِشقَ والوَسوسَة إلىٰ غَيرِ ذَلِكَ من الآفَاتِ.

وقَدْ تَجدُ صَحِيحَ المِزاجِ يُخرِجُ ذَلِكَ إِذَا اجْتمعَ وهُوَ بَعدَ مُتقَلقِلٌ، فكَأَنَّهُ الآكلُ الَّذِي لا يَشبَع، فَبَحثتُ عَنْ ذَلِكَ فَرَأيْته وُقوعَ الخَللِ في المَنكُوحِ إمَّا لدَمامَتهِ وقُبحِ مَنظرِه، أوْ لآفةٍ فِيهِ، أوْ لأَنَّهُ غَيْر مَطلُوبٍ للنَّفسِ، فحِينئِذٍ يَخرُج مِنْهُ ويَبقَىٰ بَعضُهُ.

وَإِذَا أَردتَ مَعرفَةَ مَا يدُلُّكَ عَلَىٰ ذَلِكَ؛ فَقِسْ مِقدَارَ خُروجِ المَنيِّ في المَحلِّ المُشتَهَىٰ، وفي المَحلِّ الَّذِي هُوَ دُونَه - كالوَطْءِ بَينَ الفَخذَينِ بالإِضَافَة إلىٰ الوَطءِ في مَحلِّ النِّكَاحِ، وكَوطْءِ البِكرِ بالإِضَافةِ إلىٰ وَطءِ الثَّيِّبِ -؛ تَعْلَمْ حِينئِذٍ أَنْ تَخيُّرَ المَنكُوحِ يَستقْصِي فُضولَ المَنيِّ، فيَحصُل للنَّفْسِ كَمالُ اللَّذَّةِ، لمَوضِعِ كَمالِ بُروزِ الفُضولِ.

ثُمَّ قَدْ يُؤثِّر هَذَا في الوَلدِ أيْضًا؛ فإنَّه إذَا كَانَ من شَابَّين قَدْ حَبسَا أنْفُسَهما عَنِ النِّكَاحِ مدىٰ مَديدَةً، كَانَ الوَلَد أقْوَىٰ مِنْهُ من غَيرِهما، أوْ من المُدْمِنِ عَلَىٰ النِّكَاحِ عَلَىٰ الأغْلَبِ.

ولِهذَا كُرِهَ نِكَاحُ الأقَارِبِ؛ لأنَّهُ مِمَّا يَقبِضُ النَّفْسَ عَنْ انبسَاطِها، فيتَخيَّلُ الإنْسَانُ أنَّهُ يَنكِحُ بعْضَهُ، ومُدِحَ نِكَاح الغَرائِبِ لِهَذَا المَعنَىٰ.

ومِنْ هَذَا الفَنِّ يحْصُلُ كَثِيرٌ من المَقصُودِ من دَفع هَذِهِ الفُضُولِ المُؤذِيةِ بمَنكُوحٍ مُستجَدٍّ - وإنْ كَانَ مُستقبَحَ الصُّورَةِ - مَا لا يَحصُلُ بِهِ في العَادَةِ.

ومِثالُ هَذَا: أنَّ الطَّاعِمَ إذ امْتلأَ خُبزًا ولَحْمًا حَيثُ لَمْ يَبْقَ فِيهِ فَضلٌ لتناوُل لُقمَةٍ، إذَا قُدِّمَت إلَيْهِ الحَلْوَىٰ؛ فيتَنَاوَلُ، فَلَوْ قُدِّمَ أعْجبُ مِنهَا لتَناولَ؛ لأَنَّ الجدَّةَ لَهَا مَعْنًىٰ عَجِيبٌ؛ وذَلكَ أنَّ النَّفْسَ لا تَمِيلُ إلىٰ مَا أَلِفتْ، وتَطلُبُ غَيْر مَا عَرفَتْ، ويتخَايلُ لَهَا في الجَدِيدِ نَوْع مُرادٍ، فَإذَا لَمْ تَجدْ مُرادَها صَدفَتْ إلىٰ جَديدٍ آخَرَ، فكأنَّهَا قَدْ عَلمَتْ وُجُودَ غَرضٍ تَامٍّ بلا كَدَر، وهي تَتخَايلهُ فِيمَا تَراهُ.

وفي هَذَا المَعنَىٰ دَلِيلٌ مَدفُونٌ عَلَىٰ البَعثِ؛ لأَنَّ في خَلقِ مَن هِمَّتُه مُتعلِّقةٌ بلا مُتعلَّقٍ نَوعُ عَبثٍ؛ فافْهَم هَذَا.

فَإذَا رَأتِ النَّفْسُ عُيوبَ مَا خَالَطتْ في الدُّنْيَا عَادتْ تَطلُبُ جَدِيدًا؛ ولِذلِكَ قَالَ الحُكماءُ: العِشقُ العَمَىٰ عَنْ عُيوبِ المَحبُوبِ، فمَنْ تَأمَّلَ عُيوبَه سَلا.

ولِذلِكَ يُستحبُّ للمَرأةِ أنْ لا تَبعُدَ عَنْ زَوجِها بُعدًا يُنسيهِ إيَّاهَا، ولا تقْرُبُ مِنْهُ قُربًا يُملُّها مَعهُ، وكَذَلكَ يُستحبُّ ذَلِكَ لَهُ؛ لِئلَّا يَملَّها، أوْ تَظهرَ لَديهِ مَكنُوناتُ عُيوبِها.

ويَنْبغِي لَهُ أَنْ لا يطَّلعَ مِنهَا عَلَىٰ عَورةٍ، ويجْتهِدَ في أَنْ لا يَشمَّ مِنهَا إلَّا طيب رِيحٍ، إلىٰ غَيْر ذَلِكَ من الخِصَالِ الَّتِي تَستعْمِلها النِّساءُ الحَكيمَاتُ؛ فإنَّهنَّ يَعلمْنَ

ذَلِكَ بِفِطَرِهِنَّ من غَيْر احْتياجٍ إلىٰ تَعليمٍ. فأَمَّا الجَاهلاتُ فإنَّهنَّ لا يَنْظُرنَ في هَذَا؛ فيتَعجَّلْنَ الْتفَاتَ الأزْواجِ عَنهُنَّ.

فمَنْ أَرَادَ نجَابةَ الوَلَدِ وقَضاءَ الوَطَرِ فليَتخيَّرِ المَنكُوحَ:

إنْ كَانَ زَوجَةً؛ فلينَظُرْ إلَيهَا، فَإذَا وقَعتْ في نَفْسِهِ فليتَزوَّجْها، وليَنظُر فِي كَيفيَّةِ وقُوعِها في نَفْسِه، فَإِنَّ عَلامَةَ تَعلُّق حُبِّها بالقَلبِ أَلَّا يُصْرَفَ الطَّرفُ عَنهُ، فَإذَا انصَرفَ الطَّرفُ قَلِقَ القَلْبُ بتَقَاضِي النَّظْرَةُ، فهَذَا الغَايةُ، ودُونهُ مَراتِب عَلَىٰ مَقَادِيرِها يَكُونُ بُلوغُ الأغْراضِ.

وإنْ كَانَ جَارِيةً تُشتَرىٰ؛ فلينَظُر إلَيهَا أَبْلغَ مِنْ ذَلِكَ النَّظَر.

ومَن قَدرَ عَلَىٰ مُناطَقةِ المَرأةِ أَوْ مُكالمَتِها بِمَا يُوجِبُ التَّنبِيهَ، ثُمَّ ليَرَىٰ ذَلِكَ مِنهَا؛ فَإِنَّ الحُسْنَ في الفَمِ والعَينَينِ.

وقَدْ نصَّ أحْمَدُ عَلَىٰ جَوازِ أَنْ يُبصِرَ الرَّجلُ من المَرْأَةِ الَّتِي يُرِيدُ نِكاحَها مَا هُوَ عَورةٌ؛ يُشِيرُ إلىٰ مَا يَزيدُ عَلَىٰ الوَجْهِ.

ومنْ أَمْكنَه أَنْ يُؤخِّرَ العقْدَ أَوْ شِراءَ الجَاريةِ لِينْظُر كَيْفَ تَوقَانُ قَلبِه؛ فإِنَّه لا يَخفَىٰ عَلَىٰ العَاقِلِ توقانُ النَّفْسِ لأجْلِ المُستَجَدِّ وتَوقَانُها لأجْلِ الحُبِّ، فَإذَا رَأَىٰ قَلقَ الحُبِّ أَقْدمَ؛ فإنَّه قَدْ:

أَخْبَرَنا مُحمَّد بْنُ عَبْد البَاقِي قَالَ: أَخْبَرَنا حَمدُ بْن أَحْمَد قَالَ: أَخْبَرَنا أَبُو نَعِيمٍ قَالَ: حدَّثَنَا سُليمَان بْن أَحْمَد قَالَ: حدَّثَنَا عَبْدُ الجبَّارِ بْن أَبي عَامرٍ قَالَ: حَدَّثني أَبِي قَالَ: حَدَّثنِي خَالِد بْن سَلامٍ قَالَ: حدَّثَنَا عَطَاءُ الخُراسَانيُّ قَالَ: «مَكتُوبٌ في التَّوراةِ: كُلّ تَزويجٍ عَلَىٰ غَيْرِ هَوًىٰ حَسرَةٌ ونَدامَةٌ إلىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ».

ثُمَّ يَنْبغِي للمُتخيِّر أَنْ يَتفرَّسَ في الأخْلاقِ؛ فإنَّها من الخَفيِّ، وإنَّ الصُّورَةَ إِذَا خَلتْ من المَعنَىٰ كَانَتْ كخَضراءِ الدِّمَنِ، ونَجابةُ الوَلَدِ مَقصُودةٌ، وفَراغُ النَّفْسِ من الاهْتمَامِ بِمَا حصَّلتْ من رَغباتٍ أصْلٌ عَظيمٌ يُوجِبُ إقْبالَ القَلْبِ عَلَىٰ المُهمَّاتِ.

ومَن فَرغَ من المُهمَّاتِ العَارِضةِ أقْبلَ عَلَىٰ المُهمَّاتِ الأصْليَّةِ؛ ولِهذَا جَاءَ في الحَدِيثِ: «**لا يقْضِي القَاضِي بينَ اثْنينِ وهُوَ غضبانُ**»[1]، و«**إذَا وُضعَ العَشاءُ وحَضرتِ العِشاءُ فابْدءُوا بالعَشاءِ**»[2].

فمَنْ قَدرَ عَلَىٰ امْرأةٍ صَالِحَةٍ في الصُّورَةِ والمَعنَىٰ فليُغمِضْ عَنْ عَوراتِها، ولتَجتَهدْ هِي في مَراضِيه من غَيْر قُربٍ يُملُّ، ولا بُعدٍ يُنسِي، ولتُقدِم عَلَىٰ التَّصنُّع لَهُ يحْصُلُ له الغَرضَانِ مِنهَا: الوَلدُ، وقَضاءُ الوَطرِ؛ مع الاحْترازِ الَّذي أوصَيتُ بِهِ تدُومُ الصُّحبةُ، ويحْصلُ الغَناءُ بِهَا عَنْ غيرِها.

فإنْ قَدرَ عَلَىٰ الاستِكثَارِ، فأضَافَ إلَيهَا سِواهَا؛ عَالمًا أَنَّهُ بذَلِكَ يبْلُغُ الغَرضَ الَّذِي يُفْرغُ قَلبَه زِيادَة تَفريغٍ؛ كَانَ أفْضَلُ لحَالِه.

فَإنْ خَافَ من وُجُودِ الغَيرَةِ مَا يشْغلُ القَلْبَ الَّذِي قَدْ اهْتمَمنَا بجَمْعِ هَمِّه، أوْ خَافَ وُجُودَ مُستحْسَنةٍ تَشغلُ قَلبَه عَنْ ذِكرِ الآخِرَةِ، أوْ تَطلُب مِنْهُ مَا يُوجِبُ خُروجَه عَنْ الوَرعِ؛ فحَسبُه وَاحدَةٌ.

---

(١) صحيح: أخرجه من حديث أبي بكرة: أحمد (٢٠٣٧٩)، والبخاري (٧١٥٨)، ومسلم (١٧١٧)، وأبو داود (٣٥٨٩)، والترمذي (١٣٣٤) وقال: حسن صحيح. والنسائي (٥٤٠٦).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٥٤٦٣)، ومسلم (٥٥٧) من حديث أنس. والبخاري (٥٤٦٤)، ومسلم (٥٥٩) من حديث ابن عمر. والبخاري (٦٧١)، ومسلم (٥٥٨) من حديث عائشة.

ويدْخُلُ فِيمَا أَوْصَيتُ بِهِ: أَنَّهُ يَبعُد في المُستحسَناتِ العَفافُ، فلْيُبالِغ الوَاجِد لَهنَّ في حِفظِهنَّ وسترِهنَّ. فإنْ وجَدَ مَا لا يُرضِيه عَجَّلَ الاستِبدَال؛ فإنَّه سَبَب السَّلْوِ، وإن قَدرَ عَلَىٰ الاقْتصَارِ؛ فَإِنَّ الاقْتصَارَ عَلَىٰ الوَاحدَةِ أوْلَىٰ، فَإِنْ كَانَتْ عَلَىٰ الغَرضِ قَنعَ، وإنْ لَمْ تكُنْ اسْتبدَلَ، ونِكاحُ المَرْأَةِ المَحبُوبةِ يَستفرِغُ المَاءَ المُجتمِع، فيُوجبُ نَجابَة الوَلَدِ وتَمامَهُ، وقَضاءَ الوَطرِ بكَمالِه.

ومَن خَافَ وُجُودَ الغَيرَة فعَليهِ بالسَّرَارِي؛ فإنَّهنَّ أقلُّ غيرةً، والاسْتظْرافُلهُنَّ أمكنُ مِن استِظْرافِ الزَّوجَاتِ.

وقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ يُمكنُهمْ الجَمعُ، وكَانَ النِّسَاءُ يَصبِرنَ:

فكَانَ لدَاودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مائَةُ امْرأةٍ، ولِسُليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ألْف امْرأةٍ، وقَد عُلِمَ حَالُ نَبيِّنا ﷺ وأصْحَابه، وقد كَانَ لأميرِ المُؤْمِنينَ عَليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أرْبعُ حَرائِرَ وسَبعَ عَشرَةَ سُرِّيَّة، وتَزوَّج ابْنهُ الحَسنُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بَنحوٍ من أرْبَعمَائةٍ؛ إلىٰ غَير هَذَا مِمَّا يَطولُ ذِكرُه. فافْهمْ مَا أَشرتُ إِلَيْهِ تفُزْ بِهِ إنَّ شَاء اللهُ تَعَالَىٰ.

❁ فَصْلٌ ❁

كُلُّ شَيْءٍ خَلقَ اللهُ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا فَهُو أُنمُوذَجٌ فِي الآخِرَةِ وكُلُّ شَيْءٍ يَجرِي فِيهَا أُنمُوذَجُ مَا يَجْرِي فِي الآخِرَةِ

فأَمَّا المَخلُوقُ مِنهَا فقَالَ ابنُ عَبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «لَيسَ في الجَنَّة شَيْءٌ يُشبِه مَا في الدُّنْيَا إلَّا الأسْمَاء».

وهَذَا لأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ شَوَّق بنَعيمٍ إلىٰ نَعِيمٍ، وخوَّف بعَذابٍ من عَذَابٍ، فأَمَّا مَا يجْرِي في الدُّنْيَا فكُلُّ ظَالمٍ مُعاقَبٌ في العَاجِلِ عَلَىٰ ظُلمِه قَبلَ الآجِلِ، وكَذَلكَ كُلّ مُذنِبٍ ذَنبًا، وهُوَ مَعْنَىٰ قَولهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣].

ورُبَّما رَأَىٰ العَاصِي سَلامةَ بَدنِه ومَالِه فظَنَّ أَنْ لا عُقوبَةَ، وغَفْلَتُهُ عمَّا عُوقِبَ بِهِ عُقوبةٌ، وقَد قَالَ الحُكَماءُ: «المَعصِيةُ بَعدَ المَعصِيةِ عِقابُ المَعصِيةِ، والحَسنةُ بَعدَ الحَسنةِ ثَوابُ الحَسنةِ».

ورُبَّما كَانَ العِقابُ العَاجِلُ مَعنويًّا كَمَا قَالَ بَعْضُ أحْبارِ بَني إسْرَائِيلَ: «يَا رَبِّ كَمْ أَعْصِيكَ ولا تُعاقِبنِي؟ فقِيلَ لَهُ: كَمْ أُعاقِبكَ وأَنتَ لا تَدرِي، أَلَيسَ قَدْ حَرمْتُك حَلاوَةَ مُناجَاتِي؟!».

فمَنْ تَأمَّل هَذَا الجِنْسَ من المُعاقَبةِ وجَدهُ بالمِرصَادِ، حَتَّىٰ قَالَ وُهَيْبُ بْن الوَرْدِ؛ وقَدْ سئل: أيَجدُ لَذَّةَ الطَّاعةِ من يَعصِي؟ فقَالَ: «ولا مَنْ يَهُمُّ».

فرُبَّ شَخصٍ أطْلَقَ بَصرَه فحُرِمَ اعْتبارَ بَصيرَتِه، أوْ لِسانِه؛ فحَرَمَ صَفاءَ قَلبِه، أوْ آثَر شبُهةً في مَطعَمِهِ فأظْلَمَ سِرُّه، وحُرِمَ قِيامَ اللَّيْلِ، وحَلاوَةَ المُناجَاةِ، إلىٰ غَيْر ذَلِكَ؛ وهَذَا أمرٌ يَعرفُه أَهْلُ مُحاسَبةِ النُّفُوسِ.

وعَلَىٰ ضِدِّه يَجدُ من يتَّقِي اللهَ تَعَالَىٰ من حُسنِ الجَزاءِ عَلَىٰ التَّقْوَىٰ عَاجِلًا؛ كَمَا في حَديثِ أبي أُمامَةَ عَن النَّبِيِّ ﷺ: **«يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: النَّظَرةُ إلىٰ المَرْأَةِ سَهمٌ مَسمومٌ من سِهامِ الشَّيطَانِ، مَنْ تَركَه ابْتغاءَ مَرضَاتِي آتَيتُه إيمَانًا يجِدُ حَلاوتَه في قَلبِه»**[1].

فهَذِهِ نُبذةٌ من هَذَا الجِنْسِ تُنبِّهُ عَلَىٰ مُغفِلِها.

---

(١) ضعيف: أخرجه الحاكم (٧٨٧٥) وقال: صحيح الإسناد. وتعقبه الذهبي. والطبراني (١٠١٦٨)، والقضاعي (٢٩٢) من حديث حذيفة. وأخرجه الطبراني أيضًا (١٠٣٦٢) من حديث ابن مسعود، بإسناد ضعيف. ويروىٰ عن ابن عمر عند القضاعي (٢٩٣)، وإسناده ضعيف أيضًا. وأخرجه: أحمد (٢٢٢٧٨)، والطبراني في (٧٨٤٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٤٣١) من حديث أبي أمامة بلفظ: **«ما من مسلم ينظر إلىٰ محاسن امرأة أول مرة، ثم يغض بصره إلا أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها»**. وقد تقدم.

فأَمَّا المُقابَلَةُ الصَّريحةُ في الظَّاهِرِ فقَلَّ أَنْ تَحتَبِسَ، ومن ذَلِكَ قَولُ النَّبِيِّ ﷺ: «**الصُّبْحَة تَمنعُ الرِّزقَ**»(١)، و«**إنَّ العَبْدَ ليُحرَمُ الرِّزقَ بالذَّنبِ يُصيبُه**»(٢).

وقَدْ رَوىٰ المُفسِّرونُ أنَّ كُلَّ شَخْصٍ من الأسْبَاطِ جَاءَ باثْنَي عَشرَ وَلَدًا، وجَاءَ يُوسُفُ بأحَد عَشرَ بالهَمَّةِ، ومِثْل هَذَا إِذَا تأَمَّلهُ ذُو بَصيرَةٍ رَأَىٰ الجَزاءَ وفَهِمَ؛ كَمَا قَالَ الفُضَيْل: «إنِّي لأعْصِي اللهَ ﷻ فأعْرفُ ذَلِكَ في خُلُقِ دَابَّتي وجَاريَتِي».

وعَنْ ابن عُثمانَ النَّيسابُوريِّ أَنَّهُ انْقطعَ شسْعُ نَعلِهِ في مُضيِّه إلىٰ الجُمُعةِ فتعَوَّقَ لإصْلاحِهِ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: «مَا انقطعَ إلَّا لأنِّي مَا اغْتسلْتُ للجُمُعةِ».

ومن عَجائبِ الجَزاء في الدُّنْيَا: أَنَّهُ لَمَّا امتدَّت أَيْدِي الظُّلم من إخْوةِ يُوسُفَ: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ [يوسف: ٢٠] امتدَّتْ أكُفُّهمْ بَينَ يَديْهِ بالطَّلبِ يَقُولُونَ: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ [يوسف: ٨٨]. ولَمَّا صَبرَ هُوَ يَوْمَ الهَمَّة مَلكَ المَرْأَةَ حَلالًا، ولَمَّا بَغتْ عَلَيهِ بدَعْواهَا: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ [يوسف: ٢٥] أَنْطَقَها الحَقُّ بقَولِها: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف:٥١].

ولَوْ أنَّ شَخصًا تَركَ مَعصِيَةً لأجْلِ اللهِ تَعَالَىٰ لرَأَىٰ ثَمرةَ ذَلِكَ، وكَذَلكَ إِذَا فعَلَ طَاعَةً، وفي الحَدِيثِ: «**إِذَا أملَقْتُمْ فتَاجِرُوا اللهَ بالصَّدقَةِ**»، أيْ: عَاملُوه لزِيادَةِ الأرْباحِ العَاجِلةِ.

---

(١) ضعيف جدًّا: أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» (٥٣٠، ٥٣٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٥١)، والبيهقي في «الشعب» (٤٤٠٢)، وابن عدي في «الكامل» (١/ ٣٢١) من حديث عثمان بن عفان. وأورده ابن الجوزي في «الموضوعات» (٣/ ٦٨) وقال: لا يصح. وكذلك أورده الصغاني في «الموضوعات» (٩٠).

(٢) حسن: أخرجه من حديث ثوبان: أحمد (٢٢٣٨٦، ٢٢٤١٣، ٢٢٤٣٨)، وابن ماجه (٩٠، ٤٠٢٢)، وابن حبان (٨٧٢)، والحاكم (١٨١٤، ٦٠٣٨) وقال: صحيح الإسناد. وقال العراقي كما في «زوائد ابن ماجه» (٣٠، ١٤٢٤) للبوصيري: «حديث حسن».

ولَقَدْ رَأينَا من سَامحَ نَفْسَه بِمَا منعَ مِنْهُ الشَّرْعُ؛ طَلبًا للرَّاحةِ العَاجلَةِ، فانقَلبتْ أحْوَالُه إلىٰ التَّنغُّصِ العَاجلِ، وعُكِستْ عَلَيهِ المَقاصِدُ.

حَكَىٰ بَعْضُ المشَايخ أَنَّهُ اشْترَىٰ في زَمَن شَبابهِ جَاريةً، قَالَ: فلَمَّا مَلكتُها تَاقتْ نَفْسِي إلَيهَا، فَمَا زِلتُ أسْأَلُ الفُقَهَاء لَعلَّ مَخلُوقًا يُرخِّص لِي، فكُلُّهم قَالَ: لا يَجُوزُ النَّظَر إلَيهَا بشَهْوَةٍ، ولا لَمْسُها، ولا جِماعُها إلَّا بَعدَ حَيضِها، قَالَ: فسَألتُها فأخْبرتْنِي أنَّهَا اشتُريَت وهي حَائضٌ، فقُلْتُ: قَرُبَ الأَمْر. فسَألتُ الفُقَهَاء فَقَالُوا: لا يُعتدُّ بهَذهِ الحَيضةِ حَتَّىٰ تَحيضَ في ملْكِهِ. قَالَ: فَقُلتُ لنَفْسِي - وهيَ شَديدةُ التَّوَقانِ لقُوَّةِ الشَهْوَةِ، وتَمكُّن القُدرَةِ، وقُربِ المُصاقَبةِ -: مَا تَقولِينَ؟ فَقَالَت: الإيمَانُ بالصَّبرِ عَلَىٰ الجَمرِ شِئتَ أوْ أَبيْتَ، فصَبرتُ إلىٰ أنْ حَانَ ذَلِكَ فأثَابَني اللهُ تَعالَىٰ عَلَىٰ ذَلِكَ الصَّبرِ بنَيلِ مَا هُوَ أعْلَىٰ مِنهَا وأرْفَعُ.

❁ فَصْلٌ ❁

نَظرْتُ في الأدِلَّة عَلَى الحَقِّ ﷻ، فَوجَدتُها أكْثَر من الرَّمْلِ

ورَأيْتُ من أعْجبِها: أنَّ الإنْسَانَ قَدْ يُخفِي مَا لا يَرضاهُ اللهُ ﷻ فيُظهرَه اللهُ سُبحَانَه عَلَيهِ ولَوْ بَعدَ حِينٍ، ويُنطِق الألْسنَة بِهِ وإنْ لَمْ يُشاهِدهُ النَّاسُ.

ورُبَّما أوْقعَ صَاحِبه في آفَةٍ يفْضحُه بِهَا بَينَ الخَلْقِ، فيكُون جَوابًا لِكلِّ مَا أخْفَىٰ من الذُّنُوب؛ وذَلِكَ ليعلَمَ النَّاسُ أنَّ هُنالِكَ من يُجازِي عَلَىٰ الزَّللِ، ولا يَنفعُ من قَدرهِ وقُدرتِه حِجَابٌ ولا استَتارٌ، ولا يُضاعُ لَديهِ عَملٌ.

وكَذَلكَ يُخفِي الإنْسَانُ الطَّاعةَ فتظْهرُ عَلَيهِ، ويتَحدَّثُ النَّاسُ بِهَا وبأكْثَر مِنهَا، حَتَّىٰ إنَّهمْ لا يَعرِفونَ لَهُ ذنبًا ولا يَذكُرونهُ إلَّا بالمَحاسِنِ؛ ليعْلَمَ أنَّ هُنالِكَ رَبًّا لا يُضيعُ عَملَ عَاملٍ.

وإنَّ قُلوبَ النَّاسِ لَتعرفُ حَالَ الشَّخْصِ وتُحبُّهُ أَوْ تَأباه، وتَذمُّه أَوْ تمدَحهُ وَفْقَ مَا يَتحقَّقُ بَينهُ وبَينَ اللهِ تَعَالَىٰ؛ فإِنَّه يَكفِيه كُلَّ هَمٍّ، ويَدفعُ عَنْهُ كُلَّ شرٍّ، ومَا أَصْلحَ عَبْدٌ مَا بَينَه وبَينَ الخَلْقِ دُونَ الخَالِقِ إِلَّا انْعكَسَ مَقصودُهُ، وعَادَ حَامِدهُ ذَامًّا.

❁ فَصْل ❁

تَأَمَّلتُ الأَرْضَ ومَنْ عَليْهَا بعَينِ فِكرِي

فرَأيْتُ خَرابَها أكْثَر من عُمرَانِها. ثُمَّ نظَرتُ في المَعمُورِ مِنهَا فَوجَدتُ الكُفَّارَ مُستولِينَ عَلَىٰ أكْثَرِه، ووَجدْتُ أَهْلَ الإِسْلامِ في الأَرْضِ قَليلًا بالإِضَافَةِ إلىٰ الكُفَّارِ.

ثُمَّ تَأَمَّلتُ المُسلِمينَ فَرَأيْتُ المَكاسِبَ قَدْ شَغلَت جُمهورَهُم عَنِ الرَّازِق، وأَعْرضَتْ بِهِم عَنْ العِلْم الدَّالِّ عَليْهِ، فالسُّلطانُ مَشغُولٌ بالأَمْر والنَّهْي واللَّذَّات العَارِضةِ لَهُ، ومِياهُ أَغْراضِهِ جَارِيةٌ لا مُنْكِرَ لَهَا، ولا يتَلقَّاهُ أَحَدٌ بمَوعِظةٍ بَلْ بالمَدِيحَةِ الَّتِي تُقوِّي هَوَىٰ النَّفْسِ، وإنَّمَا يَنْبغِي أَنْ تُقاوَمُ الأَمْراضُ بأَضْدادِهَا، كَمَا قَالَ عَمْرُو بْنُ المُهاجِر: قَالَ لي عُمرُ بْنُ عَبْدِ العَزيزِ: «إذْ رَأيتَنِي قَدْ حِدتُ عَنِ الحَقِّ فخُذْ بثِيابِي وهزَّنِي، وقُلْ: مَا لكَ يَا عُمَرُ؟».

وقَالَ عُمرُ بْنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «رَحِمَ اللهُ مَنْ أَهْدَىٰ إليْنَا عُيوبَنا».

فأَحْوجُ الخَلْق إلىٰ المَواعِظِ والنَّصائحِ السُّلطانُ، وأَمَّا جُنودَه فجُمهورُهُم في سُكْرِ الهَوَىٰ وزِينةِ الدُّنْيَا، وقَد انضَافَ إلىٰ ذَلِكَ الجَهْل وعَدَمُ العِلْمِ، فَلا يُؤلِمهُم ذَنبٌ، ولا ينزَعِجُونَ من لُبسِ حَريرٍ، أَوْ شُربِ خَمرٍ، حَتَّىٰ رُبَّمَا قَالَ بعْضُهمْ: إيش يعْمَلُ الجُنديُّ؟ أَيلبَسُ القُطنَ؟! ثُمَّ أَخْذِهم الأَشْياءَ من غَيْر وجْهِها، فالظُّلمُ مَعهُم كالطَّبْعِ.

وأرْبابُ البَوادِي قَدْ غَمرَهمُ الجَهْلُ، وكَذَلكَ أَهْلُ القُرَىٰ، مَا أَكْثَر تقَلُّبَهم في الأنْجَاسِ وتَهْوِينِهم لأمْرِ الصَّلواتِ، ورُبَّما صَلَّت المَرْأَةُ مِنهنَّ قَاعدَةً.

ثُمَّ نَظرتُ في التُّجَّارِ فَرأَيْتُهم قَدْ غَلبَ عَلَيهِم الحِرصُ، حَتَّىٰ لا يَرونَ سِوَىٰ وُجوهِ الكَسبِ كَيْفَ كَانتْ، وصَارَ الرِّبَا في مُعامَلاتِهم فَاشِيًا، فَلا يُبالِي أَحَدُهمْ مِنْ أَيْنَ تَحصُلُ لَهُ الدُّنْيَا، وهُمْ في بَابِ الزَّكاةِ مُفرِّطُون، ولا يَستوحِشُونَ مِنْ تَركِها إِلَّا من عَصمَ اللهُ.

ثُمَّ نَظرْتُ في أرْبابِ المَعاشِ فَوجَدتُ الغشَّ في مُعامَلاتِهم عَامًّا، والتَّطفِيفَ والبَخسَ، وهُمْ مع هَذَا مَغمُورُون بالجَهلِ.

ورَأَيْتُ عَامَّة من لَهُ وَلدٌ يُشغلَهُ ببَعضِ هَذِهِ الأشْغالِ؛ طَلَبًا لِلكَسبِ قَبلَ أَنْ يَعرِفَ مَا يَجبُ عَلَيهِ، ومَا يتَأَدَّبُ بِهِ.

ثُمَّ نَظرْتُ في أحْوَال النِّسَاءِ فَرأَيتُهنَّ قَليلاتِ الدِّينِ، عَظيمَاتِ الجَهْلِ، مَا عِندَهُنَّ منَ الآخِرَةِ خَبرٌ إِلَّا من عَصمَ اللهُ.

فقُلْت: واعَجبًا فمَنْ بَقيَ لخِدمَة اللهِ ﷻ ومَعرِفته؟!

فنَظرْتُ؛ فَإِذَا العُلَماءُ والمُتعلِّمُونَ والعُبَّادُ والمُتزهِّدونَ:

فتَأَمَّلتُ العُبَّادَ والمُتزَهِّدينَ؛ فَرأَيْتُ جُمهُورَهم يتَعبَّدُ بغَيْر عِلمٍ، ويَأنَسُ إِلىٰ تَعظِيمه، وتَقبيلِ يَدهِ، وكَثرةِ أَتْبَاعهِ، حَتَّىٰ إِنَّ أَحَدَهم لَوْ اضْطُرَّ إِلىٰ أَنْ يَشتَرِي حَاجَةً من السُّوقِ لَمْ يَفعَلْ؛ لئَلَّا ينْكَسرَ جَاهُهُ، ثُمَّ يَترقَّىٰ بِهِم رُتبَةَ النَّاموسِ إِلىٰ أَنْ لا يَعودُوا مَريضًا، ولا يَشهدُوا جِنازَةً إِلَّا أَنْ يَكُون عَظيمَ القَدرِ عِندَهُم، ولا يتَزاوَرُونَ، بَلْ رُبَّمَا ضَنَّ بعْضُهمْ عَلَىٰ بَعْضٍ بلِقاءٍ؛ فَقدْ صَارتِ النَّوامِيسُ كالأَوْثانِ يعْبدُونَها ولا يعْلَمونَ.

وفِيهِم من يُقدِمُ عَلَىٰ الفَتوَىٰ بجَهلٍ؛ لِئلَّا يُخلَّ بناموسِ التَّصدُّرِ، ثُمَّ يَعيبُون العُلَمَاءَ لحِرصِهمْ عَلَىٰ الدُّنْيَا، ولا يعْلَمُون أنَّ المَذمُومَ من الدُّنْيَا مَا هُم فِيهِ، لا تَناوُلُ المُبَاحاتِ.

ثُمَّ تَأمَّلتُ العُلَمَاءَ والمُتعلِّمينَ؛ فرَأيْتُ القَليلَ مِنَ المُتعلِّمينَ مَن عَلَيهِ أمَارةُ النَّجابَةِ؛ لأنَّ أمَارةَ النَّجابةِ طَلَبُ العِلْم للعَملِ بِهِ، وجُمْهُورهُم يَطلُبُ مِنْهُ مَا يُصيِّرهُ شَبكةً للكَسبِ؛ إمَّا ليَأخُذَ بِهِ قَضاءَ مَكانٍ، أوْ ليَصيرَ بِهِ قَاضِي بَلدٍ، أوْ قَدْرَ مَا يتميَّزُ بِهِ عَنْ أبْناءِ جِنسِه؛ ثُمَّ يكتَفِي.

ثُمَّ تَأمَّلتُ العُلَمَاءَ؛ فرَأيْتُ أكْثَرهُم يَتلاعَبُ بِهِ الهَوَىٰ ويَستخْدمُهُ، فَهُو يُؤثِرُ مَا يَصدُّه العِلْم عَنهُ، ويُقبِل عَلَىٰ مَا يَنهَاه، ولا يَكادُ يَجدُ ذَوقَ مُعامَلةٍ للهِ سُبحانَه، وإنَّمَا همَّتهُ أَنْ يَقُولَ وحَسْبُ؛ إلَّا أنَّ اللهَ لا يُخلِّي الأَرْض مِنْ قَائمٍ لَهُ بالحُجَّة، جَامعٍ بينَ العِلْمِ والعَمَل، عَارِفٍ بحُقوقِ اللهِ تَعَالَىٰ، خَائفٍ مِنْهُ فذَلِكَ قُطبُ الدُّنْيَا، ومَتَىٰ مَاتَ أخْلفَ اللهُ عِوضَه، ورُبَّما لَمْ يَمُتْ حَتَّىٰ يَرَىٰ مَنْ يصْلُحُ للنِّيابَةِ عَنْهُ في كُلِّ نائبةٍ.

ومِثْل هَذَا لا تَخلُو الأَرْضُ مِنْهُ، فَهُو فِي مَقام النَّبيِّ في الأُمَّة، وهَذَا الَّذِي أصِفهُ يَكُون قَائمًا بالأصُولِ، حَافظًا للحُدودِ، ورُبَّما قَلَّ عِلمُه، أوْ قلَّتْ مُعاملَتُه، فأَمَّا الكَامِلونَ في جَميعِ الأَدَواتِ فيندُرُ وجُودُهمْ، فيَكُون في الزَّمانِ البَعيدِ مِنهُم وَاحِدٌ.

ولَقَدْ سَبَرتُ السَّلَفَ كُلَّهُم؛ فأَردتُ أنْ أسْتخرِجَ مِنهُم مَنْ جَمعَ بينَ العِلْمِ حَتَّىٰ صَارَ من المُجتهِدِينَ وبَينَ العَمَلِ حَتَّىٰ صَارَ قُدوةً للعَابِدينَ، فَلَم أرَ أكْثَر من ثَلاثَةٍ: أَوَّلُهم: الحَسنُ البَصريُّ، وثَانِيهم: سُفيَانُ الثَّورِيُّ، وثَالثُهم: أحْمَدُ بْن حَنْبَل - وقَدْ أفْردتُ لأخْبَار كُلِّ وَاحِدٍ مِنهُم كِتابًا -، ومَا أُنكِر عَلَىٰ مَنْ ربَّعهُم بسَعيدِ بْنِ المُسيِّب.

وإنْ كَانَ فِي السَّلَف سَاداتٌ إلَّا أنَّ أكْثَرهم غَلبَ عَلَيهِ فَنٌّ فنَقصَ من الآخَر، فمِنْهُم من غَلبَ عَلَيهِ العِلْمُ، ومِنْهُم من غَلبَ عَلَيهِ العَمَلُ، وكُلُّ هَؤُلاءِ كَانَ لَهُ الحَظُّ الوَافرُ من العِلْمِ، والنَّصيبُ الأوْفَىٰ مِن المُعامَلةِ والمَعرِفةِ.

ولا يُؤْيَسُ مِنْ وُجُودِ منْ يَحذُو حَذوَهُم وإنْ كَانَ الفَضْلُ بالسَّبقِ لَهمْ؛ فَقدْ أطْلعَ اللهُ ﷻ الخَضِرَ عَلَىٰ مَا خَفِي عَن مُوسَىٰ عليهما السلام؛ فخَزائِنُ اللهِ مَملوءَةٌ، وعَطاؤُه لا يقِفُ عَلَىٰ شَخصٍ.

ولَقَدْ حُكِي لِي عَنِ ابْنِ عَقِيلٍ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ عَنْ نَفْسهِ: «أَنَا عُمْتُ في قَاربٍ ثُمَّ كُسرَ»، وهَذَا غَلطٌ! فمِنْ أَيْنَ لهُ؟! فَكَمْ مُعجبٍ بنَفْسِه كُشِفَ لَهُ مِنْ غَيْره مَا عَادَ يحقِرُ نَفْسهُ عَلَىٰ ذَلِكَ، وكَمْ من مُتأخِّرٍ سَبقَ مُتقدِّمًا.

وقَد قِيلَ:

إِنَّ اللَّيَالِيَ وَالأَيَّامَ حَامِلَةٌ ** وَلَيْسَ يَعْلَمُ غَيْرُ اللهِ مَا تَلِدُ

فَصْل

رَأيتُ مَيلَ النَّفسِ إلى الشَّهَوات زَائدًا فِي المِقْدَار

حَتَّىٰ إنَّها إِذَا مَالتْ مَالتْ بالقَلبِ والعَقْلِ والذِّهنِ، فَلا يَكادُ المَرءُ يَنتفِعُ بشَيْءٍ من النُّصحِ.

فصِحتُ بِهَا يَومًا وقَد مَالتْ بكُلِّيَّتِها إلىٰ شَهْوَةٍ: ويحَكِ! قِفِي مَعِي لحْظةً أُكلِّمكِ كَلِمَات ثُمَّ افْعلِي مَا بَدا لَكِ. قَالَتْ: قُلْ! أَسْمَع. قُلْتُ: قَدْ تقرَّرَ قِلَّةُ مَيلِكِ إلىٰ المُبَاحاتِ من الشَّهَوَاتِ، وأمَّا جُلُّ مَيلِكَ فإلَىٰ المُحرَّماتِ، فأنَا أكْشفُ لكَ عَنِ الأمْرينِ، فرُبَّمَا رَأيت الحُلوَينِ مُرَّينِ:

أمَّا المُبَاحاتُ من الشَهَواتِ؛ فمُطلَقةٌ لَكِ، ولَكِنَّ طَرِيقَها صَعبٌ؛ لأَنَّ المَالَ قَدْ يعْجزُ عَنهَا، والكَسبُ قَدْ لا يُحصِّلُ مُعظَمهَا، والوَقتُ الشَّريفُ يَذهَبُ بذَلِكَ، ثُمَّ

شُغْلُ القَلْبِ بِهَا وقتَ التَّحصِيلِ، وفي حَالَةِ الحُصولِ، ويَحذَر الفَواتَ، ثُمَّ يُنغِّصهَا من النَّقصِ مَا لا يَخفَىٰ عَلَىٰ مُميِّزٍ: إنْ كَانَ مَطعَمًا فالشِّبعُ يُحدِثُ آفَاتٍ، وإنْ كَانَ شَخصًا فالمَللُ أوْ الفِراقُ أوْ سُوءُ الخُلُق. ثُمَّ ألذُّ النِّكَاحِ أكْثَره إيهانًا للبَدنِ، إلىٰ غَيْر ذَلِكَ مِمَّا يَطولُ شَرحُهُ.

وأمَّا المحَرَّماتُ؛ فتَشتَمِلُ عَلَىٰ مَا أشَرنَا إلَيْهِ من المُبَاحاتِ، وتَزيدُ عليْهَا بأنَّهَا آفَةُ العِرْضِ، ومظَنَّةُ عِقابِ الدُّنْيَا وفَضيحَتِها، ووعِيدِ الآخِرَة، ثُمَّ الجَزعُ كُلَّمَا ذَكَرَها التَّائبُ.

وفي قُوَّة قَهرِ الهَوَىٰ لَذَّةٌ تَزيدُ عَلَىٰ كُلِّ لذَّةٍ، ألَا تَرَىٰ إلىٰ كُلِّ مَغلُوبٍ بالهَوَىٰ كَيْفَ يَكُون ذَليلًا؛ لأنَّهُ قُهِر، بخِلافِ غَالِب الهَوَىٰ فإنَّه يَكُون قَويَّ القَلبِ، عَزيزًا؛ لأنَّهُ قَهَر.

فالحَذرَ الحَذرَ من رُؤيةِ المُشتَهَىٰ بعَينِ الحُسنِ كَمَا يَرَىٰ اللِّصُّ لَذَّةَ أخَذِ المَالِ من الحِرزِ ولا يَرَىٰ بعَينِ فِكرِه القَطعَ.

ولِيفْتَحْ عَينَ البَصيرَةِ لتَأمُّلِ العَواقِب، واستِحَالةِ اللَّذَّةِ نغصَةً، وانقِلابِها عَنْ كَونِها لَذَّةً إمَّا لمَلل أوْ لِغيرِه من الآفاتِ، أوْ لانْقطَاعِها بامْتنَاعِ الحَبيب، فتكونُ المَعصِيَة الأُولىٰ كلُقمةٍ تَناوَلَها جَائعٌ، فَمَا رَدَّت كَلبَ الجُوعِ، بَلْ شَهَّت الطَّعَامَ، وليتَذكَّرِ الإنْسَانُ لَذَّةَ قَهرِ الهَوَىٰ مع تَأمُّلِ فَوائِدَ الصَّبرِ عَنهُ، فمَنْ وُفِّق لِذلِكَ كَانَتْ سَلامَتهُ قَريبةً مِنهُ.

فصل

خَطرَ لي خَاطرٌ

والمَجْلِسُ قَدْ طَابَ، والقُلوبُ قَدْ حَضرَتْ، والعُيونُ جَاريَةٌ، والرُّؤوسُ مُطرِقةٌ، والنُّفُوسُ قَدْ نَدِمتْ عَلَىٰ تَفرِيطِها، والعَزائِمُ قَدْ نَهضَتْ لإصْلاحِ شُؤونِها، وألْسِنةُ اللَّومِ تَعملُ في البَاطلِ عَلَىٰ تَضييعِ الحَزمِ وتَركِ الحَذرِ، فَقُلتُ لنَفْسِي: مَا بَالُ هَذِهِ اليَقَظَة لا تَدومُ؛ فَإنِّي أرَىٰ النَّفْسَ واليَقَظَةَ في المَجْلِس مُتصادِقَين مُتصافِيَين، فَإذَا قُمنَا عَنْ هَذِهِ التُّربَةِ وقَعتِ الغُربةُ!

فتَأمَّلتُ ذَلِكَ؛ فرَأيت أنَّ النَّفْس مَا تَزالُ مُتيقِّظةٌ، والقَلبُ مَا يَزال عَارفًا غَيْر أنَّ القَواطِعَ كَثيرَةٌ، والفِكرَ الَّذي يَنْبغِي اسْتعمَالهُ في مَعرِفةِ الله ﷻ قَدْ كَلَّ مِمَّا يُسْتعملُ في اجْتِلابِ الدُّنْيَا، وتَحصِيلِ حَوائجِ النُّفُوسِ، والقَلبُ مُنغمِسٌ في ذَلِكَ، والبَدَن أسِيرٌ مُستخدَمٌ.

وبَينَما الفِكرُ يَجولُ في اجْتِلابِ الطَّعَام والشَّرابِ والكِسوةُ، ويَنظُر في مَددِ ذَلِكَ ومَا يدَّخِرهُ لغَدِه وسَنتِه اهتمَّ بخُروجِ الحَدَثِ وتَشاغَلَ بالطَّهارَة، ثُمَّ اهتمَّ بخُروجِ الفَضلاتِ المُؤذِيةِ - ومِنهَا المَنيُّ - فاحْتاجَ إلىٰ النِّكَاحِ، فعَلِم أنَّهُ لا يَصِحُّ إلَّا باكْتسَابِ كَسبِ الدُّنْيَا، فتَفكَّرَ في ذَلِكَ وعَملَ بمُقتضَاه، ثُمَّ جَاءَ الوَلَدُ فاهْتمَّ بِهِ ولَهُ، وإذَا الفِكرُ عَاملٌ في أصُولِ الدُّنْيَا وفُروعِها.

فَإذَا حَضرَ الإنْسَانُ المَجْلِسَ فإنَّه لا يَحضُر جَائعًا ولا حَاقِنًا، بَلْ يَحضُرُ جَامعًا لهِمَّتِهِ، نَاسِيًا مَا كَانَ من الدُّنْيَا عَلَىٰ ذِكرِه فيَخْلُو الوَعظُ بالقَلبِ فيذَكِّرُهُ بِمَا ألِفَ، ويُحدِّثه بِمَا عَرفَ، فينهَضُ عُمَّال القَلْبِ في زَوارِقِ عِرفَانِه فيُحضِرونَ النَّفس إلىٰ بَابِ المُطالَبةِ بالتَّفريطِ، ويُؤاخِذُون الحِسَّ بِمَا مَضَىٰ من العُيوبِ، فتَجرِي عُيونُ النَّدمِ، وتَنعقِدُ عَزائِمُ الاسْتدرَاكِ.

ولَوْ أنَّ هَذِهِ النَّفْس خَلَتْ عَنِ المَعهُودَاتِ الَّتِي وصَفْتُها لتَشاغَلتْ بخِدمَةِ بَارِئها، ولَوْ وَقعَتْ فِي سَوْرَة حُبِّه لاسْتوحَشتْ عَنِ الكُلِّ شُغلًا بقُرْبِهِ؛ ولِهذَا اعْتمدَ الزُّهَّادُ الخَلوَات، وتَشاغَلُوا بقَطعِ المُعوِّقاتِ، وعَلَىٰ قَدرِ مُجاهَدتِهم في ذَلِكَ نَالُوا مِنَ الخِدمَة مُرادَهُم، كَمَا أنَّ الحَصادَ عَلَىٰ مِقدارِ البذْرِ.

غَيرَ أَنِّي تَلمَّحتُ في هَذِهِ الحَالةِ دَقيقةً، وهُوَ أنَّ النَّفْسَ لَوْ دَامَت لَهَا اليَقظَةُ لوَقعتْ فِيمَا هُوَ شَرٌّ مِنْ فَوتِ مَا فَاتَها وهُوَ العُجْب بحَالِها، والاحْتِقارُ لجِنسِها، ورُبَّما تَرقَّت بقُوَّة عِلمِهَا وعِرفَانِها إلىٰ دَعوَىٰ: لِي، وعِندِي، وأَسْتحِقُّ، فتَركَها في حَومَةِ ذُنُوبِها تَتخبَّطُ، فَإِذَا وقَفتْ عَلَىٰ الشَّاطِئ قَامَت بحَقِّ ذِلَّة العُبودِيَّة، وذَلِكَ أَوْلَىٰ لَهَا.

هَذَا حُكمُ الغَالِب من الخَلْقِ، ولِذلِكَ شُغِلوا عَنْ هَذَا المَقام، فَمنْ بَذرَ فصَلحَ لَهُ فَلا بُدَّ لَهُ من هَفوةٍ تُراقِبها عَينُ الخَوفِ بِهَا فتَصحُّ لَهُ عُبوديَّتهُ، وتَسلَمُ لَهُ عِبادَتهُ.

وإلىٰ هَذَا المَعنَىٰ أَشَارَ الحَدِيثُ الصَّحِيحُ: «**لَوْ لَمْ تُذنِبُوا لَذهَبَ اللهُ بِكمْ وجَاءَ بقَومٍ يُذنِبونَ فيَستغْفِرُون فيُغفَر لَهُم**»(١).

❁ فَصْلٌ ❁

تفَكَّرتُ فرَأيْتُ أنَّ حِفظَ المَالِ من المُتعيَّن

ومَا يُسمِّيهِ جَهلَةُ المُتزَهِّدينَ: تَوكُّلًا؛ من إخْراجِ مَا في اليَدِ؛ لَيسَ بالمَشرُوعِ؛ فَإِن النَّبيَّ ﷺ قَالَ لكَعبِ بْنِ مَالكٍ: «**أَمسِك عَلَيْك بَعْضَ مَالِك**» أَوْ كَمَا قَالَ لَهُ،

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٤٩) من حديث أبي هريرة.

وقَالَ لسَعدٍ: «لأَنْ تترُكَ ورَثَتَك أغْنِياءَ خَيرٌ من أَنْ تترُكهُمْ عَالةً يتكفَّفونَ النَّاسَ»[1].

فَإنِ اعْتَرَضَ جَاهِلٌ فقَالَ: فَقَدْ جَاءَ أَبُو بَكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِكُلِّ مَالِهِ.

فالجَوابُ: أنَّ أبَا بَكرٍ صَاحِبُ جَأشٍ وتِجارَةٍ، فَإذَا أخْرَجَ الكُلَّ أمْكنَهُ أَنْ يَستدِينَ عَلَيهِ فيَتعيَّشُ.

فمَنْ كَانَ عَلَىٰ هَذِهِ الصِّفةِ لا أذمُّ إخْرَاجهُ لمَالِهِ، وإنَّمَا الذَّمُّ مُتطرِّقٌ إلىٰ مَنْ يُخرِجُ مَالَه ولَيسَ مِنْ أرْبَابِ المَعائشِ، أوْ يَكُونَ مِنْ أولَئِكَ إلَّا أَنَّهُ يَنقَطِعُ عَنِ المَعاشِ فيَبقَىٰ كَلًّا عَلَىٰ النَّاسِ يَستعْطِيهِم ويعْتقِدُ أَنَّهُ عَلَىٰ الفُتوحِ، وقَلبُه مُتعلِّقٌ بالخَلْقِ، وطمَعهُ نَاشِبٌ فِيهِم، ومَتَىٰ حُرِّكَ بَابهُ نَهضَ قَلبُهُ وقَالَ: رِزقٌ قَدْ جَاءَ.

وهَذَا أمْرٌ قَبيحٌ بمَنْ يَقدِر بِهِ عَلَىٰ المَعاشِ، وإنْ لَمْ يَقدِر كَانَ إخْرَاجُ مَا يَملِكُ أقْبحُ له؛ لأنَّهُ يَتعلَّقُ قَلبُهُ بِمَا في أيْدِي النَّاس، ورُبَّما ذَلَّ لبَعضِهِمْ، أوْ تَزيَّنَ لَهُ بالزُّهْدِ، وأقَلُّ أحْوَالِه أَنْ يُزاحِم الفُقرَاءَ والمَكافِيفَ والزَّمنَىٰ في الزَّكاةِ.

فعَلَيْكَ بالشَّرْبِ الأوَّلِ، فانْظُر هَلْ فِيهِمْ مَنْ فَعلَ مَا يَفعلهُ جَهلَةُ المُتزَهِّدينَ؟

وقَدْ أَشَرتُ في أوَّلِ هَذَا إلىٰ أَنَّهُمْ كَسبُوا وخَلَّفُوا الأمْوالَ، فَرِدْ إلىٰ الشِّرْبِ الأوَّل، الَّذِي لَمْ يُطْرَقْ فإنَّه الصَّافِي.

واحْذرْ مِنَ المَشارِعِ المَطرُوقةِ بالآراءِ الفَاسِدةِ الخَارِجةِ في المَعنَىٰ عَلَىٰ الشَّريعَة، مُدَّعِيَةً بلِسانِ حَالِها أَنَّ الشَّرْعَ نَاقصٌ يحْتَاجُ إلىٰ مَا يَتمُّ بِهِ.

---

(١) **صحيح**: أخرجه مالك (١٤٥٦)، والبخاري (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨)، وأحمد (١٤٤٠)، وأبو داود (٢٨٦٤)، والترمذي (٢١١٦) وقال: حسن صحيح. والنسائي (٣٦٢٦)، وابن ماجه (٢٧٠٨)، وابن خزيمة (٢٣٥٥) من حديث سعد بن أبي وقاص.

واعْلَمْ - وفَّقكَ اللهُ تَعَالَىٰ - أنَّ البَدَن كالمَطيَّةِ، ولا بُدَّ من عَلفِ المَطيَّةِ، والاهتِمَام بِهِ، فَإِذَا أَهْمَلْتَ ذَلِكَ كَانَ سَببًا لوُقوفِكَ عَنِ السَّيرِ.

وقَدْ رُؤِي سَلمانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَحمِلُ طَعامًا عَلَىٰ عَاتِقِهِ فقِيلَ لَهُ: أتَفعلُ هَذَا وأَنتَ صَاحِبُ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ فَقَالَ: «**إنَّ النَّفْسَ إِذَا أَحْرزَتْ قُوتَها اطْمأَنَّتْ**».

وقَالَ سُفيَان الثَّورِيُّ: «إِذَا حصَّلتَ قُوتَ شَهرٍ فتَعبَّدْ».

وقَدْ جَاءَ أَقْوَامٌ لَيسَ عِندَهم سِوَىٰ الدَّعَاوىٰ فقَالُوا: هَذَا شَكٌّ في الرَّازِقِ والثِّقةُ بِهِ أَوْلَىٰ، فإِيَّاكَ وإِيَّاهُم، ورُبَّما وَردَ مِثْل هَذَا عَنْ بَعْض صُدورِ الزُّهَّاد من السَّلَف فَلا يُعوَّلُ عَلَيهِ، ولا يهُولَنَّك خِلافهُمْ.

فَقدْ قَالَ أَبُو بَكرٍ المروزِيُّ: سَمِعتُ أَحْمَدَ بْن حَنبَل يُرغِّبُ في النِّكَاح، فَقُلتُ لَهُ: قَالَ ابْنُ أدْهَم، فَمَا تركَنِي أتمِمُ حَتَّىٰ صَاح عَليَّ وقَالَ: «أَذْكُر لَكَ حَال رَسُول اللهِ ﷺ وأَصْحَابهِ وتَأْتِيني ببُنيَّاتِ الطَّرِيق؟!».

واعْلَمْ وفَّقكَ اللهُ: أَنَّهُ لَوْ رَفضَ الأَسْبَابَ شَخْصٌ يَدَّعِي التَّزهُّد، وقَالَ: لا آكُل ولا أَشْرَب، ولا أَقُومُ من الشَّمسِ في الحَرِّ، ولا أَسْتَدْفِئُ مِنَ البَردِ كَانَ عَاصِيًا بالإِجْمَاعِ، وكَذَلكَ لَوْ قَالَ -ولَهُ عَائلةٌ-: لا أَكتَسبُ ورِزقُهمْ عَلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: فأَصَابَهمْ أَذًىٰ كَانَ آثِمًا كَمَا قَالَ ﷺ: «**كَفَىٰ بالمَرءِ إِثْمًا أَنْ يُضيِّع مَنْ يَقوتُ**»[1].

---

(١) **صحيح**: أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو: أحمد (٦٤٩٥)، أبو داود (١٦٩٢)، وابن حبان (٤٢٤٠)، والحاكم (١٥١٥) (٨٥٢٦) وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين. وقال الذهبي في «العلو» (١٠٠): «قال ابن منده: إسناده صحيح». وقال النووي في «رياض الصالحين» (١٥٣): «صحيح». وأخرجه مسلم (٩٩٦)، وابن حبان (٤٢٤١) بلفظ: «كفىٰ بالمرء إثما أن يحبس عمن يملك قوته».

واعْلَمْ أنَّ الاهْتمَامَ بالكَسبِ يجمَعُ الهَمَّ، ويُفرِغُ القَلْب، ويقْطعُ الطَّمَع في الخَلْقِ؛ فَإِنَّ الطَّبْعَ لَهُ حَقٌّ يَتقاضَاه، وقَد بَيَّن الشَّرْعُ ذَلِكَ فَقَالَ: «إنَّ لنَفْسكَ عَلَيْك حَقًّا»(١) و«إنَّ لعَينِكَ عَلَيْك حَقًّا»(٢).

ومِثالُ الطَّبْعِ مَع المُريدِ السَّالكِ كمَثلِ كَلبٍ لا يَعرِفُ الطَّارِقَ، فكُلُّ مَن رَآهُ يَمشِي نَبحَ عَلَيهِ، فَإِنْ أَلْقَىٰ إِلَيْهِ كِسرَةً سَكتَ عَنهُ.

فالمُرَادُ منَ الاهتِمامِ بذَلِكَ جَمعُ الهَمِّ لا غَيْر، فَافهَمْ هَذِهِ الأَصُول؛ فَإِنَّ فَهمَها مُهِمٌّ.

فَصْل

تَأَمَّلتُ شَهَواتِ الدُّنْيَا؛ فَرأَيْتُها مَصائِدَ هَلاكٍ، وفُخوخَ تَلفٍ

فمَنْ قَوِي عَقلُه عَلَىٰ طَبعِه وحَكمَ عَلَيهِ [سَلِمَ]، ومَن غَلبَ طَبعُه فيَا سُرعَةَ هَلكَتهِ.

ولَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ أَبْناءِ الدُّنْيَا كَانَ [يتَنوَّقُ في شِراءِ السَّرارِي]، ثُمَّ يَسْتعمِلُ الحَرَارَات المُهيِّجة للبَاءة، فَمَا لَبثَ أنِ انْحلَّتْ حَرارَتهُ الغَريزيَّةُ وتَلفَ!

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (١٣٦٩)، وأحمد (٢٦٣٠٨) من حديث عائشة. والدارمي (٢١٦٩) من حديث سعد بن أبي وقاص. والترمذي (٢٤١٣)، وابن خزيمة (٢١٤٤) من حديث أبي جحيفة. وأحمد (٦٨٧٨) والحاكم (٦٩٠٠) من حديث عبد الله بن عمرو.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (١٩٧٥، ٥١٩٩، ٦١٣٤) من حديث عبد الله بن عمرو.

ولَمْ أرَ في شَهَواتِ النَّفْسِ أسْرعَ هَلاكًا من هَذِهِ الشَّهْوَة؛ فإنَّه كُلَّما مَالَ الإنْسَانُ إلىٰ شَخْصٍ مُستحسَنٍ أوجَبَ ذَلِكَ حَرَكَةَ البَاءة زَائِدًا عَنْ العَادَةِ، وإذَا رَأىٰ أحْسنَ مِنْهُ زَادَت الحَرَكَةُ وكَثرَ خُروجُ المَنيِّ زَائدًا عَنِ الأوَّل، فيَفنَىٰ جوهرُ الحَياةِ أسْرعُ شَيْءٍ.

وبالضِّدِّ مِنْ هَذَا أَنْ تَكُونَ المَرْأَةُ مُستقْبحَةً فَلا يُوجِبُ نِكاحُها خُروجُ الفَضلَةِ المُؤذِيةِ كَمَا يَنبَغِي، فيَقَع التَّأَذِّي بالاحْتبَاسِ وقُوَّةِ التَّوقِ إلىٰ مَنكُوحٍ.

وكَذَلكَ المُفرِّطُ في الأَكْل فإنَّه يَجنِي عَلَىٰ نَفْسِه كَثِيرًا من الجِنايَاتِ، والمُقصِّر في مِقدَار القُوتِ كَذَلكَ، فعَلمتُ أنَّ أفْضَلَ الأُمُورِ أوْسَاطُها.

والدُّنْيَا مَفازَةٌ فيَنْبغِي أَنْ يَكُون السَّابقُ فِيهَا العَقْلُ، فمَنْ سَلَّم زِمامَ رَاحِلتهُ إلىٰ طَبعِه وهَواهُ فيَا عَجَلةَ تلَفِهِ، هَذَا فِيمَا يَتعلَّقُ بالبَدَن والدُّنْيَا، فقِسْ عَلَيهِ أمْرَ الآخِرَة فَافْهمْ.

فَصْل

بَلغَنِي عَنْ بَعْضِ زُهَّاد زَمانِنا أَنَّهُ قُدِّمَ إلَيْهِ طَعامٌ فَقَالَ: لا آكُل. فقِيلَ لَهُ: لِمَ؟ فَقَالَ: لأَنَّ نَفْسِي تَشتَهِيه وأنَا مُنذُ سِنينَ مَا بَلَّغتُ نَفْسِي مَا تَشتَهِي

فقُلْت: لَقدْ خَفيَت طَرِيقُ الصَّوَابِ عَنْ هَذَا من وَجهَين -وسَبَبُ خفائِها عَدمُ العِلْم-:

أمَّا الوَجْه الأوَّل: فَإنَّ النَّبيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ عَلَىٰ هَذَا ولا أصْحَابهُ، وقَدْ كَانَ ﷺ يَأكُلُ لَحمَ الدَّجاجِ[1]، ويُحبُّ الحَلْوَىٰ والعَسلَ[2].

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٣٨٥، ٥٥١٧)، ومسلم (١٦٤٩) من حديث أبي موسىٰ.

(٢) صحيح: أخرج البخاري (٥٤٣١)، ومسلم (١٤٧٤) من حديث عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل.

ودَخلَ فَرقَدُ السّبخِيُّ عَلَىٰ الحَسنِ وهُوَ يَأكُل الفَالُوذَج، فَقَالَ: يَا فَرقَدُ، مَا تَقُولُ فِي هَذَا؟ فَقَالَ: لا آكُلُه ولا أُحِبُّ مَنْ أَكلَهُ، فَقَالَ الحَسنُ: لُعابُ النَّحلِ بِلُبابِ البُرِّ مع سَمنِ البَقَرِ هَلْ يعِيبُهُ مُسلِمٌ؟!

وجَاءَ رَجُلٌ إلىٰ الحَسنِ فقَالَ: إنَّ لي جَارًا لا يَأكُل الفَالُوذَج. فَقَالَ: ولِمَ؟ قَالَ: يَقُول: لا أُؤَدِّي شُكرَه. فَقَالَ: إنَّ جَارَك جَاهِلٌ وهَل يُؤدِّي شُكرَ المَاءِ البَارِد؟!

وكَانَ سُفيَانُ الثَّورِيُّ يَحمِلُ فِي سَفرِه الفَالُوذَجَ والحَمَلَ المَشوِيَّ، ويَقُول: إنَّ الدَّابَّةَ إِذَا أُحسِنَ إِلَيهَا عَمِلتْ.

ومَا حَدثَ فِي الزُّهَّاد بَعدَهُم أمورٌ مِنْ هَذَا الفَنِّ مَسرُوقةٌ من الرَّهبانيَّةِ، وأنَا خَائفٌ من قَولِهِ تَعالَىٰ: ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ﴾ [المائدة: ٨٧].

ولا يُحفَظُ عَنْ أحَدٍ من السَّلَفِ الأَوَّلِ من الصَّحَابَة من هَذَا الفَنِّ شَيْءٌ؛ إلَّا أَنْ يَكُون ذَلِكَ لِعارِضٍ وسَبَبٍ.

مَا يُروَىٰ عَنْ ابنِ عُمرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ اشْتهَىٰ شَيئًا فآثَر بِهِ فَقِيرًا، وأعْتقَ جَارِيتَهُ رُمَيثَةَ وقَالَ: «إنَّها أَحبُّ الخَلْقِ إليَّ»، فهَذَا وأَمْثَالهُ حَسنٌ؛ لأَنَّهُ إيثارٌ بِمَا هُوَ أَجْوَدُ عِنْدَ النَّفْسِ من غَيرِه، وأَكْثَر لَهَا ممن سِوَاهُ.

فَإذَا وَقعَ فِي بَعْض الأَوْقَاتِ كُسِرَتْ بذَلِكَ الفِعلِ سَوْرَةُ هَواهَا أَنْ تَطغَىٰ بِنَيلِ كُلِّ مَا تُرِيدُ.

فأَمَّا مَنْ دَامَ عَلَىٰ مُخالَفَتِها عَلَىٰ الإطْلاقِ فإِنَّه يُعمِي قَلبَها، ويُبَلِّدُ خَواطِرَهَا، ويُشَتِّتُ عَزائِمَها، فيُؤذِيهَا أَكْثَر مِمَّا يَنفعهَا.

وقَدْ قَالَ إبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَم: «إنَّ القَلْبَ إِذَا أُكْرِهَ عَمِي».

وتَحتَ مَقالَتِهِ سِرٌّ لَطيفٌ، وهُوَ أنَّ اللهَ ﷻ قَدْ وَضعَ طَبيعةَ الآدَمِيِّ عَلَىٰ مَعْنًىٰ عَجِيبٍ، وهُوَ أَنَّهَا تَختارُ الشَّيْءَ من الشَّهَوات مِمَّا يُصلِحُها، فيعلَمُ باخْتِيارِها لَهُ صَلاحُه لَهَا، وصَلاحُهَا بِهِ.

وقَدْ قَالَ حُكمَاءُ الطِّبِّ: «يَنْبغِي أَنْ يُفسَح للنَّفسِ فِيمَا تَشتَهِي مِنَ المَطاعِم، وإنْ كَانَ فِيهِ نَوعُ ضَررٍ؛ لأنَّهَا إنَّمَا تَختَارُ مَا يُلائِمُها، فَإذَا قَمعَها الزَّاهِدُ في مِثلِ هَذَا عَادَ عَلَىٰ بَدَنِه بالضَّررِ».

ولَولَا جَواذِبُ البَاطِنِ من الطَّبِيعَة مَا بَقِي البَدَنُ؛ فَإِنَّ الشَّهْوةَ للطَّعامِ تَثُورُ، فَإذَا وَقعتْ الغُنْيَةُ بِمَا يتَنَاوَل كفتِ الشَّهْوَة.

فالشَّهْوة مُرِيدٌ ورَائِدٌ، ونِعمَ البَاعِث هي عَلَىٰ مَصلَحةِ البَدَنِ، غَيْر أَنَّهَا إِذَا أَفرَطتْ وَقعَ الأذَىٰ، ومَتىٰ مُنِعتْ مَا تُرِيدُ عَلَىٰ الإطْلاقِ مع الأمْنِ من فَسادِ العَاقِبةِ عَادَ ذَلِكَ بفَسادِ أحْوَالِ النَّفْسِ، ووَهنِ الجِسمِ، واخْتِلافِ السَّقَمِ الَّذِي تَتداعَىٰ بِهِ الجُملَةُ، مِثلَ أَنْ يَمنعَهَا المَاءَ عِنْدَ اشْتِدادِ العَطشِ، والغِذاءَ عِنْدَ الجُوعِ، والجِمَاعَ عِنْدَ قُوَّة الشَّهْوَة، والنَّومَ عِنْدَ غَلَبتِه، حَتَّىٰ إنَّ المُغتَمَّ إِذَا لَمْ يتروَّحْ بالشَّكوَىٰ قَتلَه الكَمَدُ.

فَهذَا أَصْلٌ؛ إِذَا فَهِمهُ هَذَا الزَّاهِدُ عَلِمَ أَنَّهُ قَدْ خَالفَ طَرِيقَ الرَّسُولِ ﷺ وأَصْحَابِه من حَيثُ النَّقلُ، وخَالَفَ المَوضُوعَ من حَيثُ الحِكمَةُ.

ولا يَلزَمُ عَلَىٰ هَذَا قَول القَائِلِ: «فمِن أيْنَ يَصفُو المَطْعمُ؟» لأَنَّهُ إِذَا لَمْ يصْفُ كَانَ التَّركُ ورَعًا، وإنَّمَا الكَلامُ في المَطْعمِ الَّذِي لَيسَ فِيهِ مَا يُؤذِي في بَابِ الوَرَع، وكَانَ مَا شَرحْتُه جَوابًا لِلقَائِل: «مَا أُبلِّغُ نَفْسِي شَهْوَةً عَلَىٰ الإطْلاقِ».

والوَجْهُ الثَّانِي: أَنِّي أخَافُ عَلَىٰ الزَّاهِد أَنْ تَكُون شَهوَتهُ انْقلَبتْ إلىٰ التَّركِ، فصَارَ يَشتَهِي أَنْ لا يتَنَاوَلَ، وللنَّفسِ في هَذَا مَكرٌ خَفيٌّ، ورِياءٌ دَقيقٌ، فَإِنْ سَلِمتْ من

الرِّياءِ للخَلقِ كَانَتِ الآفةُ من جِهَة تَعلُّقِها بمِثلِ هَذَا الفِعلِ، وإدْلالِهَا في البَاطِنِ بِهِ، فهَذِهِ مُخاطَرَةٌ وغَلطٌ.

ورُبَّما قَالَ بَعْضُ الجُهَّالِ: «هَذَا صَدٌّ عَنْ الخَيْرِ والزُّهْدِ»، ولَيْسَ كَذَلكَ؛ فَإِنَّ الحَدِيثَ قَدْ صحَّ عَنْ النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**كُلُّ عَملٍ لَيسَ عَلَيهِ أمْرُنا فَهُو رَدٌّ**»(١). ولا يَنْبغِي أَنْ يُغترَّ بعِبادَةِ جُرَيجٍ، ولا بتَقوَىٰ ذِي الخُوَيْصِرةِ.

ولَقَدْ دَخلَ المُتزَهِّدُونَ في طُرقٍ لَمْ يَسلُكهَا الرَّسُولُ ﷺ ولا أَصْحَابهُ؛ من إظهَارِ التَّخشُّعِ الزَّائِد في الحَدِّ، والتَّنوُّقِ في تَخشِينِ المَلبَسِ، وأشْياءَ صَارَ العَوَامُّ يَستحْسِنُونَها، وصَارَت لأقْوام كالمَعَاشِ يجْتَنُونَ من أرْبَاحِها تَقبيلَ اليَدِ، وتَوفِيرَ التَّوقِيرِ، وحِراسَة النَّامُوسِ، وأكْثَرهُم في خَلْوَتِه عَلَىٰ غَيْرِ حَالتِه في جَلوَتِه.

وقَدْ كَانَ ابنُ سِيرِينَ يَضحَكُ بَينَ النَّاسِ قَهقَهةً، وإذَا خَلا باللَّيْل، فكَأَنَّهُ قَتلَ أَهْلَ القَريَةِ.

فنَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ عِلمًا نَافعًا، فهُو الأَصْلُ، فمَتَىٰ حَصلَ أَوْجَبَ مَعرِفةَ المَعبُودِ ﷻ، وحَرَّكَ إلىٰ خِدمَتهِ بمُقتضَىٰ مَا شَرعَه وأَحبَّه، وسَلكَ بصَاحِبه طَرِيقَ الإِخْلَاصِ.

وأَصْلُ الأُصُولِ العِلْمُ، وأنفَعُ العُلومِ النَّظَرُ في سِيَر الرَّسُولِ ﷺ وأَصْحَابهِ؛ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام:٩٠].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة، ولفظ البخاري: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه، فهو رد».

فَصْل

تَأمَّلتُ جِهادَ النَّفْسِ؛ فرَأَيْتهُ أعْظَمَ الجِهَادِ

ورَأَيْتُ خَلقًا مِنَ العُلَماءِ والزُّهَّادِ لا يَفهَمُون مَعناهُ؛ لأَنَّ فِيهِمْ مَنْ مَنعَها حُظوظَها عَلَىٰ الإطْلاقِ، وذَلِكَ غَلطٌ من وَجهَينِ:

أحَدُهُمَا: أَنَّهُ رُبَّ مَانعٍ لَهَا شَهْوَةً أعْطاهَا بالمَنعِ أوْفَىٰ مِنهَا، مِثلَ أَنْ يَمنعَهَا مُبَاحًا فيَشتَهِر بمَنعِهِ إيَّاهَا ذَلِكَ، فترضىٰ النَّفْسُ بالمنع؛ لأَنَّهَا قَدْ استبدلت بِهِ المَدحَ، وأخفَىٰ من ذَلِكَ أَنْ يَرَىٰ - بمنعه إيَّاهَا مَا منع - أَنَّهُ قَدْ فَضَلَ مَنْ سِوَاهُ مِمَّنْ لَمْ يَمنعها ذَلِكَ؛ وهَذِهِ دَفائِنُ تَحتَاجُ إلىٰ مِنقَاشِ فَهمٍ يُخلِّصهَا.

والوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّنَا قَدْ كُلِّفنَا حِفظَهَا، ومِنْ أَسْبَاب حِفظِها مَيلهَا إلىٰ الأَشْيَاء الَّتِي تُقِيمهَا، فَلا بُدَّ من إعْطَائِها مَا يُقيمَها، وأكْثَر ذَلِكَ أوْ كُلُّه مِمَّا تَشتَهِيهِ. ونَحنُ كالوُكَلاءِ فِي حِفظِها، لأَنَّهَا لَيسَتْ لَنَا، بَلْ هي وَديعَةٌ عِندَنا، فمَنعُها حُقُوقَها عَلَىٰ الإطْلاقِ خَطرٌ.

ثُمَّ رُبَّ شَدٍّ أوْجَبَ اسْتِرخاءً، ورُبَّ مُضَيِّقٍ عَلَىٰ نَفْسهِ فَرَّتْ مِنْهُ، فصَعبَ عَلَيهِ تَلافِيهَا، وإِنَّمَا الجِهادُ لَهَا كجِهادِ المَريضِ العَاقِل، يَحمِلُها عَلَىٰ مَكرُوهِها فِي تَناوُلِ مَا تَرجُو بِهِ العَافِيَةُ، ويُذَوِّبُ فِي المَرارَةِ قَليلًا من الحَلاوَةِ، ويتَنَاوَلُ من الأَغْذِيَةِ مِقدَارَ مَا يَصِفهُ الطَّبِيبُ، ولا تَحمِلهُ شَهوَتهُ عَلَىٰ مُوافَقَةِ غَرَضِها من مَطعَمٍ رُبَّمَا جَرَّ جُوعًا، ومن لُقمَةٍ رُبَّمَا حَرَمتْ لُقمَاتٍ.

فكَذَلكَ المُؤمِنُ العَاقِلُ لا يَترُكُ لِجامَها، ولا يُهمِل مقودَهَا، بَلْ يُرخِي لَهَا فِي وَقتٍ والطِّوَلُ بيدِهِ، فَمَا دَامَتْ عَلَىٰ الجَادَّة لَمْ يُضايِقْها فِي التَّضيِيقِ عَليهَا، فَإذَا رَآهَا قَدْ مَالَت رَدَّها باللُّطفِ، فَإن وَنَتْ وأبَتْ فبِالعُنفِ، ويَحبسُها فِي مَقامِ المُدارَاة؛

كالزَّوجَة الَّتِي مَبْنَىٰ عَقْلِها عَلَىٰ الضَّعفِ والقِلَّةِ، فهي تُدارَىٰ عِنْدَ نُشوزِها بالوَعظِ، فَإِن لَمْ تَصْلُحْ فَبالهَجرِ، فَإِن لَمْ تَستَقِمْ فبِالضَّربِ، ولَيْسَ في سِياطِ التَّأديبِ أجْوَد من سَوطِ عَزمٍ.

هَذِه مُجاهَدةٌ من حَيثُ العَمَلُ، فأَمَّا من حَيثُ وعْظُها وتَأنِيبُهَا؛ فيَنْبغِي لمَنْ رَآهَا تَسكُن للخَلقِ، وتَتعرَّضُ بالدَّناءَةِ من الأَخْلاقِ أَنْ يُعرِّفَها تَعظِيمَ خَالِقِها لَهَا، فيَقُولُ: أَلَسْتِ الَّتِي قَالَ فِيكِ: خَلقْتُكِ بِيدَيَّ، وأَسْجدْتُ لَكِ مَلائكَتِي، وارتَضاكِ للخِلافَةِ في أَرْضِهِ، ورَاسَلكِ، واقْترَضَ مِنكِ واشْتَرَىٰ؟!.

فإِنْ رَآهَا تَتكبَّرُ قَالَ لَهَا: هَلْ أَنْتِ إلَّا قَطرَةٌ من مَاءٍ مَهِينٍ، تَقتُلكِ شَرْقَةٌ، وتُؤلِمُكِ بَقَّةٌ؟!.

وإنْ رَأَىٰ تَقْصِيرهَا عرَّفَها حَقَّ المَوالِي عَلَىٰ العَبِيد.

وإن ونَتْ في العَمَل حَدَّثها بجَزيلِ الأجْرِ.

وإنْ مَالَت إلىٰ الهَوَىٰ خَوَّفَها عَظيمَ الوِزرِ، ثُمَّ يُحذِّرهَا عَاجِل العُقوبَةِ الحِسِّيَّة؛ كَقوْلِه تعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٤٦]، والمَعنَويَّةِ؛ كقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

فَهذَا جِهَادٌ بالقَولِ، وذاكَ جِهَادٌ بالفِعْل.

فَصْل

رَأَيْتُ من البَلاءِ العُجَابَ: أَنَّ المُؤمِن يَدْعُو فَلا يُجابُ فيُكرِّرُ الدُّعَاءَ وتَطُولُ المُدَّة ولا يَرَى أثرًا للإجَابَةِ

فيَنْبغِي لَهُ أَنْ يَعلَم أنَّ هَذَا من البَلاءِ الَّذِي يَحْتَاجُ إلىٰ الصَّبْرِ، وما يَعرِضُ للنَّفْسِ من الوَسَاوِاسِ في تَأخِيرِ الجَوَابِ مَرضٌ يَحْتَاجُ إلىٰ طِبٍّ.

ولَقَدْ عَرضَ لِي من هَذَا الجِنْسِ، فإنَّه نَزلَت بي نَازِلةٌ فدَعَوْتُ وبَالَغْتُ، فَلم أرَ الإجَابَة، فأخَذَ إبْلِيسُ يَجُول في حَلَبَاتِ كَيْدِهِ:

فتَارةً يَقُولُ: الكَرَمُ واسِعٌ، والبُخلُ مَعدُومٌ؛ فَمَا فَائِدةُ تَأخِيرِ الجَوَابِ؟.

فقُلْتُ لَه: اخْسأْ يَا لَعِين؛ فَمَا أَحْتَاجُ إلىٰ تَقاضٍ، ولا أرْضَاكَ وَكِيلًا.

ثُمَّ عُدتُ إلىٰ نَفْسِي، فقُلْت: إيَّاكِ ومُساكَنَةَ وَسوَسته؛ فإنَّه لَوْ لَمْ يَكُنْ في تَأخِيرِ الإجَابَة إلَّا أَنْ يَبلُوَكِ المُقدِّرُ في مُحارَبةِ العَدُوِّ لَكَفَىٰ في الحِكْمَة.

قَالَتْ: فسَلْنِي عَنْ تَأخِيرِ الإجَابَة في مِثْلِ هَذِهِ النَازِلةِ؟.

فقُلْتُ: قَدْ ثَبتَ بالبُرْهَانِ أنَّ اللهَ ﷻ مَالِكٌ، وللمَالِكِ التَّصرُّفُ بالمَنْعِ والعَطاَءِ، فَلا وَجْهَ للاعْتِراضِ عَليْهِ.

والثَّانِي: أَنَّهُ قَدْ ثبَتتْ حِكمتُه بالأدِلَّةِ القَاطعَةِ، فرُبَّمَا رَأيْتِ الشَّيْءَ مَصلَحةً والحِكْمَةَ لا تَقتضِيهِ، وقَدْ يَخفَىٰ وَجْهُ الحِكْمَةِ فِيمَا يَفعَلهُ الطَّبِيبُ من أَشْيَاء تُؤذِي في الظَّاهِرِ يَقصِد بِهَا المَصلَحَة، فلَعلَّ هَذَا من ذَاكَ.

والثَّالِث: أَنَّهُ قَدْ يَكُون التَأْخِيرُ مَصلحَةً، والاسْتِعجالُ مَضرَّة، وقَد قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لا يَزَال العَبْدُ بخَيرٍ مَا لَمْ يَستعجِلْ، يَقُولُ: دَعوْتُ فَلمْ يُستجَبْ لِي**»[١].

والرَّابع: أَنَّهُ قَدْ يَكُون امْتِنَاعُ الإِجَابَةِ لِآفَةٍ فِيكِ؛ فرُبَّمَا يَكُونُ في مَأكُولِك شُبهةٌ، أَوْ قَلْبُكِ وَقتَ الدُّعَاءِ في غَفْلَة، أَوْ تُزادُ عُقُوبَتكِ في مَنعِ حَاجَتك لِذنبٍ مَا صَدَقْتِ في التَّوْبَةِ مِنْهُ.

فابْحَثِي عَنْ بَعْضِ هَذِهِ الأَسْبَاب، لعَلَّكِ تَقعِي بالمَقصُودِ.

كَمَا رُوِي عَنْ أَبِي يَزيدٍ ﷺ: أَنَّهُ نَزلَ بَعْضُ الأَعَاجِم في دَارِه، فَجاءَ فَرآهُ فَوقَف بِبابِ الدَّارِ، وأَمَرَ بَعْضَ أَصْحَابه فدَخلَ، فَقلعَ طِينًا جَدِيدًا قَدْ طَيَّنَهُ، فقَامَ الأَعْجَميُّ وخَرجَ. فسُئِلَ أَبُو يَزيدٍ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: هَذَا الطِّينُ من وَجْهٍ فِيهِ شُبهَةٌ، فلَمَّا زَالَتِ الشُّبهَةُ زَالَ صَاحِبُها.

وعَنْ إِبْرَاهِيم الخَوَّاصِ -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيهِ- أَنَّهُ خَرجَ لإِنْكَارِ مُنْكَرٍ، فنَبحَهُ كَلْبٌ لَهُ، فمَنَعهُ أَنْ يَمضِي، فعَادَ ودَخلَ المَسْجِدَ وصَلَّىٰ، ثُمَّ خَرجَ، فبَصْبَصَ الكَلْبُ لَهُ، فمَضَىٰ، وأَنْكَرَ، فزَالَ المُنْكَرُ، فسُئِلَ عَنْ تِلْكَ الحَالِ، فَقَالَ: كَانَ عِنْدِي مُنْكَرٌ، فمَنعَنِي الكَلْبُ، فلَمَّا عُدْتُ تُبتُ منْ ذَلِكَ، فكَانَ مَا رَأَيْتُم.

والخَامِس: أَنَّهُ يَنْبغِي أَنْ يَقعَ البَحْثُ عَنْ مَقْصُودكِ بِهَذَا المَطْلُوب، فرُبَّمَا كَانَ في حُصُولهِ زِيَادَةُ إِثْمٍ، أَوْ تَأخِيرٌ عَنْ مَرتَبَةِ خَيرٍ، فكَانَ المَنْعُ أَصْلحَ.

---

(١) صحيح: أخرجه من حديث أبي هريرة: مالك في «الموطإ» (٥٦٩)، وأحمد (٩١٤٨، ١٠٣١٢)، والبخاري (٦٣٤٠)، وفي «الأدب المفرد» (٦٥٤)، ومسلم (٧٠٣٤، ٧٠٣٥)، وأبو داود (١٤٨٤)، وابن ماجه (٣٨٥٣)، والترمذي (٣٣٨٧)، وابن حبان (٩٧٥).

وقَدْ رُوِي عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ أَنَّهُ كَانَ يسْأَلُ اللهَ الغزْوَ، فهتف بِهِ هَاتِفٌ: إنَّكَ إنْ غَزوتَ أُسِرتَ، وإنْ أُسِرتَ تنصَّرْتَ.

والسَّادِس: أَنَّهُ رُبَّمَا كَانَ فَقْدُ مَا تَفْقِدِينَهُ سَبَبًا للوُقوفِ عَلَىٰ البَاب واللَّجَإِ، وحُصُولُهُ سَبَبًا للاشْتِغالِ بِهِ عَنْ المَسؤُولِ. وهَذَا الظَّاهِرُ؛ بدَلِيل أَنَّهُ لَوْلا هَذِهِ النَازِلَةُ مَا رَأَينَاكِ عَلَىٰ بَابِ اللَّجَإِ.

فالحَقُّ ﷻ عَلِمَ من الخَلْقِ اشْتِغالِهم بالبِرِّ عَنْهُ، فَلَذَعَهُم في خِلالِ النِّعَم بعَوَارِضَ تَدفَعهُم إلىٰ بَابِه؛ يَستَغِيثُون بِهِ، فهَذَا من النِّعَم في طَيِّ البَلاءِ، وإنَّمَا البَلاءُ المَحْضُ مَا يَشْغَلكِ عَنْهُ، فأَمَّا مَا يُقيمُك بَينَ يَدَيْهِ، فَفِيهِ جمالُكَ.

وقَد حُكِيَ عَنْ يَحْيَىٰ البَكَّاءِ أَنَّهُ رَأَىٰ رَبَّه ﷻ في المَنَام، فَقَالَ: يَا رَبِّ؛ كَمْ أَدْعُوكَ ولا تُجيبُنِي؟ فَقَالَ: يَا يَحْيَىٰ؛ إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَ صَوتَكَ.

وإذَا تَدبَّرتِ هَذِهِ الأَشْيَاءَ تَشَاغَلْتِ بِمَا هُوَ أَنْفعُ لَكَ من حُصُولِ مَا فَاتكِ مِنْ رَفعِ خَللٍ، أَوْ اعْتذَارٍ من زَللٍ، أَوْ وُقوفٍ عَلَىٰ البَابِ أَوْ تَسْلِيمٍ إِلىٰ رَبِّ الأَرْبابِ.

۞ فَصْلٌ ۞

مَنْ نَزلتْ بِهِ بَلِيَّةٌ فَأَرَادَ تَمحِيقهَا

فليَتصوَّرْها أَكْثَرَ مِمَّا هي تَهُنْ، ولْيتخَايَلْ ثوابَهَا تَضْمَحِلَّ، ولْيَتوهَّمْ نُزُولَ أَعْظَم مِنهَا يَرَ الرِّبحَ في الاقْتِصارِ عَليهَا، وليتَلمَّحْ سُرعَةَ زَوالِها، فإنَّه لَوْلا كَربُ الشِّدَّة مَا رُجِيَتْ سَاعاتُ الرَّاحَةِ، ولْيعْلَمْ أَنَّ مُدَّة مُقَامِها عِندهُ كمُدَّة مُقام الضَّيْف فلْيتفَقَّدْ حَوَائِجَهُ في كُلِّ لَحْظَةٍ، فيَا سُرعَة انْقِضَاءِ مُقامِه، ويَا لَذَّةَ مَدائِحِهِ وبِشْرِه في المَحَافِل، ووَصْفِ المُضيف بالكَرَم.

فكَذَلكَ المُؤمِنُ في الشِّدَّة؛ يَنْبغِي أَنْ يُراعِي السَّاعَاتِ، ويتفَقَّدَ فِيهَا أَحْوَالَ النَّفسِ، ويتَلمَّحُ الجَوارِحَ؛ مَخَافَة أَنْ يَبْدُوَ مِن اللِّسَانِ كَلِمَةٌ، أَوْ مِن القَلْبِ تَسَخُّطٌ، فَكأَنْ قَدْ لاحَ فَجرُ الأَجْرِ، فانْجابَ لَيلُ البَلاءِ، ومُدِحَ السَّارِي بقَطْعِ الدُّجَىٰ، فَمَا طَلعَتْ شَمسُ الجَزاءِ إِلَّا وقَدْ وصَلَ إِلىٰ مَنْزِلِ السَّلامَةِ.

فَصْل

لَمَّا رَأيْتُ رَأْيَ نَفْسِي في العِلْم حَسنًا

فَهي تُقدِّمهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، وتَعتَقِدُ الدَّلِيلَ، وتُفضِّلُ سَاعَةَ التَّشَاغُل بِهِ عَلَىٰ سَاعَاتِ النَّوافِلِ، وتَقُولُ: أَقْوَىٰ دَلِيل لي عَلَىٰ فَضْلِه عَلَىٰ النَّوافِلِ: أَنِّي رَأيْتُ كَثِيرًا مِمَّنْ شَغلَتْهمْ نَوَافِلُ الصَّلاةِ والصَّوْمِ عَنْ نَوَافِلِ العِلْمِ عَادَ ذَلِكَ عَلَيهِم بالقَدْحِ في الأُصُولِ، فرَأيْتُها فِي هَذَا الاتِّجاهِ عَلَىٰ الجَادَّةِ السَّلِيمَةِ والرَّأْيِ الصَّحِيح.

إِلَّا أنِّي رَأيتُها وَاقِفَةً مع صُورَة التَّشَاغُلِ بالعِلْمِ، فصِحتُ بِهَا: فَمَا الَّذِي أفَادَكِ العِلْمُ؟ أَيْنَ الخَوْفُ؟ أَيْنَ القَلَقُ؟ أَيْنَ الحَذَرُ؟.

أَوَمَا سَمِعْتِ بأخْبَارِ أَخيَارِ الأَحْبَارِ في تَعبُّدِهِمْ واجْتِهَادِهم؟!

أمَا كَانَ الرَّسُولُ ﷺ سَيِّدَ الكُلِّ، ثُمَّ إِنَّهُ قَامَ حَتَّىٰ ورِمَت قَدمَاهُ[١]؟!

أمَا كَانَ أَبُو بَكرٍ رضي الله عنه شَجِيَّ النَّشِيجِ، كَثِيرَ البُكاءِ؟!

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨٢٠) من حديث عائشة. وروي عن غيرها أيضًا.

أَمَا كَانَ فِي خَدِّ عُمرَ رضي الله عنه خَطَّانِ من آثَارِ الدُّمُوعِ؟!

أَمَا كَانَ عُثمَانُ رضي الله عنه يَختِمُ القُرْآن فِي رَكعَةٍ؟!

أَمَا كَانَ عَليٌّ رضي الله عنه يَبكِي باللَّيْلِ فِي مِحْرَابِه حَتَّىٰ تَخضلَّ لِحيَتُه بالدُّمُوعِ ويَقُولُ: يَا دُنْيَا؛ غُرِّي غَيرِي؟!

أَمَا كَانَ الحَسنُ البَصرِيُّ يَحيَا عَلَىٰ قُوَّةِ القَلَق؟!

أَمَا كَانَ سَعيدُ بْنُ المُسيِّبِ مُلازِمًا للمَسجِدِ، فَلَمْ تَفُتْه صَلاةٌ فِي جَمَاعَةٍ أَرْبَعِينَ سَنَةً؟!

أَمَا صَامَ الأَسْودُ بْنُ يَزِيدٍ حَتَّىٰ اخْضرَّ واصْفرَّ؟!

أَمَا قَالَتْ ابْنَةُ الرَّبِيعِ بْنِ خُثَيْم لَهُ: مَا لي أَرَىٰ النَّاسَ يَنامُونَ وأَنتَ لا تَنَام؟ فَقَالَ: إنَّ أَبَاكِ يخَافُ عَذَابَ البَيَاتِ؟!

أَمَا كَانَ أَبُو مُسلِمُ الخَولانِيُّ يُعلِّقُ سَوطًا فِي المَسْجِد يُؤدِّبُ بِهِ نَفْسَه إِذَا فتَر؟!

أَمَا صَامَ يَزِيدُ الرِّقَاشِيُّ أَرْبَعِينَ سَنةً، وكَانَ يَقُول: وَالَهفَاهُ؛ سَبقَنِي العَابِدون وَقُطِعَ بِي؟!

أَمَا صَامَ مَنصُورُ بْنُ المُعتَمِر أَرْبَعِينَ سَنةً؟!

أَمَا كَانَ سُفيَانُ الثَّورِيُّ يَبْكِي الدَّمَ مِنَ الخَوْفِ؟!

أَمَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ يَبُول الدَّمَ من الخَوْفِ؟!

أَمَا تَعلَمِينَ أَخْبَارَ الأَئِمَّةِ الأَرْبَعَةِ فِي زُهْدِهم وتَعبُّدِهمْ؛ أَبُو حَنِيفَةَ، ومَالك، والشَّافِعِيّ، وأَحْمدَ؟!

فاحْذَرِي من الإخْلادِ إلىٰ صُورَة العِلْم مع تَركِ العَمَل بِهِ؛ فإنَّها حَالَةُ الكُسَالَىٰ، وَخَافِي مِن الوُقُوفِ مَع صُورَةِ التَّعبُّدِ مِن غَيرِ أَنْ لَا يُغَالُ فِي العِلمِ؛ فَإنَّهَا حَالَةُ الزَّمْنَىٰ:

وَخُــذْ لَــكَ مِنْــكَ عَلَــىٰ مُهْلَــةٍ ** ومُقبِــلُ عَيــشِكَ لَــمْ يُــدْبِرِ
وَخَــفْ هَجْمَــةً لا تُقِيــلُ العِثَــا ** رَ وَتَطْــوِي الــوُرُودَ عَلَــىٰ المَـصْدَرِ
وَمَثِّــلْ لِنَفْــسِكَ أَيَّ الرَّعيـــ ** ــلِ يَـضُمُّكَ فِـي حَلْبَــةِ المَحْــشَرِ

فَصْل

مِمَّا يَزِيدُ العِلْمَ عِنْدِي فَضلًا: أَنَّ قَومًا تَشَاغَلُوا بالتَّعبُّدِ عَنْ العِلْمِ فَوَقفُوا عَنِ الوُصُولِ إِلَى حَقائِقِ الطَّلَبِ

فرُوِيَ عَنْ بَعْضِ القُدَمَاءِ أَنَّهُ قَالَ لرَجُلٍ: يَا أَبَا الوَلِيدِ؛ إِنْ كُنْتَ أَبَا الوَلِيدِ. يَتورَّعُ أَنْ يُكنِّيه وَلا وَلدَ لَهُ.

ولَوْ أَوْغَلَ هَذَا في العِلْم لعَلِمَ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَنَّىٰ صُهَيبًا أَبَا يَحْيَىٰ، وكَنَّىٰ طِفْلًا فَقَالَ: «**يَا أَبَا عُمَيْر، مَا فَعلَ النُّغَيْر؟**»(١).

وقَالَ بَعْضُ المُتزَهِّدينَ: قِيلَ لي يَوْمًا: كُلْ مِنْ هَذَا اللَّبَنِ. فقُلْتُ: هَذَا يضُرُّني. ثُمَّ وَقفْتُ بَعدَ مُدَّة عِنْدَ الكَعْبَةِ فقُلْتُ: اللَّهُمَّ إنَّكَ تعلَمُ أنِّي مَا أشْرَكْتُ بِكَ طَرْفَةَ عَيْنٍ. فهَتفَ بِي هَاتِفٌ: ولا يَوْمَ اللَّبَنِ؟!

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦١٢٩، ٦٢٠٣) ومسلم (٢١٥٠) من حديث أنس.

وهَذَا لَوْ صَحَّ جَازَ أَنْ يَكُونَ تَأدِيبًا لَهُ؛ لِئلَّا يَقِفَ مَعَ الأَسْبَابِ نَاسِيًا للمسَبِّبِ، وإِلَّا فالرَّسُولُ ﷺ قَدْ قَالَ: «**مَا زَالَتْ أَكْلَةُ خَيبَرَ تُعاوِدُني حَتَّىٰ الآنَ قَطَعتْ أَبْهَرِي**»[1] وقَالَ: «**مَا نَفعَني مَالٌ كمَالِ أَبِي بَكْر**»[2].

ومِنَ المُتزَهِّدينَ أَقْوَامٌ يَرَونَ التَّوكُّلَ قَطعَ الأَسْبَابِ كُلِّهَا، وهَذَا جَهلٌ بالعِلْم؛ فَإِن النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ الغَارَ، وشَاوَرَ الطَّبِيبَ[3]، ولَبِسَ الدِّرعَ[4]، وحَفرَ الخَندَق، ودَخلَ مَكَّةَ في جِوارِ المُطْعَمِ بْنِ عَدِيٍّ وكَانَ كافرًا. وقَالَ لسَعدٍ: «**لأَنْ تَدَعَ وَرثَتك أَغْنِياءَ خَيرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَدَعهُمْ عَالةً يتكَفَّفُون النَّاسَ**»[5].

فالوُقُوفُ مع الأَسْبَابِ مع نِسْيانِ المسَبِّبِ غَلَطٌ، والعَمَلُ عَلَىٰ الأَسْبَابِ مع تعَلُّقِ القَلْب بالمسَبِّب هُوَ المَشْرُوعُ. وكُلُّ هَذِهِ الظُّلُماتُ إِنَّمَا تُقطَع بمِصْبَاح العِلْم، ولَقَدْ ضَلَّ من مَشَىٰ في ظُلْمَة الجَهْل أَوْ فِي زُقَاقِ الهَوَىٰ.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٤٢٨) من حديث عائشة بمعناه.

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٧٤٤٦، ٨٧٩٠)، الترمذي (٣٦٦١) وقال: حديث حسن. وابن ماجه (٩٤)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٨١١٠)، وابن حبان (٦٨٥٨) من حديث أبي هريرة.

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٢٠٧) من حديث جابر قال: بعث رسول الله ﷺ إلىٰ أُبَيّ بن كعب طبيبًا، فقطع منه عرقًا، ثم كواه عليه.

(٤) صحيح: أخرجه أحمد (١٥٨١٣)، وأبو داود (٢٥٩٠)، وابن ماجه (٢٨٠٦)، والترمذي، في «الشمائل» (١١١) من حديث السائب بن يزيد.

(٥) صحيح: أخرجه مالك (١٤٥٦)، والبخاري (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨)، وأحمد (١٤٤٠)، وأبو داود (٢٨٦٤)، والترمذي (٢١١٦) وقال: حسن صحيح. والنسائي (٣٦٢٦)، وابن ماجه (٢٧٠٨)، وابن خزيمة (٢٣٥٥) من حديث سعد بن أبي وقاص.

﴿ فصل ﴾

مَا أَزَالُ أتعَجَّبُ مِمَّنْ يَرَى تَفْضِيلَ المَلائِكَةِ عَلَى الأَنْبِيَاءِ والأَوْلِيَاءِ

فَإِنْ كَانَ التَفْضِيلُ بالصُّوَر فصُورَة الآدَمِيِّ أعْجبُ من ذَوِي أَجْنِحةٍ.

وإنْ تُركَتْ صُورَةُ الآدمِيِّ لأَجْلِ أَوْسَاخِها المَنُوطَة بِهَا؛ فالصُّورَة لَيسَتِ الآدمِيُّ، إنَّمَا هي قَالبٌ، ثُمَّ قَدِ استُحسِنَ مِنهَا مَا يُستقْبَح في العَادَة، مِثْلَ خلُوفِ فَمِ الصَّائمِ، ودَمِ الشُّهَداءِ، والنَّومِ فِي الصَّلاةِ، فبَقِيت صُورَةً مَعمُورَةً، وصَارَ الحُكمُ للمَعْنَىٰ.

أَلَهُمْ مَرتَبَةٌ يحِبُّهم، أَوْ فَضِيلَةٌ يُباهِي بِهِمْ؟!

وكَيفَ دَارَ الأَمْرُ؛ فَقَدْ سَجدُوا لَنَا، وهُوَ صَرِيحٌ في تَفْضِيلِنا عَلَيهِم.

فَإِنْ كَانَتِ الفَضِيلَةُ بالعِلْم فَقدْ عَلمْتَ القِصَّةَ يَوْمَ ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ ﴾ [البقرة: ٣٢]، ﴿يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم ﴾ [البقرة:٣٣].

وإنْ فضَّلتَ المَلائِكَةَ بجوهَرِيَّةِ ذَواتِهم فجَوهَرِيَّةُ أَرْوَاحِنا مِنْ ذَلِكَ الجِنْس، وعَلَينا أثقَالُ أعْباءِ الجِسمِ.

باللهِ؛ لَوْلا احْتياجُ الرَّاكبِ إلىٰ النَّاقةِ فَهُو يتَوقَّفُ لطَلَبِ عَلَفِها، ويُرفِقُ في السَّيرِ بِهَا لطَرقِ أرْضِ مِنَىٰ قَبلَ العَشْرِ.

واعَجبًا! أَتُفضِّلُ المَلائِكَةَ بكَثرَة التَّعبُّد! فَمَا ثَمَّ صَادٌّ.

أَوَيُتَعَجَّبُ من المَاء إِذَا جَرَىٰ، أَوْ مِنْ مُنحدَرٍ يُسرِعُ؟! إنَّمَا العَجَبُ من مُصاعِدٍ يَشقُّ الطَّرِيقَ، ويُغالِبُ العقَبَات.

بَلَىٰ؛ قَدْ يُتصوَّرُ مِنهُم الخِلافُ، ودَعْوَىٰ الإلهِيَّة؛ لقُدرَتِهم عَلَىٰ دَكِّ الصُّخُور، وشَقِّ الأَرْضِ؛ ولِذلِكَ تُوُعِّدُوا: ﴿ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء: ٢٩] لكِنَّهُم يَعلمُونَ عُقُوبَةَ الحَقِّ فيَحذَرُونَه.

فأَمَّا بُعْدنَا عَنِ المَعْرِفَةِ الحَقِيقيَّةِ، وضَعفُ يقِينِنا بالنَّاهِي، وغَلَبةُ شَهوَتِنا مع الغَفْلَةِ، فَيَحْتَاجُ إلىٰ جِهَادٍ أعْظَم من جِهادِهِمْ.

تَاللهِ؛ لَوْ ابتُلِيَ أَحَدٌ مِن المُقرَّبِينَ بِمَا ابْتُلِينا بِهِ، لَمْ يَقدِر عَلَىٰ التَّماسُكِ.

يُصبِحُ أحدُنَا؛ وخِطابُ الشَّرْعِ يَقُولُ لَهُ: اكْسَبُ لعَائِلتِك واحْذَر في كَسبِك، وقَد تَمكَّنَ مِنْهُ مَا لَيسَ مِنْ فِعلِه، كحُبِّ الأهْلِ، وعُلوقِ الوَلَد بنِياطِ القَلبِ، واحْتِياجِ بَدنِه إلىٰ مَا لا بُدَّ مِنْهُ:

فتَارةً يُقَالُ للخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: اذْبَحْ وَلدَك بيَدِك، واقْطعْ ثَمرَة فُؤادِكَ بكَفِّكَ، ثُمَّ قُمْ إلىٰ المنْجَنِيقِ لتُرْمَىٰ في النَّارِ.

وتَارةً يُقَال لمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: صُمْ شَهرًا لَيلًا ونَهارًا.

ثُمَّ يُقَالُ للغَضبَان: اكْظِمْ، وللبَصِيرِ: اغْضُضْ، ولِذِي المِقْوَلِ: اصْمُتْ، ولمُستَلذِّ النَّومِ: تَهجَّدْ، ولِمنْ مَاتَ حَبيبُهُ: اصْبِرْ، ولمَنْ أُصِيبَ في بَدنِهِ: اشْكُر، وللوَاقِفِ في الجِهَادِ بَينَ اثْنَينِ: لا يَحِلُّ أَنْ تفرَّ.

ثُمَّ اعْلَمْ أنَّ المَوْت يَأتِي بأَصعَبِ المَرارَاتِ، فيَنزِعُ الرُّوحَ عَن البَدَنِ، فَإذَا نَزلَ فاثْبُت، واعْلَمْ أنَّكَ مُمزَّقٌ في القَبرِ فَلا تتَسخَّط؛ لأنَّهُ مِمَّا يجْرِي بِهِ القَدرُ، وإنْ وَقعَ بِكَ مَرضٌ فَلا تَشْكُ إلىٰ الخَلْقِ.

فهَلْ للمَلائِكةِ مِنْ هَذِهِ الأَشْيَاء شَيْءٌ؟ وهَلْ ثَمَّ إلَّا عِبادَةٌ سَاذجَةٌ لَيسَ فِيهَا مُقَاومَةُ طَبعٍ، ولا رَدُّ هَوًىٰ؟ وهَل هي إلَّا عِبادَةٌ صُوريَّةٌ بَينَ رُكوعٍ وسُجودٍ وتَسبِيحٍ؟ فأَيْنَ عِبادَتُهم المَعنَويَّة من عِبادَتِنا؟!

ثُمَّ أَكْثَرُهم في خِدمَتِنا؛ بَينَ كَتَبةٍ عَلينَا، ودَافِعينَ عنَّا، ومُسخَّرِينَ لإرْسالِ الرِّيحِ والمَطرِ، وأَكبرُ وظَائِفِهم الاسْتغفَارُ لَنَا، فكَيفَ يُفضَّلونَ عَلَينَا بِلا عِلَّةٍ ظَاهِرَةٍ؟!

وإذا مَا حُكِّتْ عَلَىٰ مَحَكِّ التَّجارُبِ طَائِفَةٌ مِنهُم - مِثلَ مَا رُوِي عَنْ هَارُوتَ ومَارُوتَ - خَرجُوا أقْبحَ منْ بَهْرجٍ.

ولا تظُنَّنَّ أنِّي أعْتَقِدُ في تعبُّدِ المَلائِكَةِ نوعُ تَقصِيرٍ؛ لأنَّهُم شَدِيدُو الإشْفاقِ والخَوْفِ؛ لعِلمِهِمْ بعَظمَة الخَالِقِ، لَكنْ طُمَأْنِينةُ مَنْ لَمْ يُخطِئْ تُقَوِّىٰ نَفْسهُ، وانْزِعَاج الغَائصِ فِي الزَّلَل يُرقِّي رُوحَه إلىٰ التَّراقِي.

فاعْرفُوا - إخْوانِي - شَرَفَ أقْدارِكُم، وصُونُوا جَواهِرَكم عَنْ تَدنِيسِها بِلُؤْمِ الذُّنُوبِ؛ فأنْتُم مَعْرِضُ الفَضْلِ عَلَىٰ المَلائِكَةِ، فاحْذَرُوا أَنْ تَحطَّكُم الذُّنُوبُ إلىٰ حَضيضِ البَهائِمِ.

ولا حَولَ ولا قُوَّة إلَّا باللهِ العَليِّ العَظيمِ.

فَصْل

رَأيْتُ كَثِيرًا من الخَلْقِ وعَالِمًا من العُلَمَاءِ لا يَنتَهُون عَنِ البَحْثِ عَنْ أُصُولِ الأَشْيَاءِ الَّتِي أُمِرُوا بعِلمِ جُمَلِهَا مِنْ غَيْرِ بَحثٍ عَنْ حَقائِقِها

كالرُّوح مَثلًا؛ فَإنَّ اللهَ تَعَالَىٰ سَترَها بقَولِهِ: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥] فَلَم يقْنَعُوا، وأخَذُوا يَبحثُون عَنْ مَاهيَّتِها ولا يقَعُون بشَيْءٍ، ولا يثْبُتُ لأحَدٍ مِنهُم بُرهَانٌ عَلَىٰ مَا يدَّعِيهِ، وكَذَلكَ العَقْلُ، فإنَّه مَوجُودٌ بلا شَكٍّ، كَمَا أنَّ الرُّوحَ مَوجُودةٌ بلا شَكٍّ، وكِلاهُما يُعرَفُ بآثَارِه لا بحَقِيقَةِ ذَاتِه.

فإنْ قَالَ قَائِلٌ: فَمَا السِرُّ في كَتمِ هَذِهِ الأشْيَاء؟

قُلْتُ: لأَنَّ النَّفْسَ مَا تَزالُ تترَقَّىٰ من حَالَةٍ إلىٰ حالَةٍ، فلَوِ اطَّلَعتْ عَلَىٰ هَذِهِ الأَشْيَاء لَتَرَقَّتْ إلىٰ خَالِقِها، فكَانَ سَتْرُ مَا دُونَه زِيَادَةٌ في تَعظِيمِه؛ لأَنَّهُ إِذَا كَانَ بَعْضُ مَخلُوقَاتِه لا يُعلَمُ كُنْهُهُ فهُو أجَلُّ وأعْلَىٰ.

ولَوْ قَالَ قَائِلٌ: مَا الصَّواعِقُ؟ مَا البَرقُ؟ ومَا الزَّلازِلُ؟

قُلْنَا: شَيْءٌ مُزعِجٌ، ويَكفِي. والسِرُّ في سَترِ هَذَا: أَنَّهُ لَوْ كُشِفتْ حَقائِقهُ خَفَّ مِقْدَارُ تَعظِيمهِ.

ومن تَلمَّح هَذَا الفَصْلَ عَلِمَ أَنَّهُ فَصْلٌ عَزيزٌ، فَإذَا ثَبتَ هَذَا في المَخلُوقَاتِ فالخَالِق أجَلُّ وأعْلَىٰ، فيَنْبغِي أَنْ يُوقَف في إثْبَاتِه عَلَىٰ دَلِيلِ وُجُودِه، ثُمَّ يُستدَلُّ عَلَىٰ جَوَازِ بَعثِهِ رُسُلَه، ثُمَّ تتلَقَّىٰ أَوْصَافَه من كُتبِه ورُسُلِه، ولا يُزادُ عَلَىٰ ذَلِكَ.

ولَقَدْ بَحثَ خَلقٌ كَثِيرٌ عَنْ صِفاتِه بآرَائِهم، فعَادَ وَبَالُ ذَلِكَ عَلَيهِم.

وإذَا قُلنَا: إِنَّهُ مَوجُودٌ، وعَلِمنَا مِنْ كَلامِه أَنَّهُ سَمِيعٌ، بَصِيرٌ، حَيٌّ، قَادِرٌ؛ كَفانَا هَذَا في صِفاتِه، ولا نَخُوضُ في شَيْءٍ آخَر. وكَذَلكَ نَقُولُ: مُتكلِّمٌ، والقُرْآنُ كَلامُه، ولا نَتكلَّفُ مَا فَوْقَ ذَلِكَ.

ولَمْ يقُلِ السَّلفُ: تِلاوةٌ ومَتلُوٌّ، وقِراءةٌ ومَقرُوءٌ، ولا قَالُوا: اسْتَوىٰ عَلَىٰ العَرشِ بذَاتِه، ولا قَالُوا: يَنزِلُ بذَاتِه، بَلْ أَطْلَقُوا مَا وَردَ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ. وَنَفَوْا مَا ثَبَتَ بِالدَّلِيلِ مَا لا يَجُوزُ عَلَيْهِ.

وهَذِهِ كَلمَاتٌ كالمِثالِ، فَقِسْ عَليْهَا جَميعَ الصِّفَاتِ؛ تَفُز سَلِيمًا مِنْ تَعطِيلٍ، مُتخلِّصًا من تَشبيهٍ.

۞ فَصْل ۞

رَأَيْتُ أَكْثَر الخَلْقِ في وُجُودِهم كالمَعدُومِين، فمِنْهُم من لا يَعرِفُ الخَالِقَ، ومِنْهُم من يُثْبِتهُ عَلَى مُقتَضَى حِسِّه، ومِنْهُم مَنْ لا يَفْهَم المَقصُود من التَّكلِيفِ

فتَرَىٰ المُتوسِّمِين بالزُّهْدِ يَدْأَبُون في القِيامِ والقُعُودِ، ويتْرُكونَ الشَّهَوَاتِ، وينْسَونَ مَا قَدْ أَنِسُوا بِهِ من شَهْوَة الشُّهرَةِ، وتَقبِيلِ الأيَادِي، ولَوْ كُلِّم أَحَدُهُم لقَالَ: أَلِمِثْلي يُقالُ هَذَا؟ ومِنْ فلانٍ الفَاسِق؟!

فهَؤُلاءِ لا يفْهَمُونَ المَقصُود، وكَذَلكَ كَثِيرٌ من العُلَمَاءِ في احْتِقارِهم غَيرَهُم، والتَّكبُّر في نفُوسِهِمْ.

فتَعجَّبتُ كَيْفَ يَصلُحُ هَؤُلاءِ لمُجاورَةِ الحَقِّ، وسُكْنَىٰ الجَنَّةِ؟!

فرَأَيْتُ أنَّ الفَائِدَةَ في وجُودِهم في الدُّنْيَا تُجانِسُ الفَائِدَة في دُخولِهم الجَنَّةَ، فإنَّهُم في الدُّنْيَا بَينَ مُعتَبر بِهِ؛ يُعَرِّفُ عَارِفَ اللهِ سُبْحَانَه نِعمَةَ اللهِ عَلَيهِ بِمَا كَشَفَ لَهُ مِمَّا غَطَّىٰ عَنْ ذَاكَ، ويتِمُّ النِّظَامُ بالاقْتِدَاءِ بِصُوَرِ أولَئِكَ؛ فَإنَّ العَارِفَ لا يتَّسعُ وقْتُه لمُخَالَطَة من يَقِف مع الصُّورَةِ؛ فالزَّاهِد كرَاعِي البَهْمِ، والعَالِمُ كمُؤَدِّبِ الصِّبيَانِ، والعَارِفُ كمُلقِّنِ الحِكْمَةِ، ولَوْلا نَفَّاطُ المَلِكِ وحَارِسُهُ ووِقَادُ أَتُونِهِ؛ مَا تَمَّ عَيشُهُ.

فمِنْ تَمامِ عَيشِ العَارِف اسْتِعْمَال أولَئِكَ بحَسَبِهِم، فَإذَا وَصَلُوا إِلَيْهِ حرَّرَ مَانِعُهم، وفِيهِم من لا يَصِلُ إِلَيْهِ، فيَكُون وُجُودُ أولَئِكَ كزِيَادَةِ «لا» في الكَلامِ؛ هيَ حَشوٌ، وهي مُؤَكِّدَةٌ.

فإنْ قَالَ قَائِلٌ: فهَبْ هَذَا يَصِحُّ في الدُّنْيَا، فَكَيفَ في الجَنَّةِ؟!

والجَوَاب: أنَّ الأُنسَ بالجِيرانِ مَطْلُوبٌ، ورُؤْيةُ القَاصِرِ من تَمامِ لَذَّةِ الكَامِلِ، ولِكُلٍّ شِربٌ، ومن تَأَمَّلَ مَا أَشَرتُ إِلَيْهِ كَفاهُ رَمزُ لَفظِي عَنْ تَطويلِ الشَّرحِ.

فَصْلٌ

لَمَّا تلمَّحْتُ تَدبِيرَ الصَّانعِ فِي سَوْقِ رِزْقِي

بتَسخِير السَّحاب، وإنْزالِ المَطرِ برفقٍ والبِذْرُ دَفينٌ تَحتَ الأَرْضِ كالمَوْتىٰ قَدْ عَفِنَ يَنْتظِرُ نَفخَةً من صُورِ الحَيَاةِ، فَإذَا أَصَابتْه اهْتزَّ خَضِرًا، وإِذَا انْقَطَعَ عَنْهُ المَاءُ مدَّ يَدَ الطَّلَبِ يَستعطِي، وأَمَالَ رَأسَه خَاضِعًا، ولَبسَ حُللَ التَّغيُّر، فَهُو مُحتاجٌ إلىٰ مَا أَنَا مُحتَاجٌ إِلَيْهِ من حَرارَة الشَّمسِ، وبُرُودَة المَاءِ، ولُطْفِ النَّسِيم، وتَربيةِ الأَرْضِ، فسُبحَانَ من أَرَانِي -فِيمَا يُربِّيني بِهِ- كَيْفَ تَربِيتِي فِي الأَصْلِ.

فيَا أَيَّتُها النَّفْسُ الَّتِي قَدْ اطَّلعَتْ عَلَىٰ بَعْضِ حِكَمِه؛ قَبِيحٌ بِكِ -واللهِ- الإِقْبَالُ عَلَىٰ غَيرِه، ثُمَّ العَجبُ كَيْفَ تُقْبِلِينَ عَلَىٰ فَقيرٍ مِثلكِ يُنادِي لِسانُ حَالِهِ: بِي مِثْلُ مَا بِك، يَا حَمامُ! فارْجِعِي إلىٰ الأَصْلِ الأوَّلِ، واطْلُبِي منَ المُسبِّبِ، ويَا طُوبَىٰ لَكِ أَنْ عَرفْتِيهِ؛ فَإِنَّ عِرفَانَه مُلْكُ الدُّنْيَا والآخِرَة.

فَصْلٌ

كُنتُ فِي بِدايةِ الصَّبوَةِ قَدْ أُلهِمتُ سُلُوكَ طَرِيقِ الزُّهَّادِ

بإدَامَةِ الصَّوْم والصَّلاة، وحُبِّبَتْ إليَّ الخَلوَةُ، فكُنتُ أَجِدُ قَلبًا طيِّبًا، وكَانَتْ عَينُ بَصيرَتِي قَويَّةُ الحِدَّة، تتَأَسَّفُ عَلَىٰ لَحْظَةٍ تَمضِي فِي غَيْر طَاعَةٍ، وتُبادِرُ الوَقْتَ فِي اغْتنَامِ الطَّاعَاتِ، ولِي نَوعُ أُنسٍ، وحَلاوَةُ مُنَاجَاةٍ.

فانْتَهَىٰ الأَمْرُ إلىٰ أَنْ صَارَ بَعْضُ وُلاةِ الأُمُورِ يَستَحسِنُ كَلامِي، فأَمَالَنِي إِلَيْهِ، فمَالَ الطَّبْعُ، ففَقدْتُ تِلْكَ الحَلاوَةَ، ثُمَّ استَمالَنِي آخرُ فكُنْتُ أَتَّقِي مُخَالطَتَهُ ومطَاعِمَهِ؛ لخَوفِ الشُّبُهاتِ، وكَانَت حَالَتِي قَرِيبةٌ.

ثُمَّ جَاءَ التَّأوِيلُ، فانبَسطْتُ فِيمَا يُباحُ، فَعُدِم مَا كُنْت أَجِدُ من استِنَارَةٍ وسَكِينَةٍ، وصَارَتِ المُخَالطَةُ تُوجِبُ ظُلْمَةً في القَلْبِ، إلىٰ أَنْ عُدِم النُّورُ كُلُّه؛ فكَانَ حَنِينِي إلىٰ مَا ضَاعَ مِنِّي يُوجِبُ انْزِعاجَ أَهْلِ المَجْلِس، فيَتُوبُون ويُصلِحُون، وأَخْرُج مُفلِسًا فِيمَا بَينِي وبَينَ حَالِي.

وكَثُر ضَجِيجِي من مَرَضِي، وعَجزْتُ عَنْ طِبِّ نَفْسِي، فلَجأْتُ إلىٰ قُبورِ الصَّالِحِينَ، وتوسَّلتُ في صَلاحِي، فاجْتذَبنِي لُطفُ مَولايَ بِي إلىٰ الخَلوَة عَلَىٰ كَراهةٍ مِنِّي، ورُدَّ قَلبِي عَليَّ بَعدَ نُفورٍ مِنِّي، وأرَانِي عَيبَ مَا كُنْتُ أُوثِرهُ، فَأَفَقْتُ مِنْ مَرضِ غَفلَتِي، وقُلتُ في مُنَاجَاةِ خَلوَتِي:

سَيِّدِي؛ كَيْفَ أَقْدرُ عَلَىٰ شُكرِكَ، وبأيِّ لِسَانٍ أنطِقُ بمَدحِك؛ إذ لَمْ تُؤاخِذنِي عَلَىٰ غَفلَتِي، ونبَّهتَني من رَقدَتي، وأَصْلحتَ حَالِي عَلَىٰ كُرهٍ مِنْ طَبعِي؟! فمَا أَرْبَحَني فِيمَا سُلِبَ مِنِّي إذْ كَانَتْ ثَمرَتهُ اللُّجأَ إلَيْكَ، ومَا أَوْفَرَ جَمْعِي إذْ ثَمرَتهُ إِقْبَالِي عَلَىٰ الخَلوَة بِكَ، ومَا أَغْنانِي إذْ أَفقرْتَني إلَيْكَ، ومَا آنَسنِي إذْ أوحَشتَنِي من خَلقِكَ.

آهٍ عَلَىٰ زَمَانٍ ضَاعَ في غَيرِ خِدْمَتك، وأَسَفًا لوَقتٍ مَضَىٰ في غَير طَاعَتِك!

وقَدْ كُنْتُ إِذَا انْتَبَهتُ وقْتَ الفَجرِ لا يُؤْلِمُنِي نَومِي طُولَ اللَّيْل، وإِذَا انْسلَخَ عَنِّي النَّهَارُ لا يُوجِعنِي ضَياعُ ذَلِكَ اليَوْم، ومَا عَلِمتَ أَنَّ عَدَمَ الإحْسَاسِ لقُوَّة المَرَضِ.

فالآنَ قَدْ هَبَّت نَسائِم العَافِيَةِ، فأَحْسَستُ بالأَلَمِ، فاسْتدلَلتُ عَلَىٰ الصِّحَّة، فيا عَظِيمَ الإنْعَامِ؛ تمِّمْ لي العَافِيَة.

آهٍ من سُكرٍ لَمْ يُعْلَمْ قَدرُ عَربدَتِه إلَّا في وَقتِ الإفَاقَةِ!

لقَدْ فَتقْتُ مَا يَصعُبُ رَتْقُهُ، فَوَا أَسَفًا عَلَىٰ بِضَاعةٍ ضَاعَت، وعَلَىٰ مَلَّاحٍ تَعِبَ في مَوجِ الشَّمالِ مُصاعِدًا مُدَّةً، ثُمَّ غَلبَه النَّوْمُ فرُدَّ إلىٰ مَكَانِه الأَوَّل.

يا مَنْ يَقرأُ مَسْطُورَ شَكْوايَ مِن حَالي؛ اسْمَعْ تَحذِيرِي من التَّخلِيطِ؛ فإنِّي - وإنْ كُنْتُ خُنتُ نَفْسِي بالفِعْل - نَصيحٌ لإخْوَانِي بالقَولِ.

احْذَرُوا - إخْوانِي - من التَّرخُّص فِيمَا لا يُؤمَن فَسادُه؛ فَإن الشَّيْطَان يُزيِّنُ المُبَاح في أوَّلِ مَرتَبَةٍ، ثُمَّ يَجُرُّ إلي الجُنَاحِ، فتلمَّحُوا المَآلَ، وافْهمُوا الحَالَ. ورُبَّما أَراكُم الغَايَةَ الصَّالِحَة، وكَانَ في الطَّرِيق إلَيهَا نوعُ مُخَالفَة.

فيَكْفِي الاعْتِبَارُ في تِلْكَ الحَالُ بأبِيكُم: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]؛ إنَّمَا تَأمَّل آدمُ الغَايَة - وهي الخُلْدُ - ولَكنَّه غَلِطَ في الطَّرِيقِ، وهَذِه أعْجَبُ مَصَايد إبْلِيسَ الَّتِي يَصِيدُ بِهَا العُلَمَاء: يَتأوَّلُونَ لعَوَاقِب المَصَالِح فيَستَعجِلُون ضَرَرَ المَفَاسِد.

مِثَالُه: أَنْ يَقُولَ للعَالِم: ادْخُل عَلَىٰ هَذَا الظَّالِم فاشْفَعْ في مَظْلُوم، فيَستعْجِلُ الدَّاخِل رُؤيَةَ المُنْكَراتِ، ويتَزلزَلُ دِينُه، ورُبَّما وَقعَ في شركٍ صَارَ بِهِ أظْلَمَ من ذَلِكَ الظَّالِم.

فمَنْ لَمْ يثِقْ بدِينِه فليَحذَرْ من المَصَائِد؛ فإنَّها خَفيَّةٌ.

وأسْلَمْ مَا للجَبانِ العُزلَة، خُصُوصًا في زَمَانٍ قَدْ مَاتَ فِيهِ المَعْرُوف، وعَاشَ المُنْكر، ولَمْ يَبْقَ لأَهلِ العِلْم وَقعٌ عِنْدَ الوُلاةِ، فمَنْ دَاخلَهُم دَخلَ مَعَهُم فِيمَا لا يَجُوزُ، ولَمْ يَقدِرْ عَلَىٰ جَذبِهمْ مِمَّا هُم فِيهِ.

ثُمَّ مَنْ تَأمَّل حَالَ العُلَمَاءِ الَّذِينَ يَعمَلُون لَهُم في الوِلايَاتِ، يَراهُم مُنسلِخِين من نَفعِ العِلْمِ، قَدْ صَارُوا كَالشُّرْطِ.

فلَيْسَ إلَّا العُزلَة عَنِ الخَلْقِ، والإعْرَاض عَنْ كُلِّ تَأوِيلٍ فَاسِدٍ في المُخَالَطَة؛ ولَأَنْ أنْفَع نَفْسِي وَحدِي خيرٌ لِي من أَنْ أنفعَ غَيرِي وأتَضرَّرُ.

فالحَذَرَ الحَذَرَ من خَوادِعِ التَّأوِيلاتِ، وفَواسِدِ الفَتَاوىٰ، والصَّبْرَ الصَّبْرَ عَلَىٰ مَا تُوجِبُه العُزلَةُ؛ فإِنَّه إنِ انفَرَدْتَ بمَوْلاكَ فَتَحَ لكَ بَابَ مَعرِفَتهِ، فهَانَ كُلُّ صَعبٍ، وطَابَ كُلُّ مُرٍّ، وتيسَّرَ كُلُّ عَسِرٍ، وحَصَّلْتَ كُلَّ مَطْلُوب.

واللهُ المُوفِّقُ بفَضلِه، ولا حَولَ ولا قُوَّة إلَّا بِهِ.

❁ فَصْل ❁

تَأمَّلتُ عَلَى نَفْسِي تَأْوِيلًا فِي مُباحٍ

أَنالُ بِهِ شَيئًا مِن الدُّنْيَا، إلَّا أَنَّهُ في بَابِ الوَرَعِ كَدَرٌ

فرَأَيْتُه أوَّلًا قَدْ احْتَلَبَ دَرَّ الدِّينِ، فذَهبَتْ حَلاوَةُ المُعامَلةِ للهِ تَعالَىٰ، ثُمَّ عَادَ فقَلصَ ضَرْعَ حَلبِي لَهُ، فوقَع الفَقدُ للحَالِين.

فقُلتُ لنَفْسِي: مَا مَثلُكَ إلَّا كَمثلِ والٍ ظَالمٍ، جَمعَ مَالًا من غَيْرِ حِلِّه، فصُودِرَ، فأُخِذ مِنْهُ الَّذي جَمعَ، وأُلزِمَ مَا لَمْ يَجمَعْ.

فالحَذَرَ الحَذَرَ من فَسادِ التَّأوِيلِ؛ فَإنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لا يُخادَع، ولا يُنالُ مَا عِنْدَه بمَعصِيتِه.



فصل

رَأَيْتُ نَفْسِي كُلَّمَا صَفَا فِكْرُها، أَوْ اتَّعظَتْ بدَارِجٍ، أَوْ زَارَتْ قُبورَ الصَّالِحِين تتحرَّكُ هِمَّتُها في طَلبِ العُزلَة والإقْبَالِ عَلَى مُعامَلةِ اللهِ تَعَالَى

فَقُلتُ لَهَا يومًا - وقَد كلَّمَتني في ذَلِكَ -: حَدِّثِيني مَا مَقْصُودُك؟ ومَا نِهايَة مَطْلُوبِك؟

أَتُرَاكِ تُريدِينَ مِنِّي أَنْ أَسْكُن قفْرًا لا أَنيسَ بِهِ، فتفُوتُني صَلاةُ الجَمَاعَةِ، ويَضيعُ مِنِّي مَا قَدْ عَلِمتهُ لفَقدِ من أُعَلِّمَه، وأَنْ آكُلَ الجَشْبَ الَّذِي لَمْ أَتعوَّدْهُ، فيقَعُ نِضْوِي طَلْحًا في يومَينِ، وأنْ أَلبسَ الخَشِن الَّذِي لا أُطِيقُه، فَلا أدْرِي - مِن كَربِ مَحمُولِي - مَنْ أَنَا، وأَنْ أَتشاغَلُ عَنْ طَلبِ ذُرِّيةٍ تتعبَّدُ بعْدِي، مع بَقاءِ القُدرَة عَلَىٰ الطَّلَبِ.

تاللهِ؛ مَا نَفعَني العِلْمُ الَّذِي بَذلْتُ فِيهِ عُمْرِي، إنْ وَافقْتُك.

وأَنَا أُعرِّفكَ غَلَطَ مَا وَقعَ لَكَ بالعِلْم:

اعْلَمِي؛ أَنَّ البَدَن مَطيَّةٌ، والمَطيَّةُ إِذَا لَمْ يُرفَقْ بِهَا لَمْ تَصِل براكِبِهَا إلىٰ المَنْزِلِ، ولَيْسَ مُرَادِي بالرِّفْقِ الإكْثَارَ من الشَّهوَات، وإنَّمَا أَعْنِي أَخْذَ البُلْغَة الصَّالِحَة للبَدنِ، فحِينئِذٍ يَصفُو الفِكرُ، ويَصحُّ العَقْلُ، ويَقْوَىٰ الذِّهنُ.

أَلا تَرَينَ إلىٰ تَأثِيرِ المُعوِّقاتِ عَنْ صَفاءِ الذِّهنِ في قَولِهِ ﷺ: «**لا يَقضِي القَاضِي بَينَ اثْنَينِ وهُوَ غَضبَان**»[1]؟! وقَاسَ العُلَمَاءُ عَلَىٰ ذَلِكَ الجُوعَ ومَا يجْرِي مَجْرَاهُ من كَونِه حَاقِنًا أَوْ حَاقبًا.

---

(١) صحيح: أخرجه من حديث أبي بكرة: أحمد (٢٠٣٧٩)، والبخاري (٧١٥٨)، ومسلم (١٧١٧)، وأبو داود (٣٥٨٩)، والترمذي (١٣٣٤) وقال: حسن صحيح. والنسائي (٥٤٠٦).

وهَلِ الطَّبْعُ إلَّا ككَلبٍ يَشْغَله الأكْلُ، فَإذَا رُمِي لَهُ مَا يَتشَاغَلُ بِهِ طَابَ لَهُ الأَكْل؟!

فأَمَّا الانْفِرَادُ والعُزلَةُ؛ فعَنِ الشَّرِّ لا عَنِ الخَيْرِ، ولَوْ كَانَ فِيهَا لَكَ وَقعُ خَيرٍ لنُقِلَ ذَلِكَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وعَنْ أصْحَابه رضي الله عنهم.

هَيهَاتَ؛ لَقَد عَرفْتَ أنَّ أقْوامًا دَامَ بِهِم التَّقلُّلُ واليُبسُ إلىٰ أَنْ تَغيَّر فِكرُهم، وقَويَ الخَلطُ السَّوداوِيُّ عَلَيهِم، فاسْتوحَشُوا مِنَ النَّاسِ، ومِنْهُم من اجْتمَعت لَهُ من المَآكِلِ الرَّديَّة أخْلاطٌ مَجَّةٌ، فبَقِي اليَوْمَ واليَوْمينِ والثَّلاثَةَ لا يَأكُلُ، وهُوَ يَظنُّ ذَلِكَ مِن أَمْدَادِ اللُّطفِ، وإِذَا بِهِ من سُوءِ الهَضْمِ، وفِيهِم من تَرقَّىٰ بِهِ الخَلْطُ إلىٰ رُؤْيَةِ الأشْباحِ، فيظُنَّها المَلائِكَة!

فاللهَ اللهَ فِي العِلْمِ؛ واللهَ اللهَ فِي العَقْلِ؛ فَإِنَّ نُورَ العَقْلِ لا يَنْبغِي أَنْ يتعرَّضَ لإطْفائِه، والعِلْمُ لا يَجُوز المَيْل إلىٰ تنْقِيصِه، فَإذَا حُفِظا حَفَظا وظَائِف الزَّمانِ، ودَفعَا مَا يُؤذِي، وجَلبَا مَا يُصلِحُ، وصَارَتِ القَوانِين مُستَقِيمَةً فِي المَطْعم والمَشرَب والمُخَالطَةِ.

فَقَالَتْ لي النَّفْسُ: فوظِّفْ لي وَظِيفَةً، واحْسِبْنِي مَرِيضًا قَدْ كُتِبَتْ لَهُ شَرْبَةٌ.

فقُلتُ لَهَا: قَدْ دَللْتُكِ عَلَىٰ العِلْمِ، وهُوَ طَبيبٌ مُلازِمٌ، يَصفُ كُلَّ لَحْظَةٍ لِكلِّ دَاءٍ يَعرِضُ دَواءً يُلائِمُ.

وفي الجُمْلَةِ؛ يَنْبغِي لَكَ مُلازَمَةُ تَقْوَىٰ اللهِ ﷻ في المَنطِقِ والنَّظَرِ، وجَمِيعِ الجَوَارِحِ، وتَحقُّقُ الحَلالِ في المَطْعمِ، وإِيدَاعُ كُلّ لَحْظَةٍ مَا يَصْلُحُ لَهَا من الخَيْر، ومُنَاهَبةُ الزَّمَانِ في الأفْضَل، ومُجَانَبة مَا يُؤدِّي إلىٰ مَا يُؤذِي من نَقصِ رِبحٍ، أوْ وُقوعِ خُسرَانٍ.

ولا تَعمَلِي عَملًا إِلَّا بَعدَ تَقدِيمِ النِّيَّة، وتأَهَّبِي لمُزْعِجِ المَوْتِ، فكأَنْ قَدْ، ومَا عِنْدكِ من مَجِيئِه فِي أيِّ وَقتٍ يَكُونُ، ولا تَتعرَّضِي لمَصَالِحِ البَدَن، بَلْ وفِّريها عَلَيهِ ونَاوِلِيه إيَّاهَا عَلَىٰ قَانُون الصَّوَاب، لا عَلَىٰ مُقتَضَىٰ الهَوَىٰ؛ فَإِنَّ إِصْلاحَ البَدَن سَبَبٌ لإِصْلاحِ الدِّينِ.

ودَعِي الرُّعُونَة الَّتِي يَدُلُّ عَليْهَا الجَهْلُ لا العِلْمُ؛ من قَوْلِ النَّفْسِ: فُلانٌ يَأكُلُ الخَلَّ والبَقْلَ، وفُلانٌ لا يَنَام اللَّيْلَ، فاحْمِلِي مَا تطِيقِينَ، ومَا قَدْ عَلمْتِ قُوَّةَ البَدَن عَلَيهِ، فَإِنَّ البَهِيمَة إِذَا أَقْبلَتْ إِلىٰ نَهرٍ أَوْ سَاقِيةٍ فضُرِبتْ لتَقفِز لَمْ تَفعَل حَتَّىٰ تَزِنَ نَفْسهَا، فَإِنْ عَلمتِ فِيهَا قُوَّة الطَّفْرِ طَفَرتِ، وإِنْ عَلمتِ أَنَّهَا لا تُطيقُ لَمْ تَفعَلْ ولَوْ قُتِلَتْ.

ولَيْسَ كُلُّ الأَبْدَانِ تَتسَاوَىٰ فِي الإِطَاقَة، ولَقَدْ حَملَ أَقْوَامٌ من المُجاهَداتِ فِي بِدايَاتِهم أَشْيَاء أَوْجَبَت أمْراضًا قَطعَتهُم عَنْ خَيرٍ، وتَسخَّطتْ قُلوبُهم بوُقُوعِها، فعلَيْكِ بالعِلْمِ؛ فإِنَّه شِفاءٌ من كُلِّ دَاءٍ. واللهُ المُوفِّقُ.

۞ فَصْل ۞

عَجبْتُ من أقْوَامٍ يدَّعونَ العِلْمَ، ويمِيلُون إلى التَّشبِيهِ بحَملِهم الأحَادِيثَ عَلَى ظَواهِرِها، فَلَوْ أَنَّهُمْ أَمَرُّوهَا كَمَا جَاءتْ سَلِمُوا

لأَنَّ مَنْ أَمَرَّ مَا جَاءَ ومَرَّ من غَيْر اعْترَاضٍ ولا تعرُّضٍ فَمَا قَالَ شَيئًا لا لَهُ ولا عَليْهِ.

ولَكِنَّ أقْوَامًا قَصرَت عُلومُهم فرَأَوْا أنَّ حَملَ الكَلامِ عَلَىٰ غَيْر ظَاهِرِه نَوعُ تَعطِيلٍ، ولَوْ فَهِمُوا سَعَة اللُّغَةِ لَمْ يَظنُّوا هَذَا، ومَا هُم إلَّا بمَثابَة قَوْلِ الحَجَّاجِ لكَاتِبهِ، وقَد مَدحَتهُ الخَنسَاءُ، فَقالَتْ:

إِذَا هَـبَطَ الحَجَّـاجُ أَرْضًـا مَرِيـضَةً ** تَتَبَّـعَ أَقْـصَىٰ دَائِهَـا فَـشَفَاهَا
شَفَاهَا مِنَ الدَّاءِ العُضَالِ الَّذِي بِهَا ** غُـلَامٌ إِذَا هَـزَّ القَنَـاةَ شَـفَاهَا

فلَمَّا أَتَمَّتِ القَصِيدَةَ قَالَ لكَاتِبِه: اقْطعْ لِسانهَا. فَجاءَ ذَاكَ الكَاتِبُ المُغفَّلُ بالمُوسَىٰ، فَقَالَتْ لَهُ: ويلَكَ؛ إِنَّمَا قَالَ: أَجْزِلْ لَهَا العَطاءَ. ثُمَّ ذَهبَتْ إِلىٰ الحَجَّاجِ، فَقَالَتْ: كَادَ واللهِ يقْطَع مِقْوَلِي.

فكَذَلكَ الظَّاهِرِيَّة الَّذِينَ لَمْ يُسلِّمُوا بالتَّسْلِيمِ، فإِنَّه مَن قَرَأ الآيَاتِ والأحَادِيثَ ولَمْ يَزِد لَمْ أَلُمْه، وهَذِهِ طَرِيقَةُ السَّلَفِ.

فأَمَّا مَن قَالَ: الحَدِيثُ يَقْتَضِي كَذَا، ويُحمَلُ عَلَىٰ كَذَا، مِثْلَ أَنْ يَقُولَ: اسْتَوَىٰ عَلَىٰ العَرْش بِذَاتِه، ويَنزِلُ إِلىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِذَاتِه؛ فهَذِهِ زِيَادَةٌ فَهِمهَا قَائِلُها من الحِسِّ لا من النَّقْلِ.

ولَقَدْ عَجِبْتُ لرَجُلٍ أَنْدَلُسيٍّ يُقَال لَهُ ابنُ عَبْدُ البَرِّ، صنَّفَ كِتَاب «التَّمْهِيد»، فذَكَرَ فِيهِ حَدِيثَ النُّزُولِ إِلىٰ السَّمَاء الدُّنْيَا[1]، فَقَالَ: «هذا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ تَعالَىٰ عَلَىٰ العَرْشِ؛ لأَنَّهُ لَوْلا ذَلِكَ لَمَّا كَانَ لقَوْلِه: «يَنزِلُ» مَعْنًىٰ».

وهَذَا كلامُ جَاهِلٍ بمَعْرِفَةِ اللهِ ﷻ؛ لأَنَّ هَذَا اسْتَسْلَف مِن حِسِّهِ مَا يَعرِفهُ من نُزُولِ الأَجْسَامِ، فقَاسَ صِفَةَ الحَقِّ عَلَيهِ، فأَيْنَ هَؤُلاءِ واتِّبَاع الأَثَرِ؟!

ولَقدْ تكَلَّمُوا بأقْبَحِ مَا يتكلَّمُ بِهِ المُتأَوِّلُون، ثُمَّ عَابُوا المُتكلِّمِينَ.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١١٤٥، ٦٣٢١، ٧٤٩٤)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة. وهو متواتر، روي عن عدد كثير من الصحابة.

واعْلَمْ أيُّهَا الطَّالِب للرَّشَاد؛ أَنَّهُ سَبقَ إِلَيْنَا من العَقْلِ والنَّقْلِ أصْلانِ رَاسِخانِ، عَلَيهِما مَرُّ الأحَادِيثِ كُلِّها.

أمَّا النَّقْلُ؛ فقَوْلهُ ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ومَنْ فَهِمَ هَذَا لَمْ يَحمِلْ وَصْفًا لَهُ عَلَىٰ مَا يُوجِبهُ الحِسُّ.

وأمَّا العَقْلُ؛ فإِنَّه قَدْ عَلمَ مُبايَنةَ الصَّانِع للمَصنُوعاتِ، واسْتدَلَّ عَلَىٰ حُدُوثِها بتغَيُّرِها، ودُخُول الانْفِعَال عَلَيهَا، فثَبتَ لَهُ قِدمُ الصَّانِعِ.

واعَجَبًا كُلَّ العَجبِ مِنْ رَادٍّ لَمْ يَفْهَم طَبيعَة الكَلامِ!

أوَلَيْسَ في الحَدِيث الصَّحِيح: «**أن المَوْت يُذبَحُ بَينَ الجَنَّةِ والنَّارِ**»[1]؟!

أوَلَيْسَ العَقْلُ إِذَا اسْتُفْتِيَ في هَذَا صَرفَ الأَمْرَ عَنْ حَقِيقَته لِمَا ثَبتَ عِنْدَ مَن يَفْهَم مَاهِيَّة المَوْتِ، فَقَالَ: المَوْتُ عَرَضٌ يُوجِبُ بُطْلانَ الحَيَاةِ، فكَيفَ يُماتُ المَوْتُ؟

فإِذَا قِيلَ لَهُ: فَمَا تَصنَعُ بالحَدِيثِ؟

قَالَ: هَذَا ضَرْبُ مَثَلٍ بإقَامَةِ صُورَةٍ؛ ليُعلَم بتِلْكَ الصُّورَةِ الحِسِّيَّةِ فَوَاتُ ذَلِكَ المَعنَىٰ.

قُلنَا لَهُ: فَقدْ رُوِي في الصَّحِيحِ: «تَأتِي البَقرَةُ وآلُ عِمرَانَ كأَنَّهُمَا غمامَتانِ»[2].

فَقَالَ: الكَلامُ لا يَكُون غَمامَة، ولا يتشَبَّهُ بِهَا.

قُلنَا لَهُ: أفَتُعطِّل النَّقْلَ؟ قَالَ: لا، ولَكِنْ أَقُولُ: يَأتِي ثَوابُهمَا.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (٨٠٤) من حديث أبي أمامة الباهلي. و(٨٠٥) من حديث النواس بن سمعان.

قُلنَا: فَمَا الدَّلِيلُ الصَّارِفُ لَكَ عَنْ هَذِهِ الحَقَائِق؟

فَقَالَ: عِلمِي بأَنَّ الكَلامَ لا يتشَبَّهُ بالأَجْسَام، والمَوْتُ لا يُذبَحُ ذَبحَ الأَنْعَام، ولَوْ عَلِمتُم سِعةَ لُغةِ العَرَب مَا ضَاقَتْ أعْطانُكُم من سَمَاع مِثلِ هَذَا.

فَقَالَ العُلَمَاءُ: صَدقْتَ؛ هَكذَا نَقُولُ في تَفْسِيرِ مَجِيء البَقَرَة، وفي ذبَحِ المَوْتِ.

فَقَالَ: واعَجَبًا لَكُم، صَرفْتُم عَنِ المَوْتِ والكَلامِ مَا لا يَلِيقُ بِهِما؛ حِفْظًا لِمَا عَلِمتُم من حَقَائِقهِما، فكَيفَ لَمْ تَصرِفُوا عَنِ الإلَهِ القَدِيمِ مَا يُوجِبُ التَّشبيهَ لَهُ بخَلقِه بِمَا قَدْ دَلَّ الدَّلِيلُ عَلَىٰ تنزيهِهِ عَنهُ؟!

فَمَا زَالَ يُجادِلُ الخُصُومَ بهَذِهِ الأدِلَّةِ ويَقُولُ: لا أَقْطعُ حَتَّىٰ أُقطعَ، فَمَا قَطعَ حَتَّىٰ قُطعَ.

❁ فَصْل ❁

تَفكَّرْتُ في السِرِّ الَّذِي أَوْجَبَ حَذفَ آيَةَ الرَّجْمِ من القُرْآنِ لَفظًا مَع ثُبُوتِ حُكْمِهَا إجْمَاعًا

فَوجَدتُ لِذلِكَ مَعنيَين:

أَحدُهُمَا: لُطفُ اللهِ تَعَالَىٰ بعِبَادِه، في أَنَّهُ لا يُواجِهُهم بأَعْظَمِ المَشاقِّ، بَلْ ذَكرَ الجَلدَ، وسَترَ الرَّجْمَ.

ومن هَذَا المَعنَىٰ؛ قَالَ بَعْضُ العُلَمَاء: إنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَالَ في المَكرُوهَات: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] عَلَىٰ لَفظِ مَا لَمْ يُسمَّ فَاعِلُه، وإنْ كَانَ قَدْ عَلِم أَنَّهُ هُوَ الكَاتِب، فلَمَّا جَاءَ إلىٰ مَا يُوجِبُ الرَّاحة قَالَ: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

والوَجْه الثَّانِي: أَنَّهُ يُبيِّن بذَلِكَ فَضلَ الأُمَّة في بَذلِها النُّفُوس قُنُوعًا ببَعضِ الأدِلَّة، فَإِن الاتِّفَاق لَمَّا وَقعَ عَلَىٰ ذَلِكَ الحُكْم كَانَ دَلِيلًا، إِلَّا أَنَّهُ لَيسَ كالدَّلِيل المُتَّفَق لأَجْلِه.

ومِنْ هَذَا الجِنْسِ: شُروعُ الخَليلِ ﷺ في ذَبحِ وَلدِه بمَنامٍ، وإنْ كَانَ الوَحْيُ في اليَقَظَة آكَدَ.

فَصْلٌ

عَرَضَتْ لي حَالَةٌ لَجأْتُ فِيهَا بقَلْبِي إلى اللهِ تَعَالَى وَحْدَهُ عَالمًا بأنَّهُ لا يَقدِر عَلَى جَلْبِ نَفْعِي وَدَفعِ ضُرِّي سِوَاهُ

ثُمَّ قُمتُ أتعرَّضُ بالأَسْبابِ فأنْكَرَ عَليَّ يَقِينِي، وقَالَ: هَذَا قَدحٌ فِي التَّوكُّل

فقُلْت: لَيسَ كَذَلكَ، فَإِن اللهَ تَعَالَىٰ وضَعهَا من الحكمِ. وكَانَ مَعْنَىٰ حَالِي: أَنَّ مَا وضَعْتُ لا يُفيدُ، وأنَّ وجُودَه كالعَدَم.

ومَا زَالَتِ الأَسْبَابُ في الشَّرْعِ:

كقَولِه تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ [يوسف: ٤٧].

وقَدْ ظَاهرَ النَّبيُّ ﷺ بينَ دِرعَينِ[1]، وشَاورَ طَبِيبَينِ[2]، ولَمَّا خَرَجَ إلىٰ الطَّائِف

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (١٥٨١٣)، وأبو داود (٢٥٩٠)، وابن ماجه (٢٨٠٦)، والترمذي، في «الشمائل» (١١١) من حديث السائب بن يزيد.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٢٠٧) من حديث جابر قال: بعث رسول الله ﷺ إلىٰ أُبيّ بن كعب طبيبًا، فقطع منه عرقًا، ثم كواه عليه.

لَمْ يَقدِر عَلَىٰ دُخُولِ مَكَّة حَتَّىٰ بَعثَ إلىٰ المُطْعَم بْن عَديٍّ فَقَالَ: «أَدْخُلُ في جِوَارِك». وقَدْ كَانَ يُمكِنهُ أَنْ يَدْخُلَ مُتوكِّلًا بِلا سَببٍ.

فَإِذَا جَعلَ الشَّرْعُ الأُمُورَ مَنُوطةً بالأَسْبَابِ كَانَ إعْرَاضِي عَنِ الأَسْبَابِ دَفعًا للحِكمَةِ.

ولِهذَا أرَىٰ أَن التَّداوِي مَندُوبٌ إلَيْهِ، وقَد ذَهَبَ صَاحِبُ مَذْهَبي إلىٰ أَنَّ تَركَ التَّداوِي أفضَلُ، ومنَعنِي الدَّلِيلُ من اتِّبَاعِهِ في هَذَا؛ فَإِنَّ الحَدِيثَ الصَّحِيحَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «ما أَنْزَلَ اللهُ دَاءً إلَّا وأَنْزَلَ لَهُ دَواءً فتدَاوَوْا»[1]، ومَرتَبَة هَذِهِ اللَّفْظَة الأمْرُ، والأَمْرُ إمَّا أَنْ يَكُونَ وَاجِبًا أَوْ نَدبًا، ولَمْ يَسبِقهُ حَظرٌ، فيُقَالُ: هُوَ أمْرُ إبَاحةٍ.

وكَانَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تَقُولُ: تَعَلَّمْتُ الطِّبَّ من كَثْرَةِ أَمْرَاضِ رَسُول اللهِ ﷺ، ومَا يُنعَتُ لَهُ[2].

وقَالَ ﷺ لعَليِّ بْنِ أَبِي طَالِب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «كُلْ من هَذَا؛ فإِنَّه أَوْفَقُ لَكَ من هَذَا»[3].

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٣٨٧٤) من حديث أبي الدرداء. وقال ابن الملقن في «تحفة المحتاج» (٢/ ٩): «إسناده صحيح». وأخرجه أحمد (١٢٥٩٦) من حديث أنس. وأخرجه الحميدي (٩٠)، وأحمد (٣٥٧٨، ٣٩٢٢)، وابن ماجه (٣٤٣٨) من حديث ابن مسعود بلفظ: «ما أنزل الله ﷻ داء، إلا أنزل له دواء، علمه من علمه، وجهله من جهله». وقال ابن حجر في «بذل الماعون» (٥١): «إسناده صحيح وله شواهد بعضها في صحيح مسلم». يشير إلىٰ ما عند مسلم (٢٢٠٤) من حديث جابر بن عبد الله بلفظ: «لكل داء دواء فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله ﷻ». وعند البخاري (٥٦٧٨) من حديث أبي هريرة بلفظ: «ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء».

(٢) حسن: أخرجه أحمد (٢٤٣٨٠) قالت: إن رسول الله ﷺ كان يسقم عند آخر عمره، أو في آخر عمره، فكانت تقدم عليه وفود العرب من كل وجه، فتنعت له الأنعات، وكنت أعالجها له.

(٣) حسن: أخرجه أبو داود (٣٨٥٦)، والترمذي (٢٠٣٧) وقال: «حديث حسن»، وابن ماجه (٣٤٤٢)، وأحمد (٢٧٠٥١)، والحاكم (٧٤٥٢، ٧٤٥٣) وقال: «صحيح الإسناد» من حديث أم المنذر بنت قيس الأنصارية.

ومَنْ ذَهَبَ إلىٰ أَنْ تَرْكَهُ أفْضَل؛ احْتجَّ بقَوْلِه ﷺ: «**يَدْخُل الجَنَّةَ سَبعُون ألفًا بِلا حِسابٍ**»، ثُمَّ وصَفهُم فقَالَ: «**لا يَكتوُون، ولا يَسترقُون، ولا يَتطيَّرُون، وعَلَىٰ رَبِّهم يَتوكَّلُون**»[١].

وهَذَا لا يُنافِي التَّدَاوِي؛ لأنَّهُ قَدْ كَانَ أَقْوَامٌ يَكتوُون؛ لِئلَّا يمْرَضُوا، ويَسترْقُون لِئلَّا تُصيبَهُم نَكْبَةٌ، وقَدْ كَوَىٰ ﷺ أَسْعَدَ بْنَ زُرارَةَ رضي الله عنه[٢]، ورَخَّصَ في الرُّقيةِ في الحَدِيثِ الصَّحِيحِ[٣]، فعَلِمنَا أَنَّ المُرَاد مَا أَشَرْنا إلَيْهِ.

وإذَا عَرفْتَ الحَاجَة إلىٰ إسْهالِ الطَّبْعِ، رَأيتَ أَنَّ أكْلَ البَلُّوطِ مِمَّا يمْنَعُ عَنْهُ - عِلْمِي -، وشُربُ مَاء التَّمرِ الهِنْدِي أوفَقُ.

وهَذَا طِبٌّ، فَإذَا لَمْ أَشْربْ مَا يُوافِقنِي، ثُمَّ قُلْتُ: اللَّهُمَّ عافِني، قَالَتْ لي الحِكْمَةُ: أمَا سَمِعتَ «اعقِلْها وتَوكَّل»[٤]؟ اشْرَب وقُلْ: عَافِني، ولا تَكُن كَمنْ بَيْنَ زَرعِه وبَينَ النَّهرِ كَفٌّ من تُرابٍ، تكاسَل أَنْ يَرفَعهُ بِيدِه ثُمَّ قَامَ يُصلِّي صَلاةَ الاسْتِسقَاء.

ومَا هَذِهِ الحَالة إلَّا كحَالِ من سَافَر عَلَىٰ التَّجرِيدِ، وإنَّمَا سَافرَ عَلَىٰ التَّجرِيدِ لأنَّهُ يُجرِّبُ رَبَّهُ عز وجل؛ هَلْ يرزُقهُ أوْ لا، وقَد تقَدَّم الأَمْرُ إلَيهِ: ﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾ [البقرة: ١٩٧] فقَالَ: لا أتَزوَّد، فهَذَا هَالكٌ قَبلَ أَنْ يُهلِكَهُ.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٥٧٠٥، ٦٥٤١)، ومسلم (٢١٨) من حديث عمران بن حصين. وأخرجه البخاري (٥٧٥٢، ٦٤٧٢)، ومسلم (٢٢٠) من حديث ابن عباس.

(٢) **حسن**: أخرجه الترمذي (٢٠٥٠) وحسنه، وابن ماجه (٣٤٩٢)، وصححه ابن حبان (٦٠٨٠) من حديث أنس، وله شاهد عند أحمد (١٦٦١٨) من حديث رجل من الصحابة.

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (٥٧٤١)، ومسلم (٢١٩٣) من حديث عائشة.

(٤) **حسن**: أخرجه الترمذي (٢٥١٧) من حديث أنس، وفي إسناده ضعف، وله شاهد من حديث عمرو بن أمية الضمري، أخرجه ابن حبان (٧٣١) والحاكم (٦٦١٦) وقال الذهبي: سنده جيد.

ولَوْ جَاءَ وَقتُ صَلاةٍ، ولَيْسَ مَعهُ مَاءٌ؛ لِيمَ عَلَىٰ تَفريطِه، وقِيلَ لَهُ: هَلَّا استَصحَبتَ المَاء قَبلَ المَفازَةِ!

فالحَذَرَ الحَذَرَ من أفْعالِ أقْوَامٍ دَقَّقُوا فمَرَقُوا عَنِ الأوضَاعِ الدِّينيَّةِ، وظنُّوا أَنَّ كَمالَ الدِّينِ بالخُروجِ عَنِ الطِّباعِ، والمُخَالَفَةِ للأَوْضَاعِ.

ولَوْلا قُوَّة العِلْمِ والرُّسُوخ فِيهِ لَمَا قَدرْتُ عَلَىٰ شَرحِ هَذَا ولا عَرفْتُه.

فافْهَمْ مَا أَشَرتُ إِلَيْهِ؛ فَهُو أَنْفعُ لَكَ من كَرارِيسَ تَسمَعُها، وكُنْ مع أَهْلِ المَعانِي لا مع أَهْلِ الحَشْو.

فَصْل

تَلمَّحتُ عَلَى خَلقٍ كَثِيرٍ من النَّاسِ إهْمالَ أبدانِهم

فمِنْهُم من لا يُنظِّفُ فَمهُ بالخِلَالِ بَعدَ الأَكْلِ، ومِنْهُم من لا يُنقِّي يَدَيْه في غَسلِها مِن الزَّهَمِ، ومِنْهُم من لا يَكادُ يَستاكُ، ومِنْهُم من لا يَكتَحِل، ومِنْهُم من لا يُرَاعِي الإبطَ، إلىٰ غَيْرِ ذَلِكَ، فيَعُودُ هَذَا الإهْمالُ بالخَللِ في الدِّينِ والدُّنْيَا.

أمَّا الدِّينُ؛ فإِنَّه قَدْ أَمَرَ المُؤمِنِ بالتَّنظُّفِ والاغْتِسالِ للجُمُعةِ؛ لأجْلِ اجْتِماعِه بالنَّاسِ، ونَهىٰ عَنْ دُخُول المَسْجِد إِذَا أَكَلَ الثُّومَ، وأَمَرَ الشَّرْعُ بتَنقِيةِ البَراجِم، وقَصِّ الأظْفَارِ، والسِّواكِ، والاسْتِحدادِ، وغير ذَلِكَ من الآدَابِ، فَإِذَا أَهْمَلَ ذَلِكَ تَركَ مَسنُونَ الشَّرْعِ، ورُبَّما تَعدَّىٰ بَعْض ذَلِكَ إلىٰ فَسادِ العِبادَةِ، مِثلَ أَنْ يُهمِل أظْفارِه فيَجمَع تَحتَه الوسَخَ المَانِع للمَاءِ في الوُضوءِ أَنْ يَصِلَ.

وأمَّا الدُّنْيَا؛ فَإِنِّي رَأَيْتُ جَمَاعَةً من المُهمِلينَ أنْفُسَهم يتَقدَّمُون إلىٰ السِّرَارِ، والغَفْلَةُ الَّتِي أوْجَبَت إهْمالَهم أنفُسَهم أوْجَبَتْ جهلَهمْ بالأذىٰ الحَادِث عَنهُم، فَإذْ أخَذُوا في مُنَاجَاةِ السِّرِّ لَمْ يُمكِنْ أَن أصْدفَ عَنهُم؛ لأنَّهُم يقْصِدونَ السِّرَّ فألْقَىٰ الشَّدائِدَ من رِيحِ أفْواهِهِمْ، ولَعلَّ أكْثَرهم من وَقتِ انْتِباهِهِ مَا أمَرَّ أصْبعَهُ علَىٰ أسْنانِهِ.

ثُمَّ يُوجِبُ مِثلَ هَذَا نُفورُ المَرْأَة، وقَدْ لا تَستَحسِن ذِكرَ ذَلِكَ للرَّجُل، فيُثمِر ذَلِكَ التِفاتَها عَنْهُ.

وقَدْ كَانَ ابنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: «إنِّي لأحِبُّ أَنْ أتزيَّن للمَرأَةِ كَمَا أحِبُّ أَنْ تَتزيَّن لِي».

وفِي النَّاس مَنْ يَقُولُ: هَذَا تَصنُّعٌ، ولَيْسَ بشَيْءٍ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعالَىٰ زيَّنَنا لَمَّا خَلقَنا؛ لأَنَّ للعَينِ حَظًّا في النَّظَر. ومَنْ تَأمَّل أهْدابَ العَينِ والحَاجِبينِ وحُسنَ تَرتِيبِ الخَلْقَةِ علمَ أَنَّ اللهَ تَعالىٰ زَيَّن الآدميَّ.

وقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أنظَفُ النَّاسِ وأطْيبُ النَّاسِ، وفي الحَدِيثِ عَنْهُ ﷺ: يَرفَعُ يَدَيْه حَتَّىٰ تَبينَ عفرَةُ إبطَيهِ، وكَانَ سَاقه رُبَّمَا انكشفَتْ فكَأنَّها جُمَّارةٌ، وكَانَ لا يُفارِقهُ السِّواكُ، وكَانَ يكْرَه أَنْ يُشَمَّ مِنْهُ رِيحٌ لَيسَتْ طيِّبةً، وفي حَدِيثِ أنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الصَّحِيحِ: «مَا شَانَه اللهُ بِبيضَاءَ»(١).

وقَدْ قَالَتِ الحُكَماءُ: من نظَّفَ ثَوبَه قلَّ هَمُّهُ، ومَنْ طَابَ رِيحُه زَادَ عَقلُه.

وقَالَ ﷺ لأصْحَابِهِ: «**مَا لَكُم تَدخُلُون عَليَّ قلحًا، اسْتَاكُوا**»(٢).

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٣٤١).

(٢) ضعيف: أخرجه أحمد (١٨٣٥) من حديث تمام بن العباس و(١٥٦٩٤) من حديث قثم، وهو اضطراب في إسناده، والحديث يدور علىٰ أبي علي الصيقل، وهو مجهول.

وقَدْ فُضِّلَتِ الصَّلاةُ بالسِّوَاكِ عَلَىٰ الصَّلاةِ بغَيْرِ سِواكٍ[1].

فالمُتنظِّفُ يُنَعِّمُ نَفْسَه، ويَرفَعُ مِنهَا عِنْدَهَا.

وقَدْ قَالَ الحُكماءُ: من طَالَ ظُفرُه قَصُرتْ يَدُه.

ثُمَّ إِنَّهُ يَقْرُب من قُلوبِ الخَلْقِ، وتُحبُّه النُّفُوسُ؛ لنَظافَتِهِ وطِيبِه.

وقَد كَانَ النَّبيُّ ﷺ يُحبُّ الطِّيبَ[2].

ثُمَّ إِنَّهُ يُؤنِسُ الزَّوجَةَ بتِلْكَ الحَالِ، فَإِنَّ النِّسَاء شَقائِقُ الرِّجَالِ، فكَمَا أَنَّهُ يَكرَه الشَّيءَ مِنهَا فكَذَلكَ هي تكرَهُه، ورُبَّما صَبرَ هُوَ عَلَىٰ مَا يَكرَهُ وهي لا تَصبِرُ.

وقَد رَأيْتُ جَمَاعَةً يزعُمونَ أَنَّهُمْ زُهَّادٌ، وهُمْ من أَقْذَرِ النَّاسِ، وذَلِكَ أَنَّهُمْ مَا قوَّمَهم العِلْم.

وأمَّا مَا يُحكَىٰ عَنْ دَاودَ الطَّائِيِّ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: لَوْ سَرَّحتَ لِحيَتَكَ. فَقَالَ: إِنِّي عَنْهَا مَشغُولٌ.

فهَذَا قَوْلُ مُعتذِرٍ عَنِ العَمَلِ بالسُّنَّةِ، والإخْبَار عَنْ غَيبَتِهِ عَنْ نَفْسهِ بشِدَّة خَوفِه من الآخِرَةِ، ولَوْ كَانَ مُفِيقًا لِذلِكَ لَمْ يَترُكهُ، فَلا يحتَجُّ بحَالِ المَغلُوبين.

ومَنْ تَأَمَّل خِصَالَ الرَّسُولِ ﷺ؛ رَأَىٰ كَاملًا في العِلْمِ والعَمَل، فَبِهِ يَكُونُ الاقْتِدَاءُ، وهُوَ الحُجَّةُ عَلَىٰ الخَلْقِ.

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (٢٦٣٤٠)، وابن خزيمة (١٣٧)، والحاكم (٥١٥) من حديث عائشة، وقد أنكره ابن معين وأبو زرعة والبيهقي وغيرهم، وله علة خفية شرحتها في غير هذا الموضع.

(٢) حسن: أخرجه أحمد (١٢٣١٥)، والنسائي (٣٩٣٩)، والحاكم (٢٦٧٦) وقال: صحيح علىٰ شرط مسلم، والضياء (١٦٠٨) من حديث أنس.

فَصْل

تَأمَّلتُ مُبالَغة أرْبابِ الدُّنْيَا في اتِّقاءِ الحَرِّ والبَرِدِ، فرَأيتُها تَعكِسُ المَقصُودَ في بَاب الحِكْمَة، وإنَّمَا تُحصِّلُ مُجرَّدَ لَذَّةٍ ولا خَيرَ في لَذَّةٍ تَعقبُ ألَمًا

فأمَّا في الحَرِّ؛ فإنَّهُم يَشربُون المَاء المَثلُوج، وذَلِكَ عَلَىٰ غَايةٍ في الضَّررِ، وأهْلُ الطِّبِّ يَقولُونَ: إنَّهُ يُحدِثُ أمْراضًا صَعبةً يظْهرُ أثَرُها في وَقتِ الشَّيْخُوخةِ، ويَصْنَعُونَ الخُيوشَ المُضاعَفةَ. وفي البَردِ، يصْنَعونَ اللُّبُودَ المَانِعةَ للبَردِ.

وهَذَا من حَيثُ الحِكْمَة مُضادٌّ مَا وضَعهُ اللهُ تَعالَىٰ؛ فإنَّه جَعلَ الحَرَّ لتحلُّل الأخْلاطِ، والبَردَ لجُمودِها، فيجْعلُون هُمْ جَميعَ السَّنةِ رَبيعًا، فتَنعكِسُ الحِكْمَةُ الَّتِي وُضِع الحَرُّ والبَردُ لَهَا، ويَرجِعُ الأذَىٰ عَلَىٰ الأبْدَانِ.

ولا يَظنَّنَّ سَامعُ هَذَا أنِّي آمُرهُ بمُلاقَاةِ الحَرِّ والبَردِ، وإنَّمَا أقُولُ لَهُ: لا تُفرِطْ في التَّوقِّي، وتَعرَّض في الحَرِّ لِمَا يُحلِّل بَعْضَ الأخْلاطِ إلىٰ حَدٍّ لا يُؤثِّر في القُوَّة، وفي البَردِ بأنْ يُصيبَكَ مِنْهُ الأمْرُ القَرِيبُ لا المُؤذِي؛ فإنَّ الحَرَّ والبَردَ لِمَصَالِح البَدَن.

وقَد كَانَ بَعْضُ الأمَرَاءِ يَصُونُ نَفْسهُ من الحَرِّ والبَرْد أصْلًا، فتَغيَّرتْ حَالتُه فمَاتَ عَاجِلًا، وقَدْ ذَكرْتُ قِصَّتهُ في كِتابِ «لَقْطِ المَنافِع في عِلمِ الطِّبِّ».

فَصْلٌ

لَيسَ في التَّكلِيف شَيءٌ أصْعبُ من الصَّبْرِ عَلَى القَضَاءِ ولا فِيهِ أفْضَلُ مِن الرِّضَى بِهِ

فأَمَّا الصَّبْرُ؛ فَهُو فَرضٌ، وأمَّا الرِّضَىٰ؛ فَهُو فَضلٌ.

وإنَّمَا صَعُبَ الصَّبْر؛ لأَنَّ القَدَرَ يجْرِي في الأغْلَبِ بمَكرُوه النَّفْسِ، ولَيْسَ مَكرُوه النَّفْسِ يَقِفُ عَلَىٰ المَرَضِ والأذَىٰ في البَدَنِ، بَلْ هُوَ يَتنوَّع حَتَّىٰ يَتحيَّرُ العَقْلُ في حِكمَةِ جَريَانِ القَدَرِ.

فمن ذَلِكَ: أنَّكَ إذَا رَأيْتَ مَغمُورًا بالدُّنْيَا، قَدْ سَالَت لَهُ أوْدِيتُها، حَتَّىٰ لا يَدرِي مَا يَصنعُ بالمَالِ، فَهُو يَصُوغُه أوَانِي يَسْتعمِلُها، ومَعلُومٌ أَنَّ البلُّورَ والعَقيقَ والشَّبهَ قَدْ يَكُون أَحْسنَ مِنهَا صُورَةً، غَيْرَ أَن قِلَّةَ مُبالاتِه بالشَّرِيعَةِ جَعلَتْ عِنْدَه وُجُودَ النَّهْي كعَدَمِه. ويَلبَسُ الحَرِيرَ، ويَظلِمُ النَّاسَ، والدُّنْيَا مُنْصَبَّةٌ عَلَيهِ، ثُمَّ يَرَىٰ خَلْقًا من أَهْلِ الدِّينِ وطُلَّابِ العِلْمِ مَغمُورِين بالفَقرِ والبَلاءِ، مَقهُورِين تَحتَ وِلايَةِ ذَلِكَ الظَّالِمِ؛ فحِينئِذٍ يجِدُ الشَّيْطَانُ طَرِيقًا للوَسوَاسِ، ويَبتدِي بالقَدحِ في حِكمَة القَدَرِ، فيحْتَاجُ المُؤمِنُ إلىٰ الصَّبْرِ عَلَىٰ مَا يَلقَىٰ من الضُّرِّ في الدُّنْيَا، وعَلَىٰ جِدالِ إبْلِيسَ في ذَلِكَ.

وكَذَلكَ في تَسلِيطِ الكُفَّارِ عَلَىٰ المُسلِمِينَ، والفُسَّاقِ عَلَىٰ أَهْلِ الدِّينِ. وأبلَغُ من هَذَا: إيلامُ الحيَوَانِ، وتَعذِيبُ الأطْفالِ؛ فَفي مِثلِ هَذِهِ المَواطِنِ يتمحَّصُ الإيمَانُ.

ومِمَّا يُقوِّي الصَّبْرَ عَلَىٰ الحَالَتينِ: النَّقْلُ، والعَقْلُ:

أمَّا النَّقْلُ؛ فالقُرْآنُ والسُّنَّة:

أمَّا القُرْآنُ؛ فمُنقَسمٌ إلىٰ قِسمَينِ:

أَحَدُهُمَا: بيَانُ سَبَبِ إعْطاءِ الكَافِرِ والعَاصِي:

فمِنْ ذَلِكَ: قَولُه تعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ [الزخرف: ٣٣]، ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦]، وفي القُرْآن مِنْ هَذَا كَثيرٌ.

والقِسمُ الثَّانِي: ابتِلاءُ المُؤمِنُ بِمَا يَلقَىٰ:

كَقولِه تعَالَىٰ: ﴿حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ﴾ [البقرة: ٢١٤]، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ﴾ [التوبة: ١٦]، وفي القُرْآن من هَذَا كَثيرٌ.

وأمَّا السُّنَّة؛ فمُنقَسِمةٌ إلىٰ قَوْلٍ وحَالٍ:

أَمَّا الحَالُ؛ فإِنَّه ﷺ كَانَ يتقَلَّبُ عَلَىٰ رِمالِ حَصيرٍ يُؤثِّر في جَنبِه، فبَكَىٰ عُمرُ رضي الله عنه وقَالَ: «كِسرَىٰ وقَيصَرُ في الحَريرِ والدِّيبَاجِ»، فَقَالَ لَهُ ﷺ: **«أفِي شَكٍّ أنتَ يَا عُمرُ؟ أَلا تَرضَىٰ أَنْ تَكُونَ لَنَا الآخِرَةُ ولَهُم الدُّنْيَا؟»**[1].

وأمَّا القَولُ؛ فكَقوْلِهِ ﷺ: **«لَوْ أَنَّ الدُّنْيَا تُساوِي عِنْدَ اللهِ جَناحَ بَعُوضةٍ مَا سَقَىٰ كَافِرًا مِنهَا شَربَةَ مَاءٍ»**[2].

وأمَّا العَقْلُ؛ فإِنَّه يُقوِّي عَساكرَ الصَّبْرِ بجُنودٍ:

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٤٦٨، ٤٩١٣، ٥١٩١)، ومسلم (١٤٧٩) من حديث عمر بن الخطاب.

(٢) صحيح: أخرجه من حديث سهل بن سعد: الترمذي (٢٣٢٠) وقال: حديث صحيح، وابن ماجه (٤١١٠)، والحاكم في «المستدرك» (٧٨٤٧) وقال: صحيح الإسناد.

مِنهَا: أَنْ يَقُول: قَدْ ثَبتَ عِنْدِي بِالأدِلَّةِ القَاطِعةِ حِكمَةُ المُقَدِّر، فَلا أتْرُك الأَصْلَ الثَّابِتَ لمَا يَظنُّه الجَاهِلُ خللًا.

ومِنْهَا: أَنْ يَقُول: مَا قَدِ اسْتَهْوَلْتَهُ أَيُّهَا النَّاظِرُ من بَسطِ يَدِ العَاصِي قَبضٌ في المَعنَىٰ، ومَا قَدْ أُثِر عِنْدك من قَبضِ يَدِ الطَّائِع بسط في المَعنَىٰ؛ لأَنَّ ذَلِكَ البَسطَ يُوجِبُ عِقابًا طَويلًا، وهَذَا القَبضُ يُؤثِّر انبِسَاطًا في الأَجْرِ جَزِيلًا، فزَمانُ الرَّجُلينِ يَنقَضِي عَنْ قَرِيبٍ، والمَراحِلُ تُطوَىٰ، والرُّكبانُ في السَّيرِ الحَثيثِ.

ومِنْهَا: أَنْ يَقُول: قَدْ ثَبتَ أَن المُؤمِن باللهِ كالأجِيرِ، وأنَّ زَمَن التَّكليفِ كبَياضِ نَهارٍ، ولا يَنْبغِي للمُسْتَعْمَلِ في الطِّينِ أَنْ يَلبَس نَظيفَ الثِّيابِ، بَلْ يَنْبغِي أَنْ يُصابِرَ سَاعَات العَمَل، فإذَا فَرغَ تَنظَّفَ ولَبسَ أجْودَ ثِيابِه، فمَنْ ترفَّه وقْتَ العَمَلِ نَدمَ وقْتَ تَفرِيقِ الأُجْرة، وعُوقِبَ عَلَىٰ التَّوانِي فِيمَا كُلِّف.

فهَذِهِ النُّبَذُ تُقوِّي أَزْرَ الصَّبْرِ.

وأزِيدُها بَسْطًا، فَأَقُولُ:

أَتَرَىٰ إِذَا أُرِيدَ اتِّخاذُ شُهَدَاء، فَكَيفَ لا يُخلَقُ أَقْوامٌ يَبسُطون أَيدَيْهِمْ لقَتلِ المُؤْمِنينَ، أفيَجُوز أَنْ يَفتِكَ بعُمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلَّا مِثْل أَبِي لُؤلُؤَة؟ وبعَليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلَّا مِثْل ابنُ مُلْجِمٍ؟ أفيَصحُّ أَنْ يَقتُلَ يَحيَىٰ بْن زَكريَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ إلَّا جَبَّارٌ كَافِرٌ؟!

ولَوْ أَنَّ عَينَ الفَهمِ زَالَ عَنْهَا غِشاءُ العَشَا، لرَأَتِ المسَبِّبَ لا الأسْبابَ، والمُقدِّرَ لا الأَقْدَارَ، فصَبرْتَ عَلَىٰ بَلائِه؛ إِيثارًا لِمَا يُرِيدُ، ومن هَهُنا يَنشأُ الرِّضَىٰ.

كَمَا قِيلَ لبَعضِ أَهْل البَلاءِ: ادْعُ اللهَ بالعَافِيَةِ، فَقَالَ: أَحَبُّهُ إلَيَّ أَحبُّهُ إلىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ!!

إنْ كَانَ رِضَاكُمْ فِي سَهَرِي ** فَسَلَامُ اللهِ عَلَىٰ وَسَنِي

فَصْل

لَمَّا أنْهَيتُ كِتابةَ الفَصْلِ المُتقَدِّم؛ هَتفَ بِي هَاتِفٌ مِنْ بَاطِنِي:

دَعنِي مِن شَرحِ الصَّبْرِ عَلَى الأقْدارِ؛ فَإنِّي قَدْ اكتَفيْتُ بأُنمُوذَجِ مَا شَرحتَ
وَصِفْ حَال الرِّضَى؛ فَإنِّي أجِدُ نَسِيمًا من ذِكرِهِ فِيهِ رَوحٌ للرُّوحِ

فقُلْتُ: أيُّهَا الهَاتِفُ؛ اسْمعِ الجَوَاب، وافْهمِ الصَّوَابَ؛ إنَّ الرِّضَا من جُمْلَة ثَمرَاتِ المَعْرِفَة، فَإذَا عَرفْتَه رَضيتَ بقَضائِهِ، وقَد يجْرِي في ضِمنِ القَضَاءِ مَرارَاتٌ يَجِد بَعْض طَعمِهَا الرَّاضِي.

وأمَّا العَارِف؛ فتَقِلُّ عِنْدَه المَرارَةُ؛ لقُوَّةِ حَلاوَةِ المَعْرِفَةِ، فَإذَا تَرقَّىٰ بالمَعْرِفَةِ إلىٰ المَحبَّةِ صَارَتْ مَرارةُ الأقْدارِ حَلاوَةً.

كَمَا قَالَ القَائِل:

عَذَابُـــــهُ فِيـــــكَ عَـــــذْبٌ ** وَبُعْـــــدُهُ فِيـــــكَ قُـــــرْبُ
وَأَنْـــــتَ عِنْـــــدِي كَرُوحِـــــي ** بَـــــلْ أَنْـــــتَ مِنْهَـــــا أَحَـــــبُّ
حَـــــسْبِي مِـــــنَ الْحُـــــبِّ أَنِّـــــي ** لِمَـــــا تُحِـــــبُّ أُحِـــــبُّ

وقَالَ بَعْض المُحبِّينَ:

وَيَقْــبُحُ مِــنْ سِــوَاكَ الفِعْــلُ عِنْــدِي ** فَتَفْعَلُــهُ فَيَحْــسُنُ مِنْــكَ ذَاكَــا

فَصاحَ بي الهَاتِفُ: حَدِّثنِي بمَاذَا أرْضَىٰ، قدِّرْ أنِّي أرْضَىٰ في أقْدَارِه بالمَرَض والفَقرِ؛ أفَأَرضَىٰ بالكَسلِ عَنْ خِدمَتهِ، والبُعدِ عَنْ أَهْل مَحبَّتِه؟ فَبَيِّنْ لي مَا الَّذِي يدْخُلُ تَحتَ الرِّضَىٰ مِمَّا لا يَدخُلُ.

فقُلتُ لَهُ: نِعْمَ مَا سَألتَ؛ فاسْمَعِ الفَرقَ سَمَاعَ مَن أَلْقَىٰ السَّمعَ وهُوَ شَهيدٌ:

ارْضَ بِمَا كَانَ مِنْهُ، فَأَمَّا الكَسلُ والتَّخلُّفُ فَذاكَ مَنسُوبٌ إِلَيْك، فَلا تَرضَ بِهِ من فِعلِكَ، وكُنْ مُستوفِيًا حَقَّه عَليكَ، مُناقِشًا نَفْسكَ فِيمَا يُقرِّبُك مِنْهُ، غَيْرَ رَاضٍ مِنهَا بالتَّوانِي في المُجاهَدَةِ.

فأَمَّا مَا يَصدُرُ من أُقْضِيَتِه المُجرَّدة الَّتِي لا كَسبَ لَكَ فِيهَا؛ فكُنْ رَاضِيًا بِهَا، كَمَا قَالَتْ رَابعةُ -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيها- وقَدْ ذُكِر عِندَهَا رَجُلٌ من العُبَّاد يَلتقِط مِن مَزبَلَةٍ فيَأكُل، فقِيلَ: هَلَّا سَأَلَ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَجعل رِزقَه مِن غَيْرِ هَذَا؟! فَقَالَتْ: «إنَّ الرَّاضِي لا يَتخيَّر، ومَنْ ذَاقَ طَعمَ المَعْرِفَة وَجدَ فِيهِ طَعمَ المَحبَّةِ، فَوقَع الرِّضَىٰ عِنْدَه ضَرورَةً».

فيَنْبغِي الاجْتِهَادُ في طَلَبِ المَعرِفَة بالأدِلَّةِ، ثُمَّ العَمَلُ بمُقتَضَىٰ المَعْرِفَةِ بالجِدِّ في الخِدْمَة؛ لَعلَّ ذَلِكَ يُورِث المَحبَّةَ؛ فقَدْ قَالَ ﷺ: **«لا يَزَالُ العَبْدُ يَتقرَّبُ إليَّ بالنَّوافِلَ حَتَّىٰ أحِبَّهُ، فَإذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمعَهُ الَّذِي يَسمعُ بِهِ، وبَصرَهُ الَّذِي يُبصِرُ بِهِ»**[1].

فذَلِكَ الغِنَىٰ الأكْبرُ، وَوَا فَقْرَاه!

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢)، وابن حبان (٣٤٧) من حديث أبي هريرة.

❁ فَصْل ❁

رَأيْتُ جُمْهُورَ العُلَمَاءِ يَشْغَلُهم طَلبُهم للعِلمِ زَمَنَ الصِّبَا عَن المَعاشِ، فيَحْتَاجُون إلى مَا لا بُدَّ مِنْهُ، فَلا يَصِلهُم من بَيتِ المَالِ شَيْءٌ ولا من صِلاتِ الإخْوانِ مَا يَكْفِي، فيحْتَاجونَ إلى التَّعرُّضِ للإذْلالِ

فَلَمْ أرَ في ذَلِكَ من الحِكْمَة إلَّا سَببين:

أحَدُهُمَا: قَمعُ إعْجَابِهم بِهَذَا الإذْلالِ.

والثَّانِي: نَفعُ أولَئِكَ بثَوابِهم.

ثُمَّ أمْعَنْتُ الفِكرَ، فتَلمَّحتُ نُكتةً لَطيفَةً، وهِيَ:

أنَّ النَّفْسَ الأبيَّةَ إذَا رَأَتْ حَالَ الدُّنْيَا كذَلِكَ لَمْ تُساكِنْها القَلبَ، ونبَتْ عَنْهَا بالعَزمِ، ورَأتْ أقْرَبَ الأَشْيَاءِ شِبهًا بِهَا مَزبَلةً عَليْهَا الكِلابُ، أوْ غَائِطًا يُؤتَىٰ لضَرورَةٍ.

فَإذَا نَزلَ المَوْتُ بالرِّحلَةِ عَنْ مِثلِ هَذِهِ الدَّارِ، لَمْ يَكُنْ للقَلبِ بِهَا مُتعلِّقٌ مُتمكِّنٌ؛ فتَهُونُ حِينئِذٍ.

❁ فَصْل ❁

مَا زَالَ جَمَاعَةٌ من المُتزَهِّدينَ يُزْرُونَ عَلَى كَثِيرٍ من العُلَمَاءَ إذَا انْبَسطُوا في مُباحَاتٍ

والَّذِي يَحمِلُهم عَلَىٰ هَذَا الجَهْلِ، فَلَو كَانَ عِندَهُم فَضلُ عِلمٍ مَا عَابُوهُم.

وهَذَا؛ لأنَّ الطِّباعَ لا تَتسَاوَىٰ، فرُبَّ شَخْصٍ يَصلُح عَلَىٰ خُشونَةِ العَيْشِ، وآخَرُ لا يَصلُحُ عَلَىٰ ذَلِكَ، ولا يَجُوزُ لأحدٍ أنْ يَحمِلَ غَيْرَه عَلَىٰ مَا يُطِيقُه هُوَ.

غيرَ أَنَّ لنَا ضَابِطًا؛ هُوَ الشَّرْعُ، فِيهِ الرُّخْصَة وفِيهِ العَزِيمَةُ، فَلا يَنْبَغِي أَنْ يُلامَ مَنْ حَصرَ نَفْسَه في ذَلِكَ الضَّابِط، ورُبَّ رُخصةٍ كَانَتْ أَفْضَلَ من عَزائِمَ؛ لتَأْثِيرِ نَفعِها، ولَوْ عَلِمَ المُتزَهِّدُ أَنَّ العِلْمَ يُوجِبُ المَعْرِفَةَ باللهِ تَعالَىٰ، فتَنبُتُ القُلوبُ مِن خَوفِهِ، وتَنحلُ الأَجْسَامُ للحَذَرِ مِنْهُ، فوَجَبَ التَّلطُّفُ حِفْظًا لقُوَّةِ الرَّاحِلَةِ.

ولأنَّ آلةَ العِلْمِ والحِفظِ القَلْبُ والفِكرُ، فَإِذَا رُفِّهَتِ الآلةُ جَادَ العَمَلُ، وهَذَا أَمْرٌ لا يُعلَمُ إلَّا بالعِلْمِ. فَلِجَهْلِ المُتزَهِّدينَ بالعِلْمِ أَنْكَرُوا مَا لَمْ يَعلَمُوا، وظَنُّوا أَنَّ المُرَادَ إِتْعَاب الأَبْدَانِ، وإِنْضَاء الرَّواحِلِ، ومَا عَلِمُوا أَنَّ الخَوْفَ المُضنِي يَحْتَاج إلىٰ رَاحةٍ مُقَاومَةٍ، كَمَا قَالَ القَائِل: «رَوِّحُوا القُلوبَ تَعِي الذِّكْرَ».

فَصْل

لَيسَ في الوجُود شَيْءٌ أشْرفُ من العِلْمِ

كَيْفَ لا وهُوَ الدَّلِيلُ، فَإِذَا عُدِمَ وَقعَ الضَّلالُ؟!

وإِنَّ مِنْ خَفِيِّ مَكائِدِ الشَّيطَانِ أَنْ يُزيِّنَ في نَفسِ الإِنْسَانِ التَّعبُّدَ؛ ليَشْغَلَه عَنْ أَفْضَلِ التَّعبُّدِ، وهُوَ العِلْمُ، حَتَّىٰ إِنَّهُ زَيَّن لجَماعَةٍ مِنْ القُدَمَاءِ أَنَّهُمْ دَفنُوا كُتُبَهم ورَمَوْها فِي البَحرِ، وهَذَا قَدْ وَردَ عَنْ جَماعَةٍ.

فأَحْسَنُ ظَنِّي بِهِم أَنْ أَقُولَ: كَانَ فِيهَا شَيْءٌ مِن رَأيِهِمْ وكَلامِهِمْ، فَمَا أَحَبُّوا انْتِشارَهُ، وإِلَّا فمَتَىٰ كَانَ فِيهَا عِلمٌ مُفيدٌ صَحِيحٌ لا يُخَافُ عَواقِبهُ كَانَ رَمْيُهَا إِضَاعةً للمَالِ لا تَحلُّ.

وقَدْ دَنَتْ حِيلَةُ إِبْلِيسَ إلىٰ جَماعَةٍ مِنَ المُتصوِّفَةِ، حَتَّىٰ مَنَعُوا من حَملِ المَحابِرِ تَلامِذَتَهم، حَتَّىٰ قَالَ جَعفَرُ الخُلْدِيُّ: «لَوْ تَركَنِي الصُّوفِيَّةُ جِئتُكمْ بإِسْنادِ

الدُّنْيَا، كَتبْتُ مَجلِسًا عَنْ عَبَّاسٍ الدُّورِيِّ فلَقِينِي بَعْضُ الصُّوفِيَّةِ فَقَالَ: دَعْ عِلمَ الوَرَقِ، عَلَيْكَ بعِلمِ الخِرَقِ».

ورُئِيَتْ مَحبرةٌ مع بَعْضِ الصُّوفِيَّةِ، فَقَالَ لَهُ صُوفِيٌّ آخَرُ: اسْتُرْ عَورَتكَ!

وقَدْ أَنْشَدُوا للشِّبلِيِّ:

إِذَا طَالَبُونِي بِعِلْمِ الوَرَقْ ** بَرَزْتُ عَلَيْهِمْ بِعِلْمِ الخِرَقْ

وهَذَا من خَفِيِّ حِيَلِ إِبْلِيس، ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ ﴾ [سبأ: ٢٠]، وإِنَّمَا فَعَلَ وزَيَّنَهُ عِندَهم لسَبَبينِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ أَرَادَهُم يَمشُونَ في الظُّلْمَةِ.

والثَّانِي: أَنَّ تَصفُّحَ العِلْمَ كُلَّ يَوْمٍ يَزيدُ في عِلمِ العَالِم، ويَكْشِفُ لَهُ مَا كَانَ خَفِيَ عَنْهُ، ويُقوِّي إِيمَانَه ومَعرِفَتَه، ويُرِيهُ عَيبَ كَثِيرٍ من مَسالِكهِ إِذَا تَصَفَّحَ مِنهَاجَ الرَّسُولِ ﷺ والصَّحَابَةِ.

فأَرادَ إِبْلِيسُ سَدَّ تِلْكَ الطُّرُقِ بأخفَىٰ حِيلَةٍ، فأَظْهَرَ أَنَّ المَقصُودَ العَمَلُ، لا العِلْمُ بِنَفْسِه، وخَفِيَ عَلَىٰ المَخدُوعِ أَنَّ العِلْمَ عَملٌ، وأيُّ عَمَلٍ.

فاحْذَرْ مِنْ هَذِهِ الخَدِيعَةِ الخَفِيَّةِ؛ فَإِنَّ العِلْمَ هُوَ الأَصْلُ الأَعْظَمُ، والنُّورُ الأكْبرُ، ورُبَّما كَانَ تَقلِيبُ الأَوْراقِ أَفْضَلُ من الصَّوْمِ، والصَّلاةِ، والحَجِّ، والغَزْوِ.

وكَمْ من مُعرِضٍ عَنِ العِلْمِ يَخوضُ في عَذَابٍ مِنَ الهَوَىٰ في تَعبُّدِه، ويُضيِّعُ كَثِيرًا من الفَرضِ بالنَّفلِ، ويَشتَغِلُ بِمَا يَزعمُهُ الأَفْضَلَ عَنِ الوَاجِب، ولَوْ كَانَتْ عِنْدَه شُعْلَةٌ من نُورِ العِلْمِ لاهْتَدَىٰ.

فتَأَمَّلْ مَا ذَكرتُ لَكَ تَرشدْ؛ إِنَّ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ.

۞ فَصْل ۞

مَرَّ بِي حَمَّالانِ تَحتَ جِذعٍ ثَقيلٍ، وهُما يَتجاوَبانِ بإنْشادِ النَّغمِ، وكَلِمَاتٍ لاسْتِراحَةٍ، فأحَدُهما يُصغِي إلى مَا يَقولُه الآخَرُ ثُمَّ يُعيدُه أوْ يُجِيبهُ بمِثلِه، والآخَرُ هِمَّتهُ مِثْل ذَلِكَ، فرَأيْتُ أنَّهمَا لَوْ لَمْ يَفعَلا هَذَا زَادَتِ المَشقَّة عَليهِما، وثَقُلَ الأمْرُ، وكُلَّمَا فَعَلا هَذَا هَانَ الأمْرُ

فتَأمَّلتُ السَّببَ في ذَلِكَ، فَإذَا بِهِ تَعليقُ فِكرِ كُلّ وَاحِدٍ مِنهُما بِمَا يَقولُه الآخَرُ، وطَرَبُهُ بِهِ، وإجَالَةُ فِكرِه في الجَوَابِ بمِثلِ ذَلِكَ، فتَنقَطِعُ الطَّرِيقُ، ويَنْسَىٰ ثِقَلَ المَحمُولِ.

فأخَذتُ مِنْ هَذَا إشَارَةً عَجِيبةً، ورَأيْتُ الإنْسَانَ قَدْ حُمِّلَ من التَّكلِيفِ أُمُورًا صَعبةً، ومن أَثْقَلِ مَا حُمِّلَ مُدارَاةُ نَفْسِه، وتَكلِيفُها الصَّبْرَ عَمَّا تُحِبُّ وعَلَىٰ مَا تَكرَهُ، فرَأيْتُ الصَّوَابَ قَطْع طَرِيقِ الصَّبْرِ بالتَّسلِيةِ والتَّلطُّف للنَّفْسِ.

كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

فَـإِنْ تَـشَكَّتْ فَعَلِّلْهَـا المَجَـرَّةَ مِـنْ ** ضَوْءِ الصَّبَاحِ وَعِدْهَا بِالرَّوَاحِ ضُـحَىٰ

ومِنْ هَذَا: مَا يُحكَىٰ عَنْ بِشرٍ الحَافِي -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيهِ-: سَارَ ومَعهُ رَجُلٌ في طَرِيقٍ، فعَطِش صَاحِبُه، فَقَالَ لَهُ: نَشرَبُ من هَذِهِ البِئْرِ؟ فَقَالَ بِشرٌ: اصْبِر إلىٰ البِئرِ الأُخرىٰ، فلَمَّا وصَلا إلَيهَا قَالَ لَهُ: البِئرِ الأُخْرَىٰ. فَمَا زَالَ يُعلِّلهُ، ثُمَّ التَفتَ إليْهِ فَقَالَ لَهُ: هَكذَا تَنقَطعُ الدُّنْيا.

ومَنْ فَهِم هَذَا الأَصْلَ عَلَّل النَّفْسَ، وتَلطَّف بِها، ووعَدَها الجَميلَ؛ لتَصبرَ عَلَىٰ مَا قَدْ حَملَتْ، كَمَا كَانَ بَعْضُ السَّلَفِ يَقُولُ لنَفْسِه: «واللهِ مَا أُرِيدُ بمَنعِك مِنْ هَذا الَّذِي تُحبِّينَ إلَّا الإشْفاقَ عَليكِ».

وقَالَ أَبُو يَزِيدٍ -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيهِ-: «مَا زِلتُ أَسُوقُ نَفْسِي إلىٰ اللهِ تَعالَىٰ وهي تَبكِي حَتَّىٰ سُقْتَهَا وهي تَضحَكُ».

واعْلَمْ؛ أَنَّ مُدارَاةَ النَّفْسِ صَعْبَةٌ، والتَّلطُّف بِهَا لازِمٌ، وبذَلِكَ يَنقَطِعُ الطَّرِيقُ، فهَذَا رَمزٌ إلىٰ الإشَارَة، وشَرحُه يَطُولُ.

❁ فَصْل ❁

تَأمَّلتُ أَشْيَاء تَجرِي في مَجالِسِ الوَعظِ يَعْتَقدهَا العَوامُّ وجُهَّالُ العُلَمَاءِ قُربةً، وهي مُنْكرٌ وبُعدٌ

وذَاكَ أَنَّ المُقرِئَ يَطرَبُ ويُخرِجُ الأَلْحانَ إلىٰ الغِناءِ، والوَاعِظَ يُنشِدُ بتَطرِيبِ أشْعارِ المَجنُونِ ولَيلَىٰ، فيُصفِّقُ هَذَا، ويَخرِقُ ثَوبَه هَذَا، ويَعتقِدُونَ أَنَّ ذَلِكَ قُربةٌ، ومَعلومٌ أَنَّ هَذِهِ الأَلْحَان كالمُوسِيقَىٰ، تُوجِبُ طَربًا للنُّفوسِ ونَشوةً، فالتَّعرُّض بِمَا يُوجِبُ الفَسادَ غَلَطٌ عَظيمٌ. ويَنْبغِي الاحْتسَابُ عَلَىٰ الوُعَّاظِ في هَذَا.

وكَذَلكَ المَقابِرِّيُونَ مِنهُم؛ فَإِنَّهُم يُهيِّجونَ الأَحْزانَ؛ ليَكثُر بُكاءُ النِّسَاءِ، فَيُعْطَوْن عَلَىٰ ذَلِكَ الأُجرَةَ، ولَوْ أَنَّهُمْ أُمِروا بالصَّبرِ لَمْ تُردِ النِّسوَةُ ذَلِكَ، وهَذِهِ أَضْدادٌ للشَّرعِ.

قَالَ ابنُ عَقِيلٍ: «حَضرْنَا عَزاءَ رَجُلٍ قَدْ مَاتَ لَهُ ولَدٌ، فقَرأَ المُقرِئُ: ﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ [يوسف: ٨٤]، فَقُلتُ لَهُ: هَذِهِ نِياحةٌ بالقُرْآن».

وفي الوُعَّاظِ من يَتكلَّمُ عَلَىٰ طَرِيقِ المَعْرِفَةِ والمَحبَّةِ، فتَرَىٰ الحَائكَ والسُّوقيَّ الَّذِي لا يَعرِفُ فَرائِضَ تِلْكَ الصَّلاةِ يُمزِّقُ أثوَابَه؛ دَعوىٰ لمَحبَّةِ اللهِ تَعالَىٰ.

والصَّافِي حَالًا مِنهُم -وهو أَصْلحُهم- يَتخَايلُ - فِي تَوَهُّمِهِ - شَخصًا هُوَ الخَالِقُ، فيَبْكِيه شَوْقًا إِلَيْهِ؛ لِمَا يَسمَعُ من عَظمَتهِ ورَحمتِه وجَمالِه، ولَيْسَ مَا يتخَايلُونهُ المَعبُودَ؛ لأَنَّ المَعبودَ لا يَقَعُ فِي خَيالٍ.

وبَعدَ هَذَا؛ فالتَحقِيقُ مع العَوامِّ صَعبٌ، ولا يَكادُونَ يَنتفِعونُ بمُرِّ الحَقِّ، إِلَّا أَنَّ الوَاعِظ مَأمورٌ بأنْ لا يَتعدَّىٰ الصَّوَابَ، ولا يتعَرَّضَ لِمَا يُفسدَهم، بَلْ يَجذِبُهم إلىٰ مَا يصلحَ بأَلْطَفِ وَجهٍ، وهَذَا يحْتَاجُ إلىٰ صِناعَةٍ؛ فَإِنَّ من العَوامِّ من يُعجِبهُ حُسْنُ اللَّفظِ، ومِنْهُم من يُعجِبهُ الإِشَارَةُ، ومِنْهُم مَنْ يَنْقادُ بِبَيتٍ مِن الشَّعرِ.

وأَحْوجُ النَّاسِ إلىٰ البَلاغَةِ الوَاعِظُ؛ ليَجمَع مَطالِبَهم، لَكنَّه يَنْبغِي أَنْ ينظُرَ فِي اللَّازِمِ والوَاجِبِ، وأنْ يُعطِيهم مِنَ المُبَاحِ فِي اللَّفظِ قَدرَ المِلْحِ فِي الطَّعَامِ، ثُمَّ يَجتَذِبُهُم إلىٰ العَزائِمِ، ويُعرِّفُهُم الطَّرِيقَ إِلىٰ الحَقِّ.

وقَدْ حَضرَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَل، فسَمِعَ كَلامَ الحَارِثِ المُحاسَبِيِّ، فبَكَىٰ، ثُمَّ قَالَ: «لا يُعجبنِي الحُضورُ». وإِنَّمَا بَكَىٰ لأَنَّ الحَالَ أَوْجَبَتِ البُكاءَ.

وقَد كَانَ جَمَاعَةٌ من السَّلَفِ يَرونَ تَخلِيطَ القُصَّاصِ، فيَنهَون عَنِ الحُضورِ عِندَهم، وهَذَا عَلَىٰ الإِطْلاقِ لا يَحسُنُ اليَوْمَ؛ لأَنَّهُ كَانَ النَّاسُ في ذَلِكَ الزَّمَانِ مُتشاغِلينَ بالعِلْمِ، فرَأَوا حُضورَ القَصصَ صَادًّا لَهُمْ، واليَوْمَ كَثُر الإِعْرَاضُ عَن العِلْمِ، فأنفَعُ مَا للعَامِّيِّ مَجْلِسُ الوَعظِ؛ يرُدُّهُ عَنْ ذَنبٍ، ويُحرِّكهُ إلىٰ تَوبةٍ، وإِنَّمَا الخَللُ في القَاصِّ، فليَتقِّ اللهَ ﷻ.

﴿ فَصْلٌ ﴾

مِنْ أضَرِّ الأَشْيَاءِ عَلَى العَوامِّ كَلامُ المُتأوِّلينَ والنُّفاةِ للصِّفاتِ والإضَافاتِ

فَإنَّ الأنْبِيَاءَ عليهم السلام بَالغُوا في الإثْبَاتِ، ليتَقرَّر فِي أنْفُسِ العَوامِّ وُجُودُ الخَالِق؛ فَإنَّ النُّفُوسَ تأنَسُ بالإثْبَاتِ، فَإذَا سَمِعَ العَامِّيُّ مَا يُوجِبُ النَّفيَ طَرَدَ عَنْ قَلبِه الإثْبَاتَ، فكَانَ أعْظَمَ ضَرَرٍ عَلَيهِ، وكَانَ هَذَا المُنزِّهُ من العُلَمَاءِ - عَلَىٰ زَعمِه - مُقاوِمًا لإثْبَاتِ الأنْبِيَاء عَلَيهِم الصَّلاةُ والسَّلامُ بالمَحوِ، وشَارِعًا في إبطَالِ مَا يُفْتُونَ بِهِ.

وبَيانُ هَذَا: أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَخْبرَ باسْتِوائِه عَلَىٰ العَرْشِ، فأنِسَتِ النُّفُوسُ إلىٰ إثْبَاتِ الإلَهِ ووجُودِه، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وقَالَ تعَالَىٰ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقَالَ: ﴿ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفتح: ٦]، وقَالَ: ﴿رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ [البينة: ٨]، وأخْبرَ الرَّسُولُ ﷺ أَنَّ اللهَ يَنزِلُ إلىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا[1]، وقَالَ: «**قُلوبُ العِبادِ بَينَ إصْبعَينِ**»[2]، وقَالَ: «**كَتبَ التَّوراةَ بِيدِهِ**»[3]، و«**كَتبَ كِتابًا فَهُو عِنْدَه فَوْقَ العَرْشِ**»[4]، إلىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَطولُ ذِكرُه.

فَإذَا امْتلأَ العَامِّيُّ والصَّبيُّ مِنَ الإثْبَاتِ، وكَادَ يَأنَسُ مِن الأوصَافِ بِمَا يَفهمُه الحِسُّ، قِيلَ لَهُ: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١]، فمَحَا من قَلبِه مَا نَقَشَهُ

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (١١٤٥، ٦٣٢١، ٧٤٩٤)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة. وهو متواتر، روي عن عدد كثير من الصحابة.

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٦٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو.

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٦٥٢) من حديث أبي هريرة.

(٤) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧٥٥٣، ٧٥٥٤)، ومسلم (٢٧٥١).

الخَيالُ، وتَبقَىٰ ألفَاظُ الإثْبَات مُتمكِّنةً؛ ولِهذَا أَقرَّ الشَّرْعُ مِثلَ هَذَا، فَسَمِعَ مُنشِدًا يَقُولُ: «وفَوقَ العَرْشِ رَبُّ العَالِمينا»، فضَحِكَ(١). وقَالَ لَهُ آخَرُ: أَويَضْحَكُ رَبُّنا؟ فَقَالَ: «نَعَم»(٢)، وقَالَ: «إِنَّهُ عَلَىٰ عَرشِه هَكذَا»(٣). كُلُّ هَذَا ليُقَرِّرَ الإثْبَاتَ فِي النُّفُوسِ.

وأَكْثَرُ الخَلْقِ لا يَعرِفونَ الإثْبَاتَ إلَّا عَلَىٰ مَا يَعلمُونَ من الشَّاهِد، فَيُقْنَعُ مِنهُم بذَلِكَ إلىٰ أَنْ يَفهمُوا التَّنزِيهِ. وَبِهَذا صَحَّح إِسْلامَ مَن اعْتَصمَ مِن القَتْلِ بِالسُّجُودِ.

فأَمَّا إِذَا ابتُدِئَ بالعَامِّيِّ الفَارِغِ من فَهمِ الإثْبَاتِ، فقُلْنَا: لَيسَ فِي السَّمَاء، ولا عَلَىٰ العَرْشِ، ولا يُوصفُ بيَدٍ، وكَلامُه صِفَةٌ قَائمةٌ بِذَاتِه، ولَيْس عِندنَا مِنْهُ شَيْءٌ، ولا يُتصوَّرُ نُزُولُه؛ انْمحَىٰ من قَلبِه تَعظِيمُ المُصحَفِ، ولَمْ يَتحقَّقْ فِي سِرِّه إثْبَاتُ إِلَهٍ.

وهَذِهِ جِنايَةٌ عَظِيمَةٌ عَلَىٰ الأنْبِيَاءِ، تُوجِبُ نَقضَ مَا تَعِبُوا فِي بَيانِه، ولا يَجُوزُ لعَالِمٍ أَنْ يَأتِي إِلىٰ عَقيدةِ عَامِّيٍّ قَدْ أَنِسَ بالإثْبَات فيُهوِّشُها؛ فإِنَّه يُفسِدُه ويُصعِّبُ صَلاحَه.

فأَمَّا العَالِمُ؛ فإِنَّا قَدْ أَمِنَّاهُ؛ لأَنَّهُ لا يَخْفَىٰ عَلَيهِ استِحالَةُ تَجدُّدِ صِفَةٍ للهِ تَعَالَىٰ، وأَنَّهُ لا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ استَوَىٰ كَمَا يعْلَم، ولا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَحمُولًا، ولا أَنْ يُوصَفَ بمُلاصَقةٍ ومَسٍّ، ولا أَنْ يَنتقِلَ.

---

(١) ضعيف: ولا يعرف هذا السياق، إنما جاء هذا الشعر في قصة وقعت لعبد الله بن رواحة مع امرأته، وليس في القصة أن النبي ﷺ اطلع عليها ولا أنه ضحك لذلك، وهي قصة مروية من وجوه مرسلة، وحاصلها: أن عبد الله بن رواحة مشىٰ ليلة إلىٰ أمةٍ له فنالها، فرأته امرأته فلامته، فجحدها، فقالت له: إن كنت صادقًا فاقرأ القرآن؛ فإن الجنب لا يقرأ القرآن، فقال: شهدت بأن وعد الله حق. وأن النار مثوىٰ الكافرينا. وأن العرش فوق الماء طاف. وفوق العرش رب العالمينا. فقالت امرأته: صدق الله وكذبت عيني! وكانت لا تحفظ القرآن.

(٢) حسن: أخرجه أحمد (١٦١٨٧، ١٦٢٠١)، وابن ماجه (١٨١) من حديث أبي رزين العقيلي.

(٣) ضعيف: أخرجه أبو داود (٤٧٢٦) من حديث جبير بن مطعم.

ولا يَخفَىٰ عَلَيهِ أَنَّ المُرَادَ بتَقلِيبِ القُلوبِ بَينَ أَصْبعَينِ الإعْلامُ بالتَّحكُّمِ في القُلُوبِ؛ فَإِن مَا يُديرُهُ الإنْسَانُ بَينَ أَصْبُعَيْهِ هُوَ مُتحكِّمٌ فِيهِ إلىٰ الغَايَةِ، ولا يَحْتَاجُ إلىٰ تَأْوِيلِ مَنْ قَالَ: الإصْبعُ الأَثَرُ الحَسَنُ، فالقُلُوبُ بَينَ أَثَرَينِ من آثَارِ الرُّبُوبيَّةِ، وهما الإقَامَةُ والإزَاغَةُ.

ولا إلىٰ تَأْوِيلِ مَنْ قَالَ: يَداهُ نِعمَتاهُ؛ لأَنَّهُ إِذَا فَهِمَ أَنَّ المَقصُودَ الإثْبَاتُ، وقَد حُدِّثْنَا بِمَا نَعقِلُ، وضُرِبتْ لَنَا الأمثالُ بِمَا نَعلمُ، وقَد ثَبتَ عِندَنا - بالأَصْلِ المَقطُوعِ بِهِ - أَنَّهُ لا يَجُوزُ عَلَيهِ مَا يَعرفهُ الحِسُّ؛ عَلِمْنَا المَقصُودَ بذِكرِ ذَلِكَ.

وأَصْلحُ مَا نَقُولُ للعَوامِّ: أَمِرُّوا هَذِهِ الأَشْيَاءَ كَمَا جَاءتْ، ولا تَتعرَّضُوا لتَأْوِيلِها، وكُلُّ ذَلِكَ يُقْصَدُ بِهِ حِفظُ الإثْبَاتِ، وهَذَا الَّذِي قَصدَه السَّلَفُ؛ كَانَ أَحْمَد رَحِمَهُ اللهُ يمنَعُ من أَنْ يُقَالَ: لَفظِي بالقُرْآن مَخلوقٌ أَوْ غَيْر مَخلُوقٍ. كُلُّ ذَلِكَ لِيحملَ عَلَىٰ الاتِّبَاعِ، وتَبقَىٰ أَلفَاظُ الإثْبَاتِ عَلَىٰ حَالِها.

وأجهلُ النَّاسِ مَنْ جَاءَ إلىٰ مَا قَصدَ النَّبيُّ ﷺ تَعظِيمَه، فأضعَفَ في النُّفُوسِ قَويَّ التَّعظِيمِ؛ قَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**لا تُسافِروا بالقُرْآن إلىٰ أرْضِ العَدوِّ**»[1]؛ يُشِيرُ إلىٰ المُصحَفِ، ومَنَع الشَّافِعيُّ أَنْ يَحمِلَه المُحدِثُ بعلاقَتِه؛ تَعظِيمًا لَهُ؛ فَإذَا جَاءَ مُتحذلِقٌ فَقَالَ: الكَلامُ صِفَةٌ قَائمَةٌ بذَاتِ المُتكلِّمِ، فمَعْنَىٰ قَولُه هَذَا أَنَّ مَا هَاهُنا شَيْءٌ مُحْتَرَمٌ. فهَذَا قَدْ ضَادَّ بِمَا أَتىٰ بِهِ مَقْصُودَ الشَّرْعِ.

ويَنْبغِي أَنْ يُفْهَمَ أوضَاعَ الشَّرْعِ ومَقاصِدَ الأَنْبِيَاءِ عَلَيهِم الصَّلاةُ والسَّلامُ، وقَد مُنِعوا من كَشفِ مَا قَدْ قَنعَ الشَّرْعُ بِسَتْرِهِ؛ فنَهَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الكَلامِ في القَدَرِ[2]،

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٩٩٠)، ومسلم (١٨٦٩) من حديث عبد الله بن عمر.

(٢) حسن: أخرجه الطبراني (١٠/ ١٩٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٠٨) من حديث ابن مسعود، بإسناد حسنه العراقي في «تخريج الإحياء» (١/ ٥٠) وابن حجر في «فتح الباري» (١١/ ٤٧٧)، وله شاهد مرسل، أخرجه عبد الرزاق في «الأمالي» كما في «السلسلة الصحيحة» (٣٤).

ونَهَىٰ عَنْ الاختِلافِ[(١)]؛ لأَنَّ هَذِهِ الأَشْيَاءُ تَخْرُجُ إلىٰ مَا يُؤذِي، فَإِنَّ البَاحِثَ عَن القَدَرِ إِذَا بَلغَ فَهمُهُ إلىٰ أَنْ يَقُولَ: قَضَىٰ وعَاقَب؛ تَزلزَل إيمَانُه بالعَدلِ، وإِنْ قَالَ: لَمْ يُقدِّر ولَمْ يَقضِ؛ تَزلزَلَ إيمَانُه بالقُدْرَة والمُلْكِ؛ فكَانَ الأُوْلَىٰ تَركُ الخَوضِ فِي هَذِهِ الأَشْيَاء.

ولَعلَّ قَائِلًا يَقُولُ: هَذَا مَنْعٌ لَنَا عَن الاطِّلاعِ عَلَىٰ الحَقَائِقِ، وأمرٌ بالوُقُوفِ مع التَّقلِيدِ.

فَأَقُولُ: لا؛ إنَّمَا أعْلَمَك أَنَّ المُرَاد مِنكَ الإِيمَانُ بالجُمَلِ، ومَا أُمِرتَ بالتَّنقِيرِ لمَعْرِفَة الكُنهِ، مع أَنَّ قُوَىٰ فَهمِك تَعْجَزُ عَنْ إدرَاكِ الحَقَائِق.

فَإِنَّ الخَلِيلَ ﷺ قَالَ: أَرِنِي كَيْفَ تُحيِي. فأرَاهُ مَيتًا حَيِيَ، ولَمْ يُرِه كَيْفَ أَحْيَاهُ؛ لأَنَّ قُواهُ تَعجَزُ عَنْ إدرَاكِ ذَلِكَ.

وقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ - وهُوَ الَّذِي بُعثَ ليُبيِّن للنَّاسِ مَا نَزلَ إليْهِم - يَقنَعُ مِنَ النَّاس بنَفسِ الإقْرارِ واعْتِقَادِ الجُمَلِ.

وكَذَلكَ كَانَتِ الصَّحَابَةُ ﷺ؛ فَمَا نُقلَ عَنهُم أَنَّهُمْ تكَلَّمُوا فِي تِلاوةٍ ومَتلُوٍّ، وقِراءةٍ ومَقرُوءٍ، ولا أَنَّهُمْ قَالُوا: اسْتوَىٰ بمَعْنَىٰ اسْتوْلَىٰ، ويَنْزِلُ بمَعْنَىٰ يَرحَم، بَلْ قَنعُوا بإِثْبَات الجُمَلِ الَّتِي تُثبِتُ التَّعظِيمَ عِنْدَ النُّفُوسِ، وكَفُّوا كَفَّ الخَيَال بقَولِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

ثُمَّ هَذَا مُنْكَرٌ ونكيرٌ؛ إنَّمَا يَسْأَلانِ عَنِ الأُصُولِ المُجمَلةِ، فيقُولانِ: مَنْ رَبُّكَ؟ ومَا دِينُك؟ ومَنْ نَبيُّك[(٢)]؟

---

(١) **صحيح**: أخرج البخاري (٢٤١٠) عن ابن مسعود مرفوعًا: «لا تختلفوا؛ فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا».

(٢) **صحيح**: أخرجه الطيالسي (٧٥٣)، وأحمد (١٨٥٥٧)، وقال الهيثمي (٣/ ٥٠): رجاله رجال =

ومَنْ فَهِمَ هَذَا الفَصْل سَلِمَ من تَشبِيهِ المُجسِّمَةِ، وتَعطِيلِ المُعطِّلَةِ، ووَقفَ عَلَىٰ جَادَّةِ السَّلَفِ الأَوَّلِ. واللهُ المُوفِّقُ.

فَصْل

قَرأتُ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٦] **فَلاحَتْ لِي فِيهَا إِشَارةٌ، كِدتُ أَطِيشُ مِنهَا**

وذَلِكَ؛ أَنَّهُ إنْ كَانَ عنىٰ بِالآيةِ نَفْسَ السَّمعِ والبَصرِ؛ فَإِنَّ السَّمْعَ آلَةٌ لإدرَاكِ المَسمُوعاتِ، والبَصرَ آلَةٌ لإدْراكِ المُبصَرَاتِ، فهُمَا يَعرِضانِ ذَلِكَ عَلَىٰ القَلْبِ فيتَدبَّر ويَعتَبِر، فَإِذَا عُرِضتْ المَخلوقَاتُ عَلَىٰ السَّمْعِ والبَصرِ أَوْصَلا إِلىٰ القَلْبِ أَخْبَارَها، من أَنَّها تَدلُّ عَلَىٰ الخَالِق، وتَحمِلُ عَلَىٰ طَاعَة الصَّانِعِ، وتُحذِّرُ من بَطشِهِ عِنْدَ مُخالفَتِه.

وإِنْ عَنَىٰ مَعْنَىٰ السَّمْعِ والبَصرِ؛ فذَلِكَ يَكُونُ بذُهولِهما عَنْ حَقَائِق مَا أَدْرَكا شُغْلًا بالهَوَىٰ، فيُعاقَبُ الإنْسَانُ بسَلبِ مَعانِي تِلْكَ الآلاتِ؛ فيَرَىٰ وكَأنَّه مَا رَأَىٰ، ويَسمَع وكَأنَّه مَا سَمِعَ، والقَلبُ ذَاهِلٌ عمَّا يَتأدَّىٰ بِهِ، فيَبقَىٰ الإنْسَانُ خَاطِئًا عَلَىٰ نَفْسِه،

=

الصحيح. وأبو داود (٤٧٥٣)، وابن خزيمة في «التوحيد» (ص ١١٩)، وابن منده في «الإيمان» (١٠٦٤) وقال: إسناد متصل مشهور رواه جماعة عن البراء وهو ثابت علىٰ رسم الجماعة. والحاكم (١٠٧، ١٠٩، ١١٧) وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين. والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٩٥) وقال: صحيح الإسناد.

لا يَدرِي مَا يُرادُ بِهِ، لا يُؤَثِّرُ عِنْدَه آيَةٌ تُتْلَىٰ، وَلا تَنفعُهُ مَوعظَةٌ تُجْلَىٰ، ولا يَدرِي أَيْنَ هو، ولا مَا المُرَادُ مِنْهُ، ولا إلىٰ أَيْنَ يُحْمَلُ، وإنَّمَا يُلاحظُ بالطَّبْعِ مَصَالِح عَاجِلَتهِ، ولا يَتفكَّرُ فِي خُسرَانِ آجِلَتهِ، لا يَعتَبرُ برَفيقِهِ، ولا يتَّعظُ بصَديقِهِ، ولا يتزَوَّدُ لطَرِيقهِ.

كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

النَّاسُ فِي غَفْلَةٍ وَالمَوْتُ يُوقِظُهُمْ ** وَمَا يُفِيقُونَ حَتَّىٰ يَنْفَدَ العُمُرُ

يُشَيِّعُونَ أَهَالِيهِمْ بِجَمْعِهِمُ ** وَيَنْظُرُونَ إِلَىٰ مَا فِيهِ قَدْ قُبِرُوا

وَيَرْجِعُونَ إِلَىٰ أَحْلَامِ غَفْلَتِهِمْ ** كَأَنَّهُمْ مَا رَأَوْا شَيْئًا وَلا نَظَرُوا

وهَذِهِ حَالَةُ أكثَر النَّاسِ، فنَعُوذُ باللهِ من سَلبِ فَوائِد الآلاتِ؛ فإنَّها أَقْبحُ الحَالاتِ.

فَصْلٌ

نَظرتُ فِيمَا تَكلَّم بِهِ الحُكمَاءُ في العِشقِ وأَسْبَابِه وأَدْوِيَتِه

وصنَّفتُ في ذَلِكَ كِتابًا سَمَّيتُه بـ «ذَمِّ الهَوَىٰ»، وذَكرتُ فِيهِ عَنِ الحُكَمَاء أَنَّهُمْ قَالُوا: سَبَبُ العِشْقِ حَرَكَةُ نَفسٍ فَارِغَةٍ، وأَنَّهُم اخْتَلَفُوا؛ فَقَالَ قَوْمٌ مِنهُم: لا يَعرِضُ العِشْقُ إلَّا لِظرَافِ النَّاسِ. وقَالَ آخَرُونَ: بَلْ لأهْلِ الغَفْلَةِ مِنهُم عَنْ تَأَمُّلِ الحَقَائِقِ.

إلَّا أَنَّهُ خَطرَ لي بَعدَ ذَلِكَ مَعْنًىٰ عَجِيبٌ أَشْرحهُ هَاهُنا، وهُوَ أَنَّهُ لا يتمكَّنُ العِشْقُ إلَّا مع واقِفٍ جَامدٍ؛ فأَمَّا أَرْبَابُ صُعودِ الهِمَم فإنَّها كُلَّمَا تَخايَلتْ مَا تُوجِبُهُ المَحبَّةُ فَلاحَت عُيوبُه لَهَا -إمَّا بالفِكرِ فِيهِ أَوْ بالمُخَالطَة لَهُ- تَسلَّتْ أَنْفُسهم وتَعلَّقتْ بمَطْلُوبٍ آخَر.

فَلا يَقِف عَلَىٰ دَرجَةِ العِشْقِ المُوجِب للتَّمسُّكِ بتِلْكَ الصُّورَةِ، العَامِي عَنْ عُيوبها إِلَّا جَامِدٌ وَاقفٌ. وَأَمَّا أَرْبَابُ الأَنَفَة مِن النَّقائصِ؛ فإنَّهم أبدًا فِي الترقِّي، لا يصدُّهم صَادٌّ، فَإذَا عَلِقتِ الطِّبَاعُ بِمَحبَّةِ شَخْصٍ لَمْ يَبلُغُوا مَرتبَةَ العِشْق المُستأثِر، بَلْ رُبَّمَا مَالُوا مَيلًا شَدِيدًا؛ إِمَّا في البِدايَةِ لِقلَّة التَّفكُّر، أوْ لِقِلَّةِ المُخَالطَةِ والاطِّلاع عَلَىٰ العُيُوبِ، وإِمَّا لتَشَبُّثِ بَعْضِ الخِلَالِ المَحْمُودةِ بالنُّفُوسِ، من جِهَة مُناسَبةٍ وَقعَتْ بَين الشَّخْصين - كالظَّريفِ مع الظَّريفِ، والفَطِنِ مع الفَطِنِ - فيُوجِبُ ذَلِكَ المَحبَّةَ.

فأَمَّا العِشْقُ؛ فَلا؛ فَهُمْ أبَدًا فِي السَّيرِ، فَلا يُوقَفُ، وإبِلُ الطَّبْعِ تَتْبَعُ حَادِيَ الفَهمِ؛ فَإِنَّ للطَّبعِ مُتعلَّقًا لا تَجدهُ في الدُّنْيا، لأنَّهُ يَرومُ مَا لا يَصِحُّ وُجُودُه مِن الكَمالِ فِي الأشْخاصِ، فَإِذَا تَلمَّحَ عُيوبَها نفرَ.

وأمَّا مُتعلَّقُ القُلُوبِ من مَحبَّةِ الخَالِق البَارِئِ؛ فَهُو مَانِعٌ لَهَا من الوُقُوفِ مع سِواهُ، وإِنْ كَانَتْ مَحبَّةً لا تُجانِسُ مَحبَّةَ المَخلُوقِينَ، غَيْرَ أَنَّ أرْبابَ المَعْرِفَة وَلْهَىٰ، قَدْ شَغلَهُم حُبُّه عَنْ حُبِّ غَيرِهِ، وصَارَت الطِّبَاعُ مُستغرِقةً لِقوَّةِ مَعرِفَةِ القُلُوبِ ومَحبَّتِها.

كَمَا قَالَتْ رَابِعةُ:

أُحِـــبُّ حَبِيبًـــا لا أُعَـــابُ بِحُبِّـــهِ ** وَأَحْبَبْـــتُمْ مَـــنْ فِـــي هَـــوَاهُ عُيُـــوبُ

ولَقَدْ رُوِي عَنْ بَعْضِ فُقَرَاءِ الزُّهَّاد؛ أَنَّهُ مَرَّ بامْرأةٍ فأعْجَبَته، فخَطبَها إِلىٰ أَبِيهَا، فزَوَّجَه، وجَاءَ بِهِ إِلىٰ المَنْزِلِ، وألْبَسهُ غَيْرَ خلقَانِهِ، فلَمَّا جَنَّ اللَّيْل صَاحَ الفَقِيرُ: ثِيابِي ثِيابِي، فَقَدْتُ مَا كُنْتُ أَجِدُهُ.

فهَذِهِ عَثْرَةٌ فِي طَرِيق هَذَا الفَقِير، دَلَّتهُ عَلَىٰ أَنَّهُ مُنحَرِفٌ عَن الجَادَّةِ.

وإِنَّمَا تَعتَرِي هَذِهِ الحَالاتُ أَرْبابَ المَعْرِفَةِ باللهِ ﷻ وأَهْلَ الأَنَفةِ من الرَّذائِلِ.

وقَد قَالَ ابنُ مَسعودٍ: «إذا أَعْجَبَتْ أحدَكُم امْرأةٌ فليَتذكَّر مَثانتَهَا».

ومِثالُ هَذِهِ الحَال: أَنَّ العَقْلَ يَغيبُ عِنْدَ استِحلاءِ تَناوُل المُشتَهَىٰ من الطَّعَامِ عَن التَّفكُّر في تَقلُّبِه في الفَمِ وبَلعِه، ويَذهَلُ عِنْدَ الجِماعِ عَنْ مُلاقَاتِ القَاذُوراتِ؛ لِقوَّةِ غَلَبَة الشَهْوَة، ويَنسَىٰ عِنْدَ بَلعِ الرُّضَابِ استِحَالَتهُ عَنِ الغِذاءِ، وفي تَغطِيَةِ تِلْكَ الأحْوَال مَصَالِح.

إلَّا أَنَّ أَرْبَابَ اليَقَظَةِ يَعترِيهِم هَذَا الإحْسَاسُ من غَيْر طَلَبٍ لَهُ فِي غَالِب أحْوالِهِمْ، فينَغِّصُ عَلَيهِم لَذيذَ العَيْشِ، ويُوجِبُ الأَنَفةَ من رَذالَةِ الهَوَىٰ.

وعَلَىٰ قَدرِ النَّظَر فِي العَوَاقِب يخِفُّ العِشْقُ عَنْ قَلب العَاشِق، وعَلَىٰ قَدرِ جُمودِ الذِّهنِ يقْوَىٰ القَلَقُ.

قَالَ المُتنبِّي:

لَـوْ فكَّـرَ العَاشِـقُ فِـي مُنْتَهَـىٰ ** حُـسْنِ الَّـذِي يَـسْبِيهِ لَـمْ يَـسبِهِ

ومَجمُوع مَا أَردتُ شَرحَه: أَنَّ طِباعَ المُتيقِّظِين تَترقَّىٰ، فَلا تَقفُ مع شَخْصٍ مُستحسَنٍ، وسَبَبُ تَرقِّيهَا التَّفكُّر في نَقصِ ذَلِكَ الشَّخْصُ وعُيوبُه، أوْ في طَلَبِ مَا هُوَ أَهَمُّ مِنْهُ، وقُلُوبُ العَارِفينَ تَترقَّىٰ إلىٰ مَعرُوفِها، فتَعبُرُ فِي مَعبرِ الاعْتِبَار.

فأَمَّا أَهْلُ الغَفْلَةِ؛ فجُمودُهم فِي الحَالَتينِ، وغَفلَتُهم عَن المَقامَينِ؛ يُوجِبُ أسْرَهُمْ وقَسْرَهُمْ وحِيرَتَهُمْ.

۞ فَصْل ۞

عَرَضَ لي أمْرٌ يَحْتَاج إلى سُؤالِ اللهِ ﷻ ودُعائِه، فدَعَوْتُ وسَألتُ فَأخذَ بَعْضُ أَهْلِ الخَيْرِ يَدْعُو معي، فرَأيْتُ نَوعًا من أثَرِ الإجَابَة

فَقَالَتْ لي نَفْسِي: هَذَا بسُؤالِ ذَلِكَ العَبْدِ لا بسُؤالِكَ.

فَقُلتُ لَهَا: أمَّا أنَا؛ فَإنِّي أَعْرِفُ من نَفْسِي مِن الذُّنُوبِ والتَّقصِير مَا يُوجِب مَنعَ الجَوَابِ، غَيْرَ أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُون أنَا الَّذِي أُجِبْتُ؛ لأَنَّ هَذَا الدَّاعِي الصَّالِحَ سَليمٌ مِمَّا أَظُنُّه مِن نَفْسِي؛ لأنَّ مَعِيَ انكِسَارَ تَقصِيرِي، ومَعهُ الفَرَحُ بمُعامَلَتِه.

ورُبَّما كَانَ الاعتِرافُ بالتَّقصِيرِ أنْجحُ فِي الحَوَائِجِ، عَلَىٰ أَنَّني أنا وهُوَ نَطلُبُ مِن الفَضْلِ، لا بأعمَالِنا، فإذَا وقَفتُ أنا عَلَىٰ قَدمِ الانكِسارِ مُعترفًا بذُنُوبِي، وقُلْتُ: أَعْطُونِي بفَضلِكم، فَمَا لي في سُؤالِي شَيْءٌ أَمَنُّ بِهِ، ورُبَّما تَلمَّحَ ذَاكَ حُسْنَ عَمَلِه وكَانَ صَادًّا لَهُ؛ فَلا تكسِرِينِي أَيَّتُها النَّفْسُ، فيَكْفِينِي كَسرُ عِلمِي بِي لِي.

ومعي مِنَ العِلْم المُوجِبِ للأدَبِ، والاعْتِرَافِ بالتَّقصِير، وشِدَّةِ الفَقْر إلىٰ مَا سَأَلْتُ، ويَقِينِي بفَضلِ المَطْلُوب عَنْهُ، مَا لَيسَ مع ذَلِكَ العَابِد، فبَارِكَ اللهُ في عِبادَتِه، فرُبَّمَا كَانَ اعْترَافِي بتَقصِيري أَوْفَىٰ.

۞ فصل ۞

قَرأتُ من غَرائبِ العِلْم، وعَجائِبِ الحِكَمِ عَلَى بَعْضِ من يدَّعِي العِلْمَ فرَأيْتُه يتَلوَّى من سَمَاع ذَلِكَ، ولا يطَّلعُ عَلَى غَورِه، ولا يَشرَئِبُّ إلى مَا يَأتِي فصَرفْتُ عَنْ إسمَاعِه شَيئًا آخَرَ، وقُلْتُ: إنَّمَا يَصلُحُ مِثلُ هَذَا لِذِي لُبٍّ يَتلقَّاهُ تلقِّي العَطشَانِ المَاءَ

ثُمَّ أخَذْتُ من هَذِهِ إشَارَةً؛ فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ هَذَا يَفْهَم مَا جرىٰ، ومَدَحَني لحُسْنِ مَا صَنَعتُ، لعِظَم قَدرِه عِندِي، ولأَريتُه مَحاسِنَ مَجمُوعَاتِي وكَلامِي، ولكِنَّهُ لَمَّا لَمْ أَرَهُ لَهَا أَهْلًا؛ صَرفْتُها عَنْهُ، وصَدفْتُ بنَظَرِي إلَيهِ.

وكَانَت الإشَارةُ: أَنَّ اللهَ ﷻ، قَدْ صنَّفَ هَذِهِ المَخلُوقاتِ فأحْسنَ التَّركِيبَ، وأحْكمَ التَّرتِيبَ، ثُمَّ عَرَضها عَلَىٰ الألْبابِ، فأيُّ لُبٍّ أوْغَلَ فِي النَّظَرِ مُدِحَ عَلَىٰ قَدرِ فَهمِهِ، فأحَبَّهُ المُصنِّفُ.

وكَذَلكَ؛ أَنْزَلَ القُرْآنَ، يَحتوِي عَلَىٰ عَجائِبِ الحِكَمِ، فمَنْ فتَّشَهُ بيَدِ الفَهمِ، وحَادَثَهُ فِي خَلوةِ الفِكرِ؛ استَجْلَبَ رِضَىٰ المُتكلِّمَ بِهِ، وحَظِيَ بالزُّلفَىٰ لَدَيهِ، ومَنْ كَانَ للذِّهنِ مُستغرِقَ الفَهمِ بالحِسِّياتِ؛ صُرِفَ عَنْ ذَلِكَ المَقام؛ قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

~~~~~
~~~~~

فَصْلٌ

دَعوْتُ يومًا فقُلْتُ: اللَّهُمَّ بلِّغني آمَالِي من العِلْمِ والعَمَلِ وأَطِلْ عُمرِي؛ لأبَلِّغَ مَا أُحِبُّ من ذَلِكَ

فعَارَضنِي وَسوَاسٌ من إبْلِيسَ فَقَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ أَلَيسَ المَوْتُ؟ فَمَا الَّذِي يَنفعُ طُولُ الحَيَاةِ؟

فقُلتُ لَهُ: يَا أَبْلَه، لَوْ فَهِمتَ مَا تَحْتَ سُؤالِي عَلمتَ أَنَّهُ لَيس بعَبَثٍ، أَلَيسَ فِي كُلِّ يَوْمٍ يَزيدُ عِلمِي ومَعرِفتِي؛ فتكثُر ثِمارُ غَرسِي، فأُشْكَرُ يَوْمَ حَصادِي؟

أفيَسرُّنِي أَنَّنِي مِتُّ مُنذُ عِشرينَ سَنةً؟ لا واللهِ؛ لأَنِّي مَا كُنْتُ أَعْرفُ اللهَ تَعالَىٰ عُشرَ مَعرفتِي بِهِ اليَوْمَ، وكلُّ ذَلِكَ ثَمرةُ الحَيَاةِ الَّتِي فِيهَا اجْتنَيتُ أدِلَّةَ الوَحدَانيَّة، وارْتقيْتُ عَنْ حَضيضِ التَّقلِيدِ إلىٰ يَفَاعِ البَصيرَةِ، واطَّلعتُ عَلَىٰ عُلومٍ زَادَ بِهَا قَدرِي، وتَجَوْهَرَتْ بِهَا نَفْسِي، ثُمَّ زَادَ غَرسِي لآخِرَتِي، وقَويَتْ تِجارتِي فِي إنقَاذِ المُباضِعينَ من المُتعلِّمينَ.

وقَد قَالَ اللهُ لسيِّدِ المُرسلِينَ ﷺ: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤]، وفِي «صَحِيح مُسلِمٍ» من حَدِيث أبي هُريرَةَ رضي الله عنه عَن النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**لا يَزيدُ المُؤمِنَ عُمُرُهُ إِلَّا خَيرًا**»(١)، وفي حَدِيث جَابرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُول اللهِ ﷺ: «**إنَّ من السَّعادَةِ أَنْ يَطولَ عُمُرُ العَبْد ويرْزقَه اللهُ عز وجل الإنَابةَ**»(٢).

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٨٢).

(٢) حسن: أخرجه أحمد (١٤٥٦٤)، وعبد بن حميد (١١٥٥)، والحاكم (٧٦٠٢) وقال: صحيح الإسناد. وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤/ ٢٠٦): «إسناده حسن». وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٣٧): «إسناده جيد»، وقال أيضًا: (١٠/ ٢٠٦): «إسناده حسن».

فَيَا لَيتَني قَدَرْتُ عَلَىٰ عُمُرِ نُوحٍ عليه السلام؛ فَإِنَّ العِلْم كَثِيرٌ، وكُلَّمَا حصلَ مِنْهُ حَاصلٌ نَفعَ ورَفعَ.

فَصْل

قُلوبُ العَارِفين يُغارُ عَليْهَا من الأَسْبَاب وإنْ كَانَتْ لَا تُساكِنُهَا

لأنَّهَا لَمَّا انفرَدَت بِمَعرِفتِها انفرَدَ لَهَا بتولِّي أمُورِهَا، فَإِذَا تعرَّضتَ بالأسْبَاب مَحَا أثَرَ الأسْبَابِ، ﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ [التوبة: ٢٥].

وتَأمَّلْ في حَالِ يَعقوبَ وحَذَرِه عَلَىٰ يُوسُفَ عليهما السلام، حتَّىٰ قَالَ: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾ [يوسف: ١٣] فَقَالُوا: ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ﴾ [يوسف:١٧]، فلَمَّا جَاءَ أَوَانُ الفَرَجِ خَرَجَ يَهوذَا بالقَميصِ فَسبَقَهُ الرِّيحُ ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ﴾ [يوسف: ٩٤].

وكَذَلكَ؛ قَوْلُ يُوسُفَ عليه السلام للسَّاقِي: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]، فعُوقِب بأنْ لَبثَ سَبعَ سِنينَ، وإنْ كَانَ يُوسُفُ عليه السلام يعلَم أَنَّهُ لا خَلاصَ إِلَّا بإذنِ اللهِ، وأَنَّ التَّعرُّض بالأَسْبَابِ مَشروعٌ، غَيْرَ أَنَّ الغيرَة أثَّرتْ في العُقُوبَةِ.

ومن هَذَا: قِصَّة مَريَم عَليهَا السَّلامُ: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ﴾ [آل عمران: ٣٧]، فغَارَ المُسَبِّبُ من مُساكَنةِ الأَسْبَابِ: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ﴾ [آل عمران: ٣٧].

ومن هَذَا القَبيلُ: مَا يُروىٰ عَنِ النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**أَبَىٰ اللهُ أَنْ يَرْزُق عَبْدَهُ المُؤمِنَ إلَّا مِن حَيثُ لا يَحتسِبُ**»(١).

---

(١) موضوع: أخرجه من حديث علي بن أبي طالب: القضاعي في «مسند الشهاب» (٥٨٥)، والديلمي (١٧١٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١١٩٧) وقال: ضعيف بمرة. وابن حبان =

وللأَسْبَابِ طَرِيقٌ، ولا بُدَّ من سُلوكِها، والعَارِفُ لا يُساكِنها، غَيْرَ أَنَّهُ يُجَلَّىٰ لَهُ مِن أَمْرِها مَا لا يُجَلَّىٰ لغَيرِه من أَنَّهَا لا تُساكَنُ، ورُبَّما عُوقِبَ إنْ مَالَ إلَيهَا، وإنْ كَانَ مَيلُهُ لا يَقبلُه، غَيْرَ أَنَّ أَقَلَّ الهَفَوَاتِ يُوجِبُ الأَدَبَ.

وتَأَمَّل عُقبَىٰ سُليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا قَالَ: «لأَطُوفنَّ اللَّيْلَةَ عَلَىٰ مِائةِ امْرأةٍ؛ تَلدُ كُلُّ وَاحدَةٍ مِنهنَّ غُلامًا ولَمْ يقُلْ: إنْ شَاءَ اللهُ، فَمَا حَملَت إلَّا وَاحدَةٌ، جَاءتْ بشِقِّ غُلامٍ»[1].

ولَقَدْ طَرقَتنِي حَالَةٌ أَوْجَبَتِ التَّشبُّثَ ببَعضِ الأَسْبَابِ، إلَّا أَنَّهُ كَانَ من ضَرورَةِ ذَلِكَ لِقاءُ بَعْضِ الظَّلَمَةِ، ومُدارَاتُهُ بكَلِمَةٍ، فَبَيْنَا أَنَا أُفكِّر في تِلْكَ الحَالِ؛ دَخلَ عَليَّ قَارئٌ فاسْتَفْتَحَ، فتفَاءَلْتُ بِمَا يَقرَأُ، فقرأَ: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٣]. فبُهِتُّ مِن إجَابتِي عَلَىٰ خَاطِرِي، وقلتُ لنَفْسِي: اسمَعِي؛ فإنَّنِي طَلبتُ النَّصرَ في هَذِهِ المُدارَاةِ، فأَعْلَمَنِي القُرْآنُ أَنَّنِي إِذَا رَكَنتُ إلىٰ ظَالمٍ فاتَنِي مَا رَكَنْتُ لأَجْلِهِ من النَّصرِ.

فيَا طُوبَىٰ لمَنْ عَرفَ المسَبِّبَ وتعلَّقَ بِهِ؛ فإنَّها الغَايَةُ القُصوَىٰ، فنَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَرزُقنَا.

=

في «المجروحين» (١/ ١٤٧) وقال: موضوع. وابن عبد البر في «التمهيد» (٢١/ ٢١) وقال: حديث غريب من حديث مالك وهو حديث حسن ولكنه منكر عندهم عن مالك ولا يصح عنه ولا له أصل في حديثه. وأورده ابن الجوزي في «الموضوعات» (٢/ ١٥٣). وروي من حديث أبي هريرة. ذكره السيوطي في «اللآلىء المصنوعة» (٢/ ٦٠) وعزاه للحاكم في «تاريخه» وقال الحاكم: هذا حديث غريب الإسناد والمتن. قلت: وقول ابن عبد البر: «حسن» إنما أراد حسن اللفظ لا الحسن بمعناه الاصطلاحي، وبقية كلامه يدل علىٰ ذلك، ولهذا نظائر في استعمال ابن عبد البر، كما ذكر علماء المصطلح، وقد ذكرت في غير هذا الموضع غير مثال من كلام ابن عبد البر وكلام غيره. وبالله التوفيق.

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٩٤٤)، ومسلم (١٦٥٤) من حديث أبي هريرة.

فَصْل

المُؤمِنُ لا يُبالِغُ فِي الذُّنُوبِ
وإنَّمَا يَقْوَى الهَوَى، وتَتوقَّدُ نِيرانُ الشَّهْوةِ؛ فيَنحدِرُ

ولَهُ مُرَادٌ لا يَعزمُ المُؤمِنُ عَلَىٰ مُواقعتِه، ولا عَلَىٰ العَودِ بَعدَ فَراغِه، ولا يَستقصِي فِي الانتِقَامِ إنْ غَضبَ، ويَنوِي التَّوْبَةَ قَبلَ الزَّلَلِ.

وتأمَّل إخْوةَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فَإِنَّهُم عَزمُوا عَلَىٰ التَّوْبَةِ قَبلَ إبْعادِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالُوا: ﴿ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ ﴾، ثُمَّ زاد ذَلِكَ تَعظِيمًا فقَالُوا: ﴿ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضًا ﴾، ثُمَّ عَزمُوا عَلَىٰ الإنَابةِ فقَالُوا: ﴿ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمًا صَٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: ٩]، فلَمَّا خَرجُوا بِهِ إلَىٰ الصَّحراءِ هَمُّوا بقتلِهِ بمُقتضَىٰ مَا فِي القُلُوبِ من الحَسدِ، فَقَالَ كَبيرُهم: ﴿ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ ﴾ [يوسف: ١٠] ولَمْ يُرِد أَنْ يَموتَ، بَلْ يَلتقطُهُ بَعْضُ السَّيارةِ، فأَجَابُوا إلىٰ ذَلِكَ.

والسَّبَبُ في هَذِهِ الأَحْوَال: أَنَّ الإيمَانَ [فِي قَمعِ النُّفُوس يَكُونُ] عَلَىٰ حَسبِ قُوَّتِه؛ فتَارةً يَردُّها عِنْدَ الهَمِّ، وتَارةً يَضعُف فيَردَّها عِنْدَ العَزمِ، وتَارةً عِنْدَ بَعْضِ الفِعلِ، فَإذَا غَلَبتِ الغَفْلَةُ، وَواقَع الذَّنبَ فترَ الطَّبْعُ، فنَهَضَ الإيمَانُ للعَدْلِ، فتَنَغَّصَ بالنَّدمِ أَضْعافَ مَا الْتذَّ.

❁ فَصل ❁

أفْضَلُ الأَشْيَاءِ التَّزيُّدُ من العِلْمِ

فإِنَّه مَنِ اقتَصرَ عَلَىٰ مَا يَعلمُهُ وظَنَّه كَافِيًا استبَدَّ برأْيِه، وصَارَ تَعظِيمُهُ لنَفْسِه مَانِعًا لَهُ مِن الاستِفادَةِ، والمُذاكَرةُ تُبيِّنُ لَهُ خَطَأَهُ، ورُبَّما كَانَ مُعظَّمًا فِي النُّفُوسِ فَلَمْ يُتجَاسَرْ عَلَىٰ الرَّدِّ عَلَيهِ، ولَوْ أَنَّهُ أَظْهرَ الاستِفادَةَ لأُهدِيَتْ إِلَيْهِ مَساوِيهِ، فعَادَ عَنهَا.

ولَقَدْ حَكَىٰ ابنُ عَقِيلٍ عَنْ أَبِي المَعَالِي الجُوَيْنِيِّ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَعلمُ جُمَلَ الأَشْيَاءِ ولا يَعلَمُ التَّفَاصِيلَ»!

ولا أدْرِي؛ أيُّ شُبهَةٍ وَقعَت فِي وَجْهِ هَذَا المِسكِين حَتَّىٰ قَالَ هَذَا!

وكَذَلكَ؛ أَبُو حَامِدٍ حِينَ قَالَ: «النُّزُول التَّنقُّل، وَالاستِواءُ مُمَاسَّة».

فكَيفَ أَصِفُ هَذَا بالفِقهِ وَالزُّهْدِ؛ وهُوَ لا يَدرِي مَا يَجُوزُ عَلَىٰ اللهِ مِمَّا لا يَجُوزُ، ولَوْ أَنَّهُ تَركَ تَعظِيمَ نَفْسِه لرَدَّ صِبيَانُ الكُتَّابِ رَأيه عَلَيهِ، فبَانَ لَهُ صِدقُهم.

ومن هَذَا الفَنِّ: أَبُو بَكر بْنُ مِقْسَم؛ فإِنَّه عَمِلَ كِتابَ «الاحتِجاجِ للقُرَّاءِ» فأتَىٰ فِيهِ بفَوائِدَ، إلَّا أَنَّهُ أفْسَدَ عِلْمَه بإِجازَتهِ أَنْ يُقرَأَ بِمَا لَمْ يُقْرَأْ بِهِ، ثُمَّ تَفاقَمَ ذَلِكَ مِنْهُ، حَتَّىٰ أَجازَ مَا يُفسِدُ المَعنَىٰ، مِثلَ قَولِه تَعالَىٰ: ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ﴾ [يوسف: ٨٠] فقَالَ: «يَصْلُحُ أَنْ يُقَالَ هاهُنَا: ﴿ نَجِيًّا ﴾ أَيْ خَلَصُوا كِرامًا بُرآءَ مِن السَّرقَةِ».

وهَذَا سُوءُ فَهمٍ للقِصَّة؛ فَإِنَّ الَّذِي نُسبَ إِلىٰ السَّرقَةِ وظَهرَتْ مَعهُ مَا خَلص، فَمَا الَّذِي يَنفَع خَلاصُهُم؟! وإِنَّمَا سِيقَت القِصَّةُ لِيُبيِّنَ أَنَّهُم انفَردُوا يَتَشاوَرُونَ فِيمَا يصْنَعونَ، وكَيفَ يَرجِعونَ إِلَىٰ أَبِيهِم وقَدِ احتُبِسَ أَخُوهُم، فأيُّ وَجْهٍ للنَّجاةِ هَا هُنَا؟!

ومَنْ تأمَّل كِتابَه رَأىٰ فِيهِ من هَذَا الجِنْسِ مَا يَزيدُ عَلَىٰ الإحْصَاءِ مِنْ هَذَا الفَنِّ القَبيحِ، ولَوْ أَنَّهُ أَصْغَىٰ إلىٰ عُلماءِ وَقْتِه، وتَركَ تَعظِيمَ نَفْسِه؛ لبَانَ لَهُ الصَّوابُ، غَيْرَ أَنَّ اقتِصارَ الرَّجُلِ عَلَىٰ عِلمِه إِذَا مَازَجهُ نَوعُ رُؤْيَةٍ للنَّفْسِ حُبِسَ عَنْ إدراكِ الصَّوابِ، نَعُوذُ باللهِ مِن ذَلِكَ.

۞ فَصْل ۞

تَأمَّلتُ قَولَه ﷻ: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الحجرات:١٧]

فرَأيْت فِيهِ مَعْنًىٰ عَجِيبًا، وهُوَ أَنَّهُمْ لَمَّا وُهبَت لَهُم العُقُولُ، فتدبَّرُوا بِهَا عَيبَ الأَصْنامِ، وعَلِمُوا أَنَّهَا لا تَصلُح للعِبادَة، فوَجَّهُوا العِبادَةَ إِلَىٰ مَن فَطَرَ الأَشْيَاءَ؛ كَانَتْ هَذِهِ المَعْرِفَةُ ثَمرةَ العَقْلِ المَوهُوب الَّذِي بِهِ بَايَنوا البَهائِمَ، فَإِذَا آمَنُوا بِفِعلِهم الَّذِي نَدَبَ إِلَيْهِ العَقْلُ المَوهُوبُ فَقدْ جَهِلُوا قَدرَ المَوهُوبِ، وغَفلُوا عمَّنْ وَهَبَ، وَأَيُّ شَيْءٍ لَهُم فِي الثَّمرَةِ والشَّجرَةُ لَيسَتْ مِلكًا لَهُم؟!

فعَلَىٰ هَذَا؛ كُلُّ مُتَعَبِّدٍ ومُجتهدٍ فِي عِلمٍ وَعَملٍ إنَّمَا رَأىٰ بنُورِ اليَقَظَةِ وقُوَّةِ الفَهمِ والعَقْلِ صَوابَ مَا سَلَكَ، فوَقعَ عَلَىٰ المَطْلُوبِ، فيَنْبَغِي أَنْ يُوجِّهَ الشُّكرَ إلىٰ مَن بَعثَ لَهُ فِي ظَلامِ الطَّبْعِ القَبَسَ.

ومن هَذَا الفَنِّ: حَدِيثُ الثَّلاثَةِ الَّذِينَ دَخلُوا الغَارَ، فانْحطَّتْ عَلَيهِم صَخرةٌ، فسَدَّت بَابَ الغَارِ، فَقَالُوا: تَعالَوا نَتوسَّلُ بصَالِح أَعْمالِنَا، فَقَالَ كُلٌّ مِنهُم: فَعلتُ كَذَا وكَذَا[1].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٢١٥)، ومسلم (٢٧٤٣) من حديث ابن عمر.

وهؤُلاءِ؛ إنْ كَانُوا لاحَظُوا نِعمَةَ الوَاهِبِ للعِصمَةِ عَنِ الخَطَإ، فتوسَّلُوا بإنعَامِه عَلَيهِم الَّذِي أَوْجَبَ تخصيصَهم بتِلْكَ النِّعمَة عَنْ أبْنَاءِ جِنْسِهِمْ، فبهِ توسَّلُوا إلَيْهِ، وإنْ كَانُوا لاحَظُوا أفعالَهم، فلَمحُوا جَزاءَها؛ ظَنًّا مِنهُم أنَّهُمْ هُم الَّذِينَ فَعلُوا؛ فَهُم أَهْلُ غَيبَةٍ لا حُضورٍ، ويَكونُ جَوابُ مَسأَلَتِهم لقَطعِ مِنَّتِهِمُ الدَّائِمَةِ.

ومِثلَ هَذَا: رُؤيَة المُتَّقِي تقوَاهُ، حَتَّىٰ إنَّهُ يَرَىٰ أنَّهُ أفْضَلُ مِن كَثِيرٍ مِنَ الخَلْقِ، ورُبَّما احتَقرَ أَهْلَ المَعاصِي وتَشَمْخَرَ[1] عَلَيهِم.

وهَذِهِ غَفْلَةٌ فِي طَرِيقِ السُّلُوك، رُبَّما أَخْرَجَتْ، لا أقُولُ لَكَ: خَالِط الفُسَّاقَ احْتِقارًا لنَفْسكَ، بَلِ اغضَبْ عَلَيهِم، وَأعرِضْ عَنْهُم فِي الظَّاهِر، وَتَلمَّح جَريان الأقْدَارِ عَلَيهِم فِي البَاطِنِ.

فأكْثَرُهم لا يَعرِف لِمَن عَصَىٰ، وجُمْهُورُهم لا يقْصِدُ العِصْيَانَ، بَلْ يُرِيدُ مُوافقَةَ هَوَاهُ، وعَزِيزٌ عَلَيهِ أَنْ يَعصِي، وفِيهِم من غَلبَ عَلَيهِ تَلمُّح العَفْو والحِلْم، فاحْتَقرَ مَا يَأتِي؛ لِقوَّةِ يَقينِه بالعَفوِ، وهَذِهِ كُلُّها لَيسَتْ باعتِذارٍ لَهُمْ، ولَكِنْ تَلمَّحْها أنتَ يَا صَاحِبَ التَّقوىٰ، واعْلَمْ أَنَّ الحُجَّةَ عَلَيْك أَوْفَىٰ مِن الحُجَّة عَلَيهِم؛ لأَنَّكَ تَعرِفُ مَن تَعصِي، وتَعلَمُ مَا تَأتِي.

بلِ انْظُرْ إلىٰ تَقَلُّبِ القُلُوبِ بين إصْبَعَين[2]، فرُبَّمَا دَارَتِ الدَّائِرَةُ فصِرتَ المُنقَطِعَ، وَوُصِلَ المَقطُوع.

فالعَجبُ مِمَّنْ يُدِلُّ بخَيرٍ يَعْمَلُهُ، وينْسَىٰ مَن أنْعَمَ ووفَّقَ.

---

(١) أي: تكبر.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو.

۞ فَصْلٌ ۞

اعْلَمْ أَنَّ شَرعَنَا مَضبُوطُ الأُصُولِ، مَحروسُ القَوَاعِدِ، لا خَلَلَ فِيهِ ولا دَخَل وكَذَلكَ كُلُّ الشَّرَائِع، إنَّمَا الآفَةُ تَدخُلُ مِنَ المُبتدِعِينَ فِي الدِّينِ أوِ الجُهَّالِ

مِثْلَ مَا أُثِر عِنْدَ النَّصارَىٰ، حِينَ رَأَوْا إحْيَاءَ المَوْتىٰ عَلَىٰ يَدِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فتأمَّلُوا الفِعْلَ الخَارِقَ للعَادَةِ، الَّذِي لا يَصلُحُ للبَشرِ، فنَسبُوا الفَاعِلَ إلىٰ الإِلَهيَّةِ، ولَوْ تأمَّلُوا ذَاتَه لعَلِمُوا أَنَّهَا مُرَكَّبةٌ عَلَىٰ النَّقَائِص والحَاجَاتِ، وهَذَا القَدرُ يَكْفِي في عَدَم صَلاحِ إلَهيَّتِه، فيُعلَمُ حِينئذٍ أَنَّ مَا جَرَىٰ عَلَىٰ يَدَيْه فِعلُ غَيرِه.

وقَد يُؤثِّرُ ذَلِكَ في الفُرُوعِ، مِثلَ مَا رُوِيَ أَنَّهُ فُرِضَ عَلَىٰ النَّصَارَىٰ صَومُ شَهرٍ، فزَادُوا عِشرِينَ يَومًا، ثُمَّ جَعَلُوه فِي فَصْلٍ مِن السَّنةِ بآرَائِهم.

ومن هَذَا الجِنسِ: تَخبِيطُ اليَهُود فِي الأُصُولِ والفُرُوعِ.

وقَد قَارَب الضُّلَّالُ فِي أمَّتِنا هَذِهِ المَسَالِك، وإن كَانَ عُمُومُهمْ قَدْ حُفِظ مِن الشِّركِ والشَّكِّ والخِلافِ الظَّاهِر الشَّنِيع؛ لأَنَّهُم أَعْقَلُ الأُمَمِ وأَفْهَمُهَا، غَيرَ أَنَّ الشَّيْطَانَ قَارَبَ بِهِمْ، ولَمْ يَطمَع فِي إغْرَاقِهِمْ، وإنْ كَانَ قَدْ أَغْرَقَ بَعضَهم فِي بِحارِ الضَّلالِ.

فمِنْ ذَلِكَ: أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ جاءَ بكِتابٍ عَزيزٍ من اللهِ ﷻ، قِيلَ في صِفَتهِ: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وبيَّن مَا عَساهُ يُشْكِلُ مِمَّا يحتَاجُ إلىٰ بيانِهِ بسُنَّتِهِ، كَمَا قِيلَ لَهُ: ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤]، فقَالَ بَعدَ البَيَانِ: «**تركتُكُم عَلَىٰ بَيضَاءَ نَقِيَّةٍ**»(١)، فجَاءَ أَقْوَامٌ فَلَمْ يقْنَعُوا بتَبيينِه، ولَمْ يرْضَوْا بطَرِيقَةِ

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (١٥١٥٦) من حديث جابر، وإسناده ضعيف، لكن معناه في حديث العرباض بن سارية مرفوعًا: «**أوصيكم بتقوىٰ الله والسمع والطاعة... الحديث**» وفي بعض ألفاظه: «تركتكم علىٰ البيضاء ليلها كنهارها» أخرجه أحمد (١٧١٨٤)، وأبو داود (٤٦٠٧)، =

أَصْحَابِهِ، فبَحثُوا، ثُمَّ انقَسَمُوا:

فمِنْهُم من تَعرَّضَ لِمَا تَعِبَ الشَّرْعُ في إثْبَاته فِي القُلُوب، فمَحاهُ مِنهَا؛ فَإِنَّ القُرْآنَ والحَدِيثَ يُثبتانِ الإِلَه ﷻ بأوْصافٍ تَقرَّرَ وجُودهُ فِي النُّفُوسِ؛ كقَولِه تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقَوْلِه تَعَالَىٰ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]، وقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩]، وقَولِ النَّبِيِّ ﷺ: «**يَنزِلُ اللهُ إلىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا**»(١)، و«**يَبسُطُ يَدَه لمُسِيءِ اللَّيْلِ والنَّهارِ**»(٢)، و«**يَضحَكُ**» و«**يَغضَبُ**».

وكُلُّ هَذِهِ الأَشْيَاءُ -وإِنْ كَانَ ظَاهِرُها يُوجِب تَخايُل التَّشبِيهِ- فالمُرَاد مِنهَا إثْبَات مَوجُودٍ، فَلَمَّا عَلمَ الشَّرْع مَا يَطرُقُ القُلُوبَ مِن التَّوهُّماتِ عِنْدَ سَماعِها، قَطعَ ذَلِكَ بقَولِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١](٣).

ثُمَّ إنَّ هَؤُلاءِ القَومِ عَادُوا إلىٰ القُرْآنِ الَّذِي هُوَ المُعجِزُ الأكبَرُ، وقَد قَصدَ الشَّرْعُ تَقرِيرَ وجُودِه، فَقَالَ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [القدر: ١]، ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ [القلم: ٤٤]، ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ٩٢]،

=

والترمذي (٢٦٧٦) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (٤٢)، والحاكم (٣٢٩) وقال: صحيح ليس له علة. والبيهقي (٢٠١٢٥). وابن حبان (٥)، والدارمي (٩٥).

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (١١٤٥، ٦٣٢١، ٧٤٩٤)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة. وهو متواتر، روي عن عدد كثير من الصحابة.

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (١٩٦٣٢)، ومسلم (٢٧٥٩)، وعبد بن حميد (٥٦٢)، وابن حبان (٢٦٦) من حديث أبي موسىٰ.

(٣) نصوص الصفات في القرآن والسنة، ظاهرها مقصود ومطلوب في إثبات هذه الصفات وما يترتب عليها من أحكام؛ لا مجرد إثبات وجود الله تعالىٰ، وصفاته لا تقتضي التشبيه؛ جل ثناؤه وتقدست أسماؤه.

وأثبته فِي القُلُوبِ بقَوْلِه تَعَالَىٰ: ﴿ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، وفِي المَصاحِفِ بقَوْلِه تَعَالَىٰ: ﴿ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج: ٢٢]، وقولِ الرَّسُولِ ﷺ: «**لا تُسافِروا بالقُرْآن إلىٰ أرضِ العَدوِّ**»[1].

فَقَالَ قَوْمٌ من هَؤُلاءِ: هُو مَخلوقٌ. فأسقَطُوا حُرمَتَه منَ النُّفُوسِ، وقَالُوا: لَمْ يَنزِلْ ولا يُتصوَّرُ نزُولُهُ، وكَيفَ تَنفَصْلُ الصِّفَةُ عَن المَوصُوفِ، ولَيْسَ فِي المُصحَفِ إلَّا حِبرٌ ووَرقٌ! فعَادُوا عَلَىٰ مَا تَعبَ الشَّارِعُ في إثْبَاتِهِ بالمَحوِ.

كَمَا قَالُوا: إنَّ اللهَ ﷻ لَيسَ فِي السَّمَاءِ، ولا يُقَالُ: استَوَىٰ عَلَىٰ العَرْشِ، ولا يُقَالُ: يَنزِلُ إلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، بَلْ ذَاكَ رَحمَتُهُ! فمَحَوْا مِن القُلُوبِ مَا أُرِيدَ إثْبَاتهُ فِيهَا، ولَيْسَ هَذَا مُرَادَ الشَّارِعِ.

وجَاءَ آخَرُونَ؛ فَلم يقِفُوا عَلَىٰ مَا حَدَّه الشَّرْعُ، بَلْ عَمِلُوا فِيهِ بآرَائِهم، فَقَالُوا: اللهُ عَلَىٰ العَرْش، ولَمْ يقْنَعُوا بقَولِهِ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ودَفَنَ لَهُم أقْوَامٌ مِن سَلَفِهِم دفائِنَ، وَوَضعَتْ لَهُم المَلاحِدَةُ أحَادِيثَ؛ فَلم يَعلَمُوا مَا يَجُوزُ عَلَيهِ مِمَّا لا يَجُوزُ، فأثْبَتُوا بِهَا صِفاتٍ، جُمْهُورُ الصَّحِيحِ مِنهَا آتٍ عَلَىٰ توسُّعِ العَرَبِ، فأخَذُوهُ هُم عَلَىٰ الظَّاهِرِ، فكَانُوا فِي ضَربِ المَثلِ كجُحَا؛ فَإنَّ أمَّهُ قَالَتْ لَهُ: احفَظِ البَابَ، فقَلعَه ومَشَىٰ بِهِ، فأُخِذَ مَا في الدَّارِ، فَلامَتْهُ أمُّه، فَقَالَ: إنَّمَا قُلْتِ: احْفَظِ البَابَ، ومَا قُلْتِ: احْفظِ الدَّارَ!!

ولَمَّا تَخايَلُوا صُورَةً عَظيمَةً عَلَىٰ العَرْشِ، أخَذُوا يتَأوَّلُونَ مَا يُنافِي وجُودَها عَلَىٰ العَرْشِ:

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٩٩٠)، ومسلم (١٨٦٩) من حديث عبد الله بن عمر.

مِثلَ قَولِه: «ومنْ أَتَانِي يَمشِي أَتيتُه هَرْولَةً»(١)، فَقَالُوا: لَيسَ المُرَادُ بِهِ دُنُوَّ الاقْتِرَابِ، وإنَّمَا المُرَادُ قُربُ المَنْزِلِ والحَظِّ.

وقَالُوا في قَولِهِ تَعالَىٰ: ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ﴾ [البقرة:٢١٠]: هُوَ مَحمُولٌ عَلَىٰ ظَاهِرِها فِي مَجِيءِ الذَّاتِ.

فهُمْ يُحلُّونَه عَامًا ويُحرِّمُونَه عَامًا.

ويُسمُّونَ الإضَافَاتِ إلىٰ اللهِ تَعَالَىٰ صِفاتٍ؛ فإنَّه قَدْ أَضَافَ إِلَيْهِ النَّفخَ والرُّوحَ، وأثبَتُوا خَلقَه باليَدِ، فلَوْ قَالُوا: خَلقَهُ؛ لَمْ يُمكِنْ إِنْكَارُ هَذَا، بَلْ قَالُوا: هي صِفَة تَولَّىٰ بِهَا خَلقَ آدَمَ دُونَ غَيْرِه، وإلَّا فَأَيُّ مَزيَّةٍ كَانَتْ تكُونُ لآدَمَ؟!

فشَغلَهُم النَّظَرُ في فَضِيلَةِ آدَمَ عَنِ النَّظَرِ إلىٰ مَا هُوَ يَلِيقُ بالحَقِّ مِمَّا لا يَلِيقُ بِهِ؛ فإنَّه لا يَجُوزُ عَلَيهِ المَسُّ، ولا العَمَلُ بالآلاتِ، وإنَّمَا آدم أَضَافَه إلَيْهِ.

فَقَالُوا: نُطلِقُ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ اسمَ الصُّورَةِ؛ لقَوْلِه: «خَلقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِه». وفَهِمُوا هَذَا الحَدِيثَ، وهُوَ قَولُه ﷺ: «**إذَا ضَرَبَ أحدُكُم فليَجتَنِبِ الوَجْهَ، ولا يَقُل قَبَّحَ اللهُ وجْهَك، ولا وَجهًا أَشْبهَ وجْهكَ؛ فَإِنَّ اللهَ خَلقَ آدمَ عَلَىٰ صُورَتِه**»(٢).

فلَوْ كَانَ المُرَادُ بِهِ اللهُ ﷻ لكَانَ وَجْهُ اللهِ سُبْحَانَه يُشبِه وَجْهَ هَذَا المُخَاصِمِ؛ لأَنَّ الحَدِيثَ كذا جَاءَ «**ولا وَجهًا أَشْبَهَ وَجهَكَ**».

ورَوَوْا حَدِيثَ خَولَة بِنتَ حَكيمٍ: «**وإنَّ آخِرَ وَطئَةٍ وَطِئَهَا اللهُ بِوَجٍّ**»(٣)، ومَا

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة.

(٢) **حسن**: أخرجه أحمد (٧٤٢٠)، والبخاري في «الأدب» (١٧٢) من حديث أبي هريرة. وأخرجه البخاري في «الصحيح» (٢٥٥٩، ٦٢٢٧) ومسلم (٢٦١٢، ٢٨٤١) مختصرًا.

(٣) **ضعيف**: أخرجه أحمد (٢٧٣١٤)، والترمذي (١٩١٠)، وفي إسناده انقطاع وجهالة، وروي عن يعلىٰ العامري، أخرجه أحمد (١٧٧٠٥)، وابن ماجه (٣٦٦٦) وفي إسناده ضعف.

=

عَلمُوا النَّقْلَ ولا السِّيَرَ، وقولَ الرَّسُولِ ﷺ: «**اللَّهُمَّ اشدُدْ وَطأَتَكَ عَلَىٰ مُضرَ**»(١)، وأنَّ المُرَادَ بِهِ آخِرَ وَقعةٍ قَاتَل فِيهَا المُسْلِمُون بوَجٍّ -وهي غَزاةُ حُنينٍ- فَقَالُوا: «نَحمِلُ الخَبرَ عَلَىٰ ظَاهِرِهِ، وأَنَّ اللهَ وَطِئ ذَلِكَ المَكانَ». ولا شَكَّ أَنَّ عِنْدَهُم أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ كَانَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ صَعدَ إلىٰ السَّمَاءِ!!

وكَذَلِكَ قَالُوا في قَولِهِ ﷺ: «**إنَّ اللهَ لا يَملُّ حَتَّىٰ تَملُّوا**»(٢) قَالُوا: يَجُوزُ أَنْ يُوصَفَ بالمَللِ، فجَهِلُوا اللُّغةَ، ومَا عَلمُوا أَنَّهُ لَوْ كَانَتْ «حَتَّىٰ» هَاهُنا للغَايَةِ لَمْ تَكُنْ بمَدحٍ؛ لأَنَّهُ إِذَا مَلَّ حِينَ يمَلُّ، فأيُّ مَدحٍ؟! وإنَّمَا هُوَ كقَولِ الشَّاعِرِ:

جَلَبَتْ مِنِّي هُذَيلٌ بِخَرقٍ ** لا يَمَلُّ الشَّرَّ حَتَّىٰ يَمَلُّوا

والمَعنَىٰ: لا يَملُّ وإنْ مَلُّوا.

وقَالُوا في قَولِهِ ﷺ: «**الرَّحِمُ شُجْنةٌ مِن الرَّحْمَن تَتَعَلَّقُ بِحَقْوَيِ الرَّحْمَنِ**» فَقَالُوا: «**الحِقْوُ صِفَةُ ذَاتٍ**».

وذَكرُوا أَحَادِيثَ، لَوْ رُوِيتْ فِي نَقضِ الوُضوءِ مَا قُبلَتْ، وعُمُومُهَا وَضعَتْهُ المَلاحِدَةُ:

=

والحديثان أطول من ذلك، وهما عند غير أحمد ليس فيهما هذا القدر، فهي في الحديثين زيادة منكرة، وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية إلىٰ ضعفه - كما في «مجموع الفتاوىٰ» (٢٧/ ١٥) - وحكىٰ عن الإمام أحمد أنه ضعفه. وقد أخرج البيهقي في «الأسماء والصفات» (٩٦٧) من طريق عثمان الدارمي: سمعت علي ابن المديني يقول في حديث خولة عن النبي ﷺ: إن آخر وطأة بوج، قال سفيان فسره، فقال: إنما هو آخر خيل الله بوج.

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٨٠٤، ١٠٠٦، ٢٩٣٢، ٣٣٨٦، ٤٥٦٠، ٤٥٩٨، ٦٢٠٠، ٦٣٩٣، ٦٩٤٠)، ومسلم (٦٧٥) من حديث أبي هريرة.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٤٣، ١١٥١، ١٩٧٠، ٥٨٦١)، ومسلم (٧٨٢) من حديث عائشة.

كَمَا يُرْوَىٰ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرو قَالَ: «خَلقَ اللهُ المَلائِكَةَ مِن نُورِ الذِّراعَينِ والصَّدرِ»(١)، فَقَالُوا: نُثبِتُ هَذَا عَلَىٰ ظَاهِرِه، ثُمَّ أَرْضَوا العَوامَّ بقَولِهِم: ولا نُثبِتُ جَوارِحَ، فكَأَنَّهُم يَقُولُونَ: فُلانٌ قَائمٌ ومَا هُوَ قَائمٌ!!

واخْتَلفَ قَولُهُم: هَلْ يُطلَقُ عَلَىٰ اللهِ ﷻ أَنَّهُ جَالسٌ أَوْ قَائمٌ، كقَولِه تَعَالَىٰ: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ [آل عمران: ١٨]!

وهَؤُلاءِ أَخَسُّ فَهمًا من جُحَا؛ لأَنَّ قَولَه: ﴿ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ ﴾ لا يُرادُ بِهِ القِيامُ، وإِنَّمَا هُوَ كَمَا يُقالُ: الأَمِيرُ قَائمٌ بالعَدلِ.

وإِنَّمَا ذَكرتُ بَعْضَ أَقْوالِهِم؛ لِئلَّا يُسكَنُ إِلىٰ شَيْءٍ مِنهَا؛ فالحَذَرَ من هَؤُلاءِ عِبادَةٌ، وإِنَّمَا الطَّرِيقُ طَرِيقُ السَّلَف.

عَلَىٰ أَنَّنِي أَقُولُ لَكَ: قَدْ قَالَ أَحْمَدُ بْن حَنْبَل -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيهِ-: «مِنْ ضِيقِ عِلمِ الرَّجلِ أَنْ يُقلِّدَ في دِينِه الرِّجَال»، فَلا يَنْبغِي أَنْ تَسمَع عَن مُعَظَّمٍ فِي النُّفُوسِ شَيئًا فِي الأُصُولِ فتُقلِّدَه فِيهِ.

ولو سَمِعتَ عَنْ أحدِهِمْ أَحْمدَ مَا لا يُوافِقُ الأُصُولَ الصَّحِيحةَ، فقُلْ: هَذَا مِن الرَّاوِي؛ لأَنَّهُ قَدْ ثَبتَ عَنْ ذَلِكَ الإِمَامِ أَنَّهُ لا يَقُولُ فِي شَيْءٍ بِرَأْيِهِ، فلَوْ قدَّرْنا صِحَّتهُ عَنْهُ فإِنَّه لا يُقلَّد فِي الأُصُول، ولا أَبُو بَكر ولا عُمَرَ رضي الله عنهما.

فهَذَا أصلٌ، يَجِبُ البِناءُ عَلَيهِ، فَلا يَهولَنَّكَ ذِكرُ مُعَظَّمٍ فِي النُّفُوسِ.

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السنة» (١٠٨٤) موقوفًا كما ذكره المصنف، والظاهر أنه من الإسرائيليات، فقد كان عبد الله بن عمرو قد أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب فكان يحدث منهما.

وكَانَ المَقصُودُ مِن شَرحِ هَذَا: أَنَّ دِينَنا سَليمٌ، وإنَّما دَاخَل أَقْوَامٌ فِيهِ مَا تَأذَّينَا بِهِ.

ولَقَدْ أدْخَلَ المُتزهِّدُونَ في الدِّينِ مَا يُنفِّرُ النَّاسَ مِنْهُ، حَتَّىٰ إنَّهمْ يروْنَ أفعالَهمْ فيَستبعِدُونَ الطَّرِيقَ.

وأكْثَرُ أدِلَّة هَذِهِ الطَّرِيق القُصَّاصُ؛ فَإِنَّ العَامِّيَ إِذَا دَخلَ إلىٰ مَجلِسِهم، وهُوَ لا يُحسِنُ الوُضوءَ، كَلَّمُوه بدَقائِقِ الجُنَيدِ، وإشَاراتِ الشِّبليِّ، فرَأَىٰ ذَلِكَ العَامِّيُّ أَنَّ الطَّرِيقَ الوَاضِحَ لُزومُ زَاويةٍ، وتَركُ الكَسبِ للعَائِلةِ، ومُنَاجَاةُ الحَقِّ فِي خَلوةٍ، عَلَىٰ زَعمِهِ؛ مع كَونِه لا يَعرِفُ أرْكَانَ الصَّلاةِ، ولا أَدَّبهُ العِلْمُ، ولا قوَّمَ أخْلاقَهُ مُخَالطَةُ العُلَمَاءِ، فَلا يَستفِيدُ من خَلوَتِه إلَّا كَمَا يَستفِيدُ الحِمارُ مِن الإصْطَبْل، فَإِنِ امْتدَّ عَلَيهِ الزَّمَانُ فِي تقَلُّلِه زَادَ يُبْسُهُ، فرُبَّمَا خَايَلَتْ لَهُ المَالِيخُوليَا أشْبَاحًا يَظنُّهُم المَلائِكَةَ، ثُمَّ يُطأطِئُ رَأسَه، ويَمُدُّ يَدَه للتَّقبِيلِ!!

فَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا مِن أَكَّارٍ[1] تَركَ الزَّرعَ وقَعدَ في زَاويةٍ، فصَارَ إلىٰ هَذِهِ الحَالةِ، فاستَراحَ مِن تَعبِهِ، فلَوْ قِيلَ لَهُ: عُدْ مَرِيضًا. قَالَ: مَا لي عَادَةٌ. فلَعنَ اللهُ عَادةً تُخالِفُ الشَّرِيعَةَ.

فيَرَىٰ العَامَّةُ بِمَا يُورِدُه القُصَّاصُ طَرِيقَ الشَّرْعِ هَذِهِ، لا الَّتِي عَلَيْهَا الفُقَهاءُ، فيقَعُون في الضَّلَال. ومِن المُتزهِّدينَ مَنْ لا يُبالِي: عَمِلَ بالشَّرْعِ أمْ لا!!

ثُمَّ يتفَاوُتُ جُهَّالُهم:

فمِنْهُم: من سَلكَ مَذْهَبَ الإبَاحَةِ، ويقُولُ: الشَّيْخُ لا يُعارَضُ. ويَنهَمِكُ فِي المَعاصِي.

ومِنْهُم: من يَحفَظُ نَامُوسَه، فيُفتِي بغَيْرِ عِلمٍ؛ لِئلَّا يُقالُ: الشَّيْخُ لا يَدرِي!!

---

(١) الأكار: الزارع.

ولَقَدْ حَدَّثني الشَّيْخُ أَبُو حَكيمٍ -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيهِ- أَنَّ الشَّريفَ الدَّحَالتيَّ -وكَانَ يُقصدُ فيُزارُ ويُتبرَّكُ بِهِ- حَضرَ عِنْدَه يومًا، فسُئِلَ أَبُو حَكيمٍ: هَلْ تَحلُّ المُطلَّقةُ ثَلاثًا إذَا وَلدَتْ ذَكَرًا؟ قَالَ: فَقُلتُ: لا واللهِ. فَقَالَ لِي الشَّريفُ: اسكُتْ، فواللهِ لَقَد وَافَيْتُ أَنَا النَّاسَ بأَنَّهَا تَحلُّ؛ مِن هَاهُنا إلَىٰ البَصرَةِ.

وحَكَىٰ لي الشَّيْخُ أَبُو حَكيمٍ، أَنَّ جدَّ آذَادِ الحَدَّاد -وكَانَ يتوسَّمُ بالعِلْمِ- جَاءتْ إِلَيْهِ امْرأَةٌ، فزَوَّجها مِن رَجُلٍ، ولَمْ يسْأَل عَنِ انْقِضَاءِ العِدَّة، فاعترَضَها الحَاكِمُ، وفرَّقَ بَينَها وبَينَ الزَّوجِ، وأَنْكَرَ عَلَىٰ المُزوِّجِ، قَالَ: فلَقِيتُه المَرْأَةُ، فَقَالَتْ: يَا سَيِّدِي؛ أَنَا امْرأَةٌ لا أَعْلَمُ، فكَيفَ زَوَّجْتَني؟ فقَالَ: دَعِي حَدِيثَهم؛ فَمَا أنتِ إلَّا طَاهِرَةٌ مُطهَّرَةٌ!

وحَدَّثني بَعْضُ الفُقَهَاء، عَنْ رَجُلٍ من العُبَّادِ، أَنَّهُ كَانَ يَسجُدُ للسَّهوِ سِنينَ، ويَقُولُ: واللهِ مَا سَهوتُ ولَكِنْ أَفْعلهُ احْترازًا، فَقَالَ لَهُ الفَقيهُ: قَدْ بَطلتْ صَلاتُك كُلُّها؛ لأَنَّك زِدتَ سُجودًا غَيْرَ مَشْرُوعٍ.

ثُمَّ مِنَ الدَّخَلِ الَّذِي دَخلَ دِينَنا: طَرِيقُ المُتصوِّفَةِ؛ فَإِنَّهُم سَلكُوا طُرُقًا أَكْثَرُها يُنافِي الشَّرِيعَةَ، وأَهْلُ التَّدَيُّنِ مِنهُم يُقلِّلونَ ويُخَفِّفُونَ، وهَذَا لَيسَ بشَرعٍ.

حَتَّىٰ إنَّ رَجلًا كَانَ قَرِيبًا مِنْ زَمانِي، يُقَالُ لَهُ: كثيرٌ، دَخلَ إلَىٰ جَامعِ المَنصورِ، وقَالَ: إنِّي عَاهدتُ اللهَ عَهدًا ونَقضتُه، فَقد أَلْزمتُ نَفْسِي أَلَّا تَأكلَ أَرْبَعِينَ يومًا. فحَدَّثني مَنْ رَآهُ، أَنَّهُ بَقيَ عَشرَة أَيَّامٍ، ثُمَّ فِي العَشرِ الرَّابعِ أَشْفَىٰ عَلَىٰ المَوْتِ، قَالَ: فَمَا انقضَتْ حَتَّىٰ تفرَّغ[1]، فَصُبَّ فِي حَلقِه مَاءٌ، فَسَمعْنا لَهُ نَشيشًا كنَشيشِ المِقلاةِ، ثُمَّ مَاتَ بَعدَ أَيَّامٍ.

فانْظُروا إلىٰ هَذَا المِسكينَ ومَا فَعلهُ بِهِ جَهلُه!

---

(١) المعنىٰ أنه قارب الموت.

ومِنْهُم: مَنْ فَسَّحَ لنَفْسهِ فِي كُلِّ مَا يُحبُّ مِن التَّنعُّم واللَّذَّاتِ، واقْتنعَ من التَّصوُّفِ بالقَميصِ والفُوطةِ والعِمامةِ اللَّطيفَةِ، ولَمْ يَنظرْ مِن أيْنَ يَأكُل، ولا مِن أيْنَ يَشرَب، وخَالطَ الأُمرَاء مِن أَرْبَابِ الدُّنْيَا، ولُبَّاسِ الحَرِيرِ، وشُرَّابِ الخُمورِ؛ حِفْظًا لمَالِه وجَاهِه.

ومِنْهُم: أقْوَامٌ عَمِلوا سُننًا لَهُم، تَلقَّفُوها مِن كَلِماتٍ أكْثَرُها لا يَثبُتْ.

ومِنْهُم: مَنْ أكَبَّ عَلَىٰ سَمَاعِ الغِناءِ والرَّقصِ واللَّعِبِ، ثُمَّ انقَسمَ هَؤُلاءُ: فمِنْهُم: مَنْ يدَّعِي العِشْقَ فِيهِ، ومِنْهُم: مَنْ يَقُولُ بالحُلولِ، ومِنْهُم: مَنْ يَسمعُ عَلَىٰ وَجْهِ اللَّهْو واللَّعِب؛ وكِلَا الطَّرِيقينِ يُفسِدُ العَوامَّ الفَسادَ العَامَّ.

وهَذَا الشَّرحُ يَطولُ، وقَدْ صنَّفتُ كُتبًا تَرىٰ فِيهَا البَسطَ الحَسنَ -إنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ- مِنهَا «تَلبِيسُ إبْلِيسِ».

والمَقصُودُ: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الشَّرْعَ تَامٌّ كَاملٌ، فَإِنْ رُزقتَ فَهمًا لَهُ فَأنتَ تَتَّبعُ الرَّسُولَ ﷺ وأصْحَابَهُ، وتَترُكُ بُنيَّاتِ الطَّرِيقِ، ولا تُقلِّدُ دِينَك الرِّجَالَ، فَإِنْ فَعلتَ فَإنَّك لا تَحتاجُ إلىٰ وَصيَّةٍ أُخْرَىٰ.

واحْذرْ جُمودَ النَّقَلةِ، وانبِساطَ المُتكلِّمِينَ، وجَوْعَ المُتزَهِّدينَ، وشَرَهَ أَهْلِ الهَوَىٰ، ووُقوفَ العُلَمَاءِ عَلَىٰ صُورَةِ العِلْم منْ غَيْرِ عَملٍ، وعَملَ المُتَعبِّدِينَ بغَيْرِ عِلمٍ.

ومَنْ أيَّدهُ اللهُ تَعَالَىٰ بلُطفهِ رَزقَه الفَهمَ، وأخرَجهُ عَنْ رِبقَةِ التَّقلِيدِ، وجَعلَه أُمَّةً وَحدَه فِي زَمانِهِ، لا يُبالِي بمَنْ عَتَبَ، ولا يَلتَفتُ إِلَىٰ مَن لَامَ، قَدْ سَلَّم زِمامَه إلىٰ دَلِيلٍ فِي وَاضِح السَّبيلِ.

عَصمَنا اللهُ وإيَّاكُم من تَقلِيدِ المُعظَّمِينَ، وأَلْهمَنا اتِّبَاعَ الرَّسُولِ ﷺ؛ فإنَّه دُرَّةُ الوُجُودِ، ومَقْصُودُ الكَونِ ﷺ وعَلَىٰ آلِهِ وأصْحَابِهِ وأشْيَاعِه، ورَزقَنا اتِّباعَه معَ أتْبَاعِه.

فَصْل

اعْلمْ؛ أَنَّ الزَّمَانَ لا يَثبُتُ عَلَى حَالٍ

كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، فَتارةً فَقرٌ، وتَارةً غِنًى، وتَارةً عِزٌّ، وتَارةَ ذُلٌّ، وتَارةً يَفرحُ المَوالِي، وتَارةً يشْمَتُ الأعَادِي؛ فالسَّعيدُ مَنْ لَازَم أَصْلًا وَاحِدًا عَلَىٰ كُلِّ حالٍ، وهُوَ تَقْوَىٰ اللهِ ﷻ.

فإنَّه إنِ اسْتغنَىٰ زَانَتهُ، وإنِ افتَقرَ فَتحَتْ لَهُ أبْوابَ الصَّبْرِ، وإنْ عُوفِيَ تَمَّتِ النِّعمَةُ عَلَيهِ، وإنِ ابتُلِيَ حَملَتهُ، ولا يَضرُّه إنْ نَزلَ بِهِ الزَّمَانُ أَوْ صَعدَ، أَوْ أَعْراهُ أَوْ كَسَاهُ، أَوْ أَشْبعَهُ أَوْ أَجَاعَهُ؛ لأَنَّ جَميعَ تِلْكَ الأَشْيَاء تَزولُ وتَتغيَّرُ.

والتَّقوَىٰ أَصْلُ السَّلامَةِ، حَارسٌ لا يَنَامُ، يَأْخُذ باليَدِ عِنْدَ العَثْرَةِ، ويُوافِقُ عَلَىٰ الحُدودِ، والمُنْكَرُ من غَرَّتهُ لَذَّةٌ حَصَلَت مع عَدَمِ التَّقوَىٰ؛ فإنَّها سَتُحوَّلُ وتُخلِّيهِ خَاسِرًا.

ولازِمِ التَّقوَىٰ فِي كُلِّ حَالٍ؛ فإنَّكَ لا تَرَىٰ فِي الضِّيقِ إلَّا السَّعةَ، وفِي المَرَض إلَّا العَافِيَةَ، هَذا نَقْدُها العَاجِلُ، والآجِلُ مَعْلُومٌ.

فَصْل

تَأَمَّلتُ أمرًا عَجِيبًا، وأصْلًا ظَرِيفًا، وهُوَ انهِيالُ الابتِلاءِ عَلَى المُؤمِن، وعَرض صُورَةِ اللَّذَّاتِ عَلَيهِ مع قُدرتِه عَلَى نَيلِها، وخُصُوصًا مَا كَانَ فِي غَيْر كُلْفةٍ مِن تَحصِيلِه، كمَحبُوبٍ مُوافِقٍ فِي خَلْوةٍ حَصِينةٍ

فقُلْتُ: سُبحانَ الله! هَاهُنا يَتبَيَّنَ أَثرُ الإِيمَان، لا في صَلاةِ رَكعَتينِ.

واللهِ؛ مَا صَعدَ يُوسُف عليه السلام ولا سَعدَ إلَّا فِي مِثلِ ذَلِكَ المَقام.

فبِاللهِ عَليكُم - يَا إِخْوَانِي - تأمَّلُوا حَالَه لَوْ كَانَ وَافقَ هَواهُ؛ مَنْ كَانَ يَكُونُ؟! وقِيسُوا بينَ تِلْكَ الحَالةِ وحَالَة آدمَ عليه السلام، ثُمَّ زِنُوا بمِيزانِ العَقْل عُقبَىٰ تِلْك الخَطيئةِ، وثَمرَة هَذَا الصَّبْرِ، واجْعلُوا فَهمَ الحَالِ عُدَّةً لَكُم عِنْدَ كُلِّ مُشتَهَىٰ.

وإِنَّ اللَّذَّاتِ لتُعرَضُ عَلَىٰ المُؤمِن، فمَتىٰ لَقيَها فِي صَفِّ حَربِه، وقَدْ تَأَخَّرَ عَنْهُ عَسكرُ التَّدبُّرِ للعَوَاقِب؛ هُزِمَ.

وكَأَنِّي أَرىٰ الوَاقِعَ فِي بَعْضِ أَشْراكِها، ولِسَانُ الحَالِ يَقُولُ لَهُ: قِفْ مَكانَك، أَنْتَ ومَا اخْترتَ لنَفْسِك.

فغَايةُ أمرِهِ النَّدمُ والبُكاءُ، فَإِنْ آثَرَ إِخراجَهُ مِن تِلْكَ الهُوَّةِ؛ لَمْ يَخرُجْ إلَّا مَوْهُونًا بالخُدوشِ، وكَمْ مِن شَخْصٍ زَلَّتْ قَدمُه فَمَا ارْتفعتْ بَعدَهَا.

ومَنْ تَأَمَّل ذُلَّ إِخْوَةِ يُوسُفَ عليه السلام يَوْمَ قَالُوا: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ [يوسف: ٨٨] عَرفَ شُؤمَ الزَّلَل، ومَنْ تَدبَّرَ أَحْوالَهم قَاسَ مَا بَينَهم وبَينَ أَخِيهِم مِن الفُروقِ، وإِنْ كَانَتْ تَوبَتُهم قُبِلَتْ؛ لأَنَّهُ لَيسَ من رَقَّعَ وخَاطَ كمَنْ ثَوبهُ صَحِيحٌ. ورُبَّ عَظمٍ هِيضَ لَمْ يَنجَبِرْ، فَإِنْ جُبِرَ فعَلَىٰ وَهَىٰ.

فتيقَّظُوا - إخْوانِي - لعَرْضِ المُشتَهياتِ عَلَىٰ النُّفُوسِ، واستَوثِقُوا مِنْ لُجُمِ الخَيلِ، وانتَبِهوا للغَيمِ إذَا تَراكَمَ بالصُّعودِ إلىٰ قَلعةٍ؛ فرُبَّمَا مُدَّ الوَادِي فَراحَ بالرَّكبِ.

فَصْلٌ

تَأمَّلتُ حَالَةً عَجِيبةً

وهي أَنَّ المُؤمِنَ تَنزِلُ بِهِ النَّازِلةُ، فيدْعُو ويُبالِغ، فَلا يَرَىٰ أثَرًا للإجَابَةِ، فَإذَا قَرُب اليَأسُ نَظرَ حِينئِذٍ إلىٰ قَلبه، فَإنْ كَانَ رَاضيًا بالأَقْدَارِ، غَيْرَ قَنوطٍ مِن فَضل اللهِ ﷻ فالغَالِبُ تَعجيلِ الإجَابَةِ حِينئِذٍ؛ لأَنَّ هُنَالكَ يَصلُحُ الإِيمَانُ، [ويُطرَدُ] الشَّيطَانُ، وهُناكَ تَتَبيَّنُ مَقادِيرُ الرِّجَالِ.

وقَدْ أشِيرَ إلىٰ هَذَا فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وكَذَلكَ جَرَىٰ ليَعقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فإنَّه لَمَّا فَقدَ وَلدًا وطَالَ الأَمْرُ عَلَيهِ، لَمْ يَيأسْ من الفَرجِ، فأُخِذَ ولَدُه الآخَرُ، ولَمْ يَنقَطِع أمَلُه مِنْ فَضلِ رَبِّه، فَقَال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ﴾ [يوسف: ٨٣]، وكَذَلكَ قَالَ زَكريَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾ [مريم: ٤].

فإيَّاكَ أَنْ تَستطِيلَ مُدَّةَ الإجَابَةِ، وكُنْ نَاظرًا إلَىٰ أَنَّهُ المَالِكُ، وإلَىٰ أنَّهُ الحَكيمُ فِي التَّدبِيرِ، والعَالِمُ بالمَصَالِحِ، وإلَىٰ أنَّهُ يُرِيدُ اخْتبارَكَ؛ ليَبلُوَ أسْرارَكَ، وإلَىٰ أنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَرَىٰ تَضرُّعَك، وإلَىٰ أنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَأجُركَ بصَبرِكَ، إلىٰ غَيْر ذَلِكَ، وإلَىٰ أنَّهُ يَبتلِيكَ بالتَّأخِيرِ، لتُحارِبَ وَسوسَةَ إبْليس.

وكُلُّ وَاحدَةٍ من هَذِهِ الأَشْيَاء تُقوِّي الظَّنَّ فِي فَضله، وتُوجِبُ الشُّكرَ لَهُ؛ إذْ أَهَّلَكَ بالبَلاءِ للالتِفاتِ إلىٰ سُؤالِه، والفَقْرُ المُضْطَرُّ إلَىٰ اللُّجْإِ إلَيْهِ غِنًىٰ كُلُّهُ.

۞ فَصْلٌ ۞

لَمَّا كَانَ بَدَنُ الآدمِيِّ لا يَقُومُ إِلَّا باجتِلابِ المَصَالِح ودَفعِ المُؤذِي رُكِّبَ فِيهِ الهَوَى؛ ليَكونَ سَببًا لجَلبِ النَّافعِ، والغَضبُ؛ ليَكونَ سَببًا لدَفعِ المُؤذِي

ولَوْلا الهَوَىٰ فِي المَطْعمِ مَا تَناوَل الطَّعَامَ، فَلمْ يَقُم بَدنُه فجُعِلَ لَهُ إِلَيْهِ مَيلٌ وتَوْقٌ، فَإذَا حَصلَ لَهُ قَدْرَ مَا يُقيمُ بَدنَه زَالَ التَّوْقُ، وكَذَلكَ فِي المَشرَبِ والمَلبَسِ والمَنكَحِ:

وفَائدَةُ المَنكَحِ من وَجهَينِ:

أَحَدُهُمَا: إبقَاءُ الجِنْسِ، وهُوَ مُعظَمُ المَقصُودِ.

والثَّانِي: دَفعُ الفَضلَةِ المُحتقِنةِ المُؤذِي احتِقانُها.

ولَوْلا تَركيبُ الهَوَىٰ المَائلِ بصَاحِبِهِ إلىٰ النِّكَاح مَا طَلبهُ أَحَدٌ؛ ففَاتَ النَّسلُ، وآذَىٰ المُحتَقِنُ.

فأَمَّا العَارِفونَ؛ فَإنَّهُم فهمُوا المَقصُودَ، وأَمَّا الجَاهِلونَ؛ فَإنَّهُم مَالُوا معَ الشَّهْوةِ والهَوىٰ، ولَمْ يَفهمُوا مَقْصُودَ وَضْعِها؛ فَضاعَ زَمَانُهمْ فِيمَا لا طَائلَ فِيهِ، وفَاتَهم مَا خُلِقُوا لأَجْلِه، وأخرَجَهُم هَواهُم إلَىٰ فَسادِ المَالِ، وذهَابِ العِرْضِ والدِّينِ، ثُمَّ أَدَّاهُم إلَىٰ التَّلَفِ.

وكَمْ رَأَيْنَا مِن مُتنعِّمٍ يُبالغُ فِي شِراءِ الجَوارِي، ليُحرِّكَ طَبعَه بالمُستجدِّ، فَمَا كَانَ بأسرَعَ مِن أَنْ وَهنَتْ قُواهُ الأَصْليَّةُ، فتَعجَّلَ تلفَه.

وكَذَلكَ رَأَيْنَا مَنْ زَادَ غَضبُه، فخَرجَ عَنِ الحَدِّ؛ فَفتَكَ بنَفْسِه وبمَنْ يُحبُّهُ.

فمَنْ [عَلِمَ] (١) عَلِمَ أَنَّ هَذِهِ الأَشْيَاءَ إِنَّمَا خُلقَتْ إعَانةً للبَدنِ عَلَىٰ قَطْعِ مَراحِلِ الدُّنْيَا، ولَمْ تُخْلَقْ لنَفسِ الالتِذَاذِ، وإِنَّمَا جُعلَتِ اللَّذَّةُ فِيهَا كالحِيلَةِ فِي إيصَالِ النَّفعِ بِهَا؛ إذْ لَوْ كَانَ المَقصُودُ التَّنعُّمَ بِهَا؛ لَمَا جُعلَتِ الحَيَوانَاتُ البَهْمِيَّةُ أوْفَىٰ حَظًّا منَ الآدَميِّ مِنهَا.

فطُوبَىٰ لمَنْ فَهمَ حَقَائِقَ الوَضْعِ، ولَمْ يَمِلْ بِهِ الهَوَىٰ عَنْ فَهمِ حِكَمِ المَخلُوقاتِ.

فَصْل

مَنْ تَأمَّل عَوَاقِبَ المَعاصِي رَآهَا قَبِيحَة

ولَقَدْ تَفكَّرْتُ فِي أَقْوَامٍ أَعرِفُهمْ، يُقرُّونَ بالزِّنَا وغَيرِه، فأَرَىٰ مِن تعثُّرِهم فِي الدُّنْيَا مع جَلادَتِهم مَا لا يَقِفُ عِنْدَ حَدٍّ، وكَأَنَّهم قَدْ أُلبِسُوا ظُلْمَةً؛ فالقُلُوبُ تَنفِرُ عَنهُم، فَإِنِ اتَّسعَ لَهُم شَيْءٌ فأَكْثَرُه مِن مَالِ الغَيرِ، وإنْ ضَاقَ بِهِم أَمْرٌ أَخَذُوا يَتَسخَّطُونَ عَلَىٰ القَدَر. هَذَا؛ وقَد شُغِلوا بِهَذِهِ الأوسَاخِ عَنْ ذِكرِ الآخِرَة.

ثُمَّ عَكستُ؛ فتَفكَّرْتُ فِي أَقْوَامٍ صَابَرُوا الهَوَىٰ، وتَركُوا مَا لا يَحِلُّ، فمِنْهُم مَنْ قَدْ أَيْنَعتْ لَهُ ثَمراتُ الدُّنْيَا؛ مِن قُوتٍ مُستلَذٍّ، ومِهادٍ مُستطابٍ، وعَيشٍ لَذيذٍ، وجَاهٍ عَريضٍ، فَإِنْ ضَاقَ بِهِم أَمْرٌ وَسَّعهُ الصَّبْرُ، وطَيَّبَهُ الرِّضَا.

فَفهِمْتُ بالحَالِ مَعْنَىٰ قَوله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

---

(١) زيادة مني للتوضيح.

۞ فَصْل ۞

يَنْبغِي للعَاقِلِ أَنْ يُلازِمَ بَابَ مَولاهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وأنْ يَتعلَّق بذَيلِ فَضلِه إنْ عَصَى وإنْ أطَاعَ، ولْيكُن لَهُ أُنسٌ في خَلوتِه بِهِ، فَإِنْ وقَعتْ وَحشةٌ فليَجتَهدْ في رَفعِ المُوحِشِ

كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

أَمُسْتَوْحِشٌ أَنْتَ مِمَّا جَنيْـ ** ـتَ فَأَحْسِنْ إِذَا شِئْتَ وَاسْتَأْنِسِ

فإنْ رَأَىٰ نَفْسَه مَائلًا إلىٰ الدُّنْيَا طَلبهَا مِنْهُ، أوْ إلىٰ الآخِرَةِ سَأَلَهُ التَّوفيقَ للعَمل لَهَا، فَإِنْ خافَ ضَرَر مَا يرومُه مِن الدُّنْيَا سَأَلَ اللهَ إِصْلاحَ قَلبِه، وطِبَّ مَرضِه؛ فإِنَّه إِذَا صَلحَ لَمْ يَطلُبْ مَا يُؤذِيهِ.

ومَنْ كَانَ هَكذَا؛ كَانَ فِي العَيْشِ الرَّغدِ، غَيْرَ أَنَّ منْ ضَرورَةِ هَذِهِ الحَال مُلازَمَةُ التَّقوىٰ؛ فإِنَّه لا يَصلُحُ الأُنسُ إلَّا بِهَا، وقَد كَانَ أَرْبَابُ التَّقوىٰ يَتشَاغَلونَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ إلَّا عَنِ اللَّجْإِ والسُّؤالِ.

وفِي الخَبر: أَنَّ قُتيبَةَ بْنَ مُسلِمٍ لَمَّا صَافَّ التُّركَ هَالَه أمَرُهم، فقَالَ: أَيْنَ مُحَمَّدُ بْنُ واسِعٍ؟ فقِيلَ: هُوَ فِي أَقْصَىٰ المَيمَنةِ، جَانحٌ عَلَىٰ سِيةِ قَوسِهِ، يُومِئُ بإِصْبَعهِ نَحوَ السَّمَاءِ. فَقَالَ قُتيبَةُ: تِلْكَ الأصبُعُ الفَارِدَة أَحَبُّ إليَّ مِن مائَةِ أَلفِ سَيفٍ شَهيرٍ، وسنَانٍ طَريرٍ. فَلَمَّا فُتِحَ عَلَيهِم قَالَ لَهُ: مَا كُنْتَ تَصنَعُ؟ قَالَ: آخُذُ لَكَ بمَجامِعِ الطُّرُقِ.

فَصْلٌ

يَنْبغِي لمَنْ تَظاهَرتْ نِعمُ اللهِ ﷻ عَلَيهِ أَنْ يُظهِرَ مِنهَا مَا يُبَيِّنُ أثرَهَا، ولا يكْشِفُ جُملتَها

وهَذَا من أعْظَمِ لذَّاتِ الدُّنْيَا الَّتِي يأمُر الحَزمُ بتركِها؛ فَإنَّ «العَينَ حَقٌّ»(١).

وإنِّي تفقَّدتُ النِّعَمَ، فرَأيْتُ إظْهارَها حُلوًا عِنْدَ النَّفْسِ، إلَّا أنَّهَا إنْ أُظهِرَتْ لِوَديدٍ لَمْ يُؤمَن تَشعُّثُ بَاطِنهِ بالغِبْطَةِ، وإنْ أُظهِرَتْ لعَدوٍّ فالظَّاهِرُ إصَابتُه بالعَينِ لمَوضِع الحَسدِ، إلَّا أنَّنِي رَأيْتُ شَرَّ الحَسودِ كاللَّازِمِ، فإنَّه في حَالِ البَلاءِ يتَشفَّىٰ، وفي حَالِ النِّعَم يُصيبُ بالعَينِ.

ولَعَمْرِي؛ إنَّ المُنْعَمَ عَلَيهِ يَشتهِي غَيظَ حَسودِه، ولَكنَّه لا يُؤْمَنُ أَنْ يُخاطِرَ بنِعمَتِهِ؛ فَإنَّ الغَالِبَ إصَابةُ الحَاسدِ لَهَا بالعَينِ، فَلا يُساوِي الالتِذَاذُ بإظهَارِ مَا غِيظَ بِهِ مَا أفسَدَت عَينُه بإصَابَتِها.

وكِتمانُ الأُمُورُ فِي كُلِّ حَالٍ فِعلُ الحَازمِ؛ فإنَّه إنْ كَشفَ مِقْدَار سِنِّه اسْتهرمُوه إنْ كَانَ كَبيرًا، واحْتقرُوه إنْ كَانَ صَغيرًا، وإنْ كَشفَ مَا يَعتقدُه نَاصبَه الأَضْدادُ بالعَداوةِ، وإنْ كَشفَ قَدرَ مَالِهِ استَحقرُوه إنْ كَانَ قَليلًا، وحَسدُوه إنْ كَانَ كَثيرًا.

وفي هَذِهِ الثَّلاثَة يَقُولُ الشَّاعِرُ:

احْفَظْ لِسَانَكَ لا تَبُحْ بثَلَاثَةٍ ** سِنٍّ وَمَالٍ مَا اسْتَطَعْتَ وَمَذْهَبِ
فَعَلَىٰ الثَّلَاثَةِ تُبْتَلَىٰ بثَلَاثَةٍ ** بِمُمَوِّهٍ وَمُمَخْرِقٍ وَمُكَذِّبِ

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٤٠٨)، ومسلم (٢١٨٧) من حديث أبي هريرة.

وقِسْ عَلَىٰ مَا ذَكرتُ مَا لَمْ أذْكرْه، ولا تكنْ مِن المَذاييعِ الغِرِّ، الَّذِينَ لا يَحمِلونَ أسرَارَهم حَتَّىٰ يُفشوهَا إلىٰ مَن لا يَصلُحْ.

ورُبَّ كَلِمَةٍ جَرَىٰ بِهَا اللِّسَانُ هَلكَ بِهَا الإنْسَانُ.

❁ فَصْل ❁

رَأيْتُ كُلَّ مَن يَعثُرُ بشَيْءٍ أوْ يَزْلَقُ فِي مَطَرٍ يلتَفتُ إلى مَا عَثَرَ بِهِ، فيَنظرُ إلَيْهِ طَبعًا مَوضُوعًا فِي الخَلْق: إمَّا ليَحذَر مِنْهُ إنْ جَازَ عَلَيهِ مرَّةً أخْرَى، أوْ ليَنظُر -معَ احْتِرازِهِ وفَهْمِهِ-: كَيْفَ فَاتَه التَّحرُّزُ مِن مِثلِ هَذَا

فأخْذتُ من ذَلِك إشَارةً، وقُلْتُ:

يَا مَنْ عَثَرَ مِرارًا؛ هَلَّا أبْصرتَ مَا الَّذِي عَثَّرَكَ فاحْترَزْتَ مِن مِثلِه، أوْ قَبَّحَتْ لنَفْسكَ - معَ حَزمِها - تِلْكَ الوَاقِعَةَ؛ فَإنَّ الغَالِبَ مِمَّنْ يَلتفِتُ أَنَّ مَعْنَىٰ التِفاتِه: كَيْفَ عَثَرَ مِثْلِي - معَ احْترازِه - بمِثلِ مَا أرَىٰ؟!

فالعَجَبُ لَكَ؛ كَيْفَ عَثَرْتَ بمِثلِ الذَّنبِ الفُلانيِّ والذَّنبِ الفُلانيِّ؟! كَيفَ غرَّكَ زُخرفٌ، تَعلمُ بعَقلِكَ بَاطِنَهُ، وتَرَىٰ بعَينِ فِكرِك مَآلَهُ؟! كَيْفَ آثرتَ فَانِيًا عَلَىٰ بَاقٍ؟! كَيْفَ بِعتَ بوَكْسٍ؟! كَيْفَ اخترتَ لَذَّةَ رقْدةٍ عَلَىٰ انتِباهِ مُعامَلةٍ؟!

آهٍ لَكَ! لَقَدِ اشتَريتَ بِمَا بِعتَ أَحْمالَ نَدمٍ، لا يُقِلُّهَا ظَهرٌ، وتَنكيسَ رَأسٍ أمْسَىٰ بَعيدَ الرَّفعِ، ودُموعَ حُزنٍ عَلَىٰ قُبحِ فِعلٍ مَا لمَدَدِها انقِطاعٌ.

وأقْبحُ الكُلِّ؛ أنْ يُقَال لَكَ: بمَاذَا؟ ومن أَجْلِ مَاذَا؟ وهَذَا عَلَىٰ مَاذَا؟!

يَا من قَلبَ الغُرورُ عَلَيهِ الصَّنْجَة، ووُزِنَ لَهُ والمِيزانُ رَاكبٌ.

۞ فَصْل ۞

تَأمَّلتُ قَولَه تَعَالَى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه:١٢٣]

قَالَ المُفسِّرونَ: هُداي: رَسُول اللهِ ﷺ وكتابي. فَوجَدتُه عَلَىٰ الحَقِيقَةِ أَنَّ كُلَّ من اتَّبعَ القُرْآن والسُّنَّة وعَملَ بِمَا فِيهِما فَقدْ سَلِمَ من الضَّلَالِ بلا شَكٍّ وارْتفَع في حَقِّه شَقاءُ الآخِرَةِ بلا شَكٍّ إِذَا مَاتَ عَلَىٰ ذَلِكَ، وكَذَلكَ شَقاءُ الدُّنْيَا، فَلا يَشقَىٰ أَصْلًا.

ويُبيِّنُ هَذَا: قُولُه تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]، فَإِنْ رَأَيْتَه في شدَّةٍ فلَهُ مِنَ اليَقينِ بالجَزاءِ مَا يُصَيِّرُ الصَّابَ عِنْده عَسلًا، وإِلَّا غَلبَ طِيبُ العَيْشِ فِي كُلِّ حَالٍ.

والغَالِبُ أَنَّهُ لا يَنزلُ بِهِ شدَّةٌ إِلَّا إِذَا انْحرفَ عَنْ جَادَّةِ التَّقوَىٰ، فأَمَّا المُلازمُ لطَريقِ التَّقوَىٰ فَلا آفةَ تَطرُقهُ، ولا بَليَّةَ تَنزلُ بِهِ، هَذَا هُوَ الأَغْلَبُ.

فَإِنْ نَدرَ مَنْ تَطَرَّقِهُ البَلايَا معَ التَّقوَىٰ؛ فذَاكَ فِي الأَغْلَبِ لتقَدُّم ذَنبٍ يُجازَىٰ عَلَيهِ.

فَإِنْ قَدَّرنَا عَدَم الذَّنبِ؛ فَذاكَ لإِدْخالِ ذَهَب صَبْرهُ كِيرَ البَلاءِ، حَتَّىٰ يَخرُجَ تِبرًا أَحْمرَ، فَهُو يَرَىٰ عُذوبةَ العَذَابِ؛ لأَنَّهُ يُشاهدُ المُبتلَىٰ فِي البَلاءِ ولَا الأَلمُ.

قَالَ الشِّبليُّ: «أَحَبَّكَ النَّاسُ لنَعمائِكَ، وَأَنَا أُحِبُّكَ لِبلَائِكَ».

فَصْل

لا يَنالُ لَذَّة المَعَاصِي إِلَّا سَكرَانُ بالغَفْلَةِ فأَمَّا المُؤمِنُ فإِنَّه لا يَلْتذُّ

لأَنَّهُ عِنْدَ الْتِذاذِه يَقِف بإِزَائِهِ عَلَمُ التَّحريمِ، وحَذَرُ العُقُوبَةِ، فَإِنْ قَوِيتْ مَعرفتُه رَأَىٰ بعَينِ عِلمِهِ قُرْبَ النَّاهِي، فيتنغَّصُ عَيْشُهُ فِي حَالِ الْتِذَاذِه، فَإِنْ غَلَبَ سُكْرُ الهَوَىٰ كَانَ القَلْبُ مُتنغِّصًا بهَذِهِ المُراقَباتِ، وإنْ كَانَ الطَّبْعُ فِي شَهوتِه، ومَا هي إِلَّا لَحْظَةٌ.

ثُمَّ خُذْ مَا تَلْقَىٰ من غَرِيمِ نَدمٍ مُلازِمٍ، وبُكَاءٍ مُتواصِلٍ، وأَسفٍ عَلَىٰ مَا كَانَ مع طُولِ الزَّمَان، حَتَّىٰ إِنَّهُ لَوْ تَيقَّنَ العَفوَ وَقفَ بإِزَائِه حَذَرَ العِتَّابِ.

فأُفٍّ للذُّنوبِ؛ مَا أَقْبَحَ آثَارِها، ومَا أَسْوأَ أَخْبَارِها، ولا كَانَتْ شَهْوَةٌ لا تُنَالُ إِلَّا بمِقْدَارِ قُوَّةِ الغَفْلَةِ.

فَصْل

بَكَّرتُ يومًا أَطْلُبُ الخَلوَةَ إلى جَامِعِ الرُّصَافَةِ

فجَعلتُ أَجُولُ وَحدِي، وأتفكَّرُ في ذَلِكَ المَكانِ ومَنْ كَانَ بِهِ من العُلَمَاءِ والصَّالِحِينَ، ورَأَيْتُ أَقْوَامًا قَدْ جَاورُوا فِيهِ، فَسأَلتُ أَحَدَهُم: مُنذُ كَمْ أَنتَ هَاهُنا؟ فَأومَأَ إِليَّ: قَرِيبٌ من أَربَعِينَ سَنَة، فرَأَيْتُه فِي ثَوْبٍ كَثِير الدَّرنِ والوَسخ، وجَعلتُ أتفكَّرُ في حَبسِه لنَفْسِهِ عَنِ النِّكَاحِ هَذِهِ المُدَّة، فأخَذتِ النَّفْسُ تُحسِّن ذَلِك، وتَذمُّ الدُّنْيَا والاغتِرارَ بِهَا. فأقبَلَ العِلْمُ يُنكِر عَلَىٰ النَّفْسِ، ونَهَضَ الفَهمُ بحَقَائِقِ الأُمورِ ومَوضوعِ الشَّرْعِ يُقوِّي مَا قَالَ العِلْمُ.

فَيَنْحَلُّ مِن ذَلِكَ؛ أَنْ قُلْتُ للنَّفسِ: اعْلمِي؛ أَنَّ هَؤُلاءِ عَلَىٰ ضَربينِ:

مِنهُم: مَنْ يُجاهِدُ نَفْسَه فِي الصَّبْرِ عَلَىٰ هَذِهِ الأَحْوَالِ، فتَفوتُه فَضائِلُ المُخَالطَةِ لأَهْلِ العِلْمِ، والعَمَلِ، وطَلَبِ الوَلدِ، ونَفعِ الخَلْقِ، وانتِفاعِ نَفْسِهِ بمُجالَسةِ أَهْلِ الفَهمِ؛ فيَحدُثُ لَهُ من نَفْسهِ حَالَةٌ يُشابِهُ فِيهَا الوَحشَ، فيُؤثِر الانْفِرَاد لنَفسِ الانْفِرَادِ.

ورُبَّما يَبِسَ الطَّبْعُ، وسَاءَ الخَلْقُ، ورُبَّما حَدَثَتْ مِن حَبسِ مَائِهِ المُحتقنِ سُمِّيَّةٌ أَفْسدَتْ بَدنَه وعَقلَه، ورُبَّما أورَثَتْهُ الخَلوَةُ وَسوسَةً، ورُبَّما ظَنَّ أَنَّهُ مِن الأَوْلِيَاءِ، واسْتغنَىٰ بِمَا يَعرِفهُ، ورُبَّما خَيَّلَ لَهُ الشَّيطَانُ أَشْيَاءَ مِن الخَيَالاتِ، وهُوَ يعدُّهَا كَرَامَاتٍ، ورُبَّما ظَنَّ أَنَّ الَّذِي هُوَ فِيهِ الغَايَةُ.

ولا يَدرِي أَنَّهُ إلىٰ الكَراهةِ أقرَبُ؛ فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَهَىٰ أَنْ يَبِيتَ الرَّجُل وَحْدَهُ(١)، وهَؤُلاءِ كُلٌّ مِنهُم يَبِيتُ وَحْدَه، ونَهَىٰ عَنِ التَّبتُّل(٢)، وهَذَا تَبَتُّلٌ، ونَهىٰ عَنِ الرَّهبانيَّةِ(٣)، وَهَذِهِ رَهْبَنَةٌ. وهَذَا مِن خَفيِّ خُدَعِ إِبْلِيسَ الَّتِي يُوقِع بِهَا فِي وَرَطاتِ الضَّلَال بألطَفِ وَجْهٍ وأَخْفاهُ.

والضَّربُ الثَّانِي: مَشايخُ قَدْ فَنَوْا، فانْقَطَعوا ضَرُورةً؛ إِذْ لَيسَ لأَحَدِهم مَأْوىٰ، فَهُم فِي مَقامِ الزَّمنَىٰ.

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (٥٦٥٠) من حديث ابن عمر، وإسناده صحيح. وهو في البخاري (٢٩٩٨) بلفظ: «لو يعلم الناس ما في الوحدة ما أعلم ما سار راكب بليل وحده».

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٥٠٧٣)، ومسلم (١٤٠٢) عن سعد بن أبي وقاص قال: رد رسول الله ﷺ علىٰ عثمان بن مظعون التبتل، ولو أذن له لاختصينا.

(٣) **صحيح**: وهو في إحدىٰ روايات الحديث السابق، أخرجه الدارمي (٢٢١٥)، وهو أيضًا عند أحمد (٢٥٨٩٣)، وابن حبان (٩) من حديث عائشة.

وإنْ كَانَ الضَّربُ الأَوَّلُ قَدْ قَطعُوا حَبْلَ نُفوسِهم فِي العِلْم والعَمَل والكَسبِ، وتَعلَّقتْ هِمَمُهم بفُتوحٍ تَطْرُق عَليهِم البَابَ، فرَضُوا بالعَمىٰ بَعدَ البَصرِ، وبالزَّمَنِ بَعدَ الإطْلاقِ.

فَقَالَتْ لي النَّفْسُ: لا أَرْضَىٰ هَذَا الَّذِي تَقُولُه؛ فَإنَّكَ إنَّمَا تَمِيل إلىٰ إيثَارِ نِكَاحِ المُستحسَناتِ، والمَطاعِم المُشتهياتِ، فَإذَا لَمْ تَكنْ منْ أَهْلِ التَّعبُّدِ فَلا تَطْعَنْ فِيهِم.

فَقُلتُ لَهَا: إنْ فَهمتِ حَدَّثتُكِ، وإنْ كُنْتِ تُقلِّدينَ صُورَ الأَحْوَالِ فَلا فَهمَ لَكِ:

أَمَّا المستَحسنَاتُ؛ فَإِنَّ المَقصُودَ مِن النِّكَاحِ أَشْيَاء:

مِنهَا: طَلَبُ الوَلدِ.

ومِنهَا: شِفاءُ النَّفْسِ، بإخْراجِ الفَضلَةِ المُؤذيَةِ.

وكَمالُ خُروجِها لا يَكُونُ إلَّا بوجُود المُستحسَنِ، فاعْتَبِرْ هَذَا بالوَطءِ دُونَ الفَرجِ، فإنَّه لا يُخرجُ من الفَضلاتِ مَا يَخرُجُ بالوَطءِ فِي الفَرجِ، وبتَمامِ خُروجِ تِلْكَ الفَضلةِ تَفرُغ النَّفْسُ عَنْ شَواغِلها، فتَدرِي أيْنَ هي، كَمَا نَأمُر القَاضِي بالأَكْلِ قَبلَ الحُكمِ، ونَنهاهُ عَنِ الحُكمِ وهُوَ غَضبانٌ أَوْ حَاقنٌ.

وبكَمالِ بُلوغِ هَذَا الغَرضُ يَكُونُ كَمالُ الوَلدِ؛ لتَمامِ النُّطفَةِ الَّتِي تَخلَّقَ منهَا، ثُمَّ للنَّفْسِ حَظٌّ فَهي تَستوفِيه استِيفاءَ النَّاقةِ حَظَّها مِن العَلَفِ في السَّفر، وذَلِكَ يُعينُ عَلَىٰ سَيرِها.

وأَمَّا المطَاعمُ؛ فالجَاهِلُ مَن يَطلبُها لذَاتِها أَوْ لنَفسٍ لذَّاتِها، وإنَّمَا المُرَادُ إصْلاحِ عَزْمِ النَّاقةِ لجَمعِ هِمَمِها، ونَيلِ مُرادِها مِن غَرضِها الصَّارِف لَهَا عَن الفِكرِ فِي هَواهَا.

وإذَا تَأَمَّلتَ حَالَ الشَّربِ الأَوَّل رَأيْتَ من هَذَا عَجبًا:

فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ اخْتارَ لنَفْسِه عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وكَانَتْ مُستحسَنة[١]، ورَأَىٰ زَينبَ فاستَحسَنها فتَزوَّجَها، وكَذَلكَ اخْتارَ صَفيَّةَ، وكَانَ إِذَا وُصِفتْ لَهُ امْرأَةٌ بَعثَ يَخطِبهَا.

وكَانَ لعَليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أربَعُ حَرائرَ وسَبعَ عَشرةَ سُرِيَّة، مَاتَ عنْهُنَّ.

وقَبلَ هَذِهِ الأُمَّة، فَقَدْ كَانَ لدَاود عَلَيْهِ السَّلَامُ مائَةُ امْرأةٍ، ولسُليمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ألفُ امْرأةٍ.

فمَنِ ادَّعىٰ خللًا فِي هَذِهِ الطُّرُق، أوْ أَنَّ هَؤُلاءِ آثَرُوا هَواهُم، وأنفَقُوا بضَائِع العُمرِ فِي هَذِهِ الأغْراضِ، وغَيرُها أفْضَل؛ فَقدِ ادَّعىٰ عَلَىٰ الكَامِلِين النُّقصانَ، وإِنَّمَا هُوَ النَّاقصُ فِي فَهمِه، لا هُمْ.

وقَدْ كَانَ سُفيَانُ الثَّورِيُّ إِذَا سَافرَ، فَفي سُفْرَتِهِ حَمَلٌ مَشويٌّ وفَالوذَج، وكَانَ حَسَنَ المَطْعمِ، وكَانَ يَقُولُ: «إِنَّ الدَّابَّة إِذَا لَمْ يُحسَن إِلَيهَا لَمْ تَعمَل».

وهَذِهِ الفُنونُ الَّتِي أَشَرتُ إِلَيهَا؛ إِنْ قُصِدَتْ للحَاجةِ إِلَيهَا، أوْ لقَضاءِ وطَرِ النَّفْسِ منْهَا، أوْ لبُلوغِ الأغْراضِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّة مِنهَا؛ فكُلُّه قَصدٌ صَحِيحٌ، لا يُعكِّر عَلَيهِ حَالَه، وَمَنْ يَقومُ ويَقعُد فِي رَكعاتٍ لا يفْهَمُ مَعْناهَا، وفِي تَسبيحَاتٍ أَكْثَرُ ألفَاظِها رَديَّةٌ.

كلَّا؛ لَيسَ إِلَّا العِلْمُ الَّذِي هُوَ أفْضَلُ الصِّفَات، وأشرفُ العِبادَاتِ، وهُوَ الآمِرُ بالمَصَالِح، والنَّاطقُ بالنَّصائِحِ.

(١) أخرج البخاري (٣٦٨٢)، ومسلم (٢٤٣٨) عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «أريتك في المنام مرتين، إذا رجل يحملك في سرقة حرير، فيقول: هذه امرأتك، فأكشفها فإذا هي أنت، فأقول: إن يكن هذا من عند الله يمضه».

ثُمَّ مَنفعةُ العِلْم مَعروفةٌ، وزُهدُ الزَّاهِدِ لا يَتعدَّىٰ عَتبَةَ بابِهِ، وقَدْ قَالَ ﷺ: «**لأنْ يَهدِي اللهُ بِكَ رَجلًا خَيرٌ لَكَ مِمَّا طَلعتْ عَلَيهِ الشَّمسُ**»[1].

ثُمَّ اعتَبِر فَضلَ الرُّسلِ عَلَىٰ الأنْبِيَاءِ عَلَيهِم الصَّلاةُ والسَّلامُ، والجَوَارِحِ عَلَىٰ الَّتِي لا تَصيدُ، والطِّينِ الَّذِي يُعْمَلُ مِنْهُ مَا يُنتفَع بِهِ عَلَىٰ الطِّينِ الَّذِي فِي المُطَّلَع[2].

وغَايَةُ العُلَمَاءِ تَصرُّفهمْ بالعِلْمِ فِي المُبَاحِ، وأكْثرُ المُتزَهِّدينَ جَهلَةٌ، يَسْتَعْبِدُهُمْ تَقبيلُ اليَدِ لأجْلِ تَركِهم مَا أُبيحَ.

فَكَمْ فَوَّتتِ العُزلَةُ عِلمًا يَصلُح بِهِ أَصْلُ الدِّينِ، وكَمْ أوقَعت فِي بَلِيَّةٍ هَلكَ بِهَا الدِّينُ، وإنَّمَا عُزلةُ العَالِم عَن الشَّرِّ فحَسْب. واللهُ المُوفِّقُ.

۞ فَصْل ۞

يَنْبغِي لكُلِّ ذِي لُبٍّ وفِطْنَةٍ أَنْ يَحذَرَ عَوَاقِب المَعاصِي

فإنَّه لَيسَ بينَ الآدمِيِّ وبَينَ اللهِ تَعَالَىٰ قَرابةٌ ولا رَحِمٌ، وإنَّمَا هُوَ قَائمٌ بالقِسطِ، حَاكمٌ بالعَدلِ، وإنْ كَانَ حِلمُه يَسَعُ الذُّنُوبَ إلَّا أَنَّهُ إذَا شَاءَ عَفا فعَفَا كُلَّ كَثيفٍ من الذُّنُوبِ، فإذَا شَاءَ أَخَذَ وأخذَ باليَسيرِ، فالحَذَرَ الحَذَرَ.

---

(١) **إسناده ضعيف**: أخرجه الطبراني (١/ ٣١٥)، والحاكم (٦٥٣٧) من حديث أبي رافع. لكن صح بلفظ: «خير لك من حمر النعم»، أخرجه البخاري (٢٩٤٢)، ومسلم (٢٤٠٦) من حديث سهل بن سعد الساعدي. وقد تقدم.

(٢) المطلع: الطريق.

ولَقَدْ رَأيْتُ أَقْوَامًا مِن المُتْرَفِينَ، كَانُوا يتقلَّبونَ فِي الظُّلمِ والمَعَاصِي؛ بَاطنةً وظَاهِرَةً، فَتبِعُوا من حَيثُ لَمْ يَحتسِبوا، فقُلِعتْ أُصُولُهم، ونُقِضَ مَا بَنَوا مِن قَواعدَ أحكَموهَا لذَرَارِيِّهم؛ ومَا كَانَ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُمْ أهمَلُوا جَانِبَ الحَقِّ ﷻ، وظَنُّوا أَنَّ مَا يَفعلُونَهُ مِن خَيرٍ يُقاومُ مَا يجْرِي مِن شَرٍّ، فمَالتْ سَفينةُ ظُنونِهم، فدَخلَها مِن مَاءِ الكيدِ مَا أَغْرَقَهُم.

ورَأيْتُ أقْوَامًا من المُنتسِبينَ إِلىٰ العِلْمِ؛ أهمَلُوا نَظرَ الحَقِّ ﷻ إِلَيهِم فِي الخَلوَاتِ، فمَحَا مَحاسِنَ ذِكرِهم فِي الجَلوَاتِ، فكَانُوا مَوجُودينَ كالمَعدُومينَ، لا حَلاوَةَ لرُؤيتِهم، ولا قَلبَ يَحنُّ إِلىٰ لِقائِهم.

فاللهَ اللهَ فِي مُراقبَةِ الحَقِّ ﷻ؛ فَإِنَّ مِيزانَ عَدلِه تَبينُ فِيهِ الذَّرَّةُ، وجَزاؤُه مُرصَّدٌ للمُخطِئِ ولَوْ بَعدَ حِينٍ.، ورُبَّما ظَنَّ أَنَّهُ العَفْوُ وإِنَّمَا هُوَ إمهَالٌ، وللذُّنوبِ عَواقِبَ سَيِّئةٌ.

فاللهَ اللهَ، الخَلواتِ الخَلواتِ، البَواطنَ البَواطنَ، النِّيَّاتِ النِّيَّاتِ؛ فَإِنَّ علَيكُم مِن اللهِ عَينًا نَاظرةً، وإِيَّاكُم والاغْترَارَ بحِلمِه وكَرمِهِ؛ فَكَمْ قَدِ استَدرَجَ، وكُونُوا عَلَىٰ مُراقبَةِ الخَطايَا، مُجتهدِينَ فِي مَحوِها، ومَا شَيْءٌ يَنفعُ كالتَّضرُّعِ مع الحمِيَّةِ عَنْ الخَطايَا؛ فلَعلَّهُ.

وهَذَا فَصْلٌ إِذَا تأمَّلهُ المُعامِلُ للهِ تَعَالَىٰ نَفعَه.

ولَقَدْ قَالَ بَعْضُ المُراقِبينَ للهِ تَعَالَىٰ: قَدَرتُ عَلَىٰ لَذَّةٍ هي غَايةٌ ولَيْست بكَبيرَةٍ، فنازَعَتْنِي نَفْسِي إِلَيهَا؛ اعتِمَادًا عَلَىٰ صِغرِها، وعِظَمِ فَضلِ اللهِ تَعَالَىٰ وكرَمِه. فَقلتُ لنَفْسِي: إِنْ غَلَبْتِ هَذِهِ فأنتِ أنتِ، وإِذَا أَتَيتِ هَذِهِ فمَنْ أنتِ؟! وذكَّرْتُها حَالَ أقْوَامٍ كَانُوا يُفسِحُونَ لأنْفُسِهم فِي مُسامَحةٍ؛ كَيْفَ انطَوتْ أَذكَارُهم، وتَمكَّنَ الإعْرَاضُ عَنهُم؛ فارْعَوَتْ ورَجعَتْ عَمَّا هَمَّتْ بِهِ. واللهُ المُوفِّقُ.

فَصْلٌ

كثيرٌ من النَّاسِ يَتسامَحُون فِي أُمورٍ يظنُّونَها قَرِيبةً، وهِي تَقْدَحُ فِي الأُصُولِ

كاستِعارَةِ طُلَّابَ العِلْمِ جُزءًا لا يَرُدُّونَه، وقَصدِ الدُّخُولِ عَلَىٰ مَن يَأْكُل لِيُؤكَلَ مَعهُ، وتَناولِ طَعامٍ لَمْ يُدعَ الإنْسَانُ إليهِ، والتَّسامُحِ بِعِرْضِ العَدوِّ؛ الْتذاذًا بذَلِكَ واستِصغَارًا لمِثلِ هَذَا الذَّنبِ، وإطْلاقِ البَصرِ فِي المُحرَّمِ؛ استِهانةً بتِلْكَ الخَطيئةِ، وَفَتْوَىٰ مَن لَا يَعْلَمُ؛ لِئَلَّا يُقَالُ: هُو جَاهِلٌ، ونَحْوِ ذَلكَ ممَّا يُظَنُّ صَغِيرًا، وَهُو كَبِيرٌ.

وأهوَنُ مَا يَصنعُ ذَلِكَ بصَاحِبِهِ أَنْ يَحطَّه من مَرتَبَةِ المُتميِّزِينَ بَينَ النَّاسِ، ومِنْ مَقامِ رِفعةِ القَدْرِ عِنْدَ الحقِّ. ورُبَّما قِيلَ لَهُ بلِسَانِ الحَالِ: يَا مَنْ اؤتُمنَ عَلَىٰ أمرٍ يَسيرٍ فخَانَ، كَيْفَ تَرجُو بتدَلِّيك رِضَا الدَّيَّانِ؟!

قالَ بَعْض السَّلفِ: تَسامحْتُ بلُقمةٍ، فتَناولْتُها، فأَنَا اليَوْمَ من أَرْبَعِينَ سَنةٍ إلىٰ خَلْفٍ.

فاللهَ اللهَ، اسْمَعُوا مِمَّنْ قَدْ جَرَّبَ، كُونُوا عَلَىٰ مُراقبَةٍ، وانظُرُوا فِي العَوَاقِبِ، واعَرفُوا عَظَمةَ النَّاهِي، واحذَرُوا مِن نَفخَةٍ تُحْتَقَرُ، وشَرَرَةٍ تُسْتَصْغَرُ، فرُبَّمَا أحْرقَتْ بَلدًا.

وهَذَا الَّذِي أَشَرتُ إلَيْهِ يَسيرٌ، يَدُلُّ عَلَىٰ كَثِيرٍ، وأُنْمُوذَجٌ يُعرِّفُ بَاقِي المُحقَّراتِ من الذُّنُوبِ، والعِلْمُ والمَعْرِفَةُ يُعرِّفانِكَ مَا أخلَلْتُ بذِكرِهِ، ويُعلِّمانِكَ - إنْ تَلمَّحْتَ بِعَينِ البَصيرَةِ - أَثَرَ شُؤمِ فِعلِه، ولا حَولَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ العَليِّ العَظيمِ.

فَصْل

رَأيْتُ من نَفْسِي عَجبًا: تَسأَلُ اللهَ ﷻ حَاجَاتِها، وتَنسَى جِنايَاتِها

فقُلْتُ: يَا نَفسَ السُّوءِ؛ أوَمِثلُكِ يَنطقُ؟! وَإِنْ نَطقَ فيَنْبغِي أَنْ يَكُونَ السُّؤالُ العَفوَ فحَسْبُ. فَقَالَتْ: فمِمَّن أَطلُبُ مُراداتي؟ قُلْتُ: مَا أَمنَعُك مِن طَلَبِ المُرادِ، إِنَّمَا أَقُولُ: حقِّقِي التَّوْبَةَ وانطِقِي، كَمَا نَقُولُ فِي العَاصِي بسَفرِه: إِذَا اضْطَرَّ إِلَىٰ المَيتةِ لا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَأكُلَ، فَإِنْ قِيلَ لنَا: أَفيَمُوتُ! قُلنَا: لَا، بَلْ يتُوبُ ويَأْكُلُ.

فاللهَ اللهَ من جُرْأَةٍ عَلَىٰ طَلَبِ الأَغْراضِ، مع نِسْيانِ مَا تقَدَّمَ مِن الذُّنُوبِ الَّتِي تُوجِبُ تَنكيسَ الرَّأسِ، ولَئِنْ تَشَاغَلتِ بإِصْلاحِ مَا مَضَىٰ، والنَّدَمِ عَلَيهِ؛ جَاءتْكِ مُراداتُكِ.

كَمَا رُوِيَ: «مَنْ شَغلهُ ذِكرِي عَنْ مَسأَلَتِي أَعْطيتُه أَفْضَلَ مَا أُعطِي السَّائِلِينَ»[1].

وقَدْ كَانَ بِشرٌ الحَافِي يَبْسُطُ يَدَيْه للسُّؤالِ، ثُمَّ يُسبِلُهمَا ويَقُولُ: «مِثْلِي لا يَسْأَلُ؛ مَا أَبْقَتِ الذُّنُوبُ لِي وَجهًا».

وهَذَا يَختصُّ ببِشرٍ؛ لِقوَّةِ مَعرِفتِه، كَانَ وَقتَ السُّؤالِ كالمُخاطِبِ كِفاحًا، فاسْتَحيَا للزَّلَلِ. فأَمَّا أَهْلُ الغَفْلَةِ فسُؤالُهُم عَلَىٰ بُعدٍ.

فَافهَمْ مَا ذَكرتُه، وتَشاغَلْ بالتَّوْبَةِ مِن الزَّلَلِ.

ثُمَّ العَجَب مِن سُؤالاتِكَ، فإِنَّكَ لا تَكَادُ تَسألُ مُهِمًّا مِنَ الدُّنْيَا، بَلْ فُضولَ العَيْشِ، ولا تَسألْ صَلاحَ القَلْبِ والدِّينِ مِثلَ مَا تَسألُ صَلاحَ الدُّنْيَا.

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الترمذي (٢٩٢٦) وقال: حديث حسن، والدارمي (٣٣٥٦) من حديث أبي سعيد الخدري. وأخرجه من حديث عمر: البخاري في «خلق أفعال العباد» (ص ١٠٩) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٧٢) وابن حبان في «المجروحين» (١/ ٣٧٦) وقال: موضوع.

فاعقِلْ أمرَكَ؛ فإنَّكَ مِن الانبِسَاطِ والغَفْلَةِ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ، وليَكُنْ حُزنُكَ عَلَىٰ زلَّاتِكَ شاغِلًا لَكَ عَن مُراداتِكَ؛ فَقدْ كَانَ الحَسنُ البَصرِيُّ شَديدَ الخَوْفِ، فَلَمَّا قِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ قَالَ: «ومَا يُؤمِّنُنِي أَنْ يَكُونَ اطَّلعَ عَلَىٰ بَعْضِ ذُنوبِي، فَقَالَ: اذهَبْ؛ لا غَفرتُ لَكَ».

❁ فَصْل ❁

أعْجَبُ العَجَب دَعوَى المَعْرِفَة مع البُعدِ عَنِ العِرفانِ باللهِ ما عَرفَه إلَّا من خَافَ مِنْهُ، فأَمَّا المُطْمَئنُّ فلَيْسَ مِن أَهْلِ المَعْرِفَةِ

وفِي المُتزَهِّدينَ أَهْلُ تَغفِيلٍ؛ يكادُ أحدُهُم يُوطِّنُ نَفْسَه عَلَىٰ أَنَّهُ وَليٌّ مَحبوبٌ ومَقبولٌ، ورُبَّما تَوالَت عَلَيهِ أَلْطَافٌ ظنَّها كَرَامَاتٍ، ونَسيَ الاستِدراجَ الَّذِي لَفَّتْ مُسَاكَنَتُه الألطَافَ، ورُبَّما احتَقرَ غَيْرَه، وظنَّ أَنَّ مَحلَّتَهُ مَحفوظَةٌ، تَغرُّه رُكَيْعَاتٌ يَنْتَصِبُ فِيها، أَوْ عِبادَةٌ يَنْصَبُ بِهَا، ورُبَّما ظنَّ أَنَّهُ قُطْبُ الأَرْضِ، وأَنَّهُ لا يَنالُ مَقامَه بعدَه أَحَدٌ، وكأَنَّه مَا عَلِمَ أَنَّهُ بينَا مُوسَىٰ مُكالَمٌ نُبِّئَ يُوشَعُ، وبيْنَا زَكريَّا ﷺ مُجابُ الدَّعوةِ نُشِرَ بالمِنشَارِ، وبيْنَا يَحيَىٰ ﷺ يوصَفُ بأَنَّهُ سيِّدٌ سُلِّطَ عَلَيهِ كَافِرٌ احتَزَّ رَأسَه، وبيَنَا بلعَامُ مَعهُ الاسمُ الأَعْظَمُ صَارَ مَثَلُهُ كمِثلِ الكَلْب، وبيَنَا الشَّرِيعَةُ يُعْمَلُ بِهَا نُسِخَتْ وبَطلَ حُكمُها، وبيَنَا البَدَنُ مَعمورٌ خَرِبَ وسُلِّط البِلَىٰ عَلَيهِ، وبيَنَا العَالِمُ يَدأَبُ حَتَّىٰ يَنالَ مَرتَبَةً يَعتقِدهَا، نَشأَ طِفلٌ فِي زَمانِه فترَقَّىٰ إلىٰ سَبْرِ عيُوبِه وغَلَطِه.

وكَمْ من مُتكلِّمٍ يَقُولُ: مَا مِثلِي لَوْ عَاشَ فسَمعَ مَا حَدَثَ بَعدَه مِن الفَصاحَةِ عدَّ نَفْسَه أَخرَسَ؛ هَذَا وَعْظُ ابنِ السَّمَّاكِ وابنِ عمَّارٍ وابنِ سَمعُونَ عِنْدَنَا؛ لا يَصلُحُ لبَعضِ تَلامذَتِنا، ولا نَرضَاهُ، فَكَيفَ يَعْجَب مَنْ يُنفِق شَيئًا، ورُبَّما أتىٰ بَعدَنا مَن لا يعدُّنَا!!

فاللهَ اللهَ مِنْ مُساكنَةِ مَسكنٍ ومُخَالفَةِ مَقام، وليَكُنِ المُتيقِّظُ عَلَىٰ انزعاجٍ، مُحتقِرًا للكثير من طَاعَاتِه، خَائفًا عَلَىٰ نَفْسِه من تقَلُّبَاتِهِ، ونُفُوذ الأقْدَارِ فِيهِ.

واعْلَمْ؛ أَنَّ تَلمُّحَ هَذِهِ الأَشْيَاءَ الَّتِي أشَرتُ إِلَيهَا يَضربُ عُنقَ العُجْبِ، ويُذهِبَ بَطَرَ الكِبْرِ.

❁ فَصْل ❁

مَنْ عَاشَ معَ اللهِ ﷻ طيِّبَ النَّفْسِ فِي زَمَنِ السَّلامَةِ خفَّتْ عَلَيهِ زَمَنَ البَلاءِ؛ فهُناكَ المَحكُّ

إنَّ الله ﷻ بينَا يَبنِي نَقَضَ، وبَيْنا يُعطِي سَلَبَ؛ فَطيِّبُ النَّفْسِ والرِّضَا هُنَاكَ يَبينُ، فأَمَّا من تَواصَلَت لدَيهِ النِّعمُ؛ فإِنَّه يَكُونُ طَيِّبَ القَلْبِ لتَواصُلِها، فَإذَا مَسَّتهُ نفحةٌ مِن البَلاءِ؛ فَبعِيدٌ ثَباتُه.

قَالَ الحَسنُ البَصريُّ: «كَانُوا يَتسَاوونَ فِي وقْتِ النِّعَمِ، فَإِذَا نَزلَ البَلاءُ تَبايَنوا».

فالعَاقِلُ مَن أَعدَّ ذُخرًا، وحَصَّلَ زَادًا، وازدَادَ مِن العُدَدِ للقَاءِ حَربِ البَلاءِ، ولا بُدَّ من لِقاءِ البَلاءِ، ولَوْ لَمْ يَكُنْ إلَّا عِنْدَ صَرعَةِ المَوْتِ؛ فإِنَّها إنْ نَزلَت - والعِياذُ باللهِ - فَلمْ تَجِدْ مَعْرِفَةً تُوجِبُ الرِّضَىٰ أَوْ الصَّبْرَ؛ أخرَجتْ إلىٰ الكُفرِ.

ولَقَدْ سَمِعْتُ بَعْضَ مَن كُنْتُ أَظُنُّ فِيهِ كَثْرَةَ الخَيْرِ، وهُوَ يَقُولُ فِي لَيالِي مَوتِهِ: «رَبِّي هُوَ ذَا يَظلِمُنِي»!! فَلمْ أَزَلْ مُنْزعِجًا مُهتَمًّا بتَحصيلِ عُدَّةٍ ألقَىٰ بِهَا ذَلِكَ اليَوْم.

كَيْفَ؛ وقَد رُوِي أَنَّ الشَّيْطَان يَقُولُ لأعوانه فِي تِلْكَ السَاعَة: «عَليكُمْ بهَذَا؛ فَإِنْ فاتكُم لَمْ تَقدِرُوا عَليْهِ».

وأيُّ قَلبٍ يَثْبُتُ عِنْدَ إمْساكِ النَّفْسِ، والأخْذِ بالكَظْمِ، ونَزْعِ النَّفْسِ، والعِلْمِ بمُفارَقةِ المَحبُوبَاتِ إلىٰ مَا لا يَدرِي مَا هُو، ولَيْسَ فِي ظَاهِرِه إلَّا القَبْرُ والبَلاءُ.

فنَسْألُ اللهَ ﷻ يَقِينًا يَقِينَا شَرَّ ذَلِكَ اليَوْم، لَعلَّنا نَصبرُ للقَضاءِ، أوْ نَرضَىٰ بِهِ، ونَرْغَبُ إلَىٰ مَالِكِ الأُمُورِ فِي أنْ يَهبَ لَنَا مِن فَواضِلِ نِعَمِهِ عَلَىٰ أحبَابِه، حَتَّىٰ يَكُونَ لِقاؤُهُ أحَبَّ إلَيْنَا مِن بَقائِنَا، وتَفويضُنَا إلىٰ تَقدِيرِه أشْهَىٰ لَنَا مِن اختِيارِنَا.

ونَعُوذُ باللهِ مِن اعْتِقَادِ الكَمالِ لتَدبِيرِنَا، حَتَّىٰ إذَا انعَكسَ عَلَينَا أمْرٌ عُدْنَا إلَىٰ القَدَرِ بالتَّسخُّطِ، فهَذَا هُوَ الجَهْلُ المَحْضُ، والخُذلانُ الصَّرِيحُ، أعاذَنا اللهُ مِنهُ.

❁ فَصْلٌ ❁

لَيسَ فِي الدُّنْيَا ولا فِي الآخِرَةِ أطيَبُ عَيشًا مِن العَارِفِينَ باللهِ ﷻ

فَإنَّ العَارِفَ بِهِ مُستأنِسٌ بِهِ فِي خَلوتِه، فَإنْ عَمَّتْ نِعمةٌ عَلِمَ مَن أهدَاهَا، وإنْ مَرَّ مُرٌّ حَلَا مَذاقُه فِي فِيهِ؛ لمَعرِفتِه بالمُبْتَلِي، وإنْ سَألَ فَتعَوَّقَ مَقْصُودُه صَارَ مُرادُه مَا جَرَىٰ بِهِ القَدَرُ؛ عِلمًا مِنْهُ بالمَصلَحَة بَعدَ يَقينِه بالحِكْمَةِ، وثِقتِه بحُسنِ التَّدبيرِ.

وصِفَةُ العَارِفِ: أنَّ قَلبَه مُراقِبٌ لمَعروفِه[1]، قَائمٌ بَينَ يَدَيْه، نَاظرٌ بعَينِ اليَقينِ إلَيهِ؛ فَقدْ سَرَىٰ مِن بَركَةِ مَعرفَتِه إلَىٰ الجَوارِحِ مَا هذَّبَها.

فَــإنْ نَطَقْــتُ فَلَــمْ أنْطِــقْ بِغَيْــرِكُمُ ** وَإنْ سَــكَتُّ فَــأنْتُمْ عَقْــدُ إضْـمَارِي

---

(١) أي: لربه.

إِذَا تَسلَّط عَلَىٰ العَارِفِ أَذًىٰ؛ أَعْرَضَ نظرُه عَنِ السَّبَبِ، ولَمْ يرَ سِوَىٰ المُسبِّبَ، فَهُو فِي أَطيَبِ عَيشٍ مَعهُ: إِنْ سَكَتَ تفكَّرَ فِي إِقَامَةِ حَقِّه، وإِنْ نَطقَ تَكلَّم بِمَا يُرضِيه، لا يَسكُنُ قَلبُه إِلَىٰ زَوجَةٍ ولا إِلَىٰ وَلدٍ، ولا يَتشَبَّثُ بذَيلِ مَحبَّتِه أَحَدٌ، وإِنَّمَا يُعاشِرُ الخَلْقَ ببدَنِه ورُوحِه عِنْدَ مَالكِ رُوحِه، فهَذَا الَّذِي لا هَمَّ عَلَيهِ فِي الدُّنْيَا، ولا غَمَّ عِنْده وَقتَ الرَّحيلِ عَنهَا، ولا وَحْشَةَ لَهُ فِي القَبرِ، ولا خَوفَ عَلَيهِ يَوْمَ الحَشْرِ.

فأَمَّا من عُدِمَ المَعْرِفَةَ؛ فإِنَّه مُعَثَّرٌ، لا يَزَال يَضِجُّ من البَلاءِ؛ لأَنَّهُ لا يَعرِفُ المُبتَلِي، ويستَوحِشُ لفَقدِ غَرضِهِ؛ لأَنَّهُ لا يَعرِفُ المَصلَحَةَ، ويَستَأنِسُ بجِنسِه؛ لأَنَّهُ لا مَعْرِفَةَ بَينَهُ وبَينَ رَبِّهِ، ويَخافُ مِن الرَّحيلِ؛ لأَنَّهُ لا زَادَ لَهُ ولا مَعْرِفَةَ بالطَّرِيقِ.

وكَمْ من عَالِمٍ وزَاهِدٍ لَمْ يُرزَقا مِن المَعْرِفَةِ إِلَّا مَا رُزِقَهُ العَامِّيُّ البطَّالُ، ورُبَّما زَادَ عَلَيهِما! وكَمْ مِن عَامِّيٍّ رُزِقَ مِنهَا مَا لَمْ يُرزَقاهُ معَ اجْتِهَادِهمَا! وإِنَّمَا هِي مَواهِبُ وأَقسَامٌ، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٥٤].

❊ فَصْلٌ ❊

بِاللهِ عَلَيْك؛ يَا مَرفوعَ القَدْرِ بالتَّقوَى، لا تَبعْ عِزَّهَا بِذُلِّ المَعَاصِي

وصَابِرْ عَطشَ الهَوَىٰ فِي هَجِيرِ المُشتَهىٰ، وإِنْ أَمَضَّ وأَرْمضَ، فَإِذَا بَلغَتَ النِّهايَةَ مِن الصَّبرِ فَاحْتكِم وقُلْ: هُو مَقامُ مَنْ لَوْ أَقْسمَ عَلَىٰ اللهِ لأَبَرَّهُ.

تَاللهِ؛ لَوْلَا قُوَّةُ صَبْرِ عُمَرَ مَا انبسطَتْ يَدُه بِضَرْبِ الأَرْضِ بالدِّرَّةِ، ولَوْلا جِدُّ أَنَس بْنِ النَّضْرِ فِي تَركِ هَواهُ -وقَد سَمِعتَ مِن آثَارِ عَزمَتِهِ-: «لئِنْ أَشهَدَني اللهُ

مَشهدًا ليَرينَّ اللهُ مَا أصنعُ»، فأَقبَل يَوْمَ أحُدٍ يُقاتِلُ حَتَّىٰ قُتِلَ فَلمْ يُعرَف إلَّا ببنَانِه، فلَولا هَذَا العَزمُ مَا كَانَ انبساطُ وَجهِه يَوْمَ حَلفَ: «واللهُ لا تُكسَر سِنُّ الرُّبَيِّع»[1].

باللهِ عَلَيْك؛ تَذوَّق حَلاوَةَ الكَفِّ عَن المَنهيِّ؛ فإِنَّها شَجرةٌ تُثمِرُ عِزًّا فِي الدُّنْيَا وشَرفًا فِي الآخِرَةِ، ومَتىٰ اشتَدَّ عَطشُك إلَىٰ مَا تَهوَىٰ، فابْسُطْ أَنَامِلَ الرَّجاءِ إلىٰ مَنْ عِنْدَه الرِّيُّ الكَامِلُ، وقُلْ: قَدْ عِيلَ صَبرُ الطَّبْعِ فِي سِنيهِ العِجافِ، فعجِّلْ لي العَامَ الَّذي أُغاثُ فِيهِ وأَعْصِرُ.

باللهِ عَلَيْكَ؛ تفكَّرْ فِيمنْ قَطعَ أَكْثَر العُمُرِ فِي التَّقوَىٰ والطَّاعَة، ثُمَّ عرَضَتْ لَهُ فِتنةٌ فِي الوَقْتِ الأخِيرِ؛ كَيْفَ نَطَحَ مَرْكَبَهُ الجُرُفَ فغَرقَ وقْتَ الصُّعودِ.

أُفٍّ - واللهِ - للدُّنيَا - لا؛ بَلْ للجَنَّةِ - إنْ أَوْجَبَ نَيلُها إِعرَاضَ الحَبيبِ.

إنَّمَا نَسَبُ العَامِّيِّ باسْمِه واسْمِ أَبِيهِ، فأَمَّا ذَوُو الأَقْدَارِ؛ فالأَلقَابُ قَبلَ الأَنْسابِ.

قُلْ لي: مَنْ أنتَ؟ ومَا عَملُكَ؟ وإلَىٰ أيِّ مَقَامٍ ارْتَفعَ قَدْرُكَ؛ يَا منْ لا يَصْبِرُ لَحْظَةً عمَّا يَشْتَهِي.

باللهِ عَلَيْكَ؛ أَتدرِي مَنِ الرَّجُلُ؟! الرَّجُلُ - والله - مَنْ إِذَا خَلا بِمَا يُحبُّ مِن المُحَرَّمِ، وقَدرَ عَليهِ، وتَقَلْقَلَ عَطَشًا إِلَيْهِ؛ نَظرَ إلَىٰ نَظرِ الحَقِّ إِلَيْهِ، فاسْتحيَا مِن إجَالَةِ هَمِّه فِيمَا يَكرَهُه، فذَهَبَ العَطشُ.

---

(١) صحيح: أخرج البخاري (٢٧٠٣)، ومسلم (١٦٧٥) عن أنس، أن الربيع وهي ابنة النضر كسرت ثنية جارية، فطلبوا الأرش، وطلبوا العفو، فأبوا، فأتوا النبي ﷺ، فأمرهم بالقصاص، فقال أنس بن النضر: أتكسر ثنية الربيع يا رسول الله، لا والذي بعثك بالحق، لا تكسر ثنيتها، فقال: «يا أنس! كتاب الله القصاص»، فرضي القوم وعفوا، فقال النبي ﷺ: «إن من عباد الله من لو أقسم علىٰ الله لأبره».

كَأَنَّكَ لا تَترُكُ لَنَا إِلَّا مَا لا تَشْتَهِي، أَوْ مَا لا تَصدُقُ الشَّهْوةُ فِيهِ، أَوْ مَا لا تَقدِرُ عَلَيهِ!!

كَذَا - واللهِ - عَادتُكَ إِذَا تَصدَّقتَ؛ أَعطَيتَ كِسرةً لا تَصلُحُ لكَ، أَوْ فِي جَمَاعَةٍ يَمدَحُونَك.

هَيهَاتَ؛ واللهِ لا نِلتَ ولايَتَنا، حَتَّىٰ تَكُونَ مُعامَلتُك لَنَا خَالصَةً، تبذُلُ أَطَايبَكَ، وتَترُكُ مُشتَهياتِكَ، وتَصبرُ عَلَىٰ مَكرُوهَاتِكَ؛ عِلمًا مِنكَ - تدَّخرُ ثَوابَك لدَينا - إِنْ كُنْت مُعَاملًا بأَنَّكَ أَجِيرٌ، ومَا غَربَتِ الشَّمسُ، فَإِنْ كُنْتَ مُحبًّا رَأيْتَ ذَلِك قلِيلًا فِي جَنبِ رِضَىٰ حَبيبِكَ عَنكَ، ومَا كَلامُنا مع الثَّالِثِ!!

فَصْلٌ

رَأَيْتُ فِي العَقْلِ نَوعَ مُنازَعةٍ لِلتَّطلُّعِ إلى مَعْرِفَةِ جَميعِ حِكَمِ الحَقِّ ﷻ فِي حُكمِه

فربَّمَا لَمْ يتبيَّن لَهُ بَعضُها- مثلُ النَّقضِ بَعدَ البناءِ - فيَقفُ مُتحيِّرًا، ورُبَّما انتهزَ الشَّيْطَانُ تِلْكَ الفُرصَةَ فوَسوَسَ إِلَيهِ: أَيْنَ الحِكْمَةُ مِن هَذَا؟

فَقُلتُ لَهُ: احذَرْ أَنْ تُخدَعَ يَا مِسكِينُ، فَإِنَّهُ قَدْ ثَبتَ عندك بالدَّلِيل القَاطِع - لِمَا رَأيْتَ من إتقَانِ الصَّنائع - مَبلَغَ حِكمةِ الصَّانِعِ، فَإِنْ خَفيَ عَلَيْك بَعْضُ الحِكَم؛ فَلِضَعْفِ إدرَاكِكَ.

ثُمَّ مَا زَالَت للمُلوكِ أَسْرَارٌ؛ فمَنْ أنتَ حَتَّىٰ تَطَّلعَ بضَعفِك عَلَىٰ جَميعِ حِكَمِه؟! يَكْفِيكَ الجُمَل.

وإيَّاكَ إيَّاكَ؛ أَنْ تَتعرَّضَ لِمَا يَخفَىٰ عليكَ؛ فإنَّكَ بَعْضُ مَوضُوعَاتِه، وذَرَّةٌ مِن مَصْنُوعاتِه، فكَيفَ تَتحكَّمُ عَلَىٰ مَن صَدَرْتَ عَنهُ؟!

ثُمَّ قَدْ ثَبَتَت عِنْدَكَ حِكمَته وحُكْمهُ ومُلكَهُ؛ فأَعْمِلْ آلَتَكَ عَلَىٰ قَدرِ قُوَّتِكَ فِي مُطالَعةِ مَا يُمكِنُ مِن الحِكَم؛ فإنَّه سَيُورِثُكَ الدَّهَش، وغَمِّضْ عمَّا يَخفَىٰ عَلَيْكَ؛ فحَقيقٌ بذِي البَصَرِ الضَّعيفِ ألَّا يُقَاوِيَ نُورَ الشَّمسِ.

❁ فَصْلٌ ❁

أعْجَبُ الأَشْيَاء مُجاهَدةُ النَّفْسِ لأنَّهَا تَحتاجُ إلى صِناعةٍ عَجِيبةٍ

فَإِنَّ أقْوَامًا أطْلقوهَا فِيمَا تُحبُّ؛ فأوقَعتْهُم فِيمَا كَرِهُوا، وإنَّ أقْوَامًا بَالغُوا فِي خِلافِها حَتَّىٰ مَنعُوها حظَّهَا، وظَلَمُوها حقَّهَا، وأَثَّرَ ظُلْمُهم لَهَا فِي تعبُّداتِهم.

فمِنْهُم: مَن أَسَاءَ غِذاءَها؛ فأثَّرَ ذَلِكَ ضَعفَ بدَنِها عَنْ إقَامَة وَاجِبها.

ومِنْهُم: مَن أفردَهَا فِي خَلوةٍ أثمَرتِ الوَحشةَ مِن النَّاسِ، وآلَتْ إِلَىٰ تَركِ فَرضٍ أَوْ فَضلٍ؛ من عِيادَةِ مَريضٍ، أَوْ بِرِّ وَالدةٍ.

وإنَّمَا الحازم مَن تَعْلَمُ مِنْهُ نَفْسُه الجِدَّ وحِفظَ الأُصُولِ، فَإِذَا فَسَحَ لَهَا فِي مُباح لَمْ تتَجاسَرْ أَنْ تتَعدَّاهُ، فيَكُونُ مَعهَا كالمَلِكِ إِذَا مَازَحَ بَعْضَ جُندِهِ؛ فإنَّه لا يَنبَسِطُ إِلَيْهِ الغُلامُ، فَإِن انبَسطَ ذكَرَ هَيبَةَ المَمْلكَةِ؛ فكَذَلكَ المُحقِّقُ يُعطِيها حَظَّها، ويَستَوفِي مِنهَا مَا عَلَيهَا.

فَصْل

رَأيْتُ عُمومَ الخَلائقِ يَدفعُونَ الزَّمَانَ دَفعًا عَجِيبًا:

إنْ طَالَ اللَّيْلُ؛ فبحَدِيثٍ لا يَنفعُ، أوْ بقِراءَةِ كِتابٍ فِيهِ غزَاةٌ وسَمَرٌ، وإنْ طَالَ النَّهَارُ؛ فبالنَّوْم، وهُمْ فِي أطرَافِ النَّهَارِ عَلَىٰ دِجْلَةَ أوْ فِي الأَسْوَاقِ؛ فَشَبَّهتُهُمْ بالمُتَحَدِّثينَ فِي سَفينةٍ، وهي تَجرِي بِهِم، ومَا عِنْدَهم خَبَرٌ.

ورَأيْتُ النَّادرِينَ قَدْ فَهِمُوا مَعْنَىٰ الوجُودِ، فَهُمْ فِي تَعبئَةِ الزَّادِ والتَّأهُّبِ للرَّحيلِ، إلَّا أَنَّهُمْ يتَفَاوَتُونَ، وسَبَبُ تَفَاوُتِهم قِلَّةُ العِلْمِ وكثْرَتهُ بِمَا يُنفقُ في بَلدِ الإِقَامَةِ:

فالمُتيقِّظُون مِنهُم: يَتطلَّعُون إلَىٰ الأَخْبَارِ بالنَّافقِ هُنَاكَ، فيَستكثِرونَ مِنْهُ، فيَزيدُ رِبحُهُم.

والغَافِلونَ مِنهُم: يَحمِلُون مَا اتَّفقَ، ورُبَّما خَرجُوا لا مع خَفيرٍ، فَكَمْ مِمَّنْ قَدْ قُطِعتْ عَلَيهِ الطَّرِيقُ فبَقيَ مُفلِسًا.

فاللهَ اللهَ؛ فِي مَواسِمِ العَمَلِ، والبدَارَ البدَارَ قَبلَ الفَواتِ، واستَشهِدُوا العِلْمَ، واسْتدِلُّوا الحِكْمَةَ، ونَافِسوا الزَّمَانَ، ونَاقشُوا النُّفُوسَ، واستَظهِرُوا بالزَّادِ، فَكأنْ قَدْ حَدَا الحَادِي فَلَمْ يُفْهَم صَوتُه مِنْ وَقْعِ دَمعِ النَّدَمِ.

فَصْلٌ

أَضَرُّ مَا عَلَى المَرِيضِ التَّخلِيطُ، ومَا من أحَدٍ إلَّا وهُوَ مَرِيضٌ بالهَوَى والحَميَّة رَأسُ الدَّواءِ، والتَّخلِيطُ يُديمُ المَرَضَ

وتَخليطُ أَرْبَابِ الآخِرَةِ علَىٰ ضربَينِ:

أحَدُهُمَا: تَخليطُ العُلَمَاءِ، وهُوَ إمَّا لمُخَالطَة الأَضْدَادِ كالسَّلاطِينِ؛ فَإنَّهُم يُضعِفُونَ قُوَىٰ يَقينِهم، وكُلَّمَا زَادَت المُخَالطَةُ؛ يَفقدُون دَلِيلَهم عِنْدَ المُريدِين؛ فَإِنِّي إذَا رَأَيتُ طَبيبًا يُخَلِّطُ ويَحْمِيني؛ شَكَكْتُ أَوْ وَقَفْتُ.

والثَّانِي: تَخليطُ الزُّهَّاد، وقَد يَكُونُ بمُخَالطَة أَرْبَاب الدُّنْيَا، وقَد يَكُون بحِفظِ النَّامُوس وَإظهَارِ التَّخشُّعِ؛ لاجتِلابِ مَحبَّةِ العَوامِّ.

فاللهَ اللهَ؛ فَإنَّ نَاقدَ الجَزاءِ بَصيرٌ، والإخْلاصُ فِي البَاطِنِ، والصِّدقُ فِي القَلبِ، ونِعمَ طَرِيقُ السَّلامَةِ سَتْرُ الحَالِ.

فَصْلٌ

لَقيتُ مَشايخَ أحْوالُهم مُختلفةٌ يتَفَاوُتونَ فِي مَقادِيرِهم فِي العِلْمِ فكَانَ أَنفعَهُم لِي فِي صُحْبَته العَاملُ مِنهُم بعِلمِهِ، وإنْ كَانَ غَيْرُه أعْلَمَ مِنهُ

ولَقيتُ جَمَاعَةً مِن عُلماءِ الحَديثِ، يحفَظُونَ ويعرِفُونَ؛ ولكِنَّهُم كَانُوا يَتسامَحُون بغِيبةٍ يُخرِجُونها مَخرَج جَرحٍ وتَعدِيل، ويأْخُذُونَ عَلَىٰ قِراءةِ الحَديثِ أُجْرَةً، ويُسرِعونَ بالجَوَاب؛ لِئلَّا يَنكسِرَ الجاهُ، وإنْ وقَعَ خطأٌ.

ولَقيتُ عَبْدَ الوَهَّابِ الأنمَاطِيَّ؛ فكَانَ عَلَىٰ قَانُونِ السَّلَفِ؛ لَمْ يُسْمَعْ فِي مَجلِسهِ غِيبَةٌ، ولا كَانَ يَطلُبُ أَجْرًا عَلَىٰ سَمَاع الحَدِيثِ، وكُنْتُ إذَا قَرأتُ عَلَيهِ أَحَادِيثَ

الرَّقائِقِ بَكَىٰ واتَّصل بُكاؤُه، فكُنْتُ -وأَنَا صَغيرُ السِّنِّ حِينئِذٍ- يَعْمَلُ بُكاؤُه فِي قَلبِي ويَبنِي قَواعِدَ، وكَانَ عَلَىٰ سَمتِ المَشايخِ الَّذِينَ سَمِعْنا أوصَافَهُم فِي النَّقْلِ.

ولَقيتُ الشَّيْخَ أبَا مَنصُورٍ الجَوالِيقيَّ؛ فكَانَ كَثِيرَ الصَّمتِ، شَديدَ التَّحرِّي فِيمَا يَقولُ، مُتقِنًا مُحققًا، ورُبَّما سُئِلَ المَسألَةَ الظَّاهِرةَ الَّتِي يُبادِرُ بجَوابِهَا بَعْضُ غِلمَانِه، فيَتوقَّفُ فِيهَا حَتَّىٰ يَتيقَّنَ، وكَانَ كَثِيرَ الصَّوْمِ والصَّمتِ.

فانتَفعْتُ برُؤيَةِ هَذينِ الرَّجلَينِ أكْثَرَ مِن انتِفَاعِي بغَيرِهمَا، ففَهِمْتُ مِن هَذِهِ الحَالةِ أَنَّ الدَّلِيلَ بالفِعْلِ أرشَدُ من الدَّلِيلِ بالقَولِ.

فرَأيْتُ مَشايخَ؛ كَانَتْ لَهُم خَلوَاتٌ فِي انبساطٍ ومِزاحٍ، فرَاحُوا عَنِ القُلُوبِ، وبَدَّد تفرِيطُهُم مَا جَمعُوا مِن العِلْم، فَقَلَّ الانتِفاعُ بِهِم فِي حَياتِهِمْ، ونُسُوا بَعدَ مَماتِهِم، فَلا يكاد أحَدٌ أَنْ يَلتفِتَ إِلَىٰ مُصنَّفاتِهِم.

فاللهَ اللهَ؛ فِي العَمَلِ بالعِلْم؛ فإِنَّه الأَصْلُ الأكبَرُ، والمِسكِينُ كُلُّ المِسكِينِ من ضَاعَ عُمُرُهُ فِي عِلمٍ لَمْ يَعْمَل بِهِ، ففَاتَهُ لَذَّاتُ الدُّنْيا وخَيراتُ الآخِرَةِ، فقَدِمَ مُفلِسًا؛ علىٰ قُوَّةِ الحُجَّةِ عَلَيْهِ.

۞ فَصْلٌ ۞

سُبحَانَ المَلكِ العَظِيمِ الَّذِي مَن عَرَفَه خَافَه، ومَا أَمِنَ مَكرَه قَطُّ مَن عَرَفَه

لقَدْ تَأمَّلتُ أَمْرًا عَظيمًا: أَنَّهُ ﷻ يُمهِل حَتَّىٰ كأنَّه يُهمِلُ، فتَرَىٰ أَيدِي العُصَاةِ مُطلقَةً كأَنَّه لا مَانِعَ، فَإِذَا زَادَ الانبِسَاطُ ولَمْ تَرعَوِ العُقُولُ؛ أَخذَ أَخْذَ جَبَّارٍ.

وإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ الإمهَالُ؛ لِيَبلُوَ صَبرَ الصَّابرِ، ولِيُملِيَ فِي الإمهَالِ للظَّالِمِ، فيُثبِّتُ هَذَا عَلَىٰ صَبرِه، ويُجَازِي هَذَا بقَبِيحِ فِعلِه، معَ أَن هُنالِكَ مِن الحِكَمِ فِي طَيِّ ذَلِكَ مَا لا نَعلَمُه.

فَإِذَا أَخَذَ أَخْذَ عُقُوبَةٍ، رَأَيْتَ عَلَىٰ كُلِّ غَلْطةٍ تَبِعَةً، ورُبَّما جُمِعَتْ فَضَرَبَ العَاصِي بالحَجَرِ الدَّامِغِ.

ورُبَّما خَفِيَ عَلَىٰ النَّاسِ سَبَبُ عُقوبَتِهِ؛ فقِيلَ: فُلانٌ مِن أَهْلِ الخَيْرِ، فَمَا وَجْهُ مَا جَرَىٰ لَهُ؟ فيقُولُ القَدَرُ: حُدودٌ لذُنوبٍ خَفيَّةٍ، صَارَ استِيفَاؤُها ظَاهِرًا.

فسُبحانَ مَن ظَهرَ حَتَّىٰ لا خَفاءَ بِهِ، واستَتَر حَتَّىٰ كَأَنَّه لا يُعرَفُ، وأَمْهَلَ حَتَّىٰ طُمِعَ فِي مُسَامَحَتِه، ونَاقَشَ حَتَّىٰ تَحيَّرَتِ العُقُولُ مِن مُؤاخَذتِه، ولا حَولَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ.

❁ فَصْلٌ ❁

تَأَمَّلتُ العِلْمَ والمَيْلَ إلَيْهِ والتَّشَاغُلَ بِهِ فَإِذَا هُوَ يُقَوِّي القَلْبَ قُوَّةً تَمِيلُ بِهِ إلى نَوعِ قَسَاوَةٍ ولَوْلا قُوَّةُ القَلْبِ وطُولُ الأَمَلِ؛ لَمْ يَقَعِ التَّشَاغُلُ بِهِ

فَإِنِّي أَكْتُبُ الحَدِيثَ، أرجُو أَنْ أَرْوِيَهُ، وأَبتَدِئ بالتَّصنيفِ، أَرجُو أَنْ أُتِمَّه، فَإِذَا تَأَمَّلتُ بَابَ المُعامَلاتِ قَلَّ الأَمَلُ، ورَقَّ القَلبُ، وجَاءتِ الدُّمُوعُ، وطَابتِ المُنَاجَاةُ، وغَشيتِ السَّكينةُ، وصِرتُ كأَنِّي فِي مَقامِ المُراقبةِ إلَّا أَنَّ العِلْم أَفْضَلُ وأَقْوَىٰ حُجَّةً، وأَعلَىٰ رُتبةً، وإنْ حَدثَ مِنْهُ مَا شَكوتُ مِنْهُ.

والمُعامَلةُ؛ وإنْ كثُرتِ الفَوائدُ الَّتِي أَشَرتُ إلَيهَا مِنهَا؛ فإِنَّها قَرِيبةٌ إلىٰ أَحْوَالِ الجَبانِ الكَسلانِ، الَّذِي قَدِ اقتَنعَ بصَلاحِ نَفْسِه عَنْ هِدَايَةِ غَيرِه، وانفَردَ بعُزلَتِه عَنِ اجتِذابِ الخَلْقِ إلىٰ ربِّهِم.

فالصَّوَابُ: العُكوفُ عَلَىٰ العِلْمِ مع تَلذِيعِ النَّفْسِ بأَسْبَابِ المُرقِّقاتِ، تَلذِيعًا لا يَقدَحُ فِي كَمالِ التَّشَاغُلِ بالعِلْم.

فَإنِّي لأَكْرَهُ لنَفْسِي - مِن جِهَةِ ضَعفِ قَلبِي ورِقَّتِهِ - أَنْ أُكْثِرَ زِيارةَ القُبُورِ، وأنْ أَحْضُرَ المُحْتَضَرِينَ؛ لأَنَّ ذَلِكَ يُؤَثِّر فِي فكري، ويُخرِجُني مِن حَيِّزِ المُتَشاغِلينَ بالعِلْمِ إلىٰ مَقامِ الفِكرِ فِي المَوْتِ، ولا أنتَفِعُ بنَفْسِي مُدَّةً.

وفَصْلُ الخِطابِ فِي هَذَا: أَنَّهُ يَنْبغِي أَنْ يُقاوَمَ المَرَضُ بضِدِّه؛ فمَنْ كَانَ قَلبُه قَاسِيًا شَديدَ القَسْوةِ، ولَيْسَ عِنْدَه مِنَ المُراقَبةِ مَا يَكفُّهُ عَنِ الخَطَإِ؛ قَاومَ ذَلِكَ بذِكرِ المَوْتِ، ومُحاضَرةِ المُحتَضرِينَ.

فأَمَّا من قَلبُهُ شَديدُ الرِّقَّةِ؛ فيَكْفِيهِ مَا بِهِ، بَلْ يَنْبغِي لَهُ أَنْ يَتشَاغَلَ بِمَا يُنسِيهِ ذَلِكَ؛ لِيَنتفِعَ بعَيشِه، ولِيفْهَمَ مَا يُفتِي بِهِ.

وقَدْ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يَمزَحُ، ويُسابِقُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا[1]، ويتلطَّفُ بنَفْسِه، فمَنْ سَارَ سيرَتَهُ ﷺ فَهِمَ مِن مَضمُونِها مَا قُلتُه مِن ضَرورَةِ التَّلطُّفِ بالنَّفْسِ.

فَصْل

منْ أظرَفِ الأَشْيَاءِ إفَاقةُ المُحتَضرِ عِنْدَ مَوتِه

فإِنَّه يَنتبِهُ انتِباهًا لا يُوصَفُ، ويَقلقُ قَلقًا لا يُحدُّ، ويَتلهَّفُ عَلَىٰ زَمانِه المَاضِي، ويودُّ لَوْ تُرِكَ كيْ يتَدارَكُ مَا فَاتَه ويَصْدُق فِي تَوبتِه عَلَىٰ مِقْدَارِ يَقينِه بالمَوْتِ، ويَكادُ يَقتُلُ نَفْسَه قَبلَ مَوتِها بالأَسَفِ

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٢٤٦١٩، ٢٦٧٨٢، ٢٦٨٠٧)، وأبو داود (٢٥٧٨)، وابن ماجه (١٩٧٩)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٨٨٩٣، ٨٨٩٥)، وابن حبان (٤٦٩١) من حديث عائشة.

فلَوْ وَجِدَتْ ذَرَّةً مِن تِلْكَ الأَحْوَالِ فِي أوَانِ العَافِيَةِ، حَصلَ كُلُّ مَقْصُودٍ مِن العَمَلِ بالتَّقوَىٰ، فالعَاقِلُ مَن مَثَّل تِلْكَ السَاعَةِ، وعَمل بمُقتضَىٰ ذَلِكَ، فَإِنْ لَمْ يَتهيَّأْ تَصويرُ ذَلِكَ عَلَىٰ حَقِيقَتِهِ؛ تَخايلَه عَلَىٰ قَدرِ يقَظتِه؛ فإنَّه يكُفُّ كَفَّ الهَوَىٰ، ويَبعثُ عَلَىٰ الجِدِّ.

فأَمَّا من كَانَتْ تِلْكَ السَاعَةُ نُصْبَ عَيْنَيهِ؛ كَانَ كالأَسِيرِ لَهَا، كَمَا رُوِي عَنْ حَبيبِ العَجمِيِّ أَنَّهُ كَانَ إِذَا أصبَحَ يَقُولُ لامرَأتِه: «إذَا مِتُّ اليَوْمَ ففُلانٌ يَغسِّلُنِي، وفُلانٌ يحَمِلُنِي».

وقَالَ مَعروفٌ لرَجلٍ: «صَلِّ بنَا الظُّهرَ»، فَقَالَ: «إنْ صَلَّيتُ بكُمُ الظُّهرَ لَمْ أُصلِّ بِكمُ العَصرَ»، فَقَالَ: «وكَأَنَّك تُؤمِّل أَنْ تَعيشَ إِلَىٰ العَصرِ! نَعُوذُ باللهِ من طُولِ الأَمَلِ».

وذَكَرَ رَجُلٌ رَجُلًا بينَ يَدَيْه بغِيبةٍ، فجَعلَ مَعروفٌ يَقُولُ لَهُ: «اذْكُرِ القُطنَ إِذَا وَضعُوه عَلَىٰ عَينيْكَ».

❁ فَصْلٌ ❁

رُبَّما أخَذَ المُتيقِّظُ بِبَيتِ شِعرٍ، فأخَذَ مِنْهُ إشَارةً؛ فانتَفعَ بِهَا

قَالَ الجُنيدُ: نَاولَني سريٌّ رُقعةً مَكتوبٌ فِيهَا: سَمِعتُ حَاديًا في طَرِيق مَكَّةَ -شرَّفهَا اللهُ تَعَالَىٰ- يَقُولُ:

أَبْكِـي وَمَـا يُـدْرِيكِ مَـا يُبْكِينِـي ** أَبْكِـي حِـذَارًا أَنْ تُفَـارِقِيني

وَتَقْطَعِي حَبْلِي وَتَهْجُرِينِـي

فانْظُر - رَحمَك اللهُ ووفَّقكَ - إلىٰ تأثيرِ هَذِهِ الأبياتِ عِنْدَ سَرِيٍّ، حَتَّىٰ أَحبَّ أَنْ يطَّلعَ مِنهَا الجُنيدُ عَلَىٰ مَا اطَّلعَ عَلَيهِ، ولَمْ يصلُحْ للاطِّلاعِ عَلَىٰ مِثلِها إلَّا الجُنيدُ.

فَإِنَّ أَقْوَامًا فِيهِمْ كَثافةُ طَبعٍ، وخُشونةُ فهْمٍ، قَالَ بعضُهم لَمَّا سَمعَ مثلَ هذِه: إلَىٰ مَن يُشارُ بهَذِهِ؟! إنْ كَانَ إلَىٰ الحَقِّ، فالحَقُّ ﷻ لا يُشارُ إلَيْهِ بلَفظِ تأنيثٍ، وإنْ كَانَ إلىٰ امرأةٍ؛ فأيْنَ الزُّهْدُ؟!

ولَعَمْرِي إنَّ هَذَا حَدُّ أَهْلِ الغَفْلَةِ إِذَا سَمِعُوا مِثلَ هَذَا؛ ولِذلِكَ يُنهَىٰ عَنْ سَمَاعِ القَصائِد وأقوالِ أَهْلِ الغِناءِ؛ لأَنَّ الغَالِبَ حَملُ تِلْكَ الأبياتِ عَلَىٰ مَقاصِد النَّفْسِ، وغَلَباتِ الهَوَىٰ، ومنْ أيْنَ لَنَا مِثلَ الجُنَيدِ وسريٍّ؟ فإذَا وجَدنَا مِثلَهُما؛ فهُما خَبيرَانِ بِمَا يَسمعَان.

فأمَّا اعتِراضُ هَذَا الكثيفِ الطَّبْعِ؛ فالجَوَابُ: أَنَّ سريًّا لَمْ يَأخذِ الإِشَارَة مِن اللَّفظِ، ولَمْ يقِسْ ذَلِكَ عَلَىٰ مَطْلُوبهِ؛ فيُصيِّره تَأنيثًا أَوْ تَذكِيرًا، وإِنَّمَا أَخذَ الإِشَارَةَ مِن المَعنَىٰ؛ فكَأَنَّهُ يُخاطِبُ حَبيبَه بمَعْنَىٰ الأبيَاتِ، فيَقولُ: أَبكِي حَذارًا مِن إعرَاضِكَ وإبعَادِكَ. فهَذَا الحَاصلُ لَهُ تَذْكِيرًا، ومَا التَفتَ قَطُّ إِلَىٰ تَذكيرٍ، ولا إِلَىٰ لَفظِ تَأنيثٍ؛ فافْهَمْ هَذَا.

وما زَالَ المُتيقِّظونَ يَأخذُونَ الإِشَارةَ من مِثلِ هَذَا، حَتَّىٰ كَانُوا يَأخذُونَها من هَذَا الَّذِي تَقُولُه العَامَّة، ويُلقِّبونَه بِـ «كَان وكَان».

فرَأيْتُ بخَطِّ ابنِ عَقيلٍ عَنْ بَعْضِ مَشايخِهِ الكِبارُ، أَنَّهُ سَمعَ امرأَةً تُنْشِدُ:

غَـــسَّلْتُ لُّــــهْ طُــولِ اللَّيْــــلْ ** فَرَّكْـــتُ لُّـــــهْ طُـــولِ النَّهَـــارْ

خَـــــرَجْ يُعَــــــايِنْ غَيْـــــرِي ** زَلَـــقْ وَقَـــعْ فِـــي الطِّــــينْ

فأخَذَ من ذَلِكَ إِشَارةً، مَعنَاها: يَا عَبْدِي؛ إِنِّي حَسَّنتُ خَلْقَك، وأَصْلَحْتُ شَأْنَك، وقَوَّمْتُ بَنِيَّتَك، فأقْبلْتَ عَلَىٰ غَيرِي؛ فانظُرْ عَوَاقِبَ خِلافِك لِي.

وقَالَ ابنُ عَقيلٍ: وسَمِعتُ امرَأةً تَقُولُ من هَذَا الـ «كان وكَان» كَلِمَةً بَقيتُ في قَلقِهَا[١] مُدَّةً:

كَـمْ كُنْـتْ بـاللهِ أَقُـولْ لَـكْ ** لِـذَا التَّـوَانِي غَائِلَـهْ

وَللقَبِـيحِ خَمِيْـرَهْ ** تَبِـينُ بَعْـدَ قَلِيـلْ

قَالَ ابنُ عَقِيلٍ: فَمَا أوقَعهُ مِن تَخجِيلٍ عَلَىٰ إهمَالِنا لأمُورٍ، غدًا تَبينُ خَمائرُها بينَ يَدي الله تَعَالَىٰ.

فَصْل

أمكنَنِي تَحصيلُ شَيْءٍ من الدُّنْيَا بنَوعٍ من أنوَاعِ الرُّخَص

فكُنْتُ كُلَّمَا حَصلَ شَيْءٌ مِنْهُ فاتَنِي مِن قَلبِي شَيْءٌ، وكُلَّمَا استَنارَتْ لِي طَرِيقُ التَّحصِيلِ تَجَدَّدَ فِي قَلبِي ظُلْمَةٌ.

فقُلْتُ: يَا نفسَ السُّوءِ؛ الإِثْمُ حوَّازُ القُلُوبِ، وقَدْ قَالَ ﷺ: «**استَفتِ نَفْسَكَ**»[٢]؛ فَلا خَيرَ فِي الدُّنْيَا كُلِّها إِذَا كَانَ فِي القَلْبِ من تَحصيلِها شَيْءٌ أَوْجَبَ نَوعَ كدَرٍ، وإِنَّ الجَنَّةَ لَوْ حُصِّلَتْ بسَبَبٍ يَقدَحُ فِي الدِّينِ أَوْ فِي المُعامَلَةِ مَا لَذَّتْ، والنَّوْمُ فِي المزَابِلِ معَ سَلامةِ القَلْبِ مِن الكَدَرِ أَلَذُّ مِن تكِئاتِ المُلوكِ.

(١) أي: التفكر فيها.

(٢) حسن: أخرجه أحمد (١٨١٦٤، ١٨١٦٩) والدارمي (٢٥٧٥) من حديث وابصة بن معبد. وحسنه المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢٦٨٣). وله شاهد من حديث أبي ثعلبة الخشني عند أحمد (١٧٧٤٢)، بإسناد جيد؛ قاله المنذري (٢٦٨٤).

ومَا زِلْتُ أَغْلِبُ نَفْسِي تَارةً وتَغْلِبُني أُخرَىٰ، ثُمَّ تَدَّعَىٰ الحَاجَةَ إِلَىٰ تَحصيلِ مَا لا بُدَّ لَهَا مِنْهُ، وتَقُول: فَمَا أَتَعَدَّىٰ فِي الكَسْبِ المُبَاحِ فِي الظَّاهِر. فَقُلتُ لَهَا: أَوَلَيْسَ الوَرَعُ يَمنعُ مِن هَذَا؟ قَالَتْ: بلىٰ. قُلْتُ: أَلَيْستِ القُوَّةُ فِي القَلْبِ تَحصُل بِهِ؟ قَالَتْ: بلىٰ. قُلْتُ: فَلا خَيرَ لَكِ فِي شَيْءٍ هَذَا ثَمرَتُهُ.

فَخَلوتُ يَومًا بنَفْسِي، فَقُلتُ لَهَا:

وَيْحَكِ؛ اسمَعِي أُحَدِّثْكِ: إنْ جَمعتِ شَيئًا مِن الدُّنْيَا مِن وَجْهٍ فِيهِ شُبهَةٌ، أَفأَنتِ عَلَىٰ يقِينٍ مِن إِنفَاقِه؟ قَالَتْ: لا. قُلْتُ: فَالمِحنَةُ أَنْ يَحْظَىٰ بِهِ الغَيرُ ولا تَنالِينَ إِلَّا الكَدرَ العَاجِلَ، والوِزرَ الَّذِي لا يُؤمَنُ!

ويحَكِ؛ اترُكِي هَذَا الَّذِي يَمنعُ مِنْهُ الوَرعُ لأَجْلِ اللهِ، فعَامِليهِ بتَركِه، وكأنَّكِ لا تُريدينَ أَلَّا تترُكِي إِلَّا مَا هُوَ مُحرَّمٌ فقَطْ، أَوْ مَا لا يَصِحُّ وَجْهُهُ! أَوَمَا سَمعتِ أنَّ «**مَنْ تَركَ شَيئًا للهِ عوَّضهُ اللهُ خَيرًا مِنهُ**»[1]؟!

أَمَا لَكِ عِبرةٌ فِي أَقْوامٍ جمعُوا فحَازَه سِواهُم، وأَمَّلُوا فَمَا بَلغُوا مُناهُم؟ كَمْ مِن عَالِمٍ جمعَ كُتُبًا كَثيرَةً مَا انتَفعَ بِها، وكَمْ من مُنتفِعٍ مَا عِنْدَه عَشرةُ أجزاءَ، وكَمْ مِن طيِّبِ العَيْشِ لا يَملكُ دِينارَينِ، وكَمْ مِن ذِي قَناطِيرَ مُنغَّصٌ!

أَمَا لَكِ فِطنةٌ تتَلمَّحُ أَحْوَالَ مَن يترَخَّصُ مِن وَجْهٍ، فيُسلبُ مِنْهُ من أوْجُه؟! رُبَّمَا نزَلَ المَرَض بصَاحِبِ الدَّارِ أوْ ببَعضِ مَنْ فِيهَا؛ فأنفَقَ فِي سَنَتِه أضعَافَ مَا ترخَّصَ فِي كَسبِه، والمتَّقِي مُعَافًىٰ.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٢٣٠٧٤) عن رجل من أهل البادية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنك لن تدع شيئا لله إلا بدلك الله به ما هو خير لك منه**».

فَضَجَّتِ النَّفْسُ مِن لَوْمِي، وقَالَتْ: إِذَا لَمْ أَتعدَّ وَاجِبَ الشَّرْعِ، فَمَا الَّذِي تُرِيدُ مِنِّي؟! فقُلْتُ لَهَا: أَضِنُّ بِكِ عَنِ الغَبْنِ، وأَنتِ أعرَفُ ببَاطِنِ أَمرِكِ.

قَالَتْ: فَقُلْ لي؛ مَا أصنَعُ. قُلْتُ: عَلَيْكِ بِالمُراقَبَةِ لمَن يَراكِ، وَمَثِّلِي نَفْسَكَ بحَضرَةِ مُعظَّمٍ مِن الخَلْقِ؛ فإِنَّكِ بَينَ يَدَي المَلكِ الأَعْظَمِ، يَرَىٰ مِن بَاطنِك مَا لا يَراهُ المُعَظَّمونَ مِن ظَاهِرِك، فخُذِي بالأحوَطِ، واحْذَرِي مِن التَّرخُّص فِي بَيعِ اليَقينِ والتَّقوَىٰ بعَاجِلِ الهَوَىٰ، فَإِنْ ضَاقَ الطَّبْع مِمَّا تَلقِينَ فقُولي لَهُ: مَهْلًا؛ فَمَا انقَضَتْ مُدَّةُ الإِشارَةِ، واللهُ مُرشِدكِ إلىٰ التَّحقِيق، ومُعينُكِ بالتَّوفِيقِ.

فَصْلٌ

ما زِلتُ أَسْمَعُ عَنْ جَمَاعَةٍ مِن الأَكَابِرِ وأَرْبَابِ المَناصِبِ أَنَّهُمْ يَشْربُون الخُمُورَ ويَفْسُقونَ ويَظْلِمُونَ، ويَفْعَلونَ أَشْيَاءَ تُوجِبُ الحُدودَ

فبَقِيتُ أَتفكَّر، وأَقُولُ: مَتىٰ يَثبُتُ عَلَىٰ مِثلِ هَؤُلاءِ مَا يُوجِبُ حَدًّا؟ ولَوْ ثَبتَ فمَنْ يُقيمُه؟ وأَسْتَبعِدُ هَذَا فِي العَادَةِ؛ لأَنَّهُم فِي مَقَامِ احتِرامٍ لأَجْلِ مناصِبهِم.

فبَقِيتُ أتفكَّرُ في تَعطيلِ الحَدِّ الوَاجبِ عَلَيهِم، حَتَّىٰ رَأيناهُم قَدْ نُكِبُوا وأُخِذُوا مَرَّاتٍ، ومَرَّتْ عَلَيهِمُ العَجائِبُ؛ فقُوبِلَ ظُلمُهم بأَخْذِ أموالِهِم، وأُخِذَتْ مِنهُم الحُدودُ مُضاعفَةً بَعدَ الحَبسِ الطَّويلِ، والقَيدِ الثَّقيلِ، والذُّلِّ العَظيمِ، وفِيهِم من قُتِل بَعدَ مُلاقَاةِ كُلِّ شِدَّةٍ.

فعَلِمتُ أَنَّهُ مَا يُهْمَلُ شَيْءٌ، فالحَذَرَ الحَذَرَ؛ فَإِنَّ العُقُوبَةَ بالمِرصادِ.

۞ فَصْل ۞

اجْتِهَادُ العَاقِلِ فِيمَا يُصلِحُه لازِمٌ لَهُ بمُقتضَى العَقْلِ والشَّرْعِ

فمِنْ ذَلِكَ حِفظُ مَالِه، وطَلَبُ تنميَتِه والرَّغبَةُ في زِيادَتِه؛ لأَنَّ سَبَبَ بَقَاء الإنْسَانِ مَالُه، فَقَدْ نُهِيَ عَنِ التَّبذيرِ فِيهِ، فقِيلَ لَهُ: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾، فَأُعْلِمْ أَنَّهُ سَبَبُ لبقَائِه، ﴿ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾ [النساء: ٥] أيْ: قَوامًا لمعَاشِكُم. وقَالَ ﷻ: ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٦]، وقَالَ تعَالَىٰ: ﴿ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧].

ومن فَضِيلَةِ المَالِ: أَنَّ الله تعَالَىٰ قَالَ: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ [البقرة: ٢٦١]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ ﴾ [الحديد: ١٠].

وجَعلَ المَالَ نِعمَةً، وزَكاتَه تَطهِيرًا، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وقَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**نِعمَ المَالُ الصَّالحُ للرَّجلِ الصَّالحِ**»(١)، وقَالَ: «**مَا نفَعنِي مَالٌ كمَالِ أَبِي بَكرٍ**»(٢).

---

(١) صحيح: أخرجه من حديث عمرو بن العاص: أحمد (١٧٧٦٣)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٩٩)، وابن حبان (٣٢١٠)، والحاكم (٢١٣٠، ٢٩٢٦) وقال: صحيح علىٰ شرط مسلم.

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٧٤٤٦، ٨٧٩٠)، الترمذي (٣٦٦١) وقال: حديث حسن. وابن ماجه (٩٤)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٨١١٠)، وابن حبان (٦٨٥٨) من حديث أبي هريرة.

وكَانَ أَبُو بَكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَخرُج إلىٰ التِّجارَةِ ويَترُكُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَلا يَنهَاهُ عَنْ ذَلِكَ.

وقَالَ عمر بْن الخطاب - رِضوَانُ اللهِ علَيهِ -: «لَأَنْ أَمُوتَ بينَ شُعبَتَيْ جَبلٍ أَطْلُب كَفافَ وَجهِي، أَحَبُّ إليَّ مِنْ أَنْ أَمُوتَ غَازيًا فِي سَبيلِ اللهِ».

وكَانَ جَمَاعَةٌ مِن الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ يتَّجرُونَ، ومِن سَادَاتِ التَّابِعينَ سَعيدُ بْنُ المُسيِّبِ، فمَاتَ وخَلَّفَ مَالًا، وكَانَ يَحْتكِرُ الزَّيتَ، وما زَالَ السَّلَف عَلَىٰ هذا.

ثُمَّ قَدْ تَعْرِضُ نَوائبٌ كالمَرَضِ، يحْتَاجُ فِيهَا إلىٰ شَيْءٍ مِن المَالِ، فَلا يَجدُ الإنْسَانُ بُدًّا مِن الاضْطِرَابِ فِي طِلْبَتِهِ، فَيَبْذُلُ عِرضَهُ أَوْ دِينَهُ.

ثُمَّ للنَّفْسِ قُوَّةٌ بَدنيَّةٌ عِنْدَ وُجُودِ المَالِ، وهُوَ مَعدودٌ عِنْدَ الأَطبَّاءِ مِن الأدوِيةِ، وتِلْكَ حِكمةٌ وَضعَها الوَاضِعُ.

وإنَّمَا نَبَغَ أَقْوَامٌ طَلبُوا طَرِيقَ الرَّاحَة، فادَّعَوا أَنَّهُمْ مُتَوَكِّلةٌ، وقَالُوا: نحْنُ لا نُمسِكُ شَيئًا، ولا نَتزوَّدُ لسَفرٍ، ورِزقُ الأَبْدَان يَأْتِي.

وهَذَا عَلَىٰ مُضَادّه الشَّرْعُ؛ فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَهىٰ عَنْ إضَاعةِ المَالِ[1]، ومُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا سَافرَ في طَلَبِ الخَضرِ تَزوَّدَ، ونَبيُّنَا ﷺ لَمَّا هَاجرَ تَزوَّدَ، وأبلَغُ من هَذَا: قَولُه تَعَالَىٰ: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

ثُمَّ يدَّعِي هَؤُلاءِ المُتصوِّفَةُ بُغض الدُّنْيا! فَلا يَفهَمُونَ مَا الَّذِي يَنْبغِي أَنْ يُبغَض، ويرَونَ زِيَادَةَ الطَّلَبِ للمَالِ حِرصًا وشَرَهًا!!

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٤٧٧، ٢٤٠٨، ٥٩٧٥، ٦٤٧٣، ٧٢٩٢)، ومسلم (٥٩٣) من حديث المغيرة بن شعبة. وأخرجه مسلم (١٧١٥) من حديث أبي هريرة.

وفِي الجُمْلَة؛ إنَّمَا اخترَعُوا بآرَائِهم طَرِيقًا فِيهَا شَيْءٌ مِن الرَّهبانيَّةِ؛ إذَا صَدقُوا، وشَيْءٌ مِن البَهْرَجَةِ؛ إذَا نَصَبُوا شِباكَ الصَّيدِ بالتَّزهُّد؛ فسَمَّوْا مَا يَصلُ إلَيهم مِن الأَرْزَاقِ: فُتوحًا!!

قَالَ ابنُ قُتيبةَ فِي «غَريبِ الحَدِيثِ» عِنْدَ شَرحِ قَولِهِ ﷺ: «**واليَدُ العُليَا**»(١) قَالَ: «هِيَ المُعطِيَةُ». قَالَ: فالعجَبُ عِنْدِي مِن قَوْمٍ يَقُولُونَ: هي الآخِذَةُ، ولا أَرَىٰ هَؤُلاءِ القَوْم إلَّا قَومًا استَطابُوا السُّؤالَ، فَهُمْ يَحْتَجُّونَ للدَّناءَةِ، فأَمَّا الشَّرَائِعُ فإِنَّها بَريئةٌ مِن حَالِهم.

وفِي الحَدِيثِ: «**ضَاقَ البلدُ بمَواشِي إبْرَاهِيمَ ولُوطَ فافترَقَا**»(٢)، وكَانَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَثِيرَ المَالِ، ثُمَّ قَدْ ندَّ طمَعهُ فِي زِيَادَة الأجرِ من مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ [القصص:٢٧].

وكَانَ ابنُ عقيلٍ - رَحمَةُ اللهِ عَلَيْهِ- يَقُولُ: «منْ قَالَ إنِّي لا أُحبُّ الدُّنْيَا فَهُو كذَّابٌ؛ فَإِنَّ يَعقوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا طُلِبَ مِنْهُ ابنُهُ بنيامِينَ قَالَ: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [يوسف: ٦٤]، فَقَالُوا: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ [يوسف: ٦٥]، فقَالَ: خُذُوهُ».

وقَالَ بَعْضُ السَّلفِ: «منِ ادَّعىٰ بُغضَ الدُّنْيَا فَهُو عِنْدِي كذَّابٌ إلىٰ أَنْ يَثْبُتَ صِدقُهُ، فَإذَا ثَبتَ صِدْقهُ فَهُو مَجنُونٌ».

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٤٢٧، ١٤٧٢، ٢٧٥٠، ٣١٤٣، ٦٤٤١)، ومسلم (١٠٣٤، ١٠٣٥) من حديث حكيم بن حزام. والبخاري (١٤٢٨، ٥٣٥٥) ومسلم (١٠٤٢) من حديث أبي هريرة. والبخاري (١٤٢٩) ومسلم (١٠٣٣) من حديث ابن عمر. ومسلم (١٠٣٦) من حديث أبي أمامة.

(٢) لم أجده.

وقَدْ نَفَّرَ جَمَاعَةٌ مِن المُتصوِّفَةِ خَلقًا مِن الخَلْق عَن الكَسْبِ، وأَوْحَشُوا بَينَهم وبَينَه، وهُوَ دَأْبُ الأَنْبياءِ والصَّالِحِينَ، وإنَّمَا طَلَبُوا طَرِيقَ الرَّاحَةِ وجَلسُوا عَلَىٰ الفُتوحِ، فَإذَا شَبعُوا رَقَصُوا، فَإذَا انْهَضَمَ الطَّعَامُ أَكَلُوا، فَإذَا لاحَتْ لَهُم حِيلَةٌ عَلَىٰ غِنَّيٍ أَوْجَبُوا عَلَيهِ دَعْوَةً؛ إمَّا بسَبَب شُكرٍ، أوْ بسَبَب استِغفارٍ، وأَطَمُّ الطَّامَّاتِ: ادِّعاؤُهُم أَنَّ هَذَا قُربَةٌ!

وقَدِ انعَقَدَ إجْمَاعُ العُلَمَاء أَنَّ مَن ادَّعَىٰ الرَّقْص قُربَةً إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ كَفَرَ، فلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا: مُباحٌ؛ كَانَ أقرَبَ حَالًا؛ وهَذَا لأَنَّ القُرَبَ لا تُعرفُ إِلَّا بالشَّرْع، ولَيْسَ فِي الشَّرْعِ أمْرٌ بالرَّقصِ ولا نَدبٌ إِلَيهِ.

ولَقَدْ بلَغنِي عَنْ جَمَاعَةٍ مِنهُم، أَنَّهُمْ كَانُوا يُوقدُونَ الشَّمعَ فِي وجُوهِ المُرْدَانِ، ويَنْظُرونَ إِلَيهِم، فَإذَا سُئلُوا عَنْ ذَلِكَ سَخِرُوا بالسَّائلِ، فَقَالُوا: نَعتبِرُ بخَلقِ اللهِ!

أَفَتُراهُم أَقْوَىٰ مِن النَّبيِّ ﷺ حِينَ أَجْلَسَ الشَّابَّ الَّذِي وَفدَ عَلَيهِ مِن وَراءِ ظَهرِه، وقَالَ: «وهَلْ كَانَتْ فِتنةُ دَاودَ إلَّا مِن النَّظَر؟!»[(١)].

هَيهَاتَ! لَقَد تَملَّك الشَّيْطَانُ تِلْكَ الأزِمَّةَ، فقَادَها إِلىٰ مَا أَرَادَ.

والعَجبُ مِمَّنْ يذُمُّ الدُّنْيا، وهُوَ يَأكُل فيَشبعُ، ولا ينظُرُ مِن أَيْنَ المَطْعَمُ!

ومَا زَالَ صَالحُوا السَّلَفِ يُفتِّشُون عَلَىٰ المَطْعمِ، حَتَّىٰ كَانَ إبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهمَ يَسْهَرُ هُوَ وأَصْحَابُه ويَقُولُونَ: مَع مَنْ نَعمَلُ غَدًا؟ وكَانَ سَرِيُّ السَّقطيُّ يُعرَفُ بطِيبِ الغِذاءِ، ولَهُ فِي الوَرعِ مَقامَاتٌ.

---

(١) لم أجد هذه القصة ولا هذا القول مرفوعًا، وإنما روي هذا القول دون القصة من قول سعيد بن جبير موقوفًا عليه، رواه سعيد بن منصور، كما في «الدر المنثور» (٧/ ١٦٢). والله أعلم.

فجَاءَ قَوْمٌ يَتَسَمَّوْنَ بالصُّوفِيَّةِ، يدَّعُون اتباعَ أُولَئِكَ السَّادَةَ، ويَأكلُونَ من مَالِ فُلانٍ، وهُم يعرِفُونَ أُصُولَ تِلْكَ الأمْوَالِ، ويَقُولُونَ: رُزِقْنَا.

فَوا عَجَبًا! إِذَا كَانَ الآكِلُ لا يُبالِي بِهِ من أَيْنَ كَانَ، ولا لَديهِ امتِناعٌ مِنْ شَهْوَةٍ ولا تَقلُّلٌ، ولا يَخْلُو الرِّباطُ[1] مِن المَطبخِ، ولا يَنقَطِعُ لَيلةً، وأصلُهُ مِن مَالٍ قَدْ عُرِفَ مِنْ أَيْنَ هو، والحمَّامُ دَائرٌ، والمُغنِّي يدُقُّ بدُفٍّ فِيهِ جَلاجِل، ورَفيقُه بالشَّبَّابةِ، وسُعدَىٰ ولَيلَىٰ فِي الإنشَادِ، والمُرْدَانُ فِي الشَّمعِ؛ ثُمَّ يذُمُّ الدُّنْيا بَعدَ هَذَا!!

فقُولُوا لنَا: مَنْ يتلَهَّىٰ بالنَّاسِ إِلَّا هَؤُلاءِ؟ ولَكِنْ مَنْ مَرَّتْ عَلَيهِ زَرْجَنَتُهُمْ[2] فإِنَّه أَخَسُّ مِنهُمْ.

فَصْلٌ

عرَضَ لَنَا فِي طَرِيقِ الحَجِّ خَوفٌ مِن العَرَبِ، فسِرنَا عَلَى طَرِيقِ خَيبَرَ، فرَأَيْتُ مِن الجِبَالِ الهَائلَةِ والطُّرُقِ العَجِيبةِ مَا أَذْهَلَنِي

وزَادَتْ عظَمةُ الخَالِقِ ﷻ فِي صَدْرِي، فصَارَ يَعرِضُ لي عِنْدَ ذِكرِ تِلْكَ الطُّرُق نَوعُ تَعظِيمٍ لا أَجِدُه عِنْدَ ذِكرِ غَيرِها.

فَصِحْتُ بالنَّفْسِ: وَيْحَكِ؛ اعبُرِي إِلَىٰ البَحرِ، وانظُرِي إِلَيْهِ وإِلَىٰ عَجَائِبه بعَينِ الفِكرِ؛ تُشاهِدي أهوَالًا هِي أَعْظَمُ مِن هَذِه.

---

(١) الرباط: مكان اجتماع المتصوفة.

(٢) أي: خديعتهم.

ثُمَّ اخرُجِي عَنِ الكَونِ والتَفتِي إِلَيْهِ؛ فإنَّكِ تَرَيْنَه بالإِضَافَةِ إِلَىٰ السَّمواتِ والأَفْلاكِ كَذرَّةٍ فِي فَلاةٍ.

ثُمَّ جُولِي فِي الأَفْلاكِ وطُوفِي حَولَ العَرْشِ وتَلمَّحي مَا في الجِنانِ والنِّيرانِ.

ثُمَّ اخْرُجِي عَنِ الكُلِّ والتَفتِي إِلَيْهِ؛ فإنَّكِ تُشاهِدِينَ العَالَم فِي قَبضةِ القَادِرِ الَّذِي لا تَقفُ قُدرتُه عِنْدَ حَدٍّ.

ثُمَّ التَفتِي إِلَيْكِ؛ فتَلمَّحي بدَايتَك ونِهايتَكِ، وتَفكَّري فِيمَا قَبلَ البِدايةِ ولَيْسَ إِلَّا العَدَمُ، وفِيمَا بَعدَ البِلَىٰ ولَيْسَ إِلَّا التُّرابُ.

فَكَيفَ يَأْنَسُ بِهَذَا الوجُودِ مَنْ نَظرَ بعَينِ فِكرِه المَبدَأَ والمُنتَهىٰ؟!

فكَيفَ يَغْفَلُ فِعلُ القُلُوبِ عَنْ ذِكرِ هَذَا الإِلَهِ العَظيمِ؟!

تاللهِ لَوْ صَحَتِ النُّفُوسُ عَنْ سُكرِ هَواهَا لذَابتْ مِن خَوفِه، أوْ لغَابَت فِي حُبِّه، غَيْرَ أَنَّ الحِسَّ غَلبَ، فعَظُمتْ قُدرَةُ الخَالِق عِنْدَ رُؤيَة جَبلٍ، وإنَّ الفِطنَةَ لَوْ تَلمَّحتِ المَعانِي لدَلَّتِ القُدرَةُ عَلَيهِ أوْفَىٰ من دَلِيل الجَبلِ.

سُبحانَ من شَغَلَ أَكْثَر الخَلْق بِمَا هُم فِيهِ عمَّا خُلقُوا لَهُ! سُبْحَانَهُ!

فَصْل

للبَلاءِ نِهاياتٌ مَعلومةُ الوَقْتِ عِنْدَ الله عَزَّ وَجَلَّ

فَلا بُدَّ للمُبتلَى مِنَ الصَّبْرِ إلى أَنْ يَنْقَضِي أَوَانُ البَلاءِ

فَإِنْ تقَلقَلَ قَبلَ الوَقْتِ لَمْ يَنفعِ التَّقلقُلُ، كَمَا أَنَّ المادَّة إِذَا انحدرَتْ إلىٰ عُضوٍ فإِنَّها لنْ تَرجِع، فَلا بُدَّ مِن الصَّبْرِ إلىٰ حِينِ البَطالَةِ، فاستِعجالُ زَوالِ البَلاءِ مع تَقديرِ مُدَّتِه لا يَنفعُ.

فالوَاجبُ الصَّبْرُ، وإِنْ كَانَ الدُّعَاءُ مَشرُوعًا، ولا يَنْتَفِعُ إِلَّا بِهِ، إِلَّا أَنَّهُ لا يَنْبغِي للدَّاعِي أَنْ يَستعجِلَ، بَلْ يتَعبَّدُ بالصَّبْرِ والدُّعَاءِ والتَّسْلِيمِ إلىٰ الحَكيمِ، ويَقطعُ المَوادَّ الَّتِي كَانَتْ سَببًا للبَلاءِ؛ فَإِنَّ غَالبَ البَلاءِ أَنْ يَكُونَ عُقُوبَةً.

فأَمَّا المُستعجِلُ؛ فمُزاحِمٌ للمُدبِّرِ، ولَيْسَ هَذَا مَقامَ العُبوديَّةِ، وإِنَّمَا المَقامُ الأَعْلَىٰ هُوَ الرِّضَىٰ، والصَّبْرُ هُوَ اللازِمُ، والتَّلاقِي بكَثْرَةِ الدُّعَاءِ نِعمَ المُعتمَدُ، والاعْتِرَاضُ حَرامٌ؛ والاستِعجَالُ مُزاحَمةٌ للتَّدبيرِ؛ فافْهَم هَذِهِ الأَشْيَاءَ؛ فَإِنَّها تُهوِّنُ البَلاءَ.

فَصْل

لَيسَ في الوجُودِ شَيْءٌ أصعَبُ من الصَّبْرِ

إِمَّا عَنِ المَحبُوبِ، أَوْ عَلَىٰ المَكرُوهاتِ، وخُصُوصًا إِذَا امتدَّ الزَّمَانُ، أَوْ وَقعَ اليَأسُ مِن الفرَجِ، وتِلْكَ المُدَّةُ تَحتَاجُ إِلَىٰ زَادٍ يَقطعُ بِهِ سَفرَها.

والزَّادُ يَتنَوَّعُ مِن أَجْناسٍ.

فمِنهُ: تَلمُّحُ مِقْدَار البَلاءِ، وقَد يُمكِن أَنْ يَكُونَ أَكْثَرَ.

ومِنهُ: أَنَّهُ فِي حَالٍ فَوقَها أعْظَمُ مِنهَا؛ مِثلَ أَنْ يُبتلَىٰ بفَقدِ ولَدٍ وعِندَه أَعَزُّ مِنْهُ.

ومِنْ ذَلِكَ: رَجاءُ العِوَض فِي الدُّنْيَا.

ومِنهُ: تَلمُّح الأَجْرَ فِي الآخِرَةِ.

ومِنهُ: التَّلذُّذ بتَصويرِ المَدحِ والثَّناءِ مِن الخَلْقِ فِيمَا يمدَحُونَ عَلَيهِ، والأَجْرِ مِن الحَقِّ ﷻ. ومِنْ ذَلِكَ: العِلْمُ بأنَّ الجَزعَ لا يُفيدُ، بَلْ يَفضَحُ صَاحِبَه.

إلىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِن الأَشْيَاءِ الَّتِي يقدَحُها العَقْلُ والفِكرُ، فلَيْسَ فِي طَرِيقِ الصَّبْرِ نَفقةٌ سِوَاها، فيَنْبغِي للصَّابرِ أَنْ يَشْغَلَ بِهَا نَفْسَهُ، ويَقْطَعَ بِهَا سَاعَاتِ ابتِلائِه، وقَدْ صَبَّحَ المَنْزِلَ.

۞ فَصْل ۞

يَنْبغِي لمَنْ وقَع في شِدَّةٍ ثُمَّ دَعا أَلَّا يختَلجَ فِي قَلبِه أمرٌ من تَأخِيرِ الإجَابَةِ أوْ عَدَمِها

لأَنَّ الَّذِي إلَيْهِ أَنْ يَدعُو، والمَدعوُّ مَالكٌ حَكيمٌ، فَإِن لَمْ يُجِبْ فَعلَ مَا يَشاءُ فِي مُلْكِه، وإِنْ أَخَّرَ فَعلَ بِمُقتضَىٰ حِكمتِه. فالمُعترِضُ عَلَيهِ فِي سِرِّه خَارجٌ عَنْ صِفَةِ: عَبْدٍ، مُزاحِمٌ بمَرتَبَةِ: مُستَحِقٍّ.

ثُمَّ ليَعلَم أَنَّ اختِيارَ اللهِ ﷻ لَهُ خَيرٌ مِن اختِيارِه لنَفْسِه؛ فرُبَّمَا سَأَلَ سَيْلًا سَالَ بِهِ، وفِي الحَدِيثِ أَنَّ رجُلًا كَانَ يسْأَلُ اللهَ ﷻ أَنْ يَرزُقَه الجِهَادَ، فهَتفَ بِهِ هَاتفٌ: «إنَّكَ إنْ غَزَوتَ أُسِرتَ وإنْ أُسِرتَ تنصَّرتَ»[1].

---

(١) لم أجده.

فَإذَا سَلَّم العَبْدُ تَحكيمًا لحِكمَتهِ وحُكمِه، وأَيقَنَ أَنَّ الكُلَّ مُلْكُهُ؛ طَابَ قَلْبُه؛ قُضيَتْ حَاجتُه أوْ لَمْ تُقضَ.

وفي الحَدِيثِ: «مَا من مُسلِمٍ دَعَا اللهَ تَعَالَىٰ إلَّا وَأجَابَه، فإمَّا أَنْ يُعجِّلَها، وإمَّا أَنْ يؤخِّرَها، وإمَّا أَنْ يدَّخرَها لَهُ في الآخِرَة»[1].

فَإذَا رَأَىٰ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنَّ مَا أُجِيبَ فِيهِ قَدْ ذَهَبَ ومَا لَمْ يُجَبْ فِيهِ قَدْ بَقِي ثَوابُه؛ قَالَ: لَيتَك لَمْ تُجِبْ لِي دَعوةً قَطُّ[2].

فَافهَمْ هَذِهِ الأَشْيَاءَ، وسلِّمْ قَلْبَكَ مِن أَنْ يَختلِجَ فِيهِ رَيْبٌ أو استِعجَالٌ.

فصل

مَنْ أرَادَ أَنْ يَعرِفَ رُتبةَ العُلَمَاءِ عَلَى الزُّهَّادِ

فليَنظُرْ فِي رُتبةِ جِبريلَ ومِيكَائِيلَ ومَنْ خُصَّ مِنَ المَلائِكَةِ بولايَةٍ تتَعلَّقُ بالخَلْقِ، وبَاقِي المَلائِكَةُ قِيامٌ للتعبُّدِ فِي مَراتبِ الرُّهبَانِ فِي الصَّوامِعِ، وقَدْ حَظِيَ أولَئِكَ بالتقَرِيبِ عَلَىٰ مَقادِيرِ عِلمِهم باللهِ تَعَالَىٰ.

فَإذَا أُمِرَ أَحْدُهم بالوَحيِ، انزَعجَ أَهْلُ السَّمَاءِ حَتَّىٰ يُخبرَهم بالخَبرِ، فَـ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٢٣].

---

(١) صحيح: أخرجه من حديث أبي سعيد الخدري: أحمد (١١١٣٣)، وعبد بن حميد (٩٣٧)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧١٠)، والحاكم (١٨١٦) وقال: صحيح الإسناد.

(٢) ضعيف: أخرج الحاكم (١٨١٩) والبيهقي في «شعب الإيمان» (١١٣٣) نحوه من حديث جابر، وضعفه الحاكم.

وكَمَا إِذَا انزَعجَ الزَّاهِدُ من حَدِيثٍ يسمَعهُ، فسَأَلَ العُلَمَاءَ عَنْ صحَّتِه ومَعنَاهُ، فسُبحانَ مَن خَصَّ فَرِيقًا بخَصائِص شَرُفُوا بِهَا عَلَىٰ جِنْسِهِمْ.

ولا خِصِّيصةَ أشرَفُ مِن العِلْمِ؛ بزِيادَتِه صَارَ آدَمُ مَسجُودًا لَهُ، وبنُقصانِه صَارَتِ المَلائِكَةُ سَاجِدَةً؛ فأقرَبُ الخَلْقِ مِن اللهِ العُلَمَاءُ.

ولَيْسَ العِلْمُ بمجَرَّدِ صُورَتِه هُوَ النَّافِع، بَلْ مَعناه، وإنَّمَا يَنالُ مَعنَاهُ مَن تعلَّمَهُ للعَملِ بِهِ، فكُلَّمَا دلَّهُ عَلَىٰ فَضْلِ اجتَهدَ فِي نَيلِه، وكُلَّمَا نَهاهُ عَنْ نَقصٍ بَالَغ فِي مُباعَدَتِه؛ فحِينئِذٍ يكْشِفُ العِلْمُ لَهُ سِرَّهُ، ويَسْهُلُ عَلَيهِ طَرِيقُهُ، فيَصيرُ كمُجْتَذَبٍ يحُثُّ الجَاذِبَ، فَإِذَا حَرَّكهُ عَجَّلَ فِي سَيرِه.

والَّذِي لا يعْمَلُ بالعِلْمِ؛ لا يُطلِعهُ العِلْمُ عَلَىٰ غَورِه، ولا يَكْشِفُ لَهُ عَنْ سِترِ سِرِّهِ؛ فيَكُون كمَجْذُوبٍ لِجَاذِبٍ جَاذَبَهُ.

فافهَمْ هَذَا المَثَلَ، وحَسِّنْ قَصدَك؛ وإِلَّا فَلا تَتْعَبْ.

۞ فَصْلٌ ۞
اعلَمْ؛ أَنَّ أَصْلحَ الأُمُورِ الاعْتِدالُ فِي كُلِّ شَيْءٍ

فإِذَا رَأينا أَرْبَابَ الدُّنْيَا قَدْ غَلَبتْ آمَالُهُمْ، وفَسَدَتْ فِي الخَيْرِ أَعمالُهُمْ؛ أَمَرنَاهُم بذِكرِ المَوْتِ والقُبُورِ والآخِرَةِ.

فأَمَّا إِذَا كَانَ العَالِم لا يَغيبُ عَنْ ذِكرِه المَوْتُ، وأحَادِيثُ الآخِرَةِ تُقرَأُ عَلَيهِ وتَجرِي عَلَىٰ لِسانِه؛ فَتَذْكَارُهُ المَوْتَ - زِيَادَةً عَلَىٰ ذَلِكَ - لا تُفيدُ إِلَّا انقِطاعَهُ بالمَرَّةِ.

بلْ يَنْبغِي لِهَذَا العَالِمِ، الشَّديدِ الخَوْفِ من اللهِ تَعَالَىٰ، الكَثِيرِ الذِّكرِ للآخِرةِ؛ أَنْ يُشَاغِلَ نَفْسَه عَنْ ذِكرِ المَوْتِ؛ ليمتدَّ نَفَسُ أَمَلِه قَليلًا، فيُصَنِّفَ، ويعْمَلَ أَعمَالَ خَيرٍ، ويَقْدِرَ عَلَىٰ طَلَبِ ولَدٍ؛ فأَمَّا إِذَا لَهِجَ بذِكرِ المَوْتِ؛ كَانَتْ مَفسدَتُه عَلَيهِ أَكْثَرُ مِن مَصلَحتِه.

أَلَمْ تَسمعْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَابقَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنها فسبقَتْهُ، وَسَابَقَهَا فسَبقَها[1]؟ وكَانَ يَمزَحُ ويُشاغِلُ نَفْسهُ؟

فَإِنَّ مُطالعةَ الحَقَائِقِ عَلَىٰ التَّحقِيقِ تُفسدُ البَدَنَ وتُزعِجُ النَّفْسَ.

وقَدْ رُوِي عَنْ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَل - رَحْمَةُ اللهِ عَلَيهِ - أَنَّهُ سَأَلَ الله تَعَالَىٰ أَنْ يفتحَ عَلَيهِ بَابَ الخَوْفِ؛ فَفَتَحَ عَلَيهِ، فخَافَ عَلَىٰ عَقلِه، فسَأَلَ اللهَ أَنْ يَردَّ ذَلِكَ عَنهُ.

فَتَأَمَّلْ هَذَا الأَصْلَ؛ فإِنَّه لا بُدَّ مِن مُغالَطةِ النَّفْسِ، وفِي ذَلِكَ صَلاحُها. واللهُ المُوفِّقُ، والسَّلام.

فَصْل

مَنْ أَعْمَلَ فِكرَه الصَّافِي دَلَّه عَلَى طَلبِ أشرَفِ المَقامَاتِ ونَهاهُ عَنِ الرِّضَى بالنَّقصِ فِي كُلِّ حَالٍ

وقَدْ قَالَ أَبُو الطَّيِّب المُتنبِّي:

وَلَـمْ أَرَ فِـي عُيُـوبِ النَّـاسِ عَيْبًـا ** كَـنَقْصِ القَـادِرِينَ عَلَـىٰ التَّمَـامِ

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٢٤٦١٩، ٢٦٧٨٢، ٢٦٨٠٧)، وأبو داود (٢٥٧٨)، وابن ماجه (١٩٧٩)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٨٨٩٣، ٨٨٩٥)، وابن حبان (٤٦٩١) من حديث عائشة.

فيَنْبغِي للعَاقِلِ أَنْ يَنتهِي إلىٰ غَايةِ مَا يُمكِنُه، فلَوْ كَانَ يُتَصَوَّرُ للآدَميِّ صُعودُ السَّمواتِ؛ لرَأيْت مِنْ أقبَحِ النَّقَائصِ رِضاهُ بالأَرْضِ، ولَوْ كَانَتِ النُّبوَّةُ تَحصُل بالاجْتِهَادِ؛ لرَأيْتَ المُقصِّرَ فِي تَحْصِيلِها فِي حَضِيضٍ، غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا لَمْ يُمكِن ذَلِكَ، فيَنْبغِي أَنْ يَطلُبَ المُمكنَ.

والسِّيرَةُ الجَميلَةُ عِنْدَ الحُكَمَاء: خُروجُ النَّفْسِ إِلَىٰ غَايةِ كَمالِها المُمكِنِ لَهَا فِي العِلْم والعَمَل.

وأنَا أشرَحُ مِن ذَلِكَ مَا يَدُلُّ مَذْكُورُه عَلَىٰ مُغْفَلِهِ:

أَمَّا فِي البَدَنِ؛ فليسَتِ الصُّورَةُ دَاخلةً تَحْتَ كَسبِ الآدَميِّ، بَلْ يدْخُلُ تَحْتَ كَسبِه تَحسينُها وتَزيينُها، فقَبِيحٌ بالعَاقِلِ إهمَالُ نَفْسِه.

وقَد نبَّهَ الشَّرْعُ عَلَىٰ الكُلِّ بالبَعضِ؛ فأمَرَ بقَصِّ الأظفَارِ، ونَتفِ الإبطِ، وحَلقِ العَانةِ، ونَهَىٰ عَنْ أَكْلِ الثَّومِ والبَصلِ النَّيِّءِ؛ لأجْلِ الرَّائحةِ.

ويَنْبغِي لَهُ أَنْ يَقيسَ عَلَىٰ ذَلِكَ، ويَطلُبَ غَايةَ النَّظافةِ ونِهايةَ الزِّينةِ.

وقَدْ كَانَ النَّبيُّ ﷺ يُعرَفُ مَجِيئه بريحِ الطِّيبِ، فكَانَ الغَايَةَ فِي النَّظافَةِ والنَّزاهَةِ.

ولستُ آمُرُ بزِيَادَةِ التَّقشُّف[١] الَّذِي يَسْتعملُه المُوَسْوَسُ أوِ المُتْرَفُونَ، ولَكِنَّ التَّوسُّط هُوَ المُحمُودُ.

ثُمَّ يَنْبغِي لَهُ أَنْ يَرفقَ ببَدنِهِ الَّذِي هُوَ رَاحِلَتهُ، ولا يَنقُصُ مِن قُوتِهَا؛ فتَنقُصُ قُوَّتُهُ.

ولستُ آمُرُ بالشِّبَعِ الَّذِي يُوجِبُ الجُشَاءَ، إنَّمَا آمُرُ بالتَّوسُّط؛ فَإنَّ قُوىٰ الآدمِيِّ كعَينٍ جَاريةٍ، كَمْ فِيهَا من مَنفعَةٍ لصَاحِبها ولغَيرِه؛ وتُعِينُ صَانعًا.

---

(١) لعل لفظ «التقشف» محرف من «التنظف» حسب ما يقتضيه السياق. والله أعلم.

ولا يُلتَفتُ إلىٰ قَوْل المُوسوِسِينَ مِن المُتزَهِّدينَ، الَّذِينَ جَدُّوا فِي التَّقلُّل، فضَعُفُوا عَنِ الفَرَائِضِ، ولَيْسَ ذَلِكَ مِن الشَّرْعِ، ولا نُقلَ عَنْ الرَّسُولِ ﷺ ولا أصْحَابه، إنَّمَا كَانَ الرَّسُولُ ﷺ وأصْحَابُه إِذَا لَمْ يَجدُوا جَاعُوا، ورُبَّما آثَرُوا فصَبرُوا ضَرورَةً.

وكَذَلكَ؛ يَنْبغِي أَنْ يَنظُر لهَذهِ الرَّاحِلَةَ فِي علَفِها؛ فرُبَّ لُقمَةٍ مَنعَتْ لُقُمَاتٍ؛ فَلا يُعطِيها مَا يُؤذِيها، بَلْ ينظُرُ لَهَا فِي الأَصْلح، ولا يتَلَفَّتُ إلىٰ مُتزهِّدٍ يَقُول: لا أُبَلِّغُها الشَّهَوَاتِ؛ فَإِنَّ النَّظَر يَنْبغِي أَنْ يَكُونَ فِي حِلِّ المَطْعمِ، وأخذِ مَا يُصلِحُ بمِقْدَارٍ.

ولَمْ يُنقَلْ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ ولا أصْحَابه ﷺ مَا أَحْدَثَهُ المُوَسْوَسُون فِي ترْكِ المُشتَهياتِ عَلَىٰ الإطْلاقِ، وإنَّمَا نُقلَ عَنْهُم تَرْكُهَا لسَببٍ؛ إمَّا للنَّظرِ فِي حلِّهَا، أَوْ للخَوفِ مِن مُطالَبةِ النَّفْسِ بِهَا فِي كُلِّ وقتٍ؛ ويَجُوزُ ذَلِكَ.

ثُمَّ يَنْبغِي لَهُ أَنْ يَجْتَهِد فِي التِّجارَةِ والكَسبِ، ليفضُلَ عَلَىٰ غَيْره ولا يفضُلُ غَيْرُه عَلَيهِ، فَلْيَبْلُغْ مِن ذَلِكَ غَايةً لا تَمنَعهُ عَنِ العِلْم.

ثُمَّ يَنْبغِي لَهُ أَنْ يَطلُبَ الغَايَةَ فِي العِلْمِ، ومِنْ أقبَحِ النَّقصِ التَّقليدُ، فَإِنْ قَويَتْ همَّتُه رَقَّتهُ إلىٰ أَنْ يَختارَ لنَفْسِه مَذْهَبًا ولا يتمَذْهَب لأحَدٍ؛ فَإِنَّ المُقلِّدَ أعمَىٰ يَقودُه مُقلِّدُهُ.

ثُمَّ يَنْبغِي أَنْ يَطلُبَ الغَايَةَ فِي مَعْرِفَة اللهِ تَعَالَىٰ ومُعامَلَتهِ فِي الجُمْلَةِ، لا يَترُكُ فَضِيلَةً يُمكنُ تَحصيلَها إلَّا حصَّلَهَا؛ فَإِنَّ القُنُوعَ بأَنْزَلِ المَنَازِلِ حَالَةُ الأَرْذَالِ.

فكُــنْ رَجُــلًا رِجْلُــهُ فِــي الثَّــرَىٰ ** وَهَامَــــةُ هِمَّتِــــهِ فِــــي الثُّرَيَّـــــا

فلَو أَمكَنكَ عُبورَ كُلِّ أحدٍ من العُلَمَاء والزُّهَّاد؛ فافعَلْ؛ فَإِنَّهُم كَانُوا رِجالًا وأَنتَ رَجلٌ، ومَا قَعدَ مَن قَعدَ إلَّا لدَناءَةِ الهِمَّةِ وخَسَاسَتِها.

واعْلَمْ؛ أَنَّكَ فِي مَيدانِ سِباقٍ، والأوقَاتُ تُنتَهبُ.

ولا تَخْلُدْ إلىٰ كَسل؛ فَمَا فَاتَ مَا فَاتَ مَن فَاتَ إلَّا بالكَسلِ، ولا نَالَ مَن نَالَ إلَّا بالجِدِّ والعَزْمِ، وإنَّ الهِمَّةَ لتَغْلي فِي القُلُوبِ غَلَيَانَ مَا فِي القُدورِ.

وقَدْ قَالَ بَعْضُ من سَلفَ:

لَيْسَ لِي مَالٌ سِوَىٰ كَرِّي ** فَبِهِ أَحيَا مِنَ العَدَم
قَنَّعْتُ نَفْسِي بِمَا رُزِقَتْ ** وَتَمَطَّتْ فِي العُلَا هِمَمِي

فَصْل

لَيسَ في الدُّنْيَا أَنْفعُ لِلعُلَمَاءِ مِن جَمْعِ المَالِ؛ للاستِغناءِ عَنِ النَّاسِ فإنَّه إذَا ضُمَّ إلى العِلْمِ حِيزَ الكَمالُ

وإنَّ جُمْهُورَ العُلَمَاءِ شَغلَهم العِلْمُ عَنِ الكَسبِ، فاحتَاجُوا إلىٰ مَا لا بُدَّ مِنْهُ، وقَلَّ الصَّبْرُ فدَخلُوا مداخِل شَانَتهُم وإنْ تأوَّلُوا فِيها، إلَّا أَنَّ غيرَها كَانَ أحسَنَ لَهُم.

فالزُّهريُّ مع عَبْدِ المَلِكِ، وأَبُو عُبيدَة مع طَاهِرِ بْنِ الحُسَين، وابنُ أبي الدُّنْيَا مُؤَدِّبُ المُعتضِد، وابنُ قُتيبَة صَدَّر كِتابَه بمَدحِ الوَزيرِ، ومَا زَالَ خَلَفٌ من العُلَمَاء والزُّهَّادِ يَعيشُون فِي ظلِّ جَمَاعَةٍ مِن المَعْرُوفينَ بالظُّلمِ؛ فهَؤُلاء وإنْ كَانُوا سلكُوا طَرِيقًا مِنَ التَّأويلِ، فَإنَّهُم فقدُوا مِن قُلوبِهم وكَمالِ دِينِهم أَكْثَرَ مِمَّا نَالُوا مِنَ الدُّنْيَا.

وقَدْ رَأينَا جَمَاعَةً مِن المُتصوِّفَة والعُلَمَاء يَغشُونَ الوُلاةَ؛ لأجلِ نَيلِ مَا فِي أَيدِيهم؛ فمِنْهُم مَن يُداهِنُ ويُرائِي، ومِنْهُم من يَمدَح بِمَا لا يَجُوزُ، ومِنْهُم من يَسْكُتُ عَنْ مُنْكراتٍ؛ إلىٰ غَيْر ذَلِكَ من المُداهَناتِ، وسبَبُهَا الفَقْرُ؛ فعَلمنَا أَنَّ كَمالَ العِزِّ وبُعدَ الرِّيَاءِ إنَّمَا يَكُونُ فِي البُعدِ عَنِ العمَّال الظَّلَمَةِ.

ولَمْ نرَ من صَحَّ لَهُ هَذَا إلَّا فِي أحَدِ رَجلَين:

إمَّا من كَانَ لَهُ مَالٌ؛ كسَعيدِ بْنِ المُسيِّب، كَانَ يتَّجرُ فِي الزَّيتِ وغَيرِه، وسُفيَانِ الثَّورِيِّ، كَانَتْ لَهُ بضَائعُ، وابنِ المُبَارَك.

وإمَّا مَنْ كَانَ شَديدَ الصَّبْر قَنوعًا بِمَا رُزقَ وإنْ لَمْ يَكفِه؛ كبِشرٍ الحَافِي، وأحْمَدَ بْنِ حَنْبَل.

ومَتىٰ لَمْ يجِدِ الإنْسَانُ كصَبرِ هَذيْنِ، ولا كَمالِ أولَئِكَ؛ فالظَّاهِرُ تقَلُّبهُ فِي المِحَنِ والآفَاتِ، ورُبَّما تَلِفَ دِينُه.

فعَلَيْك - يَا طَالبَ العِلْم- بالاجْتِهَاد فِي جَمعِ المَالِ للغِنَىٰ عَنِ النَّاسِ؛ فإنَّه يَجمعُ لَكَ دِينَك.

فَمَا رَأينَا - فِي الأغْلَبِ - مُنافقًا فِي التَّديُّن والتَّزهُّد والتَّخشُّع، ولا آفَةً طَرأَتْ عَلَىٰ عَالِمٍ؛ إلَّا بحُبِّ الدُّنْيَا، وغَالِبُ ذَلِكَ الفَقرُ.

فَأَمَّا مَن لَهُ مَا يَكْفِيه، ثُمَّ يَطلُب بتِلْكَ المُخَالطَةِ الزِّيَادَةَ؛ فذَلِكَ مَعدودٌ فِي أَهْل الشَّرَهِ، خَارجٌ عَنْ حَيِّزِ العُلَمَاءِ. نَعُوذُ باللهِ من تِلْكَ الأحوَالِ.

❊ فصْل ❊

أَعْظَمُ دَلِيلٍ عَلَى فَضِيلَةِ الشَّيءِ النَّظَرُ إلَى ثَمرَتِهِ ومَنْ تَأمَّلَ ثَمرَةَ الفِقهِ عَلِمَ أَنَّهُ أفْضَلُ العُلومِ

فَإنَّ أرْبَابَ المَذاهِب فَاقُوا بالفِقْهِ عَلَىٰ الخَلائقِ أَبَدًا، وإنْ كَانَ فِي زَمَنِ أَحدِهِم مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنهُم بالقُرْآنِ أَوْ بالحَدِيثِ أَوْ باللُّغَةِ.

واعتَبِرْ هَذَا بأَهلِ زمَانِنا؛ فإنَّك تَرىٰ الشَّابَّ يَعرفُ مَسائِلَ الخِلافِ الظَّاهِرةَ، فيَستغنِي، ويَعرِف حُكمَ اللهِ تَعَالَىٰ فِي الحَوادِث مَا لا يَعرفهُ النِّحرِيرُ مِن بَاقِي العُلَمَاءِ.

وكَمْ قد رَأينا مُبرِّزًا فِي عِلمِ القُرْآن، أوْ فِي الحَدِيث، أوْ فِي التَفْسِير، أوْ فِي اللُّغَةِ؛ لا يَعرِفُ - معَ الشَّيْخوخةِ - مُعظَمَ أَحكَامِ الشَّرْعِ، ورُبَّما جَهلَ عَلْمَ مَا يَنُوبُهُ فِي صَلاتِه.

عَلَىٰ أَنَّهُ لا يَنْبغِي للفَقيهِ أن يَكُون أَجنَبيًّا عَنْ باقِي العُلومِ، فإِنَّه لا يَكُون فَقِيهًا، بَلْ يَأْخُذُ مِن كُلٍّ بحظٍّ، ثُمَّ يتوفَّرُ عَلَىٰ الفِقهِ؛ فإِنَّه عِزُّ الدُّنْيا والآخِرَةِ.

۞ فَصْلٌ ۞

رَأيْتُ كَثيرًا مِن النَّاس يتحرَّزونَ مِن رَشَاشِ نجاسةٍ، ولا يتحَاشَونَ مِن غِيبَةٍ، ويُكثِرونَ منَ الصَّدقَةِ، ولا يُبالُونَ بمُعامَلاتِ الرِّبَا، ويتهجَّدونَ باللَّيْلِ، ويؤخِّرونَ الفَريضَةَ عَنِ الوَقْتِ؛ فِي أَشْيَاءَ يَطُولُ عددُها؛ من حِفظِ فُروعٍ وتَضييعِ أُصولٍ

فبَحثتُ عَنْ سَببِ ذَلِكَ، فَوجَدتُه من شَيئينِ: أَحَدُهُمَا: العَادَةُ. والثَّانِي: غَلَبةُ الهَوَىٰ فِي تَحصِيلِ المَطْلُوبِ؛ فإِنَّه قَدْ يَغلِبُ فَلا يَترُكُ سَمْعًا ولا بَصَرًا.

ومِنْ هَذَا القَبيلِ: أَنَّ إخوَةَ يُوسُفَ قَالُوا -حِينَ سَمِعُوا صَوتَ المُنادِي: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠]-: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ [يوسف: ٧٣]. فجَاءَ فِي التَّفْسِير: أَنَّهُمْ لَمَّا دَخلُوا مِصرَ كمَّمُوا أَفواهَ إبِلهِم؛ لِئلَّا تَتناوَل مَا لَيسَ لَهُمْ، فكَأَنَّهُم قَالُوا: قَدْ رَأيتُم مَا صَنعنَا بإِبلنَا، فَكَيفَ نَسْرِقُ؟! ونَسُوا هُم

تَفَاوُتَ مَا بين الوَرَعِ فِي اختِطافِ أكلَةٍ لا يملِكُونَها وبَينَ إلقَاءِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الجُبِّ وَبَيعِه بثَمنٍ بخْسٍ!

وفِي النَّاس مَن يُطيعُ فِي صِغَارِ الأُمُور دون كِبارِها، وفِيمَا كُلْفَتُهُ عَلَيهِ خَفيفةٌ أوْ مُعتادةٌ، وفِيمَا لا يَنقُصُ شَيئًا مِن عَادتِه فِي مَطعمٍ ومَلبسٍ.

فتَرَىٰ أَقْوَامًا يأخُذُون بالرِّبا، ويقُولُ أحدُهم: كَيْفَ يَرانِي عَدُوِّي بعينٍ بَعدَ أَن بِعتُ دَارِي، أوْ تغيَّرَ ملبُوسِي ومركُوبِي؟

وتَرَىٰ أَقْوَامًا يُوسوَسُون فِي الطَّهارةِ ويَسْتعملُونَ الكثِيرَ من المَاءِ، ولا يتحَاشَونَ من غِيبةٍ!

وأَقْوَامًا يَسْتعملُون التَّأوِيلاتِ الفَاسدةِ فِي تَحصيلِ أَغرَاضِهم، معَ عِلمِهم أنَّهَا لا تَجوزُ، حَتَّىٰ إنِّي رَأَيْتُ رَجلًا مِن أَهْلِ الخَيْرِ والتَّعبُّدِ، أعطَاهُ رَجُلٌ مَالًا ليَبنِي بِهِ مَسجِدًا، فأخَذهُ لنَفْسهِ، وأَنفَقَ عِوضَ الصَّحِيحِ قُراضَةً، فَلَمَّا احتُضِرَ قَالَ لِذلِكَ الرَّجلِ: اجعَلنِي فِي حِلٍّ؛ فَإنِّي فعَلتُ كَذا وكذَا.

وتَرىٰ أَقْوَامًا يَترُكونَ الذُّنُوبَ؛ لبُعدِهم عنْهَا، فَقدْ أَلِفُوا التَّركَ، وإِذَا قَربُوا مِنهَا لَمْ يتَمالكُوا.

وفِي النَّاسِ مِن هَذِهِ الفُنونِ عَجائبُ يطُولُ ذِكرُها.

وقَدْ عَلمنَا أَنَّ خَلقًا من عُلماءِ اليَهُودِ كَانُوا يَحمِلونَ ثِقلَ التَّعبُّد فِي دِينِهم، فَلَمَّا جَاءَ الإسْلامُ وعَرفُوا صِحَّتَه لَمْ يُطِيقُوا مُقَاومَةَ أهوائِهم فِي مِحو رِيَاسَتِهم.

وكَذَلكَ قَيصَر؛ فإنَّه عَرَفَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالدَّلِيل، ثُمَّ لَمْ يَقدِر عَلَىٰ مُقَاومَةِ هَواهُ وتَرْكِ مُلكِه.

فالله اللهَ فِي تَضييعِ الأُصُولِ، ومِنْ إهمَالِ سَرْحِ الهَوَىٰ؛ فإنَّه إنْ أُهمِلَتْ مَاشيةٌ نَفشَتْ في زُروعِ التُّقَىٰ، ومَا مَثَلُ الهَوَىٰ إلَّا كسَبعٍ فِي عُنُقِه سِلسلَةٌ؛ فَإنِ استَوثَقَ مِنْهُ ضَابطُه كفَّهُ، ورُبَّما لاحَتْ لَهُ شَهواتُه الغَالِبةُ عَلَيهِ؛ فَلَم تُقاوِمْها السِّلْسِلَةُ؛ فَأَفْلَتَ.

علىٰ أَنَّ مِن النَّاسِ مَن يكُفَّ هَواهُ بسِلسِلةٍ، ومِنْهُم من يكُفُّه بخَيطٍ، فيَنْبغِي للعَاقِلِ أَنْ يحذَرَ شَياطِينَ الهَوَىٰ، وأنْ يَكُونَ بَصيرًا بِمَا يقْوَىٰ عَلَيهِ مِن أَعدائِه، وبمَنْ يقْوَىٰ عَلَيْهِ.

فَصْل

مِنْ أَعْظَمِ الغَلَطِ الثِّقةُ بالنَّاسِ، والاستِرسالُ إلَى الأَصْدِقَاءِ

فَإنَّ أَشدَّ الأَعداءِ وأَكْثَرَهُم أَذًىٰ: الصَّديقُ المُنقلِبُ عَدوًّا؛ لأنَّهُ قَدِ اطَّلعَ عَلَىٰ خَفيِّ السِّرِّ.

قَالَ الشَّاعِرُ:

احْذَرْ عَدُوَّكَ مَرَّةً ** واحْذَرْ صَدِيقَكَ أَلْفَ مَرَّهْ
فَلَرُبَّمَا انْقَلَبَ الصَّدِيـ ** ـقُ فَكَانَ أَعْلَمَ بِالمَضَرَّهْ

واعْلَمْ؛ أَنَّ مِن الأَمْرِ المَوضُوعِ فِي النُّفُوسِ: الحَسَدُ عَلَىٰ النِّعَمِ، والغِبْطَةُ وحُبُّ الرِّفعةِ، فَإذَا رَآكَ مَن يَعْتَقِدُكَ مَثلًا لَهُ، وقَدِ ارتَقيتَ عَلَيهِ؛ فَلا بُدَّ أَنْ يَتأَثَّر، ورُبَّما حَسَدَ، فَإنَّ إخوَةَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ من هَذَا الجِنْسِ جَرَىٰ لَهُمْ.

فإنْ قُلْتَ: كَيْفَ يَبْقَىٰ الإنْسَانُ بلا صَديقٍ؟!

قُلتُ لكَ: أتُراكَ مَا تَعلمُ أَنَّ المُجانِسَ يحسُدُ، وأَنَّ أكْثَر العَوامِّ يعتَقدُون فِي العَالِم أَنَّهُ لا يتبسَّمُ، ولا يتَنَاوَلُ مِن شَهَواتِ الدُّنْيَا شَيئًا؟ فَإِذَا رَأَوْا بَعْضَ انبساطِه فِي المُبَاح هَبطَ مِن أَعيُنِهم، فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ حَالَةُ العَوَامِّ، وتِلْكَ حَالَةُ الخَواصِّ؛ فمعَ مَنْ تَكُونُ المُعاشَرةُ؟!

لا؛ بَلْ - واللهِ - مَا تَصِحُّ المُعاشَرةُ معَ النَّفْسِ؛ لأَنَّهَا مُتلوِّنةٌ، ولَيْسَ إلَّا المُداراةُ للخَلقِ والاحتِرازُ مِنهُم، واتِّخاذُ المَعارِفَ من غَيْر طَمعٍ فِي صَديقٍ صَادقٍ، فَإِنْ نَدرَ فليَكُن غَيْرَ مُماثِلٍ؛ لأَنَّ الحَسدَ إلَيْهِ أَسْبَقُ، وليكُنْ مُرتفِعًا عَنْ رُتبةِ العَوَامِّ، غَيْرَ طَامعٍ فِي نَيلِ مَقامِك، وإنْ كَانَتْ مُعاشَرةُ هَذَا لا تَشفِي؛ لأَنَّ المُعاشَرةَ يَنْبغِي أَنْ تَكُونَ بينَ العُلَمَاءِ للمُجانِسِ، فَلَزِمهُم مِنَ الإشَاراتِ فِي المُخَالطَةِ مَا تَطيبُ بِهِ المُجَالسَةُ، ولَكِنْ لا سَبيلَ إلىٰ الوِصَال.

ومِثلُ هَذِهِ الحَالُ: أَنَّكَ إنِ استَخدَمتَ الأذكِياءَ؛ عَرفُوا بَاطِنَكَ، وإنِ استخدَمتَ البُلْهَ انعَكسَت مَقاصِدُك؛ فاجعَلِ الأذْكِياءَ لحَوائِجكَ الخَارجَة، والبُلهَ لحَوائِجكَ فِي مَنْزِلكَ؛ لِئلَّا يَعلمُوا أَسرَارَكَ.

واقنَعْ مِن الأَصدِقاءِ بمَنْ وصفْتُه لَكَ، ثُمَّ لا تَلقَهُ إلَّا مُتدرِّعًا دِرعَ الحَذَر، ولا تُطلِعهُ عَلَىٰ باطنٍ يُمكِنُ أَنْ يُسترَ عَنهُ، وكُنْ كَمَا يُقَال عَنْ الذِّئبِ:

يَنَــامُ بِإِحْــدَىٰ مُقْلَتَيْــهِ وَيَتَّقِــي ** بِــأُخْرَىٰ الأَعَـادِي فَهْـوَ يَقْظَـانُ هَـاجِعُ

فَصْل

رَأَيْتُ نَفَرًا مِمَّنْ أفنَى أَوَائلَ عُمُرِه ورَيعانَ شَبابِه فِي طَلبِ العِلْمِ؛ يَصْبِرُ عَلَى أَنوَاعِ الأَذَى، وهَجرِ فُنونِ الرَّاحاتِ؛ أَنَفةً مِن الجَهْلِ ورَذيلَتِه، وطَلبًا للعِلمِ وفَضيلَتِه، فَلَمَّا نَالَ مِنْهُ طَرفًا رَفعَه عَنْ مَراتِبِ أَرْبَابِ الدُّنْيَا، ومَنْ لا عِلمَ لَهُ إِلَّا بالعَاجِلِ؛ ضَاقَ بِهِ مَعاشُه، أَوْ قَلَّ مَا يَنشُدُه لنَفْسِه مِنْ حُظوظٍ؛ فسَافَرَ فِي البِلادِ يَطلُب مِن الأَرَاذِلِ، ويتَواضَعُ للسِّفْلَةِ وأَهْلِ الدَّناءَةِ والمُكَّاسِ وغَيرِهم

فخَاطَبتُ بعضَهم، وقُلْتُ: وَيحكَ! أيْنَ تِلْكَ الأَنَفةُ مِن الجَهْلِ الَّتِي سَهرْتَ لأجلِها، وأَظمَأتَ نَهارَك بسَببِها، فَلَمَّا ارتفَعتْ وانتَفعتْ عُدتَ إِلىٰ أَسفَلِ سَافِلِينَ، أفَمَا بقِي عِنْدكَ ذَرَّةٌ من الأَنَفةِ تَنبُو بِكَ عَنْ مقَاماتِ الأرذَالِ، ولا معك يسيرٌ من العِلْم يسيرُ بِكَ عَنْ مُناخِ الهَوَىٰ، ولا حصَّلتَ بالعِلْم قُوَّةً تَجْذِبُ بِهَا زمامَ النَّفْس عَنْ مَرَاعِي السَّوْءِ؟ غَيْرَ أَنَّهُ يَبِينُ لِي أَنَّ سَهرَك وتعبَك كأَنَّهُمَا كانَا لنَيلِ الدُّنْيَا.

ثُمَّ إِنِّي أَرَاكَ تزعُمُ أَنَّكَ تُرِيدُ شَيئًا من الدُّنْيَا تَستعِينُ بِهِ عَلَىٰ طَلَبِ العِلْم، فاعلَمْ أَنَّ التِفاتِكَ إِلَىٰ نَوعِ كَسبٍ تَستغنِي بِهِ عَنِ الأَرْذَالِ أَفْضَلُ مِن التَّزيُّدِ فِي عِلمِك، فلَوْ عَرَفت مَا يَنقُصُ بِهِ دِينُك؛ لَمْ تر مَا قَدْ عَزمْتَ عَلَيهِ زِيَادَةً، ومَا يَحْتَوي عَلَيهِ هَذَا العَزْمُ للسَّفَرِ الَّذِي كُلُّهُ مُخاطَرَةٌ بالنَّفس، وبذلُ الوَجْه - الَّذِي طَالَما صِينَ - لمَنْ لا يَصلُحُ التِفَاتُ مثلِكَ إِلَىٰ مِثلِه.

وبَعيدٌ أَنْ تَقنَع بَعدَ شُروعِكَ فِي هَذَا الأَمْرِ بقَدرِ الكَفافِ، وقَدْ عَلمتَ مَا فِي السُّؤالِ بَعدَ الكَفافِ مِن الإِثْم، وأَبعَدُ مِنْهُ: أَنْ تَقدِرَ عَلَىٰ الوَرعِ فِي المَأْخُوذ، ومن لَكَ بالسَّلامَة والرُّجُوع إِلىٰ الوطَنِ؟ وكَمْ رَمَىٰ قَفْرٌ فِي بَوادِيه من هَالِكٍ!

ثُمَّ مَا تُحَصِّلُه يَفنَىٰ، ويَبقَىٰ مِنْهُ مَا أُعطِي، وعَيبُ المُتَّقِينَ إِيَّاكَ، واقتِدَاءُ الجَاهِلِينَ بكَ، ويَكْفِيكَ أَنَّكَ عُدتَ عَلَىٰ مَا عَلِمتَ مِن ذَمِّ الدُّنْيَا بشَيْنِه؛ إِذْ فَعلتَ مَا يُناقِضهُ، خُصوصًا وقَد مرَّ أَكْثَرُ العُمُرِ، ومَنْ أَحسَنَ فِيمَا مَضَىٰ يُحسِنُ فِيمَا بَقَىٰ.

۞ فَصْل ۞

رَأيْتُ الشَّرِهَ فِي تَحصيلِ الأَشْيَاءِ يُفوِّتُ النَّفْسَ مَقْصُودَها

وقَدْ رَأينَا مَن كَانَ شَرِهًا فِي جَمعِ المَالِ، فحصَلَ لَهُ الكَثيرُ مِنْهُ، وهُوَ مع ذَلِكَ حَريصٌ عَلَىٰ الازدِيادِ، ولَوْ فَهِمَ عَلمَ أَنَّ المُرَادَ مِن المَالِ إنفَاقُه فِي العُمُرِ، فَإذَا أَنفِقَ العُمُرَ فِي تَحصيلِه؛ فَاتَ المَقصُودَان جَميعًا!

وكَمْ رَأينَا مَنْ جَمعَ المَالَ ولَمْ يتمتَّعْ بِهِ، فأبقَاهُ لغَيرِه، وأفنَىٰ نَفْسَه!

كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

كَـدُودَةِ القَـزِّ مَـا تَبْنِيـهِ يَهْـدِمُهَا ** وَغَيْـرُهُ بِالَّـذِي تَبْنِيـهِ يَنْتَفِـعُ

وكَذَلكَ رَأينَا خَلقًا يحرِصُون عَلَىٰ جَمعِ الكُتُب، فَيُنفقُون أَعْمَارَهمْ فِي كِتابَتها، وَكَدَأْبِ أَرْبَابِ الحَدِيث؛ يُنْفِقُون الأَعْمَارَ فِي النَّسخ والسَّماع إلَىٰ آخِر العُمرِ، ثُمَّ يَنْقَسِمون:

فمِنْهُم: مَن يَتشَاغَل بالحَدِيثِ وعلمِه وتصَحِيحِه، ولعلَّه لا يفْهَم جَوابَ حَادِثَةٍ، ولعلَّه عِنْده لِحَدِيثِ: «أَسْلَم سَالَمهَا اللهُ»[1] مِائةُ طَرِيقٍ!

وقَدْ حُكِي لِي عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِ الحَدِيثِ، أَنَّهُ سَمعَ «جزءَ ابنَ عَرفةَ» عَنْ مائةِ شَيخٍ، وكَانَ عِنْدَه سَبعُونَ نُسخَةً.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٠٠٦، ٣٥١٤) ومسلم (٢٥١٥، ٢٥١٦) من حديث أبي هريرة. البخاري (٣٥١٣)، ومسلم (٢٥١٨) من حديث عبد الله بن عمر. ومسلم (٦٧٩، ٢٥١٧) من حديث خفاف بن إيماء الغفاري. و(٢٤٧٣، ٢٥١٤) من حديث أبي ذر.

ومِنْهُم: مَن يَجمَعُ الكُتُب ويَسمَعُها، ولا يَدْرِي مَا فِيهَا مِن صِحَّةِ حَدِيثِها، ولا مِن فَهمِ مَعنَاها، فتَراهُ يَقُولُ: الكِتَابُ الفُلانيُّ سَماعِي، وعِندِي لَهُ نُسخَةٌ، والكِتَابُ الفُلانِيُّ والفُلانيُّ، فَلا يَعرِفُ عِلمَ مَا عِنْدَهُ من حَيثُ فَهم صَحِيحه مِن سَقيمِه، وقَدْ صدَّهُ اشتِغالُه بذَلِكَ عَنْ المُهِمِّ من العِلْمِ!

فهُمْ كَمَا قَالَ الحُطَيئةُ:

زَوَامِلُ لِلأَخْبَارِ لا عِلْمَ عِنْدَهَا ** بِمُتْقِلِهَا إلَّا كَعِلْمِ الأَبَاعِرِ

لَعَمْرُكَ مَا يَدْرِي البَعِيرُ إِذَا غَدَا ** بِأَوْسَاقِهِ أَوْ رَاحَ مَا فِي الغَرَائِرِ

ثُمَّ تَرَىٰ مِنهُم من يتصَدَّرُ بإتقَانِه للرِّوايةِ وحدَهَا، فيمُدُّ يَدهُ إلىٰ مَا لَيسَ مِن شُغلِه، فَإِنْ أَفتَىٰ أَخطَأَ، وإنْ تكَلَّمَ فِي الأُصُولِ خَلَّطَ.

ولَوْلا أَنِّي لا أُحِبُّ ذِكرَ النَّاسِ لذَكرتُ مِن أَخبَارِ كِبارِ عُلمائِهم ومَا خَلطُوا مَا يُعتَبرُ بِهِ، ولَكنَّهُ لا يَخفَىٰ عَلَىٰ المُحقِّقِ حَالُهم.

فإنْ قَالَ قَائِلٌ: أليسَ فِي الحَدِيثِ: «مَنهُومانِ لا يَشبعَان، طَالبُ عِلمٍ وطَالبُ دُنيَا»[1]؟

---

(١) ضعيف: أخرجه الحاكم (٣١٢) وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين، وابن عدي (٦/ ٢٩٥) والبيهقي في «الشعب» (٩٧٩٨) من حديث أنس. وأخرجه الطبراني (١٠/ ١٨٠) وابن حبان في «المجروحين» (٢/ ٢٢) وابن عدي (٥/ ٢٢٩) من حديث ابن مسعود. وإسناده شديد الضعف، وقد أخرجه الدارمي (٣٤٤) من وجه آخر عن ابن مسعود من قوله، وهو أشبه علىٰ انقطاع فيه. وأخرجه الطبراني (١١/ ٧٦) من حديث ابن عباس. وإسناده ضعيف جدا، وقد أخرجه الدارمي (٣٤٦) عن ابن عباس من قوله، وهو أشبه. وأخرجه الدارمي بإسناد صحيح إلىٰ الحسن البصري من قوله، وهو أصح ما في هذا الباب. والله أعلم. وقد أورده ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١١١، ١١٢، ١١٣) وقال: لا يصح.

قُلْتُ: أمَّا العَالِمُ فَلا أقُولُ لَهُ: اشبَعْ من العِلْمِ، ولا اقتَصِرْ عَلَىٰ بَعضِه، بَلْ أقُولُ لَهُ: قدِّمِ المُهمَّ؛ فَإنَّ العَاقِلَ من قدَّرَ عُمُرَه وعَملَ بمُقتضَاهُ، وإنْ كَانَ لا سَبيلَ إلىٰ العِلْمِ بمِقْدَارِ العُمرِ، غَيْرَ أنَّهُ يَبنِي عَلَىٰ الأغْلَبِ، فَإنْ وصَلَ فَقدْ أعدَّ لكُلِّ مَرحلةٍ زَادًا، وإنْ مَاتَ قَبلَ الوُصُولِ فنيَّتُهُ تسلُك بِهِ.

فَإذَا عَلِمَ العَاقِلُ أَنَّ العُمرَ قَصيرٌ، وأنَّ العِلْم كَثِيرٌ؛ فقَبيحٌ بالعَاقِلِ الطَّالِبِ لكَمالِ الفَضائِلِ أَنْ يَتشَاغَلَ مَثلًا بسَماعِ الحَدِيثِ ونَسخِه؛ ليُحصِّلَ كُلَّ طَرِيقٍ، وكُلَّ رِوايةٍ، وكلَّ غريبٍ، وهَذَا لا يَفرُغُ مِن مَقْصُودِهِ مِنْهُ فِي خَمسينَ سَنةً، خُصوصًا إِنْ تَشاغَل بالنَّسخِ؛ ثُمَّ لا يَحفَظ القُرْآنَ، أَوْ يَتشَاغَلُ بعُلومِ القُرْآنِ ولا يَعرفُ الحَدِيثَ، أَوْ بالخِلافِ فِي الفِقهِ ولا يَعرفُ النَّقْلَ الَّذِي عَلَيهِ مَدارُ المَسألَةِ.

فإنْ قَالَ قَائِلٌ: فدبِّرْ لِي مَا تختَارُ لنَفْسكَ؟

فَأقُولُ: ذُو الهِمَّةِ لا يَخفَىٰ مِن زَمَان الصِّبَا، كَمَا قَالَ سُفيَانُ بْنُ عُيينَةَ: «قَالَ لي أبي -وقَدْ بَلغْتُ خَمسَ عَشرَةَ سَنةً-: إِنَّهُ قَدْ انقَضتْ عَنكَ شَرائعُ الصِّبَا، فاتَّبعِ الخَيْرَ تكُنْ مِن أهْلِه. فجَعلتُ وصيَّةَ أَبِي قِبلةً أَمِيلُ إلَيهَا ولا أمِيلُ عَنهَا».

ثُمَّ قَبلَ شُروعِي في الجَوَاب أقُولُ:

يَنْبغِي لمَنْ لَهُ أنَفةٌ أَنْ يَأنَف مِن التَّقصِير المُمكِنِ دَفعُه عَنِ النَّفْسِ، فلَوْ كَانَتْ النُّبوَّةُ مَثلًا تَأتِي بكَسبٍ لَمْ يجُزْ لَهُ أَنْ يَقنَع بالوِلايةِ، ولوْ تصوَّرَ أَنْ يَكُونَ مَثلًا خَليفةً لَمْ يَحسُن بِهِ أَنْ يَقنعَ بالإمَارةِ، ولَوْ صَحَّ لَهُ أَنْ يَكُونَ مَلَكًا لَمْ يرضَ أَنْ يَكُون بَشرًا.

والمَقصُودُ: أَنْ يَنتهي بالنَّفْسِ إلىٰ كَمالِها المُمكنُ لَهَا في العِلْم والعَمَل وقَدْ عَلمَ قِصَرَ العُمرِ وكَثرةَ العِلْم فيَبتدِئُ بالقُرْآنِ وحِفظِه، وينظُرُ فِي تَفْسِيرِهِ نَظرًا مُتوسِّطًا لا يَخفىٰ عَلَيهِ بذَلِكَ مِنْهُ شَيْءٌ، وإنْ صَحَّ لَهُ قِراءةُ القُرَّاءِ السَّبعةِ، وشَدَّ أشيَاءَ مِن النَّحوِ، وكُتبِ اللُّغةِ.

وابتَدَأَ بأُصُولِ الحَدِيث من حَيثُ النَّقْلُ - كالصِّحاحِ والمَسانِيدَ والسُّننِ - ومنْ حَيثُ عِلمُ الحَدِيث - كمَعْرِفَة الضُّعفَاءِ والأَسْمَاءِ - فليَنظُر فِي أُصُولِ ذَلِكَ، وقَدْ رتَّبَتِ العُلَماءُ مِن ذَلِكَ مَا يَستغنِي بِهِ الطَّالِبُ عَن التَّعبِ.

ولْينظُر في التَّوارِيخ؛ ليَعرفَ مَا لا يَستغنِي عَنْهُ؛ كنَسبِ الرَّسُولِ ﷺ وأقَارِبه وأزواجِه ومَا جَرَىٰ لَهُ.

ثُمَّ ليُقبِل عَلَىٰ الفِقهِ؛ فليَنظُر فِي المَذْهَبِ والخِلافِ، وليَكُن اعتِمادُه عَلَىٰ مَسائِلِ الخِلافِ، فليَنظُر فِي المَسأَلَةِ ومَا تَحتوِي عَلَيهِ، فيَطلُبه مِن مظَانِّه؛ كتَفْسِيرِ آيَةٍ وحَدِيثٍ وكَلِمَةٍ لُغةٍ، ويَتشَاغَلُ بأُصُولِ الفِقهِ وبالفَرَائِض وليَعلَم أَنَّ الفِقهَ عَلَيهِ مَدارُ العُلوم.

ويَكْفِيهِ منَ النَّظَر فِي الأُصُول مَا يُستدلُّ بِهِ عَلَىٰ وُجُود الصَّانِع، فَإِذَا أَثبَته بالدَّلِيلِ وعَرفَ مَا يَجُوزُ عَلَيهِ مِمَّا لا يَجُوزُ، وأثبَتَ إرسَالَ الرُّسُل، وعَلمَ وجُوبَ القَبولِ مِنهُم؛ فَقدِ احتَوَىٰ عَلَىٰ المَقصُودِ مِن عِلمِ الأُصُولِ، فَإِنِ اتَّسعَ الزَّمَانُ للتَّزيُّد مِن العِلْم فليَكُن من الفِقهِ؛ فإِنَّه الأنفَعُ.

ومَهمَا فُسِحَ لَهُ فِي المُهَلِ فأمكَنَه تَصنيفٌ فِي عِلمٍ؛ فإِنَّه يُخَلِّفُ بذَلِكَ خَلْفَه خَلَفًا صَالحًا، مع اجْتِهَادِهِ فِي التسَبُّب إلىٰ اتِّخاذِ الوَلدِ.

ثُمَّ يَعلمُ أَنَّ الدُّنْيَا مَعْبَرَةٌ؛ فيَلتفِت إلىٰ فَهمِ مُعامَلةِ اللهِ ﷻ؛ فَإِنَّ مَجمُوع مَا حصَّلهُ من العِلْم يدلُّهُ عَلَيهِ، فَإِذَا تعرَّض لتَحقِيق مَعرفَتِه، وَقفَ عَلَىٰ بَابِ مُعاملَتِه؛ فَقَلَّ أَنْ يَقِفَ صَادِقًا إلَّا ويُجذَب إلىٰ مَقامِ الوِلايةِ، ومَنْ أُرِيدَ وُفِّقَ.

وإنَّ للهِ ﷻ أَقْوامًا يَتولَّىٰ تَربيتَهم، ويَبعثُ إليهِمْ فِي زَمَنِ الطُّفولة مُؤَدِّبًا يُسمَّىٰ: العَقْلُ، ومُقوِّمًا يُقَالُ لَهُ: الفَهمُ، ويَتولَّىٰ تَأدِيبَهم وتَثقِيفَهم، ويُهيِّءُ لَهُم أَسْبابَ القُرْبِ مِنْهُ، فَإِنْ لاحَ قَاطعٌ قَطعَهم عَنْهُ، وإنْ تعرَّضتْ بِهِم فِتنةٌ دَفعَها عنهُم، فنَسْأَلُ اللهَ ﷻ أَنْ يَجعلَنا منْهُم، ونَعُوذُ بِهِ من خُذلانٍ لا يَنفعُ مَعهُ اجْتِهَادٌ.

۞ فَصْلٌ ۞

إنَّ للخَلْوَةِ تَأْثِيراتٍ تَبينُ فِي الجَلْوَةِ

فَكَمْ مِن مُؤمنٍ باللهِ ﷻ يَحْتَرِمُهُ عِنْدَ الخَلواتِ، فيتركُ مَا يَشتهِي؛ حذَرًا مِن عِقابِه، أوْ رجَاءً لثَوابِه، أوْ إجْلالًا لَهُ؛ فيَكُونُ بذَلِكَ الفِعْلِ كأنَّه طَرحَ عُودًا هِنديًّا عَلَىٰ مَجْمَرٍ، فيفُوحُ طِيبُه، فتَسْتَنْشِقُهُ الخَلائقُ، ولا يَدرُونَ أيْنَ هو.

وعَلَىٰ قَدرِ المُجاهَدةِ فِي تَركِ مَا يَهوَىٰ تَقْوَىٰ محبَّتُه، أوْ عَلَىٰ مِقْدَار زِيَادَة دَفع ذَلِكَ المَحبوبِ المَترُوكِ يَزيدُ الطِّيبُ، ويتَفَاوُتُ تَفَاوُتَ العُودِ؛ فتَرَىٰ عُيونَ الخَلْقِ تُعظِّم هَذَا الشَّخْصَ، وألسِنَتَهُمْ تَمْدَحُه، ولا يعرِفُون لِمَ؟ ولا يَقدِرون عَلَىٰ وصفِهِ؛ لبُعدِهم عَنْ حَقِيقَةِ مَعرِفتِه.

وقَدْ تمتدُّ هَذِهِ الأَرَاييحُ بَعدَ المَوْت عَلَىٰ قَدرِها: فمِنهُم: مَنْ يُذْكرُ بالخَيرِ مُدَّةً مَديدةً، ثُمَّ يُنسَىٰ. ومِنهُم: من يُذكَرُ مائةَ سَنَة، ثُمَّ يَخفَىٰ ذِكرُه وقَبْرُهُ. ومِنهُم: أَعْلَامٌ؛ يَبْقَىٰ ذِكرُهم أَبَدًا.

وعَلَىٰ عَكسِ هَذَا: مَن هَابَ الخَلْقَ، ولَمْ يَحْتَرِم خَلوتَه بالحقِّ، فإنَّه عَلَىٰ قَدرِ مُبارزَتِهِ بالذُّنُوبِ؛ وعَلَىٰ مَقادِير تِلْكَ الذُّنُوب، يَفوحُ مِنْهُ رِيحُ الكرَاهةِ، فتَمقتُه القُلُوبُ، فَإنْ قَلَّ مِقْدَار مَا جَنىٰ قَلَّ ذِكرُ الألسُنِ لَهُ بالخَيرِ، وبَقِيَ مُجرَّد تَعظِيمه، وإنْ كثُرَ كَانَ قُصارَىٰ الأَمْر سُكوتُ النَّاسِ عَنْهُ؛ لا يَمدحُونَه ولا يذُمُّونهُ.

ورُبَّ خالٍ بذَنبٍ، كَانَ سَبَب وقُوعِه فِي هُوَّةِ شَقوةٍ فِي عَيشِ الدُّنْيَا والآخِرَة؛ فكَأنَّه قِيلَ لَهُ: ابقَ بِمَا آثَرتَ، فيَبقَىٰ أبدًا فِي التَّخبيط.

فانْظُروا – إخْوانِي – إلىٰ المَعاصِي؛ أَثَّرتْ وعَثَّرتْ.

قَالَ أَبُو الدَّرداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنَّ العَبْدَ لِيخْلُو بمَعصِيَة الله تَعالَىٰ؛ فيُلقِي اللهُ بُغضَه فِي قُلوبِ المُؤْمِنينَ من حَيثُ لا يَشعُر».

فتلَمَّحوا مَا سَطَّرتُه، واعرفُوا مَا ذَكرتُه، ولا تُهمِلُوا خَلواتِكم ولا سَرائرَكم؛ فَإِنَّ الأعمالَ بالنِّيَّة، والجَزاءَ عَلَىٰ مِقْدَار الإخْلاصِ.

فَصْلٌ

مَنْ عَرَفَ جَرَيانَ الأَقْدَارِ ثَبتَ لَهَا، وأجهلُ النَّاس بَعدَ هَذَا من قَاواهَا؛ لأَنَّ مُرَاد المُقدِّرِ الذُّلُّ لَهُ، فَإذَا قَاوَيتَ القَدَر، فنِلتَ مُرادَك من ذَلِكَ؛ لَمْ يَبْقَ لَكَ ذُلٌّ

مِثالُ هَذَا: أَنْ يَجوعَ الفَقِيرُ، فيَصبِر قَدرَ الطَّاقةِ، فَإذَا عَجزَ خَرَجَ إلىٰ سُؤالِ الخَلْق؛ مُستحيِيًا منَ اللهِ كَيْفَ يَسْأَلُهم، وإنْ كَانَ لَهُ عُذرٌ بالحَاجَة الَّتِي أَلْجَأَتْه، غَيْرَ أَنَّهُ يَرَىٰ أَنَّهُ مغلوبُ الصَّبْرِ؛ فَيبقَىٰ مُعتذِرًا مُستحيِيًا، وذَاكَ المُرَادُ منهُ.

أوَلَيسَ يَخْرُجُ النَّبيُّ ﷺ من مَكَّة، فَلا يَقدرُ عَلَىٰ العَودِ إلَيهَا حَتَّىٰ يدْخُل فِي خِفَارةِ المَطْعمِ بْنِ عدِيٍّ وهُوَ كافِرٌ.

فسُبحانَ مَن نَاطَ الأُمُورَ بالأَسْبَابِ؛ ليَحصُلَ ذُلُّ العَارِفِ بالحَاجَة إلىٰ التَّسبُّبِ.

۞ فَصْل ۞

سُبحانَ المُتصرِّفِ فِي خَلقِه بالاعْتِزَازِ والإِذْلَالِ لِيَبلُوَ صَبْرَهُم، ويُظْهِرَ جوَاهِرَهُم فِي الابْتِلَاءِ

فَهذَا آدَم عليه السلام؛ تَسجُد لَهُ المَلائِكَة، ثُمَّ بَعدَ قليلٍ يُخرَجُ مِن الجَنَّة.

وهَذَا نُوحٌ عليه السلام؛ يُضربُ حَتَّىٰ يُغشىٰ عَلَيهِ، ثُمَّ بَعدَ قَليلٍ يَنْجُو فِي السَّفينةِ، ويَهْلَكُ أعداؤُه.

وهَذَا الخَلِيلُ عليه السلام؛ يُلقَىٰ فِي النَّار، ثُمَّ يَخرُج إلىٰ السَّلامَةِ.

وهَذَا الذَّبيحُ؛ يضْطَجِعُ مُستسلِمًا، ثُمَّ يَسْلَم، ويَبقَىٰ المَدحُ.

وهَذَا يَعقوبُ عليه السلام؛ يَذهبُ بَصرُه بالفِراقِ، ثُمَّ يَعودُ بالوَصْلِ.

وهَذَا الكَليمُ عليه السلام؛ يَشتغِلُ بالرَّعي، ثُمَّ يَرقَىٰ إلىٰ التَّكلِيم.

وهَذَا نبيُّنا مُحَمَّدٌ ﷺ؛ يُقَال لَهُ بالأمسِ: اليَتيمُ، ويُقلَّبُ فِي عَجائِبَ يُلاقِيها مِن الأَعْدَاءِ تارةً ومِن مَكائِدِ الفَقْر أُخرَىٰ، وهُوَ أَثْبتُ من جَبلِ حِراءَ؛ ثُمَّ لَمَّا تمَّ مُرادُهُ مِن الفَتحِ، وبلغَ الغَرضَ مِن أكبَرِ المُلوكِ وأهلِ الأَرْضِ؛ نَزَلَ بِهِ ضيفُ النَّقْلَةِ، فقَالَ: وَا كَربَاه.

فمَنْ تَلَمَّح بحرَ الدُّنْيَا، وعَلمَ كَيْفَ يَتلقَّىٰ الأمْواجُ، وكَيفَ يَصْبِر عَلَىٰ مُدافعَة الأَيَّامِ؛ لَمْ يَستهوِلْ نزُولَ بَلاءٍ، ولَمْ يَفرحْ بعَاجِل رخَاءٍ.

﴿ فَصْل ﴾

يَنْبغِي للعَاقِلِ أَنْ لا يُقدِم عَلَى العَزائِم حَتَّى يَزِنَ نَفْسَه: هَلْ يُطِيقُهَا؟

ويُجرِّب نَفْسه فِي رُكوبِ بَعْضِها سِرًّا مِن الخَلْقِ؛ فإِنَّه لا يَأمنُ أَنْ يُرَىٰ فِي حَالَةٍ لا يَصْبِر عَلَيْهَا، ثُمَّ يَعودُ فيُفتَضَحُ.

مثَالُه: رَجُلٌ سَمعَ بذِكرِ الزُّهَّادِ، فرَمَىٰ ثِيابَه الجَميلَةَ ولَبسَ الدُّونَ، وانفَردَ فِي زَاوِيةٍ، وغَلبَ عَلَىٰ قَلبِه ذِكرُ المَوْتِ والآخِرَةِ؛ فَلَمْ يلبَثْ مُتقاضِي الطَّبْع أَنْ أَلَحَّ بِمَا جَرتْ بِهِ العَادَةُ:

فمِنَ القَومِ: من عَادَ بمرَّةٍ إلىٰ أَكْثَر مِمَّا كَانَ عَلَيهِ؛ كأَكْلِ النَّاقِه مِن مَرضٍ.

ومنهُمْ: من تَوسَّط الحَالَ؛ فبَقِيَ كالمُذَبْذَبِ.

وإِنَّمَا العَاقِلُ: هُوَ الَّذِي يَستُر نَفْسَه بينَ النَّاسِ بثَوبٍ وسَطٍ؛ لا يُخرِجُه من أَهْلِ الخَيْر، ولا يُدخلهُ في زِيِّ أَهْلِ الفَاقةِ.

فإِنْ قَويَتْ عَزيمَتهُ عَملَ فِي بَيتِه مَا يطِيقُ، وتَركَ ثَوبَ التَّجمُّل لسَتْرِ الحَالِ، ولَمْ يُظْهِر شَيئًا للخَلقِ؛ فإِنَّه أَبْعدُ مِن الرِّياءِ، وأَسْلَمُ مِن الفَضِيحَةِ.

وفِي النَّاس مَن غَلبَ عَلَيهِ قِصَر الأَمَل وذِكرُ الآخِرَةَ، حَتَّىٰ دَفنَ كُتبَ العِلْمِ؛ وهَذَا الفِعْلُ عِنْدِي من أعْظَم الخَطَإِ، وإنْ كَانَ منقُولًا عَنْ جَماعَةٍ من الكِبارِ. ولَقَدْ ذَكرتُ هَذَا لبعضِ مَشَايخِنَا، فَقَالَ: أَخْطَأوا كُلُّهُم.

ولقَدْ تأَوَّلتُ لبَعضِهم بأَنَّهُ كَانَ فِيهَا أَحَادِيث عَنْ قَوْمٍ ضُعفَاء ولَمْ يُميِّزوهَا - كَمَا رُوِي عَنْ سُفيَان فِي دَفنِ كُتبه - أَوْ كَانَ فِيهَا شَيْءٌ من الرَّأْيِ، فَلم يُحبُّوا أَنْ يؤخذ عَنْهُم، فكَانَ من جِنْس تَحرِيق عُثمان بْن عفَّانَ ﷺ للمصَاحِف؛ لِئلَّا يُؤخَذ بشَيْءٍ مِمَّا فِيهَا من المُجمَعِ عَلَىٰ غَيره.

وهَذَا التَّأوِيل يَصِحُّ فِي حَقِّ عُلمائِهم، فأَمَّا غَسلُ أحْمَدَ بْن أبي الحَواري كُتُبَهُ، وابنِ أسْبَاط؛ فتَفريطٌ مَحضٌ.

فالحَذَرَ الحَذَرَ مِن فِعلِ يَمنعُ مِنْهُ الشَّرْع، أوْ مِن ارتِكابِ مَا يَظنُّ عَزيمةً وهُوَ خَطيئَة، أوْ مِن إظهَارِ مَا لا يَقوَىٰ عَلَيهِ المَظْهِرُ؛ فيَرجِع القَهقَرَىٰ، و«عَليكُم مِن العَمَلِ بِمَا تُطيقُون»[1] كَمَا قَالَ النبيُّ ﷺ.

❁ فَصْلٌ ❁

أَجْهلُ الجُهَّالِ مَن آثَرَ عَاجلًا عَلَى آجِلٍ، لا يَأمنُ سُوءَ مغَبَّتِه

فَكَمْ قَدْ سَمِعْنا عَنْ سُلطانٍ وأميرٍ وصَاحِبِ مَالٍ، أطلَقَ نَفْسهُ فِي شَهواتِها، ولَمْ يَنظُرْ فِي حَلالٍ وحرَامٍ، فنزلَ بِهِ مِنَ النَّدم وقتَ المَوْت أَضْعَافُ مَا الْتَذَّ، ولَقِيَ مِن مَريرِ الحَسَراتِ مَا لا يُقاوِمهُ ولا ذرَّة منه كُلُّ لَذَّةٍ.

ولَوْ كَانَ هَذَا فحَسْب لكفَىٰ حُزنًا، فكَيْفَ والجَزاءُ الدَّائمُ بينَ يَدَيْه؛ فالدُّنْيَا مَحبوبةٌ مَطْلُوبةٌ للطَّبع، لا رَيبَ في ذَلِكَ، ولا أُنكرُ عَلَىٰ طَالبِها ومُؤثِرِ شهواتِها، ولَكِن يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنظُرَ فِي كَسْبِها، ويَعلمَ وَجْه أخذِهَا؛ لتَسلَم لَهُ عَاقبَةُ لذَّتِه، وإِلَّا فَلا خيرَ فِي لَذَّةٍ مِن بَعْدِهَا النَّارُ.

وهَلْ عُدَّ فِي العَقْلاءِ قَطُّ مَن قِيلَ لَهُ: اجلِسْ فِي المَمْلكَةِ سَنةً ثُمَّ نقتُلُكَ؟! هَيهَاتَ، بَل الأَمْرُ بالعَكسِ، وهُوَ أَنَّ العَاقِلَ مَنْ صَابرَ مَرارةَ الجَهدِ سنةً -بَلْ سِنينَ- ليَسترِيحَ فِي عَاقِبَتِه، وفِي الجُمْلَة؛ أُفٍّ للذَّة أَعْقبَتْ عُقُوبَةً.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٣، ١١٥١، ١٩٧٠، ٥٨٦١، ٦٤٦٥)، ومسلم (٧٨٢، ٧٨٥) من حديث عائشة. والبخاري (١٩٦٦) ومسلم (١١٠٣) من حديث أبي هريرة.

وقَدْ أخبَرَنا عَبْد الرَّحْمَن بْنُ مُحَمَّد القزَّاز قَالَ: أخْبَرَنا أَبُو بكر الخَطِيب قَالَ: أَخْبَرَنا الحَسنُ بْن أبي طَالبٍ قَالَ: حدَّثَنَا يُوسُف بْن عُمَر القوَّاس قَالَ: حدَّثنَا الحُسَين بْن إسمَاعِيل إملاءً قَالَ: حدَّثَنَا عَبْد الله بْن أبي سعد قَالَ: حدَّثنَا مُحَمَّد بْن مَسلَمة البَلخِيِّ قَالَ: حدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَلِيِّ القَوهستَانيُّ قَالَ: حدَّثَنَا دلف بْنُ أبي دلف قَالَ: رَأيْتُ كَأنَّ آتيًا أَتَىٰ بَعدَ مَوتِ أَبِي فَقَالَ: أَجِبِ الأَمِيرَ. فقمتُ مَعهُ، فأَدخَلنِي دارًا وَحِشةً وعْرةً سَوداءَ الحِيطانِ مُقلَّعة السُّقوفِ والأبوَابِ، ثُمَّ أَصْعَدنِي دَرَجًا فِيها، ثُمَّ أدخلَني غُرفةً، فَإِذَا فِي حِيطانِها أثرُ النِّيرانِ، وإِذَا فِي أَرضِها أثرُ الرَّمادِ، وإِذَا أبي عُريَان واضِعًا رَأسَه بين رُكبتَيه، فَقَالَ لي كالمُستفهِم: دُلَفُ؟ قُلْتُ: نعَمْ، أَصْلحَ اللهُ الأميرَ، فأنشَأَ يَقُول:

أَبْلِغَــنَ أَهْلَنَــا وَلَا تُخْــفِ عَــنْهُمْ ** مَــا لَقِينَــا فِــي البَــرْزَخِ الخَفَّــاقِ
قَــدْ سُــئِلْنَا عَــنْ كُــلِّ مَــا قَــدْ فَعَلْنَــا ** فَــارْحَمُوا وَحْــشَتِي وَمَــا قَــدْ أُلَاقِــي

أفَهمتَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، فأنشأ يَقُول:

فَلَــــوْ أَنَّــــا إِذَا مِتْنَــــا تُرِكْنَــــا ** لَكَــانَ المَــوْتُ رَاحَــةَ كُــلِّ حَــيِّ
وَلَكِنَّــــا إِذَا مِتْنَــــا بُعِثْنَــــا ** وَنُــسْأَلُ بَعْــدَهُ عَــنْ كُــلِّ شَــيِّ

۞ فَصْلٌ ۞

اللَّذَّاتُ كُلُّهَا بَيْنَ حِسِّيٍّ وعَقْلِيٍّ
فنِهايةُ اللَّذَّاتِ الحِسِّيَّةِ وَأَعْلَاهَا النِّكَاحُ، وغَايةُ اللَّذَّاتِ العَقْلِيَّةِ العِلْمُ
فمَنْ حَصلَتْ لَهُ الغَايَتَانِ فِي الدُّنْيَا فَقدْ نَالَ النِّهايَةَ

وأنَا أُرشِدُ الطَّالِبَ إلىٰ أعلىٰ المَطْلُوبَينِ، غَيْرَ أَنَّ للطَّالِبِ المَرزوقِ عَلامةٌ، وهُوَ أَنْ يَكُونَ مَرزُوقًا عُلوَّ الهِمَّة، وهَذِهِ الهِمَّةُ تُولدُ مع الطِّفلِ، فتَراُه مِن زَمَنِ طُفولَتهِ يَطلُب مَعالِي الأمُورِ.

كَمَا يُروَىٰ فِي الحَدِيث، أَنَّه كَانَ لعَبْدِ المُطلِّب مفرَشٌ فِي الحِجرِ، فكَانَ النَّبيُّ ﷺ يَأتِي وهُوَ طفْلٌ فيَجلسُ عَلَيهِ، فيقُولُ عَبْدُ المُطلِّب: «إنَّ لابنِي هَذَا شَأنًا».

فإن قَالَ قَائِل: فَإذَا كَانَتْ لي همَّةٌ، ولَمْ أُرزَقْ مَا أَطْلُبُ؛ فَمَا الحِيلَةُ؟

فالجَوَاب: أَنَّهُ إِذَا امتنعَ الرِّزقُ مِن نَوعٍ لَمْ يَمتنِع من نوعٍ آخَرَ، ثُمَّ مِن البَعيدِ أَنْ يَرزُقك همَّةً ولا يُعينكَ، فانْظُر فِي حَالِك، فلعلَّه أعطَاكَ شَيئًا مَا شَكَرْتَه، أو ابتلاك بشَيْءٍ مِن الهَوَىٰ مَا صَبرتَ عَنهُ.

واعلَمْ؛ أَنَّهُ رُبَّمَا زَوىٰ عَنكَ مِن لذَّات الدُّنْيَا كَثيرًا؛ ليُؤثِركَ بلذَّاتِ العِلْم؛ فإنَّكَ ضعيفٌ رُبَّمَا لا تَقْوَىٰ عَلَىٰ الجَمعِ، فَهُو أَعْلَمُ بِمَا يُصلِحك.

وأمَّا مَا أردتُ شَرحَه لَكَ:

فَإنَّ الشَّابَّ المُبتدِئَ فِي طلبِ العِلْمِ يَنْبغِي لَهُ أَنْ يأخُذَ من كُلِّ عِلمٍ طَرفًا، ويَجعَلَ عِلمَ الفِقهِ الأَهمَّ، ولا يُقصِّر فِي مَعْرِفَة النَّقْل؛ فبِهِ تَبينُ له سِيَرُ الكَامِلِين، وإذَا رُزِق فَصاحةً مِن حَيثُ الوَضعُ، ثُمَّ أضِيفَ إِلَيهَا مَعرِفَةُ اللُّغةِ والنَّحوِ؛ فَقدْ شُحِذتْ شَفرةُ لسَانِه عَلَىٰ أَجوَدِ مِسَنٍّ، ومتىٰ طَلَبَ العِلْمَ لمَعرِفَة الحَقِّ وخِدمةِ اللهِ ﷻ؛ فُتحَتْ لَهُ أبوابٌ لا تُفتَح لغَيرِه.

ويَنْبغِي لَهُ بالتَّلطُّف أَنْ يَجعلَ جُزءًا من زَمانِه مَصرُوفًا إلىٰ تَوفِير الاكتِسابِ والتِّجارةِ، مُستنيبًا فِيهَا، غَيْرَ مُباشرٍ لَهَا، مع التَّدبِير فِي العَيْش المُمتنِع مِن الإسرَافِ والتَّبذيرِ؛ فَإِنَّ روايةَ العِلْم والعَمَل بِهِ إلىٰ دَرجةِ المَعْرفَة للهِ ﷻ آسِرةٌ للمَشاعِرِ، فرُبَّمَا شَغلتْهُ لَذَّةُ مَا وصَلَ إلَيْهِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، ويا لَهَا حَالَةٌ سَليمَة من آفَةٍ.

وإنْ وَجدَ مِن طَبعِهِ مُنازِعًا إلىٰ الشَّوقِ فِي النِّكَاحِ؛ فلَيتخيَّر السَّرَارِي؛ فَإِنَّ الحَرَائرَ - فِي الأَغْلَب - غِلٌّ.

وليَعزِل عَنِ المَملوكَاتِ إلىٰ أَنْ يُجرِّب خُلُقهنَّ ودِينهنَّ، فَإِنْ رَضيَهنَّ طلَبَ الوَلَدَ مِنهنَّ، وإِلَّا فالاستِبدالُ بهِنَّ سَهلٌ.

ولا يتزوَّجْ حُرَّةً إِلَّا أَنْ يعلَمَ أَنَّهَا تَصبرُ عَلَىٰ التَّزويج عَلَيْهَا والتَّسرِّي، وليَكُنْ قَصْدُهُ الاستِمتاعُ بِهَا لا إجهَادُ النَّفْسِ فِي الإنزَالِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَهدمُ قوَّتهُ، فيَضعُفُ الأَصْلُ.

فهَذِهِ الطَّريقُ هِي الجَامعةُ بَيْنَ لذَّتي الحِسِّ والعَقْل، ذَكرتُها عَلَىٰ وَجْهِ الإشَارةِ، وفَهْمُ الذَّكيِّ يَميلُ عَلَيهِ مَا لَمْ أَشْرَحهُ.

فَصْلٌ

فِي تَعْلِيمِ حِفْظِ العِلمِ

اعلَمْ؛ أَنَّ المُتعلِّم يَفتقِرُ إلىٰ دَوامِ الدِّراسةِ، ومِنَ الغَلَطِ الانهماكُ فِي الإعَادةِ لَيلًا ونَهارًا؛ فإِنَّهُ لا يلبَثُ صَاحِبُ هَذِهِ الحَالِ إِلَّا أَيَّامًا ثُمَّ يفترُ أَوْ يَمْرَضُ.

وقَدْ رُوِّينا أَنَّ الطَّبِيب دخل عَلَىٰ أبي بكر بْن الأنباريِّ فِي مَرض موتِه، فنظر إلىٰ مِائةِ كِتابٍ وقَالَ: لقَدْ كُنْت تفعل شَيئًا لا يفعله أحد، ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ: مَا يَجِيء مِنْهُ شَيْءٌ. فقِيلَ لَهُ: مَا الَّذِي كُنْتَ تَفعلُ؟ قَالَ: كُنْتُ أَعِيدُ كُلَّ أسبُوعٍ عَشرَةَ آلافِ وَرقَة.

مِن الغَلَط حِفْظُ الكَثيرِ أو الحِفْظُ مِن فُنونٍ شَتىٰ؛ فَإِن القَلْب جَارحَةٌ مِن الجَوَارِح، فكَمَا أَنَّ مِن النَّاس مَن يَحْملُ المائةَ رَطْلٍ، ومِنْهُم من يعْجَز عَنْ عِشرِينَ رطلًا؛ فكَذَلكَ القُلُوبُ.

فَليأخُذِ الإنْسَانُ عَلَىٰ قَدرِ قوَّته ودُونَها؛ فإِنَّه إِذَا اسْتَنْفَدَها فِي وقتٍ ضَاعتْ مِنْهُ أوقاتٌ، كَمَا أَن الشَّرِه يأكلُ فَضْلَ لُقيماتٍ، فيَكُونُ سببًا إلىٰ مَنْع أَكَلَاتٍ.

والصَّوَابُ: أَنْ يأخذ قَدرَ مَا يُطيقُ ويعيدُ فِي وَقتين مِن النَّهَارِ واللَّيْلِ، ويرفِّه القُوَىٰ فِي بقيَّة الزَّمَان.

والدَّوَام أصلٌ عظيمٌ، فكَمْ مِمَّنْ تركَ الاستِذكارَ بَعدَ الحفظِ؛ فضَاع زَمَنٌ طويلٌ فِي استِرجَاعِ مَحفوظٍ قَد نُسِيَ.

وللحِفظِ أوقاتٌ من العُمرِ؛ فأفضلُها الصِّبا ومَا يُقاربه من أوقاتِ الزَّمَان، وأفضلُها إعادةُ الأسحَارِ وأنصافِ النَّهَار، والغدَواتُ خيرٌ من العشِيَّات، وأوقاتُ الجُوع خيرٌ من أوقاتِ الشِّبَع.

ولا يُحمَد الحفظُ بحضرَة خُضرةٍ ولا عَلَىٰ شَاطِئِ نَهرٍ؛ لأَنَّ ذَلِكَ يُلْهِي، والأَمَاكنُ العَاليةُ للحِفظِ خيرٌ من السَّوافلِ، والخَلوَةُ أصلٌ، وجمعُ الهَمِّ أصلُ الأُصُول.

وتَرفيهُ النَّفْس مِن الإعَادة يَومًا فِي الأُسبُوع؛ ليثبتَ المَحفوظُ وتأخُذ النَّفْسُ قُوَّةً، كالبُنيانِ يُترَك أيَّامًا حَتَّىٰ يَستقرَّ ثُمَّ يُبنىٰ عَلَيهِ.

وتَقليلُ المَحفوظِ مع الدَّوَام أصلٌ عظيمٌ، وألَّا يشرُع فِي فنٍّ حَتَّىٰ يُحكِم مَا قَبلَه، ومَنْ لَمْ يجِد نَشاطًا للحفظِ فليترُكهُ؛ فَإِنَّ مُكابرةَ النَّفْس لا تَصلُح.

وإِصْلاحُ المزَاجِ مِن الأُصُول العظيمةِ؛ فَإِنَّ للمَأكولاتِ أثرًا فِي الحِفظِ.

قَالَ الزُّهريُّ: «ما أكلتُ خلًّا منذُ عَالجتُ الحِفظَ».

وقيل لأبي حَنيفةَ: «بمَ يُستعانُ عَلَىٰ حفظِ الفِقهِ؟» فقَالَ: «بجَمعِ الهمِّ». وقَالَ حمَّادُ بْنُ سَلمةَ: «بقِلَّة الغَمِّ».

وقَالَ مَكحولٌ: «منْ نظَّف ثوبَه قَلَّ همَّه، ومن طابتْ رِيحُه زادَ عقلُه، ومن جَمعَ بينهُما زَادتْ مُروءَته».

وأَختارُ للمُبتدِئِ فِي طَلَبِ العِلْم أَنْ يُدافِع النِّكَاح مَهما أمكنَ، فَإِنَّ أَحْمَدَ بْن حَنْبَل لَمْ يتزوَّج حَتَّىٰ تمَّت لَهُ أربعونَ سنةً؛ وهَذَا لأجل جَمعِ الهمِّ، فَإِنْ غَلَبَ عَلَيهِ الأَمْرُ تزوَّج واجتَهدَ في المُدافَعةِ بالفِعْل، لتتوفَّر القُوَّةُ عَلَىٰ إعادةِ العِلْم.

ثُمَّ لينظُر مَا يَحفَظُ مِن العِلْم؛ فَإِنَّ العُمُرَ عَزيزٌ والعِلْمَ غزيرٌ، وإنَّ أَقْوَامًا يَصْرِفون الزَّمَان إِلَىٰ حفظِ مَا غَيْرُه أولَىٰ مِنْهُ، وإنْ كَانَ كُلُّ العُلوم حَسنًا، ولَكِنَّ الأَوْلىٰ تقدِيم الأهمِّ والأفْضَل. وأفْضَلُ مَا تُشوغِل بِهِ حفظُ القُرْآن، ثُمَّ الفقهُ، ومَا بَعدَ هَذَا بمَنْزِلةِ تَابعٍ.

ومَنْ رُزِقَ يقظةً؛ دلَّتهُ يقَظتُه فَلم يَحْتَجْ إلىٰ دَلِيل، ومن قصدَ وَجْهَ اللهِ تَعَالَىٰ بالعِلْم دلَّه المَقصُودُ عَلَىٰ الأحسنِ، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

۞ فَصْل ۞

منْ أَرَادَ دوامَ العَافِيَة والسَّلامَةِ فليتَّقِ الله ﷻ؛ فإِنَّهُ مَا مِن عَبْدٍ أَطلَقَ نَفْسَه فِي شَيْءٍ يُنافِي التَّقوَى، وإنْ قلَّ؛ إلَّا وَوَجدَ عُقوبَته عَاجلةً أوْ آجلةً

ومِنَ الاغتِرارِ أَنْ تُسِيءَ فتَرىٰ إحسَانًا فتظُنَّ أنَّكَ قَدْ سُومِحتَ، وتنسَىٰ: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]، ورُبَّما قَالَتِ النَّفْسُ: إِنَّهُ يَغفرُ، فتَسامَحتَ، ولا شكَّ أَنَّهُ يَغفرُ ولَكِن لمَنْ يَشاءُ.

وأنَا أشرَحُ لَكَ حَالًا، فتأمَّلْهُ بِفكرِك؛ تَعرِفْ مَعْنَىٰ المَغفِرةَ:

وذَلِكَ؛ أَنَّ مَن هَفا هَفوةً؛ لَمْ يقصِدْها، ولَمْ يعزِمْ عَليْهَا قَبلَ الفِعْلِ، ولا عَزمَ عَلَىٰ العَودِ بَعدَ الفِعْلِ، ثُمَّ انتبهَ لِمَا فعلَ، فاستَغفرَ اللهَ؛ كَانَ فِعلُه -وإنْ دَخلَه عَمدًا- فِي مَقام خَطَإٍ.

مِثلَ أَنْ يَعرِضَ لَهُ مُستحسَنٌ، فيَغلِبَه الطَّبْعُ، فيُطلِق النَّظَرَ، ويَتشَاغَلُ فِي حَالِ نظَرِه بالْتذَاذِ الطَّبْعِ عَنْ تَلمُّح مَعْنَىٰ النَّهْي، فيَكُونُ كالغَائبِ أوْ كالسَّكرَانِ؛ فَإذَا انتبَهَ لنَفْسِهِ نَدِمَ عَلَىٰ ما فعلَهُ، فقَامَ النَّدمُ بغَسْلِ تِلْكَ الأَوْسَاخِ الَّتِي كَانَتْ كأنَّهَا غَلطَةٌ لَمْ تُقصَد؛ فهَذَا مَعْنَىٰ قَوْله تَعالَىٰ: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

فأَمَّا المُداوِمُ عَلَىٰ تِلْكَ النَّظرَة، المُردِّد لَهَا، المُصرُّ عَليْهَا؛ فكَأَنَّهُ فِي مَقام مُتعمِّدٍ للمنهي، مُبارِزٍ بالخِلافِ؛ فالعَفوُ عَنْهُ يَبعُد عنهُ بمِقْدَار إصرَارِه، ومِنَ البَعيدِ أَنْ لا يَرَىٰ الجَزاءَ عَلَىٰ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ ابنُ الجَلاء: «رَآنِي شَيخِي وأنَا قَائمٌ أَتأمَّلُ حَدَثًا نَصرَانيًّا، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ لترَينَّ غُبَّها ولَوْ بَعدَ حينٍ. فنَسيتُ القُرْآنَ بَعدَ أَرْبَعِين سَنةً».

واعْلَمْ؛ أَنَّ مِنْ أَعْظَم المِحَنِ الاغتِرارُ بالسَّلامَةِ بَعدَ الذَّنبِ؛ فَإِنَّ العُقُوبَةَ تتأَخَّرُ، ومِن أَعْظَمِ العُقُوبَةِ أَنْ لا يُحِسَّ الإنْسَانُ بِها، وأَنْ تَكُون فِي سَلبِ الدِّينِ، وطَمسِ القَلْبِ، وسُوءِ الاختِيارِ للنَّفْسِ؛ فيَكُون مِن آثَارِها سَلامَة البَدَنِ وبُلُوغ الأغرَاضِ.

قَالَ بَعْض المُعتبرين: أَطلقتُ مَرَّةً نظرِي فِيمَا لا يَحِلُّ لي، ثُمَّ كُنْتُ أَنتظِرُ العُقُوبَةَ، فَأُلجِئْتُ إِلَىٰ سَفرٍ طَويلٍ لا نيَّةَ لي فِيهِ، فلَقِيتُ المَشاقَّ، ثُمَّ أَعْقَبتُ بَعدَ ذَلِكَ موتَ أعزِّ الخَلْق عِندِي، وذَهابَ أَشْيَاء كَانَ لَهَا وَقْعٌ عَظِيمٌ عندِي، ثُمَّ تَلافَيْتُ أَمْرِي بالتَّوْبَةِ؛ فصلحَ حَالِي، ثُمَّ عَادَ الهَوَىٰ، فحَملَنِي عَلَىٰ إطلاقِ بَصَرِي مرَّةً أُخرىٰ، فطُمسَ قَلبي، وعَدِمْتُ رقَّتهُ، واستُلِبَ مِنِّي مَا هُوَ أَكْثَرُ مِن فَقدِ الأَوَّل، ووقعَ

لي تَعويضٌ عَنِ المفقودِ بِمَا كَانَ فَقْدُه أَصْلحَ، فَلَمَّا تَأَمَّلتُ مَا عُوِّضتُ ومَا سُلبَ مِنِّي؛ صِحْتُ مِن أَلَمِ تِلْكَ السِّياطِ، فهَا أنا أُنادِي مِن عَلَىٰ السَّاحلِ:

يا إخوانِي! احْذَرُوا لُجَّةَ هَذَا البَحرِ، ولا تَغترُّوا بسُكونِه، وعليكُمْ بالسَّاحِلِ، ولازِمُوا حِصنَ التَّقوَىٰ؛ فالعُقُوبَة مُرَّةٌ.

واعلَمُوا أَنَّ فِي مُلازَمَةِ التَّقوَىٰ مَراراتٌ مِنْ فَقدِ الأَغْراضِ والمُشتهياتِ، غَيْرَ أَنَّهَا فِي ضَربِ المَثلِ كَالحِمْيَةِ تعقُبُ صِحَّةً، والتَّخلِيطُ رُبَّمَا جلَبَ موتَ الفَجأَةِ.

وتاللهِ؛ لَوْ نِمتُم عَلَىٰ المَزابِلِ معَ الكِلابِ فِي طَلَبِ رِضَىٰ المُبتلِي؛ كَانَ قَليلًا فِي نَيلِ رِضاهُ، ولَوْ بلَغتُم نِهايَةَ الأمَانيِّ مِن أَغرَاضِ الدُّنْيَا معَ إعرَاضِه عنكُمْ؛ كَانَتْ سَلامتُكم هَلاكًا، وعَافيتُكُم مَرضًا، وصحَّتكُم سقمًا، والأَمْرُ بآخِرِه، والعَاقِلُ مَن تَلَمَّح العَوَاقِبَ.

وصَابرُوا - رَحمكُم اللهُ - هجيرَ البَلاءِ؛ فَمَا أَسْرَعَ زَوالِه، واللهُ المُوفِّق؛ إذْ لا حولَ إلَّا بِهِ، ولا قُوَّة إلَّا بفَضلِه.

❁ فَصْلٌ ❁

قَدِم إلى بغدادَ جَمَاعَةٌ من أَهْلِ البِدَعِ الأعَاجِم فارتَقَوا مَنابِرَ التَّذكيرِ للعَوامِّ

فكَانَ مُعظمُ مَجالِسِهم أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: لَيسَ للهِ فِي الأَرْضِ كَلامٌ، وهَل المُصحَفُ إلَّا ورقٌ وعَفْصٌ وزَاجٌ، وإنَّ اللهَ لَيسَ فِي السَّمَاءِ، وإنَّ الجَاريةَ الَّتِي قَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ: «أيْنَ اللهُ؟»[1] كَانَتْ خَرْسَاءَ، فأَشَارتْ إلَىٰ السَّمَاءِ، أيْ: لَيسَ هُوَ مِن

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم السلمي.

الأصنام التي تُعبدُ فِي الأَرْضِ، ثُمَّ يَقُولُونَ: أَيْنَ الحُرُوفيَّةُ الَّذِينَ يَزعُمونَ بأَنَّ القُرْآنَ حَرْفٌ وصَوْتٌ، هَذه عِبارَةُ جِبريلَ.

فَمَا زَالُوا كذَلِكَ، حَتَّىٰ هَانَ تَعظِيمُ القُرْآن فِي صُدورِ أَكْثَرِ العَوامِّ، وصَارَ أَحَدُهُم يَسمعُ فيقُولُ: هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ، وإلَّا فالقُرْآن شَيْءٌ يَجِيءُ بِهِ جِبريلُ فِي كِيسٍ!

فشَكَا إليَّ جَمَاعَةٌ مِن أَهْلِ السُّنَّة، فَقُلتُ لَهُم: اصبِرُوا؛ فَلا بُدَّ للشُّبُهاتِ أَنْ تَرفعَ رَأْسَهَا فِي بَعْضِ الأَوقَاتِ، وإِنْ كَانَتْ مَدْمُوغةً، وللبَاطِلِ جولةٌ، وللحَقِّ صَولةٌ، والدَّجَّالُون كَثِيرٌ، وقد لا يَخْلُو بَلَد مِمَّنْ يَضرِبُ البَهْرَجَ عَلَىٰ مِثلِ سِكَّةِ السُّلطَانِ.

قَالَ قَائِلٌ: فَمَا جوابُنا عَنْ قولِهم؟

قُلْتُ: اعلَمْ - وفَّقك اللهُ تَعَالَىٰ - أَنَّ اللهَ ﷻ ورسُولَهُ قَنعَا مِن الخَلْقِ بالإِيمَانِ بالجُملِ، ولَمْ يكلِّفَا مَعْرِفَةَ التَّفاصيلِ؛ إِمَّا لأَنَّ الاطِّلاع عَلَىٰ التَّفاصيلِ يُخَبِّطُ العَقائدَ، وإِمَّا لأَنَّ قُوَىٰ البَشرِ تَعجزُ عَنْ مُطالَعة ذَلِكَ.

فأَوَّل مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ إِثْبَاتُ الخَالِق، ونزَلَ عَلَيهِ القُرْآنُ بالدَّلِيل عَلَىٰ وُجُود الخَالِق بالنَّظَر في صُنعِه، فَقَالَ تَعالَىٰ: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا﴾ [النمل: ٦١]، وقَالَ تَعالَىٰ: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، ومَا زَالَ يَستدِلُّ عَلَىٰ وجُودِه بمَخلُوقاتِه، وعَلَىٰ قُدرتِه بِمَصْنُوعَاتِه.

ثُمَّ أَثبتَ نبوَّةَ نَبِيِّهُ بمُعجزاتِه، وكَانَ مِن أَعْظَمِها القُرْآنُ الَّذِي جَاءَ بِهِ، فعجزَ الخَلائقُ عَنْ مِثلِه.

واكتفَىٰ بِهَذِهِ الأدِلَّة جَمَاعَةُ الصَّحَابَة، ومضَىٰ عَلَىٰ ذَلِكَ القَرنُ الأَوَّل والمَشرَبُ صَافٍ لَمْ يتكدَّرْ، وعَلمَ اللهُ ﷻ مَا سَيكونُ من البدَعِ فبَالغَ في إِثْبَاتِ الأدِلَّة، ومَلأَ بِهَا القُرْآن.

ولمَّا كَانَ القُرْآنُ هُوَ مَنبعُ العُلوم، وأكبرُ المُعجزاتِ للرَّسولِ، أكَّد الأَمْر فِيهِ، فَقَالَ تَعالَىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩٢]، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ [الإسراء: ٨٢]، فأخبر أَنَّهُ كَلامُهُ بقَوْلِه تعَالَىٰ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥]، وأخبرَ أَنَّهُ مسموعٌ بقَوْلِه تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وأخبرَ أَنَّهُ محفوظٌ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ٢٢]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، وأخبر أَنَّهُ مكتوبٌ ومتلوٌّ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، إلىٰ مَا يطولُ شرحُه مِن تَعْدَادِ الآياتِ فِي هَذِهِ المَعانِي الَّتِي تُوجِب إثْبَات القُرْآن.

ثُمَّ نزَّه نبيَّهُ ﷺ عَنْ أَنْ يكُونَ أَتَىٰ بِهِ مِن قِبل نَفْسِه، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [السجدة: ٣]، وتَواعده لَوْ فعلَ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ [الحاقة: ٤٤]، وقَالَ فِي حَقِّ الزَّاعِمِ أَنَّهُ كلام الخَلْقِ حِينَ قَالَ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر: ٢٥-٢٦].

ولمَّا عذَّب كُلَّ أمَّةٍ بنوعِ عَذَابٍ تولَّاهُ بَعْضُ المَلائِكَة؛ كصَيحةِ جِبريلَ عليه السلام بثمُودَ، وإرسَال الرِّيح عَلَىٰ عادٍ، والخَسفِ بقَارونَ، وقَلبِ جِبريلَ ديارَ قَوْمِ لُوطٍ عليه السلام، وإرْسَالِ الطَّيرِ الأَبَابيلِ عَلَىٰ من قَصدَ تَخريبَ الكَعْبَةِ، وتولَّىٰ هُوَ بنفْسِهِ عِقَابَ المُكذِّبين بالقُرْآن، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ [القلم: ٤٤]، ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر: ١١].

وهَذَا لأَنَّهُ أصلُ هَذِهِ الشَّرَائِع، والمُثبتُ لكلِّ شريعةٍ تقدَّمتْ؛ فَإِنَّ جميعَ المِللِ لَيسَ عِنْدهم مَا يَدُلُّ عَلَىٰ صِحَّة مَا كَانُوا فِيهِ إلَّا كِتابَنا؛ لأَنَّ كُتُبهم غُيِّرتْ وبدِّلتْ.

وقَدْ علِمَ كُلُّ ذِي عَقلٍ أَنَّ القَائِل: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٥] إنَّمَا أَشَارَ إلَىٰ مَا سَمعهُ، ولا يَختلِفُ أولُو الألبَابِ وأهلُ الفَهمِ للخِطابِ أَنَّ قولَه: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ [الشعراء: ١٩٢] كنايةٌ عَن القُرْآن، وقولَه: ﴿نَزَلَ بِهِ﴾ [الشعراء: ١٩٣] كنايةٌ أيضًا عَنْهُ،

وقوله: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ ﴾ [الأنعام: ٩٢] إشارةٌ إلىٰ حَاضرٍ. وهَذَا أمرٌ مستقرٌّ لَمْ يختلف فِيهِ أحدٌ مِن القُدَمَاء فِي زَمَن الرَّسُولِ ﷺ والصَّحَابَة رِضْوانُ اللهِ عَلَيهِم.

ثُمَّ دسَّ الشَّيْطَانُ دسَائسَ البِدعِ، فَقَالَ قومٌ: هَذَا المُشارُ إلَيْهِ مخلوقٌ! فثَبتَ الإمَامُ أَحْمَد بنُ حَنبلٍ ثُبُوتًا لَمْ يُثبته أَحدٌ غَيْرُه عَلَىٰ دفعِ هَذَا القولِ؛ لِئَلَّا يتطرَّقَ إلَىٰ القُرْآن مَا يَمحُو بَعْضَ تعظِيمه فِي النُّفُوس، ويُخْرِجُهُ عَنِ الإضَافةِ إلىٰ اللهِ ﷻ، ورَأَىٰ أَنَّ ابتِداعَ مَا لَمْ يُقَلْ فِيهِ لا يَجُوزُ اسْتِعْمَاله، فقَالَ: كَيْفَ أَقُول مَا لَمْ يقُلْ؟!

ثُمَّ لَمْ يَختلفِ النَّاسُ فِي غَيْر ذَلِكَ، إلىٰ أَنْ نَشأَ عَلِيُّ بْنُ إسمَاعيل الأَشْعَرِيّ، فَقَالَ مرَّةً بقولِ المُعتزِلة، ثُمَّ عَنَّ لَهُ فادَّعىٰ أَنَّ الكَلامَ صِفَةٌ قائمةٌ بالنَّفْسِ!

فأوْجَبَت دَعوَاه هَذِهِ أَنَّ مَا عِندنَا مَخلوقٌ، وزَادتْ فخبطتِ العَقائدُ، فَمَا زَالَ أَهْلُ البِدعِ يجُوبُون في تيَّارها إلَىٰ اليَوْم.

والكَلامُ في هَذِهِ المَسألَة مُرتَّبٌ بذِكرِ الحُجَج والشُّبهِ فِي كُتبِ الأُصول، فَلا أطِيل بِهِ هَاهُنَا، بَلْ أَذكر لَكَ جُمْلَةً تكْفي مَنْ أرادَ الله هُداهُ:

وهُوَ: أَن الشَّرْع قنعَ منَّا بالإيمَان جُمْلَةً، وبتَعظِيم الظَّواهرِ، ونَهىٰ عَنِ الخَوضَ فِيمَا يُثيرُ غُبارَ شُبهَةٍ، ولا تَقْوَىٰ عَلَىٰ قَطعِ طَرِيقه أَقْدامُ الفَهْمِ.

وإِذَا كَانَ قَدْ نَهىٰ عَنِ الخوضِ فِي القَدَرِ، فَكَيفَ يُجِيزُ الخوضَ فِي صِفاتِ المُقدِّر؟!

وما ذَاكَ إلَّا لأحد الأمرينِ اللَّذين ذَكرتُهما: إمَّا لخوفِ إثارةِ شُبهَةٍ تُزلزلُ العقائدَ، أوْ لأَنَّ قُوىٰ البشرِ تعجزُ عَنْ إدراكِ الحَقَائِق.

فَإِذَا كَانَتْ ظواهرُ القُرْآن تُثبتُ وُجُودَ القُرْآن، فَقَالَ قَائِل: لَيسَ هَاهُنَا قُرآنٌ، فَقدْ رَدَّ الظَّواهر الَّتِي تعِبَ الرَّسُولُ ﷺ فِي إثْبَاتها، وقرَّر وجُودَها فِي النُّفُوس، وبمَاذَا

يُحَلُّ ويُحَرَّمُ، ويُبَتُّ ويُقْطَعُ، ولَيْسَ عِندنَا من اللهِ تَعَالَىٰ تقَدُّمٌ بشَيْءٍ؟! وهَل للمُخالِف دَلِيلٌ إلَّا أَنْ يَقُولَ: قَالَ اللهُ، فيعودُ فيُثبتُ مَا نَفىٰ؟!

فلَيْسَ الصَّوَابُ لمن وُفِّقَ إلَّا الوُقُوف معَ ظَاهِر الشَّرْع.

فَإِنِ اعتَرَضه ذو شُبهَةٍ، فَقَالَ: هَذَا صَوتُك، وهَذَا خَطُّكَ؛ فأَيْنَ القُرْآن؟!

فليقُلْ لَهُ: قَدْ أَجمَعنَا أنَا وأَنتَ عَلَىٰ وُجُود شَيْء بِهِ نحتجُّ جَميعًا، وكَمَا أَنَّكَ تُنكرُ عَليَّ أَنْ أُثبتَ شَيئًا لا يَتحقَّقُ لِي إثْبَاتَه حِسًّا، فَأَنَا أُنكرُ عَلَيْك كَيْفَ تَنفي وُجُودَ شَيْءٍ قَدْ ثَبتَ شَرعًا؟!

وأَمَّا قولُهم: هلْ فِي المُصحَف إلَّا وَرَقٌ وعَفْصٌ وزَاجٌ؟!

فهَذَا كقولِ القَائِل: هَل الآدميُّ إلَّا لحمٌ ودمٌ؟! هَيهَاتَ! إنَّ مَعْنَىٰ الآدميِّ هُوَ الرُّوحُ، فمَن نظرَ إلىٰ اللَّحْم والدَّم وقفَ معَ الحِسِّ.

فإنْ قَالَ: فكذا أقُولُ: إنَّ المَكتوبَ غَيْر الكتابةِ.

قُلنَا لَهُ: وهَذَا مِمَّا نُنكرُه عليك؛ لأنَّهُ لا يَثبُت تَحقِيقُ هَذَا لَكَ ولا لخَصمِك؛ فَإِنْ أردتَ بالكِتابةِ الحِبرَ وتَخطيطِه؛ فهَذَا لَيسَ هُوَ القُرْآن، وإنْ أردتَ المَعنَىٰ القَائِم بذَلِكَ؛ فهَذَا لَيس هُوَ الكِتابةُ.

وهَذِهِ الأَشْيَاءُ لا يصلُح الخوضُ فيها؛ فَإِنَّ مَا دُونَها لا يُمكنُ تَحقِيقهُ عَلَىٰ التَّفصيلِ؛ كالرُّوح مَثلًا، فإنَّا نعلمُ وجُودها فِي الجُمْلَة، فأَمَّا حَقِيقَتُها فلا، فَإذَا جَهِلنا حَقَائِقها كنَّا لصفاتِ الحَقِّ أَجْهَلَ، فوجبَ الوُقُوفُ معَ السَّمعيَّات، مع نَفْي مَا لا يَلِيقُ بالحقِّ؛ لأَنَّ الخوضَ يزِيدُ الخَائضَ تَخبيطًا، ولا يُفيدُه تَحْصِيلًا، بَلْ يُوجِبُ عَلَيهِ نَفْيَ مَا يثبتُ بالسَّمْع مِن غَيْر تَحقِيق أَمرٍ عَقْليٍّ، فَلا وَجْه للسَّلامة إلَّا طَرِيق السَّلَف، والسَّلامُ.

وكَذَلكَ أَقولُ: إنَّ إثْبَات الإِلَه بظَواهِرِ الآياتِ والسُّننِ أَلزمُ للعَوامِّ مِن تحَدِيثِهم بالتَّنزِيهِ، وإنْ كَانَ التَّنزِيه لازِمًا، وقَدْ كَانَ ابنُ عقيلٍ يَقُولُ: «الأَصْلحُ لاعْتِقَادِ العَوامِّ ظوَاهِر الآيِ والسُّننِ؛ لأَنَّهُم يَأْنَسُون بالإِثْبَاتِ، فمَتَىٰ مَحَوْنَا ذَلِكَ مِن قُلُوبِهم زَالَتِ السِّياساتُ والخَشْيَةُ».

وتَهافُتُ العَوامِّ فِي التَّشْبِيهِ أَحَبُّ إليَّ مِن إغرَاقِهم فِي التَّنزِيهِ؛ لأَنَّ التَّشبِيهَ يَغمسُهم فِي الإِثْبَاتِ، فيَطمعُوا ويخَافُوا شَيئًا قَدْ أَنِسُوا إلىٰ مَا يُخَافُ مِثلُه ويُرجَىٰ، فالتَّنزِيه يَرمي بِهِم إلَىٰ النَّفي، ولا طَمَعَ ولا مَخَافَةَ مِن النَّفْي.

ومَنْ تدبَّر الشَّرِيعَة رَآهَا عامَّةً للمُكلَّفِينَ فِي التَّشبِيه بالأَلْفَاظِ الَّتِي لا يُعطِي ظَاهِرها سِواهُ؛ كقولِ الأعرابيِّ: أَوَيضحَكُ ربُّنا؟ قَالَ: «نَعَم»[1]، فَلَمْ يَكْفَهِرَّ مِن هَذَا القَولِ.

۞ فَصْلٌ ۞

أَعْظَمُ البَلايَا أَنْ يُعطِيَك هِمَّةً عَالِيةً ويَمنَعَكَ مِن العَمَلِ بمُقتضَاهَا

فيَكُون مِن تَأثيرِ هِمَّتِك الأَنَفَةُ مِن قبُولِ إرفَاقِ الخَلْقِ، استِثقَالًا لحَملِ مِنَنِهم، ثُمَّ يَبتلِيكَ بالفَقرِ فتَأْخُذ مِنهُم، فيلْطُفُ مِزاجُكَ فَلا تَقبلُ مِنَ المَأكُولاتِ مَا سَهُلَ إِحضَارُه، فَتحتاجُ إلىٰ فَضلِ نَفقَةٍ، ثُمَّ يقَلِّلُ رِزقكَ، ويُعلِّقُ همَّتَك بالمُسْتَحْسَناتِ، ويَقطعُ بالفَقرِ السَّبيلِ إِلَيهِنَّ، ويُريكَ العُلومَ فِي مَقامِ مَعْشُوقٍ، ويُضْعِفُ بدَنَك عَنِ

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (١٦١٨٧)، والطيالسي (١٠٩٤)، وأبو داود (٤٧٣١)، وابن ماجه (١٨١)، وابن حبان (٦١٤١) من حديث لقيط بن عامر أبي رزين العقيلي.

الإعَادةِ، ويُخْلِي يَديكَ مِن المَالِ الَّذِي تَحْصُل بِهِ الكُتُبُ، أو يقوِّي تَوَقَكَ إلىٰ دَرجاتِ العَارِفينَ والزُّهَّادِ، ويُحْوِجُكَ إلَىٰ مُخَالطَةِ أرْبَابِ الدُّنْيا؛ وهَذَا البَلاءُ المُبينُ.

وأمَّا الخَسِيسُ الهِمَّةِ، الَّذِي لا يَستنكِفُ مِن سُؤَالِ الخَلْقِ، ولا يَرَىٰ الاستِبدَالَ بزَوجَتِه، ويكتَفِي بيَسيرٍ مِن العِلْمِ، ولا يتُوقُ إلَىٰ أَحْوَالِ العَارِفينَ؛ فذَاكَ لا يُؤلِمهُ فَقْدُ شَيْءٍ، ويَرَىٰ مَا وجَدَ هُوَ الغَايَةَ، فَهُو يَفرَحُ فَرحَ الأَطفَالِ بالزَّخارِفِ؛ فَمَا أهوَنَ الأَمْرُ عَليْهِ!

إنَّمَا البَلاءُ عَلَىٰ العَارِفِ ذِي الهِمَّةِ العَاليةِ، الَّذِي تَدعُوهُ هِمَّتهُ إلَىٰ جَمْعِ الأَضدَادِ للتَّزيُّدِ مِن مَقام الكَمالِ، وتقصُرُ خُطاهُ عَنْ مَدارِك مَقْصُودِه؛ فيا لَهُ من حَالٍ يَنفدُ فِي طَرِيقِه زَادُ الصَّابِرينَ!

ولَوْلا حَالاتُ غَفْلَةٍ تَعتري هَذَا المُبتلَىٰ يَعيشُ بِهَا؛ لَكانَ دَوامُ مُلاحظَتِهِ للمَقامَاتِ يُعمِي بَصرَه، واجْتِهَادُه فِي السُّلُوكِ يُخفي قَدَمَه؛ لكنَّ مُلاحظَاتِ الإمدَادِ لَهُ، تارَةً ببُلوغِ بَعْض مُرادِه، وتارَةً بالغَفْلَة عَمَّا قَصدَ؛ تُهوِّنُ عَلَيهِ العَيْشَ، وهَذَا كلامٌ عَزِيزٌ، لا يَفهمُه إلَّا أَرْبَابُه، ولا يعلمُ كُنهَه إلَّا أَصْحَابُه.

❁ فَصْلٌ ❁

تَرَاعَنَتْ عَلَيَّ نَفْسِي فِي طَلبِها شَيئًا مِن أَغْرَاضِها بتَأْوِيلٍ فَاسِدٍ

فَقُلتُ لَهَا: باللهِ عَلَيْكِ؛ تَصبَّري؛ فَإِنَّ فِي المَعْبَرِ شُغلًا، يحذرُ الغَرَقَ مِن كَثرَةِ المَوجِ عَنِ التَّنزُّه فِي عَجائبِ البَحرِ.

إِذَا هَمَمْتَ بفِعلٍ فقَدِّري حُصُولَهُ، ثُمَّ تَلمَّحي عَوَاقِبَه ومَا تَجتَنِينَ مِن ثمَراتِه، فأقَلُّ ذَلِكَ النَّدَم عَلَىٰ مَا فَعلتَ، ولا يُؤمَنُ أَنْ يُثمِر غَضبَ الحَقِّ ﷻ وإعرَاضَهُ عَنكَ، فأُفٍّ للقَاطِعِ عَنْهُ ولَوْ كَانَ الجَنَّةُ.

ثُمَّ اعلَمِي - أَيَّتُها النَّفْسُ - أَنَّهُ مَا يَمضِي شَيْءٌ جُزَافًا، وأَنَّ مِيزانَ العَدلِ تَبينُ فِيهِ الذَّرَّةُ، فتَلَمَّحي الأَموَاتَ والأَحيَاءَ، وانظُرِي إلىٰ مَنْ نُشِرَ ذِكرُه بالخَيْرِ والشَّرِّ، وزِيَادَةِ ذَلِكَ ونُقصَانِه.

فسُبحانَ مَن أَظهَرَ دَلِيلَ الخَلَواتِ عَلَىٰ أَرْبَابِها، حَتَّىٰ إِنَّ حبَّاتِ القُلُوبِ تتعلَّقُ بأَهْلِ الخَيْرِ، وتَنفِّرُ مِن أَهْلِ الشَّرِّ، مِن غَيْرِ مُطالَعةٍ لشَيْءٍ مِن أَعمَالِ الكُلِّ.

قَالَ إِبْلِيسُ: أَوَتَترُكُ مُرادَكَ لأَجْلِ الخَلْق؟ قُلْتُ: لا، إِنَّمَا هَذَا بَعْضُ الثَّمراتِ الحَاصلةِ مِن طَرِيقِ الغَرضِ، ونحنُ نَرَىٰ مَن يَمشِي ثَلاثين فَرسخًا؛ ليُقالَ: سَاعٍ؛ فالمُتَّقي قَدْ نَالَ شَرفَ الذِّكرِ -وإِنْ لَمْ يقْصِد نَيلَ ذَلِكَ- مُتَرَجِّحًا لَهُ فِي وَزنِ الجَزاءِ، ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

قَالَتِ النَّفْسُ: لَقَد أَمَرْتَني بالصَّبرِ عَلَىٰ العَذَاب؛ لأَنَّ تَركَ الأَغرَاض عَذَابٌ.

قُلْتُ: لَكِ عَن الغرضِ عِوضٌ، ومن كُلِّ متروكٍ بدلٌ، وأَنتِ فِي مَقامِ مُستعبدٍ، ولا يَصِحُّ للأَجيرِ أَنْ يَلبَسَ ثياب الرَّاحَة فِي زَمَانِ الاستئجارِ، وكلُّ زَمَانِ المتَّقي نهارُ صومٍ، ومن خَافَ العقابَ تَرك المُشتَهىٰ، ومن رامَ القُرْبَ استَعملَ الوَرَعَ، وللصَّبر حَلاوَةٌ تبينُ فِي العَوَاقِبِ.

فصْل

مَنْ نازَعتهُ نَفْسُه إلَى لَذَّةٍ محرَّمةٍ، فشَغَلهُ نَظَرُهُ إلَيهَا عَنْ تَأَمُّل عَوَاقِبها وعقَابِها

وسَمِع هتَافَ العَقْل يُنادِيه: ويحَكَ! لا تفعلْ؛ فإِنَّك تَقِفُ عَنِ الصُّعود، وتأخُذ فِي الهُبوطِ، أو يُقَالُ لك: ابقَ بِمَا اخترتَ.

فَإِنْ شغَلهُ هواهُ، فَلم يلتَفتْ إِلَىٰ مَا قِيلَ لَهُ؛ لَمْ يزَلْ فِي نزُولٍ، فكَانَ مَثَلُه فِي سوءِ اختيارِه كالمَثلِ المَضروبِ:

أَنَّ الكَلْب قَالَ للأسدِ: يَا سيِّد السِّباعِ، غَيِّر اسمِي؛ فإِنَّه قَبِيحٌ، فَقَالَ لَهُ: أنتَ خائنٌ، لا يصلُح لَكَ غَيرُ هَذَا الاسم، قَالَ: فَجَرِّبني، فأعطَاهُ شِقَّة لَحمٍ وقَالَ: احفَظْ لي هَذِهِ إلىٰ غدٍ، وأنَا أُغَيِّرُ اسمَك، فجَاعَ وجعَلَ ينظُرُ إِلَىٰ اللَّحْم ويَصْبِرُ، فَلَمَّا غلَبَتهُ نَفْسُه قَالَ: وأيُّ شَيْءٍ باسْمِي؟ ومَا كَلْبٌ إلَّا اسمٌ حسنٌ. فأكَلَ.

وهَكذَا الخَسِيسُ الهِمَّة، القَنوعُ بأقلِّ المَنازلِ، المُخْتَارُ عاجِلَ الهَوَىٰ عَلَىٰ آجلِ الفَضائلَ.

فاللهَ اللهَ فِي حريقِ الهَوَىٰ إِذَا ثارَ، وانظُرْ كَيْفَ تُطفئهُ، فرُبَّ زلَّةٍ أوقَعتْ فِي بئرٍ بَوارٍ، ورُبَّ أَثَرٍ لَمْ ينقَلِع، والفَائتُ لا يُسْتَدْرَكُ عَلَىٰ الحَقِيقَة، فَابْعُدْ عَنْ أَسْبَابِ الفِتنةِ؛ فَإِنَّ المُقاربةَ مِحنةٌ، لا يكادُ صَاحِبها يَسْلَمُ. والسَّلام.

❁ فصْل ❁

رَأيْتُ الخَلْقَ كُلَّهُم فِي صَفِّ مُحاربةٍ والشَّياطينَ يَرْمُونَهم بنَبلِ الهَوَى، ويضرِبونَهم بأَسْيافِ اللَّذَّةِ

فأَمَّا المخلِّطُون؛ فصَرعَىٰ من أَوَّل وقتِ اللِّقاءِ.

وأمَّا المتَّقونَ؛ فِفي جَهدٍ جَهيدٍ مِن المُجاهَدَة.

فَلا بُدَّ - مع طُولِ الوُقُوف فِي المُحارَبة - من جِراحٍ، فهُم يُجرَحون ويُداوَونَ، إلَّا أَنَّهُمْ مِن القَتلِ محفُوظُون.

بَلىٰ؛ إنَّ الجِراحةَ فِي الوَجْه شَينٌ باقٍ؛ فليحذَرْ ذَلِكَ المجاهِدُون.

۞ فَصْل ۞

الدُّنْيَا فخٌّ

والجَاهِل بأوَّل نظرةٍ يقعُ، فأَمَّا العَاقِل المُتَّقي؛ فَهُو يُصابرُ المَجاعَة، ويدُورُ حولَ الحَبِّ، والسَّلامَةُ بَعيدةٌ، فَكَمْ مِمَّن صَابرَ وَاجْتهَدَ سِنينَ ثُمَّ فِي آخرِ الأَمْرِ وقَعَ.

فالحَذَرَ الحَذَرَ؛ فَقد رَأينا مَن كَانَ عَلَىٰ سَنَنِ الصَّوَاب، ثُمَّ زلَّ عَلَىٰ شفيرِ القَبرِ.

۞ فَصْل ۞

اعلَمُوا -إخوَاني ومَنْ يقبَلُ نَصِيحَتي- أَنَّ للذُّنوبِ تَأْثيراتٍ قَبِيحةٍ، مرَارتُها تَزيدُ عَلَى حلاوَتِها أَضْعَافًا مُضاعفةً، والمُجازِي بالمِرْصَادِ؛ لا يسبِقهُ شَيْءٌ ولا يفُوتُه

أوَلَيسَ يُرْوَىٰ فِي التَّفْسِير: أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِن أَوْلادِ يعقوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ - وكَانُوا اثنَيْ عشَر - وُلِد له اثْنَا عَشَر وَلَدًا؛ إلَّا يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فإنَّه وُلِدَ لَهُ أحَدَ عَشرَ وَلَدًا، وجُوزِي بتِلْكَ الهمَّة، فَنُقِصَ وَلدًا.

فوا أسفًا لِمَضروبٍ بالسِّياطِ مَا يُحِسُّ بالألَم، ولِمُثخَنٍ بالجِراحِ ومَا عِنْدَه من نَفْسهِ خبرٌ، ولِمُتقلبٍ فِي عُقوباتٍ مَا يَدري بِها، ولَعَمْرِي! إنَّ أَعْظَمَ العُقُوبَة أَلَّا يَدرِي بالعُقُوبَة.

فوا عَجَبًا للمُغالِط نَفْسَهُ! يُرضِي نَفْسَه بشَهْوَةٍ، ثُمَّ يُرضِي ربَّه بطَاعَةٍ، ويَقُولُ: حَسنةٌ وسيِّئةٌ.

ويحَكَ! مِن كِيسِك تُنفقُ، ومن بضَاعتِك تَهدِم، وَوَجْهَ جَاهِكَ تَشِينُ.

ويحَكَ! رُبَّ جراحةٍ قتَلتْ، ورُبَّ عَثْرةٍ أَهْلكَت، ورُبَّ فَارطٍ لا يَستدرِكُ.

ويحَكَ! انتبِه لنفْسِكَ؛ مَا الَّذِي تنتظرُ بأَوْبَتكَ؟ ومَاذَا تترقَّبُ بتوبَتكَ؟ آلمَشيبَ؟ فها هُوَ ذَا أَوْهَنَ العظمَ، وهَل بَعدَ رحيلِ الأَهْلِ والأَوْلادِ والأقارِبِ إلَّا اللِّحاقُ؟!

قدِّر أَنَّ مَا تُؤمِّلُهُ مِن الدُّنْيَا قَدْ حَصَلَ، فكَانَ مَاذَا؟! إمَّا هُوَ عاجِلٌ، فَشَغَلَكَ عَاجِلًا، ثُمَّ آخِرُ جَرعةِ اللَّذَّة شَرْقَةٌ، وإِمَّا أَنْ تُفارقَ محبُوبكَ أوْ يُفارقَكَ.

فيا لَهَا! جَرعةٌ مريرةٌ، تودُّ عِندَهَا أَنْ لَوْ لَمْ تَرَه.

آهٍ لمَحجوبِ العَقْلِ عَنِ التَّأمُّل، ولمصدودٍ عَنْ الوُرودِ وهُوَ يَرَىٰ المنهَلَ، أمَا فِي هَذِهِ القُبُور نَذيرٌ؟ أمَا في كرُور الزَّمَانِ زَاجرٌ؟!

أيْنَ مَن مَلكَ وبَلغَ المُنىٰ فِيمَا أَمَّلَ؟ نَادِهم فِي نَادِيهم، هَيهَاتَ! صَمُّوا عَنْ مُنادِيهم، فلو أَنَّ حسابَهم بالمَوْتِ، إنَّمَا القُبُور هُنيهةً.

العَمَلَ حَصِّلْ يَا مَعدومًا بالأمسِ، يَا مُتلاشِيَ الأَشْلاءِ فِي الغدِ، بأيِّ وَجْهٍ تَلقىٰ ربَّك؟ أَيُساوي مَا تَنالُهُ مِن الهَوَىٰ لفْظَ عِتابٍ؟!

باللهِ؛ إنَّ الرَّحمةَ بَعدَ المُعاتبةِ رُبَّمَا لَمْ تَسْتوفِ قلعَ البُغضَةِ مِن صَميمِ القَلبِ، فَكَيفَ إنْ أَعْقَبَ العتابَ عقابًا؟!

وقَدْ أَخْبَرَنا عَبْد الرَّحْمَن بْن مُحَمَّد القزَّاز قَالَ: أَخْبَرَنا أَبُو بكر الخِطيبِ قَالَ: أَخبَرَنا مُحَمَّد بْن الحُسَين المعدل قَالَ: أَخْبَرَنا أَبُو الفَضْل الزهري قَالَ: أَخْبَرَنا أحْمَد بْن مُحَمَّد الزَّعْفَرَانِي قَالَ: حدَّثَنَا أَبُو العَبَّاس بْن وَاصِل المقرئ قَالَ: سَمِعت مُحَمَّد بْن عَبْد الرَّحْمَن الصَّيرَفِي قَالَ: «رأىٰ جارٌ لَنَا يَحْيَىٰ بْنَ أَكْثَمَ بَعدَ مَوتِه فِي مَنَامِه، فَقَالَ له: مَا فعل بِكَ ربُّك؟ فقَالَ: وَقَفْتُ بينَ يَدَيْه فقَالَ لي: سَوءةً لَكَ يَا شَيخُ. فقُلْت: يَا ربِّ إنَّ رسُولَك قَالَ: إنَّكَ لَتَسْتَحِيي مِن أَبْنَاء الثَّمَانينَ أَنْ تُعذِّبَهم، وأنَا ابنُ ثَمانينَ، أسيرُ اللهَ في الأَرْضِ، فَقَالَ لِي: صَدقَ رسُولي، قَدْ عفوتُ عنكَ».

وفِي رِوايةٍ أُخْرىٰ: عَنْ مُحَمَّد بْن مُسلِمِ الخَوَّاص قَالَ: «رَأيْتُ يَحْيَىٰ بْنَ أَكْثَم فِي المَنَام، فقُلْت: مَا فعلَ اللهُ بكَ؟ فَقَالَ: أَوقَفنِي بينَ يَدَيْهِ وقَالَ لِي: يَا شَيْخَ السَّوْءِ؛ لَوْلا شَيْبَتُكَ لأَحرَقتُكَ بالنَّارِ».

والمَقصُودُ من هَذَا: النَّظَر بعَينِ الاعْتِبَار: هَل يَفِي هَذَا بدُخُول الجَنَّةِ، فَضْلًا عَنْ لذَّات الدُّنْيا.

فنَسْأَلُ اللهَ عَجَّلَ أَنْ يُنبِّهَنا مِن رَقَدَات الغَافِلين، وأَنْ يُرِيَنَا الأَشْيَاءَ كَمَا هِيَ؛ لنَعرِفَ عيُوبَ الذُّنُوبِ، واللهُ المُوفِّق.

فَصْل

ضَاقَ بِي أَمرٌ أَوْجَبَ غَمًّا لَازِمًا دَائِمًا

وَأَخَذْتُ أُبالغُ فِي الفِكْرِ فِي الخَلاصِ مِن هَذِهِ الهُمُوم بكلِّ حِيلةٍ وبكلِّ وجهٍ، فَمَا رَأيْتُ طَريقًا للخَلاصِ، فَعَرَضَتْ لِي هَذِهِ الآيةُ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]، فعلِمْتُ أَنَّ التَّقوَىٰ سَبَبٌ للمخرَجِ مِن كُلّ غَمٍّ، فَمَا كَانَ إلَّا أَن هَمَمْتُ بتَحقِيقِ التَّقوَىٰ، فَوجَدتُ المَخرَج.

فلا يَنْبغِي لمَخلوقٍ أَنْ يتوكَّلَ، أَوْ يَتسبَّبَ، أَوْ يتفَكَّر إِلَّا فِي طَاعَة اللهِ تَعالَىٰ، وامتِثالِ أَمْرِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ سَببٌ لفَتحِ كُلِّ مُرتَجٍ.

ثُمَّ أَعْجَبُهُ أَنْ يَكُونَ مِن حَيثُ لَمْ يُقَدِّرْهُ المُتفكِّرُ المُحتالُ المُدبِّرُ، كَمَا قَالَ عَجَّلَ: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣].

ثُمَّ يَنْبغِي للمُتَّقِي أَنْ يَعلمَ أَنَّ اللهَ عَجَّلَ كافِيهِ؛ فَلا يَعْلَقُ قَلْبُهُ بالأَسْبابِ، فَقدْ قَالَ عَجَّلَ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

۞ فَصْل ۞

مِن العَجبِ إلحَاحُكَ فِي طَلبِ أَغرَاضِك، وكُلَّمَا زَادَ تَعْوِيقُها زَادَ إلحَاحُك

وتَنسىٰ أنَّهَا قَدْ تَمتنِع لأَحَدِ أمرَينِ: إمَّا لمَصلحتِك؛ فرُبَّمَا تَعَجَّلَ أَذَىٰ، وإمَّا لذُنوبِكَ؛ فَإنَّ صَاحِبَ الذُّنُوب بَعيدٌ مِن الإجَابَة.

فنظِّفْ طُرقَ الإجَابَة مِن أَوسَاخِ المَعاصِي، وانظُرْ فِيمَا تَطلُبه؛ هلْ هُوَ لإصْلاحِ دِينِك، أوْ لُمجرَّد هَواكَ؟

فَإنْ كَانَ للهوَىٰ المُجرَّد، فاعلَمْ أَنَّ مِن اللُّطفِ بِكَ والرَّحمةِ لَكَ تَعوِيقَهُ، وأَنتَ فِي إلحَاحِكَ بمثَابةِ الطِّفلِ، يَطلُبُ مَا يُؤذِيه، فيُمْنَعُ رِفقًا بِهِ، وإنْ كَانَ لصَلاحِ دِينِك؛ فرُبَّمَا كَانَتِ المَصلَحَةُ تَأخيرَهُ، أوْ كَانَ صَلاحُ الدِّين بعَدَمِهِ.

وفِي الجُمْلَة؛ تَدبيرُ الحَقِّ ﷻ لَكَ خيرٌ مِن تَدبيرِك، وقَدْ يَمنعُك مَا تَهْوَىٰ ابتلاءً؛ لِيبْلُوَ صَبرَك، فَأَرِهِ الصَّبْرَ الجَميلَ تَرَ عَنْ قُرْبٍ مَا يَسُرُّ.

ومتَىٰ نظَّفتَ طرُقَ الإجَابَةِ مِنْ أَدْرَانِ الذُّنُوبِ، وصَبرتَ عَلَىٰ مَا يَقضِيهِ لَكَ؛ فكلُّ مَا يَجْرِي أَصْلحُ لَكَ؛ عَطاءً كَانَ أوْ مَنعًا.

۞ فَصْل ۞

يَجِبُ عَلَى مَن لَا يَدرِي مَتى يَبغتُه المَوْتُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَعِدًّا

ولا يَغترَّ بالشَّبابِ والصِّحَّة؛ فَإِنَّ أَقلَّ مَن يَمُوتُ الأَشياخُ، وأَكْثَرُ مَن يموتُ الشُّبَّانُ، ولِهذَا يَندُر مَن يَكْبَرُ.

وقَدْ أنشدُوا:

يُعَمَّـــرُ وَاحِـــدٌ فَيَغـــرُّ قَوْمًـــا ** وَيُنْسَىٰ مَـنْ يَمُـوتُ مِـن الـشَّبَابِ

ومِنَ الاغترِارِ طُولُ الأَمَلِ، ومَا مِن آفةٍ أعْظَمُ مِنْهُ؛ فإنَّه لَوْلا طُولُ الأَمَلِ مَا وقَعَ إهمَالٌ أَصْلًا، وإنَّمَا تُقَدَّم المَعاصِي، وتُؤَخَّر التَّوْبَةُ لطُولِ الأَمَلِ، وتَبادُرِ الشَّهَوَاتِ، وتُنسىٰ الإنَابةُ لطُولِ الأَمَلِ.

وإنْ لَمْ تَستطِعْ قِصَرَ الأَمَلِ؛ فاعمَلْ عَمَلَ قَصيرِ الأَمَلِ، ولا تُمْسِ حَتَّىٰ تَنظُرَ فِيمَا مَضَىٰ مِن يَومِك؛ فَإِن رَأيْتَ زلَّةً فامْحُها بتَوبةٍ، أوْ خَرْقًا فارْقَعهُ بالاستِغفارِ، وإذَا أصبَحتَ فتَأمَّل مَا مَضَىٰ فِي لَيلِك، وإيَّاك والتَّسويفَ؛ فإنَّه أكْبرُ جنُودِ إبْلِيسَ:

وَخُــذْ لَــكَ مِنْـكَ عَلَــىٰ مُهْلَــةٍ ** وَمُقْبِـــلُ عَيْـــشِكَ لَـــمْ يُـــدْبِرِ

وَخَــفْ هَجْمَــةً لا تُقِيــلُ العِثَــا ** رَ وَتَطْـوِي الـوُرُودَ عَلَـىٰ المَـصْدَرِ

وَمَثِّــلْ لِنَفْــسِكَ أَيُّ الرَّعِيــلِ ** يَـــضُمُّكَ فِـــي حَلْبَـــةِ المَحْـــشَرِ

ثُمَّ صوِّر لنَفْسكَ قِصَر العُمُرِ، وكثرَةَ الأَشغَالِ، وقوَّةَ النَّدمِ عَلَىٰ التَّفريطِ عِنْدَ المَوْت، وطُولَ الحَسرَة عَلَىٰ البِدَارِ بَعدَ الفَوتِ، وصوِّر ثوابَ الكَامِلِينَ وأَنتَ نَاقصٌ، والمُجتهِدِين وأَنتَ مُتكاسِلٌ.

ولا تُخلِ نَفْسكَ مِن مَوعظةٍ تَسمعُها، وفِكرةٍ تُحادِثُها بها، فَإِنَّ النَّفْسَ كالفَرسِ المُتشيطِنِ؛ إنْ أهمَلتَ لجَامَه لَمْ تَأْمَن أَنْ يرْمِي بكَ، وقَدْ - واللهِ - دَنَّسَتْكَ أَهْوَاؤُك، وضيَّعْتَ عمرَك.

فالبدَارَ البدَارَ فِي الصِّيانة، قبلَ تَلَف الباقِي بالصَّبابةِ، فَكَمْ تعرقَل فِي فخِّ الهَوَىٰ جَناحُ حازِمٍ، وكَمْ وقَعَ فِي بِئرِ بوارٍ مَخمُورٌ، ولا حَولَ ولا قُوَّة إلَّا باللهِ.

۞ فصل ۞

الحَذَرَ الحَذَرَ من المَعاصِي؛ فَإِنَّ عَوَاقِبها سيِّئةٌ

وكَمْ مِن مَعصِيَةٍ لا يَزَالُ صَاحِبها فِي هُبوطٍ أَبَدًا؛ مع تَعثيرِ أَقدَامهِ، وشدَّةِ فَقرِه، وحَسَراتِه عَلَىٰ مَا يفُوتُه مِن الدُّنْيَا، وحَسْرَةً لمَنْ نَالَها.

فلَو قَاربَ زَمَانُ جَزائِه عَلَىٰ قَبيحِه الَّذِي ارتكَبهُ، كَانَ اعتِراضهُ عَلَىٰ القَدَر فِي فَوَاتِ أَغرَاضِه يُعيدُ العَذَاب جَديدًا.

فوَا أَسَفًا لمُعاقَب لا يُحِسُّ بعقُوبَتِهِ! وآهٍ مِن عِقابٍ يتأَخَّرُ حَتَّىٰ يُنْسَىٰ سَببُه.

أَوَلَيس ابنُ سِيرينَ يَقُولُ: «عيَّرتُ رَجلًا بالفقرِ، فافتَقرتُ بَعدَ أَرْبَعِين سَنَة».

وابنُ الجَلَّاء يَقُول: «نظرتُ إلىٰ شابٍّ مُستحسَنٍ، فنَسيتُ القُرْآن بَعدَ أَرْبَعِينَ سَنَة».

فوَا حَسرةَ مُعاقَبٍ لا يَدرِي أَنَّ أَعْظَمَ العُقُوبَة عَدَمُ الإحْسَاس بِهَا.

فاللهَ اللهَ فِي تَجويدِ التَّوْبَةِ عسَاهَا تكُفُّ كفَّ الجَزاءِ، والحَذَرَ الحَذَرَ مِن الذُّنُوبِ، خُصُوصًا ذُنوبَ الخَلَواتِ، فَإِنَّ المُبارَزَة للهِ تَعَالَىٰ تُسقِطُ العَبْدَ مِن عَينِه، وأَصْلِحْ مَا بينَك وبَينَه فِي السِرِّ، وقَد أَصْلح لَكَ أَحْوَال العَلانيةِ.

ولا تغترَّ بسترِه أَيُّهَا العَاصِي؛ فرُبَّمَا يَجذبُ عَنْ عورَتكَ، ولا بحِلمِه؛ فرُبَّما بغَتَ العِقابُ.

وعَلَيْك بالقَلَق واللُّجْإِ إِلَيْهِ والتَّضرُّع، فَإِنْ نفَعَ شَيْءٌ فذَلِكَ.

وَتَقَوَّتْ بالحُزنِ، وتمرَّرْ كأسَ الدَّمعِ، واحفُر بمِعوَل الأسَىٰ قَليبَ قلبِ الهَوَىٰ؛ لعلَّك تُنْبِطُ مِن المَاء مَا يَغسلُ جُرمَ جُرمِكَ.

فَصْلٌ

إخوَاني؛ اسْمَعُوا نَصِيحَةَ مَنْ قَدْ جرَّبَ وخَبَرَ: إِنَّهُ بقَدرِ إجْلالِكُمْ للهِ ﷻ يُجلُّكُمْ، وبمِقْدَار تَعظِيمِ قَدْرِهِ واحْتِرامِهِ يُعَظِّمْ أَقْدارَكُمْ وحُرْمَتَكُمْ

ولَقَدْ رَأيْتُ -واللهِ- مَن أَنفقَ عُمُرَه فِي العِلْم إلَىٰ أَنْ كَبِرَتْ سِنُّه، ثُمَّ تَعَدَّىٰ بَعْضَ الحُدُودِ؛ فهانَ عِنْدَ الخَلْق، وكَانُوا لا يَلتفتُون إلَيْهِ، معَ غَزارةِ عِلمِه وقوَّة مُجَاهَدَتِهِ.

ولَقَدْ رَأيْتُ مَن كَانَ يُراقِب اللهَ ﷻ فِي صَبْوتِه - معَ قُصورِه بالإضَافة إلىٰ ذَلِكَ العَالِم - فعظَّمَ اللهُ قَدرَه فِي القُلُوب حَتَّىٰ علِقتهُ النُّفُوسُ، ووصفَتْهُ بِمَا يَزيدُ عَلَىٰ مَا فِيهِ مِن الخَيْر، ورَأيْتُ من كَانَ يَرَىٰ الاستِقامةَ إِذَا استَقامَ، فَإذَا زَاغَ مَال عَنْهُ اللُّطفُ.

ولَوْلا عُمومُ السَّتْرِ وشُمولُ رَحمةِ الكَريم؛ لافْتُضِحَ هَؤُلاءِ المَذكُورونَ، غَيْرَ أَنَّهُ فِي الأَغْلَب تَأدِيبٌ أَوْ تلطُّفٌ فِي العِقابِ؛ كَمَا قِيلَ:

وَمَـنْ كَـانَ فِـي سُـخْطِهِ مُحْسِنًا ** فَكَيْـفَ يَكُـونُ إِذَا مَـا رَضِـي

غيرَ أَنَّ العدلَ لا يُحابِي، وحَاكِم الجَزاءِ لا يجُور، ومَا يَضيعُ عِنْدَ الأمينِ شَيْءٌ.

فَصْل

أيُّها المُذنِبُ؛ إذَا أَحسَسْتَ نفَحاتِ الجَزاءِ؛ فَلا تُكثِرَنَّ الضَّجيجَ

ولا تَقُولنَّ: قَدْ تُبتُ ونَدمتُ؛ فهلَّا زَالَ عَنِّي مِن الجَزاءِ مَا أَكْرَهُ؟!

فلعلَّ تَوبَتكَ مَا تحقَّقتْ، وإِنَّ للمُجازَاة زَمانًا يمتدُّ امتدادَ المَرَض الطَّويل فَلا تَنجعُ فِيهِ الحِيَلُ حَتَّىٰ يَنقضِي أَوَانُه.

وإِنَّ بينَ زَمَان ﴿وَعَصَىٰٓ﴾ إلىٰ إبَّان ﴿فَتَلَقَّىٰٓ﴾ مُدَّةً مَديدةً.

فاصبِرْ أَيُّهَا الخَاطِئ حَتَّىٰ يتخلَّلَ مَاءُ عَينيكَ خلالَ ثَوبِ القَلْبِ المُتنجِّسِ، فَإذَا عَصَرَتْهُ كَفُّ الأَسَىٰ، ثُمَّ تكرَّرَتْ دُفعُ الغَسَلاتِ؛ حُكِمَ بالطَّهارَةِ.

بَقِيَ آدَمُ عليه السلام يَبْكِي عَلَىٰ زَلَّتِهِ ثَلاثَمائةِ سَنَة، ومَكَثَ أَيُّوبُ عليه السلام فِي بَلائِه ثَمانِي عَشرَةَ سَنَةً، وأَقَامَ يعقوبُ يَبْكِي عَلَىٰ يُوسُفَ عليهما السلام ثَمانِينَ سَنَةً.

وللبَلايَا أوقاتٌ ثُمَّ تَنصرمُ، ورُبَّ عُقُوبَةٍ امتدَّتْ إلىٰ زَمَانِ المَوْتِ.

فاللَّازِمُ لَكَ أَنْ تُلازِمَ مِحْرَابَ الإنابَةِ، وتَجلسَ جِلسةَ المُستجدِي، وتَجعلَ طَعامَك القَلَقَ، وشَرابَك البُكاءَ، فرُبَّمَا قَدِمَ بَشيرُ القَبولِ، فارْتدَّ يَعقوبُ الحَزِنِ بَصيرًا.

وإِنْ مُتَّ فِي سِجْنِ شَجَنِكَ؛ فرُبَّمَا نَابَ حُزنُ الدُّنْيَا عَنْ حُزنِ الآخِرَةِ، وفِي ذَلِكَ رِبحٌ عَظيمٌ.

❁ فَصْل ❁

الوَاجبُ عَلَى العَاقِلِ أَنْ يَحذَر مَغبَّةَ المَعَاصِي

فَإِنَّ نَارَها تَحْتَ الرَّمادِ، ورُبَّما تَأَخَّرَتِ العُقُوبَةُ ثُمَّ فَجأَتْ، ورُبَّما جَاءتْ مُستعجلَةً؛ فلْيُبادِر بإطفَاءِ مَا أَوْقدَ مِنْ نِيرَانِ الذُّنُوبِ، ولا مَاء يُطفِئُ تِلْكَ النَّارَ إلَّا مَا كَانَ من عَينِ العَينِ، لعَلَّ خَصْم الجَزاءِ يَرضَىٰ قَبلَ أَنْ يَبُتَّ الحَاكمُ فِي حُكمِهِ.

❁ فَصْل ❁

وا عَجَبًا مِنْ عَارفٍ باللهِ ﷻ يُخالفُه ولَوْ فِي تَلفِ نَفْسِه!

هلْ العَيْشُ إِلَّا مَعَه؟! وهَلِ الدُّنْيَا والآخِرَة إِلَّا لَهُ؟ أُفٍّ لمَنْ ترخَّص فِي فِعلِ مَا يَكرَه لنَيلِ مَا يُحِبُّ.

تَاللهِ؛ لَقَدْ فَاتَه أَضعَافُ مَا حَصَّل.

أَقبِلْ عَلَىٰ مَا أَقُولهُ يَا ذَا الذَّوقِ، هلْ وَقعَ لَكَ تَعثِيرٌ فِي عَيشٍ، وتَخبِيطٌ فِي حَالٍ إِلَّا حَالَ مُخالَفتِه:

وَلا انْثَنَىٰ عَزْمِي عَنْ بَابِكُمْ ** إِلَّا تَعَثَّرْتُ بِأَذْيَالِي

أَمَا سَمِعتَ تِلْكَ الحِكايَة عَنْ بَعْضِ السَّلَف، أَنَّهُ قَالَ: رَأيْتُ عَلَىٰ سُورِ بَيروتَ شَابًّا يذكُرُ اللهَ تَعَالَىٰ، فَقُلتُ لَهُ: ألكَ حَاجَةٌ؟ فَقَالَ: إِذَا وقَعتْ لي حَاجَةٌ سَألْته إيَّاهَا بقَلبِي فقَضاهَا.

يا أَرْبَابَ المُعامَلةِ، باللهِ عَلَيكمْ لا تُكدِّرُوا المَشرَبَ، قِفُوا عَلَىٰ بَابِ المُراقَبةِ وُقوفَ الحُرَّاسِ، وادفَعُوا مَا لا يَصلُحُ أَنْ يَلِج فيُفسدَ، واهجُرُوا أَغرَاضَكُم لتَحصِيلِ مَحبُوب الحَبيبِ؛ فَإِنَّ أَغْراضَكُم تَحْصُل.

عَلَىٰ أَنَّنِي أقولُ: أُفٍّ لمَنْ تَركَ بقَصدِ الجَزاءِ، أَهذَا شَرطُ العُبودِيَّة؟ كَلَّا، إنَّمَا يَنْبغِي لي إِذَا كُنْتُ مَملُوكًا أَنْ أفعَلَ ليَرضَىٰ لا لأُعطَىٰ، فَإِنْ كُنْتُ مُحبًّا رَأَيْتُ قَطعَ الآرَابِ فِي رِضَاهُ وَصلًا.

اقبَلْ نُصحِي يَا مَخدُوعًا بغَرَضِهِ: إِنْ ضَعُفْتَ عَنْ حَملِ بَلائِه فاستَغثْ بِهِ، وإِنْ آلَمكَ كَربُ اختِيارِهِ فإنَّكَ بينَ يَدَيْه، ولا تيأَسْ مِن رَوْحِه وإِنْ قَويَ خِناقُ البَلاءِ، تاللهِ؛ إِنَّ مَوتَ الخَادمَ فِي الخِدْمَةِ حَسَنٌ عِنْدَ العَقْلاءِ.

إخوَانِي؛ لنَفْسِي أقُولُ، فمَن لَهُ شِربٌ مَعي؛ فَلْيَرِدْ:

أَيَّتُها النَّفْسُ؛ لَقَدْ أَعطَاكِ مَا لَمْ تَأْمَلِي، وبلَّغكِ مَا لَمْ تَطلُبي، وسَتَر عَلَيْك مِن قَبيحِك مَا لَوْ فَاحَ ضَجَّتْ المَشَامُّ، فَمَا هَذَا الضَّجيجُ مِنْ فَوَاتِ كَمالِ الأَغرَاضِ؟! أَمَملُوكَةٌ أنتِ أَمْ حُرَّةٌ؟ أمَا عَلمتِ أَنَّكِ فِي دَارِ التَّكليفِ؟!

وهَذَا الخِطابُ يَنبغِي أَنْ يَكُون للجُهَّالِ، فأَيْنَ دَعوَاكِ المَعْرِفَةَ؟! أَتُراهُ لَوْ هَبَّتْ نَفحةٌ فأَخذَتِ البَصرَ، كَيْفَ كَانَتْ تَطيبُ لَكِ الدُّنْيَا؟!

وا أَسَفًا عَلَيْكِ! لَقَدْ عَشِيَتِ البَصيرَةُ الَّتِي هي أشرَفُ، ومَا عِلمتُ كمْ أَقُولُ: عَسَىٰ ولعَلَّ؟! وأَنتِ فِي الخَطإِ إِلَىٰ قُدَّامٍ.

قرُبَتْ سَفينةُ العُمرِ مِن سَاحِل القَبْرِ، ومَا لَكِ فِي المَركبِ بِضاعةٌ تَرْبَح، تَلاعبَتْ بكِ فِي بَحرِ العُمرِ رِيحُ الضَّعْفِ، ففرَّقتْ تَلفيقَ القُوَي، وكَأَنْ قَدْ فَصلَتِ المَركَبُ، بلَغتِ نهَايَةَ الأَجَلِ وعَينُ هَواكِ تَتلفَّتُ إِلَىٰ الصِّبَا، باللهِ عَلَيْكِ لا تُشمِتِي بِكِ الأَعدَاء؛ هذَا أقلُّ الأقسَامِ.

وأَوْفَىٰ منهَا أَنْ أقُولُ: باللهِ عَلَيْكِ لا يَفوتَنَّكِ قَدَمُ سَابقٍ معَ قُدْرَتِكِ عَلَىٰ قَطعِ المِضمَارِ، الخَلوَةَ الخَلوَةَ، واستَحضِرِي قَرينَ العَقْلِ، وجَوِّلِي فِي حَيرةِ الفِكْرِ، واستَدرِكِي صَبابَةَ الأَجَلِ قَبلَ أَنْ تَمِيلَ بِكِ الصَّبابةُ عَنِ الصَّوَابِ.

وا عَجَبًا! كُلَّمَا صَعدَ العُمرُ نَزلْتِ، وكُلَّمَا جَدَّ المَوْتُ هَزلْتِ، أَتُراكِ مِمَّنْ خُتمَ لَهُ بفتنةٍ، وقُضِيَتْ عَلَيهِ عِنْدَ آخرِ عُمرِهِ المِحنَةُ، كَانَ أَوَّلُ عُمْركِ خَيرًا مِن الأخِيرِ، كُنْتِ فِي زَمَن الشَّبابِ أَصْلَحَ مِنكِ فِي زَمَن أَيَّام المَشيبِ.

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، نَسْأَلُ اللهَ ﷻ مَا لا يَحْصُلُ مَطْلُوبُنَا إِلَّا بِهِ، وهُوَ تَوفِيقهُ؛ إِنَّهُ سَميعٌ مُجيبٌ.

۞ فصْل ۞

قَدَرْتُ فِي بَعْضِ الأَوقاتِ عَلَى شَهْوَةٍ للنَّفْسِ هِي عِندَهَا أَحلَى مِن المَاء الزُّلالِ فِي فَمِ الصَّادِي

وقَالَ التَّأوِيلُ: مَا هَاهُنَا مَانِعٌ ولا مُعوِّقٌ إِلَّا نَوْع وَرَعٍ، وكَانَ ظَاهرُ الأَمْرِ امتِناعَ الجَوَازِ؛ فتردَّدتُ بينَ الأَمْرين، فَمَنَعْتُ النَّفْسَ عَنْ ذَلِكَ، فبَقِيَتْ حَيرَتي لمَنعِ مَا هُوَ الغَايَةُ فِي غرَضِها من غَيْرِ صَادٍّ عَنْهُ بحَالٍ إِلَّا حَذرَ المَنْعِ الشَّرْعِيِّ.

فَقُلتُ لَهَا: يَا نَفسُ؛ واللهِ مَا مِن سَبيل إلىٰ مَا تَودِّينَ، ولا مَا دُونَه، فتَقلقَلتْ، فصِحتُ بِها: كَمْ وافقتُكِ فِي مُرادٍ ذَهبَت لَذَّتُه، وبَقِي التَّأسُّفُ عَلَىٰ فِعلِه؟ فقدِّرِي بُلوغَ الغرضِ مِن هَذَا المُرادِ، أَليسَ النَّدمُ يَبْقَىٰ فِي مَجالِ اللَّذَّةِ أَضعافَ زَمانِها؟ فَقَالَتْ: كَيْفَ أصنَعُ؟ فقُلْتُ:

صَـبَرْتُ وَلَا وَاللهِ مَـا بِـي جَـلَادَةٌ ** عَلَىٰ الحُبِّ لَكِنِّي صَبَرْتُ عَلَىٰ الرَّغْمِ

وهَا أَنَا ذَا؛ أَنتَظرُ مِن اللهِ ﷻ حُسنَ الجَزاءِ عَلَىٰ هَذَا الفِعْلِ

وقَد تَركتُ بَاقِي هَذِهِ الوَجْهة البَيضَاء، أَرجُو أَنْ أَرَىٰ حُسنَ الجَزاءِ عَلَىٰ الصَّبْرِ، فأَسْطُرَه فِيهِ إنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ؛ فإِنَّه قَدْ يُعجِّلُ جَزاءَ الصَّبْر وقَدْ يؤخِّرهُ؛ فَإِنْ عجَّلَ سَطرتُهُ، وإنْ أَخَّر فَمَا أشكُّ فِي حُسنِ الجَزاءِ لمَنْ خَافَ مَقامَ رَبِّه؛ فإِنَّهُ من تَركَ شَيئًا للهِ عوَّضهُ اللهُ خَيرًا مِنْهُ.

واللهِ؛ إِنِّي مَا تَركتُه إلَّا للهِ تَعَالَىٰ، ويَكْفِيني تَركهُ ذَخيرَةً، حَتَّىٰ لَوْ قِيلَ لي: أَتَذكُرُ يَومًا آثَرتَ اللهَ عَلَىٰ هَواكَ؟ قُلْتُ: يَوْم كَذا وكَذا.

فافتَخِري أَيَّتُها النَّفْسُ بتوفيقِ منْ وفَّقكِ، فَكَمْ قَدْ خَذلَ سِواكِ! واحذَرِي أَنْ تُخْذَلي فِي مِثلِها، ولا حَولَ ولا قُوَّة إلَّا باللهِ العليِّ العَظيمِ.

وكَانَ هَذَا فِي سَنةِ إحدَىٰ وستِّينَ وخَمسِمائةٍ، فَلَمَّا دَخلَت سَنةُ خَمسٍ وستِّينَ عُوِّضْتُ خَيرًا من ذَلِكَ بِمَا لا يُقاربُ مِمَّا لا يَمنعُ مِنْهُ وَرعٌ ولا غَيرُه، فقُلْت: هَذَا جَزاءُ التَّركِ لأَجْلِ اللهِ سُبْحَانَه فِي الدُّنْيَا، ولَأَجْرُ الآخِرَةِ خيرٌ، والحَمْدُ للهِ.

❁ فَصْلٌ ❁

لا أُنكِرُ عَلَى مَن طَلبَ لَذَّةَ الدُّنْيَا مِن طَرِيقِ المُبَاحِ؛ لأَنَّهُ لَيسَ كُلُّ أَحدٍ يقْوَى عَلَى التَّرْكِ، إنَّمَا المِحنَةُ مَنْ طَلبَها فَلمْ يجِدْها أوْ أَكْثَرهَا إلَّا من طَرِيقِ الحَرَامِ، فاجتَهَدَ فِي تَحصِيلِها، ولَمْ يُبالِ كَيْفَ حَصَلَتْ

فهَذِهِ المِحنَةُ الَّتِي بُخِسَ فِيهَا العَقْلُ حَقَّه، ولَمْ يَنتفِعْ صَاحِبُه بوجُودِه؛ لأَنَّهُ لَوْ وَزنَ مَا آثَرَ وعِقابَهُ طَاشَت كِفَّة اللَّذَّةِ الَّتِي فَنيَتْ عِنْدَ أَوَّلِ ذرَّةٍ مِن أَجْزائِها.

فكَمْ قَدْ رَأينا مِمَّنْ آثَرَ شَهوَتهُ فسَلبَتْ دِينَه، فليَعجَبِ العَاقِلُ حِينَ التَّصفُّح لأحوَالِهم، كَيْفَ آثَرُوا شَيئًا مَا أقَامُوا مَعهُ، وصَارُوا إلىٰ عِقابٍ لا يُفارِقُهم؟!

فاللهَ اللهَ فِي بَخسِ العُقُول حَقَّها، وليَنظرِ السَّالكُ أيْنَ يَضَع القَدمَ؛ فرُبَّ مُستعجلٍ وقَعَ فِي بِئر بَوَار، ولتكُنْ عَيْنُ التَّيقُّظِ مَفتُوحَةً؛ فإنَّكُم فِي صَفِّ حَرْبٍ لا يُدرَىٰ فِيهِ منْ أيْنَ يُتلقَّىٰ النَّبلُ، فأَعِينُوا أنفُسَكُم، ولا تُعينُوا عَلَيهَا.

فَصْلٌ

الحَقُّ ﷻ أَقْرَبُ إلَى عَبْدِهِ مِن حَبْلِ الوَرِيدِ لكنَّه عَامَلَ العَبْدَ مُعامَلةَ الغَائبِ عَنْهُ، البَعيدِ مِنْهُ

فأَمرَ بقَصدِ نيَّتِه ورَفعِ اليَديْن إلَيْهِ، والسُّؤالِ لَهُ؛ فقُلوبُ الجُهَّالِ تَسْتَشْعِرُ البُعدَ، ولِذلِكَ تَقعُ مِنهُم المَعاصِي؛ إذْ لَوْ تَحقَّقت مُراقبَتُهم للحَاضرِ النَّاظِرِ لكفَّتِ الأكُفُّ عَن الخَطايَا.

والمُتيقِّظونَ عَلمُوا قُربَه، فحضَرتْهُم المُراقبةُ، وكفَّتهُم عَن الانبِساطِ، ولَوْلا نَوعُ تَغطيةٍ عَلَىٰ عَينِ المُراقبَةِ الحَقِيقيَّة لَمَا انبَسطتْ كَفٌّ بأَكْلٍ، ولا قَدرَتْ عَينٌ عَلَىٰ نَظرٍ، ومن هَذَا الجِنْسِ: «إنَّهُ ليغَانُ عَلَىٰ قَلبِي»(١).

ومَتىٰ تَحققَتِ المُراقبَةُ حَصلَ الأُنسُ، وإنَّمَا يَقعُ الأُنسُ بتَحقِيقِ الطَّاعَة؛ لأنَّ المُخَالفَة تُوجِب الوَحشةَ، والمُوافقَةُ مبسَطةُ المُستأنِسينَ؛ فيا لَذَّةَ عَيشِ المُستأنِسينَ، ويا خَسارَةَ المُستوحِشِينَ.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٠٢) من حديث الأغر المزني.

ولَيْسَتِ الطَّاعَةُ كَمَا يظُنُّ أَكْثَرُ الجُهَّالِ أَنَّهَا فِي مُجرَّد الصَّلاةِ والصِّيام، إِنَّمَا الطَاعَةُ المُوافقَةُ بامتِثالِ الأَمْرِ واجتِنابِ النَّهي، هَذَا هُوَ الأَصْلُ والقَاعدَةُ الكُلِّيَّةُ.

فَكَمْ من مُتَعَبِّدٍ بَعيدٌ؛ لأَنَّهُ مُضيِّعٌ للأَصْلِ وهَادِمٌ للقَواعِد بمُخَالفَةِ الأَمْرِ وارتِكابِ النَّهي، وإِنَّمَا المُحقِّق مَن أمسَكَ ذُؤابَة مِيزانِ المُحاسَبةِ للنَّفْسِ، فأدَّىٰ مَا عَلَيهِ واجتَنبَ مَا نُهِيَ عَنْهُ، فَإِنْ رُزِقَ زِيَادَةً تَنفَّلَ، وإِلَّا لَمْ يَضُرَّهُ. والسَّلامُ.

۞ فَصْلٌ ۞

الدُّنْيَا فِي الجُمْلَة مَعْبَرٌ

فيَنْبغِي للإِنْسَانِ أَنْ لا يُنافسَ بلذَّاتِها، وأَنْ يَعْبُرَ الأَيَّامَ بِها

فإِنَّه لَوْ تَفَكَّر فِي كَيفيَةِ الذَّبائح ووَسخِ مَن يُباشِرُها، وعَملِ الكَامخِ وغَيرهَا مِن المَأكُولاتِ؛ مَا طَابتْ لَهُ، ولَوْ تفكَّرَ فِي جَولانِ اللُّقمَةِ فِي الفَمِ مُختلِطةً بالرِّيقِ؛ مَا قَدرَ عَلَىٰ إِسَاغَتها.

والمَرءُ لا يَخْلُو مِن حَالَينِ: إِمَّا أَنْ يُرِيدُ التَّنعُّم باللَّذَّات المُبَاحاتِ، أَوْ يُرِيدُ دَفعَ الوَقْتِ بالضَّرُوراتِ، وأَيُّهما طلبَ فَلا يَنْبغِي لَهُ أَنْ يَبحثَ فِيمَا ينالُه عَنْ بَاطنِه، فإِنَّه لَوْ نَظرَ إِلىٰ عَورَة الزَّوجَة نبَا عَنهَا، وقَدْ قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: «ما رَأَيْتهُ مِن رَسُولِ اللهِ ولا رَآهُ مِنِّي»[1].

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (٢٤٣٤٤)، وابن ماجه (٦٦٢، ١٩٢٢)، والترمذي في «الشمائل» (٣٥٩).

فيَنْبغِي للعَاقِلِ أَنْ يَكُون لَهُ وَقتٌ مَعلومٌ، يَأمُر زَوجَته بالتَّصنُّعِ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يُغمِضُ عَن التَّفتِيشِ؛ ليَطيبَ لَهُ عَيشُه، ويَنْبغِي لَهَا أَنْ تتفقَّدَ مِن نَفْسِها هَذَا، فَلا تَحضُرُه إلَّا عَلَىٰ أَحْسَنِ حَالٍ، وبمِثلِ هَذَا يَدُومُ العَيْشُ، فأَمَّا إِذَا حَصلَت البِذْلَةُ بَانَتْ بِهَا العُيُوبُ، فنبَتِ النَّفْسُ وطَلبت الاستِبدَال، ثُمَّ يَقَع فِي الثَّانيةِ مِثلَ مَا وقَعَ فِي الأُولَىٰ، وكَذَلكَ يَنْبغِي أَنْ يَتَصَنَّعَ لَهَا كتصنُّعِها لَهُ؛ ليَدُومَ الودُّ بحُسنِ الائتِلافِ.

ومتىٰ لَمْ يَجرِ الأَمْرُ عَلَىٰ هَذَا فِي حَقِّ من لَهُ أَنفةٌ مِن شَيْءٍ تَنبُو عَنْهُ النَّفْسُ؛ وَقعَ فِي أَحَدِ أمرَينِ: إِمَّا الإِعْرَاضُ عَنهَا، وإِمَّا الاستِبدال بِها، ويحْتَاجُ فِي حَالَة الإِعْرَاضِ إلىٰ صبرٍ عَنْ أغرَاضِه، وفِي حَالَةِ الاستِبدالِ إلىٰ فَضلِ مُؤنةٍ، وكلاهُما يُؤذِي، ومَتىٰ لَمْ يَسْتعملْ مَا وصَفنَا لَمْ يَطبْ لَهُ عَيشٌ فِي مُتعةٍ، ولَمْ يَقدِر عَلَىٰ دفعِ الزَّمَان كَمَا يَنبَغِي.

۞ فَصْلٌ ۞

نَازَعتني نَفْسِي إلَى أَمرٍ مَكْرُوهٍ فِي الشَّرْعِ، وجَعلَتْ تَنْصِبُ لِي التَّأوِيلاتِ، وتَدفعُ الكَراهةَ، وكَانَتْ تَأويلاتُها فَاسِدَةً، والحُجَّةُ ظَاهِرَةٌ عَلَى الكَرَاهةِ، فلجَأتُ إلى اللهِ تَعَالَى فِي دَفعِ ذَلِكَ عَنْ قَلبِي

وأَقبلتُ عَلَىٰ القِراءةِ، وكَانَ دَرْسِي قَدْ بَلغَ إلىٰ سُورةِ يُوسُفَ، فافتتَحتُها، وذَلِكَ الخَاطرُ قَدْ شَغلَ قَلبي، حَتَّىٰ لا أدرِي مَا أَقرَأُ، فَلَمَّا بَلغتُ إلىٰ قَولِه تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ [يوسف: ٢٣] انتبهتُ لَهَا، وكأنِّي خُوطبتُ بها، فأَفقتُ مِن تِلْكَ السَّكرَة.

فقُلْتُ: يَا نَفسُ؛ أفَهمتِ؟ هَذَا حُرٌّ بِيْعَ ظُلمًا، فَرَاعىٰ حَقَّ مَن أَحسَنَ إِلَيْهِ، وسمَّاهُ مَالكًا، وإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَلَيهِ مُلكٌ فَقَالَ: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾، ثُمَّ زادَ فِي بَيَانِ مُوجبِ كَفِّ كَفِّه عمَّا يُؤذِيهِ، فَقَالَ: ﴿أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾.

فَكَيفَ بِكِ؛ وأَنْتِ عَبْدٌ عَلَىٰ الحَقِيقَةِ لمَولًىٰ مَا زَالَ يُحسنُ إِلَيْك مِن سَاعَةِ وجُودِك، وإِنَّ سَتْرَهُ عَلَيْك الزَّلَلَ أَكْثَرُ مِن عَددِ الحَصَا؟!

أفَمَا تَذكُرين كَيْفَ ربَّاكِ، وعلَّمكِ، ورَزقكِ ودَافعَ عَنكِ، وسَاقَ الخَيْرَ إِلَيْكِ، وهدَاكِ أقومَ طَرِيقٍ، ونجَّاكِ من كُلِّ كيدٍ، وضمَّ إلىٰ حُسنِ الصُّورَة الظَّاهِرة جَودَةَ الذِّهنِ البَاطِنِ، وسهَّلَ لَكِ مَدارِك العُلومِ، حَتَّىٰ نِلتِ فِي قَصيرِ الزَّمَان مَا لَمْ يَنلهُ غيرُكِ فِي طَويلِه! وجَلَّىٰ فِي عَرْصَةِ لِسانكِ عَرائسَ العُلومِ فِي حُلَلِ الفَصاحةِ، بَعدَ أَن سَترَ عَن الخَلْق مَقابِحَكِ، فتلقَّوْها مِنكِ بحُسْنِ الظَّنِّ، وسَاقَ رِزقَكِ بلا كُلفةِ تَكلُّفٍ، ولا كَدَرِ مَنٍّ، رَغدًا غَيْرَ نَزْرٍ؟!

فوَاللهِ؛ مَا أدرِي أيَّ نِعمةٍ عَلَيْك أشرحُ لَكِ، حُسنُ الصُّورَة وصحَّةَ الآلاتِ، أمْ سَلامةَ المِزاجِ واعتِدالَ التَّركيبِ، أمْ لُطفَ الطَّبْع الخَالي عَنْ خساسةٍ، أمْ إِلْهَامَ الرَّشَاد منذُ الصِّغَرِ، أم الحِفظَ بحُسنِ الوقَايةِ عَنِ الفَواحِشِ والزَّلَلِ، أمْ تَحْبِيبَ طَرِيق النَّقْل واتِّبَاعَ الأَثَرِ مِن غَيْرِ جُمودٍ عَلَىٰ تَقلِيدٍ لمُعظَّمٍ، ولا انخِراطٍ فِي سلكِ مُبتدِعٍ، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

كَمْ كَائدٍ نصَبَ لَكِ المَكائدَ فوقَاكِ؟ كَمْ عدُوٍّ حطَّ مِنكِ بالذَّمِّ فرَقاكِ؟ كَمْ أعطَشَ مِن شَرابِ الأَمَانِيِّ خَلقًا وسَقاكِ؟ كَمْ أَمَاتَ مَن لَمْ يَبْلغ بَعْضَ مُرادكِ وأبقَاكِ؟ فأنتِ تُصبحِينَ وتُمسِين سَليمةَ البَدَن، مَحرُوسةَ الدِّينِ، فِي تزيُّدٍ مِن العِلْمِ وبلُوغِ الأَمَلِ، فَإِنْ مُنعتِ مُرَادًا فرُزقتِ الصَّبْرَ عَنْهُ بَعدَ أَنْ تَبيَّنَ لَكِ وَجْهُ الحِكْمَةِ فِي المَنْع؛ فسلِّمِي حَتَّىٰ يَقعَ اليَقِينُ بأنَّ المَنْعَ أَصْلحُ.

ولوْ ذَهبتُ أعُدُّ من هَذِهِ النِّعَمِ مَا سَنحَ ذِكرُه؛ امتلأتْ الطُّروسُ ولَمْ تَنقطِعِ الكِتابةُ، وأَنتِ تَعلمِينَ أَن مَا لَمْ أَذكُرهُ أَكثرُ، وأنَّ مَا أَوْمَأْتُ إلىٰ ذكرِهِ لَمْ يُشْرَحْ، فكَيفَ يَحسُن بِكِ التَّعرُّضُ لِمَا يكرَههُ؟! ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ [يوسف: ٢٣].

فَصْلٌ

ما رَأيْتُ أعْظَمَ فِتنةً من مُقاربةِ الفِتنةِ

وقلَّ أَنْ يُقارِبها إلَّا مَنْ يَقع فِيهَا، ومنْ حَامَ حَولَ الحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيه

قَالَ بَعْضُ المُعتبِرينَ: قَدرتُ مرَّةً علَىٰ لَذَّةٍ، ظَاهِرها التَّحرِيمُ، وتَحتمِلُ الإبَاحَةَ، إذِ الأَمْرُ فِيهَا مُردَّدٌ، فجَاهدتُ النَّفْسَ فِي الأَخْذِ بالأَحْوَطِ والامْتِناعِ، فَقَالَتِ النَّفْسُ: أنتَ مَا تقدِرُ فلِهذَا تَترُك، فقَارِبِ المَقدُورَ عَلَيهِ، فَإِذَا تمكَّنتَ فتَركتَ كُنْتَ تاركًا حَقِيقَةً، ففعلتُ فتركتُ.

ثُمَّ عَاودَتْ مرَّةً أخرىٰ فِي تَأوِيلٍ أَرتْنِي فِيهِ الجَوازَ، وإنْ كَانَ الأَمْرُ يَحتَمِلُ، فَلَمَّا وَافقتُها أَثَّر ذَلِكَ ظُلْمَةً فِي قَلبي؛ لخَوفِ أَنْ يَكُونَ الأَمْرُ مُحرَّمًا، فرَأيْتُ أَنَّهَا تَارةً تَقْوَىٰ عَليَّ بالتَّرخُّص والتَّأوِيلِ، وتارةً أَقْوَىٰ عَليْهَا بالمُجاهَدةِ والامتِناعِ، فَإِذَا ترخَّصتُ لَمْ آمَنْ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الأَمْرُ مَحظُورًا، ثُمَّ أَرَىٰ عَاجلًا تَأثِير ذَلِكَ الفِعْلِ فِي القَلبِ.

فلمَّا لَمْ آمَنْ عَليْهَا بالتَّأوِيلِ، تَفكَّرْتُ فِي قَطعِ طَمَعِها مِن ذَلِكَ الأَمْر المُؤثِّر، فَلَمْ أَرَ ذَلِكَ إلَّا بأنْ قُلتُ لَهَا: قَدِّري أَنَّ هَذَا الأَمْرَ مُباحٌ قَطعًا، فواللهِ الَّذِي لا إلَهَ إلَّا هُوَ، لا عُدتُ إِلَيْهِ، فانْقَطَع طَمعُها باليَمينِ والمُعاهَدةِ، وهَذَا أبلغُ دَواءٍ وَجدتُه فِي امتِناعِها؛ لأَنَّ تَأويلَها لا يَبلغُ إلىٰ أَنْ تَأمُرَ بالحِنثِ والتَّكفِيرِ.

فأَجْوَدُ الأَشْيَاءِ قَطعُ أَسْبَابِ الفِتنِ، وتَركُ التَّرخُّص فِيمَا يَجُوزُ، إِذَا كَانَ حَاملًا ومُؤدِّيًا إلىٰ مَا لا يَجُوزُ. واللهُ المُوفِّقُ.

۞ فَصْلٌ ۞

لَولا غَيْبَةُ العَاصِي فِي وَقتِ المَعاصِي؛ كَانَ كالمُعَانِدِ

غَيْرَ أَنَّ الهَوَىٰ يَحولُ بَينَه وبَينَ الفَهمِ للحَالِ، فَلا يَرَىٰ إلَّا قضاءَ شَهوتِه، وإلَّا فلَو لاحَتْ لَهُ المُخَالَفَةُ خَرَجَ مِن الدِّينِ بالخِلافِ؛ فإنَّمَا يقْصِدُ هوَاهُ فيقَعُ الخِلافُ ضِمنًا وتبعًا، وأكْثَرُ مَا يَقَعُ هَذَا فِي مُقاربَةِ الفِتنةِ، وقلَّ مَن يَسْلَمُ عِنْدَ المُقارَبةِ؛ لأَنَّهُ كتَقديمِ نَارٍ إلىٰ حَلْفَا(١).

ثُمَّ لَوْ مَيَّزَ العَاقِلُ بينَ قَضاءِ وطَرِه لَحْظَةً وانْقِضَاء بَاقِي العُمرِ بالحَسرَةِ عَلَىٰ قَضاءِ ذَلِكَ الوَطَرِ؛ لَمَّا قَرُب مِنْهُ ولَوْ أَعْطِي الدُّنْيَا، غَيْرَ أَنَّ سَكرَةَ الهَوَىٰ تَحُولُ بينَ الفِكرِ وذَلِكَ.

آهٍ؛ كَمْ مِن مَعصِيَةٍ مَضتْ فِي سَاعَتها، كأَنَّهَا لَمْ تكُنْ، ثُمَّ بَقيَت آثَارُها، وأقلُّها مَا لا يَبرحُ مِن المَرارةِ فِي النَّدمِ، والطَّرِيقُ الأعْظَم فِي الحَذَرِ أَلَّا يَتعرَّضَ لسَبَبِ فِتنةٍ، ولا يُقاربَهُ، فمَنْ فَهمَ هَذَا وبالغَ فِي الاحتِرازِ؛ كَانَ إلىٰ السَّلامَةِ قَرِبَ.

۞ فَصْلٌ ۞

البَلايَا عَلَى مَقادِير الرِّجَال

فكثيرٌ مِن النَّاسِ تَراهُم سَاكِتِين رَاضينَ بِمَا عِنْدهُم مِن دِينٍ ودُنيا، وأولَئِكَ قَوْمٌ لَمْ يُرادُوا لَمقاماتِ الصَّبْر الرَّفيعةِ، أَوْ عُلِمَ ضَعفُهم عَنْ مُقَاومَة البَلاءِ فلُطِفَ بِهم.

---

(١) الحلفا: نبات صحراوي.

إنَّمَا المِحنَةُ العُظمَىٰ أَنْ تُرزَق هِمَّةً عاليةً، لا تَقنَع مِنكَ إلَّا بتَحقِيقِ الوَرَع، وتَجويدِ الدِّينِ، وكَمالِ العِلْمِ، ثُمَّ تُبتَلىٰ بنفسٍ تَمِيلُ إلىٰ المُبَاحاتِ، وتَدَّعي أنَّهَا تَجمَع بذَلِكَ هَمَّها، وتَشفِي مرَضها، لتُقبِلَ مُزاحَةَ العِلَّة عَلَىٰ تَحصيلِ الفَضائِل.

وهاتَانِ الحَالتانِ كضِدَّين؛ لأَنَّ الدُّنْيَا والآخِرَةَ ضُرَّتان، واللازمُ فِي هَذَا المقامِ مُراعاةُ الواجباتِ، وألَّا يُفسَح للنَّفْس فِي مُباحٍ لا يُؤمَنُ أَنْ يَتعدَّىٰ مِنْهُ إعرَاضٌ عَنْ واجبٍ، ودَعِ المُبتلَىٰ يَصيحُ، فلأنْ يَبْكِي الطِّفلُ خيرٌ منْ أَنْ يَبْكِي الوَالدُ.

واعلَمْ؛ أَنَّ فتحَ بَابِ المُبَاحاتِ رُبَّمَا جرَّ أذَىٰ كَثيرًا فِي الدِّينِ، فَأَوْثِقِ السَّكْرَ قبلَ فَتحِ المَاءِ، والبَسِ الدِّرعَ قبلَ لقَاءِ الحَربِ، وتَلمَّح عَوَاقِب مَا تَجنِي الأَوَائلُ - تَلمُّحَ اللَّاعبِ بالشَّطرَنجِ نِهايَةَ الثقلِ - قبلَ تَحرِيكِ اليَدِ، واستظهِرْ فِي الحَذَرِ باجتِنابِ مَا يُخافُ مِنْهُ وإنْ لَمْ يُتيقَّنْ.

❁ فَصْلٌ ❁

يَنْبغِي لِطَالبِ العِلْم أَنْ يَكُونَ جُلُّ هِمَّتِهِ مَصْرُوفًا إِلَى الحِفْظِ والإِعَادَةِ

فلوْ صَحَّ صرفُ جَميعِ الزَّمَان إلىٰ ذَلِكَ؛ كَانَ الأولىٰ؛ غَير أَنَّ البَدَنَ مطيةٌ، وإعدادُ السَّيرِ مظنةُ الانْقِطَاعِ.

ولمَّا كَانَتِ القُوَىٰ تَكَلُّ فتحتاجُ إلىٰ تجديدٍ، وكَانَ النَّسخُ والمُطالعةُ والتَّصنيفُ لا بُدَّ مِنْهُ، مع أَنَّ المُهمَّ الحِفظُ، وجبَ تَقسيمُ الزَّمَانِ عَلَىٰ الأمرَينِ، فيَكُون الحِفظُ فِي طَرَفي النَّهَارِ وطَرَفِي اللَّيْلِ، ويُوزَّعُ البَاقِي بينَ عَملٍ بالنَّسخِ والمُطالعةِ، وبيْنَ رَاحةٍ للبَدنِ وأخذٍ لِحَظِّهِ.

ولا يَنْبغِي أَنْ يَقَعَ الغبنُ بينَ الشُّركاءِ؛ فإنَّه مَتىٰ أَخَذَ أحدُهُم فَوْقَ حقِّهِ أَثَّر الغبنُ وبانَ أَثَرُه، وإنَّ النَّفْسَ لتهرَبُ إلىٰ النَّسخِ والمُطالعةِ والتَّصنيفِ عَنِ الإعَادةِ والتِّكرارِ؛ لأَنَّ ذَلِكَ أَشهَىٰ وأَخفُّ عَلَيهَا؛ فليَحذَرِ الرَّاكِبُ مِن إهمَالِ النَّاقةِ، ولا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَحمِلَ عَليْهَا مَا لا تُطيقُ.

ومعَ العَدلِ والإنصافِ يتَأَتَّىٰ كُلُّ مُرادٍ، ومنِ انحَرفَ عَنِ الجَادَّةِ طَالتْ طَريقُه، ومنْ طَوىٰ مَنازلَ فِي مَنْزِلٍ أوشَكَ أَنْ يَفوتَه مَا جَدَّ لأَجلِهِ.

عَلَىٰ أَنَّ الإنْسَانَ إلىٰ التَّحريضِ أحوجُ؛ لأَنَّ الفُتورَ ألصقُ بِهِ مِن الجِدِّ، وبعدُ، فاللَّازمُ فِي العِلْمِ طَلَبُ المُهمِّ، فرُبَّ صَاحِب حَدِيثٍ حَفظَ مثلًا لحَدِيث: «**منْ أَتَىٰ الجُمعَةَ فليَغتَسِل**»[1] عِشرِينَ طَريقًا، والحَدِيثُ قَدْ ثَبتَ من طَرِيقٍ وَاحِدٍ، فشَغلهُ ذَلِكَ عَنْ مَعْرِفَةِ آدَابِ الغُسلِ.

والعُمرُ أقصَرُ وأنفَسُ منْ أَنْ يُفرَّط مِنْهُ فِي نَفِيسٍ، وكفَىٰ بالعَقْلِ مُرشدًا إلىٰ الصَّوَابِ، وباللهِ التَّوفيق.

❁ فَصْل ❁

إذَا صَحَّ قَصدُ العَالِم استرَاحَ مِن كُلَفِ التَّكلُّفِ

فَإِنَّ كثيرًا مِن العُلَمَاءِ يأنَفونَ مِن قَوْلِ: لا أدرِي، فيَحفظُونَ بالفَتوَىٰ جَاهَهم عِنْدَ النَّاس؛ لِئلَّا يُقالَ: جَهِلوا الجَوَابَ، وإنْ كَانُوا عَلَىٰ غَيْر يَقينٍ مِمَّا قَالُوا؛ وهَذَا نِهايةُ الخُذلانِ.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٨٣٧)، ومسلم (٨٤٤) من حديث ابن عمر.

وقَد رُوِي عَنْ مالكِ بْن أنسٍ «أَنَّ رَجلًا سأَلَهُ عَنْ مَسألَةٍ، فَقَالَ: لا أدْرِي. فَقَالَ: سَافرتُ البُلدَان إِلَيْكَ. فَقَالَ: ارجِعْ إلىٰ بَلدِك وقُلْ: سَألتُ مَالكًا، فَقَالَ، لا أدرِي». فانْظُر إلىٰ دِينِ هَذَا الشَّخْصِ وعقلِهِ، كَيْفَ استراحَ مِن الكُلفَةِ، وسَلِمَ عِنْدَ اللهِ ﷻ.

ثُمَّ إنْ كَانَ المَقصُودُ الجَاهَ عِنْدَهم، فقُلوبُهم بيَدِ غَيرِهم.

واللهِ؛ لَقَد رَأَيْتُ مَن يُكثرُ الصَّلاةَ والصَّوْم والصَّمتَ، ويتخشَّعُ فِي نَفْسِه ولِباسِه، والقُلُوبُ تَنبُو عَنْهُ، وقَدْرُه فِي النُّفُوسِ لَيس بِذاكَ، ورَأَيْتُ مَن يَلبسُ فَاخِرَ الثِّياب، ولَيْسَ لَهُ كَبيرُ نَفلٍ ولا تخشُّعٍ، والقُلُوبُ تَتهافَتُ عَلَىٰ محبَّتِهِ، فتدبَّرتُ السَّبَب، فَوَجَدتُه السَّريرَةَ.

كَمَا رُوِي عَنْ أنسِ بْن مَالكٍ، أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ كثيرُ عَملٍ مِن صَلاةٍ وصَومٍ، وإنَّمَا كَانَتْ لَهُ سَريرةٌ.

فمَنْ أَصْلحَ سَريرَتَهُ؛ فَاحَ عَبيرُ فَضلِه، وعُبِّقَتِ القُلُوبُ بنَشرِ طِيبِه.

فاللهَ اللهَ فِي السَّرائرِ؛ فإنَّه مَا يَنفعُ معَ فَسادِها صَلاحُ ظَاهرٍ.

۞ فصل ۞

نَزَلَتْ بِي شِدَّةٌ، وأَكْثَرتُ مِن الدُّعَاءِ، أطلُبُ الفَرَجَ والرَّاحَةَ، وتأخَّرتِ الإجَابَةُ

فانزَعجَتِ النَّفْسُ وقَلِقَتْ، فصِحتُ بها: ويلَكِ! تَأَمَّلِي أمرَكِ، أَممْلوكةٌ أنتِ أمْ مَالكةٌ؟ أَمُدبَّرةٌ أنتِ أمْ مُدبِّرةٌ؟!

أمَا علِمتِ أَنَّ الدُّنْيَا دارُ ابتلاءٍ واختِبارٍ؟! فَإذَا طَلَبتِ أغْراضَكِ ولَمْ تَصبري عَلَىٰ مَا يُنافِي مُرادكِ، فأيْنَ الابتِلاءُ؟ وهَلْ الابتِلاءُ إلَّا الإعْرَاضُ وعَكسُ المَقاصِدِ؟ فافهَمِي مَعْنَىٰ التَّكلِيف، وقَد هَانَ عَلَيْكِ مَا عَزَّ، وسَهلَ مَا استُصعِبَ.

فلمَّا تدبَّرَتْ مَا قُلتُه سكَنَتْ بَعْضَ السُّكونِ، فَقُلتُ لَهَا: وعِندِي جوابٌ ثانٍ وهُوَ: أنَّكِ تقتَضِينَ الحَقَّ بأغرَاضكِ ولا تَقتضِين نَفْسكِ بالوَاجبِ لَهُ، وهَذَا عينُ الجَهْلِ، وإنَّمَا كَانَ يَنبغِي أَنْ يَكُونَ الأَمْرُ بالعَكسِ، لأَنَّكِ مَملوكةٌ، والمَملُوك العَاقِلُ يُطالبُ نَفْسَه بأداءِ حَقِّ المَالِك، ويعلَمُ أَنَّهُ لا يَجبُ عَلَىٰ المَالِك تَبليغُه مَا يَهوىٰ.

فسكَنَت أَكْثَر مِن ذَلِكَ السُّكونِ، فَقُلتُ لَهَا: وعِندِي جَوابٌ ثالثٌ، وهُوَ: أَنَّكِ قَدِ استَبطأتِ الإجَابَةَ، وأَنتِ سددتِ طُرقَها بالمَعاصِي، فلوْ قَدْ فُتِحتِ الطَّرِيقُ أَسْرَعْتِ، كأَنَّكِ مَا علمتِ أَنَّ سَبَبَ الرَّاحَةِ التَّقوىٰ، أوَمَا سَمِعتِ قولَه تَعالَىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤] أَوَمَا فهمتِ أَنَّ العَكسَ بالعَكسِ؟ آهٍ من سكْرِ غَفْلَةٍ صَارَ أَقْوىٰ من كُلِّ سُكْرٍ فِي وَجْه مِياهِ المُرَاد، يَمنعُها مِن الوُصُولِ إلىٰ زَرعِ الأَمَانيِّ.

فعرَفَتِ النَّفْسُ أَنَّ هَذَا حَقٌّ، فاطمأَنَّتْ، فقُلْتُ: وعِندِي جوابٌ رابعٌ، وهُوَ: أَنَّكِ تَطلُبينَ مَا لا تَعلمِين عَاقبَتَهُ، ورُبَّما كَانَ فِيهِ ضَررُكِ، فمثلُكِ كَمثلِ طِفلٍ مَحْمُوم يطلُبُ الحَلْوَىٰ، والمُدبِّرُ لَكِ أَعْلَمُ بالمَصَالِحِ، كَيْفَ وقَد قَالَ اللهُ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

فلمَّا بانَ الصَّوَابُ للنَّفْسِ فِي هَذِهِ الأجوبةِ، زَادتْ طُمأنينَتُها، فَقُلتُ لَهَا: وعِندِي جوابٌ خامسٌ، وهُوَ: أَنَّ هَذَا المَطْلُوبُ يُنقِصُ مِن أَجْرِكِ، ويَحُطُّ مِن مَرتبَتِك، فمنعُ الحَقِّ لَكِ مَا هَذَا سَبيلُه عطاءٌ مِنْهُ لَكِ، ولَوْ أَنَّكِ طَلبتِ مَا يُصلِحُ آخرَتكِ كَانَ أَولَىٰ لَكِ، فأَوْلَىٰ لَكِ أَنْ تفهمِي مَا قَدْ شَرحتُ.

فَقَالَتْ: لَقَد سَرَحْتُ فِي رِياضِ مَا شَرحتَ؛ فَهِمْتُ إذْ فَهمْتُ.

❁ فَصْل ❁

حَضَرْنَا بَعْضَ أَغْذِيَةِ أَرْبَابِ الأَمْوَالِ، فَرَأَيْتُ العُلَمَاءَ أَذلَّ النَّاسِ عِنْدهُم

فالعُلَمَاءُ يتوَاضعُونَ لَهُم ويذِلُّونَ لمَوضِع طَمَعِهِم فِيهِم، وهُمْ لا يَحفَلُونَ بِهِم؛ لِمَا يَعلمُونَه مِن احتِياجِهِم إليهِمْ، فرَأيْتُ هَذَا عَيبًا فِي الفَريقَين.

أمَّا فِي أَهْلِ الدُّنْيَا؛ فوَجهُ العَيبِ: أَنَّهُمْ كَانُوا يَنْبَغِي لَهُم تَعظِيم العِلْمِ، ولَكِنْ لجَهلِهِمْ بقَدْرِه فَاتَهم، وآثَرُوا عَلَيهِ كَسبَ الأَمْوَالِ، فَلا يَنْبَغِي أَنْ يُطلبَ مِنهُم تَعظِيمُ مَا لا يَعرِفُونه ولا يَعلمُونَ قَدْرَه.

وإِنَّمَا أعُودُ باللَّوْم عَلَىٰ العُلَمَاءِ، فأقُولُ: يَنْبَغِي لكُمْ أَنْ تَصونُوا أَنفُسكَم الَّتِي شَرُفتْ بالعِلْم عَن الذُّلِّ للأنْذَالِ، وإنْ كُنتُم فِي غِنًىٰ عَنْهُم كَانَ الذُّلُّ لَهُم والطَّلَبُ مِنهُم حَرامًا عَليكُم، وإنْ كُنتُم في كَفافٍ فلِمَ لَمْ تُؤثِرُوا التَّنزُّه عَنِ الذُّلِّ بالعِفَّةِ عَنِ الحُطامِ الفَانِي الحَاصلِ بالذِّلَّةِ؟!

إلَّا أَنَّهُ يُتخيَّلُ لِي مِنْ هَذَا الأَمْرِ أَنِّي عَلمتُ قِلَّة صَبر النَّفْسِ عَلَىٰ الكَفافِ والعُزوفِ عَنِ الفُضُولِ، فَإِنْ وُجِدَ ذَلِكَ مِنهَا فِي وقْتٍ لَمْ يُوجدْ عَلَىٰ الدَّوَام، فالأَوْلَىٰ للعَالِمِ أَنْ يَجْتَهِد فِي طَلَبِ الغِنَىٰ، ويُبالِغَ فِي الكَسبِ، وإنْ ضَاعَ بذَلِكَ عَلَيهِ كَثِيرٌ مِن زَمَانِ طَلَبِ العِلْم؛ فإِنَّه يَصونُ بعَرَضِه عِرْضَهُ.

وقَدْ كَانَ سَعيدُ بْن المُسيِّبِ يتَّجرُ فِي الزَّيتِ، وخلَّف مالًا، وخَلَّفَ سُفيَانُ الثَّورِيُّ مَالًا، وقَالَ: «لَولاكَ لتَمندَلُوا بِي».

وقَدْ سبَقَ في كِتابِي هَذَا في بَعْضِ الفُصولِ شَرفُ المَالِ، ومنْ كَانَ منَ الصَّحَابَة والعُلَمَاءِ يَقتنيِه، والسِرُّ فِي فعلهم ذَلِكَ، وحَتَّىٰ طَالِبي العِلْم عَلَىٰ ذَلِكَ: مَا بيَّنتهُ منْ أَنَّ النَّفْسَ لا تَثبُتُ عَلَىٰ التَّعفُّفِ، ولا تَصبرُ عَلَىٰ دَوامِ التَّزهُّدِ، وكَمْ قَدْ رَأينَا مِن

شَخْصٍ قَوِيَتْ عَزِيمَتُهُ عَلَىٰ طَلَبِ الآخِرَةِ، فأخرَجَ مَا فِي يدِه، ثُمَّ ضَعُفَتْ فعَادَ يَكتِسبُ مِن أقبَحِ وجْهٍ!

فالأَوْلَىٰ ادِّخارُ المَالِ والاستِغناءُ عَنِ النَّاسِ، ليخرُجَ الطَّمعُ مِن القَلبِ، ويصْفُوَ نَشرُ العِلْمِ مِن شَائبةِ مَيْلٍ، ومَنْ تَأَمَّلَ أخْبَارَ الأَخْيَارِ مِن الأحْبَارِ، وجدَهُم عَلَىٰ هَذِهِ الطَّرِيقةِ.

وإنَّمَا سَلكَ طَرِيقَ التَّرفُّهِ عَنِ الكَسبِ من لَمْ يُؤَثِّرْ عِنْدَه بذْلُ الدِّينِ والوَجْهِ، فطَلَبَ الرَّاحَةَ ونَسِيَ أنَّهَا فِي المَعنَىٰ عَناءٌ، كَمَا فَعلَ جَمَاعَةٌ مِن جُهَّالِ المُتصوِّفَةِ فِي إخرَاجِ مَا فِي أَيَدَيْهم، وادِّعاءِ التَّوكُّلِ، ومَا عَلمُوا أَنَّ الكَسبَ لا يُنافِي التَّوكُّلَ، وإنَّمَا طَلَبُوا طَرِيقَ الرَّاحَةِ، وجَعلُوا التَّعرُّضَ للنَّاسِ كَسبًا.

وهَذِهِ طَرِيقَةٌ مُرَكَّبةٌ من شَيئينِ: أحَدُهُمَا: قِلَّةُ الأَنفَةِ عَلَىٰ العِرضِ، والثَّانِي: قِلَّةُ العِلْمِ.

فَصْلٌ

تَأمَّلتُ وقُوعَ المَعاصِي مِن العُصَاةِ، فَوجَدتُهُمْ لا يَقْصِدونَ العِصْيَانَ وإنَّمَا يَقصدُونَ مُوافقَةَ هَوَاهُمْ، فوَقعَ العِصْيَانُ تبعًا

فنَظرتُ فِي سَبَب ذَلِكَ الإقْدَامِ، مع العِلْمِ بوُقوعِ المُخَالفَةِ؛ فَإذَا بِهِ مُلاحظَتُهم لكَرمِ الخَالِقِ، وفضلِهِ الزَّاخِرِ، ولَوْ أَنَّهُمْ تأمَّلُوا عَظمَتَه وهَيبتَهُ مَا انبسطتْ كفٌّ بمُخالفَتِه.

فإنَّه يَنْبغِي - واللهِ - أَنْ يُحذَرَ مِمَّنْ أقلُّ فِعلِه تَعميمُ الخَلْقِ بالمَوْتِ، حَتَّىٰ إلقَاءُ الحَيَوَانِ البهيمِ للذَّبحِ، وتَعذِيبُ الأطفالِ بالمَرَضِ، وفقرُ العَالِم وغِنَىٰ الجَاهِلِ.

فليَعرِضِ المُقدِمُ عَلَىٰ الذُّنُوبِ عَلَىٰ نَفْسهِ الحَذَرَ مِمَّنْ هَذِهِ صِفَتُه، فَقدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨].

ومُلاحظَةُ أَسْبَابِ الخَوْفِ أَدْنَىٰ إلىٰ الأَمْنِ مِنْ مُلاحظَةِ أَسْبَابِ الرَّجاءِ، فالخَائفُ آخِذٌ بالحَزمِ، والرَّاجِي مُتعلِّقٌ بحَبلِ طَمعٍ، وقَدْ يُخْلَفُ الظَّنُّ.

۞ فَصْلٌ ۞

رَأَيْتُ عُمومَ أَرْبَابِ الأَموَالِ يَستخدِمونَ العُلَمَاءَ ويَستذلُّونَهم بشَيْءٍ يَسيرٍ يُعطونَهُم من زَكاةِ أموالِهِمْ

فَإِنْ كَانَ لأحَدِهم خَتمةٌ قَالَ: فُلانٌ مَا حَضرَ! وإنْ مَرِضَ قَالَ: فُلانٌ مَا تردَّدَ! وكلُّ مِنَّتِهِ عَلَيهِ شَيْءٌ نَزرٌ يَجبُ تَسليمهُ إلىٰ مِثلِه! وقَدْ رَضِيَ العُلَمَاءُ بالذُّلِّ فِي ذَلِكَ لمَوضعِ الضَّرورَةِ.

فرَأيْتُ أَنَّ هَذَا جَهلٌ مِن العُلَمَاءِ بِمَا يَجبُ عَلَيهِم مِن صِيانَةِ العِلْم، ودَواؤُه مِن جِهتَينِ:

إحدَاهُما: القَناعَةُ باليَسيرِ، كَمَا قِيلَ: مَنْ رَضيَ بالخَلِّ والبَقلِ لَمْ يَستعبِدْهُ أَحَدٌ.

والثَّانِي: صَرفُ بَعضِ الزَّمَان المَصروفِ فِي خِدمةِ العِلْمِ إِلَىٰ كَسبِ الدُّنْيَا؛ فإِنَّه يَكُونُ سَببًا لإعزازِ العِلْمِ، وذَلِكَ أَفْضَلُ من صَرفِ جَمِيعِ الزَّمَان فِي طَلبِ العِلْمِ مع احتِمالِ هَذَا الذُّلِّ.

ومَنْ تَأمَّل مَا تأمَّلتُه، وكَانَتْ لَهُ أَنَفةٌ؛ قَدَّرَ قُوَّتِه، واحتفظَ بِمَا مَعهُ، أَوْ سَعىٰ فِي مُكتَسبٍ يَكْفِيه، ومَن لَمْ يَأنَف من مِثلِ هَذِهِ الأَشْيَاء؛ لَمْ يَحظَ مِن العِلْم إلَّا بصُورَتِهِ دُونَ مَعنَاهُ.

فَصْل

مَدارُ الأَمْرِ كُلِّه عَلَى العَقْلِ

فإِنَّه إِذَا تمَّ العَقْلُ لَمْ يعْمَل صَاحِبُه إِلَّا عَلَىٰ أَقْوَىٰ دَلِيلٍ، وثمرَةُ العَقْل فَهمُ الخِطَابِ، وتَلمُّح المَقصُودِ مِن الأَمْرِ، ومن فَهمَ المَقصُودَ وعَمِلَ عَلَىٰ الدَّلِيلِ كَانَ كالبَانِي عَلَىٰ أساسٍ وَثيقٍ.

وإِنِّي رَأَيْتُ كَثيرًا مِن النَّاسِ لا يَعمَلُون عَلَىٰ دَلِيلٍ، بَلْ كَيْفَ اتَّفَقَ، ورُبَّما كَانَ دَلِيلُهم العَادَاتِ؛ وهَذَا أَقبحُ شَيْءٍ يكونُ.

ثُمَّ رَأَيْتُ خَلقًا كثيرًا لا يُثْبِتُونَ الدَّلِيلَ بطُرُق إِثْبَاتِهِ؛ كاليَهُود والنَّصَارَىٰ؛ فَإِنَّهُم يُقلِّدونَ الآبَاءَ، ولا يَنظرُون فِيمَا جَاءَ مِن الشَّرَائِع: هل هو صَحِيحٌ أَمْ لا؟!

وكَذَلكَ يُثبتُون الإِلَهَ، ولا يَعرفُون مَا يَجُوزُ عَلَيهِ مِمَّا لا يَجُوزُ، فينسبُونَ إِلَيْهِ الوَلَدَ، ويَمنعُون جَوَازَ تَغييرِه مَا شَرعَ؛ وهَؤُلاءِ لَمْ يَنظرُوا حَقَّ النَّظَر؛ لا فِي إِثْبَاتِ الصَّانِع ومَا يَجُوزُ عَلَيهِ، ولا فِي الدَّلِيلِ عَلَىٰ صِحَّةِ النُّبوَّاتِ؛ فتَقعُ أعمَالُهم ضَائعةً، كالبَانِي عَلَىٰ رَمْلٍ.

ومِنْ هَذَا القبيل فِي المَعنَىٰ: قَوْمٌ يتَعبَّدُون ويتزهَّدُون وينَصبُونَ أبدَانَهم فِي العَمَلِ بأَحَادِيثَ بَاطلةٍ، ولا يسْأَلون عَنْهَا من يَعلمُ.

ومِنَ النَّاس من يُثبتُ الدَّلِيلَ، ولا يفْهَم المَقصُودَ الَّذِي دلَّ عَلَيهِ الدَّلِيلُ، ومن هَذَا الجِنْسِ: قَوْمٌ سَمِعُوا ذَمَّ الدُّنْيَا، فتزهَّدُوا، ومَا فَهمُوا المَقصُودَ، فظنُّوا أَنَّ الدُّنْيَا تُذمُّ لِذَاتِها، وأَنَّ النَّفْسَ تجِبُ عدَاوتُها، فحَمَلُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهم فَوْقَ مَا يُطاقُ، وعذَّبُوها بكلِّ

نَوعٍ، ومنَعُوها حُظوظَها؛ جَاهِلِين بقَوْلِه ﷺ: «**إنَّ لنفْسِكَ عَلَيْك حقًّا**»[(١)]، وفِيهِم مَن أدَّتْ به الحَالُ إلىٰ تَركِ الفَرَائِضِ، ونُحولِ الجِسمِ، وضَعفِ القُوَىٰ.

وكلُّ ذَلِكَ لضَعفِ الفَهمِ للمَقْصُودِ والتَلمُّح للمُرادِ.

كَمَا رُوِيَ عَنْ دَاود الطَّائِيِّ، أَنَّهُ كَانَ يَترُكُ مَاءً فِي دَنٍّ تَحْتَ الأَرْضِ، فيَشربُ مِنْهُ وهُوَ شَديدُ الحَرِّ، وقَالَ لسُفيَانَ: إذا كُنْتَ تأكُلُ اللَّذيذَ الطَّيِّبَ، وتَشربُ المَاءَ البَاردَ المُبرَّدَ، فمَتىٰ تُحبُّ المَوْتَ والقُدومَ عَلَىٰ اللهِ تَعالَىٰ؟

وهَذَا جَهلٌ بالمَقصُودِ؛ فَإِنَّ شُرْبَ المَاءِ الحارِّ يُورِثُ أَمرَاضًا فِي البَدَنِ، ولا يَحصُلُ بِهِ الرِّيُّ، ومَا أُمِرنَا بتَعذِيبِ أنفُسِنا عَلَىٰ هَذِهِ الصُّورَةِ، بَلْ بتَركِ مَا تَدعُو إِلَيْهِ ممَّا نَهىٰ اللهُ عَنْهُ.

وفِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «أنَّ أبا بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَمَّا حَلبَ لَهُ الرَّاعِي فِي طَرِيقِ الهِجْرَةِ، صَبَّ المَاءَ عَلَىٰ القَدَحِ حَتَّىٰ بَرَدَ أسفَلُه، ثُمَّ سَقىٰ رَسُولَ اللهِ ﷺ»[(٢)]، وفَرَشَ لَهُ فِي ظلِّ صخرَةٍ، وكَانَ يُسْتعذَبُ لرَسُولِ اللهِ ﷺ المَاءُ[(٣)]، وقَالَ: «**إنْ كَانَ عندَكُم مَاءٌ باتَ فِي شَنٍّ وإلَّا كرَعْنَا**»[(٤)].

ولو فَهِمَ دَاودُ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّ إِصْلاح عَلفِ النَّاقةِ مُتعيِّنٌ لِقَطْعِ المَسافةِ؛ لَمْ يَفعلْ هَذا.

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (١٣٦٩)، وأحمد (٢٦٣٠٨) من حديث عائشة. والدارمي (٢١٦٩) من حديث سعد بن أبي وقاص. والترمذي (٢٤١٣)، وابن خزيمة (٢١٤٤) من حديث أبي جحيفة. وأحمد (٦٨٧٨) والحاكم (٦٩٠٠) من حديث عبد الله بن عمرو.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٦١٥)، ومسلم (٢٠٠٩) من حديث البراء بن عازب.

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٠٣٨) من حديث أبي هريرة. وأبو داود (٣٧٣٥) من حديث عائشة.

(٤) **صحيح**: أخرجه البخاري (٥٦١٣، ٥٦٢١) من حديث جابر بن عبد الله.

ألا ترىٰ إلىٰ سُفيَان الثَّورِيِّ؛ فإِنَّه كَانَ شَدِيد المَعْرِفَة والخَوْفِ، وكَانَ يأكُلُ اللَّذيذَ، ويَقُولُ: «إنَّ الدَّابَّة إِذَا لَمْ يُحسَن إلَيهَا لَمْ تعملْ».

ولعلَّ بَعْض من يَسمَع كلامِي هَذَا يَقُول: هَذَا ميلٌ عَلَىٰ الزُّهَّاد.

فَأَقُولُ: كُن مع العُلَمَاء، وانظُر إلىٰ طَرِيق الحَسن، وسُفيَانَ، ومَالك، وأبي حَنيفَةَ، والشَّافِعيِّ، وأحمدَ؛ فهَؤُلاءِ أُصُولُ الإِسْلامِ، ولا تُقلِّدْ دِينَك مَن قَلَّ علمُه وقَوِيَ زُهدُه، واحمِلْ أمرَهُ عَلَىٰ أَنَّهُ كَانَ يطِيقُ هَذَا، ولا تقتَدِ بِهِم فِيمَا لا تطِيقهُ، فلَيْس أمرُنا إلَيْنَا، والنَّفْسُ وديعةٌ عِنْدَنا.

فَإِن أنكرتَ مَا شرَحتُهُ، فأنتَ مُلْحَقٌ بالقَوْمِ الَّذِي أنكرتُ عَلَيهِم، فهَذَا رمزٌ إلىٰ المَقصُود، وشَرْحُهُ يَطُولُ.

❁ فَصْلٌ ❁

الواجِبُ عَلَى العَاقِلِ أَنْ يتَّبعَ الدَّلِيلَ ولا ينظرُ فِيمَا يَجْنِي مِن مَكْرُوهٍ

مِثالُه: أَنَّهُ قَدْ ثبتَ بالدَّلِيل القاطِعِ حِكمةُ الخَالِق ﷻ ومُلْكُه وتَدبيرُهُ، فَإِذَا رَأَىٰ الإنْسَانُ عَالِمًا مَحرومًا، وجَاهِلًا مَرزوقًا؛ أَوْجَبَ عَلَيهِ الدَّلِيلُ المُثبتُ حِكمةَ الخَالِق التَّسْلِيمَ إلَيْهِ، ونِسبةَ العَجْز عَنْ مَعْرِفَة الحِكْمَة إلىٰ نَفْسهِ.

فَإِنَّ أَقْوَامًا لَمْ يفعلُوا ذَلِكَ جهلًا منهُم، أفترُاهُم بمَاذَا حَكمُوا بفَسادِ هَذَا التَّدبير؟ أليسَ بمقتضَىٰ عُقُولهِم؟ أَوَمَا عُقُولُهم مِن جُمْلَة مَواهِبِه؟! فَكَيفَ يَحكُمُ عَلَىٰ حِكمتِه وتَدبيرِه ببعضِ مَخلوقَاتِه الَّتِي هي - بالإضَافةِ إلَيْهِ - أنقصُ مِن كُلِّ شَيْءٍ؟!

ولَقَدْ بلَغَني عَنِ اللَّعينِ ابنِ الرَّاوندِيِّ، أَنَّهُ كَانَ جالسًا عَلَىٰ الجِسرِ وفِي يَدِهِ رَغيفٌ يأكُلُه، فجَازتْ خَيلٌ وأموالٌ، فَقَالَ: لمَنْ هَذِه؟ فقِيلَ: لفُلانٍ الخَادِمِ، ثُمَّ جازَتْ خيلٌ وأموالٌ، فَقَالَ: لمَنْ هذه؟ فقِيلَ: لفُلانٍ الخَادِمِ، فَلَمَّا مرَّ الخَادِمِ رَأَىٰ شَخصًا مُحتقَرًا، فرَمَىٰ الرَّغيفَ إلىٰ نَاحيتِه وقَالَ: وهَذَا لفُلان! مَا هَذِهِ القِسمةُ؟!

ولَوْ فكَّر المُعترِضُ؛ لبَانَت لَهُ وجُوهٌ، أقلُّها: جَهْلُه بمَنْ يَدَّعِي مَعرفَتَه، وقِلَّةُ تَعظِيمِهِ لَهُ، وذَلِكَ يُوجِبُ عَلَيهِ أَشدَّ مِمَّا كَانَ فِيهِ مِن تَضييقِ العَيْشِ، ولَكنَّه مِيراثُ إبْلِيسَ، حَيثُ اعتَقدَ سُوءَ التَّدبيرِ فِي تَفْضِيل آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فالعجَبُ من تِلميذٍ يتعَالَمُ عَلَىٰ أُستاذِه، ومِن مَملوكٍ يَتيهُ بِمَالِهِ عَلَىٰ سيِّدِه.

ومما يَنْبغِي أَنْ يتَّبعَ فِيهِ الدَّلِيلُ، ولا يُلتفتُ إلىٰ مَا جنَتِ الحَالُ: أَنَّ العِلْمَ أَشرفُ مُكتسَبٍ، وقَد رَأَىٰ جَماعَةٌ مِن الجَهْلةِ قِلَّة حُظُوظِ العُلَمَاءِ مِنَ الدُّنْيَا، فأَزْرَوا عَلَىٰ العِلْم وقَالُوا: لا فَائدةَ فِيهِ، وذَلِكَ لجَهلِهم بمِقْدَار العِلْم، فَإِنَّ تابعَ الدَّلِيل لا يُبالِي مَا جَنىٰ، وإنَّمَا يَبينُ الاختِبارُ بفَقدِ الغَرَض.

ولَوْ لَمْ يَكُنْ مِن الدَّلِيلِ عَلَىٰ صِدقِ نبيِّنا ﷺ إلَّا إعراضُهُ عَنِ الدُّنْيَا، وتَضييقُ العَيْشِ عَلَيهِ، ثُمَّ لَمْ يُخلِّف شَيئًا، وحَرَمَ أهلَهُ المِيراثَ؛ لكفَاهُ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَىٰ صِدقِ طَلَبِه لمَطْلُوبٍ آخرَ.

ورُبَّما رَأَىٰ الجَاهِلُ قَومًا مِن العُلَمَاء يَفعلُون خَطيئةً، فيُزْرِي عَلَىٰ العِلْم، ويدَّعيهِ نَقصًا، وهَذَا غَلَطٌ كبيرٌ.

فليَتَّقِ اللهَ العَاقِلُ، وليعْمَلْ بمُقتضَىٰ العَقْل فِيمَا يُؤْمرُ بِهِ من طَاعَة اللهِ تَعَالَىٰ والعَمَل بالعِلْم، وليَعلمَ أَنَّ الابتِلاءَ فِي الصَّبرِ عَلَىٰ فَواتِ المَطْلُوباتِ، وليلْزَم اتِّبَاع الدَّلِيلِ وإنْ جَنَىٰ مَكرُوهًا. واللهُ المُوفِّقُ.

۞ فَصْل ۞

قرأْتُ سُورةَ يُوسُفَ، فَتَعَجَّبتُ مِن مَدحِه ﷺ عَلَى صَبرِهِ وشَرحِ قِصَّتهِ للنَّاسِ، ورَفعِ قَدرِه بتَركِ مَا تَرَك، فتَأمَّلتُ خَبيئةَ الأَمْرِ فَإذَا هِي مُخَالفَةُ الهَوَى المَكرُوهِ

فقُلْتُ: وا عَجَبًا! لَوْ وَافقَ هَواهُ مَن كَانَ يَكونُ؟ ولمَّا قد خَالَفه؛ لَقَد صَارَ أمرًا عظيمًا تُضرَب الأمثالُ بصَبره، ويُفتخَرُ عَلَىٰ الخَلْق باجْتِهَادِهِ؛ وكلُّ ذَلِكَ قَدْ كَانَ بصَبرِ سَاعَةٍ، فيا لَهُ عِزًّا وفَخرًا أَنْ تَملِكَ نَفْسكَ سَاعَةَ الصَّبْر عَنِ المَحبوبِ وهُوَ قَرِيبٌ.

وبالعَكسِ مِنْهُ حَالَةَ آدَمَ فِي مُوافقَتهِ هَواهُ، لَقَد عَادَت نَقيصَةً فِي حقِّهِ أبدًا، لَوْلا تَدارُك: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾.

فتَلمَّحوا - رَحمَكُم اللهُ - عَاقبةَ الصَّبْرِ ونِهايةَ الهَوَىٰ، فالعَاقِلُ مَن ميَّزَ بينَ الأَمرَينِ الحُلوَين والمُرَّيْن؛ فإنَّ مَنْ عَدلَ مِيزانَه ولَمْ تَمِلْ بِهِ كِفَّةُ الهَوَىٰ رَأَىٰ كُلَّ الأربَاحِ فِي الصَّبْر، وكُلَّ الخُسرانِ فِي مُوافقَةِ النَّفْسِ؛ وكَفَىٰ بِهَذَا مَوعظَةً فِي مُخَالفَةِ الهَوَىٰ لأهْلِ النُّهَىٰ. واللهُ المُوفِّقُ.

۞ فَصْلٌ ۞

رَأَيْتُ الاشتِغالَ بالفِقهِ وسَمَاعَ الحَدِيث لا يكادُ يَكْفِي فِي صَلاحِ القَلبِ إلَّا أَنْ يُمزجَ بالرَّقائقِ، والنَّظَرِ فِي سِيرِ السَّلَفِ الصَّالِحِينَ

فَأَمَّا مُجرَّدُ العِلْمِ بالحَلالِ والحَرامِ، فليسَ لَه كَثيرُ عَملٍ فِي رِقَّةِ القَلبِ، وإنَّما يَرِقُّ القَلْبُ بِذكرِ رَقَائقِ الأَحاديثِ فِي أَخبارِ السَّلَفِ الصَّالِحينَ؛ لأَنَّهُم تناولُوا مَقْصُودَ النَّقْلِ، وخرَجُوا عَنْ صُوَرِ الأفْعَالِ المأمُورِ بِهَا إلىٰ ذوقِ مَعانِيها والمُرَاد بِها.

ومَا أخبَرتُك بِهَذَا إلَّا بَعدَ مُعالجةٍ وذَوقٍ؛ لأنِّي وجدْتُ جُمْهُورَ المُحدِّثين وطُلَّابَ الحَدِيث همَّةُ أَحدِهم فِي الحَدِيث العَالي وتكثِيرِ الأجزَاء، وجُمهورُ الفُقَهَاء فِي عُقُولِهِمُ الجدَلُ ومَا يُغالَب بِهِ الخَصمُ؛ وكَيفَ يرِقُّ القَلْبُ معَ هَذِهِ الأَشْيَاء؟!

وقَد كَانَ جَمَاعَةٌ مِن السَّلَف يَقصِدونَ العَبْدَ الصَّالحَ للنَّظر إلىٰ سَمْتِه وهَديِه، لا لاقتِباسِ عِلمِه، وذَلِكَ أَنَّ ثمرةَ عِلمِه هَدْيُهُ وسَمتُهُ.

فافهَمْ هذا، وامزِجْ طلبَ الفِقهِ والحَدِيث بمُطالعَة سِيرِ السَّلَفِ والزُّهَّادِ فِي الدُّنْيَا، ليكونَ سَببًا لرقَّة قَلْبكَ.

وقَدْ جَمعتُ لكلِّ وَاحِدٍ مِن مَشاهِير الأَخْيَار كتابًا فِيهِ أَخْبارُه وآدابُه، فجمعتُ كِتابًا فِي أَخْبَار الحَسَن، وكتابًا فِي أَخْبَار سُفيَان الثَّورِيِّ، وإبْراهِيم بْن أَدْهَم، وبِشرٍ الحَافِي، وأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَل، ومعْرُوفٍ، وغَيرِهم من العُلَماء والزُّهَّاد. واللهُ المُوفِّق للمَقْصُود.

ولا يصلُحُ العَمَلُ مع قِلَّةِ العِلْم، فهُمَا فِي ضَرْبِ المَثل كسَائقٍ وقَائِدٍ، والنَّفْسُ بينَهُما حَرُون[1]، ومع جِدِّ السَّائق والقائدِ يَنقَطِعُ المَنْزِلُ، ونَعُوذُ باللهِ من الفُتُور.

---

(١) حرون: صعبة الانقياد.

۞ فَصْل ۞

ترخَّصتُ فِي شَيْءٍ يَجُوزُ فِي بَعْضِ المَذاهبِ، فَوجَدتُ فِي قَلبي قَسوةً عظيمةً

وتخايَلَ لي نوعُ طرْدٍ عَنِ البَابِ، وبُعدٌ وظُلْمَةٌ تكاثفَتْ.

فَقَالَت نَفْسِي: مَا هذا؟ أليسَ مَا خرجتَ عَنْ إجْمَاع الفُقَهاءِ؟! فَقُلتُ لَهَا: يَا نَفسَ السَّوءِ، جوابُكِ من وَجهَين:

أحدُهُمَا: أنَّكِ تأوَّلتِ مَا لا تَعتقِدين، فلوِ اسْتُفْتِيتِ لَمْ تُفتِ بِمَا فعلتِ. قَالَتْ: لَوْ لَمْ أَعْتَقِدْ جَوازَ ذَلِكَ مَا فَعَلْتُه. قُلْتُ: إلَّا أَنَّ اعْتِقَادكِ مَا تَرْضَيْنَهُ لغيرِكِ فِي الفَتوَىٰ.

والثَّانِي: أَنَّهُ يَنْبغِي لَكِ الفرَحُ بِمَا وجَدتِ مِن الظُّلْمَةِ عَقِيبَ ذَلِكَ؛ لأَنَّهُ لَوْلا نُورٌ فِي قَلْبكِ مَا أَثَّرَ مِثلُ هَذَا عندَكِ. قَالَتْ: فلقدِ استوحَشتُ بهَذِهِ الظُّلْمَة المُتجدِّدةِ فِي القَلْبِ. قُلْتُ: فاعزِمي عَلَىٰ التَّركِ، وقدِّرِي مَا تركتِ جَائزًا بالإجْمَاع، وعُدِّي هَجْرَه وَرَعًا، وقَد سَلِمْتِ.

۞ فَصْل ۞

ممَّا أفادَتني تجاربُ الزَّمَانِ:
أَنَّهُ لا يَنْبغِي لأحدٍ أَنْ يُظاهرَ بالعدَاوةِ أحدًا مَهمَا استَطاعَ
فإِنَّه رُبَّمَا يحْتَاج إلَيْهِ، مهما كَانَتْ مَنْزلته

وإنَّ الإنْسَان قدْ لا يظنُّ الحَاجَة إلىٰ مثلهِ يَومًا مَا، كَمَا قدْ يَحْتَاجُ إلىٰ عُوَيْدٍ مَنبوذٍ لا يُلتفتُ إلَيهِ، وكَمْ وكَمْ مِن مُحْتَقَرٍ احتِيجَ إلَيْهِ، وإن لَمْ تقعِ الحَاجَةُ إلىٰ ذَلِكَ الشَّخْص فِي جَلبِ نَفعٍ وقعَتِ الحَاجَةُ فِي دَفعِ ضرَرٍ، ولَقَدِ احتجتُ فِي عُمرِي إلىٰ مُلاطَفةِ أَقْوَامٍ مَا خطَرَ لِي قطُّ وقُوعُ الحَاجَة إلىٰ التَّلطُّف بِهم.

واعلَمْ؛ أَنَّ المُظَاهَرَة بالعداوةِ قَدْ تجلبُ أذًىٰ من حَيثُ لا يُعلَمُ؛ لأَنَّ المُظاهِرَ بالعَداوَةِ كشَاهِرِ السَّيفِ ينتَظرُ مَضْرَبًا، وقَد يَلوحُ مَضْربٌ خفِيٌّ، وإنِ اجتهَدَ المُتدرِّعُ فِي سَترِ نَفْسِه، فيغتَنمهُ ذَلِكَ العدُوُّ.

فيَنْبغِي لمَنْ عاشَ فِي الدُّنْيَا أَنْ يجْتَهِد فِي ألَّا يُظاهِر بالعداوةِ أَحدًا؛ لِمَا بيَّنتُ مِن وُقوعِ احتِياجِ الخَلْق بعضِهم إلىٰ بعْضٍ، وإقدَارِ بعضِهم عَلَىٰ ضَرَر بَعضٍ.

وهَذَا فَصْلٌ مُفيدٌ، تَبينُ فَائدتُه للإِنْسَانِ معَ تقلُّب الزَّمَانِ.

فَصْل

رَأيْتُ النَّفْسَ تَنْظُرُ إلَى لذَّات أَرْبَاب الدُّنْيَا العَاجِلةِ وتنسَى كَيْفَ حُصِّلَتْ، ومَا يتضمَّنُها مِن الآفَاتِ

وبيانُ هذا: أَنَّكَ إنْ رَأيْتَ صَاحِبَ إمارةٍ وسلطنةٍ، فتَأمَّلتَ نِعْمَتَهُ وجَدْتَها مَشُوبةً بالظُّلْم، فَإن لَمْ يقْصِده هُوَ حَصلَ مِن عُمَّاله، ثُمَّ هُوَ خائفٌ مُنزعجٌ فِي كُلِّ أمُورِه، حَذِرٌ مِن عدوٍّ دُونَهُ أَنْ يُسِيئَهُ، قَلِقٌ مِمَّنْ هُوَ فوقَه أَنْ يَعزِلَه، ومِن نَظِيرِهِ أَنْ يَكيدَهُ.

ثُمَّ أكْثَر زَمانِه يمْضِي فِي خِدمةِ مَن يَخافُهُ مِن السَّلاطِين، وفِي حِسابِ أَمْوالِهم، وتنفيذِ أوَامرِهِم الَّتِي لا تَخلُو مِن أَشْيَاءَ مُنْكَرَة، وإنْ عُزِلَ أربَىٰ ذَلِكَ عَلَىٰ جَميعِ مَا نَالَ مِن لذَّةٍ، ثُمَّ تِلْكَ اللَّذَّةُ تكُونُ مَغْمُورَةً بالحَذَر فِيهَا ومِنْهَا وعَلَيْها.

وإنْ رَأيْتَ صَاحِبَ تِجارةٍ، رَأيْتَه قَدْ تقَطَّعَ فِي البلادِ، فَلم ينَلْ مَا نَالَ إلَّا بَعدَ عُلُوِّ السِّنِّ وذَهابِ زَمَانِ اللَّذَّة، كَمَا حُكِي أَنَّ رَجُلًا مِن أَوْلادِ الرُّؤساءِ، كَانَ حَالَ شَبِيبتِه فَقيرًا، فَلَمَّا كَبِرَ اسْتغنَىٰ، ومَلَكَ أَموَالًا، واشتَرىٰ عَبيدًا مِن التُّركِ وغيرِهِمْ، وجَوارِيَ مِن الرُّومِ، وَقَالَ هَذِهِ الأَبْياتِ فِي شَرْحِ حَالِه:

مَا كُنْتُ أَرْجُوهُ إِذْ كُنْتُ ابْنَ عِشْرِينَا ** مَلَكْتُـهُ بَعْـدَ أَنْ جَـاوَزْتُ سَـبْعِينَا
تَطُوفُ بِي مِنَ بَنِي الأَتْرَاكِ أَغْزِلَـةٌ ** مِثْـلَ الغُـصُونِ عَلَـىٰ كُثْبَـانِ يَبْرِينَـا
وَخُـرَّدٌ مِـنْ بَنَـاتِ الـرُّومِ رَائِقَـةٌ ** يَحْكِينَ بِالحُسْنِ حُورَ الجَنَّةِ العِينَا
يَغْمِزْنَنِـي بِأَسَـارِيعَ مُنَعَّمَـةٍ ** يَكَـادُ تُعْقَـدُ مِـنْ أَطْرَافِهَـا لِينَـا
يُـرِدْنَ إِحْيَـاءَ مَيْـتٍ لا حَـرَاكَ بِـهِ ** وَكَيْـفَ يُحْيِـينَ مَيْتًـا صَـارَ مَـدْفُونَا
قَـالُوا: أَنِينُـكَ طُـولَ اللَّيْـلِ يُـسْهِرُنَا ** فَمَا الَّذِي تَشْتَكِي؟ قُلْتُ: الثَّمَانِينَا!

فهَذِهِ الحَالةُ هِي الغَالِبة؛ فَإِنَّ الإنْسَان لَا يَكادُ يَجْتمعُ لَهُ كُلُّ مَا يُحبُّه إلَّا عِنْدَ قُربِ رَحِيلِهِ، فَإِنْ بَدَرَ مَا يحبُّ فِي بدايةِ شبابِهِ، فالصَّبوةُ مَانِعةٌ مِن فَهمِ التَّدبير فِي الالتِذاذِ، والإنْسَانُ فِي حَالَةِ الصَّبوةِ لا يَدرِي أيْنَ هُوَ، إلَّا أَنْ يبلُغَ، فَإِذَا بلغَ كَانَتْ همَّته فِي المنكُوحِ كيفَما اتُّفِقَ، فإنْ تزوَّجَ جَاءَ الأَوْلَادُ فمنَعُوه اللَّذَّةَ، وانْكَسَرَ فِي نَفْسِهِ، وافتقرَ إلىٰ الكَسبِ عَلَيهِم، فبينَما هُوَ قَدْ دَعَكَ فِي تِلْكَ المُدَيْدَةِ القَرِيبَةِ من الثَّلاثينَ، وَخَطَهُ الشَّيبُ، فانفرَقَ مِن نَفْسِه؛ لِعِلْمِه أَنَّ النِّسَاء يَنْفَرِقْنَ مِنْهُ.

كَمَا قَالَ ابنُ المُعتزِّ باللهِ:

لَقَـدْ أَتْعَبْـتُ نَفْـسِي فِـي مَـشِيبِي ** فَكَيْـفَ تُحِبُّنِـي الغِيـدُ الكَعَـابُ؟!

وهَكذَا؛ لا ترىٰ المُتمتِّعَ بالمُسْتَحْسَناتِ - إنْ وجدَهنَّ - لَمْ يجدْ مَالًا يبلُغُ بِهِ المُرَادَ، فإنِ اشتغلَ بجَمْعِ المَالِ ضاع زَمَنُ تَمَتُّعِهِ، وإِذَا تمَّ المَطْلُوبُ فالشَّيبُ أَقْبَحُ قذًىٰ وأعْظَم مُنغِّصٍ.

ثُمَّ إنَّ صَاحِبَ المَالِ خائفٌ عَلَىٰ مالِهِ، مُحاسِبٌ لمُعامِليه، مذمومٌ إنْ أَسرَفَ وإنْ قتَّر، وَلَدُهُ يَرْصُدُ موتَهُ، وجارِيتُهُ قَدْ لا ترضَىٰ شَخْصَه، وهُوَ مشغولٌ بحِفظِ

حَوَاشِيهِ، فَقَدْ مضَىٰ زَمانُه فِي مِحَنٍ، واللَّذَّاتُ فِيهَا خِلْسٌ مُعتادةٌ لا لَذَّةَ فيها، ثُمَّ فِي القِيامَةِ يُحشرُ الأميرُ والتَّاجرُ خَزَايا؛ إلَّا مَنْ عصَمَ اللهُ.

فإيَّاكَ إيَّاكَ أَنْ تَنْظُرَ إلىٰ صُورَة نعيمِهم؛ فإنَّكَ تَسْتَطِيبُهُ لبُعدِه عَنكَ، ولَوْ قَدْ بلَغتَه كرِهتَه، ثُمَّ فِي ضِمْنِه مِن مِحَنِ الدُّنْيَا والآخِرَةِ مَا لا يُوصَفُ، فعَلَيْكَ بالقَناعَةِ مَهما أمكَنْ، ففِيها سلامةُ الدُّنْيَا والدِّينِ، وقَد قِيلَ لبعضِ الزُّهَّادِ - وعندَهُ خُبْزٌ يابِسٌ -: كَيْفَ تَشتَهي هَذَا؟ فَقَالَ: أَترُكُهُ حَتَّىٰ أَشْتَهِيهِ.

۞ فَصْل ۞

وَقَعَ بَيني وَبَيْنَ أَرْبَابِ الوِلَايَاتِ نَوْعُ مُعَادَاةٍ لِأَجْلِ المَذْهَبِ

فَإنِّي كُنْتُ فِي مَجْلِس التَّذكيرِ، أَنْصُرُ: أَنَّ القُرْآن كلامُ اللهِ، وأَنَّهُ قديمٌ، وأُقَدِّمُ أبا بكْرٍ؛ واتَّفقَ فِي أَرْبَابِ الوِلاياتِ مَن يَميلُ إلىٰ مَذْهَب الأَشْعَرِيِّ، وفِيهِم مَن يَميلُ إِلَىٰ مَذْهَب الرَّوافِضِ، وتمَالؤوا عليَّ فِي البَاطِنِ.

فَقُلتُ يومًا فِي مُناجَاتِي للحقِّ ﷻ:

سيِّدِي؛ نَواصِي الكُلِّ بيدِكَ، ومَا فِيهِمْ مَن يَقْدِرُ لي عَلَىٰ ضُرٍّ؛ إلَّا أَنْ تُجريَهُ عَلَىٰ يَدِه، وأَنتَ قُلْتَ سُبحانَكَ: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وطيَّبتَ قلبِي المُبتلىٰ بقولِكَ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١].

فَإِنْ أجريتَ عَلَىٰ أَيدِي بعضِهِمْ مَا يُوجِبُ خُذلانِي كَانَ خَوفِي عَلَىٰ مَا نَصَرْتُهُ أَكْثَرَ مِن خَوفِي عَلَىٰ نَفْسِي؛ لِئلَّا يقالَ: لَوْ كَانَ عَلَىٰ حَقٍّ مَا خُذِلَ.

وإنْ نظرتُ إلىٰ تَقصِيري وذُنُوبي؛ فأنا مُستحقٌّ للخُذلانِ، غَيْرَ أنِّي أَعيشُ بِمَا نصَرتُهُ مِن السُّنَّةِ، فأدخِلنِي في خُفَارتِهِ، فاسْتَوْدَعَني إيَّاكَ خَلقٌ مِن صَالحِي عبَادِك، فَإنْ لَمْ تَحفظني بِي فاحفَظنِي بِهم.

سيِّدي؛ انصُرنِي عَلَىٰ مَن عَادَاني؛ فَإنَّهم لا يَعرفُونك كَمَا يَنبَغِي، وهُمْ مُعرِضُون عنكَ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ، وأنَا - عَلَىٰ تَقصِيري - إلَيْكَ أُنْسَبُ.

فَصْلٌ

رُوِي عَنْ الحلَّاج الصُّوفيِّ أَنَّهُ كَانَ يقعدُ فِي الشَّمْسِ فِي الحَرِّ الشَّدِيدِ، وعَرَقُه يَسِيلُ، فجازَ بَعْضُ العقْلاءِ، فَقَالَ لَهُ: يَا أَحْمَقُ، هَذَا تَقاوٍ عَلَى اللهِ تَعَالَى

ومَا أحْسَنَ مَا قَالَ هذا! فإنَّهُ مَا وَضَعَ التَّكليفَ إلَّا عَلَىٰ خِلافِ الأَغْرَاضِ، وقَد يُحْرَجُ صَاحِبُهُ إلىٰ أَنْ يعْجَزَ عَن الصَّبْرِ، فالجَاهِلُ الأَحْمَقُ من يتقاوَىٰ، أوْ مَنْ يَسْأَلُ البَلاءَ؛ كَمَا قَالَ ذَلِكَ الأبلهُ: فَكَيفَمَا شِئتَ فاخْتَبِرْني.

والسَّعيدُ مَن ذَلَّ للهِ، وسَأَلَ العَافِيَةَ؛ فإنَّه لا يُوهبُ العَافِيَةَ عَلَىٰ الإطلاقِ؛ إذْ لا بُدَّ مِن بلاءٍ، فلا يَزَالُ العَاقِل يَسْأَلُ العَافِيَة؛ لتَغلِبَ عَلَىٰ جُمْهُور أَحْوَالِهِ، فيُقربُ الصَّبْر عَلَىٰ يَسيرِ البَلاءِ.

وفي الجُمْلَة؛ يَنْبَغِي للإنْسَانِ أَنْ يَعلَم أَنَّهُ لا سَبيلَ إلىٰ مَحبُوبَاتِه خَالصَةً، فَفِي كُلِّ جُرْعَةٍ غُصَصٌ، وفي كُلِّ لُقمَةٍ شَجًا:

وَكَمْ مَنْ يَعْشَقُ الدُّنْيَا قَدِيمًا ** وَلَكِنْ لا سَبِيلَ إِلَىٰ الوِصَالِ

وعَلَىٰ الحَقِيقَةِ؛ مَا الصَّبْرُ إلَّا عَلَىٰ الأَقْدَارِ، وقَلَّ أَنْ تجرِي الأَقْدَارُ إلَّا عَلَىٰ خِلافِ مُرَادِ النَّفْسِ؛ فالعَاقِل مَن دَارَىٰ نَفْسَه فِي الصَّبْر بوعدِ الأجرِ، وتَسْهيلِ الأَمْرِ؛ ليذهبَ زَمَانُ البَلاءِ سَالمًا من شَكوَىٰ، ثُمَّ يَستَغِيثُ بالله تَعَالَىٰ سَائلًا العَافِيَةَ، فأَمَّا المُتجلِّدُ؛ فَمَا عَرفَ اللهَ قطُّ، نَعُوذُ باللهِ مِن الجَهْل بِهِ، ونسألَهُ عِرفَانَه؛ إِنَّهُ كريمٌ مُجيبٌ.

فَصْلٌ

الجَادَّةُ السَّلِيمَةُ والطَّرِيقُ القَويمةُ: الاقْتِدَاءُ بصَاحِبِ الشَّرْع، والبِدَارِ إلى الاستِنانِ بِهِ، فَهُو الكَامِلُ الَّذِي لا نَقصَ فِيهِ

فَإِنَّ خَلقًا كثيرًا انحرَفُوا إلىٰ جادَّةِ الزُّهْدِ، وحَمَلُوا عَلَىٰ أَنْفُسهم فَوْقَ الجَهدِ، فأفاقُوا فِي أواخِر العُمرِ، والبَدَنُ قَدْ نحلَّ، وفاتَتْ أمورٌ مُهمَّةٌ من العِلْم وغيرِه.

وإنَّ أَقْوَامًا انحرَفوا إلىٰ صُورَة العِلْم، فبالغُوا فِي طلَبه، فأفاقُوا فِي آخرِ قدم، وقَد فَاتَهم العَمَلُ بِهِ.

فطَريقُ المُصطَفىٰ ﷺ العِلْمُ والعَمَلُ، والتَّلطُّفُ بالبَدَنِ؛ كَمَا أَوْصَىٰ عَبْدَ الله بْنَ عَمْرٍو، وقَالَ لَهُ: «**إنَّ لنَفْسِكَ عَلَيْك حَقًّا، ولزَوجِكَ عَلَيْك حَقًّا**»[1].

فهَذِهِ هي الطَّرِيقُ الوُسطَىٰ والقولُ الفَصْلُ، فأَمَّا اليُبْسَ المُجرَّد؛ فكَمْ فوَّتَ من عِلمٍ، لَوْ حُصِّلَ نِيلَ بِهِ أكْثَر مِمَّا نِيلَ بالعَمَل، فَإِنَّ مَثلَ العَالِم كرَجلٍ يعرِفُ الطَّرِيقَ،

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (١٣٦٩)، وأحمد (٢٦٣٠٨) من حديث عائشة. والدارمي (٢١٦٩) من حديث سعد بن أبي وقاص. والترمذي (٢٤١٣)، وابن خزيمة (٢١٤٤) من حديث أبي جحيفة. وأحمد (٦٨٧٨) والحاكم (٦٩٠٠) من حديث عبد الله بن عمرو.

والعَابِدُ جَاهِلٌ بِها، فيمشي العَابِدُ مِن الفَجرِ إلىٰ العَصرِ، ويقُومُ العَالِمُ قُبيلَ العَصرِ، فيَلتقِيان وقَد سبَقَ العَالِمُ فضْلَ شَوطِه.

فَإن قَالَ قَائِلٌ: بيِّن لِي هَذا.

قُلْتُ: صُورَةُ التَّعبُّد خِدمةٌ للهِ تَعَالَىٰ، وذلٌّ لَهُ، ورُبَّما لَمْ يطَّلع العَابِدُ عَلَىٰ مَعْنَىٰ تِلْكَ الصُّورَة؛ لأنَّهُ رُبَّمَا ظنَّ أَنَّهُ أَهْلٌ لوجُود الكَرَامَة عَلَىٰ يدِه، أوْ أَنَّهُ يَستحقُّ تقبيلَ يَدِه، أوْ أَنَّهُ خيرٌ مِن كَثِيرٍ مِن النَّاسِ، وذَلِكَ كُلُّه لقِلَّة العِلْمِ؛ وأعنِي بالعِلْم فَهْم أُصُول العِلْم، لا كَثرَةَ الرِّوايةِ ومُطالعَةِ مَسائلِ الخِلافِ.

فَإذَا طَالعَ العَالِمُ الأُصُوليُّ سبقَ هَذَا العَابِدَ بحُسن خُلُقٍ، ومُداراةِ النَّاس، وتوَاضُعِهِ فِي نَفْسهِ، وإرشَادهِ الخَلْقَ إلىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، فيعسُر هَذَا عَلَىٰ العَابِد، وهُوَ فِي ليلِ جَهلِه بالحَالِ راقِدٌ.

ورُبَّمَا تزوَّجَ العَابِدُ، ثُمَّ حملَ نَفْسهُ عَلَىٰ التَّجفُّف، فحبَسَ زَوجَتهُ عَنْ مَطْلُوبها، ولَمْ يطَلِّقهَا، وصَارَ كالَّتي حبَستِ الهِرَّةَ؛ فَلا هي أطعمَتهَا، ولا هي أرسَلتْها تأكُل من خشَاشِ الأَرْضِ.

ومنْ تأمَّل حَالَةَ الرَّسُولِ ﷺ؛ رَأَىٰ كاملًا مِن الخَلْق، يُعطِي كُلَّ ذِي حَقٍّ حقَّهُ، فتارةً يمزَحُ، ويضحكُ، ويُداعبُ الأطفالَ، ويسمعُ الشِّعرَ، ويتكلَّمُ بالمَعارِيض، ويُحسِنُ مُعاشَرةَ النِّسَاء، ويأكُل مَا قدَرَ عَليهِ وأتِيحَ لَهُ وإنْ كَانَ لذِيذًا كالعسَلِ[1] والدَّجَاج[2]،

---

(١) صحيح: أخرج البخاري (٥٤٣١)، ومسلم (١٤٧٤) من حديث عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٤٣٨٥، ٥٥١٧)، ومسلم (١٦٤٩) من حديث أبي موسىٰ.

ويُستَعذَبُ لَهُ المَاءُ[١]، ويُفرشُ لَهُ فِي الظِّلِّ[٢]، ولَمْ يُنكِرِ ذَلِكَ.

ولَمْ يُسمَع عَنْهُ مَا حَدَثَ بعدَه مِن جُهَّال المُتصوِّفَة والمُتزَهِّدينَ؛ مِنْ مَنْعِ النَّفْسِ شَهواتِها عَلَىٰ الإطلاقِ؛ فَقَدْ كَانَ يأكلُ البِطِّيخَ بالرُّطَبِ[٣]، ويقَبِّلُ[٤]، ويمُصُّ اللِّسَانَ[٥]، ويطلُبُ المُستحسَناتِ.

فأَمَّا أكلُ خُبزِ الشَّعيرِ، ووَزْنُ المَأكُولِ، وتَجفِيفُ البَدَنِ، وهَجرُ كُلِّ مُشتَهًىٰ؛ فإِنَّه تَعذيبٌ للنَّفس، وهدمٌ للبدنِ، لا يَقْتَضِيه العَقل، ولا يَمدحهُ شرعٌ، وإنَّمَا اقتنعَ أَقْوَامٌ بالقليلِ لأسْبَابٍ؛ مثل أَنْ حَدَثَتْ شُبهَةٌ فتقلَّلُوا، أوِ اختَلطَ طعامٌ بطَعَامٍ فتورَّعُوا.

ثُمَّ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يوفِّي العِبادَةَ حقَّها بقِيامِ اللَّيْلِ، والاجْتِهَادِ فِي الذِّكرِ.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٠٣٨) من حديث أبي هريرة. وأبو داود (٣٧٣٥) من حديث عائشة.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣٦١٥)، ومسلم (٢٠٠٩) من حديث البراء بن عازب.

(٣) صحيح: أخرجه من حديث عائشة: أبو داود (٣٨٣٦)، والترمذي (١٨٤٣) وقال: حديث حسن. وفي «الشمائل» (١٩٨، ٢٠٠) وقال ابن حجر في «فتح الباري» (٩/ ٤٨٦): «إسناده صحيح». وأخرجه من حديث سهل بن سعد: ابن ماجه (٣٣٢٦). وأخرجه من حديث أنس: أحمد (١٢٤٤٩، ١٢٤٦٠)، والترمذي في «الشمائل» (١٩٩)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٦٦٩٢) وقال ابن حجر في «فتح الباري» (٩/ ٤٨٥): «إسناده صحيح».

(٤) صحيح: أخرج البخاري (١٩٢٧)، ومسلم (١١٠٦) عن عائشة، قالت: كان النبي ﷺ يقبل ويباشر وهو صائم، وكان أملككم لإربه.

(٥) صحيح: أخرج أحمد (١٦٨٤٨) عن معاوية، قال: رأيت رسول الله ﷺ يمص لسانه - أو قال: شفته -، يعني الحسن بن علي. وأما لأزواجه فلا يصح؛ أخرج أبو داود (٢٣٨٦) وضعفه، وابن خزيمة (٢٠٠٣)، وأشار إلىٰ ضعفه، عن عائشة أن النبي ﷺ كان يقبلها وهو صائم، ويمص لسانها. وضعفه ابن حجر في «فتح الباري» (٤/ ١٥٣).

فعَلَيْكَ بطريقَتِه الَّتِي هي أكمَلُ الطُّرُقِ، وبشِرعَتِهِ الَّتِي لا شَوْبَ فيها، ودَعْ حَدِيثَ فُلانٍ وفُلانٍ مِن الزُّهَّادِ، واحمِلْ أَمرَهُم عَلَىٰ أَحْسَنِ مَحْمَلٍ، وأَقِمْ لَهُم الأَعذَارَ مهمَا قَدَرْتَ، فَإِنْ لَمْ تجِدْ عُذرًا فهُمْ مَحجُوجُونَ بفِعلِه؛ إذْ هُوَ قُدوةُ الخَلْقِ، وسيِّدُ العُقَلاءِ، وهَلْ فسَدَ النَّاسُ إلَّا بالانحِرافِ عَنْ الشَّرِيعَةِ؟!

ولَقَدْ حدَثَتْ آفاتٌ مِن المُتصوِّفَةِ والمُتزَهِّدينَ، خرَقُوا بِهَا شَبكةَ الشَّرِيعَةِ وغَيَّرُوا:

فمِنْهُم: مَن يدَّعي المَحبَّة والشوقَ، ولا يعرفُ المحبُوبَ، فتراهُ يصِيحُ ويَستَغِيثُ، ويُخَرِّقُ ثيابَه، ويخرجُ عَنْ حدِّ الشَّرْعِ بدَعْوَاه ومَضْمُونِها.

ومِنْهُم: من حمَلَ عَلَىٰ نَفْسهِ بالجُوعِ والصَّوْمِ الدَّائم، وقَد صَحَّ عَن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لعَبْدِ الله بْنِ عَمْرو: «صُم يَومًا وأَفطِرْ يَومًا»، فَقَالَ: أريدُ أفْضَل مِن ذَلِكَ. فَقَالَ: «لا أفضَلَ»(١).

وفِيهِم: من خَرَجَ إلىٰ السِّياحةِ، فأفَاتَ نَفْسَه الجمَاعَة.

وفِيهِم: من دفنَ كتُبَ العِلْم، وقعدَ يُصلِّي ويصومُ، ولَمْ يعلَمْ أَنَّ دفنَها خطأٌ قَبِيحٌ؛ لأَنَّ النَّفْسَ تَغْفَلُ وتحتاجُ إلىٰ التَّذكيرِ فِي كُلِّ وقتٍ، ونِعمَ المذَكِّرُ كُتبُ العِلْم.

وإنَّمَا دخلَ إبْلِيسُ عَلَىٰ كُلِّ قَوْمٍ مِنهُم من حَيثُ قَدَر، وكَانَ مَقْصُودُه بدَفْنِ الكُتُبِ إطفَاءَ المِصْبَاح، ليسيرَ العَابِد فِي الظُّلْمَة.

وما أحسنَ مَا قَالَ بَعْضُ العُلَمَاءِ لرَجُلٍ سأَلَه، فَقَالَ: أُريدُ أَنْ أمضِيَ إلىٰ جَبَلِ الآكَامِ. فَقَالَ: هَذِهِ هَرْكَلَةٌ. وهَذِهِ كَلِمَة عامِّيَّةٌ، معناها حبُّ البطالةِ.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٩٧٦، ٣٤١٨)، ومسلم (١١٥٩) من حديث عبد الله بن عمرو.

وعَلَىٰ الحَقِيقَة: الزُّهَّادُ فِي مقام الخَفافِيشِ، قَدْ دفَنُوا أنْفُسَهم بالعُزلَة عَنْ نفعِ النَّاس، وهي حَالَةٌ حسَنةٌ إِذَا لَمْ تمنعْ عَن خَيرٍ؛ مِنْ جَماعة، واتِّبَاعِ جِنازةٍ، وعيادةِ مريضٍ؛ إلَّا أنَّهَا حَالَةُ الجُبناءِ، فأَمَّا الشُّجعانُ؛ فهُم يتعلَّمونَ ويُعلِّمُونَ، وهي مقَاماتُ الأنْبِيَاء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

أتَرَىٰ كمْ بينَ العَابِد إِذَا نَزلَت بِهِ حادِثةٌ وبينَ الفَقيهِ؟! تاللهِ؛ لَوْ مَالَ الخَلْقُ إلَىٰ التَّعبُّد لضَاعَتِ الشَّرِيعَةُ، عَلَىٰ أَنَّهُ لَوْ فَهِمَ مَعْنَىٰ التَّعبُّدَ لَمْ يَقتصِرْ بِهِ عَلَىٰ الصَّلاةِ والصَّوْمِ، فرُبَّ مَاشٍ فِي حَاجَةِ مُسلمٍ فَضُلَ تَعبُّدُه ذَلِكَ عَلَىٰ صَومِ سَنةٍ، والعَمَل بالبَدَن سَعْيُ الآلاتِ الظَّاهِرة، والعِلْم يَحْصُل بسَعْيِ الآلاتِ البَاطِنة؛ من العَقْلِ والفِكرِ والفهمِ؛ فلِذَلِكَ كَانَ أشرَفَ.

فإنْ قُلْتَ لِي: كَيْفَ تَذُمُّ المعتَزلِينَ للشَّرِّ، وتَنفي عَنْهُم التَّعبُّد؟!

قُلْتُ: مَا أَذُمُّهم، بَلْ حَدَثَتْ مِنهُم حَوادِثُ اقتضَاها الجَهْلُ مِن الدَّعَاوىٰ والآفاتِ الَّتِي سببُها قِلَّةُ العِلْم، وحَملُوا عَلَىٰ أَنْفُسهم الَّتِي لَيسَتْ لَهُمْ، وعَنْ غَيْر إذنِ الآمِرِ، مَا لَمْ يُجزْ؛ حَتَّىٰ إِنَّ أحدَهم يَرَىٰ أَنَّ فِعلَ مَا يُؤذِي النَّفْسَ عَلَىٰ الإطلاقِ فَضِيلَةٌ، وحتىٰ قَالَ بَعْضُ الحَمقَىٰ: دخلتُ الحمَّام فوَجَدتُ غَفْلَةً، فآليتُ ألَّا أَخْرُجَ حَتَّىٰ أُسَبِّح كذا وكذا تَسبيحةً، فطالَ الأَمْر، فمَرِضْتُ. وهَذَا رَجُلٌ خاطَرَ بنَفْسهِ فِي فِعْلِ مَا لَيسَ لَهُ.

ومِنَ المُتصوِّفَة والزُّهَّاد مَن قَنعَ بصُورةِ اللِّبَاس، وركِبَ مِن الجَهْل فِي البَاطِنِ مَا لا يَسَعُهُ كِتابٌ، طهَّرَ اللهُ الأَرْضَ منهم، وأَعانَ العُلَماءَ عَلَيهِم؛ فَإِنَّ أَكْثَر الحَمقَىٰ معَهُم، فلَوْ أنكرَ عَالِمٌ عَلَىٰ أحدِهم مَالَ العَوامُّ عَلَىٰ العَالِم بقوَّة الجَهْل.

ولَقَدْ رَأيْتُ كثيرًا مِن المُتعبِّدينَ - وهُوَ فِي مَقام العَجائزِ - يُسبِّح تسبيحاتٍ لا يَجُوزُ النُّطقُ بِها، ويفعلُ فِي صَلاتهِ مَا لَمْ تردْ بِهِ السُّنَّةُ.

ولَقَدْ دخلتُ يومًا عَلَىٰ بَعْضِ مَن كَانَ يتعبَّدُ، وقَدْ أقامَ إمامًا وهُوَ خلفَه فِي جَمَاعَةٍ يُصلِّي بِهِم صَلاةَ الضُّحَىٰ ويجهرُ، فَقُلتُ لهُمْ: إنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**صَلاةُ النَّهار عَجمَاءَ**»(١)، فغضبَ ذَلِكَ الزَّاهِدُ، وقَالَ: كمْ يُنكِر هَذَا عَلَينَا، قَد دَخلَ فُلانٌ وأنْكرَ، فُلانٌ وأنْكر، نحنُ نرفعُ أصواتَنا حَتَّىٰ لا ننام. فقُلْت: وا عَجَبًا! ومَن قَالَ لكم: لا تَناموا؟ أليسَ فِي «الصَّحِيحين» من حَدِيث ابن عَمْرو، أَن النَّبِيَّ ﷺ قَالَ له: «**قُمْ ونَمْ**»(٢)، وقَد كَانَ رَسُول اللهِ ﷺ ينام، ولعلَّه مَا مضتْ عَلَيهِ ليلةٌ إلَّا ونامَ فيها.

ولَقَدْ شاهدتُ رجلًا كَانَ يُقَال لَهُ حُسينٌ القَزوينيُّ بجامِعِ المَنصُور، وهُوَ يَمشِي فِي الجامعِ مَشيًا كثيرًا دَائمًا، فسأَلتُ: مَا السَّبَب فِي هَذَا المشْي؟ فقِيلَ لي: حَتَّىٰ لا يَنامُ.

وهَذِهِ كُلُّها حماقاتٌ أوْجَبَها قِلَّةُ العِلْم؛ لأنَّهُ إِذَا لَمْ تَأخذِ النَّفْسُ حظَّها مِن النَّوْمِ اختلَطَ العَقْلُ، وفَاتَ المُرَادُ مِن التَّعبُّد؛ لبُعدِ الفَهمِ.

ولَقَدْ حَدَّثنِي بَعْضُ الصَّالِحِين المُجاورِينَ بجَامِع المَنصورِ، أَن رَجُلًا كان اسمُه كَثِيرٌ دخَلَ عَلَيهِم الجَامِعَ، فَقَالَ: إِنِّي عاهدتُ الله عَلَىٰ أمرٍ ونقَضْتُه، وقَد جعلت عُقُوبتي لنَفسِي أنْ لَا آكُلَ شَيئًا أَرْبَعِين يَومًا. قَالَ: فما مكث مِنهَا عشرة أيام قَرِيب الحَال يُصلِّي فِي جماعة، ثُمَّ فِي العَشرِ الثَّاني بانَ ضعفُه، وكَانَ يُداري الأمرَ،

---

(١) **لا أصل له**: قال النووي في «المجموع» (٣/ ٣٨٩): «هذا الحديث باطل غريب لا أصل له». وقال أيضًا (٣/ ٤٦): «قال الدارقطني وغيره من الحفاظ: هذا ليس من كلام النبي ﷺ يرو عنه، وإنما هو قول بعض الفقهاء. قال الشيخ أبو حامد: وسألت عنه أبا الحسن الدارقطني، فقال: لا أعرفه عن النبي ﷺ صحيحًا ولا فاسدًا».

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (١٣٦٩)، وأحمد (٢٦٣٠٨) من حديث عائشة. والدارمي (٢١٦٩) من حديث سعد بن أبي وقاص. والترمذي (٢٤١٣)، وابن خزيمة (٢١٤٤) من حديث أبي جحيفة. وأحمد (٦٨٧٨) والحاكم (٦٩٠٠) من حديث عبد الله بن عمرو.

ثُمَّ صَارَ فِي العَشرِ الثَّالث يُصلِّي قَاعِدًا، ثُمَّ استطرحَ فِي العَشرِ الرَّابع، فَلَمَّا تمَّت الأربعونَ جِيءَ بنقُوعٍ فشَربهُ، فسَمعْنا صوتَهُ فِي حَلقِه مثل مَا يَقَع المَاءُ عَلَىٰ المقْلاةِ، ثُمَّ مَاتَ بَعدَ أَيَّامٍ.

فقُلْت: يَا الله العَجبُ، انظرُوا مَا يفعلَ الجَهْلُ بأهلِه، ظاهرُ هَذَا أَنَّهُ فِي النَّار، إلَّا أَنْ يَعْفُوَ اللهُ عَنْهُ، ولَوْ فهمَ العِلْم أو سألَ العُلَمَاء لعرَّفوه أَنَّهُ يجبُ عَلَيهِ أَنْ يأكُلَ، وأنَّ مَا فعلَهُ بنَفْسهِ حَرَامٌ، ولَكِنَّ مِن أعْظَم الجَهْلِ استبدادُ الإنْسَانِ بعِلمِهِ.

وكلُّ هَذِهِ الحوادِث نَشَأَتْ قَليلًا قَليلًا حَتَّىٰ تمكَّنَتْ، فأَمَّا الشَّرْبُ الأَوَّل فَلم يَكُنْ فِيهِ مِن هَذَا شَيْءٌ، ومَا كَانَتْ الصَّحَابَة تفعل شَيئًا من هَذِهِ الأشْيَاء، وقَد كَانُوا يُؤْثِرُونَ ويَأْكلُونَ دُونَ الشِّبَع، ويصبرُون إِذَا لَمْ يَجدُوا.

فمَنْ أرادَ الاقْتِدَاءَ؛ فعلَيهِ برَسُولِ اللهِ ﷺ وأصْحَابه، ففِي ذَلِكَ الشِّفاءُ والمَطْلُوبُ، ولا يَنْبغِي أَنْ يخلد العَاقِل إلىٰ تَقليدِ مُعظَّم شاعَ اسمُه، فيقُولُ: قَالَ أَبُو يزيد، وقَالَ الثَّورِيُّ؛ فَإِنَّ المُقلِّدَ أَعْمَىٰ، وكَمْ قَدْ رَأينا أَعْمَىٰ يأنفُ مِن حَملِ عَصا، فمَنْ فَهِمَ هَذَا المُشارُ إِلَيْهِ طلَبَ الأفْضَل والأعلَىٰ. واللهُ المُوفِّق.

* * *

فصْل

تَأمَّلتُ الدَّخَل الَّذِي دَخَلَ فِي دِينِنا مِن نَاحيَتَي العِلْم والعَمَل فرَأَيْتهُ مِن طَريقَيْن قَدْ تقدَّما هَذَا الدِّينَ، وأَنِسَ النَّاسُ بِهِمَا

فأَمَّا أصلُ الدَّخلِ فِي العِلْم والاعْتقَادِ؛ فمِنَ الفَلسَفةِ، وهُوَ أَنَّ خَلْقًا مِن العُلَمَاءِ فِي دِيننا لَمْ يَقنَعُوا بمَا قَنعَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِلمُسْلمينَ مِن الانعِكافِ عَلَىٰ الكِتَاب والسُّنَّةِ، فأوغَلُوا فِي النَّظَرِ فِي مذاهبِ أَهْل الفلسفة، وخاضوا فِي الكَلام الَّذِي حَمَلهم عَلَىٰ مذاهبَ رَدِيَّةٍ، أفسدُوا بِهَا العقَائدَ.

وأمَّا أصل الدَّخل فِي بَاب العَمَل؛ فمن الرَّهبانيَّة؛ فَإِنَّ خلقًا مِن المُتزهِّدينَ أَخَذوا عَن الرُّهبانِ طَرِيقَ التَّقشُّفِ، ولَمْ ينظروا فِي سِيرِ نبيِّنا ﷺ وأصْحَابه، وسَمِعُوا ذمَّ الدُّنْيَا، ومَا فَهِمُوا المَقصُودَ، فاجتمع لَهُم الإعْرَاضُ عَنْ عِلم شَرعنَا مَعَ سُوءِ الفَهمِ للمَقْصُودِ، فَحَدَثَتْ مِنهُم بِدَعٌ قَبيحةٌ.

فأوَّل مَا ابتدأ بِهِ إبْلِيسُ؛ أَنَّهُ أَمَرَهُم بالإعْرَاض عَن العِلْم، فدفنُوا كُتبَهم وغَسَلُوها، وألزَمَهم زاويَةَ التَّعبُّد فِيمَا زَعَم، وأَظْهَر لَهُم مِن الخُزَعبلاتِ مَا أَوْجَبَ إقبالَ العَوامِّ عَلَيهِم، فجعلَ إلهَهُم هَواهُم، ولَوْ عَلمُوا أَنَّهُمْ مُنذُ دَفَنوا كُتُبَهُم، وفَارَقُوا العِلْم انطَفأ مِصْبَاحُهُم؛ مَا فَعلُوا، لكنَّ إبْلِيس كَانَ دَقِيق المَكْر يَوْمَ جَعَل عِلْمَهُم فِي دفينٍ تَحْتَ الأَرْضِ.

وبالعِلْم يُعلم فَسَاد الطَّرِيقين، ويُهتدىٰ إلىٰ الأصوَبِ. نَسْأَلُ الله ﷻ أَنْ لا يَحرِمنَا إيَّاهُ؛ فإنَّه النُّورُ فِي الظُّلَمِ، والأنِيسُ فِي الوَحدَةِ، والوَزيرُ عِنْدَ الحَادِثَةِ.

۞ فَصْلٌ ۞

أعُوذُ باللهِ مِن صُحْبَةِ البَطَّالِينَ

لَقَدْ رَأيْتُ خَلقًا كثيرًا يَجْرُونَ مَعي فِيمَا قَدِ اعتَادَه النَّاسُ من كَثرَة الزِّيارَةِ، ويُسمُّونَ ذَلِكَ التَّردُّد خدمةً، ويُطيلُون الجلوسَ ويُجرُونَ فِيهِ أَحَادِيثَ النَّاس، ومَا لا يَعنِي، ويتَخلَّلهُ غِيبَةٌ.

وهَذَا شَيْءٌ يفعله فِي زَمانِنا كَثِيرٌ مِن النَّاس، ورُبَّما طَلَبه المَزُورُ، وتَشَوَّق إلَيْهِ، واستوحَشَ مِن الوَحْدَةِ، وخُصُوصًا فِي أَيَّام التَّهانِي والأَعْيادِ، فَتراهُم يَمشِي بعضُهم إلىٰ بعضٍ، ولا يَقتصِرُون عَلَىٰ الهناء والسَّلامة بَلْ يمزِجُون ذَلِكَ بِمَا ذكرتُهُ مِن تَضْييعِ الزَّمَانِ.

فلمَّا رَأيْتُ أَنَّ الزَّمَانَ أَشرَفُ شَيْءٍ، والواجبُ انتهابُه بفِعل الخَيْر؛ كرِهتُ ذَلِكَ، وبقِيتُ مَعَهُم بينَ أَمْرَينِ: إنْ أنكرْتُ عَلَيهِم وقَعَتْ وَحْشَةٌ؛ لمَوضعِ قطْعِ المَألُوفِ، وإنْ تقبَّلْته مِنهُم ضَاعَ الزَّمَانُ.

فَصِرتُ أُدافِعُ اللِّقاءَ جَهدِي، فَإذَا غُلبْتُ قَصَرْتُ فِي الكَلام لأتعجَّلَ الفِرَاقَ، ثُمَّ أَعْدَدْتُ أَعمالًا لا تَمنَع مِن المُحادَثَةِ لأوقاتِ لِقائِهم؛ لِئلَّا يَمضِي الزَّمَانُ فارغًا، فجعلتُ مِن المُسْتَعَدِّ للقَائِهم قَطْعَ الكَاغدِ وبَرْيَ الأقْلامِ، وحَزْمَ الدَّفاتِر؛ فَإِنَّ هَذِهِ الأَشْياء لا بُدَّ منها، ولا تَحْتاجُ إلىٰ فِكْرٍ وحُضُورِ قَلبٍ؛ فأَرْصَدتُها لأوقاتِ زيارَتِهم؛ لِئلَّا يَضيعَ شَيْءٌ مِن وقْتِي، نَسْألُ اللهَ ﷻ أَنْ يُعرِّفنا شرَفَ أوقَاتِ العُمرِ، وأنْ يوفِّقَنا لاغتنَامِه.

ولَقَدْ شاهدتُ خَلقًا كثيرًا، لا يعرِفُون مَعْنَىٰ الحَيَاةِ. فمِنهُم: من قدْ أَغْناهُ اللهُ عَن التَّكسُّب بكثرةِ مالِهِ، فَهُو يَقعُد فِي السُّوق أَكْثَر النَّهَارِ، وينظُرُ إلىٰ النَّاسِ، وكَمْ تَمرُّ بِهِ مِن آفةٍ ومُنْكَرٍ. ومنهُمْ: مَن يَخْلُو بلَعِبِ الشِّطْرَنْج. ومنْهُم: مَنْ يقطَعُ الزَّمَان بِذِكْرِ الحَوادِث مِن السَّلاطِين والغَلاءِ والرُّخصِ، إلىٰ غَيْر ذَلِكَ.

فعلِمتُ أَنَّ اللهَ تَعالَىٰ لَمْ يُطْلِعْ عَلَىٰ شَرفِ العُمرِ ومَعْرِفَةِ قَدرِ أوقَاتِ العَافِيَةِ إلَّا مَن وفَّقهُ وأَلْهمهُ اغتنَامَ ذَلِكَ، ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥].

❁ فَصْل ❁

رَأَيْتُ مِن الرَّأْيِ القَويمِ أَنَّ نَفْعَ التَّصَانِيفِ أَكْثَرُ مِن نَفْعِ التَّعلِيمِ بِالمُشَافَهَةِ

لِأنِّي أُشَافِهُ فِي عُمُرِي عَدَدًا مِن المُتَعَلِّمِينَ، وأُشَافِهُ بتَصْنِيفِي خَلْقًا لا تُحْصَىٰ، مَا خُلِقوا بَعْدُ. ودَلِيلُ هَذَا: أَنَّ انْتِفاع النَّاس بتصانيفِ المُتقدِّمين أكْثَر مِن انتِفاعِهِم بِمَا يَستفيدُونه مِن مَشايخِهِم.

فيَنْبغِي للعَالِم أَنْ يتوفَّر عَلَىٰ التَّصانيفِ إنْ وفِّقَ للتَّصنيفِ المُفيدِ، فإنَّه لَيسَ كُلُّ مَن صَنَّفَ صنَّف، ولَيْسَ المَقصُودُ جَمْعَ شَيْءٍ كَيْفَ كانَ، وإنَّمَا هي أَسْرارٌ يُطلِعُ اللهُ ﷻ عَليْهَا مَن شَاءَ من عِبادِه، ويوفِّقهُ لكشفِهَا، فيَجمعُ مَا فُرِّقَ، أوْ يُرتِّبَ مَا شُتِّتَ، أوْ يَشْرَحُ مَا أُهمِلَ؛ هَذَا هُوَ التَّصنيفُ المُفيد.

ويَنْبغِي اغتِنَامُ التَّصنيفَ فِي وسَطِ العُمرِ؛ لأَنَّ أوائلَ العُمرِ زَمَنُ الطَّلَب، وآخِرهُ كَلالُ الحَواسِّ، ورُبَّما خانَ الفَهمُ والعَقْلُ مَن قَدَّرَ عُمُرَهُ، وإنَّمَا يَكُونُ التَّقديرُ عَلَىٰ العَاداتِ الغَالِبة؛ لأَنَّهُ لا يَعلَم الغَيبَ، فيَكُونُ زَمَان الطَّلَب والحفظِ والتَّشَاغُلِ إلىٰ الأَرْبَعِينَ، ثُمَّ يبتدئُ بَعدَ الأَرْبَعِين بالتَّصانِيف والتَعلِيم.

هَذَا إِذَا كَانَ قَدْ بلغَ مَا يُرِيدُ مِن الجَمعِ والحِفظِ، وأُعِينَ عَلَىٰ تَحصيلِ المَطالِب، فأَمَّا إذَا قَلَّتِ الآلاتُ عِنْده مِن الكُتُب، أوْ كَانَ فِي أَوَّلِ عُمرِه ضَعيفَ الطَّلَب، فَلم يَنَلْ مَا يُريدُه فِي هَذَا الأوانِ؛ أَخَّر التَّصانيف إلىٰ تمام خَمسينَ سَنَة، ثُمَّ ابتدَأَ بَعدَ الخَمسِينَ فِي التَّصنيفِ والتَّعلِيم إلىٰ رأسِ السِّتِّين، ثُمَّ يزيدُ فِيمَا بَعدَ السِّتِّين فِي التَّعلِيم، ويُسمِعُ الحَدِيثَ والعِلْمَ، ويعَلِّل التَّصَانِيف إلىٰ أَنْ يَقَع فهمٌ إلىٰ رأسِ السَّبعينَ، فَإذَا جاوزَ السَّبعينَ جعَلَ الغَالِبَ عَلَيهِ ذِكرَ الآخِرَةِ والتَّهيُّؤ للرَّحيل، فيوفِّر نَفْسَه عَلَىٰ نَفْسهِ إلَّا مِن تَعلِيم يحتسبه، أوْ تصنيفٍ يفتقرُ إلَيْهِ، فذَلِكَ أَشْرَفُ العُدَد للآخِرةِ.

ولْتكُن هِمَّتُه فِي تَنظيفِ نَفْسه، وتَهذِيبِ خِلالِه، والمُبالغةِ فِي استِدراكِ زلَّاتِه، فَإنِ اختُطِفَ فِي خِلالِ مَا ذكرْنَا فنِيَّةُ المُؤمِن خيرٌ مِنْ عَملِه، وإنْ بلغَ إلىٰ هَذِهِ المَنازلَ فَقدْ بيَّنَّا مَا يصلُحُ لكُلِّ مَنْزِلٍ.

وقَدْ قَالَ سُفيَان الثَّورِيُّ: من بلغ سن رَسُول اللهِ ﷺ فليتَّخذ لنَفْسهِ كَفَنًا، وقَد بلغَ جَمَاعَةٌ من العُلَمَاء سَبعًا وسبعينَ سنَةً، مِنهُم أَحْمَدُ بْن حَنْبَل، فَإنْ بَلغَها فليَعلم أَنَّهُ عَلَىٰ شَفيرِ القَبرِ، وأنَّ كُلَّ يَوْمٍ يَأتِي بعدَها مُستطْرَف.

فَإِنْ تمَّتْ لَهُ الثَّمانون فليجعَل هِمَّتَه كُلَّها مَصروفةً إلىٰ تَنظيفِ خلالِه، وتَهيئةِ زَادِه، وليَجعلْ الاستِغفارَ حَليفَهُ، والذِّكرَ أَلِيفَهُ، وليُدقِّق فِي مُحاسبةِ النَّفْسِ وفِي بَذْلِ العِلْم، أوْ مُخَالطَة الخَلْق؛ فَإِنَّ قُربَ الاستِعراضِ للجَيشِ يُوجِبُ عَلَيهِ الحَذَر مِن العَارِض، وليُبالِغ فِي إبقَاءِ أثَرِه قبْلَ رَحِيلِه، مثلَ بَثِّ عِلمِه، وإيقافِ كُتبِه وشَيْءٍ مِن مَالِهِ.

وبَعدُ، فمَن تولَّاهُ اللهُ ﷻ علَّمَهُ، ومَنْ أَرَادهُ أَلْهَمَهُ، نَسْأَلُ اللهَ ﷻ أَنْ يُنعِمَ عَلَينَا بأنْ يتولَّانا ولا يتولَّىٰ عنَّا، إِنَّهُ قَرِيبٌ مُجيبٌ.

❁ فَصْلٌ ❁

رَأَيْتُ عَادَاتِ النَّاسِ قَدْ غَلَبَتْ عَلَى عَمَلِهِمْ بالشَّرْعِ

فهُمْ يَستوحِشُونَ مِن فِعْلِ الشَّيءِ لعَدَم جَرَيان العَادَة، لا لنَهي الشَّرْع، فكَمْ مِن رَجُلٍ يُوصَفُ بالخَيْر، يَبِيعُ ويَشْتَري، فَإِذَا حَصَلَتْ لَهُ القُرَاضَة بَاعَها بالصَّحِيحِ مِن غَيْر تَقلِيدٍ لإمَامٍ، أوْ عَملٍ برُخصَةٍ، عادَةً من القَوْم، واستِثقالًا للاستِفتَاء.

وتَرَىٰ خَلقًا يُحافِظونَ عَلَىٰ صَلاةِ الرَّغائبِ، ويَتوانَونَ عَنِ الفَرَائِضِ.

وكَثيرًا من المُتصوفِّين لا يَستوحِشُون مِن ظُلمِ النَّاس، ثُمَّ يتصدَّقونَ عَلَىٰ الفُقَراء، ورُبَّما تَوانَوا عَنْ إِخرَاجِ الزَّكاةِ، وتكاسَلُوا عَن اسْتِعْمَالِ التَّأويلات فيها، ثُمَّ إِذَا حَضرَ أحدُهُم مَجْلِسَ وعْظٍ بَكَىٰ كأَنَّهُ يُصانِع تِلْكَ الحَالِ. ومِنهُم: مَن يُخرِجُ بَعْض الزَّكاة مُصانعةً عمَّا لَمْ يُخرجهُ. ومِنهُم: مَن يَعلمُ أَنَّ أصلَ مَالِه حَرَامٌ، ويصعُبُ عَلَيهِ فِراقَهُ للعَادةِ.

وفِيهِم: من يَحلِفُ بالطَّلاقِ ويحنثُ ويرَىٰ الفِراقَ صَعبًا؛ فرُبَّمَا تأوَّلَ، ورُبَّما تكاسَلَ عَنِ التَّأوِيلِ اتِّكالًا عَلَىٰ عَفوِ الله تَعَالَىٰ، ووَعْدًا مِن النَّفْس بالتَّوْبَة.

ومنهم: من يَرَىٰ أَن اسْتِعْمَال الشَّرْع رُبَّمَا كَانَ سببًا فِي تَضييقِ مَعاشِه، وقَدْ أَلِفَ التَّفسُّحَ؛ فَلا يَسهُلُ عَلَيهِ فراقُ مَا قَدْ أَلِفَ.

والعاداتُ فِي الجُمْلَة هِي المُهلِكة.

ولَقَدْ حضرَ عِنْدِي رَجُلٌ، شَيْخٌ ابنُ ثمانينَ سنةً، فاشترَيتُ مِنْهُ دُكَّانًا، وعقدتُ مَعهُ العقدَ، فَلَمَّا افْترَقْنَا غدرَ بَعدَ أيَّامٍ، فطلبتُ مِنْهُ الحُضورَ عِنْدَ الحَاكِمِ، فأبىٰ، فأَحْضَرْتُه فحَلفَ باليَمينِ الغَموسِ أنِّي مَا بِعتُه، فَقُلتُ مَا تَدورُ عَلَيهِ السَّنَةُ، وأخذَ يُبرْطِلُ لمَنْ يحُولُ بينِي وبينَهُ مِن الظَّلَمَة، فرَأَيْتُ مَن العَوامِّ من قَدْ غلبَت عَلَيهِ العاداتُ، فَلا يَلتفتُ معها إلىٰ قَوْل فَقيهٍ، يَقُولُ: هَذَا مَا قَبضَ الثَّمَن فكَيفَ يَصِحُّ البَيعُ؟ وآخرُ يَقُولُ: كَيْفَ يجُوزُ لَكَ أَنْ تأخُذ دُكَّانه بغَيْر رضَاه؟ وآخرُ يَقُول: يجِبُ عَلَيْه أَنْ يُقِيلَه البيعَ، فَلَمَّا لَمْ أُقِلْه أخذَ آخر هُوَ وأقَاربَهُ يأخُذُونَ عِرْضِي، ورَأَىٰ أَنَّهُ يُحامِي عَنْ مُلْكِه، ثُمَّ سَعَىٰ بِي إلىٰ السُّلطانِ سعَايةً يُحرِّضُ فِيهَا مِن الكَذبِ مَا أَدْهَشَنِي، ويُبرْطِلُ مالًا لخَلْقٍ مِن الظَّلَمَة، فبالَغُوا وسَعَوْا؛ إلَّا أَنَّ الله تَعالَىٰ نجَّانِي مِن شرِّهم، ثُمَّ إنِّي أقمتُ البيِّنةَ عَليهِ عِنْدَ الحَاكِم، فَقَالَ بَعْضُ أَرْبَاب الدُّنْيَا للحَاكِم: لا تحكُمْ لَهُ، فوقفَ عَنِ الحُكمِ بَعدَ ثُبوت البيِّنةِ عِندَه، فرَأيْتُ مِن هَذَا الحَاكِم ومِن حَاكِمٍ آخر أعلَىٰ مِنْهُ ومِنْ تركِ إنفَاذِ الحقِّ حِفْظًا لرياسَتِهم مَا هوَّن عِنْدِي مَا فَعلَه ذَلِكَ الشَّيْخُ حِفظًا لمَالِه؛ لجَهلِه وعِلْمِ هَؤُلاءِ، فينحلُّ لي مِن الأَمْرِ: أَنَّ العادَات غَلبَت عَلَىٰ النَّاس، وأنَّ الشَّرْعَ أُعرِضَ عنْهُ.

وإنْ وَقعَتْ مُوافقَةٌ للشَّرع، فكَمَا اتَّفقَ، أوْ لأجل العَادَة؛ فَإنَّ الإنْسَان لَوْ ضُربَ بالسِّياط مَا أَفْطرَ فِي رمضانَ؛ عَادَة قَدِ استمرَّتْ، ويأخذُ أَغْرَاضَ النَّاس وأموالِهم؛

عادةً غالبةً، فكَمْ قَدْ رَأيْتُ هَذَا الشَّيْخَ يُصلِّي ويُحافِظُ عَلَىٰ الصَّلاة، ثُمَّ لَمَّا خَافَ فَوتَ غَرضِه تَركَ الشَّرْعَ جانبًا.

وكَمْ قَدْ رَأيْتُ أولَئِكَ الحُكَّامَ يتَعبَّدُون ويطلُبون العِلْمَ، غَيْر أنَّهُمْ لَمَّا خَافُوا عَلَىٰ رِياسَتِهم أَنْ تَزولَ تركُوا جَانِبَ الدِّين.

ثُمَّ إنَّ الله تَعَالَىٰ نصَرَني عَلَيهِ وتقَدَّم إليَّ الحاكِمُ بإنفاذِ مَا ثَبتَ عندَه، ودَارَتِ السَّنَةُ، فماتَ الشَّيْخُ عَلَىٰ قُلٍّ. فنسألُ اللهَ ﷻ التَّوفيقَ للانقِيادِ لشَرعِهِ ومُخَالفَة أهوَائِنا.

❁ فَصْلٌ ❁

مَا أَعْرِفُ للعَالِمِ قطُّ لَذَّةً ولَا عِزًّا ولَا شَرفًا ولَا رَاحَةً ولَا سَلامةً أَفْضَلَ مِن العُزْلَةِ

فإنَّه ينالُ بِهَا سلامةَ بَدَنِه ودِينِه وجَاهِه عِنْدَ اللهِ ﷻ وعِنْدَ الخَلْقِ؛ لأَنَّ الخَلْقَ يَهُونُ عَلَيهِم مَن يُخَالطُهم، ولَا يَعْظُم عِنْدهم قدْرُ المخالِط لَهُمْ؛ ولِهذَا عَظُمَ قَدْرُ الخُلفاءِ؛ لاحتجَابِهم.

وإذا رَأَىٰ العَوامُّ أحَدَ العُلَمَاء مُترخِّصًا فِي أَمْرٍ مباحٍ هانَ عِنْدهم، فالواجبُ عَلَيهِ صِيانةُ عِلمِه وإقَامَةُ قدْرِ العِلمِ عِنْدهم.

فقدْ قَالَ بَعْضُ السَّلفِ: «كنَّا نَمزَحُ ونضحَكُ، فَإذَا صِرْنَا يُقتدَىٰ بنا فَمَا أُرَاهُ يسعُنا ذَلِكَ».

وقَالَ سُفيَانُ الثَّورِيُّ: «تعلَّمُوا هَذَا العِلْمَ، واكْظِمُوا عَلَيهِ، ولا تَخْلِطُوه بِهَزلٍ فَتَمُجَّهُ القُلُوبُ».

فمُراعاةُ النَّاس لا يَنبغِي أَنْ تُنكَرَ. وقَدْ قَالَ ﷺ لعَائِشَةَ رضي الله عنها: «**لَوْلا بالكُفرِ لنقَضتُ الكَعْبَةَ وجَعلتُ لَهَا بَابَينِ**»[1]. وقَالَ أحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رحمه الله فِي الرَّكعتَين قبلَ المَغرِب: «**رَأيْتُ النَّاس يكرَهُونَها، فترَكتُها**».

ولا تَسْمَعْ مِن جَاهِلٍ، يَرَىٰ مثلَ هَذِهِ الأَشْيَاءِ رِياءً، إنَّمَا هَذا صيانةُ العِلم، وبيانُ هذا: أَنَّهُ لَوْ خَرَجَ العَالِمُ إِلىٰ النَّاسِ مَكشوفَ الرَّأسِ، أوْ فِي يدِهِ كِسرةٌ يأكُلُها؛ قلَّ عِنْدهم، وإنْ كَانَ مُباحًا، فيصيرُ بمثابةِ تَخليطِ الطَّبيبِ الآمِر بالحِمْيَةِ، فَلا يَنْبغِي للعَالِم أَنْ ينبَسطَ عِنْدَ العَوامِّ حِفْظًا لَهُمْ، ومتىٰ أرادَ مُباحًا فليستَتِر بِهِ عنهُم.

وهَذَا القَدْر الَّذِي لاحظَه أَبُو عُبيدَة حِينَ رَأَىٰ عُمرَ بْن الخطَّاب رضي الله عنهما قَدْ قدِمَ الشَّام راكبًا عَلَىٰ حِمارٍ ورِجلاهُ من جَانبٍ، فَقَالَ: «يا أَمِيرَ المُؤْمِنينَ؛ يتلقَّاكَ عُظماءُ النَّاس»، فَمَا أحسنَ مَا لاحَظَ، إلَّا أَنَّ عُمرَ رضي الله عنه أرادَ تَأدِيبَ أبي عُبيدَة بحِفظِ الأَصْلِ، فَقَالَ: «إنَّ اللهَ أعزَّكُم بالإسلامِ فمَهمَا طلبتُم العِزَّ فِي غَيْره أذَلَّكم».

والمَعنَىٰ: يَنْبغِي أَنْ يَكُونَ طَلبكُم العِزَّ بالدِّين لا بصُورِ الأفْعَال وإنْ كَانَت الصُّوَر تُلاحَظُ؛ فَإِنَّ الإنْسَان يَخْلُو فِي بيتِهِ عُريانًا، فَإذَا خَرَجَ إلىٰ النَّاس لَبسَ ثَوبينِ وعِمامَةً ورِداءً، ومثْلُ هَذَا لا يَكُونُ تصنُّعًا، ولا يُنسَب إلىٰ كِبْرٍ. وقَدْ كَانَ مَالِكُ بْنُ أنَسٍ يغتسِلُ ويتطيَّبُ ويقعُدُ للحَدِيثِ.

ولا تلتَفتْ - يَا هَذَا - إلىٰ مَا تَرَىٰ مِن تبذُّلِ العُلَمَاء عَلَىٰ أبوابِ السَّلاطينَ، فَإنَّ العُزلَةَ أَصْوَنُ للعَالِم والعِلْم، ومَا يخسرُه العُلَمَاءُ فِي ذَلِكَ أضعَافُ مَا يربَحونَهُ. وقَدْ كَانَ سيِّدُ الفُقهَاء سعيدُ بْنُ المُسيِّبِ لا يغشَىٰ الوُلاةَ، وعَنْ قَوْلِه هَذَا فسَكتُوا عَنْهُ، وهَذَا فِعلُ الحَازِم.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٥٨٣، ٣٣٦٨، ٤٤٨٤)، ومسلم (١٣٣٣) من حديث عائشة.

فَإِن أَرَدْت اللَّذَّة والرَّاحَة؛ فعَلَيْك - أَيُّهَا العَالِم - بقعرِ بيتِك، وكنْ مُعتزِلًا عَنْ أَهْلكَ؛ يَطبْ لَكَ عيشُك، واجعَلْ للقَاءِ الأهْل وقتًا، فَإِذَا عرفُوه تصنَّعوا للقَائِك، فَكَانَتْ المُعاشَرة بذَلِكَ أجودَ، وليَكُن لَكَ مكانٌ فِي بيتِك تخْلُو فِيهِ برَبِّك، وتحَادِث سُطورَ كتبُك، وتَجرِي في حَلباتِ فِكرِك، واحترِسْ منْ لِقاءِ الخَلْقِ، وخُصُوصًا العَوامَّ، واجتَهِد فِي كَسبٍ يُعِفُّكَ عَنِ الطَّمعِ؛ فهَذِهِ نِهايةُ لَذَّة العَالِم فِي الدُّنْيَا.

وقَدْ قِيلَ لابنِ المُبَارَك: مَا لكَ لا تُجالسُنا؟ فَقَالَ: «أنا أذهبُ فأُجالسُ الصَّحَابَةَ والتَّابِعينَ»، وأشَارَ بذَلِكَ إلىٰ أَنَّهُ ينظرُ فِي كُتبِه.

ومَتَىٰ رُزِقَ العَالِمُ الغِنىٰ عَنِ النَّاس والخَلوَةَ، فَإِنْ كَانَ لَهُ فَهمٌ يجلِبُ التَّصَانِيف؛ فَقد تكامَلتْ لذَّته، وإنْ رُزِقَ فَهمًا يَرتقِي إلىٰ مُعاملَة الحَقِّ ومُناجَاته فَقدْ تعجَّل دُخُولَ الجَنَّة قَبْل المَماتِ، نَسْأَلُ اللهَ ﷻ همَّةً عاليةً تَسمُو إلىٰ الكَمالِ، وتَوفيقًا لصالِحِ الأعمَالِ، فالسَّالكُون طَرِيقَ الحَقِّ أفرَادٌ.

❁ فَصْل ❁

تَأَمَّلتُ أحْوَالَ النَّاس فِي حَالَة عُلُوِّ شَأْنِهِمْ فرَأَيْتُ أَكْثَرَ الخَلْقِ تَبِينُ خَسَارتَهم حِينئِذٍ

فمِنهُم: مَن بالغَ في المَعاصِي فِي الشَّبابِ. ومِنهُم: مَن فرَّط فِي اكتسابِ العِلْم. ومِنهُم: مَنْ أَكْثَرَ الاستِمتاعِ باللَّذَّاتِ حينَئِذٍ؛ فكلُّهُم نادمٌ فِي حَالَة الكِبَر، حِينَ فَوَاتِ الاستِدراك لذُنوبٍ سلَفتْ، أوْ قُوَىٰ ضَعفَتْ، أوْ فَضِيلَةٍ فاتَتْ، فيمضي زَمَان الكِبَرِ فِي حَسراتٍ.

فَإِنْ كَانَتْ للشَّيخ إفاقةٌ مِن ذُنوبٍ قَدْ سلَفَت قَالَ: وا أَسَفا عَلَىٰ مَا جَنيتُ، وإنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ إفاقةٌ صَارَ مُتأسِّفًا عَلَىٰ فَوَاتِ مَا كَانَ يَلْتَذُّ بِهِ.

فأَمَّا مَن أَنفقَ عَصْرَ الشَّبابِ فِي العِلْمِ؛ فإِنَّه فِي زَمَن الشَّيْخوخةِ يَحْمَدُ جَنَىٰ مَا غَرسَ، ويَلْتَذُّ بتَصنيفِ مَا جَمعَ، ولا يَرَىٰ مَا يفقدُ مِن لذَّاتِ البَدَن شَيئًا بالإضافة إلىٰ مَا ينالهُ مِن لذَّات العِلْم، هَذَا معَ وُجُود لذَّاته فِي الطَّلَب الَّذِي كَانَ يُؤَمِّل بِهِ إدرَاكَ المَطْلُوب، ورُبَّما كَانَتْ تِلْكَ الآمَالُ أطيبَ مِمَّا نِيلَ مِنهَا.

كَمَا قَالَ الشَّاعِر:

أَهْتَزُّ عِنْدَ تَمَنِّي وَصْلِهَا طَرَبًا ** وَرُبَّ أُمْنِيَةٍ أَحْلَىٰ مِنَ الظَّفَرِ

ولَقَدْ تَأَمَّلتُ نَفْسِي بالإضافةِ إلىٰ عَشيرَتي الَّذِينَ أنفَقوا أعمارَهم فِي اكتِسابِ الدُّنْيَا، وأَنْفقتُ زَمَنَ الصَّبوةِ والشَّبابِ فِي طلبِ العِلْم؛ فرأيتُني لَمْ يفُتنِي مِمَّا نَالُوه إلَّا مَا لَوْ حصلَ لي ندمتُ عَليْهِ.

ثُمَّ تَأمَّلتُ حَالِي؛ فَإِذَا عَيشِي فِي الدُّنْيَا أجوَدُ مِن عَيشِهم، وجَاهِي بينَ النَّاسِ أَعلَىٰ مِن جَاهِهم، ومَا نِلتُه من مَعْرِفَة العِلْم لا يُقاوَمُ.

فَقَالَ لي إبْلِيسُ: نسيتَ تَعَبَكَ وسَهَرَكَ؟!

فقُلتُ لَهُ: أيُّهَا الجَاهِلُ، تَقطيعُ الأيدِي لا وَقْعَ لَهُ عِنْدَ رُؤيَة يُوسُفَ، ومَا طَالتْ طَرِيقٌ أَدَّتْ إِلَىٰ صَديقٍ:

جَزَىٰ اللهُ المَسِيرَ إِلَيْهِ خَيْرًا ** وَإِنْ تَرَكَ المَطَايَا كَالمَزَادِ

ولَقَدْ كُنْتُ فِي حَلاوَةِ طلَبي للعِلمِ ألقَىٰ من الشَّدائدِ مَا هُوَ عِنْدِي أحلَىٰ مِن العَسَل لأجْلِ مَا أطلُبُ وأرجُو، كُنْتُ في زَمَان الصِّبا آخذُ مَعي أَرْغِفَةً يَابسةً، فأخرُج فِي طلبِ الحَدِيثِ، وأَقْعُدُ عَلَىٰ نَهرِ عِيسَىٰ، فَلا أقدِرُ عَلَىٰ أكلِها إلَّا عِنْدَ المَاء، فكُلَّما أكَلتُ لُقمَةً شربتُ عَلَيهَا، وعينُ هِمَّتي لا ترىٰ إلَّا لَذَّة تَحصيل العِلْم.

فأثمرَ ذَلِكَ عِنْدِي أنِّي عُرفتُ بكثرَةِ سَماعِي لحَدِيثِ الرَّسُول ﷺ وأحْوَاله وآدَابه، وأحْوَال أصْحَابه وتابعِيهم، فصِرتُ فِي مَعْرِفَة طَرِيقِه كابنِ أَجْوَدَ.

وأثمرَ ذَلِكَ عِنْدِي مِن المُعامَلة مَا لا يُدرَكُ بالعِلْم، حَتَّىٰ إنَّنِي أُذْكرُ فِي زَمَان الصَّبوةِ، ووقتِ الغُلْمَةِ والعُزْبَةِ قُدرَتي عَلَىٰ أَشْيَاءَ كَانَتِ النَّفْسُ تتُوقُ إليهَا توقانَ العَطشانِ إلىٰ المَاء الزُّلالِ، ولَمْ يَمنعنِي عَنْهَا إلَّا مَا أَثمرَ عِنْدِي العِلْمِ مِن خَوفِ اللهِ ﷻ.

ولَوْلا خَطايَا لا يَخْلُو مِنهَا البَشرُ، لَقَد كُنْتُ أخَافُ عَلَىٰ نَفْسِي مِن العُجبِ، غَيْرَ أَنَّهُ ﷻ صانَنِي، وعلَّمنِي، وأطلَعنِي مِن أسرَارِ العِلْم معرفَتَه، وإيثارَ الخَلوَةِ بِهِ، حَتَّىٰ إنَّهُ لَوْ حَضرَ معي مَعرُوفٌ وبشرٌ لرأيْتُها رَحمةٌ.

ثُمَّ عَادَ فغمسَني فِي التَّقصِير والتَّفرِيط، حَتَّىٰ رَأيْتُ أقلَّ النَّاس خَيرًا منِّي، وتارةً يوقِظُني لِقيامِ اللَّيْل ولذَّةِ مُناجَاته، وتارةً يحرمُني ذَلِكَ معَ سلامةِ بدَنِي، ولَوْلا بشارةُ العِلْم بأنَّ هَذَا نوعُ تَهذيبٍ وتَأدِيبٍ لخرجتُ إمَّا إلىٰ العُجبِ عِنْدَ العَمَل، وإمَّا إلىٰ اليأس عِنْدَ البطالة، لكنَّ رجائي فِي فضلِه قَدْ عادَلَ خَوْفِي مِنهُ.

وقَدْ يَغلبُ الرَّجاءُ بقوَّةِ أسْبَابهِ؛ لأنِّي رَأيتُ أَنَّهُ قَدْ ربَّاني مُذْ كُنْتُ طِفلًا، فَإنَّ أبي مَاتَ وأنَا لا أَعْقِلُ بِه، والأمُّ لَمْ تلتفِتْ إليَّ، فركَزَ فِي طَبعِي حبَّ العِلْم، ومَا زَالَ يُوقفُني عَلَىٰ المُهمِّ فالمُهمِّ، ويحَملُنِي إلىٰ ما يحَملُنِي عَلَىٰ الأَصْوبِ، حَتَّىٰ قَوَّم أمرِي، وكَمْ قَدْ قَصدنِي مِن عدُوٍّ فصدَّه عنِّي، وإِذَا رَأيْتُه قَدْ نَصرني وبصَّرني، ودافعَ عنِّي، ووهبَ لي قَوِيَ رَجائي فِي المُستقبلِ بِمَا قَدْ رَأيْتُ فِي المَاضِي.

ولَقَدْ تَابَ عَلَىٰ يدَيَّ فِي مَجالِس الذِّكر أكْثَرُ من مائتَيْ ألفٍ، وأسلمَ عَلَىٰ يديَّ أكْثَرُ من مائتَيْ نفسٍ، وكَمْ سالَتْ عينُ مُتجبِّر بوعظِي لَمْ تكنْ تَسيلُ، ويحِقُّ لمَنْ تَلمَّح هَذَا الإنْعَامَ أَنْ يرجُو التَّمامَ، ورُبَّما لاحَتْ أَسْبَابُ الخَوْفِ بنظَرِي إلىٰ تَقصِيري وزلَلِي.

ولَقَدْ جَلستُ يومًا، فرَأيْتُ حَولِي أكْثَرَ من عَشرةِ آلافٍ، مَا فِيهِمْ إلَّا مَنْ قَدْ رَقَّ قلبُه، أوْ دَمعَتْ عينُه، فَقُلتُ لنفْسِي: كَيْفَ بكِ إنَّ نَجَوْا وهَلكتِ، فصِحتُ بلِسَان وَجْدِي:

إلَهِي وسيِّدي؛ إنْ قضيتَ عَليَّ بالعَذَابِ غدًا فَلا تُعلِمْهم بعَذَابي؛ صِيانةً لكرَمِك لا لأجلِي؛ لِئلَّا يقولُوا: عَذَّب من دلَّ عَلَيهِ.

إلهي؛ قَدْ قِيلَ لنبيِّكَ ﷺ: اقتُل ابن أُبَيٍّ المُنافِق فَقَالَ: «لا يتحدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحمَّدًا يقتُلُ أصْحَابهُ»(١).

إلَهي فاحفَظْ حُسنَ عَقائِدِهم فيَّ بكرَمِك أَنْ تُعلِمهم بعَذَابِ الدَّلِيل علَيكَ، حَاشَاكَ واللهِ يَا رَبِّ منْ تَكدير الصَّافي.

لا تَبْـــرِ عُـــودًا أَنْـــتَ رَيَّـــشْتَهُ ** حَاشَـــا لِبَـــانِي الجُـــودِ أَنْ يَنْقُـــضَا

لَا تُعْطِـــشِ الـــزَّرْعَ الَّـــذِي أَنْبَتَّـــهُ ** بِـــصَوْبِ إِنْعَامِـــكَ قَـــدْ رَوَّضَـــا

فَصلٌ

مِنَ الأُمُورِ الَّتِي تَخفى عَلَى العَاقِلِ أَنْ يَرى أَنَّهُ مَتَى لَمْ تَكُنْ عِنْدَهُ امرأةٌ أوْ جَاريةٌ يَهواهَا هَوًى شَديدًا؛ أَنَّهُ لَا يَلْتَذُّ فِي الدُّنْيا

فَإذَا صوَّرَ مَحبوبًا مَملوكًا تَخايلَ لَذَّةً عَظيمةً، وإذَا كَانَ عِنْدهُ مَنْ لا يَميلُ إِلَيْهِ اعتقدَ نَفْسَه مَحرومًا. وهَذَا أمرٌ شَديدُ الخَفَاءِ، فيَنْبَغِي أَنْ يوضَّحَ:

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٥١٩، ٤٩٠٥، ٤٩٠٧)، ومسلم (٢٥٨٤) من حديث جابر بن عبد الله.

وهُوَ أَنَّ المَملوكَ مملولٌ، ومتىٰ قَدَر الإنْسَانُ عَلَىٰ مَا يشتهيه ملَّه أو مَالَ إلىٰ غيرِه؛ تارةً لبيان عُيوبِه الَّتِي تكشفها المُخَالطَةُ؛ فإِنَّه قَدْ قَالَ الحُكَمَاء: «العِشْقُ يُعمي عَنْ عُيوب المَحبوبِ»، وتارةً لمكانِ القُدرةِ عَلَيهِ، والنَّفْسُ لا تزالُ تتطلَّعُ إلىٰ مَا لا تقدِر عَليْهِ.

ثُمَّ لَوْ قدَّرنا دَوامَ المَحبَّة معَ القُدرَة؛ فإِنَّها قَدْ تَكُونُ ولَكِنْ ناقصةً بمِقْدَارِ القُدرة، وإِنَّمَا يقوِّيها تَجَنِّي المحبُوبُ، فيَكُون تَجنِّيه كالامتناعُ، أَوْ امتناعُهُ مِن المُوافقَة.

فَإِذَا صَفا فَلا بُدَّ مِن أَكْدَارٍ، مِنهَا: الحَذَرُ عَلَيهِ، ومِنْهَا: قِلَّةُ مَيلِه إلىٰ هَذَا العَاشِق، ورُبَّما يتكلَّفُ القُربَ مِنْهُ، ويَعْلمُ الإنْسَانُ بِقِلَّة مَيل محبُوبِه إِلَيْهِ، فَيَنْغَصُ بَلْ يُنْغِصُ، فَإِنْ خَافَ مِنْهُ خيانةً احْتَاجَ إلىٰ حِرَاسةٍ، فقوِيَت النَّغَصُ.

وأَصْلحُ المَقاماتِ التَّوسُّط، وهُوَ اختيارُ مَا تَمِيل النَّفْس إِلَيْهِ، ولا يرتَقِي إلىٰ مقامِ العِشْق؛ فَإِنَّ العاشِقَ فِي عَذَابٍ، وإنَّمَا يتخَايلُ الفَارغُ مِن العِشْق الْتِذَاذَ العَاشِق، ولَيْسَ كَذَلك، فإِنَّه كَمَا قِيلَ:

وَمَا فِي الأَرْضِ أَشْقَىٰ مِنْ مُحِبٍّ ** وَإِنْ وَجَدَ الهَوَىٰ عَذْبَ المَذَاقِ
تَرَاهُ بَاكِيًا فِي كُلِّ وَقْتٍ ** مَخَافَةَ فُرْقَةٍ أَوْ لِاشْتِيَاقِ
فَيَبْكِي إِنْ نَأَوْا شَوْقًا إِلَيْهِمْ ** وَيَبْكِي إِنْ دَنَوْا خَوْفَ الفِرَاقِ
فَتَسْخُنُ عَيْنُهُ عِنْدَ التَّدَانِي ** وَتَسْخُنُ عَيْنُهُ عِنْدَ الفِرَاقِ

۞ فَصْل ۞

ما ابتُلِي الإنْسَانُ قَطُّ بأعْظَم مِن عُلُوِّ هِمَّتِه؛ فَإِنَّ مَن عَلَتْ هِمَّتهُ يَختَارُ المَعَالي، ورُبَّما لا يُساعدُه الزَّمَانُ، وقَد تَضْعُفُ الآلة، فَيَبْقى فِي عَذَابٍ

وإنِّي أُعطِيتُ من علوِّ الهمَّةِ طَرَفًا، فأنا بِهِ فِي عَذَابٍ، ولا أقُولُ: ليتَه لَمْ يكُنْ، فإنَّه إنَّمَا يَحْلُو العَيْشُ بقدرِ عَدَم العَقْل، والعَاقِلُ لا يختارُ زِيَادَةَ اللَّذَّة بنقصانِ العَقْلِ.

ولَقَدْ رَأَيْتُ أقْوَامًا يَصِفُونَ عُلوَّ هِمَمِهم، فَتَأَمَّلْتُهَا فَإِذَا بِهَا فِي فنٍّ وَاحِدٍ، ولا يُبالُون بالنَّقصِ فِيمَا هُوَ أهمُّ.

قَالَ الرَّضِيُّ:

وَلِكُــلِّ جِــسْمٍ فِــي النُّحُــولِ بَلِيَّــةٌ ** وَبَــلَاءُ جِــسْمِي مِــنْ تَفَــاوُتِ هِمَّتِــي

فنظَرتُ، فَإِذَا غايةُ أملِهِ الإمَارةُ.

وكَانَ أَبُو مُسلِم الخُراسَانيِّ فِي حَال شَبيبَتِهِ لا يكادُ ينامُ، فقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: ذِهنٌ صافٍ، وهَمٌّ بعيدٌ، ونفسٌ تتوقُ إلىٰ معَالي الأمورِ، مع عَيشٍ كعَيشِ الهَمَجِ الرِّعاعِ. قِيلَ: فَمَا الَّذِي يُبرِّدُ غليلَك؟ قَالَ: الظَّفرُ بالمُلكِ. قِيلَ: فاطلُبهُ. قَالَ: لا يُطلبُ إلَّا بالأَهْوالِ. قِيلَ: فاركَبِ الأهوَالَ. قَالَ: العَقْلُ مَانِعٌ. قِيلَ: فَمَا تصنَع؟ قَالَ: سَأَجعلُ مِن عَقلِي جهلًا، وأَحَاولُ بِهِ خَطرًا لا يُنالُ إلَّا بالجَهْل، وأُدبِّرُ بالعَقْل مَا لا يُحفَظُ إلَّا بِهِ، فَإِنَّ الخُمولَ أخُو العَدَم.

فنظرتُ إلىٰ حَال هَذَا المِسكين، فَإِذَا هُوَ قَدْ ضَيَّعَ أَهَمَّ المُهمَّاتِ، وهُوَ جَانِبُ الآخِرَة، وانتَصبَ فِي طَلَب الولاياتِ، فَكَمْ فتَكَ وقتَلَ حَتَّىٰ نالَ بَعْض مُرادِهِ مِن لذَّاتِ الدُّنْيَا، ثُمَّ لَمْ يَتنَعَّم فِي ذَلِكَ أَكْثَرَ مِن ثَمانِ سِنينَ، ثُمَّ اغْتِيلَ، ونسِيَ تدبيرَ العَقْل، فقُتِلَ ومَضىٰ إلىٰ الآخِرَةِ عَلَىٰ أقبحِ حَالٍ.

وكَانَ المُتنبِّي يَقُول:

وَفِي النَّاسِ مَنْ يَرْضَىٰ بِمَيْسُورِ عَيْشِهِ ** وَمَرْكُوبُـهُ رِجْـلَاهُ وَالثَّـوبُ جِلْـدُهُ
وَلَكِـنَّ قَلْبًـا بَـيْنَ جَنْبَـيَّ مَـا لَـهُ ** مَـدًّىٰ يَنْتَهِـي بِـي فِـي مُـرَادٍ أَحُـدُّهُ
يَـرَىٰ جِـسْمَهُ يُكْـسَي شُـفُوفًا تَرُبُّـهُ ** فَيَخْتَـارُ أَنْ يُكْـسَىٰ دُرُوعًـا تَهُـدُّهُ

فتَأَمَّلت هَذَا الآخَرَ، فَإِذَا نَهْمَتُهُ فِيمَا يتعلَّق بالدُّنْيَا فحَسْب.

ونظرتُ إلىٰ عُلوِّ همَّتي فرأيتُها عجَبًا؛ وذَلِكَ أَنَّنِي أَرُومُ مِن العِلْم مَا أَتيقَّنُ أَنِّي لا أَصِلُ إليهِ؛ لأَنَّنِي أُحبُّ نَيْلَ كُلِّ العُلومِ عَلَىٰ اختِلافِ فنُونها، وأُريدُ استقصَاءَ كُلِّ فَنٍّ، وهَذَا أمرٌ يعْجَزُ العُمرُ عَنْ بَعضِه.

فَإِنْ عرَضَ لي ذُو هِمَّةٍ فِي فنٍّ قَدْ بلغَ مُنتهاهُ رَأَيْتَهُ نَاقصًا فِي غَيرِه، فَلا أَعُدُّ هِمَّته تَامَّةً؛ مِثلَ المُحدِّثِ فاتَهُ الفِقهُ، والفَقيهِ فاتَه عِلمُ الحَدِيث؛ فَلا أَرَىٰ الرِّضَىٰ بنُقصانٍ مِن العُلوم إلَّا حَادثًا عَنْ نَقصِ الهمَّة.

ثُمَّ إِنَّني أرُومُ نِهايةَ العَمَل بالعِلْم، فأَتُوقُ إلىٰ وَرَعِ بِشْرٍ، وزَهادَة مَعْرُوفٍ، وهَذَا - معَ مُطالَعة العِلم والتَّصانيف، وإفادَةِ الخَلْق ومُعاشَرتِهم - بَعيدٌ.

ثُمَّ إِنِّي أرُومُ الغِني عَن الخَلْق، وأَسْتَشرِفُ الإفضَالَ عَلَيهِم، والاشتِغالُ بالعِلْم مَانِعٌ من الكَسبِ، وقُبول المِننِ مِمَّا تَأباهُ الهمَّة العَاليةُ.

ثُمَّ إِنِّي أتُوقُ إلىٰ طَلَبِ الأَوْلاد، كَمَا أتوقُ إلىٰ تَحقِيق التَّصانيفِ؛ ليَبقَىٰ الخَلَفانِ نَائبَين عَنِّي بَعدَ التَّلَفِ، وفِي طلبِ ذَلِكَ مَا فِيهِ مِن شُغْلِ القَلْب المُحبِّ للتَّفرُّدِ.

ثُمَّ إِنِّي أرُومُ الاستِمتاعَ بالمُسْتَحسَناتِ، وفِي ذَلِكَ امتناعٌ مِن جِهَة قِلَّةِ المَالِ، ثُمَّ لَوْ حصَلَ فَرَّق جمعَ الهِمَّةِ.

وكَذَلكَ أطلُبُ لبدَنِي مَا يُصلِحهُ مِن المَطاعِمِ والمَشَارِبِ؛ فإِنَّه مُتعوِّدٌ للتَّرفُّهِ واللُّطفِ، وفِي قِلَّة المَالِ مَانِعٌ؛ وكلُّ ذَلِك جَمعٌ بين أضدَادٍ.

فأيْنَ أنا ومَا وصفتُه مِنْ حالِ مَنْ كَانَتْ غايةُ همَّتِه طَلبَ الدُّنْيَا، وأنَا لا أحبُّ أَنْ يخدِشَ حُصُول شَيْءٍ مِن الدُّنْيَا وَجْهَ دِينِي بسبَبٍ، ولا أَنْ يؤثِّرَ فِي عِلمِي ولا فِي عمَلي.

فوا قَلقِي مِن طَلَبِ قِيامِ اللَّيْل، وتَحقِيقِ الوَرعِ معَ إعادَةِ العِلْم، وشغِ القَلْب بالتَّصَانِيف، وتحصيلِ مَا يلائمُ البَدَن مِن المَطاعِم، ووا أَسَفي عَلَىٰ مَا يفُوتنِي مِن المُنَاجَاة فِي الخَلوَة مع مُلاقاة النَّاس وتَعلِيمهم، ويا كدرَ الوَرع معَ طلبِ مَا لا بُدَّ مِنْهُ للعائِلَةِ، غَيْر أَنِّي قَدْ استسْلَمتُ لتَعذِيبي، فلعلَّ تَهذيبي فِي تَعذِيبي؛ لأَنَّ عُلُوَّ الهِمَّةِ تَطلُب المَعالِي المُقرِّبة إلىٰ الحَقِّ ﷻ.

ورُبَّما كَانَتِ الحَيرَةُ فِي الطَّلَبِ دَليلًا إلىٰ المَقصُودِ، وها أَنَا أحفَظُ أَنْفَاسِي من أَنْ يَضيعَ مِنهَا نفَسٌ فِي غَيْر فَائدةٍ، فإنْ بلغَ همِّي مُرادَه، وإِلَّا فنِيَّةُ المُؤمِن أبلَغُ مِن عمَلِه.

❁ فَصْل ❁

لَمَّا سَطَّرْتُ هَذَا الفَصْلَ المتقَدِّمَ، رَأَيْتُ إذكَارَ النَّفْس بِمَا لا بُدَّ لَهَا فِي الطَّرِيق مِنْهُ، وهو أَنَّهُ لا بُدَّ لَهَا مِن التَّلطُّف

فَإِنَّ قَاطِع مرحَلَتين فِي مَرحلةٍ خليقٌ بأنْ يقِفَ، فيَنْبَغِي أَنْ يَقطعَ الطَّرِيق بأَلطَفِ مُمكنٍ، وإِذَا تَعِبَتِ الرَّواحِلُ نَهضَ الحَادِي يُغنِّيها، وأَخذُ الرَّاحَة للجِدِّ جِدٌّ، وغَوْصُ السَّابِح فِي طَلَب الدُّرِّ صُعودٌ، ودَوامُ السَّيرِ يَحْسُرُ الإبلَ والمَفازَة صَعبةٌ.

ومَنْ أرَادَ أَنْ يَرَىٰ التَّلطُّفَ بالنَّفْس فلينظُرْ فِي سِيرَة الرَّسُول ﷺ، فإنَّه كَانَ يتلطَّفُ بنَفْسِه، ويُمازِحُ ويُخالِطُ النِّسَاء، ويقبِّلُ[1] ويمُصُّ اللِّسَان[2]، ويختارُ المُستحسَنات، ويُستعذَب لَهُ المَاءُ[3]، ويختارُ المَاء البارِدَ[4]، والأوفقَ من المَطاعِم كلَحمِ الظَّهرِ والذِّراعِ والحَلْوَىٰ؛ وهَذَا كُلُّه رِفقٌ بالنَّاقةِ في طَرِيق السَّيرِ.

فأمَّا من جرَّدَ عَليْهَا السَّوطَ؛ فإنَّه يُوشكُ أَنْ لا يَقطعَ الطَّرِيقَ، وقَدْ قَالَ ﷺ: «**إنَّ هَذَا الدِّينَ مَتينٌ فأوغِلُوا فِيهِ برِفقٍ، فَإنَّ المُنبَتَّ لَا أَرضًا قَطعَ، ولا ظهرًا أبْقَىٰ**»[5].

واعْلَمْ؛ أَنَّهُ يَنْبغِي للعَاقِلِ أَنْ يغالِطَ نَفْسَه فِيمَا يكْشِف العَقْل عَنْ عَوارِه، فَإنَّ فِكرَ المُتيقِّظ يَسبقُ قَبلَ مُباشَرَة المَرْأَةِ إلىٰ أَنَّهَا اعتِناقٌ بجَسدٍ يحتَوِي عَلَىٰ قَذارةٍ،

---

(١) **صحيح**: أخرج البخاري (١٩٢٧)، ومسلم (١١٠٦) عن عائشة، قالت: كان النبي ﷺ يقبل ويباشر وهو صائم، وكان أملككم لإربه.

(٢) **صحيح**: أخرج أحمد (١٦٨٤٨) عن معاوية، قال: رأيت رسول الله ﷺ يمص لسانه - أو قال: شفته -، يعني الحسن بن علي. وأما لأزواجه فلا يصح؛ أخرج أبو داود (٢٣٨٦) وضعفه، وابن خزيمة (٢٠٠٣)، وأشار إلىٰ ضعفه، عن عائشة أن النبي ﷺ كان يقبلها وهو صائم، ويمص لسانها. وضعفه ابن حجر في «فتح الباري» (٤/ ١٥٣).

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٠٣٨) من حديث أبي هريرة. وأبو داود (٣٧٣٥) من حديث عائشة.

(٤) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٦١٥)، ومسلم (٢٠٠٩) من حديث البراء بن عازب.

(٥) **ضعيف بهذا السياق، وشطره الأول صحيح**: أخرجه البيهقي (٣/ ١٩) من حديث عبد الله بن عمرو. وفي إسناده ضعف، وقد أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٣٣٤) عن عبد الله بن عمرو موقوفًا، وهو أشبه علىٰ انقطاع في إسناده. وشطره الأول أخرجه أحمد (١٣٠٥٢)، والضياء (٢١١٥) من حديث أنس. وأخرجه وكيع بن الجراح في «الزهد» (٢٣٤) والحسين المروزي في «زوائده علىٰ الزهد لابن المبارك» (١١٧٨) من مرسل محمد بن المنكدر. ولشطره الأول شواهد من حديث أبي هريرة عند البخاري (٣٩)، ومن حديث ابن عباس عند أحمد (١٨٥١)، ومن حديث بريدة الأسلمي عند أحمد (١٩٧٨٦).

وقبلَ بَلْع اللُّقمةِ إلىٰ أنَّهَا مُتقلِّبةٌ فِي الرِّيقِ، لَوْ أخرَجها الإنْسَانُ لفَظَها، ولَوْ فكَّر فِي قُرْبِ المَوْت ومَا يجْرِي عَلَيهِ بعدَهُ، لبَغَض عَاجِلَ لذَّتِه؛ فَلا بُدَّ مِن مُغالطةٍ تَجرِي؛ لِيَنتفِعَ الإنْسَانُ بعَيشِه.

كَمَا قَالَ لَبيدٌ:

فَأَكْذِبِ النَّفْسَ إِذَا حَدَّثْتَهَا ** إِنَّ صِدْقَ النَّفْسِ يُزْرِي بِالأَمَلِ

وَقَالَ البُستيُّ:

أَفِدْ طَبْعَكَ المَكْدُودَ بِالهَمِّ رَاحَةً ** تُجِمُّ وَعَلِّلْهُ بِشَيْءٍ مِنَ المَزْحِ

وَلَكِنْ إِذَا أَعْطَيْتَهُ ذَاكَ فَلْيَكُنْ ** بِمِقْدَارِ مَا يُعْطَىٰ الطَّعَامُ مِنَ المِلْحِ

وقَالَ أَبُو عَليِّ بْنِ الشِّبلِ:

وَإِذَا هَمَمْتَ فَنَاجِ نَفْسَكَ بِالمُنَىٰ ** وَعْدًا فَخَيْرَاتُ الجِنَانِ عِدَاتُ

وَاجْعَلْ رَجَاءَكَ دُونَ يَأْسِكَ جُنَّةً ** حَتَّىٰ تَزُولَ بِهَمِّكَ الأَوْقَاتُ

وَاسْتُرْ عَنِ الجُلَسَاءِ بَثَّكَ إِنَّمَا ** جُلَسَاؤُكَ الحُسَّادُ وَالشُّمَّاتُ

وَدَعِ التَّوَقُّعَ لِلحَوادِثِ إِنَّهُ ** لِلْحَيِّ مِنْ قَبْلِ المَمَاتِ مَمَاتُ

فَالهَمُّ لَيْسَ لَهُ ثَبَاتٌ مِثْلَمَا ** فِي أَهْلِهِ مَا لِلسُّرُورِ ثَبَاتُ

لَوْلا مُغَالَطَةُ النُّفُوسِ عُقُولَهَا ** لَمْ تَصْفُ لِلْمُتَيَقِّظِينَ حَيَاةُ

وقَالَ أيضًا:

بِحِفْظِ الجِسْمِ تَبْقَىٰ النَّفْسُ فِيهِ ** بَقَاءَ النَّارِ تُحْفَظُ بِالوِعَاءِ

فَبِاليَأْسِ المُمِضِّ فَلَا تُمِتْهَا ** وَلَا تَمْدُدْ لَهَا طُولَ الرَّجَاءِ

وَعِدْهَا فِي شَدَائِدِهَا رَخَاءً ** وَذَكِّرْهَا الشَّدَائِدَ فِي الرَّخَاءِ

يُعَـــدُّ صَـــلاحُهَا هَـــذَا وَهَـــذَا ** وَبالتَّرْكِيـــبِ مَنْفَعَـــةُ الـــدَّوَاءِ

وقَدْ كَانَ عُمومُ السَّلَف يَخضِبونَ الشَّيبَ؛ لِئلَّا يَرَىٰ الإنْسَان مِنهُم مَا يكرَهُ، وإنْ كَانَ الخِضابُ لا يعدمُ النَّفْسَ عِلمهَا بذَلِكَ، ولَكنَّه نَوعُ مُخادعةٍ للنَّفْسِ، ومَا زَالَتِ النُّفُوسُ تَرىٰ الظَّاهِرَ، وإنَّمَا الفِكرُ والعَقْلُ معَ الغَائبِ. ولا بُدَّ مِن مُغالطَةٍ تَجرِي؛ ليَتمَّ العَيْشُ، ولَوْ عَملَ العَالمُ بمُقتضَىٰ قِصر الأَمَلِ، مَا كتبَ العِلْمَ ولا صَنَّفَه.

فافهَمْ هَذَا الفَصْلَ مع الَّذِي تقدَّمَه، فَإنَّ الأَوَّل فِي مَقامِ العَزِيمَة، وهَذَا فِي مَكانِ الرُّخْصَةِ، ولا بُدَّ للتَّعبِ من رَاحةٍ وإعَانةٍ، واللهُ ﷻ مَعكَ عَلَىٰ قَدرِ صِدقِ الطَّلَبِ، وقُوَّة اللُّجْإِ، وخَلعِ الحَولِ والقُوَّة، وهُوَ المُوفِّقُ.

* * *

فَصْلٌ[1]

كَانَ العَملُ بالعِلْمِ قديمًا جِدًّا كُلَّهُ، فَقَدْ صارَ العِلْمُ عِنْدَ جُمهُورِ العُلَمَاءِ صِناعةً

يَعْمَلُونَ مِنْهُ مَا يُوَافِقُ أَغْرَاضَهُمْ، ويَترُكُونَ البَاقِيَ، فتَرَىٰ العَالِـمَ فِي هَذَا الزَّمَانِ لا يَكادُ يُمْسِكُ عَنْ غِيبَةٍ، [وَيَتَسَقَّىٰ] مِنْ عِرْضِ نَظِيرِهِ، ولا يُبالِي مِنْ أَيْنَ يَتناوَلُ الدُّنْيَا.

ثُمَّ تَرَاهُمْ يَزدحِمُون عَلَىٰ الْـمَراتِبِ، فالشَّاهِدُ يُعْطِي الْـمَالَ لتُقبَلَ شهادَتُهُ؛ لِأَنَّهُمْ أَحَبُّوا الرُّتْبَةَ، وَلَا عِلْمَ لَهُمْ، فَاقْتَنعُوا بِرُتْبَةٍ تُقِيمُهَا الْعَوَامُّ، فَيَقُولُونَ عَلَىٰ الْبَابِ: «شَهَادَةً حَرَسَ اللهُ نِعْمَتَكَ»، فيَقُولُ: «أَشْهَدُ عَلَيْكَ، حَرَسَ اللهُ نِعْمَتَكَ»، ثُمَّ

(١) من هنا تبدأ الفصول الزائدة في أ، ي.

يُحمَلُ الشَّاهِدُ، فَيَشْهَدُ عَلَىٰ الْمُكْرَهِينَ، وَعَلَىٰ مَنْ لَا يَعْرِفُونَهُ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ الْمُعَرَّفَ قد أخذَهُ مِنْهُ جُنَّةً فَعُرِف بِهِ لِأَجْلِهَا، فَإِذَا أَدَّىٰ الشَّهَادَةَ عِنْدَ الْحَاكِمِ قَالَ: «أَعْرِفُهُ بنَسَبِهِ واسْمِهِ مَعْرِفَةً تَغُبُّ بِالْجَهَالَةِ»، وَهُوَ يَدْرِي أَنَّهُ كَاذِبٌ فِي هَذَا، وهَذَا فِسْقٌ يُنافِي الْعَدَالَةَ، فَحَفِظُوا جَاهَ الدُّنيَا، وَضَيَّعُوا جَاهَ الْآخِرَةِ.

أَنْشَدَنَا [الشَّيخ] أَبُو مُحمَّدٍ الْمُقْرِئُ:

عَــدِمُوا الْعُلُــومَ فَأَصْــبَحُوا ** يَتَزَاحَمُــونَ عَلَــىٰ الــشَّهَادَهْ
فَــالْعِلْمُ وَالْإِسْــلَامُ مُــنْذُ ** طَلَبُــوا الــشَّهَادَةَ فِــي شَــهَادَهْ
لا تَــرْكَنَنَّ لِخَطِّهِــمْ ** وَاللهِ مَــا يَــسْوِي مِــدَادَهْ

فَإِنْ عَرَفَ أَحَدُهُمْ شَيْئًا خَطَبَ الْوِلَايَاتِ وَالْقَضَاءَ، فَلَا تَسْأَلْ عَمَّا يُحْكَىٰ عَنْهُ مِنْ أَخْذِ الرِّشَا وَالْبَرْطِيل، فَإِنْ تَقَدَّمَ السُّلْطَانُ إِلَيْهِمْ بِمَا لَا يَجُوزُ؛ فَعَلُوا، وَقَالُوا: «مَا يُمْكِنُ الْخِلَافُ»! وَلَوْ كَانَ فِيهِمْ دِينٌ؛ لَمَا تَعَرَّضُوا لِمَا يَؤُولُ إِلَىٰ ذَلِكَ.

وَأَمَّا انْطِلَاقُ عُلَمَاءِ عَصْرِنَا فِي الْفَتْوَىٰ بِالْجَهْلِ؛ فَلَا تَسْأَلْ عَنْهُمْ.

وَإِذَا مَاتَ لِأَحَدِهِمْ مَيْتٌ؛ لَبِسَ ثِيَابَ الْمَعصِيَةِ سَنَةً؛ فِي أَحْوَالٍ مَشهُورةٍ، يُغْنِي عِرْفَانُهَا عَنْ شَرْحِهَا.

وَفِيهِمْ مَنْ يُقَاوِمُ لَهُ حُبُّ الرِّئَاسَةِ إِلَىٰ الْمَوْتِ، حَتَّىٰ إِنَّهُ يُوصِي بِالْقُرْبِ مِنْ بَعْضِ الْأَئِمَّةِ، وَإِنْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ فِي ذَلِكَ مُزَاحَمَةً لِلْمَوْتَىٰ، وَكَسْرًا لِعِظَامِهِمْ، وإِخْرَاجَهُ لَهُمْ عَنْ أَمَاكِنِهِمْ، وَهُمْ أَحَقُّ بِهَا لِلسَّبْقِ.

وَالطَّامَّةُ الكُبْرَىٰ رُؤْيَةُ هَؤُلَاءِ أَنْفُسَهُمْ بعَينِ أَنَّهُمْ يَصْلُحُونَ لِمُزَاحَمَةِ الْأَكَابِرِ، وَلقَدْ قِيلَ لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَحِمَهُ اللهُ: تُدْفَنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ فَقَالَ: لَأَنْ أَلْقَىٰ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بِكُلِّ ذَنْبٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَرَىٰ نَفْسِي أَهْلًا لِذَلِكَ.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «كَسْرُ عَظْمِ الْمَيِّتِ كَكَسْرِهِ حَيًّا»(١).

وَرَأَيْتُ فِي زَمَانِي جَمَاعَةً أَوْصَوْا بِهَذَا، وَاسْتَخْرَجُوا تَوَاقِيعَ، فَمِنْهُمْ أَبُو مُحَمَّدٍ الْمُقْرِئُ، اسْتَخْرَجَ تَوْقِيعًا أَنْ يُدْفَنَ عَلَىٰ جَدِّهِ [أَبِي](٢) مَنْصُورٍ الْخَيَّاطِ، فَلَمَّا عَلِمْتُ بِهَذَا قُلْتُ: هَذا الْبُعْدُ عَنِ الْفِقْهِ.

وَرَأَيْتُ أَبَا الْمَعَالِي ابْنَ شَافِعٍ قَدِ اسْتُخْرِجَ لَهُ تَوْقِيعٌ أَنْ يُدْفَنَ عَلَىٰ شَيْخِهِ ابْنِ عَقِيلٍ، وَكَانَ مِمَّنْ يُفْتِي؛ فَعَجِبْتُ مِنْ فِعْلِهِ، وَوَصَّىٰ بِهِ ابْنُهُ أَبُو الْفَضْلِ أَيْضًا، وَاسْتُخْرِجَ لَهُ تَوْقِيعٌ، وَدُفِنَ فَوْقَ أَبِيهِ.

وَحَدَّثَنِي عَبْدُ الْمُغِيثِ عَنِ الْقَاضِي أَبِي يَعْلَىٰ ابْنِ الْفَرَّاءِ -وَكَانَ أَحَدَ الْمُدَرِّسِينَ الْمُفْتِينَ- أَنَّهُ سَأَلَ فِي مَرَضِهِ أَنْ يَمْضِيَ إِلَىٰ الْوَزِيرِ ابْنِ هُبَيْرَةَ، وَيَسْتَأْذِنَ لَهُ أَنْ يُدْفَنَ عَلَىٰ أَبِي الْوَفَاءِ ابْنِ الْقَوَّاسِ، وَهُوَ فِي دَكَّةِ قَبْرِ [أَحْمَدَ]، وَقَالَ: هُوَ جَدِّي لِأُمِّي، فَمَضَىٰ عَبْدُ الْمُغِيثِ، وَاسْتَأْذَنَ الْوَزِيرَ، فَأَنْكَرَ الْوَزِيرُ ذَلِكَ، وَقَالَ: كَيْفَ يَجُوزُ لَنَا أَنْ نَنْبِشَ قُبُورَ الصَّالِحِينَ؟! فَلَمْ يَفْعَلْ.

فَعَجِبْتُ: كَيْفَ اسْتَجَازَ ذَلِكَ الرَّجُلُ مَا لَوِ اسْتُفْتِيَ فِيهِ لَمَنَعَ مِنْهُ! وَكُلُّ ذَلِكَ لِحُبِّ الرِّيَاسَةِ؛ فَإِنَّهُ غَطَّىٰ عَلَىٰ الْعِلْمِ.

وَبَلَغَنِي عَنْ أَبِي الْفَضْلِ ابْنِ شَافِعٍ أَنَّهُ أَوْصَىٰ؛ فَقَالَ: لَوْ دَفَنْتُمُونِي أَرْبَعِينَ سَنَةً فِي الدَّارِ، فَلَا تُخْرِجُونِي إِلَّا إِلَىٰ دَكَّةِ قَبْرِ أَحْمَدَ.

---

(١) موقوف: أخرجه أحمد (٢٤٣٠٨)، وأبو داود (٣٢٠٧)، وابن ماجه (١٦١٦)، وابن حبان (٣١٦٧) من حديث عائشة، واختلف في رفعه، والأكثر علىٰ وقفه، وقد حسَّنه ابنُ القطان، كما في «التلخيص الحبير» (٣/ ٥٤)، وقوىٰ حاله النووي في «المجموع» (٥/ ٢٦٧).

(٢) في الأصلين «أبو».

وَلَقَدْ قَرَأْتُ بِخَطِّ ابْنِ عَقِيلٍ أَنَّهُ قَالَ: لَـمَّا حَضَرَتْ أَبَا سَعِيدٍ الْـمَخْرَمِيَّ الْوَفَاةُ، غَلَبَتْ عَلَيْهِ مَحَبَّةُ الْقُرْبِ مِنْ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَوَصَّىٰ إِلَىٰ نَقِيبِ النُّقَبَاءِ أَنْ يَجْعَلَ دَفْنَهُ تَحْتَ رِجْلِ الْقَبْرِ، جَهْلًا مِنْهُ وَغَفْلَةً عَمَّا فِي طَيِّ ذَلِكَ مِنَ الْخَطَإِ مِنْ نَبْشِ قُبُورِ كِرَامٍ قَدْ مَاتُوا وَأَئِمَّةٍ وَفُضَلَاءَ سَبَقُوا، فَلَمَّا نُبِشَ الْـمَكَانُ بَرَزَتْ عِظَامُهُمْ وَتَكَسَّرَ بَعْضُهَا بِالْـمِسْحَاةِ، فَخَرَجَ مِنْهَا أَرْبَعُ رحل، وَكَانَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْعِصْيَانِ: نَبْشُ الْقُبُورِ، وَمُزَاحَمَةُ أَرْبَابِهَا الَّذِينَ كَانَ لَهُمْ حَقُّ السَّبْقِ، وَكَسْرُ عِظَامِهِمْ، مَعَ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**كَسْرُ عَظْمِ الْـمَيْتِ كَكَسْرِهِ حَيًّا**»[(١)]، يَعْنِي: فِي الْحُرْمَةِ.

قَالَ[(٢)]: وَقَدْ كَانَ قَبْرُ أَبِي حَنِيفَةَ تَحْتَ سَقْفٍ، عَمِلَهُ بَعْضُ أُمَرَاءِ التُّرْكُمَانِ، وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ -وَأَنَا صَبِيٌّ- عَلَيْهِ خربشت، وَذَلِكَ فِي سَنَةِ ثَمَانٍ[(٣)] وَثَلَاثِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ[(٤)]، فَلَمَّا جَاءَ شَرَفُ الْـمُلْكِ، وَكَانَ حَنَفِيًّا مُتَعَصِّبًا، عَزَمَ عَلَىٰ إِحْدَاثِ قُبَّةٍ، فَبَنَىٰ هَذِهِ الْقُبَّةَ، وَقَدَّرَ لَهَا مَا بَيْنَ أُلُوفٍ مِنَ الآجُرِّ، وَحَفَرَ أَسَاسَ الْقُبَّةِ، وَطَلَبُوا الْأَرْضَ الصَّلْبَةَ، فَلَمْ يَبْلُغُوا إِلَيْهَا إِلَّا بَعْدَ حَفْرِ سَبْعَةَ عَشَرَ ذِرَاعًا فِي [تِسْعَةَ عَشَرَ][(٥)] أَذْرُعَ، فَخَرَجَ مِنْ هَذَا الْحَفْرِ عِظَامُ الْـمَوْتَىٰ، أَرْبَعُ مِائَةِ ضِلْعٍ، وَنُقِلَ جَمِيعُهَا إِلَىٰ بُقْعَةٍ، وَحُفِرَ لِتِلْكَ الْعِظَامِ وَدُفِنَتْ.

---

(١) **موقوف**: أخرجه أحمد (٢٤٣٠٨)، وأبو داود (٣٢٠٧)، وابن ماجه (١٦١٦)، وابن حبان (٣١٦٧) من حديث عائشة، واختلف في رفعه، والأكثر علىٰ وقفه، وقد حسَّنه ابنُ القطان، كما في «التلخيص الحبير» (٣/ ٥٤)، وقوىٰ حاله النووي في «المجموع» (٥/ ٢٦٧).

(٢) هذا النقل ساقه المصنف أيضًا في تاريخه «المنتظم» (٨/ ٢٤٥) ومنه أصلحت ما في المخطوط من تصحيف وتحريف.

(٣) في أ: «ثمانين». في ي: «سبع وثمان».

(٤) في أ، ي: «وسبعمائة»، وهو خطأ بين، وعلىٰ الصواب في «المنتظم».

(٥) في ي: «سبعة».

قَالَ ابْنُ عَقِيلٍ: فَأَخَذَنِي لِذَلِكَ الْـمُقِيمُ الْـمُقْعِدُ، وَكَانَ خَرَجَ فِي ذَلِكَ الْأَسَاسِ شَخْصٌ مُنْتَظِمُ الْعِظَامِ، لَهُ رِيحٌ كَرِيحِ الْكَافُورِ، وَتَكَلَّمَ النَّاسُ فِيهِ عَلَىٰ عَادَةِ الْعَوَامِّ، وَلَا أَدْرِي أَطِيبًا كَانَ أَوْ رِيحَ الْعَفَنِ الْـمُشَبَّهِ بِرِيحِ الْكَافُورِ؟ فَقُلْتُ: هَذَا بُنْيَانٌ بُنِيَ عَلَىٰ غَيْرِ تَقْوَىٰ مِنَ اللهِ، وَمَا يُدْرِيكُمْ: لَعَلَّ النُّعْمَانَ خَرَجَتْ عِظَامُهُ فِي جُمْلَةِ هَذِهِ الْعِظَامِ، وَبَقِيَتِ الْقُبَّةُ فَارِغَةً مِنْ مَقْصُودِ بَانِيهَا؟! فَبَلَغَتْ كَلِمَتِي إِلَىٰ شَرَفِ الْـمُلْكِ، فَأَنْفَذَ شَاكِيًا مِنِّي طَالِبًا مُقَابَلَتِي، فَأَحْضَرَنِي الشَّيْخُ أَبُو مَنْصُورِ ابنُ يُوسُفَ، وَقَالَ: يَا سَيِّدِي: مَا تَعْلَمُ كَيْفَ حَالُنَا مَعَ هَؤُلَاءِ الْأَعَاجِمِ؟! فَقُلْت: يَا سَيِّدِي: رَأَيْتُ مُنْكَرًا فَاشِيًا، فَمَا مَلكتُ نُفْرَتِي الدِّينِيَّةَ[1]، وَالْآنَ؛ فَلَا أُعِيدُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ.

فَصْلٌ

مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ بِرَبِّهِ ﷻ عَلَى ضَرْبَيْنِ

مَعْرِفَةُ الْأَصْلِ؛ «التَّوْحِيدُ»، فَكُلُّ مُسْلِمٍ يَعْلَمُ أَنَّ لَهُ خَالِقًا. وَمَعْرِفَةٌ خَاصَّةٌ، لَهَا عَلَامَاتٌ، تَزِيدُ وَتَنْقُصُ عَلَىٰ مِقْدَارِ قُوَّةِ تِلْكَ الْـمَعْرِفَةِ.

فَالْخَوْفُ مِنْ وَعِيدِهِ، وَالرَّجَاءُ لِـمَوْعُودِهِ، وَالتَّسْلِيمُ لِأَمْرِهِ، وَالْقِيَامُ بِفَرْضِهِ، وَالازْدِجَارُ عَنْ نَهْيِهِ: عَلَامَاتُ [مَعْرِفَةِ الْـمُسْلِمِينَ][2].

وإِذَا أَردْتَ الـمَعْرِفَةَ؛ كَانَ هُوَ الْـمُسْتَعَانَ فِي الشَّدائِدِ، فإِذَا زَادَتْ؛ صَارَ أَنِيسًا فِي الْخَلَواتِ، فإِذَا زَادَتِ؛ امْتَنَعَ الِانْبِسَاطُ بقُوَّةِ الاحْتِشَام، حَتَّىٰ إِنَّ خَلْقًا مِنَ السَّادَاتِ كَانُوا لَا يَسْتَنِدُونَ أَدبًا، وَكَانَ الإِمَامُ لا يَقْعُدُ فِي بَيْتِهِ مُتَرَبِّعًا.

---

(١) في أ: «ما رأيت منكرًا فأخشىٰ مما ملكت بقربىٰ المدينة».

(٢) في ي: «معرفته».

❁ فَصْل ❁

كَانَتِ الدُّنْيَا فِي نفسِهَا طيِّبةً، وإنْ لـم تَخْلُ مِنْ كَدَرٍ، إلَّا أنَّه كَانَتِ الْـمُلُوكُ تَبسُطُ الْعَدْلَ، فَكَانَ سَبَبًا لِعِمَارَةِ الْأَرْضِ

وَمِن أواخرِ أَحْوَال الدُّنْيَا بَغْدَاد؛ فَإِنَّ عُلَمَاءَ الْأَوَائِلِ قَالُوا: أَقَالِيمُ الْأَرْضِ سَبعَةٌ، فَرَسَمَتْهَا الْهِنْدُ، فَجعَلَتْ صِفتَهَا كَأَنَّهَا حَلْقَةً:

فَالْإِقْلِيمُ الْأَوَّلُ مِنْهَا: إِقْلِيمُ بِلَادِ الْهِنْدِ.

وَالْإِقْلِيمُ الثَّانِي: إِقْلِيمُ بِلَادِ الْحِجَازِ.

وَالْإِقْلِيمُ الثَّالثُ: إِقْلِيمُ مِصْرَ.

وَالْإِقْلِيمُ الرَّابعُ: إِقْلِيمُ بَابِلَ، وَهُوَ أَوْسَطُ الْأَقَالِيمِ وَأَعْمَرُهَا، وَفِيهِ جَزِيرةُ الْعَرَبِ، وَفِيهِ الْعِرَاقُ الَّذِي هُوَ سِرُّ الدُّنيَا، وَبَغْدَادُ فِي وَسَطِ هَذا الْإِقْلِيمِ.

وَالْإِقْلِيمُ الْخَامِسُ: بِلَادُ الرُّومِ وَالشَّامِ.

وَالْإِقْلِيمُ السَّادسُ: التُّرْكُ.

وَالْإِقْلِيمُ السَّابعُ: بِلَادُ الصِّينِ.

فَالْإِقْلِيمُ الَّذِي فِيهِ الْعِراقُ هُوَ صَفْوَةُ الْأَرْضِ وَوَسَطُهَا، لَا يَلْحَقُ مَنْ فِيهِ عَيْبُ شَرَفٍ وَلَا تقْصِيرٍ، وَلِذَلِكَ اعْتَدَلَتْ أَلْوَانُ أَهْلِهِ وَامْتَدَّتْ أَجْسَامُهُمْ، وَسَلِمُوا مِن شُقْرَةِ الرُّومِ وَالصِّقَالِيَّةِ، وَمِنْ سَوَادِ الْحَبَشِ وَسَائِرِ أَجْنَاسِ السُّودَانِ، وَمِنْ غِلَظِ التُّرْكِ، وَمِنْ جَفَاءِ أَهْلِ الْجِبَالِ، وَمِنْ دَمَامَةِ أَهْلِ الصِّينِ وَمَنْ جَانَسَهُمْ.

وَكَمَا اعْتَدَلَ أَهْلُ الْعِرَاقِ فِي الْخَلْقِ؛ فَكَذَلِكَ لَطُفُوا فِي الْعَطِيَّةِ وَالْأَدَبِ، وَلَـمَّا بَنَىٰ الْـمَنْصُورُ بَغْدَادَ فَأَحْسَنَ بِنَاءَهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِبِنَاءِ الْكَرْخِ، كَانَتْ الْأَنْهَارُ تَجْرِي بها

وتتحوَّفُ بَيْنَ الْـمَحَالِّ وَالدُّورِ، وَكَانَ أَكْثَرُهَا يَأْخُذُ مِنْ نَهْرِ عِيسَىٰ، وَكَانَ بِبَغْدَادَ سِتُّونَ أَلْفَ حَمَّامٍ، ثُمَّ بَنَىٰ الْـمَنْصُورُ الرِّصَافَةَ لِوَلَدِهِ، وَمَدَّ الْجِسْرَ.

وَأَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّحمنِ أَبُو مُحمَّدٍ القَزَّازُ، قَالَ: حَدَّثَنَا أحمدُ بنُ عليِّ بنِ ثابتٍ(١)، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عليٍّ ابنَ شَاذَانَ يَقُولُ: أَدْرَكْتُ بِبَغْدَادَ ثَلَاثَةَ جُسُورٍ.

وحَدَّثَنِي(٢) هِلَالُ بْنُ الحَسَنِ، قَالَ: ذَكَرَ أَنَّهُ أُحْصِيَتِ السُّمَيْرياتُ المُعبرانيَّاتُ فِي أَيَّامِ أَبِي أَحْمَدَ الْـمُوَفَّقِ، فَكَانَتْ ثَلَاثِينَ أَلْفًا، قَدْرَ مَن كَسَبَ مُلَّاحُهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ.

وَكَانَ ابْنُ عَقِيلٍ يَقُولُ: كَانَ بِبَابِ الطَّاقِ شَارِعٌ مِمَّا يَلِي دِجْلَةَ مِنْ أَحَدِ حَاشِيَةِ قُصُورٍ عَلَىٰ دِجْلَةَ، كَالطِّرَازِ مُمْتَدٌّ مِنْ عقدِ الْجِسْرِ إِلَىٰ أَوَائِلِ الزَّاهِرِ، وفِي جانبِهِ الآخَرِ مساجدُ أَرْبَابِ القُصُورِ، ومساكِنُ عُلَمَائِهِم، وفِي خِلَالِ ذَلِكَ اصْطَبْلَاتُهُم، وكَانَ قَصْرُ الوَافِي عَلَيهِ ألفُ مخلاةٍ بَيْنَ خَيْلٍ وبغَالٍ، فِي آخرِ هَذَا السُّوقِ مَسَاكِنُ البِنَاءِ والروشاءِ، والشَّوَارِعُ والدُّرُوبُ علىٰ نِهَايَةِ الحُسنِ.

قَالَ: وَشَاطِئُ الْجَانِبِ الغَرْبِيِّ قُصورٌ مُنتظِمَةٌ، دورٌ ودواليتُ وبساتينُ ورواشنُ مقابلةٌ لِأمثالِهَا مِنَ الْجَانِبِ الشَّرقِيِّ، وبَيْنَ كُلِّ دارٍ خطيةٌ مُسَرَّجَةٌ لرَبِّ الدارِ بالْحِلْيَةِ المَليحَةِ، والبرحلشانِ العجيبةِ، والبط يتلاعبُ فِي شرعةِ الدارِ الشاطئيَّةِ، ولَرُبَّمَا اخْتَلَطَتْ أُصولُ أعانيها بِرنَيمِ دَوَالِيهَا، ونعيقِ بَطِّهَا وصجة غُلمَانِهَا، ودجلة تسيلُ بَيْنَ سماطِيِّ قُصُورِهَا الشاطئيَّةِ بِجَانِبِيهَا.

---

(١) هو الخطيب البغدادي، والنص في «تاريخ» (١/ ٤٣٨)، وفي «المنتظم» (٨/ ٨٠) أيضًا، ومنهما أصلحت الأخطاء.

(٢) قائل: «وحدثني» هو الخطيب البغدادي.

قَالَ: وَلَقَدْ تزَلْتُ كَثِيرًا فِي سمارية منحدرًا، فَلَا أَزَالُ أَسْمَعُ رَنِيمَ الدَّوَالِيبِ مِنْ مشرعةِ الجسرِ ببابِ الطاقِ، وإلىٰ بابِ الراتبِ، وكانت لدُورِ الشَّطِّ أبوابٌ إلىٰ شوارِعِهَا عَلَىٰ كُلِّ بابٍ خيلٌ مُسَرَّجَةٌ مُهَيَّأَةٌ، كَمَا أَنَّ بَيْنَ يدي رواشنها خيطية أو زمون.

وَلَقَدْ رَأَيْنَا أسواقَ الكَرخِ، وبابَ الطاقِ لا يختلطُ الْعَطَّارُونَ بأربابِ الزَّهَائِمِ والوَرَائِحِ المُنكرَةِ، ولا أربابِ الأنماطِ بأربابِ الأسقاطِ، ولا أسواقِ البَزَّازِينَ بأربابِ الدواجنِ، حتَّىٰ تَكَرْبَلَتِ الْأَحْوالُ، وكَانَ لِأَرْبَابِ الْمَرَوَاتِ دُرُوبٌ تخُصُّهُمْ كدُرُوبِ الزَّعْفَرَانِي بالكَرْخِ، لا يسكُنُ فيه مِنْ أربابِ المِهَنِ، بل أهلُ البرِّ والعِطْرِ، ودَرْبٌ سليمٌ بالرصافةِ مقصورٌ عَلَىٰ القُضَاةِ والشُّهُودِ وكِبَارِ التُّجَّارِ، والسُّفُنُ المصرُفَاتُ لا يَرْكَبُهَا إِلَّا أربابُ المُقَاطَعَاتِ الرجلُ وغُلَامُهُ.

قَالَ: وكنت أسمعُ من المشايخِ أنْ يدخلَهُ خمسُ مائةِ سماريةٍ مُصفرةٍ مُزَيَّنَةٍ لا يركبُ فِيهَا إِلَّا طُلَّاقُ(١) التُّجَّارِ والأَجْنَادُ والمَلَّاحُونَ بالثيابِ الجميلةِ، وجَمَعَتِ الكَرخ منازلَ عجيبةً، بديعةَ البناءِ، فسيحةَ الدورِ، وكَانَ بسُورِ الحَدَّادِينَ دارُ كُتبٍ فيها اثنَا عَشَر ألفَ مُجَلَّدٍ، وكان الناسُ كأَنَّهُمْ فِي دعوةٍ، والقُرَّاءُ والوُعَّاظُ وأسبابُ النُّزَهِ.

هَذَا ممَّا أدركَهُ ابنُ عَقيلٍ، وهُوَ مِنَ المُتَأَخِّرِينَ.

وقد حُدِّثْنَا أَنَّ بعضَ وُزَرَاءِ الأعَاجِمِ، وكان يُقَالُ لَهُ فَخْرَ الملكِ، ويُكنىٰ أبا غالب، دخل بغداد قُبيلَ زَمَنِ ابْنِ عَقِيلٍ، فقِيلَ له: إِنَّ عَادَةَ البَغْدَادِيِّينَ فِي رمضانَ تَفْرِقَةُ الحَلْوَىٰ، فقَالَ: اشْتَرُوا لَنَا حَتَّىٰ يُفَرَّقَ عَلَىٰ جُنْدِنَا، فَمَضَوْا إلىٰ حَلَاوَىٰ بَيْنَ سُورَيِ الكَرْخِ، فقالُوا: نُرِيدُ أنْ تعمَلَ ألف حسكنابكة فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مَنًّا، فَقَالَ:

---

(١) أشار ناسخ أ فِي الحاشية أنه فِي نسخة «إلا طراف» وهي نسخة ي.

خُذُوا، فقَالُوا: وعِنْدَكَ هَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ، فَأَخْبَرُوا الوَزِيرَ، فَعَجِبَ، وَقَالَ: قُولُوا لَهُ: كَمْ قَدْ بِعْتَ فِي هَذَا النصفِ؟ فَسَأَلُوهُ، فَقَالَ: لَا أَدْرِي، لَكِنْ قَدْ كَانَ عِنْدِي ثَلَاثُمِائَةِ مَنًّا كاغد، وقد نَفَدَتْ فِي اسْتِعْمَالِي لَهَا فِي الْحَلْوَىٰ.

[وَحدَّثني بِهذِه الحِكايَةِ مُحمَّدُ بنُ أبي مَنْصُورٍ الحَافِظُ عَن بَعْضِ شُيوخِه].

وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدٌ قَالَ: قَرَأْتُ بِخَطِّ طاهرٍ النِّيسَابُورِيِّ، أنَّ فَخْرَ الملكِ هَذَا رُفعتْ إليهِ سعايةٌ برَجل، فوَقَّعَ عَلَيْهَا: «السِّعَايَةُ قبيحةٌ، وإنْ كانتْ صحيحةً، ولَئِنْ كُنْتُ أُخْرِجُهَا مخرجَ النُّصحِ، فخُسْرانُكَ فيها أكثرُ من الرِّبْحِ، وأَنَا لا أدخلُ فِي محصولٍ، وأسمعُ قولَ مهتوكٍ فِي مستورٍ، ولَوْلَا أنَّكَ فِي خفارةِ شَيْبِكَ لَقَابَلْتُكَ عَلَىٰ جريرتكَ مُقابلةً تُشبهُ أفعالَكَ، وتردعُ أمثالَكَ، فاسْتُرْ علىٰ نَفْسِكَ هَذَا الْعَيْبَ، واتَّقِ مَنْ يعلمُ الغيبَ؛ فإنَّ اللهَ للصَّالِحِ والطَّالِحِ بالمرصادِ».

ورأيتُ بخَطِّ شيخِنَا أبي الحسنِ الزَّاغُونِيِّ، قَالَ: حَدَّثَنَا غيرُ واحدٍ أنَّهم أَحْصَوْا أضواءَ المُبكِّرينَ إلىٰ الجامعِ يومَ الجمعةِ، ينتظِرُون صلاةَ الجمعةِ، فعُدُّوا نحوًا من أربعةِ مائةِ ضوءٍ.

وهَذِهِ الأشياءُ يَطُولُ ذِكْرُهَا ويَكْثُرُ، وقد كَانَ ببغدادَ من العُلماءِ والزُّهَّادِ مَنْ يطولُ الإخبارُ عَنْ أحوالِهِ، وقد أشرتُ إلىٰ ذِكْرِ ساداتِهم فِي كتابٍ مُسمَّىٰ بـ«صِفَةِ الصَّفْوَةِ».

ثم قد كَانَ طُلَّابُ العِلْمِ والمُنفردُون بالزُّهدِ يُواسَوْنَ بالمالِ الغزيرِ؛ تارَةً من بيتِ المالِ، وتارَةً من الإخوانِ؛ بلا مَنٍّ ولا أذًىٰ، فمَا أحسنَ مَا كانتِ الدُّنيَا بسَلاطينِهَا، وعُلمائِهَا، وزُهَّادِهَا، وتُجَّارِهَا!

وقصةُ دعلجَ معرفةٌ مشهورةٌ؛ فِي أنَّه أعطىٰ رَجُلًا واحدًا عَشرةَ آلافِ دينارٍ [فِي مَرَّةٍ وَاحِدَةٍ، وكَانَ يَعْمُر المَساجِدَ والنتاطبَ.

وحُدِّثنا عَن أبي عَبْد الله السَّلَماسِيِّ، وكَانَ كسارًا مِن أَهْلِ الكَرْخِ، أَنَّهُ اسْتَقْرَضَ مِنْهُ السُّلْطانُ عَشْرَةَ آلافِ دينارًا]، واتَّفَقَ أنَّه اشْتَرَىٰ شيئًا بعَشْرَةِ آلافٍ، فانقلَبَتِ السُّوقُ فباعَهُ بعِشرِينَ ألفًا، وَرَدَّ السُّلطانُ عليه مَا استقرضَ، فقَالَ: لا أَقْبَلُهُ، هو فِي حِلٍّ، فقَالَ السُّلطانُ: نحنُ أغنياءُ عَنْ هَذَا، فَقَالَ: أَنَا أسألُكُمْ قَبُولَهُ؛ لِأَنَّه يأكلُ مِنْ مَالِي قَوْمٌ صَالِحُونَ، فَإِذَا عَلِمُوا بِأَنِّي قَبِلْتُ مِنْكُمْ لَمْ يَأْكُلُوا. وكَانَ يُعْطِي أَبَا الحَسَنِ القَزْوِينِيَّ كُلَّ شَهْرٍ عَشْرَةَ دَنَانِيرَ.

وَقَدْ كَانَ للنَّاسِ مِثْلُ أَبِي مَنْصُورَ بْنِ يُوسُفَ، وابنِ رضوانَ، وابنِ جردةَ، وغيرِهم يَتَفَقَّدُونَ الفُقَرَاءَ.

وأَحْسَنُ مَنْ أَدْرَكْنَا زَيْنُ بْنُ العَطَّارِ، وَمَا كَانَ يخرجُ سِوَىٰ الزَّكاةِ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يَعُمُّ بِهَا الخَلْقَ لِكَثْرَتِهَا، فَلَقَدْ جَاءَنِي يَوْمًا بِثِيَابٍ وَسَأَلَنِي قَبُولَهَا، وكَانَتْ قِيمَتُهَا سِتِّينَ دِينَارًا، وَمَا زَالَ يَقُومُ يُكَاتِبُنِي إِلَىٰ أَنْ مَاتَ، فَانْطَبَقَ الدَّفْتَرُ بَعْدَهُ.

وَرَأَيْنَا مِنْ بُخْلِ أَهْلِ الزَّمَانِ بِالزَّكَاةِ الْوَاجِبَةِ مَا لَا يُذْكَرُ، وَمِنْ فُتُورِ طُلَّابِ الْعِلْمِ مَا لَا يُوصَفُ، وَمِنْ خَسَاسَةِ هِمَمِ الطَّلَبَةِ لِلْعِلْمِ وقُصُورِهَا مَا لا يَصْلُحُ ذِكْرُهُ.

وفِي الجُمْلَةِ؛ انْقَلَبَ الزَّمَانُ وانْعَكَسَ، فَصَارَتِ الْعِمَارَةُ خَرَابًا، وَالْكَرَمُ بُخْلًا، وَصَارَ مَكَانَ كُلِّ خَيْرٍ شَرًّا، وَكُلِّ عِلْمٍ جَهْلًا، وكُلُّ سَلَامَةِ صَدْرٍ خُبْث، وَعَمَّ الْجَهْلُ الْعُلَمَاءَ، وَالرِّيَاءُ الزُّهَّادَ، والخيانةُ بالأصدقاءِ.

فعَلَىٰ الحقيقةِ قَدْ مَاتَتِ الدُّنيَا، وَزَالَ طيبُ العيشِ بِهَا وَفِيهَا، وَنُسِخَتْ صُورَتُهَا وَنُسِخَ مَعْنَاهَا، فَمَا تَطِيبُ لِعَاقِلٍ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَقَعَ الزُّهْدُ فِيهَا أَنَفَةً مِنْ بقالةِ الأكدارِ.

ثُمَّ لو كانتْ صافيةً، فَأَنْتَ قد تغيَّرَتْ وتكدَّرَتْ حواسُّكَ وضَعُفَتْ بِنْيَتُكَ، واشتَعَلَ الرأسُ شَيبًا، فَمَا تَصنعُ بِدَارٍ مَعْمُورَةٍ مِنْ مَنْقُوصٍ؟!

فَصْلٌ

يَنْبَغِي للعاقلِ أنْ يُبَالِغَ فِي الاحترازِ عَنْ كلِّ مَا يجوزُ وُقُوعُه

فهَذَا هو الحَزْمُ؛ إلَّا أنَّه لا يَنْبَغِي أنْ يُظْهِرَ المُبَالَغَةَ فِي الاحْتِرَازِ؛ فَإِنَّهُ يعودُ علىٰ مُرَادِهِ بالعكسِ، لا يُنَبِّهُ بِشِدَّةِ الاحترازِ علىٰ تناولِ المحروسِ.

ومِنْ أمثالِ العوامِ فِي مثلِ هَذَا قولُهُم: «شِدَّةُ الشَّدِّ تُرْخِي»، وَقَالَ بعضُ الفُقهاءِ: «إِذَا قَفَلَ المُودِعُ صَنْدُوقَ الْوَدِيعَةِ بِقُفْلَيْنِ كَانَ عَلَيْهِ ضَمَانُ الوَدِيعَةِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ صارَ بِالْقُفْلَيْنِ كَالْمُنَبِّهِ عَلَىٰ أَنَّ فِي الصنْدُوقِ مِنْ نَفَائِسِ الْأَمْوَالِ».

ومن هَذَا الْجِنْسِ؛ عَمَلُ الْعَوْسَجِ عَلَىٰ رُءُوسِ الحِيطَانِ، فَفِي ذَلِكَ إِغْرَاءٌ لِمَنْ يُرِيدُ التَّسَلُّقَ أَنْ يَتَسَلَّقَ؛ لِأَنَّهُ يَقُولُ: لَوْلَا أَنَّ هُنَاكَ مَا يَخَافُ عَلَيْهِ لَمْ يَفْعَلْ هَذَا.

وَقَدْ تَنَبَّهَ بَعْضُ الشُّرَطِ لِلسَّارِقِ، بِأَنْ رَآهُ يُكْثِرُ الدُّعَاءَ عَلَىٰ اللِّصِّ!

وَعَلَىٰ مَا ذَكَرْتُ؛ فَلَا يَنْبَغِي الْإِهْمَالُ لِلْأُمُورِ، بَلْ يَكُونُ الِاحْتِرَازُ بَالِغًا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَظْهَرَ ذَلِكَ.

وَقَدْ بَلَغَنِي مِنْ بَعْضِ الْأَذْكِيَاءِ أَنَّهُ دَفَنَ شَيْئًا، فَجَاءَ فَلَمْ يَرَهُ، فَحَمِدَ اللهَ تَعَالَىٰ، ثُمَّ حَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ المَكَانِ فَأَخْرَجَ مَالًا كَثِيرًا، وَقَالَ: خِفْتُ أَنْ يَكُونَ يَرَانِي أَحَدٌ، فَدَفَنْتُ المَالَ، ثُمَّ وَضَعْتُ فَوْقَهُ تُرَابًا، ثُمَّ تَرَكْتُ يَسِيرًا مِنَ المَالِ، فَكَانَ ظَنِّي صَحِيحًا، رَآنِي شَخْصٌ فَحَفَرَ فَوَقَعَ بِذَلِكَ، فَقَالَ: هَذَا هُوَ فَحَسْبُ؟!

فَصْل

اعْلَمْ؛ أَنَّ الْإِنْسَانَ دَرجٌ ومَرَاقٍ إِلَى مَعْرِفَةِ المُسَبِّبِ، وَعَلَى قَدْرِ القُوَّةِ يَرْتَفِعُ المُرْتَقِي، وعَلَى حَسَبِ ضَعْفِهَا يَقِفُ

فَهُوَ فِي ضَرْبِ المثالِ كما رُوِيَ فِي الحديثِ: «عددُ دَرَجِ الْجَنَّةِ بِعَدَدِ آيِ القرآنِ»[١]، يُقَالُ للرَّجُلِ: اقْرَأْ وارْقَ، فيَقْرَأُ آيَةً وَيَصْعَدُ دَرَجَةً، إِلَىٰ أَنْ يُنْجِزَ مَا مَعَهُ، فَمَنْ وَقَفَ مَعَ الأَسْبَابِ وَلَـمْ يَعْبُرْهَا؛ فَقَدْ حُرِمَ مَعْنَىٰ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَشَابَهَ الحَيَوَانَ الْبَهِيمَ فِي ذَلِكَ؛ فَإِنَّ الْفصيلَ لَا يَرَىٰ إِلَّا [إِلْهَامًا][٢].

فَإِذَا كُنْتَ تَرَىٰ المَخْلُوقَ المُعْطِي والحَازِم، وتَرَىٰ الثَّمَرَةَ مِنَ الشَّجَرَةِ؛ فَقَدْ شَابَهْتَ الْبَهَائِمَ، وَهَلْ هَلَكَتِ النَّصَارَىٰ إِلَّا لِوُقُوفِهَا مَعَ صُورَةِ عِيسَىٰ، وَهَلْ هَلَكَتِ المُنَجِّمُونَ إِلَّا لِوُقُوفِهِمْ مَعَ الْحسن، وَلَوِ ارْتَفَعَتِ الْفِكَرُ لَرَأَتْ أَنَّ الْأَجْسَامَ مُفْتَقِرَةٌ إِلَىٰ غَيْرِهَا مُنْفَعِلَةٌ لَا فَاعِلَةٌ، وَلَوْ صَدَّتْ نَمْلَةٌ تَمْشِي عَلَىٰ قِرْطَاسٍ بِحَرَكَةِ قَلَمٍ[٣] عَلَيْهِ؛ لَكَانَ يَنْبَغِي لَهَا لَوْ كَانَ لَهَا ذِهْنٌ أَنْ تَنْظُرَ فِي الصَّادِّ، فَلَوْ قَالَتْ لِلْقَلَمِ: لِمَ صددتَنِي؟ لَقَالَ الْقَلَمُ: سَلِي الْيَدَ الَّتِي تُحَرِّكُنِي، وَلَوْ قَالَتْ لِلْيَدِ، لَقَالَتْ: سَلِي الْإِرَادَةَ الَّتِي تَغَشَّتْنِي.

وَمِن ترقِّي الفقهاءِ إِلىٰ الأسبابِ رَأَوْا أَنَّ الْعطَاءَ وَالْـمَنْعَ وَالضُّرَّ وَالنَّفْعَ مِنَ الْـمُسَبِّبِ، فَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَىٰ التَّعْوِيلِ عَلَىٰ السَّبَبِ.

---

(١) ضعيف: أخرجه الديلمي (٤١٥٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٩٩٨) من حديث عائشة، من طريق الحاكم، وقال: قال الحاكم: هذا إسناد صحيح، ولم يكتب هذا المتن إلا بهذا الإسناد، وهو من الشَّواذِّ. وأخرجه ابن أبي شيبة (٢٩٩٥٢) موقوفًا، ولا يصح مرفوعًا ولا موقوفًا.

(٢) في ي: «إلا ما رخا».

(٣) كذا.

وَلَمَّا رَأَىٰ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ يَدَ الْمُسَبِّبِ آخِذَةٌ بِنَوَاصِي الْأَسْبَابِ مُدَبِّرَةٌ لَهَا، قَالَ لِلْأَسْبَابِ: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ﴾ [هود: ٥٥-٥٦].

وَمَنْ تَلَمَّحَ هَذَا لَمْ يَلُمْ مَخْلُوقًا وَلَمْ يَحْمَدْهُ إِلَّا بِمِقْدَارِ أَمْرِ الشَّرْعِ، وَأَضَافَ الْأُمُورَ إِلَىٰ الْمُسَبِّبِ؛ شَاكِرًا لِنِعْمَتِهِ أَوْ شَاكِيًا مِنْ ذُنُوبٍ أَوْجَبَتْ عُقُوبَتَهُ. وَالسَّلَامُ.

فَصْلٌ

دَوَامُ النِّعَمِ عَلَى الْآدَمِيِّ يُنْسِيهِ قَدْرَهَا، فَإِذَا فُقِدَتْ عَرَفَهَا

وَإِنَّمَا أَعْيُنُ الْخَلْقِ إِلَىٰ فُضُولِ النِّعَمِ؛ يَشْكُرُونَ عَلَيْهَا، وَيَنْزَعِجُونَ لِفَقْدِهَا، فَكَأَنَّهُ لَيْسَ عَلَيْهِمْ نِعْمَةٌ إِلَّا الزَّوَائِدُ، وهَذِهِ غَفْلَةٌ عَظِيمَةٌ.

فَالْوَاجِبُ عَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ أُصُولِ النِّعَمِ؛ فَإِذَا رَأَىٰ صِحَّةَ الْجَسَدِ، وَالتَّمْكِينَ مِنِ اجْتِذَابِ الطَّعَامِ وَإِسَاغَتِهِ، وَسُهُولَةَ انْدِفَاعِ الْأَذَىٰ، وَرَاحَةَ الْجِسْمِ بِالنَّوْمِ، وَارْتِفَاعَ الْآلَامِ فِي الْيَقَظَةِ، وَحُصُولَ الْأَمْنِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا سُهُولَةَ اجْتِذَابِ النَّسِيمِ بِالنَّفْسِ لِتَرْوِيحِ النَّفْسِ وَرَدِّهِ، ثُمَّ سَوقَ الكِفَايَةِ مِنَ الرِّزْقِ، وَأَعْظَمُ الْكُلِّ سَلَامَةُ الِاعْتِقَادِ؛ فهَذِهِ أُصُولٌ قَدْ نُسِيَتْ، وَأُهْمِلَ الشُّكْرُ عَلَيْهَا، وَكَأَنَّهَا تَلْزَمُ وتَجِبُ وَتَتَعَيَّنُ عَلَىٰ الْمُنْعِمِ؛ فَلَا يَشْكُرُهَا، وَإِنَّمَا نَرَىٰ الزِّيَادَةَ؛ يَعْنِي: أَنَّهَا نِعْمَةٌ، وَنَنْسَىٰ هَذِهِ.

وَاللهِ! مَا يَعْرِفُ قَدْرَ النَّوْمِ إِلَّا مَنْ طَرَقَهُ الْأَلَمُ بِاللَّيْلِ، وَلَا يَعْرِفُ قَدْرَ الْعَافِيَةِ إِلَّا مَنْ أَلَمَّ بِهِ أَلَمٌ، فَالْعَجَبُ لِمَنْ أَصْبَحَ سَلِيمَ الْبَدَنِ، مُعَافًىٰ مِنْ أَلَمٍ، صَحِيحَ الْخِلْقَةِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ؛ كَيْفَ لَا يُجِدُّ فِي الشُّكْرِ؟! فَإِذَا حَصَلَ لَهُ شَيْءٌ مِنَ النِّعَمِ الزَّوَائِدِ أَخْجَلَهُ ذَلِكَ!

فَأَعْجَبُ النِّعَمِ؛ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَا يَنَالُونَ الْقُوتَ إِلَّا بَعْدَ ظُلْمِ النَّاسِ، وَأَخْذِ مَا

لَيْسَ لَهُمْ، فَمَنْ رُزِقَ حَلَالًا وَلَمْ يُحْوِجْ إِلَىٰ تَعَسُّفٍ فِي رِزْقٍ؛ فَإِنَّهَا مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ.

وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجلًا جَارَ عَلَىٰ مَجذُومٍ قَدْ أكَلَ طعامًا، وحصلَ بينَ أسنانِهِ مِنْهُ شيءٌ فأقلقَهُ، فَقَالَ لَهُ: يَا أخِي! تقدَّمْ إليَّ فَخَلِّلْهُ بينَ أسنانِي، ففعلَ، فلمَّا زالَ عَنْهُ المُؤذِي قَالَ: آهٍ، باللهِ عليكَ يا أخِي، هل أدَّيْتَ شكرَ الخِلَالِ؟!

* * *

فَصْل

لَا أَعْرِفُ أَنْعَمَ عِيشَةً فِي الدُّنْيَا مِنَ العُلماءِ العامِلينَ بالعلمِ

لأنَّ الدُّنيَا كُلَّهَا تُرَادُ لثلاثةِ أشياءٍ: للغِنَىٰ، والعِزِّ، والرَّاحةِ.

فهُمْ باليَسِيرِ قَدِ استغْنَوْا، وبالزُّهْدِ فِي فضولِ العيشِ قد عَزُّوا، وبِقِلَّةِ السَّعْيِ قَدِ اسْتَرَاحُوا، طَلَبُوا الْعِلْمَ بالأدبِ، ولقاءَ الأشياخِ العقلاءِ العلماءِ، فكَانتْ مُخالَطَتُهُمْ لهُم مُخالطةَ الرِّياضَةِ، فَلَمَّا حصَّلُوا العِلمَ؛ انفرَدُوا عَنِ السَّفْسَافِ الَّذِينَ لا يَعرِفُونَ أقدارَهُمْ، وعَنِ السَّلاطِينِ الَّذِينَ يَبيعُونَ دِينَهم، ومَنِ انْقطَعَ بعدَ المخالطةِ؛ صَفَتْ أَفكَارُهُ، وَخَلَا بِطِيبِ عَيْشِهِ.

فأمَّا المُنقطِعُ عَنْ غيرِ رياضةٍ وعلمٍ؛ فهو كالبَهِيمةِ، فهؤلاء تعجلُوا بعُلومِهِم، فناطَقَتْهُم فَأَمَرَتْهُمْ وَنَهَتْهُمْ، فَسمَارُهُم كُتُبُهُمْ، ومُحَدِّثُهُمْ سِيَرُ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ.

وَقَدْ دَلَّهُمُ الْعَقْلُ وَالعِلْمُ عَلَىٰ الزُّهدِ فِي الفُضولِ، ويَحثُّهُم علىٰ الغِنَىٰ عَنِ الناسِ؛ فتارةً يستغنُونَ بالاكتسابِ، وتارةً بالقناعةِ بالقليلِ، ليس للسُّلطانِ عليهم مِنَّةٌ، ولا لعامِّيٍّ عليهم سَلْطَنَةٌ، فهَيْبَتُهُمْ تملأُ القُلُوبَ، حُكْمُهُمْ علىٰ الكُلِّ، وأقلامُهُمْ تُوَقِّعُ عَنِ الشَّرْعِ، إنْ قَوِيَتْ عَزَائِمُهُمْ عَلَىٰ التَّقَلُّلِ مِنَ المُباحِ فَهُوَ رَاحَةٌ، وإِنْ ضَعُفَتْ فَسَّحُوا لَهَا فِي المُبَاحِ، فهُمُ النَّاسُ فِي الدُّنْيَا والآخرةِ، ولهم خُلِقَتِ الدَّارَانِ:

الدَّارُ الأُولَىٰ للعِبْرَةِ والِابْتلاءِ وإظهارِ الجَواهِرِ المُودَعَةِ فِيهِمْ؛ مِنَ الصَّبْرِ علىٰ القضاءِ، والرِّضَا بالقدرِ، وتركِ المحبوباتِ العاجلةِ لامتثالِ أمرِ المُنْعِمِ، فهُو كالأجيرِ، غيبوبةُ شَمْسِهِ نُزُولُ المَوْتِ بِهِ.

ومن ذَلِكَ الوقتِ تَرَىٰ فَقْدَ الآخَرِ زِحَامَ الناسِ علىٰ الجنائِزِ وزِيَارَتَهُم لتِلْكَ القُبُورِ، وقُبُورُ السَّلَاطِينِ لا يُلْتفتُ إِلَيْهَا، والنَّعِيمَ الدائمَ الَّذِي شَهِدَتْ به الشَّرِيعَةِ بعدَ الموتِ، ومَا هِيَ إِلَّا غَفْوَةٌ، وإِذَا بِنَافِخِ الصُّورِ قَدْ أَيْقَظَ الْقَوْمَ فَقَامُوا، وَقَدْ هُيِّئَتْ لَهُمُ المَرَاكِبُ، ومَرُّوا علىٰ الصِّرَاطِ كالبرقِ الخَاطِفِ، وقِيلَ لَهُمْ: لَمْ تتَوَقَّفُوا فِي امتثالِ أَمْرِنَا[1] فَلَا تَقِفُوا، ﴿ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢]، لَا تَنْسَوْا لَفِيفَ الْأَتْبَاعِ، واشفَعُوا فِيمَنْ شِئْتُم، تَبَوَّؤُوا مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ شِئْتُمْ وأَرَدْتُمْ، كَتَبْتُ لَكُمْ كِتَابَ البَقَاءِ الدَّائِمِ، وأُسَجِّلُ به خَبَرَ الواعدِ لا يَتَغَيَّرُ، دَوَامٌ لَيْسَ لَهُ انْقِطَاعٌ، وَأَغْرَاضٌ مَا لَهَا امْتِنَاعٌ، وَمُرَادَاتٌ لَا تُشْتَرَىٰ وَلَا تُبَاعُ، [حُلُّوا أَرْسانَ الهَوَىٰ فطالَمَا رَدتكُمْ، وأَطْلِقُوا الأعينَ فطالَمَا عضضتُّمْ][2]، أَنْتُمْ بَاقُونَ بَقَائِي، وَبَقَائِي لَا يَنْقَطِعُ، قَدْ خَلَعْتُ عَلَيْكُمْ مِنْ خِلَعِ قُدْرَتِي؛ أَنَّكُمْ تَقُولُونَ لِلْأَشْيَاءِ كُونِي فَتَكُونُ.

[هَذَا؛ واللهِ العيشُ فِي الدُّنيا والآخرةِ، لا يناولُ الفرطَ عاجلًا، عَاقِبته وخيمة، يَا من باع نفسَه بِغَيْرِ هَذَا الثَّمَنِ افسح عِنْدَ الهوىٰ مَا دامَ الخباز][3].

---

(١) ١١٦ب.

(٢) كذا.

(٣) كذا.

۞ فَصْل ۞

قَالَ لِي قائلٌ: لا أفهمُ معنى دوام التعذيبِ للكُفَّارِ، وليسَ ثَمَّ تَشَفّي

فأجبتُه: أفعالُ الخالقِ سُبْحَانَهُ لَا تُعَلَّلُ، ولا يُطَّلَعُ علىٰ الْحِكْمَةِ فِي أَكْثَرِهَا، فواجبٌ عَلَيْنَا التَّسْلِيمُ، ولَوْ قَدَّرْنَا جَوَازَ الاعتراضِ عَلَيْهِ؛ فإنَّما يَعْتَرِضُ علىٰ الحكيمِ مَنْ هو أحكمُ مِنْهُ، أَفَيَحْسُنُ أَنْ نَعْتَرِضَ بعقلٍ هُوَ وَهَبَهُ لَنَا؟!

قَالَ ابنُ عَقِيلٍ: فِي هَذَا أصلُ السُّنَّةِ؛ أَنَّ اللهَ ﷻ عَدْلٌ، يفعلُ مَا يشاءُ، غير أَنَّني إِنْ دخلتُ علىٰ جهةِ المُسَامَحَةِ، فَقَدْ علَّلَ ﷻ فِي ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وَعِلْمُهُ بِذَلِكَ جَارٍ مَجْرَىٰ إِدْرَاكِنَا بِالْحَوَاسِّ كفرَهُم، وَلَوْ دَامَ كُفْرُهُمْ حَسُنَ دَوَامُ تَعْذِيبِهِمْ، فَكَذَلِكَ إِذَا كَانُوا فِي عِلْمِهِ عَلَىٰ الْكُفْرِ.

قُلْتُ: وَمَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونُوا - وَهُمْ فِي النَّارِ - عَلَىٰ الِاعْتِرَاضِ، وَاعْتِقَادِ مَا لَا يَحْسُنُ، فَيَدُومُ الْعَذَابُ عَلَىٰ مِقْدَارِ مَا فِي الْبَوَاطِنِ.

۞ فَصْل ۞

أَجِدُ فِي النَّاسِ مَنْ هُوَ وَاسِعُ الصَّدْرِ، طَيِّبُ الْقَلْبِ؛ مَعَ الْفَقْرِ وَضِيقِ الْيَدِ، لَا يَنْظُرُ إِلَى حَاجَتِهِ إِلَى غَدٍ

وَأَنَا بِحَمْدِ اللهِ مِنْهُمْ؛ فَإِنِّي قَدْ عَالَجْتُ مِنَ الْفَقْرِ أَشْيَاءَ، وَقَدْ كُنْتُ أُصْبِحُ وَلَيْسَ عِنْدِي قُوتُ يَوْمِي، وَلَا أَعْرِفُ لَهُ وَجْهًا، وأَنَا طَيِّبُ القَلْبِ ساكنُ النفسِ، وكم مِنْ يومٍ أصبحتُ لَا أملكُ فيه حبةً، وثَمَّ زوجةٌ وأولادٌ، ومَنْ يَتعلَّقُ بي جماعةٌ، وقَلبِي طيِّبٌ كأنِّي أملكُ ألفَ دينارٍ، فما انزعجَ قلبِي بالفقرِ، ولا خطرَ أنِّي لَوْ متُّ وبقيَ

أولادي فقراءَ، بل أقولُ - إذا خطرَ هذا -: قَدْ مَاتَ أَبِي، وعَايَنْتُ الفَقْرَ، وانْصَرَفَ الزَّمَانُ علىٰ خيرِ حالٍ بَيْنَ غِنًىٰ وقناعةٍ، فإنْ أرادَ أنْ يُصلِحَ أولادِي ويُدَبِّرَ أَمْرَهُمْ كَمَا دَبَّرَ أمرِي؛ فعَلَ، وإلَّا فكَمْ مِمَّن خلَّف مالًا كثيرًا لِأَوْلَادِهِ فَلَمْ يَنْفَعْهُمْ، وَهُوَ يَتَوَلَّىٰ الصَّالِحِينَ.

ثُمَّ إِنِّي كَثِيرًا مَا رَأَيْتُ مَنْ يَكُونُ مَعَهُ الدِّينارُ والمائةُ، وهُوَ فِي قلقٍ، وأكونُ أَنَا لا حبَّةَ مَعِي، وأَنَا فِي غِنًىٰ، وإِذَا قُدِّرَ لِي دِينَارٌ أَنْفَقْتُهُ فِي يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ، وَلَمْ أَنْظُرْ إِلَىٰ مَا بَعْدَ ذَلِكَ، وَإِذَا حَصَلَتْ مَعِي حَبَّةٌ فَكَأَنِّي قَدْ ضَاهَيْتُ الْأَغْنِيَاءَ؛ بِانْشِرَاحِ صَدْرِي وطِيبِ قَلْبِي.

وَرَأَيْتُ فِي النَّاسِ مَنْ يَقربُ فِي هَذِهِ الْحَالِ. وَرَأَيْتُ بِالْعَكْسِ؛ مَنْ يَكُونُ مَعَهُ وَلَهُ وَهُوَ ضَيِّقُ الْعطَنِ، فَقِيرُ النَّفْسِ، كَثِيرُ الْهَمِّ.

فتَأَمَّلْتُ السَّبَبَ فِي طِيبِ الْقَلْبِ؛ فَرَأَيْتُهُ يَتَنَوَّعُ إِلَىٰ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

فَتَارةً يَكُونُ مِنْ سَعَةِ الصَّدْرِ خِلْقَةً وَوَضْعًا، وَتَارةً يَكُونُ مِنْ ثِقَةِ الْعَبْدِ بِاللهِ ﷻ، وَأَنَّهُ الرَّزَّاقُ، وَتَارةً يَكُونُ مِنْ شُعُورِ النَّفْسِ سَعَادَةً مُعَدَّةً لَهَا، وَغِنًىٰ مُدَّخَرًا لَهَا، وَالنُّفُوسُ الشَّرِيفَةُ تَشْعُرُ الْآنَ قَبْلَ كَوْنِهَا، فَكَأَنَّهَا تَطَّلِعُ عَلَىٰ عَاقِبَتِهَا.

وَالْغَالِبُ فِي الْعَادَاتِ أَنَّ سَعَةَ الصَّدْرِ وَطِيبَ الْقَلْبِ حَالُ خَيْرٍ، وَأَنَّ كُسُوفَ الْبَالِ وَضِيقَ الصَّدْرِ حَالُ شَرٍّ، وَعَلَىٰ عَكْسِ هَذِهِ الْأَسْبَابِ ضِيقُ الصَّدْرِ، وَضِيقُ الْعطَنِ، وَأَغْمَضُ الْأَحْوَالِ: إِحْسَاسُ النَّفْسِ بِبُلُوغِ الْأَمَانِ، فَكَأَنَّهَا تَعْلَمُ الْعَوَاقِبَ بِالْإِحْسَاسِ.

❁ فَصْلٌ ❁

لَـمَّا كَانَتْ حَوَادِثُ الْأَقْدَارِ تَظْهَرُ عَنِ الْقُدْرَةِ بِسِـرِّ الْخَلْقِ عَلَيْهَا عِنْدَ وُجُودِهَا

فَالْعَصَىٰ عِنْدَ الْإِلْقَاءِ صَارَتْ ثُعْبَانًا، وَكَانَ الْإِلْقَاءُ سِرًّا في انظروا[1]، وَضَرْبُ الْـمَيِّتِ بِبَعْضِ الْبَقَرَةِ عَاشَ عِنْدَهُ، وَعِنْدَ رَكْضِ رِجْلِ أَيُّوبَ نَبَعَتْ عَيْنُ الْـمَاءِ، وَعِنْدَ ضَرْبِ الْبَحْرِ انْفَلَقَ، وَعِنْدَ نَفْخَةِ الصُّورِ عَاشَ الْـمَوْتَىٰ، فَالْـمُرَادُ مِنْ ذَلِكَ تَنْبِيهُ الْخَلَائِقِ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُهُ؛ لِأَنَّ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ أَثَرٌ فِي الْفِعْلِ.

❁ فَصْلٌ ❁

مِنَ الْـمُزهِدِينَ أَقْوَامٌ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ لَا يُحِبُّونَ الدُّنْيَا، وَلَا وَقْعَ لَهَا عِنْدَهُمْ

وَهَؤُلَاءِ لَا يَخْلُوا أَحَدُهُمْ مِنْ حَالَيْنِ:

إِمَّا أَنْ يَكُونَ كَذَّابًا فِي الدَّعْوَىٰ، وَرُبَّمَا ادَّعَىٰ عِنْدَ الْعَدَمِ، فَإِذَا لَاحَتْ لَهُ الدُّنْيَا بَانَ كَذِبُهُ فِي دَعْوَاهُ.

أو أَنْ يَكُونَ مَرِيضًا مُنْحَرِفَ الْـمَزَاجِ؛ كَالْعِنِّينِ فِي بَابِ النِّكَاحِ.

---

(١) كذا.

إِلَّا أَنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ أَنَّهُ قَالَ: مَا أُرَانِي أُؤْجَرَ عَلَىٰ تَرْكِ الشَّهَوَاتِ؛ لِأَنِّي لَا أَشْتَهِيهَا.

وهَذَا مَحْمُولٌ عَلَىٰ أَحَدِ أَمْرَيْنِ:

إِمَّا يَكُونُ لِشِدَّةِ خَوْفِهِ، وَقُوَّةِ رَغْبَتِهِ فِي الْآخِرَةِ؛ قَدِ انْحَرَفَ مَزَاجُهُ؛ فَإِنَّ الثَّكْلَىٰ لَا تَشْتَهِي الطَّعَامَ، وَمَنْ تُوُعِّدَ بِالْقَتْلِ رُبَّمَا بَقِي يَوْمَيْنِ لَا يَأْكُلُ، فَمِثْلُ ذَلِكَ الصَّادِقِ الْآبِقِ[1] بِهِ شِدَّةُ الْخَوْفِ الَّتِي حَرَّفَتْ مَزَاجَهُ.

أو أَنْ يَكُونَ يَخَافُ عَوَاقِبَ الشَّهَوَاتِ، فَهُوَ يَشْتَهِيهَا طَبْعًا، وَلَا يَشْتَهِيهَا حَذَرًا مِنْ أَنْ يَقْدَحَ فِي مَنْزِلَتِهِ، أَوْ تَحُطَّهُ عَنْ رُتْبَتِهِ.

فَأَمَّا مَنْ لَـمْ يَبْلُغْ مَرْتَبَةَ ابْنِ أَدْهَمَ، وَإِذَا نَقَرَ[2] فِي أَدْنَىٰ ظَنٍّ فَهُوَ إِلَىٰ الدَّعْوَىٰ أَقْرَبُ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ خلقَ الْخَلْقَ عَلَىٰ تَرْكِيبٍ يُخَالِفُ هَذِهِ الدَّعْوَىٰ، وَإِنَّمَا يَتُوقُ الْعِبَادُ فِي الْعِبَادَةِ إِلَىٰ مَا يَشْتَهُونَ فِي الدُّنْيَا.

وَفِي هَؤُلَاءِ الْـمُدَّعِينَ مَنْ يَقُولُ: لَوْ عُرِضَتْ لِيَ الْجَنَّةُ مَا أَعَرْتُهَا الطَّرْفَ، وَلَوْ أَنَّهُ لَوَّحَتْ لَهُ سُوداءُ لَتَغَيَّرَ فِي الحَالِ.

نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ دَعْوَىٰ يَكْذِبُ صَاحِبُهَا سَرِيعًا.

---

(١) في أ: «الآيق». في ي: «الأليف».

(٢) كذا.

فَصْلٌ

أَرْبَابُ الرِّيَاءِ وَالنِّفَاقِ يَنْكَشِفُونَ، وَإِنْ تَغَطَّوْا عَنْ قَرِيبٍ، وَيُذَمُّونَ، وَأَهْلُ الْإِخْلَاصِ وَإِنْ سَتَرُوا أَعْمَالَهُمْ ظَهَرَتْ؛ لَا عَنِ اخْتِيَارِهِمْ، وَمُدِحُوا. كَمْ مِنْ مُتَصَنِّعٍ بَالَغَ؛ فَانْكَشَفَ وَضَاعَ مَا عَمِلَهُ

وَاعْتَبِرْ هَذِهِ الْحَالَةَ طَرِيقَةَ الْعَرَبِ، وَهُوَ أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا يَجُودُونَ وَيُظْهِرُونَ أَنَّ طَبْعَنَا الْكَرَمُ، غَيْرَ أَنَّهُمْ مَا أَرَادُوا مُجَرَّدَ الْكَرَمِ، بَلِ الْمَدْحَ عَلَىٰ الْكَرَمِ، فَانْكَشَفُوا بِالْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ:

أَمَّا الْقُرْآنُ؛ فَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ﴾ [الإسراء: ٣١]، وَهَذَا إِخْرَاجٌ لِدَفَائِنِ بُخْلِهِمْ، وَفَسَّرَ النَّبِيُّ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ: «**وَلَا تَقْتُلْ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَأْكُلَ مَعَكَ**»[1]، وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِعَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ: «**إِنَّ أَبَاكَ أَرَادَ أَمْرًا**»[2]، يَعْنِي: الذِّكْرَ، لَا الْجُودَ.

وَيَدُلُّ عَلَىٰ بُخْلِهِمْ: أَنَّ الزَّكَاةَ مُوَاسَاةُ الْفُقَرَاءِ، فَلَمَّا مَاتَ الرَّسُولُ ﷺ ارْتَدُّوا، وَمَنَعُوا الزَّكَاةَ.

هَذِهِ صِفَةُ الْعَامَّةِ، فَإِنْ نَدَرَ مَنْ طبعُهُ الْكَرَمُ لَا لِيُذْكَرَ؛ فَقَلِيلٌ نَادِرٌ، وَقَلَّ أَنْ يَقَعَ ذَلِكَ، إِلَّا فِيمَنْ طَلَبَ الْأَجْرَ بِفِعْلِهِ مِنْ رَبِّهِ ﷻ، كَمَا فَعَلَ مُوسَىٰ ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾ وَلَمْ يَطْلُبْ مِنْهُمَا، بَلْ مِنْ رَبِّهِ؛ فَقَالَ: ﴿إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٢٧، ٥٩٧٠)، ومسلم (١٦٥) من حديث ابن مسعود.

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (١٨٢٨٨)، وابن حبان (٣٣٢) من حديث عدي بن حاتم.

۞ فَصْلٌ ۞

اعْلَمْ؛ أَنَّ اللهَ ﷻ خَلَقَ الخَلْقَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ، فَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَتَلَمَّحَ نَفْسَكَ مِنْ أَيِّ قَبِيلٍ أَنْتَ؟! وَلِأَيِّ مَعْنًى خُلِقْتَ؟!

فَاللهُ ﷻ خَلَقَ أَقْوَامًا، فَرَبَّاهُمْ مِنَ الطُّفُولَةِ بِالتَّأْدِيبِ الإِلَهِيِّ، وَالتَّعْلِيمِ الإِلْهَامِيِّ، وَأَكْثَرُهُمْ سَلَبَ أَبَاهُ، حَتَّىٰ انْفَرَدَ بِتَرْبِيَةٍ بِلَا سَبَبٍ، فَهُوَ يَصُونُهُ وَيَكْفِيهِ وَيَهْدِيهِ وَيُهَيِّئُ الأَحْوَالَ لَهُ، ثُمَّ هَؤُلَاءِ بَيْنَ مُلْهَمٍ طَرِيقَ الْعِلْمِ وَبَيْنَ مُنْقَطِعٍ إِلَىٰ بَابِ الزُّهْدِ، فَلَا تُعْرَفُ لَهُ صَبْوَةٌ، وَلَوْ وَقَعَتْ لَكَانَتْ خَفِيَّةً مَغْمُورَةً.

وَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ خَلَقَ آخَرِينَ، فَتَرَكَهُمْ تَرْكَ الْهَمَلِ، فَالْهَوَىٰ يَلْعَبُ بِهِمْ مِنْ زَمَنِ الطُّفُولَةِ، وَالْجَهْلُ قَدِ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ وَقْتِ الْمَوْتِ.

فَالْقِسْمُ الأَوَّلُ صُحَاةٌ مَا سَكِرُوا قَطُّ، وَهَذَا الْقِسْمُ سُكَارَىٰ مَا أَفَاقُوا قَطُّ.

وَالْقِسْمُ الثَّالِثُ: قَوْمٌ ابْتَدَؤُوا أَزْمَانَهُمْ بِالصَّحْوِ وَالْجِدِّ، إِمَّا بِالْعِلْمِ أَوْ بِالزُّهْدِ، ثُمَّ خُتِمَ لَهُمْ بِالشَّرِّ، وَهَذَا الْهَلَاكُ الَّذِي لَا دَوَاءَ لَهُ. وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنِ ابْتَدَأَ زَمَانَهُ بِالشَّرِّ، ثُمَّ انْتَبَهَ، فَخُتِمَ لَهُ بِالْخَيْرِ.

فَيَنْبَغِي لِمَنْ رَأَىٰ مَا سَبَقَ لَهُ مِنُ الْخَطَإِ أَنْ يَنْتَبِهَ فِي وَقْتِ الانتباهِ، وَأَقْرَبُ الحال فِيهِ [وَسَط النِّعَمِ؛ فَإِنَّ التَّنَبُّهَ فِيهِ بالكُهُولَةِ والانْتِبَاه فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ مَحْمُودٌ؛ مِن جِهَاتٍ:

إِحْدَاهَا]: أَنَّ قُوَّةَ الشَّهْوَةِ وَقُوَّةَ الْغَضَبِ قَدْ ضَعُفَا، وَكَانَتَا لِلتَّقْوَىٰ كَالْعَدُوَّيْنِ، وَمِنَ النِّعَمِ ضَعْفُ الأَعْدَاءِ.

وَالْجِهَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ زَمَانَ الْكُهُولَةِ زَمَانُ اعْتِدَالٍ، فِيهِ تَقَعُ كَمَالُ التنبهِ، وَتَمَامُ الْعَقْلِ، وَصِحَّةُ النَّظَرِ، فَإِنَّ الصِّبَا زَمَانُ جُنُونٍ وَغَفْلَةٍ، وَالْكِبَرُ زَمَانُ فَنَاءٍ وَضَعْفِ آلَةٍ.

وَالْجِهَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ زَمَنَ الْكُهُولَةِ يُمْكِنُ فِيهِ الْجَمْعُ بَيْنَ النَّدَمِ عَلَىٰ الذُّنُوبِ وَالِاسْتِدْرَاكِ لِلْفَارِطِ، بِخِلَافِ زَمَنِ الشَّيْخُوخَةِ؛ فَإِنَّهُ إِنْ حَصَلَ فِيهِ النَّدَمُ لَمْ يُمْكِنُ التَّدَارُكُ.

وَالتَّدَارُكُ عَلَىٰ ضَرْبَيْنِ: فِعْلُ الطَّاعَاتِ، وَتَرْكُ الْمُشْتَهَيَاتِ، وَالشَّيْخُ لَا يُمْكِنُهُ الِاسْتِكْثَارُ مِنَ الطَّاعَاتِ، وَلَا يَكُونُ تَارِكًا لِلْمُشْتَهَيَاتِ، بَلِ الْمُشْتَهَيَاتُ قَدْ تَرَكَتْهُ لِمَوْضِعِ عَجْزِهِ.

فَالْجِدَّ الْجِدَّ عِنْدَ بَيَانِ التَّدَبُّرِ، فَمَا هُوَ إِلَّا زَمَانُ الَّذِي قَالَ فِيهِ الْقَائِلُ:

الشَّيْبُ فِي الْعَزْلِ ** لَا نَاقَةَ وَلَا جَمَلِ

فَصْلٌ

يَا مُخَالِفِينَ احْذَرُوا مِنَ الْعُقُوبَاتِ؛ فَإِنَّهَا بِالْمِرْصَادِ

تَارَةً تَقَدَّمُ فَتُعَاجِلُ، وَتَارَةً تَتَأَخَّرُ، وَتَارَةً تُعْرَفُ، وَتَارَةً لَا تُعْرَفُ، وَتَارَةً تَعُمُّ، وَتَارَةً تَخُصُّ

مِنْ عُقُوبَاتِهِ الْكُلِّيَّةِ: تَغْرِيقُ قَوْمِ نُوحٍ بِالطُّوفَانِ، وَلَهُ طُوفَانُ خِزْيٍ -وَهُوَ أَحْسَنُ-: أَنْ يَحْبِسَ الدِّمَاءَ فِي الْأَبْدَانِ، وَالرُّطُوبَاتِ، ثُمَّ يُضْفِي عَلَىٰ حَرَارَتِهَا مِنَ الْعُرُوقِ، فَتُورِثُ الِاسْتِسْقَاءَ وَالْوَرَمَ.

وَمِنَ الْعُقُوبَاتِ الْكُلِّيَّةِ: رِيحُ عَادٍ، وَمِنَ الخِزْيِ: حَبْسُ الرِّيَاحِ فِي الْبَدَنِ، فَلَا تَنْفَدُ، فَيَقَعُ بِهَا الْهَلَاكُ.

يُسَلِّطُ عَلَيْكَ الزُّكَامَ، فَيَجْرِي مِنْ أَنْفِكَ كَالْـمَطَرِ، وَيَبْقَىٰ مِنْ أَثَرِهِ فِي صَدْرِكَ كَالْوَحلِ.

يُقَدِّرُ لَكَ الْحَرَارَةَ وَالْيَبَسَ، كَمَا يَقَعُ عَلَىٰ الْأَرْضِ بِالْجَدْبِ، يَأْمُرُ الْعُرُوقَ فَتَضْرِبُ، أَوِ الضَّوَارِبَ فَتَسْكُنُ، أَوْ يُوقِعُ بَيْنَ الْأَخْلَاطِ الْـمُتَعَادِلَةِ، فَيَحُوزُ بَعْضُهَا، وَيَغْلُبُ بَعْضُهَا، فَإِذَا أَنْتَ مِنْ تَأْثِيرِ ذَلِكَ الْيَابِسِ صَرِيعٌ.

يَرْمِيكَ بِعِلَّةٍ تُسَمَّىٰ الْجُزَامَ، فَيَقْذُرُكَ النَّاسُ وَالْأَهْلُ. يَحْبِسُ النُّورَ عَنِ الْعَيْنِ بِعَارِضٍ، فَإِذَا الْبَصَرُ قَدْ ذَهَبَ. يُسَلِّطَ آفَةً عَلَىٰ السَّمْعِ، فَإِذَا بِالصَّمَمِ قَدْ نَزَلَ. يَحْبِسُ الْبَوْلَ، أَوْ يُرْخِي الْـمَثَانَةَ بِضَرْبٍ بالقولنج أَوْ بِالْإِسْهَالِ، يُفْسِدُ الدِّمَاغَ فَيَذْهَبُ الذِّهْنُ. وَيُبْطِلُ الْعَقْلَ فَتَقَعُ فِي الْفَضِيحَةِ بَيْنَ الْخَلْقِ. يَتَصَبَّبُ عَلَىٰ قَلْبِكَ الْغَمُّ كَمَا سُلِّطَ الْكُسُوفُ عَلَىٰ الشَّمْسِ.

يُعَاقِبُ بِفَقْدِ الْوَلَدِ الْحَبِيبِ. يُتْلِفُ الْـمَالَ فَيَحُوجُ إِلَىٰ النَّاسِ. يَمْحَقُ الْبِضَاعَةَ بِقَلْبِ الْأَسْعَارِ؛ فَلَا يَعُودُ رَأْسُ الْـمَالِ، أَوْ يُذْهِبُهُ بِإِنْفَادِهِ إِلَىٰ الْعَطَّارِينَ فِي ثَرَىٰ حَشَاشٍ مُرَّةٍ، وَإِلَىٰ الْأَطِبَّاءِ فِي نَقِيعِ الْعُرُوقِ، فَيَبْكِي عَلَىٰ ضَيَاعِهِ، وَيَنْسَىٰ اكْتِسَابَ الْـمَالِ مِنَ الْحَرَامِ.

يَضْرِبُ قَارِئَ الْقُرْآنِ بِالنِّسْيَانِ؛ فَيَنْسَىٰ مَا حَفِظَ، يَمْنَعُ قَائِمَ اللَّيْلِ لِعَجْزِ الْكَسَلِ. يَسْلُبُ عَارِفَهُ حَلَاوَةَ مُنَاجَاتِهِ.

يَفْتَحُ بَابَ الدُّنْيَا عَلَىٰ الْعَاقِلِ، وَيُوَسِّعَ لَهُ مَدْخَلَ الْحِرْصِ فِي آخِرِ الْعُمُرِ، فَيَسْتَلِبُهُ عَلَىٰ أَقْبَحِ حَالٍ، فَلَوْ رَأَيْتَهُ يَمْنَعُ نَفْسَهُ شَهَوَاتِهَا حُبًّا لِجَمْعِ الْـمَالِ، وَيَكْتَسِبُ مِنْ كُلِّ رَذِيلَةٍ، فَإِذَا بِطَارِقِ الْـمَوْتِ قَدْ نَقَلَ مَالَهُ بِوَصْفِ الْـمِيرَاثِ، وَأَبْقَىٰ عَلَيْهِ فِي دسْتُورِ كَسْبِهِ الْحِسَابَ.

وَاللهِ! لَقَدْ رَأَينا مَنْ أَفْنَىٰ عُمُرَهُ فِي الْعِلْمِ وَالْجِدِّ، فَلَمَّا قَارَبَتْ سَفِينَةُ عُمُرِهِ السَّاحِلَ آثَرَ الْـمَعَاصِي الْقِبَاحَ، وَضُرِبَ عَلَىٰ أُذُنِهِ حَتَّىٰ أُخِذَ عَلَىٰ أَسْمَجِ حَالٍ.

آهٍ! لِـمَرْكَبٍ لَـمَّا وَصَلَ الشَّاطِئَ غَرِقَ، وَآخِرَةِ مَطْعَمٍ بِالْـمَرَارَةِ خُتِمَ!

وَمِنْ عُقُوبَاتِهِ: أَنْ يُقْعِدَكَ عَنْ نَهضَاتِكَ فِي مُرَادَاتِكَ، فَيَسْلِبُكَ نِعْمَةَ التَّصَرُّفِ، وَكُلُّ هَذِهِ الْعُقُوبَاتِ تَعَامُلَاتٍ لِأَمْثَالِهَا مِنَ الذُّنُوبِ.

فَإِذَا قُلْتَ: أَنَّىٰ هَذَا؟! قِيلَ لَكَ: هُوَ مِنْ عِنْدَ نَفْسِكَ!

أَتَذْكُرُ وَقَدْ تَقَاعَدْتَ عَنْ أَمْتِثَالِ أَمْرِهِ، وَجَنَحْتَ إِلَىٰ رُكُوبِ نَهْيِهِ، وَبَخِلْتَ عَلَيْهِ بِبَعْضِ مَا وَهَبَ لَكَ، ثُمَّ انْضَمَّ إِلَىٰ قُعُودِكَ تَضَجُّرُ الْأَهْلِ مِنْكَ، وَتَسَخُّطُهُمْ طُولَ بَقَائِكَ، ثُمَّ إِنْ صَرَّحَ لَكَ بِذَلِكَ مِثْلُ أَنْ تَسْمَعَهُمْ يَقُولُونَ: مَا أَطْوَلَ عُمُرَكَ! أَرَاحَنَا اللهُ مِنْكَ!

فَيَا لَهُ مِنْ سَهْمٍ لَا يُخْطِئُ صَمِيمَ الْفُؤَادِ، فَاسْتَقِلَّ مِنَ الذُّنُوبِ الَّتِي تُوجَبُ بِها، فَإِنْ صَدَقْتَ لَطُفَ الْحَقُّ بِكَ، وَلَـمْ يُسَلِّطْ عليكَ مِثْلَ هَذِهِ الْأَمْرَاضِ، أَوْ إِنْ سَلَّطَهَا؛ عَطَفَ الْقُلُوبَ عَلَيْكَ، فَرَفِقَتْ بِكَ.

وَاللهِ! مَا أَعْرِفُ طَرِيقًا لِلسَّلَامَةِ إِلَّا صِدْقَ التَّوْبَةِ، وَالِاسْتِدْرَاكَ، وَدَوَامَ اللُّجْإِ، وَالِاسْتِغَاثَةَ؛ كَمَا كَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ؛ فَإِنَّهُ كَانَ يَبْكِي لَيْلًا وَنَهَارًا، وَيَقُولُ: «ومَا يُؤَمِّنِّي أَنْ يَكُونَ اطَّلَعَ عَلَىٰ بَعْضِ ذُنُوبِي، فَقَالَ: اذْهَبْ لَأَغْفِرَنَّ لَكَ»، وَكَانَ يَقُولُ: «وَاللهِ مَا حَالَتِي إِلَّا كَحَالَةِ مَنْ كُسِرَ بِهِ مَرْكَبُهُ، فَبَقِيَ فِي وَسَطِ الْبَحْرِ عَلَىٰ سَاحَةٍ، فَلَا يَدْرِي أَيَنْجُوا أَمْ لَا؟»).

وَحَالَتِي أَشَدُّ، أَفْدَىٰ أَقْوَامًا مَا كَانُوا يَغْسِلُونَ آثَارَ الذُّنُوبِ بِدُمُوعِ الْأَحْزَانِ لَيْلًا وَنَهَارًا، وَهُمْ يَشُكُّونَ فِي النَّظَافَةِ، وَكَيْفَ لَا يَبْكِي مَنْ قَدْ يُتْقِنُ الذُّنُوبَ، وَمَا عَرَفَ أَثَرَ الْقَبُولِ.

مَــأْتَمُ الْــمُذْنِبِينَ مَــا يَنْقَــضِي ** آخِــرَ الــدَّهْرِ أَوْ يَحُلُّوا اللُّحُــودَا

فَصْل

حَجَجْتُ إِلَى بَيْتِ اللهِ الحرامِ، فَدَخَلَ إلى قلبي من هيبةِ المكانِ مَا لَوْ لـم يَـمْزَجْهُ الأُنْسُ بِهِ؛ مَا طَابَ عَيْـشِي

فَكُنْتُ تَارةً أَنْظُرُ إِلَيْهِ بِعَيْنِ النِّسْبَةِ، فَيَشْتَدُّ تَعْظِيمِي لَهُ، وَتَارةً بِعَيْنِ لُطْفِ مَالِكِهِ، فَآنَسُ بِالْبَيْتِ أُنْسَ الْعَبْدِ بِبيتِ سَيِّدِهِ.

فَرَأَيْتُ مِنْ قِلَّةِ احترامِ ساكنِي البلدِ عجائبَ، وما ذاك إِلَّا أَنَّنِي رأيتُهُ بعينِ النِّسبةِ، ورأَوْهُ بعينِ المادَّةِ؛ فهُمْ يرونَ الحجارةَ، وأَنَا أَرَىٰ الإضافةَ. وهَذِهِ كانتْ محنةَ[1] إبليسَ؛ فإِنَّهُ نَظَرَ إلىٰ المادَّةِ، ونَسِيَ الاختصاصَ والأمرَ.

فسبحانَ مَنْ أسكنَ حَرَمَهُ مِثْلَ أُولَئِكَ، حتَّىٰ إِنَّهُمْ يأخذونَ المُكْسَ عَنْ رُءُوسِ الحُجَّاجِ، وما قَلَقْتُ لشيءٍ قطُّ قَلَقِي مِنْ فِعْلِهِمْ ذلكَ.

وكانَ معنَا شيخٌ بغداديٌّ مِنَ التُّجارِ، فتولَّىٰ لهُم أخذَ المُكْسِ، فهَجَرْتُهُ، ورأيتُ خلقًا لَـمْ يتغيَّرُوا عليهِ؛ فهُمْ يُآكِلُونَهُ ويُشَارِبُونَهُ، فعَلِمْتُ أَنَّ الإيمانَ بارِدٌ فِي قُلُوبِهِمْ، ورأيتُ مِنْ عبيدِ مكَّةَ؛ مِنِ اسْتِلَابِ الأموالِ، وقِلَّةِ الاحترامِ بالمكانِ مَا أَزْعَجَنِي.

وَمِنْ عجائبِ مَا رأيتُ؛ أَنَّهُمْ كانوا يمشونَ بين يَدَيِ الخطيبِ يَوْمَ الجُمُعَةِ بمقلاعٍ يضربُ علىٰ غفلةٍ يُزْعِجُ المكانَ والناسَ، فأنكرتُ هذا! فقَالُوا: هَذَا شِعَارُهُمْ، فقُلتُ: بئسَ الشعارُ هَذَا! فكانَ يجبُ احترامُه عَنْ رفعِ الأصواتِ، والأذانُ يَكْفِي.

وَلَقَدْ بَلَغَنِي عَنِ ابْنِ عَقِيلٍ[2] أَنَّهُ قَالَ: حَكَىٰ لِي أَمِيرُ الْجُيُوشِ الْخَادِمُ أَنَّهُ دَخَلَ مَكَّةَ فِي سَنَةِ عَشْرٍ وَخَمْسِ مِائَةٍ عَلَىٰ وَجْهِ الْقَهْرِ لِأَهْلِ مَكَّةَ، بخفق البنود، وضرب

---

(١) في ي: رأي محبة.

(٢) هذا النص في «المنتظم» (١٧/ ١٤٦).

الكوسات، مُتبَجِّحًا بِذَلِكَ، نَظَرَ إِلَىٰ إِذْلَالِ السُّودَانِ وَأَمِيرِهِمْ؛ ذَاهِلًا بِذَلِكَ عَنْ حُرْمَةِ المكانِ. قَالَ: فَسَمِعْتُ هَذَا مِنْهُ مُتَعَجِّبًا، وَشَهِدَ قَلْبِي بأَنَّهُ آخرُ أَمْرِهِ، فَلَمْ يَعُدْ إِلَيْهَا، وعُوقِبَ فَاسْتُؤْصِلَ؛ لِجَهْلِهِ بِحُرْمَةِ المكانِ؛ فإنَّ نَاقَةَ رسولُ اللهِ ﷺ وَقَفَتْ، فقَالُوا: خَلأَتِ الْقَصْوَاءُ، فَقَالَ: «بَلْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ»[1]، كُلُّ ذَلِكَ لِتَعْظِيمِ الْحَرَمِ.

قَالَ: وَدَخَلَ أَبُو عِمْرَانَ الْـمَغْرِبِيُّ إِلَىٰ حَرَمِ رسُولِ اللهِ ﷺ، فَإِذَا بِابْنِ الجوهريِّ الواعظِ يَعِظُ، ويرفعُ صَوْتَهُ، فَصَاحَ عليهِ: لَا تَرْفَعْ صَوْتَكَ؛ فَإِنَّ التَّأَدُّبَ لِلرَّسُولِ لازمٌ، وكأَنَّهُ حَاضِرٌ.

۞ فَصْلٌ ۞

عَرَضَتْ لِي يَوْمًا مُنَاجَاةٌ فِي خَلْوَةٍ، فَقُلْتُ:

إِلَهِي وَسَيِّدِي، وذُخْرِي وذَخِيرَتِي، كُلَّمَا نَظَرْتُ إِلَىٰ ذُنُوبِي السَّالِفَةِ غمضتُ عينِي حياءً، وكُلَّمَا رأيتُكَ لا تَسْتَعْمِلُنِي فِيمَا اسْتَعْمَلْتَ به الصَّالِحِينَ فَأَرَيْتَ النَّاسَ بما أُؤَمِّلُ فِيكَ، وَكُلَّمَا رَأَيْتُ العُمرَ يَنْقَضِي فِي غيرِ عَمَلٍ يُرْضي حَدَّثْتُ نَفْسِي بأَنَّكَ لا تُرضِينِي، ولا تلتَفِتُ إليَّ.

ثم أعودُ فأذكرُ اصطناعَكَ وتربيتَكَ إِيَّايَ حِينَ أفقدْتَنِي أَبِي وأَنا طفلٌ لا أعقلُ، فتولَّيْتَ تربيَتِي يتيمًا، ثُم ألهمتَنِي طلبَ العِلْمِ فِي زمنِ الصبوةِ، فصارَ أحبَّ إليَّ من كُلِّ محبوبٍ، وميَّزتَنِي علىٰ جميعِ أهلِي بما أودعتَنِي من العلمِ والفَهْمِ، وأدَّبْتَنِي من زمنِ الطُّفولةِ، فما أذكرُ أَنِّي لعبتُ مع صبيٍّ، ولا ضيَّعتُ الزمانَ تضيعَ الأطفالِ، ماتَ أَبِي ولَـمْ يُخلِّفْ لي كثيرَ شيءٍ، فكفلْتَنِي بلا مِنَّةِ مخلوقٍ، ولا بإتعابِي فِي كسبٍ.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٧٣١) من حديث المسور بن مخرمة.

وأَلْهَمْتَنِي اتباعَ أهلِ السُّنَّةِ دونَ المُبتدِعِينَ، وأدَّبتَنِي من حينِ الصِّبَا فكُنت فِي وقارِ الشيوخِ، وحبَّبتَ إليَّ من فنونِ الطرقِ طريقَ العُلماءِ والزُّهَّادِ، فما أنفردُ بالعلمِ عَنْ حُبِّ الزهدِ، ولا بالزُّهدِ عَنْ طلبِ العلمِ، حتىٰ قوَّمتَ سُلوكِي برياضةِ العلمِ عَنْ النهجِ الأقومِ.

ثمَّ أقمتَنِي أدلَّ الناسِ عليكَ، وأرشدَ الصالحينَ إليكَ، وأوقعتَ فِي القلوبِ مِنِّي مَا احترمُونِي لأجلِهِ، وصدَّقُوا حديثِي، فدَلَلْتُ إليكَ خلقًا لَا أُحصِيهِمْ، وأَسْلَمَ علىٰ يديَّ جماعةٌ لا أحفظُ عددَهم، ونشرتَ ذِكْرِي فِي البلادِ، فبلَّغتَنِي بالعلمِ مَا لَـمْ أَبلُغْهُ من العِلْمِ.

فالآنَ لَـمَّا كبُرتْ سِنِّي جاءَنِي إبليسُ يُيَئِّسُنِي من فضلِكَ، ويُوحِشُ مَا بينِي وبَيْنِكَ، ويقولُ: غدًا يومكَ فِي سكراتِ الموتِ، ثُمَّ يُلقِيكَ إلىٰ البِلَىٰ، ومَا يدرِي مَا يصنعُ بِكَ بعدَ ذلكَ، وأنَا أُجيبُهُ بما أسألُكَ أنْ لا تُكذِّبَنِي فِيهِ:

يا عَدُوَّ أَبِي فِي الأوَّلِ: أَتُرِيدَ نُصحِي أم هَلَاكِي؟ واللهِ لو قَطَّعَنِي إِرَبًا إِرَبًا لَرَأَيْتُهُ مَالِكًا حَكِيمًا، إِنِّي لَأَرْجُو لُطْفَهُ بِي عِنْدَ الموتِ، وأَرْجُو رَاحَتِي بعدَ الموتِ، وأرجُو مِنْهُ كُلَّ خيرٍ يومَ اللِّقاءِ، إقبالُهُ عليَّ فِي الأولِ عنوانُ مَا أرجُوهُ فِي الأخيرِ، مالي ومال مَا له(١)، شرفِي فِي ابتلائِهِ إيَّايَ، وجعي فِي تمزيقِهِ لَهُ، إنْ بدَّد جسدِي أعادَهُ، وإنْ نَقَصَ جسمِي شادَهُ.

ثُمَّ مَا للعبيدِ ومَا للسَّادَةِ، استوحش مِنْ طريقٍ فِيهَا الأنبياءُ والأولياءُ والعُبَّادُ والزُّهَّادُ، إِذَا شَاءَ طيَّبَ الموتَ الصعبَ، وَإِذَا أرادَ رَفَعَ الكربَ، هو يَعْلَمُ أَنِّي لَا أَرْجُو لِذَلِكَ الـمَصرعِ سِوَاهُ.

---

(١) كذا.

لَا كُنْتُ يومًا أَعْتَرِضُ عليهِ، ولا غَنِيتُ إِذَا لَـمْ أوقفْ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَعَدِمْتُ عقلِي إِذَا لَـمْ أَسِرْ وَقْتَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ.

واللهِ! مَا هِيَ إِلَّا نَوْمَةٌ يسيرةٌ، ثُمَّ أرجو فِي الِانْتِبَاهِ الخيراتِ الغزيرةَ، كأنِّي واللهِ بالقبورِ قَدْ شَقَّقَتْ، وَبِآمَالِي فِي فضلِه وقد تَحَقَّقَتْ، وَدَلِيلِي قَوْلُهُ: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي»[1]، وَعِزَّتُهُ مَا أظنُّ عُلُوَّ آمَالِي بفضلِهِ ثُمَّ لَا يَبْتَلِي، ثُمَّ أُقَدِّرُ أَنَّهُ أدْخَلَنِي النَّار، فقَلْبِي واللهِ بادرٌ عَنْهُ؛ لِعِلْمِي أَنِّي مُستحِقٌّ، وَلَيْسَ لِي - واللهِ - دَعْوَىٰ أَبِي سُليمانَ الدَّارَانِيِّ حِينَ قَالَ: «وَعِزَّتِكَ! لَئِنْ أدْخلْتَنِي النارَ لَأُخْبِرَنَّ أَهْلَهَا أَنِّي كُنْتُ أُحِبُّكَ».

أَنَا - واللهِ - أَقُولُ لهُمْ: وعِزَّتِهِ وجَلَالِهِ لَوْ جَمَعَ عَذَابَكُمْ عَلَيَّ وَحْدِي لَعَلِمْتُ أَنَّهُ بعضُ حَقِّي؛ فإِنِّي أَعْرَفُ الخَلَائِقِ بذَنْبِي، لكنِّي أسأَلُهُ: إنْ عاقَبَنِي صبرًا يَحْمِلُنِي، فأستعيذُ باللهِ مِنْ جَزَعٍ يُسْخِطُنِي.

وإنِّي لَأَرْجُو: إنْ جعَلَنِي من أهلِ النارِ أنْ يُرَافِقَ بَيْنِي وبينَ القائِلِ: يَا حنَّانُ يا منَّانُ؛ لِأَنَّ فِي ذَلِكَ بقيةُ معرفةٍ، وعندي خميرةُ معرفةٍ، فإنْ غُلِبْتُ عَنْ ذكرِهِ فِي النارِ فيخفىٰ[2]، وإنْ لَفَظْتُ بِذِكْرِهِ وَصَبَرْتُ عَلَىٰ عَذَابِهِ فَمِنْ فَضْلِهِ.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٧٤٠٥، ٧٥٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة.

(٢) كذا.

فصل

رَأَيْتُ هِمَمَ النَّاسِ مُتفاوِتَةً جِدًّا

فَقَوْمٌ لَا هَمَّ لهُمْ سِوَىٰ الدُّنْيَا وَلَذَّاتِهَا، فَهُمْ خلفُهَا إِلَىٰ الْـمَوْتِ، وَهِمَّةُ أَحَدِهِمْ مَا يَأْكُلُ ويَنْكَحُ ويَلْبِسُ ويَجْمَعُ، فَإِذَا أخلفَ هواهُ وكَبُرَ سِنُّهُ؛ قَعَدَ يَتَأَسَّفُ عَلَىٰ مَا كانَ، فيَقُولُ: أَذْكُرُ وَقَدْ فَعَلْتُ كَذَا، وَأَكَلْتُ كَذَا، وَجَمَعْتُ كَذَا، وَلَيْس عِنْدَهُ مِنَ الْآخِرَةِ وَلَا مِنْ ذِكْرِ الْـمَوْتِ خبرٌ؛ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ.

وَقَوْمٌ مَالَتْ بِهِمْ هِمَمُهُمْ إِلَىٰ الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا، فَرَأَوْا ذَلِكَ هُوَ الْـمَقْصُودَ، وَلَوْ وَغلُوا فِي الْعِلْمِ؛ لَفَهِمُوا الْـمُرَادَ، وهَؤُلَاءِ مع قِلَّةِ عِلْمِهِمْ عَلَىٰ خطرٍ عظيمٍ، وهُمْ إِلىٰ الهلاكِ أقربُ، فَفِيهِم مَنْ يمنعُ نفسَهُ حقَّهَا اللَّازِمَ، فيُجِيعُهَا وَيُعَرِّيهَا ويَحْمِلُ عليها الَّتِي لا يحلُّ لَهُ أَنْ يَحْمِلَهَا عَلَيْهَا، وَيَرَىٰ: أَنَّ تناولَ تفاحةٍ تُنْقِصُ مِيزانَهُ، وأَنَّ النكاحَ يشغلُه، ولقاءَ الناسِ يُؤذِيهِ، فينفردُ كالوحشيِّ، ورُبَّمَا عَرَضَ لَهُ إِبْلِيسُ [فأراهُ][1] حُسنَ الْكَرَامَات فَهلك[2]، وَرُبَّمَا رَآهُ النَّاسُ فَتَبَرَّكُوا بِهِ؛ فخرَّب نِيَّتَهُ فِي مَرَّةٍ، فَرَأَىٰ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ إِلَىٰ مَقَام الْوِلَايَةِ، فَأَقَامَ لِنَفْسِهِ النَّامُوسَ، ولَـمْ يَخْرُجْ، وَلَـمْ يَدْخُلْ، وَاسْتَعْمَلَ الصَّمْتَ وَالْوَقَارَ لِتَعْظِيمِ مَنْزِلَتِهِ.

وَلَقَدْ رَأَيْتُ مِنَ الْـمُتَزَهِّدِينَ مَنْ لَا يَبْرَحُ مِنَ الْـمَسْجِدِ لَيْلًا وَنَهارًا، وَقَدْ قَوِيَتْ نفسُهُ بِأَنَّ ذَلِكَ قد شاعَ فِي الدُّنيا، فكلُّ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَتَطَوَّعَ يَأْتِي إِلَيْهِ.

وَقَدْ كَانَ صَالِحُ السَّلَفِ لَا يَفْعَلُونَ هَذَا، فَكَانَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ قَيْسٍ لَا يتنفَّلُ فِي مسجدٍ قَطُّ، وَقَالَ سُفيانُ الثَّوْرِيُّ لِصَاحِبِهِ: «مَا أَجْرَأَكَ؛ تُصَلِّي وَالنَّاسُ يَرَوْنَكَ».

---

(١) في أ غير مقروءة. والمثبت من: ي

(٢) كذا.

وَمِنَ النَّاسِ: مَنْ عَلَتْ هِمَّتُهُ، فَطَلَبَ الْعِلْمَ؛ فَمِنْهُمْ مَنِ اقْتَصَرَ عَلَىٰ فَنٍّ وَشَاغَلَ بِهِ، فَفَاتَتْهُ الْفُنُونُ المطلُوبَةُ، وفَاتَهُ المُرَادُ مِنَ العِلْمِ كُلِّهِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ عَلَتْ هِمَّتُهُ، فَأَوْغَلَ فِي الْفُنُونِ وَهَذَا الَّذِي قَصَدْتُ الْكَلَامَ مَعَهُ فِي هَذَا الْفَصْلِ، فَأَنَا أُوصِيهِ وَأُحَذِّرُهُ؛ لِأَنَّ عُلُوَّ هِمَّتِهِ مَسْلَكُ الْغَايَةِ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ، وَهَذَا لَا يَحْتَمِلُ الْعُمُرَ.

فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ مُهِمَّهُ وَيَقْتَطِفُ خالصَهُ، ثم تَعْبُرُ إِلَىٰ الْعِلْمِ الْآخَرِ قَبْلَ أَنْ يغرقَ تيارُ ذَلِكَ العلمِ؛ فَإِنَّ المقصودَ قطعُ دجلةَ لا نفسُ السباحةِ، كما قَالَ الشعبيُّ: «العلمُ أكثرُ مِنْ أَنْ يُحصَىٰ، فَخُذُوا مِنْ كُلِّ شيءٍ أحسنَهُ».

ولو أَنَّ العُمُرَ يحتملُ مَا حذرتُهُ من هَذَا؛ فإنَّ العلمَ كُلَّهُ مطلوبٌ، غيرَ أَنَّهُ لو أوغلَ مثلًا فِي عُلومِ الحديثِ مَضَىٰ العمرُ وجاءَتِ الشَّيخُوخَةُ وهو لا يعرفُ الفقهَ، وكذلك باقي العُلومِ، فيَنْبَغِي لِلعالِمِ[١] أَنْ يتقَطَّفَ المُهِمَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.

فَإِذَا حصَّلَ مقصودَهُ من العُلومِ عَلِمَ أَنَّ المُرادَ مِنَ العِلْمِ صلاحُ أخلاقِ النفسِ به، ثم بنشرِهِ، وتَصْفِيَةُ وهدايةُ الخَلْقِ، فإذا صِحَّتْ نيَّتُه فِي ذَلِكَ كَانَ من عَلِمَ وَعَمِلَ وَعَلَّمَ، فَذَاكَ يُدْعَىٰ عَظِيمًا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاءِ.

وَكَمْ [رَأَيْنَا مِنْ وَاقِفٍ مَعَ صُورَةِ][٢] العِلْمِ، لَـمْ يُكشَفْ له المرادُ مِنْهُ؛ من معاملةِ الحَقِّ به.

ونحنُ نسألُ اللهَ ﷻ مرتبةَ الكمالِ فِي العِلْمِ والعَمَلِ، وأنْ يجعلَهُ دليلَنَا عليهِ وإليهِ؛ لنَجْتَبِيَ ثمرتَهُ، إنَّهُ قادرٌ قريبٌ.

---

(١) في أ: «للعلم».

(٢) في ي: قد رأيت ممن حد...وسورة.

۞ فصل ۞

مَا رَأَيْتُ أَسْهَلَ عَلَى خَلْقٍ كَثِيرٍ مِنْ تَضْيِيعِ الْعُمُرِ الَّذِي هُوَ أَنْفَسُ مَوْجُودِ الْأَنْفُسِ

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: «يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّمَا أَنْتَ أَيَّامٌ؛ إِذَا مَضَىٰ يَوْمُكَ مَضَىٰ بَعْضُكَ».

وَقَدْ رَأَيْتُ أكثرَ العَوَامِّ؛ فكُلُّهُمْ يُضَيِّعُونَ زَمَانَهُمُ الْفَارِغَ؛ مِنْ إِنْفَاقِهِ فِي حَاجَةٍ فِيمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ، وَرُبَّمَا كَانَ فِيمَا يَجْلِبُ إِثْمًا، فَإِذَا فَرَغُوا لَعِبُوا بِالشِّطْرَنْجِ أَوْ بِالنَّرْدِ، أَوْ قَعَدُوا عِنْدَ الْمُشَعْبِذِ وَالْمُحْدِثِ، أو عَلَىٰ الطَّرِيقِ يَتَفَرَّجُونَ أَوْ يَنْظُرُونَ إِلَىٰ مَنْ يَمُرُّ مِنَ النِّسَاءِ، وَيَقْطَعُونَ طُولَ اللَّيَالِي فِي الْأَحَادِيثِ الْفَارِغَةِ وَالْأَرَاجِيفِ وَغَيْرِهَا.

ثُمَّ نَظَرْتُ؛ فَإِذَا كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَوْ كُلُّهُمْ يُضِيعُ الزَّمَانَ الشَّرِيفَ فِي فُنُونٍ أُخَرَ:

فَمِنْهُمْ: مَنْ يَتَصَدَّرُ، وَيُحِبُّ التَّرَدُّدَ إِلَيْهِ وَالْهَنَاءَ لَهُ بِالْأَيَّامِ الشَّرِيفَةِ، وَيَقُولُ: فُلَانٌ مَا يَزُورُنَا، فُلَانٌ مَا نَرَاهُ، فَإِذَا اجْتَمَعَ عِنْدَهُ النَّاسُ تحدَّثُوا بما يُضِيعُ الزَّمَانَ، ويحتاجُ هو لكثرةِ المعارفِ إلىٰ مُرَاعَاةِ حُقُوقِهِمْ وَحُضُورَاتِهِمْ وَأَمْزَاجِهِمْ.

ومَا هَذِهِ أفعالُ مَنْ يَعْرِفُ شَرَفَ العُمُرِ، ولا مِقْدَارَهُ، وإِنَّمَا العَالِمُ باللهِ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي يَعْرِفُ شَرَفَ العُمُرِ، فَلَا يُنْفِقُ مِنْهُ لحظةً إلَّا فِي طاعةٍ، وَيَتَحَامَىٰ مِنْ أنْ يضيعَ عَليهِ الزَّمَانُ، وَلِهَذَا هَرَبَ خَلْقٌ كثيرٌ إلىٰ العُزْلَةِ، حِفظًا للوقتِ وخوفًا مِنْ حُقُوقِ المُخَالَطَةِ.

فالحذرَ الحذرَ من مجالسةِ الخلقِ؛ خصوصًا مَنْ هو فِي غيرِ الجِنْسِ؛ فإِنَّهُ إِنْ سَارَ بِهِ الإنسانُ مَعَهُ شيءٌ علىٰ غيرِ الجادَّةِ، وإنْ سارَ به فِي جادةِ العِلْمِ أَبَىٰ ونَسَبَهُ إلىٰ سُوءِ الخُلُقِ والمُعَاشَرَةِ. وأَقَلُّ مَا تُنْتِجُ المُخَالَطَةُ سَمَاعُ الْغِيبَةِ.

فَأَوْلَىٰ مَا فَعَلَ الْعَاقِلُ الِانْفِرَادُ وَالْعُزْلَةُ عَمَّا يُؤْذِي، وَجَاهَدَ فِي سَاعَاتِ الْمُخَالَطَةِ مَعَ تَقْلِيلِهِ لَهَا جَهْدَهُ؛ فَإِنَّ جَوَاهِرَ الْأَنْفَاسِ لَا قِيمَةَ لَهَا، وَلَا هِيَ شَيْءٌ عَنْهُ عِوَضٌ.

۞ فَصْلٌ ۞

مِنَ الْعَجَائِبِ: خَلْقٌ كَثِيرٌ لَا يَنْظُرُونَ لماذَا خُلِقُوا، ولَا مَا المُرَادُ مِنْهُمْ، وَلَا يتفكَّرُونَ فِي أَنَّ لَهُمْ خَالِقًا

يُقِرُّونَ تَقْلِيدًا، وَلَوْ عَارَضَهُمْ شُبْهَةٌ أَنْكَرُوا، فهَؤلَاءِ فِي عِدَادِ البَهَائِمِ، ثُمَّ يَنْشَأُ أَحَدُهُمْ هَمُّهُ مَا يَأْكُلُهُ ويُحَصِّلُهُ ويَجْمَعُهُ ويَلْبَسُهُ ويَنْكِحُهُ، ولا يَدْرِي عَلَىٰ الحَقِيقَةِ مَن الخَالِقُ، ولا يَهْتَمُّ بمعرفةِ الصلاةِ، ويعيشُ سِتِّينَ سَنَةً ولا يُفَرِّقُ بَيْنَ رُكْنٍ وهيئةٍ، ولا يَهُمُّهُ معرفةُ ذلكَ.

وَلَا يُزْعِجُهُ الشيبُ، إلَّا أنْ يُبْكِيَهُ علىٰ فَقْدِ اللَّذَّاتِ ولا يُغِيرُهُ استلابُ الأقرانِ، ولا يَعِظُهُ خرابُ الدِّيَارِ، وغايةُ مُرَادِهِ نيلُ شَهَوَاتِهِ كيف اتَّفَقَتْ! فالعجبُ كيفَ يُسَمَّىٰ هَؤُلَاءِ عُقَلَاءَ، وأيْنَ العقلُ منهم؟!

وينبغِي للعاقلِ أنْ يَعْلَمَ أنَّ المُرَادَ كُلَّهُ مِنَ الإيجادِ مَعْرِفَةُ المُوَحِّدِ وطاعتُه، ولمَّا لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنَ التَّسَبُّبِ للبقاءِ [جعل الكسب والأكل واللذات، ليكون طريقًا إلىٰ البقاء، بما يتحقق معرفة الموجد][(١)].

---

(١) من ي.

ثُمَّ يُنَادَىٰ بِالرَّجُلِ، فَإِذَا نَزَلَ القَبْرَ لَمْ يُسْأَلْ عَنْ مَالِهِ ولا عَنْ وَلَدِهِ، بَلْ يُسْأَلُ عَنِ المَقْصُودِ بِوُجُودِهِ، فيُقَالُ: «مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ ومَنْ نَبِيُّكَ؟»(١).

فَوَا عَجَبًا لِذِي عَقْلٍ مَا نَفَعَهُ، ولِذِي سَمْعٍ مَا أَفَادَهُ، أُخْرِجَ من الطينِ، وعَادَ إلىٰ المطلعِ خزفًا، فلا هو عَرَفَ النَّاظِمَ، ولا فَهِمَ عظمةَ المفرقِ، فكيفَ يَعْرِفُ قَدْرَهُ الجامعَ بَعْدَ ذَلِكَ، هَيْهَاتَ ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٢].

۞ فَصْلٌ ۞

مَا زِلتُ أُحْسِنُ الظَّنَّ بالمُسلِمينَ، وأَثِقُ إلى كُلِّ أَحَدٍ، حَتَّى أبدتِ التَّجَارِبُ وقَضَى العَقْلُ بِالْخَطَإِ فِي ذَلِكَ

وَقَالَ: الحزمُ إِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يُحْسِنَ الظَّنَّ بِمَنْ ظَاهِرُهُ الخَيْرُ، فيَظُنُّ أَنْ لا يُخَالِفَ ذَلِكَ فِي الْبَاطِنِ، فأَمَّا مَنْ أماراتُ القبائحِ عليه فِي الظاهرِ، فبعِيدٌ سلامةُ باطِنِهِ، وحُسْنُ الظَّنِّ بِهَذَا أحسنُ لِحَقِّ العَقْلِ؛ إِذِ الظَّاهِرُ عُنْوَانُ البَاطِنِ.

(١) **صحيح**: أخرجه من حديث البراء بن عازب: الطيالسي (٧٥٣)، وأحمد (١٨٥٥٧) وقال الهيثمي (٣/ ٥٠): رجاله رجال الصحيح. وأبو داود (٤٧٥٣)، وابن خزيمة في «التوحيد» (ص ١١٩)، وأبو عوانة - كما في «إتحاف المهرة» (٢٠٦٣)، وابن منده (١٠٦٤) وقال: هذا إسناد متصل مشهور رواه جماعة عن البراء وهو ثابت علىٰ رسم الجماعة. والحاكم (١٠٧، ١٠٩، ١١٧) وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين. والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٩٥) وقال: صحيح الإسناد. وصححه ابن القيم في «إعلام الموقعين» (١/ ٢١٤) و« تهذيب السنن» (٤/ ٣٣٧) ونقل فيه تصحيحه عن أبي نعيم وغيره.

فَيَنْبَغِي فِي هَذَا الزَّمَانِ المَرْذُولِ الَّذِي قَدْ ظَهَرَتْ فِيهِ عَلَىٰ أكثرِ الناسِ أفعالٌ قبيحةٌ، وعَلَىٰ المُتَزَهِّدِينَ تَصْنِيفَاتٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَىٰ ذِي بَصِيرَةٍ أَنْ لَا يُوثَقَ بمُعَامِلٍ، ولا يلتفتَ إلىٰ حُسْنِ ظَنٍّ؛ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ظَاهِرًا لِمَنْ شَهِدَ بِصَلَاحِهِ، فَكُنْ مَعَ حُسْنِ الظَّنِّ بِذَلِكَ الشَّخْصِ عَلَىٰ حَذَرٍ.

وَقَدْ قَالَ الْحُكَمَاءُ:

لا تَحْذَرَنَّ سَلِيمًا جَرَ مِئْزَرَهُ ** وَاحْذَرْ مَقَالَةَ مغص شَمَّرَا القُمُصَا

واللهِ! لَقَدْ رَأَيْتُ مِنَ الناسِ عجائبَ، مَا نَفَتْ لي حُسْنَ ظرفِهِمْ، فَالْخِيَانَةُ فِي المَعَامِلِ، والغشُّ فِي الصديقِ، وعدم الوفاءِ فِي المعاشرةِ، والتَّعَمُّلُ فِي المتزهِّدِ، والرخصُ الباردُ فِي العالَمِ، ومَا بَقِيَ لِي مَنْ أَقْتَدِي بِهِ ويَحْسُنُ ظَنِّي فِيهِ إِلَّا أَهْلُ القُبُورِ، مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ، الَّذِينَ عَرَفْتُ بِالْمَنْقُولِ الصَّحِيحِ سَلَامَةَ بَاطِنِهِمْ، وحُسْنَ ظَاهِرِهِمْ، فَبِهِمْ يَنْبَغِي أَنْ يُقْتَدِي وَلِمِثْلِهِمْ يُتَّبَعُ، ونعوذُ باللهِ من شرِّ هَذَا الزمانِ الرَّذيلِ الَّذِي زُهَّادُهُ ذِئَابٌ، وَعُلَمَاؤُهُ ذِئَابٌ.

۞ فَصْل ۞

إِذَا دَهَى الفَطِنُ تَلَمَّحَ السَّبَبَ، وَنَظَرَ إِلَى الحَالِ

فَوَا عَجَبًا لَكَ! وَأَنْتَ تَدَّعِي الْفِطْنَةَ، فَتَرَىٰ اخْتِلَالَ أُمُورِكَ، ولا تنظرُ فِي سببِ اختلالِهَا، تاللهِ! مَا اختلَّتْ إِلَّا مِنْ قِبَلِ تَفْرِيطِكَ فِي حقِّ الخالقِ؛ إِذْ لَوِ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَامَتْ، أَمَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ فِي حَقِّ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾، [ثُمَّ بَيَّنَ السَّبَبَ، فَقَالَ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾.

فإذَا رَأَيتَ خِيانَةً مِن زَوْجَةٍ]، أَوْ عُقُوقًا مِنْ وَلَدٍ، أَوْ مِحْنَةً مِنْ جِهَةٍ مِنَ الْجِهَاتِ؛ فَاعْلَمْ ذَلِكَ مِنْ جِهَةِ مَعْصِيَتِكَ وَمُخَالَفَتِكَ، فَبَادِرْ إِلَىٰ الْإِنَابَةِ وَحَقِّقْ؛ فَإِنَّهُ إِنْ عَفَىٰ عَنْكَ رَأَيْتَ كُلَّ مَا تُسَرُّ بِهِ.

أَتُرَاكَ مَا تَأَمَّلْتَ خيانةَ آدمَ، كيفَ جرَّتْ عليهِ البكاءَ الدائمَ والعناءَ الطويلَ! أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ نُوحًا قَالَ كلمةً: ﴿إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾، فعُوتِبَ عَلَيْهَا: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، فَبَكَىٰ ثَلَاثَ مِائَةِ عَامٍ. أَمَا سَمِعْتَ بأَنَّ دَاوُدَ جَنَىٰ جِنَايَةً لَا تَحْسُنُ فِي حَقِّ مِثْلِهِ، فَجَرَىٰ عَلَيْهِ مَا قَدْ بَلَغَكَ. وَكَذَلِكَ سُلَيْمَانُ وَغَيْرُهُمْ.

وَبِالْعَكْسِ؛ صَبْرُ يُوسُفَ عَنْ هَوَاهُ؛ مُرَاعَاةً لِتَقْوَاهُ، كَيْفَ جَلَبَ لَهُ الْـمَدِيحَةَ، وَأَثْمَرَ لَهُ الْمُلْكَ؟

فَيَا أَعْمَىٰ الْبَصِيرَةِ! لَوْ كَانَتْ لَكَ عَيْنٌ تَتَلَمَّحُ بِهَا عَوَاقِبَ الْأُمُورِ، وَقَدَمٌ تَسْلُكُ أَقْوَمَ الْـمَنَاهِجِ؛ لَـمَا رَأَيْتَ تَغْيِيرًا قَطُّ، لَكِنَّكَ تَصِيحُ مِنْ أَلَمِ الْجِرَاحِ، وَأَنْتَ بِالسَّيْفِ تَسْفِكُ دَمَكَ وَتَسْتَغِيثُ مِنْ أَلَمِ الْخِنَاقِ، وَأَنْتَ تُوثِقُ بِالْحَبْلِ عُنُقَكَ، انْتَبِهْ لِنَفْسِكَ انْتِبَاهَ مُنْزَعِجٍ قَدْ دَهَىٰ، لَعَلَّكَ تَسْتَدْرِكُ فَارِطَ أَمْرِكَ.

❁ فَصْلٌ ❁

فِي مُعَاشَرَةِ الزَّوْجَةِ وَالْوَلَدِ

اعْلَمْ؛ أنَّ المِلْحَ فِي الأُمورِ أَنْ يكونَ لأصلِ الوضعِ، وإنَّما وُضِعَ النكاحُ لاتخاذِ الولدِ، ورُكِّبتِ الشَّهوةُ باعثًا حاثًّا، فَإِذَا كانتِ الزَّوجةُ غيرَ مُشتهاةٍ فترَتِ الشَّهوةُ، فيقلُّ الماءُ الَّذي يُخلقُ مِنْهُ الولدُ، فأثَّرَ ذَلِكَ فِي الواطئِ، وفي الولدِ:

فأمَّا تأثيرُه فِي الواطئِ؛ فمِن وجهينِ:

أحدُهُما: أنَّ نكاحَ المنغوصِ فِيهِ خصيصةٌ تُؤذِي المُجامعَ.

الثَّاني: أنَّه لَا يُخرِجُ الماءَ المُحتقنَ، فيبقَىٰ مِنْهُ مَا يُؤذِي بقاؤُه، وكأنَّه آكلٌ مَا شَبعَ، وشاربٌ مَا رُوِّي.

وأمَّا تأثيرُه فِي الولدِ؛ فإنَّ الماءَ إذا قلَّ ضَعُفَ.

ولـمَّا كان عمومُ النَّاسِ لَا يُمكِنُهم الجمعُ بَيْنَ الزوجاتِ ولَا كثرةِ السَّرارِي، بحيثُ إنَّه إِذَا أفترتِ الهِمَّةُ عن واحدةٍ مالتْ إلىٰ الأُخرىٰ، ولَـمْ يكُن لَهُمْ سِوَىٰ واحدةٍ؛ كَانَ مِنَ الصوابِ تعليمُ مَا يُدِيمُ طيبَ النَّفسِ ليتمَّ المَسْكَنِ، وتَحْصُلَ قَناعَةُ النفسِ ومرادُها، وذَلِكَ إمَّا أنْ يكونَ فِي الأوَّلِ بتخيُّره المرأةَ، والنظرِ فِي حُسنِها، وفِي الثَّانِي تصنُّعُها وتحسُّنُها، وفِي الثالثِ تجنُّبُها مَا يُشِينُ.

ولـمَّا كانتْ كثرةُ المخالطةِ تُوجِبُ رؤيةَ القبائحِ؛ كانَ الأوْلَىٰ تجنُّبُ مَا هُوَ سببٌ فِي الأَذَىٰ، خصوصًا فِي حقِّ ذِي الأَنَفَةِ والهِمَّةِ؛ فإنَّ فِي النَّاسِ [مَن أراد فِي أَنَفَةٍ، فإذا قَامَتْ نَفْسُه مِن شَيءٍ لَم يَعُدْ إِلَيْهِ، وفِي النَّاسِ] أنذالٌ لَا يُوجِعُهُمْ رؤيةُ القبيحِ، ولا يُؤثِّر فِيهِمْ، وإنَّما الكلامُ مَعَ العُقلاءِ أُولِي الأنفسِ العزيزة.

فينبغي أنْ لَا يُضاجعَ الرجلُ المرأةَ إلَّا فِي وقتٍ مَا؛ فإنَّه يكونُ فِي طولِ اليومِ مَا يُوجِبُ النُّفُورَ، فلتكنْ قريبًا مِنْهُ علىٰ فراشٍ منفردٍ، فإِذَا شاءَ تقرَّبَ إِلَيْهَا، وليكنْ قُربُهُ فِي أوقاتٍ معلومةٍ عِنْدَهَا؛ لتتَهَيَّأَ بِذَلِكَ.

وينبغِي لها أنْ لَا تُشْعِرَه ساعاتِ أكلِهَا وشُربِهَا وطهارَتِهَا، وأنْ لَا تبصقَ وهو يَرىٰ، ولا تمخطُ، ولا تُرِيهِ فَرْجَهَا أصلًا، ولا مَعَايِبَهَا، ولا تُخلِي نفسَها من الطِّيبِ وقتًا مَا، ولْتُرَاعِ جميعَ بدنِهَا؛ خصوصًا المعايبَ ومواضعَ العَرَقِ، وأَخَصُّهَا الفمَ؛ لأنَّهُ محلُّ التقبيلِ، ولتنظفَ نفسَها مهما أمكنَ.

وكما ينبغي أنْ تُراعِيَ بدَنَهَا؛ فلتُراعِ أدبَهَا، وحُسنَ عشرَتِها له؛ فإنَّهَا إِذَا كانتْ لَهُ كالأمةِ كانَ لَهَا كالعبدِ، ومِنْ أَدَبِهَا قناعتُها باليسيرِ، وتركُ الانبساطِ فِي طَلَبِ شيءٍ، وخفضُ صوتِها لَهُ، وقيامُها فِي حالِ قُعودِه، وتركُ خلافِه، وإصلاحُ مالِه؛ فذاكَ يرفعُ قَدْرَهَا.

ولا تبعدُ عَنْهُ فيَنْسَاهَا، ولا تكثرُ مضاجعتَهُ فيَمَلَّهَا، بَلْ بِمِقْدَارٍ فِي وقتٍ مخصوصٍ، فتكونُ [...] [١] كالعروسِ.

وكمَا أمرنَاهَا نأمُرُهُ أيضًا: أنْ يستُرَ جسدَهُ عنها؛ فإنَّ جسدَ الآدميِّ لَيْسَ بمُسْتَحْسَنٍ، خصوصًا الرجلَ؛ فلا يكشفُ رأسَهُ وهي تراهُ جَهْدَهُ، ولا يُرِيهَا عورَتَه، ولا يتعرَّىٰ؛ فإنَّ رؤيةَ بدنِ الرجلِ تبردُ عند النفسِ الاستمتاعَ.

قالتْ عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: قَدِمَ زيدُ بنُ حارثةَ ورسولُ اللهِ ﷺ فِي بيتِي، فقرعَ البابَ، فقامَ إليهِ رسولُ اللهِ ﷺ عريانًا يجرُّ ثوبَهُ، واللهِ مَا رأيتُهُ عريانًا قبلَهُ ولَا بعدَهُ [٢].

ولا ينبغِي أنْ يبصقَ وهي تراهُ، وليكنْ لَهُ مكانٌ ينفردُ بِهِ، ولا يحضرُ عندَها إلَّا فِي وقتِ كمالِه وتمامِه، ولْيُراعِ نظافةَ نفسِهِ، وطيبَ فمِهِ، وقَدْ قَالَ ابنُ عباسٍ: «إنِّي لَأُحِبُّ أنْ أتزيَّنَ للمرأةِ كَمَا أُحِبُّ أنْ تتزيَّنَ لِي»، ولْيُحَسِّنْ أدبَهُ، كَمَا أمرنَاهَا بحُسنِ الأدبِ لَهُ.

ولا ينبغِي لأحدِ الزوجينِ أنْ يذكرَ للآخرِ مَا يُعيبُهُ بِهِ؛ مثلَ أنْ تقولَ المرأةُ للرَّجُلِ: قَدْ كَبِرْتَ، أَوْ يَقُولَ لَهَا: قَدْ كَبِرْتِ، أَوْ فِي جسمِكِ عيبٌ؛ فَهَذِهِ الأشياءُ تَزرعُ فِي القلوبِ البُغضَ؛ فإنَّ النفسَ تُحِبُّ مَنْ يَمْدَحُهَا، وتُبْغِضُ مَنْ يَذُمُّها؛ وإنْ كانَ صادقًا.

---

(١) غير مقروءة.

(٢) **إسناده ضعيف**: أخرجه الترمذي (٢٩٥١) وحسنه.

فينبغِي أنْ يُغَطِّيَ كلٌّ منهُمَا عَنْ عيبِ الآخرِ، ويُرِيَهُ أنَّه مَا يَدْرِي بذَلِكَ العيبِ، وإنْ أمكنَ أن يقولَ: إنَّ ذَلِكَ يُعجبُنِي، كَمَا رُوِيَ عَنْ نائلةَ بنتِ الفرافصةِ، أنَّها لَـمَّا تزوَّجَها عثمانُ، وأُدخلتْ عَلَيْهِ، قَالَ لهَا: إنَّ وراءَ مَا تَرَيْنَ مِنَ الشيبِ علاقةٌ من شَبابٍ، قالتْ: إنَّ أعجبَ الرجالِ إليَّ الكهلُ الوقورُ. فهذِهِ امرأةٌ عاقلةٌ، إنْ كانَ فِي القلبِ غيرُ هَذَا.

فهَذِهِ الأشياءُ المذكورةُ أُنموذجُ مَا أغفلنَاهُ، وبِها تتمُّ المُعاشرةُ، وتطيبُ المُؤانسةُ، فأمَّا إذَا كانَ الرجلُ مُهمِلًا لنفسِه، أو كانتِ المرأةُ مُهمِلةً لنفسِها؛ فيَا قُرْبَ وقوعِ المللِ، وتنغيصِ العيشِ، وإنَّما تتوقُ نفسُ الرجلِ أَوِ المرأةِ إِلَىٰ الاستبدالِ؛ لأنَّ النفسَ تتخايلُ فِي الشخصِ الَّذِي لَـمْ تُخالطْهُ حُسْنًا وجَمَالًا ليسَ عندَهُ، فلَوْ قَدْ خالطتْهُ؛ عَلِمَتْ أنَّه كالأوَّلِ.

فهَذَا فصلٌ مفيدٌ، يقيسُ عَلَيْهِ العاقلُ مَا لَـمْ يُذكرْ.

عَلَىٰ أنَّه إِذَا وُهبَ للمرأةِ عقلٌ دبَّرتْ نفسَها، وإِذَا كانتْ رعناءَ لَـمْ ينفعْهَا التقويمُ، وكَذَلِكَ الرجلُ.

۞ فصْل ۞

مِنْ أعظمِ النّعمِ عَلَى المُتيقِّظِ غفلةٌ يُلدغُ بِهَا، تكونُ سببًا فِي حَياتِه، ويستعينُ بِهَا عَلَى أداءِ التكليفِ

فإنَّ المُتيقِّظَ إذا قَوِيَ تيقُّظُهُ شاهدَ الحقائقَ، فكأنَّه يرىٰ المعبودَ، فتتَلَاشَىٰ صفاتُه، ويخرجُ من حدِّ الثبَاتِ.

ولـمَّا انكشفتِ الحقيقةُ [ألقت الجند][1] إِلَىٰ الأرضِ؛ فمُوسىٰ يخرُّ صعقًا، ونبيُّنَا يغطُّ ويتحدَّرُ عرقُه، ولـمَّا تجلَّىٰ الحقُّ للخليلِ، فقيلَ له: أَلَكَ حاجةٌ؟ فَقَالَ: أمَّا إِلَيْكَ؛ فَلَا، وهودٌ يقولُ: ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ﴾ [هود: ٥٥]، وبعضُ الستر انكشفتْ للسحرةِ، فَقَالَوا: ﴿فَاقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾ [طه: ٧٢]، ورؤيةُ الألطافِ أنطقتْ يعقوبَ ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ﴾ [يوسف: ٨٧].

فلمَّا كانَ الآدميُّ لَا يحتملُ هَذَا الكشوفَ، فغُطِّيتْ عَنْهُ فِي أكثرِ الأحوالِ، حتَّىٰ قدرَ علىٰ الأكلِ والشربِ والنكاحِ، فتمَّ نظامُ الدُّنيَا، وصحَّ البقاءُ فيهَا، وهَذِهِ الغفلةُ النافعةُ مِنَّا كانتْ بمقدارٍ تتعدلُ بِهَا اليقظةُ، فهِيَ كالمِلْحِ فِي العجينِ، فإِذَا زادتْ ضرَّ.

عَلَىٰ أنَّ المُتيقِّظَ لَوْ نُسِبَ إلىٰ الغفلةِ كيفَ نُسِبَتْ؛ فَلَا بُدَّ مِنْ غفلةِ اليقظةِ لَهَا، إِلَّا أنْ يعدلَ حدَّهُ، كَمَا يُسلِّي العاشقُ نفسَه، وفي القلبِ مَا فِي القلبِ مِنْ لوعةِ الهَوَىٰ، ومِنْ هَا هُنَا قِيلَ: لَوْ رَأَيْتُمُوهُمْ لَقُلْتُمْ مَجَانِينَ، وويلٌ للشَّجِيِّ مِنَ الخَلِيِّ، ومِنْ هَذَا الجنسِ: لَوْ تَسْمَعُونَ كَمَا سمعتُ حدِيثَهَا.

ومثالُ هَذَا: رجلٌ شديدُ الطمعِ، وآخرُ قويُّ النزاهةِ، فالنَّزِهُ يعجبُ أخلاقَ الطامعِ حدَّتُه فِي الطمعِ، والطامعُ يعجبُ من شدَّةِ تماسُكِ النَّزِهِ، ويظنُّ أنَّه يحملُ عبأً ثقيلًا فِي صبرِهِ، وليسَ كَذَلِكَ، بَلْ يَرَىٰ أنَّ التنزُّهَ كاللَّازِمِ منَ الطهارةِ، فالتفاوتُ بَيْنَهُمَا كما قَالَ الشافعيُّ:

وَمَنْزِلَــةُ الــسَّفِيهِ مِـــنَ الْفَقِيـــهِ ** كَمَنْزِلَـةِ الْفَقِيـهِ مِـنَ الـسَّفِيهِ الْقُمُـصَا

فَهَـــذَا زَاهِـــدٌ فِـــي قُـــرْبِ هَـــذَا ** وَهَـــذَا فِيـــهِ أَزْهَـــدُ مِنْـــهُ فِيـــهِ

---

(١) في أ لم تقرأ الا هكذا. في ي: «ألقت الخبث».

❁ فَصْلٌ ❁

أكثرُ الناسِ قد نَسُوا العِبادةَ بصورَتِها الواقعةِ مِنَ الجسدِ

كالصومِ والصلاةِ، وساعدَهُمْ علىٰ ذَلِكَ العادةُ، حتَّىٰ إنَّ الصائمَ فِي رمضانَ لَوْ ضُرِبَ بالسياطِ مَا أفطرَ، وهو يغتابُ الناسَ ويأخذُ أموالَهم ويظلمُهم، ويفعلُ كُلَّ قبيحٍ، ومَا ذَاكَ إلَّا تشبُّهٌ بالعادةِ فِي التعبُّدِ، ورُبَّمَا كانَ إفطارُه غصبًا.

وفِيهِمْ مَن يخرجُ عن حُسنِ المصانعةِ، فيظلمُ الناسَ، ثم يتصدَّقُ بالبعضِ، ويمتنعُ ليلةَ الجمعةِ من شُربِ الخمرِ، فإذا رآهُ آخاهُ أو ابنُهُ يشربُ الخمرَ لَا يهجرُه، ولَا يزجُرُه.

وكُلُّ هَذِهِ الأفعالِ بعيدةٌ مِنَ الإيمانِ، تدلُّ علىٰ أنَّ القومَ مَا عندَهم مِنَ الإيمانِ إلَّا العادةُ، وإلَّا فأينَ تحقيقُ التصديقِ الَّذِي ثمرتُه اجتنابُ النواهِي، وامتثالُ الأوامرِ، والرِّضَا بالقضاءِ من غيرِ تسخُّطٍ، وهجرُ القريبِ فِي ذاتِ اللهِ - كما ضربَ عمرُ ولَدَه الحدَّ - وإخراجُ المحبوبِ من المالِ لأجلِ اللهِ - كما أخرجَ أبو الدَّحْدَاحِ بُستانَهُ فِي الصدقةِ -.

أفترَانِي أحكمُ بالإيمانِ لـمَنْ لَا يعرفُ أركانَ الصلاةِ، ولا يُبالِي جَهِلَهَا أَمْ عَلِمَهَا، ولا أدَّاهَا كما ينبغِي أو لَـمْ يُؤَدِّهَا، ويتوانَىٰ فِي الزكاةِ، فإذَا أخرجَ أخرجَ البعضَ، [وتَأَوَّلَ فِي البَعْضِ] تأويلًا لَا يسوغُ فِي الشرعِ، وباعَ القراضةَ بالصحيحِ؛ بيعًا حرامًا بالإجماعِ، ولَـمْ يسهلْ عَلَيْهِ تقليدُ فَقِيهٍ.

أفترَانِي أغترُّ بمزاحمتِه للناسِ فِي المسجدِ ليلةَ الرغائبِ، أو ببكائِه فِي مجلسِ الواعظِ، هَيْهَاتَ! مَا هَذِهِ صفةُ مؤمنٍ، ولا مَن عندَه مِنَ الإسلامِ إلَّا اسمُه، ولو حُقِّقَ الأمرَ مَعَ أكثرِ الناسِ أفلسُوا من الإيمانِ.

۞ فَصْل ۞

تفكَّرْتُ يومًا فِي نفسِي فعَلِمْتُ أنِّي مصنوعٌ لصانعٍ وثبتَ عندِي بالدليلِ حدثُ المُحدثاتِ

وأنَّه لَا يجوزُ أن يكونَ المُحدَثُ أحدَثَ نفسَه؛ لأنَّه إنْ كانَ أحدثَها حالةَ العدمِ فمحالٌ؛ لأنَّ المعدومَ لَا يكونُ فاعلًا، أو فِي حالةِ الوجودِ، فالوجودُ مُستغنٍ بوجودِهِ، ولـمَّا رأيتُ المُحدَثَ موجودًا فِي زمانٍ دونَ زمانٍ عَلِمْتُ أنَّه لَوْ لَـمْ يكنْ عَنْ مُحْدِثٍ لَـمْ يكنْ وجودُه فِي زمانٍ أولَىٰ مِنْ وجودِه فِي الزمانِ الَّذِي قبلَهُ أو بعدَهُ.

ثُم تفكَّرتُ فِي مبتدإِ الوجودِ؛ فإِذَا النطفةُ قَدِ اسْتُلَّتْ مِنَ الدمِ، والدمُ قَدِ اسْتُلَّ مِنَ الأغذيةِ، والأغذيةُ قَدِ اسْتُلَّتْ مِنَ العناصرِ الأربعةِ: الماءِ والترابِ والنارِ والهواءِ، فنظرتُ فِي العناصرِ؛ فإِذَا بِهَا متضاداتِ متنافراتٍ، فعَلِمْتُ أنَّه لَا بُدَّ لامتزاجِ هَذِهِ المتنافراتِ من قاهرٍ قَهَرَهَا علىٰ الامتزاجِ.

فلمَّا فرغتُ مِنَ النَّظَرِ فِي مبدإِ البدنِ رأيتُه مُركَّبًا؛ الراكبُ هُوَ النفسُ، فإِذَا بِهَا جوهرٌ عجيبٌ، لَا بُدَّ أنْ يكونَ حيًّا ليُدركَ المعلومَ والحكمَ، ولا يجوزُ أنْ يكونَ عرضًا؛ لأنَّ العرضَ لَا يقومُ بنفسِه، وهذا صالحٌ أنْ يقومَ بدونِ البدنِ.

وقد نطقَ الشرعُ بذلكَ، وأخبرَ بخلقِ الأرواحِ قبلَ الأجسادِ، وأخبرَ بكونَها باقيةً بعدَ بِلَىٰ الأبدانِ.

فلمَّا رأيتُ أنَّ بناءَ هَذَا البدنِ بناءٌ عجيبٌ، ثُم رأيتُ النفسَ مِنْهُ قريبًا؛ عَلِمْتُ أنَّهُ لَا ينقضُ إلَّا لأمرٍ هُوَ أعجبُ مِنْ بنائه، ثُم نظرتُ فِي النفسِ بعدَ فراقِه، فإِذَا صاحبُ

الشرعِ يقولُ: «هِيَ فِي حواصلِ طيرٍ»[1]، ثُم قد وعدَ الكتابِ [والسُّنةِ] بالإعادةِ للبدنِ والنفسِ.

فرأيتُ أقوامًا يستبعدونَ ذلكَ؛ فلَمْ أستبعدْهُ؛ لِمَا سبقَ من علمِي بجمعِ تلكَ المتنافراتِ، ثُم قد أرانِي فِي مخلوقاتِه، مثلَ الزئبقِ يُلقَىٰ فِي ذراتٍ من الذَّهَب لَا يُحصي متفرقاتٍ فِي الترابِ فتجمعُها، والنارُ تُوقَدُ علىٰ النحاسِ والذهبِ والفضةِ، فتميِّزُ كلَّ نوعٍ إلىٰ جنسِه؛ إذا كان هَذَا تمييزُ قوةِ النارِ، فكيفَ بالقوةِ الإلهيَّةِ.

فلمَّا جوَّزَ هَذَا عندِي الإعادةَ، نظرتُ فإذَا الشرعُ قد أوجبَها بمَا ضمنَ فِي القرآنِ من إعادةِ الخَلْقِ؛ كقولِهِ: ﴿ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ [التغابن: ٧]، ورأيتُ العقلَ يراهَا كالواجبِ فِي الحكمةِ؛ لأنَّ الحكيمَ لَا يُفْنِي مثلَ هَذَا الآدميِّ الَّذِي لَا نظيرَ لَهُ مِنَ الموجوداتِ لِيَحْيَا أيامًا يسيرةً بنغصٍ كثيرةٍ، ثُم تنقصُه نقصًا لَا لمعنًىٰ، هَذَا لَا يليقُ بالحكمةِ ولا بالقدرةِ ولا بالكرمِ، فأيقنتُ بالبعثِ، ولـم يبقَ لي تردُّدٌ فيهِ، بل تجردُ فكري للعملِ بما يصلحُ للبعثِ، وأنَا أسألُ اللهَ ﷻ التوفيقَ.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٨٨٧) من حديث عبد الله بن مسعود. وأخرجه أحمد (٢٣٨٨) من حديث ابن عباس.

فَصْل

اعتبرتُ على أكثرِ الناسِ خلَّةً مذمومةً، ولي فِيهَا نصيبٌ

وهو أنَّ أحدَهم لَا يكتمُ شيئًا مِنَ البلاءِ، [وإنْ قَالَ فإن ... صَحَّ ... وشيء إلىٰ الخَلْفِ، وإنْ فقدَ لَه عِرْضٌ ضَجَّ وشيء][1] وإنْ أعوذَهُ شيءٌ، وعندَهُ أشياءُ فاضلةٌ عَنِ الحاجةِ؛ شكَىٰ ولَـمْ يَبِعْها، ورُبَّمَا وهبتْ لَهُ العافيةُ مِنْ مرضٍ، فإذَا طرقَ بابَه للعيادةِ اضطجعَ، فكأنَّه يقولُ لَهُم بلسانِ الحالِ: مَا عُوفِيتُ، وإنْ فعلَ شيئًا مِنَ الطاعاتِ لَـمْ يقدرْ عَلَىٰ كتمِهَا حتَّىٰ يُحدَّث بِهَا.

فهذِه الأشياءُ كُلُّها معاملاتٌ مَعَ الحقِّ ﷻ، فإظهارُها رياءٌ وشركٌ، ومَا كانَ السلفُ عَلَىٰ هَذَا، وإنَّما رفعَهُمُ اللهُ ﷻ بكتمانِ المعاملاتِ، فلمَّا رأىٰ صدقَهم فِي الكتمانِ أظهرَ عَلَيْهِم من المدائحِ بالطاعاتِ أضعافَ مَا عَمِلُوا.

شكَىٰ رجلٌ إلىٰ الأحنفِ وجعَ ضِرسِهِ، ثُم عادَ فشكَىٰ، فَقَالَ: قَدْ ذَهَبَتْ عَيْنِي مُنْذُ سنينَ مَا عَلِمَ بِهَذَا أحدٌ! وكانَ حسانُ بنُ سنانَ يشتري أهلَ البيتِ فيعتقَهم، وَلَا يُعلِمَهم مَنْ هُوَ. دَخَلَ رجلٌ عَلَىٰ الإمام أحمدَ بنِ حنبلٍ يعودُه، فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ؟ قَالَ: بخيرٍ، قَالَ: هَلْ أحممتَ البارحةَ؟ قَالَ: إِذَا قُلْتُ لَكَ أنَا بخيرٍ فَلَا تُحوجُنِي إِلَىٰ مَا أكرَهُ. وكانَ الفُضيلُ يَقُولُ: أشتهِي مرضًا بلا عُوَّاد.

وكَانُوا يتجلَّدُونَ فِي المرضِ وإظهارِ العافيةِ، فكانَ إبراهيمُ إِذَا مرضَ تركَ عندَه مَا يأكلُه الأصحاءُ. وكانَ سفيانُ الثوريُّ يَقُولُ: لَا أعتدُّ بِمَا ظهرَ من عملِي. ومرضَ يوسفُ بنُ أسباطَ، فنفدَتْ نفقتُه، فَقَالَ لامرأتِه: هَلْ عِنْدَكِ شيءٌ نبيعُه؟

---

(١) كذا في ي وهو ساقط من أ، وموضع النقط لم أستطع قراءته.

فَقَالَت: هَذِهِ الجابيةُ، فَقَالَ: إذا بِعْنَا مثلَ هَذِهِ ظهرتْ أحوالُنا. وسألَتِ امْرأةٌ فقيرةٌ يومًا، فَقَالَتْ: لَيْسَ لِي شيءٌ، فقامَ إليهَا بشرٌ الحافِي فَقَالَ: يَا أُختِي، الفقرُ سرُّ اللهِ ﷻ، أظهرتِيهِ.

وقرأتُ بخطِّ ابنِ عقيلٍ، قَالَ: حكَىٰ بعضُ الصلحاءِ أنَّ عبدَ الصمدِ الزاهدَ كانَ يعاملُ خبَّازًا وبقَّالًا، فكانَ يجتمعُ لَهُمَا عَلَيْهِ ديونٌ كثيرةٌ، فيأتِي الرجلُ من أربابِ الأموالِ إلىٰ خبازِ عبدِ الصمدِ فيقولُ: احسبْ كَمْ لَكَ عندَهُ، فيحسِبُهُ، فيبلغُ المئينَ أَوِ الألافَ، فيُعطيهِ ثمنَ ذلكَ، ويقولُ لَهُ: باللهِ لَا تُعلِمْهُ مَنْ قَضَىٰ عَنْهُ، بَلْ قُلْ لَهُ: رجلٌ مسلمٌ أحبَّ أنْ يخففَ ثِقَلَ الدَّيْنِ عنكَ لأجلِ اللهِ، فكانَ عبدُ الصمدِ يجيءُ، فيقولُ لَهُ الخبازُ ذلكَ: فَلَا يَسألُهُ، بَلْ يقولُ: خفَّفَ اللهُ أثقالَهُ، وأحسنَ جزاءَه، وكَذَلِكَ كَانُوا يفعلُونَ مَعَ بقالِهِ.

فانظرْ إِلَىٰ هَؤُلَاءِ كَيْفَ لَمْ يُرَاعُوا مطالعةَ المُحسنِ إِلَيْهِ قُنوعًا مِنْهُمْ بِعِلْمِ اللهِ، أَوِ الْتِذَاذًا بفعلِ الخيرِ، فأُفٍّ واللهِ لنَا، ولأحوالِنَا السيِّئَةِ؛ كيفَ نشكُوا مَنْ ينفعُنَا ويَضُرُّنَا إِلَىٰ مَنْ لَا يَنْفَعُنَا ولَا يَضُرُّنَا؟ ولكنْ لَوْ عَرَفْنَا طَرِيقَ المُعامَلَةِ مَا كُنَّا هَكَذَا.

وإنَّما ندلُّ علىٰ سبيلِ مَا سَلَكْنَاه، وكيفَ يَعْرِفُ الطريقَ مَنْ لَا يعرفُ الَّذِي يُعامِلُهُ، وأَنَا أتوبُ إلىٰ اللهِ ﷻ مِمَّا كانَ مِنِّي مِنْ ذلكَ، وأسألُهُ الحفظَ فِيمَا بَقِيَ.

فَصْل

قَدْ - واللهِ - أنفقتَ عُمركَ فِي تحصيلِ مصالحِ دُنياكَ

وبالغتَ فِي الاِسْتِظْهَارِ بتحصيلِ التِّجَارَاتِ والعقارِ، ونظرتَ لنفسِك فِي حالِ الكبرِ والضعفِ، فأعددتَ مَا يحصلُ لذاكَ الوقتِ، ثُم جهَّزتَ البناتِ، وأبضعتَ البنينَ، وبالغتَ فِي جميعِ ذلكَ، وذهبَ العمرُ كلُّه فيهِ، أفترَىٰ أنتَ متَىٰ تتجهَّزُ للرحيلِ؟!

واللهِ! إنه قَدْ يكونَ فِي جهازِ البيتِ مموهٌ بالذهبِ، أو مطليٌّ بالفضةِ؛ فينطلِي علىٰ الناظرينَ، وما يصلحُ لجهازِكَ أنتَ للآخرةِ إلَّا الخالصُ مِنَ البَهْرَجِ، وإِلَىٰ اليومِ مَا حصلتَ شيئًا مِنْ ذلكَ، ولا بقيَ عُمُرٌ تُحَصِّلُ فِيهِ؛ لِأَنَّ الصبابةَ الباقيةَ زمانُ ضعفٍ، واستطراحٌ للموتِ.

فَهَلْ لِي الْيَوْمَ إِلَّا زَفَّةُ النَّدَمِ

واللهِ! إنَّ الابنَ يشتغلُ بمالِكَ عنكَ، والبنتَ بزوجِهَا، ولَوْ بَكَوْا مَا انْتَفَعْتَ، وَلَوْ نَاحُوا عليكَ لتضرَّرْتَ، فباللهِ عليكَ! اصرفْ مِنْ هَذَا العقلِ الَّذِي أوجبَ حُسْنَ التدبيرِ للدُّنيَا، والنظرَ لِلأَوْلَادِ؛ طائفةً إلىٰ مصالِحِكَ.

يَا مَنْ كَسَىٰ الغيرَ وهُوَ عُريانٌ، وأضاءَ للناسِ وهو يحترقُ؛ اقبلْ نُصحِي، واستدركْ باقِي الزبالة، وأَخرجِ الفتيلةَ، وقطِّرْ فضلَ زيتٍ، فرُبَّ جدبةٍ نشلتْ ضعفًا عن السعيِ، ولَوْ لَـمْ يكنْ إلَّا إنفاقُ أنفاسِك الباقيةِ علىٰ التأسُّفِ؛ فإنَّها نفقةٌ مربحةٌ.

قد جرتْ عادةَ المخدومينَ أنَّه إذا عجزَ الخادمُ عَنِ الخدمةِ أقامُوا سواهُ، وإذا كَبِرَ قالوا: الزمْ بيتكَ، فأمَّا الخالقُ سُبْحَانَهُ؛ فإنَّه قَدْ رَضِيَ مِنَ العاجزِ بالمُمكنِ، وإنْ لَـمْ يطقْ أنْ يصلِّي قائمًا فجالسًا، فإنْ لـم يطقْ فمضطجعًا، ولقد خَفَّفَ الصومَ عَنِ المسافرِ، وأسقطَ شطرَ الصلاةِ رِفقًا بِهِ، فلا تحتقرْ يسيرًا مِنَ الخيرِ فِي معاملةِ هَذَا الكريمِ؛ فإنَّه يَرىٰ اللُّقمةَ، ويضاعفُ الحسنةَ.

۞ فَصْل ۞

حضـرتُ يومًا جنازةً، [فَتَذَكَّرْتُ]؛ فَإِذَا إقبالُ الإنسانِ على الدُّنيَا؛ غفلةٌ كثيفةٌ باردةٌ

لأنَّ الآدميَّ مُركَّبٌ من جسمٍ ونفسٍ، فالجسمُ عن قليلٍ حظُّ الترابِ، والنفسُ تنتقلُ إلىٰ عالَمٍ آخرَ، ثُمَّ إذا أُعيدَا لـم يرجعَا إلىٰ هَذَا الوطنِ، بل إلىٰ محلٍّ آخرَ، فثبتَ لولهِ الإنسانِ بِهذا المكانِ من أبردِ الأشياءِ.

وهو كخروجِ السمكةِ والضفدعِ من النهرِ يطلبُ الهواءَ، فإنَّه لو رآهُ بعضُ حيواناتِ البرِّ - كالغزالِ - فآنسَ به، وقالَ لَهُ: امكثْ عِنْدَنَا، لـم يكنْ، ولقَالَ: إنْ توقَّفْتُ ساعةً هَلَكْتُ، وكَذَلِكَ لو غاصَ الغزالُ فِي الماءِ لحظةً، فآنسَ بِهِ الحوتُ، وقَالَ: امكثْ عندنا ساعةً، فإنَّه لَا يُمكنُهُ؛ فكَذَلِكَ الدُّنيَا ليستْ وطنًا للآدميِّ، وإنَّما هِيَ معبرٌ، لَا يُحسنُ توطُّنُه.

والمركبُ مَعَ قطعِه اليمَّ تضرُّ بِهِ الأمواجُ، فهو علىٰ خطرِ الانكسارِ والغرقِ، وركونُ الآدميِّ إلىٰ الدُّنيَا غفلةٌ كثيفةٌ، يَنهىٰ عَنْهَا العقلُ مَنْ عَقِلَ وتدبَّرَ، إلَّا أنَّ الدُّنيَا كالعشِّ [يربِي فِيهَا الفرخُ، فلابُدَّ مِنْ مراعاتِها، فبذَلِكَ حِفْظُ البدنِ متعينٌ، فبانَ مِنْ هَذَا أنَّ آخرَ البُلغةِ الَّتِي تحفظُ البدنَ من أمرِ الدُّنيَا لازمةٌ، وإنَّما المذمومُ الركونُ إلىٰ فُضولِ العيشِ] القاطعةِ عن الآخرةِ، الشاغلةِ عن الأمورِ المُهمَّةِ.

فأمَّا الزهدُ المشتملُ علىٰ منعِ النفسِ حقَّها اللازمِ، وما يحفظُها؛ فمذمومٌ غيرُ ممدوحٍ، ولابُدَّ للإنسانِ فِي هَذِهِ اليقظةِ مِنْ أنْ يلدغَ نفسَه بغفلةٍ ما، تكونُ بمقدارٍ يمكنُهُ مَعَ الأكلِ والشربِ والنكاحِ، ومن العجبِ احتياجُ العاقلِ المتيقِّظِ إلىٰ استعمالِ الغفلةِ؛ فإنَّه لابُدَّ لَهُ مِنْهَا كما لابُدَّ لَهُ مِنْ دخولِ الميضأةِ.

فافهمْ هَذَا، وَلَا تَمِلْ إلىٰ الغفلةِ فتكونَ من أبناءِ الدُّنيَا، وَلَا إِلَىٰ اليقظةِ التَّامَّةِ الَّتِي أخرجتْ جهلةَ المُتَزَهِّدِينَ إلىٰ الساحاتِ والتحذُّقِ؛ فإنَّ أقوىٰ الخلقِ يقظةً رسولُ اللهِ ﷺ وأصحابُه، فبِهِمْ فَلْيُقْتَدَىٰ.

❁ فَصْلٌ ❁

تأمَّلْتُ هَذِهِ المدارسَ المبنيةَ للفقهِ، والأربطةَ للزُّهدِ؛ فرأيتُها وإنِ اشتملتْ على خيرٍ؛ إلَّا أنَّ فِيهَا دفائنَ لإبليسَ

منها: أنَّ أربابَها يتركونَ حضورَ المساجدِ للجماعةِ، فيفوتُهم هَذِهِ الفضيلةُ، والسعيُّ إلىٰ المسجدِ - فِي روايةٍ عَنْ أحمدَ -: لازمٌ، وعند الباقي: فضيلةٌ عظيمةٌ، والخطواتُ إليه بكلِّ خطوةٍ حسنةٌ، فإذا صَلُّوا فِي أماكنِهم فاتَتْهُم هَذِهِ الفضيلةُ.

ومِنْ ذَلِكَ: أنَّ الغالبَ عَلَيْهِمُ العزوبةُ، خصوصًا الزُّهَّادَ، فقد فاتَهم النكاحُ المسنونُ أو الواجبُ.

ومن ذَلِكَ: أنَّهم سَلكُوا طريقَ الترهبُنِ، ولم يكنْ فِي زمنِ رسولِ اللهِ ﷺ مِن هَذَا شيءٌ.

فإنْ قِيلَ: فقد كان أصحابُ الصُّفةِ! قُلْتُ: أُولئكَ مِنَ المسجدِ مَا خَرَجُوا، ثم كان ذَلِكَ عن عوزٍ وفقرٍ شديدٍ، بخلافِ مَنْ يقصدُ الخروجَ من مالِه ويترهبَنُ، وكم قد أخرجَ إبليسُ من القومِ خلقًا كثيرًا، قويتْ عَلَيْهِم الغربةُ فجرَّتْهُم إلىٰ الفسقِ، فانعكسَ المقصودُ بالانفرادِ، فعليكَ بسيرةِ الرسولِ وأصحابِه، فالخيرُ كلُّه فيما كَانُوا عَلَيْهِ، وكلُّ مبتدعٍ بعدَه فهو ضالٌّ.

وثَمَّ أصلٌ آخرُ عظيمٌ - مَا ذكرتُه - وهو أنَّه قلَّ أنْ تُبنىٰ المدارسُ والأربطةُ إلَّا من مالِ سلطانٍ ظالِمٍ وغاصبٍ وجائرٍ، فالعجبُ مِنْ تركِ كسبِ الحلالِ، وينفردُ بنعمِه للتعبُّد بأكلِ الأموالِ الحرامِ والمشبهةِ، ويحتجُّ بطلبِ العلمِ أو الزهدِ.

ثُمَّ قد يكونُ وقفُ المدارسِ للتفقهِ، فيتفقَّهُ الإنسانُ ويبلغُ المرادَ فِي سنةٍ وخمسِ سنينَ، ثم يُقيمُ فِي المدرسةِ عشرينَ سنةً وأكثرَ؛ ومثلُ هَذَا لَا يجوزُ لَهُ أنْ يأكلَ من وَقْفِهَا، إلَّا أنْ يكونَ معيدًا، فيكونُ مرتبةِ مُعلِّمٍ لَا مُتعلِّمٍ.

وكَذَلِكَ قد يكونُ وقفُ الربطِ علىٰ الصوفيةِ، واختلالُ هَذَا الشرطِ معهم [يحرمُ عَلىٰ المُقيمِ مَعَهُم] تناوله؛ لأنَّ التصوفَ أخلاقٌ لَا خِرَقٌ، فمن لَبِسَ الخرقةَ، وظنَّ أنَّه صوفِيٌّ، مَعَ عدمِ التمسكِ بأخلاقِ القومِ؛ فقد أكلَ مَا لَا يَحِلُّ.

وفِي الجملةِ؛ فهذِه حالةٌ تُسمِّيها العوامُّ: هركلةً، فإذَا مالَ الإنسانُ إلىٰ الرفاهةِ قِيلَ: قد تَهركلَ، وما هَذِهِ سيرُ أهلِ العزائمِ، فإنَّ القُرَّاءَ فِي زمنِ رسولِ اللهِ ﷺ كَانُوا يختطونَ بالنهارِ، ويصلونَ بالليلِ، وأمَّا مَنْ آثرِ الدَّعةِ والراحةِ، واقتنعَ بالاسمِ والصورةِ، مَعَ بُعدِهِ عن المعنىٰ؛ فهو أبعدُ مَا طلبَ؛ فافهمْ مَا شرحتُهُ، ولا تَغْتَرَّ بالمتشبهينَ.

فَصْل

سألَ سائلٌ عَنْ عذابِ القبرِ

فقلتُ: الإيمانُ بِهِ واجبٌ، وقَدْ كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يستعيذُ باللهِ مِنْ عذابِ القبرِ. فَقَالَ السائلُ: ليسَ مقصُودِي هَذَا، ولكنْ: هَلِ العذابُ للبدنِ وللرُّوحِ؟ فقلتُ لَهُ: هَذَا الأمرُ غيبيٌّ، فيجبُ الإيمانُ بِهِ كَمَا وردَ مِنْ غيرِ تفصيلٍ. فَقَالَ: مَا نَفَعَنِي هَذَا.

فقلتُ: اعلمْ؛ أنَّ الَّذِي يُوجبُهُ النظرُ: أنَّ العذابَ والنعيمَ للنفسِ، دونَ البدنِ؛ فإنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يقولُ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾، فأخبرَ أنَّ الجُلودَ إِذَا نَضِجَتْ كانَ ذَلِكَ سببًا لبُعدِ العذابِ عنهَا، وأخبرَ بعِلمِه بتبديلِ الجُلودِ، فَقَالَ: ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]، وإذَا كانَ نُضجُ الجُلودِ يمنعُ وصولَ العذابِ، فكونُهُ رميمًا أَوْلَىٰ، قَالَ النبيُّ ﷺ: «**أَرْوَاحِ الشُّهَدَاءِ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضْرٍ**»[1]، فَجَعَلَ نعيمَها مُتعلِّقًا بجسدٍ يكونُ فيهِ، ثُمَّ قد ثبتَ أنَّ الإدراكَ للنعيمِ والعذابِ إنَّمَا يكونُ بالحِسِّ، ولَا إحساسَ لميْتٍ.

فَقَالَ السائلُ: فيكفَ بقولِه ﷺ: «**أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ**»[2]، وبقوله: «**إِنَّهُمَا يُعَذَّبَانِ فِي قُبُورِهِما**»[3]، وبقولِه: «**الْقَبْرُ رَوْضَةٌ أَوْ حُفْرَةٌ**»[4]؟

قلتُ: المرادُ بذَلِكَ صاحبُ القبرِ، وإنَّما أشارَ إلىٰ القبرِ تعريفًا لصاحبِه.

قَالَ: فَمَا تقولُ فِي قولِه: «**لَيَسْمَعُونَ خَفْقَ نِعَالِكُمْ**»[5]؟

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٨٨٧) من حديث عبد الله بن مسعود بنحوه. وأخرجه أحمد (٢٣٨٨) من حديث ابن عباس.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٨٣٢، ٦٣٧٦)، ومسلم (٥٨٩) من حديث عائشة. والبخاري (١٣٧٧)، ومسلم (٥٨٨) من حديث أبي هريرة. والبخاري (٢٨٢٣، ٦٣٦٧)، ومسلم (٢٧٠٦) من حديث أنس. والبخاري (٢٨٢٢، ٦٣٦٥، ٦٣٧٠) من حديث سعد. ومسلم (٥٩٠) من حديث ابن عباس.

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢١٨، ١٣٦١، ١٣٧٨، ٦٠٥٢)، ومسلم (٢٩٢) من حديث ابن عباس.

(٤) **إسناده ضعيف**: أخرجه الترمذي (٢٤٦٠) وقال: غريب. من حديث أبي سعيد.

(٥) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٣٣٨)، ومسلم (٢٨٧٠) من حديث أنس. وأحمد (٨٥٦٣)، وابن حبان (٣١١٣)، والحاكم ١/ ٣٧٩-٣٨٠) من حديث أبي هريرة. وهو جزء من حديث البراء بن عازب الطويل في عذاب القبر، وقد تقدم.

فقلتُ: جوابُهُ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهما: أنَّ ذَلِكَ يكونُ وقتَ السؤالِ، وحينئذٍ تُرَدُّ الروحُ إلىٰ الجسدِ.

والثَّانِي: أنْ تكونَ الإشارةُ إلىٰ صاحبِ القبرِ، وهِيَ النفسُ، فيصلُ إِلَيْهَا خفقُ النِّعَالِ؛ لأنَّ ذَلِكَ الصَّوتَ يدخلُ فِي خرقِ الأُذنِ.

هَذَا قدرُ مَا يُوجِبُهُ النظرُ والاستدلالُ، وَلَا يتعذَّرُ[١] فِي قدرةِ اللهِ تَعَالَىٰ أنْ يخلقَ فِي البدنِ حِسًّا يُدْرِكُ بِهِ النعيمَ والعذابَ، وهو جسمٌ؛ فإنَّ مَنْ جعلَ الحَصَىٰ أنْ يُسبِّحَ، وفِي الجذعِ أنْ يَحنَّ[٢]، وفِي الحجرِ أنْ يُسلِّمَ[٣]، وفِي آخرَ أنْ يأخذَ الثيابَ ويذهبَ بِهَا[٤].

---

(١) فِي الأصلين: «يتعد».

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٠٩٥، ٣٥٨٤) من حديث جابر بن عبد الله، أن امرأة من الأنصار قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله ألا أجعل لك شيئًا تقعد عليه، فإن لي غلامًا نجارًا قال: «إن شئت»، قال: فعملت له المنبر، فلما كان يوم الجمعة قعد النبي ﷺ علىٰ المنبر الذي صنع، فصاحت النخلة التي كان يخطب عندها، حتىٰ كادت تنشق، فنزل النبي ﷺ حتىٰ أخذها، فضمها إليه، فجعلت تئن أنين الصبي الذي يسكت، حتىٰ استقرت، قال: بكت علىٰ ما كانت تسمع من الذكر.

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٢٧٧) من حديث جابر بن سمرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف حجرًا بمكة، كان يسلم علي قبل أن أبعث؛ إني لأعرفه الآن».

(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٣٤٠٤)، ومسلم (٣٣٩) من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن موسىٰ كان رجلًا حييًّا ستيرًا، لا يُرىٰ من جلده شيء استحياء منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا: ما يستتر هذا التستر، إلا من عيب بجلده: إما برص وإما أدرة وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسىٰ، فخلا يومًا وحده، فوضع ثيابه علىٰ الحجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلىٰ ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسىٰ عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتىٰ انتهىٰ إلىٰ ملإ من بني إسرائيل، فرأوه عريانًا أحسن ما**

=

وأولجَ فِي البيضةِ رُوحًا [...][(١)] [قَادِرٌ إِلَىٰ أنْ يُوصِلَ إِلَىٰ الرَّميمِ رُوحًا و...].

۞ فَصْل ۞

غلبتْ عَلَى الناسِ العاداتُ، فصارتْ كأنَّها الشـريعةُ

فَإِذَا التفتُوا إِلىٰ الشريعةِ فَفِيمَا اعتادُوا الالتفاتَ إِلَيْهِ مِمَّا لَا يعودُ بنقصٍ فِي أغراضِهم، فَلَا يُوجبُ حملَ مشقةٍ تصعبُ.

فإنْ نظرتَ إلىٰ الولاةِ وجدتَهُم يَسُوسُونَ المملكةَ بِمَا يُوجبُ حِفظَهَا، فيقتُلُونَ ويقطعُونَ ويأخذُونَ الأموالَ ويتناولُونَها تناولَ مُتملِّكٍ، فإنْ وافقَ مُرادُهُمُ الـمَشروعَ كانَ المشروعُ تبعًا، وإنْ لَـمْ يُوَافِقْ لَـمْ يُبَالُوا!

فَمِنْهُمُ الجامعُ للأموالِ بُخلًا، ومِنْهُمُ المُبذِّرُ فِيهَا بطرًا، وقَدِ اعتادُوا لبسَ الحريرِ، واستعمالَ الذهبِ، كأنَّهُ مَا ثَمَّ شرعٌ، ولا أمرٌ، ولا نَهيٌ، فإذَا رَضُوا عَنْ شخصٍ خَلَعُوا الديباجَ والحريرَ، والظلمُ قَدْ صارَ فِي الولاةِ عادةً، والشريعةُ مطَّرحةً.

ثُم جَرَتِ العاداتُ من العلماءِ، فخَالطوا الولاةَ، واعتادُوا تركَ الإنكارِ عَلَيْهِمْ، ورُبَّمَا لَابَسُوا المحرَّمَ فِي صُحبتِهِمْ، ويُسمُّونَ هَذَا مُداراةً وتَقِيَّةً، وليسَ كَذَلِكَ، إنَّمَا

=

خلق الله، وأبرأه مما يقولون، وقام الحجر، فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضربًا بعصاه، فوالله إن بالحجر لندبًا من أثر ضربه، ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا، فذلك قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴾».

(١) كلمة غير مقروءة.

العذرُ لأحدِهم أنْ لَوْ ألزمَ بصحبةِ الجائرِ، فيقتنعَ حينئذٍ بالإنكارِ بالقلبِ إِذَا لَـمْ يقدرْ علىٰ النطقِ، فأمَّا أنْ يُزاحمَ علىٰ سُدَدِهِمْ، ويدَّعِي عجزَه عَنِ الإنكارِ؛ فَلَا عُذْرَ لَهُ.

وإِنَّمَا سَلِمَ مِنْ هَذِهِ الأحوالِ أخيارُ السلفِ مِنَ العلماءِ، مثل الثوريِّ وأحمدَ بنِ حنبلٍ، وقبلَهُما سعيدِ بنِ المُسيِّبِ؛ خلقٌ كثيرٌ، قصدُوا حِفْظَ دينِهِم، وأنكرُوا إِذَا قَدَرُوا، واعتَزَلُوا إِذَا عَجَزُوا، فنظرَ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَىٰ صدقِ قَصْدِهِمْ، فَأَبْقَىٰ أَذْكَارَهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ.

وإنْ نظرتَ إلىٰ الجنودِ؛ رأيتَهم قدْ عمَّهُمُ الجهلُ بالشَّـرعِ، ورَأَوْا كُلَّ المقصودِ تحصيلَ أغراضِهم كيفَ اتَّفقتْ، حتَّىٰ إنَّ قائِلَهُم يقولُ: لَا يُنكرُ علىٰ جنديٍّ شُربُ الخمرَ، ولا لبسُ الحريرِ!

وقَدْ بَلَغَنَا عَنِ الشَّاميِّ ـ قاضِي القُضاةِ ـ أَنَّ رجلًا مِنَ الجُندِ ادَّعَىٰ عِنْدَهُ عَلَىٰ رَجُلٍ، فَقَالَ: أينَ شُهودُكَ، فجاءَ بقومٍ عَلَيْهِمُ الحَريرُ، فَقَالَ: لَا أقبلُ شهادةَ هَؤُلَاءِ؛ لأَنَّهم يلبسُونَ الحريرَ، فَقَالَ لَهُ الرجلُ: فالسلطانُ يلبسُ الحريرَ، ووزيرُه نظامُ الملكِ يلبسُ الحريرَ، فَقَالَ: لَا جَرَمَ! لَوْ شَهِدَا عندِي عَلَىٰ باقة بقل[1] مَا قَبِلْتُهُمَا.

وإِذَا نظرتَ إلىٰ العوامِّ؛ رأيتَ أكثرَهم كالبهائِمِ فِي الجهلِ بالشَّـرعِ، هِمَّتُهُمُ الِاحْتيالُ عَلَىٰ الدُّنيَا، لَا يَدْرِي أحدُهم فِي الصلاةِ ركنًا، إِنَّما همتُه البيعُ والشـراءُ، وفِكْرُهُ يعملُ فِي غشِّ المبيعِ، ولا ينقبضُونَ مِنْ مُجالسةِ مُرْبٍ، وَلَا صَاحِبِ أَمْردٍ، ومَنْ لَهُ [هيبة][2]، وإِذَا اتفقتْ مَعَ أحدِهم قطعةٌ رديئةٌ حَملَهَا إِلَىٰ الخَلَا أَوْ صَرَفَهَا بَعْدَ المغربِ[3].

---

(١) كذا.

(٢) كلمة غير مقروءة. المثبت من ي

(٣) كذا.

وإِذَا نظرتَ إِلىٰ العلماءِ؛ رأيتَهم مَعَ العاداتِ فِي مرتبةِ الرياسةِ، وهيبةِ النظراءِ، فالفقهاءُ قَدْ وضعُوا أوضاعًا فِي الجدلِ يختصمونَ عَلَيْهِا ويتباهوْنَ بالعليةِ فِيهَا، والحديثُ الَّذِي تنبنِي عَلَيْهِ المسألةُ لَا يعرفُونَهُ.

والمُحدِّثُونَ هَمُّهُمْ عُلُوُّ الإسنادِ؛ لَا فَهْمُ الحديثِ، والغِيبةُ عِنْدَهُمْ تخرجُ بعذرِ الجرحِ والتعديلِ.

والقُصَّاصُ؛ مَعَ مَا أحدثُوا من إنشادِ الغزلِ والهذيانِ الفارغِ.

والصوفيَّةُ؛ مَعَ ترقيعِ الخرقِ والتواجدِ والرقصِ، ومِنْ أيِّ مطبقٍ جاءَهُم شيءٌ أخذُوه، وقالوا: هَذَا فتوحٌ، فلَوْ قِيلَ لَهُمْ: إنَّ أبَا بكرٍ الصديقَ قَاءَ مِنْ أكلِ شُبْهَةٍ[1]، لقَالُوا: ما نَدْرِي مَا هَذَا، نحنُ قَدْ بُعِثَ إِلَيْنَا رِزْقُنَا عَلَىٰ يَدِ مَنْ كَانَ، فَقَدْ أَمالَهُم طَلَبُ الرَّاحةِ إِلَىٰ كُلِّ تأويلٍ باطلٍ.

وإنْ تأمَّلتَ النساءَ؛ رأيتَهُنَّ مُضَيِّعَاتٍ لِحَقِّ الزوجِ، مفسداتٍ فِي بيتِه، مُفرِّطاتٍ فِي حَقِّ الحقِّ.

وشرحُ هَذَا يطولُ، لكنَّ جملتَهُ: أنَّ الشريعةَ قَدْ أُعْرِضَ عَنْهَا، وكأَنَّهَا عندَهم فِي مثابةِ شيخٍ قَدْ كَبِرَ، يستشيرُونَهُ عندَ النوازلِ، فإنْ أشارَ بمقصودِهِم، وإلَّا قَالُوا: هَذَا خَرَفٌ!

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٨٤٢) عن عائشة، قالت: كان لأبي بكر غلام يخرج له الخراج، وكان أبو بكر يأكل من خراجه، فجاء يومًا بشيء فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام: أتدري ما هذا؟ فقال أبو بكر: وما هو؟ قال: كنت تكهَّنت لإنسان في الجاهلية، وما أُحسن الكهانة، إلا أني خدعته، فلقيني فأعطاني بذلك، فهذا الذي أكلت منه، فأدخل أبو بكر يده، فقاء كل شيء في بطنه.

فَأَيْنَ طريقُ السلفِ الصالحِ، عفت وعفتْ آثارُها، وتغيَّرتْ، نسألُ اللهَ العظيمَ أنْ يُوفِّقَنَا لسلوكِ سبيلِ السلفِ، واتباعِ مَن مضَىٰ مِنَ المُحقِّينَ وسلفَ، وأنْ يُعيذَنَا مِنْ مُزَاحَمَةِ هَذَا الخلفِ، وأنْ يحفظَنَا مِنَ الزَّيغِ والمَيْلِ والحيفِ، فإذَا جادَ لَطُفَ وإنْ عَادَ عَطُفَ.

❁ فَصْل ❁

عَظِيمٌ مَا تَعُمُّ بِهِ الْبَلْوَى

اعلمْ؛ أنَّ الآدميَّ مجبولٌ عَلَىٰ حُبِّ الهَوَىٰ والشهواتِ واللَّذَّاتِ، وأَعْلَىٰ درجاتِ اللَّذَّةِ الحِسِّيَّةِ النكاحُ، وفِي هَذِهِ الطريقِ مِنَ المخاطراتِ بالأصلِ - الَّذِي هُوَ النَّفْسُ- مَا لَا يُؤمَنُ مَعَهُ الهَلاكُ:

فتارةً تكونُ المخاطرةُ بالنفسِ مِنْ كثرةِ المباشرةِ، وكَمْ مِنْ مُفْرِطٍ فِي الباءَةِ تعجلَ هلاكَهُ؛ لأنَّ المَنِيَّ أنفسُ ذخائرِ النفسِ، وهُوَ مِنَ الْأُصولِ الحاصلةِ لَهَا، فالمُجَامِعُ يُخرجُ أجودَ مَا فِي البدنِ، ويُخلِّفُ الرَّديءَ.

وتارةً تكونُ المخاطرةُ من جهةِ النساءِ.

فأمَّا كونُ الباءةِ الكثيرِ سريعَ الإهلاكِ؛ فإنَّهُ يهدُّ القُوَىٰ الأصليَّةَ، ويحلُّ الحرارةَ الغريزيَّةَ، وله مضارٌّ كثيرةٌ قد ذكرتُها فِي كتابِ المُسمَّىٰ بـ«لقطِ الْـمَنَافِعِ فِي الطِّبِّ»، وحكيتُ عَنْ مالكِ بنِ أنسٍ أنَّه قَالَ: «إنَّمَا هُوَ نورُ عينيكَ، ومخُّ ساقيكَ».

فالمستكثرُ من التزويجِ أو الجوارِي باحثٌ عَنْ مديةِ حتفِه، وزائدٌ فِي عُقْدَةِ حبلِه الَّذِي يختنقُ بِهِ؛ لأنَّ الجدةَ لَهَا أثرٌ عظيمٌ من جهةِ أَنَّها(١) قهرُ مَا لَمْ يقهرْ، وملكُ مَا لم يملكْ، ورؤيةُ مَا لم يُرَ، وتحصيلُ معنىٰ لَمَّا لم(٢) يحصلْ.

ومِنْ هَذَا؛ قِيلَ: لكُلِّ جديدٍ لذَّةٌ.

ويزيدُها حسنًا فِي العينِ تغطيةُ المقابحِ؛ ولِهَذَا إِذَا اطَّلَعَ علىٰ العيوبِ مَعَ تطاولِ الزمانِ بَرَدَ ذَلِكَ المطلوبُ فِي النفسِ، ووقعَ المللُ، وقد قَالَ الحكماءُ: «العشقُ العَمَىٰ عَنْ عُيُوبِ المحبوبِ»، فإِذَا وقعَ المللُ لِهَذَا الشخصِ العليلِ التحريكِ للنفسِ فطلب غيره خرق(٣)، وبينَ هَذَا وهَذَا يذهبُ جوهرُ النفسِ.

وَمِنْ أعجبِ مَا نُقِلَ إِلَيْنَا: حالُ الواثقِ باللهِ:

أنَا(٤) عبدُ الملكِ بنُ أَبِي القاسمِ الكروخيُّ، قَالَ: أنَا عبدُ اللهِ بنُ محمدٍ الأنصاريُّ، قَالَ: نَا [أَبو] يعقوبَ [الحَافظُ]، قَالَ: أخبرَنَا أَبُو العباسِ أحمدُ بنُ محمدِ بنِ الحسينِ الرازيُّ، [حَدَّثَنَا أبو الْحُسَيْن أحمَدُ بْنُ مُحمَّد بْنِ مُعَاويةَ الرَّازيُّ] قَالَ: حَدَّثَنَا بكرُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ حبيبٍ، قَالَ: سمعتُ سعيدَ(٥) بنَ محمدِ بنِ وهبٍ يُحَدِّثُ عَنِ المُتوكِّلِ، قَالَ: كَانَ الواثقُ يُحِبُّ النساءَ، وكثرةَ الجماعِ، فوُجِّهَ ذاتَ يومٍ إلىٰ ميخائيلَ الطبيبِ، فدَخَلَ عَلَيْهِ وهو نائمٌ وعَلَيْهِ قطيفةُ خَزٍّ، فوقفَ بين يديهِ، فَقَالَ: يَا ميخائيلُ، أبغِي دواءَ الباءةِ، فَقَالَ: يَا أميرَ المؤمنينَ، فبَدَنُكَ فلا تهدِمْهُ؛ فإنَّ

(١) في المخطوط: «إنما».

(٢) كذا.

(٣) كذا، والمعنىٰ مفهوم، أي: كلما ملَّ من محبوب طلب غيره.

(٤) هذا الخبر في «المنتظم» (١١/ ١٨٦-١٨٧) للمصنف، واستدركت منه ما جعلته بين معقوفين.

(٥) في «المنتظم»: «مسعر»، وفي نسخة عنده: «مسعود».

كثرةَ الجماعِ تهدمُ البدنَ، ولَا سِيَّمَا إذَا تكلَّف الرجلُ ذلك، فاتَّقِ اللهَ فِي بدنِكَ، وأبقِ عليكَ، فليسَ لَكَ مِنْ بدنِكَ عوضٌ، فَقَالَ لَهُ: لَابُدَّ مِنْهُ، ثم رَفَعَ القطيفةَ عَنْهُ، فَإِذَا بَيْنَ فَخِذَيْهِ وصيفةٌ قد ضمَّهَا إليه، ذكرَ مِنْ جَمَالِهَا وهيئتِهَا أمرًا عجيبًا، فَقَالَ: مَنْ يصبرُ عَنْ مثلِ هَذِهِ؟!

قَالَ: فَإِنْ كانَ ولابُدَّ فعليكَ بلحمِ السبعِ، فأْمُرْ أنْ يؤخذَ لَكَ مِنْهُ رطلٌ، فيُغْلَىٰ سبعَ غلياتٍ بخلِّ خمرٍ عتيقٍ، فإِذَا جلستَ علىٰ شرابِكَ أمرتَ أنْ يُوزَنَ لَكَ مِنْهُ ثلاثةُ دَرَاهِمَ، فانتقلتْ بِهِ إِلَىٰ شرابِكَ ثلاثَ ليالٍ؛ فإنَّكَ تجدُ فِيهِ بُغيَتَكَ، واتَّقِ اللهَ فِي نفسِكَ ولا تُسرِفْ، ولا تُجاوِزْ مَا أمرتُكَ بِهِ.

فلَهَىٰ عَنْهُ أيامًا، فبَيْنَا هُوَ ذاتُ ليلةٍ جالسٌ عَلَىٰ شرابِهِ ذَكَرَ، فَقَالَ: عليَّ بلحمِ السبعِ الساعةَ، فأُخرِجَ لَهُ سبعٌ مِنَ الجُبِّ، وذُبِحَ مِنْ ساعتِهِ، فَأَمَرَ فكببَ لَهُ مِنْهُ، ثُمَّ أَمَرَ فأُغْلِيَ لَهُ بالخَلِّ، ثُمَّ بردَ وأخذَ ينتقلُ بِهِ علىٰ شرابِهِ، وأتتْ عَلَيْهِ الأيامُ والليالِي فسقَىٰ بطنُه، فجمعَ الأطباءَ، فأجمعَ رأيُهم عَلَىٰ أنَّه لَا دواءَ لَهُ إلَّا أنْ تُسجَّرَ لَهُ تنورٌ بحطبِ الزيتونِ، حتَّىٰ تمتلئَ جمرًا، فإذا امتلئَ كُسِحَ مَا فِي جوفِهِ وحُشِيَ جوفُهُ بالرطبةِ، ويقعدُ فِيهِ ثلاثَ ساعاتٍ مِنَ النهارِ، وإنِ اسْتُسْقِيَ لَـمْ يُسْقَ، فإِذَا مضتْ ثلاثُ ساعاتٍ كَوامِلُ أُخْرِجَ وأُجْلِسَ جِلسةً مُنتصبًا، فإذَا أصابَهُ الزوحُ وجدَ لذَلِكَ وجعًا شديدًا، وطلبَ أنْ يُرَدَّ إلىٰ التنورِ، فتُرِكَ علىٰ حالِهِ تلكَ، ولا يُرَدُّ إلىٰ التنورِ حتىٰ يمضِيَ ساعتانِ من النهارِ، فإِذَا مضتْ ساعتانِ مِنَ النهارِ جَرَىٰ ذَلِكَ الماءُ وخرجَ مِنْ مخارجِ البولِ، وَإِنْ سُقِيَ ماءً أَوْ رُدَّ إِلَىٰ التنورِ كَانَ تلفُه فيهِ.

فأوقدُوا تنورًا وأحبسَ فيهِ، فأقبلَ يستغيثُ ويصيحُ: أحرقتمُونِي، اسقُونِي ماءً، وقد وُكِّلَ بِهِ مَنْ يمنعُهُ الماءَ، ولا يدعهُ يقومُ مِنْ موضِعِهِ، ولا يتحرَّكُ فَقَدْ سقطَ بدنُهُ كُلُّهُ، وصارتْ فِيهِ نفاخاتٌ مثلُ أكبرَ مِنَ البطيخِ، فتُرِكَ علىٰ حالِهِ حتىٰ مضتْ ثلاثُ

ساعاتٍ مِنَ النهارِ، ثُمَّ أُخرِجَ وقد كادَ يحترقُ، فأجلسَهُ المُتَطَبِّبُونَ، فلمَّا وجدَ ريحَ الهواءِ اشتدَ بِهِ الوجعُ، وأقبلَ يصيحُ، ويقولُ: رُدُّونِي إلىٰ التنورِ، فإنِّي إنْ لَمْ أردَّ متُّ، فاجتمعَ نساؤُه وخواصُّه فلمَّا رأوْا مِنْ شدةَ الألَمِ والوجعِ فَرَجَوْا فِي أنْ يكونَ فَرَجُهُ فِي أنْ يُرَدَّ إلىٰ التنورِ، فردُّوهُ فسكنَ صِياحُهُ، وتَفَطَّرَتِ النفاخاتِ، وبردَ فأُخرِجَ، وقَدِ احترقَ وصارَ أسودَ كالفحمِ، فلَمْ تمضِ ساعةٌ حتَّىٰ قضَىٰ.

فإذَا كانَ هَذَا مِنْ جناياتِ إكثارِ الوطءِ؛ وجبَ علىٰ العاقلِ اجتنابُهُ إلَّا لضرورةٍ.

وأمَّا المخاطرةُ مِنْ قِبلَ النساءِ؛ فإنَّ المرأةَ لَهَا هوًىٰ فِي الرجالِ، كَمَا لَهُم فِيهَا، فَقَدْ لَا تميلُ إِلَىٰ الشخصِ، وقَدْ يكونُ مِنْهُ مَا يُوجِبُ نُفورَهَا؛ كقُبحٍ فِي الصورةِ أو شيبٍ أو ضعفِ قُوَّةٍ وغيرِ ذَلِكَ، وقَدْ تكونُ مملوكةً ذاتَ ولدٍ، فتعلمُ أنَّه لَا خلاصَ لَهَا إلَّا بِهلَاكِهِ، وَدِينُهُنَّ قليلٌ.

وقَدْ كانَ الحسنُ بنُ عليٍّ رضي الله عنهما تزوَّجَ نسوةً كثيرةً، يزدنَ عَلَىٰ مائتينِ، فسقتْهُ السمَّ إحداهُنَّ فماتَ.

وقَدْ سَمِعْنَا ورَأَيْنا مِنْ هَذَا الجنسِ كثيرًا.

وحَدَّثَنَا إبراهيمُ بنُ دينارٍ الفقيهُ، قَالَ: كانَ عندنا شيخٌ صانعٌ، ولَهُ غلامٌ فِي الدكانِ يتعلَّمُ، فنظرتِ امرأةُ الصانعِ إِلَىٰ الغلامِ فأحبَّتْهُ، فطبختْ يومًا طبيخًا، وقد تركتْ فِيهِ سُمًّا، فلمَّا قدَّمتْهُ لزوجِهَا طَرَقَ البابَ رجلانِ مِنْ أصدقائِهِ، فأَذِنَ لَهُمَا، فَلَمْ تنطقِ المرأةُ، فَأَكَلُوا؛ فأمَّا أحدُ الصديقينِ فماتَ مِنْ ليلتِهِ، وأمَّا الآخرُ فماتَ - أظنُّه قَالَ - بعدَ أُسبوعٍ، وأمَّا الزوجُ فَمَا زالَ يتقلَّبُ فِي فنونِ الأمراضِ، حتَّىٰ إنَّه قَالَ لَهَا يومًا: ويلكِ لعلَّكِ أَطْعَمْتِينِي؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ: وَلِـمَ؟ قَالَتْ: أَرَدْتُ أَنْ أَسْتَرِيحَ مِنْكَ، ثُمَّ إنَّهُ ماتَ، فتزوَّجتْ بغُلامِهِ!

فالعاقلُ مَنْ نظرَ لنفسِهِ، واحترزَ مِمَّا يجوزُ وُقوعُهُ، وآثرَ السلامةَ عَلَىٰ المُخاطرةِ.

والعجبُ مِمَّنْ يُؤثِرُ كثرةَ النساءِ، ويَنْسَىٰ مَا يَحْتَوِي عَلَيْهِ الكثرةُ؛ إمَّا مِنْ تحريكِهِ إذهابَ جوهرِه، وإمَّا مِن آفاتِهِنَّ، وَمِنْهَا شتاتُ قلبِه، وَمِنْهَا الاحتياجُ إلىٰ الكسبِ الَّذِي يعزُّ جُلُّه، وَمِنْهَا حفظُهُنَّ مِنَ الآفاتِ، وذَلِكَ يكدرُ العيشَ، وبَعِيدٌ فِيهِنَّ الدِّينُ، والغَيْرَانُ لَا يُؤْثِرُ لذَّتَهُ عَلَىٰ العَارِ، وَمِنْهَا وُجودُ التغايرِ عَلَيْهِ، وهو أخوفُ الأمورِ، وَمِنْهَا الغيرةُ مِنْ أفعالِهِ، فرُبَّمَا أهلكتْهُ أو أهلكتْهُ مِنْهُنَّ الَّتِي يُعرِضُ عَنْهَا، وهُنَّ إنْ لَمْ يُهلِكْنَ بالسُّمِّ أَفْسَدْنَ بالسِّحْرِ، ورُبَّمَا تسبَّبَتِ الَّتِي يُعرِضُ عَنْهَا فِي قَتْلِ حَبِيبَتِهِ، فيَكُونُ بالقتلِ كما قَالَ الشاعرُ:

مَـــا أَخْطَأَتْـــكَ النَّائِبَـــا ** تُ إِذَا أَصَـابَتْ مَـنْ تُحِـبّ القُمُـصَا

وَمَتَىٰ خَانَهُنَّ احترزَ مِنْهُنَّ، فعُدِمَ لذَّةَ العيشِ فِي المطعمِ، ثُمَّ يتصلُ بِهِ النفارُ الدائمُ، فإِذَا صَعُبَ عَلَيْهِ الجمعُ بَيْنَهُنَّ فطلق زوجٌ أو بَاعَ واشْتَرَىٰ[1] لَمْ يأمنْ خلةَ جميلةٍ مِنَ المقصودةِ، والمُؤْمِنُ أَلُوفٌ، فيتنغَصُّ عيشُه، وإنْ جمعَ بينهُنَّ كانَ أصعبَ وأصعبَ؛ للوجُوهِ الَّتِي سبقتْ.

ثُمَّ إِذَا كانَ الرجلُ - مَعَ عُلُوِّهِ فِي السنِّ وعقلِهِ - لَا يقنعُ بالواحدةِ، فَكَيْفَ بالصبيَّةِ الجاهلةِ الَّتِي لَا تصلُ نوبتُهَا إليهِ إِلَّا فِي الأسبوعِ والأسبوعينِ، فالعجبُ لَهُ؛ كيف لَا يقيسُ الأحوالَ؟!

فإنْ قَالَ قائلٌ: فَقَدْ صَدَدْتَنِي عمَّا طُبعتُ عَلَيْهِ، فَكَيْفَ الحيلةُ؟

فالجوابُ: أَنِّي كشفتُ لكَ الحقَّ، وبيَّنتُ لكَ الصوابَ.

---

(١) كذا.

واعلمْ؛ أَنَّهُ مَا خُلِقَ لِلْآدَمِيِّ فِي الدُّنيَا لذَّةٌ، وإنَّمَا هِيَ معبرٌ، فاجهدْ فِي تحصيلِ امرأةٍ كَمَا ينبغِي، واقنعْ بِهَا، أَوْ جاريةٍ فَلَا تَغْتَرَّ بامرأةٍ تلمحُهَا فتتزوَّج بِهَا، فإنِّي سمعتُ شيخًا كبيرَ السنِّ يقولُ - وقَدْ ذَكَرَ النِّسَاءَ -: «إِنَّهُنَّ آفاتٌ ملففاتٌ»، فتفكَّرتُ فِيمَا قالَ، فعرفتُهُ.

وذَلِكَ؛ أنَّ الرجلَ يَرَىٰ المرأةَ فِي إزَارِها ونقابِها، فيُعجِبُهُ ظاهرُ مَا يَرَىٰ، ورُبَّمَا كشفتْ عَنْ وجهٍ قبيحٍ، يتعجَّبُ الناظرُ؛ فلَا ينبغِي أنْ يغترَّ بذَلِكَ الظاهرِ؛ فإنَّ مِنَ التَّغفِيلِ انتقادَ خَلقٍ أَوْ خُلقٍ مِنْ مُتَصَنِّعٍ، [وخُصُوصًا المَرْأَة إذا خَطَبَهَا الرَّجُلُ أو خَرَجَتْ مِن بَيْتِها؛ فإنَّها تَتَصَنَّعُ] بإظهارِ مَحَاسِنِهَا، وستر مَعَايِبِهَا، ورُبَّ وجهٍ كَثِيرِ الجدريِّ، قَدْ أثَّرَ فِيهِ، لَمْ يتبيَّنْ للناظرِ، إمَّا لبُعدِهِ عَنْهُ، أَو لِقِلَّةِ تأمُّلِهِ، أو لِطليةٍ قَدْ طُلِيَ بِهَا وغُمِرَ، فَإِذَا مَضَتْ عَلَىٰ الصُّحبَةِ مُديدةٌ كَشَفَتْ عَنْ عوارِ ذَلِكَ.

ورُبَّ فَمٍ حَسَنِ الظاهرِ؛ لَكِنَّهُ مَعَ تحقيقِ التأمُّلِ يكونُ واسعًا، أو قبيحَ المُبْتَسَمِ، أو مُسْتَبْشَعَ الأسنانِ، أو مَكْسُورَهَا، ورُبَّ شَعَرٍ يُعجِبُ ظاهِرُهُ وقَدْ يكونُ قصيرًا، أو يكونُ فِي الرأسِ خرازٌ، أو يكونُ بعضُه أبيضَ؛ ولا يعلمُ، ورُبَّ صدرٍ حسنُ الظاهرِ؛ إلَّا أنَّهُ كثيرُ السَّعَةِ، أو شديدُ الضيقِ؛ وكلاهُما مستوحشٌ، ورُبَّ ثديٍ يُرَىٰ كأنَّهُ ناهدٌ، ومَعَ التأمُّلِ يكونُ طويلًا، أو كبيرًا، ورُبَّ بطنٍ لَا يُرَىٰ قُبحُهُ إلَّا مَعَ التأمُّلِ، ورُبَّ جسدٍ خشِنٍ أو كثيرِ الشَّعَرِ، ورُبَّمَا كانَ شعرُهُ كالوبرِ، ورُبَّ أشياءَ لَا تُدْرَكُ إلَّا مَعَ المُخَالَطَةِ؛ كالعَرَقِ المُنتِنِ، وسعةِ الفرْجِ.

ورُبَّ معانٍ تُقبِحُ الحُسنَ بوُجُودِهَا؛ كسُوءِ الخُلُقِ، وقُوَّةِ الشَّبَقِ، وعدمِ الصِّيَانَةِ، وسُوءِ الأدَبِ، وقِلَّةِ الدِّينِ أَوِ القناعةِ؛ إِلَىٰ غيرِ ذَلِكَ.

ولَا تَقُولَنَّ: فَإِنْ لَمْ أَرْضَهَا طَلَّقْتُهَا، فرُبَّمَا تعلقُ بوَلَدٍ، ورُبَّمَا يَرَاهَا تُحِبُّهُ فتُوجِبُ المروءةُ الصبرَ علىٰ مَا يكرَهُ، فيَلْقَىٰ أذًىٰ شديدًا، ورُبَّمَا سَحرتْهُ وأَذَتْهُ.

فينبغِي لِـمَنْ أرادَ النكاحَ المبالغةُ فِي البحثِ عَنِ الخَلْقِ والخُلُقِ، والاستعانةُ علىٰ ذَلِكَ بالنساءِ المباطناتِ للمرأةِ، بعدَ أنْ يحتالَ هُوَ فِي النظرِ إِلَيْهَا.

وَمَنْ كانَ مُتَأَخِّرًا فِي طلبِ الكمالِ والتمامِ؛ فليسَ لَهُ مِثْلُ الجوارِي، إلَّا أنِّي أستحبُّ لَهُ أنْ يشتريَ الجواريَ الصغارَ، اللَّواتِي قاربنَ المُراهقةَ؛ فإنَّ المُرَاهِقَةَ قَدْ يعلَقُ قلبُهَا بِهوَىٰ شخصٍ قبلَهُ، والصغيرةُ لَا تعرفُ ذَلِكَ.

وليطلُبْ مِنْهُنَّ السهلةَ الخدِّ، الصغيرةَ الفَمِ، الحسنةَ الثغرِ، الحبلةَ الشعرِ، النجلاءَ العينِ، الفصيحةَ اللسانِ، الرخيمةَ المنطقِ، العظيمةَ الكفلِ[1]، الممتلئةَ الأسافلِ، الممتدةَ القوامِ، البسيطةَ الجسمِ، الدقيقةَ الأناملِ، الَّتِي لَا أثر لِثَدْيِهَا؛ فإنَّ الكبيرةَ الثدي يَبِينُ أَثَرُهُ مِنَ الصِّغَرِ.

وقد قِيلَ: لَا تكونُ المرأةُ حسناءَ حتَّىٰ يبيضَّ مِنْهَا أربعةٌ: اللونُ، وبياضُ بياضِ العينِ، والأسنانُ، والأظفارُ. ويسودَّ مِنْهَا أربعةٌ: شعَرُ الرأسِ، وشعرُ الحاجبينِ، وأشفارُ العينينِ، [وسَوادُ سَوادِ النينِ]. ويحمرَّ مِنْهَا أربعةٌ: اللثانُ، والشفتانِ، والوجنتانِ، وثُمَّ[2]. ويتسعَ مِنْهَا أربعةٌ: الجبهةُ، والراحتانِ، والوركانِ، والصدرُ. ويضيقَ مِنْهَا أربعةٌ: حرقُ الأنفِ، وحرقُ الأذنينِ، ومنشقُّ الفمِ، وثُمَّ[3]. وَيَطُولَ مِنْهَا أربعةٌ: الساقانِ، والوركانِ، والعَجُزُ، والركبُ، وهُوَ منبتُ العانةِ. ويقصرَ مِنْهَا أربعةٌ: خطَّاهَا، وطرفُهَا، ولسانُهَا، وذكرُهَا.

والفرقُ بينَ المرأةِ الجميلةِ والمليحةِ: [أنَّ الجَمِيلَةَ هِي الَّتِي تَأْخُذُ البَصَرَ عَلَىٰ بُعْدٍ، فإذَا دَنَتْ لمْ تكُنْ كَذلكَ، والمَلِيحَةُ هِي] الَّتِي كُلَّمَا كرَّرتَ فِيهَا

---

(١) كذا.

(٢) كذا.

(٣) كذا.

بصركَ ازدادتْ حُسْنًا، فينبغِي أنْ تُقدَّمَ المليحةُ علىٰ الجميلةِ، والفرقُ يقعُ بالقربِ والتثبُّتِ.

وذكرَ أعرابيٌّ امرأةً، فَقَالَ: «جلدٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ، مَعَ رائحةِ المسكِ، وفِي كُلِّ عُضْوٍ مِنْهَا شمسٌ طالعةٌ»، ووصفَ آخرُ امرأةً، فَقَالَ: «وجهُها عذرُ العاشقِ».

فمَنْ وقعَ بامرأةٍ كما ينبغِي؛ فليختبرْ عقلَها، فَقَدْ قالَتْ هندُ بنتُ المُهَلَّبِ: «ما تحلَّىٰ النساءُ بشيءٍ أحسنَ مِنْ عَقْلٍ كَامِلٍ، تَحْتَهُ أَدَبٌ بَاطِنٌ».

ولينظرْ فِي دِينِهَا؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ: «**عَلَيْكَ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ**»(١).

وَيسْتَفِد فِي شراءِ الجوارِي الصغارِ [فَوائدُ:

مِنْهَا]: تربيتهنَّ عَلَىٰ الأدبِ والسترِ، والخصالِ الَّتِي تُحِبُّهَا.

وَمِنْهَا: أنَّ التنعُّمَ بِهِنَّ أَلَذُّ، كَمَا قَالَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ:

أَطْيَبُ مَا نِلْتُ فِي حَبْوَتِي ** ضَمُّ الْجَوَارِي الْمُرَاهِقَاتِ الْقُمُصَا

ومِنْهَا: أَنَّهُ يأمنُ حِبلَهُنَّ، فَيَتَمَتَّعُ بِهِنَّ آمدًا كِذَلِكَ.

وإِنْ كَانَ وَطْءُ مَنْ لَمْ تَبْلُغْ غَيْرَ مَحْمُودٍ، فَإِنْ أَعْجَبَتْهُ وَإِلَّا بَاعَهَا، وإِنْ كانت بالغةً عَزَلَ عَنْهَا سنةً، وجرَّبَ أخلاقَهَا وبقهها بالآدابِ.

وانظرْ إلىٰ صبرها فِي الغيرةِ عِنْدَ اشتراءِ غيرها، فإِذَا حَمِدَ أخلاقَهَا حَسُنَ طلبُ الولدِ مِنْ مِثْلِهَا، وقَدْ قَالَ بعضُ الحكماءِ: «الْبِكْرُ لَكَ، وَالثَّيِّبُ عَلَيْكَ، وذَاتُ الْوَلَدِ لَا تَقْرَبْهَا».

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠٩٠)، ومسلم (١٤٦٦) من حديث أبي هريرة.

وليتخذْ عجوزًا دَيِّنَةً تكونُ مِنْ قواعدِ بيتِهِ، ويأمُرُهَا سرًّا بملاحظتِها، وتعليمِهَا الأدبَ والتوقيرَ، ويَا بُعْدَ دينَ العجائزِ.

ويقطعُ الأسبابَ المفسدةَ لقلبِهَا؛ من مخالطةِ أبناءِ جنسِهَا، وسدِّ الروازن، ومنعِ الخروجِ؛ فإنَّ النساءَ يُفسدْنَ النساءَ، ويُحدثهنَّ بالبختِ، ويُدممنَ المشايخَ عِنْدَهُنَّ، ويذكرنَ الكسوةَ وغيرَها.

وليجعلْ تلكَ العجوزَ واعظةً لَهَا، تُعلِّمُهَا حقَّ الرجلِ، وتُعظِّمُ عِنْدَهَا قليلَ النفقةِ.

ولْيَحْذَرْ مِنْ دخولِ مُراهقٍ إلىٰ بيتِه، وإنْ كانَ ولدَهُ.

ومَنْ وقعَ بجاريةٍ أوِ امْرأةٍ قريبةٍ مِنْ غرضِه فليرضَ بِهَا، ولا يطلبِ الأعْلَىٰ؛ فمَا إلَيْهِ سبيلٌ؛ فإنْ وَجدَ السبيلَ إليهِ كانَتْ آفاتُهُ أكثرَ مِنْ لذَّاتِهِ، وَمِنْهَا: أنَّ تلكَ المرأةَ رُبَّمَا أفسدتْ عَلَيْهِ، وَمِنْهَا: رُبَّمَا أحسَّتْ مِنْ نفسِها بالجمالِ الفائقِ، فتراعَنَتْ عَلَيْهِ، فطلبتْ فضلَ نفقتِه، وَمِنْهَا: أنَّها [تَتَعلَّقُ] بقلبِه تعلقًا يُؤذِيهِ، ورُبَّمَا أوجبَ ذَلِكَ انبساطَهَا عَلَيْهِ وإزلاها، فيذهبُ زمانُه فِي مُدَارَاتِهَا، والذلِّ لَهَا، والخوفِ عَلَيْهَا، فرُبَّمَا أبغضتْهُ وأحبَّهَا فهَلَكَ، فلو قُضِي فراقٌ صعبُ التَّسَلِّي؟!

وقد أخبرنَا محمدُ بنُ منصورٍ قَالَ: حَدَّثَنَا الحُميديُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا محمدُ بنُ سلامَةَ القُضاعِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا أبو أسلمَ الكاتبُ، قَالَ: حَدَّثَنَا ابنُ دُرَيْدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا عبدُ الرحمنِ، عن عمِّهِ، قَالَ: شاورَ رجلٌ مِنَ العربِ رجلًا فِي التزويجِ، فَقَالَ: افعلْ، وإيَّاكَ والجمالَ الفائقَ؛ فإنَّهُ مؤذي، فَقَالَ الرجلُ: إنَّمَا نَهَيْتَنِي عمَّا أطلبُ، فَقَالَ: أَوَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ الشاعرِ:

وَلَـنْ تَـرَىٰ الـدَّهْرَ مَرعًـا مُرْزِقًـا أبـدًا ** إلَّا وَجَـدْتَ بِـهِ آثَـارَ مَـأْكُولِ القُمُـصَا

فالأَوْلَىٰ بالعاقلِ إِذَا وَجَدَ امرأةً كَمَا يَنبغِي أَوْ جاريةً أَنْ يَتَمَسَّكَ بِهَا، وَلَا يُغَيِّرَهَا، وَلَا يُؤْذِيهَا، خصوصًا إنْ كانَ شيخًا، أَوْ ليسَ بمستحسَنِ الصورةَ، وإذَا وقعَ بغرضِهِ؛ فَلْيَحْذَرْ كثرةَ الدُّنُوِّ مِنْهُ، والقربِ إليهِ، فإنَّ كثرةَ المقاربةِ تُوقِعُ عَلَىٰ العيوبِ، فيقعُ الملَلُ، ولَابُدَّ مِنَ التغميضِ عَلَىٰ العيوبِ.

وَلَا ينبغِي أَنْ يُوآكِلَهَا، وَلَا أَنْ ينامَ عِنْدَهَا بَلْ يجتمعُ بِهَا فِي أحسنِ ساعاتِه وساعاتِها، ثُمَّ يقعُ البعدُ، فهَذَا أدومُ للصُّحبَةِ وأطيبُ للعيشِ، وفِي الحديثِ: أَنَّ امرأةً عارضتْ عُمَرَ فِي أمرٍ كانَ يُدَبِّرُهُ، فَقَالَ: «مَا لَكُنَّ وَلِأُمُورِ الرِّجَالِ، إِنَّمَا المرأةُ لعبةٌ؛ إذا كانَ للرجلِ إِلَيْهَا حاجةٌ دَعاها».

وَقَدْ ذَكَرَ الْمُتَنبِّي نَحْوَ هَذَا:

وَلِلْخُودِ مِنِّي سَاعَةٌ ثُمَّ بَيْنَنَا ** فَلَاةٌ إِلَىٰ غَيْرِ اللِّقَاءِ تُجَابُ القُمُصَا

وَلْيَعْلَمِ العاقلُ أَنَّ المقصودَ مِنَ الشخصِ حسنُهُ وحبُّهُ لَا نفسُ الجماعِ؛ فإنَّ الجماعَ يُفسِدُ المحبةَ، وكان للرشيدِ ثلاثُ جَوَارٍ يُحِبُّهُنَّ، وَيَقُولُ فِيهِنَّ:

مَلَكَ الثَّلَاثُ الْآنِسيَاتِ عَنَانِي ** وَحَلَلْنَ فِي قَلْبِي بِكُلِّ مَكَانِ القُمُصَا

وَكَانَ لِأَبِي دُلَفٍ جَارَةٌ، وَكَانَ يُسَمِّيهَا صَدِيقتي، ويقولُ: ملَكَتْنِي وهِيَ مِلْكُ يَدِي.

ومثلُ هَذَا لَا يتمُّ إِلَّا أَنْ تكونَ المرأةُ مَعَ حُسنِهَا عاقلةً، ولا تتبذلُ للرجلِ، بَلْ لَا تحضرُ عندَهُ إِلَّا فِي حالةِ الكمالِ، وتُدَافِعُهُ عَنِ الوطءِ؛ لَا عَلَىٰ وجهِ العصيانِ، ويُوَاقعهَا عَلَىٰ ذَلِكَ؛ إيثارًا لِبَقَاءِ الحُبِّ.

قالتِ امرأةٌ مِنَ القُدَمَاءِ:

مَا الْحُبُّ إِلَّا قُبَلٌ ** أَوْ غَمْزُ كَفٍّ وَعَضُدْ

مَنْ لَمْ يَكُنْ ذَا حُبَّهُ ** فَإِنَّمَا يَبْغِي الْوَلَدْ

فأمَّا إنْ كانَ شَبِقًا لَا يصبرُ، مِكثارًا لَا يَثبُتُ، أوْ كانتْ هِيَ خرقاءَ لَا تُبالِي عَلَىٰ أيِّ حالٍ أتَاهَا؛ لَمْ يصحَّ وجودُ عيشٍ؛ لأنَّ المجنونَ والعاقلَ لَا يجتمعانِ، وأطيبُ العيشِ عيشُ عاقِلَينِ، ورُبَّما طبعت الغفلةُ عيشَ أحمقينِ.

والعاقلُ لَا ينبغِي لَهُ أنْ يضيعَ ماءَهُ الَّذِي هُوَ قِوَامُ بدنِهِ إلَّا لِأَحَدِ سببينِ: إمَّا أنْ يكثرَ اجتماعُه فيتخفَّفَ مِنْهُ، وعلامةُ التخفُّفِ أنَّهُ يعقبُ خُرُوجُهُ نشاطًا أو راحةً وقوَّةً وطيبَ نفسٍ. أوْ أنْ يطلُبَ ولدًا، وهذا هُوَ الأصلُ فِي خلقِ الماءِ.

فإنْ غلبَهُ الهَوَىٰ لمحبوبٍ، فلْيَعْلَمْ أنَّ ذَلِكَ يفسدُ المحبةَ، ويزيدُ فِي الأذَىٰ؛ لكثرةِ مَا يخرجُ منهُ، فإذَا غلبَ فليبعدْ مَا بَيْنَ الزمانينِ، فأمَّا إذا فعلَهُ عادةً؛ فإنَّهُ يَنْحَتُ أصلَ قُوَّتِهِ بأحدِّ مِبْردٍ، ويبيعُ جوهرَ جسمِه بأرخصِ ثمنٍ، خصوصًا مَنْ قَدْ جاوزَ الأربعينَ.

فَصْلٌ

قَالَ قائلٌ: أسمعُكَ كثيرًا تقولُ: إنَّ اللهَ ﷻ لَا يتخذُ لَهُ صفةً، فَمَا وجْهُ قولِهِ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾؟

فقلتُ: إنَّما تتجدَّدُ الصفاتُ للمحدَثِ، فأمَّا القديمُ فذاتُه قديمةٌ وصفاتُه.

وبيانُ هَذَا: أنَّ المتجددَ هُوَ الَّذِي يجوزُ أن يؤخذَ ويجوزُ أن لَا يؤخذَ، وذاتُ الحقِّ وصفاتُه واجبةُ الوجودِ، وليستْ من بابِ الجائزاتِ.

ووجهُ هَذَا: أنَّ المتجددَ محدثٌ، ولا حدثَ للصفاتِ، كمَا أن لَا حدثَ للذتِ، فأمَّا الاستواءُ عَلَىٰ العرشِ فمذهبُ السلفِ إمرارُهُ كمَا جاءَ مِنْ غَيْرِ خوضٍ فِي معناهُ، ولا كلامَ مَعَ اعتقادِ الكُلِّ أنَّهُ لَا يتجدَّدُ للهِ صفةٌ.

فإنْ تفكَّرت فِي معنَىٰ الاستواءِ، قلت لَكَ: إنْ عَقِلْتَ المُستوىٰ عَقِلْتَ معنَىٰ الاستواءِ، فإنْ لَـمْ يَسَعْكَ مَا وَسِعَهُمْ، واحتجتَ إِلَىٰ زيادةِ بيانٍ، قلتُ لَكَ:

اعلمْ؛ أنَّ هَذَا عِنْدَ القومِ حالٌ لَا وصفٌ، وقد شرحَ هَذَا المعنَىٰ أَبُو الوفاءِ ابْنُ عَقيلٍ بِمَا لَا مزيدَ عَلَيْهِ، فَقَالَ:

ليسَ كُلُّ مضافٍ إِلَىٰ اللهِ سُبْحَانَهُ، وَهِيَ أَفْعَالٌ، وَلَنَا إضافاتٌ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ، وَهِيَ أحوالٌ، قَدْ ضلَّ فِي ذَلِكَ طوائفُ مِنَ الخائضينَ فِي الأصولِ بغيرِ خبرةٍ فِي الفروقِ، فجعلُوا الكُلَّ صفاتٍ، فضَلُّوا وأضلُّوا، وقَدْ تخوَّفتِ السَّالميَّةُ مِنَ القولِ بتجددِ الأحوالِ، ظنًّا منهم أنَّها صفاتٌ، فَقَالَوا: إنَّها قديمةٌ، حيثُ ظنُّوا أنَّها صفةٌ، فأوجبُوا علىٰ أنفسِهِمُ القولَ بقِدَمِ العالَـمِ الَّذِي كفرتْ بِهِ الفلاسفةُ.

فأقصَىٰ بالسالميَّةَ جهلُها بالفرقِ بين الحالِ والصفةِ إلىٰ القولِ بأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَـمْ يَزَلْ مُبْصِـرًا ناظرًا إِلَىٰ الأشياءِ، ثُمَّ صرَّحُوا بالمُحالِ فَقَالَوا: مُبْصِرٌ لَهَا قبلَ كَوْنِهَا؛ ظنًّا مِنهُمْ أنَّ وصفنَا لَهُ بـ«سامعٍ» كوصفِنَا لَهُ بـ«سميعٍ»، فَقَالوا: لَـمْ يزلْ بصيرًا مُبصـرًا سميعًا سامعًا.

والفرقُ بين الحالِ والصفةِ: أنَّ الصفاتِ ذواتٌ، كَمَا نقولُ فِي الجسمِ الأسودِ: إنَّه مجموعُ ذاتيْنِ؛ الجسمُ وذاتُ السوادِ، والأحكامُ كالأحوالِ، فشِدَّةُ الخمرِ ذاتٌ، وحكمها التنجيس والتحريم؛ فالأحكامُ ليستْ بذواتٍ ولا صفاتٍ، فالمحدثُ وصفاتُهُ محدثةٌ، والقديمُ وصفاتُهُ قديمةٌ، وجميعُ صفاتِ القديمِ لَهُ لَـمْ يتجدَّدْ لَهُ شيءٌ مِنْهَا؛ كعِلْمِهِ وقدرتِهِ وحياتِهِ، فأمَّا الأحوالُ؛ فمثلُ كونِه سامعًا لأصواتِ المحدثين، ومُبصـرًا لذواتِ خلقِه، واستوائِه علىٰ عرشِه.

ومِنَ التسميةِ نفرتِ المعتزلةُ، وكثيرٌ مِنَ المُتكلِّمينَ؛ ظنًّا مِنهُمْ أنَّنا نقولُ فِي الاستواءِ: إنَّهُ وصفٌ، فَقَالَوا: العرشُ مُحدَثٌ، فكيفَ يكونُ الباري مستويًا عَلَيْهِ؟

وإنَّما هَذِهِ الأشياءُ حالٌ؛ لَـمَّا تجددتِ الأصواتُ كانَ «سامعًا»، ولـمْ يَزَلْ «سميعًا»، فالاستواءُ علىٰ العرشِ حالٌ مِنْ أحوالِ اللهِ تَعَالَىٰ؛ كـ«سامعٍ».

فَصْلٌ

كَمْ أفسدتْ طريقُ المتصوفةِ والمتزهدينَ مِنْ بَدَنٍ ودِينٍ؟!

فإنَّ العوامَّ يعتقدونَ فيهم مَا لَا يعتقدونَ فِي العلماءِ، فإذَا تابُوا وصحبُوهُمُ أمرُوهُمْ بالتقلُّلِ واليُبسِ؛ فضَعُفَتْ أبدانُهُمْ، وتغيَّرتْ أذهانُهُمْ، وخَرَجُوا إِلَىٰ أمراضٍ رُبَّمَا أخرجتْهُمْ إلىٰ التلفِ، وتركُوا واجباتٍ، وإنْ كانتْ لَهُم عائلةٌ ضاعتْ، وإنْ كانتْ لأحدِهم زوجةٌ صارتْ أَيِّمًا؛ وهَذَا كُلُّهُ خلافُ الشريعةِ.

فاسمعْ مِنْ عَالِـمٍ نصيحٍ، ودعْ قولَ الجهلةِ المخرفينَ:

لَا تمنعْ نفسَك مَا يُصلِحُها، وأنتْ أعلمُ بِهِ، ولا تعملُ فِي تقليلِ غذائِها الَّذِي لَا قِوَامَ لَهَا إلَّا بِهِ، بَلَىٰ! إنْ كَانَتْ عادتُكَ الشِّبعَ، فَقَلِّلْ بتدرجٍ إِلَىٰ أَنْ تقفَ النفسُ علىٰ مَا يُصلِحُهَا، ويحفظُ قُوَاهَا.

وإيَّاكَ أنْ تغترَّ بِمَا تسمعُهُ، أنَّ فلانًا بَقِيَ عِشْرِينَ يَوْمًا لَا يأكلُ! فليسَ هَذَا مِنَ الشَّرعِ، وإنْ سمعتَهُ عَنْ قومٍ صالحينَ؛ فإنَّ اتباعَ العِلمِ أوْلَىٰ، ورُبَّمَا يكونُ بعضُ الصالحينَ قَدْ فعلَهُ لسببٍ أو لمعنًىٰ، وعليكَ بطريقةِ الرسولِ وأصحابِه.

وقد قَالَ أحمدُ بنُ حنبلٍ: كانَ ابنُ عباسٍ يُواصِلُ، وأنَا أكرهُهُ.

قلتُ: ولعلَّهُ لَـمْ يبلُغْهُ النهيُ عَنِ الوِصَالِ.

فإنْ كانَ الَّذِي يُصلحُكَ ملذوذًا؛ فَلَا تنظرْ إِلَىٰ لذَّتِه، بَلْ إِلَىٰ مَنْفَعَتِهِ، ولا تقولَنَّ: هَذَا فِيهِ لذةٌ، فلا أتناولُهُ، إذا كانَ حَلَّ نظرَ إلىٰ منفعتِهِ، واعلمْ أَنَّ لذَاذَتَه يستخرجُ منكَ عبادةً تشتهِي الشكرَ، لَا تخرجُ إلَّا عِنْدَ اللذاتِ.

والآفةُ العُظمَىٰ أنْ تتركَ مَا ينفعُكَ ليُقالَ زاهدٌ، فَهُوَ الهلاكُ والشِّركُ الأصغرُ.

ثُمَّ إنَّ الناسَ يتفاوتُونَ فِي المطاعِمِ، فَلَا آمرُ البَدَوِيَّ بِتنعُّم الحَضَريِّ، بَلْ كُلٌّ يحملُ مَا يطيقُ ويُصلِحُهُ، والسَّلامُ.

وهَذَا الَّذِي حذَّرتُ مِنْهُ كان قدماء الصوفيَّةَ(١)؛ فإنَّهم كَانُوا مُعرضِينَ عَنِ الدُّنيَا بالكُليَّةِ، لكنْ كانتْ عبادتُهُمْ بغيرِ علمٍ؛ فأمَّا اليومَ فليسُوا علىٰ تلكَ الطريقِ، إنَّما أَيَّامُهُمْ أيامُ أكلٍ وشربٍ، وبقَّالُ المطبخِ دائرٌ، والحمامُ مفتوحٌ، والمطاعمُ الشهيَّةُ، والأغانِي الطيبةُ، والراحةُ الدائمةُ، ومُعاشرةُ أكابرِ أهلِ الدُّنيَا، والكبرُ عَلَىٰ الضعفاءِ؛ فَمَا عِندَهُمْ مِنَ التَّصوُّفِ إلَّا القُمُصُ.

فَصْلٌ

صَفَتْ لِي خلوةٌ، خطرتْ لي فِيهَا مناجاةٌ، تروَّحتُ بِهَا؛ قلتُ فِيهَا:

إِلَهِي وسيِّدِي: إنْ أتيتُكَ بشفيعٍ يشفعُ لِي، لَمْ أقدرْ عَلَىٰ أكثرِ مِنْ إنعامِكَ فِي حقِّي باستخراجِي من أصلابِ الجُهَّالِ، ورَكْزِ حُبِّ العِلمِ فِي حبةِ قلبِي، حتَّىٰ آتيتني مِنْهُ خيرًا جمًّا، لَا بتحريضِ أبٍ، ولا بتحريكِ والدةٍ، ثُمَّ عصمتَنِي فِي زمانِ الصبوةِ عَنْ مخالطةِ أبناءِ جِنْسِي، وألهمتَنِي فِي حالةِ البلوغِ واحتدادِ نيرانِ الهوَىٰ للزهدِ فِي الدُّنيَا، ودوامِ الصومِ، وقيامِ الليلِ.

---

(١) كذا، ولعل سقطًا وقع، والتقدير: «كان طريق قدماء الصوفية».

فلمَّا ذهبَ ريعانُ الصِّبَىٰ بقمعِهِ عن[(١)] نيلِ المرادِ مِنَ العلمِ، أقمتَنِي أدعُو النَاسَ إليكَ، وأدلُّ الخلقَ عليكَ، فقَدْ رجعَ بسببِ وعظِي إِلَىٰ بابِكَ ألوفٌ لَا أُحصِيهِمْ.

فأَنَا أتوسَّلُ إليكَ بذَلِكَ الإِقْبَالِ، وأستجيرُ بِهِ مِنْ ذُلِّ هَذَا الإعراضِ.

إِلَهِي! وعِزَّتُكَ! إنَّما يُقطعُ الرجاءُ مِنْ جهةٍ، فيتعلَّقُ بأُخرَىٰ، ولا نَرْجُوا سِواكَ.

سَيِّدِي! بَلَغَنِي أنَّ بعضَ الشعراءِ مَدَحَ بعضَ خَلْقِكَ، فقَالَ:

أَأَذْكُـرُ حَـاجَتِي أَمْ قَـدْ كَفَـانِي ** حَيَـاؤُكَ إِنَّ شِـيمَتَكَ الْحَيَـاءُ

وَقَالَ آخَرُ:

فَاصْـبِرْ لِعَادَتِنَـا الَّتِـي عَوَّدْتَنَـا ** أَوْ لا فَأَرْشِـدْنَا إِلَـىٰ مَـنْ نَـذْهَبُ

وقالَ بعضُ خَلْقِكَ: «إنِّي لأستحِيِي أنْ يكونَ ذنبٌ لَا يبلغُهُ عَفْوِي، أو جهلٌ لَا يسعُهُ حِلْمِي».

وبلغَنِي أنَّ رجلًا زوَّر علىٰ ابنِ معروفٍ القاضِي إلىٰ بعضِ الوزراءِ علىٰ رأسِ قضيةٍ لَهُ شفاعةً فيهِ، فدخلَ ابنُ معروفٍ علىٰ الوزيرِ، والرجلُ قائمٌ والقضيةُ بينَ يَدَي الوزيرِ، فتلمَّحَ القاضِي عَلَىٰ رأسِ القضيةِ مَا قَدْ كتبَ الرجلُ عنه، فأُسْقِطَ فِي يدِ الرجلِ، فَقَالَ القاضِي للوزيرِ: إنَّ حقَّ هَذَا الشخصِ عليَّ أوجبُ إنْ سعيت بَعْدَ كِتابَتِي للشفاعةِ فيهِ، فأنعمَ الوزيرُ عَلَيْهِ، وولَّاهُ، وتركَ القاضِي شغلَهُ الَّذِي جاء فِيهِ؛ تَوقِيرًا لِشُغْلِ ذَلِكَ الشَّخْصِ، فلمَّا خرجَ قَالَ القاضِي للرجلِ: مَا كُنَّا بالَّذِي نُجيبُ مَنْ علَّقَ رجاءَهُ بِنَا.

---

(١) في ي: «مع».

فيَا إِلَهِي! وسَيِّدِي! أنتَ خلقتَ تلكَ الأرواحَ، وأنتَ أكرمُ وأرحمُ وألطفُ، ومَا لِي إليكَ وسيلةٌ سِوَىٰ إنعامِكَ عليَّ ولطفِكَ بي، فبلُطفِكَ لَا تَحْرِمْنِيهِ، وبجُودِكَ لَا تَقْطَعْنيهِ، واكشفْ كَرْبِي، فَقَدْ مَسَّنِيَ الضُّرُّ، وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.

لَمْ تَدَعْ لِي الذُّنُوبُ عِنْدَكَ عُذْرًا ** طَالَمَا قَدْ قَبِلْتَ عُذْرِيَ دَهْرَا
فَاعْفُ عَنِّي بِلَا اعْتِذَارٍ فَإِنِّي ** بِالْخَطَايَا أُقِرُّ سِرًّا وَجَهْرَا
قِسْ عِتَابِي إِلَىٰ اغْتِفَارِكَ وَانْظُرْ ** أَيَّ هَذَا وَذَاكَ بِالْعَفْوِ أَحْرَا
بَيْنَ ذُلِّي وَبَيْنَ عِزِّكَ بَوْنٌ ** يَقْتَضِي مِنَ التَّجَاوُزِ شَطْرَا
ثُمَّ إِنْ شِئْتَ فَعَاقِبْ بِمَا شِئْتَ ** وَلَا تَجْعَلِ الْعُقُوبَةَ هَجْرَا

فَصْلٌ

إِنَّمَا أُرْسِلَتِ النُّذرُ لِتَنْتَبِهَ قَبْلَ هُجُومِ المَحْذُورِ

وَقَدْ جعلت مُنادِيَ الضعفِ نذيرًا للموتِ، فالعاقلُ مَنِ انتبَهَ لنفسِهِ إِذَا جَاءَتِ الكُهُولَةُ، فإنَّه زمانُ نُقصانِ القوتينِ: الشهوانيَّةِ والغضبيَّةِ، ومَنْ ضَعُفَ عَدُوُّهُ فَتِلْكَ غنيمةٌ ينبغِي مُبادرتُهَا، وزمانُ الغنيمةِ التامَّةِ حينئذٍ؛ لأنَّ قوةَ الشبابِ قد ذهبتْ، وقوةَ الكهولةِ قويَّةٌ؛ لضعفِ المضادِ، فهي كساعاتِ الصحوِ مِنْ سُكْرِ الشبابِ، وينبغِي للصاحِي أنْ يتلافَا فِي زمانِ صَحْوِهِ مَا فَرَّطَ فِيهِ أيامَ سُكْرِهِ.

وفي حالِ الكُهُولَةِ يحسُنُ الندمُ علىٰ الماضِي، [ويصحُّ الاستدراكُ للماضِي]، فأمَّا فِي الشيخوخةِ؛ فإِنَّهُ إنما يقعُ الندمُ فحسبُ؛ لضعفِ الأرابِ عَنِ الاستدراكِ.

وأعْلَىٰ مِنْ هَذِهِ المرتبةِ: مَنْ قهَر هواهُ فِي حالِ الشبابِ؛ فتلكَ مرتبةٌ عاليةٌ، ويليها تداركُ الكهولةِ، فأمَّا الشيوخُ فالمشاةُ الضعفُ.

نسأَلُ اللهَ ﷻ يقظةً تامَّةً وإدراكًا كاملًا؛ إِنَّهُ برحمته قادرٌ.

❁ فَصْل ❁

مَنْ خُلِقَ عالِي الهمةِ، كان عيشُهُ دائمَ النغصةِ

لأنَّ العقلَ الكاملَ لَا يدعُ للجسمِ راحةً.

كَمَا قَالَ الرَّضِيُّ:

وَلِكُــلِّ جِــسْمٍ فِــي النُّحُــولِ بَلِيَّــةٌ ** وَبَــلَاءُ جِــسْمِي مِــنْ تَفَــاوُتِ هِمَّتِــي

وسببُ هَذَا: أنَّ إشرافَ العقلِ علىٰ العواقبِ، ونظرَه إلىٰ الفضائلِ يكدُّ البدنَ بين طلبِ الأفضلِ وبين الحذرِ من نقصٍ أو عيبٍ، وإنَّما تقعُ الراحةُ من بابِ الغفلةِ، ولا غفلةَ لكاملِ العقلِ، فلا جَرَمَ! تُرَىٰ أبدانُهم نحيلةً، ووجوهُهُمْ مُتغيرةً، وبكاؤُهُم دائمًا؛ فهُمْ يُبادرُونَ اللحظاتِ، ويُثابرُونَ علىٰ الفضائلِ، فهُمْ يطلبُونَ غايةَ العلمِ، وغايةَ العملِ، فتكدُّ الأبدانُ.

كما قَالَ المُتنبِّي:

وَإِذَا كَانَــتِ النُّفُــوسُ كِبَــارًا ** تَعِبَــتْ فِــي مُرَادِهَــا الْأَجْــسَامُ

وهَؤُلَاءِ القومُ لَا يصلحُ لأحدٍ مخالطتُهم، إلَّا أنْ يكونَ مِنْ جنسِهم.

ثُم بعدَ هَذَا؛ فإنَّ الأوْلَىٰ بِهِمْ أنْ يُعدِّلُوا مَا عندَهم من القلقِ بِمَا يُوجِبُ نوعَ سُكُونٍ، ومِنَ الخوفِ بما يُوجبُ نوعَ رجاءٍ، وليلطُفُوا بأنفسِهم فِي أنْ يُفسحُوا لها فِي بعضِ المباحاتِ، وقد كانَ النبيُّ ﷺ يمزحُ، ويكثرُ النكاحَ، ويُسابقُ عائشةَ[1]؛ وكلُّ ذَلِكَ ليعدلَ مَا عندَه من شدةِ الجدِّ.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٢٤٦١٩، ٢٦٧٨٢، ٢٦٨٠٧)، وأبو داود (٢٥٧٨)، وابن ماجه (١٩٧٩)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٨٨٩٣، ٨٨٩٥)، وابن حبان (٤٦٩١) من حديث عائشة.

ورُبَّمَا رأَىٰ منهم هَذَا بعضُ الجُهَّالِ، فَقَالَ: هَؤُلَاءِ أهلُ جِدٍّ! فما بَالُهُمْ يتفسحونَ! ولا يَدْرِي أنَّ الأشياءَ إنَّما تُعَادَلُ بأضدادِهَا، فهو لجهلِه أحوجُ الناسِ إلىٰ ذكرِ الموتِ، وهُمْ أحوجُ الناسِ إلىٰ نسيانِهِ؛ لأنَّه حاضرٌ بَيْنَ أعينِهِمْ أبدًا، فقدْ نغَّصَ عَلَيْهِم عيشَ الدُّنيَا، وقد قَالَ بعضُ الحُكماءِ: «ينبغِي للعالِـمِ أنْ يتركَ الفكرَ وقتًا مَا؛ لِئلَّا يُنهكَ بَدَنَهُ شدةُ الفكرِ».

۞ فَصْلٌ ۞

قد ظنَّ أقوامٌ أنَّ الزهدَ يترقَّى بصاحبِهِ إلى تغييرِ طباعِه

واحتجُّوا بقولِ عيسَىٰ ابنِ مريمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الذهبِ والحجرِ: «هُمَا عِنْدِي سواءٌ»، وبقولِ حارثةَ: «استوَىٰ عِنْدِي حجرُهَا ومدَرُهَا»، وبقولِ إبراهيمَ بنِ أَدْهَمَ: «لَا أشتهِي الشهواتِ»، وبقول بعضهِم: «ليسَ بصادقٍ فِي حُبِّهِ مَنْ لَـمْ يتلذَّذْ بِصَبْرِهِ».

واعلمْ، أنَّ الأمرَ علَىٰ غيرِ مَا وقعَ لَهُمْ؛ فإنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ ركَّبَ الأمزجةَ[1] الصحيحةَ مشتاقةً إلىٰ مَا يشتهيهِ الآدميُّ، بكرهِهِ مِمَّا حلَّ فِي طباعِها من حُبٍّ وكراهةٍ، فإذَا ادَّعاهُ بغيرِ طبعِه لَـمْ يخلُ مِنْ حَالَيْنِ: إمَّا أنْ يكونَ كذَّابًا، أو يكونَ قد حدثتْ بِهِ آفةٌ، كَمَا قَالَ عُمَرُ بنُ الخطابِ: «مَا يمنعُكَ مِنَ النكاحِ إلَّا عجزٌ أو فجورٌ!».

إنَّما أرادَ عيسَىٰ ابنُ مريمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنَّ الذهبَ والحجرَ عندي سواءٌ فِي أداءِ الحقوقِ، وفِي الإعراضِ عنهما علىٰ سبيلِ الزهدِ، فأمَّا أنْ يكونَا سواءً من حيثُ الطبعُ، فَلَا؛ فإنَّ ذَلِكَ عائقٌ لَا يمتدحُ بِهِ.

(١) كذا ولعل سقطًا وقع، تقديره: «جعل الأمزجة».

وكَذَلِكَ قولُ حارثةَ، وكَذَلِكَ قولُ إبراهيمَ بنِ أدهمَ: «لَا أشْتَهِي»؛ لأَنَّهُ لَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ مسؤولٌ عن كسبِ ذلكَ، وأنَّه معوقٌ لَهُ عن الفضائلِ؛ لَمْ يَشتهِهِ؛ مِنْ جهةِ الدِّينِ، لَا من جهةِ الطبعِ.

وأمَّا مَنْ تلذَّذَ بالألَـمِ - كمَا قَالَ عبدُ الصمدِ، وقَدْ قَصَدَهُ رجلٌ يومَ عيدٍ بمالٍ، فَقَالَ لَهُ: باللهِ عليكَ دَعْنِي أتلذَّذُ بفقرِي -؛ فإنَّه لَا يعنِي من جهةِ الطبعِ؛ إِذِ الطبعُ يَكْرَهُ الفقرَ، وإنَّما يعنِي من جهةِ الإيمانِ؛ لِعِلْمِهِ بفضلِ العاقبةِ.

ويُحقِّقُ مَا قُلْنَا: أنَّ يعقوبَ عليه السلام تألَّم لفقدِ يوسفَ، وبكَىٰ، وقَالَ: ﴿ يَـٰٓأَسَفَىٰ ﴾ [يوسف: ٨٤]، وأيوبَ قَالَ: ﴿ مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، ونبيَّنَا عليه السلام يقولُ: «**إِنَّ الْعَيْنَ لَتَدْمَعُ**»[1]، وقَالَ: عندَ النزعِ: «**وَا كَرْبَاهُ**»[2]، فتأثيرُ الأشياءِ فِي الطباعِ [لا تُنْكَرُ]، وإنَّمَا يَتَلَمَّحُ أقوامٌ عواقبَ الأمورِ كُلَّهَا، كَمَا يَتَلَمَّحُ المسافرُ الأرياحَ، فينسَىٰ تعبَ السفرِ، ويَتَلَمَّحُ المريضُ العافيةَ فِي شربِ الدواءِ المُرِّ، فيفرحُ بذَلِكَ؛ لِمَا يرجُو، وإنْ كانتْ مُعاناةُ الألَـمِ لَا تُنكَرُ.

فافْهَمْ هَذَا، ولا تَغْتَرِرْ بأقوامٍ شطحُوا فِي الدعاوَىٰ، فلو مسَّتْ أحدُهم مرضةٌ لاستغاثَ، ومَا أهونَ القولَ! وما أصعبَ العملَ!

---

(١) **صحيح**: البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥) من حديث أنس.
(٢) بل الَّذِي فِي صحيح البخاري (٤٤٦٢) أنَّ فاطمة هِيَ الَّتِي قالت: وا كرب أباه، فَقَالَ لها النبي ﷺ: «**لَيْسَ علىٰ أبيكِ كربٌ بعد اليومِ**».

۞ فَصْلٌ ۞

يَتَضَمَّنُ نَصِيحَةً لِأَصْحَابِنَا

اعْلَمُوا - وفَّقكُمُ اللهُ تَعَالَىٰ - أَنَّكُمْ أصحابُ نقلٍ، وأصحابُ اتباعٍ، وإمامُكُمُ الأكبرُ أحمدُ بنُ حنبلٍ، كانَ هَذَا شأنُهُ، فَقَالَ - وهُوَ تحتَ السِّيَاطِ -: كيفَ أقولُ مَا لَـمْ يُقَلْ، وقالَ بعضُ أصحابِه: لَا تُفْتِ فِي مسألةٍ لَـمْ يتقدَّمْكَ فِيهَا إمامٌ، وكان يُقَدِّمُ الحديثَ الضعيفَ علىٰ القياسِ؛ كان ذَلِكَ إيثارًا للنقلِ والاتباعِ، ونَهَىٰ أنْ يُقَالَ: لفظِي بالقرآنِ غيرُ مخلوقٍ.

فإذَا ثبتَ أنَّ الاتباعَ كانَ شعارًا لَهُ، فإيَّاكُمْ أنْ تبتدِعُوا فِي مذهبِهِ مَا ليسَ مِنْهُ، فَهَلْ تكلَّم قطُّ فِي التلاوةِ والمتلُوِّ، أوِ القرآنِ والمقروءِ، وبلغَكُمْ عَنْهُ أَنَّه قَالَ: الاستواءُ مِنْ صفاتِ الذَّاتِ، أو مِنْ صِفَاتِ الفعلِ، فمِنْ أَيْن أَقْدَمْتُم حتَّىٰ تكلَّمْتُمْ بِهَذِهِ الأشياءِ؟! وقالَ بعضُكُمْ: ينزلُ بذاتِه، وقالَ آخرُ: ينتقلُ إذَا نزلَ، وقالَ آخرُ: يتحرَّكُ، وقَالَ آخرُ: يُوصَفُ بيدٍ زائدةٍ علىٰ الذاتِ.

وهذا كلُّه ابتداعٌ، وهو أقبحُ الأشياءِ مِمَّنْ يُنكِرُ البدعةَ.

ثُمَّ قُلْتُمْ فِي الأحاديثِ: تمرُّ علىٰ ظاهرِهَا؛ فظاهرُ القدمِ الجارحةُ، وهذا قبيحٌ، وإنَّما ينبغِي أن يُقَالَ: تمرُّ كما جاءتْ، أيْ تُقَرُّ، أو لَا يُقالُ فِيهِ شيءٌ؛ فافهمْ فرق مَا بينَ الكلمتينِ.

وهل هلكتِ النصارىٰ إلَّا بالأخذِ بالظاهرِ؛ فإنَّهم لَـمَّا قِيلَ لَهُم فِي عيسَىٰ: «رُوحُ اللهِ»؛ اعتقدُوا أنَّ للهِ صفةً، هي روحٌ، وَلَجَتْ فِي مريمَ.

فينبغِي لمنْ تتبعَ طريقَ السلفِ أنْ يُمِرَّ الأحاديثَ علىٰ مَا جاءتْ، من غيرِ تفسيرٍ، ولا تأويلٍ، ولا يفهمُ مِنْهَا مَا فُهِم مِنَ الحِسِّيَّات.

فأمَّا مَنْ قَالَ: استوىٰ علىٰ العرشِ بذاتِه، أو ينتقلُ فِي نزولِهِ؛ فقَدْ أجرَاهُ مَجْرَىٰ الحِسِّيَّاتِ، تَعَالَىٰ اللهُ عَنْ ذَلِكَ، وما جاءتْ هَذِهِ المفسدةُ إلَّا مِنْ قِبَلِ الزيادةِ علىٰ النقلِ، والقولِ بمقتضَىٰ الحِسِّ، وإلَّا فمَنْ قرأَ الآيةَ والحديثَ وسكتَ سَلِمَ.

وينبغِي ألَّا يُهمِلَ مَا ثبتَ بِالعقلُ[1]، وهُوَ الأصلُ؛ فإنَّا بالعقلِ عَرَفْنَا الخالِقَ، وحَكَمْنَا فِيهِ بالقِدَمِ، وعلىٰ غيرِه بالحَدَثِ؛ فاصرفُوا بالعقلِ عَنْهُ مَا لَا يليقُ بِهِ، مِنْ تشبيهٍ أو تجسيمٍ، وأمِرُّوا الآياتِ والأحاديثَ كما جاءتْ، مِنْ غيرِ زيادةٍ ولَا نقصانٍ، وقد سلمتُمْ.

ولا تُدْخِلُوا فِي مذهبِ هَذَا الرجلِ الصالحِ مَا ليسَ مِنْهُ، وَلَا تُقوِّلُوهُ مَا لَـمْ يَقُلْ، فَلَقَدْ كَسَيْتُمْ هَذَا المذهبَ شيئًا قبيحًا، حتَّىٰ صارَ لَا يُقالُ عَنْ حنبليٍّ إلَّا مُجَسِّمٌ، ولَوْ وقفْتُمْ علىٰ مَا وقفَ عَلَيْهِ صاحبُ المذهبِ، لَـمْ يتطرَّقْ علىٰ المذهبِ شَيْنٌ.

ثُمَّ رَتَّبْتُمْ مَذْهَبَكُمْ بالمعصيةِ لِـ«يزيدَ»، وقد عرفتُمْ مِنْ صاحبِ المذهبِ جوازَ لَعْنَتِهِ،ولكنْ خالِفْ تُعْرَفْ، نسألُ اللهَ لَنَا ولكُمُ الإصلاحَ، فلَقَدْ كثُرَ فسادُكُمْ.

---

(١) فِي أ: «به ثبت العقل».

۞ فَصْل ۞

قَدْ ثبتَ عند العقولِ النَّيِّرةِ عظمةُ الخالقِ، وأنَّه المالكُ القادرُ، فينبغي مَعَ عِلمِهَا ذَلِكَ أنْ تذلَّ لقضائِهِ وقدرِهِ، غيرَ مُعترضةٍ ولَا مُتَسَخِّطَةٍ؛ لأنَّ المالكَ يفعلُ فِي ملكِهِ مَا شاءَ

فإذَا أنزلَ المرضَ والنكبةَ والموتَ وجبَ علىٰ العاقلِ تسليمُ الأمرِ إلىٰ المالكِ بمُقتضَىٰ عِلمِهِ بمُلكِهِ، ومَا تسخَّطَ قضاءَهُ مَنْ عَرَفَهُ قطُّ.

أَلَا تَرَاهُ يقولُ لنبيِّهِ ﷺ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]؟! أَتُرَاهُ يجعلُ شَرْطَ الإيمانِ زوالَ الحرجِ مِن قضايَا رسولِهِ، ولا يُريدُ زوالَ الحرجِ فِي قضاياهُ وأَقدارِهِ؟! كَلَّا واللهِ! لَا يتحقَّقُ الإيمانُ إلَّا بالرِّضَا بالقضاءِ؛ لِعِلْمِ المقضيِّ عَلَيْهِ أنَّه مالكٌ يفعلُ مَا يشاءُ.

إنَّ شهادةَ العقولِ لَهُ بذَلِكَ تُوجِبُ تسليمَ الأمرِ إليهِ، ولو قطعَ وأهلكَ، ولَمْ يُعِدْ، ولَمْ يُجازِ، ولَمْ يُثِبْ.

إنِّي[1] أَبتليكُمْ، وأحملُ الأثقالَ عليكُم، ثُمَّ أُمِيتُكُمْ، ولَا أَبْعَثُكُمْ؛ لكانَ ينبغِي للعقولِ أنْ تقولَ: لَا اعتراضَ عليكَ فِي مُلكِكِ، ثُمَّ إنَّ عِلْمِي بعظمتِكَ وقدرتِكَ يُوجِبُ ذُلِّي لكَ وانقيادِي لأمركَ.

وقد رُوِيَ أنَّهُ يقولُ لمَلَكِ الموتِ يومَ القيامةِ: مُتْ، ثم لَا يُحْيَا أَبَدًا، ثُمَّ إنَّ مُطيعِي الجنِّ يصيرونَ ترابًا؛ فإنَّهُ إذا أعادَ البهائِمَ يُسَلِّمُ لأمرِهِ، ويحققُ طاعتَهُ؛ لأنَّه

---

(١) كأن سقطًا هنا وقع، تقديره: «ولو قال: إني...».

أهلٌ أَنْ يُطاعَ؛ إمَّا لكونِهِ مالِكًا، أَوْ لكونِهِ قادرًا عظيمًا، قد أدهشتْ قُدرتُهُ العقولَ، فهي تتحملُ الأبدانَ علىٰ الذُّلِّ لَهُ، والانقيادِ لمرضاتِهِ.

فكيفَ؟! ولَـمْ يفعلْ هَذَا؟ بَلْ وَعَدَ بالنَّعِيمِ من ساعةِ الموتِ، فَقَالَ: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [النحل: ٣٢]، ثُمَّ وعدَ بحُسْنِ المصيرِ بعدَ الموتِ، فقَالَ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وقالَ نبيُّنا ﷺ: **«نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَيْرٌ تَعْلَقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ»**[١]، أيْ: تَأْكُلُ، وقالَ: **«القبرُ روضةٌ مِنْ رياضِ الجنةِ أو حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ»**[٢].

ثُمَّ وعدَ بنجاةِ المؤمنِ من الكربِ فِي شدائدِ القيامةِ، فَقَالَ: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ [مريم: ٨٥]، وقالَ نبيُّهُ ﷺ: **«القيامةُ نزهةُ المؤمنِ»**[٣]، ثُمَّ أظهرَ حشمةَ المُتَّقِي عندَ بُرُوزِ النارِ، فهي تُنادِيهِ: **«جُزْ يَا مُؤْمِنُ؛ فَقَدْ أَطْفَأَ نُورُكَ لَهَبِي»**[٤]،

---

(١) **صحيح**: أخرجه مالك (٦٤٣)، والنسائي (٢٠٧٣) وفي «الكبرىٰ» (٢٢١١)، والترمذي (١٦٤١) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (١٤٤٩، ٤٢٧١)، وأحمد (١٥٧٧٦، ١٥٧٧٧، ١٥٧٧٨) من حديث كعب بن مالك. وقال ابن الملقن في «التوضيح لشرح الجامع الصحيح» (١٧/ ٤١٠): «إسناده جيد» وقال ابن العربي في «عارضة الأحوذي» (٤/ ١٢٥): «صحيح جدًّا» وقال ابن كثير في «تفسيره» (٨/ ٢٧): «متنه قويم» وقال ابن حجر في «توالي التأسيس» (١/ ٢٠٣): «صحيح».

(٢) **إسناده ضعيف**: أخرجه من حديث أبي سعيد: الترمذي (٢٤٦٠) وقال: غريب.

(٣) لم أجده.

(٤) **منكر**: هو من حديث يعلىٰ بن منية، ذكره الحكيم (١/ ١٢٨)، وأخرجه الطبراني (٢٢/ ٢٥٨) وقال الهيثمي (١٠/ ٣٦٠): فيه سليم بن منصور بن عمار وهو ضعيف. وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٣٢٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٧٤) وقال: تفرد به سليم بن منصور وهو منكر. والخطيب (٥/ ١٩٤، ٩/ ٢٣٢)، وابن عدي (٦/ ٣٩٤، ترجمة ١٨٨١ منصور بن عمار أبي السري) وقال: منكر الحديث.

ثُمَّ وَعَدَهُ كُلَّ مَا تقرُّ بِهِ عينُهُ، حَتَّىٰ إِلْحَاق ذُرِّيَّتِهِ بِهِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [الطور: ٢١].

ثُمَّ ذَكَرَ مَا أعدَّ لَهُ فِي الجنةِ، فأكثرَ مِنْ ذَلِكَ فِي القرآنِ، وجمعَ الكلَّ فِي قولِهِ: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقالَ علىٰ لسانِ نبيِّهِ ﷺ: **«يقولُ اللهُ تعالَىٰ: أعْدَدتُّ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ»**(١).

ثُمَّ الخلودُ الدائمُ فِي جوارِه، والوعدُ الكريمُ برؤيتِهِ ولقائِهِ، ونيلُ الأغراضِ، ومَا لَمْ يخطُرْ علىٰ القلوبِ؛ مِنْ حُسنِ عطائِهِ؛ فوجبَ طاعتُهُ، وامتثالُ أمرِهِ - ولَوْ لَمْ يُعِدْ بعدَ الموتِ - حقٌّ لَازِمٌ فِي العقولِ؛ لموضعِ ملكِهِ والإعادةُ، وهٰذَا الخيرُ كُلُّهُ، مَعَ خلودِ الأبدِ؛ استرجاحٌ من فضلِهِ.

فالويلُ لِمَنْ لَمْ يَعِشْ مَعَهُ، وَلَمْ يَمْتَثِلْ أَمْرَهُ، وَلَمْ يعلمْ قَدْرَ نِعَمِهِ، والخسرانُ العظيمُ لِمَنْ آثَرَ خلافَهُ وتَجَافَىٰ عَنْ طاعتِهِ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي مخالفتِهِ إلا تعثُّرُ الأقدامِ فِي الدُّنيَا، العقوبةُ الدائمةُ بمخالفتِهِ، وأعظمُها إعراضُهُ.

نسألُ اللهَ ﷻ أنْ يجعلَنَا مِمَّنْ أقبلَ إليهِ، وقبِلَ منه، ولَمْ يُعرِضْ عَنْهُ، ولَمْ يعترِضْ عَلَيْهِ؛ إنَّهُ قريبٌ مُجيبٌ.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٢٤٤، ٤٧٧٩، ٤٧٨٠، ٧٤٩٨)، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة.

۞ فَصْلٌ ۞

وَا عَجَبًا! مِنْ عقلٍ يقوَى حتَّى يبلغَ إِلَى مرتبةِ إثباتِ الإِلهِ، وإصلاحِ أمرِ الدُّنيَا، وحفظِ البدنِ، والاحتيالِ فِي المعاشِ بصنُوفِ التصـرُّفِ، ثُمَّ يقهرُهُ الهوَى، فيقفُ مَعَ أخسِّ النقائِصِ!

وَا أَسَفًا! لجوهرٍ بِيعَ بغيرِ ثمنٍ، يَدْخُلُ إلىٰ هَذَا الكونِ، ويجلِي عليكَ عرائسَ الموجوداتِ، ويعرضُ الأرياحَ، ويُحرِّكُ للخدمةِ، ويُقربُ إِلَىٰ بابِ الملكِ، فيُصيرُّكَ مَيْلُكَ إلىٰ الهَوىٰ كالسَّاهِي، كأَنَّكَ لَا تدرِي مَا قِيلَ، فتخرجُ أقبحَ حالًا مِمَّا دَخَلْتَ.

أَتُرَىٰ لَوْ عرفتِ الجبالُ ما عرفتَ؟ أمَا تذكَّرَتْ؟ أَتُرَىٰ لو أَعَدْتَ النارَ للحديدِ بآداب، أف لمن لا يأنفُ مِن سبقِ حيوانٍ بهيمٍ لَهُ بالتأدُّبِ بمُضِيِّ النهارِ، وهمتُكَ جمعُ الحطامِ، ويذهبُ الليلُ علىٰ جفنكِ فِي المنامِ، وغايةُ أمرِكَ قضاءُ وطرٍ مِنْ شهوةٍ مَحَلَّ مصحفِ يَدَيْكَ، مَا لَكَ مَعَ قوَّامِ الليلِ بضاعةٌ، وَلَا لَكَ مَعَ الصوَّامِ تجارةٌ، ولَا فِي أهلِ المعرفةِ نصيبٌ!

وَا حَسْـرَتَا! عَلَىٰ مَيْتٍ وَهُوَ حَيٌّ، وعلىٰ دَفِينٍ وَهُوَ يَمْشِي عَلَىٰ وَجْهِ الأرضِ، وعلىٰ جمادٍ يتحرَّكُ!

فَصْلٌ

طَرِيقَتَانِ بُنِيَتَا عَلَى جُرُفٍ هَارٍ: الزُّهْدُ، وَالْقَصَصُ

فترَىٰ الزُّهَّادَ - لِقِلَّةِ عِلمِهِمْ - يبنونَ أُمورَهُمْ عَلَىٰ الأحاديثِ الضعافِ، والكذبِ، والتي لَا أصلَ لَهَا؛ فرُبَّمَا رأيتُ الزَّاهِدَ لَا يزيدُ علىٰ جبةٍ صُوفٍ، ويبنِي علىٰ حديثٍ يُرْوَىٰ: «**مَنْ تَرَكَ ثِيَابًا حِسَانًا خَيَّرَهُ اللهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ**»[1]، وَهَذَا حديثُ لَا يثبتُ، فلو بلغَهُ أنَّ النبيَّ ﷺ لَبِسَ حُلَّةً اشتُرِيَتْ لَهُ بسبعةٍ وعشرينَ بعيرًا، وأنَّ تميمَ الداريَّ اشتَرَىٰ حُلَّةً بألفِ دِرْهَمٍ، كانَ يُصَلِّي فِيهَا بالليلِ؛ لقَصرَ عَنْ هَذَا.

ورُبَّما قَالَ: فَقَدْ لبسَ عُمَرَ إزارًا فِيهِ اثنَىٰ عشرَ رقعةً، وكان عليٌّ يلبسُ الثوبَ الدونَ، ويقولُ: هُوَ أجدرُ أنْ يقتديَ بِيَ المرءُ المسلمُ.

فهذا لَا ينكَرُ، غير أنَّ القومَ فعلُوا هَذَا فِي بعضِ الأوقاتِ، وكان هَذَا عادةً لَهُمْ، لَا يستأمرونَ بها، ولا تعجزُ أبدانُهم عنْ حملِهَا لكونِهَا عادةً؛ لأَنَّهُمْ قصدُوا مَا يقصدُهُ المتزهِّدُ من لبسِ ثوبٍ يصيرُ بِهِ شهرةً، ويعجزُ بدنُهُ عن حملِهِ.

ولَا أُنكِرُ القنوعَ باليسيرِ، وإِنَّمَا أَنْهَىٰ عن شهرةٍ، أَوْ حملٍ علىٰ النفسِ مَا تعجزُ عنهُ.

ورُبَّمَا رأيتُ الزَّاهِدَ لَا يأكلُ تفاحةً، ويقولُ: الدُّنيَا مذمومةٌ، فيحملُ علىٰ نفسِه مَا تعجزُ عنه، ويحرمُها قُوَاهَا، وقَدْ كَانَ رسولُ اللهِ ﷺ يأكلُ الحَلْوَىٰ والعسلَ[2]

---

(١) موضوع: أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٤٤) عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**من ترك زينة الدنيا ووضع ثيابًا حسنة تواضعًا لله ﷻ وابتغاء وجهه كان حقًّا علىٰ الله ﷻ أن يكسوه من عبقري الجنة في تخات الياقوت**».

(٢) صحيح: أخرج البخاري (٥٤٣١)، ومسلم (١٤٧٤) من حديث عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل.

والدجاجَ[١] وغيرَ ذلك.

وقَدْ كَانَ جماعةٌ مِمَّنْ يُتبَرَّكُ بِهِمْ مِنَ الزُّهادِ يحملونَ علىٰ أنفسِهم فوقَ الطاقةِ، كما رُوِّينا عَنْ فلانٍ، أنَّه بقيَ أربعينَ سنةً يشتهِي باذنجانةً، فلا يأكُل، ويقولُ: تركتُ هَذَا للهِ! وعَنْ فلانٍ، أنَّه بقيَ سبعينَ سنةً لَا يضعُ جنبَهُ الأرضَ! وعن فلانٍ، أنَّه نظرَ إلىٰ امرأةٍ، فلطمَ عينَ نفسِه فنفرتْ! وأشياءُ يُكرَهُ ذِكْرُهَا عن قومٍ ظَنُّنَا بِهِمْ حَسَنٌ؛ ولكنَّ الشرعَ لَا يُحابَىٰ فيه؛ هَؤُلَاءِ عصاةُ اللهِ تعالىٰ؛ بمنْعِهِمْ نفوسَهُمْ مَا يُصلِحُهَا، والِاضْطِجَاعَ والنَّوْمَ وغَيْرَ ذَلِكَ.

ثُمَّ قَدْ جُعلَ فِي النفسِ ميلٌ إلىٰ مَا يُصلِحُهَا، فتارةً تميلُ إلىٰ الحامضِ، وتارةً إلىٰ الحُلوِ؛ فهي أهدَىٰ إلىٰ مصالِحِهَا، فإذَا منعَهَا الإنسانُ ذَلِكَ؛ منعَها حقَّها، وقَدْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»[٢]، وهل سُمعَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ وأصحابه مثلُ هَذَا؟! وإنَّما قلَّ عِلْمُ أقوامٍ، فظنوا أنَّ فِي نفسِ التركِ قُربةً، وإنَّما القربةُ بتركِ مَا شُكَّ فِيهِ؛ لِشُبْهٍ، أو لِمَا يُخافُ عاقبَتُهُ؛ فَافْهَمْ هَذَا، ولا تَغْتَرِرْ بقولِ مُعَظَّمٍ فِي النفسِ مِنَ الزُّهَّادِ، قلَّ عِلْمُهُ.

والطريقةُ الثانيةُ: طريقةُ القُصَّاصِ؛ فإنَّهُم - لِقِلَّةِ علمِهِمْ - يَرْوُونَ الأحاديثَ الموضوعةَ، ويُفسدُونَ بِهَا قلوبَ الناسِ، ويُزينونَ أحوال الزهادِ، فيُخرجُونَهَا مخرجَ المدحِ، فترَىٰ العامِّيَّ يميلُ إلىٰ ذَلِكَ، فيفسدُ عَلَيْهِ بدنُهُ ونفسُه.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٣٨٥، ٥٥١٧)، ومسلم (١٦٤٩) من حديث أبي موسىٰ.

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (١٣٦٩)، وأحمد (٢٦٣٠٨) من حديث عائشة. والدارمي (٢١٦٩) من حديث سعد بن أبي وقاص. والترمذي (٢٤١٣)، وابن خزيمة (٢١٤٤) من حديث أبي جحيفة. وأحمد (٦٨٧٨) والحاكم (٦٩٠٠) من حديث عبد الله بن عمرو.

ورُبَّمَا قالُوا: مَنِ اشْتَرَىٰ شيئًا إلىٰ شهرٍ فَهُوَ طويلُ الأملِ! وينسونَ أنَّ شُعَيْبًا استأجرَ مُوسَىٰ عَشْرَ سِنِينَ. ويقولونَ: مَنْ قَالَ: هَذَا الطعامُ يَضرُّنِي فقدْ أشركَ! وينسونَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَا زَالَتْ أَكْلَةُ خَيْبَرَ تُعَادني، فَالآنَ حِينَ قَطَعَتْ أَبْهَرِي**»[1]. وينسونَ[2] مَنْ يجمعُ المالَ! وينسونَ مَا كانَ لطلحةَ والزبيرَ.

وشرحُ هَذَا يطولُ، إلَّا أنِّي أقولُ:

التحقيقُ فِي هَذَا: رفضُ فضولِ العيشِ الشاغلةِ عن الطاعةِ، المُورِثَةِ للعُجبِ، المُؤَثِّرَةِ فِي النظرِ والغفلةِ؛ فأمَّا حرمانُ النفسِ حُظُوظَهَا الَّتِي بِهَا يكونُ القوامُ؛ فليسَ مِنَ الشريعةِ فِي شيءٍ، وإنَّمَا هِيَ رَهْبَنَةٌ سَرَقَتْهَا طباعُ الزُّهَّادِ من عيسَىٰ عليه السلام، وليستْ مِن شريعتِنَا.

فإذا أردت تحقيقَ هَذَا؛ فتأمَّلْ علىٰ الرسولِ ﷺ، وعلىٰ صحابتِهِ، وانظرْ: هَلْ سمعتَ عَنْهُمْ بمثلِ مَا أَبْدَعَهُ الزُّهَّادُ من تقليلِ المطعمِ والاقتصادِ علىٰ حلفِ الخبزِ من غيرِ أُدْمٍ، وإنَّمَا حَدَثَتْ بِدَعٌ.

فإنْ قُلْتَ: فَقَدْ كانَ عُمَرُ لَا ينخلُ الدقيقَ!

قلتُ: هَذَا شيءٌ أَلِفَهُ القومُ، فَلَمْ يُؤَثِّرْ عِنْدَهُمْ، فإنْ كنتَ أَلِفْتَ الصوفَ بحيثُ لَا يُؤْذِيكَ؛ فَلَا أمنعكَ، إنَّما أَمنعُ مُترفًا يدخلُ فِي طريقةِ التزهدِ، فيحملُ علىٰ نفسِه مَا لَا يطيقُ، أو قاصًّا يُحرِّضُ الناسَ علىٰ مثلِ ذلك؛ ويبنيانِ جميعًا علىٰ أحاديثَ واهيةٍ، والصحيحُ مِنْهَا قليلٌ، ولَهُ فقهٌ ووجوهٌ.

نسألُ اللهَ عز وجل الفقهَ الَّذِي بِهِ يتخلَّصُ المشتبهُ، ويطَّلعُ علىٰ بواطنِ الأمورِ؛ بمَنِّهِ وكَرَمِهِ.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٤٢٨) من حديث عائشة بمعناه.

(٢) لعل صوابها: «ويذمون».

۞ فَصْلٌ ۞

تَأَمَّلْتُ وُقُوعَ الشَّدَائِدِ بالمُؤمِنِ، وَوَجْهَ الحِكْمَةِ فِي ذَلِكَ؛ فَوَجَدْتُ المُرَادَ إِقَامَةَ القَلْبِ عَلَى بَابِ الرَّبِّ ﷻ

فالشَّدائِدُ تُوجِبُ اللُّجْأَ والتضرُّعَ والِاسْتِعانةَ بالمُبتلِي، وَكُلَّمَا اشتدَتْ؛ زادَ اللُّجْأُ، وقَوِيَ الِانْقطاعَ إِلَيْهِ عمَّنْ سِوَاهُ، فَإِذَا كشفَ الشَّدَائِدَ أَوْجَبَ ذَلِكَ الكشفُ قِيَامَ القَلْبِ عَلَىٰ بَابِ الشُّكرِ.

وَلَوْلَا الشَّدَائِدُ مَا عُرِفَ أثرُ زوالِهَا؛ فَإِنَّ العَاقِبَةَ لَا يُعْلَمُ مِقدارُهَا إِلَّا عِنْدَ المرضِ، كَمَا قَالَ القائلُ:

وَلَوْلَا الهجرُ مَا حُمِدَ التَّدانِي

فبان بِهَذَا أَنَّ النِّعَمَ فِي الشَّدَائِدِ أَكْثَرُ مِنْهَا فِي السَّلَامَةِ؛ لِأَنَّ الطبعَ يَسْرحُ فِي تأديةِ السَّلَامَةِ غافِلًا عَنِ المُنعمِ، فإنْ ذَكَرَهُ فبقلبٍ غَافِلٍ، وَإِنْ شَكَرَهُ فَلَا عَنْ حُرْقَةٍ، وَالبَلَايَا تُزعِجُ إزعاجًا، والشكرُ عَلَىٰ زوالِهَا يُوجِبُ قِلَّةَ حُضورٍ وَإِخْلَاصِ حَمْدٍ، هَذَا مَعَ مَا يُدَّخرُ مِنَ الأَجْرِ عَلَىٰ البَلَاءِ للمُؤمِنِ.

فسُبْحَانَ مَنْ فِي طيِّ اعتسافِهِ إسعافُهُ، ونِعم الشَّيْء تُوجِبُ إقبالَ العَبْدِ عَلَىٰ معبودِهِ؛ فَإِذَنْ البَلَاءُ نِعَمٌ؛ فَافْهَمْ هَذَا، وَقَد زَالَ التأفُّفُ بالنوازلِ.

۞ فَصْلٌ ۞

وَ اعجبًا! مِمَّنْ يُعرِضُ بعقلِهِ الناقصِ عَلَى تَدْبِيرِ الحكيمِ التامِّ الحِكْمَةِ

إِذَا ثَبتَ أَنَّهُ مَالكٌ وحكيمٌ لم يبقَ للاعتراضِ عَلَيْه وَجهٌ، هَذَا لَوْ كَانَتْ قُوَىٰ العَقْلِ تُدرِكُ كُلَّ شَيْءٍ، وتعلَمُ وُجُوهَ الحِكْمَةِ فِي كُلِّ أمرٍ، فَكَيْفَ وَهُوَ قاصرٌ، لِذَلِكَ، يعجزُ عَن إدراكِ بَعْضِ المخلوقاتِ فيسلمُ، وَمَنْ هَذَا شَأْنُهُ فَكَيْفَ يَعْتَرِضُ عَلَىٰ الخالقِ؟!

اقبلْ نُصحِي، وَلَا تعترضْ عَلَيْه بِحَالٍ؛ إنْ شِئْتَ لِكَوْنِهِ مالكًا وحكيمًا، وَإِن شِئْتَ لِعجزِكَ عَنْ إدراكِ حِكمتِهِ.

هَذَا مُوسَىٰ؛ مَعَ عُلُوِّ قَدَرِه، خَفِيَ عَلَيْهِ مَقْصُودُ الخَضِرِ فِي أَفْعَالِهِ، فَقَامَ مُنكِرًا لِلحَالِ، فَلَمَّا بانتْ لَهُ المصَالِحُ فِي تِلْكَ الأَفْعَالِ سَكَنَ، وَقَدْ كَانَ الخَضِرُ فِي مَقامِ دونٍ، وَمُوسَىٰ فِي مَقَام كَمَالٍ؛ فاعتبرْ حالَكَ مَعَ الحَقِّ، فَالأَمْرُ عِنْدَكَ بِالعَكْسِ؛ لأنَّكَ فِي مَقَامِ نقصٍ؛ وَأَيُّ نقصٍ، وَهُوَ البريءُ مِنَ النقائِصِ.

أَوَلَا يَستحِي مَنْ يُسْلِمُ رُوحَهُ إِلَىٰ طبيبٍ نَصْرَانِيٍّ حكيمٍ، يتحكَّمُ فِي قطعِ جلدِهِ، وبغيتُهُ أَدْوِيَةٌ، يُخاطِرُ بنفسِهِ؛ تسليمًا لعلمِ ذَلِكَ وظَنِّهِ مِمَّا لَا يستسلِمُ لحُكمِ بارِئِهِ وخالقِهِ؛ لَقَد ناقضْتَ فِي فعلِكَ أقبحَ المناقضةِ.

واللهِ! لَوْ لَمْ يُطْلِعْ عَلَىٰ سرِّ تكليفٍ ونزولِ بَلَاءٍ قطُّ لَوَجَبَ التَّسْلِيمُ للمالِكِ الحكيمِ؛ إِمَّا لِكَوْنِهِ مَالكًا، أَوْ لِكَوْنِهِ لَا يعبثُ، فَكَيْفَ وَقَد أَعْلَمَنَا بوقوعِ الثوابِ عِنْدَ النوائبِ، وَمَا أخلانَا مِنْ عِوَضٍ عَنِ المفقودِ، وَلَا مِنْ جَزاءٍ عِنْدَ ألمٍ، وَقَد يَكُونُ البَلَاءُ عقابًا لذنبٍ، فيُنبِّهُنَا بالعقابِ عَلَىٰ التَّحْذِيرِ مِمَّا عاقَبَنَا عَلَيْهِ، والتخويفِ من عقابِ الآخِرَةِ عَلَيْهِ.

فمَنْ فَهِمَ مَا شرحتُهُ؛ سَكَنَ للأقدارِ سكونَ مُسْلِمٍ مُسَلِّمٍ.

۞ فَصْلٌ ۞

مَا أَكْثَرَ مَنْ يَغْلَطُ فِي الأُصُولِ

يَقُولُ القَائِلُ: لَوِ انتفَىٰ الكَلَامُ ثَبتَ ضِدُّهُ، وَهُوَ الخَرَسُ، وَهَذَا إِنَّمَا يَكُونُ فِي المُدركَاتِ وأَهْلِ التَّأْلِيفِ، فَمَا لَيْسَ يُؤلَّفُ فَلَا يُثْبَتُ لَهُ الشَّيْءُ؛ لامتناعِ ضِدِّهِ.

وَيقُولُ القَائِلُ: اللهُ سُبْحَانَهُ فِي السماءِ وَعِلْمُهُ فِي الْأَرْضِ.

وَيُرِيدُ: أَنَّ ذاتَهُ فِي السماءِ عَلَىٰ مَا يعقلُ هُوَ، فماذا يصنعُ بِالعِلْمِ؟ وَالعِلْمُ صِفَةٌ لَا تُفارِقُ العَالِمَ؟! أفتَرَاهُ يَعْنِي أنَّ نفسَ عِلْمِهِ فِي الْأَرْضِ! كَلَّا، وَإِنَّمَا المَعْنَىٰ أَنَّ عِلْمَهِ مُحيطٌ بمَنْ فِي الْأَرْضِ، فَقدْ أَوْجَبَ الدَّلِيلُ تَأْوِيلَ أَحَدِ اللفظَيْنِ؛ فَإِنَّ أمرَ اللَّفْظِ الثَّانِي عَلَىٰ مَا جَاءَ فِي القُرْآنِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦] لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يردُّ عَلَيْهِ، وَإِنْ فَهِمَ مِنْهُ مَا يفهمُ مِنَ الأجسامِ فَذَاكَ مُحَالٌ فِي حقِّ الإلَهِ.

فالمنتحلُ مِنْ هَذَا: أَنَّهُ يَنْبَغِي للعاقِلِ أَنْ يُمِرَّ الآيَاتِ وَالأَحَادِيثَ كَمَا جَاءَتْ، وَلَا يفهمُ مِنْهَا مَا يفهمُ مِنْ صِفَاتِ المؤلَّفينَ المَخْلُوقِينِ؛ فَذَاكَ مُحالٌ عَلَىٰ الخَالِقِ.

۞ فَصْلٌ ۞

مِنْ قُوَّةِ الغفلةِ النَّظَرُ إِلَى صُورَةِ الأَشْيَاءِ لَا إِلَى معانِيهَا

ترىٰ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا خُضْرةَ الربيعِ انبسطُوا فِي الفَرَحِ واللَّذَّاتِ، وقلَّ مَنْ ينظرُ إِلَىٰ قُدْرَةِ المُخْرِجِ للرطبِ مِنَ اليابسِ، وللغضِّ مِنَ المَيْتِ، وَأَنْ يتذكَّرَ بِذَلِكَ بَعَثَ الموتَىٰ بعدَ التَّلَفِ، كَمَا بَعَثَ الأغصانَ بعدَ المحلِّ، أو أَنْ يسْتَدلَّ بِذَلِكَ عَلَىٰ مَا وعدَ بِهِ من نعيمِ الجنَّةِ، فيشتاقُ، أَو يفهمَ خِطَابَ الكُلِّ بلسانِ الإِشَارَةِ إِلَىٰ الإِشَارَةِ

إِلَىٰ الصانعِ، بَل تُراهُمْ يشربونَ الخمورَ، ويستعملونَ الزهورَ، فيُقابلونَ النعمَ بعصيانِ المنعمِ.

وَكَذَلِكَ عِنْدَ زِيَادَةِ دِجْلَةَ، لَا يذكرونَ بِهِ الطوفانَ، ولا يخافون الغرَقَ، بَل يَركَبونَ السفنَ للمعاصِي واللَّهوِ، وَكَذَلِكَ يخرجونَ إِلَىٰ المقابرِ فِي ليالِي الجُمَعِ، فيجتمعُونَ عَلَىٰ الحَرَامِ؛ مِنْ إطلاقِ الأبصارِ فِيمَا لَا يَجُوزُ، وَهُوَ قُعودٌ عَلَىٰ الرِّمَمِ؛ ناسينَ مَنْ تَحْتَهُمْ مِنَ الأُمَمِ.

وَهَذَا مِنْ أَعْجَبِ العجائِبِ! فَإِنَّهُمْ لَوْ كَانَ لعبُهُمْ فِي ليالِي الجُمَعِ عَلَىٰ شاطِئِ المَاءِ، أَوْ عِنْدَ الحضرِ كَانَ أقربَ حَالَةً، وَإِنَّمَا يجعلُونَ ذَلِكَ بَيْنَ القُبُورِ، وَلَا يخطرُ عَلَىٰ بالِ أَحَدٍ مِنْهُمْ ذكرُ بالٍ، ولا أَنَّهُ عِنْدَ القَوْمِ بعدَ ليالٍ، فَيَا لَهَا مِنْ غفلةٍ، مَا أكثفَهَا!

وَكَذَلِكَ يفعلُون فِي لَيْلَةِ نِصْفِ شعبانَ، فيخرجُونَ بِحُجَّةِ الزِّيَارَةِ للقبورِ، فيجرِي كُلُّ قبيحٍ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، فَهَؤُلاَءِ فِي صورةِ الأَيَّامِ، ومعانِي الأنعامِ.

وَكَذَلِكَ يحبسُونَ الطُّيُورَ لطيبِ النَّعَمِ، وَذَلِكَ بسفهٍ وبطرٍ، مُرادُهُمْ سماعُ أصواتِهَا، وَلَوْ فَهِمُوا أَنَّ تِلْكَ الأصواتَ نياحةٌ عَلَىٰ فَقدِ الفراخِ والأوكارِ؛ لَكَانُوا إِلَىٰ البكاءِ أقربَ مِنْهُمْ إِلَىٰ الفَرَحِ.

وَلَقَدْ فَهِمَ هَذَا بَعْضُ المُتيقِّظِينَ، فَقَالَ شعرًا:

أَقُولُ وَقَدْ نَاحَتْ بِقُرْبِي جَمَاعَةٌ ** أَيَا جَارَتِي مَا فَاقَ حَالُكِ حَالِي

تَعَالَيْ تَرَيْ رُوحًا لَدَيَّ ضَعِيفَةً ** تُرَدَّدُ فِي جِسْمٍ يُعَذَّبُ بَالِي

وَقَدْ مَنَعَ أصحابُنا مِنْ حبسِ الأطيارِ، وسمَّوْهُ سفهًا، قَالُوا: يكفِي ذبحُها لِحَاجَةِ الأكلِ، وما يَحْسُنُ بعاقلٍ أَنْ يُعَذِّبَ حيوانًا مِثْلَهُ ليلتذَّ هُوَ!

وَقَدْ حَكَىٰ بعض مَنْ يُكثِرُ ممارسةَ الصَّيْدِ، أَنَّ بَعْضَ الكلابِ إِذَا رَأَىٰ الغزالَ قَدْ قصرَ لمرضٍ، ورَىٰ عَنْهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ، وَهَذَا خُلُقٌ مليحٌ، وَهُوَ تركُ الميلِ عَلَىٰ الضَّعِيفِ، فَبُؤسًا للآدميِّ القاسِي القَلْبِ، كَيْفَ يَرَىٰ المحنَ تتابعُ عَلَىٰ جِنْسِهِ، وَهُوَ يعينُ عَلَيْهِمْ؟!

وَمَنِ أعجبِ مَا يُرَىٰ فِي حابسِ الأطيارِ: الَّذِينَ يلعبُونَ بالسمَّانِيِّ؛ فَإِنَّه لَا صوتَ طَيِّب، وَلَا لونَ مُسْتَحْسَن، وهم يبذلُونَ الرغائبَ فِيهَا.

وَلَقَدْ غَفُلَ أَكْثَرُ النَّاسِ عَنِ الْآخِرَةِ، فصارُوا فِي معانِي البَهَائِمِ.

فَصْلٌ

أَكْثَرُ النَّاسِ مَعَ الهَوَى المُجَرَّدِ، وَإِنْ قِيلَ لَا يلتفتُونَ فِي مُوَافَقَتِهِ إِلَى عقلٍ وَلَا إِلَى شرعٍ

وَمَنْ أعجبِ الأَحْوَالِ: خُرُوجُ قَوْمٍ إِلَىٰ قتلِ السَّبُعِ يتعرَّضُونَ لَهُ، فَرُبَّمَا قتلَ بَعْضَهُمْ، ورُبَّمَا جرحَهُ، والمقصودُ إِظْهَارُ الشجاعةِ، وَلَا يُبالِي بالمخاطرةِ بالرُّوحِ، وَلَا بعقابِ الآخِرَةِ، ولو وُفِّقَ لجاهدَ هَوَاهُ، غير أَنَّ جِهَادَ الهَوَىٰ خفيٌّ عَنِ النَّاسِ، فَهَذَا لَا يعرفُ غيرَ الرياءِ.

وَمَنْ ذَلِكَ: مَشْيُ السُّعاةِ فِي أشدِّ أَيَّامِ الحرِّ، يَمْشِي أَحَدُهُمْ ثَلَاثِينَ فرسخًا كُلَّ يَوْم، فيُخاطِرُ بالروحِ لِيُقَالَ: مَا أجودَ مَا فعلتَ، ولينالَ عرضًا من الدُّنْيَا، فَهُوَ يتركُ الصَّلَاةَ ويخاطرُ بالنفسِ لِذَلِكَ! كَمَا قِيلَ:

وَكُلُّ امْرِءٍ قاتِلُ نَفْسَهُ ** عَلَىٰ أَنْ يُقَالُ لَهُ: إِنَّهُ!

وأعجبُ مِنْهُ: الَّذِينَ يتعصَّبُونَ لَهُ، ويُنفقونَ عَلَيْهِ الأَمْوَالَ، ويخرجونَ فِي نِصْفِ النَّهَارِ، فيمشونَ الفرسخَ والفرسخينِ لتلقِّيهِ، وَقَدْ قَالَ لِي بَعْضُهم: ادعُ اللهَ لَهُ، فقلتُ: يَا قليلَ العَقْلِ، هَذَا لَا يَخْلُو مِنْ أَن يَكُونَ كَافِرًا - وَهُوَ مذهبُ أَحْمَدَ -؛ لتركِ الصَّلَاةِ، أَوْ فاسقًا - عِنْدَ باقِي الفُقَهَاءِ -؛ لتركِ الصَّلَاةِ، ومخاطرتِه بالروحِ فِيمَا قَدْ نُهِيَ عَنْهُ، فعصبيَّتُكُمْ لَهُ تُعينُهُ عَلَىٰ هَذَا، وَمَنْ أعانَ عَاصِيًا فَقدْ عَصَىٰ.

فَقَالَ بَعْضُهم: هَذَا مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَغَدًا يَعْدُو سَاعِيَ الرَّافِضَةِ. قُلْتُ: مَا يَزِيدُ أَنْ يَكُونَ مِنَّا مَنْ يعْصِي اللهَ، وَلَا خَيْرَ فيمنْ يَرْضَىٰ بإضافةِ هَذَا إِلَيْهِ، وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ أعرضُوا عَنْ مِثْلِ هَذَا مَا سَعَىٰ أَحَدٌ، فسعيُهُم فِي المَعْصِيَةِ لَهُ يُوجِبُ سَعْيَهُ، وحملَهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ.

وَلَقَدْ تكلَّمْتُ بمثلِ هَذَا مرَّةً، فَقَالَ لِي بَعْضُ إِخْوَانِي: قَدْ شاعَ هَذَا عَنْكَ، فَلَا تَفْعَلْ، فَإِنَّ أَكْثَرَ صدورِ أَهْلِ الدُّنْيَا متعصِّبُونَ لَهُمْ، فَرُبَّمَا قَالُوا: هَذَا يَوْمُنَا. فقلتُ: وا عجبًا! لزمانٍ لَا يُمْكِنُ فِيهِ قَوْلُ الحَقِّ.

وَكَمْ قَدْ سَمِعْتُ غيرَ شَيْخٍ كَبِيرِ السِّنِّ مِمَّنْ يتزيَّا بِالعِلْمِ، أَنَّهُ يتعصَّبُ لَهُ، ويدعُوا لَهُ بالسلامةِ، وَلَكِنَّهُم شيوخُ الأسنانِ، صبيانُ العُقُولِ، مَا أَدَّبتهُمُ الشَّرِيعَةُ، وَلَا ذاقوا طعمَ الإِسْلَامِ، إِنَّمَا هُمْ مَعَ العَادَاتِ، نَسْأَلُ اللهَ ﷻ أَنْ يجعلَنَا مسلمينَ.

۞ فَصْلٌ ۞

رَأَيْتُ كَثِيرًا مِنَ الخلقِ يُحرِّفُونَ فِي أُمورِهِم المحتقرةِ جريًا مَعَ العَادَةِ

فَإِنِّي حضرتُ يَوْمًا فِي أملاكٍ، فقُدِّمَتْ أطباقٌ فِيهَا حلاوةٌ، فرأيتُ خلقًا يَمْلَؤونَ أكمامَهُمْ مِنْهَا، فقلتُ: هَذَا حَرَامٌ محضٌ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا قُدِّمَ ليُؤكلَ لَا ليُحملَ، وَهَذَا تحريفٌ فِيمَا يُظَنُّ حقيرًا وَهُوَ عَظِيمٌ؛ فَإِنَّ الآخذينَ لَو قِيلَ لأحدِهم: خذْ فوطةَ رجلٍ من رأسة[1] بابِ الدارِ، قَالَ: لَا يحلُّ لِي، وَلَا أفعلُ، وَإِنَّمَا جرَوْا فِي هَذَا مَعَ العَادَاتِ، وَلَكِنَّهَا عاداتُ الجهلةِ.

والعجبُ أَنَّ النَّاسَ قَدِ اخْتَلَفُوا: هَلْ يَجُوزُ أكلُ الطعامِ إِذَا قُدِّمَ، أَوْ يفْتَقرُ الأكلُ إِلَىٰ إذنٍ مِنْ صَاحِبِ الطعامِ، وَقَالُوا: لَا يَجُوزُ للآكِلِ أَنْ يرميَ إِلَىٰ السنورِ لقمةً، وَكَانَ ابْنُ سيرينَ إِذَا دُعِيَ إِلَىٰ طعامٍ شربَ شربةَ سويقٍ قبلَ أَنْ يحضرَ، وَيَقُولُ: أَكْرَهُ أَن أجعلَ سدَّ جوعي عَلَىٰ طعامِ النَّاسِ.

وَهَذه التحريفاتُ تقدحُ فِي الدِّينِ.

وَمَنْ هَذَا الجِنْسِ: أَنْ يَرَىٰ الرَّجُلُ قومًا قَدْ دُعُوا، فيدخلُ مَعَهُم، وَلَم يُؤذنْ لَهُ؛ فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دعاهُ رجلٌ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فتبعَهُم رجلٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَذَا قَدْ تبِعَنَا، فَإِنْ شِئْتَ أَذِنْتَ لَهُ، وَإِلَّا رَجَعَ»[2].

وَهَذَا الَّذِي ذَكَرْتُهُ أنموذجُ مَا يُفْعَلُ مِنَ الأَشْيَاءِ، وَهِيَ عَظِيمَةٌ فِي بَابِ المَعَاصِي.

---

(١) كذا.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٠٨١، ٢٤٥٦، ٥٤٣٤، ٥٤٦١) ومسلم (٥٣٥٧، ٥٣٥٨، ٥٣٦٠) من حديث أبي مسعود الأنصاري.

۞ فَصْلٌ ۞

يَنْبَغِي للعاقلِ أَنْ لَا يعملَ شَيْئًا بفورتِهِ؛ لَا فِي الغَضَبِ، وَلَا فِي الرِّضَا، وَلَا فِي حَالٍ أَصْلًا يُوجبها فَوْرَةٌ

فَإِنَّ الإِنْسَانَ لَا يَكُونُ حِينَئِذٍ معتدلَ الطبعِ، وَلَا يَرَىٰ الصَّوَابَ حِينَئِذٍ، وَلَا يبينُ لَهُ، ويكونُ مِثْلَ العاشقِ لَا يهتدِي إِلَىٰ الرأيِ الأصوبِ، فَإِذَا سَلَا عرفَ قُبْحَ مَا كَانَ فِيهِ.

وَكَذَلِكَ الغضبانُ؛ فَإِنَّه قدْ يَفْعَل بفورةِ الغَضَبِ مَا يندمُ عَلَيْه أشدَّ الندم، وَكَذَلِكَ السكرانُ، وَكَذَلِكَ الطروبُ؛ فَإِنَّه قَدْ يهبُ ويُعطي ثُمَّ يندمُ، وَهَاهُنَا يجبُ[1] الوَرَع فِي حَقِّ المُعْطَىٰ؛ فَإِنَّهُ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يتورَّعَ حِينَئِذٍ عَنِ الأخذِ؛ لِأَنَّ المعطِيَ مغلوبٌ، وَإِذَا أفاقَ ندمَ.

وَمِنْ هَاهُنَا قِيلَ: لَا يقضِي القاضي بَين اثْنَيْنِ وَهُوَ غضبانُ[2]، وَذَلِكَ لخروجِه عَنْ حدِّ الاعتدالِ، وَهَكَذَا مَن رَأَىٰ رأيًا لسببٍ اقتضاهُ؛ فَإِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يحيلَ فكرَهُ فِيمَا رآهُ فِي أَحْوَالِهِ المختلفةِ؛ ليحكمَ فِيهِ بالأصوبِ عِنْدَ اعتدالِ مِزَاجِهِ.

وَلَوْلَا هَذَا الَّذِي قلتُهُ، مَا وجبَ[3] خيارُ المجلسِ؛ فَإِنَّ الإِنْسَانَ قَدْ يُعْجِبُهُ الشَّيْءُ فيُسرُّ بِهِ، وَقَدْ يُخرجُ المالكُ بالبيعِ ملكَهُ عَن يدِه، وَلَا يتحايلُ السَّلْو عَنْهُ، فَإِذَا تيقَّنَ خروجُهُ من يدِه طلبَه، وَقَد يبذلُ المشتري - لقوَّةِ رغبتِه فِي الشَّيْء - فَوْقَ

---

(١) مشتبهة بالأصلين.

(٢) **هو حديث صحيح**: أخرجه من حديث أبي بكرة: أحمد (٢٠٣٧٩)، والبخاري (٧١٥٨)، ومسلم (١٧١٧)، وأبو داود (٣٥٨٩)، والترمذي (١٣٣٤) وقال: حسن صحيح. والنسائي (٥٤٠٦).

(٣) مشتبهة بالأصلين.

ثمنِه، فَإِذَا سكنَ لهيبُ الرغبةِ نَدِمَ؛ فجعلَ الشَّرْعُ قدرَ المجلسِ وقتًا للنظرِ والتأمُّلِ. وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الحكماءِ: «خَمِيرُ الرَّأْيِ خَيرٌ مِن فَطِيرِهِ».

وَكَذَلِكَ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وَذَلِكَ يُفِيدُ أَشياءَ:

مِنْهَا: أَنْ يسكنَ العازِمُ عَلَىٰ الشَّيْءِ بفورةِ العَزْمِ إِلَىٰ أَنْ يمضيَ زَمَانُ المشاورةِ.

وَمِنْهَا: أَنَّهُ رُبَّمَا رَأَىٰ الشَّيْءَ بعينِ هَوَاهُ، والمشاورُ لَا يَرَىٰ ذَلِكَ، فيحكمُ المشاورُ بالأصوبِ؛ لفقدِ هَوَاهُ فِي المشاورةِ، بِخِلَافِ صَاحِبِهَا.

وَمِنْهَا: أَنَّ إِجْمَاعَ الآرَاءِ يُوجِبُ اسْتِنْبَاطَ الفكرِ، فتخلُوا كُلُّ فكرةٍ بِمَا عِنْدَهَا؛ فيبينُ الصَّوَابُ، وَالحَقُّ إِذَا ظهرَ لم يَخْفَ.

فينحلُّ مِنْ هَذَا: أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِمَنْ عَرَضَ لَهُ أمرٌ لسببٍ أَنْ يقدمَ دونَ أَن يتوقَّفَ لينظرَ فِي عواقبِ الأُمُورِ بعدَ سكونِ فورةِ الهَوَىٰ. وَالسَّلَامِ.

❁ فَصْل ❁

سَمِعْتُ عَنْ بَعْضِ القدماءِ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا وَلِي أخوكَ وِلَايَةً فاقنعْ مِنْهُ بالسلامةِ»، فبحثتُ عَنِ السَّبَبِ

فَإِذَا بِهِ: أَنَّ الغَالِبَ فِي ذِي الوِلَايَةِ أَنْ يتكبَّرَ بِهَا عَلَىٰ أَخيهِ، فَلَا يصلُحُ لَهُ أَنْ يطلبَ مِنْهُ مَا كَانَ فِي حَالِ المشاورةِ، والرياسةُ سُكرٌ، حَتَّىٰ إِنَّ خُمَارَهَا يَبْقَىٰ فِي الإِنْسَانِ بعدَ العطلةِ، فَرُبَّمَا بَقِيَ الأَوْلَادُ، فَيُرِيدُ ابْنُ الوزيرِ الَّذِي قَدْ مَاتَ أَبُوهُ أَنْ يُعامَلَ بِمَا كَانَ يُعامَلُ بِهِ أَبُوهُ، [وُيريدُ مَن كَانَ وَزِيرًا ثُمَّ صُرف أن يُعامَلَ بما كانَ يُعامَلُ بهِ] وَهُوَ وزيرٌ، وَهَذَا كُلُّهُ أثرُ خُمَارِ الوِلَايَةِ، فَيَنْبَغِي أَنْ يتجنَّبَ صَاحِبُ الوِلَايَةِ؛ لِأَنَّ الغَالِبَ فِيهِم مَا ذَكَرْتُهُ.

وَإِنَّمَا يحملُهُمْ عَلَىٰ التكبر تَعْظِيمُ الرئاسةِ عِنْدَهُمْ، وَإِنَّمَا عَظُمَتْ عِنْدَهم لِعِظَمِ قدرِ الدُّنْيَا فِي أعينِهِم، وَأَمَّا طُلَّابُ الآخِرَةِ فَهَمُّهُمْ أَعْلَىٰ مِنْ هَذَا، فَلَا تُغيِّرُهم ولاياتُ الدُّنْيَا، بَلْ رُبَّمَا زادُوا بِهَا تواضعًا، وَإِنَّمَا هَمُّهُمْ فِي مَرَاتِبِ الآخِرَةِ، عَلَيْهَا يُنَافِسُونَ.

وَمِن هَذَا مَا رُوِيَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ، أَنَّهُ لـمَّا وَلِيَ الخلافةَ سمعَ امْرَأَةً تَقُولُ: كَانَ هَذَا يجلبُ لَنَا، والآنَ مَا يَفْعَلُ، فَقَالَ: بَلْ أَفعلُ، وخرجَ إِلَىٰ السوقِ بعدَ الخلافةِ ليتَّجِرَ.

وَكَانَ عُمَر بْن الخَطَّابِ ﷺ يدخلُ إِلَىٰ بَيْتِ عجوزٍ يكنسُ مَا تَحْتَهَا. وَكَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ يحملُ الحطبَ عَلَىٰ رَأْسِه وَهُوَ أميرُ المَدِينَةِ، وَيقُولُ: طرِّقُوا لأميرِكُمْ. وَكَانَ عُمَرُ بْنُ عبدِ العزيزِ يَقُولُ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ: إِذَا رأيتَنِي قَدْ رغبتُ عَنِ الحَقِّ فخُذْ بِتلْبابِي، وهُزَّنِي، وقلْ: مَا تصنعُ يَا عُمَرُ؟!

فَهَؤُلاَءِ هَانَتِ الدُّنْيَا عِنْدَهم، فلمْ يَعْظُمْ وِلَايتُهَا لَدَيْهِمْ.

وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «مَنْ تكَبَّرَ فِي وِلَايتِهِ ذَلَّ؛ لِأَنَّ الوِلَايَةَ أكبرُ مِنْهُ، وَمَنْ تَوَاضَعَ دلَّ عَلَىٰ أَنَّهُ أَكْبَرُ مِنْ الوِلَايَةِ».

۞ فَصْل ۞

كُنْتُ أتعرَّضُ بأسبابٍ لتحصيلِ أَشْيَاءَ، فيخيبُ الظَّنُّ فِيهَا، وَلَا يَحْصُلُ المَقْصُودُ، ثُمَّ يحصلُ المُرَادُ فِي أوقاتٍ مِنْ غَيْرِ تعرُّضٍ لسببِهِ

فتفكَّرتُ فِي ذَلِكَ، وَإِذَا بِهِ من جِنْسِ قَوْلِ يُوسُفَ: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]، وَقَدْ جَاءَ فِي التَّفْسِيرِ أَنَّهُ قَدْ قِيلَ لَهُ: لِمَ ذكرتَ مخلوقًا ونسيتنِي؟! وَكَذَلِكَ قَوْلُ لوطٍ: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾ [هود: ٨٠].

وَلَوْ شُرِحَ مَا جَرَىٰ لِي فِي عمرِي [فِي ذلكَ] لطالَ.

فنافرَتْنِي نَفْسِي يَوْمًا، وَقَالَتْ: إنَّ التعرُّضَ بالأسبابِ من جُمْلَةِ الشَّرْعِ، وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ لَبِسَ الدِّرعَ[1]، وَقَد قَالَ ﷻ: ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النساء: ٧١]، فَمَا وَجهُ لومِ النَّفْسِ إِذَا وقفتْ مَعَ المَشْرُوعِ؟!

فقلتُ لَهَا: لَا تتهرَّجِي عَلَيَّ؛ فَإِنِّي لَا أُنكِرُ عَلَيْكِ التعرُّضَ بالأسبابِ، وَإِنَّمَا أنكرُ عَلَيْكِ المساكنةَ للأسبابِ، وَمَنِ هاهنا تدهين، وَكَأَنَّ القَلْبَ يُعرِضُ عَنِ المُسَبِّبِ بمقدارِ رُكُونِهِ إِلَىٰ السَّبَبِ، فتقعُ العقوبةُ.

وعلامةُ ذَلِكَ: أَنَّهُ لَا يسعىٰ الإِنْسَانُ فِي السَّبَبِ بمقدارِ المَشْرُوعِ؛ لِأَنَّ المَشْرُوعَ فِي الأَسْبَابِ مُلَابَسَتُهَا صُورَةً، فأَمَّا مُساكنَتُها بِالقَلْبِ فَعَلَىٰ ذَلِكَ تقعُ المؤاخذةُ، وَلَا يُؤَاخَذُ إِلَّا المتيقِّظُ، كَمَا أوخِذَ يُوسُفُ.

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (١٥٨١٣)، وأبو داود (٢٥٩٠)، وابن ماجه (٢٨٠٦)، والترمذي، في «الشمائل» (١١١) من حديث السائب بن يزيد.

عَلَىٰ أَنَّنِي تلمَّحتُ لنفسِي معنًىٰ أدقَّ مِنْ هَذَا، وَهُوَ أَنَّهُ ﷻ يُرِيدُ أَنْ يدلنِي عَلَيْه بِفَضْلِ دَلِيلٍ، وَأَنْ يكشفَ بَيْنِي وبينه كُلَّ حِجابٍ، فيُرِينِي - مَعَ اجتهادِي فِي الأسبابِ - بُطلانَهَا؛ لأرىٰ المُسَبِّبَ وَحْدَهُ، فكَانَ يَقُولُ لِي: يَا عبدِي! أَما رأيتَنِي قَدْ دلَّلْتُ عَلَيَّ بِكُلِّ دَلِيلٍ، حَتَّىٰ إِنَّنِي أَخلُقُ أَشْرفَ المَخْلُوقَاتِ مِنْ أَحْسَنِ الموادِّ، وَمَنْ يخلقُ مثلكَ مِنْ تلكَ القطرةِ المهينةِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ التلمحُ لقدرتِه والتعرضُ لفضلِه، مَعَ البراءةِ مِنَ الميلِ إِلَىٰ الأَسْبَابِ، فَقَدْ علمت مَا جَرَىٰ للمتيقظِينَ عِنْدَ نظرِهم إِلَىٰ السَّبَبِ؛ ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾، ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [التوبة: ٢٥].

فسُبْحَانَ مَنْ دَلَّ عَلَيْهِ بِكُلِّ دَلِيلٍ، وأخرجَ الخواصَّ من جُمْلَةِ العَوَامِّ، فكشفَ الحُجُبَ، وقطعَ تأثيرَ الأَسْبَابِ، أبىٰ اللهُ أَن يرزقَ عَبْدَهُ المُؤْمِنَ إِلَّا مِنْ حَيْثُ لَا يحتسبُ.

فَإِذنْ؛ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الوُقُوفُ مَعَ الأَسْبَابِ لامْتِثَالِ أمرِ الشَّرْعِ، مِثْلُ أَنْ يتدرَّعَ فِي الحَرْبِ؛ لِقَوْلِه تَعَالَىٰ: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١]، ويسعَىٰ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، ويكونَ قَلْبُهُ مَعَ المُسَبِّبِ وَحْدَهُ، مِنْ غَيْرِ تلمُّحٍ للسَّبَبِ، فَإِنْ شَكَرَ السَّبَبَ فلأمرِ المُسَبِّبِ، كَمَا قَالَ: «**مَا نَفَعَنِي مالٌ كَمَالِ أَبِي بَكْرٍ**»(١).

وأنا أحكِي عَن نَفْسِي: قَلَّ أَنْ أميلَ إِلَىٰ سببٍ أرجُو بِهِ ردَّ شَيْءٍ إِلَّا وتخلَّفَ، ثُمَّ يأتينِي مقصودِي مِنْ غَيْرِ سببٍ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا مِنْ لطفِ الحَقِّ سُبْحَانَهُ، فَمَا أدرِي

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (٧٤٤٦، ٨٧٩٠)، الترمذي (٣٦٦١) وقال: حديث حسن. وابن ماجه (٩٤)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٨١١٠)، وابن حبان (٦٨٥٨) من حديث أبي هريرة.

عَلَىٰ أَيِّ النِّعْمَتَيْنِ أشكرُ: حِراستِي مِنَ الميلِ إِلَىٰ السَّبَبِ، أَو دَلالَتِي عَلَىٰ المُسَبِّبِ بعزلِ السَّبَبِ؟

جلَّ المُنْعِمُ علَيَّ بِمَا لَا أستأهِلُ، والمُعَلِّمُ لِي مَا لم أكنْ أعلمُ.

۞ فَصْلٌ ۞

مِنَ الخَطَإِ العَظِيمِ افتتاحُ[١] المُحدِّثِ بِمَا حصَّلَ من أجزاءِ الحَدِيثِ مِنْ غَيْرِ اشتغالٍ بالفقهِ

فإِنَّنِي رَأَيْتُ بَعْضَ مشايخِ الحَدِيثِ يَرَىٰ عِنْده فِي الأجزاءِ أَحَادِيثَ، فيقولُ بِهَا ويعملُ، وَهِيَ إِمَّا مَنْسُوخَةٌ أَو متروكةٌ أَو جَاءَتْ بِمَعْنًىٰ أَو ضَعِيفَةُ النقلِ.

وَلَقَدْ قلتُ مرَّةً لِبَعْضِ أَصْحَابِ الحَدِيثِ: يُكْرَهُ أَنْ يُجْهَرَ بالقراءةِ فِي تطوُّعِ النَّهارِ. فَقَالَ: فَفِي حَدِيثِ أَبِي قتادةَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُسمِعُنا الآيَةَ بالنهارِ أَحْيانًا[٢]. فقُلتُ: سُبْحَانَ اللهِ! مَا أَقَلَّ هَذَا الفقهَ! فَإِنَّ قَوْلَهُ: «أَحْيَانًا» دَلِيلٌ عَلَىٰ الإخفاتِ، وَإِنَّمَا العَادَةُ قَدْ جرتْ أَنَّ المصلِّيَ خلفَ الإِمَامِ يُسمَعُ مِنْهُ التعوُّذُ والاستعاذَةُ وَالآيَةُ، وَهَذَا كُلُّه لَا يُسَمَّىٰ جهرًا.

قَالَ: فَمَا بلغنَا حَدِيثٌ يُوجِبُ حظرَ هَذَا الَّذِي تَقُولُ. قُلْتُ: وَهَذَا أَيْضًا قِلَّةُ فَهْمٍ؛ فَإِنِّي مَا قُلْتُ: إِنَّهُ مَحْظُورٌ، وَإِنَّمَا قلتُ: مَكْرُوهٌ؛ لِأَنَّهُ قَدْ جَاءَ فِي الحَدِيثِ:

---

(١) كذا! ولعلها: «اقتناع».

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٧٥٩، ٧٦٢، ٧٧٦، ٧٧٨، ٧٧٩)، ومسلم (٩٤٥).

«**صَلَاةُ النَّهَارِ عَجْمَاءُ**»(١)، فمَنْ لم يُفرِّقْ بَينَ مَحْظُورٍ ومكروهٍ؛ فإِنَّهُ لَا يفهمُ دينَهُ.

واعلمْ؛ أَنَّ المُحدِّثينَ فِي أَوَّلِ الزَّمَانِ كَانُوا إِلَىٰ الفقهِ أقربَ، فكَانَ الحَدِيثُ حُجَّةً لَهُمْ عَلَىٰ فِقْهِهِمْ، وَجَاءَ أَقْوَامٌ هِمَّتُهُمُ الرِّوَايَةُ لَا الدرايةُ، فترَاهُمْ يَحْتَجُّونَ بِمَا يَرْوُونَ فِي الحَدِيثِ، وَإِنْ كَان مخالفًا لِلإِجْمَاعِ.

وبالعكسِ مِنْ هَؤُلَاءِ؛ فُقَهَاءُ زَمَانِنَا؛ فَإِنَّ هِمَّتَهُمُ الجدلُ، وهُمْ مِن مَعْرِفَةِ الفِقْهِ بِمَعْزَلٍ، وَجِنايَتُهُمْ عَلَىٰ الإِسْلَامِ أَيْضًا عَظِيمَةٌ، فكَمْ قَدْ خَالَفُوا فِي فتوَاهُمْ بالقياسِ أحاديثَ صحاحًا.

واعلمْ؛ أَنَّ الحَدِيثَ كالأساسِ، وَالفِقْهَ كالبناءِ، وَلَا بناءَ بِلَا أساسٍ، وَلَا ينفعُ أَسَاسٌ بِلَا بناءٍ.

وَفِي النَّاسِ مَنْ يجْمَعُ بَينَ الشيئينِ، إِلَّا أَنَّهُ يفوتُهُ المَقْصُودُ مِنْهُمَا، وَهُوَ تَحْقِيقُ العَمَلِ بِهِمَا، فيظنُّ أَنَّ المُرَادَ العلمُ، ويغفلُ عَنْ معاملةِ الحَقِّ ﷻ [بِهِ، ورُبَّمَا سامحَ نَفْسَهُ فِي الهفواتِ؛ ظَنًّا مِنْهُ أَنَّ مَا عِنْدَهُ مِنَ العِلْمِ يحميهِ، وَلَا يدرِي أَنَّ الحجةَ] عَلَيْه آكدُ، وَأَنَّ عقابَهُ فِي الذُّنُوبِ أَكْثَرُ، قَالَ ﷻ: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠]، وَقَالَ: [أفمن يعلم كمن لا يعلم].

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ توفيقًا للجمعِ بَين العلمِ وَالعَمَلِ، ونورًا فِي أبصارِ بصائرِنَا يهدِينَا إِلَىٰ المُرَادِ مِنَ العِلْمِ وَالعَمَلِ؛ إِنَّهُ قَرِيبٌ مجيبٌ.

---

(١) **لا أصل له**: قال النووي في «المجموع» (٣/ ٣٨٩): «هذا الحديث باطل غريب لا أصل له». وقال أيضًا (٣/ ٤٦): «قال الدارقطني وغيره من الحفاظ: هذا ليس من كلام النبي ﷺ يرو عنه، وإنما هو قول بعض الفقهاء. قال الشيخ أبو حامد: وسألت عنه أبا الحسن الدارقطني، فقال: لا أعرفه عن النبي ﷺ صحيحًا ولا فاسدًا».

فصل

من قِلَّةِ الحزمِ النَّظَرُ فِي الحَالِ، لَا فِي المآلِ

فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الخلقِ ينظرونَ إِلَىٰ عاجلِ الهَوَىٰ، وَلَا يلتفتونَ إِلَىٰ مَا تُخشَىٰ عواقبُه، وَذَلِكَ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِن مطعمٍ ومشربٍ ومنكحٍ وَغيرِ ذَلِكَ.

وَمَنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ يركبُونَ البَحْرَ، فيرونَ بأعينِ الآمالِ الأرباحَ، ويأنسونَ بخشبِ المركبِ، وينسونَ الغَرَقَ، وَلَا يتفكَّرُونَ فِي أَنَّ فِعلَهُم ذَلِكَ مخاطرةٌ بالرُّوحِ الَّتِي لها ترادُ الدُّنْيَا.

وكثيرُ مِنَ النَّاسِ يكسبُ قوتَ يَوْمٍ بِيَوْمٍ، وينسَىٰ أَنَّهُ قَدْ يمرضُ فيُقطعُ عَنِ الكسبِ، ويحتاجُ إِلَىٰ نفقةٍ، وَأَنَّهُ قَدْ تحترقُ دارُهُ، وَقَد يغلُو السعرُ، وَقَد تجرِي أَشْيَاءُ لَيْسَتْ فِي الحِسَابِ، وَقَدْ يطرقُه الكِبَرُ، وَيَحْتَاجُ إِلَىٰ مَنْ يخدُمُهُ ويذهبُ زَمَانُ قوَّتِهِ وكسبِهِ.

فالعاقلُ مَن نظرَ فِي العَوَاقِبِ، وأعدَّ فِي السَّلَامَةِ مَا يصلحُ للعطبِ، وَفِي القُوَّةِ مَا يصلحُ للضعفِ.

وممَّا وُصِفَ بِهِ عُمَرُ بْنُ الخطَّابِ رضي الله عنه، أَنَّهُ كَانَ قَدْ أعدَّ لِلْأُمُورِ أقرانَها، فمن قدرَ عَلَىٰ كَثْرَةِ الكسبِ أعدَّ مِنْهَا وادخرَ، وَمَنْ كَانَ كسبُهُ قَلِيلًا فيدَّخِرُ قَلِيلًا مِنْهُ؛ فَإِنَّ القَلِيل مَعَ الزَّمَانِ يجتمعُ، فَإِنْ تُدَهِيهِ نائبةٌ وجدت عِدَّة.

وأهمُّ مِنْ جَمِيعِ هَذَا: أَنْ يدَّخِرَ لنفسِهِ عملًا صَالِحًا يجدُه وَقْتَ حاجتِهِ، وَأَنْ يتهيَّأَ لطارقٍ لَا بُدَّ مِنْهُ، وَلَا يدرِي مَتَىٰ يفجؤُهُ.

وَقَد قِيلَ فِي جُمْلَةِ مَا ذُكِرَ:

يُمَثِّلُ ذُو اللُّبِّ فِي نَفْسِهِ ** مَصَائِبَهُ قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَا

فَـإِنْ نَزَلَـتْ بَغْتَـةً لَـمْ تَرُعْـهُ ** لَمَّـا كَـانَ فِـي نَفْـسِهِ مَـثَلَا
وَذُو الجَهْـلِ يَـأْمَنُ أَيَّامَـهُ ** وَنَـسِيَ مَـصَارِعَ مَـنْ قَـدْ خَـلَا
فَـإِذَا تُدْهِيـهِ صُـرُوفُ الزَّمَـانِ ** بِـبَعْضِ مَـصَائِبِهَا أَعْـوَلَا
وَلَـوْ قَـدَّمَ الْحَـزْمَ فِـي أَمْـرِهِ ** لَعَلَّمَـهُ الـصَّبْرُ حُـسْنَ الْـبَلَا

❁ فَصْلٌ ❁

يَنْبَغِي للعاقِلِ أَنْ يعلمَ أَنَّ النكاحَ يَأْخُذُ خَالِصَ مَا فِي البدنِ، وَيَتْرُكُ أكدَرَهُ

وَكَمْ قَدْ رأينَا مِمَّنْ دامَ عَلَيْهِ فأسرعَ تلفُهُ، وانحلَّتْ قُوَاهُ، فَيَنْبَغِي للعاقلِ أَنْ يُقَلِّلَ مِنْهُ، لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ فِعْلُهُ يُضعِفُهُ، مِثْلُ أَنْ يَكُونَ باردَ المِزَاجِ أَو يابسَهُ فَإِيَّاهُ وَإِيَّاهُ.

وأَوْلَىٰ مَنْ تَرَكَهُ مَنْ كَبُرَتْ سِنُّهُ، إِلَّا أَنَّهُ ينتفعُ بالتركِ مَنْ أمعنَ فِي السنِّ، كَمَا ينتفعُ الشابُّ إِذَا تركَ، إِنَّمَا يَنْبَغِي حفظُ الجوهرِ مِنَ الأَصْلِ، فمَنْ وُفِّقَ لِلصَّوَابِ أذخرَ جوهرًا فِي شبابِهِ، وَمِنْ زَمَانِ بُلُوغِهِ، ورفقَ بنفسِهِ، ونظرَ فِي مِزَاجِهِ، فَإِن كَانَ حارًّا رطبًا فعلَ فِي أوقاتٍ، وَإِن كَانَ باردًا يابسًا تَجَافَىٰ ذَلِكَ أَصْلًا، فَإِذَا اضطُرَّ فعلَ ذَلِكَ فِي كُلِّ شَهْرٍ مرَّةً، فيُبقِي خميرةَ الجوهرِ من الشَّبَابِ، فينفعُهُ فِي الكبرِ، وَكُلَّمَا ارتفعَ السنُّ قلَّلَ، فَإِذَا بلغَ الأَرْبَعِينَ فَإِن كَانَ مِزَاجُهُ حارًّا رطبًا، وَهُوَ تائقٌ إِلَىٰ ذَلِكَ فعلَهُ فِي كُلِّ أسبوعٍ مرَّةً، وَإِن لَمْ يَكُنْ مِزَاجُهُ صَالِحًا فَفِي كُلِّ شهرٍ أَو شهرينِ، وَكُلَّمَا علتِ السِّنُّ أبعدَ، فَإِذَا بلغَ السِّتِّينَ فَيَنْبَغِي لَهُ هجرُهُ، إِلَّا أَنَّ يَكُون سليمَ المِزَاج فيُباعدُ مَا بَيْنَ الفعلينِ مَا اسْتَطَاعَ.

فَهَذِهِ وَصِيَّةٌ لِمَنْ يُؤْثِرُ بقاءَ نَفْسِهِ وقوتِهِ وشبابِهِ، وَيُرِيدُ تَأْخِيرَ الشيبِ عَنْهُ، ويختارُ سلامةَ العَقْلِ والذهنِ.

فأمَّا إِذَا أمعنَ الإِنْسَانُ فِي ذَلِكَ، واستنفدَ جوهرَ القُوَّةِ فِي زَمَانِ الصِّبَا والشبابِ، ثُمَّ تركَ فِي حَالِ الشيخوخةِ؛ فَإِنَّهُ وَإِنْ أثرَ قَلِيلًا إِلَّا أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ خَالِصُ الجوهرِ، وأَساسَ الحائطِ.

وَهَذَا الَّذِي ذَكَرْتهُ أَصْلٌ قَدْ أغفلَهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، غلبتْ عَلَىٰ ألبابِهِمْ شَهَوَاتُهُمْ فأرتْهُمْ مَا لَا يرينَ[١].

فَاللهَ اللهَ! مِنْ تركِ التلمُّحِ للعواقبِ، والميلِ إِلَىٰ عاجلِ الهَوَىٰ، خصوصًا إِذَا علمتَ مضرَّتَهُ فِي العَاقِبَةِ.

وَلَو كَانَتِ الدُّنْيَا موضوعةً للالتذاذِ؛ لم يبخسْ مِنْهَا حظُّ الآدميِّ الشريفِ القدرِ؛ فَإِنَّ الجملَ يأكلُ أَكْثَرَ مِنْهُ، والعصفورَ يجامعُ أَكْثَرَ مِنْهُ وَإِنَّمَا الدُّنْيَا بلاغٌ.

وَلَا يصلحُ الوطءُ إِلَّا لِأَمْرَيْنِ: أحدُهُمَا: طَلَبُ الولدِ؛ وَلِذَلِكَ وُضِعَ. والثاني: دفعُ المَاءِ المحتقنِ إِذَا أكثَرَ، [فإنَّه إِذَا أكثرَ آذَىٰ، فأَمَّا مَن اتَّخذَهُ عَادَةً لنفسِ الالْتِذَاذِ، ولمْ يَنْظر فِي جِنَايَاتِهِ..... فِي صَلاحِ] أذَىٰ.

---

(١) كذا.

❁ فَصْلٌ ❁

مِنَ الغلطِ استرسالُ الإِنْسَانِ إِلَى صديقِه أَوْ خادمِه أَوِ امرأَتِهِ؛ بإطلاعِهِ عَلَى أَسْرَارِهِ، وَمَا يخاف عَاقِبَتَهُ إن ظهرَ

فَإِنَّهُ قَدْ يتغيَّرُ الصديقُ والخادمُ والزوجةُ، فيكُونونَ أعرفَ بِمَوْضِعِ المضرَّةِ؛ لكثرةِ المخالطةِ. كَمَا قَالَ القائلُ:

احْـــذَرْ عَـــدُوَّكَ مَـــرَّةً ** واحْـــذَرْ صَـــدِيقَكَ أَلْـــفَ مَـــرَّهْ

فَلَرُبَّمَـــا انْقَلَـــبَ الـــصَّدِيـ ** ـــقُ فكَـــانَ أَعْلَـــمَ بِالمَـــضَرَّهْ

فمَنْ جرتْ لَهُ هفوةٌ مِنْ هَذَا وفَاتَ؛ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يبارزَ هَؤُلَاءِ بِالعَدَاوَةِ، بَل يَنْبَغِي أَنْ يُدارِيَهم ويجافِي نَفْسَه مَا فعلُوا فِي حَقِّهِ، فَإِنْ وَجدَ مضربًا يَوْمًا؛ إِمَّا فعَلَ أَو ترَكَ، وَإِن لم يجدْ صبرَ ولامَ نَفْسَه عَلَىٰ تفريطِه الأَوَّلِ.

ومِن قِلَّةِ الحزمِ مُبارَزَةُ العَدُوِّ بِمَا فِي النَّفْسِ؛ فَإِنَّه تحريضٌ لَهُ عَلَىٰ أَخذِ آلَاتِ الحَرْبِ، ورُبَّمَا غَفَلَ الإِنْسَانُ فأصيبتْ مقاتِلُهُ، وأكثرُ النَّاسِ عَلَىٰ هَذَا يُبالغونَ فِي عَدَاوَةِ الأَعْدَاءِ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُم يَستشفُونَ بِمَا يَفعلُونَ وَيَقُولُونَ، وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُم يُؤَجِّجُونَ نارًا وينامُونَ، ورُبَّمَا أَثَّرَ فِعلُهم ذَلِكَ أضعافَ مَا نفرُوا مِنْهُ.

وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُحتقرَ العَدُوُّ وَإِن صَغُرَ؛ فَإِنَّ البَقَّةَ تُؤْذِي الفِيلَ، وَإِنَّمَا الحازمُ يجتهدُ فِي إخفاءِ سِرِّهِ، ويعاملُ النَّاسَ بظاهرِهِ؛ معاملةً مجاملةً، حَتَّىٰ إِذَا وَقَعَ التبايُنُ يَوْمًا لم يجدِ المُعادِي هفوةً يتمسَّكُ بِهَا، فَإِنْ فرطَ أَمرٌ مِن امْرِئٍ وَفَاتَ، فَطَرِيقُ الحزمِ أَنْ لَا يُظْهِرَ لِلْعَدِوِّ مَا فِي النَّفْسِ، بَلْ إِنَّ قويَ الحزمُ زِيدَ فِي إكرامِ العَدوِّ، ويقصدُ بِذَلِكَ كفَّ كفِّه عَنِ الانبساطِ فِي البَاطِنِ، بِل الِاحْتِيَالُ عَلَىٰ الأَذَىٰ وحبسُ لِسَانِهِ عَن كَلِمَةٍ، ورُبَّمَا أعادَهُ الإِحْسَانُ صديقًا.

فَإِنْ قدرَ الإنْسَانُ عَلَىٰ الصَّفْحِ والعفوِ؛ فَهُوَ مرتبةُ الرِّجَالِ، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «إِنِّي لَأَستحي أَنْ يَكُونَ ذَنبُ مُذْنِبٍ أَعْظَمَ مِنْ عَفْوِي، أَوْ خطأُ خاطِئٍ لَا يبلغُهُ حِلْمِي».

وَلَا آمرُ الإِنْسَانَ - مَعَ عفوهِ - أَنْ يعودَ صداقةَ ذَلِكَ الشَّخْصِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ عرفَهُ بالتجريبِ، وَإِنَّمَا يَصْفَحُ فِي الظَّاهِرِ، ويستفيدُ بِمَا جَرَىٰ عرفانَ مَا لَمْ يَكُنْ يعرفُ.

وَإِن كَانَ الإِنْسَانُ لَا يقوىٰ عَلَىٰ الصفحِ صبرَ إِلَىٰ وَقْتِ إمكانِ المجازاةِ.

فأَمَّا المستعجلُ فِي مقابلةِ العَدوِّ؛ فمعلِّمٌ لَهُ كَيْفَ يُؤَدِّي، ومُنبِّهٌ لَهُ عَلَىٰ الِاحْتِيَالِ فِي الكيدِ، وَهَذَا كُلُّهُ يَبِينُ مقدارهُ بقدرِ قُوَّةِ العَقْلِ والذكاءِ والفطنةِ، وتلمُّحِ العَوَاقِبِ.

فَصْلٌ

لَيْسَ فِي البَلَايَا أَشَدُّ مِن ابتلاءِ العَقْلِ

وَعِنْده يَبِينُ الرَّجُلُ[1]، إِذَا نظرَ العَقْلُ فِي حِكْمَةِ الصانعِ، وحسنِ تدبيرِه فِي المَخْلُوقَاتِ أذعنَ لَهُ، وأقرَّ بِالحِكْمَةِ والقدرةِ، ثُمَّ يَرَىٰ آثَارَ عفوِهِ عنِ المذنبينَ، وحلمِهِ عَن الجاهلينَ، وإجابتِهِ للداعينَ، وسترِهِ للعاصينَ، فيعجبُ من سعةِ الحلمِ والعفوِ واللطفِ.

فَإِذَا تلمَّحَ النقضَ بعد الإبرامِ، وَالشِّدَّةَ بعدَ الرخاءِ، واستلابَ الأحبابِ، وإيلامَ الأطفالِ، وانعكاسَ الأغراضِ، وذبحَ الحيوانِ، وشدةَ النزعِ عَلَىٰ الموتَىٰ،

(١) في نسخة عند أ: «الرجال». وهي في ي

وبلاءَ الأجسامِ فِي اللُّحودِ، ثُمَّ يعلمُ بِالعَذَابِ الخَارِجِ عَنِ الوَصْفِ للعصاةِ، وبالخلودِ لِلْكُفَّارِ؛ كَادَ العَقْلُ يتزلزلُ، إِلَّا أَنْ يُثَبِّتَهُ خالقُه.

فيعلمُ أَنَّهُ كَانَ جوهرةً نفيسةً، إِلَّا أَنَّ فِيهَا تتلقَّىٰ مَعْرِفَةُ الحكمِ، وَلَيْسَ فِيهَا قُوَّةُ الاعتراضِ عَلَىٰ الفاطرِ؛ لِأَنَّهَا ذَرَّةٌ من جُمْلَةِ مواهبِهِ، ودُرَّةٌ مِنْ بَعْضِ بحارِه، فَإِنْ خاضَ العَقْلُ فِي التعليلِ قُهِرَ وغُلِبَ؛ لِأَنَّهُ يَقُولُ: قضَىٰ وعاقبَ، وبنَىٰ ونقضَ، وَقَدْ كَانَ قَادِرًا عَلَىٰ أَنْ لَا ينقضَ، وآلمَ وابتلَىٰ، وَهُوَ خبيرٌ بالعواقبِ، وكلَّفَ وَهُوَ غنيٌّ عَنِ التَّعَبُّدِ.

فالواجبُ عَلَىٰ العَقْلِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ هَذِهِ الأَشْيَاءَ تكليفيَّةٌ، ففرضٌ فِيهَا التَّسْلِيمُ؛ لعلمِهِ بنقصِ المخلوقِ بالإضافةِ إِلَىٰ الخالقِ، وعجزِهِ بالإضافةِ إِلَىٰ قُدرتِهِ، وجهلِهِ بالإضافةِ إِلَىٰ عِلْمِهِ.

فَإِنْ قنعَ بالتعليلِ الإقناعيِّ؛ قُلْنَا: ابتلَىٰ ليُثيبَ، وعاقبَ لِأَجلِ المُخَالَفَةِ.

وَإِنِ ارتفعَ فَهْمُهُ عَنْ هَذَا، فَقَالَ: قَدْ كَانَ قَادِرًا أَنْ يُثيبَ لَا بابتلاءٍ، وَأَنْ يعفوَ عَمَّنْ أخطأَ. قُلْنَا لَهُ: أصلحُ الأَشْيَاءِ لَكَ الاستطراحُ عَلَىٰ بَابِ التَّسْلِيمِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ ثبت حِكْمتُهُ بِمَا أَظْهَرَ من تَرْتِيبِ هَذَا العَالَـمِ وتدبيرِه، وَقَد ثَبتَ مُلكُهُ للكُلِّ، فَإِذَا كَانَ مالكًا، والعتبُ عَلَيْه مُسْتَحِيلٌ، وَقَدْ عجزتَ عَن تعليلِ أَفْعَالِهِ؛ وجبَ عَلَيْكَ الاستطراحُ، مُقِرًّا بالعجزِ عَنْ دَرْكِ مَا لَا تبلغُهُ.

وَلَيْسَ هَذَا بعجيبٍ؛ فَإِنَّ مُوسَىٰ عجزَ عَنْ إدراكِ تعليلِ فِعْلِ الخَضِرِ، والخضرُ أنزلُ مرتبةً مِنْهُ، فَكَيْفَ وَالأَمْرُ عِنْدَنَا بِالعَكْسِ.

فَهَذَا الأَصْلُ إِذَا حُقِّقَ تلمُّحُهُ زَالَ الاعتراضُ، وارتفعَ التأفُّفُ بالأقدارِ حَتَّىٰ فِي سَاعَةِ النزعِ.

۞ فَصْل ۞

مَا رَأَيْتُ أبردَ مَا قد لقيتِ الدُّنْيَا فِي عَيْنِي

مَا لَها وقْعَ أَصْلًا، فَلَا أكادُ أفرحُ فِيهَا؛ لَا بمالٍ، وَلَا بولدٍ، وَلَا ببلوغِ غَرضٍ، وَلَقَد أخلقَتْ عِنْدِي، فَصَارَتْ كالثوبِ البالِي، فلو تبسَّمتُ فِيهَا كَانَ عَن تكلُّفٍ شديدٍ، وَلَقَد كَانَتْ تُعجِبُنِي كَثِيرًا.

وَكَانَ أشهَىٰ الأشهَىٰ عِنْدِي دارٌ عَلَىٰ دجلةَ، وبستانٌ أُقيمُ فِيهِ، وراحةٌ أنالُها من قُرحةٍ، فَلَمَّا رَأَيْتُ الأقرانَ يرحلونَ، ويستلبونَ عَلَىٰ غفلةٍ مِنْهُمْ، حَتَّىٰ فرغت المحالُّ والدُّورُ مِمَّنْ كُنْتُ أعرفُهُ، وبقيتُ كالطائرِ بقىٰ فِي النخيلِ(١)، وَقَد نست(٢) أقرانه، يستوحشُ لهم تارةً، ويراقبُ فتحَ البَابِ أُخْرَىٰ، فلو أقامَ مَا طابَ لَهُ.

وَلَقَد هانَ عَلَيَّ الموتُ كَثِيرًا، وَإِنْ كَانَ لَا يهونُ؛ لأَنِّي رَأَيْتُ الساداتِ وَالإِخْوَانَ وَمَنْ كَانَ يطيبُ العيشُ بِهم وَمَعَهُمْ قَدْ ذَهَبُوا، وأَنَا عَلَىٰ ارتقابِ مَا أتاهُمْ صَباحَ مساءَ، وأرَىٰ معاولَ النقصِ تعملُ فِيَّ من دَاخِلٍ؛ بوهَنِ القُوَّةِ، وتغيُّرِ الحَالِ؛ فشهوةُ الطعامِ الَّتِي كَانَتْ شديدةً ضعُفتْ، وشهوةُ النكاحِ، وشهوةُ التقدُّمِ فِي الدُّنْيَا، واتفقَ - مَعَ هَذَا - قُوَّةُ العقْلِ، وحِدَّةُ النَّظَرِ، وجَوْدَةُ الفِكرِ، وانسلخَ زَمَانُ الصِّبَا المعوقِ عَن ذَلِكَ، الَّذِي كَانَ كالسِّرِّ الشغلِ صَاحِبه عَن فكرٍ.

فصرتُ لَو تلمَّحْتُ بستانًا كَأَنِّي أرىٰ المقابرَ، وَلَو رَأَيْتُ دجلةَ كَأَنِّي أرىٰ حفرةً؛ لِعلمِي بِأَنَّ الأَيَّامَ تدفعُنِي عَنْهَا، وَإِنَّمَا تُصانِعُنِي مصانعةً بغرورِ الأملِ، ثُمَّ الوحدةُ عَن القرناءِ والأحبابِ الَّذِينَ بِهم يصفُو العيشُ وتطيبُ الدُّنْيَا أَمَرُّ الكُلِّ،

---

(١) مشتبهة بالأصلين.

(٢) مشتبهة بالأصلين.

وَكُلَّمَا ذكرتُ مَن فارقَنِي من أهلِي وولدِي وأقرانِي وجيرانِي لم يطبْ لِي عيشٌ؛ تارةً لفراقِهِمْ، وتارةً لقربِ الرحيلِ إِلَيْهِم، ثُمَّ ألتفتُّ إِلَىٰ خيمةِ البَدَنِ، فأراها تُقَوَّضُ؛ فالضعفُ يقوىٰ، والقوةُ تذهبُ، فَمَا بقي للدنيا عِنْدِي وقعٌ أَصْلًا.

وَنَعُوذُ بِاللهِ من قُلُوبٍ منطمسةٍ؛ لَا ترىٰ مَا رَأَيْتُ، فَهِيَ آخرُ شوطٍ، وإليها[1] فِي أَوَّل قدم، وَمَا سبب ذَلِكَ إِلَّا قِلَّةُ العلمِ، وضعفُ الفكرِ، فَلَمَّا قويَ علمِي وفكرِي نغصًا عليَّ لذَّةَ الحيَاةِ، وأنَا أَسْأَلُ اللهَ ﷻ أَن يجعلَ إقبالِي عَلَىٰ منزلِ النقلةِ لأصلحَ مَا يصلحُ، وَأَن يُعيذَنِي من غفلةٍ تُؤدِّي إِلَىٰ وَرَاءَ؛ إِنَّهُ قَرِيبٌ مجيبٌ.

❁ فَصْلٌ ❁

يَنْبَغِي لِمَنْ رزقَه الله سُبْحَانَهُ يقظةً أَن يُبادرَ شبابَهُ قبلَ الهَرَمِ، وصحتَه قبلَ السَّقَمِ

والبدارُ فِي دارِ الشَّبَابِ عَلَىٰ أَضْرُبٍ:

مِنْهَا: مبادرةُ المُجَاهَدَةِ للهَوَىٰ؛ فَإِنَّ الشَّبَابَ شُعْبَةٌ من الجنونِ، فَحِينَئِذٍ يحصلُ فَضِيلَةُ: «عَجبَ ربُّكَ من شابٍّ لَيسَتْ لَهُ صبوةٌ»[2]، فأمَّا الشَّيْخُ فَلَيْسَ معدودًا في المُجَاهِدِينَ، إِنَّمَا غايتُه حفظُ الختمِ.

---

(١) مشتبهة بالأصلين.

(٢) موقوف: أخرجه أحمد (١٧٤٠٩)، والطبراني (١٧/ ٣٠٩)، وأبو يعلىٰ (١٧٤٩) من حديث عقبة بن عامر. قال الهيثمي (١٠/ ٢٧٠): إسناده حسن. كذا مع أنه من أفراد ابن لهيعة، وقد عده ابن عدي في مناكيره (٥/ ٢٤٢-٢٤٣)، وصحح أبو حاتم - كما في «العلل» لابنه (١٨٤٣) - أنه موقوف.

وَمِنْهَا: الاستكثارُ من الطَّاعَاتِ؛ فَإِنَّ المشيبَ مقيدٌ، فمثلُ الشابِّ كمثلِ المُقِيمِ بِمَكَّةَ، يَنْبَغِي أَنْ يستكثرَ من الطَّوافِ، فَإِذَا رحلَ لم يقدرْ عَلَيْهِ.

وَمِنْهَا: حفظُ المَالِ، وَالِاجْتِهَادُ فِي الكسبِ؛ ليحصلَ بِذَلِكَ الغِنَىٰ وَقْتَ الحَاجَةِ والضعفِ، فينفقُ عَلَىٰ نَفْسِه فِي كِبَرِهِ، ويرشُو مَن يخدمهُ مِنْ أَهْلِهِ؛ لِئَلَّا يعدُّوهُ كَلًّا.

وَقَد كَانَ الصَّاحِبُ بْنُ عبادٍ أخذَتْهُ علَّةُ القِيَامِ، فكَانَ يضعُ كُلَّمَا قَامَ مرَّةً فِي مَكَانِ قيامِهِ عَشرَةَ دنانيرَ، فيأخذُها الفَرَّاشُ الَّذِي يلي خدمَتُه؛ لِئَلَّا يَتبَرَّمَ بِهِ.

وَيَنْبَغِي للشابِّ أَن يحصلَ مِنَ العِلْمِ فِي زَمَانِ الشَّبَابِ مَا يرْتَاحُ إِلَيْهِ وَقْتَ الكبَرِ، وَأَنْ يدَّخِرَ من قوتِهِ مَا ينفقه فِي كبَرِه، وَذَلِكَ بتقليلِ النكاحِ؛ فَإِنَّه يحفظُ الأَصْلَ، ويمسكُ القُوَّةَ، ويبقي سوادَ الشعرِ.

فَإِذَا أحسَّ بالضعفِ وابتداءِ الكِبَرِ؛ فليعلمْ أَنَّهُ تدبر[١] مستعجلٌ، فليُقبلْ عَلَىٰ الآخِرَةِ، وليعملْ لَهَا مَا يمكنُ، فَإِذَا رَأَىٰ توقانًا إِلَىٰ النِّسَاءِ تمم حلله[٢] بالترغيبِ فِي المَالِ، ثُمَّ يحسنُ الخلقَ وتجويدَ اللباسِ، وَكَثْرَةَ النَّفَقَةِ والخضابِ، وَمَنْ حفظَ نَفْسَهُ فِي الشَّبَابِ بمراعاةِ الأَسْبَابِ فِي بقاءِ سوادِ الشعرِ؛ بقيَ لَهُ سوادُه كَثِيرًا.

وأبلغُ مَا حفظَ قِلَّةُ الجِمَاعِ، وأكل القَلايا المُنَشَّفات، وهجرُ المُبَلْغماتِ كالسمكِ واللبنِ، والادهانُ بدهنِ الشُّونيزِ والزيتِ ودهنِ الآسِ، وَمَنْ طلَىٰ شعرَهُ فِي كُلِّ أَرْبَعِ أَيَّامٍ بالقطرانِ محضًا ثُمَّ صبرَ عَلَيْه سِتَّ ساعاتٍ، وغسلَهُ فِي الحمامِ، بقيَ لَهُ سوادُ شعرِهِ مَا عاشَ، فَإِنْ غلبَ الشيبُ استعملَ الخضابَ.

---

(١) مشتبهة بالأصلين.

(٢) مشتبهة بالأصلين.

وليجتهدْ فِي تحسينِ أخلاقِه مَعَ المَرْأَةِ؛ فَقد أَنْبَأَنَا أَحْمَدُ بْنُ الحسينِ بْنِ البنا، قَالَ: أَنْبَأَنَا القاضِي أَبُو يعلَىٰ مُحَمَّدُ بْنُ الحسينِ، قَالَ: كَانَ ابْنُ الرفاءِ القارئُ قبيحَ الخَلْقِ، وآثارُ الجدريِّ فِي وَجْهِهِ، فابتاعَ جاريةً ليتسرَّىٰ بِهَا، فظهرَ مِنْهَا البُغْضُ، وَلَم تُمَكِّنْه من نفسِها، فشكَىٰ ذَلِكَ إِلَىٰ بَعْضِ أصدقائِهِ، فَقَالَ لَهُ: إِنَّهَا ظَهَرتْ عَلَىٰ أقبحِ مَا فِيكَ، وَهُوَ وجهُكَ، وخفيَ عَلَيْهَا أَحْسَنُ مَا فِيكَ، وَهُوَ صَوْتُك، فَإِذَا كَانَ الليلُ فَدَعْهَا، واصعدْ عَلَىٰ سطحِ داركَ، واقرأْ وُجَوِّدِ، ففعلَ، فضجت السطوح بالدُّعَاءِ لَهُ، والاستعاذةِ، فأصغتْ إِلَىٰ تلاوتِه، فعملت فِي قلبِهَا، فأكبتْ عَلَىٰ قدمِهِ تُقبِّلُهُمَا، وجعلتْ تتودَّدُ إِلَيْهِ.

فَصْل

كَانَت أَعْمَالُ الصَّالِحِينَ كُلُّهَا فِي ليلِ الكتمِ فَصَارَتْ أَعْمَالُ زَمَانِنَا فِي نَهارِ الرياءِ

أَكْثَرُهُمْ - إِنْ صدقَ - فلِيَرَاهُ النَّاسُ، حَتَّىٰ إِنَّ مَنْ يُخرِجُ الزَّكَاةَ يحتالُ فِي إخراجِ مَا يُخرِجُهُ.

بلغنِي أَنَّ فَقِيرًا بَعَثَ إِلَيْهِ غنيٌّ، فَلَمَّا دخلَ عَلَيْه قَالَ لَهُ: إِنَّ عليَّ زَكَاةً، وَمَا مَعِي ذَهَبٌ، أفتأخذُ عُروضًا؟ قَالَ: نعمْ. فأخرجَ لَهُ منديلًا وحلفَ أَنَّهُ باعَ أخاهُ بِعِشْرِينَ دينارٍ، ثُمَّ قَالَ: أتأخذُهُ بِعِشْرِينَ دينارًا؟ قَالَ: نعمْ، فَلَمَّا ذَهَبَ ليخرجَ صاحَ بِهِ، وَقَالَ: لَا شَكَّ أَنَّكَ تبيعُهُ! فَقَالَ: نعمْ، قَالَ: فبعنِي إِيَّاهُ، فَقَالَ: خُذْ، فَقَالَ: بِخَمْسَةِ دنانيرَ، فرماهُ عَلَيْهِ الفَقِيرُ وَمَضَىٰ!

فَصْل

لَا يَعْمَلُ لِلنَّاسِ إِلَّا من عَظُمَ قدرُهُمْ عِنْدَهُ، وقلَّ فِي عينِهِ نظرُ الحَقِّ إِلَيْهِ

فَهُوَ يتصنَّعُ لَهُم مَا لَا يعملُهُ فِي طَاعَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ، وَإِنَّمَا يُتَصَنَّعُ لمُعظَّمٍ.

اعتبر هَذَا فِي الحيوانِ؛ فَإِنَّ الهِرَّةَ إِذَا خاصمتْ كلبًا نفشتْ جلدَها، وعظَّمتْ نفسَها؛ تُقوِّي بِذَلِكَ ضعفَ جأشِهَا، فأمَّا السَّبُعُ فَإِنَّه يفترسُ، وَمَا يُغيِّرُ احتقارًا للفريسةِ، وبُعدًا مِنَ الحَاجَةِ إِلَىٰ التصنُّعِ.

فَصْل

قَدْ كفانَا كَلَامُ السَّلَفِ المُجرِّبينَ، فمَنْ لم يرضَ أَن يقتدِي بِهِمْ [وَجدَ غَرب] (١) خلافِهِ، وَقَد كَانُوا أعرفَ بالأحوالِ

وَذَلِكَ أَنَّهُم نَهَوْا عَن مقاربةِ السلاطينِ وَالأُمَرَاءِ، وَقَد عُرِفَتْ فِي الشربِ الأَوَّلِ رِجَالٌ جماعةٌ، كَانَ عُمَرُ بْنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يدعُوهُم إِلَىٰ العَمَلِ مَعَهُ فينفرُونَ، مَعَ عِلمِهِمْ أَنَّهُ لَا يُرِيدُ إِلَّا العَدْلَ، وَكَذَلِكَ قَالَ لَهُ أُوَيْسٌ حِينَ قَالَ: مَنْ يَأْخُذُ الخلافةَ بِمَا فِيهَا، فَقَالَ: مَنْ سلبَ اللهُ أنفَهُ.

وَقَد عُرِفَ نفورُ سَعِيدِ بْنِ المُسَيِّبِ عَنْ عبدِ المَلِكِ، وامتناعُ عطاءِ بْنِ أَبِي رَباحٍ وطاووسَ مِن أَخْذِ أَمْوَالِهِمْ، وهربُ سفيانَ، وَمَا جَرَىٰ لأحمدَ حِينَ أَكرمَهُ المتوكِّلُ، فحلفَ أَنْ لَا يُحدِّثَ لِئَلَّا يَبْقَىٰ رهينةً عِنْدَهم.

---

(١) مشتبهة بالأصلين.

وَمَا نفرَ القَوْمُ جزافًا، إِنَّمَا كَانَ للنفورِ أسبابٌ:

مِنْهَا: أَنَّ الطبعَ لَا يملكُ، والميلَ إِلَىٰ الدُّنْيَا فِي جِبلَّةِ النُّفُوسِ، فَإِذَا خالطَهُمْ الإِنْسَانُ احتقرَ عيشَهُ، وأحبَّ مَا هم فِيهِ، فتحرَّكَ همُّه لطلبِ الفضولِ.

وَمِنْهَا: أَنَّهُ إِذَا خالطَهُم سكتَ عَن إنكارِ منكرٍ يَرَاهُ عِنْدَهم.

وَمِنْهَا: ميلُ القُلُوبِ إِلَيْهِمْ؛ لمَوْضِعِ إحسانِهم.

وَقَد رُوِّينَا عَنْ بلالِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ، أَنَّهُ بَعَثَ إِلَىٰ مَالكِ بْنِ دينارٍ مالًا، فأخذَهُ، واشترَىٰ بِهِ رقابًا، فأعتقَها، فَجَاءَ إِلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ واسعٍ، فَقَالَ: قبلتَ مِنْ هَذَا الظَّالِمِ؟! فَقَالَ: سلْ أَصْحابِي. فَقَالُوا: إِنَّهُ اشترَىٰ بِهَا رقابًا فأعتقَها. فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ واسعٍ: أُنشِدُكَ اللهَ، هَل قَلبُكَ اليَوْمَ لَهُ كَمَا كَانَ قبلَ أَن تقبلَ؟ فَقَالَ: لَا. ثُمَّ قَالَ مَالكُ بْنُ دينارٍ: إِنَّمَا يُعبدُ اللهُ مِثْلَ مُحَمَّدِ بْنِ واسعٍ، لَا مِثْلَ الحمارِ مَالكِ بْنِ دينارٍ.

وَكذلكَ قَالَ سفيانُ: مَا أخشَىٰ إِلَّا مِن إكرامِهم لِي.

والقلبُ ضَعيفٌ، وبعيدٌ صلاحُ القَوْمِ، وَمَا قربَ المتقربُ إِلَيْهِم، وَقَدْ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: لَو دعوكَ لتقرأَ عَلَيْهِم ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] فَلَا تَفْعَلْ.

وَمِنَ الغلطِ قَوْلُ الداخلِ عَلَيْهِمْ: إِنَّمَا أَعِظُهم؛ فَأَشْفَعُ فِي مَظْلُومٍ. فَهُوَ - وَإِن خلَّصَ شخصًا ابْتِدَاءً يعرقلُ نَفْسَه، وَالخُرُوجُ إِلَىٰ القُرىٰ بستعلي من أهلِها أَسْلمُ من الأخذِ مِنْهُمْ؛ لِمَا بيَّنَّا، وَلأَنَّ خبيثاتِهم مَعْرُوفَةٌ، وعَسْفُهم للخلقِ، ثُمَّ يستخدمونَ العَالِمِ، وَيَطْلُبُونَ مِنْهُ الترَدُّدَ إِلَيْهِم، فَمَا ينالُ من دُنياهُم شَيْئًا إِلَّا وَقَدْ أخذُوا من دينِه أَكْثَرَ.

وَلَقَدْ رأينَا جَمَاعَةً تأوَّلُوا، وحملَهُمُ الفقرُ عَلَىٰ مخالطتِهِمْ، فَمِنْهُم مَن هَلَكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ تغيَّرَ دينُهُ، وَلَقَد رأينَا مَنِ اعتزلَهُمْ مَا فاتَهُ رِزْقٌ، بَل عاشَ بلذةٍ للقناعةِ

وَعزِّ التَّصوُّنِ، ورُبَّمَا نالَ مِنْهُمْ - مَعَ انقطاعٍ عَنْهُم - أَكْثَرَ مِمَّا ينالُ المترددُ إِلَيْهِم. وَقَد قَالَ الرشيدُ: جئنَا لمالكِ بْنِ أنسٍ فانتفعنَا بعلمِه، وجاءَنا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ فلم ننتفعْ بِهِ. وَقَدْ عرفتَ قِصَّةَ الفُضَيلِ مَعَ الرَّشيدِ.

ثُمَّ بقدرِ ضيقِ الرِّزْقِ مَعَ البعدِ عَنْهُم؛ أَفَلَسْنَا نَعْلَمُ أَنَّهُ خَيْرُ الدِّينِ، وَأَنَّ الرِّزْقَ المقدَّرَ لَا يتغيَّرُ، فحِفظُ الدِّينِ أَوْلَىٰ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. وَالسَّلَامُ.

فَصْلٌ

يَنْبَغِي للمُؤمِنِ أَن يتفقَّدَ إِيمَانَهُ عِند نُزُولِ البَلَايَا والآفاتِ

كَمَا يتفقَّدُ حائِطَهُ المائلَ يَوْمَ المطرِ، وجذعَ سَقْفِه المكسورَ عِنْدَ هبوبِ العواصفِ، وَإِنَّ المُؤْمِنِينَ يمشُونَ عِنْدَ العَاقِبَةِ عَلَىٰ جادَّةِ الِاسْتِقَامَةِ، فَإِذَا هبَّتْ زعازعُ البَلَاءِ اختلطتِ الجوادُ.

فليحذرِ المُؤْمِنُ أَنْ يُخدشَ وَإِيمَانُه فِي تِلْكَ الحُرُوبِ، فَرُبَّمَا وَقَعَتْ [...][1] فزعزعتْ إِيمَانَه، فَمَتَىٰ أحسَّ بشيءٍ يزعزعُ صاحَ بالنفسِ: وَيْلَكِ، إِنَّ الإلهَ مَالكٌ وحكيمٌ، وعالِمٌ بِالمصَالِحِ، ومُجازٍ عَلَىٰ الصَّبرِ، وَأَشَدُّ الشَّدَائِدِ عِنْدَ نُزُول الموتِ ومفارقةِ الدُّنْيَا، ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

---

(١) مشتبهة بالأصلين صورتها: «قتلة».

۞ فَصْلٌ ۞

تأمَّلتُ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ: «فِرَاشٌ لِلرَّجُلِ، وَفِرَاشٌ لِلْمَرْأَةِ، وَفِرَاشٌ لِلْمَضِيفِ»(١)، فرأيتُه يُنَبِّهُ عَلَى حِكْمَةٍ، ورأيتُ أَكْثَرَ السلاطينِ قَدْ وَقَعُوا بِهِ

فَإِنَّ الآدميَّ كُلَّهُ عورةٌ، فَإِذَا نَامَ الزَّوجانِ لم يُؤمَنْ مِنْ وُجُودِ مَا يَكُونُ سَبَبًا فِي النفورِ، وَلِهَذَا قَالَتْ عَائِشَةُ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهَا: «مَا رَأَيْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلَا رآهُ مِنِّي»(٢)، وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الحُكماءِ: إِذَا شِئْتَ أَنْ تُسَلِّي حبيبَكَ فَدَعْهُ يَنَامَ إِلَىٰ جنبِكَ؛ فإِنَّكَ إِذَا وجدتَ مِنْهُ ريحًا قبيحةً سلوتَهُ.

وَسَبَبُ المَحَبَّةِ: أَنَّ الإِنْسَانَ يتخايلُ مِنْ حبيبِهِ الكَمَالَ المنافِيَ للنقائصِ، فَلِهَذَا يُحسِنُ الانفرادَ، وَلَيْسَ المُرَادُ أَنْ لَا يَقَعَ مضاجعةٌ، إِنَّمَا يَكُونُ فِي وَقْتٍ.

وأَوْلَىٰ النَّاسِ بالتحرُّزِ المَرْأَةُ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يطلعَ مِنْهَا الرَّجُلُ عَلَىٰ مَكْرُوهٍ، وَكَذَلِكَ يَنْبَغِي لَهُ.

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٠٨٤)، وابن حبان (٦٧٣) من حديث جابر.

(٢) **ضعيف**: أخرجه أحمد (٢٤٣٤٤)، وابن ماجه (٦٦٢، ١٩٢٢)، والترمذي في «الشمائل» (٣٥٩).

۞ فَصْل ۞

صفتْ لِي خلوةٌ، فسألتُ مَولَايَ شَيْئًا مِنَ المُنَاجَاةِ

فصاحَ بِيَ الخاطرُ: مَا هَذَا القدرُ حَتَّىٰ تسألَهُ؟

فقلتُ: إِظْهَارُ فاقتِي بَينَ يديْ مولَايَ إِلَىٰ مَا جبلنِي عَلَيْهِ مِنَ الحَاجَةِ زِيَادَةٌ[1] وَتَعْظِيمٌ لَهُ، كَيْفَ لَا؛ وَهُوَ يعلمُ باطِنِي؟!

۞ فَصْل ۞

مِنَ النَّاسِ مَن طبعُه الكرمُ، فَلَا يكادُ يُمكنُه يمسكُ شَيْئًا يحصلُ لَهُ

كَمَا كَانَ الزهريُّ يَقُولُ - وَقَد نالَ مالًا ففرَّقَهُ -: وجدتُ الكريمَ لَا تنفعُهُ التجاربُ.

وَهَذِهِ محنُ أَهْلِ الخَيْرِ؛ إِذَا كَانَ مَعَ أَحَدهِمْ شَيْءٌ أنفقَهُ، فَإِذَا جَاءَ وَقْتُ فاقةٍ احْتَاجَ، فيتَّجِرُ، فيتشتَّتُ همُّهُ.

فَيَنْبَغِي لِـمَنْ هَذَا حَالُهُ أَنْ يُجاهدَ نَفْسَه بِحَبسِ شَيْءٍ مِنَ الـمَالِ، أَوْ يسلِّمهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ فيُنفقُهُ عَلَيْهِ؛ لِأَنْ لَا يتشتَّتَ هو، فيحتاجُ إِلَىٰ الأَرْذالِ؛ فَإِنَّ الإنسانَ قَدْ يُرْزَقُ رزقَ شهرٍ فِي يَوْمٍ، فَإِذَا أنفقَهُ لقِيَ المضضَ طُولَ الشَّهْرِ، وَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا قدرَ للدنيَا عِنْدَهُ، وَإِنَّمَا البخيلُ هُوَ الَّذِي يُحبُّهَا فيجمعُهَا، فغايةُ هِمَّتِهِ الدُّنْيَا، والمؤمنُ المتيقظُ عِنْدَهُ شغلٌ، قَدِ استوَىٰ حجرُهَا ومدرُهَا.

---

(١) لعلها: «عبادة».

وَمِنَ الغلطِ أَنْ يَرَىٰ الإِنْسَانُ سُهُولَةَ حُصُولِ المَالِ لَهُ، مِثْلَ أَنْ تجريَ عَلَيْه جِرايَةٌ، فيسكنُ إِلَىٰ ذَلِكَ، ويُنفقُ عَلَىٰ قدرِهَا، مُتَّكِلًا عَلَىٰ أَنَّ الشَّهْرَ الآخَرَ لِي مِثْلُ ذَلِكَ، فَلَوِ انْقَطَعَ ذَلِكَ السَّبَبُ تحَسَّرَ.

وَكَذَلِكَ يَقَعُ لأكثرِ الفُقَرَاءِ فِي زَمَنِ الغلاءِ، فَإِنَّ أَحَدَهُمُ اعتادَ أَنْ يكسبَ القيراطَ [فيكفِيَهُ، فيبيتُ وَلَا شَيْءَ لَهُ، فَإِذَا دهمَهُ غلاءٌ لَمْ يكفِهِ القيراطُ بجير بجير[1].

فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الكسبُ أكثرُه] مِنَ النَّفَقَةِ، حَتَّىٰ إِنْ طرقتْ حَاجَةٌ أَو نزلَ مرضٌ؛ قَامَ المدَّخرُ خادمًا.

وَكَذَلِكَ يَنْبَغِي للعاقلِ أَنْ يشتريَ فِي الرخصِ؛ لِئَلَّا يحْتَاجَ إِلَىٰ مضاعفةِ الثمنِ فِي الغلاءِ.

وَكُلُّ هَذَا إِنَّمَا يحصلُ بمشورةِ العَقْلِ والنظرِ فِي عواقبِ الأَمْرِ.

نسأَلُ اللهَ ﷻ توفيقًا يحصلُ لَنَا كَمَال النَّظَرِ فِي مصَالِحِ دُنيانَا وأُخرَانَا الَّتِي هِيَ أهمُّ، إِنَّهُ قَدِيرٌ كَرِيمٌ.

---

(١) كذا مكررة.

فَصْلٌ

سَأَلَ سَائِلٌ عَنْ قَوْلِهِ عليه السلام:

«لَوْ وُزِنَ خَوْفُ الْمُؤْمِنِ وَرَجَاؤُهُ لَاعْتَدَلَا» (١)

فقُلتُ: المُؤْمِنُ يعلِّقُ الخَوْفَ عَلَىٰ عدلِه، وَالرَّجَاءَ عَلَىٰ فَضْلِه، وَالأَمْرَانِ مُعلَّقانِ بِالحَقِّ؛ فيقعُ التساوِي، فَلَا يأسَ لكثرةِ الفضلِ، وَلَا طُمأنينةَ لِوُقُوعِ الحكمِ [بالعدلِ.

واعلَمْ؛ أنَّ أحكامَ الحقِّ ﷻ وأفْعَالَهُ تَختلفُ باختلافِ المُتَضادَّاتِ]؛ بَيْنَا هُوَ يَبْنِي نَقَضَ، ويُعطِي حَرَمَ، ويُعَافِي أَسْقَمَ، ثُمَّ يعكسُ الأَحْوَالَ، فيبنِي المنتقضَ، ويُعطي المَحْرُومَ، ويُعافِي السقيمَ؛ ليكونَ الإِنْسَانُ عَلَىٰ رَجَاءٍ لفضلِه وخوفٍ من عدلِه.

وعدلُهُ يصرفُهُ فِي ملكِهِ عَلَىٰ مُقتضَىٰ مشيئتِه، أليسَ قَدْ أسقطَ شطرَ العِبَادَةِ الواجبةِ لَهُ عَلَىٰ المُسَافرِ رفقًا بِهِ، ثُمَّ أَوْجَبَ قطعَ اليدِ عَنْ سرقةِ خَمْسَةِ دراهمَ(٢) عقوبةً لَهُ؟

فَلَا يأسَ مِن فَضْلِهِ مَن ذَاكَ رِفقُه، وَلَا طمأنينةَ لخوفِ مَنْ هَذَا فعلُهُ.

---

(١) **لا أصل له في المرفوع**: قال السخاوي في «المقاصد الحسنة» (ص٥٥٥): «لا أصل له في المرفوع، وإنما يؤثر عن بعض السلف، فللبيهقي في «الشعب» من طريق ثابت عن مطرف قال: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه ما رجح أحدهما علىٰ صاحبه، ومن طريق الأصمعي قال: قال مطرف: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه بميزان ما كان بينهما خيط شعرة، ومن طريق ابن عيينة عن شعبة قال: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه ما زاد خوفه علىٰ رجائه، ولا رجاؤه علىٰ خوفه. ومعناه صحيح».

(٢) **صحيح**: أخرج البخاري (٦٧٩٥، ٦٧٩٦، ٦٧٩٧، ٦٧٩٨)، ومسلم (٤٤٢٤) من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قطع سارقًا في مجن قيمته ثلاثة دراهم.

فَصْل

قَالَتِ النَّفْسُ يَوْمًا: حَدِّثْنِي عَنِ الرِّضَا بالقضاءِ

كَيْفَ هُوَ؟ وَكَيْفَ يحصلُ وبينَ البَلَاءِ والطبعِ مباينةُ الأَعْدَاءِ؟ وَكَيْفَ أرضَىٰ بِمَا يُسخطُ النَّفْسَ ويأباهُ الطبعُ؟ وَكَيْفَ يُقَالُ لِي: لَا تَسْخَطْ فُرْقَةَ المحبوبِ وَحُصُولَ المَكْرُوهِ؟

فأجبتُها: إِنَّكِ مَا كُلِّفتِ حُبَّ المَكْرُوهِ، وَلَكِنْ أَحْضِرِي الفِكْرَ تَعْلَمِي أَنَّ هَذَا الفضلَ مِنْ مَالكٍ حكيمٍ مُثيبٍ، فَإِذَا عرفتِ مُلكَهُ سلَّمتِ لَهُ، وَإِذَا رَأَيْتِ حِكمتَهُ سلَّمتِ إِلَيْهِ، وَإِذَا ذكرتِ ثوابَه استَسْلَمْتِ لطلبِ الأَجْرِ استسلامَ راكبِ البَحْرِ لطلبِ الرِّبحِ.

فَلَا تعتقدِي أَنَّ الأخيارَ مَا نالَهُم ألمُ البَلَاءِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا ارتفعتْ أقدارُهم، وَلَا تسمعِي قَوْلَ القُصَّاصِ فِي أَنَّ القَوْمَ تلقَّوُا البَلَاءَ تَلَقِّيَ مُشتاقٍ، فلم يَجِدُوا لَهُ أَلَمًا، بَلْ وَجَدَتِ الطِّباعُ الأَلَمَ وصابرتِ النُّفُوسُ المَكَارِهَ، [غيرَ أنَّ تَلَمُّحَ ما ذَكرت هَوَّنَ الشَّدائدَ وألين المَكَارِهَ]، فَكَانُوا عِنْد ملاحظتهم مُلْكَ المُتَصَرِّفِ، وحِكْمَةَ المُقَدِّرِ، وثَوابَ المُبْتَلي كمُشاهداتِ يُوسُفَ يَوْمَ أُخْرِجَ عَلَيْهِنَّ؛ فالأيدي تُقطعُ، والألبابُ غائبةٌ فِي سفرِ[1] الحُسْنِ.

---

(١) لعلها: «شطر» إشارة إلىٰ حديث: «أوتي يوسف شطر الحسن».

فَصْلٌ

الصانعُ المتقنُ يُظْهرُ عجائبَ صنعتِهِ؛ ليستدلَّ عَلَى إتقانِهِ وحكمتِهِ، ولله سُبْحَانَهُ فِي هَذَا الآدميِّ ودائعُ

هِيَ صبرٌ عَلَىٰ مَكْرُوهٍ لتوقعَ مَحْبُوبٍ، ورِضًىٰ بقدرِ المالكِ تسليمًا لحُكمِهِ، فلو بقيَ آدمُ فِي الجنَّةِ كَانَ شابًّا يرتعُ فِي أغراضِه مِنْ غَيْرِ إظْهَارِ جوهرِهِ، فأُهبطَ إِلَىٰ الدُّنْيَا حَتَّىٰ ظَهرتْ مِنْهُ بدائعُ الودائعِ، ظَهرتْ مِنْهُ مِثْلُ الخليلِ، يُضْجعُ ولدَهُ للذبحِ، وخلقٌ يطولُ ذِكرُهم، وشرحُ مَا جَرَىٰ لَهُم مِنَ الصَّبْرِ عَلَىٰ البَلَاءِ والرِّضَا بِالْقَضَاءِ.

فَلَوْ بَقِيَ آدَمُ فِي الجنَّةِ لَمْ تظْهرْ تِلْكَ الجواهرُ، وَلَا كَانَتْ تطيبُ الجنَّةُ؛ لِأَنَّهُ مَنْ لَمْ يتعبْ لَمْ يعرفْ قدرَ الراحةِ، وَلِهَذَا لَا يعرِفُ المُعافَىٰ شرفَ العَافِيَةِ حَتَّىٰ يذوقَ البَلَاءَ، وَلِهَذَا جاءَ فِي الحَدِيثِ: «**يُفتحُ لِلْعَبْدِ فِي قَبْرِهِ بَابٌ إِلَىٰ الجنَّةِ وبابٌ إِلَىٰ النَّارِ**»[1]، وَذَاكَ لِزِيَادَةِ نعيمِ المُؤْمِنِ، وَزِيَادَةِ حسرةِ الكَافِرِ.

وَفِي هَذَا المَعْنَىٰ يَقُولُ الشَّاعرُ:

وَالحَادِثَاتُ وَإِنْ أَصَابَكَ بُؤْسُهَا ** فَهُوَ الَّذِي أَنْبَأَكَ كَيْفَ نَعِيمُهَا

---

(١) حسن: هو طرف من حديث طويل: أخرجه أحمد (١١٠١٣) من حديث أبي سعيد الخدري. قال الهيثمي (٣/ ٤٨): رجاله رجال الصحيح.

۞ فَصْل ۞

تأمَّلْتُ قَوْلَهُ ﷻ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]

فنظرتُ فِي التَّفْسِيرِ، فَقَالُوا: فِي شِدَّةٍ يُكابِدُ شدائدَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

فرأيتُ أَنَّ الآدميَّ معرضٌ للمِحَنِ الدائمةِ المُتَّصِلَةِ، فَإِنْ لَمْ يَجْبُرْهُ اللهُ ﷻ بِالجَنَّةِ وإِلَّا اتصلَ التعذيبُ؛ فَإِنَّه حِينَ يَكُونُ فِي بطنِ أُمِّهِ يتأذَّىٰ بروائحِ المَطْعوماتِ إِلا أَن تتناولَ الأُمُّ.

فَإِذَا وُضِعَ أنقع المَراراتِ، وحُبس بالقمطِ، وعانىٰ الشَّدَائِدَ فِي حلِّهِ وشدِّهِ، ومشربِهِ ومأكُولِهِ، ولقيَ البردَ والحرَّ، تارَةً يُحبسُ البولُ، وتارةً يمْتَنِعُ الغائطُ، وتارةً يُسْهِلُ؛ فيُعانِي من كُلِّ ذَلِكَ شِدَّةً، فَإِذَا أَلِفَ الثديَ فُطِمَ، فعانَىٰ الفراقَ الصَّعْبَ للمألوفِ.

وَكُلَّمَا دبَّ وقعَ، وَكُلَّمَا قَامَ سقطَ، فَإِذَا استقامَ مشيُه جَاءَهُ الحصبَىٰ وَالحُمَّىٰ، والجدريُّ والختانُ.

فَإِذَا سَلِمَ وتَهيَّأَ للعبِ مَعَ أقرانِهِ حُمِلَ إِلَىٰ مُعَلِّمِ القُرْآنِ والخطِّ، فحُصرَ وحُبسَ عَنْ أغراضِهِ، وضُرِبَ.

فَإِذَا قاربَ البلوغَ حُمِلَ إِلَىٰ الدُّكانِ وتعلَّمَ المعاشَ، فبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ أزعجَهُ مِنْ بَاطِنِهِ توقانُ الشهوةِ، فعانَىٰ شِدَّةً حَتَّىٰ زُوِّجَ.

فَمَا أبصرَ بَينَ يَدَيْهِ حَتَّىٰ جَاءَ ولدٌ، فحملَ مِنْ هُمومِهِ وغُمومِهِ والكدِّ عَلَيْه مَا أنساهُ نَفْسَهُ.

فبَيْنَا هُوَ مُنْهَمِكٌ فِي الكدِّ عَلَىٰ العائلةِ، فَقَدِ استغرقَهُ ذَلِكَ، وشغلَهُ عَن نيلِ شهواتِهِ، لاحَ الشيبُ فتنغصَّ العيشُ وانقطعتِ الآمالُ، وعلمَ قربَ الفراقِ لِكُلِّ

مَحْبُوبٍ، فَإِنْ عجلَ اختلاسُه وَإِلَّا وَقَعَ فِي تيارِ الضَّعْفِ؛ فملَّهُ أَهْلُهُ، وقَلَاهُ محبوبُهُ، وتضجَّرَ مِنْهُ ولدُهُ.

هَذَا؛ وَفِي طيِّ مراحِهِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا من الغمومِ والهمومِ والحسراتِ عَلَىٰ فواتِ الأغراضِ مَا يَزِيدُ وينقصُ عَلَىٰ مقدارِ عُلُوِّ الهِمَّةِ ونُزُولِهَا.

ثُمَّ فِي فراقِهِ للوالدينِ والأولادِ والأقرانِ وَالإِخْوَانِ مَا يقصمُ ظهرَ العيشِ، فَمَا يفتحُ عينه ليبصرَ راحةً إِلَّا ويدُ التنغيصِ قَدْ طرقتْ ذَاكَ الجفنَ.

فالمسكينُ مَنْ ساكَنَ الدُّنْيَا أَو مالَ إِلَيْهَا بقلبِهِ، وَهَلْ هِيَ إِلَّا معبرٌ أَو يَوْمُ [رُزْءٍ وحادي] (١)؛ فليصبرْ عَلَىٰ مُدَّةِ المشقةِ، وَكَأَنْ قَدِ انصرمتْ؛ وَكُلُّ الخاسرِ مَن باعَ البَاقِيَةَ بِهَذِهِ الفانيةِ النغصةِ، والسعيدُ مَنْ عرفَ الدُّنْيَا حَقَّ معرفتِهَا، وَأَنَّهَا قنطرةٌ للعبورِ؛ فتأهَّبَ لِلْجَوَازِ، واستظهرَ فِي الزادِ للرحلِ إِلَىٰ النَّعِيمِ الدَّائِمِ الَّذِي لَا يَبْقَىٰ مَعَهُ أثرٌ لِـمَا لَقِيَ.

وَلَا خَيْر فِي عَيْشِ امْرِءٍ لَـمْ يَكُـنْ لَـهُ ** مَـعَ اللهِ فِـي دَارِ القَـرَارِ نَـصِيبُ

فَـإِنْ تُعْجِـبِ الـدُّنْيَا أُنَاسًـا فَإِنَّهَـا ** مَتَـاعٌ قَلِيـلٌ وَالـزَّوَالُ قَرِيـبُ

---

(١) مشتبهة بالأصلين.

فَصْل

تَأَمَّلْتُ الخلقَ، فرأيتُ المُرَادَ مِنْهُمْ العُلَمَاءَ والعُبَّادَ

فتأملتُ العُلَمَاءَ؛ فوجدتُهم يَسْهرونَ ليلَهم، ويَظْمؤون نَهارَهم، ويُقاسُون الفقرَ والذُّلَّ، حَتَّىٰ إِذَا نالوا العلمَ دامَ فِي الأغلبِ جُوعُهُمْ وحاجتُهم، وَكَانَ غَايَةُ أمرِهم ترقيعَ يَوْم بِيَوْمٍ، ورياستَهم عَلَىٰ اثْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ يتبعونَ العَالـِمَ، يراهُم فيتقطعُ فؤادُه بفقرِهِم وذُلِّهِم.

وَأَمَّا الزُّهَّادُ؛ فَعَلَىٰ مُقاساةِ الفقرِ الشَّدِيدِ، وانعكاسِ الأغراضِ.

إِلَّا أَنَّهُ إذا تأمَّل الفطن الأُمُورَ رَأَىٰ أَنَّ العُلَمَاءَ هُمُ النَّاسُ، وَإِنِ افْتقَرُوا، وَأَنَّ الزُّهَّادَ هُمُ المُلوكُ، وَإِنِ انْعكستْ أغراضُهم، وقلوبُ الملوكِ ترتعدُ لِهَيْبَةِ الزُّهَّادِ وإجلالِ العُلَمَاءِ.

فالعاقلُ مَن تبعَ الدَّلِيلَ وسارَ فِي الحُجةِ[١]، وَإِنْ كَانَتْ وَعرةً، فَإِنْ هُوَ مالَ عَنْهَا فَمَا انتفعَ بِدِلَالَةِ الدَّلِيلِ، وَصَارَ مِن حزبِ الجُهَّالِ؛ فليُصابِرِ العَالـِمُ والزاهدُ بيد[٢] الدُّنْيَا؛ فستُفضِي بِهِ إِلَىٰ رياضِ العزِّ، واللهُ المُوفِّقُ لِمَنْ يَشَاءُ.

---

(١) لعلها «المحجة».

(٢) لعلها: «ذل».

فَصْل

رَأَيْتُ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا زاهدًا وقفُوا عَلَىٰ يَدَيْهِ يُقبِّلُونَهَا، ويُدْهَشُونَ مِنْهُ

وَقَدْ كَانَ ابْنُ سيرينَ إِذَا مشَىٰ فِي السوقِ كبَّرَ النَّاس وسبَّحُوا، وَكَانَ بِشْرُ الحافِي إِذَا مشَىٰ وَقفَ النَّاسُ لَهُ فِي الطُّرُقَاتِ ينظُرُونَ إِلَيْهِ.

فنظرتُ فِي السَّبَبِ فِي هَذَا، إِذَا بِهِ ذلُّ الضَّعِيفِ للقويِّ، كَمَا أَنَّ الأفغانَ إِذَا رَأَىٰ تركيًّا شاهرَسيفٍ، وَقَد أقبل إِلَيْهِ وَلَا سِلَاحَ مَعَهُ؛ ذلَّ واستجدَىٰ وتضرعَ؛ لعِلمِهِ بِقُوَّةِ ذَلِكَ وضعفِهِ هُوَ. وَقُوَّةُ الزاهدِ صبرُه عَلَىٰ مَا انْهَمكُوا فِيهِ.

وَسَبَبُ الصَّبْرِ استهانةُ المحمولِ، والقوةُ عَلَيْهِ، وصبرُ الزاهدِ بِالقَلْبِ لِأَنَّهُ رَأَىٰ عيبَ الدُّنْيَا، وخافَ عاقبتَها، فحملَ هجرَها قَوِيًّا بالعزمِ عَلَيْهِ، وضعفَ القُوَّةِ[1] عَنْ هَذِهِ القُوَّةِ؛ فهُم يذلُّونَ للزاهدِ ذلَّ الضَّعِيفِ للقويِّ.

وَلِهَذَا المَعْنَىٰ يعجبُ النَّاسُ من حلمِ القادرِ عَلَىٰ المجازاةِ؛ لِأَنَّهُم يضعفونَ عَنْ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا تَشْرُفُ القُوَّةُ وتُمْدَحُ إِذَا وَقَعَت قُوَّة مذمومةٌ؛ فالشَّرَهُ مَذْمُومٌ والكرمُ قُوَّةٌ تدفعُه، والجبنُ مَذْمُومٌ والشجاعةُ قُوَّةٌ تدفعُه.

---

(١) لعلها: «القوي».

فَصْل

الصَّبْرُ عبءٌ ثقيلٌ يحْتَاجُ إِلَى حاملٍ، وَلَا حاملَ لَهُ إِلَّا العَقْلُ

لأنَّ العقلَ يَرَىٰ العَوَاقِبَ، ويعلمُ أَنَّ الجَزَعَ - وَإِنِ ارتاحتْ بِهِ النَّفْسُ - والشكوَىٰ - وَإِنْ طرحتْ ثقلًا عَنْهَا - لَا ينفعُ، بَل يُؤذِي.

وصبرُ المُوقنِ عَلَىٰ المَصَائِبِ يحصلُ مِنْ جِهَةِ العَقْلِ تارةً، وَمَنْ طَرِيقِ الشَّرْعِ فِي التَّسْلِيم للقضاءِ، وَالعلْمِ بثوابِ الصَّبْرِ وأجرِ المسلوبِ، إِلَّا أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُفيضُ عَلَىٰ بَعْضِ المُؤْمِنِينَ مِنَ الصَّبْرِ مَا يَزِيدُ عَلَىٰ الجدِّ، وَذَاكَ مُجَرَّدُ فضل وإنعام خَارِجٍ عَنِ حَدِّ الكسبِ. كَمَا قَالَ الفُضيلُ يَوْمَ مَاتَ ابْنُهُ - وَقَدْ ضحكَ -: «إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَحبَّ أَمْرًا فأَحببْتُهُ». فمثل هَؤُلَاءِ إِنْ يهنُو بمَا وهبَ اللهُ لَهُم مِنَ الصَّبْرِ الخارقِ عَادَةَ الطباعِ.

فَصْل

العاقلُ مَنِ اجتهدَ فِي حياتِهِ؛ أنْ لَا يموتَ ذكرُه وَلَا علمُه وسعَى فِي سببِ بقائِه، ووصولِ المنافعِ إِلَيْهِ

وَذَلِكَ إِنَّمَا يكونُ بفعلِ الخيرِ؛ من بناءِ القناطرِ والوقوفِ، والاجتهادِ فِي طلبِ الأولادِ والأصدقاءِ المُستغفِرين لَهُ، وتصنيفِ كُتبِ العِلْمِ، وتحقيقِ التَّقوَىٰ [يتَّقي أكبرَ][1] من الكلِّ.

فإِنَّ مَنْ يَرَىٰ قبرَ مَعرُوفٍ وبِشرٍ وأحمدَ يعلمُ أَنَّهُ لَا يخلُو أحدُهم كُلَّ يوم مِن زائرٍ، وزُوَّارٍ يستفتحُ أحدُهم الزيارةَ بقراءةِ آياتٍ يهدِيهَا إِلَيْهِ، فَهَذِهِ بركةُ التَّقْوَىٰ،

---

(١) مشتبهة بالأصلين.

وَهُوَ أدومُ من كلِّ شيءٍ؛ فإنَّ لمعروفٍ تَحْتَ الأرضِ مِنَ السنينِ مَا يقاربُ الأربعمائةِ، وكَأَنَّهُ اليومَ دفينٌ جديدٌ، والهَدَايَا إِلَيْهِ مُتَّصِلةٌ، فعلمتَ أَيُّهَا الفَطِنُ، أَنَّهُ مَا اقتُنِيَ شيءٌ أجودُ مِنَ التَّقْوىٰ، فَإِذَا اقتنَىٰ الناسُ الأصدقاءَ يقصدُون ذكرَهم بعدَ موتِهم، وخلافتَهُم فِي أولادِهم وأهلِهم؛ فاقتنِ مولاكَ؛ فإنَّه يذكرُكَ ويُذَكِّرُ الناسَ بِكَ.

وَقَدْ سُمِعَ بعضُ الأعرابِ يَقُولُ عِنْدَ الكعبةِ: «كُلُّهُمْ لَهُ حاجةٌ، وحاجتِي إِلَيْكَ أَنْ تَذْكُرَنِي إِذَا نَسِيَنِي أهلُ الدُّنْيَا».

فيا للهِ! عليك أَحْضِرْ قَلْبَكَ، وَاقْبَلْ نُصحِي، وَلَا تُنفقْ عُمُرَكَ باطلًا فِي حُبِّ ولدٍ إنْ لَمْ يتمنَّ مَوْتَكَ لَمْ تبالِ بِهِ، أَوْ زوجةٍ إنْ لم تنسَ فَقْدَكَ أسْرَعتِ التعوضَ، أو صديقٍ يُداخِلُكَ لِمَا يرجُو مِنْكَ، فَإِذَا غبتَ عَنْهُ نسيكَ.

بِاللهِ عليكَ! لَا تجمعْ لَهُمْ بتفريقِ دينِكَ، وَلَا تشغلْ بِهِمْ عنكَ، واقبلْ مِنِّي، ولازمْ مَن تجبُ مُلازمتُه؛ فقد أوحَىٰ إِلَىٰ بعضِ أنبيائِه: «أَنَا بُدُّكَ اللَّازمُ؛ فَالْزَمْ بُدَّكَ»، لازمْ طاعتَه، وتوفَّر عَلَىٰ مراضِيهِ، وانظرْ أحبَّ الأشياءِ إِلَيْهِ فأَقْبِلْ عليهِ.

وَلَا تظنَّ أَنِّي آمُرُكَ بملازمةِ المحرابِ فَقَطْ، ورُبَّمَا كَانَ السعيُ عَلَىٰ الوالدينِ والولدِ أولَىٰ، وتلمَّحْ غايةَ مَا تقدرُ عَلَيْهِ مِن أفضلِ القُرباتِ إِلَيْهِ، وَلَا أعرفُ طريقًا أقربَ إِلَيْهِ مِن العلمِ؛ فإنَّه يدلُّ عَلَيْهِ العالـمَ نفسَه، ويُدلُّ المريدينَ الطالبينَ، والدلالةُ عَلَيْهِ أحبُّ الأشياءِ إِلَيْهِ؛ فإنَّها طريقةُ الأنبياءِ، وإِذَا اشتغلتَ بالعِلمِ عرَّفكَ مَا يعرفُ وَمَا يجبُ.

وإياكَ أن تقفَ مَعَ صورةِ العلمِ، بَلْ تلمَّحِ المرادَ منهُ، فإنْ رزقكَ حلاوةَ العلمِ، أو ذُقتَ مَعْناهُ أَخذكَ عَنْكَ وسَلَبَكَ مِنْكَ، وأقامكَ بينَ يديْ مَليكِكَ، فبِهِ تسمعُ، وبِهِ تُصبرُ، فَيَا طُوبَىٰ لَكَ إنْ نِلتَ هَذِهِ المرتبةَ؛ فإنَّ مَا دُونَهَا خُسْرانٌ.

۞ فَصْل ۞

الرَّجُلُ حَقُّ الرَّجُلِ مَنْ تكونُ فِيهِ قوةُ يقظةٍ لَا تُغلبُ

فَإِذَا مالَ بطبعِهِ غضبٌ مثَّلَ نفسَه خاليةً من غضبٍ، أَوْ قَدْ سكنَ غضبُها، ثُمَّ نظرَ فِيمَا أغضبَه، وفِيمَا غضبَ لَهُ، وفِي عاقبةِ بطشِه بالمغضوبِ عليهِ، وفي ثمرةِ عفوهِ، ثُمَّ أقدمَ عَلَىٰ مَا ينبغِي أنْ يُقدِمَ عليهِ.

وكَذَلِكَ إِذَا قويَ شَبَقُه، وعرضَ لَهُ محبوبٌ ممكنٌ، مثَّلَ نفسَه خاليةً عن شهوةٍ، أو قضَاهَا؛ فحينئذٍ تبينُ لَهُ عيبُ المحبوبِ، وعيبُ الفعلِ، وقبحُ العاقبةِ. وكَذَلِكَ عِنْدَ شرهِ الأكلِ، وقوةِ الظَّمإِ، وغيرِ ذَلِكَ ممَّا تدعُو إِلَيْهِ الطِّبَاعُ.

فمَن كانتْ لَهُ قوةٌ لَا تقهرُه؛ فَهُوَ الرجلُ، فإنْ أَعطَىٰ النفسَ من ذَلِكَ مرادَها أعطاهَا من المباحِ - الَّذي لَا يندمُ عَلَيْهِ فِي العواقبِ - قدرَ حاجتِها.

وقَدْ بلغنَا أنَّ رجلًا كانَ إِذَا رَأَىٰ الناسَ حدسَ برؤيتِهم مَا فِي طباعِهم، فصوَّر أصحابُ جالينوسَ لَهُ صورةَ جالينوسَ، فلمَّا رآهَا قالَ: صاحبُ هَذِهِ الصورةِ مِنْ حَالَتِهِ كَذَا وكَذَا، وَهُوَ شديدُ الشَّبقِ. مَعَ عِلْمِهِمْ بامتناعِ شَيخِهم عَنْ هَذَا الأمرِ، فلمَّا جاؤُوا إِلَيْهِ أخبرُوهُ بالحالِ، وقَالُوا: «لَقَدْ أَصَابَ فِي وَصْفِكَ كُلِّهِ، إلَّا فِي هذَا»، فَقَالَ لَهُمْ: «أَمَّا الشبقُ؛ فكَمَا قَالَ، وأمَّا الصفةُ؛ فكَمَا عَلِمْتُمْ».

واعلمْ - وفَّقَكَ اللهُ -؛ أنَّه مَا ابتُلِيَ أحدٌ بلاءً هُوَ أعظمُ مِنِ ابتلاءِ ذِي الهِمَّةِ العاليةِ؛ فإنَّه يميلُ بطبعِه إِلَىٰ كُلِّ مُسْتَحْسَنٍ ومرغوبٍ فِيهِ، ويرىٰ طريقةً صعبةً أو قادحةً فِي الفضلِ؛ فيصيرُ بِمَا يشتهِي بقوةِ تِلْكَ القوةِ الَّتِي مدحنَاهَا، ويبقَىٰ القلقُ إِلَىٰ المُشتهَىٰ، فأَمَّا مَن غلبتْهُ شهواتُه ولم ينظرْ فِي عواقِبِهَا؛ فَهُوَ أضعفُ الخلقِ، وأقربُ الأشياءِ شبهًا بِهِ البهائمُ.

نعوذُ بِاللهِ من ضعفِ البنيةِ، وخللِ التركيبِ، ونسألُهُ إمدادَ التَّقْوَىٰ بعونِهِ؛ إنَّهُ قريبٌ مجيبٌ.

فَصْل

أكثرُ الناسِ مَعَ العاداتِ، لَا مَعَ الشـرائع

حَتَّىٰ إنَّ صلاتَهم عادةٌ وصومَهم عادةٌ، وَمَا يستوحِشُونَ من مخالفةِ الشرعِ بَعْدَ موافقةِ العاداتِ، فَلَوْ طلعَ الفجرُ وَهُوَ يتسحرُ لبصقَ الماءَ، ودَعَا بالويلِ واستغفرَ، وَلَو يخشَىٰ جزعًا من غضبِه، فبانَ أَنَّه خمرٌ؛ رَمَىٰ بِهِ عَلَىٰ مهلٍ مِنْ غيرِ جزعٍ، وَهَذَا أشدُّ؛ لأنَّ عَلَىٰ هَذَا غيبوبةَ حَدٍّ، وليسَ عَلَىٰ إفطارِ رمضانَ.

فَهَلْ تَرَىٰ أحدًا يسألُ عَنِ الربا، أَوِ استوحشَ من فعلِهِ، أو يهجو مَن يفعلُه، أو يُنكرُ عَلَىٰ مَنْ ضاعَ دست الفضةِ لابنِهِ، أَوْ عَلَىٰ مَنْ قدَّمَ وقتَ الأملاكِ مجمرَ الفضةِ، بَلْ لَوْ قدَّمَهُ فِي مجمرٍ من الطينِ قطعتْهُ الألسُنُ، ومن يلطمُ ويحرقُ عِنْدَ المصيبةِ لَا يُلامُ، ويقَالُ: سُبْحَانَ مَن يعلمُ إيش فِي قلبه، وَهَذَا معذورٌ، بَلْ لَوْ بكَىٰ من غيرِ لطمٍ وتحريقٍ أخذتْهُ المَلَاوِمُ، وإنْ لـم يَرْثِ المعزَّىٰ ويخصَّ الذينَ يرثونَ بالأشعارِ الَّتِي تُهيجُ البكاءَ، وقَالُوا: مَا كان للميتِ عَلَيْهِ من الحقِّ أن يعملَ لَهُ عزاءً؟! ولكنْ مَا يمضِي الإنسانُ إلَّا من نفسِه.

ومَن استصحبَ الأمردَ، قَالُوا: هَذَا غلامٌ، والأمُ تعاونُ ولدَها عَلَىٰ تَجْنِيبِهِ مجلسَ الخمرِ، وتراهُ عَلَىٰ الفواحشِ فَلَا تنهاهُ، والمحتاجُ إِلَىٰ أيسرِ نفقةٍ يرهنُ دارَه ويؤدِّي الرِّبَا فَلَا يُلامُ، ومَن مَعَهُ عشرونَ دينارًا يسترهنُ دارًا فيأخذُ الرِّبَا، وَيَقُولُ: حَتَّىٰ لَا يذهبُ منِّي فأحتاجُ إِلَىٰ الناسِ، ويخطبُ المهاترُ فيُقَالُ: زوِّجُوهُ، هَذَا رجلٌ كريمٌ يأكلُ ويشربُ، ويخطبُ صاحبُ الدينِ فيُقَالُ: إنَّه وحش الأخلاقِ بخيلٌ.

والويلُ عِنْدَكُم لـمَن غبرَ ثيابَهُ قبلَ مُضِي شهرٍ من المصيبةِ، أو صعدَ السطحَ وخضَّبَ رجلَهُ بالحناءِ، يعيشُ أحدُكم خمسينَ سنةً أو سبعينَ سنةً لَا يعرفُ أركانَ

الصلاةِ، يكسبُ أحدُكم مِن كُلِّ رِبًا ومحنةٍ، فَإِذَا نَزَلَ بِهِ الموتُ روىٰ الوارث، وكَيْفَ يختمُ لـمَن ذاكَ كسبُه بخيرٍ؟!

تَاللهِ! مَا عِنْدَكَ إِلَّا اسمُ الإسلامِ، وأنتُمْ عبادُ العاداتِ لَا عبيدُ الشرائعِ، وأطمُّ مَا أنتُمْ فِيهِ أَنَّكُمْ إِذَا عرفتُمْ قلتُمْ: مِنْ أينَ دُهينَا، وَهَذَا أقبحُ مِنَ الأولِ؛ لأَنَّهُم مَا عَلِمُوا أنَّ مَا فَعَلُوهُ قَدْ حُرِّمَ.

۞ فَصْلٌ ۞

إبليسُ يُحسِّنُ لِي السفرَ، وَيَقُولُ: تنظرُ إِلَى البلادِ وتعتبِرُ، وينتفعُ الخلقُ بمواعِظِكَ

فقُلتُ لَهُ: إِنَّكَ تسند حسوًا فِي أربعاء، أَنَا أعرفُ مَقصِدِكَ، وذاكَ أَنِّي إِذَا سافرتُ فَلِي فِي القلوبِ قبولٌ، وَقَدْ شاعَ ذكرِي فِي البلادِ، وظاهرُ الحالِ كثرةُ الفتوحِ، وإقبالُ الدُّنْيَا عليَّ، وأَنَا فِي بلدِي أدفعُ الزمانَ بمقدارٍ، وهناكَ لَا آمنُ كثرةَ الدُّنْيَا، ومَتىٰ تَدافَعْت دَفْعَ الماءِ فِي الحَلْقِ لَـم يُؤمنِ الشَّرَقُ.

وَقَدْ عرفتُ مِنْ نفسِي - لموضعِ فقرِي - أَنِّي لَا أردُّ مَا يجوزُ لِي قبولُه، وغايةُ أمرِي أَنِّي لَا أسأَلُ الدُّنْيَا، فَأَمَّا إِذَا زادَ المباحُ؛ فَلَا قُوَّةَ لِي، وَلَوْ بعثَ إِلَيَّ أميرُ بلدٍ شيئًا تأَوَّلتُ وأخذتُه، والظاهرُ من الأميرِ التخليطُ، فيقعُ التأويلُ والتفسخُ فِي المباحِ، فيُعدمُ قوةُ نورِ القلبِ الَّذِي أجدُهُ اليومَ، فَلَا بَقِيَ إصلاحُ غيرِي بفسادِي.

وقلتُ مرارًا: متىٰ أرادَ سيِّدِي خُذلانِي أخرجَنِي، وَمَا دامَ لُطفُهُ شاملًا لِي لَا أبرحُ، وَقَدْ مضىٰ أكثرُ العمرِ وَمَا أخرجَنِي، بَلْ أجرَىٰ أُمورِي عَلَىٰ السدادِ، وَمَا أعرفُ أبناءَ جنسِي مَن ينزهُ عنِ الطلبِ مِنَ الناسِ والتعرضِ لَهُمْ نَزَاهَتِي، أفيحسُنُ

أنْ أعرضَ المركبَ للغرقِ وَقَدْ قاربتِ الساحلَ؟ لَا تدانيتُ فِي دخولِ الشطِّ خوفًا من صدمةِ الحافَّةِ.

اللَّهُمَّ هَذِهِ نِيَّتِي، أنْ وفِّقْنِي فارحَمْنِي، واختمْ لِي بخيرٍ، يا مُقَلِّبَ القلوبِ.

فَصْلٌ
كُلُّ شيءٍ حملَ مِنْهُ مخلوقٌ ذلَّ لَهُ

وَقَدْ قِيلَ: «مَا وضعتَ يدكَ فِي قصعةِ أحدٍ؛ إلَّا وضعتَ خدَّكَ لَهُ»، وإنَّمَا تأنفُ مِنَ الذلِّ النفوسُ الأبيَّةُ.

وتاللهِ! لَوْ كانَ الخلقُ لَا يَمُنُّونَ بالعطايَا لكانَ ينبغِي أن يلحظَ الارتفاعَ عَلَيْهِمْ لمكانِ المساواةِ، وَلَا يرضَىٰ بالتساوِي، بَلْ يطلبُ العلوَّ، فكَيْفَ وَهُمْ يمنُّونَ قولًا وفعلًا، أتُرَاهُمْ لَوْ سكتُوا عَنِ القولِ خَفِيَ عَلَىٰ العاقلِ مِنَّتُهُم واعتقادَهم إذلالَه؟!

وَقَدْ نبَّه الشرعُ عَلَىٰ الغِنَىٰ عَنْهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلًا وَمُدْيَةً فَيَحْتَطِبُ، ثُمَّ يَبِيعُهُ؛ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ، أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ»**(١).

وأقبحُ الأحوالِ السؤالُ؛ فإنَّه كدٌّ للوجهِ العزيزِ بذُلِّ السؤالِ فِي حالِ مخاطرتِهِ؛ لأنَّهُ لَا يدرِي أيحصلُ المَقْصُودُ أمْ لَا؟ وَقَدْ بيَّن ﷺ وجهَ الأنفةِ لِمَنْ أَنِفَهُ، فَقَالَ: **«الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَىٰ»**(٢)، وَلَا شكَّ أنَّ عُلُوَّ الجنسِ يأباهُ ذُو الأنفةِ.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٤٠٢) من حديث الزبير بن العوام.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (١٤٢٧، ١٤٧٢، ٢٧٥٠، ٣١٤٣، ٦٤٤١)، ومسلم (١٠٣٤، ١٠٣٥) من حديث حكيم بن حزام. والبخاري (١٤٢٨، ٥٣٥٥) ومسلم (١٠٤٢) من =

أترىٰ بينَ السماءِ والأرضِ فَرقًا من جهةِ الذواتِ أو من جهةِ علوِّ مسافةٍ؟ كلَّا، بَلْ لأنَّ السماءَ فِي مقامِ المُعطِي للأرضِ؛ تارةً بإنارةِ شمسِها وقمرِها ونجومِها، وتارةً بنزولِ القَطْرِ المخرجِ لنباتِ الأرضِ، والأرضُ كالمحتاجِ، والسماءَ كالغنيِّ المُعطِي، فخذْ من هَذَا إشارةً إنْ لـم يكنْ لَكَ أنفةٌ.

❁ فَصْلٌ ❁

لقدْ شَرُفَ الآدميُّ بالعقلِ عَلَى جميعِ الحيوانِ

وبتدبيرِ العقلِ استسخرَ الحيواناتِ، فالعجبُ لَهُ كَيْفَ يُخالفُ تدبيرَ العقلِ فِي بعضِ الأحوالِ، فيكونُ الحيوانُ إذنْ أصلحَ حالةً منه؟!

أوليسَ الكلبُ الصائدُ يحبسُ الصيدَ مَعَ جوعِه عَلَىٰ مُرْسِلِه؛ خوفًا من عقابِهِ، وحذرًا من سلب نعمتِه؟ أفلا ينبه هَذَا العاقلَ، فيُراعِي حرمتَهُ، ويحفظُ نعمتَه، ويخافُ أن يُعاقِبَهُ المُنعمُ عَلَيْهِ بانبساطِهِ فِي حرماتِه.

فَوَا عجبًا! هُوَ الَّذِي علَّمَ الكلبَ أنْ يحبسَ مَعَ شهواتِه، فخالفَ الكلبُ - لمَواضِعِ تَعْليمِهِ - هَوَاهُ، وفَعَلَ فِعْلَ العُقلاءِ، وَلَا عقلَ مَعَهُ، فتركَ مَعَ الشهوةِ، فكَيْفَ ينسَىٰ هَذَا المُعلِّمُ؟ وكَيْفَ ضيَّعَ ثمرةَ العقلِ فِي موافقةِ الهَوَىٰ؟!

إنَّ النملةَ لتدَّخِرَ مِن صيفِهَا لشتائِهَا، ثُمَّ تُخرجُ المدفونَ فتَهوِيه خوفًا عليهِ، فمَا الَّذِي ادَّخَرْتَ لقبرِكَ، وأينَ نظرُكَ فِي تصحيحِ عملِكَ؟!

=

حديث أبي هريرة. والبخاري (١٤٢٩) ومسلم (١٠٣٣) من حديث ابن عمر. ومسلم (١٠٣٦) من حديث أبي أمامة.

إنَّ الفَأْرَةَ لتتحذَّرُ من المصيدةِ جهدَها، وإنْ لـم يكنْ لَهَا خبرٌ بباطنِ الأمرِ، وإنَّ العصفورَ من شدةِ المجاعةِ يطولُ حَوْمُه حولَ الفخِّ، ويرجِّحُ السلامةَ، هَذَا الكلامُ لـمَن يرَىٰ الخطيئةَ فيسرعُ، أينَ بيتُ العقلِ؟!

وقد ذكرَ الحكماءُ أنَّ الإبلَ تأكلُ الحياتِ، فتعطشُ عطشًا شديدًا، ويمتنعُ من شربِ الماءِ خوفًا من أن يدبَّ السمُّ فِي جسمِه فيهلكُ، فيقفُ عَلَىٰ الغديرِ، وَهُوَ مجهودٌ، فيعجُّ وَلَا يشربُ، هَذَا الهام[1] قد هيئت لمداراتِهِ، وأنتَ لَا تصبرُ عمَّا يضرُّكَ!

إنَّ البهيمةَ لتنقادُ لسائِقِهَا، حَتَّىٰ إِذَا جاءتْ إِلَىٰ الساقيةِ فضربَها لتقفزَ، وازَنَتْ قوَّتَها كما يزنُ العاقلُ حالةَ العواقبِ، ونظرتْ هل فِي قُوَاهَا أن تظفرَ بالحملِ الَّذِي عَلَيْهَا، فإنْ وَجَدَتْ القوةَ وافيةً بِذَلِكَ ظفرتْ، وإنْ أحسَّتْ بضعفٍ أخذتْ بالحزمِ فلم تظفرْ، وكُلَّمَا ضربَها مانَعَتْهُ عَنِ الاستجابةِ لمرادِهِ، وكَأَنَّهَا فِي حالةِ معاناتِهَا لضربِه تستحِي من عقلِه وتخاطِبُهُ بلسانِ الحالِ: هَا أنَا صابرةٌ عَلَىٰ الضربِ شفقةً عَلَىٰ حملكِ، وَقَدْ كان حقُّكَ أن تشكرَنِي إِذْ حفظتُ مالَكَ الَّذِي حملتُه، وحفظتُ نفسِي الَّتِي هِيَ لكَ، ثم قَدِّرْ أنِّي أشفقتُ عَلَىٰ نفسِي لَا عَلَىٰ مالِكَ، فَمَا ينبغِي لَكَ أن تلومَ المحترزَ، فَإِذَا قهرَها بقوةِ الضربِ فظفرتْ فطفقتْ ووقعَ الحملُ، وقفَ يتخبَّطُ فِيمَا جرَىٰ، ولسانُ الحالِ يقولُ: أيُّنا كانَ عَلَىٰ الصوابِ؟!

---

(١) كذا بالأصلين.

﷽ فَصْل ﷽

مِنَ العجائبِ: أَنَّكَ تُرِيدُ جريانَ الأُمُورِ في دارِ التَّكْلِيفِ والمشقةِ عَلَى أغراضِك، فَإِذَا انحرفَ أمرٌ عَنْ مرادِكَ ضجَّ البَاطِنُ وَالظَّاهِرُ

وَا عجبًا! لَا لكونِك مملوكًا صبَرْتَ، وَلَا لتسليمِ الحُكمِ إِلَىٰ الحكيمِ سكنْتَ، وَلَا لليقينِ بأجرِ المُصِيبَةِ تسلَّيْتَ.

وَلَقَد بَحَثْتُ عَنْ سببِ قلقِ النَّفْسِ فِي مِثْلِ هَذَا الحَالِ، وَإِذَا بِهَا تُرِيدُ عاجلَ الدُّنْيَا؛ فتقلقُ لفواتِ مُرادِهَا مِنْها، وتُؤْثِرُ أَنْ يَكُونَ مَا يتعلَّقُ بالتكليفِ سَهْلًا؛ كخمسِ صلواتٍ، وصومِ شهرٍ، ويقتصرُ عَلَىٰ السهلِ فِي التَّكْلِيفِ دونَ الصَّعْبِ!

هَيْهَاتَ! واللهِ؛ إنَّ أهونَ التَّكْلِيفِ الوُضُوءُ وَالصَّلَاةُ والصومُ، وَإِنَّمَا تكليفُ النَّفْسِ الصَّبْرُ عَلَىٰ فَقدِ المَحْبُوبَاتِ ومُقَاساةِ المَكْرُوهَاتِ، ورُبَّ مَكْرُوهٍ فِي إِثْرِ مَكْرُوهٍ، ولرُبَّمَا طالَ زَمَنُ المكروهِ، والظنُّ يَرْجُو زوالَهُ، فَإِذَا بلغتِ السكينُ العظمَ، ووقفَ الإِنْسَانُ مَوْقِفَ المُضْطَرِّ؛ راجيًا لنجاحِ مُرَادِهِ، رد، والبَلَاء بلا أجر [...][1] فِي آخِرِ شوطٍ مِنَ الصَّبْرِ بعدَ فراقِ يُوسُفَ تِلْكَ السنينِ.

وَمَتَىٰ جَرَىٰ هَذَا عَلَىٰ قويِّ الإِيمَانِ، ووقفَ لحملِهِ حملَهُ، وَلَمْ يقطعْ رجاءَهُ اتصالُ البَلَاءِ، وَفِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ: **«نَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً، [ثُمَّ] الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، يُبْتَلَىٰ الرَّجُلُ عَلَىٰ حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ قُوَّةٌ شُدِّدَ الْبَلَاءُ عَلَيْهِ»**[2]. فَمَتَىٰ

---

(١) مشيبهة بالأصلين، صورتها: «كآخذين أخين» كذا.

(٢) **صحيح**: أخرجه الطيالسي (٢١٥)، وأحمد (١٤٨١)، وعبد بن حميد (١٤٦)، والدارمي (٢٧٨٣)، والترمذي (٢٣٩٨) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (٤٠٢٣)، وابن حبان (٢٩٠١)، والحاكم (١٢٠) وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين. والضياء (١٠٥٣) من حديث سعد بن أبي وقاص.

أنعمَ الحقُّ ﷻ بمعرفةٍ وَإِيمَانٍ ويقينٍ قَبْلَ البَلَاءِ، فَقَدْ أَعْطَىٰ الزَّادَ قبلَ السفرِ، فهَانَ الأَمْرُ؟!

وَإِنَّمَا المِحْنَةُ الكُبْرَىٰ حُبُّ الدُّنْيَا، والتحسُّرُ عَلَىٰ فواتِ الأغراضِ مِنْهَا، وضعفُ الإِيمَانِ واليقينِ، فَيَأْتِي البَلَاءُ عَلَىٰ قَلبٍ غَافِلٍ؛ فالذَّرَّةُ مِنْهُ جبلٌ، وَكَمْ قَدْ أخرجَ البَلَاءُ مؤمنينَ إِلَىٰ الاعتراضِ وَالكُفْرِ، فلا نَالُوا مَا أَرَادُوا، والتحق بمُصَابِ الدُّنْيَا مُصابُ الدِّينِ.

اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ يَا كَرِيمُ، ولُطْفَكَ يَا رَحِيمُ، لَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، واعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ العليِّ العَظِيمِ.

فَصْلٌ

مِنْ أَعْجَبِ الأَشْيَاءِ: التصنُّعُ للخَلقِ

وَإِنَّمَا هِيَ أَيَّامٌ ويَمضِي المتصنِّعُ والمتصنَّعُ لَهُ، ويصيرُ الكُلُّ رميمًا.

وَلَا يَظُنُّ ظانٌّ أَنِّي أُشيرُ إِلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، فيقولُ: فأَمشِي بَيْنَ النَّاسِ وَلَا أُبالِي عَلَىٰ أَيِّ حَالٍ رُؤِيتُ، فَمَا المُرَادُ ذلكَ، بَلِ التَّزَيُّنُ والتحسُّنُ لِلنَّاسِ فِي مِثْلِ هَذَا الحَالِ لَا يضرُّ، فَإِنَّ الإِنْسَانَ يُصفِّفُ عمامتَهُ، وَلَوْ كَانَ المُرَادُ تغطيَةَ الرَّأْسِ لغطَّاهُ كَيْفَ اتَّفقَ، ويلبسُ القميصَ أحسَنَهُ إِلَىٰ خَارِجٍ.

وَهَذَا شَيْءٌ قَدْ وُضِعَ فِي الطباعِ، والصانعُ قَدْ خلقَ الإِنْسَانَ مُزَيَّنًا، فقوَّسَ حاجبَهُ، ومدَّ قامتَهُ، وزيَّنَهُ بِأَنْوَاعِ الزينةِ؛ ليأنسَ الجِنْسُ بِالجِنْسِ، وَلَا يَرَاهُ جِنْسُهُ ناقصًا معيبًا.

وَإِنَّمَا أَذُمُّ مَنْ تزيَّنَ وتصنَّعَ فِي بَابِ الدِّينِ للخَلْقِ، فَأَظْهرَ لَهُمْ مَا لَيْسَ عَنْدهُ[1] من التخشُّعِ، وراقبَهُمْ فِي إنكارِ مُنكرٍ.

وَفِي الجملةِ؛ مَن أسخطَ اللهَ بِرضَاهُمْ، فَرُبَّمَا كَانَ قصدُهُ استجلابَ دُنياهُمْ، فينسَىٰ القديرَ، أو إقبالَ قُلُوبِهِمْ إِلَيْهِ، فينسَىٰ مُقلِّبَ القُلُوبِ، فَلَا ينسَىٰ التصنُّعَ لَهُمْ إِلَّا عَنْ غفلةٍ عَنْ صانِعِهِمْ، وَمَنِ اشتغلَ بالدُّونِ فَاتَهُ الأَعْلَىٰ.

❁ فَصْلٌ ❁

اشْتَدَّ عجبِي مِمَّنْ يَرَى الحَالَ الحاضرةَ، وَلَا ينظرُ فِي العَاقِبَةِ

لَنَا جارٌ يَزِيدُ عَلَىٰ سَبْعِينَ سنةً، لَا يَكَادُ يستقرُّ فِي البَلَدِ، بَلْ فِي الأسفارِ دَائِمًا، فَإِذَا قَدِمَ بعدَ سنةٍ أَو سنتينِ فَكَأَنَّهُ يستوحِشُ مِنْ بلدِهِ، فَلَا يُقيمُ إِلَّا اليسيرَ بقدرِ مَا يجْمَعُ متاعًا، ثُمَّ يخرجُ؛ فامرأتُهُ كأَنَّها أَيِّمٌ، وأولادُه كاليتامَىٰ، وَهُوَ ضَعِيفُ البدنِ كَبِيرُ السِّنِّ، غيرَ أَنَّهُ قَدْ غلبَ عَلَىٰ قَلْبِهِ حُبُّ المَالِ، وَلَا يتركُهُ هَواهُ فيه ينظرُ إِلَىٰ المُرَادِ مِنْهُ، وَهَلْ يُرَادُ المَالُ لنفسِهِ؟! أَو للمعانِي الَّتِي فِيهِ؟! فَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ وطنٌ وَلَا زوجةٌ، وَلَا يمتَّعُ بولدٍ وَلَا خادمٍ مَعَ كبرِ السِّنِّ، فَمَا المَقْصُودُ مِنَ المَالِ؟! وَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ نسيانِ العَوَاقِبِ والنظرِ فِي الآخِرِ.

وَهَذَا دأبُ رُكَّابِ البَحْرِ؛ فَإِنَّهُمْ ينظرُون إِلَىٰ الأرباحِ ويُبصرُونَ المركبَ، وَلَا يتفكَّرُونَ فِي الغرَقِ، فَهَذِهِ محنةُ العُصَاةِ؛ فَإِنَّهُمْ ينظرُون إِلَىٰ عاجلِ اللَّذَّةِ، وَلَا يتفكَّرُونَ فِي العِقَابِ، وَهَذَا دأبُ اللُّصوصِ؛ فَإِنَّهُمْ يرَوْنَ أخذَ المَالِ، وَلَا يتفكَّرُونَ

---

(١) لعلها: «عنده».

فِي أخذِهِمْ وقتلِهِم، وَهَذِهِ محنةٌ الشجعانِ؛ فَإِنَّهُمْ ينظُرونَ فِي قتلِ مُحارِبيهِمْ وَلَا يتفكَّرُونَ فِي قتلِهِمْ.

وَكُلُّ هَذَا ينشأُ من تركِ ملاحظةِ العَوَاقِبِ، وَمَنْ لَاحَظَ العَوَاقِبَ، ملاحظةً قويَّةً لـم يَصْفُ لَهُ عيشٌ أَصْلًا - عَلَىٰ مَا سَبَقَ ذكرُه فِي مَوَاضِعَ -؛ فَلَا بُدَّ مِنْ نَوْعِ تغطيةٍ عَلَىٰ النَّفْسِ، بمقدارِ مَا يطيبُ العيشُ.

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ أَن يسلُكَ بِنَا أوسَطَ الأُمُورِ، مَعَ سلامةِ الدُّنْيَا والدِّينِ؛ إِنَّهُ سميعٌ قَرِيبٌ.

فَصْلٌ

يشتدُّ عجبِي مِمَّنْ لَا يُبالِي بِبُعدِهِ عَنِ الوطنِ

واعلمْ؛ أَنَّ هَذَا لكدرٍ فِي طبعِهِ؛ فَإِنَّ الصافِي يتثبَّتُ بالمألوفِ، وَلَا مألوفَ كالوطنِ، وَقَدْ قرنَ اللهُ ﷻ القَتْلَ بفراقِ الوطنِ، فَقَالَ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم﴾ [النساء: ٦٦]، ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦]، وَكَانَتِ الحكماءُ تَقُولُ: «أَرْضُ الرجلِ ظَهْرُهُ ودارُهُ نَهْدُهُ».

والغريبُ كالغرسِ الَّذِي زَابلَ أَرْضَهُ؛ وَفَقَدَ شِرْبَهُ، وَهُوَ ذاوٍ لَا يُنمَىٰ، وذابلٌ لَا يُنظَرُ، وفطرةُ الفَطِنِ معجونةٌ بحُبِّ الوطنِ، وَلِهَذَا قَالَ بُقراطُ: «يُدَاوَىٰ كُلُّ عليلٍ بعقاقيرِ أَرْضِهُ»، ولـمَّا غَزَا [...][1] بِلَادَ الجزرِ اعتلَّ، فَقِيل: مَا تشتَهِي؟ قَالَ: شَمَّةً

---

(١) هنا اسم رجل، صورته: «سقربار».

مِنْ تُرْبَةِ بلخَ، وشربةً مِنْ ماءِ وادِيهَا. واعتلَّ سابُورُ ذُو الأكتافِ بِالرُّومِ، وَكَانَ مأسورًا فِي القدِّ، فعَشِقَتْهُ بنتُ مَلِكِهِمْ، وَقَالَت لَهُ: مَا تَشْتَهِي؟ قَالَ: شربةً مِنْ ماءِ دجلةَ، وشميمًا من ترابِ اصطخرَ، فغَبَرَتْ عَنْهُ أيامًا، ثُمَّ أتتْ بماءٍ مِنَ الفراتِ، وقبضةً من شاطئِهِ، وَقَالَتْ: هَذَا مِنْ دجلةَ، وَهَذِهِ من تُربةِ أرضِكَ، فشربَ بالوهمِ، واشتمَّ التربةَ؛ فنَقُهَ مِنْ عِلَّتِهِ.

وَقَد أنشدُوا فِي هَذَا وأكثرُوا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ:

يَقَــرُّ بِعَيْنِــي أَنْ أَرَىٰ فِــي مَكَانَــةٍ ** ذَرَىٰ عَطَفَــاتِ الأَجْــرَعِ المُتَقَــاوِدِ

وَأَنْ أَرِدَ الْــمَاءَ الَّــذِي عَــنْ شِــمَالِهِ ** طَرُوقًا وَقَـدْ مَـلَّ الـسُّرَىٰ كُـلُّ وَاحِـدِ

وَأُلْــصِقَ أَحْــشَائِي بِبَــرْدِ تُرَابِــهِ ** وَإِنْ كَـانَ مَمْزُوجًـا بِـسُمِّ الأَسَـاوِدِ

وَقَالَ آخَرُ:

إِذَا مَا ذَكَـرْتُ الثَّغْـرَ فَاضَـتْ مَـدَامِعِي ** وَأَضْـحَىٰ فُـؤادِي نُهْبَـةً لِلهَمَـاهِمِ

حَنِيًا إِلَـىٰ أَرْضٍ بِهَـا اخْـضَرَّ شَـارِبِي ** وَحَلَّـتْ بِهَـا عَنِّـي عُقُـودُ التَّمَـائِمِ

وَأَلْطَـفُ قَـوْمٍ بِـالفَتَىٰ أَهْـلُ أَرْضِـهِ ** وَأَرْعَــاهُمُ لِلمَــرْءِ حَــقُّ التَّقَــادُمِ

وَقَالَ بَعْضهم: «عُسْركُ فِي بلدِكَ أعزُّ عَلَيْكَ مِنْ يُسرِكَ فِي غُربَتِكَ»، وأنشدَ:

لَقُرْبُ الدَّارِ فِي الإِقْتَارِ خَيْـرٌ مَـدَامِعِي ** مِـنَ العَـيْشِ المُوَسَّـعِ فِـي اغْتِـرَابِ

وَكَانُوا إِذَا سافرُوا حملُوا مَعَهُم من ترابِ أرضِهِم؛ يستشفُونَ بِهِ.

وأنشدُوا فِي ذَلِكَ:

نَــسِيرُ عَلَــىٰ عِلْــمٍ بِكُنْــهِ مَــسِيرِنَا ** وَعِــدَّةِ زَادٍ فِــي بَقَايَــا المَــزَاوِدِ

وَنَحْمِـلُ فِـي الأَسْـفَارِ مِنَّـا قُبَيْـضَةً ** مِـنَ البَيَـادِي البَـادِ لِحُـبِّ الوَالِـدِ

وَقَالَ الآخَرُ:

أَحَبُّ بِلَادِ اللهِ مَا بَيْنَ صَارةٍ ** إِلَىٰ قَفْوانَ أَنْ تَسِحَّ سَحَابُهَا
بِلَادٌ بِهَا نِيطَتْ عَلَيَّ تَمَائِمِي ** وَأَوَّلُ أَرْضٍ مَسَّ جِلْدِي تُرَابُهَا

وَقَالَ آخَرُ:

كَمْ منزلٍ فِي الْأَرْضِ يَأْلَفُهُ الفَتَىٰ ** وحَنِينُهُ أَبَدًا لِأَوَّلِ مَنْزِلِ
نَقِّلْ فُؤادَكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الهَوَىٰ مَا الحُبُّ إِلَّا لِلْحَبيبِ الْأَوَّلِ

وَقَالَ آخَرَ:

تَمَتَّعْ مِنْ شَمِيمِ عرارِ نَجْدٍ ** فَمَا بَعْدَ العَشِيَّةِ مِنْ عرارِ
أَلَا يَا حبَّذَا نَفَحَاتُ نجدٍ ** وريا روضةِ غبِّ القِطَارِ
وَعَيْشُكَ إِذْ يَحِلُّ القَوْمُ نَجْدًا ** وَأَنْتَ عَلَىٰ زمَانِكَ غيرُ زَارِ
شُهُورٌ يَنقَضِينَ وَمَا عَلِمْنَا ** بِأَنْصَافٍ لهُنَّ وَلا سرارِ

فَهَذِهِ صِفَاتُ الطباعِ السَّلِيمَةِ، وَهَلْ نحو هَذَا الفهمِ كُل شَيْءٍ، فَإِنَّ المُؤْمِنَ يَألَفُ ويُؤلَفُ.

وَمَنْ أبلغ مَا قِيلَ فِي الإِلْفِ قَوْلُ المُتنبِّي:

حلَفْتُ أُلُوفًا لَو رَجَعْتُ إِلَىٰ الصِّبَا ** لَفَارَقْتُ شَيْبِي مَوْضِعَ القَلْبِ بَاكِيًا

فأَمَّا الطباعُ الَّتِي لَا تألفُ صديقًا وَلَا وطنًا وَلَا شَيْئًا فجاشيةٌ[1] قاسيةٌ، وَإِنَّ الرَّقِيقَ الطبعِ ليألَفُ حَتَّىٰ الهرَّ، ويستوحشُ لفقدِ طائرٍ يَكُونُ عِنْدَهُ فِي البَيْتِ.

---

(١) لعلها: «جائشة»، والنفس الجائشة: هي الشديدة الطباع، ويؤيده ما سيأتي.

نَعُوذُ بِاللهِ من قساوةِ القَلْبِ، وجياشةِ الطبعِ، فَإِنَّه لَيْسَ مِنْ صِفَاتِ الصَّالِحِين، وَلَا أَخْلَاق المُتَّقِين.

❊ فصل ❊

قَلَّ أَنْ تخلوَ طرقُ الفَضَائِلِ مِنْ آفَةٍ

فَإِنَّ أَفْضَلَ الأَشْيَاءِ العلمُ وَالعَمَلُ، وقَلَّ أَن يَمْضِيَ فِي العِلْمِ أَحَدٌ إِلَّا ويعجبُ نَفْسَه، ويحتقرُ مَنْ دُونَهُ، وَلَا يَعُدُّ المُتَزَهِّدِينَ، وَلَا يحترزُ فِي كَلَامِهِ، وَلَا يَكُونُ لَهُ فِي صفاءِ القُلُوبِ حظٌّ، وَلَا مَعَ أَهْلِ الورعِ نصيبٌ؛ هَذَا الغَالِبُ مِمَّنِ الغَالِبُ عَلَيْهِ العلمُ.

وَأَمَّا الزُّهَّادُ المنقطعُونَ؛ فَلَهُمْ آفَاتٌ: مِنْهَا الانقطاعُ عَنِ العلمِ الَّذِي هُوَ أَفْضَلُ مِمَّا هُمْ فِيهِ؛ لِأَنَّ العِلْمَ أوفَىٰ العِبَادَاتِ، وَإِذَا كَانَ سَعْيُ الجَوَارِحِ فاضلًا، فَمَا ظَنُّكَ بِالعِلْمِ الَّذِي لَا يحصلُ إِلَّا بِسَعْيِ القَلْبِ، وإنضارِ حليةِ الفكرِ، وَلَوْلَا قِلَّةُ علمِ المتزهِّدِينَ مَا آثَرُوا الزهدَ عَلَىٰ العلمِ.

وَمَن قِلَّةِ عِلمِهِمْ: قَوْلُ أَكْثَرِهِمْ: «وَهَلِ المُرَادُ مِنَ العِلْمِ إِلَّا العَمَلُ؟!» هَذَا قَوْلٌ صَحِيحٌ، وَلَكِنَّ مَعْنَاهُ العَمَلُ بِوَاجِبِ العِلْمِ، ثُمَّ إِنَّ طَلَبَ العِلْمِ أَوْفَىٰ عملٍ؛ كَمَا بَيَّنَّا.

ولِقِلَّةِ علمِ المُتَزَهِّدِينَ يلعبُ بِهِمُ الشَّيْطَانُ، وَلَا يُمكِنُهُ ذَلِكَ فِي حَقِّ العُلَمَاء، فَقَدْ يدخلُ عَلَىٰ المنفردِ مِنْ بَابِ احتقارِ النَّاسِ وقُصورِهم عَمَّا انفردَ لَهُ، والأنفةِ من ذَوِي الخطايَا، ورُبَّمَا دَرَّجه إِلَىٰ استعمالِ هيئةٍ تُوجِبُ تخشُّعًا، يَكُونُ تأثيرُهُ تقبيلَ اليدِ، ورُبَّمَا أَرَاهُ تركَ عيادةِ المرضَىٰ وتشيعِ الجنائزِ فِي [...][1] التَّحْذِيرِ مِنَ

---

(١) غير مقروءة.

المُخالطةِ! وَلَيْسَ التَّعَبُّدُ مَا يخرجُه عَنِ اتِّبَاعِ السُّنَّةِ.

وَقَد يتوقَّعُ المتعبِّدُ الجاهلُ حُصُولَ جاهٍ عِنْد ربِّهِ فِي إِجَابَةِ دُعَائِهِ، ونيلِ أغراضِه، وَكَرَامَاتٍ يرتقِيهَا، فَإِذَا لَمْ يَقَعْ مِنْ هَذَا شَيْءٌ تأفَّفَ فِي بَاطِنِهِ أنفةَ الأجيرِ الَّذِي لَـمْ يُوَفَّ حَقَّهُ! وَكُلُّ هَذِهِ الآفاتِ سَبَبُهَا قِلَّةُ العَلمِ.

وَلَقَدْ زَيَّنَ لكثيرٍ مِنَ العُبَّادِ دفنَ كُتبِهم؛ لِأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّ العلمَ نُورٌ يُستضاءُ بِهِ فِي طَرِيقِ المعاملةِ، فَأَرَادَ أَنْ يَمْشِيَ فِي الظلمةِ؛ فاتَّبَعُوهُ إِلَّا فريقًا مِنَ المُؤْمِنِينَ.

ورُبَّمَا بلغَ مَن سَمِعَ كلامِي هَذَا أَنَّ بَعْضَ العُلَمَاءِ كسفيانَ الثوريِّ دفنَ كُتُبَهُ! وليعلمْ أَنَّ ذَلِكَ بِسَبَبٍ، وَهُوَ أَنَّهُ كَانَ يكتبُ عَنِ الضُّعفاءِ، فاختلطَ الصَّحِيحُ بِغَيْرِهِ، فدَفَنَهَا لِهَذِهِ العِلَّةِ، فمَنْ دفنَ كُتُبَهُ بِغَيْرِ مَعْنًىٰ صَحِيحٍ فَقدْ خالفَ الشَّرْعَ، وأضاعَ المَالَ.

فاسمعْ نُصْحِي، واحذرْ مِنْ سَبِيلِ الرَّجُلينِ: العَالِـمِ الَّذِي اقْتَصَرَ عَلَىٰ الجدالِ فِي الفقهِ طلبًا للرياسةِ، أَو نالَ القَضَاءَ فَلَمْ يُراعِ سِوَىٰ منزلتِهِ، أَوْ زخرفَ المَوَاعِظَ فضيَّقَ أعينَ شبكتِه. والزاهدِ الَّذِي يتقلَّبُ فِي جهالتِهِ، ويتقوَّتُ بتقبيلِ يدِهِ، واعتقادِ بركتِهِ، ويعملُ برأْيِهِ دونَ شَرْعِ اللهِ وسُنَّتِهِ.

وَعَلَيْكَ بِطَرِيقِ السَّلَفِ الصَّالِحِ؛ فَإِنَّهَا سَبِيلُ الِاسْتِقَامَةِ، ومنهاجُ السَّلَامَةِ، فتلمَّحْ مِنَ الآثَارِ آثارَهُمْ، واسمعْ مِنَ الأَخْبَارِ أَخْبَارَهم، وسَلِ اللهَ ﷻ الإعانةَ عَلَىٰ اتباعِهِمْ، وأنْ يجعلَكَ من أَتباعِهِمْ؛ إِنَّهُ قَرِيبٌ مُجيبٌ.

* * *

فَصْل

قُوَّةُ الشُّهْرَةِ بكثرةِ إخمالِ النَّفْسِ

وشرحُ هَذَا: أَنَّ من قصدَ إخمالَ نَفْسِه أظهرَهَا اللهُ ﷻ، وَمَنْ قصدَ إعلاءَها حَفِظَهَا، وَكُلَّمَا قَوِيَ إخمالُ الإِنْسَانِ لنفسِهِ زادَ اشتِهَارُهُ بينَ الخلقِ بِالخَيْرِ، كالعودِ كُلَّمَا تَكَاثَفَتِ الثِّيَابُ عَلَيْهِ اجتمعتْ رِيحُهُ، فَإِذَا فُتحَ لَهُ بَابٌ يسيرٌ جادَ الرِّيحُ، وَفِي الحَدِيثِ: «**مَنْ تَوَاضَعَ لِلهِ رَفَعَهُ اللهُ**»[1]، وَفِي حَدِيث آخَرَ: «**مَا مِنْ آدَمِيٍّ إِلَّا وَفِي رَأْسِهِ حِكْمَةٌ بِيَدِ مَلَكٍ؛ إِنْ تَرَفَّعَ وَضَعَهُ، وَإِنْ تَوَاضَعَ رَفَعَهُ**»[2].

وَهَذَا؛ لأنَّ منْ قصدَ الإخمالَ رَضيَ بنظرِ الحَقِّ إِلَيْهِ وَحْدَهُ، فتحقَّقَتْ لَهُ العُبُودِيَّةُ؛ إِذْ قَدْ جمعَ همَّهُ فِي مراضِي مولاهُ فَحَسْبُ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُذكَرَ بالخَيْرِ فَقدْ جعلَ لنفسِهِ حظًّا مِنَ التَّعَبُّدِ، فَهُوَ مِنْ جِنْس الشركِ، وَالمِسْكُ الأذفرُ الخَالِصُ لَا يَكُونُ كالمَغْشُوشِ.

وَلِهَذَا المَعْنَىٰ رفعَ اللهُ الَّذِينَ بالغُوا فِي إخمالِ نُفُوسِهِمْ؛ فَهَذَا ابْنُ المباركِ يَقُولُ: «لَا يُكتبُ كلامِي، وَمَنْ أَنَا حَتَّىٰ يُكتبَ كلامِي؟!» وَهَذَا أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ ينهَىٰ عَنْ كِتَابَةِ كَلَامِهِ. فقلَّ أَن تقعَ مَسْأَلَةٌ إِلَّا وَلَهُ فِيهَا نصٌّ؛ لِأَنَّهُ بدَّدَ مجموعَ ذكرِ نَفْسِهِ

---

(١) **حسن**: أخرجه أحمد (١١٧٤٧)، وابن ماجه (٤١٧٦)، وابن حبان (٥٦٧٨) من حديث أبي سعيد. وإسناده فيه ضعف، لكن قال ابن حجر في «الأمالي المطلقة» (٨٩): «حسن». وله شاهد من حديث عمر: أخرجه أحمد (٣٠٩). وقال ابن حجر في «الأمالي المطلقة» (٩٦): «صحيح». وله شواهد أخرىٰ.

(٢) **ضعيف**: أخرجه الطبراني (١٢/ ٢١٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨١٤١) من حديث ابن عباس، قال الهيثمي (٨/ ٨٢): إسناده حسن! وأخرجه الديلمي (٦١٢٠) والخطيب (٤/ ٤٠١) من حديث أنس.

بجمعِ ذكرِ ربِّهِ؛ لِئلَّا يَقَعَ فِي السلكِ شركٌ، فجمعَ لَهُ الحَقُّ مَا بَدَّد لأجلِه [...][١] البَرَكَةِ، فصارَ مَذْهَبُهُ مُدوَّنًا أَكْثَرَ مِنْ تدوينِ مَنْ دَوَّنَ مذهبَ نَفْسِهِ.

فَاللهَ اللهَ! فِي فضلِ الإِخْلاصِ؛ فَإِنَّهُ الكبريتُ الأحمرُ، وَكَانَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ يَقُولُ: «مَا رفعَ اللهُ القَوْمَ إِلَّا بالإخلاصِ»، وقَالَ: «مَا رفعَ اللهُ ابْنَ المباركِ إِلَّا بخبيئةٍ كَانَتْ لَهُ»، وَقَدْ رُوِّينَا عَنِ ابْنِ المباركِ أَنَّهُ قاتلَ فِي صفِّ الكُفَّار، فقتلَ خلقًا مِنْهُمْ، وَهُوَ مغطَّىٰ الوَجْهِ حَتَّىٰ لَا يُعرفَ، وَكَانَ يبكِي وَلَا يُدرَىٰ بِهِ.

وَقدْ قُلتُ غيرَ مرَّةٍ: إنَّ مَنْ أَرَادَ إقبالَ القُلُوبِ إِلَيْهِ بالمحبةِ؛ فليقصدْ وَجهَ اللهِ بعَمَلِهِ؛ فَإِنَّ القُلُوبَ بيَدِهِ، وَإيصالَ المستنشَقِ إِلَىٰ المستنشِقِ من جُمْلَةِ صنعَتِه، فمَن فاحتْ مِنْهُ روائحُ الإِخْلَاصِ وَجدَ النَّاسُ طِيبَ [...][٢] فِي مُستنشقاتِهِم؛ فأحبُّوهُ، وَإِنْ كَانَ لَا يلتفتُ إِلَيْهِم؛ شغلًا بمَنِ اشتغلَ بِهِ.

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ إخلاصًا يُفردنَا بِهِ؛ إِنَّهُ كَرِيمٌ مُجيبٌ.

۞ فَصْلٌ ۞
أَسْأَلُ اللهَ ﷻ أَنْ يُدِيمَ عَلَيْنَا حُبَّ العِلْمِ، والتشاغلَ بِهِ

فَإِنَّهُ النورُ فِي الظلمةِ، والهادِي فِي الضَّلَالَةِ.

كَمْ قَدْ سَمِعْتُ عَن جَمَاعَةٍ من الزهادِ المَذْكُورين والصَّالحين المَشْهُورين أَنَّهُم كرِهُوا أَكْثَرَ كِتَابَة الحَدِيثِ وَالعلْمِ، وحثُّوا عَلَىٰ التَّعَبُّدِ، حَتَّىٰ إنَّ بَعْضَهم يَقُولُ:

---

(١) صورتها: «يبد».

(٢) صورتها: «بحره».

«لَيْسَ طَلَبُ الحَدِيثِ مِن زادِ القَبْرِ»، وَبَعْضُهم يَقُولُ: «إِنَّمَا يُرادُ العلمُ للعملِ»، وَغير ذَلِكَ.

وَلَا أحبُّ أَن أسمِّيَ مَن قَالَ؛ لِأَنَّ القُلُوبَ قَدْ عبقتْ بمحبَّتِهم، وهم أَهْلٌ للمحبةِ؛ لقوَّةِ دينِهم وَكَثْرَةِ عِبَادَتِهم؛ لَكِنْ لقلةِ علمِهم قَالُوا هَذَا. وَهَلِ الدِّينُ إِلَّا العلمُ، وَهَلْ عُرفَ اللهُ إِلَّا بِالعِلْمِ؟!

فَإِنْ قَالُوا: المُرَادُ مَعْرِفَةُ الوَاجِبِ. قلتُ: والمندوبُ، والمستحبُ، والمكروهُ، والمحرَّمُ، وَالأَدَبُ، وَمَا يُقرِّبُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، وَمَا يُبعدُ مِنْهُ، وَهَلْ يشتملُ العلمُ إِلَّا عَلَىٰ هَذَا؟!

أترىٰ لَو تشاغلَ النَّاسُ بالتعبُّدِ - كَمَا فَعَلَ وُهَيبٌ المَكِّيُّ - فحلفَ إِنْسَانٌ بالطلاقِ، أَو مَاتَ رجلٌ ثُمَّ مَاتَ ورثتُهُ، فاحتاجُوا إِلَىٰ قِسْمةِ التركةِ، أَوْ غَيرِ ذَلِكَ مِن دقائقِ الفقهِ، مَن كَانَ يوضِّحُ شَرْعَ اللهِ وحُكمَهُ فِي تِلْكَ المَسَائِلِ؟ أَو لَو جَاءَ كَافِرٌ فَقَالَ: بيِّنُوا إِلَيَّ بِالدَّلِيلِ وحدانيةَ الإلهِ؟ أَو ذكرَ نَصْرَانِيٌّ شُبْهَةً، أَو يَهُودِيٌّ أَو دَهْرِيٌّ؟!

ما الَّذِي كَانَتْ تُغنِينَا عِبَادَةُ بِشرٍ الحافِي ووهيبٍ المَكِّيِّ، وَهَلِ ارتفعَ مَن هُو أَعْلىٰ مَنْ هَذَيْنِ، كالحسنِ البَصْرِيِّ وسعيدِ بْنِ المسيبِ وَعَطَاءَ ومجاهدٍ وَالثَّوْرِيِّ وَمَالِكٍ وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَالشَّافِعِيِّ بِالعِلْمِ أَو بالتعبدِ؟! هَيْهَاتَ.

واللهِ! لَمسألةٌ [...][1] للشَّافِعِيِّ، وفرّعَ عَلَيْهَا، فعملَ النَّاسُ بِهَا، أَو فتوىٰ أفتاهَا أَحْمَدُ، وذكرَ دليلَهَا، أَو حَدِيثٌ طعنَ فِيهِ يَحيىٰ بْنُ معينٍ أَو صحَّحَهُ، فنُفِيَ حُكْمُهُ أَو بَقِيَ؛ أَفْضَل من تنفُّلِ المُتعبِّدِ خَمْسِينَ سنةً.

---

(١) في أ: «رأيتها»، وفي ي: «ومنها».

وَهَلْ يختلفُ النَّاسُ فِي أَن نفعَ العلمِ يتعدَّىٰ، ونفعَ العِبَادَةِ لَا يتعدَّىٰ؟ وَهَلْ بُعِثَ الْأَنْبِيَاءُ إِلَّا بِالعِلْمِ؟ وأبلغُ من جَمِيعِ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران: ١٨]؛ فبدأَ بنفسِهِ، ثُمَّ ثنَّىٰ بالملائكةِ، ثُمَّ ثلَّثَ بِأُولِي العِلمِ.

أوليسَ مِنْ قِلَّةِ علمِ خلقٍ مِنَ المُتزهِّدِينَ، دفنوا كُتُبَهُمْ، وأقبلُوا عَلَىٰ التَّعبُّدِ، فَلَوْ علمُوا أَنَّ هَذَا لَا يحلُّ مَا فَعلُوا، وَإِنَّمَا دَفَنَهَا قَوْمٌ مِنَ العُلَمَاءِ كسفيانَ؛ لِأَنَّهُ كَانَ فِيهَا مَا لَا يصلُحُ مِنَ الرِّوَايَةِ عَن كذَّابِينَ وضعفاءَ، واختلطَ الأَمْرُ عَلَيْهِ، فأمَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ بالكتبِ آفةٌ فَهِيَ علمٌ نافعٌ، ومالٌ؛ لَا وَجهَ لِتَضْيِيعِهِ أَصْلًا.

فَاللهَ اللهَ! أَنْ يفتيَ رجلٌ بِمَا لَا يعرفُ، أَوْ أَنْ يقبَلَ مستفتٍ مِمَّنْ لَيْسَ مِن مرتَبَتُه الفَتْوَىٰ، أَوْ أَنْ يُؤْثَرَ صومٌ أَو صَلَاةٌ أَو حجٌّ عَلَىٰ التشاغلِ بِالعِلْمِ الَّذِي لَا يُعرفُ الحَقُّ إِلَّا بِهِ، وَلَا يُتَقَرَّبُ إِلَىٰ اللهِ بسواهُ، وَقَد قَالَ لنبيِّهِ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤]، وَلَم يقلْ: زِدْنِي تعبُّدًا؛ لِأَنَّ التَّعَبُّدَ فعلُ الجَوَارِحِ الظَّاهرةِ، والعلمَ مُحصِّلةُ القَلْبِ، والقلبُ أَشْرَفُ، وَقَدْ بدأَ تعَالَىٰ بِالعِلْمِ فَقَالَ: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [محمد: ١٩].

فَصْل

تأمَّلتُ غَلبةَ العَادَاتِ عَلَى النَّاسِ الَّتِي مالَتْ بِهِمْ عَنِ الشَّرْعِ

فَإِذَا بِهَا قَدْ عمَّتْ جماهيرَ العُلَمَاءِ والمتديِّنِينَ.

فمِن ذَلِكَ: أَنِّي رَأَيْتُ أَئِمَّةَ المَسَاجِدِ يُوقِدُونَ لَيْلَةَ الجمعةِ النيرانَ الكَثِيرَةَ الخارجةَ فِي الحَدِّ، ويتباهَوْنَ فِي كَثْرَةِ ذَلِكَ، فيجتمعُ فِي هَذَا أُمُورٌ كُلُّهَا مُنْكَرَةٌ قبيحةٌ: فَمِنْهَا كَثْرَةُ النيرانِ تَشَبُّهًا بالمجوسِ، وَمِنْهَا إِضاعةُ المَالِ، من أَنَّهُمْ يُوقِدُونَ

النَّارَ عَلَىٰ منارةِ المَسْجِدِ ومواضعَ لا يستضيئوا[١] بِهَا.

وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ إِلَّا الرياءُ واللعبُ وإضاعةُ المَالِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كُلَّمَا كثرُ هَذَا كَانَ سَبَبًا لاجتماعِ النَّاس الموجبِ الفَسَادَ واللعبَ؛ فَإِنَّ تِلْكَ اللَّيْلَةَ يخرجُ الصبيانُ وَالنِّسَاءُ ويمشُونَ فِي الظُّلُمَاتِ لِأَجلِ النَّظَرِ إِلَىٰ ذَلِكَ، ويعلمُ أَئِمَّةُ المَسَاجِدِ بِهَذَا، وهُمْ يُبالِغُونَ فِي الإيقادِ مَعَ عَملِهِم بِمَا يتضمَّنُ ذَلِكَ، وَمَا رَأَيْتُ مَنْ يتحاشَىٰ مِنْ هَذَا؛ لَا أَهْلَ مدرسةٍ، وَلَا أَهْلَ مَسْجِدٍ، وَلَا صَاحِبَ زاويةٍ.

حَتَّىٰ إِنَّ بَعْضَ الصبيانِ ختمَ، وَكَانَ أَبُوهُ صَاحِبَ مالٍ وجاهٍ، فاستعارَ لَهُ أنوارَ الذهبِ والفضةِ وعلقتْ تناتير وسفن فِيهَا النيرانُ موقدةٌ، ويحضر مداخن الذهبِ والفضةِ، يُوقدُ فِيهَا العودُ، وموشاتُ ذَهَبٍ فِيهَا ماءُ الوردِ. وَهَذَا من المنكراتِ الَّتِي غلبَ فِيهَا العَادَاتُ وحبُّ اللعبِ وتواطؤ الكُلِّ عَلَيْهَا.

ورُبَّمَا احتجُّوا بِأَنَّ عُمَرَ نوَّرَ المَسَاجِدَ بالمصابيحِ. وَالخَمْسَةُ وَالسِّتَّةُ فِي المَسْجِدِ لَيْسَ بقبيحٍ؛ لِأَنَّ المُرَادَ هُوَ الضوءُ، وَإِنَّمَا يُذَمُّ مَا يخرجُ إِلَىٰ الإِفْرَاطِ والتفريطِ والطرقاتِ الَّتِي بقربٍ مِنَ المَسْجِدِ.

وَلَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا من المشايخِ القُرَّاءِ ختمَ فِي رمضانَ، فعلُوا لَهُ مَا خرجَ عَنِ الحَدِّ، وَكَانَ تمدُّ الحبالُ فِي الشوارعِ من دارٍ إِلَىٰ دارٍ، ويعلقُ فِي ذَلِكَ الحبلِ، وَكَانَ مسجدُه ببابِ أبرزَ، فعلقَ لَهُ مِن أَوَّلِ المطفرِ بِهِ إِلَىٰ بَابِ أبرزَ، ومُدتِ الحبالُ بَينَ كُلِّ تربين، وجعلَ عَلَىٰ ظُهُورِ التربِ نيرانٌ كَثِيرَةٌ، وخرجَ الصبيانُ وَالنِّسَاءُ، وخرجَ الوَالِي [...][٢] النَّاسَ، وجرَىٰ مَا شَاءَ اللهُ مِن كُلِّ قبيحٍ بَينَ القُبُورِ، وَعِنْدَ الموتَىٰ،

---

(١) كذا.

(٢) غير مقروءة.

فَلَمَّا فرغَ الشَّيْخُ من الصَّلَاةِ مشَىٰ بَين يَدَيْهِ حمَّالٌ قد حمَلَ عَلَىٰ رَأْسِهِ طنجيرُ الأرزِ، وَقَد ترك فِي سطهِ هودي[١] قصب طَوِيل، وَعَلَىٰ رَأْسِه شمعةٌ، وَكُنْتُ إِذْ ذَاكَ صبيًّا غيرَ بالغ، فرأيتُ ذَلِكَ، وتعجبتُ مِنْهُ، وقلتُ: أترك هَذَا الشَّيْخُ الكبيرُ للصبيانِ فِي اللعبِ شَيْئًا إِلَّا وَقَد زاحمَهُم عَلَيْهِ؟!

ورُبَّمَا اعْتَقَدَ الحمقَىٰ أَنَّ فِي هَذَا زينًا لدينِ الإِسْلَامِ، وبواءً[٢] لِلْكُفَّارِ، وَهَيْهات! فَإِنَّ الدِّينَ لَا يُزينُ بِمَا ينهىٰ عَنْهُ.

وَكَذَلِكَ يُزخرفُونَ المَسَاجِدَ والمصاحفَ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ هَذَا تعظيمًا لِلشَّرْعِ وَقَدْ نَهَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَن إضاعةِ المَالِ[٣]، وَقَدْ كَانَ الإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ يخرجُ لصلاةِ التراويحِ وَبِيَدِهِ سراجٌ، فيتركُها عَلَىٰ دَرَجَةِ المَسْجِدِ وَيُصَلِّي، وَهَكَذَا كَانَ السَّلَفُ، حَتَّىٰ قلَّ العلمُ، وغلبَ الهَوَىٰ، وَصَارَتِ العَادَاتُ شرائعَ.

حَتَّىٰ إِنَّ بَعْضَ الحمقَىٰ إِذَا ذُكِرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يقُول: أزعجُوا أعضاءَكم بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ! ورأيتُ بَعْضَ أَئِمَّةِ المَسَاجِدِ إِذَا ذَكَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَصَلَىٰ النَّاسُ عَلَيْهِ، غضبَ مِنْ كَوْنِهِمْ لَا يَرفعونَ أصواتَهُم خارجًا عَنِ الحَدِّ! فقلتُ: سُبْحَانَ اللهِ! مَا أجهلَ هَذَا بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَدْ سَمِعَهم يرفعونَ أصواتَهُم بِالتَّكْبِيرِ، فَقَالَ: «**ارْبَعُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا**»[٤]، ولـمَّا رفعَ أَبُو مَحْذُورَةَ صوتَه بِالأَذَانِ، قَالَ لَهُ عُمَرُ: أَمَا خِفْتَ أَنْ تَنْشَقَّ مُرَيْطَاؤكَ؟!

---

(١) كذا.

(٢) كذا رسمت وضبطت.

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٤٧٧، ٢٤٠٨، ٥٩٧٥، ٦٤٧٣، ٧٢٩٢)، ومسلم (٥٩٣) من حديث المغيرة بن شعبة. وأخرجه مسلم (١٧١٥) من حديث أبي هريرة.

(٤) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٨٣٠)، ومسلم (٢٧٠٤) من حديث أبي موسىٰ.

فالحذرَ الحَذَرَ! مِنَ عاداتٍ قَدِ اسْتولتْ عَلَىٰ النَّاسِ، وساكَنها المُتَزَيُّونَ بِالعِلْمِ وَالزُّهْدِ لقلَّةِ علمِهم، فَصَارَتْ عِنْدَهم كالدينِ، وسكتَ العُلَمَاءُ عَنْ إِنْكَارِهَا لبرودةِ الإِسْلَامِ فِي قُلُوبِهِمْ، وغلبةِ العَادَاتِ عَلَيْهِم.

نَسْأَلُ اللهَ عَجَلَّ قُوَّةً فِي الفَهمِ واليقظةِ، واتباعًا لِطَرِيقِ السَّلَفِ الصالِحِ، في مَناهِجِ الهُدَىٰ؛ إِنَّهُ كَرِيمٌ مجيبٌ.

فَصْلٌ

رَأَيْتُ مِنَ القصاصِ مَن إِذَا تَابَ الإِنسانُ عَلَى يدِه قَالَ لَهُ: أَنَا تائبٌ لَا أعودُ أَبَدًا، فرأيتُ هَذَا خَطأً، كَأَنَّه حَجْرٌ عَلَى القدرِ

وقلتُ: لَوْ قَالَ: عازمٌ أَنْ لَا أعودَ؛ كَانَ أصلحَ، وَمِنْ أَيْنَ لَنَا القطعُ عَلَىٰ الأقدارِ؟

وما زالَ هَذَا فِي نَفْسِي، حَتَّىٰ أَخْبَرَنَا يَحْيَىٰ بْنُ عَلِيٍّ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ الخياطُ، قَالَ: حَدَّثَنَا الحسنُ بْنُ الحُسينِ بْنِ حَمَكانَ، قَالَ: حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ خرجةَ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ حُميدٍ السُّلَمِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي مروانَ، عَنْ عِيسَىٰ بْنِ يونسَ، قَالَ: [كُنَّا عِنْدَ] [١] مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ القُرَظِيِّ [٢]، فأتَاهُ رجلٌ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ؛ مَا تَقُولُ فِي التَّوْبَةِ؟ قَالَ: مَا أَحْسَنَهَا، قَالَ: أفرأيتَ إِنْ أعطيتُ اللهَ عهدًا لَا أعصِيه أَبَدًا؟ قَالَ: فَقَالَ لَهُ مُحَمَّدٌ: فَمَنْ حِينَئِذٍ أَعْظَمُ جُرْمًا مِنْكَ؟ تتألَّىٰ عَلَىٰ اللهِ أَنْ لَا ينفذَ فِيكَ أَمْرُهُ [٣]؟!

---

(١) مشتبهة، والتصحيح من «تاريخ دمشق» (٥٥/ ١٤٦) والحكاية فيه من نفس الطريق.

(٢) في الأصلين: «الديلي»؛ خطأ.

(٣) انظر «الإبانة الكبرىٰ» لابن بطة (١٧٥٧).

۞ فَصْل ۞

جَرَى بيني وبينَ أَهْلِ الحَدِيثِ يَوْمًا كَلَامٌ فِي الأصولِ

فقُلتُ: الصَّوابُ مَذْهَبُ السَّلَفِ، وَهُوَ إمرارُ الآيَاتِ وَالأَحَادِيثِ كَمَا جاءَتْ مِنْ غَيْرِ تَفْسِيرٍ وَلَا تَأْوِيلٍ، وأنَا أُنكرُ عَلَىٰ جَمَاعَةٍ من أصحابِنا انبسطُوا، فتكلمُوا برَأيِهم وفهْمِهم وحملِهِمْ إِيَّاهُ عَلَىٰ مَا يعلمُونَه مِنَ الشاهدِ؛ كقولِ بَعْضِهم: «استوَىٰ عَلَىٰ العَرْشِ بذاتِه».

فَقَالَ لِي: إِنَّهُ قَدْ نُقِلَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِن أصحابِنا هَذَا، فَكَيْفَ قالُوه؟.

قلتُ: لِأَنَّهُم حملُوا مَا سمعُوا عَلَىٰ المفهومِ عِنْدَهم، فَوَقَعَ الغلطُ، وَذَلِكَ أَنَّهُم لـمَّا سمعُوا ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ فهمُوا أَنَّ المستويَ الذاتُ.

قَالَ لِي: فَهُوَ غيرُ ذاتِه؟.

قلتُ: لَا؛ فَإِنَّ القُرْآنَ قَدْ صرَّحَ، فَقَالَ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٥٩]، فَنَحْنُ نَقُولُ: هُوَ استوىٰ عَلَىٰ العَرْشِ، وَلَا نُقِرُّ هَذَا، فَإِذَا قُلْنَا: «ذاتُه عَلَىٰ العَرْشِ»، فَقد فَهِمْنَا من كَلَامِه مَا نَفْهَمُهُ مِن: «استوَىٰ زيدٌ عَلَىٰ السريرِ»، وَكَذَلِكَ يَلزمُنا فِي قَوْلِهِ: «ينزلُ»[1] أَنْ نَقُولَ: «ينزلُ بذاتِه»، فنفهَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَخْلُوَ مِنْهُ مَكَانٌ، ويمتلئَ بِهِ مَكَانٌ، فَإِذَا كَانَ فِي السماءِ لَمْ يَكُنْ عَلَىٰ العَرْشِ؛ وَهَذَا لَا يحلُّ اعتقادُه، وَمَا يُوقعُ هَذَا إِلَّا حملُ الكَلَام عَلَىٰ مفهومِنا من الشَّاهِدِ، وَهَذَا هُوَ التَّشْبيهُ، وَإِنَّمَا الصَّوَابُ أَنْ نَقُولَ كَمَا قَالَ، وَلَا نُفسِّرُهُ وَلَا نعلمُ مَعْنَاهُ، فَمَا دَهِيَ مَنْ دَهِيَ إِلَّا مِنْ هَذِهِ الجِهَةِ، وَهِيَ حملُ الآيَاتِ وَالأَحَادِيثِ عَلَىٰ مَا يُفهمُ مِنَ الشَّاهِدِ.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (١١٤٥، ٦٣٢١، ٧٤٩٤)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة. وهو متواتر، روي عن عدد كثير من الصحابة.

وَقد تخلَّصَ مِنْ هَذِهِ المِحْنَةِ جُمْهُورُ السَّلَفِ المُتَقدِّم، فكَانُوا يَقُولُونَ: «أَمِرُّوا هَذِهِ الأَحَادِيثَ كَمَا جَاءَتْ»، وَكَانُوا يَمنعُون من تفسيرِها، ثُمَّ جَاءَ قَوْمٌ بَعْدَهُمْ فلمْ يرتضُوا طَرِيقَهم، فأخذُوا [...][1] بالكَلَامِ الَّذِي أنطقَهُم بِهِ فهمُ الأَوْصَافِ، وحَملُها عَلَىٰ الشَّاهِدِ.

فمِنَ الغلطِ القبيحِ مَا ذَكَرَهُ أَبُو بَكْر بْنُ خزيمةَ - وَكَانَ مِنْ كِبَارِ الأئمةِ - فِي «كِتَابِ التَّوْحِيدِ»؛ فَإِنَّهُ ذكرَ الأَحَادِيثَ، فلو وَسِعَهُ مَا وَسِعَ مَنْ قبلَهُ مِنَ الأَئِمَّةِ لسَكتَ عِنْدَ رِوَايَتِهَا، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ التوسعَ فضاقَ عَلَيْهِ الخناقُ، فَقَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر: ١٤]: لِرَبِّنَا عَيْنَانِ يُبصِرُ بِهِمَا. وأنَا أتعجبُ! مِنْ أَيْنَ لَهُ هَذِهِ التَّثْنِيَةِ؟! ثُمَّ قَالَ: بَابُ إِثْبَاتِ الرِّجْلِ لِلهِ ﷻ، وَإِنْ رغمتْ أُنوفُ المُعطِّلَةِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ﴾ [الأعراف: ١٩٥] قَالَ: فأَعْلَمَنَا أَنَّ مَنْ لَا رجلَ لَهُ وَلَا يَدَ فَهُوَ كالأنعامِ. وَلَقَد طَالَ تعجُّبِي مِنْ هَذَا الرَّجُلِ المنبسطِ فِي الكَلَامِ الَّذِي يلْزَمُهُ أَنْ يُثْبِتَ أذنًا أَيْضًا.

وَقَدْ حَكَىٰ الخطابيُّ عَن بَعْضِ شُيُوخِهِمْ المُحدِّثِينَ أَنَّهُ قَالَ: إنْ قَالَ لَنَا قَائِلٌ: كَيْفَ ينزلُ؟ قُلْنَا: ينزلُ كَيْفَ شَاءَ، فَإِنْ قَالَ: هَل يتحركُ؟ قُلْنَا: إنْ شَاءَ تحرَّكَ، وَإِن شَاءَ لم يتحرَّكْ. قَالَ الخطابيُّ: وَهَذَا خَطَأٌ فاحشٌ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَا يُوصفُ بالحركةِ؛ لِأَنَّ الحركةَ والسكونَ متعاقبانِ فِي محلٍّ وَاحِدٍ، وهُمَا مِنْ أوصافِ المحدَثِ، واللهُ متعالٍ عَنْهُمَا، وَلَو جَرَىٰ هَذَا الشَّيْخُ عَلَىٰ طريقةِ السَّلَفِ لم يخرجْ بِهِ القَوْلُ إِلَىٰ مِثْلِ هَذَا الخَطَإِ الفاحشِ.

قلتُ: وَقَدْ ذكرَ أَبُو بَكْرِ بْنُ الأَنْبَارِيِّ فِي «المُشكل» فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢١٠]، فَقَالَ: أَهْلُ وَأَصْحَابُ الحَدِيثِ يَقُولُونَ: يَأْتِي اللهُ كَمَا شَاءَ؛ إثباتًا لَا زوالَ وَلَا نقلةَ، ومحظورٌ عَلَيْنَا أَنْ نَقُولَ: كَيْفَ يَأْتِي.

---

(١) صورتها: «يتمعون».

قلتُ: وَهَذَا الرَّجُل أَرَادَ أَن يجعلَ المجيءَ وصفًا لِلهِ سُبْحَانَهُ، وَأَنْ يمْتَنِع مِن تأويله، فَرمَزَ إِلَىٰ التأويل وَمَا يَدرِي؛ لِأَنَّ صِفَاتَ الذاتِ لَا تدخلُ تَحْتَ المشيئةِ، وَلَا الكيفيةِ، وَإِذَا جَاءَ كَمَا شَاءَ دلَّ عَلَىٰ تَأْوِيلِ الآيَةِ.

وَقَدْ جَاءَ بعدَ هَؤُلَاءِ أَقْوَامٌ، مِنْهُمْ ابْنُ حامدٍ، فَقَالَ: الاستواءُ مماسَّةٌ، والنزولُ انتقالٌ. وَهَذَا كُلُّهُ تَشْبِيهٌ، وجهلٌ بالخالقِ، وحملٌ لأوصافِه عَلَىٰ الشَّاهِدِ، وَقَد نسيَ هَذَا المِسْكِينُ أَنَّ صِفَاتِ اللهِ لَا تتجدَّدُ، وَلَا يَجُوزُ عَلَيْه الحركةُ وَلَا السكونُ.

وَكُلُّ هَؤُلَاءِ جُهَّالٌ بِاللهِ ﷻ، وَمَا أخوفَنِي أَنْ لَا يَصِحَّ لَهُمْ إِيمَانٌ وَلَا يرفعَ لَهُمْ عملٌ؛ لِأَنَّهُمْ عبدُوا صُورَةً مشبهة الصور، فَكَانُوا كعُبَّادِ الأَصْنَامِ، تَعَالَىٰ اللهُ عَنِ اعْتِقَادِهِمُ المبنيِّ عَلَىٰ جَهلِهِم.

وَقَالَ بَعْضُ مشايخِهِم: لـمَّا خلقَ الأَشْيَاءَ خلقَها بصفةِ التَّحْتِ، وَصَارَ الفوقُ لَهُ.

وَهَذَا قَوْلُ جَاهِلٍ بِمَا يَجُوزُ عَلَىٰ اللهِ سُبْحَانَهُ؛ لِأَنَّ التحتَ والفوقَ لم يعرفْ إِلَّا بوجودِ الأجسامِ، وَإِنَّمَا تقابلُ الأجسامُ، فأمَّا من لَيْسَ بجسمٍ؛ فَلَا تُقابِلُهُ الأجسامُ. وَلَو نُوقِشَ هَؤُلَاءِ الجهلةُ، وَقِيلَ لَهُمْ: إِذَا ارتفعَ شخصٌ إِلَىٰ العَرْشِ، ثُمَّ ارتفعَ فَوْقَهُ، فَعَلَىٰ قَوْلِهِمْ إِنَّهُ يصادمُ الذاتَ؛ إِذْ لَا فَرْقَ بَيْنَ الجسمِ المرتفعِ والعرشِ الملاصقِ.

وَقَالَ بَعْضُ الحمقَىٰ مِنْهُمْ: لَوْلَا أَنَّهُ عَلَىٰ العَرْشِ مَا قَالَ «ينزلُ»(١). فَفَهِمَ هَذَا مِنْ الوَصْفَيْنِ مَا فَهِمَ مِن الأجسامِ. وَنَحْنُ [...](٢) اللهَ تَعَالَىٰ مِن اعتقادِ الجُهَّالِ المشبهةِ، وَمَنْ لَا يعرفُ اللهَ ﷻ وَلَا مَا لَا يجِبُ لَهُ يجِبُ لَهُ، ويتنزَّهُ عَنْهُ.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١١٤٥، ٦٣٢١، ٧٤٩٤)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة.
وهو متواتر، روي عن عدد كثير من الصحابة.

(٢) مشتبهة، ولعلها: «ننزه».

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَظَاهِرُ الأَحَادِيثِ عَلَىٰ خِلَافِ هَذَا.

فالجوابُ: إنَّ مرادَ الشَّرْعِ كَانَ الإثباتَ، فذكرَ مَا يوجبُ الإثباتَ من قدم ويدٍ وسمعٍ وبصرٍ ونزولٍ واستواءٍ، وحدَّثَ القومَ بِما يَأْنسونَ بِهِ ويجوزُ للعربِ[1] مَا يعرفُونَه، كقولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يُرِدِ النَّفَقَةَ المعلومةَ الخارجةَ عَن يدٍ، وَإِنَّمَا أَرَادَ إخراجَ الأَشْيَاءِ بالقدرةِ، كَمَا يُخرجُ المنفقُ، وَقَالَ: «**مَنْ أَتَانِي يَمْشِيَ أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**»[2]، وَقَالَ: «**يُرَبِّهَا لِأَحَدِكُمْ فَتَرْبُو فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ**»[3].

وَالعُلَمَاءُ فهمُوا المَقْصُودَ مِنْ هَذِهِ الأَشْيَاءِ، وَجَاءَ قَوْمٌ من شرح مَا علمُوا أَن سبب قُلُوب[4] جمعتْ بِقَصْدِ الإثباتِ، فأمرُوا بالإمساكِ عِنْدَ ذكرِ الصِّفَاتِ، وَهَذَا هُوَ الأجودُ، ولـمَّا علمَ الحَقُّ سُبْحَانَهُ أَنَّ مَا قَدْ ذُكِرَ رُبَّمَا أَوْجَبَ تشبيهًا مَحَىٰ ذَلِكَ مِنَ القُلُوبِ بِقَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

فَمَنْ خرجَ عَن سمتِ السَّلَفِ وطريقِهم، وفَهِمَ من أوصافِ الحَقِّ سُبْحَانَهُ مَا يُفهَمُ من صِفَةِ الشَّاهِدِ؛ فَهُوَ المُبْتَدِعُ المُشبِّهُ حقًّا، وَقَد قَالَ أَحْمَدُ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠]: يَأْتِي أمرُه. وَهَذَا لِأَنَّهُ فَهِمَ أَنَّ الإثباتَ مُسْتَحِيلٌ عَلَيْهِ، فأضافَ ذَلِكَ إِلَىٰ أمرِه، وَقَالَ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: ٤] بعلمِه، وَإِنَّمَا تكلَّم فِي الشَّيْءِ اليسيرِ مِنْ هَذَا لينفيَ التَّشْبِيهَ، وَلَم يرَ أَنْ يُكثِرَ الكَلَامَ فِي ذَلِكَ، فسدَّ البَابَ، فَالأَمْرُ بالتسليمِ.

---

(١) كذا.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة.

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٠١٤) والترمذي (٦٦١) وقال: حسن صحيح. والنسائي (٢٥٢٥)، وابن ماجه (١٨٤٢) من حديث أبي هريرة.

(٤) كذا.

فنسأَلُ اللهَ سلامةً فِي عقائِدنَا من الشكوكِ والشُّبَهِ؛ لنعرفَ مَا يجِبُ لَهُ ويجوزُ ويستحيلُ، ونفهمَ رموزَ الشَّرْعِ ومقاصدَه فِي الخِطَابِ، ونسلمَ مِن ظنونِ المُشبِّهةِ المُتوهِّمةِ، الَّذِينَ فَهِمُوا مِنَ الغَائِبِ مَا فَهِمُوا مِن الشَّاهِدِ، فتكلَّمُوا وصنَّفُوا، فَمِنْهُم مَن يَقُولُ: الاستواءُ صِفَةُ ذَاتٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: صِفَةُ فعلٍ، والقدمُ عِنْدَهُم بَعْضٌ للقديمِ، يُوضعُ فِي النَّارِ، وَلَو سلَّمُوا للمنقولاتِ كَمَا فَعَلَ السَّلَفُ، لَكِنَّهُم تكلَّمُوا عَلَىٰ مُقتضَىٰ فَهْمِهِمُ الشَّاهِدَ، فهلكُوا، وَ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

فَصْل

أصلحُ مَا فعلَ القاصدُ لحفظِ دينِه التقللُ مِنَ الدُّنْيَا، والاقتصادُ عَلَى البُلغةِ

فَإِنَّ مَثَلَ المُوغِلِ فِيهَا كمَثَلِ المُلقِي نَفْسَهُ فِي البَحْرِ، ثُمَّ إِذَا ندمَ لَمْ ينفعْهُ ندمٌ، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يتخلَّصَ بالسباحةِ لَمْ يمكنْهُ.

وَإِنِّي رَأَيْتُ رَجُلَيْنِ كَانَا فِي بِدَايَةِ أمرِهِمَا عَلَىٰ غَايَةِ مَا يَكُونُ مِنَ الزُّهدِ وَالصَّلَاحِ وإنكارِ المنكرِ، فألحَّ عَلَيْهِمَا الفقرُ، فداخلَا السُّلْطَانَ بِنَوْعِ تَأْوِيلٍ، وقَبِلَا مِنْهُ لِمَكَانِ الحَاجَةِ، فَمَا زَالَتِ الأُمُورُ ترقَّىٰ بِهِمَا، إِلَىٰ أَنْ حُكِيَ عَنْهُمَا استحلالُ القَتْلِ لِلْمُسْلِمِينَ بالتأويلاتِ الفاسدةِ، وَكِلَاهُمَا أهلكَ عاجلًا، فاتَّعظْتُ بِهِمَا، وقلتُ لنفسِي: إيَّاكِ والتبرمَ بقلَّةِ الدُّنْيَا؛ فإنَّكَ عَلَىٰ طَرِيقِ السَّلَامَةِ.

كَمَا قَالَ الشاعرُ:

إِنَّ السَّلَامَةَ مِنْ ليلَىٰ وجَارَتِهَا ** أَنْ لا تَمُرَّ عَلَىٰ حَالٍ بِوَادِيهَا

وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَجَافَىٰ أموالَ السلاطينِ، وأبالِغُ، حَتَّىٰ إِنَّهُ كَانَ بعضُ الوُلَاةِ يَنْفذُ لِي شَيْئًا فَلَا أتناولُ مِنْهُ، ويُحْضِرُنِي عِنْدَهُ فأصبرُ عَلَىٰ العطشِ وَلَا أشربُ عِنْده المَاءَ، فألحَّ عَلِيَّ الفقرُ والعائلةُ، فقَبِلْتُ بتأوُّلٍ شَرْعِيٍّ؛ لأَنِّي رَأَيْتُ أَنَّ مَا فِي يدِهِ لَيْسَ لَهُ، وَإِنَّمَا هُوَ فِي بَيْتِ المَالِ، وعرفتُ ذَلِكَ الرَّجُلَ أَنَّهُ ينهَىٰ عَنِ الظُّلْمِ وَلَا يُحِبُّهُ، فَأَخَذْتُ، ثمَّ احْتَجْتُ فأكلتُ.

فوجدتُ عَلَىٰ قلبِي ظلمةً لَا أصفُها، وترامتْ بِي إِلَىٰ أَنْ حُرِمتُ قِيَامَ اللَّيْلِ ودمعَةَ العَيْنِ؛ وصِرتُ أتأوَّلُ[1] فِي أَشْيَاءَ لَا تحسنُ، فَلَمَّا ذَهَبَ ذَلِكَ الشَّخْصُ عرفتُ عيبَ مَا كُنْتُ فِيهِ، كمَن يخرجُ من المدبغةِ فأحسَّ بِمَا كَانَ فِيهِ بعدَ الخُرُوجِ.

وَمَا زِلْتُ أتلافَىٰ أمرِي، وأندمُ عَلَىٰ مَا كَانَ مِنِّي، حَتَّىٰ دبتِ العَافِيَةُ فِي قلبِي بعدَ إشرافِه عَلَىٰ التلفِ، وبقيتْ آثَارُ تِلْكَ الأُمُورِ وَلَمْ تَزُلْ، فَكَانَ من لطفِ اللهِ تَعَالَىٰ فِي سلبِ ذَلِكَ الشَّخْصِ بالموتِ، فتركتْنِي تِلْكَ الأَشْيَاءُ لا أَنِّي تركتُها، وَمَا أفسدتُ من كسبِي إِلَّا ندمِي عَلَىٰ حالِي.

فالحذرَ الحَذَرَ! مِنَ فَسَادِ التأويلِ، والتعرضِ للدُّنْيَا الساحرةِ الخادعةِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

فَصلٌ

تأمَّلتُ السَّبَبَ فِي شِدَّةِ خوفِ العُلَمَاءِ بِاللهِ سُبْحَانَهُ، وَفِي أمرِ الجاهلينَ بِهِ

فرأيتُ ذَلِكَ مِنْ بَابِ المعرفةِ بِهِ وبصفاتِه.

فَإِنَّ العُلَمَاءَ المُحقِّقينَ علمُوا أَنَّهُ كَمَا لَا شبهَ لذاتِه، لَا مِثْلَ لصفاتِه، فرحمتُه لَيْسَتْ رِقَّةً، فَإِنَّهُ يَفْعَلُ بمُقتَضَىٰ مشيئَتِهِ فِي الخلقِ، وَلَا يُحابِي نسبًا، وَلَا شخصًا.

---

(١) مشتبهة.

وَهَذَا الَّذِي قوَّىٰ انزعاجَ العالِمينَ بِهِ، فأمَّا الجُهَّالُ بِهِ، فَقَالَ[١]: هُوَ رحيمٌ، وَهُوَ أكرمُ مِنْ أَن يعاقبَ المُوحِّدينَ لَهُ، وحملُوا وصفَه بالرحمةِ عَلَىٰ مَا يعقلُونَ مِنْ صِفَاتِ الخلقِ، وظنُّوا أَنَّهُم إِذَا وَقَعُوا فِي النَّارِ يستغيثُون يرحمُهم كَمَا يرحمُ المخلوقُ المخلوقَ، وَلوْ كَانَت رَحْمَتُهُ كرحمتِنا، مَا أَجَازَ ذبحَ عصفورٍ، وَلَا أذاقَ مؤمنًا كأسَ الموتِ.

فثبتَ عِنْدَ العُلَمَاءِ أَنَّ صفتَهُ لَا كالصفاتِ، كَمَا أَنَّ ذاتَه لَا كالذواتِ، فقويَ قلقُهم، حَتَّىٰ كَانَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ يبكِي لَيْلًا وَنَهارًا، وَيَقُولُ: «أخافُ أَنْ يطرحنِي فِي النَّارِ، وَلَا يُبالِي».

فافهمْ هَذَا الفَصْلَ؛ فتحقيقُهُ هُوَ الَّذِي أزعجَ العُلَمَاءَ، والغفلةُ عَن ذَلِكَ هِيَ الَّتِي ورطت الغافِلِينَ؛ وَالسَّلَامُ.

فَصْل
مَا رَأَيْتُ أَشْرَفَ للعُمرِ مِنْ سماعِ الحَدِيثِ

فَإِنَّه إِذَا وَقَعَتْ شهوتُهُ فِي القَلْبِ طَلَبَ العوالِي من الأجزاءِ، وطلب التواريخَ والأسماءَ والكُنَىٰ والضعافَ وأحوالَ الرِّجَالِ فِي القدحِ والتعديلِ[٢]، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ، وَكُلُّ ذَلِكَ سهلٌ شهيٌّ إِلَىٰ النَّفْسِ، مَعَ مَا يتضمَّنُ من الحِكَايَاتِ والمُلَحِ.

فَلَا يزالُ الإِنْسَانُ يكتبُ ويجمعُ ويسمعُ، وَالشَّيْء كَثِيرٌ، وَكُلَّمَا جَاءَ تَضاعَفَ، إِلَىٰ أَنْ يفتحَ المحدثُ عينَه بعدَ خَمْسِينَ سنةً، فيرَىٰ أَشْيَاءَ قَدْ فاتَتْهُ مِنَ الأَحَادِيثِ

(١) كذا في أ، وفي ي: «الجها فقال».
(٢) في ي: «والعقل».

والأجزاءِ، وَمَعَ هَذَا قَدْ فاتَهُ الأهمُّ الأَكْبَرُ، وَهُوَ الفقهُ، وَلَا يكادُ يدرِي مَعْنَىٰ الحَدِيثِ وَلَا فقهَهُ؛ لِمَا قَدْ استغرقَهُ من كِتَابَةِ الأَحَادِيثِ، وَهَذَا شَيْءٌ لَا يَكَادُ يُملكُ؛ فَإِنَّ طالبَ الحَدِيثِ إِذَا رَأَىٰ جزءًا عاليًا، أَو فِيهِ أَحَادِيثُ مُستحسَنَةٌ؛ لَمْ يَصْبِرْ عَنْهُ.

فالمتيقظُ لنفسِهِ يحذرُ ذَلِكَ مِثْل مَا يحذرُ السالحُ الوُقُوعَ فِي السورِ[1]، وَيَأْخُذُ الأطرافَ، وَمَا لَا بُدَّ مِنْهُ، ويسرعُ إِلَىٰ الفقهِ الَّذِي هُوَ مَقْصُودُ الحَدِيثِ.

وَإِنَّ أقبحَ مِنْ هَذَا أَن يتشاغلَ طَالِبُ العِلْمِ بمسائلِ الفقهِ، وَلَا يدرِي مَا الحَدِيثُ، فيبنِي الأَحْكَامَ مُقلِّدًا، وَلَا يعرفُ الحَدِيثَ الَّذِي عَلَيْهِ مَدَارُ الحكمِ، وَلَا يعرفُ تاريخًا وَلَا حالًا مِنْ أَحْوَالِ الرَّسُولِ ﷺ، وآدابِ أَصْحَابِهِ؛ فَهَذَا يَكُونُ كالأعمَىٰ مُقلِّدًا لِغَيْرِهِ.

وأقبحُ من الحالتينِ أَن يتشاغلَ الإِنْسَانُ بالفقهِ وَالحَدِيثِ، وَيَتْرُكَ المَقْصُودَ بِهِمَا، وَهُوَ العَمَلُ، وأقبحُ الأَحْوَالِ الثَّلَاثَةِ أَنْ يقفَ مَعَ صُورَةِ العَمَلِ، فَلَا يُثمرُ لَهُ المعرفةَ بالمعبودِ، وَلَا الأُنسَ بِهِ، بَلْ رُبَّمَا أورثَه أصحابًا[2]، وَكُلُّ ذَلِكَ إِنَّمَا يحصلُ بتوفيقٍ إلهيٍّ، وإِلْهَامٍ ربَّانِيٍّ، وَذَلِكَ فضلُ اللهِ يُؤتِيهِ من يشاءُ.

---

(١) كذا.

(٢) كذا.

۞ فَصْلٌ ۞

إِذَا وُهِبَ لِلْعَبْدِ نظرٌ صَحِيحٌ تأمَّلَ الصَّوَابَ بدليلِهِ، وَلَمْ يُقلِّدْ أَحَدًا، وَلَمْ يجرِ عَلَى نمطٍ وَاحِدٍ

فإنَّكَ تَرَىٰ خلقًا مِنَ القدماءِ غرَّهُمُ النَّسَبُ والشرفُ، وتشاغلُوا بمفاخرِ الآبَاءِ، وتعجرفُوا بِذَلِكَ عَلَىٰ الفُقَرَاءِ، وأحبُّوا الولاياتِ والتقدمَ والرياسةَ، وتَرَىٰ خلقًا مالُوا إِلَىٰ الزهدِ فآثرُوا الذلَّ والفقرَ، ورأَوُا المباحاتِ كَأَنَّهَا محظوراتٌ، فصارُوا كالزَّمنَىٰ فِي بَابِ العطلةِ، وتَرَىٰ أقوامًا مالُوا إِلَىٰ صُورَةِ العَمَلِ، وأقوامًا وقفُوا مَعَ صُورَةِ العَمَلِ والتعبُّدِ، وقومًا تشاغلُوا بجمعِ المَالِ؛ وَكُلٌّ يجتمعُ عَلَىٰ شاكلتِهِ.

وَالصَّوَابُ مِنْ ذَلِكَ: إِنَّمَا يُلهِمُهُ مَن رُزِقَ عَقْلًا صَحِيحًا ونظرًا سليمًا، فَهُوَ يتبعُ الأَفْضَلَ، ويقضِي لِكُلِّ شَيْءٍ بمقدارِ مَا يصلحُ القَضَاءُ لَهُ.

وَإِذَا أردتَ أَن تتأملَ مَن جُمعتْ لَهُ الفَضَائِلُ كُلُّهَا؛ فَهُوَ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ؛ بَيْنَا تراهُ فِي الفخرِ يَقُولُ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ**»[1] تراهُ فِي التَّوَاضُعِ يَقُولُ: «**لا تُفَضِّلُونِي عَلَىٰ يُونُسَ**»[2]، وبَيْنَا هُوَ [يَهَبُ غنمًا بينَ جَبَلَيْنِ][3]، إذا هو يَطوي الأيامَ ويشدُّ

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٢٧٨)، وأبو داود (٤٦٧٣)، وأحمد (١٠٩٨٥) من حديث أبي هريرة. وأخرجه أحمد (١١٠٠٠)، والترمذي (٣٦١٥)، وابن ماجه (٤٣٠٨) من حديث أبي سعيد. وله شواهد أخرىٰ.

(٢) **صحيح**: أخرجه بمعناه البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (٢٣٧٧)، وابن حبان (٦٢٤١) من حديث ابن عباس. وأخرجه البخاري (٣٢٣٤)، وابن حبان (٦٢٣٨) من حديث أبي هريرة. وأخرجه البخاري (٤٣٢٧) من حديث ابن مسعود.

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (٦٠٨٦) من حديث أنس.

الحجرَ[١]، وبَيْنَا هُوَ] [٢] ينامُ ويستريحُ إِذَا هُوَ يقومُ بالليلِ حَتَّىٰ ورمتْ قدمَاهُ[٣]، وبَيْنَا هُوَ يَقُولُ: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا»[٤] إِذَا هُوَ يطلبُ المستحسناتِ للتزوجِ، وبَيْنَا هُوَ يحثُّ عَلَىٰ العلمِ إِذَا هُوَ يُحرِّضُ عَلَىٰ العِبَادَةِ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الفنونِ المتضادةِ.

فَهَذَا هُوَ الرَّجُلُ الكاملُ الَّذِي لَمْ يقفْ مَعَ انبساطِ سُلَيْمَانَ، وَلَا مَعَ زُهْدِ عِيسَىٰ، بَل أَعْطَىٰ الأَحْوَالَ حَقَّهَا؛ فاعرفْ رَمْزَ مَا أشرتُ إِلَيْهِ.

فَصْلٌ

مخايلُ مَا يَكُون مِنَ الرَّجُلِ يَبينُ للفَطِنِ مِنْ صِغَرِ الطِّفْلِ

وَذَاكَ أَنَّ الطِّفْلَ يُخلقُ لَهُ ذهنٌ وعقلٌ عَلَىٰ مقدارِه، فَإِذَا رأيتَه يَقُولُ للصبيانِ: «أَنَا الأَمِيرُ»، فَاعْلَمْ [عُلوَّ هِمَّتهِ، فَإِذَا رَأَيتَهُ يقولُ: مَع مَن أَكونُ؟ فَاعلَمْ][٥] خِسَّةَ هِمَّتِهِ، وكذلكَ تلمَّحْ جَمِيعَ أَحْوَالِهِ؛ فَإِنَّهَا تَدُلُّ عَلَىٰ عواقبِ أمورِه.

وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَأْتِي وَهُوَ صَغِيرٌ إِلَىٰ مجلسِ جَدِّه عبدِ المطلبِ فِي الحِجْرِ، فيقعدُ فِي صدرِه، فيقولُ عبدُ المطلبِ: «إِنَّ لِابْنِي هَذَا شأنًا».

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٥٣٧٣) من حديث أنس.

(٢) من ي.

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨٢٠) من حديث عائشة. وروي عن غيرها أيضًا.

(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٢٦١٣) من حديث عبد الله بن عمر. والترمذي (٢٣٧٧) من حديث ابن مسعود، وقال: حسن صحيح. وأحمد (٢٧٤٤) من حديث ابن عباس.

(٥) من ي.

وَقَدْ كَانَتِ الشجاعةُ تُعرفُ فِي ابْنِ الزبيرِ مِنْ صغرِه، حَتَّىٰ إِنَّهُ كَانَ يَوْمًا يلعبُ مَعَ الصبيانِ وَهُوَ صبيٌّ، فمرَّ رجلٌ فصاحَ عَلَيْهِم، ففرُّوا ومشَىٰ ابْنُ الزبيرِ القَهْقَرَىٰ، وَقَالَ: يا صِبيانُ؛ اجْعَلُونِي أَمِيرَكُم، وشُدُّوا بِنَا عَلَيْهِ. ومرَّ بِهِ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ صبيٌّ يلعبُ مَعَ الصبيانِ، ففرُّوا، ووقفَ، فَقَالَ لَهُ: مَا لكَ لَم تفرَّ مَعَ أصحابِك؟ قَالَ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، لَمْ أُجْرِمْ فأخافَ، وَلَمْ تكنِ الطَّرِيقُ ضيقةً فَأُوَسِّعَ لَكَ.

وَقد قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لابنِ مَسْعُودٍ أَوَّلَ مَا لَقِيَهُ، فَقَالَ: عَلِّمْنِي يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ: «إِنَّكَ غُلَامٌ مُعَلَّمٌ»[1]، وَدَخَلَ رَسُول اللهِ ﷺ المُتَوَضَّأَ، فوضعَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ طَهُورًا، فَلَمَّا خرجَ قَالَ: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»[2].

وَقَدْ كَانَ الشبليُّ يرىٰ ابْنَ شمعونَ وَهُوَ صبيٌّ، فيقولُ: إنَّ شَيْئًا لِلهِ فِي هَذَا الصبيِّ من العجائبِ، وَلَوْ ذكَرْنَا هَذَا لطالَ، وقلَّ أَنْ يَكُونَ أَحَدٌ مِمَّنْ رَأَسَ إِلَّا ورياستُه مِنَ الصِّبَىٰ تتَراءَىٰ. وَكَذَلِكَ المرذلونَ مِنَ الصغرِ تبينُ عَلَيْهِمُ الأَحْوَالُ.

وَإِنَّمَا هِيَ أَخْلَاقٌ موضوعةٌ فِي الخلقِ، وغايةُ الرياضةِ أَنْ يكفَّ شرًّا ويَستَجلِبَ عَلَىٰ الكُرْهِ خَيْرًا، والطبعُ أغلبُ. قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «المُتخلِّقُ إِلَىٰ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يعودُ إِلَىٰ خُلُقِهِ الَّذِي هُوَ خُلُقُهُ».

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَهَلْ فِي هَذَا حيلةٌ؟

قلتُ: إنْ غمَّكَ مَا ترىٰ مِنْ نفسِكَ مِنْ عَلَامَاتِ الإدبارِ، فَذَاكَ إقبالٌ، وَإِنْ لَمْ يَغُمَّكَ فَلَا تسألْ سؤالًا نابَ عَنْ غَيْرِهِ.

---

(١) **حسن**: أخرجه أحمد (٣٥٩٨، ٣٥٩٩، ٤٣٣٠، ٤٤١٢، ٤٣٧٢)، وابن حبان (٦٥٠٤، ٧٠٦١) من حديث ابن مسعود.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٤٣)، ومسلم (٦٤٥١) من حديث ابن عباس.

﴿ فَصْل ﴾

تاقتْ نَفْسِي إِلَى بَعْضِ الأغراضِ المُبَاحَةِ

فأقبلتُ أَسْأَلُ اللهَ سُبْحَانَهُ ذَلِكَ، فصاحَ بي هاتفٌ من نَفْسِي: ومثلُك ينطقُ؟! وَقَد فعلتَ مَا فعلتَ مِنَ الذُّنُوبِ، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ بِشرٍ الحافِي: «رُبَّمَا مددتُ يَدِي للسؤالِ، ثُمَّ أَسبِلُهَا، وأقولُ: مِثلِي لَا يَسْأَلُ، مَا أبقتِ الذُّنُوبُ لِي وجهًا، فغايةُ أمرِك أَن يَكُونَ سؤالُك: اغفرْ لِي؛ فَحَسبُ، فأَمَّا أَنْ تسألَ الرَّاحةَ فتكونُ كمترخصٍ فِي سفرِ المَعْصِيَةِ».

فسكنتُ إِلَىٰ هَذَا الخاطرِ مُدَّةً، وَصِرْتُ لَا أتجاسرُ عَلَىٰ السُّؤَالِ، وأقولُ: مِثْلِي لَا يَسْأَلُ، ثُمَّ انبعثتْ لِي فكرةٌ، فقلتُ[1]: مِنْ ضَرُورَةِ وُجُودِ الآدميِّ حاجاتُه، وَلَا مسؤولَ سِوَىٰ الخالقِ سبحانَه؛ فَإِنْ كَانَ لَا يَسْأَلُ إِلَّا مَنْ لَا ذَنبَ لَهُ سُدَّ بَابُ الدُّعَاءِ، ثُمَّ رُؤيةُ السائلِ أَنَّهُ لَا ذَنبَ له أوحشُ مِنَ الذنبِ؛ لِأَنَّهُ يَرَىٰ أَنَّهُ مستحقٌّ ومستأهلٌ ونظيفٌ، ورُبَّمَا كَانَتْ ذلةُ المعترفِ بذنبِهِ أبلغَ فِي الإِجَابَةِ.

وَلِي بالأنبياءِ أُسوةٌ؛ فَإِنَّ سُلَيْمَان عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ وقوعِهِ فِي الفِتنةِ قَالَ: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ [ص: ٣٥]، وَمَا اقْتَصَرَ عَلَىٰ الغفرانِ، وَلَا وَقفَ مَعَ ذُلِّ الخَطَإِ، إِلَّا تلمَّحَ كرمَ الكريمِ، فرَأَىٰ الذنبَ محتقرًا بالإضافةِ إِلَىٰ كرمِهِ، وَأَنَّهُ لَا مسؤولَ سِوَاهُ، فَسَأَلَ.

وَمَنِ هَذَا القبيلِ جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، خرجُوا فلقُوا [عَمْرو][2] بْنَ الحَضْرَمِيِّ، فقتلُوه فِي أولِ يَوْمٍ من رجبٍ، وَكَانَ القِتَالُ محظورًا فِي الأشهرِ الحُرُمِ، وَلَمْ يعلمُوا أَنَّهُ أَوَّلُ يَوْمٍ من رجبٍ، فعيَّرَهُمُ المُشْرِكُونَ، فنزلَ عُذْرُهُمْ

---

(١) في ي: «فعلمت».

(٢) في أ: «بن» وليست في ي، والتصويب من كتب التفسير.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ ﴾ [البقرة: ٢١٧] الآيَةَ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّه قَدْ أُقِيمَ عُذْرهُمْ، قَالُوا: فَهَلْ لَنَا أَجْرُ الجِهَادِ، فنزلتْ هَذِهِ الآيَةُ الَّتِي بَعْدَهَا ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ ﴾ [البقرة: ٢١٨].

فَقَدْ ينحلُّ لِي مِنْ هَذِهِ الملاحظةِ: أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يعظمَ الذنبُ عِنْد المذنبِ لمَكَانِ تَعْظِيمِ الناهِي، فَلَا ينساهُ أَبَدًا، وَلَا يسكنُ حَتَّىٰ يعلمَ الغفرانَ، وَلَو علمَ بَقِيَ الحياءُ مِمَّا جنَىٰ، كَمَا قَالَ الفضيلُ: «وَا سَوْأَتَاهُ منكَ! وَإِن عفوتَ»، وَقَالَ الشبليُّ: «احشرنِي أعمَىٰ، فَمَا لِي عينٌ تراكَ».

وَمَعَ هَذَا؛ فَلَا يَنْبَغِي الوُقُوفُ مَعَ هَذَا الإِطْلَاقِ حَتَّىٰ يَكُونَ مانعًا مِنْ سؤالِ الكريمِ، بَل يَنْبَغِي أنْ يَتلمَّحَ فَضْلَهُ، فيحتقرَ الذنبَ، ويقعَ الطَّلبُ.

وَقَد كُنْتُ تارةً أتلمحُ ذنبِي، فأقولُ: مِثْلِي لَا ينطقُ سؤالًا؛ إِلَّا أَنْ يَقُولَ: اغفرْ لِي، ثُمَّ تلمَّحتُ كرمَهُ وفضلَهُ، فقلتُ: وعِزَّتِكَ! إنَّ شِدَّةَ خوفِي قَدْ زاحمَه لِيَ اليأسُ، وَإِنِّي آنفُ لكرمِهِ مِنْ هَذِهِ الحَالَةِ.

وَهَاتَانِ الخلتانِ تعتدلُ[1] عندَ النَّظَرِ الصَّحِيحِ، وَإِلَيْهَا أُشِيرَ بِقَوْلِهِ: «لَوْ وُزِنَ خَوْفُ الْمُؤْمِنِ وَرَجَاؤُهُ لَاعْتَدَلَا»[2] إِلَّا أَنَّه قَدْ تُغَلَّبُ وَاحِدَةٌ عملًا وحالًا لَا اعتقادًا،

---

(١) كذا.

(٢) لا أصل له في المرفوع: قال السخاوي في «المقاصد الحسنة» (ص٥٥٥): «لا أصل له في المرفوع، وإنما يؤثر عن بعض السلف، فللبيهقي في «الشعب» من طريق ثابت عن مطرف قال: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه ما رجح أحدهما علىٰ صاحبه، ومن طريق الأصمعي قال: قال مطرف: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه بميزان ما كان بينهما خيط شعرة، ومن طريق ابن عيينة عن شعبة قال: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه ما زاد خوفه علىٰ رجائه، ولا رجاؤه علىٰ خوفه. ومعناه صحيح».

فيميلُ الإِنْسَانُ إِلَىٰ مُقتضاهُ، فيُغَلِّبُ الخَوْفَ فيبكِي ويحزنُ ويخرسُ، ويُغلِّبُ الرَّجاءَ فيطمعُ ويؤنسُ، والميلُ إِلَىٰ إِحْدَىٰ الحالتينِ خَطَأٌ محضٌ.

فَصْلٌ

مِنَ الغلطِ العَظِيمِ تركُ الاحترازِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَإِهْمَالُ الحَذَرِ مِنْ كُلِّ ممكنٍ

مِثْلُ أَنْ يتوانَىٰ الإِنْسَانُ فِي الاستظهارِ بالزادِ والماءِ، وَيَقُولَ: مَعِي مَا يكفينِي إِلَىٰ المنزلِ، وينسَىٰ أَنَّهُ مِنَ الجَائِزِ أَنْ يتعوَّقَ فِي الطَّرِيقِ، وَكَذَلِكَ مَنْ يخرجُ ماشيًا إِلَىٰ مَكَّةَ وَلَا يستصحبُ أجرةَ الجَمَّالَ؛ ظنًّا مِنْهُ أَنَّ سلامتَهُ وقُوَّتَهُ تدومُ، وينسَىٰ أَنَّهُ [ربمَّا وقفَ، وكذَلكَ مَن يُنفقُ ما يَكسبُه يومًا بيوم اتِّكالًا علىٰ عادَتِه فِي سَلامتِه، وَيَنْسَىٰ أَنَّه][1] قَدْ يمرضُ فَلَا يدرِي مَا يصنعُ، وأمثلةُ هَذَا كَثِيرَةٌ.

وَمِنْ أطرفِها: أَنْ يَبْدَأَ الإِنْسَانُ بالطلاقِ الثَّلَاثِ لغضبٍ قَدِ اعتراهُ وخصومةٍ، وينسَىٰ أَنَّ تِلْكَ الفورةَ قَدْ تسكنُ، ورُبَّمَا اقتنعَ[2] الأَمْرَ عَنْ حسرةٍ لَا يُمْكِنُ تلافيها.

وأطرفُ مِنْ هَذِهِ الحَالَةِ: أَنْ يُبادرَ بطلقةٍ، ثُمَّ تقعُ خصومةٌ فيضيفُ إِلَيْهَا أُخْرَىٰ، فتبقَىٰ الزوجةُ مَعَهُ عَلَىٰ وَاحِدَةٍ، فَلَا يُمكنُهُ إِذَا جرتْ خصومةٌ أَنْ ينتصفَ، وَلَا أَنْ يُؤَدِّبَهَا بتطليقٍ، وَلَا أَنْ يذيقهَا طعمَ فراقِهِ إِلَّا بالبتِّ، فَإِن كانَ لَهُ إِلَيْهَا ميلٌ تأذَّىٰ بالبتِّ، فَهُوَ يحذرُ ذَلِكَ فيضْعُفُ، وَإِنْ كَانَ لَهَا إِلَيْهِ ميلٌ [...][3] بِهِ بعدَ البتِّ، فَرُبَّمَا

---

(١) من ي.

(٢) كذا في المخطوط.

(٣) صورتها: «باليت».

بالغتْ فِي أذاهُ.

فينحلُّ مِنْ هَذَا: أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ التأديبُ بالفِراقِ إِلَّا بطلقةٍ وَاحِدَةٍ، فَإِنْ هِيَ ارْعَوَتْ وصلحتْ كَمَا يَنْبَغِي راجعَها، وَإِلَّا تركَ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ [يقدرَ الاثنينِ إِلَّا ثَلَاثًا](١)؛ لِلْمَعْنىٰ الَّذِي أشرتُ إِلَيْهِ؛ فليُفْهَمْ مَا ذكرتُ، وليتعيَّنْ(٢) عَلَيْهِ.

وَممَّا يُلحقُ بِهَذَا الفَصْلِ: أَنْ يشتريَ الإِنْسَانُ جاريةً، فتُعجِبُهُ فيسكنَ إِلَيْهَا، وَهَذَا لَا يَنْبَغِي فِي أَوَّلِ الأَمْرِ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ قادمٍ دهشةً، وَلكُلِّ جَدِيدٍ لذةً، وَلَا يأمنُ أَن تَطَّلِعَ عَلَىٰ أَسْرَارٍ لَهُ يُكرَهُ إفشاؤُها، ثُمَّ يَكْرَهُهَا فيبيعُها أو يشتري غيرَهَا، فتحقدَ عَلَيْهِ فتُفشِي أَسْرَارَهُ، وَتكُونُ قادرةً عَلَىٰ أذاهُ، وَمَنِ الغلطِ أَنْ يطأَهَا فِي أوائلِ أمرِه طالبًا للولدِ، فَرُبَّمَا علقتْ فتعرقلَ، فَإِنْ لم يصلحْ لَهُ أَخلاقُها أَو بانتْ لَهُ عيوبُها لم يمكنْ أَنْ يتخلصَ.

بَلْ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ لَا يروعُه جمالٌ فِي بِدَايَةِ الأَمْرِ، وَأَنْ يتحرَّزَ من الجوارِي المشترياتِ، وَالنِّسَاءِ المنكوحاتِ، ولْيُدِمْ عَلَىٰ الاحترازِ سنةً، فَإِذَا رَأَىٰ بعد السنةِ كُلَّ مَا يصلحُ مِنْ خَلْقٍ وخُلقٍ طَلَبَ الولدَ، ويوطنَ مَعَ الاحترازِ الممكنِ أَيْضًا؛ فَإِنَّ القَلْبَ قد ينبُو بعدَ سنينَ، والاحترازُ فِي الممكناتِ لازمٌ. ومثلُ هَذَا: انبساطُ الرَّجُلِ إِلَىٰ صديقٍ وغَيرِه.

وَهَذَا فصلٌ نافعٌ، يَدُلُّ عَلَىٰ مراقبةِ العَوَاقِبِ، والاحترازِ مِنَ الممكناتِ، واللهُ المُوفِّقُ.

---

(١) كذا.

(٢) كذا.

۞ فَصْلٌ ۞

واللهِ! لقدْ عجزتُ عَن شكرِ مَوْلَايَ وسيِّدِي بِظَاهِرِ نعمِه الظَّاهِرَةِ [فنعمُه][1] تفوقُ العدَّ، وَكَذَلِكَ نعمُه الباطنةُ؛ إِلَّا أَنَّهَا أطرفُ وأعجبُ

إِذَا تأملتُ بدنِي وجدتُه صَحِيحًا، وأعضائِي سَلِيمَةً، وخَلْقِي معتدلًا، وَلِي إدراكٌ وفهمٌ وذكاءٌ، وهمةٌ حَرَّكَتْ إِلَىٰ طَلَب المعالِي فِي العُلُوم، وخدمةِ المَعْبُودِ، واجتنابِ الرذائلِ مِنَ الأخلاقِ، والدَّنايا مِن الأوساخِ. وَلَو ذهبتُ أعدُّ مِنْ هَذَا الفنِّ طالَ، وَإِنَّمَا مُرادِي الإِشَارَةُ إِلَىٰ مَا يغمضُ ويدقُّ.

فمِنْ ذَلِكَ: أَنَّهُ زَوَىٰ عَنِّي فضولَ الدُّنْيَا، وَلَمْ يُحوجْنِي، فَإِذَا نفدتِ النَّفَقَةُ أَو قُبيلَ النفادِ نفدَ بمقدارٍ، ولَوْ [...][2] اتَّسعَ لِي المَالَ لتوسعتُ فِي المطعمِ، فشغلنِي عَنِ [...][3] وَالخَيْرِ، ولرُبَّمَا أَوْجَبَ أمراضًا للبدنِ، فَهُوَ يحمينِي ويجلبُ لي قدرَ مَا يصلحُ، وَالنَّفْسُ تتوقُ إِلَىٰ فضلِ مطعمٍ، وَتَحْتَجُّ بِأَنَّهُ يقوِّي البدنَ لطلبِ الخَيْرِ؛ وَذَلِكَ مِنْ كَلَامِ الهَوَىٰ وزُخرفِه. وَكَذَلِكَ تطلبُ الإكثارَ مِنَ النِّسَاءِ والجوارِي، وَلَا سَبِيلَ إِلَىٰ ذَلِكَ؛ لعدمِ المَالِ. وَقَد بانتْ لِي مَصْلَحَةُ العدمِ: حفظُ القُوَّة الَّتِي إِنفاقُها عَلَىٰ العلمِ وَالعَمَلِ أَوْلَىٰ.

وَمَنِ ذَلِكَ: أَنِّي كُنْتُ أتشاغلُ بالوعظِ، وأجلبُ النَّاسَ إِلَىٰ بَابِ اللهِ تَعَالَىٰ، فاتفقَ انقطاعُ المذكِّرين كُلِّهم، فأوجبَ لِي انفرادِي وخلوتِي من الفَوَائِدِ والتصانيفِ والبحثِ بالفكرِ عَن عيوبِ النَّفسِ الَّتِي كَانَتْ مغطَّاةً بالمخالطةِ الَّتِي كَانَتْ تشغلُ عَنْهَا.

---

(١) مشتبهة.

(٢) مشتبهة.

(٣) مشتبهة.

فَلَا أدرِي كَيْفَ أحمدُه سُبْحَانَهُ؛ إِذَا[١] تولَّىٰ مصالحِي، وساقَ لِي قَدْرَ كفايتِي، وحمانِي عَن فضولِ الشهواتِ، وَلَمْ يلتفت إِلَىٰ [...][٢] الطبعِ، وترك الهَوَىٰ يهدِي.

~~~

❁ فَصْل ❁

عَلَى قدرِ الهمةِ يتعبُ الجسمُ

كَمَا قَالَ المتنبِّي:

وَإِذَا كَانَـــتِ النُّفُـــوسُ كِبَـــارًا ** تَعِبَـــتْ فِـــي مُرَادِهَـــا الأَجْـــسَامُ

إِلَّا أَنَّ عُلُوَّ الهمةِ يختلفُ:

فمِن النَّاسِ مَن همتُه فِي الشرفِ والعلوِّ وَالسُّلْطَانِ، وَهِيَ نفوسُ الملوكِ، ثُمَّ لَا يُبالِي أَكْثَرُهمْ مَعَ تحصيلِ مُرَادِه بفواتِ الدِّينِ؛ وَهَذِهِ رِفعةٌ أدونُ من حضيضٍ؛ فَإِنَّهُ لَا خيْرَ فِي لذَّةٍ من بَعْدِهَا النَّارُ.

وَكَذَلِكَ؛ تعلُو همةُ التاجرِ فِي كسبِ المَالِ، وَلَا يُبالِي مِن أَيْنَ كسبَ، وَلَا ينظرُ فِي عُمُرِه الشريفِ القدرِ كَيْفَ ضاعَ فِي تحصيلِ حَجَرٍ لَا يُرَادُ لنفسِه.

ونظائرُ هؤلَاءِ كَثِيرٌ، وَإِنَّمَا الغرضُ الكَلَامُ فِي طلابِ الآخِرَةِ وعلوِّ هممِهم، فنقولُ:

فِي القَوْمِ: مَن تعلُو همتُه ويقلُّ عِلْمُهُ، فترىٰ كَثِيرًا مِنَ العُلَمَاءِ تعلُوا همتُهم فِي طَلَبِ الحَدِيثِ، ويعانُون الأَسْفَارَ البعيدةَ لنيلِه، وقومًا فِي طَلَبِ الفقهِ والنظرِ،

---

(١) لعلها: «إذ».

(٢) مشتبهة.
~~~

وقومًا فِي طَلَبِ القُرْآنِ، وقومًا فِي طَلَبِ العَرَبِيَّةِ؛ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ. وَلَو قويتْ يقظةُ هَؤُلَاءِ، لعلمُوا أَنَّ الاقتناعَ بأحدِ هَذِهِ العُلُومِ دُونَ غَيْرِهِ دُونٌ؛ فَإِنَّ شرفَ الهمةِ يَقْتَضِي تحصيلَ الكلِّ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ فالمهمُّ مِنَ الكلِّ.

وترَىٰ قومًا علتْ هممُهم، وقلَّ علمُهم؛ فظنُّوا أَنَّ المَقْصُودَ التَّعَبُّدُ، فانعكفُوا عَلَىٰ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ، ورفضِ الشهواتِ، وحملُوا عَلَىٰ الأبدانِ فَوْقَ الطاقةِ، وظنُّوا ذَلِكَ الغايةَ.

وَكُلُّ هَؤُلَاءِ بمعزلٍ عَنِ المَقْصُودِ، وَإِنَّمَا المَقْصُودُ العلمُ وَالعَمَلُ، ثُمَّ هُمَا مقصودانِ لِمَعْنًىٰ آخَرَ، وَهُوَ مَعْرِفَةُ الحَقِّ ﷻ بِهِمَا، ومعاملتُه، وَذَلِكَ بِالقَلْبِ قبلَ القالبِ، وبالسرِّ قبلَ الظَّاهِرِ.

فَلَا يَنْبَغِي لِذِي همةٍ أَنْ يقصرَ عَنْ فَضِيلَةٍ تمكنُ، وَلَكِنْ لَـمَّا كَانَ العمرُ قصيرًا أَوْجَبَ استلابَ المُهِمَّاتِ مِنَ العَلمِ وَالعَمَلِ والمعاملةِ، فترَىٰ المتيقظَ يملأُ الزَّمَانَ ويبالغُ؛ فَلَا راحةَ لَهُ إِلَّا مَا هُوَ فِيهِ من طَلَبِ الفَضَائِلِ المقربةِ إِلَىٰ ربِّهِ ﷻ.

حَتَّىٰ إِنَّكَ ترىٰ العَالِـمَ يتناولُ اللقمةَ بِيَدِهِ والكتابَ فِي يدِه الأُخْرَىٰ؛ لعلمِه بِفَضْلِ العلمِ، وتراهُ فِي حَالَةِ بطالتِه يديرُ لِسَانَه بِالذِّكْرِ؛ لِئَلَّا تذهبَ لحظةٌ فِي غيرِ شَيْءٍ، وَإِنْ سكتَ فقلبُه يجولُ فِي الفكرِ.

وَقَدْ كَانَ كِبَارُ العُلَمَاءِ مِنْ أَهْلِ الهِمَمِ ينافسُون فِي طَلَبِ الفَضَائِلِ، ويستقصُون مَا يمكنُ، حَتَّىٰ إِنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ جمعَ كُلَّ مَا يقدرُ عَلَيْهِ مِنَ الفَضَائِلِ، وَقَدْ كَانَتْ قِرَاءَةُ القُرْآنِ تصعبُ عَلَيْهِ، فاجتهدَ حَتَّىٰ إِنَّهُ حفظَ البقرةَ فِي ثنتيْ عشرَةَ سنةً، وَمَا تركَ القُرْآنَ مَعَ صعوبتِه عَلَيْهِ بقوتِه، ثُمَّ صبرَ عَن أغراضِه الَّتِي تنقصُ حظَّهُ فِي الآخِرَةِ، وهجرَ كُلَّ مَا يخافُ عَاقِبَتَهُ، وقامَ بالعدلِ حَتَّىٰ فِي نَفْسِه وأهلِه، ثُمَّ تلمَّحَ مَا يفوتُه من الفَضَائِلِ، وانتهبَ كُلَّ ممكنٍ، حَتَّىٰ تزوجَ أمَّ كلثومٍ بنتَ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛

لكونِهَا من فاطمةَ عليها السلام؛ نظرًا إِلَىٰ قَوْلِهِ عليه السلام: «**كُلُّ حَسَبٍ وَنَسَبٍ يَنْقَطِعُ إِلَّا حَسَبِي وَنَسَبِي**»(١)، وتلهفَ عَلَىٰ مَا لَا يصحُّ لَهُ، كَقَوْلِهِ: «**لَوْلَا الخلافةُ لكنتُ مؤذنًا**».

وَكَذَلِكَ نقلَ عَن بَعْضِ السَّلَفِ، أَنَّهُ نظرَ فِي مرضِه إِلَىٰ قدميهِ، فَقَالَ: مَا اغبرتْ فِي سَبيلِ اللهِ، فتلهفَ عَلَىٰ الجِهَادِ كَيْفَ فاتَه؟!

وَهَذِهِ حَالَةُ مَن استوفَىٰ كُلَّ ممكنٍ، وتلهفَ عَلَىٰ الفائتِ.

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ بشرٍ الحافِي: «لَو تزوجَ كملَ أمرُه».

وَهَذَا كُلُّه لِأَنَّ القربَ مِنَ اللهِ تعالى عَلَىٰ مقدارِ الجِدِّ وَالِاجْتِهَادِ فِي تحصيلِ مَا يقربُ إِلَيْهِ، والدُّنْيَا دارُ سباقٍ، ومضمارُ اجْتِهَادٍ، ومد من(٢) رياضة، وعلُّوُ الدَّرَجَاتِ البَاقِيَةِ مبنيٌّ عَلَىٰ أَسَاسِ هَذَا العَمَلِ فِي الأَيَّامِ اليسيرةِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي قرية [...](٣) حملَ فِي ثوبه قَدرَ حملِ مَا يعجزُه؛ لعلمِه بحلاوةِ عاقبةِ مَا أخذَ.

فأمَّا أَهْلُ البطالةِ؛ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يضيعَ الكَلَامُ فِي شرحِ أَحْوَالِهِمْ؛ فَإِنِّي قَدْ تجنبتُ شرحَ حَالِ المتوسطينَ، وَإِنَّمَا أشرتُ إِلَىٰ الكاملينَ.

لا تَسْأَلُونِي إِلَّا عَنْ أَوَائِلِهِمْ ** فَآخِرُ الرَّكْبِ مَا لِي مِنْهُمْ خَيْرُ

---

(١) حسن: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٣/ ٤٥) وفي «الأوسط» (٥٦٠٦)، والبيهقي (١٣١٧٢)، والضياء (١٠١)، وأبو نعيم (٧/ ٣١٤) وقال: غريب. والديلمي (٤٧٥٥) من حديث عمر. وروي من حديث غيره، واكتفيت بحديث عمر لأنه هو مراد المصنف هنا.

(٢) كذا.

(٣) مشتبهة.

۞ فَصْلٌ ۞

نزلتْ بي شِدَّةٌ، فبالغتُ فِي الدُّعَاءِ، وكررتُ؛ فلمْ أرَ للإجابةِ أثرًا، ورأيتُ الأمْرَ كُلَّمَا جاءَ اشْتَدَّ

وَكَانَ إبليسُ يَقُولُ لِي: الإجَابَةُ بعيدةٌ منكَ؛ لأنَّكَ تطلبُ أمرًا بعيدًا فِي العَادَةِ. فقلتُ لَهُ: ويلكَ، إنَّمَا أطلبُ مِن قادرٍ، وَلَعَلَّ مصلحتِي فِي قلقِي ودعائِي.

إِنْ كَانَ رِضَاكُمُ فِي سَهَرِي ** فَسَلَامُ اللهِ عَلَىٰ وَسَنِي

وأقولُ أَيْضًا:

إِنْ كَانَ يُوجِبُ صَبْرِي رَحْمَتِي فرضًا ** بِسُوءِ حَالِي وَحَلَّ لِلضَّنَىٰ بَدَنِي

ثُمَّ تفكرْتُ فِي موانعِ الإِجَابَةِ؛ فرأيتُ معظمَها الذُّنُوبَ، وعلمتُ أَنَّ إخوةَ يُوسُفَ أخرتْ إِجَابَةَ أَبِيهِم فِي قبولِ تَوْبَتِهم عِشْرِينَ سنةً؛ ليعلمُوا مقدارَ مَا فعلُوا، ونظرتُ فِي ذنوبِي فرأيتُها أَعْظَمَ مِنَ ذَنبِ فِرْعَوْنَ.

فَقَالَتْ لِي النَّفْسُ: ويحكَ! كَيْفَ تَقُولُ هَذَا؟! وَلَعَلَّهُ لَيْسَ فِي ذنوبِكَ شَيْءٌ مِنَ الكَبَائِرِ، فَكَيْفَ تجعلُها أَعْظَمَ مِنَ ذنُوبِ فِرْعَوْنَ الَّذِي ادَّعَىٰ الربوبيةَ؟!

فقلتُ لَهَا: واللهِ! لَقَد ثَبتَ عِنْدِي أَنَّهَا أَعْظَمُ مِنَ ذنُوبِ فِرْعَوْنَ؛ لِأَنَّ فِرْعَوْن لَمْ يُثبتْ إلهًا، وَإِنَّمَا كَانَ يَقُولُ: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، فَمَا بارزَ عَلَىٰ هَذَا، غيرَ أَنَّ خطأَه كَانَ مِنْ جِهَةِ تركِ الاستدلالِ عَلَىٰ وُجُودِ الخالقِ، وأَمَّا أَنَا فَإِنِّي عرفتُه بِالأَدِلَّةِ القطعيةِ، وصيَّرَنِي العلمُ ومعاناتُه كَأَنِّي مِنَ الخواصِّ المشاهَدينَ، ثُمَّ مخالفتِي بَعْدَ ذَلِكَ كالمعاندةِ، غيرَ أَنَّهُ يعلمُ مِنْ قلبِي أَنَّنِي لَمْ أقصدْ قطُّ الخِلَافَ، وَلَكِنْ غلباتُ الهَوَىٰ تُنسِي، وَمَعَ هَذَا؛ فَالِاعْتِرَافُ محوُ الاقترافِ.

فنهضتُ عِنْدَ هَذا الفِكرِ، فَصَلَّيْتُ رَكْعَتَيْنِ، وقلتُ:

إِلَهِي! قَدْ كُنْتُ عزمتُ عَلَىٰ زِيَارَةِ قبورِ الصَّالِحِينَ، والاستشفاعِ بِهِمْ إِلَيْكَ، فرأيتُ أَنَّ كرمَكَ لَا يحْتَاجُ إِلَىٰ شفيعٍ، فأمَّا ذُنوبِي فَإِنِّي مُقِرٌّ بِهَا، وامتناعُ إِجَابَتِي لأجلِها لَا استهولةُ، بَل أعرفُ بأنِّي لَو قُطِّعْتُ كَانَ بَعْض حقِّي، وَلَقَد هالتنِي ذنوبِي لمَكَانِ معرفتِي لعظمتِكَ، غيرَ أَنَّ هَذِهِ القادحةَ العَظِيمَةَ، لَيْسَ لَهَا سِوَىٰ فضلِك.

إِلَهِي! جَاءَ رجلٌ إِلَىٰ بَعْضِ خلقِكَ، فقَالَ لِي: إِلَيْكَ حويجةٌ، فَقَالَ: اطلبْ لَهَا رُجَيْلًا، وَأَرَادَ أَنَّ مِثْلَ فضلِي لَا يستندبُ لصغارِ الأُمُورِ، وَهَذِهِ العظائمُ لَا يحملُها إِلَّا كرمُكَ.

إِلَهِي! قَدْ عرفتُ بذنُوبِي الَّتِي صيَّرتْ نَفْسِي عِنْدِي أحقرَ من كُلِّ حقيرٍ، وأَرَتْنِي عظمتَك فَوْقَ كُلِّ عَظِيمٍ، وأَنَا أَنَا، وَأَنْتَ أنتَ، فبِغِنَاكَ عنِّي وفقرِي إِلَيْكَ ارحمنِي.

إِلَهِي! لَا تُشْمِتْ بِي إبليسَ، فَإِنِّي كُلَّمَا دعوتُك آيَسَنِي، وَقَالَ: إِلَىٰ كَمْ تَقُولُ وَلَا يُجِيبُ؟!

إِلَهِي! خَلَقْتَنِي مِنْ ضَعْفٍ، فَلِذَلِكَ قلَّ صبري عَلَىٰ المكروهِ.

إِلَهِي! قبيحٌ بِمِثْلِي أَنْ يتجلَّدَ، وَأَنْتَ تعلمُ قِلَّةَ صبرِي.

إِلَهِي! كَمْ أشغلُ نَفْسِي بِذِكْرِ الموتِ وقربِ الأجلِ عَمَّا أَنَا فِيهِ مِنْ بلايَا النَّفْسِ، وَمَا تَرْعَوِي، وَقَدْ أظهرتُ مَا فِي باطنِي من قلَّةِ صبرِي، وَقَد فوَّضتُ إِلَيْكَ جَمِيعَ أمرِي، فانظرْ إِلَيَّ بعينِ لُطفِكَ فِيمَا يَجْرِي مِنَ القَضَاءِ؛ يَا كَرِيمُ.

فَصْلٌ

مَا رَأَيْتُ معوِّقًا عَن الخَيْرِ مِثْلَ طُولِ الأملِ

وَقَد يقوَىٰ عِنْدَ أَكْثَرِ النَّاسِ حَتَّىٰ كَأَنَّهُم يقطعُونَ عَلَىٰ البقاءِ، فيقولُ أَحَدُهمْ: سأفعلُ كَذَا بعد سنةٍ، وينسَىٰ أَنَّهُ قَدْ يختطفُ كَمَا قد اختطفَ نُظراؤُه [فِي العَامِ الماضِي](١).

وَمَنْ قُوَّةِ الأملِ القبيحةِ: ركوبُ البَحْرِ فِي طَلَبِ الأرباحِ مُؤمِّلًا للسلامةِ، وَالظَّاهِرُ الهلاكُ، وَلَيْسَ تاجرُ البَحْرِ فِي مَقَامِ أملٍ، بَلْ كَأَنَّه فِي مَقَامِ قَطْعٍ عَلَىٰ النَّجَاةِ، فَهُوَ يخاطرُ ببدنِه ومالِه ونفسِه، وَكَأَنَّ الهلاكَ عَنْهُ بمعزلٍ.

وَمَا يزالُ الآمالُ تقوىٰ عِنْدَ خلقٍ كَثِيرٍ، حَتَّىٰ تحملَهم عَلَىٰ ارْتِكَابِ الفواحشِ مَعَ كبرِ السنِّ؛ تأميلًا مِنْهُمْ لِلتَّوْبَةِ بعدَ انتهاءِ العمرِ، ناسينَ أَنَّ مرضَ الموتِ قَدْ يطرقُ عَقْلَهُ، وَقَد تقوَىٰ الآمالُ، حَتَّىٰ رُبَّمَا اشتدتْ فِي المرضِ.

وَلَقَدْ رأينا مَن قَد أَشْفَىٰ فِي مرضِه، وَهُوَ لَا ينفقُ عَلَىٰ نَفْسِه مَعَ كَثْرَةِ مالِه؛ مُؤمِّلًا للحياةِ، وَلَا يُوصِي بشَيْءٍ، وَلَا يتصدقُ بحبةٍ. وَمنهم مَن يَقُولُ: إِذَا متُّ فافعلُوا؛ خوفًا إِنْ تصدَّقَ فتعافَىٰ، فيفقدُ مَا تصدقَ بِهِ، حَتَّىٰ لَقَدْ رَأَيْتُ ابْنَ ثَمَانِينَ سنةً، وَلَهُ مالٌ كثيرٌ، يَقُولُ: إِذَا متُّ تصدقُوا عَنِّي بِشَيْءٍ! وَلَمْ يسهلْ عَلَيْهِ أَنْ يُخْرِجَ شَيْئًا.

وَهَذِهِ الفنونُ فِي الأملِ يطولُ شرحُها، وَإِنَّمَا المَقْصُودُ: التحذيرُ من آمالٍ لأهلِ الخَيْرِ يصدُّ عَنِ المُهِمِّ:

مثالُهُ: أَنَّ طُولَ الأملِ يحدُو عَلَىٰ تعلُّمِ العلمِ، ونسخِ الكتبِ، والسفرِ فِي طَلَبِ الحَدِيثِ، فَيَنْبَغِي أَنْ يُؤْخَذَ قدرُ البُلغةِ، ويعبرَ إِلَىٰ حَالَةٍ أُخْرَىٰ.

---

(١) من أ.

وَمَنْ أَعْظَمِ خَطَإِ طالبِي العلمِ: أَنَّهُم يسوِّفُون بِالأَعْمَالِ، ورُبَّمَا قصرُوا وزلُّوا، وَمنهُم مَن يركبُ القبائحَ؛ إِمَّا لظنِّ أَنَّ العلمَ يدفعُ عَنْهُم، وَهَذَا غلطٌ؛ لِأَنَّهُ إِلَىٰ أَنْ يحاجهم أَوْلَىٰ، أَوْ للتسويف بالإماتةِ.

والعاقِلُ مَن أَعطَىٰ كُلَّ لحظة حَقَّهَا مِنَ الاستعدادِ للموتِ، وصححَّ المقاصدَ فِي طَلَبِ العِلْمِ؛ فَإِنَّ المقاصدَ أكبرُ الأَعْمَالِ، وَلَمْ يشغلْهُ مَا يطلب مِنْهُ عَمَّا هُوَ فَرْضُ وقتِه ولازمُ حَالِه؛ فَإِنَّ إصلاحَ الحَالِ كالفرضِ، وفضولَ العلمِ مِنْ بَابِ الفضلِ، فتلمَّحْ مَا أشرتُ إِلَيْهِ، وقِسْ عَلَيْه مَا لَمْ أذكرْهُ.

فَصْلٌ

مَا رَأَيْتُ أطرفَ مِنْ حَالَةِ أَقْوَامٍ يمزجُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي المَعَاصِي

يُصانِعُونَ الخالقَ سُبْحَانَهُ بصلاةِ رَكْعَتَيْنِ أَو بصوم يَوْمٍ أَو بصدقةٍ، وَقَد علمُوا أَنَّ المخلوقَ لَا يرضَىٰ فِي معاملتِه بالمصانعةِ، فكَيْفَ الخالقُ الَّذِي لَا يقبلُ مِنَ العَمَلِ إِلَّا الخَالِصَ الصَّافِي.

وَلَقَد رَأَيْتُ خلقًا مِنَ الظَّلَمَةِ، يَغْصِبُونَ الأَمْوَالَ، ثُمَّ يتصَدَّقُونَ بِبَعْضِهَا، ويبعثُون إِلَىٰ فقراءِ مَكَّةَ وَالمَدِينَةِ؛ إِمَّا لظنِّ هَذَا يدفعُ عَنْهُم، وَذَاكَ أكذبُ الظَّنِّ، أَو لطلبِ السمعةِ، وَهُوَ الغَالِبُ عَلَيْهِم، فرأيتُ رَجُلًا كَانَ يظلمُ النَّاسَ، ويطرحُ عَلَيْهِم البياعاتِ، ويبالغُ فِي أذاهُم، ثُمَّ يُعطِي أقوامًا مِنَ العُلَمَاءِ والمُتزَهِّدِينَ، ويزودُهم لِلْحجِّ، فتعجبتُ مِنْهُ مرَّةً، وعجبتُ مِنَ الآخذينَ مِنْهُ مَرَّاتٍ، أَفَتَرَىٰ مَا نفعَهُم مَا علمُوا، أو لكنَّهُم ظهرَ مِن أفعالِهم هَذِهِ أَنَّهُم إِنَّمَا تركُوا مَا لم يقدرُوا عَلَيْهِ مِنَ الحَرَامِ، فَلَمَّا قدرُوا أخذُوا.

ورأيتُ أقوامًا مِنَ المتصوفةِ يُخالطُون الظَّلَمةَ ويُصادقُونَهم، مَعَ علمِهم بحالِهم، فالشرطيُّ صديقُ الصُّوفِيِّ، متكبرٌ عَلَىٰ الفُقَرَاءِ، فَمَا رَأَيْتُ أطرفَ من صُوفيةِ زَمَانِنَا وزُهَّادِهم، وَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ المُتزهِّدينَ يزورُه الظلمةُ، فيهشُّ إِلَيْهِم، فأنكرتُ هَذَا، وقلتُ: مَن قَدْ شاعَ ظُلمُه فالإنكارُ عَلَيْهِ يَكُونُ بِهجرِه، فَمَا رأيتُه يُوَافِقُ، فتلمحتُ خيبةً للنَّفْسِ مُرديةً، وَهِيَ حبُّها لزيارَةِ الكبراءِ.

وَهي إِنْ [...][1] فَلَا يَقْصِدُهُ الأُمَرَاءُ والكبراءُ، وَإِنْ كَانَ هُوَ مَا يُرِيدُ هَذَا، وَلَكِنْ مداراتُه لَهُم تَتَعَلَّقُ بإرادةِ نَفْسِه لِذَلِكَ، وَكَذَلِكَ امتناعُه من أَن يخرجَ إِلَىٰ السوقِ فيشتري حَاجَةً تُظْهِرُ لَهُ النَّفْسُ أَنَّ هَذَا الانقطاعَ عَنِ الخلقِ، ويبطنُ عَنْهُ تربيةَ الجاهِ عِنْد العَوَامِّ بالعزلةِ.

فالويلُ كُلُّ الويلِ، لِـمَنْ يُعاملُ مَنْ يَعْلَمُ السرَّ وأخفَىٰ، ثُمَّ يَقْصِدُ البهرجةَ.

❁ فَصْل ❁

يَنْبَغِي لِلْعَالِمِ أَنْ لَا يعملَ عملًا وَلَا ينشرَ علمًا إِلَّا بنيةٍ صَادِقَةٍ

ورُبَّمَا ظنَّ أَنَّ نشرَ العلمِ لَا يَكُونُ إِلَّا بصدقٍ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ؛ فَإِنَّه إِذَا ناظرَ لطلبِ الغَلَبَةِ، أَو حدَّثَ أَو صنفَ أَو فعلَ شَيْئًا ظَاهِرُه الخَيْرُ، وَفِي بَاطِنِهِ خبيئةٌ فاسدةٌ، فليعلمْ أَنَّ ذَلِكَ زيفٌ من الدراهِمِ لَا ينفقُ، فالويلُ لِـمَنْ عملُه كُلُّه زائفٌ.

وَقَدْ كَانَ بَعْضُ الفُقَهَاءِ لَا يُصَنِّفُ كتابًا، وَلَا يناظرُ فِي مَسْأَلَةٍ، حَتَّىٰ يتوقفَ وينويَ ويصححَ القصدَ؛ فَإِنْ لَمْ يصحَّ لَهُ لم يَفْعَلْ، وَصَارَ اليَوْمَ أَحْسَنُ أَحْوَالِ

---

(١) مشتبهة.

العُلَمَاءِ نشرَ العلمِ كَيْفَ اتفقَ، وَبِأَيِّ نِيَّةٍ كَانَتْ؛ فاسترخت طَرِيق الإِخْلَاصِ عَلَىٰ المُرِيدِ السالكِ؛ لِخُلُوِّهَا عَن دَلِيلٍ.

فَوا أسفَا! عَلَىٰ أَيَّامِ القَوْمِ، كَيْفَ لم يدركْها، وَعَلَىٰ عُلَمَائِهِمْ، كَيْفَ لم يرَهُم.

كَفَىٰ حُزْنًا بِالوَالِهِ الصب أَنْ يَرَىٰ ** مَنَازِلَ مَنْ يَهْوَىٰ مُعَطَّلَةً قَفْرَا

فَصْلٌ

مِن نِعْمَةِ اللهِ ﷻ عَلَى خلقِه أَنَّهُ أَوْضَحَ الدَّلَائِلَ وكشفَ البَرَاهِينَ، وَلَمْ يجعلِ الشُّبْهَةَ قادحةً فِي الدَّلِيلِ، وَإِن خَدَشتْ

وَلَمْ يُزِلْ كُلَّ الشُّبُهَاتِ؛ لِئَلَّا يتعطَّلَ العَقْلُ عَن تكليفٍ، فَإِنَّهُ كلَّف دفعَ الشُّبْهَةِ وتَمْيِيزَ الحَقِّ مِنَ البَاطِلِ.

وبينَ هَذِهِ الجملةَ بشرحِ حَالٍ، وَهُوَ أَنَّهُ لَو قدرَ لدجالٍ[1] إِذَا ظهرَ أَنْ يدَّعِيَ النُّبُوَّةَ؛ لِكَوْنِهِ يخرقُ العَادَاتِ، ويقتلُ شخصًا ثُمَّ يُحْيِهِ، ويأتِي بمثلِ جنَّةٍ ونارٍ؛ لتخبطتِ العَقَائِدُ، ووقعتِ الشكوكُ فِي كُلِّ شَيْءٍ كَانَ؛ وَلَكِنَّ اللهَ ﷻ صرفَ الدجالَ عَنْ هَذِهِ الدعوَىٰ إِلَىٰ ادعاءِ الإلهيَّةِ الَّتِي قَدْ قَامَتِ الأَدِلَّةُ الَّتِي لَا اضْطِرَابَ لَهَا عَلَىٰ أَنَّهَا مُنَزَّهَةٌ عَن صِفَاتِ الأجسامِ، والدجالُ جسمٌ محصورٌ محدودٌ محمولٌ معيبٌ محتاجٌ، وَإِنَّمَا قَالَ: «إِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ [بِأَعْورَ»[2] لِيبيِّنَ أَنَّه ليسَ][3] بِذِي جوارحَ، فتسلَّطَ عَلَيْها النقائصُ.

---

(١) في ي: «له حال».

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣١٥٩)، ومسلم (١٦٩) من حديث ابن عمر.

(٣) من ي.

فلمْ يتخالجِ للعقلاءِ فِي الدجالِ شَكٌّ، وَإِنْ رَأَوْا مَا يُشبِهُ المعجزةَ؛ لِأَنَّ العَقْلَ الَّذِي ينظرُ إلىٰ الآيَةَ يَنْبَغِي أَنْ ينظرَ إِلَىٰ مَن صدرتْ عنْهُ، وَإِلَىٰ مَا يدعيهِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ المَلَكَ أقربُ إِلَىٰ دعوَىٰ الإلهيَّةِ مِنَ الأجسامِ الكثيفةِ؛ فَإِنَّهُ لَا يأكلُ وَلَا يشربُ وَلَا ينسلُ، ويقدرُ عَلَىٰ قَلبِ الصخورِ والجبالِ، ثُمَّ لَوْ قَالَ: أَنَا الإلهُ؛ لنهضَ العَقْلُ رادًّا عَلَيْهِ بدليلِ الحَدَثِ، وَهِيَ الجسميةُ والنقلةُ والحركةُ، فَكَيْفَ بالدجالِ الجسمانِيِّ المحصورِ المعيبِ.

وَإِنَّمَا يغترُّ الجُهَّال بِمَا يرَوْنَ مِنْهُ وَلَا ينظرُونَ إِلَيْهِ، وَمَنْ نظرَ مِنْهُم مِمَّنْ يُجيزُ التَّجْسيمَ، فَعِنْدَهُم حَديثُ الصورةِ والنزولِ الَّذِي يعتقدُوه نقله[1]، وَأَنَّهُ فِي صُورَةِ شابٍّ عَلَيْهِ حُلَّةٌ[2]، فَإِذَا رَأَوْا شخصًا قَدْ خرقَ العَادَاتِ اختارُوا أَنْ يَكُون هُوَ، وَمَنْ بلغَ مقدارُ عَقْلِهِ إِلَىٰ اتِّخَاذِ عجلٍ إلهًا؛ لَا يُنْكرُ اعتقادُه فِي الدَّجَّالِ، وَلَو ظهرَ شيطانٌ فقلبَ بلدًا أَو رمَىٰ جبلًا أَو قَالَ: أَنَا الإلهُ؛ لأسرعتِ المشبهةُ إِلَىٰ تصديقِه؛ لِمَا قَدْ تخمَّرَ فِي النُّفُوسِ عِنْدَهم من أنَّ الإلهَ صُورَةٌ.

وَلَو فهمُوا أَنَّ الدَّلِيلَ[3] عَلَىٰ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَيْسَ بجسمٍ، هُوَ الدَّلِيلُ عَلَىٰ أَنَّهُ وَاحِدٌ؛ لِأَنَّ الجسمَ مركبٌ من جواهرَ، وَهُوَ أَكْثَرُ مِنْ وَاحِدٍ.

وَمَنِ هَذَا القبيلِ: نظرَ النَّصارىٰ إِلَىٰ الآيَاتِ الجاريةِ عَلَىٰ يدِ عِيسَىٰ، فادَّعَوْا فِيهِ

(١) كذا.

(٢) منكر: أخرجه الطبراني (٢٥/ ١٤٣) وهو حديث؛ باطل منكر، لا يشك من اشتم رائحة العلم في ذلك. وقد أنكره جماعة من أهل العلم: منهم الإمام أحمد ويحيىٰ بن معين والنسائي وابن حبان وابن حجر؛ كما بينته في تعليقي علىٰ «المنتخب من علل الخلال» (١٨٣) وفي كتابي «الإرشادات في تقوية الأحاديث بالشواهد والمتابعات» (ص ١٢٢) وكذلك أنكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٧٩).

(٣) كذا.

الإلهيَّةَ، وَلَمْ ينظرُوا إِلَيْهِ، وَأَنَّ الإلهيَّةَ منافيةٌ لذاتهِ، وَإِذَا نافتهُ[١] علِمَ أَنَّ مَا ظهرَ عَلَىٰ يدِه مِن غَيْرِه.

وَمِما يقاربِ هَذَا المَعْنَىٰ حملُ أَهْلِ التَّشْبِيهِ أَحَادِيثَ الصِّفَاتِ عَلَىٰ ظواهرِها؛ نظرًا إِلَىٰ صُورَةِ مَا فِي الحَدِيثِ، مِنْ غَيْرِ مُرَاعَاةٍ لِمَا يجِبُ للقديم.

واعلمْ؛ أَنَّ تخايلَ مَا لَا يجوزُ تخايلُه كَثِيرًا مِمَّا قَدْ أفسدَ الأديانَ وَالعُقُولَ:

أَمَّا الأديانُ؛ فكمَا ذكَرْنَا.

وَأَمَّا العُقُولُ؛ فمثلُ مَا يُحْكَىٰ أَنَّ رَجُلًا ضربَ وتدًا فِي مقبرةٍ، فعلقَ بذيلِهِ، فَقَامَ وأحسَّ بِأَنَّ ذيلَهُ قَدْ أمسكَ، فتخايلَ أَنَّ بَعْضَ الموتَىٰ قَدْ أمسكَهُ؛ فَمَاتَ!

فنعوذُ بِاللهِ مِنَ الخيالاتِ الفاسدةِ المستحيلةِ.

وَإِذَا ثَبتَ بِالدَّلِيلِ القطعيِّ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الحركةُ وَلَا السكونُ، وَلَا تتجددُ لَهُ صِفَةٌ؛ بانَ مَعْنَىٰ الأَحَادِيثِ، فَإِذَا لَمْ يَبِنْ؛ فالسكوتُ أَوْلَىٰ مَا استُعمِلَ، فأَمَّا أَنْ أفهمَ مِنْ حَدِيثٍ شَيْئًا؛ مِثْل قَوْلِه: «فَيَأْتِيهِمْ [فِي غَيرِ صُورتِه، ثُمَّ يَأتِيهِمْ فِي صُورَتِه»[٢] فَلا أَقولُ بِقولِ مَن تَأَوَّل فيقولُ: فَيأتِيهمْ][٣] في صُورَةِ الغَضَبِ وَالشِّدَّةِ، وَلا أَسكتُ كسكُوتِ السَّلَفِ الَّذِينَ مَا فسَّرُوا هَذَا، بَل أَقُولُ: يَأْتِي هُوَ بذاتِهِ فِي صُورَةٍ، ثُمَّ يغيرُ تِلْكَ الصورةَ الذَّاتِيَّةِ، فَهَذَا جهلٌ بِمَا يَجُوزُ عَلَىٰ الإلهِ وَمَا لَا يَجُوزُ؛ فافهمْ هَذَا الأَصْلَ ترشُدْ.

---

(١) كذا.

(٢) **صحيح**: وهو طرف من حديث الشفاعة الطويل: أخرجه البخاري (٦٥٧٣)، ومسلم (٢٩٩) من حديث أبي هريرة.

(٣) من ي.

فَصْلٌ

أَعجبُ العَجَبِ أَنَّكَ تُعرِضُ عَن طَاعَةِ مولاكَ وَلَا تمتثِلُ أمرَه

لَا فِي غضِّ بصرٍ، وَلَا فِي حفظِ لسانٍ، وَلَا فِي تنقيةِ مَطعمٍ، وَلَا تدرِي كَيْفَ تُؤَدِّي فرائضَهُ، فَلَا تكفُّ نَفْسَك عَن منهياتِه؛ فَلَيْسَ عِنْدَكَ عَلَىٰ الحَقِيقَةِ إِلَّا لقلقةُ اللِّسانِ، وقيامُ البَدَنِ فِي الصَّلَاةِ وقُعودُه، وَالمَعَاصِيَ قَدْ أحاطتْ بكَ مِن كُلِّ جانبٍ.

فَإِذَا سألتَ النعمَ أخذتَها أخذَ المستوفِي لحقِّكَ، فَإِذَا فاتكَ غرضٌ دعوتَ لنيلِ غرضِكَ، وألححْتَ إلحاحًا مَا سألتَه فِي فواتِ أمرِ آخرتِكَ، فَإِذَا امتنعتِ الإِجَابَةُ؛ إِمَّا لعقوبةٍ أَو لتنبيهٍ أَو لِمَصْلَحَةٍ؛ قُلتَ: قَدْ دعوتُ وَمَا أجابَنِي! أَتُراكَ أجبتَه يَوْمًا لَـمَّا دعاكَ؟! هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ!

يَا مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ، كَيْفَ تُنكِرُ أَن لَا يَسْتَجِيب منكَ، ثُمَّ لَا تعتقدُ أَنَّ بينكَ وبينَه سليمٌ إِلَّا فِي زَمَنِ العَافِيَةِ، فَإِذَا ابتلاكَ تزلزلتَ، أَتُرىٰ مَا علمتَ مَا جَرَىٰ لِلأَخْيَارِ مِن البَلَاءِ؟! وَلَكِنْ إِذَا لَمْ يعرفِ المُبتلَىٰ: كَيْفَ؛ لَا يَصِحُّ؟!

فَصْلٌ

فِي تَعْلِيمِ المُعاشرةِ

وَلِلمخالطةِ مؤنةُ التَّكَلُّفِ للماثلِ، وَالتَّجَمُّلِ للأكابرِ والصدورِ، وتحملُ الأفعالِ مِن كُلِّ سخيفٍ وشريرٍ ومنبسطٍ وغيَّابٍ، فَإِذَا اضطرَّ إِلَىٰ مخالطةِ النَّاسِ ومعاشرتِهم مَا اسْتَطَاعَ[1]، وَلَا بُدَّ أَنْ يضطرَّ إِلَىٰ ذَلِكَ، فَيَنْبَغِي أَنْ يحترزَ فِي

(١) كذا السياق.

مخالطتِه؛ فَإِنَّ بَعْضَهم يصلحُ للمجاملةِ، وَبَعْضَهم للمعاملةِ، وَبَعْضَهم لدفعِ الشريرِ، وَبَعْضَهم للتوصلِ إِلَىٰ الأغراضِ، فَهُمْ كعقاقيرِ العطارِ وآلةِ المنزلِ؛ كُلُّ شَيْءٍ يصلحُ لِشَيْءٍ.

وَكَذَلِكَ الأَصْحَابُ؛ يُستخدمُ كُلٌّ فِيمَا يصلحُ لَهُ، فَلَا يُستشارُ النقاطُ، وَلَا يُقَامُ فِي مَقَامِ الفراشِ المكاتبُ، كَمَا أَنَّ العَيْنَ لَا تستخدمُ فِي أشغالِ الأذنِ، فَإِذَا اضطرَّ إِلَىٰ مخالطتِهم فيحسنُ الأَدَبُ للمتقدمِ، وبالإيثارِ بالكرامةِ للمماثلِ، وبالرفقِ بِالصَّاحِبِ. وَأَشَدُّ الأَمْرِ فِي حَقِّ المماثلِ؛ فَهُنَاكَ يَقَعُ الحسدُ، فحُبُّ النَّفْسِ الترفعُ عَلَىٰ المثلِ.

وَمَتَىٰ علمتَ خَطَأً مِن مخالطٍ، فَإِيَّاكَ أَنْ تُطلعَهُ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّه يعلمُ أَنَّكَ قَدْ علمتَ خطأَهُ، فتكتسبُ بِذَلِكَ عداوتَه، إِلَّا أَن يَكُونَ ذَلِكَ الأَمْرُ فِي دِينٍ، فتلَطَّفْ بتنبيهِهِ عَلَيْهِ، وَتُظْهِرُ لَهُ أَنَّه لَمْ يقصدْ ذَاكَ، فَإِذَا وجدتَ مندوحةً عَنْ إِعْلَامِه؛ فالحذرَ الحذرَ.

وَمِنَ هَذَا الجِنْسِ: أَنْ تردَّ خَطَأً عَلَىٰ رجلٍ فِي جَمْعٍ؛ فَإِنَّهُ يَسْتَفِيدُ مَا رددتَ، ويتخذُكَ عدوًّا.

وَمِنَ الخَطَإِ الفاحشِ: أَنْ تَرىٰ ذا نِعمةٍ، وَقَدْ عرفتَ فقرَه قبلَه، فتُوهِمُه أَنَّكَ تعرفُ مبدأَ أمرِه.

وَمِنَ أوحشِ الغلطِ: أَنْ تزاحمَ اثْنَيْنِ، ورُبَّمَا كَانَا فِي سرٍّ فأقلقَهُما فِعلُك، أو أَنْ تقطعَ حَدِيثًا عَلَىٰ مُتحدثٍ، أَوْ أَنْ تعترضَ لَهُ فِي الحَدِيثِ فَتُتِمَّه، أَو تُعلمَهُ أَنَّكَ تعرفُ الحَدِيثَ، أَو تقطعَهُ عَن مهمٍّ هُوَ فِيهِ، أَو تقصدَ الدخولَ عَلَيْه فِي خَلْوَتِه، أَو أَن تذكِّرَه مصيبةً قَدْ نسيَها، أَو أَنْ تكشفَ عَنْ سَيِّئَةٍ، وَهُوَ يُحبُّ سَتْرَها.

وَمِنْ أفحشِ الخَطَإِ: أَنْ تأتِيَ إِلَىٰ شخصٍ يُحِبُّ شخصًا، فتقبِّحُ لَهُ مَحَبَّتَهُ، وتقعُ فِي المحبوبِ؛ فَإِنَّ هَذَا مِمَّا يزيدُه مَحَبَّةً، وَلَا تكسبُ أنتَ سِوَىٰ العَدَاوَةِ، وَإِنَّمَا طَرِيقُ ذَلِكَ - إِذَا أصررتَ إِلَيْهِ - بالإيماءِ أَو التلطفِ بالذمِّ، فَذَلِكَ بذمِّ الأَفْعَالِ لَا

بعيبِ الشَّخْصِ، وَمَتَىٰ رَأَيْتَ كاتمَ سرٍّ، فاطلعتَ عَلَىٰ سرِّهِ؛ فاجتهدَ أَن لَا يَعْلَمَ اطلاعَك؛ فَإِنَّه إِذَا علمَ تمنَّىٰ عدَمَكَ؛ لينكتِمَ سرُّه.

وَمَنِ أفحشِ التَّفْرِيطِ: مُطاولةُ عيادَةِ المريضِ، وحبسُ الحاقِنِ، والحبيبِ عَنْ حبيبِه.

وَإِيَّاكَ إِيَّاكَ! والطمعَ فِي الصديقِ؛ أَوْ حمل ثقلٍ عَلَيْهِ، فَإِنَّه إِنَّمَا يَوَدُّك إِذَا لَمْ تحملْ عَلَيْه كَلًّا، واحذرْ أَن تنقلَ مجالستَك عَلَىٰ صديقكِ؛ فَإِنَّه رُبَّمَا خفَّتْ عَلَيْهِ، ومنعَهَ من استحقاقِها عُذْرٌ بَاطِنٌ، وَلَا يسكن زرعُ المودةِ فِي قلبِ مَن تُسدِي إِلَيْهِ النعمَ؛ فَإِنَّ النُّفُوسَ قَدْ جُبلتْ عَلَىٰ حبِّ مَن أَحْسَنَ إِلَيْهَا، وَلَا تحقرنَّ أَحَدًا، وَلَا تَلْقَهُ إِلَّا بِالتَّعْظِيمِ عَلَىٰ قدرِ حَالِهِ، بَلْ زِدْهُ عَلَيْهَا؛ فإنَّك إِنَّمَا تَرَىٰ المتعلِّمَ وَالصَّاحِبَ بِتِلْكَ العَيْنِ، وَهُوَ يرَىٰ نَفْسَه أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ يحتقرُ نَفْسَه.

واحذرْ كُلَّ الحَذَرِ مِنَ الخلقِ، فَلَا تُخالطْ إِلَّا لضرورةٍ بمقدارٍ؛ لأنَّك إِذَا خالطتَ العَوَامَّ استهانُوا بكَ، وقلَّ احترامُهم لعلمِكَ، إنَّ المخالطةَ تُوجِبُ قِلَّةَ الِاحْتِرَامِ، وَإِنْ خالطتَ الفُهَمَاءَ أحصَوْا عيوبَكَ، وَكَانُوا أفطنَ لغلطِكَ، إِلَّا أَنَّ مخالطةَ الجُهَّالِ كمخالطةِ السكارَىٰ خطرةٌ، ومخالطةَ الحكماءِ كمخالطةِ الطِّبِّ محمودةٌ.

وَمَتَىٰ أردتَ أَن تَفْعَلَ فعلًا بأحدٍ، فأقمْ نَفْسَك مقامَه، فانظرُ مَا يجِبُ أَن يُؤْتَىٰ إِلَيْكَ فَأْتِهِ إِلَىٰ غيرِك، وَإِيَّاكَ أَنْ تُظْهِرَ النعمَ الكَثِيرَةَ؛ فتتعرضَ للحسدِ والإصابةِ بالعينِ، بَل بمقدارٍ، وَكُنْ خائفًا من معاداةِ الجاهلِ ومخاصمتِه؛ فَإِنَّ مخالطةَ العَاقِلِ للجاهلِ كمخالطةِ الصاحِي للسكرانِ.

فأمَّا العَدوُّ العاقلُ؛ فهوِّنْ أمرَه عَلَيْكَ؛ لِأَنَّ العَاقِلَ يُدارِي، وَقَدْ أجمعَ العُقلاءُ عَلَىٰ أَنَّهُ لو تجاذبَ اثْنَانِ متكافئَا القُوَّةِ شعرةً مَا انقطعتْ، وَإِنَّمَا زِيادَةُ أحدِهِمَا فِي الجذبِ يُوجِبُ الانقطاعَ، وَإِذَا أردتَ أَنْ تُهلكَ عدوكَ فأصلحْ نَفْسَك وكمِّل فَضَائلَهَا.

وَمِنَ المُتعيَّنِ عَلَىٰ مَنْ جالَسَ ملِكًا أَنْ لَا يمدحَ غَيْرَهُ فِي مجلسِه، وَأَنْ يكفَّ عَمَّا يكرهُهُ، وَأَنْ يتغالَبَ لَهُ إنْ لعبَ مَعَهُ؛ فَإِنَّهُم لَا يقتنعُونَ بِفَضْلِ السلطنةِ حَتَّىٰ يضمُّوا إِلَيْهِ فضلَ كُلِّ ذِي فضلٍ، وَأَنْ يُرِيَهم أَنَّه يَتَعَلَّمُ مِنْهُمْ وَلَا يُعَلِّمَهم، وَأَنْ يتقاصرَ لَهُم وَإِنْ كَانَ الأطولَ، وَمَتَىٰ أظهرتَ غلبتَهم لَمْ تأمنْ حبَّهم للتوحُّدِ لنْ يحملَهم عَلَىٰ إتلافِ أَو إسقاطِ حُكْمِه بَين النَّاسِ، فكَأَنَّه يَفْرحُ سَاعَةً ويغتمُّ الدَّهْرَ.

وَمِنَ المتعيَّنِ لِمَنْ بسطوه[1] فِي الخلوةِ أَنْ لَا ينبسطَ فِي الجلوةِ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ مَقَامٍ مقالًا.

وَكَذَلِكَ المَرْأَةُ العاقلةُ؛ إِذَا رأتْ من زَوجهَا فِي حَالِ المعاشرةِ خضوعًا لغَلبةِ الشهوةِ؛ أَنْ لَا تبنِي عَلَيْهِ فِي غيرِ تِلْكَ الحَالِ.

وَلَا يَنْبَغِي للمَمْلُوكِ أَنْ يُطْلِعَ المَلِكَ عَلَىٰ قُوَّةِ ذكائِهِ وحدَّةِ فطنتِهِ وشدةِ حيلتِه عَلَىٰ أَعْدَائِهِمْ؛ فَإِنَّهُ وَإِنْ تقرَّبَ بِذَلِكَ إِلَيْهِمْ فَإِنَّهُم يستشعِرُونَ الخَوْفَ مِنْهُ أَن يُعملَ ذكاءَه وفطنتَه فِي قَلْبِ دَوْلتِهم.

وَالعُلَمَاءُ عَلَىٰ نَحوِ الملوكِ فِي استعمالِ الأَدبِ مَعَهُمْ، وَإِنْ كَانَ العلمُ يصدُّهم عَنِ الأَذَىٰ؛ فَإِنَّ الحقدَ فِي النَّفْسِ لَا يُمْلَكُ.

وَمَتَىٰ خالطتَ صديقًا، فتغيَّرَ عَلَيْكَ؛ فاثبُتْ لَهُ وَلَا تتغيَّرْ عَلَيْهِ واعذرْهُ؛ فَإِنَّهُ ذُو أمزجةٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَأَنْتَ لَا تثبتُ لنفسِك عَلَىٰ حَالٍ، فَكَيْفَ تطلبُ من غيرِك الثُّبُوتَ؟! ثُمَّ كَيْفَ تطلبُ مِنْهُ الِاسْتِقَامَةَ لَك وَلَمْ تستقمْ لخالقِه؛ فَإِنَّهُ قَدْ أخبرَ عَنْهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ ﴾ [يونس: ١٢] فَإِذَا كَانَ هذَا فعلَهُ مَعَ كاشفِ الضرِّ عَنْهُ حَقِيقَةً، فكَيْفَ يُنْكرُ مِنْهُ الغدرُ فِي حَقِّ مخلوقٍ مِثلِهِ؟!

---

(١) كذا.

وَمَا ملكتَ أَحَدًا قطُّ بمثلِ تواترِ البرِ وَالإِحْسَانِ، فبالمالِ تُصادُ النُّفُوسُ، وَالإِحْسَانُ يملكُ القُلُوبَ، والبرُّ يستعبدُ الأحرارَ، وَأَمَّا اللِّئامُ فقهرُهُم بالغلبةِ، وَمَتَىٰ قنعتَ مِنَ الإِخْوَانِ بِدُونِ حَقِّكَ، وأعطيتَهم فَوْقَ حُقُوقِهِمْ؛ استثمَرْتَ وُدَّهُم، وأكسبتَهُم حياءً وخَجَلًا.

وإيَّاكَ وَإِظْهَارَ النعمِ لِمَنْ تظنُّ فِيهِ الحسدَ؛ فَإِنَّه يحتالُ عَلَىٰ زَوَالِهَا، واعتبرْ بِقَوْلِه: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ [يوسف: ٥].

وَإِيَّاكَ إِيَّاكَ ومخالطةَ الفُسَّاقِ؛ فإنَّك لَو سَمِعْتْ أَن شريكًا خانَ شريكَه لَمْ تُعامِلْهُ، أَو طلقَ عِدَّةَ زوجاتٍ لم تُزَوِّجْهُ، فَكَيْفَ بمَن خانَ أَوَّلَ مُنعِمٍ عَلَيهِ؟!

وَإِيَّاكَ أَنْ تشكُوَ نَازِلَةً نزلتْ بكَ؛ فإنَّكَ تشكُو مَنِ ابتلاكَ إِلَىٰ مَنْ لا يقدرُ لَكَ عَلَىٰ فرجٍ، فَإِنْ كَانَ المشكوُ إِلَيْهِ صديقًا اغتمَّ، أَو عدوًّا فرحَ، ورُبَّمَا كَانَتْ إعانةُ الصديقِ معاينةَ الأقدارِ، فتأثمَ تؤثمَ[1] غيرَك، وَإِنْ كَانَ صديقُك يقدرُ عَلَىٰ كبتها ففعلَ [...][2] أَو تجدُه جَدَّدَ ذِكرَها، وَيَقُولُ: طَلَبَ فُلَانٌ منِّي، وَمَا أمكنَ، فَإِن قَلَّ صَبْرُكَ فأردتَ التَّرَوُّحَ بالشكوَىٰ، فاشكُ إِلَىٰ القادرِ عَلَىٰ الرَّاحةِ، ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧]، وَلَا تستبطئنَّ الإِجَابَةَ، فَهُوَ خبيرٌ بالمصَالِحِ.

وَإِيَّاكَ أَن تنقلَ حَدِيثًا مؤذيًا إِلَىٰ أَحَدٍ؛ فَإِنَّ النميمةَ من شرِّ الذُّنُوبِ، واعلمْ أَنَّ مِمَّا ذُمَّ بِهِ السِّحرُ أَنَّهُ يفرقُ بَينَ المرءِ وزوجِه، فالنميمةُ تُجانِسُهُ فِي التفرقةِ.

ومِنَ الغلطِ القبيحِ أَن يحدثَ العَالِـمُ العَوَامَّ بِمَا لَا يبلغُ أفهامَهم؛ فَإِنَّ الخفاش يتأذَّىٰ بضوءِ الشَّمْسِ، أَوأَنْ يخالِطَهم بكشفِ جَمِيعِ أَحْوَالِه لَهُم؛ فَإِنَّه لَو خرجَ إِلَىٰ الجمعةِ فمشَىٰ رُوَيْدًا والعامِّيُّ يعدُو قَالَ العَامِّيُّ عَنِ العَالِـمِ: هَذَا قليلُ الدِّينِ، مَا

---

(١) لعلها: «وتؤثم».

(٢) غير مقروءة.

يُبالِي بفواتِ الصَّلَاةِ! ورُبَّمَا وقعَ فِي ميزابِ ماءٍ، فصاحَ العَامِّيُّ: أماؤُكُمْ طاهرٌ؟ وسكتَ العَالِمُ، فَقَالَ العَامِّيُّ: لَو كَانَ لِهَذَا دينٌ لبحثَ. فَالويلُ لِلْعَالِمِ مِنَ الجُهَّالِ! فَيَنْبَغِي اجتنابُهم مهما أمكنَ.

وَمِنَ الغلطِ: أَنْ يَقُولَ الإنْسَانُ فِي جَمْعٍ: «لَا يَكُونُ طَوِيلٌ إِلَّا أحمقَ، وَلَا طَوِيلُ اللحيةِ إِلَّا قليلَ العَقْلِ، وَلَا يعرفُ الأقرعُ جميلًا» وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ فَرُبَّمَا كَانَ فِيهِم من هُوَ كَذَلِكَ، فحقدَ عَلَيْهِ.

وَمِنَ الغلطِ: الثقةُ بِكُلِّ أَحَدٍ، وَفِي أخوةِ يُوسُفَ عبرةٌ.

ومُداراةُ المُعاشِرينَ مُتعَيِّنَةٌ؛ فَإِنَّ الرَّسُولَ ﷺ لـمْ تكفِهِ عزَّةُ النُّبُوَّةِ، حَتَّىٰ قِيلَ لَهُ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وَمَتَىٰ جربتَ عَلَىٰ شخصٍ خِيَانَةً أَوْ آفةً مرَّتينِ فَاعْلَمْ أَنَّهَا طبعُهُ فاجتنِبْهُ، وبعيدٌ أَن ينفكَّ الإِنْسَانُ عَن طَبعِه، وكثيرٌ مِنَ النَّاسِ كُلَّمَا أحسنتَ إِلَيْهِ أساءَ إِلَيْكَ، هَذِهِ جبلةٌ تَكُونُ لَا تتغيَّرُ، وإحسانُك إِلَيْهِ لَا يُغيِّرُهُ؛ فَإِنَّ المَاءَ القراحَ إِذَا دَخَلَ إِلَىٰ قراحٍ أنبتَ أشجارُه ثمارَها اللذيذةَ، وأنبتَ شوكُه السلىٰ، وَكَذَلِكَ المحلُّ الفَاسِد من البدنِ؛ فَإِنَّه أَي شَيْءٍ وصلَ إِلَيْهِ الغذاءُ يولدُ عفونةً وَمِدَّةً، وَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا فيمَن لَا أَصْلَ لَهُ وَلَا دينَ فِيهِ.

وَقَد قَالَ الحكماءُ[1]: لَا تصحبْ فاسقًا؛ فَإِنَّه يبيعُكَ بمأكلَةٍ وَمَا دُونَهَا، فَقِيل: وَمَا دُونَهَا؟ قَالُوا: يطمعُ فِيهَا وَلَا ينالُها! وَلَا تصحبْ بخيلًا؛ فَإِنَّه يقطعُك أحوجَ مَا تَكُونُ إِلَيْهِ! وَلَا كذَّابًا؛ فَإِنَّه يقربُ منكَ البعيدَ، ويبعدُ القَرِيبَ! وَلَا أحمقَ؛ فَإِنَّه يُرِيدُ أَن ينفعكَ فيضرَّك!

---

(١) انظر «حلية الأولياء» (٣/ ١٨٤).

وَمِنِ الأدبِ فِي المعاشرةِ: أَن يَكُونَ المعاشرُ نظيفًا، والنظافةُ فِي الصورةِ إزالَةُ الأدرانِ والأوساخِ، وَكَمْ قَدْ رَأَيْتُ مَن يُحاضِرُني فيناجيني، فَلَا أطيقُ سماعَ كَلَامِهِ لريحِ فمِه وبِمَا يَبْقَىٰ سنةً لَا يستعملُ سواكًا، وَقَد أَدَّبَ رَسُول اللهِ ﷺ أَصْحَابَهُ، فَقَالَ: «**مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الْبَقْلَةِ الْخَبِيثَةِ شَيْئًا؛ فَلَا يَقْرَبَنَّ مُصَلَّانَا**»[1]. إنَّ للمخالطةَ حكمًا وأدبًا.

وَأَمَّا النظافةُ فِي المَعْنَىٰ؛ فالتنزُّهُ عَمَّا يكدرُ مَجَالِسَ الأشرافِ، والنَّظَافةُ من رذائلِ الكَلَامِ، وَمَا تأباهُ النُّفُوسُ مِنْهُ، وَمَا يَدُلُّ عَلَىٰ قِلَّةِ عقلِ الناطقِ بِهِ ومروءتِه؛ فَإِنَّه لَو أشاعَ ذنبًا لِـمَنْ خالطَهُ يَوْمًا مَا أَظْهَرَ بِذَلِكَ خيانةَ نَفْسه، إِذْ لَمْ يكتمْ عَلَىٰ صَاحِبِه، وأوحشَ جُلساءَهُ من نَفْسِه؛ لخوفِه أَنْ يَأْخُذَ عَلَيْهِمْ كَمَا أخذَ عَلَىٰ ذَلِكَ.

وَفِي الجملةِ؛ يَنْبَغِي أَنْ يجتنبَ كُلَّ مَا يسفُلُ أَو يكدرُ، وَلكُلِّ قَوْمٍ أدبٌ، وأخَصُّ الخلقِ باستعمالِ التأديبِ لَهُم العُلَمَاءُ والملوكُ، إِلَّا أَنَّ الملوكَ يدققونَ فِي آدابِ الدُّنْيَا، وَالعُلَمَاءَ يتسهلُونَ.

وَقَدْ كَانَ بَعْضُ الصدورِ لَا يغسلُ فمَه مِنَ الزهومِ حَتَّىٰ ينقِّيَ يَدَيْهِ؛ لِئَلَّا يرفعَ إِلَىٰ فمِه شَيْئًا قَدْ غسلَ بِهِ زهومةَ يدِهِ، ويغسلُ يدَه فِي الطستِ المسبكِ لينْزِلَ الوسخُ إِلَىٰ قعرِه فَلَا يُرىٰ، وَكَانَ مِنهم مَن يأكلُ السفرجلَ قبلَ الطعامِ؛ لتمتلئَ مَوَاضِعُ الخلالِ بِهِ فَلَا تصلُ الزهائمُ إِلَيْهِ.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٨٥٤، ٨٥٥، ٥٤٥٢، ٧٣٥٩)، ومسلم (١١٩٠، ١١٩١، ١١٩٢) من حديث جابر. وأخرجه أبو داود (٣٨٢٤٣)، وابن خزيمة (١٦٦٣)، وابن حبان (١٦٣٩) من حديث حذيفة. وأخرجه من حديث أبي ثعلبة: أحمد (١٧٧٧٦)، والطبراني (٢٢/ ٢١٦) وقال الهيثمي (٢/ ١٨): إسناده حسن.

واعلمْ؛ أَنَّ المخالطةَ خَطِرَةٌ؛ لِأَنَّ المُخَالِطَ يفْتَقِرُ إِلَىٰ أَنْ يتطلعَ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ مزاجِ المخالَطِ؛ إِذْ مِنَ النَّاسِ من يُعْجِبُهُ قِلَّةُ الكَلَام بحضرتِه، وَمِنْهُمْ مَنْ يعدُّ ذَلِكَ عيًّا ويحبُّ الإطباقَ فِي مدحِه، وَمِنْهُمْ مَنْ يعتبرُ كَثْرَةَ المَدْحِ سخريةً، وَمِنْهُمْ مَنْ يُحبُّ السُّؤَالَ للحوائجِ والشكرَ عَلَىٰ قضائِها، وَمِنْهُمْ مَنْ يكرهُ السُّؤَالَ.

أَمَّا معاشرةُ الأهلِ؛ فَيَنْبَغِي للعاقلِ أَن يَكُونَ منبسطًا فِي أَهْلِهِ، منقبضًا عَنْهُم:

فأَمَّا الزوجةُ؛ فَإِنَّه إِذَا لَمْ يقعدْ مَعَهَا الهَيْبَة انبسطتْ إِلَىٰ غيرِ حَدٍّ، فأولُ مَا يضيعُ إسقاطُ الِاحْتِرَام، ثُمَّ إضاعةُ المَالِ، فَيَنْبَغِي أَن ينقبضَ عَنْهَا بَعْضَ الانقباضِ، وَإِلَّا فسدَ العيشُ، وَخُصُوصًا فِي بَابِ المَالِ؛ فَإِنَّهَا لَا تزالُ إِذَا طمعتْ تنفقُ وتكتسِي، وَلَا تنظرُ فِي عاقبةٍ.

وَكَذَلِكَ الولدُ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ لَا يُطْلَقَ فِي المَالِ، وَلَا يمنعَ مِنْ مرادٍ؛ لِئَلَّا يتمنَّىٰ موتَ الوالدِ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُؤْخَذَ الولدُ الكبيرُ بِمَا يُؤْخَذُ بِهِ الولدُ الصَّغِيرُ؛ لِأَنَّ الصَّغِيرَ كَانَ منقادًا لمَوْضِعِ حاجتِه، فَإِذَا كبُرَ استقلَّ بنفسِه، فصعبَ انقيادُه، فَرُبَّمَا نفَرَ، كَمَا أَنَّ الجنديَّ إِذَا أَمَّرَهُ السُّلْطَانُ؛ فَإِنَّهُ يَكْثُرُ أَتْبَاعَهُ، فَرُبَّمَا حدَّثَ نفسه بالمقاومةِ.

وَأَمَّا الخدمُ؛ فهُم عَلَىٰ ضَربينِ: دُخلاءُ وخارجُون، فَمَتَىٰ كَانَ الخادمُ أبلَهَ أتعبَ المخدومَ، وَلَم يَفهَمِ الإِشَارَةَ، وَلَم يعلمِ المَقْصُودَ؛ وَمَتَىٰ كَانَ فِيهِ ذكاءٌ وفطنةٌ لم يستتِرْ دُونَهُ سرٌّ، فَالصَّوَابُ استخدامُ الأَلبَّاءِ[1] فِي الأُمورِ [الخَارجَةِ عنِ المَنزلِ، وإِقَامتِهم فِي مَقامِ الوُكلاءِ، وَاستخدامُ المغفَّلين فِي الأُمُورِ][2] الدَّاخِلَةِ؛ لِأَنَّ كتمَ الأَسْرَارِ مطلوبٌ.

---

(١) في ي: الأولياء.

(٢) من ي.

وَمِنَ التغفُّل[١] تركُ خادمٍ مَعَ جاريةٍ، أَو مملوكٍ مراهقٍ مَعَ امْرَأَةٍ؛ ثِقَةً بالسلامةِ فِي الغَالِبِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ إِلَىٰ العطَبِ أقربُ.

وَمَتَىٰ اعتذرَ الخادمُ أو الولدُ، فليقبلْ، وليتركْ لَهُم موضعًا للعفَّةِ؛ لِئَلَّا يضطرُّوا إِلَىٰ القحةِ فِي كَثْرَةِ التوبيخِ.

وَمِنَ الخَطَإِ: تسليمُ النَّفَقَةِ إلىٰ النِّسَاءِ؛ لأَنَّهُنَّ لَا ينظرنَ فِي عاقبةٍ، وَإِنَّمَا يسلمُ إليهنَّ المفضلات ويحفظ عليهنَّ الحمل.

وَفِي الجملةِ؛ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الهَيْبَةُ عَامَّةً عَلَىٰ الكلِّ، والاحترازُ وَاقِعًا من الكلِّ، مِنْ غَيْرِ إِعْلَامٍ بِذَلِكَ، ثُمَّ تمزجُ الهَيْبَةَ بِنَوْعِ انبساطٍ، ترفعُ ثقلَ الاحتشامِ.

فَيَنْبَغِي لِـمَنْ أَرَادَ طيبَ العيشِ أَنْ لَا ينبسطَ إِلَىٰ زَوْجَاتِهِ وحوارِيهِ مسترسلًا، وَلَا يتركَهُنَّ ينبسطنَ، بَل يستتِرُ ويستترنَ ليرينَهُ عَلَىٰ التمامِ، ويَرَاهُنَّ كَذَلِكَ، فَلَا يَقَعُ مللٌ، وَلَا تَكُونُ المعاشرةُ إِلَّا فِي وَقْتِ الصفاءِ، فأَمَّا انبساطُ الزوجِ إِلَىٰ الزوجةِ مطلقًا، وانبساطُها إِلَيْهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ، حَتَّىٰ فِي التواكلِ ونوم أحدِهما إِلَىٰ جنبِ الآخِرِ، مَعَ العِلْمِ بِمَا لَا ينفكُّ مِنْهُ المخلوقُ؛ فَإِنَّه لَا يُؤثِرُهُ إِلَّا الرذالةُ، الَّذِينَ لَا يستقذرونَ مَن يَبصقُ.

---

(١) لعلها: «التغفل».

فَصْلٌ

كُلُّ شَيْءٍ لِلهِ عَجَلَّ يَثْبُتُ

قَالَ الربيعُ بنُ خثيمَ: مَا لم يُرَدْ بِهِ وَجهَ اللهِ يَضْمحلُّ، [وقدْ سمعتُ من يقولُ: كيف يقولون:] (١) لِلْحَقِّ دَوْلَةٌ وللباطلِ جَوْلةٌ. مَا أَرَىٰ الأَمْرَ إِلَّا بِالعَكْسِ: الحَقُّ يظْهرُ حينًا، والدوامُ للباطلِ.

فأجبتُ: بِأَنَّ هَذَا بَاطِلٌ؛ لأَنَّك إِنَّمَا تَقُولُ هَذَا لما ترَىٰ من ظُهُورِ البِدَعِ والظلمِ، وَالحَقُّ حَقٌّ وَإِن لم يُتَّبَعْ، وَالحَقُّ عزيزٌ وَإِنْ اضْطُهِدَ، واللهُ تَعَالَىٰ يثبتُه وَإِنْ زلزلَ.

واعتبرْ هَذَا بالنبواتِ؛ فَإِنَّهَا لـمَّا كَانَت للهِ تَعَالَىٰ وَمِنْهُ تَثْبُتُ؛ فَلَا اعتبارَ بملكِ فِرْعَوْنَ سبْعَ مئةِ سنةٍ، وَلَا باضطهادِ الإسرائيليينَ وذبحِ أبنائِهم؛ لِأَنَّ تِلْكَ الغاياتِ انْحلَّتْ، فتلمَّحْهَا يَوْمَ: ﴿ ءَامَنتُ ﴾ [يونس: ٩٠] وفرعونُ فِي شرقِ الغرَقِ، وَالقَوْمُ قَدْ تمَلَّكُوا ديارَه وديارَ قَوْمِهِ، وأَضْحَتْ منازلُه كَأَنْ لم تَغْنَ، فدامَ عَلَيْهِ الدمعُ، ودامَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ الأَمْرُ، فَكَأَنَّه لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا إِلَّا سَاعَةً.

وتلمَّحْ حَالَ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَمَا جَرَىٰ لَهُ؛ أَيْنَ ابْنُ أَبِي دُوَادَ؟ أَيْنَ مَن أجابَ تقيةً أَو مالَ إِلَىٰ أخذِ المَالِ؟ هَل كَانَت إِلَّا غفوةً، وَمَا ضرَّهُ ضربُه، [...](٢)، وبقِيَ الذكرُ الجميلُ خالدًا؛ هَذَا فِي أَحْوَال الدُّنْيَا. فأَمَّا اسْتِقْرَارُ الخَالِصِ(٣) فِي الآخِرِ، وثبوتُ جزائِه؛ فَذَاكَ دوامٌ لَا نفادَ لَهُ.

فافهمْ هَذَا، وَلَا تغتَرْ بسباحَةٍ فِي سؤرٍ، فعنْ قليلٍ يغوصُ السائحُ.

---

(١) من ي.

(٢) مشتبهة كأنها: «ولا تنفعهم استراحتهم».

(٣) مشتبهة.

❁ فَصْلٌ ❁

إِيَّاكَ والظلمَ؛ فَإِنَّه شرٌّ مكتسبٍ

وَذَاكَ لِأَنَّ حُقُوقَ الخلقِ مبنيَّةٌ عَلَىٰ الشُّحِّ، فَإِذَا رفعَ المظلومُ الظَّالِـمَ إِلَىٰ حاكمٍ عدلٍ لَـمْ يَكُنْ بُدٌّ من أخذِ الحَقِّ، فأمَّا مَا بينكَ وبينَ الحَقِّ فأقربُ حالًا؛ لِأَنَّهُ كَثِيرُ المسامحةِ.

واعلمْ؛ أَنَّ الظَّالِـم متجبرٌ عَلَىٰ نظيرِهِ، مستطيلٌ عَلَىٰ نَهيِ حاكمِه، فَمَا أسرعَ العقوبةَ إِلَيْهِ!

واعلمْ؛ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَهبُ من حقوقِه مَا شَاءَ، وَلَا يهبُ من حُقُوقِ الخلقِ شَيْئًا، وَرَسُولُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يشفعُ إِلَيْهِ فِي إسقاطِ حقوقِهِ، وَلَا يشفعُ إِلَىٰ مخلوقٍ فِي تركِ حَقِّهِ.

ودليلُ هَذَا: أَنَّهُ نَزَّهَ شفاعتَه فِي الدُّنْيَا أَن يبذلَها لذي دَيْنٍ، فَكَانَ إِذَا أُتِيَ بِمَن يُصَلِّي عَلَيْه، قَالَ: «**أَعَلَيْهِ دَيْنٌ؟**» فَإِنْ قِيلَ: نَعَمْ، امتنعَ مِنَ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ[1]، وَقَدْ كَانَ يمكنُهُ أَنْ يشفعَ إِلَىٰ صَاحِبِ الدَّينِ، وَلَكِنَّهُ لم يَفْعَلْ، فَإِذَا كَانَ هَذَا فعلُه فِي الديونِ الَّتِي وَقَعَتْ بِرِضَىٰ الفريقينِ، فكَيْفَ يشفعُ فِي المظالِـمِ الَّتِي وَقَعَتْ عَلَىٰ سخطِ المَغْصُوبِ؟!

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٢٨٩) من حديث سلمة بن الأكوع. ومن حديث أبي هريرة (٢٢٩٨، ٥٣٧١).

۞ فصل ۞

لَيْسَ فِي الدُّنْيَا شَيْءٌ إِلَّا وَهُوَ مَشُوبٌ

فالغِنَىٰ؛ وَإِنْ حَصَلَتْ بِهِ لذَّةٌ وراحةٌ فَهُوَ مَشُوبٌ لمِحَنٍ لَا تُحصَىٰ، والفقرُ وَإِن وُجِدَ مِنْهُ أَلَمٌ فَفِي ضمنِهِ راحاتٌ كَثِيرَةٌ؛ فالعاقلُ مَن نظرَ نظرًا مرجحًا:

فَإِنَّ الأَغْنِيَاءَ يُخاطِرون بالنفوسِ فِي الأَسْفَارِ والبحارِ، فَإِذَا أجمعُوا بُلُوا بحفظِه، وخافوا عَلَىٰ المجموعِ، واحتاجوا إِلَىٰ مُدَاراةٍ لصديقٍ، ومكابدةٍ لحاسدٍ، وَكَمْ مقتولٍ لِأَجلِ مالِه؛ إِمَّا فِي البوادِي بقطاعِ الطَّرِيقِ، أَو فِي بَلَدِ غُربَةٍ بتغيُّرِ المِزَاجِ[1]، ورُبَّمَا وصلَ سليمًا فاحتالَ عَلَىٰ قتلِهِ وارثٌ. ويقابلُ هَذِهِ الآفاتِ: الغِنَىٰ عَنِ الخلقِ، وَقُوَّةُ القَلْبِ بالمالِ، وبلوغُ الأغراضِ.

وَأَمَّا الفُقَرَاءُ؛ فهُم وَإِنِ استراحُوا من المخاطرةِ وجَمُلَ ذكرُهم بالعدمِ، وسَلِمُوا من تتبعِ الأَعْدَاءِ؛ قابلَ هَذِهِ الراحةَ ضعفُ النَّفْسِ، وذلُّ الفَقِيرِ للغنيِّ لمَوْضِعِ الحَاجَةِ.

فَإِذَنِ: المَحْمُودُ التوسُّطُ.

---

(١) كذا.

فَصْل

خطرتْ لِي مناجاةٌ فِي خلوةٍ؛ فقلتُ:

إِلَهِي وسيِّدِي! لَقَد حيَّرْتنِي أفعالُك، فتركْتَنِي لَا أدرِي أَيْنَ أَنَا!

سيِّدِي! تهيَّأَ إبليسُ لتعليمِ المَلَائِكَةِ، وَتَقَدَّمَ بالعبادةِ الزائدةِ عَلَيْهِمْ، ويرَىٰ أَصْلَهُ شريفًا، لِكَوْنِهِ من نارٍ؛ فيُطْرَدُ، وتُسَلَّطُ اللعنةُ عَلَيْهِ أَبَدًا، وتتقدَّمُ المَلَائِكَةُ بكثرةِ العِبَادَةِ، فيُؤْمَرُ بالذلِّ لمتحدِّدٍ(١)! ويُحرَسُ مُلكُ دَاوُدَ بألوفٍ، فتسوَّرَ الفِتْنَةُ عَلَيْهِ المحرابَ، ويحوجُ مُوسَىٰ لطلبِ نارٍ فيقعُ التكليمُ، وَمَا جالَ قطُّ فِي خاطرِه.

وعزَّتِكَ؛ لَقَد عرفتُ أَنَّ الكلَّ من تقديرِك وتدبيرِك، فَمَا أعتمدُ عَلَىٰ عملٍ، وَلَا أتجاسرُ عَلَىٰ مُسَاكَنَةِ أملٍ، فَقَدَمٌ لِي عَلَىٰ الخَوْفِ، وَأُخْرَىٰ عَلَىٰ الرَّجاءِ.

كَيْفَ لَا أكون قلقًا؛ وبينَا آدَمُ فِي مرتَبَةِ: ﴿ ٱسْجُدُوا ﴾ [البقرة: ٣٤] قِيلَ لَهُ: ﴿ٱهْبِطُواْ مِنْهَا ﴾ [البقرة: ٣٨]، أَبُو طالبٍ مَعَ القُربِ مخذولٌ، وسلمانُ مَعَ البُعدِ مقبولٌ، برصيصَا مَعَ التَّعَبُّد مفتونٌ، وبلعامُ مَعَ العِلْمِ مطرودٌ.

وأقلق من لَا يدرِي مَا لَهُ عِنْدَك، وَلَا يعلمُ بِمَاذَا جَرَىٰ قدرُك عَلَيْهِ، وَلَا لَهُ اطلاعٌ عَلَىٰ علمكَ فِيهِ، وقلبُه كالريشةِ فِي أَرْضٍ صفصفٍ فِي رِيحِ قدرٍ عاصفٍ، كلَّما عزم عَلَىٰ الِاسْتِقَامَةِ فِي الجادةِ زَلَقَ، كلَّما عولَ عَلَىٰ رفع بنيانِ العَزْمِ هدمَ، وَهَا هُوَ قَدْ أَشْرَفَ عَلَىٰ شَفَا جُرُفِ الخَاتِمَةِ، لَا يدرِي بِمَاذَا يُختمُ لَهُ، وَلَا مَاذَا يُقضَىٰ عَلَيْهِ!

أَيُّ عيشٍ يطيبُ مَعَ هَذِهِ المخاوفِ؟ وَأَيُّ جَزعٍ ينفعُ؟ فإنَّا للهِ وإنَّا إِلَيْهِ راجعون.

---

(١) كذا.

فَصْل

يَا مزعجًا مِنْ غَفْلَتِهِ بِأَنْوَاعِ اليقظةِ، وَمَدَّ عَلَيْهِ طُولُ الوسنِ

كَمْ أراكَ عجبًا مِنْ حسنِ ثيابِكَ أَيَّامَ صُعُودِ بنيانك، وَأَنْتَ لَا تشكرُ، ثُمَّ قَدْ تعب [...][1]، وتعرقبَ أَسَاسُ البنيانِ من شَيبٍ، ووهنِ عظمٍ، وضعفِ قُوَّةٍ، وَاحديدابِ ظهرٍ، وَأَنْتَ عاملٌ تسلُكُ سوادَ الأَعْمَالِ فِي زَمَانِ القُوَىٰ وشيبكَ، والله [...][2] الحِسَاب، وَمَا بقيَ إِلَّا الاستيفاءُ.

وحيكَ! انْظُرْ فِي الحسبَةِ، وارجعْ فِي تأمُّلِ [...][3] عَلَىٰ البَابِ، أَمَّا جمعُكَ من أضدادٍ تتنافَرُ حرارةً وبرودةً ورطوبةً ويبوسةً، أيشكُّ المُجْتَمَع من أضدادٍ، ثُمَّ من قهرَ.

يا مجموعًا قَدْ [...][4] باجتماعِهِ [...][5]. والله الفرْقَة! يَا من قَدْ قربت إِلَيْهِ بجانب الرحيلِ، وَهُوَ مَشْغُولٌ ببناءِ المسكنِ! يَا مَن رحلَ أَهْلُهُ وجيرانُهُ وَهُوَ آخرُ القَوْمِ، أعوذُ بِاللهِ من علمٍ لَا ينفعُ.

---

(١) صورتها: «الغفلة».

(٢) مشتبهة.

(٣) كلمتان مشتبهتان.

(٤) مشتبهة.

(٥) مشتبهة.

۞ فَصْل ۞

رَأَيْتُ نَفْسِي لَا تقنعُ منِّي بالتشاغلِ بِالعِلْمِ، وَإِنَّمَا تُطالِبُنِي بالزهدِ، وتركِ الشهواتِ، وَلُزُومِ الصَّوْمِ والسَّهَرِ

فقلتُ لَهَا: اعلَمي أَنَّ المخلوقين يَخْتَلِفُونَ؛ فواحدٌ يحملُ خمْسَ مِائَةِ رطلٍ، وآخرُ يعجزُ عَن عَشرَة أرطالٍ، وَوَاحِدٌ يأكلُ عَشرَةَ أرطالٍ، وآخرُ لَا يتمُّ نِصْفَ رطلٍ، ولله ﷻ فِي خلقِه أَسْرَارٌ، فَقد جعلَ بَعْضَهم بصيرًا بأسبابِ الدُّنْيَا، فَإِذَا حُدِّث بمسألةٍ مِنَ العِلْمِ سنةً لم يفهمْهَا، وَإِذَا أقيمَ العالم فِي صناعةِ ذَلِكَ سنةً لم يُحسِنْهَا، وَقَد رُكِّبَ طبعُكِ عَلَىٰ حُبِّ الدُّنْيَا، فأنتَ بِهِ أقومُ، وَلَم يُقدَّرْ لَك طبعٌ يحملُ خشونةَ العيشِ، فسترينَ حيث شاءَ ربك.

واعلمِي بَعْد هَذَا؛ أَنَّ حالتَك فِي العِلْمِ إِذَا صفتْ فِيهَا النِّيَّة أَفْضَلُ من فعلِ كُلِّ زاهدٍ وصيامِ كُلِّ صائمٍ؛ فَإِنَّ تدرُّسَ العلمِ وتصنيفَه أَفْضَلُ من التنفُّلِ بالصومِ وَالصَّلَاةِ وَالتَّسْبِيحِ، فما لَكِ تُؤثِرين الناقصَ عَلَىٰ الكاملِ؟!

أَفِي شكٍّ أنتِ من فتوَىٰ العلمِ؛ فَإِنَّ العلمَ يُفتِي بِأَنَّ الاشتغالَ بِهِ أَفْضَلُ، وَقَد قَالَ مَالكُ بْنُ أنسٍ: «يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَن يعتمدَ مِنَ دِينِ اللهِ تَعَالَىٰ مَا هُوَ فِيهِ أحرىٰ، وَأَعْظَمُ غناءً؛ فيضعُ نَفْسه فِي ذَلِكَ المَوْضِع، فَإِن كَانَ بِالحَرْبِ أبصر وَفِي القِتَالِ أجرًا استشغلَ نفسَه بِالجِهَادِ، وَإِن كَانَ فِي ذَلِكَ نَفْعًا لِلْمُسْلِمِينَ، وَإِن كَانَ لَا بصيرةَ لَهُ بِالحَرْبِ وَلَهُ بصيرةٌ بِالعِلْمِ، فَذَلِكَ أعمُّ للدينِ وأفضلُ. وَهَلْ جاهدَ المجاهدون إِلَّا بِمَا علمَ العُلَمَاءُ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؟!».

وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ مَالكٌ؛ فَإِنَّه هُوَ الَّذِي وقعَ لِي، وَإِنِّي لَو خرجتُ بَين الصفينِ لِلْقِتَالِ آذيتُ القَوْمَ بانزعاجِي، وَلَو حمَّلتُ بدنِي شَهْرًا من الزَّمَان مَا يُحمِّلُه الزهادُ

أبدَانَهم من أكلِ الشعيرِ؛ لرأيتُ عجائبَ الأذَىٰ، وَقَد كُنْت فِي مبدإِ أمرِي فعلتُ هَذَا فِي زَمَنِ الصبوةِ طَرِيقة التقليل، فتأذَّىٰ بدنِي وعقلي، حَتَّىٰ خلَّصَنِي من رتقةِ ذَلِكَ الجَهْلِ كفُّ العلمِ، فَإِيَّاكِ إِيَّاكِ أَن تعتقدِي أَنَّ فَوْقَ العلمِ أفضلُ، فَكَيْفَ وَمَا خلقت لِذَلكَ؟!

قَالَتْ: فبيِّنْ لِي دليلًا عَلَىٰ فَضْلِ العِلْمِ؛ لِأسكنَ.

قلتُ: الأَدِلَّةُ عَلَىٰ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ، وَلَكِنْ سأختصرُ لَك:

فمِنَ القُرْآنِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ [آل عمران: ١٨]، وَقَوْلُهُ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة: ١١]، وَقَوْلُهُ: ﴿ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩]، وَهُوَ فِي القُرْآنِ كَثِير.

وَأَمَّا فِي السُّنةِ: فَقَوْله ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا؛ يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»[١]، «**الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ**»[٢]، «**يُوزَنُ مِدادُ الْعَالِمِ فَيَرْجُحُ عَلَىٰ دَمِ الشُّهَدَاءِ**»[٣]، وَالأَخْبَارُ كَثِيرَةٌ.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧)، وابن حبان (٨٩)من حديث معاوية. وأخرجه من حديث ابن عباس: أحمد (٢٧٩١)، والدارمي (٢٢٥)، والترمذي (٢٦٤٥) وقال: حسن صحيح.

(٢) **حسن**: أخرجه أحمد (٢١٧٦٣)، وأبو داود (٣٦٤١)، وابن ماجه (٢٢٣)، وابن حبان (٨٨)، والترمذي (٢٦٨٢) من حديث أبي الدرداء، وفي إسناده اختلاف. وقد أعله الترمذي بالانقطاع، وكذلك أعله البخاري في «التاريخ الكبير» (٨/ ٣٣٧) وكذلك الدارقطني في «العلل» (١٠٨٣). وفي «فتح الباري» (١/ ١٦٠): «أخرجه أبو داود والترمذي وابن حبان والحاكم مصححًا من حديث أبي الدرداء، وحسنه حمزة الكناني، وضعفه غيرهم بالاضطراب في سنده، لكن له شواهد يتقوىٰ بها».

(٣) **ضعيف**: أخرجه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٨٥) وقال: هذا لا يصح. وقال المناوي في «فيض القدير» (٦/ ٤٦٦): قال الزين العراقي: سنده ضعيف.

وَأَمَّا المعقولُ: فَإِنَّ العِبَادَاتِ البَدَنِيَّةَ تحصلُ بآلاتِ الجسدِ الظَّاهِرَةِ، وَالعلْمُ يحصلُ بِالقَلْبِ والعقلِ، وَذَلِكَ أَشْرَفُ، ثُمَّ بِهِ يتوصلُ إِلَىٰ الخلودِ الدَّائِمِ، ورضَىٰ الخالقِ، وَهُوَ مستمرٌّ مَزِيدِ الرِّفْعَةِ فِي الدُّنْيَا عَلَىٰ أربابِهَا، فالعَالِـمُ نائبٌ عَنِ اللهِ تَعَالَىٰ فِي أَرْضِهِ، آمِرٌ عَنْهُ، نَاهٍ عَن قَوْلِهِ، و[...][1] العلم سجدتِ المَلَائِكَةُ لآدمَ، وَهُوَ مرتبةُ الأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ لَا يُدْرَكُ رضىٰ الحَقِّ فِي مَاذَا[2] إِلَّا بِالعلمِ، وَلَا سخطُه فِي أَيِّ شَيْءٍ إِلَّا بِالعِلْمِ، وزهادةُ الزاهدِ لَا تتعدَّىٰ عتبةَ بابِه، ولرُبَّمَا زلَّ فِي زُهدِه بقلةِ عِلْمِهِ، وَالعَالِـمُ مُهتَدٍ بنورِ العلمِ، وَعِلْمُهُ عامُّ النَّفْعِ، باقٍ بعدَ الموتِ.

۞ فَصْلٌ ۞

فِي اليَقِينِ

اليَقِينُ علمٌ مكتسبٌ، وَكُلُّ أَحَدٍ يُوقنُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَرَاهُ، ويسمعُ كَلَامَهُ، إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ اليَقِينَ فِي الِاعْتِقَادِ لَـمْ يقفْ بِحَيْثُ يخرجُ إِلَىٰ الأَفْعَالِ، فأَمَّا المُحققُّونَ؛ فَإِنَّهُ لَـمَّا قَوِيَ يقينُهم كَانُوا فِي خلواتِهم متأدِّبينَ، كالجالسِ بمشهدِ ملكٍ عَظِيمٍ، وَهُوَ ينظرُ إِلَيْهِ، وَقَد زادَ أقوامٌ فَلَمْ يمدُّوا أرجلَهم وَلَم يَسْتَنِدُوا، وَقَدْ كَانَ مَن هُوَ أَشْرَفُ مِنْهُمْ يمدُّ رجلَه ويَسْتَنِدُ، وَلَكِنْ كَانَ ذَلِكَ عَلَىٰ قانونِ الأَدَبِ أَيْضًا.

فَتَحْقِيقُ اليَقِينِ إِذَا ظهرَ عَلَىٰ الجَوَارِحِ أثمرَ الأَدَبَ، وأَثَّرَ فِي المَعْنَىٰ بمُحاسَبةِ النَّفْسِ، وَفِي الصورةِ حفظَ الجَوَارِحِ؛ لِأَنَّ مَن أيقنَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَرَاهُ ويسمعُه

---

(١) مشتبهة.

(٢) لعل الصواب: «في كل ذا».

ويعلمُ بَاطِنَه؛ تأدَّبَ، فاحذَرْ من خاطرٍ قبيحٍ، أَو فعلٍ غيرِ صَحِيحٍ، أَو كَلِمَةٍ تُؤْذِي.

عَلَىٰ أَنَّهُ لَا بُدَّ من نَوْعِ غفلةٍ، تُغَطِّي حقائقَ اليَقِينِ، تُوجبُ بوجودِها مَصْلَحَةً، وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا أَكَلُوا وَلَا نكحُوا.

فَصْلٌ

يَتعجَّبُ النَّاسُ من زاهدٍ، قَدْ ذابَ جسمُه فِي الصِّيَامِ والقيامِ؛ يقينًا بالثوابِ، وَلَا يتعجبونَ من مسافرٍ رجعَ نضرًا حَتَّى كسبَ مِائَة دينارٍ، وَلَا من عيَّارٍ خرجَ لطلبِ غرضٍ فيُقتلُ

والسببُ فِي هَذَا: غلبةُ الحسِّ عَلَىٰ العَقْلِ، فلو غلبَ العَقْلَ الحسيَّاتُ لاستعظَمَهُ ما لا يستعظمونَ، وَلَا استهانُوا مَا استهولوا، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ الشَّاهِدِ عَنِ اليَقِينِ: «**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا**»[1].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٦٢١)، ومسلم (٢٣٥٩) من حديث أنس. وأخرجه الترمذي (٢٣١٢) وقال: حديث حسن. وابن ماجه (٤١٦٠)، وصححه الحاكم (٢/ ٥٥٤) من حديث أبي ذر.

فَصْلٌ

رَأَيْت نَفْسِي شديدةَ القلقِ من ذكرِ الموتِ، كَثِيرَةَ الضَّجيجِ

فقلتُ لَهَا: ويحَكِ! لَا يصلحُ هَذَا القلقُ؛ لوجوهٍ:

أَوَّلُهَا: أَنَّ الضجيجَ لَا يَنْفَعُكِ، وَلَا بُدَّ من أَن تَوَطِّنِي عَلَىٰ أَنَّ الخالقَ سُبْحَانَهُ يبنِي ويهدمُ، ويعطِي ويمنعُ، ويهبُ ويسلبُ؛ فَإِنْ سلَّمتِ سَلِمْتِ[1]، وَإِن اعترضتِ أَثِمْتِ، والقدرُ لَا يتغيَّرُ، وَقَد قَالَ ﷻ: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥]، وَقَالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه للأشعثِ بْنِ قَيْسٍ: «إِنْ صبرتَ إِيمَانًا واحتسابًا، وَإِلَّا سلوتَ كَمَا تسلُو البَهَائِمُ».

فكأَنَّكِ يَا نفسُ باستغَاثتكِ زدتِ الكربَ كربًا، وَمَنْ تفكَّرَ فِي الموتِ دَائِمًا مَاتَ كُلَّ لحظةٍ، فلأنْ يتشاغلَ عَنْ ذكرِهِ لبقائِهِ مرَّةً خَيْرٌ لَهُ منْ أَنْ يجدِّدَ عَلَىٰ نَفْسِهِ كربًا كُلَّ لحظةٍ؛ إِلَّا أَنْ يجدَ الإِنْسَانُ غفلةً، فيُداوِيهَا بِذِكْرِ الموتِ، كَمَا قَالَ عليه السلام: «**أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَادِمِ اللَّذَّاتِ**»[2].

---

(١) في المخطوط: «سلم».

(٢) حسن: أخرجه أحمد (٧٩١٢)، والترمذي (٢٣٠٧) وقال: حسن غريب. والنسائي (١٨٢٤)، وابن ماجه (٤٢٥٨)، وابن حبان (٢٩٩٢) من حديث أبي هريرة. قال النووي في «الأذكار» (١٧٧): «إسناده صحيح». وقال ابن الملقن في «البدر المنير» (٥/ ١٨١): «صحيح». وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤/ ١٩٥): «إسناده حسن». وقال ابن حجر - كما في «الفتوحات الربانية» (٤/ ٥٢) -: «حسن». ورجح الإمام أحمد إرساله – فيما حكاه عنه أبو داود في «المسائل» (١٩٢٢) – وكذلك رجح الدارقطني المرسل في «العلل» (١٣٩٧). وللحديث شاهد من حديث أبي سعيد الخدري: أخرجه الترمذي (٢٤٦٠)، وإسناده ضعيف. وآخر من حديث أنس: أخرجه البيهقي في الشعب (٨٢٦)، والضياء (١٧٠١) وسنده حسن.

والثاني: أَنَّ المتصرِّفَ مَالكٌ، واعتراضُ المملوكِ جُنونٌ.

والثالثُ: أَنَّهُ حكيمٌ، وَقَد تخفَىٰ وُجُوهُ المصَالِحِ، وَإِنْ كَانَ ظَاهِرُهَا أَذًىٰ، وَنَحْنُ نرَىٰ الطِّفْلَ يَصيحُ من خروجِهِ من بطنِ أُمِّهُ؛ لمفارَقَةِ إِلْفِهِ، ثُمَّ يرَىٰ أَنَّ ذَلِكَ أصلحُ، ويضجُّ من فقدُ الرَّضاعِ، ويرَىٰ أَنَّ مَا تعوضَ بِهِ أصلحُ؛ فَرُبَّمَا كرهتِ الموتَ، وَكَانَ أصلحَ، وَلَا تعلمينَ.

والرابعُ: أَنَّ الشَّرْعَ المعصومَ قَدْ نطقَ بمآلِ أَرْوَاحِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنَّهَا «فِي حواصلِ طيرٍ، تعلقُ من شجرِ الجنَّة» (١)، فَمَا وَقعَتِ النقلةُ للمؤمنِ إِلَّا إِلَىٰ خَيْرٍ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ، وَكَأَنَّ الحَقَّ ﷻ أعارَهم أجسادًا ليصحَّ التَّنَعُّمُ، فَإِذَا قَامَتِ القِيَامَةُ، وأُعيدتِ الأجسادُ رُدَّتِ العوارِي وعادتِ الأملاكُ.

والخامسُ: أَنَّ مَنْ أَتْلَفَ جثةً معرضةً لِكُلِّ محنةٍ، وأذهبَ حَيَاةً منقطعةً مشوبةً؛ فغرم ذَلِكَ بإعادةِ الجثةِ سَلِيمَةً آمنةً من كُلِّ آفَةٍ، وردِّ الحَيَاةِ سَلِيمَةً من انقطاعٍ، باقيةً عَلَىٰ الدوامِ؛ حَسُنَ إِتْلافُهُ مَا أَتْلَفَ.

ثُمَّ دعنِي مِنْ هَذَا؛ أتدرِي كَيْفَ كُوِّنْتَ؟! لَقَد تقلَّبتَ من نطفةٍ إِلَىٰ علقةٍ إِلَىٰ حَالٍ بعدَ حَالٍ، ولاقتْ منكَ الأُمُّ كُلَّ مشقةٍ فِي الحملِ والوضعِ والرضاعةِ والتربيةِ، ثُمَّ تولَّاكَ الأَبُ والمؤدِّبُ بِأَنْوَاعِ الرياضةِ، فَلَمَّا تركَّبتَ وَاسْتَقَامَ ترتيبكَ ساومَ فِيك الخالقُ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ﴾ [التوبة: ١١١]، فَقَامَ الهَوَىٰ يعارضُ، ليأخذَك بِلَا ثمنٍ؛ فواهًا إن فهمتَ قدرَ الربحِ فِي معاملةِ الحَقِّ، والويلُ لَك إن بعتَ الهَوَىٰ نَفْسَك مجَّانًا؛ فَذَاكَ - واللهِ - الموتُ الَّذِي لَا حَيَاةَ فِيهِ، فَعَلَيْهِ فاحزَنْ، لَا عَلَىٰ موتِ الصُّورةِ.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٨٨٧) من حديث عبد الله بن مسعود بنحوه. وأخرجه أحمد (٢٣٨٨) من حديث ابن عباس.

فَصْل

أَحَقُّ النَّاسِ باستعمالِ أدبِ المعاشرةِ: طُلَّابُ العِلْمِ مَعَ مشايخِهم

فَإِنَّه يَنْبَغِي لِلصَّاحِبِ أَن يتأدَّبَ لمَصْحوبِه، ويكونَ مَعَهُ كالمملوكِ، وَلَا يردَّ عَلَيْه قَوْلًا يَقُولُهُ، فَإِذَا أَرَادَ أَن يُعَرِّفَه أَنَّهُ أَخْطَأَ احتالَ بوجهٍ لطيفٍ؛ مِثْل مَا:

أَخْبَرَنَا عبدُ الحَقِّ، قَالَ: أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مرزوقٍ، قَالَ: أَنَا أَبُو بَكْرٍ الخطيبُ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الدَّامغانِيُّ، قَالَ: سَمِعْت القاضِي أَبَا عَبْدِ اللهِ الضمريُّ يَقُول: درَّسَنَا يَوْمًا أَبُو بَكْر الخوارزميُّ، فحكىٰ فِي تدريسِه عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الحَسَنِ شَيْئًا، وَهِمَ فِي حكايتِهِ، وَكَانَ مُحَمَّدُ قَدْ نصَّ فِي «الجَامِعِ الصَّغِيرِ» عَلَىٰ خلافِه، فَلَمَّا انقضَىٰ تدريسُه تركتُ الإِعَادَة علىٰ الأَصْحَاب، ومضيتُ إِلَىٰ أَبِي بَكْرٍ، وَقَد دَخَلَ منزلَه، وَمَعِي «كِتَابُ الجَامِعِ» لمحمد بْنِ الحَسَنِ، واستأذنتُ عَلَىٰ أَبِي بَكْرٍ، فأذنَ لِي فِي الدخولِ، فدخلتُ وسلمتُ عَلَيْه، ثُمَّ قلتُ لَهُ: هاهنا بَابٌ فِيهِ شَيْء قَدْ أشكلَ عَلِيَّ، فأحتاجُ إِلَىٰ قراءتِه عَلَىٰ الشَّيْخِ، فَقَالَ: افعلْ، فقرأتُ من قبل المَوْضِعِ الَّذِي قصدتُ لأجلِه، إِلَىٰ أَن انتهيتُ إِلَيْهِ وجاوزتُه، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: قَدْ كُنَّا حكينَا فِي الدرسِ عَنْ مُحَمَّد بْنُ الحَسَنِ شَيْئًا، والنصُّ هاهنا فِيهِ بخلافِه، وَهُوَ كَذَا؛ فَعَرِّفِ الأَصْحَابَ ذَلِكَ حَتَّىٰ يذكرُوه ويعلقُوهُ عَلَىٰ الصَّوَابِ، أَو كَمَا قَالَ.

قلتُ: فَلَقَد عشنَا إِلَىٰ زَمَانٍ نرَىٰ فِيهِ من التلامذةِ مِن سُوءِ الأَدَبِ، وَسُرعَةِ الرَّدِّ عَلَىٰ الأشياخِ مَا يُستحيَىٰ من ذكرِه، وبلغنَا أَنَّهُم يَخْتَلِفُونَ أشياخَهم بِمَا لَا يصلحُ، وبَعيدٌ فَلاحُ أُولَئِكَ، فَقد قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أدهمَ: «كُنَّا إِذَا رَأَينا الشابَّ يتكَلَّمُ فِي الحَلقَةِ أَيِسْنَا من خَيرِه».

والسببُ فِي قِلَّةِ آدابِ هَؤُلَاءِ: أَنَّهُمْ لَا يطْلُبُونَ العلمَ للعملِ؛ إِذْ لَو طَلَبُوهُ للعملِ لَاستعملُوه، فأثرَ فِيهِم، وَالَّذِينَ كَانُوا يطلبونَه للهِ ﷻ كَانَ أَحَدُهمْ إِذَا طردَهُ شيخُه صَبرَ وَثبَتَ، وَلَم يَكُنْ مِنْهُ إِلَّا التَّوَاضُعُ وَالأَدَبُ.

وَلَقَد ساءتْ أَحْوَالُ كَثِيرٍ من الأشياخِ أَيْضًا؛ لفَسَادِ مقاصدِهم، فأحدُهم يغضبُ إِذَا مَضَىٰ تلميذُه يَقْرَأُ عَلَىٰ غَيْرِهِ، وَفِيهِم مَن يتخلَّفُ إِخْوَانُه بالغِيبةِ، وينصرُ البَاطِلَ فِي مناظرتِهِ، وَهُوَ يعلمُ أَنَّهُ بَاطِلٌ، وَقَد قَالَ الشَّافِعِيُّ: «مَا ناظرتُ أَحَدًا فأحببتُ أَن يُخطِئَ، وَلَا باليْتُ مَع مَنْ كَانَ الحقُّ». فَهَذِهِ سيرُ العُلَمَاءِ والتلامذةِ القدماءِ، وَهَذِهِ سيرُ المتأخِّرينَ، وبينهُما بونٌ بَعِيدٌ.

وَلَقَد بلغنَا أَنَّ عبدَ الغَنِيِّ الحَافِظَ أخذَ عَلَىٰ أَبِي عَبْدِ اللهِ الحَاكِمِ أغلاطَه فِي كِتَابٍ عمِلَهُ، وكتبَ بِهَا إِلَيْهِ، فَلَمَّا وصلتْ إِلَيْهِ أملاهَا عَلَىٰ النَّاسِ، واستفادَها.

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ سلامةَ القصدِ، وحسنَ الأَدَبِ، وَالعَمَلَ بِهِ؛ إِنَّهُ قديرٌ كَرِيمٌ.

حَكَىٰ لِي أَبِي - مُمْلِي هَذَا الكِتَابِ -، قَالَ لِي: يَا بُنَيَّ، كُنْتُ أَنَا وَجَمَاعَةٌ من العلماءِ مِثْلِ ابْنِ الخَشَّابِ وَابْنِ لبيدةَ وَابْنُ شافعٍ وَجَمَاعَة، كُلٌّ من (عثر بِهِ الوزير يحيىٰ بْن هُبَيرةَ، لما كَانَ يُملي كِتَابَ «الإفصاحِ فِي معانِي الصِّحاحِ» يُملِي عَلَيْهِ مَا يَقَعُ لَهُ خاطرٌ أَومطالعةٌ، فأَمْلَىٰ يَوْمًا عَلَيَّ واقعةً قَدْ وَقَعَتْ لِي فِي مَعْنَىٰ حَدِيثٍ، فقلتُ لَهُ: هَذَا الوَاقِعُ خَطَأٌ! فَقَالَ: لَا، بَلْ هُوَ عينُ الصَّوَابِ. فقلتُ له: لَا أكتبُه! فَقَالَ لِي: اكتبْ مَا أُملِي عليكَ، فقلتُ: هَذَا خَطَأٌ! وألححتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مِنْ أَيْنَ أخذتَ هَذَا؟ فقلتُ: مِنْ كُتُبِ فُلَانٍ وفلانٍ، فأَحْضَرَ الكتبَ، ونظرَ مَا قلتُه، وَإِذَا بِهِ هُوَ الصَّحِيحُ لَا مَا وقعَ لَهُ، فَقَالَ: صدقتَ، أُكتبِ الآنَ مَا قلتَ؛ فَهُوَ الصَّوَابُ. قَالَ أَبِي: فكتبتُهُ لَهُ كَمَا قلتُ.

وَكَانَ جَمَاعَةٌ قَدْ انتدبوا لحفظِ كِتَابِ الوزيرِ، وجعلَ لَهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ أَخْبَارًا ومشاهراتٍ، فبيْنَا أَنَا لَيْلَةً جَالِسٌ بحضرةِ الوزيرِ، وَإِذَا بواحدٍ يَقْرَأُ من حَفِظِهِ صُورَةَ مَا كُنْتُ رددتُه عَلَىٰ الوزيرِ، فَلَمَّا أَنهىٰ ذَلِكَ قَالَ الوزيرُ: يَا سادةُ، هَذَا كَلَامُ ابْنِ الجَوْزِيِّ؛ فَإِنَّه وقعَ لِي كَذَا وَكَذَا، فقلتُ لَهُ علِّقْهُ فِي كتابِي، فَقَالَ لِي: هَذَا خَطَأٌ، فبانَ لِي صِحَّةُ قَوْلِه، فذهبتُ إِلَيْهِ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ كلامِي وَلَا شرحِي، هَذَا كَلَامُ الشَّيْخِ أَبِي الفَرَجِ.

قَالَ أَبِي: فاستحييتُ مِنْ ذَلِكَ، فَلَمَّا خلوتُ بالوزيرِ قلتُ لَهُ: يَا مولَانَا! قلتَ كَذَا وَكَذَا، فقالَ: كذبتُ! مَا كَذَا وصَّيتَنِي فِيهِ وقُلْتَهُ، فَكَانَ الصَّحِيحُ مَعَكَ.

كتبَهُ عليُّ بْنُ الجَوْزِيِّ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

۞ فَصْلٌ ۞

مِن تلبيسِ إبليسَ عَلَى طُلَّابِ العِلْمِ

أَن يُحسِّنَ لطالبِ الحَدِيثِ كَثْرَةَ السماعِ والطلبِ، فيستكثرُ من طلبِ الحَدِيثِ، ويمدُّ الرِّحْلَةَ إِلَىٰ البلدانِ، وَالَّذِي فِي هَذَا الجزءِ هُوَ الَّذِي فِي هَذَا الجزءِ، وَلَو كَانَ العمرُ يحتملُ لَمْ يَكُنْ بِذَلِكَ بَأْسٌ.

وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا ممكنًا فِي الزَّمَنِ الأَوَّلِ؛ لقلةِ الحَدِيثِ وقربِ الإسنادِ، فأَمَّا اليَوْمَ - وَقَد انْتَشَرَ الأَمْرُ وزادَ عَلَىٰ الحَدِّ -؛ فَإِنَّ الزَّمَانَ يمضِي مِنْ غَيْرِ مَا وضعَ لَهُ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ المُرَادَ التفقُّهُ فِي الحَدِيثِ، لَا نفسُ الحَدِيثِ.

وكثيرٌ من أربابِ التشاغلِ بالحديثِ يقولُ فِي آخِرِ عمرِه فضيحةً، فَمِنْهُم من يَعملُ بِمَا عِنْدَه مِنَ الأَحَادِيثِ، ورُبَّمَا كَانَتْ مَنْسُوخَةً أَو ضَعِيفَةً، أَو جَاءَتْ لِـمَعْنًىٰ، وَلَا يدرِي كُلَّ ذَٰلِكَ؛ لتشاغلِهِ بكثرةِ الطرقِ عَن الفقهِ.

وَلَقَد بلغنِي أَنَّ رَجُلًا من المُحَدِّثينَ قَرَأَ عَلَىٰ قَوْمٍ فِي جُزْءٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نهَىٰ أَنْ يسقيَ الرَّجُلُ ماءَه زرعَ غَيْرِهِ[1]، فتفرَّقَ القَوْمُ وَهُم يستغفرون اللهَ، وَيَقُولُونَ: كُنَّا إِذَا فضلَ من مائِنا شَيْئًا أرسلنَا إِلَىٰ زرعِ جيرانِنَا، وَنَحْنُ الآنَ نستغفرُ اللهَ!

وَهَذِهِ جنايةٌ عَلَىٰ الإِسْلَامِ، أعنِي: قراءةَ مِثْل هَذَا الجاهلِ لِلْحَدِيثِ، وَإِنَّمَا أُرِيدَ بالحديثِ: أَنْ لَا تُوطَءَ السبايَا الحواملُ.

وَمَنِ المحدثينَ مَن كَانَ يُقدمُ عَلَىٰ الفَتْوَىٰ؛ لِئَلَّا يُرىٰ بعينِ أَنَّهُ شَيْخٌ وَهُوَ جَاهِلٌ:

فأنبأَنا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي منصورٍ قَالَ: أَنبَأَنَا أَحْمَدُ بْنُ الحَسَنِ بْنِ خيرونَ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ العتيقيُّ، قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو عُمَر بْنُ حسونةَ، قَالَ: أَخْبَرَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ إِسْحَاقَ الحلاقَ، قَالَ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ الحربيُّ، قَالَ: بلغنِي أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتْ إِلَىٰ عَلِيِّ بْنِ دَاوُدَ وَهُوَ يُحدِّثُ، وبينَ يَدَيْهِ مقدارُ أَلْفِ نفسٍ، فَقَالَت له: حلفتُ بصدقةِ إزاري، فقَالَ: بكم اشتريتيهِ؟ قَالَت: باثنيْن وَعِشْرِينَ درهمًا، قَالَ: اذهبِي صُومِي اثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ يَوْمًا، قَالَ: فَلَمَّا مرتْ قَال: آهٍ آهٍ! غلطنَا واللهِ، أمرناهَا بكفارةِ الظهارِ.

---

(١) **صحيح:** أخرجه أحمد (١٧٠٣١)، والدارمي (٢٤٨٨)، وأبو داود (٢١٥٨)، وابن الجارود (٧٣١)، والترمذي (١١٣١) وقال: حسن. من حديث رويفع بن ثابت الأنصاري. وقال ابن كثير في «إرشاد الفقيه» (٢/ ٢٣٦): «إسناده صحيح». وقال البيهقي في «السنن الكبرىٰ» (٧/ ٤٤٩): «صحيح».

قلتُ: فانظرْ إِلَىٰ هَذِهِ الفضيحةِ!

وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يتلَجْلَجُ، لَا يدري مَا يَقُولُ:

أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ القزازُ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ ثَابِتٍ[1]، قَالَ: سَمِعْتُ البَرْقَانِيَّ يَقُولُ: قَالَ لِي أَبُو بَكْرٍ الأَبْهَرِيُّ الفَقِيهُ: كُنْتُ عِنْدَ يحيَىٰ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ صاعدٍ، فجاءَته امْرَأَةٌ، فَقَالَت: أَيُّهَا الشَّيْخُ، مَا تَقُولُ فِي بئرٍ سقطتْ فِيهَا دجاجةٌ فماتتْ، هَل المَاءُ طاهرٌ، أم نجسٌ؟ فَقَالَ يحيَىٰ: ويحكِ، كَيْفَ سقطتِ الدجاجةُ فِي البئرِ؟ فقالَتْ: لَمْ تكُنْ البئرُ مغطاةً، فَقَالَ يحيَىٰ: أَلَا غطيْتِيهَا حَتَّىٰ لَا يَقَعَ فِيهَا شَيْءٌ. قَالَ الأبْهريُّ: فقلتُ: يَا هَذِهِ، إنْ كَانَ المَاءُ قَدْ تغيَّرَ، وَإِلَّا فَهُوَ طاهرٌ[2].

قلتُ: ويدخلُ الشَّيْطَانُ عَلَىٰ الفُقَهَاءِ فيُلهِيهِم بالجدلِ والخصوماتِ، فينقطعُ الزَّمَانُ مِنْ غَيْرِ حُصُولِ فَائِدَةٍ، ويتشاغلونَ بِذَلِكَ عَنِ الحَدِيثِ الَّذِي هُوَ أَصْلُ الشَّرْعِ، ويدخلُ عَلَىٰ الوعاظِ بِأَنَّ المَقْصُودَ ترقيقُ القُلُوبِ، فترىٰ أَحَدَهُمْ يُنشِدُ الأشعارَ الغزليَّةَ، والمقرئَ يلحنُ بتطريبٍ، فيُوجبَ ذَلِكَ مَا يُوجبُ طربُ الغِنَاءِ من التواجدِ وَتَمْزِيقِ الثِّيَابِ، ويُوهِمَهم أَنَّ المجلسَ قَدْ طابَ، وَهَذَا عينُ المَنْهِيِّ عَنْهُ؛ لِأَنَّهُ إخراجٌ للطبعِ عَنِ الاعتدالِ، وَهَلْ سُمِعَ عَنْ نَبِيٍّ أَو صَحَابِيٍّ أَنَّهُم فعلُوا ذَلِكَ أَو

(١) هو الخطيب البغدادي، والحكاية في «تاريخه» (١٦/ ٣٤١).

(٢) زاد في «تاريخ بغداد»: «ولم يكن عِنْدَ يَحْيَىٰ من الفقه ما يُجيبُ المرأة» وعلق الخطيب قائلًا: «قلت: هذا القول تَظنُّن من الأبْهَري، وقد كَانَ يَحْيَىٰ ذا محل من العلم عظيم، وله تصانيف فِي السنن وترتيبها عَلَىٰ الأحكام يدل من وقف عليها وتأملها عَلَىٰ فقهه، ولعل يَحْيَىٰ لم يجب المرأة؛ لأن المسألة فيها خلافٌ بين أهل العلم، فتورَّع أن يتقلد قول بعضهم، أو كره أن ينصب نفسه للفتيا، وليس هُوَ من المرتسمين بِهَا، وأحب أن يكل ذَلِكَ إِلَىٰ الفقهاء المشتهرين بالفتاوىٰ والنظر، والله أعلم».

خرجُوا عَنِ الاعتدالِ فِي حَالٍ، وَيَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ خُرُوجٌ عَنِ الاعتدالِ: أَنَّهُ إِذَا زَالَ سببُه استحيَا الإِنْسَانُ مِمَّا اعتراهُ مِن الطربِ والانزعاجِ، كَمَا لَو خُدعَ عَن مالِه بِمَدْحِهِ فَأَعْطَىٰ، فَإِنَّه إِذَا صَحَا من سُكرِ ذَلِكَ نَدِمَ.

ويدخلُ عَلَىٰ أهلِ اللغةِ، فيقولُ: هَذَا لسانُ الشَّرِيعَةِ، فيشتغلون بالألفاظِ عَن مَعْرِفَةِ وَاجِبَاتِ الشَّرْعِ، إِلَىٰ أَن يفنَىٰ العمرُ، وَكَذَلِكَ فِي النحوِ، وَقَد لَبَّسَ عَلَىٰ صَاحِبِ «فُتيا فقيهِ العَرَبِ» لقلةِ فقهِهِ، فَأَرَاهُ أَنَّهُ قَدْ أفتىٰ فِي المَسَائِلِ، وَأَنَّهُ قَدْ أَتَىٰ بالمقصودِ، لَا بَل أَتَىٰ بِمَا يعجزُ أَكْثَرُ النَّاسِ عَنْهُ، وَهُوَ خَطَأٌ:

أَخْبَرَنَا أَبُو منصور البَغَوِيُّ وَأَبُو الفضل بْن ناصر وَأَبُو الحسين الأنصاري، قَالُوا: حَدَّثَنَا زَكَرِيَّا التبريزيُّ، قَالَ: ثنا أيوبُ، قَالَ: ثنا أَبُو الحسين بْن فَارِس، قَالَ: قِيلَ لفقيه العَرَبِ: هَل يجِبُ عَلَىٰ الرَّجُل إِذَا أشهدَ الوُضُوءُ؟ قَالَ: نعمْ، والإشهادُ أَنْ يمزيَ الرَّجُلُ! وذكرَ مِنْ هَذَا الجِنْسِ مَسَائِلَ كَثِيرَةً.

ووجهُ الخطَإِ فِي ذَلِكَ: أَنَّهُ مَتَىٰ كَانَ الاسمُ مُشْتَرَكًا بَين مُسَمَّيين كَانَ إطلاقُ الفَتْوَىٰ عَلَىٰ أحدِهما دونَ الآخرِ خَطَأً.

مثالُه: أَن يَقُولَ المُسْتَفْتِي: مَا تَقُولُ فِي وطءِ الرَّجُلِ زوجتَه فِي قُرئِها؟ فَإِنَّ القُرْءَ يَقَعُ عِندَ اللغويِّ وَالفُقَهَاءِ عَلَىٰ الحَيْضِ وَعَلَىٰ الطُّهرِ؛ فَقَوْلُ الفَقِيهَ: «لَا يَجُوزُ» - إِشَارَةً إِلَىٰ الحَيْضِ - لَا يَجُوزُ، وَقَوْله: «يَجُوز» - إِشَارَة إِلَىٰ الطُّهر - لَا يَجُوزُ؛ بَل يَنْبَغِي أَنْ يُفصِّل.

وَكَذَلِكَ لَو قَالَ السائلُ: هَل يَجُوزُ للصائِمِ أَن يأكلَ بعد طلوعِ الفَجْرِ؟ لَكَانَ يَنْبَغِي للفقيه أن يقولَ: الفَجْر فجرانِ، فيجوز لَهُ الأكلُ بعد طلوعِ الأَوَّلِ دونَ الثَّانِي.

وَعَلَىٰ هَذَا؛ فجميعُ المَسَائِلِ الَّتِي ذَكَرَهَا خَطَأٌ بإطلاقِ الفَتْوَىٰ فِيهَا؛ لِوَجْهَيْنِ:

أحدُهما: لِأَنَّهُ لم يستفصلْ فِي المحتملاتِ.

والثانِي: لِأَنَّهُ صرفَ الفَتْوَىٰ إِلَىٰ أبعدِ المحتملاتِ، وتركَ الأَظْهَرَ.

وَإِنَّمَا يَقَعَ هَذَا لقلةِ فقهِ النُّفُوسِ، واستغناءِ الإِنْسَانِ بعلمِه.

ثُمَّ إنَّ إبليسَ حسَّن لكثيرٍ مِنَ العُلَمَاءِ أَنَّ العلمَ يدفعُ عَنْهُم، وأنساهم أَنَّهُ حجةٌ عَلَيْهِم، ففسحوا لِأَنْفُسِهِمْ فِيمَا يَنهىٰ عَنْهُ العلمُ، وَفِيهِم مَن لَبَّسَ عَلَيْهِ بِأَنَّ المَقْصُودَ نفسُ العلمِ، وَجَاءَ إِلَىٰ آخرين فَقَالَ: المُرَادُ العَمَلُ، فشغلَهم بالصومِ وَالصَّلَاةِ مَعَ قِلَّةِ العلمِ، وأضلَّهُم بالرياءِ والعُجبِ وَالعَمَلِ البَاطِلِ.

فالموَّفقُ مَن استضاءَ بنورِ العلمِ، وأخذ في يدِه، وعرفَ المَقْصُودَ مِنْهُ؛ فَإِنَّ الأَحَادِيثَ تُرادُ لفقهِهَا، والنحوَ واللغةَ لِبَيَانِ معانِي كَلَامِ اللهِ ﷻ وَرَسُولِهُ ﷺ، وَالفِقْهَ لفهْمِ مرادِ الشَّرْعِ، ثُمَّ المُرَادُ العَمَلُ بِذَلِكَ لصاحبِ العلمِ، وَذَلِكَ هُوَ الإِخْلَاصُ.

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ فهمًا يوقعنا عَلَىٰ المَقْصُودِ، ويمنعُنَا من الزَّيغِ، واللهُ ﷻ قادرٌ كَرِيمٌ.

❁ فَصْل ❁

للهِ ﷻ عِنْدي مِنَ النِّعمِ مَا لَا أُحصِيه

وَلَا يُمكنُنِي عدُّه من زَمَنِ الطفولةِ إِلَىٰ الآنَ، وَذَلِكَ يُقوِّي أَملِي فِي عفوِه، وَإِنْ كَانَتِ الذُّنُوبُ تعترضُنِي، فتكادَ تُويئس، غير أَنَّ اللطفَ أغلبُ، وَلَوْلَا أَنَّ التحدثَ بالنِّعَمِ شكرٌ مَا ذكرتُ هَذَا، غيرَ أَنِّي أشكرُ المنعمَ، وأرجُو أَنْ يعتبرَ سامعٌ.

توفِّي أبي وَلِي من العمرِ نَحْوَ سنتين أَو حَوْلَها، فلطفَ سُبْحَانَهُ بي فِي التَّرْبِيَةِ، ورزقَنِي علوَّ الهمةِ فِي الطفولةِ، فَكُنْتُ فِي المكتبِ وأَنَا قرينُ الصبيانِ، وَهُوَ

المُتَقَدِّمُ عَلَيْهِمْ، وَكُنْتُ أتوقُ إِلَىٰ مَجَالِسِ الوعاظِ وأحبُّها مِنْ ذَلِكَ الزَّمَانِ، وأحضرُ وأكتبُ مَا يَقُولُونَ.

واتفقَ أَن شَيْخنَا أَبَا الفضلَ بن ناصر كَانَ صديقًا لعمِّي، فَكَانَ يحملُنِي إِلَىٰ المشايخِ، ويُسمعُنِي عَواليَ الحَدِيثِ، ويُثبتُ ذَلِكَ لِي.

وركَزَ فِي طبعِي من الطفولةِ السكينةَ والوقارَ، فَمَا أعلمُ أنِّي وقفتُ فِي طرِيقِي مَعَ صبيٍّ مثلِي ألعبُ، وَلَا ضحكتُ مَعَ قرينٍ، مِثْل مَا يَجْرِي للصبيانِ، وَكُنْت رُبَّمَا جزت بالرحبةِ وأنا طِفْلٌ، فَلَا يُعجبنِي خلقُ المشعبذينَ، وَإِنَّمَا أقصدُ حلقةَ المحدثِ، فأحضرُ قلبي لحفظِ السمرِ[1]، وأعودُ إِلَىٰ المنزلِ، فأكتبُ ذَلِكَ بِالمَعْنَىٰ، وأمرُّ عَلَىٰ مَجَالِسِ الوعاظِ وأنا بعدُ فِي المكتبِ، فأدخلُ فأكتبُ مَا يَقُولُونَ.

ولزمتُ ابْنَ ناصرَ، أكتبُ عَنْهُ وَأَسْمعُ مَعَهُ عَلَىٰ المشايخِ، إِلَىٰ أَن بلغتُ، فأخرجَ إِلَيَّ ثَبَتَ مَا أسمَعنِي عَلَىٰ الأكابرِ، فعجبتُ من تقديرِ الحَقِّ ﷻ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ كسبٍ منِّي، فلحقتُ بِذَلِكَ الإسنادِ العالي.

فَلَمَّا بلغتُ ألهمَنِي الحَقُّ ﷻ التزهدَ والنظرَ فِي سِيرِ الصَّالِحِين، حَتَّىٰ قطعتُ بِذَلِكَ سُورَةَ البلوغِ، وهدانِي إِلَىٰ الفقهِ؛ فميزتُ بِهِ مَا يصلحُ مِمَّا لَا يصلحُ مِنْ سِيَرِ القَوْمِ.

وما زالتِ الأَحْوَالُ تتقلَّبُ بي عَلَىٰ أَحْسَنِ لطفٍ، وأقوَاهَا فِي اللطفِ تحبيبُ العلمِ إليَّ، فَكَانَ شِعارِي ودثارِي وسميرِي، وَصَارَ القَدَرُ يسوقُ إِلَيَّ أُصُولَ العلمِ، ويُطلِعُنِي عَلَىٰ عيونِ النكتِ، ويُعرِّفُنِي غورَ الأُمُورِ.

وآلَ الأَمْرُ فِي مجالسِي الوعظيةِ إِلَىٰ أَن يحضرَ المجلسَ عَشرَةُ آلَافٍ، وأذكرُ لَهُم سيرَ السَّلَفِ، فيتوبُ المِائَةُ وحولَهم، ويصلحُ خلقٌ كَثِيرٌ، ثُمَّ اتفقَ قطع مَجَالِس

---

(١) كذا وهي مشتبهة.

الوعاظ كُلّهم وانفردت بِالعِلْمِ والتصانيف انفرادًا لـم أقدرْ عَلَيْه قبلَ ذَلِكَ لمَكَانِ المخالطةِ، فكَانَ النَّاسُ يَدْعُونَ اللهَ تَعَالَىٰ، ويسألونَه عود مَجَالِسِ الوعظِ، وَيَقُولُونَ: فقدْنَا قُوَّتَنا.

وَكَمْ من مذنبٍ قَدْ رجعَ، وَكَم من عَاصٍ قَدْ صلحَ، وَكُنْت أَنَا مَعَهُم عَلَىٰ ذَلِكَ، إِلَىٰ أَنْ كشفَ لِي غورُ العلمِ وَتَحْقِيقُ السيرِ أَنَّ جُمْهُورَ مَا كُنَّا فِيهِ خَطَأٌ، وَسَبَبُ الخَطَإِ تقليدُ الأشياخِ والجريُ مَعَ العَادَاتِ، وَذَلِكَ أَنَّا رأينا النَّاسَ يستعملون فِي الوعظِ طَرَائِقَ، فسلكنَا أَصْلَحَهَا، ثُمَّ قِسنَاها بأحوالِ القدماءِ من السَّلَفِ فرأَيْنَاهَا غلطًا.

وَذَلِكَ أَنَّ مِمَّا كَانَ يَجْرِي قِرَاءَةُ القُرْآنِ، وَخُصُوصًا البسملةَ الَّتِي يُوقعون بِهَا توقيعَ الأغانِي، وَكَانَ غَيرُنَا إِذَا أنشدَ الأشعارَ الَّتِي لَا تصلحُ للوعظِ أنشدنا مَا يَلِيقُ بالوعظِ، وَمَا قالَه أَهْلُ المعاملةِ والمعرفةِ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يتفقُ هَذَا الإنشادُ مَعَ ذَلِكَ التلحينِ، فيوجب طربَ النَّاسِ، فَرُبَّمَا مزَّقوا ثِيَابهم وضجُّوا ولَطَموا وَخَرَجُوا عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ، وَكَانَ ذَلِكَ يُؤَثِّرُ فِي نَفْسِي أَيْضًا. ولعمرِي؛ إِنَّا مَا كُنَّا نتعدَّىٰ ذكرَ السَّلَفِ وَالصَّالِحِين مِمَّا يوجبُ القلقَ، غيرَ أَنَّ طريقةَ السَّلَفِ الصَّالِحِ لَا ترتَضِي هَذِا الحَالَ، وإخراجُ الطباعِ عَنِ الاعتدالِ لَا يصلحُ بِحَالٍ.

وممَّا بانَ لِي غلطُه: أَنَّا كُنَّا نذكرُ عَن خيارٍ من الصَّالِحِين أَشْيَاءَ، بانَ لَنَا أَنَّهُم غلطُوا فِي فِعْلِهَا، وَكَانَ ذكرُها لِلْعَوَامِّ لَا يصلحُ، مِثْلُ أَنْ نَقُولَ: كَانَ فُلَانٌ يَبْقَىٰ سِتِّينَ سنةً لَا يضطجعُ، وَكَانَ أَبُو يَزِيدَ حلفَ عَلَىٰ نَفْسِه أَنْ لَا يشربَ الـمَاءَ سنةً. وَهَذِهِ الأَشْيَاءُ وأمثالُها غلطٌ، وَمَنْ فعلَها وذكرها يُفسدُ السامعَ وَلَا يُصلحه عَلَىٰ قانونِ الشَّرْعِ. إِلَىٰ غَيرِ ذَلِكَ من الأَحْوَالِ الَّتِي انكشفَ بِمَا أَوْضحه الفقهُ والفهمُ، وإدراكُ غورِ الشَّرْعِ؛ أَنَّهُ كُلُّه خطَأٌ، وَأَنَّ انقطاعَهُ كَانَ مَصْلَحَةً.

وَمَا كُنْتُ بِالَّذِي يُمكنُني تَرْكُه بغتةً، لَكِن التَّدرَ درَّجنِي بالقطعِ عَنْهُ، ثُمَّ بالفكرِ فِيهِ، ثُمَّ بمعرفةِ أُصُولِ الشَّرْعِ الَّتِي ينهَىٰ عَنْهُ، وَلَو أجدُنِي عَلَىٰ ذَٰلِكَ الأَوَّلِ كُنْتُ ملابسًا لمكروهِ الشَّرْعِ؛ عَلَىٰ أَنَّ مجلسِي كَانَ أصلحَ المجالسِ؛ فَمَا كَانَ يمكنُ فَقِيهًا من الفُقَهَاءِ وَلَا محدثًا وَلَا أَحَدًا يطعنُ فِي شَيْءٍ مِنْهُ؛ لمَوضعِ اجتهادِي فِي اتِّبَاعِ الشَّرْعِ، غيرَ أنَّنِي ميَّزتُ مَا ذكرتُ عَلَىٰ نَفْسِي بعينِ التَّحْقِيقِ، فرأيتُ أَنَّهُ عَلَىٰ غَيْرِ الطَّرِيقِ.

فللَّهِ الحمدُ حَيْثُ رقَّانِي من مَقَامٍ إِلَىٰ مَقَامٍ هُوَ أَعْلَىٰ مِنْهُ، وكشفَ لِي غوارَ مَا بَعْدَه منقبةً وفضلًا، فأنَا أَقُولُ:

لَا زِلْتُ أَنْزِلُ مِنْ وِدَادِكَ مَنْزِلًا يَرَىٰ ** تَتَقَاصَرُ الْأَلْبَابُ دُونَ نُزُولِهِ

وَكَانَ ﷻ قَدْ رزقَنِي الأزواجَ والأولادَ، وَلَم يُحْوِجْنِي إِلَىٰ ذلِّ الخلقِ وَلَا تعبٍ فِي كسبٍ، بَل كَانَ يلطفُ بي مِنْ حَيْثُ لَا أحتسبُ، ويَخِيرُ لِي فِي أمورِي، ويُلهِمُنِي طَلَبَ العُلُومِ الأنفعِ والأصلحِ، وَمَا بَيَّنَ لِي الخيرةَ فِي عَاقِبَتِهُ، وجعلَ قوَّتِي بمقدارٍ، لَا يشغلنِي وَلَا يعوزُنِي، وَكَانَتِ النَّفْسُ تتطلبُ فضلَ نكاحٍ أَو شري جاريةٍ، فيمنعُنِي مِنْ ذَلِكَ لضيقِ اليدِ، ثُمَّ بَيَّنَ لِي فِي العَوَاقِبِ أَنَّ ذَلِكَ خيرُهُ؛ لترقيةِ القُوَّةِ عَلَىٰ العلمِ وَالعَمَلِ.

ثُمَّ فتحَ لِي أَبْوَابَ التصانيفِ، فجمعتُ من كتبِ الزهدِ وَالأَدَبِ مَا لَمْ يتهيَّأْ لِغَيْرِي، وجمعَ لِي من أدبٍ فِي نَفْسِي، وصبَّ فِي باطنِي مُداراةً للخلقِ، وصورةً لَيْسَت بمكروهٍ[1]، وحبَّبَ إِلَيَّ الخلوةَ، وفتحَ لِي بَابَ مَعْرِفَةٍ أَنِستُ فيها بخدمَتِه، وأَوقَعَ لي فِي القُلوبِ أكثرَ مِن قَدْرِي، فَنهضَ خَلْقٌ كثيرٌ من أَبناءِ جِنْسِي يَحْسُدونَنِي

---

(١) كذا.

عَلىٰ الذِّكرِ الجَميلِ، وقَبولِ القَولِ، وظُهورِ التَّصانيفِ، ونفعِ النَّاسِ، فأَخَذَتِ النَّفسُ تَمْتَعِضُ بمَا يَبلُغُني عنهُم، فَصِحْتُ بِها: وَيحكِ! احتقِري مَن لا يَحْسُدُ.

ثمَّ اعلَمِي أَنَّمَا يَحْسُدونَ علىٰ ما يتعلَّقُ بالدُّنيا، وأَنْتِ فَهِمَّتُكِ مُتعلِّقةٌ بما هُو أَعْلَىٰ من هَذا، فارحَمِيهِمْ؛ فإنَّهم ما عَرَفُوا المُعْطِي، فلذلكَ ذمُّوا المُعْطَىٰ، فَلَوْ عَرَفُوه لاستَغْنَوْا بِمعرِفَتِه، واشتَغَلُوا بالطَّلَبِ.

فَصْل
ما دَهَى النَّاسَ كلَّهم إلَّا مُوافَقَةُ الهَوَى

لأَنَّهُ يَرىٰ العاجِلَ ويحثُّ عليهِ، ولا يَنظرُ فِي عاقِبةٍ، وكمْ وافَقْتُ الهَوَىٰ فِي مُباحٍ لمْ أَنْظُرْ فِي مَآلِهِ فَيَجْنِي عليَّ جِنَاية تأدب، ولقدْ نظرتُ فِي أمرٍ محتَقَرٍ، وهو أنِّي مَشيْتُ يومًا فِي شِدَّةِ الحَرِّ، ثمَّ جئتُ إلىٰ مكانٍ باردٍ، فمالَ الطَّبعُ إلىٰ التَّعرِّي طلبًا للتَّبَرُّدِ، والعقلُ والعلمُ يمنعانِ من ذلكَ إلَىٰ أنْ يَسْكُنَ العَرَقُ، فلمْ أَصْبِرْ وِفاقًا للهَوَىٰ المَحْضِ، فأَصابَنِي مِن الزُّكامِ مُدةً ما قارَبَ الأَمرُ فيهِ الموتَ، فاعتبَرْتُ بذلكَ وقُلْتُ: يا نفسَ السَّوْءِ! انظُري ماذا جَنَىٰ عليكِ الهَوىٰ فِي البَدَنِ، فكيفَ جِنايةُ الهَوىٰ عليكِ فِي الدِّينِ؟!

يا سُبحانَ اللهِ! كيفَ أَقْدَمْتِ علىٰ استعجالِ لذَّةٍ قد علمْتِ عَواقبَها، أَتُساوِي لحظَةَ راحةٍ مرضُ مدَّةٍ، وربَّما آلَ الأمرُ إلىٰ الهَلاكِ! فالآنَ قد وُعِظْتِ بما جَرىٰ لك، فإياكِ إياكِ أنْ تُوافِقي الهَوَي حتَّىٰ تَسْتَشِيري العقلَ؛ فإنَّ العقلَ ينظرُ فِي العَواقبِ، فإذَا فعلْتِ مِن غيرِ استشارةٍ عَطَّلْتِ منافِعَهُ، وكانَ وُجُودُهُ عندكِ كالعدَمِ، ثمَّ يَعْقُبكِ فعلُكِ ذلكَ حُزنًا أَضعافَ فَرحكِ، ومرضًا أَضعافَ عَافيتِكِ، ورُبَّ لُقْمَةٍ مَنَعَتْ لُقَمَاتٍ؛ فمُرعاةُ العَواقِبِ إذا فَاتَتْ عَاقِلًا فقدْ سُلِبَ قَواعِدَ عَقْلِه.

فَصْلٌ

لمَّا سَبَرْتُ سِيَرَ السَّلَفِ تعلَّقَ قَلْبي بِمحَبَّةِ أقوامٍ مِنهُمْ

لِمَا اطَّلعتُ عليهِ مِن صِفاتِهِمُ الجَمِيلَةِ، وإنْ كنتُ أُحبُّ كُلَّ الأَخيارِ، لكنْ زادَ بَعضُهمْ فِي قَلْبي عَلىٰ بعضٍ؛ لِعلُوِّ مَراتِبهمْ وفَضْلِهمْ.

فَزادَتْ مَحَبَّتي للحسَنِ البَصريِّ وسفيانَ الثَّوريِّ وأحمدَ بنِ حنبلٍ حتَّىٰ عُنيتُ بِجَمْعِ فَضائلِهِمْ وخِصائلِهِمْ وآدابِهِمْ، ومِن العُبَّادِ إبراهيمُ بنُ أَدْهَمَ والفُضيلُ بنُ عِياضٍ وبِشْرٌ ومَعْرُوفٌ ورَابِعَةُ؛ فجمعتُ فضائلَهُمْ وأَخبارَهُم، ومِن الوُلاةُ عُمرُ بنُ الخَطَّابِ وعُمرُ بنُ عبدِ العزيزِ.

إلَّا أنَّهُ دقَّ نَظَري وقَوِيَ بَحثُ فِكْرِي، فمَا فِي هَؤلاءِ السَّادَةِ إلَّا مَن أَجدُ لَه حالةً لو تركَها كَانَ أَولىٰ، أوْ أَرَىٰ أَمرًا قد قَصُر عنه، لو فَعَلَه كانَ أحسنَ؛ فمنهُم المُشَدِّدُ علىٰ نفسِهِ الَّذي يُحَمِّلُها فوقَ ما لا تُطيقُ[1]، ومنهُمْ ومنهُمْ ومنهُمْ.

فما رأيتُ فِي الوُجودِ سِيرةَ مَخلُوقٍ قطُّ تُشبهُ سيرةَ نَبيِّنا محمَّدٍ ﷺ، وما أَبْقَتْ محبَّةٌ فِي قَلْبي مَوضِعًا لِغيرِهِ، إلَّا أنِّي أُحبُّهم، ولكنْ محبَّتي لهُم كمحبَّةِ الإِخوانِ والأَهلِ، ومحبَّتي له عِشْقٌ.

فإذا تأمَّلتُ ذلكَ الشَّخصَ الكاملَ لمْ أرَ له نظيرًا إلَّا منَ الأنبياءِ، ولا قدرَ علىٰ حالتِهِ المَلائكَةُ؛ تارةً يخشنُ فِي دينِ الله، فيقول: «**لو سَرقَتْ فَاطمةُ لقَطَعتُها**»[2]،

---

(١) كذا ولعل «لا» مقحمة.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (١٦٨٨) من حديث عائشة.

وتارةَ يَلْطُفُ: «هلْ سَتَرْتَهُ ولو بِثَوبِكَ، يَا هَزَّالُ»[١]، وتارةً يقومُ اللَّيلَ حتَّىٰ تَتَوَرَّمَ قدماهُ[٢]، وتارةً يَتنفَّلُ قَاعدًا، وتارةً يصُومُ، وتارةً يُفطِرُ، وتارةً يُداعبُ الصِّبيانَ ويُمازحُ النِّساءَ؛ ويَجْرِي فِي كُلِّ ذِي حالٍ مَع حالِهِ، فيَجْمَع الأَضدادَ.

وليسَ مَعَه خُشُونةُ الزُّهَّادِ ولَا لِينُ المُتْرَفِينَ؛ تارةً يأكُلُ العَسَلَ ويحبُّ الحَلْوَىٰ[٣]، وتارةً يشُدُّ الحَجَر علىٰ بَطْنِه[٤] ويؤثرُ بالمَوْجُودِ، وكلُّ مَن يَجْري علىٰ حالَةٍ واحدةٍ فأمرُه سهلٌ، إنَّما الصُّعُوبةُ التَّقلبُ فِي الأحوالِ علىٰ وَجْه المُداراةِ للدُّنيا وأَهْلِها؛ فإنَّ عِيسىٰ ابنَ مريمَ كانَ زاهدًا فحسبُ، وكانَ فِي مُوسىٰ فظاظَةٌ، وكانَ فِي إبراهيمَ كرمٌ يغلُبُ عليهِ، وكانَ سُليمانُ ملِكًا، وهذا المُصطَفَىٰ قد جَمَع جميعَ خِصالِهِمْ؛ جمعَ المعاجين[٥] فركَّبَها واستَعْملَها وزادَ علَيْها، فلم يَجْرِ فِي قانُونٍ واحدٍ يصعبُ مَعَه استعمالُ ضِدِّه.

وكان أصحابُهُ إذا أَنْشَدُوا الشِّعْرَ سَمِعَ، وإذا تحدَّثُوا حديثَ الجاهِلِيَّةِ تَبَسَّمَ[٦]، وإذا طَلَبُوا منهُ أَعطَىٰ ما بينَ جَبَلَيْنِ[٧]، وإذا لَمْ يَجدْ شيئًا رَهَنَ دِرْعَهُ عند

(١) حسن: أخرجه أحمد (٢١٩٤٢)، وأبو داود (٤٣٧٧)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٧٢٧٨)، والحاكم (٨٠٨٠) وقال: صحيح الإسناد. من حديث نعيم بن هزال. قال ابن عبدالبر في «التمهيد» (١٢/ ١١٣): «ثابت». وقال ابن حجر في «التلخيص الحبير» (٤/ ١٣٧٢): «إسناده حسن».

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨٢٠) من حديث عائشة. وروي عن غيرها أيضًا.

(٣) **صحيح**: أخرج البخاري (٥٤٣١)، ومسلم (١٤٧٤) من حديث عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل.

(٤) **صحيح**: أخرجه مسلم (٥٣٧٣) من حديث أنس.

(٥) كذا.

(٦) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٤٧٠، ١٤٧١، ١٤٧٢، ٦١٠٥) من حديث جابر بن سمرة.

(٧) **صحيح**: أخرجه مسلم (٦٠٨٦) من حديث أنس.

يَهوديٍّ[(١)]، وتارةً يبطشُ بطشَ ملِكٍ، وتارةً يتواضعُ: «**إنَّما أَنا ابنُ امرأةٍ مِن قُريشٍ كانتْ تَأْكُلُ القَدِيدَ**»[(٢)]، فما أحسنَ أخلاقَهُ التَّامَّةَ الكاملةَ، الَّتي مَن تأمَّلَها شَهِد له بالكمالِ السَّالمِ عَن نَقْصٍ.

فكُلُّ شَخصٍ ينزلُ فِي قَلْبي مِن المَحبُوبينَ يجِدُ قَلْبي مملُوءً بمَحَبَّةِ هَذا المُصْطَفَىٰ، فينزلُ أيضًا مِنْهُ، ولا يكُونُ فِي السُّويداءِ مَكانٌ، فأنا أُنْشِدُ مُتمَثِّلًا فِي محبَّتِهِ:

أَفْسَدْتُمُ فِطَرِي عَلَيَّ فَلَمْ أَرَ ** مِنْ بَعْدِكُمْ حَسَنًا إِلَىٰ أَنْ تَقْدَمُوا

فَصْل

صَفَتْ لي خَلْوةٌ فِي مُناجاةٍ، فقلتُ:

إلهِي وسيِّدي! أَتَمَنَّىٰ عليكَ أَشْياءَ كَثيرةً، ثُمَّ يمتدُّ أَمَلي إلَىٰ زِيادَةٍ تليقُ بِفضلِكَ لَا يَعرِفُها أَمَلي.

وكذا يِنْبَغي لِمنْ طَمِع فِي جَانبِ كريمٍ، فأُمَثِّلُ نَفْسي بالزُّبيرِ حينَ أَقْطَعَهُ النَّبيُّ ﷺ حُضْرَ فَرَسِهِ مِن أَرْضٍ، فَعَدَىٰ الفَرَسُ، فلمَّا وقفتْ رَمَىٰ سَوطَه[(٣)]، ثُمَّ تَعْرِض

---

(١) **صحيح**: أخرجه والبخاري (٢٠٦٩، ٢٥٠٨، ٢٠٦٩) من حديث أنس.

(٢) **مرسل**: أخرجه ابن ماجه (٣٣١٢) من حديث قيس بن أبي حازم عن أبي مسعود. وأشار ابن ماجه إلىٰ الاختلاف في وصله. وقد رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٢٣) مرسلًا. والمرسل أصح، وهو الذي رجحه الدارقطني في «العلل» (١٠٦٣).

(٣) **ضعيف**: أخرجه أحمد (٦٤٥٨)، وأبو داود (٣٠٧٢) من حديث ابن عمر. وإسناده ضعيف، وقد ضعفه ابن الملقن في «خلاصة البدر المنير» (٢/ ١١١) وابن حجر في «التلخيص الحبير» (٣/ ١٠٣٨) و«بلوغ المرام» (٢٧٢).

لي ذُنُوبِي، فتقولُ: مِثلُكَ يُؤَمِّلُ هَذهِ الآمالَ، ويَنْسَىٰ ذُنُوبَه الَّتي يَنْبَغي أنْ يَكونَ غَايةُ أَمَلِه العَفْوَ عَنْهَا، فأقولُ: وَعِزَّتِهِ وَجَلَالِهِ! إنِّي لَأقفُ لِفضْلِه أنْ يكونَ معروفٌ، وأمَّا قَدْرُ ذُنوبي معَ اعْتِرافِي، بالإضافَةِ إلىٰ فَضْلِه، وهَا أنَا أقولُ كَما قَالَ ثُمامَةُ للرَّسولِ ﷺ: إنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دمٍ، وإنْ تَعْفُ تَعْفُ عن شاكرٍ.

فقالَ إبليسُ: ومَا قَدْرُ شُكْرِكَ؟! قلتُ: لا أَمُنُّ بِه، ولكنْ أصفُ ما وَهَبَ لي من الشُّكرِ، وهو أنِّي مُعترفٌ بالعَجْزِ عنِ الشُّكرِ، عالمٌ أنْ لا أَقْدِرُ علىٰ ذَرَّةٍ منهُ، لأنِّي إذا شَكَرْتُ كان إلْهامِي الشُّكرَ نعمةً تحتاجُ إلىٰ شُكرٍ؛ فاعتِرافِي بالتَّقصيرِ هو الشُّكرُ.

وعزَّتكَ! لقد أنفَ ثُمامَةُ لمَّا أَسَرهُ الرَّسولُ ﷺ أنْ يدخُلَ فِي ذُلِّه، فيقالُ: إنَّما أسلمَ تَحتَ السَّيفِ، فأَحْسَنَ الرَّسُولُ بأَنفتِهِ فقالَ: «أطلقوه»[(١)]، فلمَّا أُطلقَ أَسلَمَ. وأنَا - وعزَّتكَ - آنَفُ لفضلكَ، وحَاشَاهُ أنْ يَمتنعَ لأَجْلِ ذُنُوبي، فكيفَ وذُنُوبي كالعَدَمِ فِي جَنْبِ ذُلِّي واعْتِرافِي.

ثُمَّ حَاشَاكَ أنْ تَخْلُقَ ذَوْقًا وما لَه مذوقٌ، أو شَمًّا وما لَه مَشْمُومٌ، فكيفَ تَخْلُقُ لي رُوحًا للأُمُورِ العَالِيةِ وتَمْنعُني نَيْلَها؟! اللَّهمَّ إلَّا أنْ يكونَ ذلكَ تَعذِيبًا، وهُو اللَّائق بذُنُوبي، فإنْ وَقَع لم أُنْكِرْهُ، ولكنْ حُسْنُ ظَنِّي بفضْلِكَ أنْ لا تَتْرُكنِي أُساكِنُ الخَوْفَ من الجَزَاءِ، وإنَّما أَمرُّ بِهِ وأَدُورَ عليهِ ولا أَسْكُن إلَّا إلَىٰ قُوَّةِ الرَّجاءِ فِي فَضْلكَ.

فَبِعزِّكَ وذُلِّي، وغِناكَ وفَقْرِي؛ حقِّقْ أَملِي فِي فَضْلكَ ورَجائي لإِنْعامِكَ، وزِدْنِي ما لَمْ يَبْلُغْهُ أَملي، حتَّي أعيشَ فِي فَناءِ الفَضْلِ، فقَدْ تَلاشَىٰ عِنْدِي عَمَلِي من الخَيرِ، وأَكُون من عُتَقاءِ الرَّحمنِ.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٦٢، ٤٦٩، ٢٤٢٢، ٢٤٢٣، ٤٣٧٢)، ومسلم (١٧٦٤) من حديث أبي هريرة.

﴿ فَصْل ﴾

لَيسَ عَلى الصِّبيانِ أَضَرُّ مِن مُخالَطَةِ البغي(١)؛ فإِنَّ التَّقويمَ بِرُؤيةِ الأَفعالِ أَعظمُ مِن التَّقويمِ بالمَقالِ

فانظُرْ لِمَنْ تُسْلِمُ وَلَدكَ، ولِمَنْ يُخالِطُ، ومَن أَصْلحَ نَفْسَه قَوَّمَ خَلقًا كثيرًا بذلكَ، لَا يَتقوَّمُونَ بكلامٍ طويلٍ، ومثالُ ذلكَ الطَّبيبُ إذا احْتَمَىٰ فإنَّه يدلُّ علىٰ صِدْقِ ما دَعَا إلَيْهِ، فإذَا رُؤِيَ يُخَلِّطُ ساءَتِ الظُّنونُ فِي أَقْوالِه، فَيَنْبَغي للإنسانِ أنْ لا يَرَىٰ منهُ ابنُه مَعصيةً قطُّ؛ فإنَّه يُؤْذِيهِ بِكَشْفِها، ويَزْرعُ ذلكَ فِي قَلبِه.

وكَذلكَ المَشايخُ المُعلِّمونَ.

وحَكَىٰ بعضُ المَشايخِ قَالَ: صَحِبتُ فِي زَمَنِ الصِّبا شَيخًا مِن كِبارِ العُلماءِ، فرَأَيتُه يُقبِّلُني، وتارةً يَضُمُّني إليهِ، إلَىٰ أنْ رَأَيتُه يَطْلُبُ الفاحِشَةَ، فَفَرتُ من ذلكَ، وصَغيرُ السِّنِّ لَا يَعرفُ ما يَنْفرُ منهُ.

قَالَ: فلمَّا بَلغْتُ هَانَتْ عليَّ الذُّنوبُ، وكُنتُ أَقولُ فِي نَفْسِي: إذَا كانَ مِثْلُ ذلكَ عَلىٰ هَذا الوَصْفِ معَ كِبَرِ السِّنِّ، فالصِّبا والهَوَىٰ عُذْرانِ لِمِثْلِي.

قَالَ: فلمَّا قَويَ تَشَاغُلي بالعِلْمِ، وعَرَفْتُ ما تُوجبُ التَّقْوىٰ؛ صِرْتُ لَا أَترحَّمُ عَليهِ، بلْ أَسُبُّهُ كلَّما ذَكَرْتُه، وأَقولُ: لَو كَانتِ إليَّ المَغفرةُ ما غَفرتُ له؛ لأنَّه لَم يَكُنْ عندَهُ شَبَقٌ، ولَا فِيهِ قُوةُ النُّهوضِ عَلىٰ قَدَمِه، ولَا جَرَىٰ هَذا مِنهُ مرةً فأَقُولُ: غَلَطٌ وَقَعَ. فلَولَا مِنَّة اللهِ تَعَالىٰ عليَّ بالعلمِ لشَكَكْتُ فِي أَمْرِ الآخِرةِ.

---

(١) كذا في أ، وفي ي: «اليقين».

قَالَ الشَّيخُ: وصَحِبتُ شَيخًا آخَرَ، فكَانَ يَرْمِي كَلماتٍ فِي خِلالِ كَلامِهِ، يُشكِّكُ فِي الخَالقِ، ويَردُّ علىٰ الأَنْبياءِ، فيُوجِبُ إنكارَ البَعْثِ؛ فَفَارَقْتُهُ، ثُمَّ حَصَل لِي بالعِلمِ أَمْثالُ الجبالِ مِن الإيمانِ؛ لأنَّني كنتُ كُلَّما ذَكرتُ ما كنتُ أَسْمعُهُ مِنهُ فِي الصِّبَا خَدَشَ وَجْهُ عِلْمِي.

فَقَدْ يَنْحلُّ مِن هَذا أنَّه مَن كَانَ له صَبيٌّ، فَلْيَنْظُرْ كيفَ يُؤدِّبُه، وإلَىٰ مَن يُضِيفُه؛ فإنَّ طَبْعَ الصَّبيِّ يكبُرُ[1]، والنَّقشُ فِيهِ لَا يَنْقَلِعُ.

ولْيَحْذَرْ مِن صُحبةِ صَبِيٍّ لِيتعلَّمَ منهُ أنْ يَضْحكَ فِي وَجْهِهِ أو يَخْلُوَ بِه، وهَيْهاتَ أنْ يَجْرِي هَذا ممَّن يَعرفُ عِلْمَ السَّلفِ وطَرائقَهُمْ، فقَدْ قَالَ يَحْيَىٰ بنُ مَعِينٍ: «ما طَمِعَ أَمْرَدٌ بِصُحْبَتِي فِي طَرِيقٍ، ولا أَحمدَ بنِ حَنبلٍ».

وإنَّما نشَأَ أَقوامٌ، قلَّ دِينُهمْ، وقلَّتْ مَعْرفَتُهمْ بآدابِ السَّلفِ، ووقَفُوا معَ صُورةٍ منَ العِلمِ، كالجَدَلِ والفِقْهِ ونَحْوِ هَذا منَ العُلُومِ الَّتي هِي وإنْ كَانَتْ شَرْعِيةً، إلَّا أنَّ آدابَ الشَّرعِ الأَوَّلِ بعيدةٌ منهَا، فمِنْهُم مَن يُرخِّصُ، ومِنْهُم مَن أَقْدَمَ ولَمْ يَنَلْ، ومِنْهُم مَن يحاملُ أنَّ العلمَ يَدْفَعُ عنهُ، فجَرُوا معَ الطِّباعِ فَفَجَرُوا.

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ [أنْ يَجعلَ عِلمَ السَّلفِ خَليقَنَا، وحِفظَ النَّقلِ أَلِيفَنا، ومَا يُوجِبُ خَوفَ اللهِ ﷻ][2] رَفيقَنا، وأَنْ يُلْهِمَنا رُشْدَنا؛ إنَّه قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

---

(١) كذا.

(٢) من ي.

۞ فَصْلٌ ۞

مِن الغَلَطِ العَظِيمِ مُساكَنَةُ الأَملِ، وإِهْمالُ الأُمورِ

والحَزْمُ الاِحْتِرازُ مِن كُلِّ ما يُمكنُ وُقُوعُهُ، والاسْتِعدادُ لمَا لَا بدَّ من إتيانِه.

ولا يَجُوزُ للعاقِلِ أنْ يَقْطعَ زَمانَهُ بالتَّسْويفِ، فلرُبَّما هَجَمَ المُخوفُ فَنَدِمَ وقدْ فاتَ الاسْتِدراكُ، بلْ يَنْبَغِي للحازِمِ أنْ لا يَمْضِي عَلَيهِ يومٌ إلَّا وقَدْ أَبْرَمَ أُمُورَهُ، كَما رُوِي فِي «الصحيح»: «**ما حَقُّ مُسْلمٍ له مَالٌ يُوصِي فِيهِ، يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ إلَّا وَوَصِيَّتُهُ عند رَأْسِهِ**»[1].

ولْيَفْعلْ ذلكَ فِي جَمِيعِ الأَشياءِ، فَيَقِفْ ما يُرِيدُ أنْ يَقِفَهُ، ويَعْمَلْ كُلَّ ما يُرِيدُ أنْ يَعْمَلَهُ، ويَجْلِسْ مُتأَهِّبًا للمَوْتِ، فإذَا نَزَلَ لم يندَمْ، ويَقُول: لَيْتَنِي فَعَلْتُ!

وقَدْ يظنُّ الإنسانُ أنْ يَعيشَ الخَمْسينَ والسِّتِّينَ، فيُؤخِّر أَشْياءَ، فَيَبْغَتُه الأجَلُ قَبْلَها، فينْدَمُ، كمَا يَظُنُّ المُسافِرُ أنَّ بينَ يَدِهِ ماءً، فيتركُ الاحْتِرازَ بِأَخْذِ ماءٍ، فلَا يَجِدُ شيئًا فَيَهْلَك.

وقَدْ يُفْرِدُ الإنسانُ بعضَ بَناتِه أوْ بَنِيهِ بمالٍ، ويَرجُو أنْ يُعَوِّضَ الآخرَ، فَتُدْرِكُه المَنِيَّةُ عَلىٰ الجوْرِ.

وَالحاصِلُ مِن هَذا الكَلامِ: أنَّه يَنْبَغِي للإنسانِ أنْ يَكُونَ عَلىٰ مُقْتَضَىٰ الحَزْمِ، فلَا يُؤخِّرُ تَوبةً، ولَا يَأْمنُ ما يَجُوزُ وُقُوعُه، ويَجْمَعُ رَحْلَهُ قبلَ رَحِيلِهِ، ويَسْتَظْهِرُ بِزيادَةِ الزَّادِ، ويُصَوِّرُ المَوْتَ كُلَّ لَحظَةٍ نَازِلًا، فَمَا يُرِيدُ أنْ يَفْعَلَ يَفْعَلُه، فإنَّ حَياةَ الآدَمِيِّ غَنِيمةٌ، وبَقَاءَهُ رِبحٌ؛ وإلَّا فَالمَوْتُ المُتيقَّنُ، ونَقْضُ البِنْيَةِ هُو الأَمْرُ اللَّازِمُ.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٥٨٧)، ومسلم (١٦٢٧) من حديث ابن عمر.

نَسأَلُ اللهَ عَجَّلَ يَقَظةً تَمْنعُنا حُلُولَ النَّدمِ، وحَزْمًا يُؤمِّنُنا زَلَلَ القَدَمِ، وعَقْلًا نَبْنِي بِه مَا انْهَدَمَ، واسْتِدْراكًا للفائتِ فِي الوُجُودِ قَبلَ العَدَمِ، إنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

۞ فَصْلٌ ۞

تَأَمَّلْتُ عَلى أَكْثرِ زُهَّادِ زَمانِنا، فَرَأَيْتُهُمْ يَسْرِقُونَ أَعْراضَ الدُّنْيا فِي خِفْيَةٍ لَا تَقْدحُ فِي ظَاهِرِ زُهْدِهِم

فَمِنهُم مَن قَد قَصُرَ زُهْدَه عَلىٰ لِباسِه، فَلبِسَ الصُّوفَ وَالفوطَ، ومَا يَزالُ يَغْشَىٰ السَّلاطِينَ والظَّلَمَةَ، ويأْخُذُ مِن أَمْوالِهِم، ويَقُولُ: هَذا رِزْقِي وَقَسْمِي! فهَذا فِي مَرْتَبَة نَهاري اللُّصُوصِ.

ومِنْهُم مَن يَنْقَطِع عَن السَّلاطِينِ وأَبْناءِ الدُّنيا الطَّاهِرين، فإنْ مَرِضَ فِي جِيرانِه أَحدٌ مِنهُم عَادَهُ، معَ عِلْمِه بأنَّ ذاكَ مِن كِبارِ الظَّلَمَةِ، ويَجْعَلُ التَّرَدُّدَ إليهِ بِحُجَّةِ العِيادَةِ، لعلَّ ذاكَ إذا عُوفِي بَعثَ لَه شيئًا أَوْ أَتَىٰ مَسْجِدَه، فَكَمْ يَمْرضُ فِي جِيرانِهِ فَقيرٌ فلَا يَعُودُهُ.

ومِنهُم مَن قَد انْقَطَع إلَىٰ التَّعبُّدِ، فَزارَهُ النَّاسُ لانْقِطاعِه وغَشْيِهِ الأُمَراءَ والسَّلاطِينَ والمُبْتَدعَةَ وغَيرَهِمْ، وهُو لَا يُنكِرُ عَلىٰ ظَالمٍ، ولَا يَكْفَهِرُّ فِي وَجْهِ مُبتَدِعٍ، بلْ يَلْقَي الكُلَّ بالبِشْرِ؛ إقامَةً لسَوْقِهِ وحِفْظًا لدُكَّانِ زِيارَتِه، ولو أنَّه قَصَد اللهَ تَعَالىٰ لَخرجَ ومَشَىٰ فِي السَّوْقِ واشْتَرَىٰ حاجَتَهُ بنَفْسِه، وقدِ انْقَطَع النَّاسُ عَنهُ، ولكنَّهُ لَا يَفْعَلُ هَذا، وتُرِيهِ نَفْسُه أنَّ ذلكَ لقُوَّةِ الانْقِطَاعِ عنِ النَّاسِ، فإنَّما هِي تَرْبيةُ نامُوسٍ، وقَدْ كَانَ بِشْرٌ الحَافِي يَقْعُدُ فِي السَّوْقِ عندَ بَعضِ العَطَّارِينَ، ويَعْملُ أشياءَ يُوهِنُ بِها جَاهَهُ، وكَذا كَانَ النَّاسُ.

وفِي المُتَزَهِّدينَ مَن يُدْعَىٰ للظَّلَمَةِ فِي المَسْجِدِ، وهُو يَسْمعُ ويُمْكِنُه أنْ لا يَجْرِي ذَلكَ ولَا يَمْنَعُ منهُ، حتَّىٰ ربَّما لُقِّبوا بأَلْقابِ الدِّينِ، وهُو لَا يُنكر وربَّها كَتبَ فِي السِّرِّ، وطَلَبَ مِنْهُم بحجَّةِ الفُقَراءِ عندَهُ وعِمارَة الرِّباطِ أو المَسْجِد، وهُو يَعْلَم أَمْوالَهُم مِن أَيْنَ.

فلَيْتَ شِعْري! هَذا فِي أيِّ شَيءٍ زَهدَ؟! إنَّما تَوطَّأَ مركِبَ الرَّاحَةِ، فتَراهُ يَتناوَلُ الحَرامَ مِن أَمْوالِهِم والشُّبُهاتِ، ويصلىٰ فِيها بنوهُ، وَيُصَانعُ الحَقَّ بِدَمْعَةٍ تَجْرِي، ثُمَّ إذا عَلِم بصاحِبِ دُنيا قَد مَرِضَ بَادَرَ إليهِ فِي السِّرِّ.

وعَرَفْتُ من حالِ مَن يَتَزَهَّدُ ويُومَأَ إليهِ، أنَّ بعضَ الظَّلَمةَ مرضَ فِي جِيرانِه، فَعَادَهُ، فلمَّا عُوفِي جَاءَ يَشْكُرُهُ عَلىٰ عِيادَتِه، فَقالَ لَه: أُرِيدُ أنْ تعمرَ فِي رِباطِي هَذا مَوْضِعًا. فاسْتَحْيَا ذلكَ الرَّجُلُ، فَقالَ: نَعَمْ. وهُو لا يُريدُ!

فقُلْتُ: سُبحانَ اللهِ! قَد كَانَ يَنبغِي لَه أنَّه لَو سَأَلَه أنْ يعمرَ فيهِ شيئًا، لم يَتْرُكْهُ، ولمْ يصل عَلىٰ بارئه[1] يَسْتر بِها ذلكَ الظَّالمَ.

وهَؤلاءِ كُلُّهُمْ ذِئابٌ فِي ثِيابٍ، مُتَصَنِّعُونَ بزهادَتِهِمْ، أَصْحابُ دَكَاكِينَ، لَا تُساوِي عِبادَتُهم شيئًا؛ لأنَّهم للخَلْقِ يَعمَلُونَ، وللدُّنيا يَعْبُدونَ، وإنَّما العُبَّادُ كَبِشْرٍ وسُفْيانَ وإبراهيمَ بنِ أَدْهَمَ، الَّذينَ بَواطِنُهُم ظَواهِرُهُم بلَ أَحْلَىٰ، ومَذَاقُ سَرائِرِهِم أَلذُّ مِن كلِّ حُلْوٍ وأَحْلَىٰ، وبعدهم[2] بلَا بَهْرَجٍ، أُولئكَ حِزْبُ اللهِ، أَلَا إنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ المُفْلِحُونَ.

---

(١) كذا.

(٢) كذا.

﴿ فَصْل ﴾

جَاءَ فِي الحَدِيثِ:

«إِيَّاكُم والمُحَقَّراتِ مِن الذُّنُوبِ؛ فإِنَّ لَهَا مِن اللهِ طَالِبًا»[١]

وفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «مَثَلُ المُحَقَّراتِ مِن الذُّنُوبِ كَمَثَلِ قومٍ نَزَلُوا وادِيًا، فَحَضَرَ صَنِيعُهُمْ فَلَمْ يَجِدُوا فِيهِ حَطَبًا، فَتفرَّقُوا، فَجاءَ هَذا بِعُودٍ وهَذا بِعُودٍ، فَأَوْقَدُوا نارًا، وأَنْضَجُوا ما أَرَادُوا»[٢].

فتأَمَّلْتُ عَلىٰ كَثيرٍ مِن النَّاسِ أَنَّهم يَحْتَقِرونَ أَشْياءَ مِن الذُّنُوبِ، وَأَكْثَرُ أَسْبابِ احْتِقارِهِمْ لهَا جَرَيانُ عَادَاتِهم بِها، فَترَىٰ كَثيرًا مِن أَهْلِ الدِّينِ والخَيْرِ لا يَتحاشَوْنَ مِن كَلِمَةِ غِيبةٍ، فإِذا تَورَّعُوا أَخْرجُوها فِي مَخْرجٍ، فيقولُ: فُلانٌ عافَىٰ اللهُ فَعَلَ كَذا، ومَا أَحْبَبْتُ لَه هَذا! ولا يَتحاشَوْنَ مِن نَمِيمةٍ، فَيَجِيءُ الرَّجُلُ فيقولُ: فُلانٌ قالَ عَنكَ

---

(١) حسن: أخرجه أحمد (٢٥٢١٨)، والدارمي (٢٧٢٩)، وابن ماجه (٢/ ١٤١٧، رقم ٤٢٤٣) من حديث عائشة. قال البوصيري (٤/ ٢٤٥): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

(٢) حسن: أخرجه أحمد (٣٨١٨)، والطبراني في «الكبير» (١٠/ ٢١٢/ ١٠٥٠٠) وفي «الأوسط» (٢٥٢٩) من حديث ابن مسعود. قال الهيثميٰ (١٠/ ١٨٩): رجاله رجال الصحيح غير عمران بن داور القطان وقد وثق. وقال العراقي: في «تخريج الإحياء» (٥/ ٢٨٣): «إسناده جيد». وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٣/ ٢٨٨): «فيه عمران القطان وبقيه رجال أحمد والطبراني رجال الصحيح». وقال المناوي (٣/ ١٢٨): قال العلائي: حديث جيد علىٰ شرط الشيخين. وقال الحافظ: سنده حسن. وأخرجه أحمد (٢٢٨٦٠)، والطبراني في «الكبير» (٦/ ١٦٥/ ٥٨٧٢) وفي «الأوسط» (٧٣٢٣) من حديث سهل بن سعد. قال الهيثمي (١٠/ ١٩٠): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، ورواه الطبراني فى الثلاثة من طريقين، ورجال إحداهما رجال الصحيح غير عبد الوهاب بن عبد الحكم وهو ثقة.

كَذا! ولا يَتَحاشَوْنَ مِن نَظْرةٍ يُطْلِقُونَها، أو كَلمةٍ لا تَحِلُّ يَقُولُونَها، ومنهُمْ مَن يَجْرِي معَ العَاداتِ فِي اسْتِعْمالِ الرِّبا وعُقُودِهِ فِي المَبِيعاتِ، وعِنْدَهُم أنَّ هَذا الأَمْرُ قَرِيبٌ.

ومنهُمْ مَن يُصِيحُ عَلَىٰ وَالِدَتِهِ، وَرُبَّما ضَرَبَها! ومنهُمْ مَن يُطَفِّفُ فِي مِكْيالِه ومِيزانِه جَرْيًا علىٰ العادَةِ، ومِنْهُم مَن يَجْلُو القِطَعَ ويَصْرِفُها.

ولَوْ قِيلَ لِهؤلَاءِ: أَفْطِروا يومًا فِي رَمَضانَ، لَمْ يَفْعَلُوا ولَوْ ضُرِبُوا بالسِّياطِ؛ عَادَةً تَمَلَّكَتْهُمْ، واحْتِقارًا لِتلكَ الذُّنُوبِ.

وَمِنْهُم مَن يَتَرقَّىٰ بِه التَّفريطُ إِلَىٰ جَمْعِ الصَّلَواتِ بغيرِ عُذرٍ، ويَحْتقرُ هَذا الأَمرَ، ومِنْهُم مَن يُصَلِّي الصَّلَاةَ الَّتي ما صَحَّتْ، ولَا يَكَادُ يَنْظُر فِي صِحَّتِها؛ إِلَىٰ غيرِ ذَلكَ مِن المُحَقَّراتِ عِندَهُمْ، وهِي عِندَ اللهِ عَظِيمةٌ.

فَيَنْبغِي لِلإنسانِ أنْ يَحذَرَ هَذهِ الأَشياءَ، فَرُبَّ يَسيرٍ مِنْها أَدْخلَ النَّارَ؛ فَفِي الحَديثِ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيتكلَّمُ بِالكَلِمَةِ لَا يَظُنُّها بَلَغتْ مَا بَلَغتْ، فَيَهْوِي بِها فِي النَّارِ سَبعينَ خَريفًا»[1].

وَالعاقِلُ لا يَحتَقِرُ مُخالَفَةً قطُّ، كَمَا قَالَ بِلالُ بنُ سَعدٍ: لَا تَنْظُرْ فِي صِغَرِ الخَطِيئةِ، وانْظُرْ مَن عَصَيْتَ. وَالحُكَماءُ يقُولُونَ: رُبَّ حَرْبٍ جُنِيَتْ مِن لَفْظةٍ، وَرُبَّ صَبابَةٍ غُرِسَتْ مِن نَظْرةٍ. وفِي الحَديثِ الصَّحيحِ: **«دَخلتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْها؛ فلَا هِي أَطْعَمَتْها، ولا هِي أَرْسَلَتْهَا تَأْكُل مِن خَشاشِ الأَرْضِ، فدَخَلَتْ بِها النَّارَ»**[2].

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٧٩٤٥)، والترمذي (٢٣١٤) وقال: حسن غريب. وابن حبان (٥٧٠٦) من حديث أبي هريرة. وأصله في البخاري (٦٤٧٨). وله شواهد كثيرة.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣١٤٠)، ومسلم (٢٦١٩) من حديث أبي هريرة. وأخرجه البخاري (٣١٤٠) من حديث ابن عمر.

وبالعَكْسِ مِن هَذا: يَحْتقرُ الإنسانُ يَسيرَ الطَّاعاتِ، فيَتكاسَلُ وهُو بطال[١] عَن تَسبيحَةٍ أو رَكْعتينِ، ويَحتقرُ كِسْرةً صَغيرةً ولا يَتصدَّقُ بِها، ويَرُدُّ السَّائلَ، ورُبَّ مُحتَقَرٍ مِن الخَيرِ أَوْجَبَ الجَنَّةَ، كَما صَحَّ فِي الحَديثِ عَن النَّبيِّ ﷺ: «**بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي، إِذْ رَأَىٰ غُصْنَ شَوْكٍ، فرَفَعهُ فدَخَلَ الجَنَّةَ، وبَيْنَا بَغِيٌّ تَمْشِي فِي بَرِّيَّةٍ، فَرَأَتْ كَلبًا يَأْكلُ الثَّرَىٰ مِن العَطَشِ، فَخَلَعتْ مُوقَها فَاسْتَقَتْ لَه بِه فَسَقَتْهُ فَدَخَلَتْ الجَنَّةَ**»[٢].

ومِمَّا يُزْعِجُ: قَولُ الحَسَنِ: أَخافُ أنْ يَكُونَ اطَّلَعَ عَليَّ فِي بَعْضِ ذُنوبِي، فقَالَ: اذْهَبْ، لَا غَفَرْتُ لَكَ.

ومِمَّا يُقَوِّي رَجَاءَ النَّاسِ: أنَّ مِسْطحًا قَذَفَ عَائشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وقَدْ عُرِفَ مَا يُوعَدُ بِه القَاذِفُونَ، ثُمَّ لَمْ يَسْلُبْهُ الحَقُّ اسْمَ الهِجْرَةِ، وتَلَطَّفَ أَبَا بَكْرٍ لِيَعْفُوَ عَنْهُ.

فَقَدْ بانَ مِن هَذا الشَّرحِ: أنَّه يَنْبَغي أنْ يَعتَدِلَ الخَوْفُ والرَّجُاءُ، وأنْ لَا تُحْتَقَر طَاعَةٌ وإنْ قَلَّتْ، ولَا سَيِّئَةٌ وإنِ احْتُقِرَتْ؛ فَمِنْ ورَائهَا طَالِبٌ. واللهُ المُوفِّقُ.

فَصْل

قَدْ غَلَبَ عَلى النَّاس الرِّياءُ، فَقَلَّ مَن يَنْفَكُّ عَنهُ

فتَرَىٰ العَالِمَ يَحْفَظُ العِلمَ ويُناظِرُ فِي الفِقهِ ويَسْهَرُ اللَّيلَ لِيُقالَ ولِيُمْدَحَ، والزَّاهِدَ يَتْرُكُ اللِّباسَ الحَسَنَ ويَقْنَعُ بالمَطْعَمِ الخَشِنِ لِيُقالَ ولِيَتبَرَّكَ بِه العَوَامُّ؛ فَجُمْهُورُ أَعْمالِهِمْ رِياءٌ؛ إنْ تَصدَّقَ أَحَدُهُمْ فَلِيراهُ النَّاسُ، وإنْ لَمْ يَرَوْهُ مَنَّ علىٰ

(١) كذا.

(٢) صحيح: والبخاري (٣٣٢١، ٣٤٦٧)، ومسلم (٥٩٢٢، ٥٩٢٣) من حديث أبي هريرة.

الفُقَراءِ وتَحَدَّثَ بِه، وإنْ صَلَّىٰ أوْ فَعَلَ خَيرًا، ولَو رَأَيْتَ أَئمَّةَ التَّراوِيحِ يَقْرؤونَ الشَّواذَّ، ويُعِيدُونَ اللَّفْظَةَ [الوَاحِدَةَ مِرارًا، فَيقولُ: مَالِك، مَالِك، مَالِك، مَالِك؛ وهَذا لَا يَجُوزُ: أنْ تُعَادَ اللَّفْظَةُ][1] مِرارًا؛ لأنَّه يُخْرِجُ القُرآنَ عَن نَظْمِه، ومَقْصُودُهُمْ بِهذا: أنَّ فُلانًا حَافِظٌ!

ومِن أَعْجَبِ ما رَأَيْتُ: أنَّ النِّساءَ إذَا ماتَ لَهُنَّ مَيِّتٌ صَعَدْنَ فِي الحَرِّ إلىٰ السَّطْحِ بَعدَ نَوْمِ النَّاسِ، ونَزَلْنَ قَبْلَ انْتِباهِهِمْ؛ لِئلَّا يُقالَ: فُلانةٌ تَنَامُ فِي السَّطْحِ. ولُبْس خَشِنَ الثِّيَابِ ظَاهِرًا وحَسَنِهَا دَاخِلًا.

وقَدْ كَثُرَتْ أَحْوالُ الرِّياءِ فِي الرِّجالِ والنِّساءِ فِي كُلِّ فِعلٍ، وَقَلَّ أنْ يَنْفكَّ مِنهُ أَحدٌ، وإنَّما يَكْثُرُ ويَقِلُّ؛ فَيَنْبغِي لِمَنْ وفَّقَهُ اللهُ تَعالىٰ أنْ يَعْلمَ أنَّ الرِّياءَ كَالشِّرْكِ، ويَفْهمَ مَعْنَىٰ قَوْلِه: ﴿ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ [النساء: ١٤٢] وقَوْلِه: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾ [الماعون: ٦]، ويُطالِعَ الأَحاديثَ المَذْكورةَ فِي ذَمِّ الرِّياءِ، وهِيَ كَثِيرةٌ، كَقَولِ النَّبيِّ ﷺ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالىٰ: مَن عَمِلَ لِي عَمَلًا أَشْركَ فِيهِ غَيرِي، فأَنَا بَرِيءٌ مِنهُ»[2]، وكَانَ بعضُ السَّلفِ يقولُ: اتَّقُوا سَرائرَ الشِّركِ، وهُو أنْ تُصَلِّي، فَتَلْحَظُكَ العُيونُ، فَتُطِيلُ السُّجُودَ!

وجُمْلَةُ الأَمْرِ: أنَّ الرِّياءَ كُلُّ ما قُصِدَ بِه رُؤْيةُ الخَلْقِ؛ لِأَدَاءِ حَقِّ الحَقِّ.

وقَدْ كَانَ السَّلفُ يَتَنافَسُونَ فِي ذَلكَ، حتَّىٰ قَالَ بِشْرٌ الحَافِي: إنَّ الرَّجُلَ لَيُرائي بَعْدَ مَوْتِهِ. قِيلَ: كَيفَ؟! قَالَ: يُحبُّ أنْ يَكْثُرَ جَمْعُ جَنَازَتِه.

---

(١) من ي.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٧٥٨٤)، وابن خزيمة (٩٣٨)، وابن حبان (٣٩٥) من حديث أبي هريرة.

وهَذا تَدْقيقٌ عَجِيبٌ؛ لأَنَّه لَو أَحَبَّ الكَثْرةَ لِلاسْتِغْفارِ لَه لَمْ يَكُنْ مَذْمُومًا، وإنَّما يُحِبُّها لِكَثْرةِ مَدْحِه، ولِيُقالَ: لَوْلا أنَّه رَجلٌ صَالحٌ ما كَثُرُوا.

فَلْيَتَّقِ اللهَ العَبدُ، ولْيَعْلَمْ أنَّ الخَلْقَ لا يُغْنونَ عنهُ شَيئًا، وأنَّ جَزاءَهُ عَلىٰ نِيَّتِه لا عَلىٰ عَلانِيَتِهِ، وأَعْمَالُ الرِّياءِ تَذْهبُ باطِلًا ثُمَّ يُعاقَبُ عَلَيْها، ولْيَتَصَوَّرْ فِي نَفْسِه أنَّه بَعدَ قَليلٍ يَبْلىٰ ويَبْلىٰ مَن رَاياهُ، وتَذْهَبُ المَحَامِدُ وتَبْقَىٰ السَّرائرُ.

فلَا يَحْسُن للعاقِلِ أنْ يَعْمَلَ إلَّا للهِ تَعَالىٰ، ولَا يَقُولَ إلَّا للهِ، وأنَّه مَتَىٰ صَحَّتْ نِيَّتُه وأَخْلصَ عَطفَ اللهُ تَعَالىٰ القُلُوبَ إِلَيْه، فَحَصَلَ لَه أَضْعافُ ما رَجَا مِن مَدْحِ الخَلْقِ، كَما رُوِيَ عَن بِشْرٍ قَالَ: مَرَرْتُ بِقومٍ وهُم يَقُولونَ: هَذا لَا يَنامُ اللَّيلَ! واللهِ ما أَذْكُر أَنِّي صَلَّيتُ لَيلةً إلَّا نِمْتُ بَعْضَها، ولكنَّه إذَا رَضِي نَشَرَ الجَمِيلَ.

ومَن رَاءَىٰ ذُمَّ مِن حَيثُ يَرْجُو المَدْحَ؛ قَالتْ عَائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: مَن أَرْضَىٰ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ عَادَ حَامِدُهُ مِن النَّاسِ ذَامًّا.

فصل

مَا رَأيتُ أَطْرفَ مِن أَفْعَالِ الظَّلمَةِ والمُتَكَبِّرينَ [مِن أَرْبَابِ الدُّنيا، يَسْتَحْلُونَ ما هُم فِيهِ، وربَّما يَسْتَحِلُّونَهُ

فمِنْهُمْ مَن لَيسَ عِندَهُ مِن الآخِرةِ خَبرٌ بِحالٍ][(١)]، ومِنْهُم مَن يُصانِعُ بِصَدَقةٍ فِي وقتٍ، وإِدْرَارِ قُوتٍ عَلىٰ فَقِيرٍ، وإِخراجِ ماءِ السَّبيلِ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ، وبِناءِ رِباطٍ ومَدْرسةٍ؛ ثُمَّ لَا يَنْزِعُ عمَّا هُو فِيهِ مِن الظُّلمِ، ويَظُنُّ أَنَّ ما يَفْعَلُه مِن خَيرٍ يَمْحُو ما

---

(١) من ي.

يَفْعَلُه مِن الشَّرِّ، ويَنْسَىٰ أنَّ التَّصَدُّقَ بالغَصْبِ لَا يَصِحُّ، وأنَّ رَدَّ حبَّةٍ مِن ظُلمٍ أَفْضلُ مِن مِائةِ أَلْفِ دِينارٍ صَدَقَة.

حتَّىٰ إنَّ أَحَدَهُم يَخرجُ للحَجِّ فَيُنْفِقُ ما لَيْسَ له ويُبَذِّرُ، وأَصْلُ مَحَبتهُم الطريدةُ[1] والرِّياءُ، فإذَا رَجَع مِن الحجِّ - لَا بلْ فِي الطَّرِيقِ - يُبالِغُ فِي الظُّلْمِ، ويَدْخُل عَلىٰ مَن هُو أَظْلَمُ مِنْهُ، فيقولُ: دَعَوْتُ لكَ عندَ البَيْتِ! ويَرْجِعُ شَرًّا ممَّا كانَ، فإنْ أَقْلَعَ وانْقَطَعَ بعدَ الحجِّ فهُو مَشْغُولٌ بأَكْلِ ما جَمَع مِن الحَرامِ، لا يَرُدُّهُ عَلىٰ أَرْبابِه، ولا يُبالي باسْتِحْلَالِهِمْ!

ولقَدْ بَلَغَني عَن بَعْضِ الظَّلَمَةِ - وكنتُ قَدْ رَأَيْتُه حجَّ ثُمَّ رَجَعَ، فانْقَطَعَ إلَىٰ بَيْتِه عَن أَعْمَالِ السُّلطانِ - أنَّه بَعَثَ إلَىٰ بَعْضِ مَن كانَ ظَلَمَهُ، فقالَ لَه: اجْعَلْنِي فِي حِلٍّ. فَقَالَ: واللهِ! لَا أَفْعَلُ؛ لأنَّك أَخَذْتَ منِّي خَمْسَةَ آلافِ دِينارٍ، وبَلَّغْتَنِي بِها، وقَلَعْت بَيْتِي، ومِنْها شَيءٌ لأطْفَالٍ ومَن لمْ يَبْلُغْ. قَالَ: فلمَّا لَمْ أَفْعَلْ تَرَكَني، فَخَرَجْتُ، وواللهِ! لوْ أعْطَانِي مِائةَ دِينارٍ لَفَضَضْتُها عَلىٰ أَصْحابِ الأَمْوالِ، وسَأَلْتُهُم أنْ يُحَلِّلُوه، ولكنَّه رَأىٰ ذَلكَ صَعْبًا فَأَمْسَكَ.

وكَانَ لِهَذا الظَّالمِ حِينئذٍ مِن المَالِ والعَقَارِ كَثيرٌ، يُمْكِنُه أنْ يُعْطِي مِنْهَا خَمْسَة آلافٍ وأَكْثَرَ، يَبْعثُ إلَىٰ بَعْضِ مَن ظَلَمَهُ، فيأْخُذُ مِنهُ مِائةَ دِينارٍ مَثَلًا، فَيُعْطِيه دِينارَيْنِ ويَقُول: اجْعَلْنِي فِي حِلٍّ! فَيَرَىٰ ذَلكَ المَظْلُومُ أنَّ مَا قَد أُخِذَ مِنهُ فَاتَ، وقَدْ يَئِسَ مِنهُ، وأنَّه إنِ امْتنعَ لَمْ يُعطِهِ شيئًا أَصلًا، فَيُحِلُّه بطَرفِ لِسانِه وقَلْبُه غيرُ راضٍ، فَيَقْنَع بِذلكَ!

ثُمَّ إنَّ هَذا الرَّجُلَ لَمْ يَتَغَيَّرْ عَليهِ شَيءٌ كَانَ فِيهِ، إلَّا أنَّه لَبِسَ قَمِيصًا مِن فوطٍ، وأمَّا تَنعُّمُه وتَرَدُّدُ النَّاسِ إليهِ وَأَكْلُه ممَّا جَمَع، فإنَّه لمْ يَتغَيَّرْ، وإنَّما جَعَل القَمِيصَ

---

(١) كذا.

وِقايَةً؛ لِئَلَّا يُصادَرَ، وعِندَهُ أنَّه قَدْ عَمِلَ شَيئًا! وهَؤلاءِ يَلْعَبونَ بأَنْفُسِهِم، ويَظُنُّونَ أنَّ التَّوْبَةَ قَميصٌ!

ومِنْهُم مَن بَنَىٰ تُرْبَةً كَانَ بابُها بابَ نكد[1]، ولَا يَنْزِعُ عنِ الكِبْرِ حتَّىٰ فِي مَوْتِه، ويَزْعُمُ أنَّه يَنْتَفِعُ بِجوارِ قَوْمٍ صَالِحِينَ!

فمَا أَبْعَدَ هَؤلاءِ عنِ التَّوبةِ وقَبُولِها، وإنَّما التَّائبُ منِ اتَّخَذَ مَثَلَ إبْراهيمَ بنِ أَدْهَمَ، ومَا يُحْكَىٰ عَن الشِّبليِّ أنَّه قَالَ: ظَلَمْتُ شَخْصًا بِدَانِقٍ ولَا أَعْرِفُه، فقَدْ تَصَدَّقْتُ عَنهُ بأُلوفٍ، وأَنَا أَلْقَىٰ اللهَ وذَاكَ فِي قَلْبي.

وهَكَذا يَنْبغِي لِمَنْ تَابَ، يَخْرُجُ عَن المَظالِمِ، ويَتبعُ أَهْلَهَا فَيَرُدهَا عَلَيْهِم أو عَلَىٰ وَرَثَتِهِم، ويُبالِغُ فِي الرَّدِّ والاعْتِذَارِ، ويَخرجُ مِن كُلِّ مالٍ حرامٍ، ثُمَّ يَنظُرُ مِن أَينَ يَكْتَسِبُ، ومِن أَينَ يَأْكُلُ.

وقَدْ بَلَغَنا عَن بَعْضِ مَن سَلَفَ، أنَّه مَاتَ أَبُوهُ وكَانَ لَا يَرْضَىٰ مَالَه، فَخَرجَ فِي جِنازَتِهِ، واعْتَرَضَهُ نَهرٌ، فَنَزَلَ فاغْتَسَلَ ووَقَفَ له النَّاسُ، فَقالَ: أُشْهِدُكُمْ أنِّي لَا أَرِثُ مِن مَالِ أَبِي شَيئًا، فَهَلْ فِيكُمْ مَن يَتَصَدَّقُ عَليَّ بِقَمِيصٍ!

وقَدْ قَالَ الفُقَهاءُ: إِذَا تَابَ مِن الغَصْبِ والمَغْصُوبُ فِي يَدِهِ لَمْ تَصِحَّ تَوْبَتُهُ.

فَوَا عَجَبًا مِن هَؤلاءِ الجُهَّالِ! الَّذينَ يَكْسِبونَ الحَرَامَ، ويُصانِعُونَ بِبَعْضِهِ، وتَوْبَتُهُمْ أَقْبَحُ مِن مَعاصِيهِمْ.

نَسأَلُ اللهَ ﷻ يَقَظَةً تُعَرِّفُنا طَرِيقَ التَّوْبَةِ، وتُوجِبُ لَنَا القَبُولَ؛ إِنَّه كَرِيمٌ مُجِيبٌ.

---

(١) كذا ولعلها: «كبر».

فَصْل

مِن الغَلَطِ العَظِيمِ العَمَلُ بِمُقْتَضَى الحَالِ الوَاقِعَةِ، مِن غَيْرِ تَدَبُّرِ المَآلِ

مِثالُه: أنْ يَسْمَعَ المَواعِظَ، فَيَقَعُ فِي قَلْبه الزُّهدُ ومُلازمةُ طَريقِ الصَّالِحينَ، فينْهَض مُعْتَزِلًا للدُّنْيا بالكُلِّيَّةِ، فرُبَّما طَلَّقَ زَوْجَتَهُ أو أَعْتقَ أَمَتَهُ أو غَيَّرَ زِيَّهُ بينَ النَّاسِ وأَخذَ فِي الصَّومِ الدَّائمِ والسَّهَرِ الدَّائمِ، وخَرَجَ ممَّا يَمْلِكُ، واشْتَهَرَ ذَلكَ بَينَ النَّاسِ؛ وكُلُّ هَذا كانَ ثَمرةَ ما بَدا لَه بالمَوْعِظَةِ مِن الآخِرَةِ، وقَليلُ ذَلكَ فِي جَنْبِ حَالِ المُوفَّقِ، إلَّا أنَّ ذلكَ المُؤثِّرَ لَا يَدُومُ، وتَقَاضي الطَّبْعِ بِمَا تُركَ لَا يَفْتُرُ، فَيَتَّفِقُ عَليهِ عَدَمُ المُؤثِّرِ وتَقاضِي الطَّبعِ؛ فَيَعْجز! فقَدْ رَأَيْنا مَن رَجَع أَقْبَحَ رُجوعٍ!

وما مَثَلُه إلَّا كَمَثَلِ مَن غَضِبَ علَىٰ زَوْجَتِه واحْتَدَّ، فَطَلَّقَها ثَلاثًا، فلمَّا سَكَنَ الغَضَبُ وتَاقَتْ نَفْسُهُ إِلَيْهَا أَخذَ يَحْتالُ فِي تَفْسِيقِ الوَلِيِّ، ويُثْبتُ أنَّ نِكَاحَهُ كانَ بَاطِلًا، وأنَّه وَطِئَ فَرْجَها حَرامًا هَذِه المُدَّةَ، وأنَّ الوَلَدَ الَّذي لَه لَيْسَ مِن نِكَاحٍ صَحِيحٍ!

فكَذلِكَ مَن حَصرَ نَفْسَه وغَيَّرَ تَوْبَتَه، ولَمْ يَصْبِرْ؛ فَفِيهِمْ مَن يَعُودُ إِلَىٰ أَكْثَرِ ممَّا تَرَكَ، وربمَّا مَدَّه إِلَىٰ الحَرامِ، وكانَ السَّببُ قُوةَ ذَلكَ إِلَىٰ الحَصْرِ، وفِيهِمْ مَن يَسْتَحِيي مِن النَّاسِ أنْ يَرْجِعَ، فَيَسْتَتِرُ بالثِّيابِ ويَفعلُ فِي البَاطِنِ أَضْعافَ ما كَانَ فِيهِ مِن الانْبِساطِ؛ وهَذا هُو النِّفاقُ.

ومِن الغَلَطِ العَمَلُ بِمُقْتَضَىٰ الغَضَبِ؛ كالمُشَاتَمَةِ والمُخَاصَمَةِ وضَرْبِ الوَلَدِ. وكَذلكَ كُلُّ ما تُوَجِّهُ كُلَّ فَوْرَةٍ، كطَرَبِ المَمْدُوحِ؛ فإنَّه يُعْطِي مَالَه ثُمَّ يَنْدَمُ، وربمَّا قَتَلَ الَّذي يَمْدَحُ بالشَّجاعَةِ؛ لِئلَّا يُرَىٰ بِعَيْنِ أنَّه جَبَانٌ!

والصَّوابُ: أنْ لَا يَعْمَل بِمُقْتَضَىٰ فَوْرَةٍ أَصْلًا، بلْ يَثْبُتُ، كَما نُقِلَ عَنْ دَاودَ الطَّائيِّ أنَّ نَفْسَه نَازَعَتْهُ إلىٰ الزُّهدِ، وكَانَتْ عَادَتُهُ حُضُورَ حَلقَةِ الفِقْهِ، فَقالَ لَهَا: إنْ صَبَرْتِ فِي الحَلقَةِ سَنَةً ولَمْ تتكَلَّمِي بِكَلِمَةٍ أَفْرَدْتُكِ للزُّهْدِ، فَصَبَرَ، وقَالَ: كَانَتِ

الكَلمةُ تَخْطرُ لِي، فَقولُها عِندِي أَشْهَىٰ مِن المَاءِ البَارِدِ، فأَمْسَكَ عَنْهَا، فلمَّا رَأَىٰ ثَباتَ نَفْسِه أَفْرَدَهَا للانْقِطَاعِ.

ولهَذَا سُنَّ فِي الطَّلَاقِ أنْ لَا يَكُونَ إلَّا فِي طُهْرٍ لمْ يُجامِعْ فِيهِ المَرْأَةَ، وأنْ يُوقِعَ طَلْقَةً ويَصْبرَ إِلَىٰ أنْ تَحِيضَ وتَطْهُرَ، ثُمَّ يُوقِعُ أُخْرَىٰ؛ كُلُّ ذَلكَ لِتَرْجِعَ النَّفسُ إِلَىٰ مُقْتَضىٰ الاعْتِدالِ، ولَا يَعْمَل بِمُجَرَّدِ الفَوْرَةِ؛ ولهَذا نَهىٰ عَن جَمْعِ الطَّلَاقِ الثَّلاثِ، وهُو مُحَرَّمٌ عندَ جَماعَةٍ مِن العُلماءِ، وقدْ قَالَ اللهُ تَعالىٰ: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١].

وكَثيرًا ممَّا رَأَيْنا مَن طَلَّق وكانَ لَا يَسْتَطِيعُ أنْ يَرَىٰ المَرْأَةَ، فلمَّا وَقَعَ الطَّلَاقُ حَنَّ إِلَيْها، وقلَّ صَبْرُهُ عَنْها.

فَيَنْحَلُّ مِن هَذا: أنَّه يَنْبَغي للعاقِلِ أنْ يَثْبُتَ فِي كُلِّ شَيْءٍ فِي نَفْسِه زُهدٌ أو تَغْيُّرُ ثَوبٍ أو غَضَبٌ أو فَرَحٌ أو عَطَاءٌ أو مَنْعٌ أو ضَرْبُ الوَلَدِ وغيرُ ذَلكَ؛ فإنَّ المُقْتَضياتِ للشَّيْءِ لا تَدُومُ، فإذَا تَغيَّرتْ تَغيَّرَ المُحَرِّكُ، فإذَا وقعَ التَّثْبيتُ عَلِمَ الإِنْسَانُ أَينَ هُو، وعَمِلَ بِعزمٍ مُعتدِلٍ، لمْ تُحَرِّكْهُ فَوْرَةٌ.

ولهَذا نَهىٰ القَاضِيَ أنْ يَقْضِي وهُو غَضْبانُ أو جَائعٌ أو حَاقِنٌ[1]؛ لِخُروجِهِ عَن الاعْتِدالِ، والاعْتِدالُ واجِبٌ، خُصُوصًا لمَن نَوىٰ الزُّهْدَ؛ أن سرق عِرضُه مِن نَفْسِه، وأنْ لَا يُغيِّرَ ثَوبَيْهِ بينَ النَّاسِ، فإنْ صَحَّ لَه عَزْمُهُ البَاطِنُ لمْ يَضُرَّهُ ثَوْبَاهُ، وإنْ لمْ يَصِحَّ لَه عَزْمُه البَاطِنُ لمْ يُفْتَضَحْ بَينَ النَّاسِ بالعَوْدِ.

---

(١) صحيح: أخرجه من حديث أبي بكرة: أحمد (٢٠٣٧٩)، والبخاري (٧١٥٨)، ومسلم (١٧١٧)، وأبو داود (٣٥٨٩)، والترمذي (١٣٣٤) وقال: حسن صحيح. والنسائي (٥٤٠٦).

فهَذِه نُبَذٌ يُقاسُ عَلَيْها كُلُّ ما أُغْفِلَ، مِن مَيْلٍ إلَىٰ مشوقٍ، ومُبالَغَةٍ فِي مالٍ يتعرضُ، وغيرِ ذَلكَ؛ فإنَّ الطَّبعَ لا يَبْقَىٰ عَلىٰ حَالٍ، ومُرورُ الزَّمانِ ينقلُ، والنَّفْسُ قَدْ أُغْرِمَتْ بِحُبِّ ما يُمْنَعُ مِنهُ.

كمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

وَزَادَنِـي شَـغَفًا بِالحُـبِّ أَنْ مُنِعْـتُ ** أَحَـبُّ شَـيْءٍ إِلَـىٰ الإِنْـسَانِ مَـا مُنِعَـا

❁ فَصْلٌ ❁

فِي تَعْلِيمِ الصَّبْرِ وَتَسْهِيلِ الصَّعْبِ

اعْلَمْ؛ أنَّه إنَّما يُمكِنُ اسْتِعْمالَ الصَّبْرِ مَن كَانَ عَينُهُ مُلاحِظةً لِعاقِبَتِهِ؛ فإنْ يَصْبِرْ غائبًا عمَّا يَصْبِرُ عَنهُ حَاضِرًا بِجُمْلَتِهِ عِندَمَا يَصْبِرُ لأَجْلِهِ؛ فَحِينئذٍ يَهُونُ عَلَيهِ كُلُّ صَعْبٍ، وإنَّ المُسافِرَ فِي طَلَبِ الأَرْباحِ لَا يَرَىٰ هَوْلَ الطَّرِيقِ، والرَّاكِبَ فِي البَحْرِ لَا يَخْطِرُ عَلىٰ قَلْبِهِ الغَرَقُ، وإنَّما يَتَأَمَّلُ مَا يَرجُو مِن الرِّبْحِ.

فَيَنْبَغِي لِطالِبِ الآخِرَةِ أنْ يَقِيسَ عَلىٰ هَذهِ الأَحْوالِ، إنْ كَانَ مُوقِنًا بالوَعْدِ، ومَتَىٰ عَلِمْنا أنَّ كَثْرَةَ النَّعيمِ عَلىٰ قَدْرِ قُوَّةِ الصَّبْرِ اليَوْمَ آثَرْنَا الصَّبْرَ، ولَوْ أنَّ رَجُلًا قِيلَ لَه: كُلُّ سَوْطٍ نَضرِبُكَ نُعْطِيكَ مِائةَ أَلْفِ دِينارٍ لأَحَبَّ كَثْرَةَ العَدَدِ فِي السِّياطِ؛ لِعِلْمِهِ بِزَوالِ الأَلَمِ عَن قَرِيبٍ وحُصُولِ غَايَةِ الأَمَلِ(١).

(١) من طريف ما يروىٰ في ذلك: قال يعقوب بن إسحاق الهروي، عن صالح بن محمد الحافظ: سمعت هشام بن عمار يقول: دخلت علىٰ مالك، فقلت له: حدثني. فقال: اقرأ. فقلت: لا، بل حدثني. فقال: اقرأ. فلما أكثرت عليه، قال: يا غلام، تعال اذهب بهذا، فاضربه خمسة عشر.
=

ومِن هَا هُنَا؛ هَانَ عَلىٰ الزُّهَّادِ تَرْكُ الدُّنْيا؛ لأنَّهم نَظَروا إلَىٰ ثَمَرةِ الصَّبْرِ، وعَلىٰ هَذا يَنْبَغي لِمَن نَزَلَتْ بِه بَلِيَّةٌ أنْ يَنْظُرَ قُربَ زَوالِها وقِلَّةَ لُبْثِها وحَلَاوةَ ثَمَرَتِها، وأنَّه كُلَّما زَادَتِ الشِّدَّةُ زَادَ الأَجْرُ.

وهَذا الَّذي تَلَمَّحَهُ سُوَيْدُ بنُ شُعْبَةَ لمَّا أَضْنَىٰ، فَقالَ: مَا أُحبُّ أنْ يُقْضَىٰ مِنهُ قُلامَةُ ظُفْرٍ[1]. وقالَ عُمرُ بنُ عبدِ العَزِيزِ: اللَّهُمَّ لَا تُهَوِّنْ عليَّ المَوْتَ؛ فإنَّه آخِرُ ما يُكَفَّرُ بِه عنِ المُسْلِمِ.

فمَتَىٰ نَزَلَتْ بكَ شِدَّةٌ فَصَابِرْهَا، وتَلَمَّحْ أَجْرَهَا وقَد هَانَتْ، وإنْ عَلَتْ دَرَجَتُكَ تَلَمَّحْتَ حِكْمَةَ المُبْتَلِي بِها، وإنِ ارْتَفَعَ عِلْمُكَ نَظَرْتَ إلَىٰ تَصَرُّفِ المالِكِ فِي مُلْكِهِ؛ فلَمْ يَبْقَ اعْتِرَاضٌ، وأيُّ اعْتِرَاضٍ لِمَمْلُوكٍ عَلىٰ مَالِكٍ حَكِيمٍ؟!

وقَدْ كَانُوا يُبالِغُونَ فِي الصَّبْرِ، حتَّىٰ إنَّ طَاوُسًا كَرِهَ أَنِينَ المَرِيضِ، ومَا أَنَّ الإِمامُ أَحْمَدُ فِي مَرَضِهِ حتَّىٰ مَاتَ.

=

فذهب بي، فضربني خمس عشرة درة، ثم جاء بي إليه، فقال: قد ضربته. فقلت له: لم ظلمتني؟ ضربتني خمس عشرة درة بغير جرم، لا أجعلك في حل. فقال مالك: فما كفارته؟ قلت: كفارته أن تحدثني بخمسة عشر حديثًا. قال: فحدثني بخمسة عشر حديثًا. فقلت له: زد من الضرب، وزد في الحديث. فضحك مالك، وقال: اذهب. «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٤٢٩).

(١) في «المنتظم» للمصنف (٥/ ٤٧): عن أبي حيان التيمي عن أبيه قَالَ: دخلت علىٰ سويد بن شعبة، وكان من أصحاب الخطط الذين خط لهم عمر بالكوفة، فإذا هو منكب علىٰ وجهه مسجىٰ بثوب، فلولا أن امرأته قالت: أهلي فداؤك، ما نطعمك؟ ما نسقيك؟ ما ظننت أن تحت الثوب شيئًا. فلما رآني قَالَ: يا ابن أخي، أدبرت الحراقف والصلب، فما من ضجعة غير ما ترىٰ، والله ما أحب أني نقصت منه قلامة ظفر. قَالَ الأصمعي: الحرقفة، مجتمع رأس الورك ورأس الفخذين.

وكانُوا يُضِيفُونَ إلَىٰ الصَّبرِ عَدَمَ الشَّكْوَىٰ إلَىٰ الخَلْقِ.

فهَذِه أَحْوالُ العُلَماءِ بالعَواقِبِ، المُوقِنينَ بالآخِرَةِ، ومَن قَاسَ قَدْرَ الغَمِّ بالإضافَةِ إلَىٰ بَقاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ فِي الجَنَّةِ، اسْتَقَلَّ أنْ لَوْ قُطِّعَ كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ مَرَّةٍ بالإضَافَةِ إلَىٰ مَا يَرجُو مِن ثَوابٍ دَائمٍ غَزيرٍ.

فَافْهَمْ ما أَشَرْتُ إليهِ؛ يَهُنْ عَليكَ كُلُّ شَيءٍ حتَّىٰ المَوْتُ.

واعْلَمْ أنَّ الصَّبْرَ ثَمَرَةُ العَقْلِ، وهُو أَصْلُ كُلِّ خيرٍ؛ لأنَّه لَوْلَا الصَّبْرُ ما أُجْلِبَ نَفْعٌ، ولَا دُفِعَ ضُرٌّ؛ فلَوْلَا صَبْرُ الكَرِيمِ عَن المَالِ ما سَخَىٰ، ولَوْلَا صَبْرُ العَفيفِ عَن الزِّنا لَذَلَّ عِرْضُهُ، ولَوْلَا صَبْرُ الشُّجاعِ ما نالَ الغَنِيمةَ والمَدْحَ، ولَوْلَا صَبْرُ الحَلِيمِ ما حَصَلَتْ فَضِيلَةُ العَفْوِ، ولَوْلَا صَبْرُ المُتَعَلِّمِ ما نَالَ العِلْمَ، ولَوْلَا صَبْرُ المُتَّقِي لَوَقَعَ فِي الزَّلَلِ؛ فَمَنْ تَأَمَّلَ عَواقبَ الصَّبْرِ هَانَ الصَّبْرُ عَليهِ فِي كُلِّ أَمْرٍ.

❊ فَصْلٌ ❊

وَقَعَتْ لِي حِكايَةٌ

عنْ أَبِي مُحَمَّدٍ البَرْبَهارِيِّ، قَالَ: حَدَّثَني أَبُو إِسْحاقَ الأَنْبارِيُّ، وكَانَ مِن أَهْلِ الطَّاعةِ، قَدْ جَبَّ نَفْسَهُ حَياءً مِن اللهِ تَعالَىٰ، لِئلَّا يَخطِرَ بِقَلْبِهِ شَهْوَةُ النِّكاحِ.

فَعَجِبْتُ مِن إِخْراجِ البَرْبَهارِيِّ وهُو مِن العُلماءِ هَذا الكَلامَ مَخْرَجَ المَدْحِ، ولَوْ صَدَرَ هَذا مِن عَامِّيٍّ جاهِلٍ كانَ قَبيحًا، ومَعْلُومٌ أنَّ جَبَّ النَّفسِ مَعْصِيةٌ عَظِيمةٌ، ومُخالَفَةٌ للهِ سُبحانَهُ قَبيحةٌ، يَستحِقُّ صَاحِبُها النَّارَ، وشَهْوةُ النِّكاحِ قَدْ وَضَعَها الخَالِقُ سُبحانَهُ، وحثَّ عَليهِ، وأمرَ بِه، وهُو سَببٌ لِكثرةِ المُسَبِّحينَ، وسُنَّةُ الرَّسولِ ﷺ؛ فَمُقابَلَةُ ما وَضَعَ مِن ذَلكَ بِمَحْقِهِ قَبيحٌ؛ فإنَّ اللهَ تَعالَىٰ شَرَّفَ الرَّجُلَ بِهذا،

ورَفَعَهُ عَلىٰ مَقامِ الأُنُوثِيَّةِ، وقَد أَعْطَىٰ اللهُ ﷻ دُونَ هَذا، فَقالَ: ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [النساء: ١١٩].

ثُمَّ إنَّ الشَّهوةَ الَّتي تَخْطِر بالقَلْبِ لَا تَزُولُ بالجَبِّ، وإنَّما الآلَةُ تُعْدَمُ والشَّهْوَةُ فِي القَلْبِ عَلىٰ حَالِها.

ومَا وَجْهُ القَباحَةِ فِي خُطُورِ شَهْوةِ النِّكاحِ بالقَلْبِ حتَّىٰ تَسْتَحيي مِن ذَلكَ، وهَلْ وَضَعَ ذلكَ إلَّا اللهُ سُبحانَهُ، ثُمَّ أَمَرَ بإنْفاذِ تِلكَ الشَّهوةِ بالنِّكاحِ، وكَانَ وَضْعُهُ إيَّاهَا لِمَعْنًىٰ صَحيحٍ، وهُو بَقَاءُ الخَلْقِ وكَثْرَةُ المُوَحِّدِينَ، فَكَيفَ تَسْتَحِي مِنهُ فِي هَذا[1]؟!

ثُمَّ هَذه رَهْبَنَةٌ مُحَرَّمَةٌ فِي دِينِنَا.

فالعَجَبُ لِمَنْ يَتَشاغَلُ بظَواهِرِ العِلْمِ ولَمْ يَذُقْ طَعْمَ مَعْناهُ، فَيَفْهَم أَسْرارَهُ، عَلىٰ أنَّ هَذا ظَاهِرٌ غَامِضٌ، ونَحْنُ نَسأَلُ اللهَ ﷻ السَّلامَةَ مِن قِلَّةِ العِلْمِ وسُوءِ الفَهْمِ.

* * *

فَصْلٌ

مِن أَغْلاطِ النَّاسِ وأَوْهامِهِم القَبيحَةِ أَنَّهم يَمْدَحُونَ بما يُوجِبُ الذَّمَّ

فإنَّهم إذَا سَمِعُوا عَن السَّلاطِينِ والوُلَاةِ بالعَطاءِ المُسْرِفِ مِن أَمْوالِ المُسْلِمينَ مَدَحُوهُمْ بالكَرَمِ، وأُولئكَ إلَىٰ الذَّمِّ أَقْرَبُ.

---

(١) ولله در أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال: «إني لأُكره نفسي علىٰ الجماع، كي تَخْرج مني نسمة تسبح الله تعالىٰ» أخرجه ابن أبي الدنيا في «العيال» (٣٩٢).

مِثْلُ مَا يُرْوَىٰ عَن حَمَّادٍ الرَّاوِيَةِ، أنَّه قَالَ: بَعثَ لِي هِشامُ بنُ عَبدِ المَلكِ خَمْسَمائةِ دِينارٍ ورَاحِلَةً، فَسِرْتُ عَلَيها فِي اثْنَيْ عَشْرَةَ لَيلَةٍ إلَىٰ دِمَشْقٍ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ فِي دَارٍ قوراءَ، مَفْرُوشَةٍ بالرُّخَامِ، وبَينَ كُلِّ رُخامَتَيْنِ قَضِيبُ ذَهَبٍ، فَسَلَّمْتُ، فإذَا جَارِيَتَانِ لَمْ أَرَ مِثْلَهُما قَطُّ، فقَالَ: أَتَدْرِي فِيمَ بَعثتُ إليكَ؟ قلتُ: لَا. قَالَ: بَعثتُ إليكَ لِبيتٍ خَطَرَ لِي لَمْ أَدْرِ مَن قَائلُهُ. قُلْتُ: مَا هُو؟ قَالَ:

فَـدَعَا بِالـصَّبُوحِ يَوْمًـا فَجَـاءَتْ ** قَيْنَـةٌ فِـي يَمِينِهَـا إِبْرِيـقُ

فَقُلتُ: يَقُولُه عَدِيُّ بنُ زَيدٍ فِي قَصِيدَةٍ لَه. قَالَ: أَنْشِدْنِيهَا. فَأَنْشَدْتُهُ، فطَرِبَ، ثُمَّ قَالَ: أَحْسَنْتَ، يَا جَارِيَةُ؛ اسْقِيهِ، فَسَقَتْنِي شَرْبةً ذَهَبَتْ بِثُلثِ عَقْلِي. قَالَ: أَعِدْهُ. فَأَعَدْتُهُ، فاسْتَخَفَّهُ الطَّرَبُ، حتَّىٰ نَزَلَ عَن فِراشِهِ، ثُمَّ قَالَ للجَارِيَةِ الأُخْرَىٰ: اسْقِيهِ، فَسَقَتْنِي فَذَهَبَ ثُلثٌ آخَرُ مِن عَقْلِي، ثُمَّ قَالَ: سَلْ حَاجَتَكَ. فَقُلْتُ: إِحْدَىٰ هَاتَينِ الجَارِيَتَيْنِ. فَقَالَ: هُمَا جَمِيعًا لَكَ بِمَا عَلَيْهِما ومَا لَهُمَا. ثُمَّ قَالَ للأُولَىٰ: اسْقِيهِ، فَسَقَتْنِي شَرْبَةً سَقَطْتُ مِنْها، فَلَمْ أَعْقِلْ حتَّىٰ أَصْبَحْتُ والجَارِيتانِ عِندَ رَأْسِي، وإذَا عَشَرَةٌ مِن الخَدَمِ، معَ كُلِّ واحِدٍ بدرةٌ، فقالَ أَحَدُهُمْ: إنَّ أَمِيرَ المُؤمِنينَ يَقْرَأُ عليكَ السَّلامَ، ويقُولُ: خُذْ هَذه فانْتَفِعْ بِها فِي سَفَرِكَ، فأَخَذْتُها والجَارِيَتَيْنِ وعَاوَدْتُ أَهْلِي.

قُلتُ: فَانْظُرْ إلَىٰ هَذا التَّبْذِيرِ القَبِيحِ، وإِعْطَاءِ هَذا الَّذي لَا يَسْتَحِقُّ مِن أَمْوالِ المُسْلِمينَ عَلىٰ إنْشَادِ مِثلِ هَذا، ولَوْ كَانَ ما أَعْطَاهُ مِن مَالِ نَفْسِهِ كَانَ تَبْذِيرًا وتَفْرِيطًا، فَكَيْفَ ولَيسَ مِن مَالِهِ؟!

فَالعَجَبُ لِمَنْ يَرْوِي مِثلَ هَذا عَن المُلُوكِ، فَيُخْرِجُهُ مَخرَجَ المَدْحِ والكَرَمِ، وهُو مَعْدُودٌ فِي التَّبْذِيرِ والإسْرافِ، وقَدْ قَالَ ﷻ: ﴿ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، أَيْ: يَنْظُرونَ أَيْنَ يَضَعُونَ الأَمْوالَ.

فأَينَ الفُقَرَاءُ وأَرْبابُ الحلةِ عَن هَذه الأَمْوالِ الَّتي صُرِفَتْ إلَىٰ هَذا الشَّخْصِ؟!

نَعُوذُ باللهِ مِن سُوءِ الفَهْمِ.

ومَا يَزالُ النَّاسُ يَمْدَحُونَ المُلُوكَ والبَرَامِكَةَ بِمِثْلِ هَذا الحَالِ، وإذَا تَأَمَّلْتَ الحَالَ وَجَدْتَ الأَمْوالَ قَدْ أُخِذَتْ عَلىٰ غَيْرِ وَجْهِهَا، وصُرِفَتْ فِي غَيْرِ حَقِّها، وخَرَجَتْ عَن نِيَّاتٍ فَاسِدَةٍ، مِن قَصْدِ المَدْحِ بالسَّخاءِ والطرمدةِ وغَيْرِ ذَلكَ.

ونَحْنُ نَسْأَلُ اللهَ ﷻ السَّلامةَ فِي مَقاصِدِنَا ونِيَّاتِنا وفُهُومِنا، حتَّىٰ نَعْلَمَ مَا يُوجِبُ المَدْحَ ممَّا يُوجِبُ الذَّمَّ، واللهُ المُوَفِّقُ(١).

❁ فَصْلٌ(٢) ❁

مَن تَفكَّرَ لِأَيِّ مَعْنًى خُلِقَ، ولِأَيِّ مَقْصِدٍ وُجِّهَ؛ أَيْقَنَ أنَّه فِي دَارِ رِحْلَةٍ، فَجَمَعَ لِلسَّفرِ رَحْلَهُ

ويَبْدأُ السَّفَرُ مِن ظُهورِ الآباءِ إلَىٰ بُطُونِ الأُمَّهاتِ، ثُمَّ إلَىٰ الدُّنْيا، ثُمَّ إلَىٰ القَبْرِ، ثُمَّ إلَىٰ الحَشْرِ، ثُمَّ إلَىٰ دَارِ الإقَامَةِ، ومِقْدارُ البَقاءِ فِي الدُّنْيا يَسِيرٌ تُقْطَعُ خُطُواتُهُ بالأَنْفاسِ، ويَسِيرُ بالإنْسَانِ سَيْرَ السَّفِينةِ، لَا يُحِسُّ بِسَيْرِهَا وهُوَ جَالِسٌ فِيهَا.

ولَا زَادَ لِلآخِرَةِ إلَّا التَّقْوىٰ، والنَّفْسُ قَدْ رُكِّبَتْ عَلىٰ حُبِّ البَطَالَةِ والغَفْلَةِ، ومَا زَمَانُ العُمُرِ زَمَانَ فُتُورٍ؛ لأَنَّ السَّائقَ حَثِيثٌ، ثُمَّ تَرْكِيبُ الطَّبعِ عَلىٰ أَخْلاقٍ عَجِيبَةٍ مِن حِقْدٍ وحَسَدٍ وغَضَبٍ وكِبْرٍ وحِرْصٍ وغَيْرِ ذَلكَ، وكُلُّهَا سَدٌّ فِي وَجْهِ المَطْلُوبِ، فَلَا بُدَّ مِن تَعَبِ الرِّياضَةِ والمُجاهَدَةِ والتَّصبُّرِ عَلىٰ مَرارَةِ التَّقْوىٰ؛ لِئلَّا يَقُولَ الرَّاحِلُ وَقْتَ السَّيْرِ: رَبِّ ارْجِعُونِ، فيُقَال: كَلَّا.

---

(١) هنا نهاية أ، ي.

(٢) من هنا من النسخة «ن» وحدها.

فَصْلٌ

زَادَتْ دِجْلَةُ فِي رَمَضانَ سَنَةَ تِسْعٍ وسِتِّينَ زِيادَةً عَظِيمَةً

وكَانَتْ فِي السَّنَةِ الَّتي قَبْلَهَا قَدْ زَادَتْ كَذَلكَ، إلَّا أَنَّ هَذه الأَخِيرَةَ كَانَتْ أَشَدَّ، وَانْفَتَحَ سِكْرٌ عِنْدَ بَابِ السُّلْطَانِ، وجَاءَ المَاءُ إِلَىٰ ناحِيَةِ البَلَدِ، فَخَرَجْتُ والنَّاسُ يَبْكُونَ، ويَقُولُون لِي: ادْعُ لَنا.

فَقُلْتُ: قَد اجْتَمَعَ فِي هَذِهِ الحَالَةِ أُمُورٌ يَنبَغِي أَنْ تُتَلَمَّحَ:

مِنْهَا: أَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَا يُذَكِّرُ به الغَافِلِينَ عَنهُ؛ لِيَرْغَبُوا إِلَيْهِ عمَّا هُمْ فِيهِ مِن مَعَاصِيهِ، فَيَتُوب العَاصِي، ويَبْكِي القَاسِي، ويَدْعُو اللَّاهِي؛ فَهَذِهِ نِعَمٌ فِي طَيِّ هَذِهِ الحَالَةِ الصَّعْبَةِ.

ومِنْهَا: تَنْبِيهُ الخَلْقِ علىٰ مَجِيءِ العِقَابِ إِلَىٰ العُصَاةِ بَغْتَةً؛ فَإِنَّهُم بَيْنَا هُمْ عَلىٰ السُّكُونِ أُزْعِجُوا؛ فَلْيَسْتَدِلُّوا علىٰ قُدْرَةِ المُنْعِمِ بالسُّكُونِ عَلىٰ الإِزْعَاجِ، ولْيَحْذَرُوا مِن التَّبِعَاتِ بالعُقُوبَةِ.

ومِنْهَا: أَنَّه لَا يَنْبَغِي للعُصَاةِ أَنْ يُنْكِرُوا العُقُوبَةَ.

ومِنْهَا: أَنَّ دُعَاءَ العُصَاةِ لَا يُسْمَعُ، فكَمَا يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَدَّخِرَ شَيئًا مِن النَّفَقَةِ فِي صِحَّتِهِ لِمَرَضِهِ، وفِي غِناهُ لِفَقْرِهِ، فَيَنْفَعُهُ مَا ادَّخَرَ؛ فَكَذلِكَ يَنْبَغِي الإِنْسَان أَنْ يَتَّقِي اللهَ، وأَنْ تكُونَ لَهُ خَبِيئَةُ خَيرٍ يُنْفِقُهَا وَقْتَ الحَاجَةِ.

۞ فَصْل ۞

دَعَانَا بَعْضُ النَّاسِ، وقَدْ زَخْرَفَ دَارَهُ وزَيَّنَها وحَلَّاهَا بالذَّهَبِ، وجَمَعَ فِيهَا جَمَاعَةً مِن الفُقَرَاءِ، وقَدَّمَ إِلَيْهِم الأَطْعِمَةَ السَّنِيَّةَ. فَقُلْتُ: هَذَا فِعْلٌ يُقَارِبُ الحَرَامَ

لأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ إِنَّما نَهَىٰ عَن الحَرِيرِ لِئَلَّا يَنْكَسِرَ قَلْبُ الفَقِيرِ، وأَمَرَ بالتَّعَرِّي فِي الإِحْرَامِ لِيَتَوَافَقَ الغَنِيُّ والفَقِيرُ، ومَن أَحْضَرَ الفُقَراءَ فَأَرَاهُمْ هَذا البُنْيانَ العَجِيبَ المُزَخْرَفَ؛ فَقَدْ أَشْهَدَهُمْ علىٰ تَضْيِيعِ المَالِ وإِنْفَاقِهِ فِيمَا لَا يَجُوزُ، وحَرَّكَ قُلُوبَهُم إِلَىٰ التَّسَخُّطِ عَلىٰ المَقْدُورِ؛ لأنَّ فِي كُلِّ نَفْسٍ شَهْوَةً لِمِثْلِ ذَلك، فَإِذَا رَجَعَ الفَقِيرُ إِلَىٰ دَارِهِ نَقِمَهَا وازْدَرَاهَا وتَكَدَّرَ عَيْشُه، خُصُوصًا إِنْ كَانَتْ لَه هِمَّةٌ، فإِنْ حَرَّكَ فِي تَحْصِيلِ مِثْلِ هَذِه الأَشْياءِ لَمْ تَكَدْ تَحْصُلُ إِلَّا بِوُجُوهٍ مَرْذُولَةٍ وفِعْلِ لَا يَجُوزُ، مِن إِلْصَاقِ ذَهَبٍ عَلىٰ حِيطَانٍ، ثُمَّ كَيفَ يَأْمَنُ إِصَابَةَ العَيْنِ، وتَعْرِيضُ النِّعَمِ للعُيُونِ مُخَاطَرَةٌ لَا تَفِي بِإِظْهَارِ النِّعَمِ.

فَهَذا البُنْيانُ مَنْهِيٌّ عَنهُ، والإِنْفَاقُ فِيهِ عَلىٰ هَذا الوَصْفِ لَا يَجُوزُ، وإِطْلَاعُ النَّاسِ عَلَيْهِ إِطْلَاعُ الشُّهُودِ عَلىٰ فُجُورٍ، وتَعْرِيضٌ لَهُم بالتَّسَخُّطِ عَلىٰ الأَقْدَارِ، وتَعْرِيضٌ لِنَفْسِهِ بِإِصَابَةِ العَيْنِ؛ وكُلُّ هَذا لَا يَصْلُحُ ولَا يَلِيقُ.

وقَدْ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَجْعَلَ شُكْرَ النِّعْمَةِ الَّتي يَعْتَقِدُهَا نِعْمَةً صِلَةَ الفُقَرَاءِ وَهُمْ فِي بُيُوتِهِم؛ لِئَلَّا يَرَوْا مِثلَ ذَلكَ.

~~~
~~~

۞ فَصْل ۞

تَذَاكَرْنَا مَا يُنْفِقُه السَّلاطِينُ فِي القُرْبِ إِلَى اللهِ تَعَالى

مِثْلُ بِنَاءِ رِباطٍ ومَدْرَسَةٍ وغَير ذَلك، فَقَالَ مُحَقِّقُهُمْ: هُمْ إِلَىٰ الإِثْمِ فِي ذَلكَ أَقْرَبُ مِن الثَّوابِ.

لأَنَّ هَذه الأَمْوالَ لَهَا حُقُوقٌ إِلَىٰ الفُقَراءِ، فَلَيْسَ لَهُم صَرْفُها فِي بُنيانٍ مُشَيَّدٍ مُزَخْرَفٍ لَا يُحتاجُ إِلَيهِ، وتَخْصِيصُ قَوْمٍ بِذلكَ دُونَ قَوْمٍ.

هَذا إِذَا صَفَتْ نَفَقَاتُهُم وأَفْعَالُهُم، فأَمَّا إِذَا ظَلَمُوا وسَخَّرُوا الصُّنَّاعَ وجَارُوا فِي الأَحْكَامِ اجْتَمَعَ إِلَىٰ الحُمَّىٰ دَقٌّ.

۞ فَصْل ۞

تَفَكَّرْتُ فِي حَالَةٍ عَجِيبَةٍ أَحْبَبْتُ شَرْحَهَا لِيُتَفكَّرَ فِيهَا

وهُوَ أَنَّ الإِنْسَانَ إِذَا رُزِقَ يَقَظَةً تُحَرِّكُهُ إِلَىٰ التَّزَوُّدِ للآخِرَةِ، وَقَوِيَتْ تِلْكَ اليَقَظَةُ نَصَبَ المَوْتَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، ولَهَا عَنِ الدُّنْيَا بالكُلِّيَّةِ، ولَازَمَ المَقَابِرَ، وانْعَزَلَ عَن الخَلْقِ؛ وهَذا كُلُّهُ بالإِضَافَةِ إِلَىٰ ما بَيْنَ يَدَيِ العَبْدِ؛ مِن مُعالَجَةِ سَكَراتِ المَوْتِ، ونُزُولِ القَبْرِ، وأَهْوالِ القِيامَةِ.

إِلَّا أَنَّ هَذِه الحَالَةَ تُوجِبُ عَكْسَ الحِكْمَةِ الَّتي وُضِعَ الآدَمِيُّ عَلَيْها؛ لأَنَّها تَحْمِلُهُ عَن الإِعْراضِ عَن التَّشاغُلِ بالعِلْم، ولِقِصَرِ أَمَلِهِ لَا يَلْتَفِتُ إِلَىٰ الكَسْبِ، ولِانْزِعَاجِ قَلْبِهِ بالخَوْفِ يَفِرُّ مِن النِّكَاحِ، ولِقُوَّةِ انْتِهابِهِ للزَّمَانِ يَهْرُبُ مِن الخَلْقِ، فلا يُفِيدُ ولَا يَسْتَفِيدُ، ولَا يَتَعَلَّمُ ولَا يُعَلِّمُ، ولَا يَنْكِحُ ولَا يَكْسِبُ ولَا يَتَسَبَّبُ، بَلْ يَصِيرُ كَالوُحُوشِ؛ فَتَفُوتُهُ بِذَلِكَ فَضَائلُ كَثِيرَةٌ وخَيْراتٌ عَمِيمَةٌ.

وهَذِه الحَالَةُ قد اسْتَلَبَتْ خَلْقًا مِن الزُّهَّادِ، فَصَيَّرَتْهُمْ كَالوُحُوشِ، وأَخْرَجَتْهُمْ إلَىٰ السِّياحَةِ، وأَلْزَمَتْهُم المَقَابِرَ، وأَفْرَدَتْهُم فِي الصَّوامِعِ، وهِي وَإِنْ كَانَتْ حَالَةَ يَقَظَةٍ وصَفَاءِ فِكْرِهِ، إلَّا أنَّ تَعَلُّمَ العِلْمِ وتَعْلِيمَهُ والنِّكَاحَ لِطَلَبِ الأَوْلَادِ أَفْضَلُ، وهَذَا بِشَرْطِ النَّظَرِ إلَىٰ الزَّمانِ وما يُنَاسِبُهُ.

ومَن تَأَمَّلَ حَالَ النَّبيِّ ﷺ الَّذي هُو أَكْمَلُ الخَلْقِ، كَانَ يَسْتَعْمِلُ مِن هَذِه الأَشْياءِ ما يُعادِلُ بِه ما عِنْدَهُ مِن مِيزانِ الخَوْفِ وشُغْلِ القَلْبِ، فإنَّه كَان يُكْثِرُ التَّزْوِيجَ، ويُدَاعِبُ ويُمَازِحُ، وقَدْ سَابَقَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فِي البَرِّيَّةِ علَىٰ قَدَمَيْهِ مَرَّتَيْنِ[1]، وكُلُّ ذَلكَ لِيُقَوِّي جَانِبَ النَّفْسَ، فيُقاوِمَ ما عِنْدَهُ مِن الحَذَرِ والخَوْفِ، ومَن ظَنَّ ذَلكَ نَقْصًا فمَا فَهِمَ وَجْهَ الحِكْمَةِ، ولَا مَقْصُودَ الوُجُودِ.

فَيَنْبَغِي لِلعالِمِ أنْ يَتَفَهَّمَ هَذا، ويَسْلُكَ هَذا الطَّرِيقَ، ولْيَحْذَرْ طَرِيقَ فُلَانٍ وَفُلَانٍ الزَّاهِدِ فِي تَرْكِ التَّشاغُلِ بالعِلْمِ، والِانْقِطَاعِ عَن الخَلْقِ بِلَا عِلْمٍ، فَلَيْسَتْ هَذِه بِطَرِيقَةِ الأَنْبِياءِ ولَا العُلَماءِ الكَامِلِينَ، فإنَّه ولَوْ صَرَفَ فِكْرَهُ عَن ذِكْرِ المَوْتِ لَمْ يَنْصَرِفْ، فلَوْ تَكَلَّفَ الضَّحِكَ كَانَ الحُزْنُ عَلَيهِ أَغْلَبَ؛ لأَنَّه مَعْجُونٌ بالفِكْرِ بذِكْرِ الرَّحِيلِ والنَّظَرِ فِي العَواقِبِ.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٢٤٦١٩، ٢٦٧٨٢، ٢٦٨٠٧)، وأبو داود (٢٥٧٨)، وابن ماجه (١٩٧٩)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٨٨٩٣، ٨٨٩٥)، وابن حبان (٤٦٩١) من حديث عائشة.

۞ فصل ۞

نَافِعٌ يَتَعَلَّقُ بِالبَاءَةِ

اعْلَمْ؛ أنَّ المَنِيَّ جَوْهَرٌ عَظِيمٌ مِن جواهِرِ البَدَنِ، فَيَنْبَغِي للعَقْلِ الَّذي هُو الحَاكِمُ فِي البَدَنِ ألَّا يُطْلِقَ خُرُوجَ شَيْءٍ مِن المَنِيِّ إلَّا إذَا اشْتَدَّ التَّقاضِي لإِخْرَاجِهِ، وعَلَامَةُ شِدَّةِ التَّقاضِي قُوَّةُ الفِكْرِ فِي الجماعِ، وإِدَامَةُ ذَلكَ، والشَّوْقُ الشَّدِيدُ إِلَيْهِ؛ فَإِذَا صَدَقَ الشَّوْقُ أخْرجَتْ تِلكَ الفَضْلَة، فَوَجَبت تِلكَ الرَّاحَة عِندَ خُرُوجِهَا، وهَذَا نَفْعٌ لَا ضَرَرَ فِيهِ، فَأَمَّا إذَا لَمْ يَكُنْ كَذَلكَ فَإِخْرَاجُهُ ضَرَرٌ، ويَتَزَايَدُ الضَّرَرُ بإِجْهَادِ النَّفْسِ فِي الجِمَاعِ، أَوْ بِعُلُوِّ السِّنِّ.

وَاعْلَمْ؛ أنَّ سَبَبَ صِحَّةَ أَوْلَادِ البَهائِمِ - فَإِنَّهُنَّ يُولَدْنَ صِحَاحًا، وقَلَّ أنْ يَقَعَ فِي خَلْقِهِنَّ عَيْبٌ -؛ لأَنَّ لَهُنَّ فِي السَّنَةِ فَصْلًا مَعْروفًا يُجامِعْنَ فِيهِ عَلىٰ اعْتِدَالِ الزَّمانِ وشِدَّةِ التَّوقِ، فَتَصِحُّ الأَوْلَادُ، فأَمَّا الآدَمِيُّ فإنَّه يُجَامِعُ فِي أَيِّ وَقْتٍ كَانَ وعَلىٰ أَيِّ حَالٍ كَانَ، فلَا يَكُونُ الوَلَدُ فِي الغَالِبِ مُسْتَقِيمًا فِي خِلْقَتِهِ، فإنِ اسْتَقامَتْ صُورَتُهُ لَم تَسْتَقِمْ أَخْلَاقُهُ، ولَمْ تَكْمُلْ قُوَّتُهُ، ولَمْ يَصْفُ ذِهْنُهُ، ولَمْ يَتكامَلْ عَقْلُهُ؛ فَلْيُتَلَمَّحْ هَذَا.

فمَنْ أَرادَ صِحَّةَ الأَوْلادِ فَلْيُجامِعْ فِي فَصْلٍ، وأَصْلَحُ الفُصُولِ لِلجماعِ فِي حَقِّ الآدَمِيِّينَ مَا قَرُبَ مِن الشِّتاءِ، ولْيُطاوِلْ مُدَّةَ الصَّبْرِ عَن الجِمَاعِ، ثُمَّ لِيُجامِعْ فِي أَوَّلِ طُهُورِ المَرْأَةِ، ولَا يَكُنْ شَبْعانًا ولَا جَائعًا ولَا حَاقِنًا ولَا تَعْبَانًا ولَا ذَا هَمٍّ، ولْيَمِلْ علىٰ جَانِبِهِ الأَيْمَنِ؛ فَإِنَّ حَمْلَ الذُّكُورِ يَكُونُ فِي الأَيْمَنِ مِن المَرْأَةِ.

واعْلَمْ؛ أنَّ الشَّابَّ يَحْتَمِلُ أَمْرُهُ التَّفرِيطَ؛ لأَنَّ القُوَّةَ حامِلَةٌ، فأمَّا الكَهْلُ فَيَنْبَغِي أنْ يَحْتَرِزَ مِن التَّفرِيطِ، ولَا يَجوزُ التَّفرِيطُ للشَّيْخ أَصْلًا؛ فَإِنَّه يُنْفِقُ مِن أَصْلِ الرُّوحِ، ولْيَحْذَرْ حَابِسَ الصَّبِيَّةِ عِنْدَهُ؛ فإنَّ الشَّيخَ إذَا تَزَوَّجَ صَبِيَّةً أَذَاهَا، فإنْ أَرْضَاهَا هَلَكَ، ويُجَاهِدُ نَفْسَهُ فِي الصَّبْرِ عَن الجِمَاعِ، فإذَا تَمَكَّنَ مِنهُ الضَّعْفُ كَانَ جِمَاعُهُ عَلَيْهِ حَرَامٌ.

واعْلَمْ؛ أنَّهُ أَوَّلُ مَا يفْقدُ مِن الرَّجُلِ ذكرُهُ وشَهْوَتُهُ للجِمَاعِ؛ لأنَّ إِمْدادَ القُوَىٰ مِن الدِّماغِ، فَهُو يَبْعَثُ قُوَّةً إِلَىٰ البَصَرِ والسَّمْعِ لِقُرْبِهِمَا مِنْهُ، فإذَا فَضَلَتْ القُوَىٰ بَعَثَهَا إِلَىٰ آلَةِ الجِمَاعِ، فَلْيَحذَرِ الشَّيْخُ مُوافقَةَ الهوَىٰ فِي الجِماعِ، فَقَدْ كَانَ شَيخٌ اشْتَرَىٰ جَارِيَةً، فوَقعَ عَلَيْها، ثُمَّ وَقعَ عَنْهَا مَيِّتًا، ومَتَىٰ كَبِرَ الآدَمِيُّ لَمْ يَبْقَ للجِمَاعِ وَجْهٌ ولَا نَفْعٌ.

فَصْل

يَنْبَغِي أنْ تَعْلَمَ أنَّ سَلامَةَ النَّفِسِ مِن الآفَاتِ قَرِينُ سَلَامَةِ البَدَنِ

فَمَتَىٰ كَانَ البَدَنُ سَلِيمًا مُعْتَدِلًا دَلَّ عَلىٰ سَلَامَةِ الرُّوحِ واعْتِدَالِ الأَخْلَاقِ؛ فإنَّ الخُلُقَ رَفِيقُ الخَلْقِ، فإذَا رَأَيْتَ الشَّخْصَ مُعْتَدِلًا، لَا طَوِيلًا ولَا قَصِيرًا، مُتَناسِبَ الأَعْضَاءِ، صَبيحَ الوَجْهِ؛ فَاعْلَمْ أنَّ نَفْسَهُ شَرِيفَةٌ، سَلِيمَةٌ مِن الآفَاتِ.

فَإذَا كَانَتْ بِه آفَةٌ فَاعْلَمْ أنَّ بِالنَّفْسِ آفَةٌ، مِثْل أنْ يَكُونَ صَغِيرَ الرَّأْسِ، طَوِيلَ العُنُقِ، طَوِيلَ القَامَةِ، أَوْ أنْ يَكُونَ طَوِيلَ اللِّحْيَةِ؛ فَهَذِه دَلَالَاتُ الحُمْقِ، فَإذَا رَأَيْتَ عَيْنَيْهِ جَاحِظَتَيْنِ أَوْ زَرْقَاوَيْنِ أَوْ شَدِيدَةَ السَّوادِ جِدًّا؛ فَكُلُّ ذَلكَ يَدُلُّ عَلىٰ آفَةٍ فِي البَدَنِ، ولَا تَكَادُ تَرَىٰ أَقْرَعَ أَوْ أَعْمَىٰ كَمَا يَنْبَغِي، فإنْ رَأَيْتَ أَعْمَىٰ فِيهِ خَيْرٌ رَأَيْتَ فِي أَخْلَاقِهِ شَرًّا مِنْهُ وَحِدَّةً وسُوءَ أَدَبٍ وَحُمْقَ.

وكَانَ بَعْضُ العُلَمَاءِ وَالفُضَلَاءِ يَقُولُ عَن العِمْيَانِ: لوْ أَنَّهُم مِسْكٌ لَا تَدَعْهُمْ فِي ثِيابِكَ، ولوْ أَحْسَنْتَ إِلَىٰ بَعْضِهِمْ فَوْقَ الحَدِّ قَابَلَكَ أَقْبَحَ مُقَابَلَةٍ.

وكَذَلِكَ الأَعْوَرُ والأَحْدَبُ والكَوْسَجُ والأَقْرَعُ والأَزْرَقُ والأَشْقَرُ والأَبْرَصُ وكُلُّ ذِي آفَةٍ، فَاحْذَرْهُ؛ فإنَّ الظَّاهِرَ يَدُلُّ عَلىٰ البَاطِنِ، وإذَا رَأَيْتَ سَلِيمًا مُعْتَدِلًا،

فَاسْتَدِلَّ بِذَلِكَ عَلىٰ صَفَاءِ ذِهْنِهِ وسَلَامَةِ رُوحِهِ؛ هَذَا هُو الأَغْلَبُ، وفِي النَّادِرِ مَن بِه آفَةٌ أنْ يَكُونَ سَلِيمَ الرُّوحِ، وهَذَا فِيهِ بُعْدٌ.

وَإِذَا تَأَمَّلْتَ هَؤلَاءِ الأَجْنَاسَ بِالتَّجْرِبَةِ رَأَيْتَ أَثَرَهُ فِيهِ بِمِقْدَارِ مَا عِنْدَهُ مِن الآفَةِ، فَنادِرٌ مَن لَا آفَةَ فِيهِ، فَاعْتِدالُ الشَّخْصِ دَلِيلُ صَلَاحِ بَاطِنِهِ، واعْتِدَالُ الظَّاهِرِ عُنْوانُ البَاطِنِ.

فَصْل

مِن أَعْجَبِ الأَشْياءِ أنَّ الآدَمِيَّ يُصْبِحُ فَيَرَى بَدَنَهُ كَمَا بَاتَ، وَيُمْسِي فَيَرَى بَدَنَهُ كَمَا أَصْبَحَ، ولَا يَرَى دَبِيبَ الفَنَاءِ فِيهِ

ولَوْ نَظَرَ بِعَيْنِ فِكْرِهِ عَلِمَ أَنَّهُ فِي كُلِّ سَاعَةٍ يَنْقُصُ بَدَنُهُ وَعُمُرُهُ، ويَدُبُّ إِلَيْهِ الضَّعْفُ، وتَذْهَبُ مِنْهُ قُوَّةٌ.

فَتَرَىٰ المُغَفَّلَ تَغُرُّهُ عافِيَةُ بَدَنِهِ، فَيَطْلُبُ مِن نَفْسِهِ بَعْدَ السِّتِّينَ والسَّبْعِينَ مَا كَانَ يَطْلُبُهُ فِي الأَرْبَعِينَ، مِن الجِمَاعِ وغَيْرِهِ، فَرُبَّما وَجَدَ قُوَّةً فَغَرَّتْهُ، ورُبَّما اسْتَعْمَلَ الحَرَارَاتِ لِتُحَرِّكَهُ علىٰ الجِمَاعِ، فَمَثَلُهُ مَثَلُ مَن يَسُوقُ البَهِيمَةَ بِالعَصَىٰ، وهِيَ تَمْشِي عَلىٰ قَدْرِ سَوْقِهِ تَكَلُّفًا، ولكِنْ إذَا أَدَّتْ مَا عِنْدَهَا مِن القُوَّةِ سَقَطَتْ.

فَالعَاقِلُ مَن نَظَرَ إِلَىٰ البَاطِنِ بِعَيْنِ الفِكْرَةِ، فَعَمِلَ بِمُقْتَضَىٰ مَا يَعْلَمُ، لَا بِمُقْتَضَىٰ مَا يَرَىٰ.

فَصْل

يَتَضَّمَنُ وَصِيَّةَ الكُهولِ وَالأَشْيَاخِ مِمَّنْ [...][١]

اعْلَمُوا أنَّ حِفظَ الكَهْلِ نَفْسَهُ مِن الانْطِلَاقِ فِي الجِمَاعِ مُتَعَيَّنٌ، وحِفْظُ الشَّيْخِ يُضَاهِي الوَاجِبَ؛ فإنَّ امْتِنَاعَ الكَبِيرِ مِن الجماعِ يُبْقِي قُوَّةً فِي بَدَنِهِ مُدَّخَرَةً للشَّدَائِدِ، فَمِنْهَا أنَّه إذَا نَزَلَ بِهِ مَرَضٌ وطَالَ، افْتَقَرَ إِلَىٰ قُوَّةٍ تُنْفِقُ عَلَيْهِ وَتُقَاوِمُهُ، فَإذَا لَمْ يَجِدِ الضَّيْفُ إِلَّا خُبْزَ العَائلَةِ فَتَنَاوَلَهُ جَاعَتِ العَائلَةُ، وكَذَلِكَ إذَا لَمْ يَجِدِ المَرِيضُ قُوَّةً مُدَّخَرَةً فَإنَّهُ يَتْلَفُ عَاجِلًا.

وهَذَا الَّذِي يُسَمُّونَهُ الأَطِبَّاءُ: «البَحْرَانِ»، مَعْنَاهُ: أنَّ القُوَّةَ تُقَاوِمُ المَرَضَ فِي تِلكَ اللَّيْلَةِ، فإنْ غَلَبَتْهُ أَصْبَحَ المَرِيضُ إِلَىٰ العَافِيَةِ، وإنْ غَلَبَهَا هَلَكَ لَا مَحَالَةَ.

فَلْيَدَّخِرِ الشَّيْخُ قُوَّتَهُ، فَالحَاجَةُ إِلَيْهَا شَدِيدَةٌ، فإنَّه لمَّا كَانَ شَابًّا كَانَ يَكْسَبُ مِن القُوَّةِ مَا يَكْفِي النَّفَقَةَ ويَحْتَمِلُ التَّبْذِيرَ، فأَمَّا الشَّيْخُ فَحَالَتُهُ لَا تَحْتَمِلُ ذَلِكَ.

فَصْل

قَدْ ثَبَتَ عِندَ كُلِّ عَاقِلٍ أنْ طِيبَ العَيْشِ إنَّما يَحْصُلُ بالعَافِيَةِ

وللعَافِيَةِ أَسْبابٌ مِن المَطْعَمِ والمَشْرَبِ والمَسْكَنِ، فَيَنْبَغِي أنْ يَنْظُرَ فِي تَحْصِيلِ الصَّالِحِ مِن ذَلكَ، ولَا بُدَّ لِمَن يُمْكِنُهُ ذَلكَ؛ مِن طَبَّاخٍ حَاذِقٍ يَصْنَعُ مَا يَشْتَهِيهِ، وشَرابِيٍّ لَطِيفٍ يُرَوِّقُ المَاءَ والشَّرَابَ، ودَارٍ فِيهَا سَعَةٌ يَنْفَرِدُ فِيهَا الرَّجُلُ عَن أَهْلِهِ، ولَا يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ إلَّا وَقْتَ إِرَادَتِهِ وحَاجَتِهِ؛ فإنَّ كَثْرَةَ المُخَالَطَةِ تُوجِبُ مَلَلًا.

---

(١) كلمة لم أستطع قراءتها.

ولَا بُدَّ مِن زَوْجَةٍ إِذَا كَثُرَ هَمُّهُ وَتَزَايَدَ فَرَآهَا ذَهَبَ غَمُّهُ، وحُسْنُ تَدْبيرِ المَالِ فِي إِنْفَاقِهِ؛ لِئَلَّا يَقَعَ التَّبْذِيرُ وَالتَّقْتِيرُ، وكِتْمَانُ ذَلِكَ عَنِ الأَهْلِ فَفِيهِ [كَثِيرُ][1] المَصَالِحِ؛ لأَنَّهُمْ يَزْدَرُونَ القَلِيلَ، وَيَشْتَهُونَ الاِسْتِرَاحَةَ مِن الكَبِيرِ، وَيَطْمَعُونَ فِي إِنْفَاقِ الكَثِيرِ.

ويَنْبَغِي اتِّخَاذُ عُدَّةٍ مِن المَالِ تَفِي بإِخْرَاجِ كُلِّ مَا يُفْقَدُ مِن مَتَاعِ دَارٍ وزَوْجَةٍ وجَارِيَةٍ وفَرْشٍ وغَيْرِ ذَلكَ.

فإذَا تَمَّتْ أَسْبَابُ الدُّنْيَا فَوَاجِبٌ عَلىٰ العَاقِلِ أنْ يَسْتَعِدَّ لِرِحْلَتِهِ إِلَىٰ دَارِ الإِقَامَةِ، ولَا يَغْفَلَ عَنِ الِاسْتِعْدَادِ، ولَا يُقَصِّرَ فِي التَّزَوُّدِ، ولَا يُهْمِلَ جَمِيعَ مَا يَصْلُحُ لَهُ فِي سَفَرِهِ، ولْيَسْتَظْهِرْ فِي الزَّادِ كَما أَمَرْناهُ بالِاسْتِظْهارِ فِي أُمُورِ الدُّنْيا، لَا! بَلْ أَضْعَافَ ذَلكَ؛ كَما قَالَ بَعْضُ العُلَمَاءِ: «اعْمَلْ لِدُنْيَاكَ بِقَدْرِ مُقامِكَ فِيهَا، واعْمَلْ لِلآخِرَةِ بِقَدْرِ بَقَائِكَ فِيهَا»، والدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ.

۞ فَصْلٌ ۞

رَأَيْتُ كَثِيرًا مِن المُتَعَبِّدِينَ - لِبُعْدِهِمْ عَن العِلْمِ - قَدْ بَنَوْا عَلَى غَيْرِ أَسَاسٍ

فَتَرَىٰ الإِنْسَانَ مِنْهُم يَمْنَعُ نَفْسَهُ عَن مَصَالِحِها مِن الإدامِ واللَّحْمِ والفَوَاكِهِ، ويَعْتَقِدُ التَّقَرُّبَ بِذَلكَ إِلَىٰ اللهِ تَعَالىٰ! وإِنَّما التَّقَرُّبُ بِتَركِ فُضُولِ الدُّنْيا لَا بِتَركِ الحَاجَاتِ المُباحَةِ المُهِمَّةِ، ولَقَدْ كَانَ سَيِّدُ الخَلْقِ ﷺ يَأْكُلُ اللَّحْمَ والحَلْوَىٰ[2]، وغَيْرَ ذَلكَ.

---

(١) ألحقت بالحاشية ولم يظهر إلا آخرها فاجتهدت في تقديرها.

(٢) صحيح: أخرج البخاري (٥٤٣١)، ومسلم (١٤٧٤) من حديث عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل.

وتَرَاهُمْ يَعْتَزِلُونَ النَّاسَ حتَّىٰ العُلَمَاءَ، فَتفُوتُهُم الفَوائدُ الكَثِيرَةُ، وتَرَاهُمْ يَتَرَقَّبُونَ بِحَادِثَةِ الأسرار، فَأَيُّ هَاجِسٍ وَقَعَ لَهُمْ قَالُوا: خَاطَبَنَا رَبُّنَا! وقَدْ سَمِعُوا فِي أَحَادِيثَ لَا تَثْبُتُ أَنَّ الأَوْلِياءَ عَدَدُهُمْ كَذا، والقُطْبُ وَاحِدٌ، والخَضِرُ حَيٌّ، ومِن هَٰذِه الأَشْيَاءِ الفَارِغَةِ؛ وكُلُّ ذَلكَ لِبُعْدِهِمْ عَن العِلْمِ.

وظَنُّوا أَنَّ المُرادَ العَمَلُ الَّذِي هُو صَوْمٌ وصَلَاةٌ دُونَ العِلْمِ، وقَالُوا: ذَلكَ آلَةٌ! ومَا عَلِمُوا أَنَّ العِبادَةَ بِغَيْرِ عِلْمٍ جَهْلٌ، وأَنَّ العِلْمَ كُلَّمَا كَثُرَ وزَادَ بَيَّنَ عَورَاتِ الأَعْمَالِ بالجَهْلِ وفَسَادَها، فَزِيادَةُ العِلْمِ يَجْعَلُ يَسِيرَ العَمَلِ مَوْصُولًا ونَافِعًا.

* * *

۞ فَصْلٌ ۞

سَأَلَ سَائِلٌ: هَلْ يَعْلَمُ المَوْتَى بِطُولِ مُكْثِهِمْ فِي القُبُورِ؟

فَأَجَبْتُ: اللهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ ذَلكَ، غَيرَ أَنَّ الَّذِي يَظْهَرُ لَنا بِمِقْدارِ عُلُومِنَا أَنَّ الأَبْدَانَ قَد بَلِيَتْ، فالحَوَاسُّ المُدْرِكَةُ مَعْدُومَةٌ، وآلَاتُ العِلْمِ مَفْقُودَةٌ، ولَيْسَ ثَمَّ إِلَّا الأَرْوَاحُ، وقَدْ جَاءَ فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**أَنَّهَا فِي حَواصِلِ طُيورٍ خُضْرٍ تَأْكُلُ مِن شَجَرِ الجَنَّةِ**»[1]، وهَذَا يَقْتَضِي أَنَّها مُودَعَةٌ فِي مَحِلٍّ يَتَصَرَّفُ بِها ولَا تَتَصَرَّفُ فِيهِ، فَكَأَنَّها فِي جِنْسِ مَا يَجْرِي فِي المَنَامِ لهَا، فَإِنَّها مُودَعَةٌ فِي البَدَنِ، وَآلَاتُ تَصَرُّفِهَا مُعَطَّلَةٌ، فَهِيَ تَرَىٰ فِي مَنَامِهَا مَا تَلْتَذُّ بِه ومَا يُؤْذِيهَا، ولَا تَدْرِي قَدْرَ مُدَّةِ النَّوْمِ، فَإِدْرَاكُهَا قَاصِرٌ بَعْدَ المَوْتِ؛ فَعَلَىٰ هَذَا لَيْسَ لهَا عِلْمٌ بِمِقْدَارِ مُدَّةِ اللُّبْثِ مِن حِينِ المَوْتِ إِلَىٰ البَعْثِ.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٨٨٧) من حديث عبد الله بن مسعود بنحوه. وأخرجه أحمد (٢٣٨٨) من حديث ابن عباس.

ومِن هَذا الجِنْسِ: قَوْلُ أَهْلِ الكَهْفِ: ﴿ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ [الكهف: ١٩]، وذَلكَ أَنَّهُم نامُوا أَوَّلَ النَّهارِ وانْتَبَهُوا فِي آخِرِه، ولَمْ يَعْلَمُوا قَدْرَ مُكْثِهِمْ فِي النَّوْمِ.

ومِن هَذا النَّوعِ: البَعْثُ، ويَدُلُّ علىٰ هَذا قَوْلُهُ تَعالىٰ: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس: ٤٥]، ولِهَذا يُقالُ: ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾ [المؤمنون: ١١٢]، ﴿ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴾ [المؤمنون: ١١٣].

فَإِنْ قِيلَ: فَأَيْنَ تَأْثِيرُ العَذابِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ [غافر: ٤٦]؟ وأَيْنَ تَأْثِيرُ النَّعِيمِ فِي قَوْلِهِ ﷺ: **«مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا وَيُعْرَضُ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ مِن الجَنَّةِ أَوِ النَّارِ غُدْوَةً وَعَشِيَّةً، فَيُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّىٰ يَبْعَثَكَ اللهُ إِلَيْهِ»**(١)؟

فَالجَوابُ: أَنَّ النَّعِيمَ وَالعَذَابَ فِي الحَدِيثِ مَعَ الأَرْواحِ، فَهِيَ الَّتِي تُنَعَّمُ وَتُعَذَّبُ، إِلَّا أَنَّها قَدْ عُدِمَتْ آلَاتِها الَّتِي تُدْرِكُ بِها عِلْمَ مَقادِيرِ الزَّمانِ، فَإِذا عَادَتْ إِلَىٰ الأَبْدانِ وتَصَرَّفَتْ فِي آلَاتِ الإِدْراكِ نَسِيَتْ مَا كَانَتْ فِيهِ.

وَيُمْكِنُ أَنْ يُقالَ: إِنَّ النَّاسَ إِذا بُعِثُوا هالَهُمْ ما يَرَوْنَ مِن أَهْوالِ القِيامَةِ، فَيَنْسَوْنَ طُولَ مَا قَدِمُوا عَلَيهِ. واللهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ ذَلِكَ.

۞ فصل ۞

إِيَّاكَ أَنْ تَتَحَدَّثَ بِشَيْءٍ لَا تَقْدِرُ عَلى إِقامَةِ البُرْهَانِ عَلَيْهِ فِي الحَالِ

فَإِنَّكَ تتعَجَّلُ التَّكْذِيبَ، وَكَذَلِكَ تَحْدِيثُ العَوامِّ بِمَا لَا يَبْلُغُ أَفْهامَهُمْ، وَبِمَا لَا تَنْتَهِضُ مَعرِفَتُهُمْ إِلَىٰ مِثْلِهِ؛ فَإِنَّكَ لَا تَحْظَىٰ إِلَّا بِالرَّدِّ عَلَيْكَ.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٣٧٩، ٦٥١٥)، ومسلم (٢٨٦٦) من حديث عبد الله بن عمر.

وقَدْ بَلَغَنَا أَنَّ رَجُلًا مِن أَهْلِ العِراقِ حَكَىٰ بِالهِنْدِ أَنَّ بِالعِراقِ طَائرًا يُقَالُ لَهُ: النَّعَامُ، يَأْكُلُ النَّارَ. فَرَدُّوا عَلَيْهِ هَذَا القَوْلَ وكَذَّبُوهُ، فَخَجِلَ، ورَحَلَ عَن الهِنْدِ إِلَىٰ العِراقِ، فَقَالُوا: بِمَاذَا رَحَلَ، إِنَّمَا هُو لِتَخْجِيلِنَا إِيَّاهُ.

فَغَابَ مُدَّةً ثُمَّ جاءَ بِالنَّعامِ، فَطَرَحَهُ بَينَ يَدَيِ المَلِكِ، فَأَكَلَ الجَمْرَ، فَقَالَ المَلِكُ: قَدْ عُرِفَ صِدْقُكَ الآنَ، ولَكِنْ مَا الَّذي حَمَلَكَ عَلَىٰ أَنْ تَذْكُرَ شَيئًا تَحْتَاجُ إِلَىٰ أَنْ تَتَغَرَّبَ سَنَةً حَتَّىٰ تُقِيمَ دَلِيلَ صِحَّتِهِ؟! وَلَقَدْ كَانَ السُّكُوتُ عَن ذِكْرِهِ أَهْونَ مِن الَّذي تَحَمَّلْتَ مِن المَشَقَّةِ.

۞ فَصْل ۞

مَن أَرادَ حِفْظَ العِلْمِ وَجَوْدَةَ الفِكْرِ فَلْيَقْطَعْ أَسْبَابَ الهَمِّ وَالغَمِّ؛ فَإِنَّهُ لا فِكْرَ وَلا عَيْشَ مَعَ الهَمِّ

ومَن افْتَقَرَ كَثُرَ هَمُّهُ، ومَن اسْتَغْنَىٰ أَيْضًا كَثُرَ هَمُّهُ، ومَن كَثُرَ نِسَاؤُهُ اهْتَمَّ لَهُنَّ وَبِهِنَّ وبِحِفْظِهِنَّ، وَالأَصْلَحُ للعَاقِلِ حَذْفُ مَا يُمْكِنُ مِن العَلَائِقِ، وتَحْصِيلُ ما يَجْمَعُ الهَمَّ، وأَنْ يُقِلَّ مِن المَالِ والنِّسَاءِ وغَيْرِ ذَلِكَ، ولْيَعْلَمْ أَنَّ الرِّيَّ فِي المَاءِ القَلِيلِ العَذْبِ، لَا فِي مَاءِ البَحْرِ.

وَكُلُّ مَن كَثُرَتْ عَلَائِقُهُ كَثُرَتْ هُمُومُهُ، وكَانَ كَالمَعْدُومِ فِي وُجُودِهِ؛ فَإِنْ كَانَ سُلْطَانًا فَهُوَ بَيْنَ خَوْفٍ مِن عَدُوٍّ أَوْ عَزْلٍ وبَيْنَ تَدْبِيرٍ لِمَمْلَكَتِهِ يَشْغَلُهُ عَن اللَّذَّةِ، وإِنْ كَانَ صَاحِبَ مَالٍ فَهُوَ مَعَ الخَوْفِ عَلَيْهِ وَالتَّرْبِيَةِ لَهُ وَالحَذَرِ مِن مُعَامِلِيهِ وَالحِسَابِ لَهُمْ، وإِنْ كَانَ لَهُ نِسْوَةٌ فَهُوَ بَيْنَ الإِصْلَاحِ بَيْنَهُنَّ وَالحِفْظِ لَهُنَّ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ.

وطِيبُ العَيْشِ معَ فَراغِ القَلْبِ وحَذْفِ الفُضُولِ المُوجِبَةِ لِلهَمِّ، وهَذَا يَتيَسَّرُ لِمَنْ أَخَذَ مِن الدُّنْيا بِقَدْرِ الحَاجَةِ، فإذَا فَعَلَ ذَلكَ أَرَاحَ قَلْبَهُ وبَدَنَهُ، واللهُ المُوَفِّقُ لكُلِّ خَيْرٍ، ولَكِنَّ الحِرْصَ علىٰ الدُّنْيَا الفَانِيَةِ قَبِيحٌ.

❁ فَصْلٌ ❁

إِيَّاكَ أنْ تَصْطَفِي صَدِيقًا أو امْرَأَةً حتَّى تَنْظُرَ فِي أَصْلِهِ؛ فَإنَّ العِرْقَ نَزَّاعٌ

وقَدْ قَالَ بَعْضُ الحُكَماءِ: لَا أَتزَوَّجُ امْرَأَةً حتَّىٰ أَرَىٰ وَلَدِي مِنْها! قِيلَ: وَكَيْفَ؟ قَالَ: أَنْظُرُ أَبِيهَا وَأَخِيهَا، فَإنَّها تَأْتِي بِأَحَدِهِمْ. وَقِيلَ: يَنْبَغِي النَّظَرُ فِي أَصْلِ الإِنْسَانِ، وَإِنِ اخْتَلَفَ فَالعَمَلُ علىٰ [...][1].

ومَتَىٰ كَانَ الإِنْسَانُ مِن أَصْلٍ حَسَنٍ فَتَلَمَّحْ بَعْدَ ذَلكَ أَوْصَافَ خِلْقَتِهِ؛ فَإنَّ الأَزْرَقَ العَيْنِ وَالأَحْوَلَ والأَعْمَىٰ والأَعْوَرَ والأَقْرَعَ والكَوْسَجَ والنَّمِشَ الجِلْدِ؛ لَا يَكَادُ تَرَىٰ فِيهِمْ خَيْرًا، وَكَذَلكَ الطَّوِيلَ جِدًّا وَالقَصِيرَ جِدًّا والعَظِيمَ البَطْنِ والطَّوِيلَ اللِّحْيَةِ؛ وبِالجُمْلَةِ: مَن لَيْسَ بِمُعْتَدِلِ الخِلْقَةِ.

فَإِذَا عَرَفْتَ أَصْلَهُ، ورَأَيْتَ خِلْقَتَهُ مُتَناسِبَةً؛ فَاخْتَبِرْ أَخْلَاقَهُ بِالتَّجَارِبِ، ولَا تُوغِلَنَّ فِي صَدَاقَتِهِ حتَّىٰ تُبَالِغَ فِي التَّجْرِبَةِ، ثُمَّ تَدَرَّجْ فِي القُرْبِ إِلَيْهِ بِمُعَامَلَاتِهِ.

وكَذَلكَ المَرْأَةُ؛ إِذَا عَرَفْتَ أَصْلَهَا، وأَعْجَبَكَ شَخْصُهَا؛ فاستبَرْ أَخْلَاقَها ومخافها قَبلَ أَنْ تَطْلُبَ الوَلَدَ مِنْهَا؛ فَقَدْ قِيلَ: «لَا يَغْتَرَّ إِنْسَانٌ بامْرَأَةٍ عَامَهَا، ولَا بِجَارِيَةٍ عَامَ اشْتِرَائِهَا»؛ وهَذَا لأَنَّ التَّخَلُّقَ يَصْبِرُ الإِنْسَانُ عَلَيْهِ مُدَّةً.

---

(١) مشتبهة، وقد تقرأ: «الأدنىٰ».

وَاعْلَمْ؛ أنَّ [...][(١)] الأَصْلِ لَا يَأْتِي مِنْهُ خَيْرٌ، وإِنْ تَكَلَّفَ ذَلِكَ عَادَتِ العَادَةُ الأَصْلِيَّةُ فَاجْتَذَبَتْهُ إِلَيْهَا، فَقَدْ كَانَ بَعْضُ السَّلَفِ يَبَرُّ إِنْسَانًا وهُو يَزِيدُ فِي شَتْمِ البَارِّ.

فَاحْذَرْ مَن لَا أَصْلَ له ولَا دِينَ؛ فَالإِحْسَانُ عِنْدَهُ ضَائِعٌ، وقَدْ يَدْخُلُ المَاءُ بَينَ الشَّجَرِ، فَيَحْمِلُ قَصَبُ السُّكَّرِ حَلَاوَةً، وَيُنْبِتُ الشَّوْكُ شَوْكًا.

فَصْلٌ

مِن التَّغَفُّلِ البَارِدِ أَنْ تَتْرُكَ الغُلَامَ البَالِغَ يَدْخُلُ عَلى حَرَمِكَ، وَتَنْسَى أَنَّهُ يَمِيلُ هُوَ، أَوْ تَمِيلُ المَرْأَةُ، أَوْ يَمِيلَانِ جَمِيعًا

والهَوَىٰ شَيْءٌ لَمْ يَلْتَفِتْ صَاحِبُهُ إِلَىٰ قَوْلِ شَرْعٍ، ولَا إِلَىٰ رَأْيِ عَقْلٍ؛ فَالحَذَرَ الحَذَرَ مِن عَادَاتِ النَّاسِ الَّتِي تُوجِبُ هَدْمَ الدِّينِ؛ فَإِنَّ المَرْأَةَ تَقُولُ عَن الصَّبِيِّ: هَذَا قَدْ رَأَيْتُهُ فَلَا أَسْتَتِرُ مِنْهُ، وهَذَا الغُلَامُ مُحْتَقَرٌ عِنْدِي. ودَوَامُ الخُلْوَاتِ تُحَرِّكُ الشَّهَوَاتِ.

فَالحَزْمُ الكُلِّيُّ صِيانَةُ الحُرَمِ، وأَنْ لَا يَدْخُلَ عَلَيْهِنَّ بَالِغٌ ولَا مُرَاهِقٌ، وإِنْ كَانَ خَادِمًا أَوْ مَمْلُوكًا، ومَنْعُهُنَّ مِن الخُرُوجِ وَالاِطِّلَاعِ عَلىٰ الرِّجَالِ، ومَنْعُ النِّساءِ الأَجَانِبِ والعَجَائِزِ مِن مُخَالَطَتِهِنَّ؛ فَإِنَّهُنَّ يَحْمِلْنَهُنَّ عَلىٰ الآفَاتِ وَالفَضَائحِ، فَيَتَّفِقُ مِن هَذَا قُوَّةُ الشَّهْوَةِ وَقِلَّةُ الدِّينِ والعَقْلِ، ورُبَّمَا أُضِيفَ إِلَىٰ هَذَا بُغْضُ الزَّوْجِ أَوْ كِبَرُهُ، وحُسْنُ مَن تُشَاهِدُهُ مِن الغِلْمَانِ.

---

(١) مشتبهة وقد تقرأ: «الرديء».

وقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ الأُمَراءِ الأَتْرَاكِ كَانَ إِذَا خَرَجَ مِن دَارِهِ وفِيهَا جَمَاعَةٌ مِن الجَوَارِي يُغْلِقُ عَلَيْهِنَّ البَابَ ويَحْمِلُ مَعَهُ المِفْتَاحَ، ولَا يَتْرُكُ مَمْلُوكًا يَدْخُلُ عَلَيْهِنَّ، وكَذَلكَ كَانَ بَعْضُ أَرْبابِ الدَّوْلَةِ مَتَىٰ رَاهَقَ المَمْلُوكُ أَخْرَجَهُ.

وهَذِهِ الأَشْياءُ تَدُلُّ عَلَىٰ العَقْلِ، فَإِذَا تَهاوَنَ فِيهَا إِنْسَانٌ دَلَّ ذَلكَ عَلَىٰ ضَعْفِ عَقْلِهِ وقِلَّةِ غَيْرَتِهِ ودِينِهِ.

فَصْلٌ

جَازَ بَعْضُ مُنْكِرِي البَعْثِ عَلَى المَقَابِرِ

فَقَالَ: هَذِهِ العِظَامُ الَّتي صَارَتْ تُرَابًا، تَجْتَمِعُ وَتَعُودُ كَمَا كَانَتْ، وَتُعانِقُ الحُورَ العِينَ! تُرَىٰ مَا يَسْتَحِي مَن يَقُولُ هَذَا!

فَقُلْتُ: قُولُوا لِهَذَا الأَحْمَقِ الجَاهِلِ: إِذَا رَمَيْتَ نُطْفَتَكَ فِي مُسْتَقَرِّهَا، فَقَالَ قَائِلٌ: هَذِهِ النُّطْفَةُ الماء تَصِيرُ آدَمِيًّا، عَالِمًا، ظَرِيفًا، حَسَنَ الصُّورَةِ، مُدَبِّرًا، حَكِيمًا، يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ، وَيَحْتَالُ عَلَىٰ طَيْرِ السَّمَاءِ وَحُوتِ المَاءِ؛ أَتُرَاكَ تُصَدِّقُهُ أَوْ تُكَذِّبُهُ؟!

وَاللهِ! مَا يُمْكِنُ تَكْذِيبهُ؛ لأَنَّكَ ....[1].

(١) هذا آخر ما وجدته في النسخة ن.

فَصْل

فِي تَعلِيمِ التَّدبِيرِ

قوَامُ الآدميِّ بشَيئينِ: الحَرارةُ والرُّطُوبةُ، ومِنْ شَأنِ الحَرارَةِ أَنْ تُحلِّل الرُّطُوبةَ وتُفنِيَها، فالآدَمِيُّ مُحْتاجٌ إلىٰ تَحْصِيلِ خَلَفٍ لِلمُتَحَلِّل.

فأبدانُ النَّشءِ تَغْتَذي بأكْثَر مِمَّا يتحلَّل مِنْها. والأبْدَانُ المُتناهيَةُ تَغتَذِي بمِقْدَار مَا يتحلَّلُ مِنهَا. والأبْدَانُ الَّتِي قَدْ أَخذتْ فِي الهِرَم يتحلَّلُ مِنهَا أكْثَر مِمَّا تَغْتَذِي بِهِ، ولا تتشَبَّعُ مِمَّا تَغتَذِي بِهِ.

ويَنْبغِي للنَّاشئِ البَالغِ أَنْ يتحفَّظَ فِي النِّكَاح؛ لأنَّهُ بِعِفَّتِه يُربِّي قَاعِدَةَ قُوَّةٍ، يَجدُ أَثرَها فِي الكِبَر، وأمَّا المُتوسِّطُ والوَاقفُ السِّنِّ؛ فيَنْبغِي أَنْ يحذَرَ فُضولَ الجِماع، فَإنْ حصلَ لَهُ مِثل مَا يَخرُج مِنْهُ فأسرَفَ؛ فاللَّازمُ أُخِذَ مِن الحَاصِل، ويُوشكُ أَنْ يُسرِع النَّفادُ. وأمَّا الشَّيْخُ؛ فترَكُ النِّكَاح كاللَّازِم لَهُ، خُصُوصًا إِذَا زَاد عُلُوُّ السِّنِّ؛ لأَنَّهُ يُنفِقُ مِن الجَوهرِ الَّذِي لا يحصُلُ مثلُهُ أَبَدًا.

ثُمَّ يَنْبغِي أَنْ ينظُرَ العَاقِلُ فِي مَالِه، فيكتَسبَ أكْثَر مِمَّا يُنفِقُ، لِيكُونَ الفَاضِلُ مُدَّخرًا لوَقتِ العَجْز، وليَحذرَ السَّرفُ؛ فَإِنَّ العَدْلَ هُوَ الأَصْلحُ.

ثُمَّ ينظرُ فِي الزَّوجَة، والمَطْلُوبُ مِنهَا شَيئانِ: وُجُودُ الوَلدِ، وتَدبيرُ المَنْزِل، فَإِذَا كَانَتْ مُبَذِّرَةً فعَيبٌ لا يُحتَملُ، فَإِنِ انضَمَّت صِفَةَ العُقرِ فَلا وَجْه للإمسَاكِ، إلَّا أَنْ تَكُون مُستحسَنةَ الصُّورَة، فَإِنْ ضُمَّ إِلَيهَا عَقلٌ وعفَافٌ حَسُنَ الإمْسَاك، وإنْ كَانَتْ مِمَّا يحْتَاج أَنْ تُحفظَ فترَكُها لازِمٌ.

فأَمَّا الخَدمُ؛ فليَجتَهِد فِي تَحصِيل خَادمٍ لا تَستعبِدهُ الشَّهْوةُ؛ فَإِنَّ عَبْدَ الشَّهْوةِ لَهُ مَولًىٰ غَيْر سيِّدِه، ولينظُرِ المَالِك فِي طبع المَملُوك، فمِنْهُم من لا يَأتِي إلَّا عَلَىٰ

الإكرَام؛ فليُكرمَهُ، فإِنَّه يربَحُ محبَّته، ومِنْهُم من لا يَأتِي إلَّا عَلَىٰ الإهَانةِ؛ فليُدارِه وليُعرِض عَنِ الذُّنُوب، فَإِنْ لَمْ يُمكنْ عَاتَب بلطفٍ، وليَحذَرِ العُقُوبَة مَا أمكَنَ، وليجْعَلْ للمَماليكِ زَمَن رَاحةٍ، والعَجبُ مِمَّنْ يُعنَىٰ بدابَّتِهِ ويَنسىٰ مُدارَاةَ جَاريتِه، وأجودُ المَماليكِ الصِّغارُ، وكَذَلكَ الزَّوجاتُ؛ لأنَّهُم مُتعوِّدونَ خُلُقَ المُشْتَرِي.

وليحفَظْ نَفْسَه بالهَيبةِ مِن الانحِرافِ معَ الزَّوجَة، ولا يُطْلِعْها عَلَىٰ مَالِه؛ فإِنَّها سَفيهةٌ تَطلُبُ كَثرَةَ الإنفاقِ.

وأمَّا تَدبيرُ الأَوْلادِ؛ فحِفظُهم مِن مُخَالطَةٍ تُفْسدُ مُسْتَقْبَلَهم، ومَتىٰ كَانَ الصَّبيُّ ذَا أَنَفةٍ، حَيِيًّا؛ رُجِيَ خَيرُه، وليَحمِلْ عَلَىٰ صُحبةِ الأشْرَافِ والعُلَمَاءِ، وليحذَرْ مِن مصَاحِبتهِ للجُهَّال والسُّفهاءِ؛ فَإِنَّ الطَّبْعَ لصٌّ، وليُحذِّرِ الصَّبيَّ مِن الكَذِب غايةَ التَّحذيرِ، ومِن المُخَالطَةِ للصِّبيَان المُعوجِّين، وليوصِهِ بزِيَادَةِ البرِّ للوَالدَين، وليُحفَظ مِن مُخَالطَةِ النِّسَاء، فَإِذَا بلغَ فليُزوِّج بصبيَّةٍ لَمْ تعرِفْ غَيْرَه، فيتفَّقانِ، فيَنتفِعانِ.

هذهِ الإشَارةُ إلىٰ تَدبيرِ أمُورِ الدُّنْيَا، فأَمَّا تَدبيرُ العِلْم؛ فيَنْبغِي أَنْ يُحمَل الصَّبيُّ مِن حِينِ يبلُغُ خَمسَ سِنينَ عَلَىٰ التَّشَاغُلِ بالقُرْآن والفِقهِ وسَماعِ الحَدِيثِ، وليُحصِّل لَهُ المَحفوظَاتِ أكْثَر من المَسمُوعاتِ؛ لأَنَّ زَمَانَ الحِفظِ إلىٰ خَمسَ عَشرةَ سَنَة، فَإِذَا بلغَ تشتَّتَتْ هِمَّتُه، فليُضرَب تارةً، ويُرشَىٰ أُخرَىٰ، ليبلُغَ وقَد حَصَّل مَحفوظَاتٍ سَنيَّةٍ.

وأوَّلُ مَا يَنْبغِي أَنْ يُكلَّفَ: حِفظَ القُرْآن مُتقَنًا؛ فإِنَّه يَثبُتُ ويختَلطُ باللَّحْم والدَّم، ثُمَّ مُقدِّمةٌ من النَّحوِ يعرفُ بِهَا اللَّحنَ، ثُمَّ الفِقهُ مَذْهَبًا وخِلافًا، ومَا أمكنَ بَعدَ هَذَا مِن العُلومِ فحِفظُه حسنٌ.

وليَحذرْ مِن عَاداتِ أَصْحَابِ الحَدِيثِ؛ فَإِنَّهُم يُفنُون الزَّمَانَ فِي سَمَاع الأَجزَاءِ الَّتِي تتكرَّرُ فِيهَا الأحَادِيث، فيذْهَب العُمرُ ومَا حصَّلُوا فهْمَ شَيْءٍ، فَإِذَا بلَغُوا سِنًّا

طَلَبُوا جَوَازَ فَتوَىٰ، أَوْ قرَاءَةَ جُزءٍ مِن القُرْآنِ، فعادُوا القَهقَرىٰ؛ لأَنَّهُم يَحفَظُونَ بَعدَ كِبَر السِّنِّ، فَلا يحصُلُ مَقْصُودُهم، فالحِفظُ فِي الصِّبا للمُهمِّ من العِلْم أَصلٌ عظيمٌ.

وقَدْ رَأينَا كثيرًا مِمَّنْ تَشاغلَ بالمَسموعَاتِ وكتابةِ الأَجزاءِ، ورَأىٰ الحفظَ صَعبًا، فمالَ إلىٰ الأَسْهَل، فمَضَىٰ عُمرُه فِي ذَلِكَ، فَلَمَّا احْتَاجَ إلىٰ نَفْسهِ قعدَ يَحفَظ عَلَىٰ كبَرٍ؛ فَلم يُحصِّل مَقْصُودَه.

فاليَقَظَةَ لفَهمِ مَا ذَكَرت، وانظُر فِي الإِخْلاصِ؛ فَمَا يَنفعُ شَيْءٌ دُونَهُ.

❁ فَصْلٌ ❁

اشتدَّ الغلاءُ ببغدَادَ فِي أوَّلِ سَنَة خَمسٍ وسَبعينَ

وكُلَّمَا جَاءَ الشَّعيرُ زَادَ السِّعرُ، وتدَافَع النَّاسُ عَلَىٰ اشتِراءِ الطَّعَامِ، فَاغْتَبَطَ مَنْ يَستعدُّ كُلَّ سنةٍ بزَرعِ مَا يقُوتُه، وفَرحَ مَن بَادرَ فِي أوَّل نِيسَانَ إلىٰ اشتِراءِ الطَّعَام قبلَ أَنْ يُضاعَفَ ثَمنُه، وأَخرَجَ الفُقراءُ مَا فِي بُيوتِهم، فرَمَوهُ فِي سُوق الهَوانِ، وبانَ ذلُّ نفوسٍ كَانَتْ عَزِيزةً.

فقُلْتُ: يَا نفسُ؛ خُذِي مِن هَذِهِ الحَال إشَارةً، لَيُغْبَطَنَّ مَن لَهُ عملٌ صالحٌ وقتَ الحَاجَة إلَيْهِ، ولَيَفرَحنَّ مْن لَهُ جوابٌ عِنْدَ إقبال المَسألَة، وكلُّ الوَيل عَلَىٰ المُفرِّط الَّذِي لا ينظُرُ فِي عَاقبتِه، فتنبَّهي، فَقدُ نبَّهتْ نَاسًا الدُّنْيَا عَلَىٰ أَمرِ الآخِرَة، وبادِرِي مَوْسِم الزَّرعِ مَا دَامتِ الرُّوحُ فِي البَدَن.

فالزَّمَانُ كُلُّه تِشْرِينُ قبلَ أَنْ يدْخُل نِيسانُ الحَصَاد، ومَا لَكِ زَرعٌ، وحاجَةُ المُفتقِرينَ إلىٰ أَمْوَالِهِمْ تَمْنَعُهم مِن الإيثَارِ.

فَصْل

تأمَّلتُ حَالَةً أزعَجتْنِي

وهُوَ أَنَّ الرَّجلَ قَدْ يفعلُ معَ امرَأتِه كُلَّ جَميلٍ وهِي لا تُحبُّه، وكذا يفعَلُ معَ صَديقِه والصَّديقُ يُبغِضُه، وقَد يتقرَّب إلىٰ السُّلطانِ بكلِّ مَا يقدرُ عَلَيهِ والسُّلطانُ لا يؤْثِرُه؛ فيبقَىٰ مُتحيِّرًا، يَقُولُ: مَا حِيلَتي؟

فخِفتُ أَنْ تكُون هَذِهِ حالتي معَ الخَالِق سُبْحَانَه؛ أتقرَّبُ إلَيْهِ وهُوَ لا يُريدُنِي، ورُبَّما يَكُونُ قَدْ كتَبنِي شَقيًّا فِي الأزَلِ.

ومِن هَذَا خَافَ الحسنُ، فَقَالَ: «أَخَافُ أَنْ يَكُون اطَّلع عَلَىٰ بَعْض ذُنُوبي، فَقَالَ: لا غَفرتُ لكَ».

فلَيْس إلَّا القَلَق والخَوْف، لعلَّ سفينةَ الرَّجا تَسلمُ يَوْمَ دُخُولهَا الشَّاطِئ من جَرفٍ.

فَصْل

جَرَى بيني وبينَ أحَد أصْحَابِ الحَدِيثِ كلامٌ فِي قَوْلِ الإمَام أحْمَدَ: «صَحَّ مِن الحَدِيثِ عَنْ رَسُول اللهِ ﷺ سَبعمائةِ ألفِ حَدِيثٍ»

فقُلتُ لَهُ: إنَّمَا يَعني بِهِ الطُّرُق.

فَقَالَ: لا، بَلِ المُتُونُ.

فقُلْتُ: هَذَا بعيدُ التَّصوُّرُ.

ثُمَّ رَأيْتُ لأبي عَبْد الله الحَاكِم كلامًا ينصُر مَا قَالَ ذَلِكَ الشَّخْصُ، وهُوَ أَنَّهُ قَالَ فِي كتاب «المَدخَل إلىٰ كِتابِ الإكْلِيل»: «كَيْفَ يَجُوز أَنْ يُقالَ: إنَّ حَدِيثَ رَسُول اللهِ ﷺ لا يبلُغُ عَشرةَ آلاف حَدِيث، وقَد رَوَىٰ عَنْهُ مِن أصْحَابِهِ أربَعَة آلافِ رَجُل وامرَأةٍ، صَحِبُوه نيِّفًا وعِشرينَ سنةً بمَكَّة، ثُمَّ بالمدِينَةِ حَفظُوا أَقوالَه وأفعَالَه، ونَوْمَهُ ويقَظتَه وحرَكاتِه، وغيرَ ذَلِكَ، سِوَىٰ مَا حَفِظُوا مِن أحكامِ الشَّرِيعَة».

واحتَجَّ بقولِ أحمَدَ: «صحَّ من الحَدِيث عَنْ رَسُول اللهِ ﷺ سَبعمَائةِ ألفِ حَدِيثٍ وكَسرٍ»، وأنَّ إسحَاقَ بْن راهَويْهِ كَانَ يُملِي سَبعينَ ألفَ حَدِيثٍ حِفْظًا، وأنَّ أبا العَبَّاسِ ابْن عُقدَةَ قَالَ: «أحفظُ لأهلِ البَيتِ ثَلاثمائةِ أَلفِ حَدِيثٍ»، قَالَ ابنُ عُقدَةَ: «وظهرَ لأَبِي كُرَيبٍ بالكوفَةِ ثَلاثمَائةِ ألفِ حَدِيثٍ».

قُلْتُ: ولا يحسُنُ أَنْ يُشارَ بِهَذَا إلىٰ المُتونِ، وقَد عجِبتُ كَيْفَ خَفِي هَذَا عَلَىٰ الحَاكِمِ وهُوَ يعلَمُ أَنَّ أجمعَ المَسانيدِ الظَّاهِرةِ مُسنَد أحْمَد بْن حَنْبَل، وقَدْ طافَ الدُّنْيا مرَّتينِ حَتَّىٰ حصَّلهُ، وهُوَ أربعونَ ألفَ حَدِيثٍ، مِنهَا عَشرةُ آلافٍ مُكرَّرة.

قَالَ حَنْبَلُ بْنُ إسحَاقَ: جمَعَنا أَحْمَدُ بْن حَنْبَل؛ أَنَا وصَالحٌ وعَبْدُ الله، وقرَأَ عَلَينَا «المُسنَد»، وقَالَ لنَا: «هذا كِتابٌ جَمَعتُه مِن أكْثَرَ مِن سَبعِمائةِ ألفٍ وخمسينَ ألفًا، فَمَا اختلفَ المُسْلِمُون فِيهِ مِن حَدِيث رَسُول اللهِ ﷺ فارجِعوا إلَيْهِ، فَإِنْ وجدْتُموه وإِلَّا فلَيْس بحُجَّة».

أَفترَىٰ يَخفىٰ عَلَىٰ مُتيقِّظٍ أَنَّهُ أَرادَ بكَونِه جمَعهُ مِن سَبعِمائةِ ألفٍ، أَنَّهُ أرادَ الطُّرُق؛ لأَنَّ السَّبعَمائةِ الأَلفِ إنَّ كَانَتْ مِن كلامِ رَسُول اللهِ ﷺ؛ فكَيفَ أهمَلَها؟

فإنْ قِيلَ: فَقَد أخرَج فِي «مسنَدِه» أَشْيَاءَ ضَعيفَة، ثُمَّ أعوذ باللهِ أَنْ يَكُون سَبعُمائةِ ألفٍ مَا تحقَّق مِنهَا سوَىٰ ثَلاثِين ألفًا، وكَيفَ ضاعتْ هَذِهِ الجُمْلَة؟ ولِمَ أهمِلَتْ وقَد وصَلَت كُلُّها إلىٰ زَمَن أَحْمَد، فانتَقَىٰ مِنهَا ورَمَىٰ البَاقِي، وأصْحَابُ الحَدِيث قَدْ كتبُوا كُلَّ شَيْء مِن المَوضُوع والكَذِب؟

وكَذَلكَ قَالَ أَبُو دَاود: «جَمعتُ كِتابَ السُّنَن مِن ستِّمائةِ ألفِ حَدِيثٍ».

ولا يحسُنُ أَنْ يُقالَ: إنَّ الصَّحَابَة الَّذِينَ رووْها مَاتُوا ولَمْ يحدِّثُوا بِهَا التَّابِعينَ؛ فَإِنَّ الأَمْر قَدْ وصلَ إلىٰ أَحْمَدَ، فَأَحصَىٰ سَبعمَائة ألفِ حَدِيثٍ، ومَا كَانَ الأَمْرُ ليذهَبَ هَكذَا عَاجِلًا.

ومَعلومٌ؛ أَنَّهُ لَوْ جَمعَ الصَّحِيحَ والمُحالَ والمَوضوعَ وكلَّ منقُولٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا بلغَ خَمسِينَ ألفًا، فأيْنَ البَاقِي؟!

ولا يَجُوزُ أَنْ يُقالَ: تِلْكَ الأحَادِيثُ كلامُ التَّابِعينَ؛ فَإِنَّ الفُقهَاء نقلُوا مذَاهبَ القَوْم، ودوَّنُوها، وأخذُوا بِها، ولا وَجْهَ لتَركِها، ففَهِم كُلُّ ذِي لُبٍّ أَنَّ الإشارَةَ إلىٰ الطُّرُق، وأنَّ مَا توهَّمهُ الحَاكمُ فاسِدٌ، ولَوْ عُرِضَ هَذَا الاعتراضُ عَليهِ وقِيلَ لَهُ: فأيْنَ البَاقِي؟ لَمْ يَكُنْ لَهُ جَوابٌ؛ لكنَّ الفَهمَ عَزيزٌ، واللهُ المُنعِمُ بالتَّوفيقِ.

ومِثل هَذَا: تغفيلُ قَوْمٍ، قَالُوا: إنَّ البُخَاريَّ لَمْ يُخرِّج كُلَّ مَا صَحَّ عِندَه، وإنَّ مَا أخرَجَ كالأنمُوذَج، وإلَّا؛ فكَانَ يُطوِّل، وقَد ذَهَبَ إلىٰ نَحوِ هَذَا أَبُو بكرٍ الإسمَاعيليُّ، وحَكَىٰ عَنِ البُخَاريِّ أَنَّهُ قَالَ: «ما ترَكتُ مِنَ الصَّحِيحِ أكْثَر».

وإنَّمَا يعنِي الطُّرقَ، يَدُلُّ عَلَىٰ مَا قُلتُه: أَنَّ الدَّارقُطنيِّ -وهُوَ سيِّد الحُفَّاظ- جمعَ مَا يَلزمُ البُخَاريَّ ومُسلِمًا إخرَاجُه، فبَلغَ مَا لَمْ يذْكُراهُ أَحَادِيثَ يسيرَةً، ولَوْ كَانَ كَمَا قَالُوا لأخرَجَ مُجلَّداتٍ[1].

---

(١) لكن الإسماعيلي لم يذهب إلىٰ ما أنكره ابن الجوزي؛ فإنه بعد أن حكىٰ عن البخاري ما حكاه فسره بحمله علىٰ الطرق، وبهذا يستقيم مع تفسير ابن الجوزي. قَل الإسماعيلي معلقًا علىٰ مقولة البخاري - كما في «فتح الباري» (١/ ٧) -: «لِأَنَّهُ لَو أخرج كل صَحِيح عِنْده لجمع فِي البَاب الوَاحِد حَدِيث جمَاعَة من الصَّحَابَة، وَلذكر طَرِيق كل وَاحِد مِنْهُم إِذا صحت؛ فَيصير كتابًا كَبِيرًا جدًّا».

ثُمَّ قولُه: «ما يلزمُ البُخَاريَّ»؛ دَلِيلٌ صَرِيح عَلَىٰ مَا قلتُه؛ لأَنَّهُ مَن أخرَجَ الأنمُوذَجَ لا يلزَمُه شَيْءٌ.

وكَذَلكَ أخرجَ أَبُو عَبْد الله الحَاكِم كِتابًا، جمعَ فِيهِ مَا يلزمُ البُخَاريَّ إخرَاجُه، فذكَر حَدِيثَ الطَّائر؛ فَلَم يلتَفتِ الحفَّاظُ إلىٰ مَا قَالَ.

فَمَا أقلَّ فهمَ هَؤُلاءِ الَّذِينَ شغلَهُم نقلُ الحَدِيث عَن التَّدقيق الَّذِي لا يَلْزَمُ فِي صِحَّة الحَدِيث، وإنَّمَا وقع لقلَّة الفقهِ والفهمِ.

إنَّ البُخَاريَّ ومُسلِم تركَا أحَادِيث أَقْوَام ثِقاتٍ؛ لأَنَّهُم خُولِفوا فِي الحَدِيث، فنقَص الأكْثَرون مِن الحَدِيث وزَادُوا هُم، ولَوْ كَانَ ثَمَّ فِقْهٌ لعلِمُوا أَنَّ الزيَادَة مِن الثِّقة مَقبولةٌ، وتركوا أحَادِيثَ أَقْوامٍ؛ لأَنَّهُم انفردُوا بالرِّوايةِ عَنْ شخصٍ، ومعلومٌ أَنَّ انفرادَ الثِّقةِ لا عَيبَ فِيهِ، وتركُوا مِن ذَلِكَ الغَرائِبَ، وكلُّ ذَلِكَ سوءُ فهمٍ، ولِهذَا لَمْ يَلتزمِ الفُقَهاءُ هذا، فَقَالُوا: الزِيَادَةُ مِن الثِّقة مَقبولةٌ، ولا يُقبلُ القَدح حَتَّىٰ يُبَيَّنَ سَببُهُ.

وكلُّ مَنْ لَمْ يُخالطِ الفُقَهاءَ، وجَهَدَ معَ المُحدِّثين تأذَّىٰ وساءَ فهمُه، فالحَمْدُ لله الَّذِي أنعم عَلَينَا بالحَالَتين.

فَصْل

اعلَمْ؛ أَنَّ اللهَ ﷻ وَضعَ فِي النُّفُوس أَشْيَاءَ لا تحتاجُ إلى دَلِيلٍ فالنُّفُوس تعلَمُها ضَرُورةً، وأكْثَرُ الخَلْق لا يُحسِنون التَّعبيرَ عَنهَا

فإنَّه وضَعَ فِي النَّفْسِ أَنَّ المصنُوعَ لا بُدَّ لَهُ مِن صَانعٍ، وأن المَبنيَّ لا بُدَّ لَهُ مِن بانٍ، وأنَّ الاثنينِ أكْثَرُ مِن الوَاحِد، وأنَّ الجِسمَ الوَاحِد لا يَكُون فِي مَكانَين فِي حَالَةٍ وَاحدَةٍ؛ ومِثْلُ هَذِهِ الأَشْيَاءِ لا تحتاجُ إلىٰ دَلِيلٍ.

وأَلْهَمَ العرَبَ النُّطقَ بالصَّوَاب مِن غَيْر لحنٍ، فَهُمْ يفرِّقُون بينَ المَرفُوع والمنصُوبِ بأماراتٍ فِي جبلَّتِهم، وإنْ عجزُوا عَنِ النُّطق بالعِلَّة.

قَالَ عُثمانُ بْن جِنِّي: سَأَلْتُ يومًا أبا عَبْد الله مُحَمَّد بْنَ العسَّاف العُقَيليَّ، فَقُلتُ لَهُ: كَيْفَ تَقُولُ: (ضَربتُ أخُوكَ)؟ فَقَالَ: أقُولُ: (ضَربْتُ أخَاكَ)، فأدَرتُه عَلَىٰ الرَّفعِ، فأبىٰ، وقَالَ: لا أَقُولُ (أخُوك) أبدًا، قُلْت: فكَيفَ تقُولُ: (ضَربَني أخُوكَ)؟ فرَفعَ، فقُلْت: أليسَ زعمتَ أنَّكَ لا تَقُولُ: (أخُوك) أبدًا، فَقَالَ: إيش هذا؟ اختلفَت جهَتُها فِي الكَلامِ!

وهَذَا أدلُّ شَيْءٍ عَلَىٰ تأمُّلِهم مَواقعَ الكَلام، وإعطائِهم إيَّاه فِي كُلِّ موضعٍ حقَّهُ، وأَنَّه لَيسَ استِرسَالًا ولا ترْخيمًا.

قَالَ عثمانُ: واللُّغةُ هي أَصواتٌ يعبِّرُ بِهَا كُلُّ قَوْم عَنْ أغراضِهم، والنَّحوُ انتِحاءُ سَمْتِ كَلام العَربِ فِي تصرُّفه مِن إعرَابٍ وغيرِه؛ كالتَّثنيةِ والجَمعِ والتَّكسيرِ وغيرِ ذَلِكَ؛ لِيَلْحَقَ مَن لَيسَ مَن أَهْل اللُّغةِ أهلَها.

۞ فَصْل ۞

تدبَّرتُ أحْوَالَ الأَخْيَارِ والأشرارِ

فرَأيْتُ سَبَبَ صَلاحِ الأَخْيَار النَّظَرَ، وسَبَبَ فسادِ الأشرَار إهْمَالَ النَّظَرِ

وذاك أَنَّ العَاقِل ينظرُ فيعلمُ أَنَّهُ لا بُدَّ مِن صانِع، وأنَّ طاعتَهُ لازِمةٌ، ويتأمَّل مُعجزاتِ رَسُول اللهِ ﷺ؛ فيُسلِمُ قِيادَه إلىٰ الشَّرْع، ثُمَّ ينظرُ فِيمَا يُقرِّبه إلَيْهِ، ويُزْلِفه لديهِ، فَإذَا شقَّ عَلَيهِ إعادةُ العِلْم تأمَّل ثمَرتَه، فسهُل ذَلِكَ؛ وإذَا صعبَ عَلَيهِ قيامُ اللَّيْل؛ فكَذَلكَ.

وإذا رَأَىٰ مُشتَهىٰ تَأمَّل عَاقِبتَه؛ فعلِمَ أَنَّ اللَّذَّة تفنَىٰ، والعَارَ والإِثْم يَبقيانِ؛ فيَسهُلُ عَلَيهِ التَّركُ، وإذَا اشتَهىٰ الانتقامَ مِمَّنْ يُؤذِيه، ذَكَرَ ثوابَ الصَّبْر وندَم الغَضبانِ عَلَىٰ أفعالهِ فِي حَالِ الغَضبِ، ثُمَّ لا يَزَالُ يتأمَّل سُرعةَ مَمرِّ العُمرِ، فيغتَنِمه بِتَحْصِيلِ أَفْضَل الفَضائِلِ؛ فينَالُ مُناهُ.

وأمَّا الغافلُ؛ فإنَّه لا يَرَىٰ إلَّا الشَّيءَ الحَاضِر؛ فمِنْهُم: من لَمْ يتأمَّل فِي مَعْنَىٰ المصنُوع وإثْبَاتِ الصَّانِع، فجحدُوا وتركُوا النَّظَر، وجَحدُوا الرُّسُل ومَا جاءوا بِهِ، ونظَرُوا إلىٰ العَاجِل ولَمْ يتفكَّروا فِي مُبتدَاه ومُنتهاهُ؛ فلَيْس عِنْدهمْ من عِرفانِ المَطْعم إلَّا الأَكْل. ولوْ تأمَّلُوا كَيفَ أُنشِئ؟ ولمَاذَا جُعلَ حَافظًا للأبدانِ؛ لعرفُوا حقَائِق الأمورِ. وكَذَلكَ كُلُّ شَهْوَةٍ تعرِضُ لَهُم لا ينظرُونَ فِي عاقِبتها، بَلْ فِي عاجلِ لذَّتِها.

وكَمْ قَدْ جنَتْ عَلَيهِم مِن وقُوع حَدٍّ وقطعِ يَدٍ وفضيحةٍ، فتعجيلُ اللَّذَّة يُفَوِّتُ الفَضائلَ، ويُحصِّل الرَّذائلَ، وسببُه عَدَم النَّظَرِ فِي العَوَاقِب، وهَذَا شُغْلُ العَقْل، وذاكَ المَذمُوم شُغْلُ الهوَىٰ، نَسْأَلُ اللهَ ﷻ يقظةً تُرِينا العَوَاقِب، وتكشفُ لَنَا الفضائلَ والمَعايِبَ، إِنَّهُ قادرٌ عَلَىٰ ذَلِكَ.

۞ فَصْل ۞

خُلِقَتْ لِي هِمَّةٌ عَالِيةٌ تَطلُب الغاياتِ، بَلَغْتُ السِّنَّ ومَا بَلَغتُ مَا أَمَّلْتُ

فأخذتُ أسألَ تَطويلَ العُمر، وتقَويَة البَدَنِ، وبُلوغَ الآمَالِ، فأنكَرَت عَليَّ العاداتُ وقَالَتْ: مَا جرَت عادةٌ بِمَا تطلبُ، فقُلْتُ: إنَّمَا أطلبُ من قادرٍ عَلَىٰ تَجاوُزِ العَاداتِ.

وقَدْ قِيلَ لرَجل: لَنَا حُويجةٌ. فَقَالَ: اطلُبوا لَهَا رُجَيلًا! وقِيلَ لآخرَ: جِئناكَ فِي حَاجَةٍ لا ترزَؤُك. فقَالَ: هلَّا طلبتُم لَهَا سَفاسِفَ النَّاس؟!

فَإذَا كَانَ أَهْلُ الأَنَفَة مِن أرْبَابِ الدُّنْيَا يَقُولُونَ هَذَا، فَلِمَ لا نطمعُ فِي فضلِ كَريمٍ قَادرٍ؟ وقَد سألتُه هَذَا السُّؤالِ فِي ربيعِ الآخَر من سنَةِ خمسٍ وسَبعينَ، فَإِنْ مُدَّ لي أجَلِي وبلغتُ مَا أَمَّلتُه نقلتُ هَذَا الفَصْل إلىٰ مَا بَعدُ وبيَّضتُه، وأخبرتُ ببلُوغ آمَالِي، وإنْ لَمْ يتَّفق ذَلِكَ، فسيِّدي أَعْلَمُ بالمَصَالِح؛ فإنَّه لا يَمنعُ بُخلًا، ولا حولَ إلَّا بِهِ.

۞ فَصْل ۞

ما أقلَّ مِن يعْمَلُ لله تَعَالَى خالصًا!

لأَنَّ أَكْثَر النَّاس يُحبُّون ظهورَ عبادَاتهم، وسُفيَانُ الثَّورِيُّ كَانَ يَقُول: «لا أَعتدُّ بِمَا ظهرَ من عَملِي»، وكَانُوا يستُرُون أنْفُسَهم. واليَوْمَ ثيابُ القومِ تُشْهِرُهُم، وقَد كَانَ أَيُّوبُ السَّختيانيُّ يطَوِّلُ قَميصَه حَتَّىٰ يَقَع عَلَىٰ قدَميهِ، ويَقُول: «كانَتِ الشُّهرَة فِي التَّطويلِ، واليَوْمَ الشُّهرةُ فِي التَّقصِيرِ».

فاعلَمْ؛ أَنَّ تركَ النَّظَر إلىٰ الخَلْق، ومحوَ الجَاهِ مِن قُلوبِهم بالتَّعمُّل وإخلاصِ القَصدِ وسَتْرِ الحَالِ؛ هُوَ الَّذِي رَفعَ من رَفعَ، فَقدْ كَانَ أَحْمَدُ بْن حَنْبَل يَمشِي حَافيًا فِي وقتٍ، ويحمِلُ نعلَيهِ، ويخرُج للَّقاطِ، وبِشرٌ يَمشِي حَافيًا عَلَىٰ الدَّوَام وَحْدَه، ومَعرُوف يلتَقطُ النَّوىٰ.

واليَوْمَ صَارَت الرِّياساتُ أَكْثَرَ مِن كُلِّ حَاجَة، ومَا تتمكَّنُ الرِّيَاسَاتُ حَتَّىٰ تتمكَّن مِن القَلْب الغَفْلَةُ، ورُؤيَةُ الخَلْق، ونِسْيانُ الخَالِق؛ فحِينئِذٍ تَطلُب الرِّياسةُ عَلَىٰ أَهْل الدُّنْيَا.

ولَقَدْ رَأيْتُ مِن النَّاس عَجَبًا، حَتَّىٰ من يتزيَّا بالعِلْم، إنْ رَآنِي أَمشي وحْدِي أنكرَ عليَّ، وإنْ رَآنِي أزورُ فقيرًا عظَّم ذَلِكَ، وإنْ رَآنِي أنبسطُ بتبسُّمٍ نقُصْتُ مِن عَينِه! فقُلْتُ: فوا عَجَبًا! هَذِهِ كَانَتْ طَرِيقَ الرَّسُولِ ﷺ والصَّحَابَة رضي الله عنهم.

فصَارَت أحْوَالُ الخَلْق نَواميسَ لإقَامَة الجَاهِ، لا جرَمَ - واللهِ - سقَطْتُم مِن عَينِ الحَقِّ، فأسقطَكُم مِن عينِ الخَلْق، فَكَمْ مِمَّنْ يتعبُ فِي تربيةِ نَاموسٍ ولا يُلْتَفتُ إلَيْهِ، ولا يَحظَىٰ بمُرادِه، ويفوتُه المُرَاد الأكبرُ.

فالتفِتُوا - إخوانِي - إلىٰ إصْلاحِ النِّيَّات، وتركِ التزيُّن للخَلقِ، ولتكُنْ عُمْدَتُكم الاستقامةُ معَ الحَقِّ؛ فبذَلِكَ صعَدَ السَّلَفُ وسعدُوا، وإيَّاكُم ومَا النَّاسُ عَلَيهِ اليَوْمَ، فإنَّه - بالإضافةِ إلىٰ يقَظةِ السَّلَفِ - نومٌ.

❁ فَصْل ❁

واللهِ! مَا يَنْفعُ تَأدِيبُ الوَالِدِ إِذَا لَمْ يَسْبِقِ اخْتِيارُ الخَالِقِ لِذلِكَ الوَلَدِ

فإِنَّه سُبْحَانَه إِذَا أَرَادَ شَخْصًا؛ رَبَّاه مِن طُفولتِه، وهَدَاهُ إِلَىٰ الصَّوَابِ، ودلَّهُ عَلَىٰ الرَّشَاد، وحبَّبَ إِلَيْهِ مَا يَصلُحُ، وصَحَّبَهُ مَن يَصْلُحُ، وبَغَّضَ إِلَيْهِ ضِدَّ ذَلِكَ، وقبَّحَ عِنْده سَفسَافَ الأُمُور، وعَصَمَهُ مِن القَبائحِ، وأَخذَ بِيدِه كُلَّمَا عَثَرَ.

وإِذَا أبغضَ شَخصًا؛ تركَهُ دَائمَ التَّعثِير، مُتَخَبِّطًا فِي كُلِّ حَالٍ، ولَمْ يَخْلُقْ لَهُ هِمَّةً لطلَبِ المَعَالِي، وشَغَلَهُ بالرَّذائلِ عَنِ الفَضائِلِ، وإنْ قَالَ: لَمْ خُصِّصتُ بِهذا؟ قَالَ الخطابُ الَّذِي لا يُحَابِي: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورىٰ: ٣٠].

❁ فَصْل ❁

مِنْ أكبَرِ الدَّلِيل عَلَى وُجُود الخَالِق سُبْحَانَه هَذِهِ النَّفْسُ

النَّاطقةُ، المُمَيِّزةُ، المُحَرِّكَةُ للبدَنِ عَلَىٰ مُقتضَىٰ إرادَتها، الَّتِي دبَّرتْ مَصَالِحها، وترقَّتْ إلىٰ مَعْرِفَة الأفلاكِ، واكتَسبتْ مَا أَمْكَنَ تَحْصِيلُه مِن العُلُوم، وشَاهدَت الصَّانِعَ فِي المَصْنُوعِ، فَلم يَحْجُبْهَا سِتْرٌ وإِنْ تكاثَفَ، ولا يُعرَف معَ هَذَا ماهِيَّتهَا، ولا كَيفيَّتَها، ولا جَوْهرَها، ولا مَحِلَّها، ولا يُفْهَمُ مِن أَيْنَ جَاءتْ، ولا يُدْرَىٰ أَيْنَ تَذْهبُ، ولا كَيْفَ تَعلَّقتْ بِهَذَا الجَسَد.

وهَذَا كُلُّه يُوجِبُ عَليْهَا أَنَّ لَهَا مُدبِّرًا وخَالقًا، وكفىٰ بذَلِكَ دَلِيلًا عَلَيهِ؛ إذ لَوْ كَانَتْ وُجِدَتْ بِهَا؛ لَمَّا خَفيَت أحوالُها عَلَيهَا؛ فسُبْحَانَه سُبْحَانَه.

فَصْلٌ

سُبحَانَ مَن مَنَّ عَلَى الخَلْق بِالعُلَمَاءِ الفُقَهَاءِ

الَّذِينَ فهموا مَقْصُودَ الأَمْر ومُرادَ الشَّارِع، فَهُمْ حَفظةُ الشَّرِيعَة، فأحسَن اللهُ جزاءَهُم، وإِنَّ الشَّيْطَان ليتجَافَاهم خَوفًا مِنهُم؛ فَإِنَّهُم يَقدِرُون عَلَىٰ أَذَاهُ، وهُوَ لا يَقدرُ عَلَىٰ أذَاهُم.

ولَقَدْ تلاعبَ بأهلِ الجَهْل والقَلِيلِي الفَهمِ، وكَانَ مِن أعْجَب تَلاعُبِه أَنْ حسَّنَ لأقوامٍ تركَ العِلْم، ثُمَّ لَمْ يَقْنعوا بِهَذَا حَتَّىٰ قدَحُوا فِي المُتَشاغلِين بِهِ، وهَذَا - لَوْ فَهِمُوه - قدحٌ فِي الشَّرِيعَة؛ فَإِنَّ رَسُول اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**بلِّغُوا عنِّي**»[1]، وقَد قَالَ لَهُ ربُّه ﷻ: ﴿بَلِّغْ﴾ [المائدة: ٦٧]، فَإِذَا لَمْ يَتشَاغَل بالعِلْم، فكَيفَ يُبلِّغ الشَّرِيعَة إلىٰ الخَلْق؟!

ولَقَدْ نُقل مثلُ هَذَا عَنْ كبارِ الزُّهَّاد؛ كبِشْر الحَافِي؛ فإنَّه قَالَ لعَبَّاس بْنِ عَبْدِ العَظِيمِ: «لا تُجالِسْ أَصْحَابَ الحَدِيث»، وقَالَ لإسحاق بْن الضَّيْف: «إِنَّك صَاحِبُ حَدِيثٍ، فأُحِبُّ أَنْ لا تعودَ إليَّ»، ثُمَّ اعتذرَ فَقَالَ: «إِنَّمَا الحَدِيثُ فِتنةٌ؛ إلَّا لمن أرادَ اللهَ بِهِ، وإِذَا لَمْ يعْمَل بِهِ فتَرْكُهُ أفضل».

وهَذَا عجبٌ مِنْهُ! من أيْنَ لَهُ أَنَّ طُلَّابَه لا يُرِيدُونَ اللهَ بِهِ، وأَنَّهُم لا يَعمَلُون به؟! أَولَيْسَ العَمَل بِهِ عَلَىٰ ضربَينِ: عَملٌ بِمَا يَجِبُ، وذَلِكَ لا يسعُ أحدًا تَركُه، والثَّانِي: نَافلةٌ، ولا يَلزمُ. والتَّشَاغُل بالحَدِيث أفْضَل مِن التنفُّلِ بالصَّوْم والصَّلاةِ.

ومَا أظنُّه أرادَ إلَّا طريقَه فِي دوامِ الجُوع والتَّهَجُّد، وذَلِكَ شَيْءٌ لا يُلامُ تاركُه، فَإِن كَانَ يُرِيدُ أَلَّا يُوغِلَ فِي عُلومِ الحَدِيث؛ فهَذَا خَطأٌ؛ لأَنَّ جميعَ أَقسامِهِ مَحمُودة، أَفترَىٰ لَوْ تركَ النَّاسُ طَلَبَ الحَدِيثِ؛ كَانَ بشرٌ يُفتِي؟!

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٤٦١) من حديث عبد الله بن عمرو.

فاللهَ اللهَ فِي الالتفاتِ إلىٰ قَوْل مَن لَيسَ بفَقيهٍ، ولا يَهوِّلَنَّك تَعظِيمُ اسمِه؛ فاللهُ يَعْفُو عَنُه.

۞ فَصْل ۞

العَاقِلُ مَن يحفَظُ جَانِبَ اللّه ﷻ وإنْ غَضِبَ الخَلْقُ

وكُلُّ مَن يَحْفَظ جَانِبَ المَخْلُوقِين ويُضيِّع حَقَّ الخَالِق؛ يُقَلِّبُ اللهُ قَلْبَ الَّذِي قَصَدَ أَنْ يُرْضِيَه؛ فيُسخِطُهُ عَلَيْهِ.

قَالَ المأمونُ لبعضِ أَصْحَابهِ: «لا تَعْصِ اللهَ بطاعَتي، فيُسلطَني عَليكَ».

ولمَّا بالَغَ طَاهِر بْنُ الحُسَين فِيمَا فعلَ بالأَمِينِ، وفتكَ بِهِ، وصَلبَ رأسَهُ، وإنْ كَانَ ذَلِكَ عَنْ إرادَةِ المأمُون، ولَكِن بقيَ أثرُ ذَلِكَ فِي قلبِه، فكَانَ المأمُونُ لا يقدِرُ أَنْ يراهُ.

ولَقَدْ دخلَ عَلَيهِ يَومًا، فبَكىٰ المَأمونُ، فَقَالَ لَهُ طَاهِر: لِمَ تَبكِ؟! لا أبكَىٰ الله عينَك، فلقَدْ دانَتْ لَكَ البلادُ؟! فَقَالَ: أبْكِي لأمرٍ ذِكرُه ذُلٌّ، وسِرُّه حُزنٌ، ولن يَخْلُو أحَدٌ مِن شجَنٍ. فَلَمَّا خَرَجَ طاهرٌ نفذَ إلىٰ حُسَين الخَادِم مَائتَيْ ألفِ دِرهَم، وسَألَه أَنْ يسْأَلَ المأمونَ لِمَ بَكَىٰ، فَلَمَّا تغدَّىٰ المأمونُ قَالَ: يَا حُسينُ؛ اسقِنِي. قَالَ: لا والله لا أسقِيكَ حَتَّىٰ تَقُولَ: لمَ بكيتَ حِينَ دخَل عَلَيْك طَاهِر؟ قَالَ: يَا حُسينُ؛ وكَيفَ عُنِيتَ بِهَذَا حَتَّىٰ سألتَ عنهُ؟ قَالَ: لغَمِّي بذَلِكَ. قَالَ: يَا حُسينُ؛ أمرٌ إنْ خَرجَ مِن رأسِكَ قتَلتُكَ، قَالَ: يَا سيِّدي؛ ومَتىٰ أَخْرَجتُ لَكَ سرًّا؟ قَالَ: إنِّي ذكرتُ أَخِي مُحمَّدًا، ومَا نالهُ مِن الذِّلَّة، فحنقَتْنِي العَبْرَة، فاسترَحتُ إلىٰ إفاضَتها، ولَنْ يفُوتَ طَاهِرًا مِنِّي مَا يكرَهُ.

فأخبرَ حُسينٌ طَاهرًا بذَلِكَ، فركبَ طاهِرٌ إلىٰ أحْمَدَ بْن أبي خَالِدٍ، فَقَالَ لَهُ: إنَّ المَعْرُوف عِنْدِي لَيسَ بِضَائعٍ؛ فغيِّبني عَنْ عينِه، قَالَ: سأفعلُ، فدخلَ عَلَىٰ المأمونِ، فَقَالَ: مَا بتُّ البارحَةَ. قَالَ: ولم؟ قَالَ: لأنَّك ولَّيتَ غسَّان بْن عبَّادٍ خُراسَان، وهُوَ ومن مَعهُ أكلَةُ رأسٍ، فأخَافُ أَنْ يخرُج خارِجٌ مِن التُّرْكِ فَيَصْطَلِمُهُ، قَالَ: فمَنْ ترىٰ؟ قَالَ: طَاهِر بْن الحُسَينِ. فعَقدَ لَهُ، فمَضَىٰ، فبقي مُدَّةً، ثُمَّ قطعَ الدُّعَاءَ للمَأمُون عَلَىٰ المِنْبَرِ يَوْم الجُمُعة، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُ البريدِ: مَا دعوتَ لأميرِ المُؤْمِنينَ. قَالَ: سَهوٌ، فَلا تكتُبْ. ففَعل ذَلِكَ فِي الجُمُعة الثَّانية والثَّالثة، فَقَالَ لَهُ: لا بُدَّ أَنْ أكتُبَ؛ لِئلَّا يَكتُبُ التُّجَّارُ ويسبِقُوني. قَالَ: اكتُبْ، فكَتَبَ، فدعَا المأمونُ أحْمَدَ بْن أبي خَالِدٍ، وقَالَ: إِنَّهُ لَمْ يَذْهَبْ عَليَّ احتيالُكَ فِي أمرِ طاهِرٍ، وأنَا أُعطِي اللهَ عَهدًا إنْ لَمْ تَشْخَصْ حَتَّىٰ تُوافِيني بِهِ كَمَا أَخْرَجْتَهُ مِن قَبضَتِي لَتُذَمَّنَّ عُقباكَ. فَشَخَصَ، وجعلَ يَتَلوَّمُ فِي الطَّرِيق ويَعتَلُّ بالمَرَض، فوصَلَ إِلَىٰ الرَّيِّ وقَد بلغتْهُ وَفاةُ طَاهِرٍ.

قُلْتُ: ولمَّا خَرَجَ الرَّاشدُ مِن بغدَادَ، وأرادُوا توليةَ المُقتفِي؛ شهِدَ جَمَاعَةٌ مِن الشُّهودِ بأنَّ الرَّاشدَ لا يصلُح للخِلافةِ، فنزَعوه، وولَّوُا المُقتفِيَ، فبلغَنِي أَنَّهُ ذُكِرَ للمُقتفِي بَعْضُ الشُّهودِ، فذمَّهُ، وقَالَ: كَانَ فيمَن أَعانَ عَلَىٰ أَبي جعفَر.

وعَلَىٰ ضدِّ هَذَا: كُلُّ من يرَاعِي جَانِب الحَقِّ والصَّوَاب، يُرْضِي عَنْهُ مَن سَخِطَ عَلَيهِ.

ولَقَدْ حَدَّثنِي الوزيرُ ابنُ هُبيرةَ أَنَّ المُستنجدَ باللهِ كتب إِلَيْهِ كتابًا، وهُوَ يومئذٍ وليَّ عهدٍ، وأرادَ أَنْ يَسْترُه مِن أبِيهِ. قَالَ: فَقُلتُ للوَاصِل بِهِ: واللهِ؛ مَا يمكِنُني أقرؤُه، ولا أُجِيبُ عَنهُ. فلمَّا وَلِيَ الخِلافةَ دخلتُ عَلَيهِ، فقُلْتُ: أَكبرُ دَلِيلٍ عَلَىٰ صِدْقِي وإِخْلاصِي أَنِّي مَا حَابيتُك فِي أبيكَ. فَقَالَ: صدقتَ؛ أنتَ الوزيرُ.

وحَدَّثنِي بَعْضُ الأصدِقاءِ أَنَّ قومًا أَلْحَقوا إلىٰ المَخزَنِ بَعْض دَينٍ لَهُم

لِيُسْتَخْلَصَ، فَقَالَ المُسترشِدُ لصَاحِب المخزَنِ: خَلِّصْه لَهُم، وخُذْ مَا ضمِنُوا لنَا، فَأَحْضَرَ ابنَ الرُّطَبيِّ وعرضَ الأَمْرَ عَلَيهِ، فَقَالَ: هَذَا أمرٌ بظُلمٍ، ومَا أَحْكُمُ فِيهِ، فَقَالَ: إنَّ السُّلطانَ قَدْ تقدَّم. قَالَ: مَا أفعلُ؟ فأَحْضَرَ قاضِيًا آخرَ، فبتَّ الحُكمَ، فأُخبِر الخَليفةَ بالحَالِ، فقَالَ: أمَّا ابنُ الرُّطَبيِّ فيُشكرُ عَلَىٰ مَا قَالَ، وأمَّا الآخرُ فيُعزَل؛ وذَلِكَ لأنَّهُ بانَ لَهُ أَنَّ الحَقَّ مَا قاله ابنُ الرُّطبِيِّ.

وكَذَلكَ مَا طَلبَه السُّلطانُ، مِن أَنْ يُلقَّبَ: مَلِكَ المُلوك، فاستفتَىٰ الفُقَهاءَ، فأجَازُوا ذَلِكَ، وامتنعَ مِنْ إجَازَتهِ المَاوَرْدِيُّ، فعظُم قدرُه عِنْدَ السُّلطانِ.

ومِثْلُ هَذَا إِذَا تُتُبِّع كَثِيرٌ، فيَنْبغِي أَنْ يُحْسِنَ القصدَ لطَاعَة الخَالِق، وإنْ سَخِطَ المَخلوقُ؛ فإِنَّه يعودُ صَاغرًا، ولا يُسْخِطُ الخَالِقَ؛ فإِنَّه يُسخِطُ المَخلوقَ، فيفوتُ الحظَّان جَميعًا.

❁ فَصْل ❁

يَنْبغِي للعَاقِلِ أَنْ يَنْظُرَ إلى الأُصُول فِيمَن يُخالطُهُ، ويُعاشِرُهُ، ويُشارِكُهُ، ويُصَادِقُهُ، ويُزوِّجُهُ أوْ يَتزوَّجُ إلَيْهِ، ثُمَّ يَنْظُرُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الصُّوَرِ؛ فَإِنَّ صَلاحَهَا دَلِيلٌ عَلَى صَلاحِ البَاطِنِ

أمَّا الأُصُول؛ فَإِن الشَّيءَ يرجعُ إلىٰ أصلِه، وبعيدٌ مِمَّنْ لا أصل لَهُ أَنْ يَكُون فِيهِ مَعْنًىٰ مُستحسَنٌ، وإنَّ المَرْأَة الحَسْناء إِذَا كَانَتْ مِن بيتٍ رَديءٍ فقَلَّ أَنْ تَكُون صَيِّنةً، وكَذَلكَ أيضًا المُخالِطُ والصَّديقُ والمُباضِعُ والمُعاشِرُ.

فإيَّاك أَنْ تُخالط إلَّا مَن لَهُ أصلٌ يخَافُ عَلَيهِ الدَّنسَ، فالغَالِب مَعهُ السَّلامَة، وإن وقعَ غَيْرُ ذَلِكَ كَانَ نادرًا.

وقَدْ قَالَ عُمرُ بْن عَبْد العَزِيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لرجل: «أَشِرْ عَليَّ فيمَنْ أَستَعمِلُ». فقَالَ: «أمَّا أَرْبَاب الدِّين فَلا يُريدُونكَ - أيْ: لا يسْأَلُونَكَ الرِّياسةَ -، وأمَّا أرْبَاب الدُّنْيَا فَلا تُرِدْهُم؛ ولَكِنْ عَلَيْك بالأَشْرَافِ؛ فَإِنَّهُم يَصُونُون شَرفَهم عمَّا لا يَصلُحُ».

وقَدْ روىٰ أَبُو بكرٍ الصُّوليُّ قَالَ: حَدَّثنِي الحُسَين بْن يَحْيَىٰ عَنْ إسحَاق قَالَ: دعاني المُعتصِم فأدخَلني مَعهُ الحمَّام، ثُمَّ خَرجَ فَخَلا بِي وقَالَ: يَا أبا إسحاقَ؛ فِي نَفْسِي شيءٌ أَريدُ أَن أَسْأَلكَ عنهُ، إنَّ أخِي المَأمونُ اصطَنع قومًا فَأَنْجَبُوا، واصْطَفَيتُ أَنا مِثْلَهُم فَلمْ يَنْجُبُوا؟ قُلْتُ: ومَن هُم؟ قَالَ: اصْطَنعَ طَاهرًا وابنَه إسحَاق وآلَ سَهْل؛ فَقد رَأيْتَ كَيْفَ هُم، واصطنعتُ أنا الأَفْشِينَ؛ فَقد رَأيْتَ إلىٰ مَا آلَ أمرُه، وَأَشْنَاسَ؛ فَلم أَجِدْه شَيئًا، وكَذَلكَ إيتَاخُ ووَصِيفُ. قُلْتُ: يَا أمير المُؤْمِنينَ؛ هَاهُنَا جوابٌ، عَليَّ أمانٌ مِن الغَضبِ. قَالَ: لَكَ ذاك. قُلْتُ: نظَرَ أخوكَ إلَىٰ الأُصُول فاستعمَلَها، فأَنْجَبَتْ فُروعُها، واستعملتَ فروعًا لا أُصُول لَهَا؛ فَلم تُنجِب. فَقَالَ: يَا أبا إسحاق؛ مُقَاسَاةُ مَا مرَّ بي طولَ هَذِهِ المُدَّة أهونُ عَليَّ مِن هَذَا الجَوَاب.

أَمَّا الصُّوَر؛ فإِنَّه مَتىٰ صَحَّت البُنْيَةُ، ولَمْ يَكُنْ فِيهَا عَيبٌ؛ فالغَالِب صِحَّةُ البَاطِنِ وحُسْنُ الخُلُق، ومتىٰ كَانَ فِيهَا عَيبٌ؛ فالعيبُ فِي البَاطِنِ أيضًا. فاحذَرْ مَنْ بِهِ عاهةٌ؛ كالأَقرَعِ والأَعْمَىٰ وغير ذَلِكَ؛ فَإِنَّ بَوَاطنَهم فِي الغَالِب رَدِيَّةٌ.

ثُمَّ مع مَعْرِفَة المُخالِط، وكمالِ صُورتِه؛ لا بُدَّ مِن التَّجربةِ قبلَ المُخَالطَة، واسْتِعْمَال الحَذَر لازمٌ، وإنْ كَانَ كَمَا يَنبَغِي.

❁ فَصْل ❁

يَنْبغِي أَنْ يَكُون شُغْلُ العَاقِلِ النَّظَرُ فِي العَوَاقِبِ والتَّحرُّزُ مِمَّا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ

ومِن الغَلَط النَّظَر فِي الحَالةِ الحَاضِرَةِ، المُوافِقَةِ لمعَاشِه، ولصحَّة بدَنِه، ورُبَّما لا يَجْرِي لَهُ مَصْحُوبُهُ؛ فيَنْبغِي أَنْ يعْمَل عَلَىٰ انقطاع ذَلِكَ، فيكُون مُستعدًّا لتغيُّر الأَحوَالِ.

وكَذَلكَ النَّظَر فِي لَذَّةٍ تَفنَىٰ وتبقَىٰ تَبِعَتُها وعَارُهَا، وإيثارُ الكَسَلِ والدِّعَة لمَا يَجِيءُ بعدَهُما مِن بَقَاءِ الجَهْل.

وكَذَلكَ تَحْصيلُ المُراداتِ الَّتِي لا تُحَصَّلُ إلَّا بالتَّلطُّف فِي الاحتيالِ، خُصوصًا إِذَا أُريدَ مِن ذَكِيٍ؛ فإِنَّه يفطنُ بأقلِّ تَلْويحٍ؛ فَمَن أرادَ غلَبة الذَّكيِّ دقَّق النَّظَر وتلطَّف فِي الاحْتِيالِ، وقَد ذُكِرَ فِي كُتُبِ الحِيَلِ مَا يَشْحَذُ الخَواطِرَ، وأَتينَا بجُملةٍ مِنْهُ فِي «كِتابِ الأَذْكِياءِ».

مثلُ مَا رُوِي أَنَّ رجلًا مِن الأَشْرافِ كَانَ لا يقومُ لأَحدٍ، ولا يَخْشَىٰ أَحدًا، فجازَ عَلَيهِ بَعْضُ الوُزراءِ وحيَّ، فَلم يَرُدَّ ولَمْ يَقُمْ. فَقَالَ ذَاكَ الوزيرُ لرَجُلٍ: أَخبرْ فلانًا أَنِّي قَدْ كَلَّمتُ أَميرَ المُؤْمِنينَ فِي حقِّهِ، وقَد أمرَ لَهُ بمائةِ ألفٍ، فلْيَحضُر ليَقبِضَها، فأَخبرهُ ذَلِكَ الرجلُ، فَقَالَ الشَّريفُ: إنْ كَانَ أمرَ لي بشيءٍ فلينفِذْهُ لي، وإنَّمَا مَقْصُودُه أَنْ يضعَ مِنِّي بالتردُّد عَلَيهِ.

فَمَتىٰ وقعَ الإنْسَانُ معَ ذكِيٍّ، فيَنْبغِي أَنْ يتحرَّز مِنْهُ، ويَسُرقَ أَغراضَه بصنُوفِ الاحتِيالِ، وينظُر فِيمَا يَجُوز وقُوعُه فَلْيَحْتَرِزْ مِنهُ، كَمَا ينظرُ صَاحِبُ الرُّقْعَةِ النَّقَلَاتِ.

وكثيرٌ مِن الأَذْكياءِ لَمْ يقدروا عَلَىٰ أغراضِهم مِن ذكِيٍّ، فأعطوهُ وبالَغُوا فِي

إكرامِه؛ ليَصِيدوه، فَإِنْ كَانَ قليلَ الفِطنةِ وقعَ الشَّرَكَ، وإنْ كَانَ أَقْوَىٰ مِنهُم ذكاءً علِمَ أَنَّ تَحْتَ هَذِهِ الجِنِيَّةِ خَبيئًا، فزادَهُ ذَلِكَ احترازًا.

وأَقْوَىٰ مَا يَنْبغِي أَنْ يَكُون الاحترازُ مِن مَوْتُورٍ؛ فإنَّك إِذَا آذيتَ شَخْصًا فَقد غَرسْتَ فِي قَلبهِ عداوةً، فَلا تأمنْ تفريعَ تِلْكَ الشَّجرَة، ولا تلتفِتْ إلىٰ مَا يظهرُ مِن وُدٍّ وإنْ حلفَ، فَإِنْ قارَبته فكُن مِنهُ عَلَىٰ حَذَرٍ.

ومن التَّغفُّل: أَنْ تُعاقِب شخصًا أوْ تُسيءَ إِلَيْهِ إساءةً عظيمةً، وتعلمَ أَنَّ مثلَ ذَلِكَ يُجدِّد الحقدَ، فتراهُ ذليلًا لَكَ طَائعًا تائبًا مُقلعًا عمَّا فعل، فتعودُ فتَستطِيبَه، وتنسىٰ مَا فعلتَ، وتظُنَّ أَنَّهُ قَدْ انْمَحَىٰ مِن قَلْبِهِ مَا أَسْلَفْتَ، فرُبَّمَا عملَ لَكَ المِحنَ، ونصَبَ لَكَ المَكايدَ؛ كَمَا جَرَىٰ لقَصِيرٍ معَ الزَّبَّاءِ، وأَخْبَاره مُعروفةٌ؛ فإيَّاك أَنْ تُساكنَ مَن آذَيتَه، بَلْ إنْ كَانَ ولا بُدَّ فمِن خارِجٍ؛ فَمَا تُؤمَنُ الأَحْقَادُ.

ومتىٰ رَأيْتَ عدوَّك فِيهِ غَفْلَة، لا يُثنيه مثلُ هَذَا؛ فأحسِن إِلَيْهِ، فإنَّه يَنسىٰ عداوتَك، ولا يظنُّ أَنَّكَ قَدْ أضمرتَ لَهُ جزاءً عَلَىٰ قُبحِ فعلِه؛ فحِينئِذٍ تقدرُ عَلَىٰ بلوغ كُلِّ غرضٍ مِنْهُ، ومن الخَوَرِ إظهارُ العداوةِ للعدُوِّ.

ومِن أَحْسَنِ التَّدبير: التَّلطُّف بالأعداءِ إلىٰ أَنْ يُمْكِنَ كَسْرُ شَوْكَتِهِم، ولَوْ لَمْ يُمكن ذَاكَ كَانَ اللُّطفُ سَببًا فِي كفِّ أَكُفِّهم عَن الأذىٰ، وفِيهِم مَن يَسْتَحِيي لحُسن فعلِك؛ فيتغيَّر قلبُه لك.

وقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِن السَّلَف إِذَا بلغَهم أَنَّ رجلًا قَدْ شتمهم، أَهْدَوْا إِلَيْهِ وَأَعْطُوهُ؛ فهُمْ بالعَاجِل يَكُفُّونَ شَرَّهُ، ويَحْتَالُون فِي تَقلِيبِ قَلْبِهِ، ويقعُ بذَلِكَ لَهُم مُهْلَةٌ لتدْبِير الحِيَلِ عَلَيهِ؛ إِنْ أرادُوا.

وكَفَىٰ بالذِّهنِ النَّاظر إلىٰ العوَاقِب، والتأمُّل لِكُلِّ مُمْكِنٍ مُؤدِّبًا.

فَصْلٌ

رَأَيْتُ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَتَمَالَكُونَ مِن إِفْشَاءِ سِرِّهِمْ فَإِذَا ظَهرَ عَاتَبُوا مَن أَخْبَرُوا بِهِ!

فوا عَجَبًا! كَيْفَ ضَاقُوا بِحَبْسِه ذَرْعًا، ثُمَّ لَامُوا مَن أَفْشَاهُ، وفِي الحَدِيثِ: «استَعينُوا عَلَىٰ قَضَاءِ أُمورِكُم بالكِتْمَانِ»(١).

ولَعَمْرِي؛ إنَّ النَّفْس يَصْعُب عَلَيْهَا كَتْم الشَّيء، وترىٰ بإفْشَائِهِ راحةً، خُصوصًا إِذَا كَانَ مرضًا أَوْ هَمًّا أَوْ عِشقًا؛ وهَذِهِ الأَشْيَاء فِي إِفْشائها قَرِيبةٌ، إِنَّمَا اللَّازِم كتمانُه احتيالُ المُحتالِ فِيمَا يُرِيدُ أَنْ يُحَصِّل بِهِ غرضًا، فَإِنَّ مِن سُوء التَّدبير إفشاءَ ذَلِكَ قَبلَ تَمامِه، فإِنَّه إِذَا ظهرَ بَطَلَ مَا يُرِيدُ أَنْ يُفْعلَ، ولا عُذر لمَن أَفْشىٰ هَذَا النَّوع، وقَد كَانَ النَّبيُّ ﷺ إِذَا أرادَ سَفرًا ورَّىٰ بغيرِه(٢).

---

(١) ضعيف: أخرجه من حديث معاذ: العقيلي (٢/ ١٠٨)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/ ٩٤) وفي «الأوسط» (٢٤٥٥) و«الصغير» (١١٨٦)، والديلمي (٢٦٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢١٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٦٥٥). وأورده ابن الجوزي في «الموضوعات» (١٠٦٨). وأخرجه من حديث عمر: الخرائطي في «اعتلال القلوب» (٦٨٠). وأخرجه من حديث ابن عباس: الخطيب (٨/ ٥٦). وأخرجه من حديث أبي هريرة: ابن حبان في «روضة العقلاء» (ص ١٨٧) والسهمي في «تاريخ جرجان» (ص ١٨٢) من طريق سهل بن عبد الرحمن الجرجاني عن محمد بن مطرف عن محمد بن المنكدر عن عروة بن الزبير عنه. وقال ابن حبان: «هذا إسناد حسن وطريق غريب إن كان عروة هذا هو ابن الزبير بن العوام وسعيد بن سلام ما أرىٰ حفظ حديثه فلذلك تنكبت عن ذكره». قلت: لعله يقصد بالحسن هنا الغرابة، أو أنه أحسن حالًا من حديث سعيد بن سلام راوي حديث معاذ؛ فإنه شديد الضعف، وإلا فإن سهل الجرجاني هذا غير معروف، وليس هو المترجم في «الجرح والتعديل» (٢/ ١/ ٢٠١) خلافًا لمن ظنه هو، ثم تفرده بهذا الإسناد عن هؤلاء المشهورين مما يقضي بنكارته. والله أعلم.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٩٤٧، ٢٩٤٨، ٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩) من حديث كعب بن مالك.

فإنْ قَالَ قَائِلٌ: إنَّمَا أُحدِّثُ مَن أَثِقُ بِهِ. قِيلَ لَهُ: وكلُّ حَدِيثٍ جاوَز الاثنينِ شائعٌ، ورُبَّما لَمْ يكتُم صدِيقُك، وكَمْ قَدْ سَمِعْنا مَن يحدِّثُ عَنْ المُلوك بالقَبضِ عَلَىٰ صَاحِبٍ، فنَمَىٰ الحَدِيثُ إلىٰ الصَاحِبِ وهَربَ، ففاتَ السُّلطانَ مرادُهُ، وإنَّمَا الرَّجل الحَازمُ الَّذِي لا يتعدَّاه سرُّه، ولا يُفْشيه إلىٰ أحدٍ.

ومن العَجْزِ إفشاء السِرِّ إلىٰ الوَلَدِ والزَّوجَة، والمَالُ من جُمْلَة السِّرِّ، فإطْلاعُهم عَلَيهِ يجرُّ المَتاعبَ إنْ كَانَ كثيرًا، فرُبَّمَا تمنَّوا هَلاكَ المَورُوثِ، وإنْ كَانَ قليلًا تبرَّموا بوجُودِهِ، ورُبَّما طلبُوا مِن الكثير عَلَىٰ مِقْدَار كَثْرتِه، فأتلفتهُ النَّفقاتُ.

وسَتْرُ المَصائبِ مِن جُمْلَة كِتمان السِّرِّ؛ لأَنَّ إظهارها يسُرُّ الشَّامتَ ويؤلِم المُحبَّ.

وكَذَلكَ يَنْبغِي أَنْ يكتم مِقْدَار السِّنِّ؛ لأنَّهُ إنَّ كَانَ كبيرًا استهرَمُوه وإنْ كَانَ صغيرًا احتقَرُوه.

وممَّا قَدِ انْهَالَ فِيهِ كَثِيرٌ مِن المفرِّطين: أَنَّهُمْ يذكُرون بينَ أصدقائهم أميرًا أوْ سُلطانًا، فيَقُولُونَ فِيهِ، فيبلغ ذَلِكَ إلَيْهِ؛ فيكُون سَبَب الهلاكِ.

ورُبَّما رَأَىٰ الرجلُ من صدِيقِه إخلاصًا وافيًا، فأشَاع سِرَّهُ.

وقَد قيلَ:

احْـــذَرْ عَـــدُوَّكَ مَـــرَّةً ** وَاحْـــذَرْ صَـــدِيقَكَ أَلْـــفَ مَـــرَّهْ

فَلَرُبَّمَـــا انْقَلَـــبَ الـــصَّدِيـ ** ـــقُ فَكَـــانَ أَدْرَىٰ بِالمَـــضَرَّهْ

ورُبَّ مُفشٍ سِرَّه إِلَىٰ زَوجَة أَوْ صَدِيقٍ؛ فيَصِيرُ بذَلِكَ رَهينًا عِندَهُ، ولا يَتَجاسَرُ أَنْ يُطَلِّقَ الزَّوْجَة، ولَا أَنْ يهجُرَ الصَّديقَ؛ مَخَافَةَ أَنْ يُظهِرَ سِرَّهُ القَبِيحَ.

فالحَازمُ مَن عَامَلَ النَّاسَ بالظَّاهِر، فَلا يَضِيقُ صَدْرُهُ بِسِرِّه، فَإِنْ فَارَقَتْهُ امرأةٌ أَوْ صديقٌ أَوْ خادمٌ؛ لَمْ يَقْدرْ أَحَدٌ مِنهُم أَنْ يَقُولَ فِيهِ مَا يَكْرَهَ.

ومِن أَعْظَم الأَسْرَارِ الخَلَواتَ؛ فليحذَرِ الحَازمُ فِيهَا مِن الانبِساطِ بمَرْأَىٰ مِن مَخْلُوقٍ، ومَن خُلِقَ لَهُ عَقْلٌ ثاقِبٌ دَلَّه عَلَىٰ الصَّوَابِ قَبْلَ الوَصَايَا.

❁ فَصْلٌ ❁

مَا رَأَيْتُ أَصْعَبَ عَلَى النَّفْسِ مِن الحِفْظِ للعِلْمِ والتَّكْرَارِ لَهُ

خُصُوصًا تَكْرارَ مَا لَيسَ لَهَا فِي تَكْرارِهِ وحفظه حَظٌّ، مِثْلُ مَسائلِ الفِقهِ، بِخلافِ الشِّعرِ والسَّجعِ؛ فَإِنَّ لَهَا لَذَّةً فِي إِعادَتهِ وإِنْ كَانَ صَعْبًا، لأَنَّهَا تَلْتَذُّ بِهِ مَرَّةً ومرَّتين، فَإِذَا زَاد التَّكْرارُ صَعُبَ عَلَيهَا، ولَكِن دُونَ صُعُوبةِ الفِقهِ وَغيرِهِ مِن المُسْتَحْسَناتِ عِنْدَ الطَّبْعِ، فتَرَاهَا تَخْلُدُ إِلىٰ الحَدِيثِ والشِّعرِ والتَّصَانِيفِ والنَّسْخِ؛ لأَنَّهُ يمرُّ بِهَا كُلَّ لَحْظَة مَا لَمْ تَرَهُ، فَهُو فِي المَعنَىٰ كالمَاءِ الجَارِي؛ لأَنَّهُ جزءٌ بَعدَ جُزءٍ، وكَذا مَن يَنْسخُ مَا يُحبُّ أَنْ يَسْمَعهُ أَوْ يُصَنِّف، فإِنَّه يَلْتَذُّ بالجِدَّةِ ويستريحُ من تعبِ الإِعَادة.

إِلَّا أَنَّهُ يَنْبَغِي للعَاقِلِ أَنْ يَكُون جُلُّ زمانِه للإِعَادَة، خُصوصًا الصَّبيَّ والشَّابَّ؛ فإِنَّه يَسْتَقِرُّ المَحفوظُ عِنْدهما استقرارًا لا يَزُولُ، ويجعلُ أوقاتَ التَّعَب مِن الإِعَادَةِ للنَّسخِ، ويَحْذَرُ مِن تَفلُّتها إِلىٰ النَّسخ عِنْدَ الإِعَادَة فيقهَرُها؛ فإِنَّه يُحمَدُ ذَلِكَ حَمْدَ السُّرىٰ وَقْتَ الصَّباحِ.

وسَيَندَمُ مَن لَمْ يَحْفَظ نَدَمَ الكُسَعِيِّ[1] وقتَ الحَاجَة إِلىٰ النَّظَر والفَتوَىٰ.

(١) يقال في المثل: «أندم من الكسعي» وكان صاحب قوس مشهورة، كسرها ثم ندم.

وفِي الحِفظِ نُكتةٌ يَنْبغِي أَنْ تُلْحَظ، وهُوَ أَنَّ الفَقِيهَ يَحْفَظ الدَّرْسَ ويُعيدُه، ثُمَّ يَتْرُكُهُ فينْسَاهُ، فيحْتَاج إلىٰ زَمَان آخرَ لحِفظِه، فيَنْبغِي أَنْ يُحكِم الحِفْظَ، ويُكثِرَ التَّكرارَ، ليُثبِّت قاعِدةَ الحِفْظِ.

فَصْلٌ
مَا أَعْرفُ نَفْعًا كَالعُزْلَةِ عَن الخَلْقِ، خُصُوصًا لِلعَالِمِ والزَّاهِدِ

فإنَّك لا تكَادُ ترىٰ إلَّا شَامتًا بنكبةٍ، أوْ حَسُودًا عَلَىٰ نِعْمَةٍ، أوْ مَن يأخُذُ عَلَيْك غَلَطاتِك، فيا للعُزْلَةِ! مَا أَلَذَّهَا! سَلِمَتْ مِن كَدَرِ غِيبَةٍ، وآفاتِ تصنُّعٍ، وأَحْوَال المُداجاةِ[1]، وتَضييعِ الوَقْتِ. ثُمَّ خَلا فِيهَا القَلْبُ بالفِكرِ بعَدَما كَانَ مَشغولًا عَنْهُ بالمُخَالطَة؛ فَدَبَّرَ أَمْرَ دُنياهُ وآخرَتِه، فَمَثلُهُ كَمَثَل الحِمْيَةِ، يَخْلُو فِيهَا المَعِيُ بالأَخْلاطِ فيُذِيبُها.

وما رأَيْتُها مثلَ مَا يصنَعُ المُخالِطُ؛ لأَنَّهُ يَرَىٰ حالَتَه الحَاضِرَةَ مِن لِقاءِ النَّاسِ وكَلامِهم، فيشتَغلُ بِهَا عمَّا بَيْن يَدَيْه، فمثلُه كمَثَل رَجُلٍ يُرِيدُ سَفرًا قَدْ أَزِفَ، فجالسَ أَقْوَامًا، فشَغلُوه بالحَدِيث، حَتَّىٰ ضُرِبَ البُوقُ ومَا تزوَّد. فلو لَمْ يَكُنْ فِي العُزلَة إلَّا التَّفكيرُ فِي زَاد الرَّحيل والسَّلامَةُ مِن شَرِّ المُخَالطَة؛ كَفَىٰ.

ثُمَّ لا عُزلةَ عَلَىٰ الحَقِيقَة إلَّا للعَالِم والزَّاهِد، فَإنَّهُما يَعْلمَان مَقْصُودَ العُزلَة، وإن كانَا لا فِي عُزلةٍ:

---

(١) المداجاة: المداراة.

أَمَّا العَالِم؛ فعِلمُه مُؤنِسُهُ، وكتبُه مُحدِّثُهُ، والنَّظَرُ فِي سِيَرِ السَّلَف مُقوِّمُهُ، والتَّفكُّرُ فِي حوادثِ الزَّمَان السَّابق فُرْجَتُهُ؛ فَإِنْ ترقَّىٰ بعِلمِهِ إلىٰ مَقَام المَعْرِفَة الكَامِلَة للخَالِق سُبْحَانَه، وتشبَّثَ بأذيالِ محبَّتِه؛ تضاعفَتْ لذَّاتُه، واشتغلَ بِهِ عَن الأكوانِ ومَا فيها، فخَلا بحبيبِه، وعملَ مَعهُ بمُقتضَىٰ علمِه.

وكَذَلكَ الزَّاهِد؛ تعبُّدُه أنيسُهُ، ومَعبودُهُ جليسُهُ، فَإِن كُشفَ لبصرِه عَن المَعْمُولِ مَعهُ غابَ عَن الخَلْقِ، وغابوا عَنْهُ.

إنَّمَا اعتزَلا مَا يُؤذِي، فهُمَا فِي الوَحْدَة بَينَ جَماعةٍ.

فهذان رجُلان قَدْ سلِما مِن شَرِّ الخَلْق، وسلِم الخَلْقُ مِن شُرورِهما، بَلْ هُما قُدوةٌ للمُتعبِّدينَ، وعَلَمٌ للسَّالكِين، ينتفعُ بكَلامِهما السَّامِعُ، وتُجْرِي مَوعظَتُهما المَدامِعَ، وتنتَشِرُ هيبَتُهما فِي المَجامعِ، فمن أرادَ أَنْ يتشبَّه بأحدِهما فليُصابِرِ الخَلوَة وإنْ كَرهها؛ ليُثمِر لَهُ الصَّبْرُ العَسلَ.

وأعوذُ باللهِ مِن عَالِم مُخالطٍ للعَالَم، خُصوصًا لأرْبَابِ المَالِ والسَّلاطِينِ، يَجْتلِبُ ويُجْتَلَبُ ويَخْتلِبُ ويُخْتَلَبُ، فَمَا يحصل لَهُ شَيْء مِن الدُّنْيَا إلَّا وقَد ذَهَبَ مِن دِينهِ أَمثالُهُ. ثُمَّ أَيْنَ الأَنَفَةُ مِن الذُّلِّ للفُسَّاقِ؟!

فالذي لا يبالي بذَلِكَ هُوَ الَّذِي لا يَذُوقُ طَعْمَ العِلْم، ولا يَدري ما المُرَاد بِهِ، وكَأنَّه بِهِ وقَد وقعَ فِي بَادِيَةٍ جُرُزٍ وقَفْرِ أَمَلٍ مُهْلكٍ فِي تِلْكَ البرارِي.

وكَذَلكَ المُتزهِّدُ؛ إذَا خَالطَ وخَلَّطَ، فإنَّه يَخْرُجُ إلىٰ الرِّياءِ والتَّصَنُّعِ والنِّفَاقِ؛ فَيفُوتُهُ الحَظَّانِ: لا الدُّنْيَا ونَعيمُها تَحْصُلُ لَهُ، ولا الآخِرَةُ.

فنَسْأل اللهَ ﷻ خَلوةً حُلوةً، وعُزلةً عَن الشَّرِّ لذيذةً، يَسْتَصْلِحُنَا فِيهَا لمُناجَاتِهِ، ويُلْهِمُ كُلًّا منَّا طلبَ نَجاتِهِ، إنَّهُ قَرِيبٌ مجيبٌ.

فَصْل

مَا أَبْلَهَ مَن لا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِيهُ المَوْتُ؛ وهُوَ لا يَسْتَعِدُّ لِلقَائِهِ!

وأَشدُّ النَّاس بلَهًا وتَغفيلًا مَن قد عَبَر السِّتِّين وقارَب السَّبعين؛ فَإِنَّ مَا بينَهُما هُوَ مُعترَكُ المَنايَا، ومن نَازَل المُعترَكَ استعدَّ، وهُوَ مع ذَلِكَ غافلٌ عَن الاسْتِعْدادِ.

قَالَ الشَّبَابُ لَعَلَّنَا فِي شَيْبِنَا ** نَدَعُ الذُّنُوبَ فَمَا يَقُولُ الأَشْيَبُ؟!

واللهِ؛ إِنَّ الضَّحِكَ مِن الشَّيْخ مَا لَهُ مَعْنَىٰ، وإِنَّ المِزاحَ مِنْهُ باردُ المَعنَىٰ، وإِنَّ تعرُّضه بالدُّنْيَا - وقَد دفعَته عَنْهَا - يُضعِف القُوَىٰ ويُضعِف الرَّأْي.

وهَل بقيَ لابنِ ستِّينَ مَنْزِلٌ؟! فَإِن طمعَ فِي السَّبعين، فإِنَّمَا يرتَقِي إِلَيهَا بعناءٍ شَديدٍ؛ إِنْ قَامَ دفعَ الأَرْض، وإِنْ مَشىٰ لهَثَ، وإِنْ قعدَ تنفَّسَ، ويرَىٰ شَهوات الدُّنْيَا ولا يقدِرْ عَلَىٰ تَناوُلِها، فَإِن أكلَ كدَّ المعِدَةُ، وصَعُب الهَضمُ، وإِن وَطِئ آذىٰ المَرْأَة، ووقعَ دَنِفًا[1] لا يقدر عَلَىٰ ردِّ مَا ذَهَبَ مِن القُوَّة إِلىٰ مُدَّة طَويلةٍ؛ فَهُو يَعيشُ عَيْشَ الأَسِيرِ، فَإِن طمِعَ فِي الثَّمانِين؛ فَهُو يَزحَفُ إِلَيهَا زَحْفَ الصَّغيرِ.

وَعَشْرُ الثَّمَانِينَ مَنْ خَاضَهَا ** فَإِنَّ المُلِمَّاتِ فِيهَا فُنُونُ

فالعَاقِل من فهم مَقَاديرَ الزَّمَان؛ فَإِنَّهُ فِيمَا قَبلَ البُلُوغِ صبيٌّ لَيسَ عَلَىٰ عُمرِه عِيارٌ[2]، إِلَّا أَنْ يُرزقَ فِطنةً، ففِي بَعْض الصِّبيَان فطنةٌ تحثُّهم مِن الصِّغر عَلَىٰ اكتساب المَكَارمِ والعُلُوم. فَإِذَا بلغَ فليَعلَم أَنَّهُ زَمَان المُجاهَدةِ للهَوَىٰ وتَعلُّم العِلْم، فَإِذَا رُزقَ الأَوْلاد فَهُو زَمَان الكَسْب للمُعامَلة، فَإِذَا بلغ الأَرْبَعِين انْتَهَىٰ تَمامُهُ، وقَضَىٰ مَنَاسِكَ الأَجَل، ولَمْ يَبْقَ إِلَّا الانْحِدَارُ إِلىٰ الوطَنِ.

---

(١) الدنف: المريض.

(٢) أي: محاسبة.

كَـأَنَّ الفَتَـىٰ يَرْقَـىٰ مِـنَ العُمْـرِ سُـلَّمًا ** إِلَـىٰ أَنْ يَجُـوزَ الأَرْبَعِـينَ وَيَـنْحَطُّ

فيَنْبغِي لَهُ عِنْدَ تمام الأَرْبَعِين أَنْ يَجعلَ جُلَّ هِمَّته التَّزوُّدَ للآخِرةِ، ويكُونَ كُلُّ تلمُّحِه لمَا بينَ يَدَيْه، ويأخذَ فِي الاسْتِعْدادِ للرَّحِيل، وإنْ كَانَ الخطابُ بِهَذَا لابنِ عِشرِينَ، إلَّا أَنَّ رجاءَ التَّدارُك فِي حَقِّ الصَّغير لا فِي حَقِّ الكَبير.

فَإذَا بلغ السِّتِّين فَقد أَعذرَ اللهُ إِلَيْهِ فِي الأَجَلِ، وجازَ مِن الزَّمنَ أَخْطَرَهُ، فليُقْبِلْ بكُلِّيَّته عَلَىٰ جَمْعِ زادِه، وتَهيئَةِ آلاتِ السَّفر، وليعتَقدْ أَنَّ كُلَّ يَوْم يحيَا فِيهِ غَنيمةٌ مَا هِي فِي الحِسَابِ، خُصُوصًا إِذَا قوي عَلَيهِ الضَّعفُ وزَادَ.

وكُلَّما علَتْ سِنُّه فيَنْبغِي أَنْ يَزيدَ اجْتِهَادُه، فَإِذَا دخلَ فِي عَشرِ الثَّمانينَ فلَيْس إلَّا الودَاع، ومَا بقِيَ مِن العُمرِ إلَّا أسفٌ عَلَىٰ تفرِيطٍ، أَوْ تعبُّدٌ عَلَىٰ ضعفٍ.

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ يقظةً تامَّةً تصرِفُ عنَّا رُقادَ الغفلاتِ، وعَملًا صَالحًا نأمنُ مَعهُ مِن النَّدم يَوْم الانتِقال، واللهُ المُوفِّق.

❁ فَصْل ❁

مَا نَهَى السَّلَفُ عَن الخَوْضِ فِي الكَلَام إِلَّا لِأَمْرٍ عَظِيمٍ

وهُوَ أَنَّ الإنْسَانَ يُرِيدُ أَنْ يَنْظُرَ مَا لَا يَقْوَىٰ عَلَيهِ بَصَرُهُ، فرُبَّمَا تَحَيَّرَ فَخَرَجَ إِلَىٰ الجَحْدِ.

لأَنَّا إِذَا نظرنا فِي ذاتِ الخَالِق حارَ العَقْل وبُهتَ الحِسُّ، فَهُو لا يعرفُ شَيئًا لا بِدَايةَ لَهُ، إِنَّهُ لا يعلمُ إلَّا الجسمَ والجَوهَر والعَرَض، فإثْبَاتُ مَا يخرُج عَنْ ذَاكَ لا يفهَمُه. وإنْ نظرنا فِي أفعالِه رَأيناه يُحكِم البناءَ ثُمَّ يَنقضُهُ، ولا نطَّلع عَلَىٰ تِلْكَ الحِكْمَة. فالأَوْلىٰ للعَاقِلِ أَنْ يكُفَّ كَفَّ التَّطلُّع إلىٰ مَا لا يطيقُ النَّظَر إليهِ.

ومتىٰ قَامَ العقْل، فنظرَ فِي دَلِيل وُجُود الخَالِق بمَصْنوعاتِهِ، وأَجازَ بَعثَةَ نبيٍّ، واسْتدَلَّ بمُعْجِزاتِهِ؛ كفاهُ ذَلِكَ أَنْ يتعرَّض لِمَا قَدْ أُغنيَ عَنْهُ، وإِذَا قَالَ: القُرْآنُ كلامُ الله تَعالَىٰ، بدَلِيل قوله: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]؛ كَفاهُ، وأَمَّا مَن تَحَذْلَقَ فَقَالَ: التِّلاوةُ هِي المَتلوُّ أَوْ غَيْرُ المَتلوِّ، والقراءةُ هِي المَقروءُ أَوْ غَيْرُ المقروءِ؛ فيُضيِّع الزَّمَانَ فِي غَيْر تَحصيلٍ، والمَقصُودُ العَمَلُ بِمَا فَهِم.

وقَدْ حُكِيَ أَنَّ مَلِكًا كَتَبَ إِلىٰ عُمَّاله فِي البُلْدانِ: إِنِّي قادِمٌ عليكُم، فاعمَلُوا كَذا وكَذا، ففَعَلُوا إِلَّا وَاحِدًا مِنْهمْ، فإِنَّه قعدَ يتفكَّر فِي الكِتَاب، فيقولُ: أَتُرىٰ كَتبَهُ بمِدَادٍ أَوْ بِحِبْرٍ؟ أَتُرىٰ كتبَه قائمًا أَوْ قَاعِدًا؟ فَمَا زَالَ يتفكَّر حَتَّىٰ قَدِمَ المَلِكُ ولَمْ يعْمَل مِمَّا أَمَره بِهِ شَيئًا، فأَحسَنَ جَوائزَ الكُلِّ، وقَتلَ هَذا.

فَصْلٌ

لَقَدْ غَفَلَ طُلَّابُ الدُّنْيَا عَن اللَّذَّةِ فِيهَا

ومَا اللَّذَّةُ فِيهَا إِلَّا شَرَفُ العِلْمِ، وزَهْرَةُ العِفَّةِ، وأَنَفَةُ الحَمِيَّةِ، وعِزُّ القَنَاعَةِ، وحَلَاوَةُ الإِفْضَالِ عَلَىٰ الخَلْقِ.

فأَمَّا الالتِذاذُ بالمَطْعَم والمَنْكَح؛ فشُغْلُ جَاهِلٍ باللَّذَّةِ؛ لأَنَّ ذَاكَ لا يُرادُ لنَفْسهِ، بَلْ لإِقَامَةِ العِوَضِ فِي البَدَنِ والوَلَدِ.

وأَيُّ لَذَّة فِي النِّكَاح؛ وهِي قَبْلَ المُباشَرَةِ لا تَحصُل، وفِي حَال المُباشَرَةِ قَلَقٌ لا يَثْبُتُ، وعِنْدَ انْقِضَائِها كَأَنْ لَمْ تكُنْ، ثُمَّ تُثمِرُ الضَّعْفَ فِي البَدَن؟!

وأَيُّ لَذَّةٍ فِي جَمْع المَالِ - فضلًا عَن الحَاجَةِ -؛ فإِنَّه مُسْتَعْبَدٌ للخَازِنِ، يبيتُ حَذِرًا عَلَيه، ويدعُوه قَليلُه إِلىٰ كثيرِه؟!

وأيُّ لَذَّة فِي المَطْعمِ؛ وعِنْدَ الجُوعِ يستَوِي خَشِنُهُ وحَسَنُهُ، فَإِنِ ازدادَ الأَكْلُ خاطَرَ بنَفْسِه.

قَالَ عَليُّ بْنُ أَبي طَالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «بُنِيَتِ الفتنةُ عَلَىٰ ثلاثٍ: النِّسَاءُ؛ وهُنَّ فخُّ إبْلِيسَ المنصُوبُ، والشَّرابُ؛ وهُوَ سَيْفُهُ المُرهفُ، والدِّينارُ والدِّرهمُ؛ وهُما سَهماهُ المَسمُومانِ».

فمَنْ مَال إلىٰ النِّسَاء لَمْ يَصْفُ لَهُ عيشٌ، ومَنْ أحبَّ الشَّرابَ لَمْ يُمتَّع بعقلِهِ، ومَن أحبَّ الدِّينارَ والدِّرهمَ كَانَ عَبْدًا لهما مَا عاشَ.

فصل

أَصْلُ كُلِّ مِحْنَةٍ فِي العَقَائِدِ قِيَاسُ أَمْرِ الخَالِقِ عَلَى أَحْوَالِ الخَلْقِ

فَإِنَّ الفلاسفةَ لَمَّا رأَوْا إيجادَ شَيْءٍ لا مِن شَيْءٍ كالمُستحِيل فِي العاداتِ؛ قَالُوا بقِدَم العَالَمِ، ولمَّا عَظُمَ عِنْدَهم فِي العَادَةِ الإحَاطةُ بكلِّ شَيْءٍ؛ قَالُوا: إنَّهُ يعلَمُ الجُمَلَ لا التَّفاصِيلَ، ولمَّا رأَوْا تَلَفَ الأبْدَانِ بالبِلَىٰ؛ أنكرُوا إعادَتَها، وقَالُوا: الإعادَةُ رُجُوعُ الأَرْوَاح إلىٰ معادِنِها!

وكلُّ مَن قَاسَ صِفَةَ الخَالِق عَلَىٰ صفاتِ المَخلوقِينَ خَرجَ إلىٰ الكُفرِ؛ فَإِنَّ المُجسِّمةَ دخلُوا فِي ذَلِكَ لأنَّهُم حَملُوا أَوْصَافَه عَلَىٰ مَا يعقِلونَ.

وكَذَلكَ تدبيرُه عَزَّ وَجَلَّ؛ فَإِنَّ مَن حمَلَه عَلَىٰ مَا يُعقلُ فِي العَاداتِ؛ رَأَىٰ ذبحَ الحَيَوَان لا يُستحسَنُ، والأمراضَ تُستقبَحُ، وقِسْمَةَ الغِنَىٰ للأبلَهِ والفقرِ للجَلْدِ العَاقِل أَمرًا يُنافِي الحِكْمَةَ، وهَذَا فِي الأوضَاعِ بينَ الخَلْق، فأَمَّا الخَالِق سُبْحَانَه فَإِنَّ العَقْل لا ينتَهي إلىٰ حِكمتِه، بَلَىٰ؛ قَدْ ثَبتَ عِنْده وجُودهُ وملكَهُ وحِكمتَهُ؛ فتعرُّضه بالتَّفاصيلِ عَلَىٰ مَا تَجْري بِهِ عَاداتُ الخَلْقِ جَهْلٌ.

أَلا تَرىٰ إلىٰ أوَّلِ المُعْتَرِضِينَ - وهُوَ إبْلِيسُ - كَيْفَ ناظَرَ فَقَالَ: ﴿ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ ﴾ [الأعراف: ١٢]، وقولِ خَليفتِهِ - وهُوَ أَبُو العَلاءِ المعَرِّي -:

رَأَىٰ منكَ مَا لا يَشْتَهِي فتَزَنْدَقَا

ونَسْأَلُ اللهَ ﷻ توفيقًا للتَّسليم، وتَسليمًا للحَكِيم، ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا ﴾ [آل عمران: ٨].

أتُرَىٰ نَقْدرُ عَلَىٰ تَعْليلِ أَفعالِه، فَضْلًا عَنْ مُطالعَةِ ذَاتِه؟! وكَيفَ نَقيسُ أَمرَه عَلَىٰ أَحْوالِنا؟! فَإذَا رَأينَا نبيَّنا ﷺ يَسْأَلُ فِي أُمِّه وعَمِّه؛ فَلا يُقبلُ مِنْهُ، ويتقلَّبُ جَائعًا؛ والدُّنْيَا ملكُ يَدِه، ويُقْتَلُ أَصْحَابُه؛ والنَّصْرُ بيدِ خالِقِه؛ أَوَلَيْسَ هَذَا مِمَّا يُحيِّرُ؟! فمَا لَنَا والاعتِراضُ عَلَىٰ مَالكٍ، قَدْ ثبتَتْ حِكمتُه، واستقَرَّ مُلكُه.

۞ فَصْل ۞

تَأمَّلتُ عَجَبًا، وهُوَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ نَفِيسٍ خَطِيرٍ يَطُولُ طَرِيقُهُ وَيَكْثُرُ التَّعَبُ فِي تَحْصِيلِهِ

فَإِنَّ العِلْم لَمَّا كَانَ أشرفَ الأَشْيَاء؛ لَمْ يُحصَّلْ إلَّا بالتَّعبِ والسَّهر والتِّكرار وهَجرِ اللَّذَّاتِ والرَّاحَة، حَتَّىٰ قَالَ بَعْضُ الفُقَهَاء: «بقِيتُ سِنينَ أَشتَهي الهَرِيسَةَ، لا أقدِرُ؛ لأَنَّ وقتَ بَيْعِها وقتُ سَمَاع الدَّرسِ»!

ونَحْوُ هَذَا: تَحصيلُ المَالِ؛ فإنَّه يحْتَاج إلىٰ المُخاطَرات والأَسْفارِ والتَّعبِ الكَثيرِ، وكَذَلكَ نيلُ الشَّرف بالكَرَم والجُودِ، فإنَّه يفتقرُ إلىٰ جِهَاد النَّفْسِ فِي بذلِ المَحبوبِ، ورُبَّما آلَ إلىٰ الفَقْر، وكَذَلكَ الشَّجاعةُ؛ فإنَّها لا تَحصُلُ إلَّا بالمُخاطَرة بالنَّفْسِ.

قَالَ الشَّاعِر:

لَـوْلَا المَـشَقَّةُ سَـادَ النَّـاسُ كُلُّهُـمُ ** الجُـودُ يُفْقِـرُ وَالإِقْـدَامُ قَتَّـالُ

ومِن هَذَا الفَنِّ: تَحصيلُ الثَّوابِ فِي الآخِرَة؛ فإنَّه يزيد عَلَىٰ قُوَّة الاجْتِهَاد والتَّعبُّد، أوْ عَلَىٰ قَدْرِ وقْعِ المَبذُول مِن المَالِ فِي النَّفْس، أوْ عَلَىٰ قَدرِ الصَّبْر عَلَىٰ فَقْدِ المَحبُوب ومَنع النَّفْس مِنَ الجزَعِ، وكَذَلكَ الزُّهْدُ يحْتَاج إلىٰ صَبْرٍ عَنِ الهَوَىٰ، والعفَافُ لا يَكُونُ إلَّا بكفِّ كَفِّ الشَّرَهِ.

ولَوْلا مَا عَانَىٰ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَام مَا قِيلَ لَهُ: ﴿أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ [يوسف:٤٦].

وللهِ أقْوَامٌ مَا رَضُوا مِن الفَضَائلِ إلَّا بتَحْصِيلِ جَميعِها، فهُمْ يُبالِغُون فِي كُلِّ عِلمٍ، ويجتهدونَ فِي كُلِّ عمَلٍ، ويُثابِرونَ عَلَىٰ كُلِّ فَضِيلَةٍ، فَإِذَا ضَعُفَتْ أَبدَانُهم عَنْ بَعْضِ ذَلِكَ قامَتِ النِّيَّاتُ نائبةً، وهُمْ لَهَا سَابقُونَ، وأكمَلُ أَحْوالِهِمْ إعرَاضُهم عَنْ أعمَالِهِم، فهُمْ يَحْتَقِرونَها معَ التَّمام ويعتذِرون مِن التَّقصِير، ومِنْهُم مَن يَزِيدُ عَلَىٰ هَذَا، فيَتشَاغَل بالشُّكر عَلَىٰ التَّوفِيقِ لِذلِكَ، ومِنْهُم مَن لا يَرَىٰ مَا عَمِلَ أَصلًا؛ لأنَّهُ يَرَىٰ نَفْسَه وعَمَلَه لسَيِّدِهِ.

وبالعكسِ مِن المَذْكُورِ عَنْ أرْبَاب الاجْتِهَاد: حَالُ أَهْل الكَسَل والشَّرَهِ والشَّهَوَات؛ فَلَئِنِ الْتَذُّوا بِعَاجِلِ الرَّاحَةِ؛ لَقَد أَوْجَبَتْ مَا يَزِيدُ عَلَىٰ كُلِّ تَعَبٍ مِن الأَسَفِ والحَسْرَةِ، ومَنْ تَلَمَّح صَبرَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَام وعجَلَةَ مَاعِزٍ؛ بانَ لَهُ الفَرْقُ، وفَهِمَ الرِّبحَ مِن الخُسْرانِ. ولَقَدْ تَأَمَّلتُ نَيلَ الدُّرِّ مِن البحرِ؛ فرَأَيْتُه بَعدَ مُعاناةِ الشَّدائِدِ.

ومَن تفَكَّر فِيمَا ذَكَرْتُه مَثَلًا بَانَت لَهُ أمثالٌ، فالموفَّقُ مَن تَلمَّح قِصَر المَوْسِم المَعمُولِ فِيهِ، وامتدادَ زَمَانِ الجَزاءِ الَّذِي لا آخرَ لَهُ، فَانتهبَ حَتَّىٰ اللَحْظَة، وزَاحَم كُلَّ فَضِيلَةٍ؛ فإنَّها إِذَا فاتَتْ فَلا وَجْه لاستدْرَاكها، أوَلَيسَ فِي الحَدِيث: «**يُقَال**

للرجل: اقرَأْ وارقَ؛ فمَنْزِلكَ عِنْدَ آخرِ آيةٍ تقرؤُها»[١]. فلَوْ أَنَّ الفِكرَ عَملَ فِي هَذَا حَقَّ العَمَلِ؛ حَفِظَ القُرْآنَ عَاجِلًا.

فَصْلٌ

لَيْسَ المُؤمِنُ بالَّذي يُؤَدِّي فَرَائِضَ العِبَادَاتِ صُورَةً وَيَتَجَنَّبُ المَحْظُورَاتِ فَحَسْبُ

إِنَّمَا المُؤمِنُ الكَامِلُ الإِيمَانِ لَا يَخْتَلِجُ فِي قَلْبِهِ اعْتِرَاضٌ، ولَا يُسَاكِنُ نَفْسَهُ فِيمَا يَجْرِي وَسْوَسَةٌ، وكُلَّمَا اشتدَّ البَلاءُ عَلَيهِ زَادَ إِيمَانُهُ وَقَوِيَ تَسْلِيمُهُ.

وقَدْ يَدْعُو؛ فَلا يَرَىٰ للإِجَابَةِ أَثَرًا، وسِرُّهُ لا يتغيَّرُ؛ لأَنَّهُ يعلمُ أَنَّهُ مَمْلُوكٌ، ولَهُ مالكٌ يتصرَّفُ بمُقتضَىٰ إرَادَتِه، فَإِنِ اختَلَجَ فِي قَلبِه اعتِراضٌ خَرَجَ مِن مَقامِ العُبودِيَّةِ إلىٰ مَقامِ المُناظَرة، كَمَا جَرَىٰ لإبْلِيسَ، والإِيمَانُ القويُّ يَبِينُ أَثَرُه عِنْدَ قُوَّة البَلاءِ.

فأَمَّا إِذَا رَأينا مثل يَحيَىٰ بْن زكريَّا عليه السلام؛ يتسلَّطُ عَلَيهِ فاجرٌ، فيأمرُ بذبحِه، فيُذبحُ، ورُبَّما اخْتلَجَ فِي الطَّبْع أَنْ يَقُولَ: فهلَّا رَدَّ عَنْهُ مَن جَعلَهُ نبيًّا! وكَذَلكَ كُلُّ تَسَلُّطٍ مِن الكُفَّار عَلَىٰ الأنْبيَاء والمُؤْمِنينَ، ومَا وقع رُدَّ عنهُم؟!

فَإِنْ هجَسَ بالفِكرِ أَنَّ القُدرةَ تعجَزُ عَنْ الرَّدِّ عَنْهُم؛ كَانَ ذَلِكَ كُفرًا. وإِنْ عَلِمَ أَنَّ القُدرةَ مُتمكِّنةٌ مِن الرَّدِّ ومَا رَدَّت، وأَنَّ اللهَ قَدْ يُجيعُ المُؤْمِنينَ، ويُشبعُ الكُفَّارَ، ويُعافِي العُصاةَ، ويُمرِضُ المُتَّقينَ؛ لَمْ يَبْقَ إِلَّا التَّسْلِيمُ للمَالِك، وإِنْ

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (١٤٦٤)، والترمذي (٢٩١٤) وقال: حسن صحيح، وأحمد (٦٧٩٩)، والحاكم (٢٠٣٠) من حديث عبد الله بن عمرو.

أَمَضَّ وأَرْمَضَ(١).

وقَد ذَهَبَ يُوسُفُ بْنُ يعقوبَ عليهما السلام فبكَىٰ يَعقوبُ ثَمانينَ سَنةً ثُمَّ لَمْ يَيْأَسْ، فَلَمَّا فقَدَ ابنَهُ الآخرَ قَالَ: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًا﴾ [يوسف: ٨٣].

وقَدْ دَعَا مُوسَىٰ عليه السلام عَلَىٰ فِرْعَوْنَ، فأُجِيبَ بَعدَ أَرْبَعِين سَنَة، وكَانَ يَذبَحُ الأنْبِيَاءَ ولا ترُدُّه القُدرَةُ القَدِيمةُ العظيمةُ، وصَلبَ السَّحَرَةَ، وقطَّعَ أَيْدِيَهم.

وكَمْ من بَليَّةٍ نَزلَتْ بمُعظَّمِ القدْرِ، فَمَا زادَهُ ذَلِكَ إلَّا تَسلِيمًا ورِضًىٰ؛ فهُنَاكَ يَبِينُ مَعْنَىٰ قولِهِ: ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [البينة:٨]، وهَاهُنَا يَظهرُ قَدْرُ قُوَّةِ الإيمَان؛ لا فِي ركعاتٍ، قَالَ الحسنُ البصريُّ: «استوَىٰ النَّاسُ فِي العَافِيَةِ، فَإذَا نَزلَ البَلاءُ تبايَنُوا».

فَصْلٌ

أَضَرُّ مَا عَلَى العَوامِّ المُتَكَلِّمُونَ فَإِنَّهُمْ يَخْلِطُونَ عَقَائِدَهُمْ بِمَا يَسْمَعُونَهُ مِنْهُمْ

مِنْ أَقْبحِ الأَشْيَاءِ أَنْ يَحضُرَ العَامِّيُّ الَّذِي لا يَعرِف أَرْكَانَ الصَّلاةِ ولا الرِّبَا فِي البيعِ مَجْلِسَ الوَعظِ، فَلا يَنْهاهُ عَنِ التَّوانِي فِي الصَّلاةِ، ولا يُعلِّمهُ الخَلاصَ مِنِ الرِّبَا، بَلْ يَقُولُ لَهُ: القُرْآن قَائمٌ بالذَّاتِ، والَّذِي عِندَنا مَخلُوقٌ! فيَهونُ القُرْآنُ عِنْدَ ذَلِكَ العَامِّيِّ، فيَحلِفُ بِهِ عَلَىٰ الكَذبِ.

وَيْحُ المُتكلِّمِ! لَوْ كَانَ لَهُ فَهمٌ لَعلِمَ أَنَّ اللهَ تعالى نَصبَ أَعلامًا تَأْنَس بِهَا النُّفُوسُ

(١) أمض: أوجع وآلم. وأرمض: أحرق.

وتَطمئنُّ إلَيها؛ كَالكَعْبَةِ - وسَمَّاهَا بَيْتَهُ -، والعَرْشِ - وذَكَرَ استَواءَه عَلَيهِ -، وذَكَرَ من صِفاتِه: اليَدَ، والسَّمْعَ، والبَصرَ، والعَينَ، ويَنزِلُ إلىٰ السَّماءِ الدُّنْيا، ويَضحكُ؛ وكُلُّ هَذا لتَأنسَ النُّفُوسُ بالعَاداتِ، وقَد جلَّ عمَّا تضمَّنَتهُ هَذِهِ الصِّفَاتُ مِن الجَوارِحِ.

وكَذَلكَ عَظَّم أمْرَ القُرْآنِ، ونَهىٰ المُحْدِثَ أَنْ يَمسَّ المُصحَفَ، فآلَ الأَمْرُ بقَومٍ مِن المُتكلِّمِينَ إلىٰ أَنْ أجَازُوا الاستِنجَاءَ بِهِ، فهَؤُلاءِ عَلَىٰ مُعانَدةِ الشَّرِيعَةِ؛ لأنَّهُم يُهينُونَ مَا عظَّمَ الشَّرْعُ، وهَل الإيغَالُ فِي الكَلامِ مِمَّا يُقرِّبُ إلىٰ مَعْرِفَة الحَقَائِق الَّتِي لا يُمكنُ خِلافُها، هَيهَاتَ! لَوْ كَانَ كذَلِكَ مَا وَقعَ بينَ المُتكلِّمِينَ خلافٌ.

أوَلَيْسَ الشَّرْبُ الأَوَّلُ مَا تكلَّمُوا فِي شَيْءٍ مِن هَذا، وإنْ كَانُوا تعرَّضوا ببعْضِ الأُصُولِ. ثُمَّ جَاءَ فُقهاءُ الأمْصارِ، فنَهَوا عَنِ الخَوْضِ فِي الكَلامِ؛ لعِلمِهم مَا يُجلَبُ ومَا يُجْتَنَبُ، ومن لَمْ يَقنَع بعَقيدةِ مِثل الصَّحَابَةِ، ولا بطَرِيقٍ مِثلَ طَرِيقِ أَحْمَدَ والشَّافِعيِّ فِي تَركِ الخَوضِ؛ فَلا كَانَ من كَانَ.

ثُمَّ باللهِ تأمَّلُوا؛ أليسَ قَدْ وَجبَ عَلَينَا هَجْرُ الرِّبَا بقَوْلِه تَعالَىٰ: ﴿لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾ [آل عمران: ١٣٠]، وهَجرُ الزِّنَا بقَولِهِ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء ٣٢]. فأيُّ فَائدةٍ لَنَا فِي ذِكرِ قِراءةٍ ومَقروءٍ، وتِلاوةٍ ومَتلوٍّ، وقَديمٍ ومُحدَثٍ؟!

فإنْ قِيلَ: فَلا بُدَّ من اعْتِقَادٍ. قُلنَا: طَرِيقُ السَّلَفِ أوضَحُ مَحجَّةٍ، لأنَّا لا نَقُولهُ تَقليدًا، بَلْ بالدَّلِيلِ؛ ولكِنَّا لَمْ نَستفِدْهُ عَنْ جَوهرٍ وعَرَضٍ وجُزءٍ لا يَتجزَّأُ، بَلْ بأدلَّةِ النَّقْلِ، معَ مُساعَدةِ العَقْلِ؛ من غَيْر بَحثٍ عمَّا لا يحْتَاجُ إلَيْهِ، ولَيْسَ هَذا مَكان الشَّرحِ.

فَصْلٌ

مَا زِلْتُ عَنْ عَادَةِ الخَلْقِ فِي الحُزْنِ عَلَى مَن يَمُوتُ مِن الأَهْلِ والأَوْلادِ وَلَا أَتَخَايَلُ إِلَّا بِلَى الأَبْدَانِ فِي القُبُورِ؛ فَأَحْزَنُ لِذلِكَ

فمرَّتْ بي أحَادِيثُ، قَدْ كَانَتْ تَمرُّ بِي ولا أتفكَّر فِيهَا، مِنهَا قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «**إنَّما نَفسُ المُؤمِن طَائرٌ تَعلَّق فِي شَجرِ الجَنَّةِ حَتَّىٰ يَردَّه اللهُ إلىٰ جَسدِه يَوْمَ يَبعثُه**»[1]، فرَأيْتُ أَنَّ الرَّحيلَ إلىٰ الرَّاحةِ، وأنَّ هَذَا البَدَنَ لَيس بشَيْءٍ؛ لأَنَّهُ مُركَّبٌ تفكَّكَ وفَسَدَ، وسَيُبنَىٰ جَديدًا يَوْم البَعثِ؛ فَلا يَنْبغِي أَنْ يُتَفكَّرَ فِي بِلاهُ، ولْتَسْكُنِ النَّفْسُ إلىٰ أَنَّ الأَرْوَاحَ انتقلتْ إلىٰ رَاحةٍ، فَلا يَبْقَىٰ كَبيرُ حُزنٍ، وأنَّ اللقاءَ للأَحْبابِ عَنْ قُرْبٍ.

وإنَّمَا يَبْقَىٰ الأَسَفُ لتَعلُّقِ الخَلْقِ بالصُّوَرِ، فَلا يَرَىٰ الإنْسَانُ إِلَّا جَسَدًا مُسْتَحْسَنًا قَدْ نُقِضَ، فيَحزنُ لنَقضِه، والجَسَدُ لَيسَ هُوَ الآدَميَّ، وإنَّما هُوَ مُركَّبُهُ، فالأَرْوَاحُ لا ينالُها البِلَىٰ، والأَبْدَانُ لَيسَتْ بشَيْءٍ.

واعْتَبِرْ هَذَا بِمَا إِذَا قَلَعْتَ ضِرسَكَ ورَميتَه فِي حُفرةٍ، فهل عِنْدك خَبرٌ مِمَّا يَلقىٰ فِي مُدَّة حَياتِك؟ فحُكمُ الأبْدَان حُكمُ ذَلِكَ الضِّرسِ، لا تَدرِي النَّفْسُ مَا يَلقىٰ.

ولا يَنْبغِي أَنْ تَغْتَمَّ بتَمزيقِ جَسدِ المَحبوبِ وبِلاهُ، واذكُرْ تَنعُّمَ الأَرْوَاحِ، وقُربَ التَّجديدِ، وعَاجِلَ اللِّقَاءِ؛ فَإِنَّ الفِكرَ فِي تَحقِيقِ هَذَا يُهوِّن الحُزنَ ويُسهِّلُ الأَمرَ.

---

(١) **صحيح**: أخرجه مالك (٦٤٣)، والنسائي (٢٠٧٣) وفي «الكبرىٰ» (٢٢١١)، والترمذي (١٦٤١) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (١٤٤٩، ٤٢٧١)، وأحمد (١٥٧٧٦، ١٥٧٧٧، ١٥٧٧٨) من حديث كعب بن مالك. وقال ابن الملقن في «التوضيح لشرح الجامع الصحيح» (١٧/ ٤١٠): «إسناده جيد» وقال ابن العربي في «عارضة الأحوذي» (٤/ ١٢٥): «صحيح جدًّا» وقال ابن كثير في «تفسيره» (٨/ ٢٧): «متنه قويم» وقال ابن حجر في «توالي التأسيس» (١/ ٢٠٣): «صحيح».

❁ فَصْل ❁

يَنْبغِي للعَاقِلِ أَنْ لا يَتَكلَّم فِي الخَلْوَة عَنْ أَحَدٍ بِشَيْءٍ حَتَّى يَمْثُلَ ذَلِكَ الشَّيءُ ظَاهرًا مُعْلَنًا بِهِ، ثُمَّ يَنظُر فِيمَا يَجْنِي

فرُبَّ رَجُلٍ وَثِقَ بصِدقٍ، فتكلَّم أَمَامهُ عَنْ سُلطانٍ بأمرٍ فبَلغَه فأهْلكَه، أوْ عَنْ صَديقٍ فبَلغهُ فوَقعَتِ الوَاقِعَةُ.

وكَذَلكَ يَنْبغِي كَتمُ المَذاهبِ؛ فإِنَّه مَا يَربَحُ مُظْهِرُها إلَّا المُعادَاةَ.

ولمَّا صرَّحَ الشَّريفُ أَبُو جَعفَر فِي زَمَانِ المُقتدِي بمُخَالفَةِ الأشَاعرَةِ، أُخِذَ وَحُبِسَ حَتَّىٰ ماتَ، وكَانَ المَقصِدُ قَطعَ الفِتنِ وإِصْلاحَ الرَّعيَّةِ؛ فإِنَّه أَهَمُّ إلىٰ السُّلطانِ من التَّعصُّبِ لمَذْهَبٍ.

❁ فَصْل ❁

رَأَيْتُ كَثيرًا مِن المُغفَّلينَ يَظْهَرُ عَلَيهِم السَّخَطُ بِالأَقْدَارِ

وفِيهِم مَن قَلَّ إيمانُهُ، فأخذ يَعترِضُ، وفِيهِم مَن خَرَجَ إلىٰ الكُفرِ ورَأَىٰ أَن مَا يجْرِي كالعَبَثِ.

وقَالَ: مَا فَائدَةُ الإعْدامِ بَعدَ الإيجادِ، والابتِلاءِ مِمَّنْ هُوَ غَنيٌّ عَنْ أذَانَا؟!

فَقُلتُ لبَعضِ من كَانَ يَرْمِزُ إلىٰ هَذا: إنْ حَضَرَ عَقْلُكَ وقَلْبكَ حدَّثتُك، وإنْ كُنْتَ تَتكلَّمُ بمُجرَّدِ وَاقعِك من غَيرِ نَظرٍ وإنْصافٍ فالحَدِيثُ مَعكَ ضَائعٌ، وَيحكَ! أَحْضِرْ عَقلَك، واسْمَعْ مَا أَقُولُ:

أليسَ قَدْ ثَبتَ أَنَّ الحَقَّ سُبْحَانَه مَالكٌ، وللمَالكِ الحَقُّ أَنْ يَتصَرَّف كَيْفَ يَشاءُ؟! أليسَ قَدْ ثَبتَ أَنَّهُ حَكيمٌ، والحَكيمُ لا يَعبَثُ؟!

وأنَا أعْلَمُ أَنَّ فِي نَفْسِكَ مِن هَذِهِ الكَلِمَة شَيئًا، فإنَّه قَدْ سَمعْنا عَنْ جَالينُوس أَنَّهُ قَالَ: مَا أدْرِي أحَكيمٌ هُوَ أمْ لا؟!

والسَّبَب في قَولِهِ هذا أَنَّهُ رَأَىٰ نَقضًا بَعدَ إحْكام، فقَاسَ الحَالَ عَلَىٰ أَحْوَالِ الخَلْقِ، وهُوَ أَنَّ مَنْ بَنَىٰ ثُمَّ نَقضَ لا لمَعْنًىٰ؛ فلَيْسَ بحَكيمٍ.

وجَوابُه: لَوْ كَانَ حَاضرًا أَنْ يُقالُ: بمَاذَا بانَ لَكَ أَنَّ النَّقضَ لَيسَ بحِكمةٍ؟ أَلَيسَ بعَقلِك الَّذي وهَبَهُ الصَّانع لَكَ؟ وكَيفَ يَهبُ لَكَ الذِّهنَ الكَاملَ ويَفوتُه هُوَ الكَمَالُ؟!

وهَذِهِ هي المِحنَة الَّتِي جَرتْ لإبْليسَ، فإنَّه أخَذَ يَعيبُ الحِكْمَةَ بعَقلِهِ، فلو تَفكَّر عَلم أَنَّ واهِبَ العَقْلِ أعْلىٰ من العَقْلِ، وأنَّ حِكمَته أوْفَىٰ من كُلِّ حَكيمٍ؛ لأَنَّهُ بحِكمتِهِ التَّامَّةِ أنْشأَ العُقُولَ.

فَهذَا إذَا تأمَّلهُ المُنْصِفُ زَالَ عَنْهُ الشَّكُّ.

وقَدْ أشارَ سُبْحَانَه إلىٰ نَحوِ هَذَا فِي قَولِهِ تَعالَىٰ: ﴿ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾ [الطور: ٣٩]، أيْ: أجَعلَ لنَفْسهِ النَّاقِصاتِ وأعطَاكُم الكَامِلينَ؟!

فلَمْ يَبْقَ إلَّا أَنْ نُضيفَ العَجْزَ عَنْ فَهمِ مَا يجْرِي إلىٰ نَفسِنا، ونَقُولَ: هَذَا فعلُ عَالِمٍ حَكيمٍ، ولَكِنْ مَا يَبِينُ لَنَا مَعناهُ.

ولَيْسَ هَذَا بعَجَبٍ؛ فَإنَّ مُوسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَفيَ عَلَيهِ وَجْهُ الحِكْمَةِ فِي نَقضِ السَّفينةِ الصَّحِيحةِ، وقَتلِ الغُلامِ الجَميلِ، فَلَمَّا بَيَّن لَهُ الخَضِرُ وَجْهَ الحِكْمَةِ أَذْعنَ؛ فليَكنِ المَرءُ مع الخَالِقِ كمُوسَىٰ مع الخَضِر.

أَوَلسنَا نَرَىٰ المَائدةَ المُستَحسَنة بِمَا عَليْهَا مِن فُنونِ الطَّعَامِ النَّظيفِ الظَّريفِ يُقْطَعُ ويُمْضَغُ ويَصيرُ إلىٰ مَا نَعلَمُ، ولسْنَا نَملكُ تَركَ الأفْعَالِ، ولا نُنكِرُ الإفْسادَ لَهُ؛ لعِلمِنا بالمَصلَحَةِ البَاطِنةِ فِيهِ، فَمَا المَانِعُ أَنْ يَكُونَ فِعلُ الحَقِّ سُبْحَانَه لَهُ بَاطِنٌ لا نَعلمُه؟!

ومن أجْهَلِ الجُهَّالِ العَبْدُ المَملوكُ إِذَا طَلَبَ أَنْ يطَّلعَ عَلَىٰ سِرِّ مَولاهُ، فَإِنَّ فَرضَهُ التَّسْلِيمُ لا الاعتِراضُ، ولَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الابتِلاءِ بِمَا تُنكرُه الطِّبَاع إلَّا أَنْ يُقْصَدَ إذعَانُ العَقْلِ وتَسليمُهُ؛ لكَفَىٰ.

ولَقَدْ تَأمَّلتُ حَالَةً عَجِيبةً، يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ المَقصُودُ بالمَوْتِ هي، وذَلِكَ أَنَّ الخَالِقَ سُبْحَانَه فِي غَيبٍ، لا يُدركَه الإحْسَاسُ، فلو أَنَّهُ لَمْ يَنقُض هَذِهِ البِنيَةَ؛ لتَخايَلَ للإِنْسَانِ أَنَّهُ صُنعٌ لا بصَانعٍ، فَإِذَا وقَعَ المَوْتُ عَرفَتِ النَّفْسُ نَفْسَها الَّتِي كَانَتْ لا تَعرِفُها؛ لكَونِها فِي الجَسَدِ وتُدرِكُ عَجائِبَ الأُمُورِ بَعدَ رَحيلِها، فَإِذَا رُدَّتْ إلىٰ البَدَنِ عَرفَتْ ضَرورةً أَنَّهَا مَخلوقةٌ لمَنْ أَعادَها، وتَذكَّرَتْ حَالَها فِي الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ الذِّكرياتِ تُعادُ كَمَا تُعادُ الأبْدَانُ، فيقُولُ قَائِلُهم: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴾ [الطور: ٢٦]، ومَتىٰ رَأَتْ مَا قَدْ وُعِدتْ بِهِ مِن أمُورِ الآخِرَةِ، أيقَنَتْ يَقينًا لا شَكَّ مَعهُ، ولا يَحصُلُ هَذَا بإعَادةِ مَيِّتٍ سِواهَا، وإنَّمَا يَحصُل برُؤيَةِ هَذَا الأَمْر فِيهَا، فتُبنَىٰ بِنيةً تَقبلُ البَقاءُ، وتَسكُنُ جَنَّةً لا يَنقضِي دَوامُها، فيَصلُح بذَلِكَ اليَقينُ أَنْ تُجاوِرَ الحَقَّ؛ لأَنَّهَا آمَنتْ بِمَا وَعدَ، وصَبرَت بِمَا ابتَلَىٰ، وسَلَّمتْ لأقْدارِه، فَلم تَعترضْ، ورَأتْ فِي غَيرِها العِبرَ، ثُمَّ فِي نَفْسها؛ فهَذِهِ هي الَّتِي يُقَال لَهَا: ﴿ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرۡضِيَّةً ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴾ [الفجر: ٢٨-٣٠].

فأَمَّا الشَّاكُّ والكَافرُ؛ فيَحقُّ لَهمَا الدُّخُولُ إلىٰ النَّارِ واللُّبثُ فِيها؛ لأَنَّهُما رَأَيَا الأدِلَّةَ ولَمْ يَستفيدَا، ونَازَعا الحَكيمَ واعْتَرَضا عَلَيهِ، فعَادَ شُؤمُ كُفرِهما يَطمِسُ

قُلوبَهمَا، فبَقيَتْ نُفوسُهما عَلَىٰ مَا كَانَتْ عَلَيهِ، فَلَمَّا لَمْ تَنْتَفِع بالدَّلِيل فِي الدُّنْيَا لَمْ تَنتفعْ بالمَوْتِ والإعَادةِ، ودَلِيلُ بقَاءِ الخُبثِ فِي القُلُوبِ قَولُه تَعالَىٰ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

فنَسْأَلُ اللهَ ﷻ عقلًا مُسَلِّمًا، يَقِفُ عَلَىٰ حَدِّهِ، ولا يَعترِضُ عَلَىٰ خَالقِه ومُوجِدِهِ، ثُمَّ الوَيلُ للمُعترِض، أيَردُّ اعتِراضُه الأَقْدَارَ؟ فَمَا يَستفيدُ إِلَّا الخِزيَ، نَعُوذُ باللهِ مِمَّنْ خُذِلَ.

فَصْلٌ

لا يَنْبغِي للمُؤمِن أَنْ يَنْزَعِجَ مِن مَرَضٍ، أَوْ نُزُولِ مَوْتٍ

وإِنْ كَانَ الطَّبْعُ لا يُملَكُ؛ إِلَّا أَنَّهُ يَنْبَغِي لَهُ التَّصبُّرُ مَهْمَا أَمْكَنَ؛ إِمَّا لطَلَبِ الأَجْرِ بِمَا يُعانِي، أَوْ لِبيانِ أَثَرِ الرِّضَىٰ بالقَضَاءِ، ومَا هي إِلَّا لَحظَاتٌ ثُمَّ تَنْقَضِي.

وَلْيتفكَّرِ المُعافَىٰ مِن المَرَضِ فِي السَّاعَاتِ الَّتِي كَانَ يَقْلَقُ فِيهَا، أَيْنَ هي فِي زَمَان العَافِيَة؟ ذَهَبَ البَلاءُ وحَصلَ الثَّوابُ، كَمَا تذهبُ حَلاوَةُ اللَّذَّاتِ المُحرَّمةِ ويَبقَىٰ الوِزْرُ، ويَمضِي زَمَانُ التَّسخُّطِ بالأَقْدَارِ ويَبقَىٰ العِتابُ، وهَل المَوْتُ إِلَّا آلامٌ تَزيدُ، فَتَعْجَزُ النَّفْسُ عَنْ حَمْلِها، فتَذهبُ؟!

فليَتصوَّرِ المَرِيضُ وُجُودَ الرَّاحَةِ بَعدَ رَحيلِ النَّفْسِ، وقَدْ هَانَ مَا يَلقَىٰ، كَمَا يتصوَّر العَافِيَةَ بَعدَ شُربِ الشَّرْبةِ المُرَّةِ، ولا يَنْبغِي أَنْ يَقعَ جَزَعٌ بذِكرِ البِلىٰ، فَإِنَّ ذَلِكَ شَأْنُ المُركَّب، أَمَّا الرَّاكِبُ ففي الجَنَّةِ أَوْ فِي النَّارِ، وإِنَّمَا يَنْبغِي أَنْ يَقَع الاهتِمامُ الكُلِّيُّ بِمَا يَزِيدُ فِي دَرجاتِ الفَضائِل قبلَ نزُول المُعوِّق عَنهَا.

فَالسَّعيدُ مَنْ وُفِّقَ لاغتنَامِ العَافِيَةِ، ثُمَّ يَختارُ تَحصيلَ الأفْضَل فالأفضَل فِي زَمَنِ الاغتنَامِ، وليعْلَمْ أَنَّ زِيَادَةَ المَنازِلِ فِي الجَنَّةِ عَلَىٰ قَدْرِ التَّزيُّدِ مِن الفَضائِلِ هَاهُنَا، والعُمرُ قَصيرٌ، والفَضائلُ كَثيرَةٌ؛ فلْيبَالِغْ فِي البِدَارِ؛ فيَا طُولَ رَاحةِ التَّعِبِ، ويَا فَرحةَ المَغمُوم، ويَا سُرورَ المَحزُونِ، ومَتىٰ تَخايلَ اللَّذَّةَ فِي الجَنَّةِ مِن غَيْر مُنغِّصٍ ولا قَاطِعٍ هَانَ عَلَيهِ كُلُّ بَلاءٍ وشدَّةٍ.

فَصْل

حَضَرْنَا يَوْمًا جِنازَةَ شَابٍّ مَاتَ أَحْسَنَ مَا كَانَت الدُّنْيَا لَهُ

فرَأيْت مِنْ ذَمِّ النَّاسِ للدُّنيَا، وعيبِ مَن سَكَنَ إلَيها، والتَّقْبِيح للغَافِلينَ عَن الاستِعدادِ لِهَذَا المَصْرَعِ أمرًا كَبيرًا مِن الحَاضِرين، فقُلْتُ: نِعمَ مَا قُلتُمْ؛ ولَكِن اسمَعُوا مِنِّي مَا لَمْ تَسْمَعُوه:

أَعْجَبُ الأَشْيَاء أَنَّ العَاقِلَ إِذَا عَلمَ قُرْبَ هَذَا المَصرَع مِنْهُ أَوْجَبَ عَلَيهِ عَقلُهُ البِدَارَ بالعَمَلِ والقَلَقَ مِن الخَوْفِ. وقَدْ اشتدَّ ذَلِكَ بأقوَامٍ فهَامُوا فِي البَرَارِي، وطَوَوُا الأَيَّامَ بالمَجاعَةِ، ودَامُوا عَلَىٰ سَهَرِ اللَّيْلِ، ولازَمُوا المَقابِرَ؛ فهَلكُوا سَريعًا.

ولَعَمْرِي؛ إنَّ مَا خَافُوه يَستحقُّ أَكْثَر مِن هَذَا الفِعْل، ولَكِنْ نرَىٰ العَقْلَ الَّذِي أَوْجَبَ هَذَا القَلَقَ قَدْ أمرَ بِمَا يُوجِبُ السُّكونَ، فَقَالَ: إنَّمَا خُلِقَ هَذَا البَدَنُ ليَحملَ النَّفْسَ كَمَا تَحملُ النَّاقةُ الرَّاكِبَ، ولا بُدَّ مِن التَّلطُّف بالنَّاقَةِ ليَحصُل المَقصُودُ مِن السَّيرِ، ولا يَحسُن فِي العَقْلِ دَوامُ السَّهرِ وطُولُ القَلَقِ؛ لأَنَّهُ يُؤثِّرُ فِي البَدَنِ؛ فيفَوِّتُ أَكْثَرَ المَقصُود، كَيْفَ؟! وقَدَ خُلقَ بَدَنُ الآدمِيِّ خَلقًا لَطيفًا، فَإِذَا هَجَرَ الدَّسمَ نَشفَ الدِّماغُ، وإِذَا دَامَ عَلَىٰ السَّهرِ قَويَ اليُبْسُ، وإِذَا لازَمَ الحَزْمَ مَرِضَ القَلبُ، فَلا بُدَّ من

التَّلطُّفِ بالبَدَنِ بتَناوُل مَا يُصلِحُه، وبالقَلبِ بِمَا يَدفَع الحُزنَ المُؤذِي لَهُ؛ وإلَّا فَمتَىٰ دامَ المُؤْذِي عَجِلَ التَّلفُ.

ثُمَّ يَأتِي الشَّرْعُ بِمَا قَدْ قَالهُ العَقْلُ، فيقُولُ: «إنَّ لنَفْسكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وإنَّ لزَوجِك عَلَيْك حَقًّا؛ فصُمْ وأفْطِر، وقُمْ ونَمْ»[(١)]، ويَقُولُ: «كَفَىٰ بِالمَرءِ إِثْمًا أَنْ يُضيِّع مَن يَقُوتُ»[(٢)]، ويحُثُّ عَلَىٰ النِّكَاحِ.

ودَوامِ القَلَق واليُبْسِ يَترُكُ الزَّوجَة كالأَرْمَلةِ، والوَلَدَ كَاليَتيمِ، ولا وَجْهَ للتَّشاغُل بالعِلْم مع هَذَا القَلَقِ.

ومَنْ أَرَادَ مِصدَاقَ مَا قُلتُه، فلْيتَأمَّلْ حَالَةَ الرَّسُولِ ﷺ؛ فإِنَّه كَانَ يعدِلُ مَا عِنْدهُ مِن الخَوْفِ؛ فيُمازحُ، ويُسابِقُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا[(٣)]، ويُكثِر مِن التَّزوُّجِ، وكَانَ يَتلطَّفُ ببَدنِه، فيَختارُ المَاءَ البَائتَ، ويُحبُّ الحَلْوَىٰ[(٤)] واللَّحْمَ.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (١٣٦٩)، وأحمد (٢٦٣٠٨) من حديث عائشة. والدارمي (٢١٦٩) من حديث سعد بن أبي وقاص. والترمذي (٢٤١٣)، وابن خزيمة (٢١٤٤) من حديث أبي جحيفة. وأحمد (٦٨٧٨) والحاكم (٦٩٠٠) من حديث عبد الله بن عمرو.

(٢) صحيح: أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو: أحمد (٦٤٩٥)، أبو داود (١٦٩٢)، وابن حبان (٤٢٤٠)، والحاكم (١٥١٥) (٨٥٢٦) وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين. وقال الذهبي في «العلو» (١٠٠): «قال ابن منده: إسناده صحيح». وقال النووي في «رياض الصالحين» (١٥٣): «صحيح». وأخرجه مسلم (٩٩٦)، وابن حبان (٤٢٤١) بلفظ: «كفىٰ بالمرء إثمًا أن يحبس عمن يملك قوته».

(٣) صحيح: أخرجه أحمد (٢٤٦١٩، ٢٦٧٨٢، ٢٦٨٠٧)، وأبو داود (٢٥٧٨)، وابن ماجه (١٩٧٩)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٨٨٩٣، ٨٨٩٥)، وابن حبان (٤٦٩١) من حديث عائشة.

(٤) صحيح: أخرج البخاري (٥٤٣١)، ومسلم (١٤٧٤) من حديث عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل.

ولَوْلا مُساكَنَة نَوْع غَفْلَةٍ لَمَا صنَّفَ العُلَمَاءُ، ولا حُفِظَ العِلْمُ، ولا كُتبَ الحَدِيثُ؛ لأَنَّ مَنْ يَقُول: «رُبَّما مِتُّ اليَوْمَ» كَيْفَ يَكتُبُ؟ وكَيفَ يَسمعُ ويُصنِّف؟!

فَلا يَهولنَّكُم مَا تَرونَ مِن غَفْلَةِ النَّاسِ عَنِ المَوْتِ، وعَدَمِ ذِكرِه حَقَّ ذِكرِه؛ فإِنَّها نِعمةٌ مِن اللهِ سُبْحَانَه، بِهَا تَقومُ الدُّنْيَا ويَصلُح الدِّينُ.

وإِنَّمَا تُذمُّ قُوَّةُ الغَفْلَةِ المُوجِبةُ للتَّفريطِ وإهمَالِ المُحاسَبةِ للنَّفْسِ، وتَضييعِ الزَّمَانِ فِي غَيْرِ التَّزوُّدِ، ورُبَّما قَويَتْ فَحَمَلَتْ عَلَىٰ المَعاصِي، فأَمَّا إِذَا كَانَتْ بقَدرٍ؛ كَانَتْ كالمِلحِ فِي الطَّعَامِ لا بُدَّ مِنْهُ، فَإِنْ كَثرَ صَارَ الطَّعَامُ زُعَاقًا، فالغَفْلَةُ تُمدَح إِذَا كَانَتْ بقَدَرٍ كَمَا بيَّنَّا، ومَتىٰ زَادتْ وَقعَ الذَّمُّ؛ فافهَمْ مَا قُلتُه.

ولا تَقلْ: فُلانٌ شَديدُ اليَقَظَةِ مَا يَنَامُ اللَّيْلَ، وفُلانٌ غَافِلٌ يَنَامُ أَكْثَر اللَّيْلِ؛ فَإِنَّ غَفْلَةً تُوجِب مَصلحةَ البَدَنِ والقَلبِ لا تُذمُّ، والسَّلامُ.

❁ فَصْل ❁

مَا يَكَادُ يُحِبُّ الاجْتِمَاعَ بالنَّاسِ إِلَّا فَارِغٌ

لأَنَّ المَشغُولَ القَلْبِ بالحَقِّ يفِرُّ مِن الخَلْق، ومتىٰ تمكَّن فراغُ القَلْبِ مِن مَعْرِفَة الحَقِّ امتَلأَ بالخَلْق؛ فصَارَ يعْمَلُ لَهُم، ومِن أجلِهِمْ، ويَهْلَكُ بالرِّياءِ ولا يَعْلَمُ.

وإِنِّي لأَتأَمَّل بَعْضَ مَن يَتزيَّا بالفَقرِ والتَّصوُّف، وهُوَ يَلبسُ ثِيابًا لا تُساوِي دِينارًا، وعندَهُ المَالُ الكَثيرُ، وقَدْ أَمرَعَ نَفْسَهُ فِي المَطاعِم الشَّهيَّة، وهُوَ عَاملٌ بمُقتضَىٰ الكِبْرِ والتَّصدُّر، فيتقرَّبُ إلىٰ أَرْبَاب الدُّنْيَا، ويَسْتَذْرِي أَرْبَابَ العِلْمِ، ويزُورُ أولَئِكَ دُونَهم.

وإنَّمَا يَرُدُّ مَا يُعْطَىٰ لِيَشيعَ لَهُ اسمُ زاهِدٍ، فتراهُ يُرَبِّي النَّاموسَ وهُوَ فِي احتِيالِه كثَعلَبٍ، وفِي نُهُوضِه إلىٰ أَغرَاضِهِ فِي البَاطِنِ كَلْبٌ شَري، فَأَقُولُ: سُبحانَ اللهِ، مَا يَزهدُ إلَّا الثِّيابَ، أَتَرَىٰ مَا سَمعَ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ: «**إنَّ اللهَ يُحبُّ أَنْ يَرَىٰ أثرَ نِعمَتهِ عَلَىٰ عَبْدِه**»(1)؟!

وأعوذُ باللهِ مِن رُؤيَةِ النَّفْسِ، ورُؤيَةِ الخَلْقِ؛ فَإنَّ مَن رَأَىٰ نَفْسَهُ تَكَبَّرَ، والمُتكبِّرُ أَحْمَقُ؛ لأنَّهُ مَا مِن شَيْءٍ يتكبَّر بِهِ إلَّا ولغيرِه أكْثَر منْهُ، ومَنْ راءَىٰ الخَلْقَ عَبَدَهم وهُوَ لا يعلَمُ.

فأَمَّا العاملُ للهِ ﷻ؛ فَهُو بَعيدٌ مِن الخَلْق، فَإنْ تقرَّبوا إلَيْهِ سَتَر حالَهُ بِمَا يُوجِب بُعدَهم عَنهُ.

وقَدْ رَأَيْنَا مَن يُرائِي ولا يَدْرِي، فيَمتنِع مِن المَشي فِي السُّوقِ، ومن زِيارَةِ الإخوَانِ، ومِنْ أَنْ يَشْتَرِي شَيئًا بنَفْسِهِ، وتُوهِمُهُ نَفْسُه أنِّي أكْرَهُ مُخَالطَة السُّوقَةِ، وإنَّمَا هَذَا يُربِّي جَاهًا بينَ العامَّةِ؛ إذْ لَوْ خالَطَهم لامتُحِيَ جَاهُهُ، وبَطَلَ تَقبيلُ يَدِه، وقَدْ كَانَ بِشرٌ الحَافِي يَجلِسُ فِي مَجْلِسٍ عِنْدَ العطَّار.

وأبلَغُ مِن هَذَا كُلِّهِ: أَن نبيَّنا ﷺ كَانَ يَشْتَرِي الشَّيْءَ ويحمِلُهُ، وخرجَ عَليُّ بْنُ أبي طَالبٍ ﵁ -وهُوَ أميرُ المُؤْمِنينَ- فاشترَىٰ ثَوبًا، وقَدْ كَانَ طَلحةُ بْنُ مصرِّف قَارئَ أَهْلِ الكُوفةِ، فَلَمَّا كثُرَ النَّاسُ عَلَيهِ مَشَىٰ إلىٰ الأَعْمَش فقَرأ عَلَيهِ، فمالَ النَّاسُ إلىٰ الأعمَش وترَكُوا طَلحةَ.

---

(1) حسن: أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو: أحمد (٦٧٠٨)، وابن ماجه (٣٦٠٥)، والترمذي (٢٨١٩) وقال: حديث حسن. والنسائي (٢٥٥٩)، وفي «الكبرىٰ» (٢٣٥)، والحاكم (٧١٨٨) وقال: صحيح الإسناد. وأخرجه من حديث عمران بن حصين: أحمد (١٩٩٣٤). قال الذهبي: في «المهذب» (٣/ ١٢٠٦): «إسناده جيد». وأخرجه من حديث أبي هريرة: أحمد (٨١٠٧).

هَذَا - واللهِ - الكِبريتُ الأحمَرُ، والإكسِيرُ؛ لا مَا يُظنُّ إكسِيرًا فِي الكِيمياءِ، والمُعامَلةُ معَ اللهِ تَعالَىٰ هَكذَا تَكونُ، فأَمَّا ضِدّ هَذِهِ الحَالِ؛ فحالةُ عَابِدٍ للخَلقِ مُلَبِّسٍ، وقَد عَمَّ هَذَا جُمْهُورَ الخَلْق؛ حَاشَا السَّلَفِ.

أَفْـدِي ظِبَـاءَ فَـلَاةٍ مَـا عَـرَفْنَ بِهَـا ** مَـضْغَ الكَـلَامِ وَلَا صَبْغَ الحَواجِيـبِ

فَصْلٌ

كلُّ المَعاصِي قَبِيحةٌ، وبعضُها أقبَحُ مِنْ بَعضٍ

فَإِنَّ الزِّنَا مِن أَقْبَح الذُّنُوب، فإِنَّه يُفسِدُ الفَرْشَ، ويُغيِّرُ الأَنْسَابَ، وهُوَ بالجَارةِ أَقْبَحُ؛ فَقد رُويَ فِي «الصَّحِيحين» من حَدِيثِ ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أيُّ ذَنبٍ أَعْظَم؟ قَالَ: «**أَنْ تَجعَلَ للهِ نِدًّا وهُوَ خَلقَكَ**»، قُلْتُ: ثُمَّ أيٌّ؟ قَالَ: «**أَنْ تَقتُلَ ولدَكَ مِن أَجْلِ أَنْ يَطْعَمَ مَعكَ**»، قُلْتُ: ثُمَّ أيٌّ؟ قَالَ: «**أَنْ تُزانِي حَليلَةَ جَارِك**»[1].

وقَدْ رَوىٰ البُخَاريُّ فِي «تَارِيخِه» من حَدِيث المِقدَاد بنِ الأسوَدِ عَنِ النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**لَأَنْ يَزنِيَ الرَّجُلُ بعَشرِ نِسوةٍ أيسَرُ منْ أَنْ يَزنِي بامرَأةِ جَارِه، ولَأَنْ يَسرِقَ مِن عَشرَةِ أبيَاتٍ أيسَر عَلَيهِ مِنْ أَنْ يَسرِقَ مِن بَيتِ جَارِه**»[2]؛ وإِنَّمَا كَانَ هذا لأَنَّهُ يضُمُّ إلىٰ مَعصِيَة اللهِ عَزَّ وَجَلَّ انتهاكَ حَقِّ الجَارِ.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٤٧٧، ٤٧٦١، ٦٠٠١، ٦٨١١، ٦٨٦١، ٧٥٢٠، ٧٥٣٢)، ومسلم (٨٦).

(٢) حسن: أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٨/ ٥٤)، و«الأدب المفرد» (١٠٣)، وأحمد (٢٣٨٥٤). وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٣/ ٣١٨) والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٧١): «رجاله ثقات».

ومنْ أقْبَح الذُّنُوب أَنْ يَزنِي الشَّيْخُ؛ فَفي الحَدِيثِ: «**إنَّ اللهَ يبغضُ الشَّيْخَ الزَّانِي**»(١)؛ لأنَّ شَهْوَةَ الطَّبْع قَدْ مَاتَت، ولَيْسَ فِيهَا قُوَّةٌ تَغْلِبُ، فَهُو يُحرِّكُها ويُبالغُ، فكَانتْ مَعصيتُه عِنادًا.

ومِنَ المَعاصِي الَّتِي تُشبِهُ المُعاندَةَ: لُبْس الرَّجُل الحَريرَ والذَّهب، خُصُوصًا خَاتَم الذَّهبِ الَّذِي يتحلَّىٰ بِهِ الشَّيْخُ، وإنَّه مِن أَبْرَدِ الأفْعَالِ وأقبحِ الخطايَا.

ومن هَذَا الفَنِّ: الرِّياءُ والتَّخاشُع وإظهارُ التَّزهُّد للخَلقِ؛ فإنَّهُ كالعِبادَةِ لَهُم، مع إهمَالِ جَانِب الحقِّ ﷻ، وكَذَلكَ المُعَاملَة بالرِّبَا الصَّريح، خُصُوصًا مِن الغَنيِّ الكَثِير المَالِ.

ومن أقْبَحِ الأَشْياءِ: أَنْ يَطُولَ المَرَضُ بالشَّيْخِ الكَبِير ولا يَتُوبَ مِن ذَنْبٍ، ولا يعتَذِرَ مِن زلَّةٍ، ولا يَقْضِي دَينًا، ولا يُوصِي بإخرَاجِ حَقٍّ عَلَيْهِ.

ومن قَبَائِحِ الذُّنُوبِ: أَنْ يَتُوبَ السَّارِقُ أو الظَّالِمُ ولا يرُدَّ المَظالِم، والمفرِّطُ فِي الزَّكَاةِ أو فِي الصَّلاةِ ولا يَقْضِي، ومن أقْبَحِهَا: أَنْ يَحنَثَ فِي يَمِينِ طَلاقِه ثُمَّ يُقيمَ معَ المَرْأَةِ، وقِسْ عَلَىٰ مَا ذَكَرْتُه؛ فالمَعاصِي كَثيرَةٌ، وأَقْبَحُهَا لا يخْفَىٰ.

وهَذِهِ المُستقبَحات، فَضْلًا عَن القَبَائِح الأُخْرَىٰ؛ تُشبِهُ العِنَادَ للآمِرِ، فيَستَحقُّ صَاحِبُها اللَّعنَ ودوامَ العُقُوبَة، وإنِّي لأرَىٰ شُرْبَ الخَمرِ من ذَلِكَ الجِنْس؛ لأنَّهَا لَيسَتْ مُشتهاةً لِذَاتِهَا، ولا لرِيحِها، ولا لطَعمِها - فِيمَا يُذكَرُ -، إنَّمَا لذَّتُها - فِيمَا يُقَال - بَعدَ تجرُّع مَرارَتِها، فالإقْدَامُ عَلَىٰ مَا لا يَدْعُو إلَيْهِ الطَّبْعُ - إلىٰ أَنْ يَصلَ التَّناولُ إلىٰ اللَّذَّة - مُعانَدَةٌ.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٢١٣٥٥، ٢١٣٥٦)، والترمذي (٢٥٦٨)، والنسائي (٢٥٧٠) وفي «الكبرىٰ» (١٣١٦، ٢٣٦٢، ٧٠٩٩)، وابن خزيمة (٢٤٥٦، ٢٥٦٤)، وابن حبان (٣٣٤٩، ٣٣٥٠، ٤٧٧١) من حديث أبي ذر.

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ إيمَانًا يَحجِزُ بينَنا وبينَ مُخَالَفَته، وتوفِيقًا لِمَا يُرضِيهِ، فإنَّمَا نَحنُ بِهِ ولهُ.

فَصْل

انتقدْتُ عَلَى أَكْثَرِ العُلَمَاءِ وَالزُّهَّادِ أَنَّهُمْ يُبْطِنُونَ الكِبْرَ

فهَذَا ينظُرُ فِي مَوضِعِه وارتِفَاعِ غَيْرِه عَلَيهِ، وهَذَا لا يَعودُ مَرِيضًا فَقيرًا يَرَىٰ نَفْسَه خَيرًا منْهُ.

حَتَّىٰ إِنِّي رَأيْتُ جَمَاعَةً يُومَأُ إِلَيْهِم:

مِنهُم من يَقُول: لا أُدْفَنُ إلَّا فِي دِكَّةِ أَحْمَد بْن حَنْبَل، ويعلَمُ أَنَّ فِي ذَلِكَ كَسرَ عِظامِ المَوْتىٰ، ثُمَّ يَرَىٰ نَفْسَه أَهلًا لِذلِكَ التَّصدُّرِ.

ومِنْهُم مَن يَقُولُ: ادفِنُونِي إلىٰ جَانِبِ مَسجِدي؛ ظَنًّا مِنْهُ أَنَّهُ يَصيرُ بَعدَ موتِهِ مَزَارًا كمَعرُوفٍ الكَرخِيِّ.

وهَذِهِ خلَّةٌ مُهْلِكَة ولا يعلمُونَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«من ظَنَّ أَنَّهُ خَيرٌ مِن غَيْرِهِ فَقدْ تكبَّر»**[1]، وقلَّ من رَأيْتُ إلَّا وهُوَ يَرَىٰ نَفْسَه!

والعجَبُ كُلُّ العَجبِ مِمَّنْ يَرَىٰ نَفْسَه، أَتُراهُ بمَاذَا رَآها! إنْ كَانَ بالعِلْم فَقدْ سبقَه العُلَمَاءُ، وإنْ كَانَ بالتَّعبُّد فَقدْ سَبقَه العُبَّاد، أَوْ بالمَالِ فَإِنَّ المَالَ لا يُوجِبُ بنَفْسه فَضِيلَةً دِينيَّةً.

(١) لم أجده.

فإنْ قَالَ: قَدْ عَرفتُ مَا لَمْ يَعْرِفْ غيرِي مِن العِلْم فِي زَمَنِي، فَمَا عَليَّ مِمَّنْ تَقدَّم؟!

قِيلَ لَهُ: مَا نأمرُك يَا حَافظَ القُرْآن أَنْ ترىٰ نَفْسَكَ فِي الحِفْظ كمَنْ يَحفَظ النِّصْفَ، ولا يَا فَقِيهُ أَنْ ترىٰ نَفْسكَ فِي العِلْم كالعَامِّيِّ، إِنَّمَا نَحذَرُ عَلَيْك أَنْ ترىٰ نَفْسكَ خيرًا مِن ذَلِكَ الشَّخْص المُؤمِن وإنْ قَلَّ عِلمُه؛ فَإِنَّ الخَيْريَّةَ بالمَعَانِي لا بصُورَة العِلْمِ والعِبادَةِ.

ومَنْ تَلمَّحَ خِصَالَ نَفْسهِ وذُنوبَها عَلِمَ أَنَّهُ عَلَىٰ يَقِينٍ مِن الذُّنُوب والتَّقصِيرِ، وهُوَ من حَالِ غَيْره عَلَىٰ شَكٍّ، فالَّذِي يُحذَر مِنْهُ الإعجابُ بالنَّفْس، ورُؤيَة التقَدُّم فِي أَحْوَال الآخِرَة، والمُؤمِنُ الحَقُّ لا يَزَالُ يحتَقِرُ نَفْسَه.

وقَدْ قِيلَ لعُمر بْن عَبْد العَزِيز ﵁: إنْ مِتَّ نَدفِنكَ فِي حُجرَة رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ فَقَالَ: «**لأَنْ أَلقَىٰ اللهَ بكُلِّ ذَنْبٍ غَيْرَ الشِّرْكِ أَحَبُّ إليَّ مِن أَنْ أَرَىٰ نَفْسِي أهلًا لِذلِكَ**».

وقَدْ رُوِّينا أَنَّ رَجلًا مِن الرُّهبانِ رَأَىٰ فِي المَنَام قَائِلًا يَقُولُ لَهُ: فُلانُ الإسكَافِيُّ خَيرٌ مِنكَ، فنزَلَ مِن صَومَعتِه فجَاءَ، فسَأَلَه عَنْ عَملِه، فَلَمْ يذْكُرْ كَبيرَ عَمَلٍ. فقِيلَ لَهُ فِي المَنَام: عُدْ إِلَيْهِ وقُل لَهُ: مِمَّ صُفرَةُ وجهِكَ؟ فعادَ فسَأَلَ، فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ مُسلمًا إِلَّا وظَنَنتُه خَيرًا منِّي، فقِيلَ لَهُ: فبذَاكَ ارتَفعَ.

فَصْل

مَتى رَأَيْتَ صَاحِبكَ قَدْ غَضِبَ وأَخَذَ يَتَكلَّم بِمَا لا يَصْلُحُ فَلا يَنْبغِي أَنْ تَعْقِدَ عَلَى مَا يقُولُهُ خِنصَرًا، ولا أَنْ تُؤاخِذَهُ بِهِ

فَإِنَّ حَالَه حَالَ السَّكرَان، لا يَدْرِي مَا يَجرِي؛ بَلْ اصبِرْ لفَوْرَتِهِ، ولا تعوِّلْ عَلَيْهَا؛ فَإِنَّ الشَّيْطَان قَدْ غلَبهُ، والطَّبْعَ قَدْ هَاجَ، والعَقْلَ قَدِ استَتَرَ، ومتىٰ أخذْتَ فِي نَفْسكَ عَلَيهِ، أوْ أجَبتَه بمُقتضَىٰ فِعلِه كُنْتَ كعَاقِلٍ واجَهَ مَجنُونًا، أوْ كمُفيقٍ عَاتَب مُغمًىٰ عَلَيهِ، فالذَّنْبُ لكَ، بَلِ انْظُر بعينِ الرَّحمةِ، وتَلمَّحْ تَصريفَ القَدَرِ لَهُ، وتفرَّجْ فِي لَعِبِ الطَّبْعِ بِهِ، واعْلَمْ أَنَّهُ إِذَا انتبَهَ نَدِمَ عَلَىٰ مَا جَرَىٰ، وعَرفَ لَكَ فَضلَ الصَّبْرِ.

وأَقَلُّ الأَقْسَامِ أَنْ تُسلِمهُ فِيمَا يفْعَل فِي غَضبِه إلىٰ مَا يَستَرِيح بِهِ.

وهَذِهِ الحَالةُ يَنْبغِي أَنْ يتَلمَّحَها الوَلَدُ عِنْدَ غَضبِ الوَالِد، والزَّوجَةُ عِنْدَ غَضبِ الزَّوجِ، فتترُكَهُ يشتَفِي بِمَا يَقولُ، ولا تعوِّل عَلَىٰ ذَلِكَ فَسَيعُودُ نَادِمًا مُعتَذِرًا، ومتىٰ قُوبِلَ عَلَىٰ حَالَتِه ومَقَالَتِه صَارَتِ العدَاوةُ مُتمكِّنةً، وجَازَىٰ فِي الإفَاقةِ عَلَىٰ مَا فُعِلَ فِي حَقِّه وَقتَ السُّكرِ.

وأَكْثَر النَّاس عَلَىٰ غَيْر هَذِهِ الطَّرِيق، متىٰ رَأَوْا غضبانَ قَابلُوه بِمَا يَقُولُ ويعمَلُ، وهَذَا عَلَىٰ غَيْرِ مُقتَضَىٰ الحِكْمَة؛ بَلِ الحِكْمَةُ مَا ذَكَرْتُه، ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣].

۞ فَصْلٌ ۞

لَيسَ فِي الدُّنْيَا أَكْثَرُ بَلاهَةً مِمَّنْ يُسِيءُ إلى شَخْصٍ، ويعلَمُ أَنَّهُ قَدْ بلَغَ إلى قَلبِه بالأَذَى، ثُمَّ يَصْطَلِحانِ فِي الظَّاهِرِ، فَيَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ الأَثَرَ مُحِيَ بالصُّلْحِ!

وخُصُوصًا معَ المُلوكِ؛ فَإِنَّ لَذَّتَهم الكُبرَىٰ أَنْ لا يَرْتَفِع عَلَيهِم أحدٌ، ولا يَنكَسِر لَهُم غَرضٌ، فَإِذَا جَرَىٰ شَيْءٌ مِن ذَلِكَ لَمْ يَنْجَبِرْ.

واعتَبِرْ هَذَا بأَبِي مُسلِمِ الخُراسانيِّ؛ فإِنَّه غَضَّ مِن قَدرِ المَنصُور قَبلَ ولايَتِه، فحَصلَ ذَلِكَ فِي نَفْسِه فقَتلَه. ومَن نظرَ في التَّوارِيخِ رَأَىٰ جَماعَةً قَدْ جَرَىٰ لَهُم مِثلُ هَذا.

ولا يَنْبغِي لمن أَساءَ إلىٰ ذي سُلطانٍ أَنْ يَقَع فِي يَدِه؛ فإِنَّه إِذَا رامَ التَّخلُّصَ لَمْ يَقدِر، فيبقَىٰ نَدَمُهُ عَلَىٰ تَركِ احتِرازِه، وحَسرتُه عَلَىٰ مُساكَنةِ الظَّمآن للسَّلامةِ أَشدَّ عَلَيهِ مِن كُلِّ مَا يَلقىٰ بِهِ مِن الهَوانِ والأَذَىٰ.

ومن هَذَا الجِنْسِ: الأَصدِقاءُ المُتماثِلونَ؛ فإِنَّكَ مَتىٰ آذَيتَ شَخصًا وبلَغَ إلىٰ قَلبِه أَذاكَ؛ فَلا تثِقْ بمودَّتِه، فَإِنَّ أَذاكَ نُصْبَ عَيْنِهِ، فَإِنْ لَمْ يَحْتَلْ عَلَيْك لَمْ يَصْفُ لَكَ.

ولا تُخالِطْ إِلَّا مَن أنعمتَ عَلَيهِ فحَسْب، فَهُو لَمْ يَرَ مِنكَ إِلَّا خَيرًا، فيَكُونُ فِي نَفْسِهِ، وكَذَلكَ الوَلَدُ والزَّوجَةُ والمُعامَلُونَ.

ويلحَقُ بِهذَا: أَنْ أَقُولَ: لا يَنْبغِي أَنْ تُعادِي أَحَدًا ولا تتكلَّم فِي حَقِّه، فرُبَّمَا صَارَت لَهُ دَولةٌ فاشتَفَىٰ، ورُبَّما احتِيجَ إِلَيْهِ فَلم يُقدَرْ عَلَيهِ.

فالعَاقِل يُصوِّرُ فِي نَفْسِه كُلَّ مُمكِنٍ، ويستُر مَا فِي قَلبه مِن البُغْضِ والوُدِّ، ويُدارِي مِن يُكِنُّون لَهُ الغيظَ والحِقدَ؛ هَذِهِ مُشاورَةُ العَقْل؛ إنْ قُبِلَتْ.

فصل

كُلُّ مَن يَتَلَمَّحُ العَوَاقِبَ ولَا يَسْتَعِدُّ لِمَا يَجُوزُ وُقُوعُهُ؛ فلَيْسَ بِكَامِلِ العَقْلِ

واعتبر هَذَا فِي جَميعِ الأَحْوَال، مِثْلَ أَنْ يَغْتَرَّ بشَبابِه، ويَدومَ عَلَىٰ المَعاصِي، ويسَوِّفَ بالتَّوْبَة، فرُبَّمَا أُخِذَ بَغتةً ولَمْ يبلُغ بَعْض مَا أَمَّلَ، وكَذَلكَ إِذَا سَوَّف بالعَمَل، أوْ بحِفظِ العِلْم؛ فَإِنَّ الزَّمَانَ ينْقَضِي بالتَّسويفِ، ويفُوتُ المَقصُودُ، ورُبَّما عزَمَ عَلَىٰ فِعلِ خَيرٍ، أوْ وَقْفِ شَيْءٍ مِن مَالِه، فسوَّف، فبُغِتَ.

فالعَاقِلُ مَن أخَذَ بالحَزم فِي تَصويرِ مَا يَجُوز وقُوعُه، وعَمِلَ بمُقتَضَىٰ ذَلِكَ، فَإِنِ امتدَّ الأَجَلُ لَمْ يضُرَّه، وإِنْ وَقعَ المَخوفُ كَانَ مُحترِزًا.

وممَّا يتعلَّقُ بالدُّنْيَا: أَنْ يَميلَ معَ السُّلْطَان ويُسِيءَ إلىٰ بَعْضِ حَواشِيه؛ ثِقةً بقُربه مِنْهُ، فرُبَّمَا تغيَّر ذَلِكَ السُّلْطَان فارتَفعَ عَدوُّهُ فانتقَم مِنْهُ، وقَد يُعادِي بَعْضَ الأَصْدِقَاءِ ولا يُبَالِي بِهِ؛ لأَنَّهُ دُونَه فِي الحَالةِ الحَاضِرةِ، فرُبَّمَا صعَدَتْ مَرتَبَةُ ذَلِكَ، فاستوفَىٰ مَا أَسْلَفَه إِلَيْهِ مِن القَبِيحِ وزَادَ.

فالعَاقِلُ مَن نَظَرَ فِيمَا يَجُوز وُقُوعُه ولَمْ يُعادِ أحدًا، فَإِنْ كَانَ بينَهما مَا يُوجِبُ المُعَادَاةَ كَتَم ذَلِكَ، فَإِنْ صَحَّ لَهُ أَنْ يثِبَ عَلَىٰ عَدُوِّه، فيَنتَقِم مِنْهُ انتِقَامًا يُبيحُه الشَّرْعُ جازَ.

عَلَىٰ أَنَّ العَفوَ أَصْلحُ فِي بَابِ العَيْش، ولِهذَا يَنْبَغِي أَنْ يُخدَمَ البطَّالُ، فإِنَّه رُبَّمَا عَمِلَ فَعرَفَ ذَلِكَ لمَنْ خَدَمَ، وقِسْ عَلَىٰ أَنْمُوذَجِ مَا ذَكَرْته مِن جَمِيع الأَحْوَال.

۞ فَصْل ۞

بقَدْرِ صُعُودِ الإنْسَانِ فِي الدُّنْيَا تَنْزِلُ مَرْتَبتُهُ فِي الآخِرَةِ

وقَد صرَّح بِهَذَا ابنُ عُمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فقَالَ: «واللهِ؛ لا ينَالُ أحَدٌ مِن الدُّنْيَا شَيئًا إلَّا نَقصَ مِن درَجاتِه عِنْدَ اللهِ، وإنْ كَانَ عِنْده كريمًا».

فالسَّعيدُ مَنِ اقتنعَ بالبُلْغَةِ؛ فَإِن الزَّمَانَ أَشْرَفُ مِن أَنْ يَضِيعَ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا، اللَّهُمَّ إلَّا أَنْ يَكُون مُتورِّعًا فِي كَسْبِهِ، مُعينًا لنَفْسه عَن الطَّمعِ، قَاصِدًا إِعَانَةَ أَهْل الخَيْر والصَّدقَةَ عَلَىٰ المُحتاجِين، فكَسْبُ هَذَا أَصْلحُ مِن بَطَالتِه.

فأَمَّا الصُّعودُ الَّذِي سببُه مُخَالطَة السَّلاطين؛ فبعيدٌ أَنْ يسلَمَ مَعهُ الدِّين، فَإِنْ وقعتْ سَلامَتُه ظَاهِرًا فالعَاقبَة خَطِرة.

قال أَبُو مُحمَّد التَّميمِيّ: «ما غبطتُ أحدًا؛ إلَّا الشَّريفَ أبَا جعفَر يَوْم مَاتَ القَائمُ بأمرِ الله؛ فإنَّه غَسَّلَهُ وخرَجَ ينفُضُ أكمَامَه، فقعَدَ فِي مَسْجِدِه لا يُبالِي بأحَدٍ، ونحنُ مُنْزَعِجُون لا نَدرِي مَا يجْرِي علينَا».

وذَاكَ أَنَّ التَّميميَّ كَانَ مُتعَلِّقًا عَلَىٰ السُّلْطَان، يَمْضي لَهُ فِي الرَّسائِل، فخَافَ مَغبَّةَ القُرْبِ.

وقَد رَأيْنَا جَمَاعَةً مِن العُلَمَاء خَالَطوا السُّلْطَانَ، فَكَانتْ مَغبَّتُهم سيِّئةً، ولَعَمْرِي إنَّهم طَلبُوا الرَّاحَة فأخطَؤوا طَرِيقَها؛ لأَنَّ غُمومَ القَلْبِ لا تُوازِيها لَذَّةُ مَالٍ، ولا لَذَّةُ مطعَمٍ، هَذَا فِي الدُّنْيَا قَبلَ الآخِرَة.

ولَيْسَ أشرفُ وأطيبُ عيشًا مِن مُنْفَرِد فِي زَاويةٍ، لا يُخالِط السَّلاطِين، ولا يُبالِي أطَابَ مَطعمُه أمْ لَمْ يَطِبْ، فإنَّه لا يَخْلُو من كِسرةٍ وقَعْبِ مَاءٍ، ثُمَّ هُوَ سَليمٌ من أَنْ تُقالَ لَهُ كَلِمَةٌ تُؤذِيه، أوْ يَعِيبَهُ الشَّرْعُ حِينَ دُخُوله عَلَيهِم أوْ الخَلْقُ.

ومَن تَأمَّل حَال أحْمَد بْن حَنْبَل فِي انقِطَاعِه، وحالَ ابنَ أبي دُؤاد ويَحْيَىٰ بْنَ أكثَمَ؛ عرفَ الفَرقَ فِي طِيبِ العَيْشِ فِي الدُّنْيَا، والسَّلامَةِ فِي الآخِرَة.

ومَا أحسَنَ مَا قَالَ ابنُ أدْهَمَ: «لوْ عَلمَ المُلوكُ وأبْنَاء المُلوكِ مَا نحنُ فِيهِ مِن لذِيذِ العَيْشِ؛ لجَالَدُونا عَلَيهِ بالسُّيوفِ».

ولَقَدْ صدقَ ابنُ أدهَمَ؛ فَإنَّ السُّلْطَانَ إنْ أكلَ شَيئًا خَافَ أَنْ يَكُونَ قَدْ طُرِحَ لَهُ فِيهِ سُمٌّ، وإنْ نَام خَافَ أَنْ يُغتالَ، وهُوَ وَراءَ المَغالِيق لا يُمكنُه أَنْ يخرجَ لفُرجَةٍ، فَإن خَرَجَ كَانَ مُنْزَعِجًا مِن أقربِ الخَلْق إلَيْهِ، واللَّذَّةُ الَّتِي ينالُها تبرُدُ عندَه، ولا تبقِي لَهُ لَذَّةُ مَطْعمٍ ولا مَنْكَحٍ. وكلَّما استظرفَ المَطاعمَ أكْثَر مِنهَا ففَسدتْ مَعِدتهُ، وكُلَّمَا استجدَّ الجَواري أكْثَر منهنَّ فذهبَتْ قوَّتُهُ، ولا يكادُ يُبعِد مَا بينَ الوَطءِ والوَطءِ، فَلا يجدُ فِي الوَطءِ كَبيرَ لذَّةٍ؛ لأنَّ لَذَّةَ الوَطءِ بقَدرِ بُعْدِ مَا بينَ الزَّمَانَين، وكَذَلكَ لَذة الأَكْل؛ فَإنَّ مَن أكَلَ عَلَىٰ شِبَعٍ ووَطِئَ من غَيْرِ صِدقِ شَهْوَةٍ وقلقٍ؛ لَمْ يجد اللَّذَّةَ التَّامَّة الَّتِي يجدهَا الفَقِيرُ إِذَا جاعَ، والعَزَبُ إِذَا وجدَ امرأَةً، ثُمَّ إنَّ الفَقِير يَرمِي نَفْسَه عَلَىٰ الطَّرِيق فِي اللَّيْل فيَنَامُ، ولذَّة الأَمْنِ قَدْ حُرِمَها الأمراءُ؛ فلَذَّتُهم ناقصةٌ، وحسَابُهم زائدٌ.

واللهِ؛ مَا أَعْرِفُ مَن عاشَ رفيعَ القَدر، بالغًا مِن اللَّذَّات مَا لَمْ يبلغْ غَيْرُهُ؛ إلَّا العُلَمَاء المُخلصِين؛ كالحَسن وأحْمَد وسُفيَان، والعُبَّاد المُحقِّقين؛ كمَعْرُوفٍ؛ فَإنَّ لَذَّة العِلْم تزيدُ عَلَىٰ كُلِّ لذَّةٍ، وأمَّا ضُرُّهم إِذَا جاعُوا أو ابتُلُوا بأذَىٰ؛ فَإنَّ ذَلِكَ يزيدُ فِي رِفعتهم؛ وكَذَلكَ لَذَّة الخَلوَة والتَّعبُّد.

فهَذَا مَعْرُوفٌ كَانَ مُنفردًا بربِّه، طيِّبَ العَيْشِ مَعهُ، لذِيذَ الخَلوَةِ بِهِ، ثُمَّ قَدْ مَاتَ منذُ نحو أربَعمائةٍ سنةً؛ فَمَا يَخلُو أَنْ يُهدَىٰ إِلَيْهِ كُلَّ يَوْمٍ مَا تَقْدِيرُ مَجْمُوعه أجزاءٌ مِن القُرْآن، وأقلُّهُ مَن يَقِفُ عَلَىٰ قَبْرِه فيقرَأُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، ويهدِيهَا

لَهُ، والسَّلاطينُ تَقفُ بينَ يدَي قَبره ذليلةً، هَذَا بَعدَ المَوْت، ويَومَ الحَشرِ تُنشرُ الكَرَامَاتُ الَّتِي لا تُوصفُ، وكَذَلكَ قُبورُ العُلَمَاءِ المحقِّقينَ.

ولمَّا بُليت أقْوَامٌ بمُخَالطَةِ الأمَرَاء، أثَّر ذَلِكَ التَّكديرُ فِي أحْوالِهِم كُلِّها، فَقَالَ سُفيَانُ بْنُ عُيينةَ: «مُنْذُ أَخَذْتُ مِن مَال فُلانٍ الأميرِ مُنعتُ مَا كَانَ وُهبَ لي مِن فَهمِ القُرْآن». وهَذَا أَبُو يُوسُف القَاضي؛ لا يزورُ قبرَه اثنانِ.

فالصَّبْرُ عَنْ مُخَالطَةِ الأمرَاء، وإنْ أَوْجَبَ ضِيقَ العَيْش من وَجْهٍ، يُحصِّل طِيبَ العَيْش من جِهاتٍ، ومع التَّخلِيط لا يحصُل مَقْصُودٌ؛ فمَن عَزَمَ جَزَمَ.

كَانَ أَبُو الحسنِ القَزوينيِّ لا يخرجُ من بيتِه إلَّا وقتَ الصَّلاةِ، فرُبَّمَا جَاءَ السُّلْطَان فيقعُد لانتِظارِهِ؛ ليُسلِّم عَلَيهِ، ومدُّ النَّفَس فِي هَذَا رُبَّمَا أَضْجَرَ السَّامِعَ، ومن ذاقَ عَرَفَ.

❁ فَصْلٌ ❁

مَن عَرَفَ الشَّرْعَ كَمَا يَنبَغِي، وعلِمَ الرَّسُولَ ﷺ وأحْوَالَ الصَّحَابَةِ وأكابِرِ العُلَمَاء؛ عَلِمَ أَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ عَلَى غَيْرِ الجَادَّةِ، وإنَّمَا يَمْشُونَ معَ العَادَةِ

يتزَاورُون فيغتَابُ بعضُهم بعضًا، ويطلبُ كُلُّ وَاحِد مِنهُم عَورةَ أخيهِ، ويَحْسُدُهُ إنْ كَانَتْ نِعمةٌ، ويشْمتُ بِهِ إنْ كَانَتْ مُصيبةٌ، ويتكبَّرُ عَلَيهِ إنْ نَصَحَ لَهُ، ويُخادِعُهُ لتَحصِيل شَيْءٍ مِن الدُّنْيَا، ويأخذُ عَلَيهِ العَثَرَاتِ إنْ أمكَنَ؛ هَذَا كُلُّه يجْرِي بينَ المُنْتَمِين إلىٰ الزُّهْد، لا الرِّعاعِ.

فالأَوْلىٰ بِمَن عَرَفَ اللهَ سُبْحَانَه، وعرفَ الشَّرْعَ، وسِيرَ السَّلَفِ الصَّالِحِينَ؛ الانْقِطَاعُ عَنِ الكُلِّ، فَإِنِ اضْطُرَّ إلىٰ لِقاءِ مُنْتَسِبٍ إلىٰ العِلْم والخَيْرِ تلقَّاه وقَد لبسَ دِرعَ الحَذَر، ولَمْ يُطِل مَعهُ الكَلام، ثُمَّ عجَّل الهرَبَ مِنْهُ إلىٰ مُخَالطَة الكُتُب الَّتِي تَحْوِي تَفْسِيرًا لِنطاقِ الكَمَال.

❁ فَصْل ❁

الكَمَالُ عَزِيزٌ، والكَامِلُ قَليلُ الوجُودِ

فأوَّل أسْبَاب الكَمَال: تنَاسُب أعضَاءِ البَدَن، وحُسنُ صُورَةِ البَاطِنِ، فصُورَة البَدَن تُسمَّىٰ خَلْقًا، وصُورَة البَاطِن تُسمَّىٰ خُلُقًا.

ودَلِيلُ كَمَال صُورَة البَدَن: حُسنُ السَّمْت، واسْتِعْمَالُ الأَدَبِ، ودَلِيل صُورَة البَاطِن: حُسنُ الطَّبائِع والأخْلاقِ، فالطَّبائِع: العِفَّةُ، والنَّزَاهَةُ، والأَنَفَةُ مِن الجَهْل، ومُبَاعدَةُ الشَّرَهِ. والأَخْلاقُ: الكَرَم، والإيثَارُ، وسَتْرُ العُيُوب، وابتدَاءُ المَعْرُوفِ، والحِلمُ عَنِ الجَاهِل.

فمَنْ رُزِق هَذِهِ الأَشْيَاءَ رقَّتْهُ إِلَىٰ الكَمَال، وظَهَرَ عَنْهُ أَشْرَفُ الخِلالِ، وإنْ نقصَتْ خُلَّةٌ أَوْجَبَت النَّقصَ.

❁ فَصْل ❁

لَيْسَ فِي الدُّنْيَا أَبْلَهُ مِمَّنْ يُرِيدُ مُعَامَلَةَ الحَقِّ سُبْحَانَهُ عَلَى بُلُوغِ الأَغْرَاضِ

فأيْنَ تكُون البَلوَىٰ إذَنْ؟!

لا - واللهِ - لا بُدَّ مِن انعِكاسِ المُرادَاتِ، ومن توقُّف أَجْوبَةِ السُّؤالاتِ، ومِنْ تشَفِّي الأَعْدَاءِ فِي أوقاتٍ، فأَمَّا من يُرِيدُ أَنْ تدومَ لَهُ السَّلامَة والنَّصرُ عَلَىٰ مَن يُعادِيه، والعَافِيَةُ مِن غَيْر بَلاءٍ، فَمَا عرفَ التَّكلِيف، ولا فهمَ التَّسْلِيم؛ أليسَ الرَّسُولُ ﷺ يُنصرُ يَوْمَ بدْرٍ، ثُمَّ يجْرِي عَلَيهِ مَا يجْرِي يَوْم أحُد؟! أليسَ يُصدُّ عَن البيتِ، ثم قَهَرَ بَعدَ ذَلِكَ؟!

فلا بُدَّ مِن جَيِّدٍ ورَدِيءٍ، والجيِّدُ يُوجِبُ الشُّكْرَ، والرَّدِيءُ يُحَرِّكُ إلىٰ السُّؤالِ والدُّعَاءِ، فَإِن امتنع الجَوَابُ أُرِيدَ نُفوذُ البَلاءِ، والتَّسْلِيمُ للقَضاءِ.

وهَاهُنَا يَبِينُ الإِيمَانُ، ويَظْهرُ فِي التَّسْلِيم جَواهِر الرِّجَال، فَإِن تحقق التَّسْلِيم باطنًا وظاهرًا فذَلِكَ شَأنُ الكَامِل، وإن وُجِدَ فِي البَاطِنِ انْعِصَارٌ مِن القَضَاء لا من المَقْضِيِّ - فَإِن الطَّبْع لا بُدَّ أَنْ يَنْفِرَ مِن المُؤذِي -؛ دلَّ عَلَىٰ ضَعْفِ المَعْرِفَة، فَإِن خَرَجَ الأَمْر إلىٰ الاعتراض باللِّسَان؛ فتِلْكَ حَال الجُهَّال، نَعُوذُ باللهِ منها.

❁ فَصْل ❁

مِن الابْتِلاءِ العَظِيمِ إقَامَةُ الرَّجُلِ فِي غَيْرِ مَقَامِهِ

مثلَ أَنْ يُحوَج الرَّجُل الصَّالحُ إلىٰ مُداراةِ الظَّالِم والتَّردُّدِ إِلَيْهِ، وإلىٰ مُخَالطَةِ مَن لا يَصْلُحُ، وإلىٰ أَعْمَالٍ لا تليقُ بِهِ، أوْ إلىٰ أمورٍ تقطَعُ عَلَيهِ مُرادَهُ الَّذِي يؤْثِرُهُ.

مثلُ أنْ يُقَالَ للعَالِم: تردَّد إِلَىٰ الأَمِيرِ وإِلَّا خِفنا عَلَيْك سطوَتَه، فيتردَّد فيَرَىٰ مَا لا يصلُح لَهُ ولا يُمكنُه أَنْ يُنكِر، أَوْ يحْتَاج إِلىٰ شَيْءٍ مِن الدُّنْيَا - وقَد مُنِع حقَّهُ -، فيحْتَاجُ أَنْ يُعَرِّض بذِكرِ ذَلِكَ، أَوْ يُصرِّح لينَال بَعْضَ حقِّه، ويحْتَاج إِلىٰ مُداراةِ مَنْ تَصْعُبُ مُدارَاتُهُ، بَلْ تتشتَّتُ همَّتُه لتِلْكَ الضَّرورَاتِ.

وكَذَلكَ يفتقرُ إِلىٰ الدُخُول فِي أمورٍ لا تليقُ بِهِ، مثل أَنْ يحْتَاج إِلىٰ الكَسْبِ، فيتردَّد إِلىٰ السُّوق، أَوْ يَخْدُمَ مَن يُعطيه أُجرَتَه، وهَذَا لا يَحتمِله قلبُ المُراقِب لله سُبْحَانَه؛ لأجلِ مَا يخالطُه مِن الأكدَارِ، أَوْ يَكُون لَهُ عَائلةٌ وهُوَ فقيرٌ، فيتفكَّرُ فِي إِغنَائِهم، فيدْخُلُ فِي مداخِلَ كُلُّها عِنْده عَظيمةٌ.

وقَدْ يُبتلىٰ بفَقدِ مَن يُحبُّ، أَوْ ببَلاءٍ فِي بَدَنِه، أَوْ بِعَكْسِ أغرَاضِه وتَسليطِ مُعادِيه عَلَيهِ، فيَرَىٰ الفَاسقَ يَقْهَرُه، والظَّالِمَ يُذِلُّه، وكلُّ هَذِهِ الأَشْيَاء تُكَدِّرُ عَلَيهِ العَيْشَ، وتَكَادُ تُزلزِلُ القَلبَ، ولَيْسَ فِي الابتِلاءِ بقوَّة الأَشْيَاء إِلَّا التَّسْلِيمُ واللُّجْأُ إِلىٰ المُقَدِّر فِي الفَرَج.

يُرَىٰ الرَّجُلُ المُؤمِنُ الحازمُ يَثْبُتُ لهذِهِ العَظَائِم، ولا يتغيَّرُ قَلبُه، ولا ينطقُ بالشَّكْوىٰ لسَانُه! أَوَلَيسَ الرَّسُولُ ﷺ يحْتَاجُ أَنْ يَقُول: «مَنْ يُؤوِيني؟ منْ يَنصُرُني»[1]، ويفتقرُ إِلىٰ أَنْ يدْخُل مَكَّة فِي جِوارِ كَافرٍ، ويُلْقَىٰ السَّلَىٰ عَلَىٰ ظهره[2]، وتُقتَّل أَصْحَابُه، ويدارِي المُؤلَّفَة، ويشتَدُّ جوعُه؛ وهُوَ ساكنٌ لا يتغيَّر، ومَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّهُ عَلِمَ أَنَّ الدُّنْيَا دارُ ابتِلاءٍ، لينظرَ اللهُ فِيهَا كَيْفَ تَعملُون.

---

(١) حسن: أخرجه من حديث جابر بن عبد الله: أحمد (١٤٤٥٦)، والحاكم (٤٢٥١) وقال: صحيح الإسناد. وقال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٣/ ١٥٧): «إسناده جيد علىٰ شرط مسلم» وقال الذهبي في «المهذب» (٧/ ٣٥٠٩): «إسناده جيد» وقال ابن حجر في «فتح الباري» (٧/ ٢٦٣): «إسناده حسن».

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣٨٥٤)، ومسلم (١٧٩٤) من حديث ابن مسعود.

ومما يُهَوِّن هَذِهِ الأَشْيَاءَ عِلمُ العَبْدِ بالأجْرِ، وإنَّ ذَلِكَ مُرَادُ الحقِّ؛ فَمَا لِجُرْحٍ إِذَا أَرْضَاكُمْ أَلَمُ.

فَصْل

لا يُنْكَرُ أَنَّ الطِّبَاعَ تُحِبُّ المَالَ؛ لأَنَّهُ سَبَبُ بقاءِ الأبْدَانِ، لكنَّه يزيدُ حُبُّهُ فِي بَعْض القُلُوبِ، حَتَّى يَصِيرَ مَحْبُوبًا لِذَاتِهِ، لا للتَّوصُّل بِهِ إلى المَقاصِدِ

فتَرَىٰ البَخيلَ يَحملُ عَلَىٰ نَفْسه العَجائِبَ، ويَمْنَعُها اللَّذَّاتِ، وتَصيرُ لذَّاتُهُ فِي جَمْع المَالِ؛ وهَذِهِ جبِلَّةٌ فِي خلقٍ كَثيرٍ.

ولَيْسَ العجبُ أَنْ تَكُونَ فِي الجُهَّال، ويَنْبغِي أَنْ يُؤْثَرَ فِيهَا عِنْدَ العُلَمَاءِ المُجاهَدَةُ للطَّبع ومُخَالفَتُهُ، خُصُوصًا فِي الأفْعَال اللَّازمةِ فِي جَمعِ المَالِ، فأَمَّا أَنْ يَكُونَ العَالِمُ جَامِعًا للمالِ مِن وجُوهٍ قَبيحةٍ، ومِن شُبُهاتٍ قَوِيَّةٍ، وبحِرصٍ شَديدٍ وبِذُلٍّ فِي الطَّلَب، ثُمَّ يأخذُ مِن الزَّكوَاتِ - ولا تحلُّ لَهُ مع الغِنَىٰ -، ثُمَّ يدَّخرهُ ولا يَنْفَعُ بِهِ؛ فهَذِهِ بَهِيمِيَّةٌ تُخرِج عَنْ صفاتِ الآدَميَّةِ، بَلِ البَهِيميَّةُ أَعْذَرُ؛ لأنَّهَا بالرِّياضةِ تتغيَّر طِباعُها، وهَؤُلاء مَا غيَّرَتْهُم رِياضةٌ، ولا أفادَهُم العِلْمُ.

ولَقَدْ كَانَ أَبُو الحَسنِ البِسطَاميُّ مُقيمًا فِي رِباطِ البِسطاميِّ الَّذِي عَلَىٰ نَهرِ عِيسَىٰ، وكَانَ لا يلبَسُ إِلَّا الصُّوفَ شتَاءً وصَيفًا، وكَانَ يُحْتَرَمُ ويُقْصَدُ، فخلَّفَ مَالًا يَزِيدُ عَلَىٰ أربعةِ آلافِ دِينارٍ!

ورَأَيْنَا بَعْضَ أَشْياخِنا وقَد بلغَ الثَّمانِين، ولَيْسَ لَهُ أَهْلٌ ولا ولدٌ، وقَد مَرِضَ فَأَلْقَىٰ نَفْسه عِنْدَ بَعْض أصدقائهِ؛ يتكلَّف لَهُ ذَلِكَ الرَّجُل مَا يَشتهِيه ومَا يَشفِيه؛ فماتَ فخلَّف أمْوالًا عظيمةً.

ورَأَيْنَا صَدَقَة بْن الحُسَين النَّاسِخ، وكَانَ عَلَىٰ الدَّوَام يذمُّ الزَّمَان وأهلَه، ويبالغُ فِي الطَّلَب مِن النَّاس، ويَتَجَفَّفُ [1]، وهُوَ فِي المَسْجِد وَحْدَه، لَيسَ لَهُ مَن يقومُ بأَمْرِه؛ فمات فخلَّف - فِيمَا قِيلَ - ثَلاثمائة دِينارٍ.

وكَانَ يَصْحَبُنا أَبُو طالب بْنِ المُؤيَّد الصُّوفيُّ، وكَانَ يجمعُ المَال، فسُرِق مِنْهُ نحوُ مَائة دِينارٍ؛ فتلهَّفَ عَلَيْهَا، وكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ هَلاكِهِ.

ومنْ أحْوَالِ النَّاسِ: أَنَّكَ ترَىٰ أَقْوَامًا جَلسُوا عَلَىٰ صِفَة القوم، يَطلبُونَ الفُتوحَ، فيأتيهم مِنهَا الكَثِيرُ الَّذِي يصِيرُون بِهِ مِن الأغنِياءِ، وهم لا يَمْتَنعُون مِن أَخْذِ زكاةٍ ولا مِن طَلَبٍ.

وكَذَلكَ القُصَّاصُ؛ يخرُجُون إلىٰ البِلادِ ويَطلُبون، فيحصُلُ لَهُمُ المَالُ الكَثِيرُ، فَلا يَتْرُكونَ الطَّلَبَ عادةً.

فيا سُبحانَ اللهِ! أيُّ شَيْءٍ أفادَ العِلْمُ؟! بَلِ الجَهْلُ كَانَ لهَؤُلاءِ أعذَرَ!

ومن أقْبَح أَحْوالِهم: لزُومُهُم الأسْبَاب الَّتِي تَجْلِبُ لَهُم الدُّنْيَا؛ من التَّخاشُع والتَّنسُّك فِي الظَّاهِر، ومُلازَمَةِ حَثِّ العُزلَة عَنِ المُخَالطَة.

وكلُّ هَؤُلاء بمعزِلٍ عَن الشَّرْع، ولَقَدْ تَأَمَّلتُ عَلَىٰ بعضِهم مِن القَدْحِ فِي نَظيرِه إلىٰ أَنْ يبلغَ بِهِ إلىٰ التَّعرُّض بِهِ للهلاكِ.

فالويلُ لَهُمْ؛ مَا أَقلَّ مَا يَتَمَتَّعُون بظَواهِرِ الدُّنْيَا، وإنْ كَانَ مُقلِّبُ القُلُوب قَدْ صَرَفَ القُلُوبَ عَنْ محبَّتهم؛ لأَنَّ الحَقَّ ﷻ لا يَمِيلُ بالقُلُوبِ إلَّا إلىٰ المُخلصِين، فَقد فاتَتْهُم الدُّنْيَا عَلَىٰ الحَقِيقَة، ومَا حصَّلُوا إلَّا صُورَةَ الحُطامِ.

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ عَقْلًا يُدَبِّرُ دُنيانَا، ويُحَصِّلُ لَنَا آخِرَتَنا، والرزَّاقُ قَادرٌ.

---

(١) التجفف: طلب الخبز الجاف.

فَصْلٌ

يَنْبغِي لمَنْ عَرَفَ شَرَفَ الوُجُودِ أَنْ يُحَصِّلَ أَفْضَلَ المَوْجُودِ

هَذَا العُمرُ مَوسمٌ، والتَّجاراتُ تَختلِفُ، والعَامَّة تَقُول: عَليكُم بِمَا خَفَّ حَمْلُه وكَثُر ثمنُه، فيَنْبغِي للمُستيقِظِ ألَّا يَطلُب إلَّا الأنفَسَ، وأنفَسُ الأَشْيَاء في الدُّنْيَا مَعْرِفَةُ الحَقِّ ﷻ.

فمِنَ العَارِفينَ السَّالكينَ مَن وَافَىٰ فِي طَرِيقِه بُغيَتَهُ فِي السَّفرِ، ومِنْهُم مَن هِمَّتهُ مُتعلِّقةٌ بطَلَبِ رِبْحِهِ، ومِنْهُم مَن ينظرُ إلىٰ مَا يُرضِي الحبيبَ، فيجْلِبُهُ إلىٰ بلدِ المُعَاملَة، ويرضَىٰ بالقبُول ثَمنًا، ويرىٰ أَن كُلَّ البضَائعِ لا تفِي بحقِّ الخِفارَة[1]، ومِنْهُم من يَرَىٰ لُزُومَ الشُّكْر فِي اختياره هَذَا السُّلُوكَ دون غَيْره، فيُقِرُّ بالعَجْز.

وقَد ارتفع قَوْم عَنْ هَذِهِ الأحْوَال، فَرَأَوْا مُجَرَّدَ التَّوفيقِ يَشْغَلُهم عَن النَّظَر إلىٰ العَمَل؛ أولَئِكَ الأَقَلُّون عَدَدًا؛ وإنَّ الأَعْظَمِين قَدْرًا أَقلُّ نَسْلًا مِن عَنقَاءَ مغْرِب[2].

---

(١) الخفارة: العهد والذمة.

(٢) طائر عظيم يبعد في طيرانه.

﴿ فَصْلٌ ﴾

مَن عَلِمَ قُرْبَ الرَّحِيلِ عَنْ مَكَّةَ اسْتَكْثَرَ مِن الطَّوافِ؛ خُصُوصًا إنْ كَانَ لا يُؤمِّل العَوْدَ لكِبَر سنِّهِ وضَعفِ قُوَّتِه، فَكَذَلكَ يَنْبغِي لِمَن قَارَبَهُ سَاحِلُ الأَجَل بعُلوِّ سِنِّه أَنْ يُبادِرَ اللَّحَظَاتِ، وينتظرَ الهَاجِمَ بِمَا يَصلُحُ لَهُ

فَقد كَانَ فِي قَوسِ الأَجَل مَنْزَعٌ زَمَانَ الشَّباب، واسترَخىٰ الوتَرُ فِي المَشيبِ عَنْ سِيةِ القَوسِ، فانحدَرَ إلىٰ القَابِ، وضعُفتِ القُوَىٰ، ومَا بَقيَ إلَّا الاستِسلامُ لمُحارِبِ التَّلفِ.

فالبِدَار البِدارَ إلىٰ التَّنظيف؛ ليكونَ القُدومُ عَلَىٰ طهارةٍ، وأيُّ عيشٍ فِي الدُّنْيا يَطيبُ لِمَن أَيَّامُهُ السِّلميَّةُ تُقرِّبهُ إلىٰ الهَلاكِ، وصُعُودُ عُمُرِه نزُولٌ عَنِ الحَيَاة، وطُولُ بقائِهِ نَقصُ مَدَىٰ المُدَّة؟! فليتفكَّرَ فِيمَا بينَ يَدَيْه، وهُوَ أهمُّ مِمَّا ذكَرناهُ.

أليسَ فِي «الصَّحِيح»: «ما مِنكُم أحَدٌ إلَّا ويعرَضُ عَلَيهِ مَقْعدَهُ بالغَداةِ والعَشِيِّ مِن الجَنَّةِ والنَّار، فيُقالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّىٰ يَبعثَكَ اللهُ»[1]؟!

فوا أسفًا لمهدَّدٍ لَمْ يحسِنِ التَّأهُّب، ويا طِيبَ عيشِ المَوْعُود بأزيَدِ المُنىٰ!

وليعلَم مَن شَارَف السَّبعين، أَنَّ النَّفَسَ أَنينٌ، أعان اللهُ مَن قَطَعَ عَقبةَ العُمُرِ عَلَىٰ رَمَل زَرُودِ المَوْت[2].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٣٧٩، ٦٥١٥)، ومسلم (٢٨٦٦) من حديث عبد الله بن عمر.

(٢) زرود: بادية كثيرة الرمل صعبة الممشىٰ قريبة من مكة.

❁ فَصْل ❁

مَن أَرَادَ أَنْ يَعْلَمَ حَقِيقَةَ الرِّضَى عَن اللهِ ﷻ فِي أَفْعَالِهِ، وأَنْ يَدْرِي مِن أَيْنَ يَنشأُ الرِّضَى، فَلْيَتَفَكَّرْ فِي أَحْوَالِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

فإِنَّه لَمَّا تكامَلتْ معرَفتُه بالخَالِق سُبْحَانَه؛ رَأَىٰ أَنَّ الخَالِق مالكٌ، وللمالِكِ التَّصرُّف فِي مَملُوكهِ، ورآهُ حَكِيمًا لا يَصْنعُ شَيئًا عَبَثًا؛ فسَلَّم تَسليمَ مَملوكٍ لحَكيم، فكَانتِ العَجائبُ تَجري عَليهِ، ولا يوجدُ مِنْهُ تغيُّرٌ، ولا مِن الطَّبْع تَأَفُّفٌ، ولا يَقُولُ بلِسَان الحَال: لَوْ كَانَ كذا! بَلْ يثبُتُ للأَقْدَارِ ثُبُوتَ الجبَلِ لعَواصفِ الرِّياحِ.

هذا سيِّد الرُّسُل ﷺ، بُعث إلىٰ الخَلْق وَحْدَهُ، والكُفرُ قَدْ مَلأَ الآفَاقَ، فجعَلَ يَفِرُّ مِن مَكَانٍ إلىٰ مَكَانٍ، واستترَ فِي دارِ الخَيْزُران[1]، وهمْ يَضربونَه إِذَا خَرَجَ، ويُدمونَ عَقِبَهُ، وأُلْقِي السَّلَىٰ عَلَىٰ ظهرِه[2] وهُوَ ساكتٌ ساكنٌ، ويخرجُ كُلَّ مَوسمٍ فيقُولُ: «مَنْ يُؤوِيَني؟ من يَنصُرني؟»[3]، ثُمَّ خَرَجَ مِن مَكَّة، فَلم يَقْدِرْ عَلَىٰ العَوْد إلَّا فِي جوارِ كَافرٍ.

ولَمْ يُوجَد مِن الطَّبْع تَأَفُّفٌ، ولا مِن البَاطِن اعتراضٌ؛ إذ لَوْ كَانَ غَيْرُهُ لقالَ: يَا ربِّ؛ أنتَ مالكُ الخَلْق، وقادرٌ عَلَىٰ النَّصْرِ، فَلِمَ أُذلُّ؟! كَمَا قَالَ عُمر رضي الله عنه يَوْمَ

---

(١) يعني دار الأرقم بن أبي الأرقم، فقد آلت هذه الدار فيما بعد إلىٰ الخيزران، وهي زوجة المهدي العباسي.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣٨٥٤)، ومسلم (١٧٩٤) من حديث ابن مسعود.

(٣) حسن: أخرجه من حديث جابر بن عبد الله: أحمد (١٤٤٥٦)، والحاكم (٤٢٥١) وقال: صحيح الإسناد. وقال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٣/ ١٥٧): «إسناده جيد علىٰ شرط مسلم» وقال الذهبي في «المهذب» (٧/ ٣٥٠٩): «إسناده جيد» وقال ابن حجر في «فتح الباري» (٧/ ٢٦٣): «إسناده حسن».

صُلح الحُديبيةِ: ألسْنَا عَلَىٰ الحقِّ؟ فلِمَ نُعطِي الدَّنيَّة فِي دِيننا؟ ولما قَالَ هذا، قَالَ لَهُ رسولُ ﷺ: «إنِّي عَبْدُ اللهِ؛ ولنْ يُضيِّعنِي»[1]، فَجَمَعَتِ الكلمَتَان الأَصْلين اللَّذين ذَكرنَاهُما: فقَوْله: «إنِّي عَبْد الله» إقرارٌ بالمُلكِ، وكَأنَّه قَالَ: أنا مَملوكٌ يفعَلُ بي مَا يشاءُ، وقولُه: «لنْ يُضيِّعنِي» بَيَانُ حِكمتِه، وأنَّهُ لا يفعلُ شَيئًا عَبثًا.

ثُمَّ يُبتلَىٰ بالجُوع فَيَشُدُّ الحَجَرَ[2]، وللهِ خزائنُ السَّمواتِ والأَرْض، وتُقتلُ أصْحَابُه، ويُشَجُّ وَجْهُهُ، وتُكسر رُبَاعِيَّتُهُ، ويُمَثَّل بعمِّه، وهُوَ ساكتٌ.

ثُمَّ يُرزقُ ابنًا ويُسلبَ مِنْهُ، فيتعلَّلُ بالحسنِ والحُسَين، فيخبَرُ بِمَا سيجْرِي عَلَيهِما، ويسكنُ بالطَّبْع إلىٰ عَائِشَةَ رضي الله عنها، فينغَّصُ عيشُه بقَذفِها، ويبالِغُ فِي إظهَارِ المُعجزات فيُقامُ فِي وجهِه مُسيلمةُ والعنسيُّ وابنُ صيَّادٍ، ويقيمُ نامُوسَ الأمانةِ والصِّدق، فيقالُ: كذَّابٌ ساحرٌ! ثُمَّ يَعْلَقُهُ المَرَض كَمَا يوعَكُ رجُلان[3]؛ وهُوَ ساكنٌ ساكتُ، فَإنْ أخبرَ بحَالهِ فليُعلم الصَّبْر، ثُمَّ يُشَدَّدُ عَلَيهِ المَوْتُ، فيَسلُبَ روحَه الشَّريفةَ وهُوَ مُضطَّجعٌ فِي كِساءٍ مُلَبَّدٍ، وإزارٍ غَليظٍ، ولَيْسَ عِنْدهم زَيتٌ يوقَد بِهِ المِصْبَاح ليلَتئِذٍ.

هذَا شَيْءٌ مَا قَدرَ عَلَىٰ الصَّبْر عَلَيهِ كَمَا يَنْبَغِي نبيٌّ قَبلُه، ولَوْ ابتُلِيتْ بِهِ المَلائِكَةُ مَا صَبرَت؛ هَذَا آدَم عليه السلام يُباحُ لَهُ الجَنَّة سوَىٰ شَجرَة، فَلا يَقَع ذُبابَ حِرصِه إلَّا عَلَىٰ العَقْرِ، ونبيُّنا ﷺ يَقُولُ فِي المُبَاح: «ما لِي وللدُّنْيا؟!»[4].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣١٨٢، ٤٨٤٤)، ومسلم (١٧٨٥) من حديث سهل بن حنيف.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٥٣٧٣) من حديث أنس.

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٥٦٤٧، ٥٦٤٨، ٥٦٦٠، ٥٦٦١)، ومسلم (٢٥٧١) من حديث ابن مسعود.

(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٢٦١٣) من حديث عبد الله بن عمر. والترمذي (٢٣٧٧) من حديث ابن مسعود، وقال: حسن صحيح. وأحمد (٢٧٤٤) من حديث ابن عباس.

وهَذَا نُوح عَلَيْهِ السَّلَامُ يضِجُّ مِمَّا لاقىٰ، فَيُصيح مِن كَمَدِ وَجْدِهِ: ﴿ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦]، ونبيُّنا ﷺ يقُولُ: «**اللَّهُمَّ اهْدِ قومي؛ فإنَّهُم لا يعلمُونَ**»(١).

وهَذَا الكَليمُ مُوسَىٰ ﷺ، يَستَغِيث عِنْدَ عِبادَة قَومِه العجلَ، ويتوكَّأُ عَلَىٰ القَدَر قَائِلًا: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، ويوجِّهُ إِلَيْهِ ملَكُ المَوْت فيقلعُ عَينَه(٢). وعِيسَىٰ ﷺ يقُولُ: «**إنْ صرفْتَ المَوْتَ عَنْ أحَدٍ فاصرِفْهُ عنِّي**»(٣)؛ ونبيُّنا ﷺ يُخيَّر بين البقاءِ والمَوْت، فيختَارُ الرَّحيلَ إلىٰ الرَّفيقِ الأعْلَىٰ.

هَذَا سُليمَان ﷺ يَقُولُ: ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكًا ﴾ [ص: ٣٥]، ونبيُّنا ﷺ يَقُول: «**اللَّهُمَّ اجعَلْ رِزقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا**»(٤).

هَذَا - واللهِ - فعلُ رَجُلٍ عَرَفَ الوجُودَ والمُوجِدَ؛ فَمَاتَتْ أَغْرَاضُهُ، وسَكَنتْ اعْتِرَاضَاتُهُ، فَصَارَ هَواهُ فِيمَا يَجرِي.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٤٤٧) عن عبد الله بن عبيد بن عمير مرسلًا، وقال: مرسل. لكن أخرج البخاري (٣٤٧٧، ٦٩٢٩)، ومسلم (١٧٩٢) من حديث عبد الله بن مسعود قال: كأني أنظر إلىٰ النبي ﷺ، يحكي نبيا من الأنبياء، ضربه قومه فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**». قال ابن حجر في «فتح الباري» (٦/ ٥٢١): «يحتمل أن ذلك لما وقع للنبي ﷺ ذكر لأصحابه أنه وقع لنبي آخر قبله، وذلك فيما وقع له يوم أحد لما شج وجهه وجرىٰ الدم منه، فاستحضر في تلك الحالة قصة ذلك النبي الذي كان قبله، فذكر قصته لأصحابه تطييبا لقلوبهم».

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٣٣٩، ٣٤٠٧)، ومسلم (٢٣٧٢) من حديث أبي هريرة.

(٣) الظاهر أنه من الإسرائيليات، أو أنه محمول علىٰ الخوف الشديد، فقد روىٰ ابن عساكر (٤٧/ ٤٦٩) آثارًا كثيرة في خوفه الشديد عليه السلام من الموت.

(٤) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٤٦٠)، ومسلم (١٠٥٥)، من حديث أبي هريرة.

۞ فصل ۞

أَكْثَرُ شَهَوَاتِ الحِسِّ النِّسَاءُ

وقَد يَرَىٰ الإنْسَان امرأةً فِي ثِيابِها، فيتخَايلُ لَهُ أَنَّهَا أَحْسَنُ مِن زوجَتِه، أَوْ يتصوَّرُ بِفكرِهِ المُسْتَحْسَناتِ، وفكْرُهُ لا ينظرُ إِلَّا إلىٰ الحَسَنِ مِن المَرْأَة، فيَسعَىٰ فِي التَّزوُّج والتَّسرِّي، فَإِذَا حَصَلَ لَهُ مُرادهُ لَمْ يزلْ ينظُر فِي عُيوبِ الحَاصِل الَّتِي مَا كَانَ يتفكَّر فِيهَا، فيمَلُّ ويطلبُ شَيئًا آخَر، ولا يَدْرِي أَنَّ حُصُول أغرَاضِه فِي الظَّاهِرِ رُبَّمَا اشتَملَ عَلَىٰ مِحَنٍ، مِنهَا أَنْ تَكُون الثَّانيةُ لا دِينَ لَهَا، أَوْ لا عَقلَ، أَوْ لا مَحبَّة لَهَا، أَوْ لا تَدبيرَ؛ فيفَوِّتُ أكْثَر مِمَّا حصَّل.

وهَذَا المَعنَىٰ هُوَ الَّذِي أوقع الزُّناةَ فِي الفَواحشِ؛ لأَنَّهُم يُجالسُون المَرْأَةَ حَال استِتارِ عُيوبِها عَنْهُم وظهُورِ محَاسِنها، فتَلَذُّهُم تِلْكَ السَّاعَة ثُمَّ يَنتَقلُون إلىٰ أُخْرَىٰ.

فليَعلَم العَاقِلُ أَنْ لا سبيلَ إلىٰ حُصُول مُرَادٍ تامٍّ كَمَا يُرِيدُ: ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِۚ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، ومَا عيبُ نِسَاء الدُّنْيا بأحسنَ من قوله ﷻ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌۖ﴾ [البقرة: ٢٥]، وذو الأَنَفَة يأنفُ مِن الوَسَخ صُورَةً، وعَيْبِ الخَلْقِ مَعْنًىٰ؛ فليَقنَع بِمَا بَاطنُه الدِّين، وظَاهِرُه السَّتْرُ والقناعةُ؛ فإِنَّه يعيشُ مُرَفَّهَ السِّرِّ، طيِّبَ القَلْبِ، ومتىٰ مَا استكثرَ؛ فإنَّمَا يستكثرُ مِن شُغْلِ قلبِه ورقَّةِ دِينِه.

۞ فصل ۞

سُبْحَانَ مَن شَغَلَ كُلَّ شَخْصٍ بِفَنٍّ؛ لتَنَامَ العُيونُ فِي الدُّنْيَا

فأَمَّا فِي العلُومِ؛ فَحبَّب إلىٰ هَذَا القُرْآنَ، وإلىٰ هَذَا الحَدِيث، وإلىٰ هَذَا النحوَ؛ إذ لَوْلا ذَلِكَ مَا حُفظَتِ العُلُومُ.

وألْهَمَ هَذَا المُتعيِّش أَنْ يَكُون خَبَّازًا، وهَذَا أَنْ يَكُون هَرَّاسًا، وهَذَا أَنْ يَنْقُل الشَّوكَ مِن الصَّحراءِ، وهَذَا أَنْ يُنَقِّي البثارَ؛ ليلتئِمَ أَمْرُ الخَلْقُ، ولَوْ أَلْهَمَ أَكْثَرَ النَّاس أَنْ يَكُونوا خبَّازينَ مثلًا؛ باتَ الخُبزُ وهلَكَ، أَوْ هرَّاسين؛ جفَّتِ الهرَايسُ، بَلْ يُلهَم هَذَا وذاكَ بقَدرٍ؛ لينتَظمَ أمرُ الدُّنْيَا وأمرُ الآخِرَة.

ويَنْدُرُ مِن الخَلْق مَن يُلهِمهُ الكَمَال وطَلَبَ الأفْضَلِ، والجَمْعَ بينَ العُلومِ والأعْمالِ، ومُعامَلاتِ القُلُوب، وتتَفَاوُت أرْبَاب هَذِهِ الحَال، فسُبحانَ مَن يَخْلُق مَا يشاء ويَخْتَارُ، نسألُهُ العفوَ إنَّ لَمْ يَقَع الرِّضَىٰ، والسَّلامَةَ إنَّ لَمْ نَصلُح للمُعامَلة.

❁ فَصْل ❁
عِلْمُ الحَدِيثِ هُوَ الشَّرِيعَة

لأنَّهُ مُبيِّنٌ للقُرآنِ، وموضِّحٌ للحَلالِ والحَرَام، وكاشفٌ عَنْ سيرةِ الرَّسُول ﷺ وسيرِ أَصْحَابِهِ.

وقَد مزَجُوه بالكذِب، وأَدْخَلُوا فِي المنقُولات كُلَّ قَبيح، فَإذَا وُفِّقَ الزَّاهِدُ والوَاعظُ لَمْ يذكُرا إلَّا مَا شَهدَا بصحَّتِه، وإنْ حُرِما التَّوفيقَ عَمِلَ الزَّاهِدُ بكلِّ حَدِيث يسمَعهُ؛ لحُسنِ ظنِّه بالرُّواةِ، وقَالَ الواعظُ كُلَّ شَيْءٍ يراهُ؛ لجَهلِه بالصَّحِيح، ففسدَ أَحْوَال الزَّاهِد، وانحرفَ عَنْ جادَّةِ الهُدىٰ، وهُوَ لا يعلمُ؛ وكَيفَ لا؟! وعُمومُ الأحَادِيث الدَّالَّة عَلَىٰ الزُّهْد لا تُثبتُ!

مثل حَدِيث ابنِ عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أيُّما امرئٍ مُسْلِمٍ اشتَهىٰ شَهْوَةً، فردَّ شهوَته، وآثَرَ عَلَىٰ نَفْسه؛ غُفر له»(١)، وهَذَا حَدِيث موضُوعٌ، يمنعُ الإنْسَان مَا أبيح لَهُ مِمَّا يتقْوَىٰ بِهِ عَلَىٰ الطَّاعَة.

ومثلَ قولِه: «منْ وَضعَ ثِيابًا حِسَانًا»(٢).

وكَذَلكَ مَا رَوَوْا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قُدِّم لَهُ أُدمان فَقَالَ: «**أُدمانِ فِي قدَحٍ! لا حَاجَة لي فِيه، أكْرَه أَنْ يَسْأَلني اللهُ عَنْ فُضولِ الدُّنْيَا**»(٣)، وفِي «الصَّحِيح» أَنَّ رَسُول اللهِ ﷺ أكَلَ البطيخ بالرطب(٤).

ومثل هَذَا إِذَا تُتُبِّع كَثِير، فَقد بنوا عَلَىٰ فسادٍ؛ ففَسَدتْ أحْوَالُ الواعِظِ والموعُوظ؛ لأنَّهُ يبني كَلامه عَلَىٰ أَشْيَاء فاسدةٍ ومُحالاتٍ.

---

(١) موضوع: أخرجه ابن حبان في «المجروحين» (٢/ ٧٦)، وابن عدي (٥/ ١٢٣)، وأورده المصنف في «الموضوعات» (٣/ ١٣٨).

(٢) موضوع: أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٤٤) عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**من ترك زينة الدنيا ووضع ثيابًا حسنة تواضعًا لله عَزَّ وَجَلَّ وابتغاء وجهه كان حقًّا علىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ أن يكسوه من عبقري الجنة في تخات الياقوت**».

(٣) موضوع: أخرجه الطبرانىٰ فىٰ «الأوسط» (٤٨٩٤)، وأورده المصنف في «الموضوعات» (٣/ ١٩).

(٤) صحيح: أخرجه من حديث عائشة: أبو داود (٣٨٣٦)، والترمذي (١٨٤٣) وقال: حديث حسن. وفي «الشمائل» (١٩٨، ٢٠٠) وقال ابن حجر في «فتح الباري» (٩/ ٤٨٦): «إسناده صحيح». وأخرجه من حديث سهل بن سعد: ابن ماجه (٣٣٢٦). وأخرجه من حديث أنس: أحمد (١٢٤٤٩، ١٢٤٦٠)، والترمذي في «الشمائل» (١٩٩)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٦٦٩٢) وقال ابن حجر في «فتح الباري» (٩/ ٤٨٥): «إسناده صحيح».

ولَقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِن المُتزَهِّدينَ يَعمَلُون عَلَىٰ أحَادِيث ومنَقُولاتٍ لا تصِحُّ؛ فيضِيعُ زمَانُهم فِي غَيْر المَشْرُوع، ثُمَّ يُنكرُون عَلَىٰ العُلَمَاء اسْتِعْمَالَهم للمبَاحَاتِ، ويرَونَ أَنَّ التَّجفُّف هُوَ الدِّين.

وكَذَلكَ الوُعَّاظ؛ يحدِّثون النَّاس بِمَا لا يَصِحُّ عَنِ الرَّسُول ﷺ ولا أصْحَابِهِ، فَقدْ صَارَ المُحالُ عِنْدهُم شَريعةً.

فسُبحانَ مَن حفِظ هَذِهِ الشَّرِيعَة، بأحبارٍ أَخْيَارٍ، ينفُونَ عَنْهَا تَحريفَ الغَالينَ، وانتِحالَ المُبطِلينَ.

❁ فَصْل ❁

كَانَ قَدْ سَأَلَنِي بَعْضُ أَصْحَابِ الحَدِيثِ:
هَلْ فِي «مُسْنَدِ أَحْمَدَ» مَا لَيس بِصَحِيحٍ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ

فَعَظُمَ ذَلِكَ عَلَىٰ جَمَاعَةٍ يُنسبُون إلىٰ المَذْهَب، فَحَمَلْتُ أمرَهم عَلَىٰ أَنَّهُمْ عوامٌّ، وأَهْمَلتُ فِكْرَ ذَلِكَ، وإِذَا بِهِم قَدْ كتبُوا فَتَاوىٰ، فكتبَ فِيهَا جَمَاعَةٌ مِن أَهْل خُراسَان - مِنهُم أَبُو العَلاءِ الهَمْذَانيُّ - يعظِّمُون هَذَا القولَ، ويردُّونه ويقَبِّحُون قَوْل من قالَهُ!

فبقِيتُ دَهِشًا مُتعجِّبًا، وقلتُ فِي نَفْسِي: وا عَجَبًا! صَارَ المُنتَسبُون إلىٰ العِلْمِ عَامَّةً أيضًا، ومَا ذَاكَ إلَّا أَنَّهُمْ سَمِعُوا الحَدِيثَ ولَمْ يَبحثُوا عَنْ صَحِيحه وسقِيمِه، وظنُّوا أَنَّ مَن قَالَ مَا قلتُه قَدْ تعَرَّض للطَّعن فِيمَا أَخْرجَهُ أَحْمَدُ؛ ولَيْسَ كَذَلكَ.

فَإِنَّ الإِمَام أَحْمَد رَوىٰ المَشهُورَ والجيِّدَ والرَّدِيءَ، ثُمَّ هُوَ قَدْ رَدَّ كثيرًا مِمَّا روىٰ، ولَمْ يقُل بِهِ، ولَمْ يَجْعَلْهُ مَذْهَبًا لَهُ، أليسَ هُوَ القَائِل فِي حَدِيث الوضوء بالنَّبيذِ[1]: مجهولٌ؟!

ومَن نظرَ فِي كِتابِ «العِلَل» الَّذِي صنَّفه أَبُو بكرٍ الخَلَّال؛ رَأَىٰ أَحَادِيثَ كَثِيرَةً، كُلُّها فِي «المُسندِ»، وقَد طعنَ فِيهَا أحمدُ.

ونقلتُ مِن خطِّ القاضي أبي يعلَىٰ مُحَمَّد بن الحُسَين الفرَّاء فِي «مَسأَلَة النَّبيذ» قَالَ: إنَّمَا روىٰ أَحْمَد فِي «مُسندِه» مَا اشتُهر، ولَمْ يقْصِد الصَّحِيح ولا السَّقيم، ويدلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ أَنَّ عَبْد الله قَالَ: قُلْت لأبي: مَا تَقُولُ فِي حَدِيث رِبعيِّ بن حِراشٍ عَنْ حُذيفَةَ؟ قَالَ: الَّذِي يَروِيه عَبْدُ العَزِيز بْن أَبِي روَّادٍ؟ قُلْتُ: نَعمْ. قَالَ: الأَحَادِيثُ بخِلافِه. قُلْتُ: فَقد ذَكَرْته فِي «المُسنَد»؟ قَالَ: قصَدتُ فِي «المُسندِ» المَشهُورَ، فلوْ أَرَدْتُ أَنْ أقصدَ مَا صَحَّ عِنْدِي لَمْ أُورِدْ فِي هَذَا «المُسندِ» إِلَّا الشَّيْء بَعدَ الشَّيْء اليَسيرِ، ولكنَّك يَا بُنيَّ تَعرِفُ طَرِيقَتِي فِي الحَدِيث؛ لستُ أُخَالِف مَا ضَعُفَ مِن الحَدِيث، إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي البَاب شَيْء يدفَعُهُ.

قال القَاضي رَحِمَهُ اللَّهُ: وقَدْ أَخبرَ عَنْ نَفْسه: كَيْفَ طَرِيقَهُ فِي «المُسندِ»، فمن جعلَه أَصلًا للصِّحَّة فَقد خالفَه وتركَ مَقصدَه.

قُلْتُ: قَدْ غَمَّنِي فِي هَذَا الزَّمَان أَنَّ العُلَمَاءَ - لتَقصِيرهم فِي العِلْم - صَارُوا كالعَامَّة، وإِذَا مرَّ بِهِم حَدِيثٌ مَوضوعٌ قَالُوا: قَدْ رُوِي! والبُكاءُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُون عَلَىٰ خَساسَةِ الهِممِ، ولا حَولَ ولا قُوَّة إِلَّا باللهِ العليِّ العَظيمِ.

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (٣٨١٠)، وأبو داود (٨٤)، والترمذي (٨٨)، وابن ماجه (٣٨٤)، وهو حديث ضعيف لدىٰ أهل الحديث قاطبة.

❁ فَصْلٌ ❁

بَلَغَنِي عَنْ بَعْضِ فُسَّاقِ القُدَمَاءِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: مَا أَرَى العَيْشَ غَيْرَ أَنْ تُتْبعَ النَّفْسَ هَوَاهَا؛ فَمُخْطِئًا أَوْ مُصِيبًا!

فتدبَّرت حَال هَذَا، وإِذَا بِهِ مَيِّتُ النَّفْسِ، لَيسَ لَهُ أَنفَة عَلَىٰ عِرضِه، ولا خوفُ عَارٍ، ومثل هَذَا لَيسَ فِي مِسْلَاخِ الآدميين!

فَإِنَّ الإِنْسَان قَدْ يُقْدِمُ عَلَىٰ القَتْلِ؛ لِئَلَّا يُقَال: جَبَانٌ، ويَحْمِلُ الأَثْقَالَ؛ لِيُقَالَ: مَا قصَّر. ويَخَافُ العَارَ؛ فيصبِرُ عَلَىٰ كُلِّ آفَةٍ مِن الفَقْر، وهُوَ يستُرُ ذَلِكَ حَتَّىٰ لا يُرَىٰ بعينٍ نَاقِصَةٍ. حَتَّىٰ إِنَّ الجَاهِل إِذَا قِيلَ لَهُ: يَا جَاهِل؛ غضِبَ، واللُّصوصُ المُتهيِّئونَ للحَرام، إِذَا قَالَ أحدُهم للآخر: لا تتكلَّم؛ فَإِنَّ أُخْتَك تَفعلُ وتَصنعُ! أَخَذَتْهُ الحَمِيَّةُ، فقَتلَ الأُختَ. ومَن لَهُ نَفْسٌ لا يَقِف فِي مقام تُهمةٍ؛ لِئَلَّا يُظَنَّ بِهِ.

فأَمَّا مَن لا يُبالي أَنْ يُرَىٰ سَكْرانَ، ولا يُهِمُّه إِنْ شُهِر بَينَ النَّاس، ولا يُؤلِمُهُ ذِكرُ النَّاس لَهُ بالسُّوء؛ فذاك فِي عِدَادِ البهَائِمِ.

وهَذَا الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يُتبع النَّفْسَ هَواها؛ لا يَلْتَذُّ بِهِ؛ لأَنَّهُ لا يخَافُ عَنتًا ولا لَومًا، ولا يَكُونُ لَهُ عِرضٌ يَحْذَر عَلَيهِ؛ فَهُو بَهيمةٌ فِي مِسْلاخِ إِنسَان.

وإِلَّا؛ فأَيُّ عيشٍ لِمَن شَرِب الخَمر، وأُخذ عُقَيب ذَلِكَ وضُرِبَ، وشاعَ فِي النَّاس مَا قَدْ فُعِل به؟! أما يَفِي ذَلِكَ باللَّذَّة؟ لا، بَلْ يَرْبُو عَلَيْهَا أَضْعافًا، وأيُّ عيشٍ لمَن ساكَن الكَسلَ: إِذَا رَأَىٰ أَقْرَانَهُ قَدْ بَرزُوا فِي العِلْم وهُوَ جَاهِلٌ؟! أَوِ استَغنَوْا بالتِّجارَة وهُوَ فَقيرٌ، فهَلْ يَبْقَىٰ للالتِذاذِ بالكَسلِ والرَّاحَة مَعْنًى؟! ولَوْ تفكَّر الزَّانِي فِي الأُحْدُوثة عَنْهُ، أَوْ تصوَّر أَخْذَ الحدِّ مِنْهُ؛ لكَفَّ الكَفَّ، غَير أَنَّهُ يَرَىٰ لَذَّةً حَاضرةً كأَنَّهَا لَمْعُ برْقٍ، ويا شُؤمَ مَا أعقبتْ مِن طُولِ الأَسَىٰ!

هَذَا كُلُّه فِي العَاجِلِ، فأَمَّا الآجِلُ؛ فَمَنْغَصُةُ العَذَابِ دَائمةٌ، ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ [الشورى: ١٨]، نَسْأَلُ اللهَ أَنفةً مِن الرَّذائلِ، وهِمةً فِي طلبِ الفَضائلِ؛ إِنَّهُ قَرِيبٌ مُجيبٌ.

❁ فَصْلٌ ❁

قَدْ تَبْغَتُ العُقُوبَاتُ، وقَدْ يُؤَخِّرُهَا الحِلْمُ

وَالعَاقِلُ مَن إِذَا فَعَل خَطِيئةً بَادَرَهَا بِالتَّوْبَةِ؛ فَكَمْ مَغْرُورٍ بِإِمْهَالِ العُصَاةِ لَمْ يُمْهَلْ!

وأسرعُ المَعاصِي عُقُوبَةً مَا خَلا عَنْ لَذَّة تُنسِي النُّهَىٰ، فَتكونُ تِلْكَ الخَطِيئَةُ كالمُعانَدةِ والمُبارَزةِ، فَإِنْ كَانَتْ تُوجِبُ اعتراضًا عَلَىٰ الخَالِق، أَوْ مُنازعةً لَهُ فِي عَظمَتِه؛ فتِلْكَ الَّتِي لا تُتلافَىٰ، خُصوصًا إنْ وقعتْ مِن عَارفٍ باللهِ؛ فإِنَّه يندُرُ إِهمَالُه.

قالَ عَبْدُ المَجيدِ بْنِ عَبْد العَزِيز: كَانَ عندَنَا بخُراسَانَ رَجُلٌ كتبَ مُصحَفًا فِي ثلاثةِ أيَّامٍ، فلقِيَه رَجُلٌ فَقَالَ: فِي كمْ كتبتَ هَذَا؟ فأومَأَ بالسَّبابةِ والوُسطَىٰ والإِبهَامِ وقَالَ: فِي ثلاثٍ، ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق: ٣٨]، فجفَّتْ أصابِعُه الثَّلاثُ، فَلم يَنتفعْ بِهَا فِيمَا بعدُ.

وخَطَرَ لبَعضِ الفُصحاءِ أَنَّه يقدرَ أَنْ يَقُولَ مثلَ القُرْآن، فصعدَ إِلىٰ غُرفَةٍ، فانفَردَ فيها، وقَالَ: أَمْهِلُوني ثَلاثًا، فصعدُوا إِلَيْهِ بَعدَ الثَّلاثِ، ويدُه قَدْ يَبِسَتْ عَلَىٰ القَلمِ، وهُوَ ميِّتٌ.

قال عَبْد المجيد: ورَأَيْتُ رَجلًا كَانَ يَأْتِي امرأَتَهُ حَائضًا، فحاضَ، فَلَمَّا كثرَ الأَمْرُ بِهِ تابَ؛ فانْقَطَع عَنهُ.

ويَلحَقُ هَذَا: أَنْ يُعيِّر الإنْسَانُ شَخصًا بفعلٍ، وأعْظَمه أَنْ يعيِّره بِمَا لَيسَ إلَيْهِ، فيقولُ: يَا أَعْمَىٰ، ويا قَبِيح الخِلْقةِ. وقَالَ ابنُ سِيرينَ: «عيَّرتُ رَجلًا بالفَقرِ، فحُبستُ عَلَىٰ دَيْنٍ».

وقَدْ تتأَخَّرُ العُقُوبَة وتَأتِي فِي آخِرِ العُمرِ، فيَا طُولَ التَّعثِير معَ كِبرِ السِّنِّ لذُنوبٍ كَانَتْ فِي الشَّبابِ!!

فالحَذَرَ الحَذَرَ مِن عَوَاقِب الخَطايَا، والبِدَارَ البِدَارَ إلىٰ مَحْوِها بالإنابةِ؛ فلَها تَأثِيرَاتٌ قَبِيحةٌ، إنْ أسرَعتْ، وإلَّا اجْتمَعتْ وجَاءَت.

فَصْلٌ

اعْلَمْ؛ أَنَّ الآدَمِيَّ قَدْ خُلِقَ لأَمْرٍ عَظِيمٍ

وهُوَ مُطَالَبٌ بِمَعْرِفَةِ خَالقِهِ بِالدَّلِيلِ، ولَا يَكْفِيه التَّقلِيدُ.

وذَلِكَ يفتقرُ إلىٰ جمع الهَمِّ فِي طَلَبه، وهُوَ مُطالَبٌ بإقَامَة المفرُوضاتِ، واجتنابِ المَحارم، فَإن سَمَتْ هِمَّتُه إلىٰ طَلب العِلْم احْتَاجَ إلىٰ زِيَادَة جَمع الهَمِّ؛ فأَسْعَدُ النَّاس مَن لَهُ قوتٌ دَارٌّ بِقدرِ الكِفايَة، لا مِن مِنَن النَّاس وصَدقَاتِهم، وقَد قنعَ بِهِ.

وأمَّا إذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ قُوتٌ يَكْفِي؛ فالهَمُّ الَّذِي يُرِيدُ اجتِمَاعَه فِي تِلْكَ الأُمُور يَتَشتَّتُ، ويَصيرُ طالبًا للتحيُّل فِي جَمعِ القُوتِ، فيذْهَبُ العُمُر فِي تَحصِيل قُوتِ البَدَن الَّذِي يُرِيدُ مِن بقَائِه غَيْرَ بقَائهِ، ويفوتُ المَقصُودُ ببقَائِه، ورُبَّما احْتَاجَ إلىٰ الأنذَالِ!

قَالَ الشَّاعِر:

حَسْبِي مِنَ الدَّهْرِ مَا كَفَانِي ** يَصُونُ عِرْضِي عَنِ الهَوَانِ
مَخَافَةَ أَنْ يَقُولَ قَوْمٌ ** فَضْلُ فُلَانٍ عَلَىٰ فُلَانِ

فيَنْبغِي للعَاقِلِ إِذَا رُزق قوتًا، أَوْ كَانَ لَهُ مَوادُّ أَنْ يَحْفظَهَا؛ ليتجمَّعَ هَمُّهُ، ولا يَنْبغِي أَنْ يُبذِّرَ فِي ذَلِكَ؛ فإِنَّه يحْتَاج فيتشَتَّتُ هَمُّهُ، والنَّفْس إِذَا أَحْرَزَتْ قُوَّتَها اطْمَأَنَّتْ، فَإِن لَمْ يَكُنْ لَهُ مَال اكتسبَ بقَدرِ كِفايَتِهِ، وقلَّل الغُلوَّ ليَجمعَ بينَ همِّهِ وضَرورَتِه، وليقنَعْ بالقَليل؛ فإِنَّه متىٰ سَمَتْ هِمَّته إِلىٰ فضُولِ المَالِ وقعَ المَحذُور مِن التَّشتُّت؛ لأَنَّ التَّشتُّتَ فِي الأَوَّل للعَدَم، وهَذَا التَّشَتُّت يَكُون للحِرصِ عَلَىٰ الفُضُول؛ فيذهَبُ العُمُرُ عَلَىٰ البَارِد:

وَمَنْ يُنْفِقُ الأَيَّامَ فِي حِفْظِ مَالِهِ ** مَخَافَةَ فَقْرٍ فَالَّذِي فَعَلَ الفَقْرُ

فافهم هَذَا يَا صَاحِب الهِمَّة فِي طلب الفضائل؛ فإِنَّك مَا لَمْ تَعزِلْ قُوتَ الصِّبيَان شتَّتوا قَلْبكَ، وطبعُك طفلٌ؛ ففرِّغ همَّك مِن اسْتعانَتِه، واعرفْ قدرَ شرَفِ المَالِ الَّذِي أَوْجَبَ جمعَ همِّكَ، وصانَ عِرضكَ عَن الخَلْق، وإِيَّاكَ أَنْ يَحملَك الكرَمُ عَلَىٰ فرطِ الإِخرَاجِ؛ فتصيرَ كالفَقِير المُتعرِّض لَكَ بالتَّعرُّض لغيرِك.

وفِي الحَدِيث: أَنَّ رجلًا أتىٰ رَسُول اللهِ ﷺ، فرأىٰ عَلَيهِ آثارَ الفَقْر، فعرَّض بِهِ، فأُعطي شَيئًا، فجاءَ فقيرٌ آخرَ، فآثَره الأَوَّل ببعضِ مَا أُعطي، فرماهُ النَّبِيُّ ﷺ إِليهِ، ونهاهُ عَنْ مثل ذَلِكَ[1].

والقناعةُ بِمَا يَكْفِي، وتركُ التَّشوُّف إِلىٰ الفُضُول أصلُ الأُصُول.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (١١١٩٧)، وأبو داود (١٦٧٥)، والترمذي (٥١١) وصححه، والنسائي (١٤٠٨، ٢٥٣٦)، وابن ماجه (١١١٣)، وابن خزيمة (١٧٩٩، ١٨٣٠، ٢٤٨١)، وابن حبان (٢٥٠٥)، والحاكم (١٠٥٤، ١٥٠٨) من حديث أبي سعيد.

ولمَّا آيسَ الإمَامُ أحْمَد بْن حَنْبَل رَحِمَهُ اللَّهُ نَفْسه مِن قَبُول الهدَايَا والصِّلاتِ اجتَمع هَمُّه، وحسُن ذِكرُه، ولمَّا أطمَعَها ابنُ المَدينيِّ وغيرُه سَقطَ ذكرُه.

ثُمَّ فيمَنْ؟! إنَّمَا هُوَ سُلطانٌ جَائرٌ، أوْ مُزَكٍّ منَّانٌ؟ أوْ صديقٌ مُدِلٌّ بِمَا يُعطِي، والعزُّ ألذُّ مِن كُلِّ لذَّةٍ، والخروجُ عَنْ رِبقةِ المِننِ - ولَوْ بسفِّ التُّرابِ - أفضَلُ.

فَصْل

قَد رُكِّبَ فِي الطِّبَاع حُبُّ التَفْضِيل عَلَى الجِنْس

فَمَا أَحَدٌ إلَّا وهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ أَعْلَىٰ دَرَجةً مِن غَيرِهِ.

فَإذَا وقعتْ نكبةٌ أوْجَبَتْ نزُولَهُ عَنْ مَرتَبَةِ سِواهُ، فيَنْبغِي أَنْ يتجلَّد بِسَتْرِ تِلْكَ النَّكبة، لِئَلَّا يُرىٰ بعينِ نقصٍ، وليتجمَّل المُتعفِّفُ؛ حَتَّىٰ لا يُرىٰ بعين الرَّحْمة، وليتحَامَل المريضُ؛ لِئَلَّا يشمتُ بِهِ ذو العَافِيَة.

وقَد قَالَ ﷺ لأصْحَابه حِينَ قدومه مَكَّة، وقَد أخَذَتْهم الحمَّىٰ، فخاف أَنْ يَشْمَتَ بِهِم الأعْداءُ حِينَ ضَعْفهم عَنْ السَّعي، فَقَالَ: «رَحِمَ اللهُ مَن أظهَرَ مِن نَفْسِه الجَلَدَ» [1]، فَرَمَلُوا. والرمَلُ شدَّة السَّعي، وزالَ ذَلِكَ السَّبَب وبقيَ الحُكْمُ؛ ليُتذكَّر السَّبَب، فيفْهَم معناه.

واستأذنُوا عَلَىٰ مُعاوية وهُوَ فِي المَوْت، فَقَالَ لأهلِهِ: أَجْلِسونِي! فقعَدَ مُتمكِّنًا يُظهرُ العَافِيَةَ، فَلَمَّا خَرجَ العُوَّادُ؛ أنشَدَ:

---

(١) القصة صحيحة عند البخاري (٤٢٥٦)، ومسلم (١٢٦٦)، لكن ليس هذا القول عندهما، ولا رأيته عند غيرهما. والله أعلم.

وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهُمُ ** أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لا أَتَضَعْضَعُ
وَإِذَا المَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا ** أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لا تَنْفَعُ

وما زَالَ العُقَلاءُ يُظهِرونَ التَّجلُّد عِنْدَ المصائب والفقرِ والبَلاءِ؛ لِئَلَّا يتحمَّلُوا معَ النَّوائبِ شَماتَةَ الأعدَاءِ، وإنَّها لأَشدُّ مِن كُلِّ نائبةٍ، وكَانَ فقيرُهم يُظهرُ الغِنَىٰ، ومرِيضُهم يُظهر العَافِيَةَ.

بَلَىٰ؛ ثُمَّ نُكتةٌ يَنْبغِي التفطُّن لَهَا: رُبَّمَا أَظهر الإنْسَانُ كَثْرَة المَالِ وسُبوغَ النِّعَم، فأصابه عَدُوُّه بالعَينِ، فَلا يفي مَا تبجَّحَ بِهِ بِمَا يلاقي من انعكَاسِ النِّعمَة، والعينُ لا تُصيبُ إلَّا مَا يُستحسَنُ، ولا يَكْفِي الاستِحسَانُ فِي إصَابةِ العَينِ حَتَّىٰ يَكُون مِن حَاسدٍ، ولا يَكْفِي ذَلِكَ حَتَّىٰ يَكُون مِن شرِّيرِ الطَّبْع، فَإذَا اجْتمَعتْ هَذِهِ الصِّفَات خِيفَ مِن إصَابةِ العَينِ.

فليكُنِ الإنْسَانُ مُظْهِرًا للتَّجمُّلِ مِقْدَار مَا يأْمَنُ إصَابةَ العين، ويعلم أَنَّهُ فِي خير، وليحذَرِ الإفراطَ فِي إظهار النِّعم؛ فَإِنَّ العينَ هُنَاكَ مَحذورةٌ.

وقَد قَالَ يعقوب لبَنِيهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ [يوسف: ٦٧]، وإنَّمَا خَافَ عَلَيهِم العين؛ فليفْهَم هَذَا الفصل؛ فإنَّه ينفع من لَهُ تدبُّر.

فَصْل

إنَّمَا خُلِقْنا لنَحْيَا معَ الخَالِقِ فِي مَعْرِفَتِهِ ومُحادَثَتِهِ ورُؤْيَتِهِ فِي البَقَاءِ الدَّائِمِ

وإنَّمَا ابتُدِئَ كونُنا فِي الدُّنْيَا لأَنَّهَا فِي مِثالِ مَكْتَبٍ نتعلَّمُ فِيهِ الخَطَّ والأَدَبَ؛ ليصلُحَ الصَّبيُّ عِنْدَ بلُوغِه للرُّتَب.

فمِنَ الصِّبيَان؛ بعيدُ الذِّهنِ، يَطُول مُكثُه فِي المَكْتَب، ويخرُجُ ومَا فَهِمَ شَيئًا، وهَذَا مثالُ مَن لا يَعْلمُ وُجُودُه، ولا نَالَ المُرَاد مِن كَونِهِ.

ومن الصِّبيَان؛ من يَجمع - مع بُعدِ ذهنِه، وقلَّة فَهْمه، وعَدَم تعلُّمه - أذىٰ الصِّبيَان، فَهُو يُؤذِيهم، ويسرقُ مطاعمَهم، ويَستَغِيثون من يدِه، فَلا هُوَ صَلحَ، ولا فهمَ، ولا كفَّ عَن الشَّرِّ؛ وهَذَا مَثَلُ أَهْل الشَّرِّ والمُؤذيين.

ومن الصِّبيَان؛ مَن عَلِقَ بشَيْءٍ مِن الخَطِّ، لكنَّه ضعيفُ الاسْتخراج، رديءُ الكتابةِ، فخَرج ولَمْ يَعْلَق إلَّا بِقَدرِ مَا يَعْلَق بِهِ حساب معامَلتِهِ، وهَذَا مَثَلَ مَن فَهِمَ بَعْض الشَّيْءِ وفاتَتهُ الفَضائل التَّامة.

ومِنْهُم: مَن جَوَّد الخطَّ ولَمْ يتعلم الحِسَابَ، وأتقنَ الآدابَ حِفْظًا، غَيْرَ أَنَّهُ قَاصرٌ فِي أدَبِ النَّفْس؛ فهَذَا يصلُحُ أَنْ يَكُون كَاتبًا للسُّلطانِ عَلَىٰ مُخاطرَةٍ؛ لسوءِ مَا في بَاطنِه من الشَّرَهِ وقِلَّة التَّأدُّب.

ومِنْهُم: مَن سَمَتْ هِمَّتُه إلىٰ المَعَالي الكَامِلَة، فَهُو مُقدَّم الصِّبيَان فِي المَكْتبِ، ونائبٌ عَنْ معلِّمِهم، ثُمَّ يَرْتَفِع عَنْهُم بعزَّة نَفْسه، وأدبِ باطنِه، وكَمَالِ صناعةِ الآدَابِ الظَّاهِرة، ولا يَزَال حاثٌّ مِن باطِنه يحثُّه عَلَىٰ تعجيل التَّعلُّم، وتحصيل كُلِّ فَضِيلَة؛ لعلمه أَنَّ المَكْتبَ لا يُراد لنَفْسه، بَلْ لأخذ الأَدَب مِنْهُ، والرِّحلةِ إلىٰ حَالَة الرُّجوليَّة والتَّصرُّفِ، فَهُو يبادرُ الزَّمَان فِي نيلِ كُلِّ فَضِيلَة؛ فهَذَا مَثَل المُؤمِن الكَامِلِ، يسبِق الأقرانَ يَوْم التَّجارِي، ويَعْرِضُ لوحَ عملِه جيِّدَ الخطِّ، فيقولُ بلِسَان حالِهِ: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩].

وكَذَلكَ الدُّنْيَا وأهلُها: مِن النَّاس: هالكٌ بعيدٌ عَنِ الحَقِّ؛ وهُم الكُفَّار. ومنهم: خَاطئٌ مع قليلٍ من الإيمَان؛ فَهُو مُعاقَبٌ والمَصيرُ إلىٰ خيرٍ. ومنهم: سليمٌ لكنَّه قاصرٌ، ومِنْهُم تَامٌّ لكنَّه بالإضافَةِ إلىٰ مَن دُونهُ، وهُوَ ناقصٌ بإضافةٍ إلىٰ من فَوقَه.

فالبِدارَ البِدارَ يَا أرْبَاب الفُهوم، فَإِنَّ الدُّنْيَا مَعْبَرٌ إلىٰ دار إقَامَةٍ، وسفرٌ إلىٰ المستَقرِّ والقُربِ من السُّلْطَان ومُجاورَته؛ فتهيَّئُوا للمُجالَسة، واستعِدُّوا للمُخاطبةِ، وبالِغُوا فِي اسْتِعْمَال الأَدَب؛ لتَصلحُوا للقُربِ مِن الحَضرَة، ولا يَشْغَلنَّكم عَنْ تَضميرِ الخَيلِ تكاسُلٌ، وليَحمِلكُم عَلَىٰ الجِدِّ فِي ذَلِكَ تذكُّركُم يَوْم السِّباقِ، فَإِنَّ قُرْبَ المُؤْمِنينَ مِن الخَالِق عَلَىٰ قدرِ حَذَرِهم فِي الدُّنْيَا، ومنازلُهم عَلَىٰ قَدرِهم، فَمَا مَنْزِلُ النَّفَّاطِ كمَنْزِلِ الحَاجِب، ولا مَنْزِل الحَاجِب كمَكانِ الوَزيرِ.

جَنَّتان مِن ذَهَبٍ؛ آنيَتُهما ومَا فيهما، وجنَّتان من فضَّة؛ آنيَتُهما ومَا فِيهِما، والفِردَوسُ الأعلىٰ لآخَرين، والَّذِينَ فِي أرض الجَنَّة ينظرُونَ أَهْلَ الدَّرجاتِ كَمَا يَرونَ الكَوكَب الدُّرِّيَّ.

فليتذكَّرِ السَّاعي حَلاوَة التَّسْلِيم إلىٰ الأمينِ، وليتذكَّر فِي لَذاذةِ المَدحِ يَوْم السِّباقِ، وليحْذَرِ المُسَابقُ مِن تَقصِيرٍ لا يمكِنُ استِدراكُه، ولْيَخَفْ مِن عَيبٍ يَبْقَىٰ قُبحُ ذِكرِه، هَؤُلاء الجَهَنَّمِيُّون عُتقاءُ الرَّحْمَن، أَزرَىٰ بِهِم اتِّبَاع الهَوَىٰ ثُمَّ لحِقتْهُم العَافِيَة، فنَجَوْا بَعدَ لَأْيٍ، فلْيَتَّعظْ وليَصبِر عَنِ المُشتَهىٰ؛ فالأَيَّامُ قَلائلُ؛ «يدْخُلُ فُقراءُ المُؤْمِنينَ قبلَ الأغنِياءَ إلىٰ الجَنَّة بخمسِمائَةِ عامٍ»[1].

فالجِدَّ الجِدَّ، بإقدامِ المُبادَرة، فَقد لاحَ العِلْم، خُصوصًا لمنْ بانَتْ لَهُ بَانَةُ الوَادِي: إِمَّا بالعِلْمِ الدَّالِّ عَلَىٰ الطَّرِيق، وإِمَّا بالشَّيبِ الَّذِي هُوَ عَلَمُ الرَّحيل، وهُوَ مَا يأملُه أَهْلُ الجدِّ.

---

(١) **صحيح**: أخرجه من حديث أبي هريرة: الترمذي (٢٣٥٣، ٢٣٥٤) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (٤١٢٢)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٢٨٥)، وأحمد (٧٩٤٦)، وابن حبان (٦٧٦).
وأخرجه من حديث ابن عمر: عبد بن حميد (٧٩٧)، وابن ماجه (٤١٢٤) وقال العراقي في «تخريج الإحياء» (٤/ ٢٤٨): «إسناده ضعيف».

وكَانَ الجنيدُ يقرأُ وقتَ خروجِ رُوحِه، فيُقَال لَهُ: فِي هَذَا الوَقْت؟! فيقولُ: أُبَادِر طيَّ صحيفَتِي.

وبعدَ هَذَا؛ فالمُرَاد مُوفَّقٌ، والمَطْلُوب مُعانٌ، وإِذَا أرادَك لأمرٍ هيَّأَكَ لَهُ.

❁ فَصْل ❁

تَأمَّلتُ حَالَةً عَجِيبةً

وهُوَ أَنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ السَّاكنِينَ فِي أَرْضِهَا فِي نَقْصٍ عَظِيمٍ بِالإِضَافةِ إلىٰ مَنْ فوقَهُمْ، وهُمْ يَعْلَمُونَ فَضْلَ أُولَئِكَ.

فلو تفكَّرُوا فِيمَا فَاتَهم مِن ذَلِكَ وقَعتِ الحَسَراتُ، غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ لا يكونُ؛ لأَنَّ ذَلِكَ لا يَقَع لَهُم لطِيبِ مَنازِلِهم، ولا يَقعُ فِي الجَنَّة غَمٌّ، ويرضَىٰ كلٌّ بِمَا أُعطِيَ مِن وجْهَين:

أحَدُهُمَا: أَنَّهُ لا يظنُّ أَنْ يَكُون نَعِيمٌ فَوْقَ مَا هُوَ فِيه، وإِنْ عَلَتْ مَنْزِلةُ غيرِهِ.

والثَّانِي: أَنَّهُ يُحبَّبُ إِلَيْهِ كَمَا يُحبَّبُ إِلَيْهِ وَلَدُه المُستوحِشَ الخَلْقةِ، فإِنَّهُ يؤْثِرهُ عَلَىٰ الأَجْنبِيِّ المُستَحسَنِ.

إلا أَنَّ تَحْتَ هَذَا مَعْنًىٰ لَطيفًا، وهُوَ أَنَّ القَومَ خُلِقتْ لَهُم هِممٌ قَاصِرةٌ فِي الدُّنْيَا عَنْ طَلَبِ الفَضائِلِ، ثُمَّ يتَفَاوتُ قُصورُها. فمنهُم: مَن يَحْفَظ بَعْضَ القُرْآن ولا يَتُوق إلىٰ التَّمامِ. ومِنهُم: مَن يَسمَع يَسيرًا مِن الحَدِيثِ. ومنهُم: مَن يَعْرِف قليلًا مِن الفِقْهِ، ومِنْهُم: مَن قَدْ رَضِيَ مِن كُلِّ شَيْءٍ بيسيرِه. ومنهُم: مُقتصرٌ عَلَىٰ الفَرَائِض. ومِنْهُم: قَنوعٌ بصَلاةِ ركعَتينِ فِي اللَّيْلة؛ ولَوْ عَلَت بِهِم الهِممُ لجدَّت فِي تحصيل كُلِّ الفَضَائل، ونبَتْ عَن النَّقْص، فاستخدَمتِ البَدَن.

كَمَا قَالَ الشَّاعِر:

وَلِكُـلِّ جِـسْمٍ فِـي النُّحُـولِ بَلِيَّـةٌ ** وَبَـلَاءُ جِـسْمِي مِـنْ تَفَـاوُتِ هِمَّتِـي

ويدلُّ عَلَىٰ تَفَاوُتِ الهِمَم: أَنَّ فِي النَّاس مَن يَسْهَرُ فِي سَمَاع سَمَرٍ، ولا يَسهُلُ عَلَيهِ السَّهَرُ فِي سَمَاع القُرْآن.

والإنْسَانُ يُحشرُ ومَعهُ تِلْكَ الهِمَّةُ، فيُعطَىٰ عَلَىٰ مِقْدَار مَا حصَّلَت فِي الدُّنْيَا، فكَمَا لَمْ تَتُقْ إلىٰ الكَمَال وقَنِعَت بالدُّونِ، قَنِعَتْ فِي الآخِرَة بِمثل ذَلِكَ.

ثُمَّ إنَّ القومَ يتفكَّرون بعُقُولهم، فيعلمُونَ أَنَّ الجَزَاءَ عَلَىٰ قَدْرِ العَمَل، ولا يطمعُ مَن صلَّىٰ رَكعتينِ فِي ثَوابِ مَن صَلَّىٰ أَلْفًا.

فَإِن قَالَ قَائِلٌ: فَكَيفَ يُتَصَوَّرُ لَهَا أَلَّا تَرومَ مَا نالَهُ مَن هُوَ أَفْضَلُ مِنْها؟!

قُلْتُ: إنْ لَمْ يُتصوَّر نَيلُه يُتَصوَّرُ الحُزنُ عَلَىٰ فَوتِه؟! وهَل رَأيْتَ عامِّيًّا يحزنُ عَلَىٰ فَوَات الفِقه حُزنًا يُقلِقُه؟! هَيهَاتَ! لَوْ كَانَ ذَلِكَ الحُزنُ عِنْده لحرَّكه إلىٰ التَّشَاغُل، فلَيْس عِنْدهُم هِمَّة تُوجِبُ الأَسَفَ؛ معَ أَنَّهُمْ قَدْ رضُوا بِمَا فِيهِ؛ فافْهَمْ مَا قُلتُه وبَادِر، فهَذَا مَيدانُ السِّباقِ.

❁ فَصْل ❁

تَفَكَّرْتُ فِي إِبْقَاءِ اليَهُودِ والنَّصَارَى بَيْنَنَا، وَأَخْذِ الجِزْيَةِ مِنْهُمْ

فرَأيْتُ فِي ذَلِكَ حِكَمًا عَجِيبةً.

مِنهَا: مَا قَدْ ذُكِرَ أَنَّ الإسلامَ كَانَ ضَعيفًا؛ فتَقَوَّىٰ بِمَا يُؤخذُ مِن جزيتِهم، ومِنْهَا: ظُهُور عِزِّهِ بذُلِّهم، إلىٰ غَيْر ذَلِكَ مِمَّا قَدْ قيلَ.

ووقعَ لي فِيهِ مَعْنًىٰ عَجِيبٌ، وهُوَ: أَنَّ وُجُودهم وتَعبُّدهُمْ وحِفظَهم شَرْعَ نبيِّهِم ﷺ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّهُ قَدْ كَانَ أنبياءُ وشَرائِعُ، وأنَّ نَبِيَّنَا ﷺ لَيس ببدعٍ مِن الرُّسُل، فَقدِ اجْتَمَعت الجِنُّ وهُمْ عَلَىٰ إِثْبَاتِ صَانعٍ، وإقْرارٍ برُسُلٍ؛ فبانَ أنَّنا مَا ابتَدعْنَا مَا لَمْ يَكُن.

هُمْ يَصبِرونَ عَلَىٰ باطِلِهم ويؤدُّونَ الجِزيةَ، فَكَيفَ لا نَصبِرُ عَلَىٰ حَقٍّ، والدَّولةُ لنَا، وفِي بقَائِهم احتِرامٌ لمَا كَانَ صَحِيحًا مِن الدِّين، وليرجِع مُتبصِّرٌ، ولَيَستعمِل مُفكِّرٌ.

❁ فصْل ❁

قَدْ ثَبتَ بالدَّلِيل شَرَفُ العِلْم وفضلُه، إلَّا أَنَّ طُلَّابَ العِلْم افْتَرَقُوا؛ فَكلٌّ تَدْعُوه نَفْسُه إلى شَيْءٍ

فمِنْهُم: مَن أذهبَ عمرَه فِي القِراءاتِ، وذاكَ تفريطٌ فِي العُمُرِ؛ لأَنَّهُ إنَّمَا يَنبغِي أَنْ يُعتمَد عَلَىٰ المَشهورِ مِنها لا عَلَىٰ الشَّاذِّ، ومَا أقْبَح القَارئَ يُسْأَلُ عَنْ مَسألَةِ الفِقْهِ وهُوَ لا يَدْري، ولَيْسَ مَا شغَله عَنْ ذَلِكَ إلَّا كَثرَة الطُّرُق فِي رِواياتِ القِراءَاتِ.

ومِنْهُم: مَن يَتشَاغَل بالنَّحو وعلَلِه فحَسْب. ومِنْهُم: مَن يَتشَاغَلُ باللُّغةِ فحَسب. ومِنْهُم: مَن يَكتُبُ الحَدِيثَ ويُكثِر، ولا يَنْظُرُ فِي فَهْمِ مَا كتَبَ. وقَدْ رَأيْنَا فِي مَشَايخِنَا المُحدِّثين مَن كَانَ يُسْأَلُ عَنْ مَسألَةٍ فِي الصَّلاة، فَلا يَدْرِي مَا يقُولُ، وكَذَلكَ القرَّاءُ، وكَذَلكَ أَهْلُ اللُّغةِ والنَّحوِ.

وحَدَّثني عَبْد الرَّحْمَن بْن عِيسَىٰ الفقيه قَالَ: حَدَّثني ابنُ المَنصوريِّ، قَالَ: حَضَرنا معَ أَبِي مُحَمَّد بْنَ الخَشَّاب - وكَانَ إمامَ النَّاسِ فِي النَّحوِ واللُّغَةِ - فَتَذاكَرُوا الفِقْهَ، فَقَالَ: سَلُونِي عمَّا شِئْتُم، فَقَالَ لَهُ رجل: إنَّ قِيلَ لَنَا رفع اليَديْن فِي الصَّلاة مَا هُوَ؛ فمَاذَا نَقُول؟ فقَالَ: هُوَ رُكْنٌ! فَدُهِشَت الجَمَاعَةُ مِن قِلَّةِ فِقْهِهِ!!

وإنَّمَا يَنْبغِي للعَاقِلِ أَنْ يَأْخُذ مِن كُلِّ عِلْم طَرَفًا، ثُمَّ يَهْتَمَّ بالفِقْهِ، ثُمَّ يَنْظُر فِي مَقْصُود العُلُوم، وهُوَ المُعَاملَةُ لله سُبْحَانَه، والمَعْرِفَةُ بِهِ، والحُبُّ لَهُ.

ومَا أبلَهَ مَن يَقطَعُ عُمُرَه فِي مَعْرِفَة عِلمِ النُّجُوم، وإنَّمَا يَنْبغِي أَنْ يَعْرِف من ذَلِكَ اليَسيرَ والمَنازِلَ لعِلمِ الأوقَاتِ، فأَمَّا النَّظَر فِيمَا يدَّعىٰ أَنَّهُ القَضَاءُ والحُكمُ؛ فجَهلٌ مَحضٌ؛ لأَنَّهُ لا سبيلَ إلىٰ عِلمِ ذَلِكَ حَقِيقَةً، وقَد جَرَّبَ فبَانَ جَهْلِ مُدَّعيهِ. وقَدْ تَقعُ الإصابةُ فِي وقتٍ، وعَلَىٰ تقديرِ الإصَابةِ لا فَائدةَ فِيهِ إلَّا تَعجيلُ الغَمِّ. فإنْ قَالَ قَائِل: يُمْكِنُهُ دفعُ ذَلِكَ؛ فَقدْ سَلَّم أَنَّهُ لا حَقِيقَة لَهُ.

وأبلَهَ مِن هَؤُلاء مَن يَتشَاغَل بعِلْم الكِيمْياءِ؛ فإنَّه هَذَيانٌ فَارِغٌ، وإِذَا كَانَ لا يُتَصَوَّرُ قَلْبُ الذَّهبِ نُحَاسًا؛ لَمْ يُتَصَوَّر قَلْبُ النُّحَاس ذهبًا؛ فإنَّمَا فاعِل هَذَا مُسْتَحِلٌّ للتدليسِ عَلَىٰ النَّاسِ فِي النُّقود؛ هَذَا إِذَا صَحَّ لَهُ مُرَادُهُ.

ويَنْبغِي لطالبِ العِلْم أَنْ يُصَحِّحَ قَصْدَهُ، إذْ فُقْدانُ الإخْلاصِ يمنَعُ قَبولَ الأعْمالِ، ولْيَجْتَهِدْ فِي مُجَالَسَة العُلَمَاء، والنَّظَر فِي الأَقْوالِ المُخْتَلِفَةِ، وتَحْصيل الكُتُب؛ فَلا يَخْلُو كِتابٌ مِن فَائدَةٍ، ولْيَجْعَل هِمَّته للحِفْظِ، ولا يَنْظُر ولا يَكتُبُ إلَّا وَقْتَ التَّعَبِ مِن الحِفْظ، ولْيَحْذَرْ صُحبةَ السُّلْطَان، ولينظُرْ فِي مِنهاجِ الرَّسُولِ ﷺ والصَّحَابَةِ والتَّابِعينَ، وليَجتَهدَ فِي رِياضَة نَفْسِه، والعَمَل بعِلمِهِ، ومَنْ تَولَّاهُ الحَقُّ وَفَّقَهُ.

* * *

❁ فَصْل ❁

طَالَ تَعَجُّبِي مِن أَقْوَامٍ لَهُمْ أَنَفَةٌ، وَعِنْدَهُمْ كِبرٌ زَائدٌ فِي الحَدِّ

خُصُوصًا العربُ الَّذِينَ مِن كَلِمَةٍ يَنْفِرُون، ويُحارِبُون، ويرضَوْنَ بالقَتلِ، حَتَّىٰ إِنَّ قومًا مِنهُم أدرَكُوا الإسلامَ، فَقَالُوا: كَيْفَ نَرْكَعُ ونَسجُدُ فتعلُونا أَسْتاهُنا؟! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لا خيرَ فِي دينٍ لَيسَ فِيهِ رُكوعٌ ولا سُجُود»[١].

ومع هَذِهِ الأَنَفَة؛ يذِلُّون لِمَن هُم خيرٌ مِنْهُ؛ هَذَا يَعْبُد حَجَرًا، وهَذَا يَعْبُد خَشَبَةً، وقَد كَانَ قَوْم يَعْبدونَ الخَيلَ والبَقَرَ!

وإِنَّ هَؤُلاء لَأَخَسُّ مِن إِبْلِيسَ؛ فَإِن إِبْلِيس أَنِفَ لادِّعائِهِ الكَمَالَ أَنْ يَسْجُدَ لناقِصٍ، فقَالَ: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ [ص: ٧٦]، وفِرْعَوْن أَنِفَ أَنْ يَعْبُدَ شَيئًا أَصْلًا!

فالعَجَبُ مِن ذُلِّ هَؤُلاءِ المُفْتخِرينَ المُتَعَاظِمِينَ المُتكَبِّرينَ لحَجَرٍ أَوْ خَشَبَةٍ؛ وإِنَّمَا يَنبغِي أَنْ يَذِلَّ النَّاقِصُ للكَامِلِين!

وقَد أشير إلىٰ هَذَا فِي ذمِّ الأَصْنام فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ ﴾ [الأعراف: ١٩٥]، والمَعنَىٰ: أَنَّ لكم هَذِهِ الآلاتُ المُدرِكةُ وهُمْ لَيسَ لَهُم شَيْءٌ منها، فَكَيفَ يعبُدُ الكَاملُ النَّاقِصَ.

غَيْرَ أَنَّ هَوَىٰ القومِ فِي مُتابعَةِ الأَسْلافِ، واستِحلاءِ مَا اختَرعُوهُ بآرَائِهم، غَطَّىٰ عَلَىٰ العُقُول؛ فَلم تتَأَمَّل حَقَائِقَ الأُمُور!

---

(١) حسن: أخرجه أحمد (١٧٩١٣)، أبو داود (٣٠٢٦)، وابن خزيمة (١٣٢٨) من حديث عثمان بن أبي العاص بنحوه.

ثُمَّ غطَّىٰ الحَسدُ عَلَىٰ أقْوَامٍ، فترَكُوا الحَقَّ وقَد عَرفُوه؛ فأُمَيَّةُ بْنُ أبي الصَّلتِ يُقِرُّ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، ويَقصدُهُ ليُؤمِنَ بِهِ، ثُمَّ يَعودُ فيقُولُ: لا أُؤْمِنُ برسولٍ لَيسَ مِن ثقيفٍ!

وأَبُو جَهلٍ يَقُول: واللهِ مَا كَذَبَ مُحَمَّدٌ قَطُّ، ولَكِنْ إِذَا كَانَتِ السِّدَانَةُ والحِجابَةُ فِي بَنِي هَاشمٍ، ثُمَّ النُّبوَّةُ؛ فَمَا بَقِي لَنَا؟!

وأَبُو طالبٍ يَرَىٰ المُعجِزاتِ، ويَقُولُ: إِنِّي لأعْلَمُ أَنَّكَ عَلَىٰ الحقِّ، ولَوْلا أَنْ تُعَيِّرَني نِسَاءُ قُريشٍ؛ لأقررتُ بِهَا عَينَك.

فنَعُوذُ باللهِ مِن ظُلْمَة حسَدٍ، وغَيابةِ كِبرٍ، وحَماقةِ هوًىٰ يغطِّي عَلَىٰ نورِ العَقْلِ، ونسألَهُ إلهَامَ الرُّشدِ، والعَمَلَ بمُقتَضَىٰ الحقِّ.

۞ فَصْلٌ ۞

قَد سَمِعْنَا بِجَمَاعَةٍ مِن الصَّالِحِينَ، عَامَلُوا اللهَ ﷻ عَلَى طَرِيقِ السَّلَامَةِ وَالمَحَبَّةِ واللُّطْفِ؛ فَعَامَلَهُمْ كَذَلكَ؛ لأَنَّهُم لا يَحْتَمِلُ طَبْعُهُمْ غَيْرَ ذَلِكَ

ففِي الأَوائِلِ: برخ العَابِدُ، خَرَجَ يَسْتَسْقِي، فَقَالَ - مُناجيًا اللهَ -: «مَا هَذَا الَّذِي لا نَعْرِفُهُ منكَ، اسْقِنا السَّاعَةَ»؛ فسُقُوا.

وفِي الصَّحَابَة: أنسُ بْنُ النَّضرِ، يَقُولُ: «والله؛ لا تُكسَر سِنُّ الرُّبيِّع»، فجَرَىٰ الأَمْرُ كَمَا قالَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إنَّ مِن عِبادِ الله مَن لَوْ أقسَمَ عَلَىٰ اللهِ لأَبرَّهُ**»[1].

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٧٠٣، ٢٨٠٦، ٤٥٠٠، ٤٦١١)، ومسلم (١٦٧٥) من حديث أنس.

وهَؤُلاءِ قَوْمٌ غَلبَ عَلَيهِم مُلاحظَةُ اللُّطفِ والرِّفقِ؛ فلطَفَ بِهِم، وأُجرُوا عَلَىٰ مَا اعتقَدُوا، وهُناكَ أعلَىٰ مِن هَؤُلاءِ؛ يَسْأَلون فَلا يُجابُون، وهُمْ بالمَنْع راضُونَ، لَيسَ لأحدِهِم انبساطٌ، بَلْ قَدْ قَيَّدهُم الخَوْفُ، ونكَّس رؤوسَهم الحَذَرُ، ولَمْ يرَوْا أَلْسِنَتَهُم أهلًا للانبساطِ، فغايةُ آمَالِهِم العَفوُ، فَإِنِ انبسَطَ أحدُهم بسؤالٍ فَلم ير الإجَابَة عَادَ عَلَىٰ نَفْسه بالتَّوبيخ فَقَالَ: مثلُك لا يُجابُ! ورُبَّما قَالَ: لعلَّ المَصلَحَة فِي مَنْعِي. وهَؤُلاء الرِّجَالُ حقًّا.

والأبلهُ الَّذِي يَرَىٰ لَهُ مِن الحَقِّ أَنْ يُجابَ، فَإِنْ لَمْ يُجَبْ تَذَمَّر فِي باطنِه كأَنَّه يَطلُبُ أُجْرَةَ عَملِه، وكَأنَّه قَدْ نَفعَ الخَالِقَ بعِبادَتِه، وإِنَّمَا المُتَعَبِّد حقًّا مَن يَرضَىٰ مَا يفعَلُه الخَالِقُ، فَإِنْ سَأَلَ فأُجيبَ رَأَىٰ ذَلِكَ فَضْلًا، وإنْ مُنعَ رَأَىٰ تَصرُّفَ مَالكٍ فِي مملوكٍ، فَلم يَجُلْ فِي قَلبِه اعتراضٌ بحَالٍ.

فَصْل

رَأَيْتُ جَمَاعَةً مِن العُلَمَاءِ يَتَفَسَّحُونَ[1]، وَيَظُنُّونَ أَنَّ العِلْمَ يَدْفَعُ عَنْهُمْ

ومَا يَدْرُونَ أَنَّ العِلْمَ خَصْمُهُمْ، وأَنَّهُ يُغْفَرُ للجَاهِل سَبْعُونَ ذَنبًا قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ للعَالِم ذَنْبٌ؛ وذَاكَ لأَنَّ الجَاهِلَ لَمْ يَتعرَّضْ بالحَقِّ، والعَالِمُ لَمْ يتأدَّبْ مَعهُ.

ورَأَيْتُ بَعْضَ القوم يَقُول: أنا قَدْ ألقيتُ مِنجلِي بينَ الحَصَّادِينَ، ونِمْتُ، ثُمَّ كَانَ يتفسَّح فِي أَشْيَاءَ لا تجُوزُ، فتفكَّرْتُ؛ فَإِذَا العِلْم - الَّذِي هُوَ مَعْرِفَة الحَقَائِق، والنَّظَرُ فِي سِيَرِ القُدَمَاء، والتَّأَدُّبُ بآداب القَوْم، ومَعرِفَةُ الحَقِّ ومَا يجب لَهُ -؛ لَيسَ

---

(١) أي: يتوسعون في استعمال الرخص.

عِنْدَ القَوْم، وإنَّمَا عِنْدهم صُوَرُ ألفاظٍ يَعرِفُونَ بِهَا مَا يَحِلُّ ومَا يَحْرُمُ، ولَيْسَ ذَلِكَ العِلْمَ النَّافعَ.

إنَّمَا العِلْمُ فَهْمُ الأُصُول، ومَعْرِفَةُ المَعْبودِ وعَظَمَتِهِ ومَا يَستَحقُّه، والنَّظَرُ فِي سِيَرِ الرَّسُول ﷺ وصَحابَته، والتَّأدُّبُ بآدَابِهم، وفَهْمُ مَا نُقلَ عَنهُم؛ هُوَ العِلْمُ النَّافعُ، الَّذي يَدعُ أعْظَمَ العُلَمَاءِ أَحْقَرَ عِنْدَ نَفْسهِ مِن أَجْهَلِ الجُهَّال.

ورَأيْت بَعْضَ مَن تعَبَّد مُدَّةً، ثُمَّ فَترَ، فبلَغَني أَنَّهُ قَالَ: قَدْ عبَدتُه عِبادَةً مَا عبَدَهُ بِهَا أحدٌ، والآنَ قَدْ ضَعُفْتُ.

فقُلْتُ: مَا أخوفَنِي أَنْ تَكُونَ كَلمتُهُ هَذِهِ سَببًا لردِّ الكُلِّ؛ لأنَّهُ قَدْ رَأَىٰ أَنَّهُ عَمِلَ مع الحَقِّ شيئًا، وإنَّمَا وقفَ يسْأَلُ النَّجاةَ بطَلَبِ الدَّرجاتِ؛ ففِي حَقِّ نَفْسِه فَعَلَ، ومَا مَثلُه إلَّا كمَثلِ مَن وَقفَ يُكْدِي، فَلا يَنْبغِي أَنْ يَمُنَّ عَلَىٰ المُعْطِي. وإنَّمَا سَبَب هَذَا الانبساطِ الجَهْلُ بالحَقَائِق.

وأيْنَ هُوَ من كبارِ عُلماءِ المُعَاملَة الَّذِينَ كَانَ فِيهِمْ مثل صِلةَ بْن أَشْيَمَ، إذَا رآهُ السَّبعُ هَربَ مِنْهُ، وهُوَ يَقُولُ - إِذَا انقَضَىٰ اللَّيْل عِنْدَ صلاتِهِ -: يَا رَبِّ أجِرنِي من النَّار، أوَمِثلِي يَسْأَلُ الجَنَّةَ؟!

وأبلغُ مِن ذا: قَوْلُ عُمرَ رضي الله عنه: وددْتُ أَنْ أنجُو كَفافًا؛ لا لي! ولا عليَّ. وقولُ سُفيَان - عِنْدَ موتِه - لحَمَّاد بنِ سَلمةَ: أتَرجُو لمِثلِي أَنْ يَنجُو مِن النَّار؟! وقولُ أحمَدُ: لا؛ بَعدُ[1].

(١) في «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٣٤١): «عن عبد الله بن أحمد قال: لما حضرت أبي الوفاة، جلست عنده وبيدي الخرقة لأشد بها لحييه، فجعل يغرق ثم يفيق، ثم يفتح عينيه، ويقول بيده هكذا: لا بعد، لا بعد، ثلاث مرات. فلما كان في الثالثة، قلت: يا أبة، أي شيء هذا الذي لهجت به في هذا الوقت؟ فقال: يا بني، ما تدري؟ قلت: لا. قال: إبليس لعنه الله، قائم بحذائي، وهو عاض علىٰ أنامله، يقول: يا أحمد فُتَّني، وأنا أقول: لا بعد حتىٰ أموت».

فأنَا أحْمَد الله ﷻ ؛ إذْ تخلَّصتُ مِن جَهل المُتَسَمِّينَ بالعِلْم مِن هَؤُلاء الَّذِينَ ذمَمْتُهم، وبالزُّهْدِ مِن هَؤُلاء الَّذِينَ عِبتُهُم؛ فَإنِّي قَد اطَّلعتُ مِن عَظَمَةِ الخَالِق وسِيَرِ المُحقِّقين عَلَىٰ مَا يُخرِسُ لِسَانَ الانبساطِ، ويَمْحُو النَّظَر إلىٰ كُلِّ فِعْلٍ.

وكيفَ أنظُر إلىٰ فِعلي المُسْتَحْسَنِ، وهُوَ الَّذِي وهَبَه لي، وأَطْلَعني عَلَىٰ مَا خَفِي عَنْ غَيرِي؟! فهل حَصَل ذَلِكَ بِي أوْ بلُطْفِهِ؟ وكَيفَ أَشْكُر تَوْفِيقِي الشُّكْرَ؟!

ثُمَّ أيُّ عَالِم إِذَا سَبَرَ أمورَ العُلَماء مِن القُدَماء لا يحتقرُ نَفْسَه؟! هَذَا فِي صُورَة العِلْم، فَدَعْ مَعْنَاهُ، وأيُّ عَابِدٍ يسمَعُ بالعُبَّاد، ولا يَجْرِي فِي صُورَة التَّعبُّد؛ فَدَعِ المَعْنَىٰ.

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ مَعْرِفَةً تُعرِّفنا أَقْدَارَنا، حَتَّىٰ لا يَبْقَىٰ للعُجبِ بمُحْتَقَرِ مَا عندَنا أثرٌ فِي قُلوبِنا، ونرغبُ إلَيْهِ فِي مَعْرِفَةٍ لعظَمتِه تُخرِسُ الألسُنَ أَنْ تنطقَ بالإدلالِ، ونَرجُو مِن فَضلهِ توفيقًا نُلاحِظُ بِهِ آفاتِ الأعمالِ الَّتِي بِهَا نَزهُو، حَتَّىٰ تُثمِرَ المُلاحظةُ لعُيوبِها الخَجلَ مِن وجُودِها، إِنَّهُ قَرِيبٌ مُجيبٌ.

فَصْل

سَبَبُ تَنغِيصِ العَيْشِ فَوَاتُ الحُظُوظِ العَاجِلَةِ

ولَيْسَ فِي الدُّنْيَا طِيبُ عَيْشٍ عَلَىٰ الدَّوَام إلَّا للعَارِفِ الَّذِي شَغَلَهُ رِضَىٰ حَبيبِهِ والتَّزوُّدُ للرَّحِيلِ إِلَيْهِ.

فإِنَّه إنْ وجَدَ راحةً فِي الدُّنْيَا استَعانَ بِهَا عَلَىٰ طَلبِ الآخِرَةِ، وإنْ وَجدَ شِدَّةً اغتنَمَ الصَّبْرَ عَلَيْهَا لثَوابِ الآخِرَةِ، فَهُوَ رَاضٍ بكُلِّ مَا يجْرِي عَلَيهِ يَرَىٰ ذَلِكَ مِن قَضاءِ الخَالِق، ويعلَمُ أَنَّهُ مُرادُهُ.

كَمَا قَالَ قَائِلُهُمْ:

إِنْ كَانَ رِضَاكُمْ فِي سَهَرِي ** فَسَلَامُ اللهِ عَلَىٰ وَسَنِي

فأَمَّا مَن طلَبَ حَظَّه؛ فإِنَّه يقلقُ لفَوْتِ مُرادِهِ، ويَتَنَغَّص لبُعد مَا يَشْتَهي، فلوِ افتقرَ تغيَّر قَلبُه، ولَوْ ذَلَّ تغيَّر؛ وهَذَا لأَنَّهُ قَائمٌ مع غَرضِه وهَواهُ.

ومَا أحسنَ قَوْلَ الحُصْرِيِّ: إيش عَليَّ مِنِّي؟! وإيش لِي فِيَّ؟!

وهَذَا كلامُ عارفٍ؛ لأَنَّهُ إنْ كَانَ ينظرُ إلىٰ حَقِيقَة المُلْكِيَّةِ؛ فعبدٌ يتصرَّفُ فِيهِ مولاهُ، فاعتِراضُه لا وَجْه لَهُ، وإرادتُه أَنْ يَقَع غَيْرُ مَا يُحِبُّ؛ فُضُولٌ فِي البَيْنِ، وإِنْ نَظَر أَنَّ النَّفْس كالمُلْك لَهُ؛ فَقَدْ خَرَجَتْ عَنْ يَدِهِ من يَوْم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ﴾ [التوبة: ١١١]؛ أَفَيَحْسُنُ لِمن بَاعَ شَاةً أَنْ يغضبُ عَلَىٰ المُشْتَري إِذَا ذبَحها، أَوْ يتغيَّرُ قلبُه؟!

واللهِ؛ لَوْ قَالَ المالكُ سُبْحَانَه: إِنَّمَا خلقتُكم ليُستدلَّ عَلَىٰ وجُودي، ثُمَّ أنا أُفنيكم ولا إِعَادَةَ؛ لكان يجبُ عَلَىٰ النُّفُوس العَارِفة بِهِ أَنْ تَقُولَ: سَمعًا لِمَا قُلْتَ وطَاعَة، وأي شَيْءٍ لَنَا فينا حَتَّىٰ نتكلَّمُ؟! فكَيفَ وقَد وعَدَ بالأجرِ الجَزيلِ، والخُلودِ فِي النَّعِيم، الَّذِي لا ينفدُ؟!

لكنَّ طَرِيق الوُصُول تحتاجُ إلىٰ صَبْرٍ عَلَىٰ المَشَقَّةِ، ومَا يَبْقَىٰ لِتَعَبِ رَمْلِ زَرُودٍ أثرٌ إِذَا لاحَ الحَرَمُ[1].

فالصَّبْرَ الصَّبْرَ يَا أقدامَ المُبتدِئين! لاح المَنْزِل. والسُّرورَ السُّرورَ يَا مُتوسِّطينَ! ضُربتِ الخِيمُ. والفرحَ الكاملُ يَا عارفينَ! قَدْ تُلقِّيتُم بالبشائرِ.

(١) زرود: بادية كثيرة الرمل صعبة الممشىٰ قريبة من مكة، والمعنىٰ: إذا ظهر الحرم هان تعب الطريق.

زَالَتْ - واللهِ - أثقالُ المُعاملاتِ عنكُم، فكَانتْ معَرفتُكُم بالمُبتلَىٰ حَلاوَةً تعقَّبت شَربةَ المُجاهدَة، فَلم يَبْقَ في الفَم للمُرِّ أثرٌ، تخايَلوا قُربَ المُنَاجَاة، ولذَّةَ الحُضورِ، ودوَارَ كؤوسِ الرِّضَىٰ عنكم؛ فَقد أَخذَتْ شَمْسُ الدُّنْيَا فِي الأُفُولِ:

مَـــا بَيْنَنَـــا إلاَّ تَـــصَرُّ ** مُ هَـــذِهِ الـــسَّبْعِ البَـــوَاقِي
حَتَّـــىٰ يَطُـــولَ حَـــدِيثُنَا ** بِـــصُنُوفِ مَـــا كُنَّـــا نُلَاقِـــي

۞ فصْل ۞

تَفكَّرْتُ فِي قَوْلِ شَيْبَانَ الرَّاعِي لِسُفْيَانَ: يَا سُفيَانُ! عُدَّ مَنْعَ اللهِ إيَّاكَ عَطَاءً مِنْهُ لَكَ؛ فَإنَّهُ لَمْ يَمْنَعْكَ بُخْلًا، إنَّمَا مَنَعَكَ لُطْفًا

فرَأَيْته كَلَامَ مَن قَدْ عَرَفَ الحَقَائِقَ.

فإنَّ الإنْسَان قَدْ يُرِيدُ المُسْتَحْسَناتِ الفَائقَات فَلا يقدِرْ، وعجزُه أَصْلحُ لَه؛ لأَنَّهُ لَوْ قدرَ عليهِنَّ تشتَّت قلبُه؛ إمَّا بحفظهِنَّ، أَوْ بالكسبِ عليهِنَّ، فَإن قَويَ عِشْقُه لهنَّ ضاعَ عُمُره، وانقلبَ هَمُّ الآخِرَة إلىٰ اهتمامٍ بِهنَّ، فَإن لَمْ يُرِدْنَهُ فذَاكَ الهلاكُ الأكبرُ، وإنْ طلَبنَ نفقةً لَمْ يُطِقْها كَانَ سَبَبَ ذَهابِ مُروءَته وهلاك عِرضِه، وإنْ أَرَدْنَ الوَطءَ وهُوَ عاجزٌ، فرُبَّمَا أَهْلَكْنَهُ أَوْ فَجَرْنَ، وإنْ مَاتَ مَعْشُوقُهُ هَلكَ هُوَ أَسَفًا، فالَّذِي يطلبُ الفَائقَ يَطلُب سِكِّينًا لذَبحِهِ، ومَا يعلمُ.

وكَذَلكَ إنفاذُ قَدْر القُوتِ؛ فإنَّه نعمةٌ، وفِي «الصَّحِيحين» أَنَّ رَسُول اللهِ ﷺ قَالَ: «**اللَّهُمَّ اجعلْ رِزقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا**»(١)، ومَتَىٰ كثُر تشتَّتَ الهَمُّ.

فالعَاقِل مَن علِمَ أَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تُخلَق للتَّنعيم؛ فقنعَ بِدَفْعِ الوَقْت عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٤٦٠)، ومسلم (١٠٥٥)، من حديث أبي هريرة.

فصل

رَأَيْتُ جَمَاعَةً مِن الخَلْقِ يَتَعَلَّلُونَ بِالأَقْدَارِ، فَيَقُولُ قَائِلُهُمْ: إِنْ وُفِّقْتُ فَعَلْتُ

وهَذَا تَعَلُّلٌ بارِدٌ، ودَفْعٌ للأَمْرِ بالرَّاحِ، وهُوَ يُشِيرُ إِلىٰ رَدِّ أَقْوَالِ الأَنْبِيَاءِ والشَّرَائِعِ جَمِيعِهَا.

فإنَّه لَوْ قَالَ كَافرٌ للرَّسُولِ: إنْ وَفَّقَنِي أَسْلَمْتُ؛ لَمْ يُجِبْهُ إِلَّا بِضَرْبِ العُنُقِ.

وهَذَا جِنْس قَوْل النَّاس لعلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: نَدْعُوكَ إِلىٰ كِتابِ الله. فَقَالَ: كَلِمَةُ حَقٍّ أُرِيدَ بِهَا باطِلٌ.

وكَذَلكَ قَوْل المُمْتَنِعِينَ عَن الصَّدقَةِ: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس: ٤٧].

ولَعَمْرِي؛ إنَّ التَّوفيقَ أصلُ الفِعْل، ولَكِنَّ التَّوفيقَ أمرٌ خفيٌّ، والخِطابُ بالفِعْل أمرٌ جليٌّ، فَلا يَنْبغِي أَنْ يَتشَاغَل عَن الجليِّ بذِكرِ الخَفيِّ.

ومما يقطعُ هَذَا الاحتِجاجَ أَنْ يُقَال لهَذَا القَائِل: إنَّ الله سُبْحانَه لَمْ يكلِّفك شَيئًا إِلَّا وعِنْدك أَدواتُ ذَلِكَ الفِعْل، ولك قدرةٌ عَلَيهِ، فَإِن كَانَت القُدْرَة عَلَيهِ مَعدومَةً، والأدواتُ غَيْرَ مُحصَّلةٍ؛ فَلا أمرَ ولا تكلِيفَ، وإن كُنْتَ تَسعىٰ بتِلْكَ الأدواتِ فِي تَحصيلِ غَرضِك وهواكَ؛ فاسعَ بِهَا فِي إقَامَة مَفروضِكَ.

مثال ذَلِكَ: أَنَّكَ تسافرُ فِي طلب الرِّبحِ، وتُسأَلُ الحجَّ فَلا تَفْعَل، ويَثْقُلُ عَلَيْك الانتباهُ باللَّيْل، فلو أَرَدتَ الخُروجَ إِلىٰ العيدِ؛ انتبَهتَ سَحَرًا، وتقفُ فِي بَعْض أَغراضِك معَ صديقٍ تُحادثُه سَاعَاتٍ، فَإذَا وقفتَ فِي الصَّلاةِ استعجلتَ وثقُلَ عليكَ.

فإيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تتعلَّق بأمرٍ لا حُجَّة لَكَ فِيهِ، ثُمَّ مِن نصيبِك ينقصُ، ومِن حظِّك يضيعُ، فإنَّمَا تحرَّكْ لك، وإنَّمَا تحرَّض لنفعكَ، فبادِر؛ فإنّك مبادَرٌ بك.

وممَّا يُزيلُ كسَلَك - إنْ تأَمَّلْتَهُ - أَنْ تتخَايلَ ثوابَ المُجتهِدين، وقَد فاتكَ، ويَكْفِي ذَلِكَ فِي تَوبِيخِ المُقصِّر، إنْ كَانَتْ لَهُ نَفسٌ، فأَمَّا الميِّتُ الهمَّةِ؛ فَمَا لجُرحٍ بميِّتٍ إيلامُ.

كيفَ بِكَ إِذَا قمتَ مِن قَبرِك وقَد قربت نَجائبُ النَّجاةِ لأقوامٍ وتعثَّرتْ، وأسرَعتْ أقدامُ الصَّالِحِين عَلَىٰ الصِّراط وتخبَّطت، هَيهَاتَ، ذهبَتْ حَلاوَةُ البطَالَة، وبقِيتْ مَرَارةُ الأَسَفِ، ونضَبَ مَاءُ كَأْسِ الكَسَلِ، وبقِي رَسولُ النَّدامَةِ.

وما قَدْر البَقاءِ فِي الدُّنْيَا بالإِضَافَةِ إلىٰ دَوامِ الآخِرَةِ؟! ثُمَّ مَا قَدْرُ عُمُرِك فِي الدُّنْيَا؛ ونِصْفُهُ نَومٌ، وباقِيه غَفْلَةٌ؟!

فيا خاطبًا حورَ الجَنَّة، وهُوَ لا يَمْلكُ فِلْسًا مِن عزيمةٍ؛ افتَح عينَ الفكرِ فِي ضَوءِ العِبَر، لعلَّك تُبْصِرُ مواقِعَ خِطابِك، فَإِن رَأَيْتَ تَثْبيطًا مِن البَاطِنِ فاستغِث بعوْنِ اللُّطف، وتنبَّهْ فِي الأَسْحارِ، لعلَّك تتلمَّح رَكْبَ الأرباحِ، وتَعْلَقُ عَلَىٰ قِطارِ المُسْتغفِرينَ ولَوْ خُطواتٍ، وانزِل فِي رِباعِ المُجتهِدين ولَوْ مَنْزِلًا؛ أيَّ مَنْزِلٍ.

۞ فَصْل ۞

نَظَرْتُ فِي قَوْلِ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه: «مَا أَعْرِفُ شَيْئًا مِمَّا كُنَّا عَلَيهِ اليَوْمَ إِلَّا القِبْلَةَ»

فَقُلتُ: وا عَجَبًا! كَيْفَ لَوْ رَآنَا اليَوْمَ، ومَا مَعَنَا مِن الشَّرِيعَةِ إِلَّا الرَّسْمُ؟!

الشَّرِيعَةُ هِي الطَّرِيقُ، وإِنَّمَا تُعرَف شَريعةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ إمَّا بأفعالِهِ أَوْ أقوَالِه.

وسَببُ الانحرافِ عَنْ طَرِيقِه ﷺ: إمَّا الجَهْلُ بِهَا أو الخُروج عَلَيْهَا، فيجْري الإِنْسَانُ مع الطَّبْع والعَاداتِ، ورُبَّما اتَّخذ مَا يُضادُّ الشَّرِيعَة طَرِيقًا، وقَد كَانَتِ

الصَّحَابَة شاهدَتْهُ وسَمِعتْ مِنْهُ، فقلَّ أَنْ يَنْحرِفَ أحَدٌ مِنهُم عَنْ جادَّته، إلَّا أنَّ أبا الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَأىٰ بَعْضَ الانحرافِ لمَيلِ الطِّبَاع؛ فضجَّ، فإنَّه قَدْ يَعْرِف الإنْسَانُ الصَّوَابَ، غَيْرَ أَنَّ طَبعَهُ يَميلُ عَنْهُ.

ومَا زَالَت الأحَادِيثُ المنقُولَةُ عَن الرَّسُول ﷺ وأصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يقلُّ الإسعادُ بِها، والنَّظَر فِيهَا إلىٰ أن أعرض عَنْهَا بالكُلِّيَّة فِي زَمَانِنا هَذا، وجُهِلتْ؛ إلَّا النَّادرَ، واتَّخذَتْ طَرائقَ تضَادُّ الشَّرِيعَة، وصَارَتْ عَاداتٌ، وكَانَت أَسْهَل عِنْدَ الخَلْق مِن اتِّبَاع الشَّرِيعَةِ، وإِذَا كَانَ عامَّةُ مَن يُنسبُ إلىٰ العِلْم قَدْ أعرَضَ عَنْ علوم الشَّرِيعَة؛ فَكَيفَ العَوامُّ؟!

ولمَّا أعرضَ كَثِيرٌ من العُلَمَاء عَن المنَقُولاتِ؛ ابتدَعوا فِي الأُصُول والفُرُوع، فالأُصُوليُّون تَشَاغَلُوا بالكَلام، وأَخَذُوه مِن الفَلاسفَة وعُلمَاءِ المَنطِق، ودخلَت أيدِي الفُرُوعِيِّينَ فِي ذَلِكَ، فتَشَاغَلُوا بالجَدَل، وتركُوا الحَدِيث الَّذِي يدورُ عَلَيهِ الحُكمُ.

ثُمَّ رَأَىٰ القُصَّاصُ أَنَّ النِّفَاقَ بالنِّفَاقِ؛ فأقبلَ قَوْمٌ مِنهُم عَلَىٰ التَّلبيس بالزُّهْد، ومَقْصُودُهم الدُّنْيَا، ورَأَىٰ جُمهورُهم أَنَّ القُلُوب تَمِيل إلىٰ الأَغَانِي، فأحضَروا المُطرِبين مِن القُرَّاء، وأنشدُوا أشعارَ الغزَلِ، وتركُوا الاشتِغالَ بالحَدِيث، ولَمْ يلتفتُوا إلىٰ نَهْيِ العَوامِّ عَن الرِّبا والزِّنَا، وأَمَرَهُم بأدَاء الوَاجباتِ، وصَارَ مُتكلِّمُهم يقطع المَجْلِس بذِكرِ لَيلَىٰ والمَجنُونِ والطُّورِ ومُوسَىٰ وأبي يَزيدَ والحلَّاج والهَذيانِ الَّذِي لا محُصُول لَهُ.

وانفردَ أَقْوَامٌ بالتَّزهُّد والانْقِطَاع، فامتنَعُوا عَنْ عيادَةِ المَرضىٰ، والمَشي بينَ النَّاس، وأظهرُوا التَّخاشُع، ووضعوا كُتبًا للرِّياضَات، والتَّقلُّل مِن الطَّعَام، وصَارَتِ الشَّرِيعَة عِنْدَهُم كلامَ أبي يَزيدَ والشِّبليِّ والمُتصوِّفَةِ، ومعلومٌ أَنَّ مَن سَبَرَ الشَّرِيعَة لَمْ يرَ فِيهَا مِن ذَاكَ شَيئًا.

وأمَّا الأمَراءُ؛ فَجَرُوا معَ العَاداتِ، وسمُّوا مَا يفعلُونهُ مِن التَّنطُّع: سِياسَات؛ لَمْ يعمَلُوا فِيهَا بمُقتَضَىٰ الشَّرِيعَة، وتبعَ الأخيرُ فِي ذَلِكَ المتقدِّمَ، فأيْنَ الشَّرِيعَة المُحمَّديَّةُ؟! ومِن أيْنَ تعرف مع الإعْرَاض عَنْ المنقُولات؟!

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ التَّوفيقَ للقِيام بالشَّرِيعَة، والإعَانَةَ عَلَىٰ ردِّ البدَع؛ إِنَّهُ قادِرٌ.

❁ فَصْل ❁

كُنْتُ أَسْمَعُ عَلِيَّ بنَ الحُسَينِ الوَاعِظَ يَقُولُ عَلَى المِنْبَرِ: «واللهِ؛ لَقَدْ بَكَيْتُ البَارِحَةَ مِن يدِ نَفْسِي»

فَبَقِيتُ أَنَا أَتفكَّرُ، وأقولُ: أَيَّ شَيْءٍ قَدْ فَعَلَتْ نَفْسُ هَذَا، حَتَّىٰ يَبْكِي؟!

هذا رَجُلٌ مُتنعَّمٌ، لَهُ الجَوارِي التُّرْكِيَّاتُ، وقَد بَلَغَنِي أَنَّهُ تزَوَّجَ فِي السِّرِّ بجُملةٍ مِن النِّسَاءِ، ولا يَطْعَمُ إِلَّا الغَايَةَ مِن الدَّجَاجِ والحَلْوَىٰ، ولَهُ الدَّخْلُ الكَثِيرُ، والمَالُ الوافِرُ، والجَاهُ العرِيضُ، والأَفْضَالُ عَلَىٰ النَّاس، وقَد حَصَّل طَرَفًا مِن العِلْم، واستعبَد كثيرًا مِن العُلَمَاء بمَعْرُوفِه، ورَاحَتُهُ دَائمَةُ النَّدىٰ؛ فَمَا الَّذِي يُبْكِيه مِنْهَا؟!

فتفكَّرْت؛ فَعَلِمتُ أَنَّ النَّفْسَ لا تقفُ عِنْدَ حدٍّ، بَلْ تَرُومُ مِن اللَّذَّاتِ مَا لا مُنْتَهىٰ لَهُ، وكُلَّمَا حَصَلَ لَهَا غَرَضٌ بَرَدَ عِندَهَا وطَلَبَتْ سِواهُ، فيفنَىٰ العُمُرُ، ويَضْعُفُ البَدَن، ويَقَعُ النَّقصُ، ويرِقُّ الجَاهُ، ولا يَحْصُل المُرَاد.

ولَيْسَ فِي الدُّنْيَا أبلَه مِمَّنْ يطلبُ النِّهايةَ فِي لذَّاتِ الدُّنْيَا، ولَيْسَ فِي الدُّنْيَا - عَلَىٰ الحَقِيقَةِ - لذَّةٌ، إِنَّمَا هِي راحةٌ مِن مُؤلمٍ؛ فالسَّعيد مَن إِذَا حَصلَتْ لَهُ امْرَأَةٌ أَوْ جَارِيةٌ، فمَالَ إِلَيهَا ومَالَتْ إِلَيْهِ، وعَلِم سِترَها ودِينَها؛ أَنْ يعقِدَ الخِنصَر عَلَىٰ صُحْبَتِها.

وأكْثَر أسْبَاب دَوَام محبَّتها ألَّا يُطْلِق بَصَرَهُ، فمتىٰ أَطْلَقَ بصرَه أوْ أَطْمَع نَفْسه فِي غَيْرهَا، فَإِنَّ الطَّمع فِي الجَدِيد يُنغِّص الخُلُق، ويُنقِص المُخَالطَة، ولا يَسْتُر عُيوبَ الخارج، فتَمِيل النَّفس إلىٰ المشَاهَد الغَريبِ، ويتكدَّر العَيْش مع الحاضِرِ القَرِيب.

كَمَا قَالَ الشَّاعِر:

وَالمَــرْءُ مَــا دَامَ ذَا عَــيْنٍ يُقَلِّبُهَــا ** فِي أَعْيُنِ الحُورِ مَوْقُوفٌ عَلَىٰ الخَطَرِ

يَــسُرُّ مُقْلَتَــهُ مَــا ضَــرَّ مُهْجَتَــهُ ** لا مَرْحَبًــا بِــسُرُورٍ عَــادَ بِالــضَّرَرِ

ثُمَّ تصيرُ الثَّانيةُ كالأُولىٰ، وتَطلُب النَّفْس ثالثةً، ولَيْسَ لهَذَا آخِر، بَل الغَضُّ عَن المُشتهَياتِ، ويأسُ النُّفُوس مِن طَلَبِ المُستَحسَنَات؛ يُطَيِّبُ العَيْشَ معَ المُعاشَرِ.

ومَن لَمْ يقبل هَذَا النُّصحَ؛ تعثَّر فِي طرق الهَوَىٰ، وهلكَ عَلَىٰ البارِد، ورُبَّما سعىٰ لنَفْسه فِي الهلاك العاجِل، وفِي العارِ الحاضِر؛ فَإِنَّ كَثيرًا مِن المُستَحسَنَات لَسْنَ بِصَيِّناتٍ، ولا يَفِي التَّمتُّع بِهنَّ بالعارِ الحَاصِل، ومنهُنَّ المُبذِّراتُ فِي المَالِ، ومنهنَّ المُبغِضَةُ للزَّوج، وهُوَ يحبُّها كعَابِدِ صنم.

وأبلَه البُلْه الشَّيْخ الَّذِي يَطْلُبُ صبيَّةً! ولَعَمْرِي؛ إنَّ كَمَال المُتعة إنَّمَا يَكُون بالصِّبا، كَمَا قَالَ القَائِل: «لَقُلْتُ بنَفْسِيَ النَّشَأُ الصِّغَارُ»[1]، ومتىٰ لَمْ تكن الصَّبيَّة بالغةً لَمْ يَكْمُل الاسْتِمْتَاعُ، فَإِذَا بلغَتْ أرادَت كَثرَةَ الجِماعِ، والشَّيْخُ لا يقدِرُ، فَإِنْ حَمَل عَلَىٰ نَفْسه لَمْ يَبْلُغْ مُرادَها، وهَلَك سَرِيعًا.

ولا يَنبَغِي أَنْ يَغْتَرَّ بشهوَته الجِماعَ؛ فَإِنَّ شهوتَه كالفَجرِ الكَاذِب، وقَد رَأَيْنا شيخَنا اشتَرىٰ جَارِيةً، فبَاتَ معهَا، فانقَلبَ عَنْهَا مَيِّتًا. وكَانَ فِي المارِستَانِ شابٌّ قَدْ

(١) عجز بيت لنصيب، وصدره: «ولولا أن يقال صبا نصيب».

بقِيَ شَهرينِ بالقِيامِ، فدَخلَت عَلَيهِ زوجَتُه فَوَطِئَها، فانقلَب عَنْهَا ميِّتًا، فبانَ أَن النَّفْسَ باقيةٌ بِمَا عِندَهَا مِن الدَّم والمَنيِّ، فَإِذَا فرغَا ولَمْ تجِدْ مَا تعتَمدُ عَلَيهِ ذهبَتْ.

وإنْ قنعَ الشَّيْخُ بالاستِمتاعِ مِن غَيْرِ وَطْءٍ؛ فهي لا تقنَعُ، فتَصيرُ كالعَدُوِّ لَهُ، فرُبَّمَا غلَبها الهَوَىٰ ففَجرَت، أَوِ احتَالتْ عَلَىٰ قتلِه، خُصوصًا الجوارِي اللَّواتي أَغْلَبُهنَّ قَدْ جِئنَ مِن بلادِ الشِّرْكِ، فَفِيهِنَّ قَسْوَةُ القَلبِ.

وقَبِيحٌ بمَن عَبَر السِّتِّينَ أَنْ يتعَرَّضَ بكثرةِ النِّسَاء، فَإِنِ اتَّفَقَ مَعهُ صَاحِبةُ دِينٍ قبلَ ذَلِكَ فليرْعَ لَهَا مُعاشَرتَها، وليُتَمِّم نقصَه عِندَهَا؛ تارةً بالإنفَاقِ، وتارةً بحُسنِ الخَلْق، وليزِدْ فِي تعرِيفِها أَحْوَال الصَّالحاتِ والزَّاهِداتِ، وليُكثِر مِن ذِكرِ القِيامَة وذمِّ الدُّنْيا، وليعرِّضْ بذِكرِ مَحبَّة العربِ؛ فَإِنَّهُم كَانُوا يعشَقُون ولا يرَونَ وطءَ المَعشُوق.

كَمَا قَالَ قَائِلهم:

إنَّمَا الحُبُّ قُبْلَةٌ ** وَغَمْزُ كَفٍّ وَعَضُدْ

إنَّمَا العِشْقُ كَذَا ** إنْ نَكَحَ الحُبُّ فَسَدْ

فإنْ قدَرَ أَنْ يَشْغَلها بحَمْلٍ أَوْ ولدٍ عرقلَها بِهِ، فاستبقَىٰ قوَّته فِي مُدَّةِ اشتغَالِها بذَلِكَ، فَإِنْ وطِئَ فليَصبِر عَنِ الإنزَال حِفظًا لقوَّته وقضَاءً لحقِّها، وقَد قِيلَ لبِشرٍ: لِمَ لمْ تتزوَّج؟ فَقَالَ: عَلَىٰ مَاذَا أَغُرُّ مُسْلِمَةً وقَد قَالَ الله ﷻ: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

والمِسْكينُ مَن دَخلَ فِي أمرٍ لَمْ يتلَمَّحْ عَوَاقِبَهُ قبلَ الدُخول، ورَأَىٰ حَبَّةَ الفخِّ، فبادرَ طالبًا لَهَا، ناسيًا تعرقُل الجَناحِ والذَّبح.

ومجموعُ مَا قَدْ بسطتُه: حِفظُ البصرِ عَنْ الإطلاقِ، ويأسُ النَّفْس عَن التَّحصِيل، قُنُوعًا بالحَاصِل، خُصوصًا مَنْ قَدْ علَت سِنُّه، وعلمَ أَنَّ الصَّبيَّة عدوٌّ لَهُ

متمنِّيةٌ هلاكَه، وهُوَ يربِّيها لغيرِه، وفِي بَعْض مَا ذَكَرْتُه مَا يردَع العَاقِلَ عَن التعرُّض لهذِه الآفاتِ.

نَسْألُ اللهَ عَجَّلَ تَوفيقًا مِن فضلِهِ، وعمَلًا بمُقتَضَىٰ العَقْلِ والشَّرْع، إِنَّهُ مجيبٌ قَرِيبٌ.

❁ فَصْلٌ ❁

أَعْجَبُ الأَشْيَاءِ اغترارُ الإنْسَانِ بالسَّلامَةِ، وتَأْمِيلُهُ الإِصْلاحَ فِيمَا بَعْدُ!

ولَيْسَ لهَذَا الأَمَل مُنتَهًىٰ، ولا للاغترارِ حدٌّ، فكُلَّما أصبَح وأمسَىٰ مُعافًىٰ زادَ الاغتِرارُ وطالَ الأَمَل.

وأيُّ موعظةٍ أبلغُ مِن أَنْ ترَىٰ دِيارَ الأقرَان وأحْوَال الإخوانِ وقبورَ المَحبوبِين؛ فتَعلمَ أَنَّكَ بَعدَ أيَّام مثلُهم، ثُمَّ لا يَقَع انتِباهٌ حَتَّىٰ ينتبَهَ الغَيرُ بِكَ، هَذَا - واللهِ - شأنُ الحَمقَىٰ، حاشَا مَن لَهُ عَقْلٌ أَنْ يَسْلُك هَذَا المَسلكَ.

بلَىٰ - واللهِ -؛ إنَّ العَاقِلَ ليُبادرُ السَّلامَةَ، فيدَّخرُ مِن زمَنِها للزَّمنِ، ويتزوَّدُ عِنْدَ القُدْرَةِ عَلَىٰ الزَّاد لوقتِ العُسْرَة؛ خُصوصًا لمَن قَدْ عَلم أَنَّ مراتِبَ الآخِرَة إنَّمَا تعلُو بمِقْدَار علُوِّ العَمَل لَهَا، وأَنَّ التَّدارُك بَعدَ الفوتِ لا يُمكِن.

وقدِّرْ أَنَّ العَاصِي عُفِي عَنْهُ؛ أيَنَالُ مَراتِبَ العُمَّال؟ ومَن أَجَالَ عَلَىٰ خاطِرِهِ ذِكرَ الجَنَّة - الَّتِي لا مَوتَ فِيهَا ولا مَرَض ولا نومَ ولا غمَّ، بَلْ لذَّاتُها مُتَّصلةٌ مِن غَير انقطاعٍ، وزَيادَتُها عَلَىٰ قَدْر زِيَادَة الجِدِّ هَاهُنَا -؛ انتهَب هَذَا الزَّمَانَ، فَلم يَنم إلَّا ضرورةً، ولَمْ يَغفلْ عَنْ عِمارةِ لَحْظَةٍ.

ومن رَأَىٰ أَنَّ ذنبًا قَدْ مَضَتْ لذَّته، وبقِيَت آفَاتُه دائمةً؛ كفَاه ذَلِكَ زَاجِرًا عَنْ مثلِهِ، خُصوصًا الذُّنُوب الَّتِي تتَّصلُ آثارُها؛ مثلَ أَنْ يَزنِي بذاتِ زوجٍ فتَحملَ مِنْهُ،

فتُلحِق بالزَّوج، فيُمنعُ المِيراثَ أهلُه، ويأخذُهُ مَن لَيسَ مِن أهْلِه، وتتغيَّر الأنسابُ والفُرُش، ويتَّصل ذَلِكَ أبدًا، وكلُّه شؤمُ لَحْظَةٍ.

فنَسْألُ اللهَ ﷻ توفِيقًا يُلهمُ الرَّشَاد، ويمنعُ الفَسادَ، إنَّهُ قَرِيبٌ مُجيبٌ.

﴿ فَصْل ﴾

تَأَمَّلتُ سَبَبَ تَخْلِيطِ العَقائِدِ

فَإِذَا هُوَ المَيْل إلَىٰ الحِسِّ، وَقِياسُ الغَائِبَاتِ عَلَىٰ الحَاضِرِ.

فإنَّ أقْوَامًا غلبَ عَلَيهِم الحِسُّ، فَلَمَّا لَمْ يُشاهِدوا الصَّانِع جحَدُوا وجُودَه، ونسُوا أنَّهُ قَدْ ظهر بأفعالِه، وأنَّ هَذِهِ الأفْعَال لا بُدَّ لَهَا من فاعِلٍ.

فإنَّ العَاقِل إذَا مرَّ عَلَىٰ صَحراءَ خاليةٍ، ثُمَّ عَادَ وفِيها غَرسٌ وبِناءٌ؛ علِمَ أنَّهُ لا بُدَّ مِن غَارسٍ؛ إذْ الغرْسُ لا يَكُونُ بنَفْسه، ولا البناءُ.

ثُمَّ جَاءَ قَوْمٌ فأثبَتوا وُجُودَ الصَّانِع، ثُمَّ قَاسُوه عَلَىٰ أحْوَاله؛ فشبَّهوا، حَتَّىٰ إنَّ قَائِلهم يَقُولُ فِي قَولِهِ: «يَنزِل إلىٰ السَّمَاء»[1]: يَنتقِلُ، ويستدِلُّ بأنَّ العربَ لا تعرِفُ النُّزُولَ إلَّا الانتِقالَ!

وضلَّ خلقٌ كَثِيرٌ فِي صفاتِهِ، كَمَا ضلَّ خلقٌ فِي ذاتِه؛ فظنَّ أقْوَامٌ أنَّهُ يتأثَّر حِينَ سَمِعُوا أنَّهُ «يغضبُ» و«يرضَىٰ»، ونسوا أنَّ صفتَهُ تَعَالَىٰ قديمةٌ، لا يحدُثُ مِنهَا شَيْءٌ.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١١٤٥، ٦٣٢١، ٧٤٩٤)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة. وهو متواتر، روي عن عدد كثير من الصحابة.

وضلَّ خلقٌ فِي أفعَالِه، فأخذُوا يُعلِّلُونَ؛ فَلم يَقنَعُوا بشَيْءٍ، فخرجَ مِنهُم قَوْمٌ إلىٰ أَن نَسبُوا فعلَه إلىٰ ضدِّ الحِكْمَة! تَعَالَىٰ عَنْ ذَلِكَ.

ومن رُزِق التَّوفيقَ فليُحضِرْ قلبَه لِمَا أَقُولُ:

اعلَم أَنَّ ذاتَه سُبْحَانَه لا تُشبهُ الذَّواتِ، وصفاتَهُ لَيسَتْ كالصِّفَات، وأفعالَه لا تقَاسُ بأفعالِ الخَلْق:

أمَّا ذاتَه سُبْحَانَه؛ فإِنَّا لا نعرفُ ذَاتًا إلَّا أَنْ تَكُون جِسمًا، وذاكَ يَستدعِي سابقَةَ تأليفٍ، وهُوَ مُنزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ، لأنَّهُ المُؤَلِّفُ، وإِمَّا أَنْ يَكُون جوهرًا؛ فالجَوهَرُ مُتحيِّزٌ ولَهُ أمثالٌ، وقَد جلَّ عَنْ ذَلِكَ، أَوْ عَرَضًا؛ فالعرَضُ لا يقُومُ بنفْسِه بَلْ بغيرِه، وقَد تَعَالَىٰ عَنْ ذَلِكَ؛ فَإِذَا أثبَتنا ذَاتًا قَديمةً خارِجةً عمَّا يُعرَفُ، فليُعلَم أَنَّ الصِّفَاتَ تابعةٌ لِتلْكَ الذَّاتِ، فَلا يَجُوز لَنَا أَن نَقيسَ شَيئًا مِنهَا عَلَىٰ مَا نفعَله ونفهَمهُ، بَلْ نُؤمِن بِهِ ونُسلِّم بِهِ.

وكَذَلكَ أفعاله؛ فَإِن أحدنا لَوْ فعل فعلًا لا يَجتلبُ بِهِ نفعًا، ولا يدفع عَنْهُ ضرًّا؛ عُدَّ عابثًا، وهُوَ سُبْحَانَه أَوْجَد الخَلْق لا لنفع يعود إلَيْهِ، ولا لرفع ضر؛ إذ المنافع لا تصل إلَيْهِ، والمَضَارُّ لا تتطرقُ عَلَيهِ.

فَإِن قَالَ قَائِل: إنَّمَا خَلَق الخَلْق لِيَنْفَعَهُمْ.

قُلنَا: يُبْطِلُه أَنَّهُ خَلَق خلقًا مِنهُم للكُفْر وعذَّبَهم، ونراه يُؤلِم الحَيَوَانَ والأَطفالَ، ويَخْلُق المَضَارَّ، وهُوَ قادر ألا يفعل ذَلِكَ.

فإن قَالَ قَائِل: إِنَّهُ يُثيبُ عَلَىٰ ذَلِك.

قُلنَا: وهُوَ قادر أَنْ يُثيبَ بلا هَذِهِ الأَشْيَاء؛ فَإِن السُّلْطَان لَوْ أراد أَنْ يُغْني فَقِيرًا، فَجَرَحَهُ ثُمَّ أغناهُ؛ لِيمَ عَلَىٰ ذَلِك؛ لأنَّهُ قادر أَنْ يُغنيه بلا جِراح.

ثُمَّ من يَرَىٰ مَا جَرَىٰ لرَسُول اللهِ ﷺ وعَلَىٰ أَصْحَابه مِن الجُوع والقَتل، مع قدرةِ النَّاصِر، ثُمَّ يَسْأَل فِي أُمِّه فَلا يُجابُ، ولَوْ كَانَ المسؤولُ بعضَنا؛ قُلنا: لِمَ تمنعُ مَا لا يَضُرُّكَ؟!

غَيْرَ أَن الحَقَّ سُبْحَانَه لا تُقَاسَ أَفْعالُهُ عَلَىٰ أَفْعالنا، ولا تُعَلَّلُ. والَّذي يُوجِب عَلَينَا التَّسْلِيم أَن حكمته فَوْقَ العَقْل، فَهِي تقضي عَلَىٰ العُقُول، والعُقُولُ لا تَقْضي عَلَيهَا، ومَن قَاسَ فِعلَه عَلَىٰ أفعالنا غَلِط الغَلَطَ الفَاحِشَ.

وإنَّمَا هَلَكَت المُعْتزلَةُ مِن هَذَا الفَنِّ؛ فَإنَّهُم قَالُوا: كَيْفَ يَأْمُر بشَيْء ويَقْضِي بامتِناعِهِ؟ ولَوْ أَن إنسانًا دعاه إلىٰ دَارِه ثُمَّ أقامَ مَن يَصُدُّ الدَّاخِلَ؛ لعِيبَ.

ولَقَدْ صدقوا فِيمَا يتعلق بالشَّاهِدِ، فأَمَّا مِن أَفْعالِهِ؛ لا تُعلَّل ولا يقَاسُ بِشَاهِدٍ، فإِنَّا لا نصل إلىٰ مَعْرِفَة حِكْمتِهِ.

فإن قَالَ قَائِل: فَكَيفَ يُمْكِنُنِي أَن أَقُودَ عَقْلي إلىٰ مَا يُنَافيهِ؟

قُلنَا: لا منافاة؛ لأَنَّ العَقْل قَدْ قطع بالدَّليل الجَليِّ أَنَّهُ حَكيمٌ، وأَنَّهُ مالكٌ، والحكيمُ لا يفعل شَيئًا إلَّا لحكمةٍ، غَيْرَ أَنَّ تِلْكَ الحِكْمَة لا يبلُغُها العَقْل.

ألا ترَىٰ أَن الخَضِر خَرَق سفينةً وقتلَ شَخْصًا؛ فأنكر عَلَيهِ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بحُكمِ العِلْم، ولَمْ يَطَّلع عَلَىٰ حِكْمة فِعْله، فَلَمَّا أظهر لَهُ الحِكْمَةَ أَذعنَ؛ ولله المثلُ الأعلىٰ.

فإياك إيَّاكَ أَنْ تقيسَ شَيئًا مِن أفعَالِه عَلَىٰ أفعالِ الخَلْق، أَوْ شَيئًا مِن صِفاتِه أَوْ ذَاتِه ﷻ؛ فإنَّك إنْ حَفظتَ هَذَا سَلمتَ مِنَ التَّشبيهِ الَّذِي وَقعَ فِيهِ من رَأَىٰ الاستِواءَ اعتِمادًا، والنُّزُولَ نقلةً، ونجَوتَ مِن الاعتِراضِ الَّذِي أخرَجَ قومًا إلىٰ الكُفرِ، حَتَّىٰ طَعنُوا فِي الحِكْمَة.

وأوَّل القومِ إبْلِيسُ؛ فإنَّه رَأَىٰ تَقديمَ الطِّين عَلَىٰ النَّار لَيسَ بحِكمةٍ، فنسي أَنَّهُ

إِنَّمَا عَلِمَ ذَلِكَ - بزَعمِه - بالفَهمِ الَّذِي وُهِب لَهُ، والعقلِ الَّذِي مُنِحَه؛ فنسي أَنَّ الواهِبَ أَعْلَمُ، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

ولَقَدْ رَأَيْتُ لابنِ الرُّوميِّ اعتِراضًا عَلَىٰ من يَقُولُ بتَخليدِ الكُفَّار فِي النَّار، قَالَ: «إنَّ ذَلِكَ التَّأبيد مزِيدٌ من الانتِقام يُنكرَه العَقْلُ، ولا يَنْبَغِي أَنْ يُقبَل كُلُّ مَا يقولُه العَقْل، ولا يُردُّ بعضُه؛ إذْ لَيسَ ردُّ بعضِه بأوْلىٰ مِن ردِّ الكلِّ، وتخليدُ الكُفَّار لا غرَضَ فِيهِ للمُعذِّب ولا للمُعذَّب؛ فَلا يَجُوزُ أَنْ يكونَ»!!

فقلتُ: العجبُ مِن هَذَا الَّذِي يدَّعي وُجُودَ العَقْل ولا عقل عندَه!

وأوَّل مَا أَقُول لَهُ: أصحَّ عِنْدك الخبرُ عَنِ الخَالِق سُبْحَانَه أَنَّهُ أخبرَ بخُلود أَهْل النَّارِ، أم لَمْ يصِحَّ؟ فَإِنْ كَانَ مَا صَحَّ عَنْهُ فالكَلَامُ إذَن في إثْبَات النُّبوَّة وصِحَّة القُرْآن، فَمَا وَجْهُ ذِكر الفَرع مع جَحدِ الأَصْل؟ وإنْ قَالَ: قَدْ ثَبتَ عِنْدِي، فواجبٌ عَلَيهِ أَنْ يتمحَّل لإقَامَة العُذر، إلَّا أَنْ يَقِف فِي وَجْه المُعارضة.

وإنَّمَا ينكر هَذَا مَن يأخذُ الأَمْر مِن الشَّاهد، وقَد بيَّنَّا أن ذاتَ الحَقِّ لا كالذَّواتِ، وأنَّ صفتَه لا كالصِّفَات، وأنَّ أفعالَه لا تُعلَّل.

ولَوْ تَلمَّح شَيئًا مِن التَّعليل لخُلود الكُفَّار؛ لبَانَ:

إذْ مِن الجَائِز أَنْ يَكُونَ دَوامُ تعذِيبهِم لإظْهارِ صِدقِ الوَعِيد، فإِنَّه قَالَ: مَن كَفرَ بي خلَّدتُه فِي العَذَابِ، ولا جِنايةَ كالكُفرِ، ولا عُقُوبَة كدَوامِ الإِحْراقِ؛ فَهُو يدُوم ليظهرَ صِدقَ الوَعِيد.

ومن الجَائزِ أَنْ يَكُون ذَلِكَ لتَتمَّة تنعيمِ المُؤْمِنينَ؛ فَإِنَّهُم أعداءُ الكُفَّار، وقَدْ قَالَ سُبْحَانَه: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤]، وكَمْ من قلقٍ فِي صَدرٍ وحنقٍ عَلَىٰ أبي جَهل فِيمَا فعلَ، وكَمْ مِن غمٍّ فِي قلبِ عمَّار وأمِّه سُمَيَّة رضي الله عنهما وغيرهم مِن أفعالِ الكُفَّار بِهِم؛ فدَوامُ عَذَابِهم شفاءٌ لقُلوبِ أَهْل الإِيمَان.

ومن الجَائزِ أَنْ يدُومَ العَذَاب لدَوامِ الاعتِراضِ، وذِكر المعذَّب بِمَا لا يَحسُن، فكُلَّما زادَ عَذَابُهم زادَ كُفرُهم واعتراضُهم؛ فهُمْ يعذَّبون لِذلِكَ.

ودَلِيلُ كُفرِهم: ﴿فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡۖ﴾ [المجادلة: ١٨]؛ فإذنْ كُفرُهم مَا زَالَ، ومعرَفتهم بِهِ مَا حصَلتْ، والشَّرُّ كامِنٌ فِي البَواطِنِ، وعَلَىٰ ذَلِكَ يَقَعُ التَّعذِيب، ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

فَصْلٌ

يَنْبغِي للمُؤمنِ باللهِ سُبْحَانَه إِذَا نظرَ فِي الفَصْل الَّذِي قَدْ تقَدَّم هَذَا: أَلَّا يَعْترضَ عَلَى الله سُبْحَانَه فِي شَيْءٍ؛ لَا فِي بَاطِنِه، ولَا فِي ظَاهِرِه، ولَا يَطْلُبُ تَعْلِيلاتِ أَفعَالِهِ كُلِّهَا

فإنَّ المُتكلِّمِينَ أَعْرضُوا عَن السُّننِ، وتكَلَّمُوا بآرَائِهم؛ فَمَا صَفا لَهُم شِربٌ؛ بدَلِيل اختلافِهِم، وكَذَلكَ إضمَارُ القِياسِ؛ فَإِنَّهُم لَمَّا أعملُوهُ جاءتْ أحَادِيثُ تُعكِّر عَلَيهِم.

والصَّوَابُ: التَّعليلُ لِمَا يُمْكِنُ، والتَّسْلِيمُ لِمَا يَخفَىٰ.

وكَذَلكَ سُؤال الحَقِّ سُبْحَانَه؛ فَإِذَا دعاهُ المُؤمِن ولَمْ ير إجَابَةً؛ سلَّم وفوَّض وتأوَّل للمنع، فيقول: رُبَّمَا يَكُون المَنْع أَصْلحَ، ورُبَّما يَكُون لأجل ذُنُوبي، ورُبَّما يَكُونُ التَّأخِير أوْلَىٰ، ورُبَّما لَمْ يَكُنْ هَذَا مصلحةً. وإِذَا لَمْ يجِد تَأوِيلًا لَمْ يختلِجْ فِي بَاطِنِه نوعُ اعتِراضٍ، بَلْ يَرَىٰ أَنَّهُ قَدْ تعَبَّد بالدُّعاء؛ فَإِنْ أَنْعَمَ عَلَيهِ؛ فَبفَضْل، وإن لَمْ يُجَبْ؛ فمالكٌ يفعلُ مَا يشاءُ. علىٰ أَن أَكْثَر السُّؤال إِنَّمَا يَقَعُ فِي طَلَبِ أَعْراضِ الدُّنْيَا الَّتِي إِذَا رُدَّتْ كَانَ أَصْلح.

فَلْيَكُنْ هَمُّ العَاقِلِ فِي إِقَامَة حَقِّ الحَقِّ، والرِّضَىٰ بتَدْبيرِهِ، وإنْ أَسَاءَ[1]، فمتىٰ أَقْبَلْتَ عَلَيهِ أقبلَ عَلَىٰ إِصْلاح شأنكَ، وإِذَا عَرَفت أَنَّهُ كريمٌ فَلُذْ بِهِ ولا تَسْأَلْ، ومتىٰ أَقْبَلْتَ عَلَىٰ طَاعاتِهِ فمُحالٌ أَنْ يَجُودَ صَانعٌ، ويَنْصَحَ فِي العَمَلِ، ثُمَّ لا يُعْطىٰ الأُجْرَةَ.

فَصْلٌ

والله؛ إِنِّي لأتخايَلُ دُخُولَ الجَنَّة، ودَوَامَ الإِقَامَةِ فِيهَا

مِن غَيْرِ مَرَضٍ، ولا بُصَاقٍ، ولا نَوْمٍ، ولا آفةٍ تَطْرَأُ؛ بَلْ صِحَّةٌ دَائمةٌ، وأَغْراضٌ مُتَّصِلَةٌ لا يَعْتَورُهَا مُنَغِّصٌ، فِي نَعِيمٍ مُتَجَدِّدٌ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ إِلَىٰ زِيَادَةٍ لا تتنَاهىٰ؛ فَأَطِيشُ وَيَكَادُ الطَّبْعُ يَضِيقُ عَنْ تَصْدِيقِ ذَلِكَ؛ لَوْلا أَنَّ الشَّرْعَ قَدْ ضَمَّنَهُ.

ومعلوم أَنْ تِلْكَ المنازلَ إِنَّمَا تكُون عَلَىٰ قَدْر الاجْتِهَاد هَاهُنَا، فوا عجبًا! مِن مُضِيِّعٍ لَحْظَةٍ يَقَع فيها، فتَسبيحةٌ تَغْرِسُ لَهُ فِي الجَنَّة نخلةً، أُكُلُها دائمٌ وظِلُّهَا.

فيا أَيُّهَا الخائفُ مِن فَوْتِ ذَلِكَ؛ شجع قَلْبَكَ بالرَّجاءِ، ويا أَيُّهَا المنزعِجُ لذكر المَوْتِ؛ تَلمَّحْ مَا بَعدَ مَرارة الشُّرْبَةِ مِن العَافِيَة؛ فإِنَّه مِن سَاعَة خروج الرُّوح، لا بَلْ قبلَ خُروجِها، تنكشفُ المنازلُ لأَصْحَابِها، فَيَهُونُ سَيْرُ المَجْذُوبِ للذةِ المُنْتَقَل إِلَيْهِ، ثُمَّ «الأَرْوَاحُ فِي حَواصِلِ طَيْرٍ تَعْلَقُ فِي أَشْجَارِ الجَنَّةِ»[2].

---

(١) الضمير عائد علىٰ المدبَّر، وهو ما قدره الله ﷻ لعبده، لا علىٰ المقدِّر، وهو الله ﷻ، فإن ما قدره الله ﷻ فيه الخير والشر، كما قال ﷺ: «وأن تؤمن بالقدر خيره وشره».

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٨٨٧) من حديث عبد الله بن مسعود بنحوه. وأخرجه أحمد (٢٣٨٨) من حديث ابن عباس.

فكلُّ الآفاتِ والمَخافاتِ فِي نَهارِ الأَجَل، وقَد اصْفرَّتْ شَمْسُ العُمرِ، فالبِدارَ البِدارَ قبلَ الغُروبِ.

ولا مُعينَ يُرافقُ عَلَىٰ تِلْكَ الطَّريق إلَّا الفِكْرُ إِذَا جَلسَ مع العَقْل فَتذاكَرا العَوَاقِبَ، فَإِذَا فرغَ ذَلِكَ المَجْلِسُ، فالنَّظَرُ فِي سِيَر المُجِدِّين؛ فإنَّه يعود مستجلبًا للفكر مِنهَا شتىٰ الفَضائلِ، والتوفيقُ مِن وَراءِ ذَلِكَ، مَتىٰ أرادك لشَيْءٍ هيَّأكَ لَهُ.

فأَمَّا مُخَالطَةَ الَّذِينَ لَيسَ عِنْدهم خَبَرٌ إلَّا مِن العَاجلةِ؛ فَهُو مِن أَكْبَرِ أَسْبَاب مَرضِ الفَهْمِ وعِللِ العَقْلِ، والعُزلَة عَن الشَّرِّ حِمْيَةٌ، والحِمْيَةُ سَببُ العَافِيَةِ.

فَصْل

رَأيْتُ سَبَبَ الهُمومِ والغُمومِ الإعْرَاضَ عَن اللهِ ﷻ، والإِقْبَالَ عَلَى الدُّنْيَا

وكُلَّمَا فَاتَ مِنهَا شَيْءٌ وقعَ الغَمُّ لفواتِه، فأَمَّا مَن رُزِقَ مَعْرِفَةَ الله تَعالَىٰ استرَاحَ

لأَنَّهُ يَسْتَغْنِي بالرِّضا بالقَضَاء، فمَهمَا قُدِّر لَهُ رَضِيَ، وإنْ دعَا فَلم يرَ أثرَ الإجَابَة لَمْ يختلِجْ فِي قَلبِه اعتراضٌ؛ لأَنَّهُ مَملوكٌ مُدَبَّرٌ، فتكونُ هِمَّتُه فِي خِدْمةِ الخَالِق.

ومَنْ هَذِهِ صفتُهُ؛ لا يُؤْثِرُ جمعَ مَالٍ، ولا مُخَالطَةَ الخَلْقِ، ولا الالتِذاذَ بالشَّهَوَاتِ؛ لأَنَّهُ إِمَّا أَنْ يَكُون مُقَصِّرًا فِي المَعْرِفَة، فَهُو مُقبلٌ عَلَىٰ التَّعبُّد المَحْضِ؛ يزهَدُ فِي الفانِي لينالَ البَاقي، وإِمَّا أَنْ يَكُون لَهُ ذوقٌ فِي المَعْرِفَة؛ فإنَّه مَشْغُولٌ عَن الكُلِّ بصَاحِب الكُلِّ، فتراه مُتأدِّبًا فِي الخَلوَة بِهِ، مُستأنسًا بمُناجاتِه، مُستوحِشًا مِن مُخَالطَة خَلقِه، رَاضيًا بِمَا يُقدَّر لَهُ، فَعَيْشُهُ مَعهُ كعيشِ محبٍّ قَدْ خَلا بحبِيبِه؛ لا يُرِيدُ سِواهُ، ولا يهتمُّ بغيرِه.

فأَمَّا مَن لَمْ يُرزَق هَذِهِ الأشيَاء، فإِنَّه لا يَزَال فِي تَنغيصٍ، مُتكدِّرَ العَيْشِ؛ لأَنَّ الَّذِي يَطلُبه مِن الدُّنْيَا لا يَقْدِرُ عَلَيهِ، فيبقىٰ أبدًا فِي الحَسَراتِ، مع مَا يفوتُه مِن الآخِرَة بسُوءِ المُعَاملَة.

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ أَنْ يَسْتَصْلِحَنا لَه؛ فإِنَّه لا حَولَ ولا قُوَّة إِلَّا بِهِ.

❁ فَصْل ❁

تَفَكَّرْتُ فِي نَفْسِي؛ فَرَأَيْتُنِي مُفلِسًا مِن كُلِّ شَيْءٍ!

إنِ اعتمدتُ عَلَىٰ الزَّوجة لَمْ تكن كَمَا أُريدُ: إنْ حَسُنتْ صُورتُها لَمْ تكمُل أَخْلاقُها، وإن تمَّت أَخْلاقُها كَانَتْ مريدةً لغَرضِها لا لي، ولعلَّها تنتظرُ رَحيلي، وإنِ اعتمَدْتُ عَلَىٰ الوَلَد؛ فكَذَلك، والخادمُ والمريدُ لي كَذَلك، فَإِن لَمْ يَكُنْ لهما مِنِّي فائدةٌ لَمْ يُريدانِي، وأَمَّا الصديق؛ فلَيْس ثَمَّ، وأَخٌ فِي الله كعَنقاءِ مَغْرِبَ[1]، ومعارِفُ يفتقِدُون أَهْلَ الخَيْر، ويعتقدونَ فِيهِمْ قَدْ عَدِمُوا! وبقيتُ وحدِي، وعدتُ إلىٰ نَفْسِي، وهي لا تَصفُوا إليَّ أيضًا، ولا تُقيم عَلَىٰ حَالَةٍ سليمةٍ، فَلم يَبْقَ إِلَّا الخَالِقُ سُبْحَانَه.

فرَأَيْتُ أَنِّي: إنِ اعتمدتُ عَلَىٰ إنعَامِه؛ فَمَا آمنُ ذَلِكَ البَلاءَ، وإنْ رجَوتُ عفوَه؛ فَمَا آمَن عُقوبتَه!

فوا أَسَفًا! لا طُمأنِينةَ ولا قرارَ، وا قَلَقِي مِن قَلقِي! وا حَرَقِي مِن حَرقي!

باللهِ؛ مَا العَيْش إِلَّا فِي الجَنَّة، حَيثُ يَقَع اليقينُ بالرِّضا والمُعاشرَةِ لمَنْ لا يخُونُ ولا يُؤذِي، فأَمَّا الدُّنْيَا؛ فَمَا هي دارُ ذَاكَ.

---

(١) طائر عظيم يبعد في طيرانه.

فَصْلٌ

يَنْبغِي لِمَن صَحِبَ سُلْطَانًا أَوْ مُحْتَشِمًا أَنْ يَكُونَ ظَاهِرُهُ مَعَهُ وبَاطِنُهُ سَوَاءً؛ فَإِنَّه قَدْ يَدُسُّ إِلَيْهِ مَنْ يُخْبِرُهُ، فرُبَّمَا افْتُضِحَ فِي الابْتِلَاءِ

وقَد كَانَ جَمَاعَةٌ مِن المُلوك يَقْصدُون تَقْرِيبَ المُنَادِمِ، ويجعلونَ لَهُ حُجرةً فِي دُورهِمْ، فَإِذَا أرادُوا أَنْ يَخْتَصُّوه اخْتبَرُوه باطنًا، وذاكَ لا يَدْري، فيظهر مِنْهُ مَا لا يَصْلُح، فيُطرَدُ.

ولَقَد امتحَنَ أبرويزُ رجلًا مِن خاصَّته، فدسَّ إِلَيْهِ جاريةً معها أَلْطافٌ، وأمرها ألا تقعدَ عِنْده، فَحَمَلَتْها، ثُمَّ أَنفذَهَا مَرَّةً أُخرَىٰ وأَمَرَها أَنْ تَقْعُدَ بَعدَ التَّسْلِيم هُنيهةً، ففعلت، فَلاحَظَها الرَّجلُ، ثُمَّ بعثَها ثالثةً وأَمَرَها أَنْ تُطيلَ القُعودَ عِنْده وتحدِّثَهُ، فأَطَالتِ الحَدِيثَ مَعهُ، فأبدىٰ لَهَا شَيئًا مِن المَيْل إليها، فَقَالَت: أخَافُ أَنْ يُطَّلَعَ عَلَيْنا؛ ولَكِن دَعْنِي أَدبِّر فِي هَذا. فذهبَتْ فأخبرَت المَلكَ بذَلِكَ، فوجَّهَ غيْرَها مِن خَواصِّ جَوارِيه بمثل ذَلِكَ، فَلَمَّا جاءَتْهُ قَالَ: مَا فَعلَتْ فُلانَةُ؟ قَالَتْ: مَريضةٌ. فاربَدَّ لَونُه، ثُمَّ فَعَلَت الجاريةُ الثانيةُ مثلَ مَا فعلتِ الأُولىٰ، فَقَالَت لَهُ: إنَّ المَلكَ يمضِي إلىٰ بُستانِه فيقيم هُنَاكَ، فإنْ أرادَك عَلَىٰ أَنْ تَمضِي مَعهُ فأَظْهِر أنَّكَ عليلٌ، فَإِنْ خيَّرك بين الانصرافِ إلىٰ دور نسائكَ أوْ المُقام هنا، فاختر المُقامَ هَاهُنَا، وأَخْبِرْهُ أنَّكَ لا تَقْدِرُ عَلَىٰ الحَرَكَةِ، فَإِن أَجَابك إلىٰ ذَلِكَ جئتُ إِلَيْكَ كُلَّ ليلةٍ مَا دامَ الملكُ غائبًا، فسكنَ إلىٰ قولها، ثُمَّ مضتْ وأخبرتِ الملكَ بذَلِكَ.

فلمَّا كَانَ بَعدَ ثلاثٍ، استَدعاه الملكُ، فَقَالَ: إنِّي مريضٌ، فعادَ الرَّسُول فأخبره، فتبسَّم وقَالَ: أوَّل الشَّرِّ، فوجَّه إِلَيْهِ مَحَفَّةً حُمِلَ فِيهَا إِلَيْهِ، فَلَمَّا بَصرَ بِهِ أبرويز قَالَ: والمَحفَّة الشَّرُّ الثَّاني، فرأىٰ العِصَابةَ عَلَىٰ رأسِهِ، قَالَ: والعصَابةُ الشَّرُّ الثَّالث، فَقَالَ لَهُ المَلكُ: أَيُّهما أحبُّ إِلَيْك، الانصرافُ إلىٰ نِسائِك ليمرِّضْنَكَ أو

المُقامُ هَاهُنَا إلىٰ وقتِ رُجُوعِي، قَالَ: المقامُ هَاهُنَا أرفقُ لِي؛ لِقلَّةِ الحَرَكَة، فتبسَّم وقَالَ: حَرَكتك هَاهُنَا إن تُرِكْتَ أكْثَر من حَرَكتك إلىٰ مَنْزِلك!

ثُمَّ أمر لَهُ بِعَصا الزُّناةِ الَّتِي كَانَ يوسَم بِهَا مَن زَنىٰ، فأيقَن الرَّجُل بالأمرِ، وأمَر أَنْ يُكتبَ مَا كَانَ مِن أَمْرِهِ حَرفًا حَرفًا، فيُقرأُ عَلَىٰ الناسِ حرفًا حرفًا إِذَا حضَروا، وأن يُنفىٰ إلىٰ أقصَىٰ المَملكَة، وتُجعلُ العَصَا عَلَىٰ رأسِ رمحٍ يَكُون مَعهُ حَيثُ كَان؛ ليحذَرَ مِنْهُ من لا يعرِفُه، فَلَمَّا نُفِي أخذَ مِنْ بَعْضِ المُوكِّلينَ مُديةً، فجَبَّ بِهَا ذكَرَه وقَالَ: مَن أَطَاعَ عُضوًا صغيرًا أفسدَ عَلَيهِ جَمِيعَ أعضائِه، وماتَ مِن سَاعتِه.

قُلْتُ: وقَد كَانَ جَمَاعَة مِن الأُمَراء يتنكَّرونَ، ويسْأَلون العَوامَّ عَنْ سِيرتِهم، فيتكلَّم العَامِّيُّ بِمَا لا يَصلُح، فيضبِطُونَه، ورُبَّما بعثُوا دَسِيسًا عَلَيهِ.

ورُبَّ كلماتٍ قالَها مُسترسِلٌ، فبلَّغها فُضوليٌّ، فأهْلكَت صَاحِبها.

ورَأىٰ عمرُ بْنُ عَبْد العَزيز رجلًا مِن العمَّال كَثِيرَ الصَّلاة، فدسَّ عَلَيهِ مَن قَالَ لَهُ: إنْ أخذتُ لَكَ الولايةَ الفُلانيَّة، فَمَا تُعطِيني؟ قَالَ: أُعطيتُكَ كذا وكذا. قَالَ لَهُ عمر: غرَرْتَنا بصَلاتِك!

وقَدْ بُلِّغتُ أَنَّ رجلًا كلَّم امرأةً، فأجَابتهُ، فاستَدعتْه إلىٰ دارِها، فَلَمَّا دخلَ أقامَتْ عَلَىٰ قَتلِه!

فَقد يَنجلِي مِن هَذِهِ الحِكايةِ أَنَّهُ لا يَنْبغِي أَنْ يُسكَن إلىٰ قَوْل امرأةٍ أوْ بَعْلٍ يَجُوزُ أَنَّهُ يَكُون جَاسُوسًا ومُختبِرًا.

وكَذَلكَ؛ لا يُظهَر مَا يَنْبغِي إِخفَاؤُه؛ مِن مالٍ، أوْ مَذْهَبٍ، أوْ سبِّ رجل؛ فرُبَّمَا كَانَ لَهُ فِي الحَاضِرين قَرِيبٌ، ولا يوثَقُ بمودَّةٍ لا أصلَ لَهَا؛ فرُبَّمَا كَانَتْ تحتَها آفةٌ تَقصِدُهُ.

وليحذَرْ من كُلِّ أمرٍ يُحتَمل، ورُبَّ كَلِمَةٍ نقلَها صديقٌ إلىٰ صديقٍ، فتحدَّث بِهَا مَن لا يقْصِدُ أذًىٰ للقَائِل، فبلَغتْ، فتأذَّىٰ، ورُبَّ مُظهرٍ للمَحبَّة مبالغٍ حَتَّىٰ يَستمكِن مِن مُرَادِه.

فالحَذَرَ الحَذَرَ مِن الطُّمأنينةِ إلىٰ أحَد؛ خُصوصًا مِن عَدُوٍّ آذَيْتَهُ، أوْ قَتَلْتَ لَهُ قَرِيبًا؛ فرُبَّمَا أَظْهَرَ الجَميلَ شَبَكَةً لاصْطِيادِكَ؛ كحَدِيثِ الزَّبَّاءِ.

فَصْل

رَأَيْتُ النَّفْسَ بَعْدَ عُلُوِّ السِّنِّ يقْوَى أَمَلُهَا، ويَزْدَادُ حِرْصُهَا

كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يشيبُ ابنُ آدَم وتَشِبُّ مِنْهُ خَصلتانِ: الحِرصُ والأَمَل**»(١).

ورَأَيْت أَكْثَرَ أَسْبَاب ذَلِكَ فراغَ اليدِ مِن الدُّنْيَا، وكثرةَ العائلةِ، وقوَّةَ الحَاجَةِ، فيحْتَاجُ الإنْسَان إلىٰ التَّعرُّض بِمَا يَشِين العِرض؛ ليُحصِّل الغرضَ!

فَقُلتُ: إلهي! أَبَعْدَ رُؤيَة جِبَال عَرَفةَ أَضِلُّ؟! أبعدَ مُشارَفَةِ الحَرَم تأخذُني أعرَابُ البَادِيةِ؟! وا أسفًا! أيطلُع فجرُ النَّحْرِ ومَا وصلتُ إلىٰ عَرفاتٍ، ويا ضَياعَ سفَرِ العُمرِ ومَا حصَل المَقصُودُ!

قَدْ كُنْتُ أَرْجُوكَ لِنَيلِ المُنَىٰ ** وَاليَوْمَ لا أَطْلُبُ إلَّا الرِّضَىٰ

ثم قُلْتُ: يَا نفس، مَا لَكَ ملجأ إلَّا اللُّجْأُ واستغَاثَةُ الغَرِيقِ، فَإِنْ رُحمتِ وإِلَّا فَكَمْ مِن حَسْرةٍ تَحْتَ التُّرَاب.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٤٢١)، ومسلم (١٠٤٧) من حديث أنس؛ بمعناه.

۞ فصل ۞

شَكَا لِي بَعْضُ الأَشْياخِ، فَقَالَ: قَدْ عَلَتْ سِنِّي، وَضَعُفَتْ قُوَّتِي، وَنَفْسِي تَطْلُبُ مِنِّي شِرَاءَ الجَوَارِي الصِّغَارِ

ومَعْلُومٌ أَنَّهُنَّ يُرِدْنَ النِّكَاحَ، ولَيْسَ فِيَّ، ولَا تَقْنَعُ مِنِّي النَّفْسُ بِرَبَّةِ البَيْتِ؛ إِذْ قَدْ كَبِرَتْ.

فَقُلْتُ لَهُ: عِنْدِي جوابان:

أَحَدُهُمَا: الجَوَابُ العَامِّيُّ، وهُوَ أَنْ أَقُولَ: يَنْبغِي أَنْ تشتَغِل بذِكر المَوْتِ، ومَا قَدْ تَوَجَّهْتَ إِلَيْهِ، وتَحْذَرَ مِن اشتِراءِ جَارِيةٍ لا تَقْدِرُ عَلَىٰ إِيفاءِ حَقِّها؛ فإِنَّها تُبْغِضُك، فَإِنْ أَجْهَدْتَ اسْتَعْجَلْتَ التَّلفَ، وإِنِ اسْتبقَيْتَ قُوَّتَك غَضِبتْ هِي؛ عَلَىٰ أَنَّهَا لا تُرِيدُ شَيخًا كَيْفَ كان.

وقَدْ أنشدَنا عَليُّ بنُ عبيد الله قَالَ: أنشدنا مُحَمَّدٌ التميميُّ:

أَفِقْ يا فُؤادِي مِنْ غَرَامِكَ وَاسْتَمِعْ ** مَقَالَةَ مَحْزُونٍ عَلَيْكَ شَفِيقِ
عَلِقْتَ فَتَاةً قَلْبُهَا مُتَعَلِّقُ ** بِغَيْرِكَ فَاسْتَوْثَقْتَ غَيْرَ وَثِيقِ
وَأَصْبَحْتَ مَوْثُوقًا وَرَاحَتْ طَلِيقَةً ** فَكَمْ بَيْنَ مَوْثُوقٍ وَبَيْنَ طَلِيقِ

فاعْلَمْ؛ أَنَّهَا تَعُدُّ عَلَيْك الأَيَّامَ، وتَطلُبُ مِنْكَ فَضْلَ المَالِ، لِتَسْتَعِدَ لِغَيْرِكَ، ورُبَّما قَصَدَتْ حَتْفَكَ؛ فاحذر! والسَّلامَةُ فِي التَّرْكِ، والاقتناع بِمَا يدفعُ الزَّمَان.

والجَوَاب الثاني: فَإِنِّي أَقُولُ: لا يَخْلُو أَنْ تَكُون قَادرًا عَلَىٰ الوَطْءِ فِي وَقتٍ، أَوْ لا تكونُ؛ فَإِن كُنْت لا تقدر؛ فالأُولىٰ مُصَابرةُ التَّرْكِ للكُلِّ، وإِن كَانَ يُمكن الحازِمَ أَنْ يُدارِي المَرْأَةَ بالنَّفقةِ وطيب الخُلُق؛ إِلَّا أَنَّهُ يُخاطِرُ.

وإنْ كُنْتَ تَقْدرُ فِي أوقاتٍ عَلَىٰ ذَلِكَ، ورَأيْتَ مِن نَفْسكَ تَوْقًا شَديدًا؛ فعلَيْك بالمُراهِقَاتِ؛ فإنَّهنَّ مَا عَرَفْنَ النِّكَاحَ، ومَا طَلَبنَ الوَطْءَ، واغْمُرْهُنَّ بالإنفاقِ، وحُسنِ الخُلُقِ، معَ الاحتياطِ عَلَيهِنَّ، والمَنْعِ مِن مُخَالطَةِ النِّسْوَةِ. وإذَا اتَّفقَ وَطْءٌ؛ فتصبَّرْ عَنِ الإنزَالِ رَيْثَمَا تَقْضِي المَرْأَةُ حاجَتَها.

واعتمِدْ، وعظَها وتذكِيرَها بالآخِرَة، واذكُر لَهَا حِكاياتِ العُشَّاقِ مِن غَيْر نِكَاحٍ، وقَبِّحْ صُورَةَ الفِعْلِ، والْفِتْ قَلبَها إلىٰ ذِكر الصَّالِحِين، ولا تُخْلِ نَفْسكَ مِن الطِّيبِ والتَّزَيُّنِ والكَيَاسَةِ والمُداراةِ والإنفاقِ الوَاسِع؛ فهَذَا رُبَّمَا حرَّكَ النَّاقَةَ للمَسِير؛ معَ خَطَرِ السَّلامَةِ.

﴿ فَصْلٌ ﴾

أَبْلَهُ النَّاسِ مَن عَمِلَ عَلَى الحَالِ الحَاضِرَةِ ولَمْ يَتَصَوَّرْ تَغَيُّرَهَا، ولَا وُقُوعَ مَا يَجُوزُ وُقُوعُهُ

مِثالُه: أَنْ يغتَرَّ بدَولَةٍ؛ فيعْمَل بمُقتَضَىٰ مُلكه، فَإذَا تغيرتْ هَلكَ، ورُبَّما عادىٰ خلقًا؛ اغترارًا بأنَّهُ مُتسلِّط، أوْ أَنَّهُ صَاحِب سُلطانٍ، فَإذَا تغيَّرتْ حالُه أكلَ كَفَّهُ نَدَمًا عِنْدَ فَوَاتِ التَّدارُك.

وكَذَلكَ؛ من لَهُ مَالٌ يبذِّرُه؛ سُكونًا إلىٰ وُجُودِ المَالِ، ويَنسىٰ حالَه عِنْدَ العَدَم، وكذا من يتَنَاوَل الشَّهَوَات، ويُكثر مِن المَآكِل والمَشَارِب والنِّكَاح؛ ثقةً بعافِيتِه، ويَنسىٰ مَا يَعْقُبُ ذَلِكَ مِن الأمرَاض والآفَاتِ.

ومن أظرفِ الأحْوَال: أَنْ يُحبَّ جارِيتَهُ، فيعتِقُها ويَهَبُ لَهَا، أو امرأةً فيسكُنُ إلَيهَا ويَهَبُ لَهَا، فتتمكَّن، ولا تَمضِي الأَيَّامُ حَتَّىٰ يَسْلُوها، أوْ يطلبُ غيرَها، ولا

يجدُ طَرِيقًا للخَلاصِ؛ فَإِنْ تخلَّص مِنهَا أخذَت مَا غَنِمتْ مِنْهُ؛ فَلَقِي مِن الغيظِ أضعَاف مَا يَلْتذُّ بِهِ.

فلا يَنْبغِي أَنْ يوثَق بامرَأةٍ، ولا بمَحبَّة إنسَانٍ؛ فإِنَّه قَدْ يُحبُّ امرأةً ويظنُّ أَنَّهُ لا يَسْلُوها أبدًا، فيسترسلُ إِلَيهَا، والسُّلُوُّ يَحدُثُ، ورُبَّما أَحبَّ غَيرهَا، فينسىٰ الأُولىٰ، فيصعب عَلَيهِ الخلاصُ مِن الأُولىٰ.

فالعَاقِلُ لا يدْخُل فِي شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَيِّءَ الخُروجَ منْه؛ فَإِنَّ الأَشْيَاء لا تَثبُت، والمَحبَّةَ لا تَدُومُ، والتغيُّر مقرونٌ بكلِّ حال.

وكَذَلكَ؛ يُعْطِي مالَه ولَدَه، ثُمَّ يَبْقَىٰ كَلًّا عَلَيهِ، فيتمنىٰ الوَلَد هَلاكَه، ورُبَّما عَذَّبه فِي النَّفَقةِ.

وكَذَلكَ؛ قَدْ يَثِقُ بالصديقِ، فَيَبُثُّ أَسرارَه إِلَيْهِ، فرُبَّمَا أَظْهرَ ذَلِكَ، فكَانَ مِنهَا مَا يُوجِب هلاكَه.

وكَذَلكَ؛ يغترُّ الإنْسَانُ بالسَّلامَةِ، ويَنسَىٰ طُروقَ المَوْتِ، فيأتِيه بغتةً، فيبهَتُه وقَد فاتَ الاستِدراكُ، ولَمْ يَبْقَ إِلَّا النَّدم.

فالعَاقِل من كَانَتْ عَينُهُ مُراقِبَةً للعَوَاقِب، محترزةً مِمَّا يَجُوز وقُوعُه، عاملةً بالاحتياطِ فِي كُلِّ حَال، حافظةً للمالِ والسِّرِّ، غَيْرَ واثقة بزَوجَةٍ ولا وَلَدٍ ولا صَديقٍ، مُتأَهِّبةً للرَّحيلِ، مُتَهيِّئَةً للنقلةِ؛ هَذِهِ صِفَةَ أَهْلِ الحَزْمِ.

﴿ فَصْلٌ ﴾

مِن أَعْجَبِ الأُمُورِ طَلَبُ الاطِّلاعِ عَلَى تَحْقِيقِ العِرْفَانِ لِذَاتِ اللهِ ﷻ وَصِفَاتِهِ وأَفْعَالِهِ! وهَيهَاتَ؛ لَيْسَ إِلَّا المَعْرِفَةُ بالجُمْلَةِ

ولَقَدْ أَوْغَلَ المُتكلِّمونَ؛ فَمَا وَقَعوا بشَيْءٍ، فرجعَ عُقلاؤهُم إلىٰ التَّسْلِيم، وكَذَلكَ أصْحَابُ الرَّأْيِ، مَالوا إلىٰ القِياسِ؛ فَإذَا أَشْيَاءُ كَثيرَةٌ بعَكسِ مُرادِهم؛ فَلم يجِدُوا مَلجأً إلَّا التَّسْلِيمَ؛ فسَمُّوا مَا خَالفَهم: استِحسَانًا.

الفَقيهُ: مَن عَلَّل بِمَا يُمكنُ، فَإذَا عَجزَ اسْتَطْرحَ للتَّسليمِ؛ هَذَا شأن العَبيدِ، فأَمَّا من يَقُولُ: لِمَ فَعَلَ كَذا، و:مَا مَعْنَىٰ كَذَا؛ فإنَّه يَطْلُبُ الاطلاعَ عَلَىٰ سِرِّ المَلِكِ، ومَا يَجِد إلىٰ ذَلِكَ سبيلًا؛ لوجهين:

أحَدُهُمَا: أَنَّ الله تَعَالَىٰ سَتَرَ كَثيرًا مِن حِكَمِه عَن الخَلْقِ.

والثَّانِي: أَنَّهُ لَيسَ فِي البَشَر إدراكُ حِكَمِ الله تَعَالَىٰ كُلِّها.

فَلا يَبْقَىٰ معَ المُعْترضِ سِوىٰ الاعتراضِ المُخْرجِ إلىٰ الكُفْرِ، ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴾ [الحج: ١٥]، والمَعنَىٰ: من رَضِيَ بأفعَالي، وإِلَّا فليخنُقْ نَفْسَه، فَمَا أفعلُ إلَّا مَا أريدُ.

۞ فَصْل ۞

مَن رَزَقَهُ اللهُ تَعَالَى العِلْمَ، والنَّظَرَ فِي سِيَرِ السَّلَفِ؛ رَأَى أَنَّ هَذَا العَالَمَ ظُلْمَةٌ وجُمْهُورَ العَالَمِ عَلَى غَيْرِ الجَادَّةِ، والمُخَالطَةَ لَهُمْ تَضُرُّ ولا تَنْفَعُ

فالعَجبُ لمَنْ يترخَّصُ فِي المُخَالطَةِ، وهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ الطَّبْعَ لِصٌّ يَسْرقُ مِن المُخَالطِ! وإنَّمَا يَنْبغِي أَنْ تَقَع المُخَالطَةُ للأرفع والأعلىٰ فِي العِلْم والعَمَلِ؛ ليُسْتَفَادَ مِنهُ.

فأَمَّا مُخَالطَةُ الدُّونِ؛ فإِنَّها تُؤذِي، إلَّا أَنْ يَكُونَ عَامِّيًّا يقْصِدُ مَن يعلِّمُه، فيَنْبغِي أَنْ يُخَالَطَ بالاحْتِرَازِ.

وفِي هَذَا الزَّمَانِ؛ إنْ وقَعَتِ المُخَالطَة للعَوامِّ؛ عَكَّرت الفؤادَ؛ فَهُم ظُلْمَةٌ مستحكِمةٌ، فَإِذَا ابْتُلِيَ العَالِمُ بمخالطتهم فليشمِّرْ ثيابَ الحَذَرِ، ولتكنْ مُجالستُه إياهُم للتَّذكرَةِ والتأديب فحسبُ.

وإنْ وقَعَت المُخَالطَةُ لِلعُلمَاءِ؛ فأكْثَرُهم علَىٰ غَيْرِ الجَادَّة، مَقْصُودُهم صُورَةُ العِلْم لا العَمَل بِهِ، فَلا تَكَادُ ترَىٰ مَن تُذاكِرُه أمْرَ الآخِرَة، إنَّمَا شُغلهُم الغِيبةُ وقَصدُ الغَلبةِ واجتلابِ الدُّنْيَا، ثُمَّ فِيهِمْ مِن الحَسدِ للنُّظراءِ مَا لا يُوصفُ.

وإنْ وقَعَتِ المُخَالطَة للأمَرَاء؛ فذاكَ تعرُّضٌ لفَسادِ الدِّين؛ لأَنَّهُ إنْ تولَّىٰ لَهُم ولايةً دُنيويَّةً؛ فالظلم من ضَروراتِها؛ لغلبة العَادَة عَلَيهِم والإعْرَاض عَن الشَّرْع، وإن كَانَتْ ولايةً دِينيةً؛ كالقَضَاء؛ فَإِنَّهُم يَأمُرونَهُ بأشياءَ، لا يَكادُ يُمكِنُه المُراجعةُ فِيهَا، ولَوْ راجع لَمْ يَقْبلُوا، وأكْثَرُ القَوم يخَافُ عَلَىٰ مَنصِبَه، فيفعَلُ مَا أُمِرَ بِهِ؛ وإنْ لَمْ يَجُزْ.

ورُبَّما رَأيتُ فِي هَذَا الزَّمَان أقْوَامًا، يَبذلون المَالَ ليكونوا قُضاةً أَوْ شُهودًا، ومَقْصُودُهم الرِّفْعَةُ، ثُمَّ أَكْثَرُ الشُّهود يَشْهدُ عَلَىٰ مَن لا يَعْرِفُه، ويقول: إنَّهُ مَعروفٌ!

ويَدْرِي أَنَّهُ كذَّابٌ، وإنَّمَا عُرِفَ لأجلِ حَبَّة يُعْطاهَا، وكَمْ قَدْ وَقعَتْ شهادةٌ عَلَىٰ غَير المَشْهُودِ عَلَيه، أوْ عَلَىٰ مُكْرَهٍ!

وإن وقعتِ المُخَالطَة للمُتزهِّدينَ؛ فأكْثَرُهم عَلَىٰ غَيْر الجَادَّة، وعَلَىٰ خلاف العِلْم؛ قَدْ جَعَلوا لأنْفُسهِم نَواميسَ، فَلا يَتَنَسَّمُون، ولا يَخْرجون إلىٰ سُوقٍ، ويُظهرونَ التَّخشُعَ الزائدَ؛ وكلُّه نفاقٌ، وفِيهِم مَن يلبَسُ الصُّوفَ تَحْتَ ثِيابِه، ورُبَّما لَوَّحَ بكمِّه ليُرىٰ!

وقَد حُكِيَ عَنْ طاهرِ بْن الحُسَين، أَنَّهُ قَالَ لبعض المُتزَهِّدينَ: مُذْ كَمْ قدمتَ العراقَ؟ قَالَ: دَخلْتُها منذ عِشرينَ سنة، وأنَا منذ ثلاثين سنة صَائمٌ، قَالَ: سألناك عَنْ مَسألَةٍ، فأجبت عَنْ اثنتين!

وبُيوتُ الصُّوفِيَّة أَرْبطَةٌ؛ فهِي خَوارجُ عَلَىٰ المَساجِد، وهِي دَكاكِينُ كَريهةٌ، يقعُد فِيهَا الكُسَالىٰ عَن الكسب مع القُدْرَة عَلَيه، ويتَعرَّضون بالقُعُود للصَّدقاتِ، ولأموَال الظَّلَمَةِ، وقَد أراحُوا أنْفُسهَم مِن إعادَة العِلْم، وأكْثرهم لا يُصلِّي نافلةً، ولا يقوم اللَّيْلَ، بَلْ يُهِمُّهم المأكولُ والمَشروبُ والرَّقصُ.

وقَد اتَّخذُوا سُننًا تُخالفُ الشَّريعَة؛ فهُمْ يلبَسُون المُرقَّع لا مِن فَقرٍ؛ وهَذَا قَبِيح؛ لأنَّهُ لَيسَ عِنْدَهم مِن أماراتِ الزُّهْد سوىٰ المَلبسِ الدُّونِ، فثيابُهم تَصِيحُ: نحنُ زهَّادٌ، وباقي أفعالهم المستورةِ تفضحُهم إِذَا اطُّلِعَ عَلَيهَا؛ فالمطبخُ دائرٌ، والحَمَّامُ، والحَلْوَىٰ كَثيرَةٌ، والطِّيبُ والدَّعَةُ والكِبْرُ حاصِلٌ بذَلِكَ الزِّيِّ.

وقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لمَالِكِ بْن نَضْلَةَ - وقَد رَآه أَشْعثَ الهَيئةِ -: «أَمَا لَكَ مَالٌ؟» قَالَ: بلىٰ، من كُلِّ المَالِ آتاني الله ﷻ، قَالَ: «**فإنَّ الله ﷻ إِذَا أنعمَ عَلَىٰ عَبْدٍ نعمةً**

أحبَّ أَنْ تُرىٰ عَليهِ»[1].

ومِن أُخلاقِهِم: تَنفيرُ النَّاسِ عن العِلْم، ويزْعُمون أَنْ لا حَاجَة إلىٰ الوَسَائِط، وإنَّمَا هُوَ قلبٌ ورب! ولهُمْ مِن الأقوالِ والأفْعَالِ المُنْكراتِ مَا قَدْ ذَكَرْته فِي «تلبيس إبْلِيس».

آهٍ؛ لَوْ كَانَ للزَّمانِ عُمَرُ؛ لاحتاجَ كُلَّ يَوْم إلىٰ مائةِ دِرَّةٍ، لا؛ بَلْ كَانَ يسْتعملُ السَّيفَ فِي هَؤُلاء الخوارجِ، وهُم داخلَ البلدِ لا قُدْرة لِلعُلَماء عَلَيهِم؛ إذْ قولُهم فِيهِمْ لا يُقبَل!

فمَن رَزقَه اللهُ سُبْحَانَه النَّظَرَ فِي سِيَرِ السَّلَف، ووفَّقه للاقتداءِ بِهِم؛ آثر أَنْ يعتزلَ عَنْ أكْثَر الخَلْق، ولا يخالِطُهم، فإنَّه مَن خَالَطَهُم أُوذِيَ، ومن دَارهُم لَمْ يَسْلَمْ مِن المُداهَنةِ؛ فالنُّصْحُ اليَوْمَ مَردودٌ.

۞ فَصْل ۞

مِن البَلَهِ أَنْ تُبادِرَ عَدُوًّا أوْ حَسُودًا بِالمُخاصَمةِ

وإنَّمَا يَنْبغِي إنْ عَرفتَ حَالَه أَنْ تُظهِر لَهُ مَا يُوجِبُ السَّلامَة بَينكُما؛ إنِ اعتذرَ قَبِلْتَ، وإن أخذَ فِي الخُصُومةِ صَفَحْتَ، وأَريتَه أَنَّ الأَمْر قَرِيبٌ، ثُمَّ تُبْطِن الحَذَر مِنْهُ، فَلا تَثِق بِهِ فِي حَال، وتَتَجافاهُ باطنًا مع إظْهارِ المُخَالطَةِ فِي الظَّاهِر.

(١) صحيح: أخرجه أحمد (١٥٨٨٧، ١٥٨٩٢)، وأبو داود (٤٠٦٣)، والترمذي (٢٠٠٦) وقال: حسن صحيح. والنسائي (٥٢٢٣، ٥٢٢٤، ٥٢٩٤) وفي «الكبرىٰ» (٩٤٨٤، ٩٤٨٥، ٩٤٨٦)، وابن حبان (٥٤١٧) قال ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٢١١): «جيد قوي الإسناد».

فَإِذَا أردت أَنْ تُؤذِيَه؛ فأَوَّل مَا تؤذِيه بِهِ: إِصْلاحُكَ لنَفْسكَ، واجْتِهَادُك فِي عِلاجِ مَا يعرِفُك بِهِ، ومِن أَعْظَم العُقُوبَةِ لَهُ: العَفْوُ عَنْهُ لله، وإِنْ بالغَ فِي السَّبِّ فبالِغْ فِي الصَّفْح؛ تُنِبْ عنكَ العَوامَّ فِي شَتْمِهِ، ويَحْمدُك العُلَمَاءُ عَلَىٰ حِلْمِكَ، ومَا تُؤذيه بِهِ مِن ذَلِكَ، وتُورِثُه بِهِ الكَمَدَ ظاهِرًا، وغيرَه فِي البَاطِنِ أضعافٌ، وخيرُ مَا تؤذِيه بِهِ مِن كَلِمَةٍ، إِذَا قُلْتها لَهُ سَمِعتَ أضعَافَها. ثُمَّ بالخُصُومة تُعْلمهُ أَنَّكَ عَدُوُّه، فيأخذَ الحَذَرَ ويَبسُطُ اللِّسَان، وبالصفح يَجهلُ ما فِي بَاطِنِكَ، فيُمْكِنُكَ حِينئِذٍ أَنْ تَشْتفي مِنْهُ، أما أَنْ تلقاهُ بِمَا يُؤذِي دينكَ فيكُونُ هُوَ الَّذِي قَدْ اشتَفَىٰ منك! ومَا ظَفَر قطٌّ مَن ظَفَر بِهِ الإِثْمُ، بَل الصَّفْحُ الجَمِيلُ.

وإِنَّمَا يَقَعُ هَذَا مِمَّنْ يَرَىٰ أَنَّ تَسليطَه عَلَيهِ: إِمَّا عُقُوبَةٌ لذَنبٍ، أَوْ لرَفعِ درجَةٍ بالابتِلاء؛ فهُو لا يَرَىٰ الخَصْمَ، وإِنَّمَا يَرَىٰ القُدْرَةَ.

فَصْل

إِذَا وَقَعْتَ فِي مِحْنةٍ يَصْعُبُ الخَلاصُ مِنهَا؛ فلَيْسَ لَكَ إِلَّا الدُّعَاءُ واللُّجْأُ إِلَى اللهِ بَعدَ أَنْ تُقَدِّمَ التَّوْبَةَ مِن الذُّنُوبِ

فَإِن الزَّلَلَ يُوجِبُ العُقُوبَةَ؛ فَإِذَا زَالَ الزَّلَل بالتَّوْبَة مِن الذُّنُوبِ ارْتَفَعَ السَّبَبُ، فَإِذَا تُبْتَ ودَعَوْتَ ولَمْ تر للإجَابَة أثرًا؛ فتَفَقَّدْ أَمرَكَ، فرُبَّمَا كَانَتْ التَّوْبَة مَا صحَّتْ؛ فصَحِّحْهَا، ثُمَّ ادعُ، ولا تملَّ مِن الدُّعَاءِ، فرُبَّمَا كَانَت المَصلَحَةُ فِي تَأخِيرِ الإِجَابَةِ، ورُبَّما لَمْ تكن المَصلَحَةُ فِي الإجَابَةِ، فَأَنْتَ تُثابُ وتُجابُ إِلىٰ مَنافِعِكَ، ومِن مَنافِعِكَ أَلَّا تُعطىٰ مَا طلبتَ، بَلْ تُعَوَّض غيرَه.

فَإِذَا جَاءَ إِبْلِيسُ فَقَالَ: كَم تدعُوه ولا ترَىٰ إجَابَةً؟ فقُلْ: أنا أتعبَّد بالدُّعاء، وأنَا مُوقِنٌ أَنَّ الجَوَابَ حَاصلٌ، غَيْرَ أَنَّهُ رُبَّمَا كَانَ تَأْخِيرُه لبَعضِ المَصَالِح، فَهُو يَجِيء فِي وقتٍ مناسبٍ، ولَوْ لَمْ يحصُلْ حصَلَ التَّعبُّد والذُّلُّ.

فإياكَ أَنْ تسأَلَ شَيئًا إلَّا وتقرنُه بسؤالِ الخَيْرِ؛ فرُبَّ مَطْلُوبٍ مِن الدُّنْيا كَانَ حُصُولُه سببًا للهلاكِ، وإِذَا كُنْتَ قَدْ أُمِرتَ بالمُشاورَة فِي أُمورِ الدُّنْيَا؛ ليُبيِّن صَاحِبُكَ لَكَ فِي بَعْض الآراءِ مَا يعْجَز رأيُك عَنْهُ، وتَرَىٰ أَنَّ مَا وَقَع لَكَ لا يَصْلُحُ فَكَيفَ لا تسأَلُ الخَيْرَ ربَّكَ وهُوَ أَعْلَمُ بالمَصَالِح؟ والاستخارةُ مِن جِنْس المُشاوَرَةِ.

فَصْلٌ

نَظَرْتُ إلَى النَّاسِ؛ فَرَأَيْتُهُمْ يَنْقَسِمُونَ بَيْنَ عَالِمٍ وَجَاهِلٍ

فأَمَّا الجُهَّالُ؛ فانقَسَمُوا:

فمنهم: سلطانٌ؛ قَدْ رُبِّي فِي الجَهْل، ولُبسِ الحَرِيرِ، وشُربِ الخُمورِ، وظُلمِ النَّاسِ، ولَهُ عُمَّالٌ عَلَىٰ مِثلِ حالِه؛ فهَؤُلاءِ بمَعْزِل عَن الخَيْرِ بالجُمْلَةِ.

ومنهُم: تُجَّارٌ؛ همَّتُهم الاكتِسابُ وجَمْعُ الأموالِ، وأَكْثَرُهُم لا يُؤدِّي الزَّكَاةَ، ولا يتحَاشَىٰ مِن الرِّبا؛ فهَؤُلاء فِي صُوَر النَّاس.

ومنهم: أَرْبَابُ مَعَاشٍ؛ يُطَفِّفُون المِكيالَ، ويُخسرُونَ المِيزانَ، ويَبخَسُونَ النَّاسَ، ويتعامَلونَ بالرِّبا، وهُمْ فِي الأسوَاقِ طُولَ النَّهَار، لا هِمَّةَ لَهُم إلَّا مَا هُم فِيه، فَإِذَا جَاءَ اللَّيْلُ وقَعُوا نِيامًا كالسُّكارَىٰ؛ فهِمَّة أَحَدِهِم مَا يأكُل ويَلْتَذُّ بِه، ولَيْسَ عِنْدهم مِن الصَّلاةِ خَبرٌ، فَإِن صلَّىٰ أحدُهم نَقَرَهَا، أَوْ جَمَع بينهُمَا؛ فهَؤُلاءِ فِي عِدادِ البَهَائم.

ومن النَّاس: ذُو رذَالةٍ فِي جَمِيعِ أحوالِهِم؛ فهَذَا كنَّاسٌ، وهَذَا زَبَّالٌ، وهَذَا نَخَّالٌ وهَذَا يَكْسَحُ الحُشَّ؛ فهَؤُلاء أرذَلُ القَومِ.

ومنهم: مَن يَطْلُبُ اللَّذَّاتِ، ولا يُساعِدُه المَعاشُ، فيخرجُ إلىٰ قَطْعِ الطَّرِيقِ؛ وهَؤُلاء أَحْمَقُ الجَمَاعَةِ؛ إذ لا عَيشَ لَهُمْ، فَإِنِ الْتَذُّوا لَحْظَةً بأكلٍ أَوْ شُربٍ، فحَرَّكَتِ الريحُ قَصَبَةً؛ هَربوا خوفًا مِن السُّلْطَان، ومَا أقلَّ بقَاءَهم! ثُمَّ القتلُ والصَّلبُ، مع إِثْمِ الآخِرَة.

ومنهم: أرْبَابُ قُرًى؛ قَدْ عمَّهُم الجَهْلُ، وأكْثَرُهُم لا يَتَحاشَىٰ مِن نَجاسَةٍ؛ فهُم فِي زُمْرَةِ البَقَرِ.

ورَأَيْتُ النِّسَاءَ يَنقَسِمْنَ أيضًا: فمنهُنَّ: المُستحْسَنةُ الَّتِي تَبْغِي. ومنهُنَّ: الخَائنَةُ لزَوْجِها فِي مالِه. ومنهُنَّ: مَن لا تُصلِّي ولا تعرِفُ شَيئًا مِن الدِّين؛ فهَؤُلاءِ حَشْوُ النَّار؛ فإذَا سمِعْنَ مَوعِظةً فإنَّها كَمَا مرَّت عَلَىٰ حَجَر، وإذَا قُرِئَ عندهنَّ القُرْآنُ فكأنَّهُنَّ يَسمَعْنَ السَّمَرَ.

وأمَّا العُلَمَاءُ:

فالمُبتَدِئونَ مِنهُم؛ يَنقسِمونَ إلىٰ ذِي نِيَّةٍ خبيثةٍ، يقْصِدُ بالعِلْم المُباهاةَ لا العَمَلَ، ويميلُ إلىٰ الفِسقِ؛ ظنًا أَنَّ العِلْمَ يَدْفَع عَنْهُ، وإنَّمَا هُوَ حُجَّةٌ عَلَيْهِ. وأمَّا المتوسِّطونَ والمَشهورُون؛ فأكْثَرهم يَغشَىٰ السَّلاطِين، ويسكُتُ عَنْ إِنْكَار المُنْكر، وقليلٌ مِن العُلَمَاء مَن تَسلَم لَهُ نِيَّتُه ويَحْسُنُ قَصْدُه.

فمَن أرادَ الله بِهِ خيرًا رَزَقَه حُسن القَصْد فِي طلب العِلْم، فَهُو يُحصِّلُه لينتفعَ بِهِ وينفعَ، ولا يُبالي بعملٍ مِمَّا يدله عَلَيهِ العِلْم، فتراهُ يتجافَىٰ أرْبَابَ الدُّنْيَا، ويحذَر مُخَالطَةَ العَوامِّ، ويقنَعُ بالقَليلِ؛ خَوفًا مِن المُخاطَرة فِي الدُّنْيَا فِي تَحْصيلِ الكَثِير، ويُؤثِرُ العُزلَةَ؛ فلَيْس مُذَكِّرًا للآخِرَةِ مثلُها.

ولَيْسَ عَلَىٰ العَالِم أضرُّ مِن الدُخُول عَلَىٰ السلاطينِ؛ فإِنَّه يُحسِّن للعَالِم الدُّنْيَا ويهوِّن عَلَيهِ المُنْكَرَ، ورُبَّما أَرَادَ أَنْ يُنكِر فَلا يَصِحُّ لَهُ، فَإِنْ عَدِمَ القَنَاعَةَ وتقلَّبت نَفْسُه فِي طَلَبِ فُضُول الدُّنْيَا؛ فهَيهَاتَ أَنْ يَسْلَمَ مِنْها؛ لأَنَّهُ يتعَرَّض بأَرْبَابِها.

وإن الإنْسَان ليمشي فِي السُّوق سَاعَةً، فينسىٰ - بِمَا يَرَىٰ - مَا يَعْلَمُ؛ فَكَيفَ إِذَا انضمَّ إلىٰ ذَلِكَ التَّردُّدُ إلىٰ الأغنياءِ والطَّمعُ فِي أموَالِهم؟!

فأَمَّا الوَحْدَةُ؛ فإِنَّها سَبَبُ رُجوع القَلْبِ، وجَمع الهَمِّ، والنَّظَرِ فِي العَوَاقِب، والتَّهَيُّئِ للرَّحيلِ، وتحصيلِ الزادِ؛ فَإِذَا انضمت إِلَيهَا القناعةُ جَلَبَتِ الأَحْوَالَ المُستَحْسنةَ.

ولا تَحْسُن اليَوْمَ المُجَالِسةُ إِلَّا لكتابٍ يحدِّثك عَنْ أَسْرارِ السَّلَف، فأَمَّا مُجالَسَة العُلَمَاء فمُخاطَرَةٌ؛ إذ لا يَجتمِعونَ عَلَىٰ ذكرِ الآخِرَة فِي الأغْلَب، ومجالسةُ العَوامِّ فتنةٌ للدِّين، إِلَّا أَنْ يَحتَرز فِي مجالسِهم، ويمنعَهُم مِن القولِ، فيقولُ هُوَ ويُكَلِّفُهُم السَّماعَ، ثُمَّ يَسْتَوْفِزُ للبُعدِ عنهُم.

ولا يمكن الانْقِطَاع الكُلِّيِّ إِلَّا بقطعِ الطَّمَع، ولا يَنقَطِعُ الطَّمعُ إِلَّا بالقناعَةِ باليَسيرِ، أَوْ يَتَّجِرُ بتجارَةٍ، أَوْ أَنْ يَكُون لَهُ عَقارٌ يستَغِلُّه؛ فإِنَّه متىٰ احْتَاجَ تشتَّتَ الهَمُّ، ومتىٰ انْقَطَع العَالِم عَن الخَلْق، وقطعَ طمَعَهُ فيهم، وتوفَّرَ عَلَىٰ ذكر الآخِرَة؛ فذاك الَّذِي ينفعُ ويُنتفع بِهِ، والله المُوفِّقُ.

فَصْل

مَن تَأمَّلَ بِعَينِ الفِكْرِ دَوَامَ البَقَاءِ فِي الجَنَّةِ

فِي صَفاءٍ بلا كَدَرٍ، ولذَّاتٍ بلا انقِطاع، وبُلوغَ كُلِّ مَطْلُوبٍ للنَّفْسِ، والزِّيَادَةِ مِمَّا لا عَينٌ رَأَتْ، ولا أُذنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطرَ عَلَىٰ قَلبِ بَشَرٍ؛ مِن غَيْرِ تَغْيِيرٍ ولا زَوَالٍ.

إذ لا يُقَالُ: ألفُ ألفِ سنةٍ، ولا مائةُ ألفِ ألفٍ، بَلْ ولَوْ أَن الإنْسَانَ عدَّ الألوفَ - ألوفَ السِّنينَ - لا ينقَضِي عددُه وكَانَ لَهُ نِهايةٌ، فبقاءُ الآخِرَة لا نَفادَ لَهُ، إلَّا أَنَّهُ لا يَحصُل ذَلِكَ إلَّا بنقدِ هَذَا العُمُر.

ومَا مِقْدَار عُمُرٍ غايتُهُ مائةُ سنةٍ؛ مِنهَا خمسةَ عَشَرَ صَبْوَةٌ وجهلٌ، وثلاثونَ بَعدَ السَّبعينَ - إنَّ حَصَلَتْ - ضعفٌ وعجزٌ، والتَّوسُّطُ نِصفُهُ نومٌ، وبعضُهُ زَمَانُ أكلٍ وشُربٍ وكَسْبٍ، والمُنْتَحَلُ مِنْهُ للعِبادَاتِ يَسيرٌ.

أفلا يُشْترَىٰ ذَلِكَ الدَّائمُ بِهَذَا القَليلِ؟! إنَّ الإعْرَاضَ عَن الشُّروعِ فِي هَذَا البيعِ والشِّراءِ لَغَبْنٌ فَاحِشٌ فِي العَقْل، وخللٌ داخلٌ فِي الإِيمَانِ بالوَعْدِ.

فإنَّ مَن يَدْرِي كَيْفَ يُعْقَدُ البيعُ بالعِلْم، هُوَ الَّذي يَدُلُّ عَلَىٰ الطَّرِيق، ويُعَرِّفُ مَا يصلُح لَهَا ويُحذِّرُ مِن قُطَّاعِهَا.

ولَقَدْ دخَلَ إبْلِيسُ عَلَىٰ طَائِفَةٍ مِن المُتزَهِّدينَ بآفاتٍ، أعْظَمُها أَنَّهُ صَرَفَهُم عَن العِلْم، فكَأَنَّهُ شَرعَ فِي إطفاءِ المِصْبَاح ليسْرِقَ فِي الظُّلْمَةِ، حَتَّىٰ إِنَّهُ أخَذَ قومًا مِن كِبارِ العُلَمَاءِ، فَسلكَ بِهِم مِن ذَلِكَ مَا يَنْهَىٰ عَنْهُ العِلْم.

فرَأَيْتُ أبا حامِدٍ الطُّوسِيَّ يحكي عَنْ نَفْسه فِي بَعْض مصنَّفاتِه قَالَ: شَاوَرتُ مَتبُوعًا مقدَّمًا مِن الصُّوفِيَّةِ فِي المُواظبةِ عَلَىٰ تلاوةِ القُرْآنِ، فمَنَعَنِي منهُ! وقَالَ:

السَّبيلُ أَنْ تقطَعَ عَلائقَكَ مِن الدُّنْيَا بالكُلِّيَّةِ، بحيثُ لا يلتَفتُ قَلْبُكَ إلىٰ أَهْلٍ وولدٍ ومَالٍ وعِلمٍ، بَلْ تَصيرُ إلىٰ حَالَةٍ يستَوِي عِنْدَك وُجودُ ذَلِكَ وعَدَمُهُ، ثُمَّ تَخْلُو بنَفْسك فِي زَاوِيَةٍ، فتَقْتَصِرُ مِن العِبادَةِ عَلَىٰ الفَرَائِض والرَّواتبِ، وتَجْلِسُ فَارغَ القَلبِ، ولا تزالُ تَقُول: الله، الله! إلىٰ أَنْ تنتهي إلىٰ حَالَةٍ لَوْ تَركْتَ تَحريكَ اللِّسَان رَأيْت كَأنَّ الكَلِمَةَ جَاريةٌ عَلَىٰ لِسانِكَ، ثُمَّ تنظرُ مَا يُفتَح عَلَيْك مِمَّا فُتِح مثلُه عَلَىٰ الأَنْبِيَاءِ والأَوْلِيَاءِ!!

قُلْتُ: وهَذَا أمرٌ لا أتعجَّبُ أنا فِيهِ مِن المُوصِي بِهِ، وإنَّمَا أتعجَّب مِن الَّذِي قَبلَهُ مع معَرفَتِه وفَهْمِهِ!! وهَل يُقطعُ الطَّرِيقُ بالإعْرَاض عَنْ تلاوةِ القُرْآنِ؟! وهَلْ فُتح للأنبياءِ مَا فُتحَ بمجاهدتِهم ورِيَاضَتهم؟! وهَل يُوثَق بِمَا يَظهرُ مِن هَذِهِ المَسَالِك؟! ثُمَّ مَا الَّذِي يُفتَح؟ أثَمَّ اطِّلاعٌ عَلَىٰ عِلمِ الغيبِ، أم هُوَ وَحْيٌ؟!

فهَذَا كُلُّه مِن تلاعب إبْلِيس بالقَوْم، ورُبَّما كَانَ مَا يتخَايلُ لَهُم مِن أثر المَاليخُوليا، أوْ من إبْلِيس.

فعَلَيْك بالعِلْم، وانظر فِي سِيرِ السَّلَف؛ هل فَعلَ أحَدٌ مِنهُم مِن هَذَا شَيئًا أوْ أمر بِهِ؟! وإنَّمَا تَشَاغَلُوا بالقُرْآن والعِلْم، فدلَّهم عَلَىٰ إصْلاحِ البَواطِن وتصفِيتِها.

نَسْألُ الله عَجَّلَ علمًا نافعًا، للعدوِّ مَانِعًا، إنَّهُ قادرٌ.

فصل

مَنْ أَرادَ اصْطِفاءَ مَحْبوبٍ؛ فَالمَحْبُوبُ نَوْعَانِ: امْرَأَةٌ يَقْصِدُ مِنْهَا حُسْنَ الصُّورَةِ، وَصَدِيقٌ يَقْصِدُ مِنْهُ حُسْنَ المَعْنَى

فَإِذَا أَعْجَبتكَ صُورَةُ امرأةٍ؛ فتَأَمَّل خِلالَها الباطِنةَ مُدَيْدَةً قبلَ أَنْ يَتعلَّقَ القَلْبُ بِهَا تعلُّقًا مُحْكَمًا؛ فَإِنْ رأَيْتَها كَمَا تُحبُّ - وأَصْلُ ذَلِكَ كُلِّهِ الدِّينُ؛ كَمَا قَالَ: «عَلَيْكَ بذات الدِّين»[1] - فَمِلْ إِلَيهَا واستَولِدْهَا.

وكُنْ فِي مَيلكَ مُعتدِلًا؛ فإِنَّه مِن الغَلَط أَنْ تُظهِر لمَحبُوبك المَحبَّةَ، فإِنَّه يَشْتَطُّ عليكَ، وتَلْقَىٰ مِنْهُ الأَذَىٰ والتَّجَنِّي والهُجْرانَ والإِذْلالَ وطَلَبَ الإنفاقِ الكَثِيرِ - وإِنْ كَانَتْ تُحبُّكَ -؛ لأَنَّ هَذَا إِنَّمَا يَجْتَلِبُه حبُّ الإِدْلالِ والتَّسَلُّطِ عَلَىٰ المَقْهُورِ.

وثَمَّ نكتةٌ عَجِيبةٌ؛ وهُوَ أَنَّكَ رُبَّمَا عَمِلْتَ بمُقتَضَىٰ الحَالِ الحَاضِرَةِ، وهِي تَحْكُم بكَمَال الحُبِّ، ثُمَّ إِنَّ ذَلِكَ لا يَثبُت إِلَيْكَ؛ فتقعَ وتَبقَىٰ مَقهُورًا، أَوْ يَصْعُب عَلَيْك الخَلاصُ، ورُبَّما تَمَكَّنَتْ منكَ بمَعْرِفَةِ سِرِّكَ، أَوْ بأَخْذِ كَثِيرٍ مِن مَالِكَ.

ومِن أَحْسَن مَا بَلَغَني فِي هَذَا: أَنَّ جَارِيةً لبعضِ الخُلفاءِ كَانَتْ تُحبُّهُ حُبًا شَديدًا، ولا تُظهِرُ لَهُ ذَلِكَ، فسُئلتْ عَنْ هَذَا، فَقَالَت: لَوْ أَظهَرتُ مَا عِنْدِي، فجَفانِي؛ هَلكْتُ.

قَالَ الشَّاعِر:

لَا تُظْهِرَنَّ مَوَدَّةً لِحَبِيبِ ** فَتَرَىٰ بِعَيْنِكَ مِنْهُ كُلَّ عَجِيبِ
أَظْهَرْتُ يَومًا لِلحَبِيبِ مَودَّتِي ** فَأَخَذْتُ مِنْ هُجْرَانِهِ بِنَصِيبِي

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠٩٠)، ومسلم (١٤٦٦)، من حديث أبي هريرة، بلفظ: «فاظفر بذات الدين... ».

وكَذا؛ يَنْبغِي أَنْ تَكْتُمَ بَعْضَ حبِّك للوَلَد؛ لأَنَّهُ يَتَسلَّط عليكَ، ويُضيعُ مالكَ، ويبالغُ فِي الإدلالِ، ويمتنعُ عَن التَّعلمِ والتَّأدُّبِ.

وكَذلكَ؛ إِذَا اصطَفَيت صَديقًا وخَبَرْتَهُ، فَلا تُخبِره بكلِّ مَا عِندِك، بَلْ تعَاهَدْهُ بالإحسَانِ كَمَا تَتعاهدُ الشَّجرَةَ، فإِنَّها إِذَا كَانَتْ جيدةَ الأَصْلِ حَسُنَتْ ثمرتُها بالتعاهُدِ، ثُمَّ كُنْ مِنْهُ عَلَىٰ حَذَرٍ؛ فَقد تَتَغيرُ الأَحْوَالُ.

وقَد قِيلَ:

احْـذَرْ عَـدُوَّكَ مَـرَّةً ** وَاحْـذَرْ صَـدِيقَكَ أَلْـفَ مَـرَّهْ

فَلَرُبَّمَـا انْقَلَـبَ الـصَّدِيـ ** ـقُ فَكَـانَ أَدْرَىٰ بِالمَـضَرَّهْ

وأَمَّا إِذَا أَبغضْتَ شَخصًا لأَنَّهُ يَسوءُكَ؛ فَلا تُظهِرنَّ ذَلِكَ؛ فإنكَ تُنبِّهُه عَلَىٰ أَخْذِ الحَذَر منك، وتدعُوه إلىٰ المُبارَزة، فيبالغ فِي حَربكَ والاحتيالِ عليكَ، بَلْ يَنْبغِي أَنْ تُظهِر لَهُ الجَميلَ إنْ قَدَرْتَ، وتَبَرَّه مَا استطعتَ، حَتَّىٰ تَنكسِرَ مُعادَاتُه بالحَياءِ مِن بُغْضِك؛ فَإِن لَمْ تطِقْ؛ فهَجرٌ جَميلٌ، لا تُبينُ فِيهِ مَا يُؤذِي، ومتىٰ سَمِعتَ مِنْهُ كَلِمَةً قَذِعَةً، فاجعلْ جَوابَها كَلِمَةً جميلةً، فهِي أَقْوَىٰ فِي كفِّ لِسانِه.

وكَذَلكَ جَمِيع مَا يُخَافُ إظهارُه؛ فَلا تتكلَّمَنَّ بِهِ، فرُبَّمَا وقعتْ كَلِمَةٌ أَسقَطْتَ بِهَا عزَّ السُّلْطَان، فنُقلتْ إِلَيْهِ، فكَانتْ سَبَب هلاكِكَ، أَوْ عَنْ صديقٍ فكَانتْ سَبَب عداوَتِه، أَوْ صِرتَ رَهينًا لمَنْ سمِعَها، خَائفًا أَنْ يُظهرَها؛ فالحَزمُ كِتمانُ الحُبِّ والبُغضِ.

وكَذا؛ يَنْبغِي أَنْ تكْتُمَ سِنَّك؛ فَلا تَلْغو بِهِ بين النَّاس؛ فَإِن كُنْتَ كَبيرًا استَهْرَموكَ، وإن كُنْت صغيرًا استَحْقَروكَ.

وكَذَلكَ؛ مِقْدَارُ مالكِ؛ فإِنَّه إِنْ كَانَ كثيرًا نَسبُوكَ فِي نفقَتِكَ إِلىٰ البُخْل، وإِن كَانَ قَليلًا طلَبوا الرَّاحَة منكَ.

وكَذَلكَ المَذْهَبُ؛ فإنَّك إِنْ أَظهَرتَه لَمْ تأمَن أَنْ يسمَعهُ مُخالِفٌ فيَقطعَ بكُفْركَ.

وقَد أنشدنا مُحَمَّد بنُ عَبْدِ البَّاقي البزَّارُ:

احْفَـــظْ لِـــسَانَكَ لَا تَـــبُحْ بِثَلَاثَـــةٍ ** سِـــنٍّ وَمَـــالٍ مَـــا اسْـــتَطَعْتَ وَمَـــذْهَبِ

فَعَلَـــىٰ الثَّلَاثَـــةِ تُبْتَلَـــىٰ بِثَلَاثَـــةٍ ** بِمُمَـــوِّهٍ وَمُمَخْـــرِقٍ وَمُكَـــذِّبِ

۞ فَصْلٌ ۞

طَالَ تَعَجُّبِي مِن مُؤمِنٍ باللَّهِ ﷻ، مُؤمنٍ بجزائِهِ، يُؤثِرُ خِدْمَةَ السُّلْطَانِ

معَ مَا يَرَىٰ مِنْهُ مِن الجَوْرِ الظَّاهِرِ، فَوا عَجَبًا! مَا الَّذِي يُعْجِبُهُ؟!

إنْ كَانَ الَّذِي يُعجِبهُ دُنيويًّا؛ فلَيْس ثَمَّ إلَّا أَنْ يُصاحَ بينَ يَدَيْه بسمِ الله، وهُوَ مَا يُرِيدُ إلَّا أَنْ يتصدَّرَ فِي المَجَالِس، ويلْوِيَ عُنُقه كِبْرًا عَلَىٰ النُّظَراء، ويأخُذَ الأَسْحَاتَ، وهُوَ يعلمُ مِن أيْنَ حُصِّل، ورُبَّما انبسَطَ فِي البَراطيل[1].

ثُمَّ يقابل هَذَا أَنْ يُصادَرَ ويُعزَلَ؛ فتُسْتَخْرَجُ مِنْهُ تِلْكَ المَرَارَةُ مِن كُلِّ حَلاوَةٍ كَانَتْ فِي الوِلايَةِ، ورُبَّما كَانَ قَرِيبَ الحَالِ؛ فافْتَقَرَ بالمُصادَرَةِ جِدًّا، ثُمَّ تَنْطَلِقُ الأَلْسُنُ المَادِحَةُ بالذَّمِّ.

ثُمَّ لَوْ سَلِم مِن هَذَا؛ فإنَّه لا يَسلَمُ مِن الرَّقيبِ لَهُ والحَذَرِ مِنْهُ؛ فَهُو كَراكِب البَحرِ؛ إنْ سَلِمَ بَدَنُه مِن الغَرقِ لَمْ يَسْلَمْ قَلْبُه مِن الخَوْف!

وإنْ كَانَ دَيِّنًا؛ فإنَّه يَعْلَم أَنَّهُ لا يُمَكِّنُونَه - فِي الغَالِب - مِن العَمَل بمُقتَضَىٰ الدِّين؛ إنَّهم يأمُرونَه بتَرْك مَا يَجِبُ وفِعْلِ مَا لا يَجُوزُ؛ فيذهَبُ دِينُهُ عَلَىٰ البَارِدِ، وَلَعِقَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ.

---

(١) أي: أخذ الرشىٰ.

۞ فَصْل ۞

العَجَبُ مِن الَّذِي أَنِفَ الذُّلَ، كَيْفَ لا يَصْبِرُ عَلَى جَافِّ الخُبْزِ، ولا يَتَعَرَّضُ لِمِنَنِ الأَنْذَالِ؟!

أتراه مَا يعلم أَنَّهُ مَا بَقِي صَاحِبَ مُرُوءةٍ! وأَنَّهُ إنْ سَأَلَ؛ سَأَلَ بَخِيلًا لا يُعْطي، فَإن أعطىٰ نَزْرًا؛ فإِنَّه يَسْتَعْبِدُ المُعْطَىٰ بذَلِكَ العُمُرَ؟!

ثُمَّ ذَاكَ القَدرُ النَّزر يَذْهبُ عَاجلًا، وتَبقَىٰ المِننُ والخَجَلُ ورُؤيَةُ النَّفْسِ بعينِ الاحتِقارِ؛ إذ صَارَتْ سائلةً، ورُؤيَةُ المُعْطي بعينِ التَّعظِيم أبدًا.

ثُمَّ يُوجِب ذَلِكَ السُّكوتَ عَنْ مَعايبِ المُعْطِي، والبِدارَ إلىٰ قَضاءِ حُقوقِهِ وخِدْمتِهِ فِيمَا يفي!

وأَعْجَبُ مِن هَذَا: مَنْ يقدرُ أَنْ يَسْتَعْبِدَ الأحرارَ بقليلِ العَطاءِ الفَانِي ولا يفعلُ؛ فَإنَّ الحرَّ لا يُشترىٰ إلَّا بالإِحسَانِ.

قَالَ الشَّاعِر:

تَفَضَّلْ عَلَىٰ مَنْ شِئْتَ وَاعْنَ بِأَمْرِهِ ** فَأَنْتَ - وَلَوْ كَانَ الأَمِيرَ - أَمِيرُهُ
وَكُنْ ذَا غِنًىٰ عَمَّنْ تَشَاءُ مِن الوَرَىٰ ** وَلَوْ كَانَ سُلْطَانًا فَأَنْتَ نَظِيرُهُ
وَمَنْ كُنْتَ مُحْتَاجًا إلَيْهِ وَوَاقِفًا ** عَلَىٰ طَمَعٍ مِنْهُ فَأَنْتَ أَسِيرُهُ

۞ فصل ۞

يَنْبغِي للصَّبيِّ إِذَا بَلغَ أَنْ يَحْذَرَ كَثرَةَ الجِمَاعِ؛ ليبقَى جَوْهَرُهُ؛ فيُفِيدَهُ فِي الكِبَرِ

لأَنَّهُ مِن الجَائِزِ كِبرُه. والاستعدادُ للجائزِ حَزْمٌ، فكَيفَ للغالبِ؟! كَمَا يَنْبغِي أَنْ يستعدَّ للشتاءِ قبلَ هُجومِهِ، ومَتَىٰ أَنْفقَ الحَاصِلَ وقتَ القُدْرَةِ؛ تأذَّىٰ بالفَقْرِ إلَيْهِ وقتَ الفاقَةِ.

وليعلَمْ ذو الدِّين والفَهم؛ أَنَّ المُتعةَ إنَّمَا تكُونُ بالقُربِ مِن الحَبيبِ، والقُربُ يحصُل بالتَّقبيلِ والضَّمِّ، وذَلِكَ يُقوِّي المَحبَّةَ، والمَحبَّةُ يَلَذُّ وُجُودِها، والوَطْءُ يَنْقُصُ المَحبَّةَ، ويُعْدِمُ تِلْكَ اللَّذَّةَ!!

وقَدْ كَانَ العَرَب يَعشَقُونَ ولا يَروْنَ وَطْءَ المَعْشُوق! قَالَ قَائِلهم: إنْ نَكحَ الحُبُّ فَسَد!

فأَمَّا الالتِذَاذُ بنَفسِ الوَطْءِ؛ فشَأنُ البَهائِم.

ولَقَدْ تَأمَّلت المُرَادَ مِن الوَطْءِ؛ فَوجَدتُ فِيهِ مَعْنًىٰ عَجِيبًا، يخْفَىٰ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِن النَّاس، وهُوَ أَنَّ النَّفْس إِذَا عَشِقَتْ شَخْصًا أحبَّتِ القُربَ مِنْهُ، فهي تُؤْثِرُ الضَّمَّ والمُعانقةَ؛ لأَنَّهُمَا غايةٌ فِي القُربِ، ثُمَّ تُريدُ قُربًا يزيدُ عَلَىٰ هَذَا، فتُقبِّل الخَدَّ، ثُمَّ تَطلُب القُربَ مِن الرُّوح، فتُقَبِّل الفَمَ؛ لأَنَّهُ مَنفَذٌ إلىٰ الرُّوح، ثُمَّ تطلُبُ الزيَادَةَ، فَتَمُصُّ لِسَانَ المَحْبوبِ، وقَد كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَوَشَّحُ عَائِشَةَ ويُقَبِّلُها[1] ويَمُصُّ لِسانَها[2]، فَإِذَا

(١) **صحيح**: أخرج البخاري (١٩٢٧)، ومسلم (١١٠٦) عن عائشة، قالت: كان النبي ﷺ يقبل ويباشر وهو صائم، وكان أملككم لإربه.

(٢) **ضعيف**: أخرجه أبو داود (٢٣٨٦) وضعفه، وابن خزيمة (٢٠٠٣)، وأشار إلىٰ ضعفه. وضعفه ابن حجر في «فتح الباري» (٤/ ١٥٣). وأخرج أحمد (١٦٨٤٨) عن معاوية، قال: رأيت رسول الله ﷺ يمص لسانه - أو قال: شفته -، يعني الحسن بن علي. وهو صحيح.

طَلَبتِ النَّفْسُ زِيَادَةً فِي القُربِ إلىٰ النَّفْسِ استَعْمَلَتِ الوَطءَ؛ فهَذَا سِرُّهُ المَعنوِّيُّ، ويَحْصُل مِنْهُ الالتِذَاذُ الحِسِّيُّ.

❁ فَصْلٌ ❁

لَيْسَ عَلَى العَوَامِّ أَضَرُّ مِن سَمَاعِهِمْ عِلْمَ الكَلَامِ

وإنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يُحَذَّرَ العَوامُّ مِن سَمَاعِهِ والخَوضِ فِيهِ كَمَا يُحَذَّرُ الصَّبيُّ مِن شَاطِئِ النَّهرِ خَوْفَ الغَرَقِ، ورُبَّما ظنَّ العَامِّيُّ أَنَّ لَهُ قُوَّةً يُدرِكُ بِهَا هَذا، وهُوَ فاسَدٌ؛ فإنَّه قَدْ زلَّ فِي هَذَا الخَلْق مِن العُلَمَاء؛ فكَيفَ العَوامُّ؟!

وما رَأيْتُ أحْمَقَ مِن جُمْهُور قُصَّاصِ زَمَانِنا؛ فإنَّه يَحْضُر عِنْدهم العَوامُّ الغُشْمُ، فَلا يَنْهُونَهم عَنْ خَمرٍ وزِنَا وغِيبةٍ، ولا يُعلِّمُونَهم أَرْكَانَ الصَّلاةِ ووظَائفَ التَّعبُّد، بَلْ يملؤُون الزَّمَانَ بذِكرِ الاستِواءِ وتَأوِيلِ الصِّفَاتِ، وأنَّ الكَلامَ قائمٌ بالذَّاتِ، فيتأذَّىٰ بذَلِكَ من كَانَ قلبُه سَليمًا.

وَإنَّمَا عَلَىٰ العَامِّيِّ أَنْ يُؤمنَ بالأُصُولِ الخَمْسَةِ: باللهِ، ومَلائكَتِه، وكُتبِه، ورُسُلِه، واليَوْمِ الآخِرِ، ويقنع بِمَا قَالَ السَّلَفُ: القُرْآنُ كَلامُ اللهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، والاسْتوَاءُ حَقٌّ، والكَيفُ مَجُهولٌ.

ولْيُعْلَمْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمْ يكلِّفِ الأَعرَابَ سِوَىٰ مُجرَّدِ الإيمَانِ، ولَمْ تتكلَّم الصَّحَابَةُ فِي الجَواهِرِ والأَعْراضِ؛ فمَن مَاتَ عَلَىٰ طَرِيقِهم مَاتَ مُؤمِنًا سَليمًا مِن بِدْعةٍ، ومَن تَعرَّضَ لِساحِلِ البَحْرِ وهُوَ لا يُحْسِنُ السِّباحَةِ؛ فالظَّاهِرُ غَرَقُهُ.

۞ فصل ۞

أَشَدُّ النَّاسِ جَهْلًا مَنْهُومٌ بِاللَّذَّاتِ

واللَّذَّاتُ عَلَىٰ ضَربَين: مُباحةٌ، ومَحظُورةٌ:

فالمُبَاحةُ؛ لا يَكادُ يَحْصُلُ مِنهَا بشَيْءٍ إلَّا بِضَياعِ مَا هُوَ مُهِمٌّ مِن الدِّينِ، فَإذَا حَصَلَتْ مِنهَا حَبَّةٌ قارنَها قِنطارٌ مِن الهَمِّ، ثُمَّ لا تَكادُ تَصفُو فِي نَفْسها، بَلْ مُكَدِّراتُها أُلوفٌ، فَإذَا تَصوَّر عَدَمَها بَعدَ انقِضائِها وبقَاءَ هَذِهِ الأُلوفِ المُكدَّرةِ؛ صَارَ التَّصويرُ مُغْلَصِمًا للهَوىٰ، مُحْزِنًا للنَّفْس، فَإذَا أَنِفَتْ؛ أَنِفَتْ مِن الأَسَفِ عَلَىٰ الدَّوَام المُسْتعبِدِ، وعَرَفتْ أَنَّهَا لَذَّة تغرُّ الغَمْرَ، وتَهْدِمُ العُمُرَ، وتُديمُ الأَسَىٰ.

ومع هَذَا؛ فالمُنهُوم كُلَّمَا عَبَّ مِن لَذَّة طَلبَ أُخْتَها، وقَد عَرَف جِنايةَ الأُولىٰ وخِيانَتَها، وهَذَا مَرضُ العَقْل، وداءُ الطَّبْع؛ فَلا يَزَالُ هَذَا كذَلِكَ إلىٰ أَنْ يُختطَف بالمَوْت، فَيُلقَىٰ عَلَىٰ بساطِ ندمٍ لا يُستدرَكُ.

فالعجب مِمَّنْ هِمَّتُه هَكذَا مع قِصَرِ العُمُرِ، ثُمَّ لا يَهتمُّ بآخِرتِه الَّتِي لذَّتُها سَليمةٌ مِن شَوائبَ، مُنزَّهةٌ عَنْ مَعايبَ، دائمةُ الأمدِ، باقِيةٌ ببقاءِ الأبدِ.

وإنَّمَا يَحصُل تقَرِيبُ هَذِهِ بإبعادِ تِلْكَ، وعُمرانُ هَذِهِ بتخريبِ تِلْكَ، فوا عَجَبًا لعاقلٍ حَصِيفٍ حَسنِ التَّدبِير؛ فاتَهُ النَّظَر فِي هَذِهِ الأَحْوَال، وغَفلَ عَنْ تَمييزٍ بينَ هَذينِ الأَمرينِ!

وإنْ كَانَت اللَّذَّة مَعصِيَةً؛ انضمَّ إلىٰ مَا ذكرناه عارُ الدُّنْيَا، والفضيحةُ بينَ الخَلْق، وعُقُوبَةُ الحُدودِ، وعِقابُ الآخِرَة وغضَبُ الحَقِّ سُبْحَانَه.

باللهِ؛ إنَّ المُبَاحاتِ تَشْغَلُ عَنْ تَحصيلِ الفضائلِ؛ فَذُمَّ ذَلِكَ لبيانِ الحَزْمِ، فَكَيفَ بالمُحرَّماتِ الَّتِي هي غايةُ الرَّذائلِ؟! نَسْأل اللهَ ﷻ يقظةً تُحرِّكُنا إلىٰ منافِعِنا، وتُزْعِجُنا عَنْ خَوادِعِنا؛ إِنَّهُ قَرِيبٌ.

❁ فَصْلٌ ❁

تَأَمَّلْتُ فِي الخَلْقِ وإِذَا هُمْ فِي حَالَةٍ عَجِيبةٍ، يَكادُ يُقطَعُ معَها بفَسادِ العَقْل

وذَلِكَ أَنَّ الإنْسَانَ يَسْمَع المَواعِظَ، وتُذْكَرُ لَهُ الآخِرَةُ؛ فيَعْلَمُ صِدْقَ القَائِلِ، فيَبْكِي ويَنْزَعِجُ عَلَىٰ تَفْرِيطِهِ، ويَعْزِمُ عَلَىٰ الاسْتِدْراكِ، ثُمَّ يَتَراخَىٰ عَمَلُهُ بمُقتَضَىٰ مَا عَزَمَ عَلَيهِ.

فَإِذَا قِيلَ لَهُ: أَتشُكُّ فِيمَا وُعِدْتَ بِهِ؟ قَالَ: لا واللهِ. فيُقَالُ لَهُ: فاعمَلْ، فينوِي ذَلِكَ، ثُمَّ يتوقَّفُ عَن العَمَلِ، ورُبَّما مَالَ إلىٰ لَذَّةٍ مُحرَّمةٍ، وهُوَ يعلمُ النَّهْي عَنهَا!

ومن هَذَا الجِنْس: تَأَخُّرُ الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفوا ولَمْ يَكُنْ لَهُم عُذرٌ، وهُمْ يعلمُونَ قُبحَ التَّأَخُّرِ، وكَذَلكَ كُلُّ عَاصٍ ومُفَرِّطٍ.

فتَأَمَّلتُ السَّبَبَ، مع أَنَّ الاعْتِقَادَ صَحِيحٌ، والفِعْلَ بطيءٌ؛ فَإِذَا لَهُ ثلاثةُ أَسْبَابٍ:

أَحدُهَا: رُؤيَة الهَوَىٰ العَاجِلِ؛ فَإِنَّ رؤيته تَشْغَل عَن الفكر فِيمَا يَجْنِيهِ.

والثَّانِي: التَّسويفُ بالتَّوْبَة، فلو حَضَر العَقْلُ؛ لحَذَّر مِن آفاتِ التَّأْخِيرِ، فرُبَّمَا هَجَم المَوْت ولَمْ تَحصُل التَّوْبَة! والعجبُ مِمَّنْ يُجَوِّزُ سلبَ رُوحِه قبلَ مُضيِّ سَاعَةٍ ولا يعْمَلَ عَلَىٰ الحَزمِ! غَيْرَ أَنَّ الهَوَىٰ يُطِيلُ الأَمَدَ.

وقَد قَالَ صَاحِب الشَّرْع ﷺ: «صَلِّ صَلاةَ مُوَدِّع»[١]، وهَذَا نِهايَةُ الدَّواءِ لهَذَا الدَّاءِ؛ فإِنَّه مَن ظَنَّ أَنَّهُ لا يَبْقَىٰ إلىٰ صَلاةٍ أُخْرَىٰ؛ جدَّ واجْتَهَدَ.

والثَّالِث: رَجاءُ الرَّحْمَةِ؛ فيُرَىٰ العَاصِي يَقُولُ: ربِّي رَحيمٌ! ويَنْسَىٰ أَنَّهُ شَديدُ العِقابِ، ولَوْ عَلِمَ أَنَّ رَحْمَتَهُ لَيسَتْ رِقَّةً - إذ لَوْ كَانَتْ كذَلِكَ لَمَّا ذَبَحَ عُصْفُورًا، ولا آلَمَ طِفْلًا - وعقابَهُ غَيْرُ مَأْمُونٍ - فإِنَّهُ شَرعَ قَطْعَ اليَدِ الشَّرِيفَةِ بِسَرِقَةِ خَمْسَةِ دَراهِمَ[٢] - ؛ لَجَدَّ وَأَنَابَ.

فنَسْأَل اللهَ ﷻ أَنْ يَهَبَ لَنَا حَزْمًا يَبُتُّ المَصَالِحَ جَزْمًا.

---

(١) حسن: أخرجه ابن ماجه (٤١٧١)، وأحمد (٢٣٤٩٨) من حديث أبي أيوب الأنصاري.

(٢) صحيح: أخرج البخاري (٦٧٩٥، ٦٧٩٦، ٦٧٩٧، ٦٧٩٨)، ومسلم (٤٤٢٤) من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قطع سارقًا في مجن قيمته ثلاثة دراهم.

فَصْل

نَظَرْتُ فِي قَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، لَمَّا لَبِسَ الخَاتَمَ ثُمَّ نَزَعَهُ مِن يَدِهِ، ورَمَى بِهِ، وَكَره أَنْ يَرَى نَفْسَه مُزْدانًا بِهَذِهِ الحِلِيةِ، وقَالَ: «شَغَلَنِي نَظرِي إِلَيْكم ونظَرِي إِليهِ»[1]، وتَأَمَّلتُ كذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: «بَيْنَما رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ فِي حُلَّتِهِ مُرَجِّلًا جُمَّتَهُ؛ خُسِفَ بِهِ الأَرْضُ، فَهُو يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلى يَوْمِ القِيَامَةِ»[2]

فرَأَيْتُ أَنَّهُ لا يَنْبَغِي للمُؤمِنِ أَنْ يَلبس ثوبًا مُعجبًا، ولا شَيئًا مِن زِينَةٍ؛ لأَنَّ ذَلِكَ يُوجِبُ النَّظَرَ إِلىٰ النَّفْسِ بعَينِ الإعْجَابِ، والنَّفْسُ يَنْبغِي أَنْ تَكُونَ ذليلةً للخَالِقِ.

وقَدْ كَانَ القُدَمَاءُ مِن أَحْبَارِ بَنِي إِسْرَائِيل يَمْشُونَ عَلَىٰ العِصِيِّ؛ لِئَلَّا يَقَعَ مِنهُم بَطَرٌ فِي المَشْي، ولَبِسَتْ أَمُّ المُؤْمِنينَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا دِرْعًا لَهَا، فأُعْجِبَتْ بِهِ، فَقَالَ لَهَا رَسُول اللهِ ﷺ: «**إِنَّ الله لا يَنْظُرُ إِلَيْكِ فِي حَالَتِكَ هذِه**»[3]. ولمَّا لَبِس رَسُولُ اللهِ ﷺ خَمِيصَةً لَهَا أَعلامٌ قَالَ: «**أَلْهَتْنِي هَذِهِ عَنْ صَلَاتِي**»[4]، وهَذَا كُلُّهُ يُوجِبُ الإِعْرَاضَ عَن الزِّينة، ومَا يُحرِّكُ إِلىٰ الفَخْرِ والزَّهْوِ والعُجْبِ؛ ولِهذَا حُرِّمَ الحَرِيرُ.

وأقولُ عَلَىٰ أَسْبَابِ هذا: إِنَّ المُرقَّعاتِ الَّتِي يَظهرُ فِيهَا المُتصوِّفَةُ بالسَّوارِك والتَّلمِيع؛ رُبَّمَا أَوْجَبت زَهْوَ المَلابسِ: إِمَّا لحُسْنِها فِي ذاتِها، أَوْ لِعِلْمِه أَنَّها تُنْبِئُ عَنْهُ

---

(١) **صحيح**: أخرجه أخرجه أحمد (٢٩٦٠)، والنسائي (٥٢٨٩)، وفي «الكبرىٰ» (٩٤٧١)، وابن حبان (٥٤٩٣) من حديث ابن عباس، بلفظ: أن رسول الله ﷺ اتخذ خاتمًا فلبسه، قال: «شغلني هذا عنكم، منذ اليوم إليه نظرة وإليكم نظرة» ثم ألقاه.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٥٧٨٩)، ومسلم (٢٠٨٨) من حديث أبي هريرة.

(٣) **لا يصح**: أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٧) من قول أبي بكر لعائشة، لا من قول النبي ﷺ لها، ومع ذلك فإسناده ضعيف جدًّا.

(٤) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٧٣، ٥٨١٧)، ومسلم (٥٥٦) من حديث عائشة.

بالتَّصَوُّفِ والزُّهْدِ، وكَذَلكَ الخَاتَمُ فِي اليَدِ، وطُولُ الأَكمَامِ، والنِّعَالُ الصَّرَّارَةُ(١).

ولا أقولُ: إنَّ هَذِهِ الأَشْيَاءَ تَحْرُمُ، بَلْ رُبَّمَا جَلَبَتْ مَا يَحْرُم مِن الزَّهْوِ.

فيَنْبَغِي للعَاقِلِ أَنْ يتنبَّه بِمَا قُلْتُ فِي دَفْع كُلِّ مَا يُحْذَرُ مِن شَرِّهِ.

وقَدْ رَكِبَ ابنُ عُمَر نَجِيبًا، فأَعْجَبَهُ مَشْيُهُ؛ فنَزَلَ، وقَالَ: يَا نافِعُ؛ أَدْخِلْهُ فِي البُدْنِ.

۞ فَصْلٌ ۞

مَن أَرَادَ اجتِماعَ هَمِّهِ وإِصْلاحَ قَلْبِهِ فَلْيحْذَرْ مِن مُخَالطَةِ النَّاسِ فِي هَذَا الزَّمَانِ

فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ يَقَعُ الاجتِمَاعُ عَلَىٰ مَا ينفعُ ذِكْرُهُ، فَصَارَ الاجتِمَاعُ عَلَىٰ مَا يَضُرُّ!

وقَدْ جَرَّبتُ عَلَىٰ نَفْسِي مِرارًا أَنْ أَحْصُرَها فِي بَيتِ العُزلَةِ، فتَجتمِعُ هِي، ويُضافُ إلىٰ ذَلِكَ النَّظَرُ فِي سِيَرِ السَّلَف، فأَرَىٰ العُزلَةَ حِمْيَةً، والنَّظَرَ فِي سِيَرِ القَومِ دَواءً، واسْتِعْمَالُ الدَّواءِ معَ الحِمْيَةِ عَنِ التَّخلِيطِ نافعٌ.

فَإِذَا فَسَحْتُ لنَفْسِي فِي مُجالَسَةِ النَّاسِ ولِقائِهم تَشتَّتَ القَلْبُ المُجتمِعُ، ووقعَ الذُّهولُ عمَّا كُنْتُ أُراعِيهِ، وانْتَقَشَ فِي القَلْبِ مَا قَدْ رَأَتْهُ العَينُ، وفِي الضَّميرِ مَا تَسْمَعهُ الأُذُنُ، وفِي النَّفْسِ مَا تَطْمعُ فِي تَحْصيلِه مِن الدُّنْيَا، وإِذَا جُمْهُور المُخالِطِينَ أَرْبَابُ غَفْلَةِ، والطَّبْعُ بمُجالَسَتِهم يسرِقُ مِن طِباعِهم، فَإِذَا عُدتُ أَطلُبُ القَلْبَ لَمْ أَجِدُه، وأَرُومُ ذَاكَ الحُضُورَ فأَفْقِدُه، فيبقَىٰ فُؤادِي فِي غِمَارِ ذَلِكَ اللقاءِ للنَّاسِ أَيامًا حَتَّىٰ يَسْلُوَ الهَوَىٰ.

---

(١) هي التي لها صرير، أي صوت يلفت الانتباه إليها.

ومَا فَائدَةُ تَعرِيضِ البِناءِ للنَّقضِ؟! فَإِنَّ دَوامَ العُزلَةِ كالبناءِ، والنَّظَرَ فِي سِيَرِ السَّلَفِ يَرفَعُهُ، فَإِذَا وقعتِ المُخَالطَة انتقضَ مَا بُنِيَ فِي مدَّةٍ فِي لَحْظَةٍ، وصَعُبَ التَّلافِي، وضَعُفَ القلبُ، ومن لَهُ فهمٌ يَعْرِفُ أمراضَ القَلْبِ، وإعراضَهُ عَنْ صَاحِبِه، وخروجَ طَائرِه مِن قَفَصِه، ولا يُؤمنُ عَلَىٰ هَذَا المَريضِ أَنْ يَكُونَ مَرضُه هَذَا سَبَبَ التَّلفِ، ولا عَلَىٰ هَذَا الطَّائرِ المَحْصُورِ أَنْ يَقعَ فِي الشَّبَكَةِ.

وسَبَبُ مَرضِ القَلْبِ: أَنَّهُ كَانَ مَحْمِيًّا عَنِ التَّخلِيطِ، مغْذُوًّا بالعِلْم وسِيرِ السَّلَفِ؛ فخَلطَ، فَلم يَحْتَمِلْ مِزاجُهُ، فوقَعَ المَرَضُ.

فالجِدَّ الجِدَّ؛ فإِنَّمَا هِي أَيَّامُ.

ومَا نرىٰ مَن يُلْقَىٰ، ولا مَن يُؤخَذُ مِنْهُ، ولا مَن تَنْفَعُ مُجالَسَتُهُ؛ إِلَّا أَنْ يَكُونَ نَادِرًا مَا أَعْرِفُهُ.

مَا فِي الصِّحَابِ أَخُو وَجْدٍ نُطَارِحُهُ ** حَدِيثَ نَجْدٍ ولا خِلٌّ نُجَارِيهِ

فالزَمْ خَلوَتَك، وراعِ - مَا بَقِيتَ - النَّفْسَ، وإذَا قَلِقَتِ النَّفْسُ مُشْتاقةً إلىٰ لِقاءِ الخَلْقِ؛ فاعلَمْ أَنَّهَا بَعْدَ كَدِرَةٌ، فَرُضْها لِيصِيرَ لقاؤهُم عِندَهَا مَكْرُوهًا، ولَوْ كَانَ عِندَهَا شُغْلٌ بالخَالِق لَمَا أحبَّتِ الزَّحْمَةَ، كَمَا أَنَّ الَّذِي يَخْلُو بحَبِيبِهِ لا يُؤْثِرُ حُضُورَ غَيرِه، ولَوْ أَنَّهَا عَشِقَتْ طَرِيقَ اليَمَنِ لَمْ تَلْتفتْ إلىٰ الشَّامِ.

فَصْلٌ

تَفَكَّرْتُ فِي سَبَبِ هِدَايَةِ مَن يَهْتَدِي، وانْتِباهِ مَن يَتَيَقَّظُ مِن رُقَادِ غَفْلتِهِ

فَوَجَدْتُ السَّبَبَ الأَكْبرَ اختِيارَ الحَقِّ ﷻ لِذلِكَ الشَّخْصِ، كَمَا قِيلَ: إِذَا أَرَادَكَ لأَمْرٍ هَيَّأَكَ لَهُ.

فتارةً تقعُ اليَقَظَةُ بمُجرَّد فِكْرٍ يُوجِبُه نظرُ العَقْل، فيتَلمَّحُ الإنْسَانُ وُجُودَ نَفْسه، فيَعلَمُ أَنَّ لَهَا صانعًا، وقَد طَالَبه بحَقِّه، وشُكْرِ نِعمَتِه، وخَوَّفَه عِقابَ مُخَالفَتِه؛ ولا يَكُون ذَلِكَ بسَبَبٍ ظَاهِرٍ.

ومِن هَذَا: مَا جَرَىٰ لأَهْلِ الكَهْفِ: ﴿إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف: ١٤] وفِي التَفْسِيرِ: أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنهُم أَلْقَىٰ فِي قَلبِه يقظةً، فَقَالَ: لا بُدَّ لِهَذَا الخَلْقِ مِن خَالِقٍ، فاشتَدُّوا كَرْبَ بَواطِنِهِم مِن وَقودِ نارِ الحَذَرِ، فخَرجُوا إلىٰ الصَّحَرَاءِ، فاجتَمَعُوا عَنْ غَيْرِ مَوْعِد، فكُلُّ وَاحِدٍ يسْأَل الآخرَ: مَا الَّذِي أَخْرَجَكَ؟ فتَصَادَقُوا.

ومِنَ النَّاسِ مَن يَجْعلُ الخَالِقُ ﷻ لِذلِكَ السَّبَب - الَّذِي هُوَ الفِكرُ والنَّظَرُ - سَبَبًا ظَاهرًا؛ إِمَّا مِن مَوعِظَةٍ يَسْمَعُهَا أَوْ يَراهَا، فيُحرِّكُ هَذَا السَّبَبُ الظَّاهِرُ فِكْرَةَ القَلْبِ الباطِنةِ.

ثُمَّ يَنْقَسِمُ المُتَيقِّظُونَ:

فمِنْهُم: مَن يَغْلِبُهُ هَواهُ، ويَقْتَضِيهِ طَبْعُه مَا يَشْتَهِي مِمَّا قَد اعْتَادَه، فَيعُودُ القَهْقَرَىٰ، ولا يَنْفَعُه مَا حصَلَ لَهُ مِن الانتِباهِ؛ فانتباهُ مِثلِ هَذَا زِيَادَةٌ فِي الحُجَّة عَلَيهِ.

ومِنْهُم: مَن هُوَ واقفٌ فِي مَقامِ المُجَاهَدَةِ بينَ صَفَّين: العَقْل الآمر بالتَّقوَىٰ، والهوىٰ المُتَقاضِي بالشَّهوَات: فمِنْهُم مَنْ يُغْلَبُ بَعدَ المُجاهَدات الطَّويلَة؛ فيعودُ إلىٰ الشَّرِّ، ويُخْتَمُ لَهُ بِهِ. ومنهُم: مَن يَغْلبُ تارةً ويُغْلَب أُخْرَىٰ؛ فجِراحَاته لا فِي مَقْتَلٍ. ومنهم: مَن يَقْهَرُ عَدُوَّه فَيَسْجُنُه فِي حَبْسٍ؛ فَلا يَبْقَىٰ للعَدُوِّ مِن الحِيلَةِ إِلَّا الوَساوِسُ.

ومِن الصَّفْوَة أَقْوَامٌ؛ مُذْ تيقَّظُوا مَا نامُوا، ومُذْ سَلكُوا مَا وَقفُوا، فَهَمُّهُم صُعودٌ وتَرَقٍّ، كُلَّمَا عَبرُوا مَقامًا إلىٰ مَقام رَأَوْا نَقْصَ مَا كَانُوا فِيهِ؛ فاستَغفَروا.

ومِنهُم مَن يَرْقىٰ عَن الاحتياج إلىٰ مُجاهَدَةٍ؛ إمَّا لخِسَّةِ مَا يَدْعُو إلَيْهِ الطَّبْع عِنْده ولا وَقْعَ لَهُ، وإمَّا لشَرَف مَطْلُوبِه؛ فَلا يَلْتَفِتُ إلىٰ عَائقٍ عَنهَ.

واعْلَمْ؛ أَنَّ الطَّرِيق المُوصِلةَ إلىٰ الحَقِّ سُبْحانَه لَيسَتْ مِمَّا يُقطَع بالأقْدامِ، وإنَّمَا يُقطَعُ بالقُلُوب، والشَّهَواتُ العَاجِلَةُ قُطَّاعُ الطَّرِيق، والسَّبيلُ كاللَّيْل المُدْلَهِمِّ، غَيْرَ أَنَّ عينَ المُوفَّق بَصَرُ فَرَسٍ؛ لأَنَّهُ يَرَىٰ فِي الظُّلْمَة كَمَا يَرَىٰ فِي الضَّوْءِ، والصِّدْقُ فِي الطَّلَب مَنارٌ؛ أَيْنَ وُجِدَ يَدُلُّ عَلَىٰ الجَادَّة، وإنَّمَا يتعثَّر مَن لَمْ يُخلِصْ، وإنَّمَا يَمتنِعُ الإخلاصُ مِمَّنْ لا يُرادُ، فَلا حَولَ ولا قُوَّة إلَّا باللهِ.

❁ فَصْلٌ ❁

عَجِبْتُ لِمَن يُعْجَبُ بِصُورَتِهِ، ويَخْتالُ فِي مِشْيَتِهِ؛ ويَنْسَى مَبْدَأَ أَمْرِهِ!

إنَّمَا أَوَّله لُقمَةٌ ضُمَّتْ إلَيهَا جَرعةُ مَاءٍ، فَإنْ شِئتَ فقُلْ: كُسيرَةُ خُبزٍ معَهَا تمرَاتٌ، وقِطعةٌ مِن لَحْمٍ، ومَذقَةٌ مِن لَبنٍ، وجَرعَةٌ مِن مَاءٍ، ونحوُ ذَلِكَ، طَبَخَتْهُ الكَبِدُ فأَخْرَجَتْ مِنْهُ قَطَراتُ مَنِيٍّ، فاسْتَقَرَّ فِي الأُنْثَيَيْنِ فَحَرَّكتْها الشَهْوَةُ، فَصُبَّتْ، فَبَقِيَتْ فِي بَطْنِ الأُمِّ مُدَّةً حَتَّىٰ تَكامَلَتْ صُورَتُها، فَخَرَجَتْ طِفلًا، تَتَقلَّب فِي خِرَقِ البَوْلِ.

وأَمَّا آخِرُهُ؛ فإنَّه يُلْقَىٰ فِي التُّرابِ، فَيأْكُلُه الدُّودُ، ويَصيرُ رُفاتًا تَسْفِيهِ السَّوافِي، وكَمْ يَخْرجُ تُرابُ بَدنِه مِن مَكَانٍ إلىٰ مَكَانٍ آخَرَ، ويُقَلَّبُ فِي أَحْوَالٍ إلىٰ أَنْ يَعُودَ فَيُجْمَعَ.

هذَا خَبرُ البَدَن، إنَّمَا الرُّوحُ الَّتِي عَلَيْهَا العَمَل؛ فَإنْ تَجَوْهَرَتْ بالأَدَبِ، وتقوَّمتْ بالعِلْم، وعَرَفت الصَّانِع، وقَامَتْ بحَقِّهِ؛ فَمَا يَضُرُّهَا نَقْضُ المَرْكَبِ، وإنْ هِي بَقِيتْ عَلَىٰ صِفَتها مِن الجَهَالَةِ شَابَهَت الطين، بَلْ صَارَتْ إلىٰ أَخَسِّ حَالَةٍ مِنهُ.

۞ فَصلٌ ۞

هَيهَاتَ أَنْ يَجْتَمِعَ الهَمُّ معَ التَّلَبُّسِ بأُمُورِ الدُّنْيَا!

خُصُوصًا بالشَّابِ الفَقِيرِ الَّذِي قَدْ أَلِفَ الفَقرَ؛ فإِنَّه إِذَا تزوَّج ولَيْسَ لَهُ شَيْءٌ مِن الدُّنْيَا؛ اهتمَّ بالكسبِ، أوْ بالطَّلَبِ مِن النَّاس، فتَشَتَّتَتْ هِمَّتُهُ، وجَاءَهُ الأَوْلادُ فَزَادَ الأَمْرُ عَلَيهِ، ولا يَزَالُ يُرَخِّصُ لنَفْسه فِيمَا يُحَصِّلُ إِلىٰ أَنْ يَتَلَبَّسَ بالحَرَام.

وَمَن يُفَكِّرُ؛ فَهِمَّتُه مَا يَأْكُل ومَا يَأْكُل أهلُه، ومَا تَرْضىٰ بِهِ الزَّوجَةُ مِن النَّفقَةِ والكِسْوَةِ، ولَيْسَ لَهُ ذَلِكَ؛ فأيُّ قَلْبٍ يَحْضُرُ لَهُ؟! وأيُّ همٍّ يَجتمِعُ؟!

هَيهَاتَ! واللهِ؛ لا يَجتمِعُ الهَمُّ والعَينُ تنظُر إِلىٰ النَّاس، والسَّمْعُ يَسمعُ حَدِيثَهم، واللِّسَانُ يُخاطِبُهُم، والقَلبُ مُتوزِّعٌ فِي تَحْصِيل مَا لا بُدَّ مِنهُ.

فإِن قَالَ قَائِل: فَكَيفَ أصنع؟!

قُلْتُ: إِنْ وَجَدْتَ مَا يَكْفِيكَ مِن الدُّنْيَا، أوْ مَعيشَةً تَكْفِيكَ؛ فَاقنَعْ بِها، وانْفَرِدْ فِي خَلوةٍ عَن الخَلْقِ مَهمَا قَدَرْتَ، وإِنْ تَزوَّجتَ فبِفَقيرَةٍ تقنَعُ باليَسِيرِ، وتَصبَّرْ أنتَ علَىٰ صُورَتِها وفَقْرِهَا، ولا تتركْ نَفْسكَ تطمَحُ إِلىٰ مَن تَحتاجُ إِلىٰ فَضل نَفَقَتِه، فَإِنْ رُزِقْتَ امرأةً صَالِحَةً جَمَعَتْ همَّك فذاكَ، وإِنْ لَمْ تَقدِرْ فمُعالَجَةُ الصَّبْرِ أَصْلَحُ لَكَ مِن المُخاطَرَةِ، وإِيَّاكَ والمُستَحسَنَاتِ؛ فَإِنَّ صَاحِبهنَّ - إِذَا سَلِمَ - كعَابِد صنمٍ، وإِذَا حصَلَ بيدِكَ شَيْءٌ فأَنفِقْ بعضَهُ؛ فبِحِفْظِ البَاقِي تحفَظُ شتَاتَ قَلْبكَ.

واحْذَرْ كُلَّ الحَذَر مِن هَذَا الزَّمَان وأهلِه؛ فَمَا بَقِي مُواسٍ ولا مُؤْثِرٍ، ولا مَن يَهْتَمُّ لِسَدِّ خَلَّةٍ، ولا مَن لَوْ سُئِلَ أَعطىٰ؛ إِلَّا أَنْ يُعطيَ نَذْرًا بتضجُّرٍ ومنَّةٍ، يستَعبِدُ بِهَا المُعْطَىٰ بقيَّةَ العُمرِ، ويَستثقِلُه كُلَّمَا رآهُ، أوْ يَسْتَدْعي بِهَا خِدْمَته لَهُ والتَّرَدُّدَ إِلَيْه.

وإنَّمَا كَانَ فِي الزَّمَانِ المَاضِي مِثْلُ أَبِي عَمْرو بنِ نُجَيْدٍ، سَمِعَ أبا عُثْمَانَ المَغْرِبِيَّ يَقُولُ يَومًا عَلَىٰ المِنْبَرِ: عَليَّ ألفُ دِينارٍ، وقَد ضَاقَ صَدرِي، فمَضَىٰ أَبُو عَمْرو إلَيْهِ فِي اللَّيْل بألفِ دِينارٍ، وقَالَ: اقْضِ دَيْنكَ. فَلَمَّا عَادَ وصَعِدَ المِنْبرَ قَالَ: نَشكرُ اللهَ لأبي عَمْرٍو؛ فإنَّه أراحَ قَلْبي وقَضَىٰ دَيْني، فَقَام أَبُو عَمْرو فَقَالَ: أَيُّهَا الشَّيْخُ؛ ذَلِكَ المَالُ كَانَ لوالِدَتِي، وقَد شقَّ عَليْهَا مَا فَعَلْتَ، فَإنْ رَأيْتَ أَنْ تتقَدَّم بردِّه فافْعَل. فَلَمَّا كَانَ فِي اللَّيْل عَادَ إلَيْهِ وقَالَ: لمَاذَا شَهَرْتَنِي بينَ النَّاس؟! فأنَا مَا فَعَلْتُ ذَلِكَ لأَجْلِ الخَلْق، فخُذهُ ولا تَذْكُرنِي.

مَاتُوا وَغُيِّبَ فِي التُّرَابِ شُخُوصُهُمْ ** وَالنَّشْرُ مِسْكٌ وَالعِظَامُ رَمِيمُ

فالبُعدَ البُعدَ عمَّن همَّته الدُّنْيَا؛ فَإنَّ زَادَهُم اليَوْم إلىٰ أَنْ يَحْصُلَ أَقْرَبُ مِنْهُ إلىٰ أَنْ يُؤْثَرَ، ولا تَكَادُ ترَىٰ إلَّا عدوًّا فِي البَاطِنِ، صَدِيقًا فِي الظَّاهِر، شَامِتًا عَلَىٰ الضُّرِّ، حَسُودًا عَلَىٰ النِّعمَةِ.

فَاشْتَرِ العُزْلَة بِمَا بِيعَتْ؛ فَإنَّ مَن لَهُ قَلْبٌ إذَا مَشَىٰ فِي الأَسْواقِ، وعَادَ إلىٰ مَنْزِلِه؛ تَغَيَّرَ قَلْبُهُ، فَكَيفَ إنْ عَرْقَلَه بالمَيْل إلىٰ أَسْبَابِ الدُّنْيَا.

واجْتَهِدْ فِي جَمْعِ الهَمِّ بالبُعدِ عَن الخَلْقِ؛ لِيَخْلُوَ القَلْبُ بالتَّفكُّر فِي المَآبِ، وتَتلَمَّحَ عَينُ البَصيرةِ خِيَمَ الرَّحِيلِ.

۞ فصل ۞

كَانَ المُرِيدُ فِي بِدَايَةِ الزَّمَان إِذَا أَظْلَمَ قَلْبُهُ أَوْ مَرِضَ لُبُّهُ؛ قَصَدَ زِيَارَةَ بَعْضِ الصَّالِحِينَ، فَانْجَلَى عَنْ نَفْسِهِ مَا أَظْلَمَ مِنْهَا

أَمَّا اليَوْمَ؛ فمتىٰ حَصُلتْ ذَرَّةٌ مِن الصِّدقِ لمُريدٍ، فَرَدَّتْهُ فِي بَيتِ عُزلةٍ، وَوَجَدَ نَسيمًا مِن رُوحِ العَافِيَة، ونورًا فِي باطِنِ قَلْبِهِ، وكَادَ هَمُّهُ يَجتَمِعُ، وشَتَاتُهُ يَنْتَظِمُ، فَخَرجَ فَلَقِي مَن يُومَأُ إِلَيْهِ بِعِلمٍ أَوْ زُهْدٍ، رَأَىٰ عِنْده البطَّالينَ، يجْرِي مَعَهُم فِي مَسْلَكِ الهَذَيَانِ الَّذِي لا يَنفعُ، ورَأَىٰ صُورَتَهُ صُورَةَ مُنَمِّسٍ، وأَهْوَنُ مَا عَلَيهِ تَضييعُ الأوقاتِ فِي الحَدِيثِ الفَارِغ، فَمَا يرجِعُ المُريدُ عَنْ ذَلِكَ الوطَنِ إِلَّا وقَد اكتَسَبَ ظُلْمَةً فِي القَلْبِ، وشَتَاتًا فِي العَزْمِ، وغَفْلَةً عَنْ ذِكْرِ الآخِرَةِ؛ فيعُودُ مريضَ القَلْبِ، يَتْعَبُ فِي مُعالَجَتِه أَيَّامًا كَثيرَةً، حَتَّىٰ يعودَ إِلىٰ مَا كَانَ فِيهِ، ورُبَّما لَمْ يَعُدْ؛ لأَنَّ المُريدَ فِيهِ ضَعْفٌ، ورُبَّما فُتِنَ؛ فإِنَّه إِذَا رَأَىٰ شيخًا قَدْ جَرَّب وعَرَفَ، ثُمَّ يُؤثِرُ البَطَالَةَ؛ لَمْ يأمَنْ أَنْ يتبَعَه الطَّبْعُ.

فالأُولىٰ للمُريدِ اليَوْمَ أَلَّا يَزورَ إِلَّا المَقابِرَ، ولا يُفاوِضَ إِلَّا الكُتُبَ، الَّتِي قَدْ حَوَتْ مَحَاسِنَ القَوْم، ولْيَسْتعن باللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ التَّوفيقِ لمرَاضِيهِ؛ فإِنَّه إِنْ أَرَادَهُ هَيَّأَهُ لِمَا يُرضِيهِ.

فَصْلٌ

تَأَمَّلْتُ الَّذِينَ يَخْتَارُونَ الحَقَّ ﷻ لِوِلَايَتِهِ وَالقُرْبِ مِنْهُ

فَقد سَمعْنا أوصَافَهم ومَن نَظُنُّه منهُم مِمَّنْ رَأيْناه، فَوجَدتُه سُبْحَانَه لا يَخْتَارُ إلَّا شَخصًا كَاملَ الصُّورَة، لا عيبَ فِي صُورتِه، ولا نقصَ فِي خِلْقَتِه؛ فَتراهُ حَسَنَ الوَجْهِ، معتدلَ القَامَةِ، سليمًا مِن آفةٍ فِي بَدنِهِ، ثُمَّ يَكُونُ كاملًا فِي باطِنِه، سَخِيًا جَوادًا، عاقلًا، غَيْرَ خِبٍّ، ولا خَادِعٍ، ولا حَقودٍ، ولا حَسودٍ، ولا فِيهِ عيبٌ مِن عُيوبِ البَاطِنِ.

فذَاكَ الَّذِي يُربِّيه مِن صِغَرِه، فَتراهُ فِي الطُّفُولَة مُعتزِلًا عَن الصِّبيَان، كأنَّه فِي الصِّبا شَيْخٌ ينبُو عَن الرَّذائل، ويَفْزعُ مِن النَّقَائِص، ثُمَّ لا تَزالُ شَجَرَةُ همَّتِه تَنْمُو حَتَّىٰ يَرَىٰ ثَمَرَهَا مُتَهدِّلًا عَلَىٰ أَغْصانِ الشَّبابِ، فَهُو حَريصٌ عَلَىٰ العِلْم، مُنْكَمِشٌ عَلَىٰ العَمَل، حَافظٌ للزَّمانِ، مُرَاعٍ للأَوْقاتِ، سَاعٍ فِي طَلَبِ الفَضائِلِ، خَائفٌ مِن النَّقَائِص.

ولو رَأيْتَ التَّوفيقَ والإلْهامَ الرَّبَّانِي يحُوطُه؛ لرَأيْتَ كَيْفَ يَأْخُذُ بيدِهِ إنْ عَثَرَ، ويمنَعُهُ مِن الخطَإِ إنَّ هَمَّ، ويستَخْدِمُهُ فِي الفَضَائل، ويَسْتُرُ عملَه عَنْهُ حَتَّىٰ لا يَرَاهُ مِنْهُ.

ثُمَّ يَنْقَسِمُ هَؤُلاءِ: فمِنهُم: من تفقَّه عَلَىٰ قدمِ الزُّهْد والتَّعبُّد. ومنهم: من تفقَّه عَلَىٰ العِلْم واتِّبَاع السُّنة. ويندُر منهم: من يجمع اللهُ لَهُ الكُلَّ ويرقِّيه إلىٰ مُزاحَمَة الكَامِلين.

وعلامةُ إثْبَاتِ الكَمَال فِي العِلْم والعَمَل: الإقْبَالُ بالكُلِّيَّةِ عَلَىٰ مُعامَلةِ الحَقِّ ومحبَّتِه، واستيعاب الفضائل كُلِّها، وسَناءِ الهِمَّة فِي نُشدانِ الكَمَال المُمَكَّن، فلو تُصُوِّرَت النُّبوَّة أَنْ تُكْتَسَبَ؛ لدَخلَتْ فِي كَسْبِهِ.

ومَراتبُ هَذَا الاصطِفاءِ لا يحتَملُها الوصفُ؛ لكَونهِ دُرَّةَ الوجُودِ الَّتِي لا تَكادُ تَنعقِدُ فِي الصَّدَفِ إلَّا فِي كُلِّ وَدُودٍ.

نَسْأَلُ اللهَ عَجَّلَ توفِيقَنا لمَراضِيهِ وقُرْبِهِ، ونَعُوذُ بِهِ مِن طَرْدِهِ وإِبْعَادِهِ.

فَصْلٌ

أَكْثَرُ الخَلائقِ عَلَى طَبعٍ رَدِيءٍ لا تُقَوِّمُهُ الرِّياضَةُ لا يَدْرُونَ لمَاذَا خُلِقُوا، ولا مَا المُرَادُ مِنْهُ؟!

وغايةُ همَّتِهِم حُصُولُ بُغيَتِهم مِن أغرَاضِهِم، ولا يسْأَلونَ عِنْدَ نَيلِها مَا اجتَلَبَت لَهُم مِن ذَمٍّ، يبذُلُون العِرضَ دُونَ الغَرَضِ، ويُؤْثِرونَ لَذَّةَ سَاعَةٍ وإن اجتَلَبَتْ زَمَانَ مَرَضٍ! يَلْبسُونَ عِنْدَ التِّجاراتِ ثيابَ مُحتالٍ، فِي شِعارِ مُختالٍ، ويُلَبِّسونَ فِي المُعامَلاتِ، ويَسْترونَ الحَالَ! إنْ كَسَبُوا فشُبهَةٌ، وإن أَكَلُوا فشَهْوَةٌ، يَنامُون اللَّيْل وإنْ كَانُوا نِيامًا بالنَّهَار فِي المَعنَىٰ، ولا نومَ إلَّا بِهَذِهِ الصُّورَةِ، فَإِذَا أَصْبَحُوا سَعَوْا فِي تَحصِيل شَهَواتِهم بِحِرصِ خِنْزِيرٍ، وتَبَصْبُصِ كلبٍ، وافتراسِ أسدٍ، وغارَةِ ذِئبٍ، ورَوَغانِ ثَعْلَبٍ! ويَتَأَسَّفُون عِنْدَ المَوْت عَلَىٰ فَقْد الهَوَىٰ لا عَلَىٰ عَدَم التَّقوَىٰ! ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النجم: ٣٠].

كَيفَ يُفلِحُ مِن يُؤْثِر مَا يرَاهُ بعينِه عَلَىٰ مَا يُبصرُه بعقْلِه، ومَا يُدركُه ببصَرِه أعزُّ عِنْده مِمَّا يَراهُ ببَصيرَتهِ؟!

تالله؛ لَوْ فَتَحوا أَسْماعَهُم لسَمِعُوا هَاتِفَ الرَّحِيل فِي زَمَان الإِقَامَةِ يصيحُ فِي عَرَصاتِ الدُّنْيَا: تَلمَّحوا تقويضَ خِيام الأوائلِ، لكنْ غَمَرهُم سُكْرُ الجَهالةِ، فَلَمْ يُفيقُوا إلَّا بِضَرْبِ الحَدِّ.

فَصْل

رَأيْتُ بَعْضَ المُتقدِّمينَ سُئلَ عَمَّن يَكتَسِبُ حَلالًا وحَرامًا مِن السَّلاطِينِ والأُمَراءِ ثُمَّ يَبني المَساجِدَ والأَرْبطَةَ؛ هَلْ لَهُ فِيهَا ثَوابٌ؟!

فأفْتَىٰ بِمَا يُوجِبُ طِيبَ قَلبِ المُنْفِق، وذَكَرَ أَنَّ لَهُ فِي إنفاقِ مَا لا يَملِكُه نوعَ حَسَنةٍ؛ لأنَّهُ لا يَعْرِف أعيانَ المَغْصُوبينَ فيردُّها عَلَيهِم!

فقُلْت: وا عجبًا مِن المُتَصدِّين للفَتوَىٰ الَّذِينَ لا يعرفُون أُصُولَ الشَّرِيعَة!

يَنْبغِي أَنْ يُنظَر فِي حَالِ هَذَا المُنفِق أوَّلًا:

فَإِنْ كَانَ سُلطانًا؛ فَمَا يُخرِجُ مِن بيتِ المَالِ قَدْ عُرِفَتْ وجُوه مَصارِفِه، فَكَيفَ يَمْنَع مستحقَّه ويَشْغَله بِمَا لا يُفيد مِن بناءِ مدرسةٍ ورباطٍ.

وإن كَانَ المُنفِقُ مِن الأمراءِ ونوَّابِ السَّلاطينِ؛ فإنَّه يجب أَنْ يَرُدَّ مَا يجب ردُّه إلىٰ بيتِ المَالِ، ولَيْسَ لَهُ فِيهِ إلَّا مَا فُرِضَ مِن إيجابٍ يَلِيق بِهِ؛ فَإِنْ تصرَّف فِي غَيْر ذَلِكَ كَانَ مُتصرِّفًا فِيمَا لَيسَ لَهُ، ولَوْ أُذِنَ لَهُ مَا كَانَ الإذنُ جائزًا.

وإنْ كَانَ قَدْ أُقْطِعَ مَا لا يُقاوِمُ عَمَلَهُ؛ كَانَ مَا يأخُذُه فَاضِلًا مِن أموال المُسلِمِينَ، لا حَقَّ لَهُ فِيهِ، وعَلَىٰ من أطْلَقَه فِي ذَلِكَ إِثْمٌ أيضًا.

هذا؛ إِذَا سَلِمَ المَالُ وكَانَ مِن حِلِّهِ، فأمَّا إذَا كَانَ حرامًا أَوْ غَصْبًا؛ فكلُّ تَصرُّفٍ فِيهِ حَرَامٌ، والواجبُ ردُّه عَلَىٰ مَن أخَذَ مِنْهُ أَوْ عَلَىٰ وَرَثَتِهِم.

فإنْ لَمْ يُعْرَفْ طَرِيقُ الرَّدِّ؛ كَانَ فِي بَيتِ مَالِ المُسلِمِينَ، يُصرَف فِي مَصَالِحهم، أَوْ يُصرَف فِي الصَّدقَة، ولَمْ يَحْظَ آخِذُه بغَيْر الإِثْم.

أنْبَأنَا أحْمَد بْن الحُسَين بْن البنا قَالَ: أَخْبَرَنا مُحمَّد بْن عَلِيٍّ الزجاجي قَالَ: أَخْبَرَنا عَبْد الله بْن مُحَمَّد الأسديُّ قَالَ: أَخْبَرَنا عَلِيُّ بْن الحَسن قَالَ: حدَّثَنَا أَبُو داود

قَالَ: حدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عوفٍ الطَّائي قَالَ: حدَّثَنَا أَبُو المغيرة قَالَ: حدَّثَنَا الأوزاعي قَالَ: حدَّثَنَا موسىٰ بْن سليمان قَالَ: سَمِعت القَاسَم بْن مُخيمِرة يَقُول: قَالَ رَسُول اللهِ ﷺ: «**مَن اكتَسبَ مَالًا مِن مَأثمٍ، فوَصَل رَحِمًا، أَوْ تصدَّق بِهِ، أَوْ أنفقَه فِي سَبيلِ اللهِ؛ جُمِع ذَلِكَ جَميعًا فقُذِف بِهِ فِي جهنَّم**»[1].

فأَمَّا إِذَا كَانَ البانِي تَاجِرًا مُكتسِبًا للحَلال، فَبَنَىٰ مَسْجدًا، أَوْ وَقَف وَقْفًا للمُتفقِّهَةِ؛ فهَذَا مِمَّا يُثابُ عَلَيهِ.

ويَبْعُد مَن يَكْتَسِب الحَلالَ حَتَّىٰ يَفْضُلَ عَنْهُ هَذَا المِقْدَارُ، أَوْ يُخرجُ الزَّكَاةَ مُسْتَقْصَاةً، ثُمَّ يطيبُ قلبُه بمِثلِ هَذَا البناءِ والنَّفقَة؛ إِذْ مثلُ هَذَا البُنيانِ لا يَجُوز أَنْ يَكُونَ مِن زكاةٍ، وأَيْنَ سَلامَة النِّيَّة وخُلوصُ المَقصِدِ؟!

ثم إنَّ بِناءَ المَدارسِ اليَوْمَ مُخَاطَرَةٌ؛ إذ قَدْ انعكفَ أَكْثَرُ المتفقِّهَة عَلَىٰ عِلم الجَدَل، وأعرَضُوا عَنْ علوم الشَّرِيعَة، وتركوا التَّردُّد عَلَىٰ المَسَاجِدِ، واقتَنعوا بالمَدارِس والألقَابِ.

وأَمَّا بناءُ الأَرْبِطَةِ؛ فلَيْسَ بشَيْءٍ أصلًا؛ لأَنَّ جُمْهُور المُتصوِّفَة جُلوسٌ عَلَىٰ بساطِ الجَهْل والكَسَل، ثُمَّ يدَّعي مُدَّعِيهم المَحبَّةَ والقُرْبَ، ويَكْرَهُ التَّشَاغُلَ بالعِلْم، وقَد تَركُوا سِيرَةَ سَرِيٍّ وعَاداتِ الجُنَيْدِ، واقتنَعوا بأَدَاءِ الفَرَائِض، ورَضُوا بالمُرَقَّعاتِ؛ فلا تَحْسُن إعانَتُهُم عَلَىٰ بَطالَتِهِم وراحَتِهِم، ولا ثَوَابَ فِي ذَلِكَ.

---

(١) **حسن**: أخرجه أبو داود في «المراسيل» (١٢٤)، وابن المبارك في «الزهد» (٦٢٥) عن القاسم بن مخيمرة مرسلًا. وله شاهد من حديث أبي هريرة بلفظ: «إذا أديت زكاة مالك، فقد قضيت ما عليك فيه، ومن جمع مالًا حرامًا، ثم تصدق به، لم يكن له فيه أجر، وكان إصره عليه». أخرجه ابن خزيمة (٢٤٧١)، وابن حبان (٣٢١٦، ٣٣٦٧)، والحاكم (١٤٤٠) وقال: صحيح. وأخرج القسم الأول منه الترمذي (٦١٨) وقال: حديث حسن. وابن ماجه (١٧٨٨). وقال العراقي - كما في «تحفة الأحوذي» (٣/ ٨) -: «سنده جيد».

۞ فصل ۞

عَجِبتُ لمَن يتصَنَّعُ للنَّاسِ بالزُّهْدِ؛ يَرْجُو بذَلِكَ قُرْبَهُ مِن قُلُوبِهِم وينْسَى أَنَّ قلوبَهم بِيَدِ مَن يَعْمَلُ لَهُ!

فَإِنْ رَضِيَ عمَلَه، ورآهُ خَالصًا؛ لفَتَ القُلُوبَ إِلَيْهِ، وإنْ لَمْ يرهُ خالصًا؛ أعرضَ بِهَا عَنْهُ.

ومَتَىٰ نَظَرَ العامِلُ إلىٰ الْتِفاتِ القُلُوب إِلَيْهِ؛ فَقد زَاحَمَ الشِّرْكُ نِيَّتَهُ؛ لأَنَّهُ يَنْبغِي أَنْ يَقْنَعَ بنظرِ مَن يعْمَلُ لَهُ، ومِن ضرورةِ الإخلاصِ أَلَّا يَقْصِدَ الْتِفاتَ القُلُوبِ إِلَيْهِ، فذاكَ يحصُل لا بِقَصْدِه بَلْ بكَراهَتِه لِذلِكَ.

وليعلَم الإنْسَانُ أَنَّ أعمَالَه كُلَّها يَعْلَمُها الخَلْقُ جُملةً، وإنْ لَمْ يطَّلِعُوا عَلَيهَا؛ فالقُلُوبُ تشهدُ للصَّالح بالصَّلاح وإنْ لَمْ يُشاهَدْ مِنْهُ ذَلِكَ.

فأَمَّا مَن يقْصِد رُؤيَةَ الخَلْق بعملِه؛ فَقد مَضَىٰ العَمَلُ ضائعًا؛ لأَنَّهُ غَير مَقْبُول عِنْدَ الخَالِقِ، ولا عِنْدَ الخَلْق؛ لأَنَّ قُلوبَهم قَدْ أُلْفِتَتْ عَنْهُ، فَقدْ ضَاعَ العَمَلُ، وذهبَ العُمُرُ.

ولَقَدْ أخْبرَنا ابن الحصين قَالَ: أخْبرَنا ابن المُذْهِب قال، أخْبرَنا أحْمَد بْن جعفر قَالَ: حدَّثَنَا عبدُ الله بنُ أحمدَ قالَ: حدَّثني أَبِي قَالَ: حدَّثَنَا حسن بن موسىٰ قَالَ: حدَّثَنَا ابن لَهِيعَةَ قَالَ: حدَّثَنَا دَرَّاج عَنْ أبي الهَيْثَم عَنْ أبي سَعيدٍ الخُدْرِيِّ عَنْ رَسُول اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: **«لَوْ أَنَّ أحدَكُم يَعْمَلُ فِي صخرَةٍ صمَّاءَ، لَيسَ لَهَا بَابٌ ولا كُوَّةٌ؛ لخَرجَ للنَّاسِ عمَلُه كَائنًا مَا كانَ»**(١).

---

(١) حسن: أخرجه أحمد (١١٢٤٦)، وأبو يعلىٰ (١٣٧٨)، قال الهيثميٰ (١٠/ ٢٢٥): إسنادهما حسن. وصححه ابن حبان (٥٦٧٨)، والحاكم (٧٨٧٧)، وقال: صحيح الإسناد.

فليتَّقِ اللهَ العبدُ، وَلْيَقْصِدْ مَن يَنْفَعُه قَصْدُه، ولا يَتشَاغَلْ بمَدْح مَنْ عَنْ قَليلٍ يَبْلىٰ هُوَ وَهُمْ.

فَصْل

قَدِمَ عَلَينَا بَعْضُ فُقَهاءٍ مِن بِلادِ الأَعَاجِمِ، وكَانَ قاضيًا ببَلَدِه، فرَأَيْتُ عَلَى دَابَّتِهِ الذَّهَبَ، ومَعهُ أَتْوارُ الفِضَّةِ، وأَشْياءُ كَثيرَةٌ مِن المُحَرَّماتِ

فقُلْتُ: أيَّ شَيْءٍ أَفادَ هَذَا العِلْمُ؟! بَلْ - واللهِ - قَدْ كَثُرَتْ عَلَيهِ الحُجَجُ.

وأَكْبَرُ الأسْبَابِ قِلَّةُ عِلمِ هَؤُلاء بسِيرَةِ السَّلَف ومَا كَانَ عَلَيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، إنَّهم يَجْهَلُونَ الجُمْلَةَ، ويَتشَاغَلُون بِعِلْم الخِلافِ، ويَقْصِدُون التقَدُّمَ بقُشُور المَعْرِفَةِ، ولَيْسَ يَعْنِيهم سَمَاع حَدِيثٍ، ولا نظرٌ فِي سِير السَّلَفِ، ويُخالِطُون السَّلاطينَ فَيحْتَاجُون إلىٰ التَزَيِّي بزيِّهم، ورُبَّما خطرَ لَهُم أَنَّ هَذَا قَرِيبٌ، وإنْ لَمْ يخطُر لَهُم فالهَوىٰ غَالبٌ بلا صَادٍّ، ورُبَّما خطرَ لَهُم أَنْ يقولُوا: هَذَا يُحتملُ ويُغفرُ فِي جَانِبِ تَشاغُلِنا بالعِلْم، ثُمَّ يَروْنَ العُلَمَاءَ يُكرمُونَهم لنيلِ شَيْءٍ مِن دُنياهُم، ولا يُنكرونَ عَلَيهِم.

ولَقَدْ رَأَيْتُ مِن الَّذِينَ ينتَسِبُون إلىٰ العِلْم مَن يَستَصحِبُ المُرْدَانَ، ويشتَري المَماليكَ، ومَا كَانَ يفعلُ هَذَا إلَّا مَن قَدْ يَئِسَ مِن الآخِرَة، ورَأيْتُ مَن قَدْ بلغَ الثَّمانينَ مِن العُلَمَاءِ، وهُوَ عَلَىٰ هَذِهِ الحَالَةِ.

فاللهَ اللهَ يَا مَن يُرِيدُ حِفظَ دِينِه، ويوقنُ بالآخِرَة، إيَّاكَ والتَّأوِيلاتِ الفَاسِدَةَ، والأهواءَ الغَالِبَةَ؛ فإنَّك إنْ ترخَّصتَ بالدُخُول فِي بعضِها جرَّكَ الأَمْرُ إلىٰ الباقي، ولَمْ تقدر عَلَىٰ الخُروج؛ لمَوضِع إلْفِ الهَوَىٰ.

فاقبلْ نُصحي، واقنعْ بالكِسرةِ، وابعُدْ عَنْ أرْبَاب الدُّنْيَا، فَإذَا ضجَّ الهَوَىٰ فدَعْهُ لهَذا، ورُبَّما قَالَ لكَ: فالأَمْرُ الفلانِيُّ قَرِيبٌ! فَلا تفعلْ؛ فإنَّه - لَوْ كَانَ قَرِيبًا - يَدْعُو إلىٰ غيرِهِ، ويَصعُب التَّلافِي.

فالصَّبْرَ الصَّبْرَ عَلَىٰ شَظَف العَيْش، والبُعْدَ عَنْ أَرْبَاب الهَوَىٰ، فَمَا يتم دين إلَّا بذَلِكَ، ومتىٰ وقَعَ التَّرخُّص حَمَل إلىٰ غَيرِه؛ كالشَّاطِئ إلىٰ اللُّجَّة، وإنَّمَا هُوَ طَعامٌ دونَ طَعامٍ، ولِباسٌ دونَ لِباسٍ، ووَجْهٌ أَصبَحُ مِن وَجهٍ، وإنَّمَا هي أَيَّامٌ يَسيرَة.

فَصْل

مَنْ تَفَكَّرَ فِي عَظَمَةِ اللهِ ﷻ، طَاشَ عَقْلُهُ

لأَنَّهُ يحْتَاجُ أَنْ يُثبتَ مَوجُودًا لا أَوَّلَ لوجُوده، وهَذَا شَيْءٌ لا يعرِفُه الحِسُّ، وإنَّمَا يُقرُّ بِهِ العَقْلُ ضرورةً، وهُوَ متحيِّرٌ بَعدَ هَذَا الإقرارِ، ثُمَّ يَرَىٰ مِن أَفْعَالِه مَا يَدُلُّ عَلَىٰ وُجُوده، ثُمَّ تجري فِي أَقْدارِه أمورٌ؛ لَوْلا ثُبُوتُ الدَّلِيل عَلَىٰ وُجُوده لأَوْجَبَتِ الجَحْدَ.

فإنَّه يَفْرُقُ البحرَ لبني إسْرَائِيل، وذَلِكَ شَيْءٌ لا يَقْدِر عَلَيهِ سِوىٰ الخَالِق، ويُصَيِّرُ العَصَا حيَّةً، ثُمَّ يُعيدَها عصًا تلقَفُ مَا صَنعُوا، ولا يزيدُ فِيهَا شَيْءٌ؛ فهَلْ بَعدَ هَذَا بيانٌ؟! فَإذَا آمَنتِ السَّحرَةُ تَرَكَهُم معَ فِرْعَوْن يَصْلِبُهم ولا يَمنعُ، والأَنْبِيَاءُ يُبتلونَ بالجُوع والقَتْل، وزكريَّا يُنْشَرُ، ويَحْيَىٰ تَقْتُلُه زانيةٌ، ونَبِيُّنا ﷺ يَقُولُ كُلَّ عام: «مَن يُؤْويني، مَن يَنْصُرنِي؟»[1] فيَكادُ الجَاهِلُ بوُجُودِ الخَالِقِ يَقُولُ: لَوْ كَانَ مَوْجُودًا لَنَصَرَ أَوْلياءَهُ!

(١) حسن: أخرجه من حديث جابر بن عبد الله: أحمد (١٤٤٥٦)، والحاكم (٤٢٥١) وقال: صحيح الإسناد. وقال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٣/ ١٥٧): «إسناده جيد علىٰ شرط =

فَيَنْبَغِي للعَاقِلِ - الَّذِي قَدْ ثَبتَ عِنْدَهُ وُجُودُه بالأدِلَّة الظَّاهِرة الجَليَّة - ألَّا يُمَكِّنَ عَقلَه مِن الاعتِراضِ عَلَيه فِي أَفْعالِه، ولا يَطْلُبَ لَهَا علةً؛ إذ قَدْ ثَبتَ أَنَّهُ مالكٌ وحكيمٌ، فَإِذَا خفي عَلَينا وَجْهُ الحِكْمَة فِي فعلِه نَسَبْنا ذَلِكَ العَجْزَ إلىٰ فُهُومِنا.

وكَيفَ لا؟! وقَد عَجزَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَعْرِف حِكمَةَ خَرقِ السَّفينةِ وقَتلِ الغُلامِ، فَلَمَّا بانَ لَهُ حِكمةُ ذَلِكَ الفَسادِ فِي الظَّاهِرِ؛ أَقَرَّ، فلوْ قَدْ بَانَتِ الحِكْمَةُ فِي أَفْعالِ الخَالِقِ مَا جَحَدَ العَقْلُ جَحْدَ موسىٰ يَوْمَ الخَضِرِ.

فمتىٰ رَأيْت العَقْل يَقُولُ: لِـمَ؟! فأَخْرِسْهُ بأنْ تَقُولَ لَهُ: يَا عاجِزُ! أنتَ لا تَعْرِفُ حَقِيقَةَ نَفْسِك، فَمَا لَكَ والاعتراضَ عَلَىٰ المالِكِ؟!

ورُبَّما قَالَ العَقْلُ: أيُّ فَائدةٍ فِي الابتِلاءِ وهُوَ قادرٌ أَنْ يُثيبَ ولا بَلاءَ، وأيُّ غرَضٍ فِي تَعذِيبِ أَهْلِ النَّارِ ولَيْسَ ثَمَّ تَشَفٍّ؟! فقُلْ لَهُ: حِكْمَتُهُ فَوْقَ مَرْتَبَتِكَ، فسَلِّمْ لِمَا لا تعلَمُ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ مَن اعتَرَضَ بعقلِه إبْلِيسُ، رَأَىٰ فَضْلَ النَّار عَلَىٰ الطِّينِ، فأَعْرَضَ عَن السُّجُودِ.

وقَدْ رَأَيْنا خَلْقًا كَثيرًا وسَمعْنا عَنْهُم، أَنَّهُمْ يَقْدَحُون فِي الحِكْمَة؛ لأَنَّهُم يُحَكِّمُون العُقُولَ عَلَىٰ مُقْتَضَاهَا، ويَنْسَوْنَ أَنَّ حِكْمَةَ الخَالِقِ وَراءَ العُقُولِ.

فإِيَّاكَ أَنْ تَفْسَحَ لعَقْلِكَ فِي تَعْليلٍ، أَوْ أَنْ تَطْلُبَ لَهُ جوابَ اعْتِراضٍ، وقُلْ لَهُ: سَلِّمْ تَسْلَمْ؛ فإنَّكَ لا تَدْرِي غورَ البَحْرِ إلَّا وقَد أدركَكَ الغرَقُ قبل ذَلِكَ.

هَذَا أصلٌ عظيمٌ، مَتىٰ فاتَ الآدميَّ أَخْرَجَهُ الاعتراضُ إلىٰ الكُفْرِ.

=

مسلم» وقال الذهبي في «المهذب» (٧/ ٣٥٠٩): «إسناده جيد» وقال ابن حجر في «فتح الباري» (٧/ ٢٦٣): «إسناده حسن».

﴿ فَصْل ﴾

العَجَبُ مِمَّنْ يَقُولُ: أَخْرُجُ إلى المَقَابِرِ فَأَعْتَبِرُ بأَهْلِ البِلَى!

ولَوْ فَطِنَ عَلِمَ أَنَّهُ مَقْبَرَةٌ، يُغْنِيهِ الاعْتِبَارُ بِمَا فِيهَا عَنْ غيرِها؛ خُصوصًا مَن قَدْ أوغَلَ فِي السِّنِّ؛ فَإِنَّ شهوَتَه ضَعُفَتْ، وقُواهُ قَلَّتْ، والحَوَاسُّ كَلَّتْ، والنَّشاطُ فتَرَ، والشَّعرُ ابْيَضَّ؛ فَلْيَعْتَبِرْ بِمَا فَقَدَ، ولْيَسْتَغْنِ عَنْ ذِكْرِ مَن فَقَدَ؛ فَقَد اسْتَغْنَىٰ بِمَا عِنْدَه عَن التَّطَلُّع إلىٰ غَيرِه.

﴿ فَصْل ﴾

مَتَى تَكَامَلَ العَقْلُ فُقِدَتْ لَذَّةُ الدُّنْيَا

فَتَضاءَلَ الجِسْمُ، وقَوِيَ السُّقْمُ، واشتدَّ الحُزْنُ؛ لأَنَّ العَقْلَ كُلَّمَا تَلمَّح العَوَاقِبَ أَعْرَضَ عَن الدُّنْيَا، والْتَفَتَ إلىٰ مَا تَلمَّح، ولا لَذَّةَ عِنْده بشَيْءٍ مِن العَاجِل، وإنَّمَا يَلْتَذُّ أَهْلُ الغَفْلَةِ عَن الآخِرَةِ، ولا غَفْلَةَ لكَامِلِ العَقْل؛ ولِهذَا لا يَقْدِرُ عَلَىٰ مُخَالطَةِ الخَلْقِ؛ لأَنَّهُم كَأَنَّهم مِن غَيْر جِنْسِهِ.

كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

مَا فِي الدِّيَارِ أَخُو وَجْدٍ نُطَارِحُهُ ** حَدِيثَ نَجْدٍ وَلَا خِلٌّ نُجَارِيهِ

فَصْلٌ

ادَّعى الطَّبائِعيُّونَ أَنَّ مَادَّةَ المَوْجُودَاتِ المَاءُ والتُّرَابُ والنَّارُ والهَوَاءِ

فَإذَا كَانَ فِي القِيَامَةِ أَذْهَبَ الأُصُولَ، ثُمَّ أَعَادَ اللهُ الحَيَوَانَ؛ لِيُعْلَم أَنَّهَا كَانَتْ بالقُدْرَة لا عَنْ تَأْثيرِ الكُلِّيَّاتِ.

أَقُولُ: مَن قَدَح فِي البَعْث فَقد بالغَ فِي القَدْح فِي الحِكْمَة، ومَن قَالَ: الرُّوحُ عَرَضٌ! فَقدْ جَحَد البعثَ؛ لأَنَّ العَرَض لا يَبْقَىٰ والأَجْسَادُ تَصيرُ تُرابًا، فَإِنْ وُجِد شيءٌ فَهُو ابتداءُ خَلْقٍ.

كلَّا واللهِ؛ بَلْ يُعيدُ النَّفْسَ بِعَيْنِها رُوحًا وجَسدًا؛ بدَلِيل إعَادَة مذْكُورَاتِها: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ [الصافات: ٥١].

وعِزَّتِه؛ إنَّ لُطْفَه فِي البِدايَة لَدَلِيلٌ عَلَىٰ النِّهايَة؛ حَنَّنَ الوَالِدَين، وأَجْرَىٰ اللَّبنَ فِي الثَّدْي، وأَنْشَأَ الأَطْعِمَةَ، وأَطْلَعَ العَقْلَ عَلَىٰ العَوَاقِب؛ أَفَيَحْسُنُ أَنْ يُقَالَ بَعدَ هَذَا التَّدبير: إِنَّهُ يُهملُ العَالَمَ بَعدَ المَوْتِ، فَلا يَبْعثُ أحدًا؟!

أَتَرَىٰ مَن أَحبَّ أَنْ يُعْرَفَ، فأَنْشَأَ الخَلْقَ، وقَالَ: «كُنْتُ كَنْزًا لا أُعرَفُ، فأَحْبَبْتُ أَنْ أُعْرَفَ»[1] يُؤْثِر أَنْ يُعْدِمَهُم، فَيُجْهَلَ قَدْرُهُ؟! سُبحانَ مَن أَعْمَىٰ أَكْثَرَ القُلُوبِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ.

---

(١) لا أصل له: قال شيخ الإسلام ابن تيمية – كما في «مجموع الفتاوىٰ» (١٨/ ١٢٢، ٣٧٦) -: «هذا ليس من كلام النبي ﷺ ولا أعرف له إسنادًا صحيحًا ولا ضعيفًا»، وقد تابعه علىٰ ذلك الزركشي وابن حجر والسخاوي والسيوطي وغيرهم.

فصل

سُبحانَ مَن ظَهرَ لِخَلْقِهِ حتَّى لَمْ يَبْقَ خَفَاءٌ، ثُمَّ خَفِيَ حتَّى كَأَنَّهُ لا ظُهُورَ!

أيُّ ظُهُورٍ أَجْلَىٰ مِن هَذِهِ المَصنُوعاتِ الَّتِي تَنطِق كُلُّها بأنَّ لي صَانعًا صَنَعنِي، ورتَّبني عَلَىٰ قَانونِ الحِكْمَةِ، خُصوصًا هَذَا الآدميَّ الَّذِي أَنْشَأَهُ مِن قَطْرةٍ، وبَنَاهُ عَلَىٰ أَعْجَبِ فِطْرةٍ، ورَزَقَهُ الفَهْمَ والذِّهنَ واليَقَظَةَ والعِلْمَ، وبسط لَهُ المهادَ، وأجرىٰ لَهُ المَاءَ والريحَ، وأنبتَ لَهُ الزرعَ، ورفعَ لَهُ مِنْ فوقِه السَّمَاءَ، فأوقدَ لَهُ مِصْبَاح الشَّمسِ بالنَّهار، وجاءَ بالظُّلْمَة ليسكُنَ، إلىٰ غَير ذَلِكَ مِمَّا لا يخفَىٰ، وكلُّه يَنْطِقُ بصَوتٍ فَصيحٍ يَدُلُّ عَلَىٰ خالِقِه، وقَد تَجَلَّىٰ الخَالِقُ سُبْحَانَه بِهَذِهِ الأفْعَالِ؛ فَلا خَفَاءَ.

ثُمَّ بعثَ الرُّسُلَ فُقراءَ مِن الدُّنْيَا، ضِعافَ الأَبْدَانِ؛ فَقَهَرَ بِهِم الجَبابِرَةَ، وأَظْهَرَ عَلَىٰ أَيدَيْهم مِن المُعجزاتِ مَا لا يدْخُلُ تَحْتَ مَقدُورِ بشَرٍ، وكلُّ ذَلِكَ ينطقُ بالحَقِّ، وقَد تجلَّىٰ سُبْحَانَه بذَلِكَ لعِبادِهِ.

ثُمَّ يَأتِي مُوسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلىٰ البَحْرِ، فَيَنْفرِقُ، فَلا يَبْقَىٰ شكٌّ فِي أَنَّ الخَالِق فَعَل هَذا، ويُكلِّم عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ الميتَ فيقَوْمُ، ويَبْعثُ طيرًا أبابيلَ تَحفَظُ بيتَه فَيُهلكُ قَاصِديهِ، وهَذَا أمرٌ يَطُولُ ذِكْرُهُ، كُلُّه يَدُلُّ عَلَىٰ تجلِّي الخَالِق سُبْحَانَه بغَيْرِ خَفاءٍ.

فَإذَا ثَبتَ عِنْدَ العُقَلاءِ ذَلِكَ مِن غَيْر ارتيابٍ ولا شكٍّ، ثُمَّ جاءت أَشْيَاءُ كأنَّها تَسْتُرُ الظَّاهِرَ؛ مثلُ مَا سَبقَ مِن تَسْليطِ الأعداءِ عَلَىٰ الأوْلِيَاءِ؛ إذَا ثَبتَ التَّجَلِّي بأدلةٍ لا تَحْتَمِلُ التَأوِيلَ؛ علمتَ أَنَّ لهَذَا الخفاءِ سِرًّا لا نَعْلَمُه، يُفترَضُ عَلَىٰ العَقْل فِيهِ التَّسْليمُ للحَكيمِ؛ فمَنْ سَلَّم سَلِمَ، ومَن اعترَضَ هلَكَ.

❁ فَصْلٌ ❁

قَد يدَّعي أَهْلُ كُلِّ مَذْهَبٍ الاجْتِهَادَ فِي طَلَبِ الصَّوَابِ، وأَكْثَرُهُم لا يقْصِدُ إلَّا الحَقَّ

فَترىٰ الرَّاهِبَ يتَعبَّدُ ويتجوَّعُ، واليَهُوديَّ يَذِلُّ ويُؤدِّي الجِزْيَةَ، وصَاحِبَ كُلِّ مَذْهَبٍ يُبالِغُ فِيهِ ويَحتمِلُ الضَّيمَ والأَذَىٰ طلبًا للهُدىٰ وتَحْصِيل الأَجْر فِي اعْتِقَادِهِ؛ ومعَ هَذَا؛ فَيَقْطَعُ العَقْلُ بضَلالِ الأكْثَرينَ، وهَذَا قَدْ يُشْكِلُ؛ وإنَّمَا كَشْفُه أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُطْلَبَ الهُدَىٰ بأَسْبَابِه، ويُسْتَعْمَلَ الاجْتِهَادُ بالإِبانَةِ.

فأَمَّا مَن فَاتَته الأَسْبَابُ، أَوْ فَقَدَ بَعْضَ الآلاتِ؛ فَلا يُقَال لَهُ مُجتهدٌ؛ فاليَهُودُ والنَّصَارَىٰ بينَ عالِمٍ قَدْ عَرَف صِدْقَ نَبِيِّنَا ﷺ لكنه يَجْحَدُ إبقاءً لرئاسَتِه؛ فهَذَا مُعَاندٌ، وبينَ مقلِّدٍ لا ينظرُ بعقلِه؛ فهَذَا مُهملٌ، فهُو يتَعبَّد مع إهمال الأَصْل، وذاكَ لا ينفعُ، وبينَ ناظرٍ مِنهُم لا ينظُرُ حَقَّ النَّظَر، فيقولُ: فِي التَّوراةِ أَنَّ دينَنا لا يُنسخُ! ونَسخُ الشَّرَائِع لاختِلافِ الأزمِنَة حقٌّ، ولَكنَّه يَقُولُ، النَّسخُ بَدَاءٌ! ولا يَنْظُرُ فِي الفَرْق بينهُما، فيَنْبغِي أَنْ ينظرَ حَقَّ النَّظَرِ.

ومِن هَذَا الجِنْسِ: تعَبُّد الخَوارج، مع اقتناعِهم بعِلمِهِم القاصِر، وهُوَ قولهم: لا حُكْم إلَّا لله. ولَمْ يفهَمُوا أَنَّ التَّحكِيمَ مِن حُكمِ اللهِ، فجَعلُوا قتالَ عَليٍّ رضي الله عنه وقتلَه مَبنيًّا عَلَىٰ ظنِّهم الفَاسِد!

ولمَّا نَهَب مُسلم بنُ عقبةَ المدينةَ، وقتلَ الخَلْقَ؛ قَالَ: إنْ دخلتُ النَّارَ بَعدَ هَذَا إنَّني لشَقِيٌّ. فظنَّ بجهلِه أَنَّهُمْ لَمَّا خالَفُوا بيعةَ يزيدَ يَجُوزُ استباحَتَهم وقتلَهم!

فالويلُ لعامِّيٍّ قليل العِلْم، لا يتَّهم نَفْسه فِي وَاقِعَةٍ، ولا يُذاكِرُ مَن هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ، بَلْ يَقطعَ بظنِّه ويُقدِم.

وهَذَا أصلٌ يَنْبغِي تأمُّلهُ، فَقَدْ هلَكَ فِي إهمَالِه خلقٌ لا تُحصَىٰ، وقَد رَأيْنا خَلْقًا مِن العَوامِّ إذَا وقَع لَهُم وَاقِعَةٌ لَمْ يَقبلُوا فتوَىٰ، ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾ [الغاشية: ٢-٤].

فَصْلٌ

للنَّفْسِ ذَخائِرُ فِي البَدَنِ، مِنهَا الدَّمُ والمَنِيُّ وأشياءُ تتَقَوَّى بِهَا فَإذَا فَقَدَتْ الذَّخائِرَ، ولَمْ يَبْقَ مِنها شَيْءٌ؛ ذَهَبَتْ

ومِن ذَخائِرِها: التَّقوِّي بالمَالِ والجَاهِ ومَا يُوجِبُ الفَرحَ، فَإذَا فقدَتْ ذَلِك وكَانَت عَزِيزةً ذاتَ أَنَفَةٍ؛ حَرِجَتْ، وقَد يَهْجُم عَليْهَا الخَوْفُ، فَلا تَجِد ذخيرةً مِن الرَّجاءِ يُقاومُه؛ فتذهبَ، ويغلُبُ عَليْهَا الفرحُ، فَلا تجِد مِن الحُزنِ مَا يُقاومُه؛ فتذهبَ.

فاجتهدْ فِي حِفظ ذخائرها، وخُصوصًا الشَّيْخَ؛ فإنَّه يَنْبغِي لَهُ ألَّا يَفْرَحَ بإخرَاجِ الدَّم، ولا بإخرَاجِ المَنِيِّ وإنْ وجدَ شَبَقًا؛ إلَّا أَنْ يَكُون الشَّبَقُ زائدًا فِي الحدِّ، فيُخرُجُ المُؤْذِي فِي كُلِّ حِينٍ. وعلامةُ أَنْ يَكُون مُؤْذِيًا وُجُود الرَّاحَة عِنْدَ خُروجه، فمتىٰ وجَد ضَعْفًا فَقدْ آذىٰ خُروجُهُ.

وليحفظ ذو الأَنَفَة عَلَىٰ نَفْسه حِشْمَتَهُ، بأن لا يَقِف فِي مَوْقفٍ يُعابُ بِهِ؛ فإنَّه يَتَمَتَّعُ بذخيرةِ العِزِّ والأَنَفَة، ويُضادُّ النَّفْسَ وُجُودُ غَير ذَلِكَ.

وكَذَلكَ يَنْبغِي أَنْ يستعدَّ لآخِر عُمره بالمَالِ؛ مَخَافَةَ أَنْ يَحْتَاجَ فَيَذِلَّ أوْ يَسْعَىٰ وقَد كَلَّتِ الآلةُ، ولأنْ يُخلِّفَ لعَدُوِّه أولَىٰ مِن أَنْ يحْتَاجَ إلىٰ صَديقِه.

ولا يلتَفِت إلىٰ مَن يذمُّ المَالَ؛ فَإِنَّهُم الحَمقَىٰ الجُهَّال الَّذِينَ اتَّكلُوا عَلَىٰ خُبزِ الرَّاحَة، فاستَطَابوا الكسَلَ والدَّعَةَ، ولَمْ يأنفُوا مِن تَناوُل الصَّدقَةِ، ولا من التَّعرُّض للسُّؤال، وقَد كَانَ لكلِّ نبيٍّ معاشٌ، ولجَمِيع الصَّحَابَةِ، وخلَّفُوا أموَالًا كَثيرَةً.

فافهَم هَذَا الأَصْلَ، ولا تَلتَفِت إلىٰ كلامِ الجُهَّال.

❁ فَصْلٌ ❁

رَأيْتُ فِي زُهَّاد زَمانِنا مِن الكِبْرِ وحِفْظِ النَّامُوسِ ورُتبَةِ الجَاهِ فِي قُلوبِ العَامَّةِ مَا كِدْتُ أَقْطَعُ بِهِ أَنَّهُمْ أَهْلُ رِياءٍ ونِفَاقٍ!

فتَرىٰ أحدَهم يلبَسُ الثَّوبَ الَّذِي يُرَىٰ بعينِ الزُّهْد، ويَأكُل أطَايبَ الطَّعَام، ويتكبَّرُ عَلَىٰ أبْنَاء الجِنْس، ويُصادقُ الأغنياءَ، ويباعدُ الفُقَراءَ، ويحبُّ الخِطابَ بـ (مَوْلانا)، ويمشي بحاجِبِه، ويُضِيعُ الزَّمَانَ فِي الهَذَيانِ، ويتقوَّتُ بخدمَة النَّاس لَهُ والتَّسْلِيم عَليْهِ.

ولوْ أَنَّهُ لبِسَ ثَوبًا يخلِطُه بالفُقَهَاءِ؛ لذهبَ الجَاهُ ولَمْ يَبْقَ لَهُ مُتعلَّق، ولَوْ أَنَّ أفعالهُ نَاسبَتْ ثيابَهُ لهانَ الأمرُ، لكِنَّهُم بهرَجُوا عَلَىٰ مَن لا يَخْفَىٰ أمرُهم عَلَيهِ مِن الخَلْق، فكَيفَ الخَالِق ﷻ؟!

❁ فَصْل ❁

كَثيرًا مَا أُعِيدُ هَذَا المَعنَى الَّذِي أنَا ذَاكِرُه في هَذَا الكِتَابِ بعبَاراتٍ شَتَّى: يَنْبَغِي للمُؤمِنِ أَنْ يَتشَاغَلَ بمعَاشِهِ، ويَرْفُقَ فِي نَفقَتِه

فإِنَّه قَدْ كَانَ لِلعُلَماء شَيْءٌ مِن بيتِ المَالِ ورفقٌ مِن الإِخْوانِ، ومعونةٌ مِن العَوامِّ؛ فانْقَطَع الكُلُّ، وبَقِي المُتشاغِلُ بالعِلْم أَوْ التَّعبُّد مِسْكينًا؛ خُصوصًا ذا العَائلَةِ.

وما رَأَيْنَا مِثْلَ هَذَا الزَّمَانِ القَبِيحِ، فَمَا بقِيَ مَن يُومَأ إِلَيْهِ بمَعونَةٍ، ولا باستِقرَاضٍ، فيحْتَاجُ الإِنْسَانُ المُؤمِنُ أَنْ يدْخُل فِي مَدَاخلَ لا تليقُ بِهِ، وأن يتعرَّضَ بِمَا لا يَصْلُحُ.

فيَنْبغِي تقليلُ العائلةِ، وتقويتُ القُوتِ، وتَرقيعُ الخلَقِ.

وإِنْ أمكنَ مَعاشٌ فَهُو أَوْلىٰ مِن التَّشَاغُل بالتَّعبُّد والتَّعلُّم لفُضولِ العِلْم، وإِلَّا ضَاعَ الدِّين فِي مَداخلَ لا تصلُح، أو التعرُّضِ لبَذْلِ نَذْلٍ.

❁ فَصْل ❁

يَنْبغِي للعَاقِلِ أَنْ يحترِزَ غَايةَ مَا يُمكِنُه؛ فَإذَا جَرَى القَدَرُ معَ احتِرازِهِ؛ لَمْ يُلَمْ

والاحتِرازُ يَنْبغِي مِن كُلِّ شَيْءٍ يُمكنُ وقُوعُه، وأخذُ العُدَّة لِذلِكَ واجبٌ، وهَذَا يَكُون فِي كُلِّ حَالٍ، فَقد قصَّ رجلٌ ظُفرَهُ، فَجارَ علَيهِ، فَخبُثَتْ يَداهُ؛ فَمَاتَ.

ومرَّ شَيخُنا أحْمَدُ الحربيُّ وهُوَ رَاكِبٌ بمَكانٍ ضَيِّقٍ، فتطَأْطَأَ علَىٰ السَّرْجِ، فَانْعَصرَ فُؤادُه، فَمَرِضَ، فَمَاتَ.

وكَانَ يَحْيَىٰ بنُ نزار شَيْخًا يَحْضُر مَجْلِسِي، قَدْ طَرق عَلَيهِ ثِقلُ الأُذُنِ، فاستدْعَىٰ طُرُقِيًّا، فمصَّ أُذُنَه! فَجَرَىٰ شَيْءٌ مِن مُخِّهِ؛ فَمَاتَ.

وانْظُرْ إلىٰ احْتِرازِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حِينَ مرَّ عَلَىٰ حَائطٍ مَائلٍ فَأَسْرَعَ[1].

ويَنْبغِي أَنْ يَحْترِزَ بالكَسْبِ فِي زَمَن شَبابِهِ، ادِّخارًا لزَمَن شَيْبِهِ، ولا يَنْبغِي أَنْ يَثِقَ بمعامَلٍ إلَّا بوَثِيقَةٍ، ولْيُبادِرْ بالوَصِيَّة مَخَافَةَ أَنْ يَطْرُقَه المَوْتُ، ويَحْترِزَ مِن صَديقِه فَضْلًا عَنْ عَدُوِّه، ولا يثِق بمَوَدَّةِ مَنْ قَدْ آذاهُ هُو، فَإِنَّ الحِقْدَ فِي القُلُوبِ قلَّما يزُولُ، ولْيَحْتَرِزْ مِن زَوْجَتِه، فرُبَّمَا أَطْلَعَها عَلَىٰ سِرِّهِ ثُمَّ طَلَّقَهَا، فيَتَأَذَّىٰ بِمَا تَفْعَلُ بِهِ.

وقَدْ كَانَ ابنُ أفلَحَ الشَّاعِرُ يُكاتِبُ رَئِيسًا فِي زَمَنِ المُسْتَرْشِدِ، فعَلِمَ بذَلِكَ بوَّابُه، واتَّفقَ أَنَّهُ صَرفَ بوَّابَه، فنَمَّ عَلَيهِ، ونُقِضَتْ دارُه.

فهَذِهِ المَذْكُراتُ أمثلةٌ تُنبِّهُ عَلَىٰ مَا لَمْ يُذْكَرْ، وأَهَمُّ الكُلِّ أَنْ يَحْترِزَ بأَخْذِ العُدَّةِ وتَحقِيقِ التَّوْبَةِ قبلَ أَنْ يَهْجُم مَا لا يُؤمَنُ هُجومُه، وليحذرْ مِن لصِّ الكَسلِ؛ فإِنَّه مُحتالٌ عَلَىٰ سَرقَةِ الزَّمَانِ.

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (٨٦٦٦)، وأبو يعلىٰ (٦٦١٢)، والعقيلي في «الضعفاء» (١/ ٦١)، وابن عدي في «الكامل» (١/ ٢٣٢)، والبيهقي في «الشعب» (١٣٥٩) من حديث أبي هريرة، وأنكره الذهبي في «الميزان» (١/ ١٣٤، ترجمة ٣٤) ووافقه ابن حجر في «اللسان» (١/ ٣٢، ترجمة ٥٦)، وضعفه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٣١٨).

فَصْل

تَأَمَّلْتُ خُصُوماتِ المُلُوكِ، وحِرصَ التُّجَّارِ، ونِفاقَ المُتَزَهِّدِينَ فَوَجَدْتُ جُمْهُورَ ذَلِكَ عَلَى لَذَّاتِ الحِسِّ!

وإِذَا تفكَّر العَاقِلُ فِي ذَلِكَ علمَ أَنَّ أمرَ الحِسِّياتِ قَرِيبٌ، يندَفِع بأقلِّ شَيْءٍ، وأنَّ الغَايَة مِنْهُ لا يُمْكنُ نَيْلُها، وإنْ بالغَ عَادَ بالأَذَىٰ عَلَىٰ نَفْسه، فنالَه مِن الضُّرِّ أَضْعاف مَا نالَه مِن اللَّذَّة؛ كمَنْ يأْكُل كثيرًا، أوْ يَنكحُ كَثِيرًا؛ فالسَّعيدُ مَن اهتمَّ لحِفظِ دِينِه، وأخذَ مِن ذَلِكَ بمِقْدَار الحَاجَة.

وا عَجَبًا! هَذَا المَلْبوسُ؛ إِذَا كَانَ وَسَطًا خَدَم، وإنْ كَانَ مُرتفعًا خُدِمَ؛ فإِنْ نَظَرَ اللَّابسُ إِلَيْهِ مُعْجبًا بِهِ، فَإِن الله لا ينظر إِلَيْهِ حِينئِذٍ، وفِي «الصَّحِيح»: «**بينَما رَجُلٌ يتبَختَرُ فِي بُردَتِه، خُسِفَ بِهِ**»(١).

والمشروبُ؛ إنْ كَانَ حَرامًا فعِقابُه أضعَافُ لذَّته، وهَتْكُهُ العِرضَ بينَ النَّاس عِقابٌ آخَرُ. وإنْ كَانَ مباحًا فالشَّرَه فِيهِ يُؤذِي البَدَنَ.

وأَمَّا المَنْكُوحُ؛ فمُداراةُ المُسْتَحْسَنِ يُؤذِي فَوْقَ كُلِّ أَذًىٰ، ومقَاسَاةُ المُسْتَقْبَح أَشدُّ أذًىٰ؛ فعَلَيْك بالتَّوَسُّطِ.

وتفكَّرْ فِي أَحْوَالِ السَّلاطِين؛ كَم قَتلُوا ظُلْمًا، وكَم ارتكَبُوا حَرامًا؛ ومَا نَالُوا إِلَّا يسيرًا مِن لذَّات الحِسِّ، فانقَشعَ غَيْمُ العُمُرِ عَن حَسَرَاتِ الفَضَائلِ الفَائتةِ وحُصُولِ العِقابِ.

فلَيْس فِي الدُّنْيَا أطيبَ عَيْشًا مِن مُنْفردٍ عَن العَالَم بالعِلْم؛ فَهُو أَنِيسُه وجليسُه،

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٧٨٩)، ومسلم (٢٠٨٨) من حديث أبي هريرة.

قَدْ قَنَع بِمَا سَلِم بِهِ دينُه مِن المُبَاحاتِ الحاصِلَةِ، لا عَنْ تكلُّفٍ ولا تضييعِ دينٍ، وارْتَدَىٰ بالعزِّ عَنِ الذُّلِّ للدُّنيا وأهلِها، والْتَحَفَ بالقَناعةِ باليَسيرِ، إذْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَىٰ الكَثِير، فَوجَدتُه يَسْلَم دِينُهُ ودُنيَاهُ، واشتِغَالُه بالعِلْم يَدُلُّه عَلَىٰ الفَضائل، ويُفَرِّجُه فِي البَساتِينِ؛ فَهُو يَسْلَمُ مِن الشَّيْطَانِ والسُّلْطَانِ والعَوامِّ بالعُزلَةِ، ولَكِنْ لا يصلُح هَذَا إلَّا للعَالِم؛ فإنَّه إِذَا اعتزلَ الجَاهِلُ فَاتَه العِلْمُ؛ فتخَبَّطَ.

❊ فَصْلٌ ❊

تَأَمَّلْتُ حَالَةً تَدْخُلُ عَلَى طُلَّابِ العِلْمِ، تُوجِبُ الغَفْلَةَ عَن المَقْصُودِ

وهُوَ حِرصُهم عَلَىٰ الكِتابَة، خُصوصًا المُحدِّثين؛ فيَستغرقُ ذَلِكَ زمانَهُم عَنْ أَنْ يَحفَظُوا ويفهَمُوا، فيذهبُ العُمرُ وقَدْ عَرَوْا عَن العِلْم إلَّا اليسيرَ.

فَمَنْ وُفِّقَ جَعَل مُعْظَم الزَّمَان مَصْروفًا فِي الإعادَةِ والحِفْظ، وجَعَل وَقْتَ التَّعَب مِن التَّكرارِ للنَّسْخِ؛ فيَحْصُلُ لَهُ المُرَادُ.

والمُوفَّقُ مَن طَلَبَ المُهمَّ؛ فَإِنَّ العُمْرَ يعْجَز عَنْ تحصِيلِ الكُلِّ، وجُمهُور العُلوم الفِقْهُ.

وفِي النَّاس مَن حَصَلَ لَهُ العِلْم، وغَفَل عَن العَمَل بمُقْتَضاهُ، وكَأَنَّه مَا حَصَّل شَيئًا، نَعُوذُ باللهِ مِن الخِذلَان.

فَصْلٌ

مَا اعْتَمَدَ أَحَدٌ أَمْرًا إِذَا هَمَّ بِشَيْءٍ مِثْلَ التَّثَبُّتِ

فإِنَّه مَتىٰ عَمِلَ بوَاقِعَةٍ مِن غَيْر تَأمَّل للعَوَاقِب؛ كَانَ الغَالِبَ عَلَيهِ النَّدمُ.

ولِهذَا؛ أُمِرَ الإنْسَانُ بالمُشاوَرَةِ؛ لأَنَّ الإنْسَانَ بالتَّثبُّتِ يفْتكِرُ، فتَعْرِضُ عَلَىٰ نَفْسه الأَحْوَالُ، وكَأَنَّه شَاوَرَ، وقَد قيلَ: خَمِيرُ الرَّأْي خَيرٌ مِن فَطِيرِهِ.

وأَشدُّ النَّاس تَفْريطًا مَن عَمِل مُبادَرَةً فِي وَاقِعَةٍ مِن غَيْرِ تَثَبُّتٍ ولا اسْتِشَارَةٍ، خُصوصًا فِيمَا يُوجِبُه الغَضبُ؛ فإِنَّه يُنزِفُهُ طَلَبُ الهَلاكِ أَوْ استَتبعَ النَّدمَ العَظيمَ، وكَمْ مَن غَضِبَ، فقَتلَ وضَربَ، ثُمَّ لَمَّا سَكَن غَضَبُه بَقِي طُولَ دَهْرِه فِي الحُزْنِ والبُكاءِ والنَّدمِ! والغَالِبُ فِي القَاتِلِ أَنَّهُ يُقْتَلُ، فَتفُوتُه الدُّنْيَا والآخِرَة.

فكَذَلكَ مَن عَرَضَتْ لَهُ شَهْوَةٌ، فاسْتَعْجَلَ لَذَّتَها ونَسِيَ عَاقِبتَها؛ فَكَمْ مِن نَدَم يَتَجَرَّعُه فِي باقِي عُمُرِه، وعِتابٍ يَسْتَقبلُهُ مِن بَعدِ مَوتِه، وعِقَابٍ لا يُؤمَن وقُوعُه؛ كُلُّ ذَلِكَ لِلذَّةٍ لَحْظَةٍ كَانَتْ كَبَرْقٍ.

فاللهَ اللهَ! التَّثبُّتَ التَّثبُّتَ فِي كُلِّ الأُمُورِ! والنَّظَرَ فِي عَوَاقِبها، خُصوصًا الغضبَ المُثيرَ للخُصومَةِ، وتَعْجِيلِ الطَّلَاقِ.

۞ فَصْل ۞

سَألَني سَائلٌ: قَدْ قَالَ بَعْضُ الحُكَماءِ:
مَنْ لَمْ يَحْتَرِزْ بِعقلِهِ هَلكَ بِعَقلِهِ؛ فَمَا مَعْنَى هَذَا؟

فبقيتُ مُدَّةً لا يَنكَشِفُ لي المَعنَىٰ، ثُمَّ اتَّضَحَ، وذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا طُلِبَتْ مَعْرِفَةُ ذاتِ الخَالِقِ سُبْحَانَه مِن العَقْل فَزِعَ إلىٰ الحِسِّ فوقَعَ التَّشبيهِ، فالاحْتِرازُ مِن العَقل بالعَقْل هُوَ أَنْ يَنْظُرَ، فيَعْلَمَ أَنَّهُ لا يَجُوز أَنْ يَكُونَ جِسْمًا ولا شَبهًا لشَيْءٍ.

وَإِذَا نَظَرَ العَاقِلُ إِلَىٰ أَفْعَالِ البَارِي سُبحانَه، رَأَىٰ أَشْيَاءَ لا يَقْتَضِيها العَقْلُ؛ مثلَ الآلامِ، والذَّبحِ للحَيوانِ، وتَسْليطِ الأَعْداءِ عَلىٰ الأَوْلياءِ معَ القُدرَةِ علىٰ المَنْعِ، والابتِلاءِ بالمَجَاعةِ للصَّالِحينَ، والمُعاقبَةِ علىٰ الذَّنْبِ بَعْدَ البُعْدِ بزَلَّةٍ، وأَشياءَ كَثيرةٍ مِن هَذا الجِنْس يَعْرِضُها العَقْلُ علىٰ العَادَاتِ فِي تَدْبِيرِه، فيَرَىٰ أَنَّه لَا حِكْمةَ تَظْهَرُ له فِيهَا.

فَالاحْتِرازُ مِن العَقْل بِهِ، أَنْ يُقَالَ لَهُ: أَلَيسَ قَدْ ثبَتَ عِنْدِي أَنَّهُ مَالكٌ، وأَنَّهُ حَكيمٌ، وأَنَّهُ لا يَفعلُ شَيْئًا إِلَّا بِحكْمةٍ؟ فيقولُ: بَلىٰ، فيُقالُ: فَنَحنُ نَحترزُ مِن تَدبيرِكَ الثَّاني بِمَا ثَبتَ عِنْدكَ فِي الأَوَّل، فَلم يَبْقَ إِلَّا أَنَّهُ خَفِيَ عَلَيْك وَجْهُ الحِكْمَةِ فِي فِعْلِه، فيجبُ التَّسْليمُ لَهُ؛ لعِلْمِنا أَنَّهُ حكيمٌ. حِينئِذٍ يُذْعِنُ ويَقُولُ: قَدْ سَلَّمْتَ.

وكثيرٌ مِن الخَلْق نظرُوا لمُقتَضَىٰ واقِعِ العَقْل الأَوَّل، فاعترَضُوا! حَتَّىٰ إِنَّ العَامِّيَّ يَقُولُ: كَيْفَ قَضَىٰ عَلَىٰ سُوءِ عَاقِبَتي؟! ولِمَ ضَيَّقَ رِزْقي؟! ومَا وَجْهُ الحِكْمَةِ فِي ابتِلائي بفُنُونِ البَلاءِ؟! ولَوْ أَنَّهُ تَلمَّح أَنَّهُ مَالكُ حَكيمُ؛ لَمْ يَبْقَ إِلَّا التَّسْليمُ لِمَا خَفِيَ.

ولَقَدْ أَنِسَ بِبَديهَةِ العَقْل خَلقٌ مِن الأَكَابِر، أَوَّلهم إِبْلِيسُ؛ فإِنَّه رَأَىٰ تَفْضِيلَ النَّارِ عَلَىٰ الطِّينِ، فاعتَرَضَ، ورَأَينا خَلْقًا ممَّن نُسِبَ إلىٰ العِلْمِ قَد زَلُّوا فِي هَذا، واعْتَرَضُوا، ورَأَوْا أَنَّ كَثيرًا مِن الأَفْعالِ لا حِكْمةَ تَحْتَها!

والسَّبَبُ: مَا ذَكَرْنا، وهُوَ الأُنْسُ بنَظَرِ العَقْل فِي البَدِيهَةِ والعَاداتِ، والقِياسُ عَلَىٰ أَفْعالِ المَخْلوقينَ، ولَوْ اسْتَخْرجوا عِلَم العَقْل البَاطِنِ، وهُوَ أَنَّهُ قد ثَبتَ الكَمَالُ للخَالقِ، وانْتَفَتْ عَنْهُ النَّقَائِصُ، وعُلِمَ أَنَّهُ حَكيمٌ لا يعبَثُ؛ لَبَقِيَ التَّسْلِيمُ لِمَا لا يُعْقَلُ.

واعْتَبِرْ هَذَا بحَالِ الخَضِر ومُوسَىٰ عليهما السلام، لَمَّا فَعَل الخَضِرُ أَشْيَاءَ تَخْرُجُ عَن العَاداتِ؛ أَنْكرَ مُوسىٰ، ونَسِي إِعْلامَه لَهُ بأَنْ يَنْظُرَ فِيمَا لا يَعْلَمُه مِن العَوَاقِبِ؛ فإِذَا خَفِيتْ مَصْلحةُ العَوَاقِب عَلَىٰ مُوسىٰ عليه السلام مع مَخْلوقٍ؛ فَأَوْلىٰ أَنْ يخْفَىٰ عَلَينا كَثِيرٌ مِن حِكْمَةِ الحَكيمِ.

وهَذَا أصلٌ؛ إنْ لَمْ يَثْبُتْ عِنْدَ الإنْسَانِ، أَخْرَجَه إلىٰ الاعْتِراضِ والكُفْرِ، وإِنْ ثَبَتَ؛ اسْتَراحَ عِنْدَ نزُولِ كُلِّ آفَةٍ.

فَصْلٌ

بَلَغَنِي عَنْ بَعْضِ الكُرَمَاءِ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَهُ فَقَالَ: أَنَا الَّذِي أَحْسَنْتَ إِلَيَّ يَوْمَ كَذَا وكَذَا فَقَالَ: مَرْحَبًا بِمَنْ يَتَوَسَّل إِلَيْنَا بِنَا، ثُمَّ قَضَى حَاجَتَهُ

فَأَخَذْتُ مِن ذَلِكَ إشارَةً، فنَاجَيتُ بِهَا، فقُلْتُ:

أَنْتَ الَّذِي هَدَيْتَه مِن زَمَن الطُّفُولَةِ، وحَفِظْتَهُ مِن الضَّلَالِ، وعَصَمْتَهُ عَنْ كَثِيرٍ مِن الذُّنُوبِ، وأَلْهَمْتَهُ طلبَ العِلْم لا بِفَهْمٍ لشرَفِ العِلْم لِمَوضِعِ الصِّغَرِ، ولا بِحُبِّ والدِهِ لِمَوْتِ الوالِدِ، ورَزَقْتَهُ فهمًا لتفقُّهِه وتَصنِيفِه، وهيَّأْتَ لَهُ أَسْبَابَ جَمْعِهِ، وقُمتَ برزقِه مِن غَيرِ تعَبٍ مِنْهُ، ولا ذُلٍّ للخَلقِ بالسُّؤالِ، وحَامَيْتَ عَنْهُ الأعْداءَ فَلَمْ يَقْصِدْهُ جبَّارٌ، وجَمَعْتَ لَهُ مَا لَمْ تَجْمَعْ لأَكْثَرِ الخَلْقِ مِن فُنونِ العِلْم الَّتِي لا تَكَادُ

تَجْتَمِعُ فِي شَخْصٍ، وأَضَفْتَ إلَيهَا تَعلُّقَ القَلْبِ بمعَرَفَتِك ومَحَبَّتِكَ، وحُسنَ العِبَارَةِ ولُطْفَها فِي الدَّلالَةِ عَليكَ، ووضعتَ لَهُ فِي القُلُوبِ القَبولَ، حَتَّىٰ إِنَّ الخَلْقَ يُقبِلُون عَلَيهِ، ويَقْبلُونَ مَا يَقُولُه، ولا يشْكُّون فِيهِ، ويَشْتاقُون إلىٰ كَلامِه ولا يُدْرِكُهُم المَلَلُ مِنْهُ، وصُنْتَه بالعُزلَة عَنْ مُخَالطَةِ مَن لا يَصْلُحُ، وآنَسْتَهُ فِي خَلْوَتِه بالعِلْم تَارَةً، وبمُنَاجاتِكَ أُخْرَىٰ، وإنْ ذَهَبْتُ أَعُدُّ لَمْ أقدِرْ عَلَىٰ إحصَاءِ عُشَيْرِ العُشَيْرِ، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

فيا مُحسِنًا إليّ قبلَ أَنْ أَطْلُبَ، لا تُخَيِّبْ أَمَلِي فيكَ وأنَا أطلُبُ، فَبإنعَامِكَ المتقدِّمِ أَتَوسَّلُ إِلَيْكَ.

فَصْل

سُبْحانَ مَن جَعَلَ الخَلْقَ بَيْنَ طَرَفِيْ نَقِيضٍ، وَالمُتَوَسِّطُ مِنْهُمْ يَنْدُرُ

مِنهُم: مَن يَغضَبُ فيقتُلُ ويضْرِبُ. ومِنهُم: مَن هُوَ أَبْلَهُ بقُوَّةِ الحِلْم لا يُؤَثِّرُ عِنْدَهُ السَّبُّ. ومِنهُم: شَرِهٌ يتَنَاوَلُ كُلَّ مَا يَشْتَهي. ومِنهُم: مُتزهِّدٌ يَتَجفَّفُ فَيَمْنَعُ النَّفْسَ حَقَّهَا!

وكَذَلكَ سَائِرُ الأَشْيَاءِ؛ المَحْمُودُ مِنهَا المُتوسِّطُ؛ فالمُنفِقُ كُلَّ مَا يَجِدُ مُبذِّرٌ، والبَخِيلُ يُخَبِّئُ المَالَ ويَمْنعُ نَفْسَه حظَّهَا.

ومَعلومٌ؛ أَنَّ المَالَ لا يُرادُ لنَفْسِه، بَلْ للمَصَالِح، فَإِذَا بَذَّرَ الإنْسَانُ فِيهِ احْتَاجَ إلىٰ بذلِ وَجْهِهِ ودِينِهِ ومِنَّةِ البُخَلاءِ عَلَيهِ؛ وهَذَا لا يَصْلُحُ؛ ولأَنْ يُخَلِّفَ الإنْسَانُ لعَدُوِّه أَحْسَنُ مِن أَنْ يَحْتَاجَ إلىٰ صَدِيقِهِ.

ومِن النَّاسِ مَن يبخَلُ، ثُمَّ يتفَاوَتُونَ فِي البُخْلِ، حَتَّىٰ يَنْتَهِي البَلاءُ بِهِم إلىٰ عِشْقِ عَيْنِ المَالِ، فرُبَّمَا مَاتَ أَحَدُهُم هُزَالًا وهُوَ لا يُنْفِقُهُ، فيَأْخُذُهُ الغَيْرُ، ويَنْدَمُ المُخَلِّفُ!

ولَقَدْ بَلَغَنِي فِي هَذَا مَا لَيسَ فَوْقَهُ مَزِيدٌ، ذَكَرْتُه لِتَعْتَبِرَ بِهِ:

فحَدَّثنِي شيخُنا أَبُو الفَضْلِ بنُ نَاصرٍ عَن شيخِهِ عَبْدِ المُحسِن الصُّوريِّ، قَالَ: كَانَ بِصُورٍ تاجِرٌ فِي غُرفةٍ لَهُ، يَأْخُذُ كُلَّ ليلةٍ مِن البَقَّالِ رَغِيفَينِ وجَوْزَةً، فيَدْخُلُ إلىٰ غُرْفَتِهِ وقتَ المَغْرِبِ، فيَضْرِمُ النَّارَ فِي الجَوْزَةِ، فتُضِيءُ بِمِقْدَارِ مَا يَنْزِعُ ثَوْبَهُ، وفِي زَمَانِ إحرَاقِ القِشرِ تكُونُ قَد استَوتْ، فيَمسحُ بِهَا الرَّغيفَين ويأكلُهُما، فبقِي عَلَىٰ هَذَا مُدَّةً، فمَاتَ، فأَخَذَ مِنْهُ ملكُ صُورٍ ثَلاثينَ أَلْفًا!

ورَأَيْتُ أَنا رَجُلًا مِن كِبارِ العُلَمَاءِ قَدْ مَرِضَ، فاسْتَلْقَىٰ عِنْدَ بَعْضِ أَصْدِقائِهِ، لَيسَ لَهُ مَن يَخْدُمُهُ ولا يُرافِقُهُ، وهُوَ مُضِرٌّ، فَلَمَّا مَاتَ وَجَدُوا بينَ كُتبه خَمْسمائةِ دينارٍ!

وحَدَّثنِي أَبُو الحسَن الرَّاندسِيُّ قَالَ: مَرِضَ رَجُلٌ عندَنَا، فبَعثَ إليَّ فحضَرتُ فَقَالَ: قَدْ ختَم القَاضِي عَلَىٰ مَالي. فقُلْت: إنَّ شئتَ قمتُ وفتحتُ الختمَ وأعطيتُك الثُّلُث تُفرِّقُه وتَعْمَل بِهِ مَا تَشاءُ. فَقَالَ: لا والله؛ مَا أُرِيدُ أَن أُفرِّقُه، بَلْ أُريدُ مالي يَكُونُ عِنْدِي. فقُلْتُ: مَا يُعْطُونَكَ، بلىٰ أَنَا آخُذُ لَكَ الثُّلُثَ كي تَكُون حُرًّا فِيهِ. فَقَالَ: لا أُريدُ. فمَات وأُخِذَ مَالُه!

قَالَ: وجَاء رَجُل فحَدَّثنِي بعَجِيبةٍ، قَالَ: مَرِضَتْ حَمَاتِي فَقَالَتْ لي: أُرِيدُ أَنْ تَشْتَرِي لي خَبِيصًا، فاشتَريتُ لَهَا، وكَانَت مُلقاةً فِي صُفَّةٍ، ونَحْنُ فِي صُفَّةٍ أُخْرَىٰ، فجاءنِي ولَدي الصَّغِيرِ وقَالَ: يَا سَيِّدي، إنَّها تَبْلَعُ الذَّهَبَ، فقُمتُ وإذَا بِهَا تجعلُ الدِّينار فِي شَيْءٍ مِن الخَبِيصِ فتبلعُه، فأَمْسَكْتُ يَدَها وزَجَرْتُها عَنْ هذا. فَقَالَتْ: أَنا أَخَافُ أَنْ تتزوَّجَ عَلَىٰ ابنَتِي. فقُلْتُ: مَا أفعلُ. فَقَالَتْ: احلِفْ لي. فحَلفتُ، فأعطَتْنِي باقِي الذَّهبِ، ثُمَّ ماتَتْ فدَفنتُها. فلما كَانَ بَعدَ أَشْهرٍ مَاتَ لَنَا طِفلٌ، فحَملناهُ إليها،

وأخذتُ معي خِرقةَ خام، وقلتُ للحفَّار: اجمع لي عِظامَ تِلْكَ العجوزِ فِي الخِرقَةِ، فجئت بِهَا إِلَىٰ البَيتِ، وتَركْتُها فِي إِجَّانَةٍ، وصببتُ عَليهَا المَاءَ وحرَّكْتُها، فأَخْرَجْتُ ثمانينَ دينارًا أَوْ نحوَها، كَانَتْ قَد ابتَلَعَتْها!

وحَكىٰ لي صَديقٌ لَنَا، أَنَّ رَجُلًا مَاتَ ودُفِنَ فِي الدَّار، ثُمَّ نُبش بَعدَ مُدَّة ليُخرجَ، فوُجدَ تَحْتَ رأسه لبِنةٌ مُقيَّرَةٌ، فسُئِلَ أَهْلُهُ عَنْهَا، فَقَالُوا: هُوَ قَيَّر هَذِهِ اللَّبِنَةَ، وأَوْصَىٰ أَنْ تُتْرَكَ تَحْتَ رَأْسِه فِي قَبْرِه وقَالَ: إِنَّ اللَّبِنَ يَبْلَىٰ سَرِيعًا، وهَذِهِ لِمَوضِعِ القَارِ لا تَبْلَىٰ، فأَخذُوها، فوَجدُوهَا رَزِينةً، فكَسَرُوها، فَوَجَدُوا فِيهَا تِسعمائةِ دِينارٍ، فتَوَلَّاها أَصْحَابُ التَّركاتِ!

وبَلَغَنِي أَنَّ رجلًا كَانَ يَكْنُس المَسَاجدَ، ويَجْمعُ تُرابَها، ثُمَّ ضَرَبَهُ لَبِنًا، فقِيلَ لَهُ: هَذَا لأَيِّ شَيْءٍ؟ فَقَالَ: هَذَا تُرابٌ مُبارَكٌ، وأُريدُ أَنْ يجعَلُوه عَلَىٰ لَحْدِي! فَلَمَّا مَاتَ جُعلَ عَلَىٰ لَحْدِهِ، فَفَضَلَ مِنْهُ لبناتٌ، فَرَمَوْها فِي البَيتِ، فجَاءَ المَطَرُ فَتَفَسَّختِ اللِّبناتُ، فإِذَا فِيهَا دَنانِير، فمَضَوْا وكشَفُوا اللَّبِن عَنْ لَحدِه، وكُلُّه مَمْلُوءٌ دَنانِيرَ!

ولَقَدْ مَاتَ بَعْض أصدقائنا وكنت أَعْلَمُ لَهُ مالًا كثيرًا، وطال مرضه فَمَا أطلع أهله عَلَىٰ شَيْء ولا أكاد أشك أَنَّهُ من شحه وحرصه عَلَىٰ الحَيَاة ورجائه أَنْ يَبْقَىٰ لَمْ يعلمهم بمدفونه، خوفًا أَنْ يؤخذ فيحيا هُوَ وقَد أَخَذَ المَال، ومَا يَكُون بَعدَ هَذَا الخزي شَيْء.

وحَدَّثنِي بَعْضُ أَصْحَابنا عَنْ حَالَةٍ شَاهدَها مِن هَذَا الفنِّ، قَالَ: كَانَ فُلانٌ لَهُ ولَدانِ ذكَرانِ وبنتٌ، ولَهُ أَلْفُ دينارٍ مَدفونةٌ، فمرِضَ مرضًا شديدًا، فاحْتَوَشَتْهُ أهلُه، فَقَالَ لِأَحَدِ ابْنَيْهِ: لا تَبرحْ مِن عِندي. فَلَمَّا خَلا بِهِ قَالَ لَهُ: إِنَّ أَخَاكَ مَشْغُولٌ باللَّعِب بالطُّيُورِ، وإِنَّ أُختكَ لَهَا زَوجٌ تُركيٌّ، ومَتىٰ وَصَلَ من مَالِي إليهما شَيْءٌ أَنفقُوه فِي اللَّعِب، وأَنتَ عَلَىٰ سِيرَتِي وأخلاقِي، ولي فِي المَوضِعِ الفُلانيِّ أَلفُ دينارٍ، فإذَا أنا

مِتُّ فَخُذْها وَحْدَكَ. فاشتدَّ بالرَّجُل المَرَضُ، فمَضَىٰ الوَلَد فأخذَ المَالَ، فعُوفِي الأبُ، فجعلَ يسْأَلُ الوَلَد أَنْ يردَّ المَال إلَيْهِ، فَلا يفعلُ، فمرضَ الوَلَدُ فأُشْفَىٰ[1]، فجعَلَ الأبُ يتضرَّع إلَيْهِ ويَقُول: ويحَكَ! خصَصتُك بالمَالِ دونَهُم، فتَموتُ فيذهبُ المَالُ! ويحَك! لا تفعَل! فمَا زَالَ بِهِ حَتَّىٰ أَخبَرَه بمَكَانِه، فأَخَذَه، ثُمَّ عُوفِي الوَلَدُ، ومَضَتْ مُدَّةٌ، فَمَرِضَ الأبُ، فاجتهد الوَلَد أَنْ يُخبِرَه بمَكانِ المَالِ، وبالَغ؛ فَلم يُخبِرْه، ومَاتَ وضَاعَ المَالُ!

فسُبحانَ مَن أَعدَم هَؤُلاءِ العُقُولَ والفُهُومَ! ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

فَصْل

كَانَ لَنَا أَصْدِقَاءُ وإِخْوَانٌ أَعْتَدُّ بِهِمْ، فَرَأَيْتُ مِنهُمْ مِن الجَفَاءِ وتَرِكِ شُرُوطِ الصَّدَاقَةِ والأُخُوَّةِ عَجَائِبَ

فأخَذْتُ أَعْتِبُ، ثم انْتبَهتُ لنَفْسِي، فقُلْتُ: ومَا ينفعُ العِتابُ؟! فَإِنَّهُم إنْ صَلحُوا فللعِتابِ لا للصَّفاءِ، فَهَمَمْتُ بمُقاطَعَتِهِم، ثُمَّ تفكَّرْتُ فرَأَيْتُ النَّاسَ بينَ مَعارِفَ وأَصْدقاءَ فِي الظَّاهِرِ وإخوةٍ مُباطِنينَ، فَقُلتُ: لا تَصلُح مُقاطعَتُهم، إنَّمَا يَنْبغِي أَنْ تَنْقُلَهم مِن دِيوانِ الأُخُوَّة إلىٰ ديوانِ الصَّدَاقَةِ الظَّاهِرة، فَإِنْ لَمْ يَصْلُحوا لَهَا نَقَلْتُهم إلىٰ جُمْلَةِ المَعارِفِ، وعامَلْتُهم مُعامَلَةَ المَعارِفِ، ومِن الغَلَطِ أَنْ تُعاتِبَهُم.

فقد قَالَ يَحيَىٰ بن معاذٍ: بِئسَ الأخُ أَخٌ تَحتاجُ أَنْ تَقُولُ لَهُ: اذْكُرنِي فِي دُعائكَ.

---

(١) أي: أشرف علىٰ الموت.

وجمهُورُ النَّاس اليَوْمَ مَعارِفُ، ويندُرُ فِيهِمْ صَديقٌ فِي الظَّاهِر، فأَمَّا الأُخُوَّةُ والمُصافَاةُ فذاكَ شَيْءٌ نُسِخ؛ فَلا يُطمعُ فِيهِ، ومَا أَرَىٰ الإنْسَانَ تَصْفُو لَهُ إِخْوَةٌ مِن النَّسبِ ولا وَلَدُه ولا زَوْجَتُه؛ فَدَعِ الطَّمعَ فِي الصَّفا، وخُذْ عَن الكُلِّ جَانبًا، وعامِلْهُم مُعامَلَةَ الغُرباءِ.

وإيَّاك أَنْ تَنخدِعَ بمَن يُظهرُ لَكَ الوُدَّ؛ فإِنَّه مَع الزَّمَانِ يَبِينُ لَكَ الحَالُ فِيمَا أَظهَرَه، ورُبَّما أَظْهَرَ لَكَ ذَلِكَ لسَبَبٍ ينالُه مِنْك!

وقَدْ قَالَ الفُضَيْلُ بنُ عِياضٍ: إِذَا أردتَ أَنْ تُصادقَ صَديقًا، فأَغْضِبْهُ؛ فَإِنْ رَأَيْته كَمَا يَنْبغِي فَصَادِقْهُ.

وهَذَا اليَوْمَ مُخَاطَرَةٌ؛ لأَنَّك إِذَا أَغْضبتَ أحدًا صَارَ عدوًّا فِي الحَال.

والسَبَبُ فِي نَسخِ حُكمِ الصَّفا: أَنَّ السَّلَفَ كَانَ هِمَّتُهم الآخِرَةَ وحدَها، فصَفَتْ نيَّاتُهم فِي الأُخُوَّة والمُخَالطَة؛ فكَانتْ دينًا لا دُنيا، والآنَ فَقد اسْتَوْلَىٰ حُبُّ الدُّنْيَا عَلَىٰ القُلُوبِ، فَإِنْ رَأَيْتَ مُتَمَلِّقًا فِي بَابِ الدِّين؛ فَاخْبُرْهُ تَقْلِهِ[1].

---

(١) القلى: البغض، يقول: جربه؛ فإنك إذا جربته قليته وتركته؛ لما يظهر لك من بواطن سرائره.

❁ فصل ❁

رَأَيْتُ المُعَافَى لا يَعْرِفُ قَدْرَ العَافِيَةِ إِلَّا فِي المَرَضِ كَمَا لا يَعْرِفُ شُكْرَ الإِطْلَاقِ إِلَّا فِي الحَبْسِ

وتَأَمَّلتُ عَلَىٰ الآدميِّ حَالَةً عَجِيبةً، وهُوَ أَنْ تَكُونَ مَعهُ امرأَةٌ لا بأسَ بِهَا، إلَّا أَنَّ قَلْبَه لا يتعلَّق بمحبَّتها تعلُّقًا يَلْتَذُّ بِهِ - ولِذلِكَ سَببانِ: أَحَدُهُمَا: أَنْ تَكُون غَيْرَ غايةٍ فِي الحُسنِ. والثَّانِي: أَنَّ كُلَّ مَمْلُوكٍ مَكْروهٌ، والنَّفْسُ تَطْلُبُ مَا لا تَقْدرُ عَليْهِ - فتَرَاهُ يَضِجُّ ويشتَهِي شَيئًا يُحبُّه، أَوْ امرأَةً يعشَقُها، ولا يَدْرِي أَنَّهُ إِنَّمَا يطلبُ قَيدًا وَثيقًا يمنعُ القَلْبَ مِن التَّصَرُّف فِي أُمورِ الآخِرَةِ، أَوْ فِي أَيِّ علمٍ أَوْ عملٍ، ويُخَبِّطُه فِي تَصريفِ الدُّنْيَا، فيبقىٰ ذَلِكَ العاشِقُ أسيرَ المَعْشُوقِ؛ هَمُّه كُلُّه مَعهُ! فالعجبُ لمُطلَقٍ يُؤْثِر القَيدَ، ومُستريحٍ يُؤْثِرُ التَّعبَ!

فَإِنْ كَانَتْ تِلْكَ المَرْأَةُ تَحتاجُ أَنْ تُحْفَظَ؛ فالويلُ لَهُ، لا قَرارَ لَهُ ولا سُكونَ، وإِن كَانَتْ مِن المُتَبَرِّجاتِ اللَّواتِي لا يُؤْمَنُ فسادُهُنَّ؛ فذاكَ هَلاكُه بِمَرَّةٍ، فَلا هُوَ إِنْ نامَ يَلْتَذُّ بنومِه، ولا إِنْ خَرَجَ مِن الدَّار يأْمَنُ مِن مِحنةٍ، وإِن كَانَتْ تُريدُ نفقةً واسعةً ولَيْسَ لَهُ؛ فَكَمْ يدْخُل مَدخَل سُوءٍ لأجلِها، وإِنْ كَانَتْ تُؤْثِر الجماعَ وقَد علَتْ سِنُّه؛ فذَاكَ الهَلاكُ العَظيمُ، وإِن كَانَتْ تُبغِضُه؛ فَمَا بَقِيَتْ مِن أَسْبَابِ تَلَفِه بقيةٌ، فيَكُونُ هَذَا ساعيًا فِي تَلَفِ نَفْسِهِ!

كَمَا قَالَ القَائِلُ:

نُحِبُّ القُدُودَ وَنَهْوَىٰ الخُدُودَ ** وَنَعْلَمُ أَنَّا نُحِبُّ المَنُونَا

وهَذَا عَلَىٰ الحَقِيقَة كعَابِدِ صنمٍ.

فليتَّقِ اللهَ مَنْ عِنْدَه امرأةٌ لا بأسَ بِها، وليُعرِض عَنْ حَدِيثِ النَّفْس ومُناها، فَمَا لَهُ منتهىٰ، ولَوْ حَصَل لَهُ غرضُه كَمَا يُرِيدُ وقعَ المَلَل وطلبَ ثالثةً، ثُمَّ يَقع المَلَل ويطلُبُ رابعةً، ومَا لهَذَا آخِرُ، إنَّمَا يُفِيده ذَلِكَ فِي العاجِلَة تَعلُّقَ قلبه وأَسْرَ لُبِّه، فيبقىٰ كالمَبْهوتِ، فِكرُه كُلُّه فِي تَحْصِيلِ مَا يُرِيدُ مَحبُوبُه، فَإِنْ جَرَتْ فُرقةٌ أَوْ آفةٌ فتِلْكَ الحَسرَاتُ الدَّائمَةُ إنْ بَقِيَ، أو التَّلفُ عَاجِلًا.

وأَيْنَ المُسْتَحْسَنُ المَصُونُ الدِّينِ القَنُوعُ بمَن يُحِبُّه؟! هَذَا أَقلُّ مِن الكِبريتِ الأَحمرِ، فَلْيَنْظُرْ فِي تَحصِيلِ مَا يَجمعُ مُعظمَ الهَمِّ، ولا يلتَفِتْ إلىٰ سوادِ الهَوَىٰ وغايةِ المُنَىٰ؛ يَسْلَمْ.

۞ فَصْل ۞

إِذَا تَمَّ عِلْمُ الإِنْسَانِ لَمْ يَرَ لنَفْسِهِ عَمَلًا

وإِنَّمَا يَرَىٰ إِنْعامَ المُوَفِّقِ لِذلِكَ العَمَلِ الَّذي يمنعُ العَاقِلَ أنْ يَرَىٰ لنَفْسِه عملًا، أَوْ يُعجبَ بِهِ.

وذَلِكَ بأشيَاء:

مِنهَا: أَنَّهُ وُفِّق لِذلِكَ العَمَل: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧].

ومِنهَا: أَنَّهُ إِذَا قِيسَ بالنّعَم لَمْ يَفِ بمِعْشار عُشْرها.

ومِنهَا: أَنَّهُ إِذَا لُوحِظَتْ عَظَمة المَخدُوم احتُقرَ كُلُّ عِلمٍ وتعبُّدٍ.

هذا إِذَا سَلِمَ مِن شائبةٍ، وخَلَصَ مِن غَفْلَةٍ، فأَمَّا والغَفلاتُ تُحيطُ بِهِ فيَنْبغِي أَنْ يَغْلِبَ الحَذَرُ مِن ردِّه، ويَخافَ العِتابَ عَلَىٰ التَّقصِير فِيهِ، فيَشْتَغِلَ عَن النَّظَر إليه.

وتأمَّلْ عَلَىٰ الفُطناءِ أحوالَهم فِي ذَلِكَ:

فالمَلائِكَةُ الَّذِينَ ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٠] قَالُوا: مَا عَبدنَاك حَقَّ عِبادَتك.

والخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُول: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى ﴾ [الشعراء: ٨٢]، ومَا أَدَلَّ(١) بتَصَبُّرِه عَلَىٰ النَّار، وتَسْلِيمِه الوَلَدَ إلىٰ الذَّبْح.

ورَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُول: «**مَا منكُم مَن يُنجِّيهِ عَملُه**». قَالُوا: ولا أنتَ؟ قَالَ: «**ولا أنا، إلَّا أَنْ يتَغمَّدَني الله برَحمَتِه**»(٢).

وأَبُو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُول: «وهَل أنَا ومَالِي إلَّا لَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟!».

وعُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُول: «لَوْ أَنَّ لي طلاعَ الأَرْضِ لافْتَدَيْتُ بِهَا مِن هَوْل مَا أمامي، قبلَ أَنْ أعْلَمَ مَا الخَبرُ».

وابنُ مَسْعودٍ يَقُول: «ليتَنِي إِذَا مِتُّ لا أُبعَثُ».

وعَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تَقُول: «ليتني كُنْت نَسْيًا منسيًّا».

وهَذَا شأن جَمِيع العُقَلاءِ، فَرَضِي اللهُ عَن الجَمِيع.

وقَدْ رُوِي عَنْ قَوْمٍ مِن صُلحَاء بني إسْرَائِيلَ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ قِلَّة الأفْهَام لِمَا شَرَحْتُه؛ لأَنَّهُم نظَرُوا إلىٰ أَعْمَالهم، فَأَدَلُّوا بِها:

فمنه: حَدِيثُ العَابِد الَّذِي تَعَبَّد خَمْسَمائةِ سنةٍ فِي جَزِيرةٍ، وأَخْرجَ لَهُ كُلَّ لَيلةٍ رُمَّانةً، وسَأَلَ الله تَعَالَىٰ أَنْ يُمِيتَهُ فِي سُجُودِه، فَإِذَا حُشِرَ؛ قِيلَ لَهُ: ادْخُلِ الجَنَّةَ

(١) أي: لم ينظر إلىٰ عمله نظر معجب به.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٥٦٧٣، ٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦)، من حديث أبي هريرة.

بِرَحْمَتِي. قَالَ: بَلْ بِعَمَلِي. فَيُوزَنُ جَمِيعُ عمله بِنِعْمَةٍ وَاحدَةٍ؛ فَلا يَفِي، فيقولُ: يَا رَبِّ؛ بِرَحْمَتِكَ(١).

وكَذَلكَ أَهْلُ الغَارِ الَّذِينَ انطبَقَتْ عَلَيهِم الصَّخرةُ(٢)؛ فَإِنَّ أَحَدَهم تَوسَّل بعمل كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَسْتَحْيِي مِن ذِكرِه، وهُوَ أَنَّهُ عَزَم عَلَىٰ الزِّنَا، ثُمَّ خَافَ العُقُوبَةَ، فتَرَكَهُ. فليتَ شِعْرِي؛ بمَاذَا يُدِلُّ مَن خَافَ أَنْ يُعاقَبَ عَلَىٰ شَيْءٍ فتركَه تَخَوُّفَ العُقُوبَةِ؟! إِنَّمَا لَوْ كَانَ مُباحًا فتركَه كَانَ فِيهِ مَا فِيهِ، ولَوْ فَهِمَ لشَغَلَه خَجَل الهِمَّةِ عَن الإِدْلالِ، كَمَا قَالَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ ﴾ [يوسف: ٥٣]. والآخرُ تَركَ صِبيَانَه يَتَضَاغَوْن إلىٰ الفَجْرِ ليَسقِي أَبَويهِ اللَّبنَ، وفِي هَذَا البِرِّ أذًىٰ للأَطْفَالِ، ولَكِنَّ الفَهمَ عَزِيزٌ. وكَأَنَّهم لَمَّا أَحْسَنُوا - فِيمَا ظَنُّوا - قَالَ لِسَانُ الحَالِ: أَعْطُوهُم مَا طَلَبُوا؛ فَإِنَّهُم يَطْلُبُون أُجْرَةَ مَا عَمِلُوا.

ولَوْلا عِزَّةُ الفَهْمِ مَا تكبَّر مُتكبِّرٌ عَلَىٰ جِنْسِهِ، ولكَانَ كُلُّ كَامِلٍ خَائفًا مُحتقِرًا لعمَلِه؛ حذرًا مِن التَّقصِيرِ فِي شُكْر مَا أُنْعِمَ عَلَيهِ، وَفَهْمُ هَذَا المَشْرُوحِ يُنكِّسُ رَأْسَ الكِبْرِ، ويُوجِبُ مُساكَنَةَ الذُّلِّ؛ فتَأَمَّلْهُ؛ فإِنَّهُ أَصْلٌ عَظِيمٌ.

---

(١) ضعيف: أخرجه الحاكم (٧٦٣٧) وقال: صحيح الإسناد. والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٦٢٠)، والعقيليٰ (٢/ ١٤٤، ترجمة ٦٣٩ سليمان بن هرم) وقال: مجهول فىٰ الرواية حديثه غير محفوظ. وتعقب الحاكمَ الذهبيُّ في «تلخيص المستدرك» فقال: «لا والله، وسليمان بن هرم غير معتمد»، وعده في مناكيره في «الميزان» (٢/ ٢٢٨) فقال: «لم يصح هذا، والله تعالىٰ يقول: ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾، ولكنه لا ينجيٰ أحدًا عمله من عذاب الله، كما صح، بلىٰ، أعمالنا الصالحة هي من فضل الله علينا ومن نعمه، لا بحول منا ولا بقوة، فله الحمد علىٰ الحمد له»، وأقره ابن حجر في «اللسان».

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٢١٥)، ومسلم (٢٧٤٣) من حديث ابن عمر.

فَصْلٌ

يَنْبغِي للعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ عَلَى خَوْفٍ مِن ذُنُوبِهِ، وإِنْ تَابَ مِنهَا وبَكَى عَلَيْهَا

وإنِّي رَأيْتُ أكْثَرَ النَّاسِ قَدْ سَكنُوا إلىٰ قَبولِ التَّوْبَةِ، وكأنَّهم قَدْ قَطعُوا عَلَىٰ ذَلِكَ، وهَذَا أمرٌ غَائبٌ، ثُمَّ لَوْ غُفِرَتْ بقِيَ الخَجلُ مِن فِعْلِها.

ويُؤيِّدُ الخَوْفَ بَعدَ التَّوْبَةِ: أَنَّهُ فِي «الصِّحاحِ»: أَن النَّاسَ يَأْتُونَ إلىٰ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيقُولُونَ: اشفعْ لَنَا! فيقولُ: ذَنْبي. وإلىٰ نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ فيقولُ: ذَنْبي. وإلىٰ إبْرَاهِيم، وإلىٰ موسىٰ، وإلىٰ عِيسَىٰ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيهِم[1]؛ فهَؤُلاءِ إِذَا اعتُبِرت ذُنوبُهم لَمْ يَكُنْ أَكْثَرُهَا ذُنوبًا حقيقيَّةً، ثُمَّ إنْ كَانَتْ فَقدْ تَابُوا مِنهَا واعْتَذَرُوا، وهُم بَعْدُ عَلَىٰ خوفٍ مِنهَا.

ثُمَّ إنَّ الخجلَ بَعدَ قبولِ التَّوْبَةِ لا يَرْتَفِعُ، ومَا أَحْسَنَ مَا قَالَ الفُضَيْلُ بنُ عِياضٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وا سَوْأَتَاهُ مِنْكَ وإِنْ عَفَوْتَ!».

فأُفٍّ - واللهِ - لمُختارِ الذُّنُوب ومُؤْثِرِ لَذَّةِ لَحظَةٍ تُبْقِي حَسرَةً لا تَزولُ عَنْ قلبِ المُؤمِنِ، وإِنْ غُفِرَ لَهُ. فالحَذَرَ الحَذَرَ مِن كُلِّ مَا يُوجِبُ خَجَلًا.

وهَذَا أمرٌ قَلَّ أَنْ يَنْظُرَ فِيهِ تائبٌ أَوْ زاهدٌ؛ لأنَّهُ يَرَىٰ أَنَّ العَفْوَ قَدْ غَمر الذَّنْبَ بالتَّوْبَةِ الصَّادقةِ.

ومَا ذَكَرْته يُوجِبُ دَوَامَ الحَذَرِ والخَجَلِ.

---

(١) صحيح: يشير إلىٰ حديث الشفاعة، وقد أخرجه البخاري (٤٤٧٦، ٦٥٦٥، ٧٤١٠، ٧٤٤٠)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس. والبخاري (٤٧١٢) ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة.

۞ فَصْلٌ ۞

نَعُوذُ باللهِ مِن سُوءِ الفَهْمِ، وخُصُوصًا مِن المُتَّسِمِينَ بالعِلْمِ

روىٰ أحْمَد فِي «مُسندِه»: أَنَّهُ تنازعَ أَبُو عَبْد الرَّحْمَن السُّلَمي وحيَّان بنُ عَبْد الله، فَقَالَ أَبُو عَبْد الرَّحْمَن لحَيَّان: قَدْ عَلِمْتَ مَا الَّذِي حَدا صَاحِبكَ - يَعْني: عَليًّا - قَالَ: مَا هُوَ؟ قَالَ: قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «**لعلَّ اللهَ اطَّلعَ إلىٰ أَهْلِ بدرٍ، فَقَالَ: اعمَلُوا مَا شِئتُم؛ فَقدْ غَفَرْتُ لكُم**»[1].

وهَذَا سُوءُ فَهْمٍ مِن أَبِي عَبْد الرَّحْمَن حِينَ ظَنَّ أَنَّ عليًّا قَاتَلَ وقَتَلَ اعْتِمَادًا عَلَىٰ أَنَّهُ قَدْ غُفِرَ لَهُ!

ويَنْبغِي أَنْ يعلَمَ أَنَّ مَعْنَىٰ الحَدِيثِ: لِتكُنْ أَعْمَالُكُم المُتَقَدِّمَةُ مَا كَانَتْ؛ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُم. فأَمَّا غُفْرانُ مَا سيأْتِي؛ فَلا يتضمَّنُه ذَلِكَ، أَتُراهُ لَوْ وَقَعَ مِن أَهْلِ بَدْرٍ -وَحَاشَاهُم- الشِّرْكُ - إذْ ليسُوا بمَعصُومِين - أمَا كَانُوا يُؤاخذُون بهِ؟! فكَذَلكَ المَعاصِي. ثُمَّ لَوْ قُلنَا: إِنَّهُ يَتَضَمَّنُ غُفْرَانَ مَا سيأتِي؛ فالمَعنَىٰ: أَنَّ مَآلَكُمْ إِلَىٰ الغُفْرانِ.

ثُمَّ دَعْنَا مِن مَعْنَىٰ الحَدِيثِ؛ كَيْفَ يَحِلُّ لمُسْلم أَنْ يَظُنَّ فِي أَمِير المُؤْمِنينَ عَليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ فَعلَ مَا لا يَجُوزُ اعتِمادًا عَلَىٰ أَنَّهُ سيُغفرُ لَهُ؟! حُوشِي مِن هَذا، وإِنَّمَا قاتَلَ بالدَّلِيل المُضْطَرِّ لَهُ إلىٰ القِتَالِ، فكَانَ عَلَىٰ الحقِّ، ولا يَخْتلفُ العُلَمَاءُ أَنَّ عليًّا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَمْ يُقاتلْ أحدًا إِلَّا والحقُّ معَ عليٍّ، كَيْفَ؛ وقَد قَالَ رَسُول اللهِ ﷺ: «**اللَّهُمَّ أَدِرْ معهُ الحَقَّ كيفَمَا دَارَ**»[2]؟!

فَقد غَلِطَ أَبُو عَبْد الرَّحْمَن غَلَطًا قَبِيحًا، حَمَلَهُ عَلَيهِ أَنَّهُ كَانَ عثمانيًّا.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٠٠٧، ٣٠٨١، ٤٢٧٤، ٤٨٩٠)، ومسلم (٢٤٩٤) من حديث علي بن أبي طالب. والقصة في «المسند» (٨٢٧).

(٢) ضعيف: أخرجه من حديث علي بن أبي طالب: الترمذي (٣٧١٤) وقال: غريب. والحاكم (٤٦٢٩) وقال: صحيح علىٰ شرط مسلم. وتعقبه الذهبي.

۞ فَصْلٌ ۞

تَأَمَّلْتُ عَلَى مُتَزَهِّدِي زَمانِنا أَشْيَاءَ تَدُلُّ عَلَى النِّفاقِ والرِّياءِ، وهُمْ يَدَّعُونَ الإِخْلاصَ!

مِنهَا: أَنَّهُمْ يلزَمُون زاويةً؛ فَلا يَزُورُونَ صَديقًا، ولا يعُودُون مَريضًا، ويدَّعُون أَنَّهُمْ يُرِيدُون الانقِطَاع عَن النَّاسِ اشتِغالًا بالعِبادَةِ، وإِنَّمَا هِي إِقَامَةُ نَوامِيسَ؛ لِيُشَارُ إِلَيْهِم بالانْقِطَاع، إِذْ لَوْ مَشَوْا بين النَّاس زَالَتْ هَيْبَتُهُم!

وما كَانَ النَّاسُ كَذَلِكَ؛ كَانَ رَسُول اللهِ ﷺ يعودُ المَريضَ، ويَشتَري الحَاجَةَ مِن السُّوقِ، وأَبُو بكرٍ رضي الله عنه يَتَّجِرُ فِي البَزِّ، وأَبُو عُبيدةَ بنُ الجَرَّاح يَحْفرُ القُبُورَ، وأَبُو طلحةَ أيضًا، وابنُ سِيرينَ يُغَسِّلُ المَوْتىٰ، ومَا كَانَ عِنْدَ القوم إِقَامَةُ ناموسٍ.

وأَصْحَابُنا يَلْزَمُونَ الصَّمتَ بينَ النَّاسِ والتخشُّعَ والتَّمَاوُتَ؛ وهَذَا هُوَ النفاق؛ فقَدْ كَانَ ابنُ سِيرينَ يَضْحكُ بالنَّهَار وبينَ النَّاس، ويَبْكِي باللَّيْل.

وقد رَأَيْتُ مِن المُتَزَهِّدينَ مَن يَلْزَمُ المَسْجِدَ ويُصلِّي، فيجتمعُ النَّاسُ فَيُصلُّونَ بصلاتِه ليلًا ونهارًا، وقَد شاع هَذَا لَهُ، فتَقْوىٰ نَفْسُه عَلَيهِ بِحُبِّ المَحْمَدَةِ، والنَّبِيُّ ﷺ قَالَ فِي صَلاةِ التَّطوُّع: «**اجْعَلُوا هَذِهِ فِي البُيوتِ**»[1].

وفِي أَصْحَابنا مِن يُظْهِر الصَّوْمَ الدَّائم، ويَتَقَوَّتُ بقولِ النَّاسِ: فُلانٌ مَا يُفْطِرُ أَصْلًا! وهَذَا الأَبْلَهُ مَا يَدْرِي أَنَّهُ لأَجْل النَّاس يفعلُ ذَلِكَ، لَوْلا هَذَا كَانَ يُفْطِرُ، والنَّاسُ يَرَوْنَه يَوْمينِ أَوْ ثَلاثةً، حَتَّىٰ يَذْهَبَ عَنْهُ ذَلِكَ الاسمُ، ثُمَّ يَعُودُ إِلىٰ الصَّوْم! وقَدْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ بنُ أدهَمَ إِذَا مَرِضَ يترِكُ عِنْدَه مِن الطَّعَام مَا يأكُلُه الأَصِحَّاءُ.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٣٢، ١١٨٧)، ومسلم (٧٧٧)، من حديث عبد الله بن عمر، بلفظ: «اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبورًا».

ورَأَيْتُ فِي زُهَّادِنا مَن يُصلِّي الفَجْر يَوْمَ الجُمُعةِ بالنَّاسِ ويَقْرَأُ المُعَوِّذتين، والمَعنىٰ: قَدْ خَتَمْتُ!

فَإِنَّ هَذِهِ الأَعْمالَ هِي صَرِيحَةٌ فِي النِّفاقِ والرِّياءِ.

وفِيهِم: مَن يَأْخُذُ الصَّدقاتِ وهُوَ غَنِيٌّ، ولا يُبالِي أَخَذَ مِن الظَّلَمَةِ أَوْ مِن أَهْل الخَيْر، ويَمْشِي إِلىٰ الأُمراء يَسْأَلُهم، وهُوَ يَدْرِي مِن أَيْنَ حَصَلَتْ أموالُهُم.

فاللهَ اللهَ فِي إِصْلاح النِّيَّاتِ؛ فَإِنَّ جُمْهُورَ هَذِهِ الأَعْمَالِ مَرْدُودٌ. قال مَالكُ بنُ دِينارٍ: «وقُولُوا لِمَن لَمْ يَكُنْ صَادِقًا: لا يَتَعَنَّىٰ!».

وليعلَم المُرائي أَنَّ الَّذِي يَقْصِدُه يفُوتُه، وهُوَ الْتِفاتُ القُلُوب إِلَيْهِ؛ فإِنَّه مَتَىٰ لَمْ يُخلِصْ حُرِم مَحبَّة القُلُوب، ولَمْ يلتَفتْ إِلَيْهِ أحدٌ، والمُخلصُ مَحْبُوبٌ، فلو عَلمَ المُرائِي أَنَّ قُلُوبَ الَّذِينَ يُرائِيهم بيدِ مِن يعصِيهِ؛ لَمَا فَعَل.

وكَمْ رَأَيْنا مَن يَلْبسُ الصُّوفَ ويُظهرُ النُّسُكَ؛ لا يُلْتَفتُ إِلَيْهِ، وآخرُ يلبسُ جيِّدَ الثِّيابِ ويَبتسِمُ؛ والقُلُوبُ تُحِبُّه.

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ إخلاصًا يخلِّصُنا، ونستعيذُ بِهِ مِن رياءٍ يُبطلُ أعمَالنا؛ إِنَّهُ قادرٌ.

﴿ فَصْل ﴾

مِن الجَهْلِ أَنْ يَخْفَى عَلَى الإِنْسَانِ مُرادُ التَّكْلِيفِ

فإِنَّهُ مَوْضُوعٌ عَلَىٰ عَكْسِ الأَغْرَاضِ!

فيَنْبغِي للعَاقِلِ أَنْ يَأْنسَ بانْعِكاسِ الأَغْرَاض، فَإِن دَعَا وسَأَل بلوغَ غرضٍ تعبَّد اللهَ بالدُّعَاء، فَإِنْ أُعْطِي مُرادُه شَكَر، وإِنْ لَمْ يَنَلْ مُرادَه فَلا يَنْبغِي أَنْ يُلِحَّ فِي الطَّلَب؛

لأنَّ الدُّنْيَا لَيسَتْ لِبلوغِ الأغْرَاضِ، ولْيَقُلْ لنَفْسِه: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

مِن أَعْظَم الجَهْلِ أَنْ يَمْتَعِضَ فِي بَاطِنِه لانعكَاسِ أغرَاضِه، ورُبَّما اعترَض فِي البَاطِنِ، أوْ رُبَّمَا قَالَ: حُصُولُ غرَضِي لا يَضُرُّ، ودُعائِي لَمْ يُستجَب! وهَذَا كُلُّه دَلِيلٌ عَلَىٰ جَهلِه وقِلَّةِ إيمانِه وتَسْلِيمِه للحِكمَةِ؛ ومَن الَّذِي حصَلَ لَهُ غَرَض ثُمَّ لَمْ يُكَدَّرْ؟!

هَذا آدَمُ طَابَ عَيشُه فِي الجَنَّة وأُخْرِجَ مِنهَا، ونوحٌ سَأَلَ فِي ابْنِه فَلم يُعطَ مُرادَه، والخَلِيلُ ابتُلي بالنَّار، وإسماعيلُ بالذَّبح، ويعقُوبُ بفَقْدِ الولَد، ويُوسُفُ بمُجاهَدةِ الهَوَىٰ، وأيُّوبُ بالبَلاءِ، ودَاودُ وسُليمَانُ بالفِتنةِ، وجَمِيعُ الأنْبِيَاء عَلَىٰ هَذا. وأمَّا مَا لَقِي نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ مِن الجُوعِ والأَذَىٰ وكدَرِ العَيْشِ؛ فمَعْلُومٌ.

فالدُّنْيَا وُضِعَتْ للبلاءِ؛ فيَنْبَغِي للعَاقِلِ أَنْ يُوطِّن نَفسه عَلَىٰ الصَّبْر، وأنْ يعلمَ أَنَّ مَا حَصلَ مِن المُرَاد فلُطْفٌ، ومَا لَمْ يَحْصُلْ فعلَىٰ أَصْلِ الخَلْقِ والجِبلَّةِ للدُّنْيَا.

كَمَا قِيلَ:

طُبِعَتْ عَلَىٰ كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا ** صَفْوًا مِنَ الأَقْذَاءِ وَالأَكْدَارِ
وَمُكَلِّفُ الأَيَّامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا ** مُتَطَلِّبٌ فِي المَاءِ جَذْوَةَ نَارِ

وها هُنا تتبيَّن قُوَّةُ الإيمَان وضَعفُهُ؛ فَلْيستعمل المُؤمِنُ مِن أَدْوِيةِ هَذَا المَرَض التَّسْلِيمَ للمالكِ، والتَّحكيمَ لحِكْمَتِه، ولْيَقُلْ: قَدْ قِيلَ لسَيِّد الكُلِّ: ﴿ لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، ثُمَّ لِيُسَلِّ نَفْسَه بأنَّ المَنْع لَيسَ عَنْ بُخْل، وإنَّمَا هُوَ لمصلحةٍ لا يعلَمها، ولِيُؤْجَرَ الصَّابرُ عَنْ أَغراضِه، ولِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ سلَّموا ورضُوا، ثُمَّ إنَّ زَمَن الابتلاء مِقْدَارٌ يَسِيرٌ، والأغْرَاضُ مُدَّخَرَةٌ تُلْقَىٰ بَعدَ قَلِيلٍ، وكَأنَّه بالظُّلْمَة قَدْ انجلَتْ، وبفَجْرِ الأَجْرِ قَدْ طَلَعَ.

ومتىٰ ارتَقَىٰ فَهْمُه إلىٰ أن مَا جَرَىٰ مُرادُ الحَقِّ سُبْحَانَه؛ اقتضىٰ إيمَانُه أَنْ يُرِيدَ مَا يُرِيدُ، ويرضَىٰ بِمَا يُقَدِّرُ؛ إذْ لَوْ لَمْ يَكُنْ كذَلِكَ كَانَ خَارِجًا عَنْ حَقِيقَةِ العُبوديَّةِ فِي المَعنَىٰ.

وهَذَا أَصْلٌ يَنْبغِي أَنْ يُتَأَمَّل، ويُعْمَلَ عَلَيهِ فِي كُلِّ غَرَضٍ انْعكَسَ.

❁ فَصْل ❁

رَأَيْتُ خَلْقًا مِن العُلَمَاءِ والقُصَّاصِ تَضِيقُ عَلَيهِمُ الدُّنْيَا، فَيفْزَعُونَ إلى مُخَالَطَةِ السَّلَاطِينِ لِيَنَالُوا مِن أَمْوَالِهِمْ!

وهُم يعلمُونَ أَنَّ السَّلاطِينَ لا يكادُون يأخذُون الدُّنْيَا مِن وَجْهِها، ولا يُخْرِجُونَها فِي حَقِّها؛ فَإِنَّ أَكْثَرهُم إِذَا حَصَل لَهُ خَراجٌ يَنْبغِي أَنْ يُصْرَفَ إلىٰ المَصَالِحِ؛ وَهَبَهُ لشَاعرٍ! ورُبَّما كَانَ مَعهُ جُنديٌّ يصلُحُ أَنْ تكُون مُشاهرَتُهُ[١] عَشْرَةَ دَنانِيرَ، فَأَعْطَاهُ عَشرَةَ آلافٍ! ورُبَّما غزَا؛ فأخذَ مَا يَنْبغِي أَنْ يُقسَم عَلَىٰ الجيشِ فَاصْطَفَاه لنَفْسِه! هَذَا غيْرُ مَا يَجْرِي مِن الظُّلْم فِي المُعامَلاتِ.

وأوَّل مَا يَجْرِي عَلَىٰ ذَاكَ العَالِم أَنَّهُ قَدْ حُرِمَ النَّفْعَ بعِلمِهِ، وقَد رَأَىٰ بَعْض الصَّالِحِينَ رجلًا عَالمًا يَخْرُجُ مِن دَار يَحْيَىٰ بنِ خَالِدٍ البَرْمَكيِّ، فَقَالَ: أَعُوذُ باللهِ مِن عِلْمٍ لا يَنْفَعُ.

كَيفَ؛ أَلَمْ يَرَ المُنْكراتِ ولا يُنْكِر؟! ويتَنَاوَلُ مِن طَعَامِهِم الَّذِي لا يكادُ يَحْصُل إلَّا بظلمٍ؛ فينطَمِسَ قَلْبُهُ ويُحْرَمَ لَذَّةَ المُعَاملَة للحقِّ سُبْحَانَه، ثُمَّ لا يُقدِّر أَنْ يهتديَ بِهِ أحدٌ؟! بَلْ رُبَّمَا كَانَ فِعْلُ هَذَا سببًا لإضْلالِ النَّاسِ، وصَرْفِهِم عَن الاقْتِدَاء بِهِ!

---

(١) أي: أجرته عن كل شهر.

فَهُو يُؤذِي نَفْسَه، ويُؤذِي أمِيرَه؛ لأنَّهُ يَقُولُ: لَوْلا أنَّنِي عَلَىٰ صَوابٍ مَا صَحِبَنِي، ولأَنْكَرَ عَلَيَّ، ويُؤذِي العَوامَّ؛ تارةً بأنْ يَرَوْا أَن مَا فِيهِ الأَمِيرُ صَوابٌ، وتارةً بأنَّ الدُّخُول عَلَيهِ والسُّكُوتَ عَن الإِنْكَار جائزٌ، أَوْ يُحببُ إِلَيْهِمُ الدُّنْيا، ولا خَيْرَ -واللهِ- فِي سَعَةٍ مِن الدُّنْيَا ضَيَّقَتْ طَرِيقَ الآخِرَةِ.

وأَنَا أَقْتَدِي أَقْوَامًا صَابرُوا عَطَشَ الدُّنْيَا فِي هَجِيرِ الشَّهَواتِ زَمَانَ العُمُرِ حَتَّىٰ رُوُوا يَوْمَ المَوْتِ مِن شرَابِ الرِّضَىٰ، وبقِيَتْ أَذكَارُهُم تُرْوَىٰ فتَرْوِي صَدَأَ القُلُوبِ، وتَجْلُو صَدَاهَا.

هذا الإِمَامُ أَحْمَد؛ يَحْتَاجُ، فيَخْرُجُ إلىٰ اللِّقاطِ، ولا يقبلُ مَالَ سُلطَانٍ. هذا إِبْرَاهِيمُ الحَربيُّ؛ يتغذَّىٰ بالبَقْل، ويردُّ عَلَىٰ المُعْتَصِمِ ألفَ دينارٍ. هذا بِشرٌ الحَافِي؛ يشْكُو الجُوع، فيُقَالُ لَهُ: يُصنعُ لَكَ حِساءٌ من دَقيقٍ؟ فيقُولُ: أَخَافُ أَنْ يَقُولَ اللهُ لي: هَذَا الدَّقيقُ مِن أَيْنَ لكَ؟!

بَقِيَتْ - واللهِ - أذكارُ القَوْمِ، ومَا كَانَ الصَّبْر إِلَّا غفوةَ نَوْمٍ، ومضَت لذَّاتُ المُتَرَخِّصينَ، وبَلِيتِ الأبْدَانُ، ووَهَنَ الدِّينُ، فالصَّبْرَ الصَّبْرَ يَا من وفِّقَ! ولا تَغْبِطَنَّ مَن اتَّسعَ لَهُ أمرُ الدُّنْيَا؛ فإنَّكَ إِذَا تَأَمَّلتَ تِلْكَ السَّعةَ رَأَيْتَها ضِيقًا فِي بَابِ الدِّينِ! ولا تُرَخِّص لنَفْسكَ فِي تَأْوِيلٍ؛ فعُمرُكَ فِي الدُّنْيَا قَلِيلٌ:

وَسَــوَاءٌ إِذَا انْقَــضَىٰ يَــوْمُ كِــسْرَىٰ ** فِــي سُــرُورٍ وَيَــوْمُ صَــابِرٍ كِــسْرَهْ

ومَتىٰ ضَجَّتِ النَّفْسُ لقلَّةِ صَبْرٍ؛ فَاتْلُ عليْهَا أَخْبَارَ الزُّهَّادِ؛ فإِنَّها تَرْعَوِي وتَسْتَحِي وتَنْكِسرُ إِنْ كَانَتْ لَهَا هِمَّةٌ أَوْ فِيهَا يَقظَةٌ، ومَثِّلْ لَهَا بينَ تَرَخُّص عَلِيِّ بْن المَدينِي وقَبولِه مَالَ ابنِ أَبِي دُؤَادٍ، وصَبرِ أَحْمَدَ، وكَمْ بينَ الرَّجُلين والذِّكْرَين، وانظُرْ مَا يُرْوَىٰ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنهُما ومَا يُذكَران بِهِ، وسَينْدَم ابنُ المَدينِيِّ إِذَا قَالَ أحمدُ: سَلِمَ لِي دِينِي.

❁ فَصْل ❁

تَأَمَّلْتُ أَحْوَالَ النَّاسِ؛ فَرَأَيْتُ جُمْهُورَهُم مُنْسَلًّا مِن رِبْقَةِ العُبُودِيَّةِ!

فَإِنْ تعبَّدُوا؛ فعادةٌ، أَوْ فِيمَا لا يُنافِي أَغْرَاضَهُم مُنافاةً تُؤذِي القُلُوبَ.

فأَكْثَرُ السَّلاطينِ يُحصِّلون الأمْوالَ مِن وُجوهٍ رَدِيَّةٍ، وينفِقُونَها فِي وجُوهٍ لا تَصلُحُ، وكأَنَّهُم قَدْ تَمَلَّكُوها، ولَيْسَتْ مَالَ اللهِ! الَّذِي إِذَا غزا أحدُهم باسْمِه، فغَنَمَ الأموَالَ؛ اصطَفاها لنَفْسِه، وأعطَاها أَصْحَابَه كَيْفَ اشتَهَىٰ!

والعُلَمَاءُ - لِقوَّةِ فَقْرِهم وشِدَّة شَرَهِهِم - يُوافقونَ الأُمَرَاءَ، ويَنْخَرِطُون فِي سِلْكِهم!

والتُّجارُ عَلَىٰ العُقُودِ الفَاسِدَةِ، والعَوامُّ فِي المَعاصِي والإهمَالِ لجانبِ الشَّرِيعَةِ؛ فَإِنْ فاتَ بَعْضُ أَغرَاضِهم فرُبَّمَا قَالُوا: مَا نُرِيدُ نُصلِّي! لا صلَّىٰ اللهُ عَلَيهم، وقَد منعُوا الزَّكَاةَ، وتركُوا الأَمْرَ بالمَعْرُوفِ!

فمِنَ النَّاس مَن يَغُرُّه تَأخِيرُ العُقُوبَةِ، ومِنْهُم مَن كَانَ يَقْطَعُ بالعَفوِ، وأَكْثَرُهم مُتَزَلْزِلُ الإِيمَانِ؛ فنَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُميتَنا مُسلِمِينَ.

❁ فَصْل ❁

مِن العَجِيبِ سَلامَةُ دِينِ ذِي العِيالِ إِذَا ضَاقَ بِهِ الكَسْبُ!

فَمَا مَثَلُه إِلَّا كمَثَلِ المَاءِ؛ إِذَا ضُرِبَ فِي وَجهِه سَكْرٌ فإِنَّه يَعْمَلُ باطنًا، ويُبالِغُ حَتَّىٰ يَفْتَح فَتْحَةً؛ فكَذَلكَ صَاحِبُ العِيال؛ إِذَا ضاقَ بِهِ الأَمْرُ لا يَزَالُ يَحتالُ، فَإِذَا لَمْ يَقْدِرْ عَلَىٰ الحَلالِ ترخَّصَ فِي تناوُل الشُّبُهاتِ، فَإِنْ ضَعُفَ دِينُه مدَّ يدَهُ إِلىٰ الحَرَام.

فالمُؤمِنُ إِذَا عَلمَ ضَعْفَه عَن الكَسبِ؛ اجتَهدَ فِي التَّعفُّف عَن النِّكَاح، وتَقليلِ النَّفقةِ إِذَا حَصَلَ الأولادُ، والقَناعةِ باليَسيرِ.

فأَمَّا من لَيسَ لَهُ كَسبٌ - كالعُلَمَاء والمُتزَهِّدينَ - فسَلامتُهم ظَريفةٌ؛ إذْ قَد انْقطَعتْ مواردُ السَّلاطِينِ عَنْهُم ومُراعاةُ العَوامِّ لَهُمْ، فَإذَا كثُرَت عائلتُهم لَمْ يؤمَنْ عَلَيهِم شَرٌّ مَا يجْرِي عَلَىٰ الجُهَّال.

فمَنْ قَدَرَ مِنهُم عَلَىٰ كسبٍ بالنَّسخ وغيره؛ فليَجتهِد فِيهِ، مع تَقليلِ النَّفقَة، والقَناعَةِ باليَسيرِ؛ فإِنَّه مَن ترخَّص مِنهُم اليَوْمَ أكلَ الحَرَام؛ لأَنَّهُ يَأْخُذُ مِن الظَّلَمَة، خُصوصًا بحُجَّة التَّنمُّس والتَّزهُّد، ومن كَانَ لَهُ مِنهُم مَالٌ؛ فليَجتهِدْ فِي تَنميتِه وحِفظِه، فَمَا بقِيَ مَن يُؤْثِرُ ولا من يُقرِض، وقَدْ صَارَ الجُمهُورُ - بَل الكُلُّ - كأَنَّهم يعبُدونَ المَالَ، فمَنْ حَفِظَه حَفظَ دِينَه، ولا يلتفتْ إلىٰ قَوْل الجَهْلةِ، الَّذِينَ يَأمُرونَ بإخرَاج المَال؛ فَمَا هَذَا وَقتُه.

واعْلَمْ؛ أَنَّهُ إِذَا لَمْ يجتمِع الهَمُّ، لَمْ يحصُل العِلْمُ ولا العَمَلُ ولا التَّشَاغُل بالفِكرِ فِي عَظمةِ الله، وقَد كَانَ هَمُّ القُدمَاءِ يَجتمِع بأشياءَ؛ جُمهُورُها: أَنَّهُ كَانَ لَهُم مِن بيتِ المَال نَصيبٌ فِي كُلِّ عَامٍ، وكَانَ يصِلُهم فيفضُلُ عنهم. وفِيهِم: من كَانَ لَهُ مَالٌ يتَّجر بِهِ؛ كسَعيد بْن المُسيِّب وسُفيَانَ وابنِ المُبَارَك، وكَانَ همُّه مُجتمعًا.

وقَد قَالَ سُفيَانُ فِي مالِهِ: «لولاكَ لتَمندَلُوا بي». وفُقِدَتْ بضاعةٌ لابنِ المُبَارَك، فبَكَىٰ وقَالَ: «هُوَ قِوَامُ دِينِي». وكَانَ جَمَاعَةٌ يسكُنونَ إلىٰ عطاءِ الإخْوَانِ الَّذِينَ لا يمنُّونَ. وكَانَ ابن المُبَارَك يبعث إلىٰ الفُضَيل وغيرِه. وكَانَ اللَّيث بن سَعدٍ يتفَقَّدُ الأكَابرَ، فبعثَ إلىٰ مالكٍ ألفَ دينارٍ، وإلىٰ ابنِ لهيعةَ ألفَ دينارٍ، وأَعْطَىٰ مَنصُورَ بنَ عمَّارٍ ألفَ دينارٍ وجاريةً بثَلاثمَائةِ دِينارٍ.

وما زَالَ الزَّمَان عَلَىٰ هَذَا، إلىٰ أَن آل الأَمْرُ إلىٰ انمِحاقِ ذَلِكَ، فَقَلَّتْ عَطايا السَّلاطينِ، وقَلَّ مَن يُؤْثِرُ مِن الإِخْوَانِ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ فِي ذَلِكَ القليل مَا يدفعُ عضَّ الزَّمَان، فأَمَّا زَمانُنا هَذَا؛ فَقد انقبَضت الأَيْدِي كُلُّها، حَتَّىٰ قَلَّ مَن يُخرج الزَّكَاةَ الوَاجِبَةَ! فكَيفَ يجتمعُ هَمُّ مَن يُرِيدُ مِن العُلَمَاءِ والزُّهَّاد أَنْ يُعْمِلَ همَّه ليلًا ونَهارًا فِي وُجُوهِ الكَسْب، ولَيْسَ مِن شَأْنِه هذا، ولا يَهْتَدي لَهُ؟!

فقد رَأَيْنَا الأَمْرَ أَحْوجَ إلىٰ التَّعرُّض للسَّلاطينِ، والتَّرخُّصِ فِي أَخْذِ مَا لا يصلح، وأَحْوجَ المُتزَهِّدينَ إلىٰ التَّصنُّع لتَحْصِيل الدُّنْيَا.

فاللهَ اللهَ يَا مَن يُرِيدُ حِفظَ دِينِه! قَدْ كرَّرتُ عَلَيْك الوصِيَّةَ بتقليل جَهدِك، وخفِّف العَلائِقَ مهما أمكَنكَ، واحتفظ بدِرهمٍ يَكُونُ معكَ، فإِنَّه دينُك، وافهمْ مَا قَدْ شَرَحتُه.

فَإِنْ ضجَّت النَّفْسُ لمُراداتِها؛ فقُلْ لَهَا: إنْ كَانَ عِنْدك إيمانٌ فاصْبري، وإنْ أردتِ التَّحصِيلَ لِمَا يفنىٰ ببَذلِ الدِّين؛ فَمَا ينفعُكِ، فتفكَّري فِي العُلَمَاء الَّذِينَ جمَعُوا المَالَ مِن غَيْرِ وَجْهِه، وفِي المُنَمِّسِينَ؛ ذَهَبَ دِينُهم، وزَالَتْ دُنياهُم، وتفكَّري فِي العُلَمَاء الصَّادقين - كأَحْمَد وبِشْرٍ - اندَفعتِ الأَيَّامُ، وبَقِي لَهُم حُسْنُ الذِّكْر.

وفِي الجُمْلَة: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، ورِزْقُ اللهِ قد يكونُ بتَيْسِيرِ الصَّبْرِ علىٰ البَلاءِ، والأَيَّامُ تَنْدَفِعُ، وعاقِبةُ الصَّبرِ الجَمِيلِ جَمِيلَةٌ.

فَصْل

شَكَا لِي رَجُلٌ مِن بُغْضِهِ لزَوْجَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: مَا أَقْدِرُ عَلَى فِرَاقِهَا؛ لأُمُورٍ:

مِنهَا: كَثْرَةُ دَيْنِهَا عَليَّ، وصَبْرِي قَلِيلٌ، ولا أَكَادُ أَسْلَمُ مِن فَلَتَاتِ لِسَانِي فِي الشَّكْوىٰ، وفِي كَلِمَاتٍ تَعْلَمُ بُغْضِي لَهَا

فَقُلتُ لَهُ: هَذَا لا ينفعُ، وإِنَّمَا تُؤتَىٰ البُيوتُ مِن أَبْوابِها، فيَنْبغِي أَنْ تخلوَ بنَفْسكَ، فتعلمَ أَنَّهَا إِنَّمَا سُلِّطت عَلَيْك بذُنوبِك؛ فتُبالِغَ فِي الاعتِذَارِ والتَّوْبَةِ.

فأَمَّا التَّضجُّر والأَذَىٰ لَهَا؛ فَمَا ينفعُ؛ كَمَا قَالَ الحَسنُ بنُ الحجَّاجِ: «عُقُوبَةٌ مِن اللهِ لَكُم، فَلا تُقابِلُوا عقُوبَتَهُ بالسَّيفِ، وقَابِلُوها بالاستِغفَارِ».

واعْلَمْ؛ أَنَّكَ فِي مقامِ مُبتلًىٰ، ولكَ أجرٌ بالصَّبْر: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢١٦]، فعامِلِ اللهَ سُبْحَانَه بالصَّبرِ عَلَىٰ مَا قَضَىٰ، واسْأَلْهُ الفَرجَ.

فَإِذَا جَمعتَ بينَ الاستِغفارِ وبينَ التَّوْبَة مِن الذُّنُوب والصَّبْرِ عَلَىٰ القَضَاء وسُؤالِ الفرَجِ؛ حصَّلتَ ثلاثَةَ فنُونٍ مِن العِبادَةِ، تُثابُ عَلَىٰ كُلٍّ مِنهَا.

ولا تُضيِّع الزَّمَانَ بشَيْءٍ لا ينفعُ، ولا تَحْتَلْ ظَنًّا منكَ أَنَّكَ تدفَع مَا قُدِّرَ: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾ [الانعام: ١٧].

وقَدْ رُوِّينا أَنَّ جُنديًّا نزلَ يَومًا فِي دَارِ أَبي يَزيدَ، فجَاءَ أَبُو يزيدَ فرآهُ، فوقَفَ وقَالَ لبعضِ أَصْحَابه: ادخُل إلىٰ المكانِ الفُلانِيِّ، فاقلَع الطِّين الطَّريَّ؛ فإِنَّه مِن وَجْهٍ فِيهِ شُبهَةٌ، فقلَعهُ، فخَرجَ الجُنديُّ.

وأَمَّا أَذَاكَ للمَرأةِ؛ فَلا وَجْهَ لَهُ؛ لأَنَّهَا مُسلَّطة؛ فليَكُن شغلُك بغَيْرِ هَذا.

وقَدْ رُوِي عَنْ بَعْض السَّلَف أَنَّ رَجلًا شتَمَه، فوضَعَ خدَّه عَلَىٰ الأَرْضِ وقَالَ: اللَّهُمَّ اغفِر لِيَ الذَّنْبَ الَّذِي سَلَّطتَ هَذَا بِهِ عليَّ.

قالَ الرَّجلُ: وهَذِهِ المَرْأَةُ تُحبُّني زَائدًا فِي الحدِّ، وتُبالغُ فِي خِدمَتي، غَيْرَ أَنَّ البُغضَ لَهَا مَرْكُوزٌ فِي طَبعِي.

قلتُ لَهُ: فعامِلِ اللهَ سُبْحَانَه بالصَّبرِ عَليْهَا؛ فإنَّك تُثابُ، وقَدْ قِيلَ لأبي عُثمانَ النَّيسابُوريِّ: مَا أَرْجَىٰ عَمَلَكَ عِندَكَ؟ قَالَ: كُنْتُ فِي صَبْوَتِي يجْتَهِدُ أَهْلِي أَنْ أَتزَوَّج؛ فآبَىٰ، فجَاءَتْني امرأةٌ، فَقَالَت: يَا أَبَا عُثمان، إنِّي قَدْ هَوَيتُكَ، وأنَا أسألُكَ باللهِ أَنْ تتزوَّجَني، فأَحْضَرَتْ أَبَاها - وكَانَ فقيرًا - فزوَّجني مِنهَا، وفرحَ بذَلِك، فَلَمَّا دَخَلَتْ إليَّ رأَيْتُها عوراءَ عَرجَاءَ مُشوَّهةً، وكَانَت - لمحبَّتِها لي - تَمْنَعُنِي مِن الخُروجِ، فأَقْعُدُ حِفْظًا لقَلبِها، ولا أُظهِر لَهَا مِن البُغضِ شَيئًا، وكأنِّي عَلَىٰ جَمْرِ الغَضَا مِن بُغضِها، فبَقيتُ هَكذَا خَمسَ عَشْرَة سَنَة حَتَّىٰ ماتَت؛ فَمَا مِن عَملِي شَيْءٌ هُوَ أَرْجَىٰ عِنْدِي مِن حِفْظِي قَلْبَها.

قلتُ لَهُ: فهَذَا عملُ الرِّجَال، وأيُّ شَيْءٍ ينفعُ ضَجيجُ المُبتلَىٰ بالتَّضجُّر وإظهارِ البُغضِ، وإنَّمَا طَريقُه مَا ذَكَرْتُه لَكَ مِن التَّوْبَةِ والصَّبْرِ وسؤالِ الفَرَج، وتَذَكَّرْ ذُنوبًا كَانَتْ هَذِهِ عُقوبَتَها، وبالِغْ؛ فَإِنْ وقعَ فرَجٌ فشَيْءٌ كأنَّه لَيسَ فِي الحِسابِ، وإلَّا فاسْتِعْمَال الصَّبْرِ عَلَىٰ القَضَاءِ عِبادَةٌ، وتكلَّفْ إظهَارَ المودَّةِ لَهَا - وإنْ لَمْ تكُن فِي قَلْبكَ - تُثَبْ عَلَىٰ هذا، ولَيْسَ القَيدُ ذَنبًا فيلامُ، إنَّمَا يَنْبغِي التَّشَاغُل مع مَنْ قيَّدك بِهِ، والسَّلام.

* * *

❁ فَصْل ❁

لا رَيْبَ أَنَّ القَلْبَ المُؤمِنَ بالإلَهِ سُبْحَانَه وبأَوَامِرِهِ يَحْتَاجُ إلى الانْعِكَافِ عَلَى ذِكْرِهِ وطَاعَتِهِ وامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ، وهَذَا يَفْتَقِرُ إلى جَمْعِ الهَمِّ

وكَفَىٰ بِمَا وُضِعَ فِي الطَّبْع مِن المُنازَعَةِ إلىٰ الشَّهَواتِ مُشَتِّتًا للهَمِّ المُجْتَمِع.

فيَنْبغِي للإنْسَانِ أَنْ يجْتَهِدَ فِي جَمْع هَمِّه؛ لينفَرِدَ قلبُه بذِكرِ اللهِ ﷻ، وإنفَاذِ أَوَامِره، والتهيُّؤِ للِقَائِه، وذَلِكَ إنَّمَا يَحصُل بقَطعِ القَواطِع، والامتِناعِ عَنِ الشَّواغِل، ومَا يُمكِنُ قَطعُ القَواطِع جُملةً، فيَنْبغِي أَنْ يُقطعَ مَا يُمكنُ مِنْها.

ومَا رَأيتُ مُشتِّتًا للهَمِّ، مُبدِّدًا للقَلبِ؛ مثلَ شَيئينِ:

أحَدُهُمَا: أَنْ تُطاعَ النَّفْسُ فِي طَلَبِ كُلِّ شَيْءٍ تَشتَهِيه، وذَلِكَ لا يوقَفُ عَلَىٰ حدٍّ فِيهِ، فيُذهب الدِّين والدُّنْيَا ولا يُنالُ كُلُّ المُرَاد، مثلُ أَنْ تَكُونَ الهِمَّةُ فِي المُستَحسَنَات، أوْ فِي جَمعِ المَالِ، أوْ فِي طَلَبِ الرِّياسَة، ومَا يُشبِه هَذِهِ الأَشْيَاءِ! فيا لَهُ من شَتاتٍ لا جَامِعَ لَهُ؛ يُذهِبُ العُمرَ ولا يُنالُ بَعْض المُرَاد مِنهُ!

والثَّانِي: مُخَالطَةُ النَّاسِ -خُصوصًا العَوامَّ- والمشيُ فِي الأسوَاقِ؛ فَإنَّ الطَّبْع يتقَاضَىٰ بالشَّهَواتِ، ويَنْسَىٰ الرَّحيلَ عَنِ الدُّنْيَا، ويحِبُّ الكَسَلَ عَنِ الطَّاعَة، والبَطالَةُ، والغَفْلَةُ، والرَّاحَةُ؛ فيَثقُلُ عَلَىٰ مَن أَلِفَ مُخَالطَة النَّاس التَّشَاغُلُ بالعِلْمِ أوْ بالعِبادَةِ، ولا يَزَالُ يُخالِطُهم حَتَّىٰ تهونَ عَلَيهِ الغِيبَةُ، وتَضيعُ السَّاعَاتُ فِي غَيْرِ شَيْءٍ.

فمَنْ أرادَ اجتِماعَ همِّه؛ فعَليهِ بالعُزلَة، بحيثُ لا يَسمعُ صَوتَ أحدٍ؛ فحِينئِذٍ يَخْلُو القَلْب بمَعارِفِه، ولا تَجدُ النَّفْسُ رَفِيقًا مثلَ الهَوىٰ يُذكِّرها مَا تَشتَهي، فَإِذَا اضْطُرَّ إلىٰ المُخَالطَةِ؛ كَانَ عَلَىٰ وفَاقٍ؛ كَمَا تتهوَّىٰ الضُّفدَعُ لَحْظَةً ثُمَّ تعودُ إلىٰ المَاءِ؛ فهَذِهِ طَرِيقُ السَّلامَةِ؛ فتَأمَّل فَوائدَها تَطِبْ لكَ.

فَصْلٌ

ما رَأَتْ عَيْنِي مُصِيبَةً نَزَلَتْ بالخَلْقِ أعْظَمَ مِن سَبِّهِمْ للزَّمَانِ وعَيْبِهِمْ للدَّهْرِ

وقَدْ كَانَ هَذَا فِي الجَاهِلِيَّة، ثُمَّ نَهىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: «**لا تَسبُّوا الدَّهرَ؛ فَإِنَّ الله هُوَ الدَّهرُ**»(١)، ومَعناهُ: أنتُم تسُبُّون مَن فرَّقَ شَملَكُم، وأماتَ أهالِيَكُم، وتَنْسِبُونَه إلىٰ الدَّهرِ، واللهُ تَعالَىٰ هُوَ الفَاعِل لِذلِكَ.

فتعجَّبتُ؛ كَيْفَ علِمَ أَهْلُ الأَسْقَامِ بِهَذِهِ الحَال، وهُمْ عَلَىٰ مَا كَانَ أَهْلُ الجَاهِلِيَّة عَلَيهِ، مَا يتغيَّرون، حَتَّىٰ رُبَّمَا اجتمعَ الفُطنَاء الأُدباء الظُّرافُ -عَلَىٰ زَعمِهِم- فَلم يَكُنْ لَهُم شُغلٌ إلَّا ذمَّ الدَّهرِ! ورُبَّما جَعلُوا اللهَ الدُّنْيَا، ويَقُولُونَ: فَعلَتْ وصَنعَتْ!! وحتَّىٰ رَأيْتُ لأبي القَاسِم الحَريريِّ يَقُولُ:

وَلَمَّا تعَامَىٰ الدَّهْرُ وَهْوَ أَبُو الرَّدَىٰ ** عَنِ الرُّشْدِ فِي أَنْحَائِهِ وَمَقَاصِدِهْ
تَعَامَيْتُ حَتَّىٰ قِيلَ إِنِّي أَخُو عَمَىٰ ** وَلا غَرْوَ أَنْ يَحْذُو الفَتَىٰ حَذْوَ وَالِدِهْ

وقَدْ رَأيتُ خَلْقًا يعتَقدُون أنَّهُمْ فُقهَاءُ وفُهمَاءُ، ولا يتَحاشَونَ مِن هَذا؛ وهَؤُلاءِ إنْ أرَادُوا بالدَّهرِ مُرورَ الزَّمَان، فذاكَ لا اختِيارَ لَهُ ولا مُرادَ، ولا يَعْرِف رُشدًا مِن ضلالٍ، ولا يَنْبغِي أَنْ يُلامَ؛ فإنَّه زَمَانٌ مُدَبَّرٌ لا مُدَبِّرٌ، فيُتصرَّفُ فِيهِ ولا يَتَصرَّفُ بأحدٍ، وما يُظنُّ بعاقِلٍ أَنْ يُشِيرَ إلىٰ أَنَّ هَذَا المَذمُومَ المُعرِضَ عَن الرُّشْدِ السَّيِّءِ الحُكْمِ؛ هُوَ الزَّمَان!

فلَم يَبْقَ إلَّا أنَّ القومَ خرَجُوا عَنْ رِبقَة الإسْلامِ، ونسَبُوا هَذِهِ القَبائِحَ إلىٰ الصَّانِع، فاعتقَدُوا فِيهِ قُصورَ الحِكْمَة وفِعلَ مَا لا يَصحُّ، كَمَا اعتقَدَه إبْلِيسُ فِي تَفْضِيل آدَمَ!

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦١٨١)، ومسلم (٢٢٤٦) من حديث أبي هريرة.

وهَؤُلاءِ لا ينفَعُهم - معَ هَذَا الزَّيغ - اعْتِقَادُ إسلامٍ، ولا فِعْلُ صَلاةٍ؛ بلْ هُم شَرٌّ مِن الكُفَّار، لا أَصْلحَ الله لَهُم شَأْنًا، ولا هَداهُم إلىٰ رَشَادٍ.

❁ فصْل ❁

مِن عَجائبِ مَا أرَى مِن نَفْسِي ومِن الخَلْقِ كُلِّهِم: المَيْلُ إلَى الغَفْلَة عَمَّا فِي أَيْدِينَا

معَ العِلْمِ بقِصَرِ العُمرِ، وأنَّ زِيادَة الثوابِ هُنَاكَ بقدرِ العَمَل هَا هُنَا.

فيا قَصيرَ العُمرِ؛ اغتَنمْ يومَيْ مِنًىٰ، وانتَظرْ سَاعَة النَّفرِ، وإيَّاكَ أَنْ تَشْغَل قَلْبكَ بغَيْر مَا خُلِقَ لَهُ، واحمِلْ نَفْسكَ عَلَىٰ المُرِّ، واقْمَعْها إذَا أَبَتْ، ولا تُسرِّح لَهَا فِي الطِّوَلِ، فَمَا أنتَ إلَّا فِي مَرْعَىٰ، وقَبِيحٌ بمَنْ كَانَ بينَ الصَّفَّين أَنْ يَتشَاغَل بغَيْرِ مَا هُوَ فِيهِ.

❁ فصْل ❁

قَدْ كرَّرْتُ هَذَا المَعْنَى فِي هَذَا الكِتَابِ: وهُوَ الأَمْرُ بحِفْظِ السِّرِّ، والحَذَرُ مِن الانبِسَاطِ فِيمَا لا يَصْلُحُ بَيْنَ يَدي النَّاسِ

فرُبَّ مُنبَسطٍ بينَ يَدَيْ مَن يظنُّه صَديقًا، يَقُولُ فِي صَديقٍ، أوْ فِي سُلطانٍ يحسَبُ أَنَّهُ لا يهتمُّ فِي ذَلِكَ؛ فيَكُونُ سَببُ هَلاكِه ذَاكَ.

فأُوصِي السَّليمَ الصَّدر الَّذِي يظنُّ فِي النَّاس الخَيْر أَنْ يَحترزَ مِن النَّاس، وأَلَّا يَقُولَ فِي الخَلْق كَلِمَةً لا تَصلُح للخَلقِ، ولا يغترَّ بمَنْ يُظهِرُ الصَّداقَةَ أوْ التَّديُّنَ؛ فَقد عَمَّ الخبثُ.

فَصْلٌ

تَأَمَّلْتُ عَلَى أَكْثَرِ النَّاسِ عِبادَاتِهِم، فَإِذَا هِي عَاداتٌ

فَأَمَّا أَرْبَابُ اليَقَظَةِ؛ فَعَادَاتُهُم عِبادَةٌ حَقِيقِيَّةٌ.

فإِنَّ الغافِلَ يَقُولُ: سُبحانَ اللهِ! عادَةً، والمُتيقِّظَ لا يَزَال فِكْرُه فِي عَجائبِ المَخلوقَاتِ، أَوْ فِي عَظمَةِ الخَالِقِ؛ فيحرِّكُه الفِكرُ فِي ذَلِكَ، فيقولُ: سُبحانَ اللهِ!

ولو أَنَّ إنسانٌ تفكَّر فِي رُمَّانةٍ، فنظَر فِي تَصفِيفِ حَبِّها، وحِفْظِه بالأغشِيةِ لِئَلَّا يتضاءلَ، وإقَامَةِ المَاء عَلَىٰ عَظْمِ العَجَم، وجَعلِ الغِشاءِ عَلَيهِ يحفَظُه، وتَصويرِ الفَرخِ فِي بطنِ البيضَةِ، والآدميِّ فِي حشَا الأمِّ، إلىٰ غَيْر ذَلِكَ مِن المَخلوقاتِ؛ أزعجَه هَذَا الفِكرُ إلىٰ تَعظِيم الخَالِقِ، فَقَالَ: سُبحانَ اللهِ! وكَانَ هَذَا التَّسبيحُ ثمرَةَ الفِكرِ؛ فهَذَا تَسبيحُ المتيقِّظينَ، وما تَزالُ أفكارُهم تَجُولُ، فتقعُ عِبادَاتُهم بالتَّسبيحاتِ مُحقَّقةً.

وكَذَلِكَ يتفكَّرُون فِي قَبَائِح ذُنوبٍ قَدْ تقدَّمتْ؛ فيُوجِب ذَلِكَ الفِكرُ حَرَكةَ الباطِنِ وقلقَ القَلْبِ وندمَ النَّفْسِ؛ فيُثمِرُ ذَلِكَ أَنْ يَقُولَ قَائِلُهم: أستَغفرُ الله.

فهَذَا هُوَ التَّسبيحُ والاستِغفَار، فأَمَّا الغافِلُون؛ فيَقُولُونَ ذَلِكَ عادةً، وشتَّانَ مَا بين الفَريقَينِ.

۞ فَصْلٌ ۞

لا يَصْفُو التَّعبُّدُ والتَّزهُّدُ والاشْتِغَالُ بالآخِرَةِ إلَّا بالانْقِطَاعِ الكُلِّيِّ عَنِ الخَلْقِ

بحيثُ لا يُبصِرُهم، ولا يَسْمعُ كَلامَهُم إلَّا فِي وقتِ ضَرورةٍ؛ كصَلاةِ جُمُعةٍ أوْ جَماعةٍ، ويَحترزُ فِي تِلْكَ السَّاعَاتِ مِنهُم. وإنْ كَانَ عَالمًا يُريدُ نَفعَهم؛ وعدَهُم وَقتًا مَعرُوفًا، واحتَرَزَ فِي الكَلام معَهُم.

وأمَّا مَن يَمشِي فِي الأسْوَاق اليَوْمَ، ويبيعُ ويَشتَرِي مع هَذَا العَالَم المُظلِم، ويَرَىٰ المُنْكراتِ والمُستهجَنَات؛ فَمَا يعُودُ إلىٰ البيتِ إلَّا وقَدْ أظلَمَ القَلبُ؛ فَلا يَنْبغِي للمُريدِ أَنْ يَكُونَ خُروجُه إلَّا إلىٰ الصَّحراءِ والمَقابِر.

وقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِن السَّلَفِ يَبيعُونَ ويَشترُونَ ويحتَرزُونَ، ومع هَذَا مَا صَفَا لصَافِيهِم وقتٌ حَتَّىٰ قَاطَع الخَلْقَ. قالَ أَبُو الدَّردَاء: «زَاوَلْتُ العِبادَةَ والتِّجارَةَ، فَلمْ يَجتَمِعا، فاختَرتُ العِبادَةَ»، وقَد جَاءَ فِي الحَدِيث: «الأسواقُ تُلْهِي وتُلْغِي»[1].

فمَنْ قَدَرَ عَلَىٰ الحِمْيَةِ النَّافعَةِ، واضطُرَّ إلىٰ المُخَالطَةِ والكَسبِ للعَائِلَةِ؛ فليَحتَرِزِ احتَرازَ المَاشِي فِي الشَّوْكِ، وبعيدٌ سَلامَتُهُ.

---

(١) موقوف: أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ١٣٥) وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٧/ ١٧٧).
ومعناه في المرفوع من حديث قيس بن أبي غرزة: أتانا رسول الله ﷺ، ونحن في السوق، فقال: «إن هذه السوق يخالطها اللغو وحلف، فشوبوها بصدقة». أخرجه أحمد (١٦٢٣٣، ١٦٢٣٤، ١٨٦٥٩، ١٦٢٣٥، ١٦٢٣٦، ١٦٢٣٧، ١٦٢٣٨)، وأبو داود (٣٣٢٦، ٣٣٢٧)، وابن ماجه (٢١٤٥)، والترمذي (١٢٠٨)، والنسائي (٣٨٠٨) وهو صحيح.

فَصْلٌ

مَنْ رُزِقَ قَلْبًا طَيِّبًا، ولذَّةَ مُنَاجَاةٍ، فليُرَاعِ حَالَهُ، وليحتَرِزْ مِن التَّغيِيرِ وإنَّمَا تَدُومُ لَهُ حَالُهُ بدَوامِ التَّقوَى

وكُنتُ قَدْ رُزِقتُ قَلبًا طيِّبًا، ومُنَاجَاةَ خَلْوةٍ، فأَحضَرَنِي بَعْضُ أَرْبَابِ المَناصِب إلىٰ طَعامِه، فَمَا أمكَنَ خِلافُه، فتَناولتُ وأكَلتُ مِنْهُ، فلَقيتُ الشَّدائِدَ، ورَأَيْتُ العُقُوبَةَ فِي الحَالِ، واستمرَّتْ مُدَّةً، وغضِبتُ عَلَىٰ قَلبِي، وفَقدتُ كُلَّ مَا كُنْتُ أجِدُهُ.

فقُلْتُ: وا عَجَبًا! لَقَد كُنْتُ فِي هَذَا كَالمُكْرَهِ، فتَفكَّرْتُ؛ وإِذَا بِهِ قَدْ يُمكِنُ مُدارَاةُ الأَمْرِ بلُقَيمَاتٍ يَسيرةٍ، ولَكِنَّ التَأوِيلَ جَعلَ تَناوُل هَذَا الطَّعَام بشَهْوَةٍ أكْثَرَ مِمَّا يُدْفَعُ بالمُدارَاةِ.

فَقَالَتِ النَّفْسُ: ومِنْ أيْنَ لِي أَنَّ عينَ هَذَا الطَّعَام حَرامٌ؟

فَقَالَتِ اليَقَظَةُ: وأَيْنَ الوَرعُ عَنِ الشُّبُهاتِ؟

فلمَّا تَناوَلْتُ بالتَأوِيل لُقمَةً، واستَحليتُها بالطَّبْع؛ لَقيتُ الأَمَرَّينِ بفَقدِ القَلْبِ؛ فاعتَبِرُوا يَا أُولِي الأبْصارِ!

فَصْلٌ

هِمَّةُ المُؤْمِن مُتَعَلِّقَةٌ بالآخِرَةِ

فَكُلُّ مَا فِي الدُّنْيَا يُحَرِّكُهُ إلىٰ ذِكْرِ الآخِرَةِ، وكُلُّ مَن شَغَلَه شَيْءٌ؛ فَهِمَّتُهُ شُغْلُهُ.

ألا ترىٰ أَنَّهُ لَوْ دَخلَ أرْبَابُ الصَّنائعِ إلىٰ دَارٍ مُعمورةٍ؛ رَأيْتِ البزَّازَ يَنظرُ إلىٰ الفَرْشِ، ويحزرُ قِيمَتَه، والنَّجارَ إلىٰ السَّقفِ، والبنَّاءَ إلىٰ الحِيطانِ، والحَائكَ إلىٰ النَّسيجِ المَخِيط؟!

والمُؤمِنُ إِذَا رَأىٰ ظُلْمَةً ذكرَ ظُلْمَةَ القَبْرِ، وإنْ رَأىٰ مُؤْلِمًا ذكَر العِقابَ، وإنْ سَمعَ صوتًا فظِيعًا ذكرَ نفخَةَ الصُّورِ، وإنْ رَأىٰ النَّاسَ نِيامًا ذَكرَ المَوْتىٰ فِي القُبُور، وإنْ رَأىٰ لَذَّةً ذَكَرَ الجَنَّةَ؛ فهِمَّتُه مُتعلِّقَةٌ بِمَا ثَمَّ، وذَلِكَ يَشْغَلُه عَنْ كُلِّ مَا تَمَّ.

وأعْظَمُ مَا عِنْدهُ أَنَّهُ يتخَايلُ دَوامَ البقَاءِ فِي الجَنَّة، وأنَّ بقَاءَه لا يَنقَطِع ولا يزُولُ، ولا يعتَرِيه مُنغِّصٌ، فيكَادُ إِذَا تَخايلَ نَفْسَه مُتقلِّبًا فِي تِلْكَ اللَّذَّاتِ الدَّائمةِ الَّتِي لا تَفنَىٰ يَطيشُ فرحًا، ويَسهُلُ عَلَيهِ مَا فِي الطَّرِيق إِلَيهَا مِن ألمٍ، ومرَضٍ، وابتِلاءٍ، وفَقدِ مَحبوبٍ، وهُجومِ المَوْتِ، ومُعالَجةِ غُصَصِه.

فإنَّ المُشتاقَ إلىٰ الكَعْبَةِ يَهونُ عَلَيهِ رَمْلُ زَرُودَ[1]، والتَّائقَ إلىٰ العَافِيَةِ لا يُبالِي بمرَارَةِ الدَّواءِ.

ويعلَمُ أَنَّ جَوْدَة الثَّمرِ ثَمَّ عَلَىٰ مِقْدَار جَودَةِ البِذْرِ هَاهُنَا؛ فَهُو يتخَيَّرُ الأجوَدَ، ويَغتَنمُ الزَّرْعَ فِي تِشرينَ العُمرِ مِن غَيْر فُتورٍ، ثُمَّ يتخَايلُ المُؤمِنُ دُخُولَ النَّار

---

(١) زرود: بادية كثيرة الرمل صعبة الممشىٰ قريبة من مكة، والمعنىٰ: إذا ظهر الحرم هان تعب الطريق.

والعُقُوبَة؛ فَيَتَنَغَّصُ عَيشُه، ويَقْوَىٰ قَلَقُه؛ فَعِنْده بالحَالين شُغلٌ عَنِ الدُّنْيَا ومَا فيها، فقَلْبُه هَائمٌ فِي بَيدَاءِ المَعشُوقِ تارةً، وفِي صَحراءِ الخَوْف أُخْرَىٰ؛ فَمَا يَرَىٰ البُنيانَ.

فَإِذَا نَازَله المَوْتُ قَوِيَ ظَنُّه بالسَّلامَة، ورجَا لنَفْسِهِ النَّجاةَ؛ فيُهونُ عَليْهِ. فَإِذَا نزلَ إلىٰ القَبْرِ، وجَاءهُ مَن يَسْأَلُونَه؛ قَالَ بَعضُهم لبَعضٍ: دَعُوه؛ فَمَا استَراحَ إلَّا السَّاعَةَ.

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ يَقظةً تَامَّةً؛ تُحرِّكنا إلىٰ طلبِ الفضَائلِ، وتَمنعُنا مِن اختِيارِ الرَّذائِلِ؛ فإِنَّه إنْ وَفَّقَ، وإِلَّا فَلا نَافِعَ.

۞ فَصْلٌ ۞

لقَدِ اعتَبرْتُ عَلَى مَوْلايَ ﷻ أَمْرًا عَجِيبًا: وهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى لا يَختَارُ لمَحبَّتِهِ والقُرْبِ مِنْهُ إلَّا الكَامِلَ صُورَةً ومَعْنًى

ولستُ أَعْنِي حُسْنَ التَّخاطِيطِ، وإنَّمَا كَمَالُ الصُّورَة اعتِدالُها، والمُعتَدلةُ مَا تَخلو من حُسنٍ، فيَتبَعُها حُسنُ الصُّورَة البَاطِنةِ، وهُوَ كَمَالُ الأَخْلاقِ، وزَوالُ الأكدَارِ، ولا يُرَىٰ فِي بَاطِنِه خَبثًا ولا كدَرًا، بَلْ قَدْ حَسُن باطنُه كَمَا حَسُن ظَاهِرُه.

وقَدْ كَانَ مُوسَىٰ عليه السلام كُلُّ مَن رَآهُ يُحِبُّه، وكَانَ نَبِيُّنَا ﷺ كالقَمرِ ليلةَ البَدرِ[1].

---

(١) صحيح: أخرج البخاري (٣٥٥٢) عن البراء بن عازب أنه سئل: أكان وجه النبي ﷺ مثل السيف؟ قال: لا بل مثل القمر. وأخرج الترمذي (٢٨١١) وحسنه، عن جابر بن سمرة قال: رأيت رسول الله ﷺ في ليلة إضحيان، فجعلت أنظر إلىٰ رسول الله ﷺ وإلىٰ القمر وعليه حلة حمراء، فإذا هو عندي أحسن من القمر.

وقَدْ يَكُونُ الوليُّ أسودَ اللَّونِ، لكِنَّه حَسَنُ الصُّورَة لَطِيفُ المَعانِي.

فعَلىٰ قَدرِ مَا عِنْدَ الإنْسَانِ مِن التَّمامِ فِي كَمَال الخَلْق والخُلُق يَكُونُ عَمَلُه، ويكُونُ تقَرِيبُه إلىٰ الحَضرَةِ بحَسبِ ذَلِكَ؛ فمِنْهُم: كالخَادِمِ عَلَىٰ البَابِ، ومِنهُم: حَاجِبٌ، ومنهُم: مقرَّبٌ، ويندُر مَن يتِمُّ لَهُ الكَمَالُ، ولعلَّه لا يوجَدُ فِي مائةِ سنةٍ مِنهُم غَيْرُ وَاحِد.

وهَذِهِ حِكَايةٌ مَا تَحصُلُ بالاجْتِهَاد، بَلْ الاجْتِهَادُ يحصُلُ منها؛ لأَنَّهُ إِذَا وَقعَ تَمامًا حثَّ عَلَىٰ الجِدِّ عَلَىٰ قدر نُقصانِه، وهَذَا لا حِيلةَ فِي أصلِه، إنَّمَا هُوَ جِبلَّةٌ، وإِذَا أرادَكَ لأمرٍ هيَّأكَ لَهُ.

❁ فَصْلٌ ❁

تَأَمَّلْتُ عَلَى قَوْمٍ يدَّعُونَ العُقُولَ ويَعْتَرِضُونَ عَلَى حِكْمَةِ الخَالِقِ!

فيَنْبغِي أَنْ يُقَالَ لَهُم: هَذَا الفَهْمُ الَّذِي دَلَّكُم عَلَىٰ رَدِّ حِكمَتِه؛ أليسَ هُوَ مَنْ مَنَحه؟! أَفأعطَاكُم الكَمالَ ورضِيَ لنَفْسِه بالنَّقصِ؟! هَذَا هُوَ الكُفرُ المَحْضُ الَّذِي يَزيدُ فِي القُبحِ عَلَىٰ الجَحْدِ.

فأوَّل القومِ: إبْلِيسُ؛ فإِنَّه رَأَىٰ بعَقلِه أَنَّ جوهَرَ النَّار أَشْرَفُ مِن جَوهرِ الطِّينِ؛ فردَّ حكمةَ الخَالِق! ومرَّ عَلَىٰ هَذَا خلقٌ كَثِيرٌ مِن المعتَرِضينَ؛ مثلُ: ابنِ الرَّاوَنْدِيِّ، والبَقرِيِّ.

وهَذَا المعرِّيُّ اللَّعينُ يَقُول: كَيْفَ يُعابُ الحجَّاجُ بالسَّخفِ والدَّهْرُ أَقْبَحُ فِعْلًا منه؟! أتُرىٰ يعنِي بِهِ الزَّمَانَ؟! كلَّا؛ فَإِن ممرَّ الأوقاتِ لا يفعلُ شَيئًا، وإنَّمَا هُوَ تعريضٌ باللهِ جل شَأْنُهُ! وكَانَ يَسْتعجِلُ المَوْتَ؛ ظنًّا مِنْهُ أَنَّهُ يستريحُ، وكَانَ يُوصِي

بتركِ النِّكاح والنُّسُك، ولا يَرَىٰ فِي الإيجادِ حِكمةً إلَّا العَناءَ والتَّعبَ! ومَصيرَ الأبْدَانِ إلىٰ البِلَىٰ.

وهَذَا لَوْ كَانَ كمَا ظنَّ، كَانَ الإيجادُ عبثًا، والحَقُّ مُنزَّهٌ عَن العَبثِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ﴾ [ص: ٢٧]. فَإذَا كَانَ مَا خُلِق لَنَا لَمْ يُخلَقْ عبثًا، أفنكُونُ نحنُ - ونحنُ مَواطنُ معَرِفتِه، ومجالُ تكليفِه - قَدْ وجِدنَا عَبثًا؟!

ومثلُ هَذَا الجَهْل إنَّمَا يصدُرُ مِمَّنْ ينظرُ فِي قضَايا العُقُول الَّتِي يُحكَم بِهَا عَلَىٰ الظَّواهِر، مثلُ أَنْ يَرَىٰ مَبنيًّا يُنْقَضُ، والعَقْلُ بمجرَّدِه لا يَرَىٰ ذَلِكَ حكمةً، ولَوْ كُشِفَتْ لَهُ حكمةُ ذَلِكَ لعلمَ أَنَّهُ صوابٌ، كَمَا كُشِفَ لمُوسَىٰ مُرَادَ الخَضِر فِي خَرْقِ السَّفينةِ وقَتلِ الغُلامِ.

ومعلومٌ؛ أَنَّ ذبحَ الحَيَوَان، وتَقطيعَ الرَّغيفِ، ومَضْغَ الطَّعَام لا يظهرُ لَهُ فائدةٌ عَلَىٰ الإطلاقِ، فإذَا عُلِم أَنَّهُ غذاءٌ لبدنٍ من هُوَ أَشْرَفُ بدنًا مِن المذْبُوح؛ حسُن ذَلِكَ الفِعْلُ.

وا عَجَبًا! أَوَمَا تقضِي العُقُولُ بوجُوب طَاعَةِ الحَكيمِ الَّذِي تَعجزُ عَنْ مَعْرِفَةِ حِكَمِ مَخلُوقاتِه؟! فكَيفَ تُعارِضُه فِي أفعالِهِ؟! نَعُوذُ باللهِ مِن الخِذْلانِ.

فَصْل

يَنْبغِي لمَن وَعَظَ سُلْطانًا أَنْ يُبالِغَ فِي التَّلَطُّفِ، ولا يُواجِهَهُ بِمَا يَقْتَضِي أَنَّهُ ظَالِمٌ

فَإنَّ السَّلاطينَ حظُّهم التَّفرُّد بالقَهرِ والغلَبةِ، فإذَا جَرَىٰ نوعُ توبيخٍ لَهُم كَانَ إذْلَالًا، وهُم لا يحتَملونَ ذَلِكَ. وإنَّمَا يَنْبغِي أَنْ يَمْزُجَ وَعْظَه بِذِكْر شَرفِ الوِلَايةِ، وحُصُولِ الثَّوابِ فِي رِعايةِ الرَّعايا، وذِكْرِ سِيَرِ العادِلينَ مِن أَسْلافِهِم.

ثُمَّ لْيَنْظُرِ الواعِظُ فِي حَال المَوعُوظِ قبلَ وَعْظِه:

فَإِن رَأَىٰ سِيرتَه حَميدةً - كَمَا كَانَ منصورُ بن عَمَّار وغيرُه يَعِظونَ الرَّشيدَ وهُوَ يَبْكِي - وقَصْدَه الخَيْرَ؛ زَادَ فِي وَعْظِه ووصِيَّتِه.

وإنْ رآه ظالمًا لا يَلْتفِتُ إلىٰ الخَيْرِ، وقَد غلب عَلَيهِ الجَهْلُ؛ اجْتَهَدَ فِي أَلَّا يَراهُ ولا يَعِظُه؛ لأَنَّهُ إنْ وعَظَه خاطَر بنَفْسه، وإن مَدَحَه كَانَ مُداهِنًا، فإن اضْطُرَّ إلىٰ مَوْعِظتِه كَانَتْ كالإِشَارَةِ.

وقَد كَانَ أَقْوَامٌ مِن السَّلاطِينِ يَلِينونَ عِنْدَ الموعِظَةِ، ويَحْتملُون الواعِظِينَ، حَتَّىٰ إِنَّه قَدْ كَانَ المَنْصُورُ يُواجَهُ بـ: إِنَّك ظَالِمٌ؛ فَيَصْبِرُ.

وقَدْ تغيَّر الزَّمَانُ، وفَسَدَ أَكْثَرُ الوُلاةِ، وداهَنَهُم العُلَمَاءُ، ومَن لا يُداهِنُ لا يَجِدُ قَبُولًا للصَّوابِ؛ فَيَسْكُتُ، وقَد كَانَت الولاياتُ لا يسْأَلُها إلَّا مَن أَحْكَمَتْهُ العُلومُ، وثَقَّفَتْهُ التَّجارِبُ، فَصارَ أَكْثَرُ الوُلاةِ يَتَساوُونَ فِي الجَهْلِ؛ فتَأْتِي الولايةُ عَلَىٰ مَن لَيسَ مِن أَهْلِها.

ومثلُ هَؤُلاءِ يَنْبغِي الحَذَرُ مِنهُم والبُعْدُ عَنْهُم؛ فمَن ابْتُلِي بِوَعْظِهم فليكُنْ عَلَىٰ غايةِ التَّحَرُّزِ فِيمَا يقُولُ، ولا يَنْبغِي أَنْ يَغْتَرَّ بقَولِهِم: عِظْنَا! فإِنَّه لَوْ قَالَ كَلِمَةً لا تُوافِقُ أَغْراضَهُم ثارَتْ حَراراتُهُم.

ولْيَحْذَرْ مُذَكِّرُ السُّلْطَانِ أَنْ يُعَرِّضَ لَهُ بأَرْبَاب الولاياتِ؛ فَإِنَّهُم إِذَا سَمِعُوا بذَلِكَ صَارَ الواعِظُ مَقْصُودًا لَهُم بالإِهلاكِ؛ خوفًا مِن أَنْ يَعْتَبِرَ السُّلْطَانُ أحوالَهُم؛ فَتَفْسُدَ أُمُورُهُم.

والبُعْدُ فِي هَذَا الزَّمَان عَنْهُم أَصْلَحُ، والسُّكُوتُ عَنِ المَواعِظِ لَهُم أَسْلَمُ، فمَن اضْطُرَّ تلَطَّفَ غايةَ التَّلَطُّف، وجَعَلَ وَعْظَهُ للعَوَامِّ، وهُم يَسْمعُونَ، ولا يُعَيِّنْهُمْ مِنْهُ بشَيْءٍ، والله المُوفِّقُ.

۞ فَصْل ۞

الحَقُّ لا يَشْتَبِهُ بباطِلٍ، إنَّمَا يُمَوِّهُ البَاطِلُ عِنْدَ مَن لا فَهْمَ لَهُ

وهَذَا فِي حَقِّ مَن يَدَّعِي النُّبُوَّاتِ، وفِي حَقِّ مَن يَدَّعِي الكَرَامَاتِ:

أما النبوَّاتُ؛ فإنَّه قَد ادَّعاها خَلْقٌ كَثِيرٌ؛ ظَهَرتْ قَبائحُهُم، وبانَتْ فَضائحُهُم، ومنها: مَا أَوْجَبَتْهُ خِسَّةُ الهِمَّة والتَّهتُّك فِي الشَّهَوَاتِ، والتَّهافُتُ فِي الأقوالِ والأفْعَال، حَتَّىٰ افتُضِحوا.

فمنهُم: الأسودُ العنسِيُّ؛ ادَّعىٰ النُّبوَّةَ، ولَقَّبَ نَفْسه ذا الخِمارِ؛ لأنَّهُ كَانَ يَقُولُ: يَأْتِيني ذُو الخِمارِ! وكَانَ أَوَّلَ أمرِه كاهنًا يُشعوِذُ فيُظهرُ الأعَاجِيبَ، فَخَرَجَ فِي أواخِر حياةِ النَّبِيِّ ﷺ، فكاتَبَتْهُ مُذْحِجٌ، وواعدَتْهُ نَجرانُ، وأخرَجُوا عَمْرو بنَ حَزْم وخَالِدَ بنَ سَعِيد صَاحِبي رَسُول اللهِ ﷺ، وصَفا لَهُ اليمنُ، وقاتَلَ شِهْرَ بنَ باذَانَ، فقَتلَهُ وتزوَّج ابنتَهُ، فأعانَتْ عَلَىٰ قَتلِه؛ فهلكَ فِي حياةِ رَسُول اللهِ ﷺ، وبانَ للعُقلاءِ أَنَّهُ كَانَ يُشعوِذُ.

ومنهُم: مُسَيلِمَةُ؛ ادَّعىٰ النُّبوَّةَ، وتَسَّمىٰ رَحْمانَ اليَمامَةِ؛ لأنَّهُ كَانَ يَقُول: الَّذِي يَأْتِينِي رَحمَانُ! فآمنَ برَسُول اللهِ ﷺ، وادَّعىٰ أَنَّهُ قَدْ أُشْرِكَ معهُ! فالعجَبُ أَنَّهُ يؤمِنُ برسولٍ، ويَقُولُ: إنَّهُ كذَّابٌ!

ثُمَّ جاءَ بقُرآنٍ يُضحِكُ النَّاسَ، مثل قولِه: يَا ضُفْدَع بنتَ ضُفدَعينْ، نُقِّي مَا تَنُقِّينْ، أعلاكِ فِي المَاءِ وأسفَلُكِ فِي الطِّينْ! ومن العَجائبِ شاةٌ سوداءُ، تحلِبُ لبنًا أبيضَ! فانْهَتَك سَتْرُهُ فِي الفَصاحَةِ.

ثُمَّ مسَحَ بيدِه عَلَىٰ رَأْسِ صَبيٍّ فَذَهَبَ شَعَرُه! وبَصَقَ فِي بِئْرٍ فَيَبِسَتْ!

وتزوَّجَ سَجَاحَ الَّتِي ادَّعتِ النُّبوَّةَ، فَقَالُوا: لا بُدَّ لَهَا مِن مَهرٍ، فَقَالَ: مَهْرُها أَنِّي قَدْ أَسْقَطْتُ عَنْكُم صَلاتَي الفَجرِ والعَتَمَةِ!

وكَانَت سَجاحُ هَذِهِ قَد ادَّعتِ النُّبوَّةَ بَعدَ موتِ رَسُول اللهِ ﷺ، فاستجَابَ لَهَا جَمَاعَةٌ، فَقَالَت: أَعِدُّوا الرِّكابْ، واستعدُّوا للنِّهابْ، ثُمَّ اعبُروا عَلَىٰ الرَّبابْ، فلَيْس دونَهُم حِجابْ؛ فقَاتِلُوهم!

ثُمَّ قصدَتِ اليَمامةَ؛ فهَابَها مُسيلِمَةُ، فراسَلَها وأهدَىٰ لَهَا، فحضَرتْ عِنْدَه، فَقَالَت: اقرَأ عَلَيَّ مَا يأتيكَ بِهِ جِبريلُ! فَقَالَ: إنَّكنَّ معشرَ النِّسَاءِ خُلِقْتُنَّ أَفْوَاجًا، وجُعِلْتُنَّ لَنَا أزواجًا، نُولِجُهُ فيكنَّ إيلاجًا. فَقَالَت: صدَقتَ؛ أنتَ نَبيٌّ. فَقَالَ لَهَا: قُومِي إلىٰ المِخْدَعْ، فَقدْ هُيِّئَ لَكِ المَضْجَعْ، فَإِن شئتِ مُستلقاةً، وإنْ شِئتِ عَلَىٰ أربَعْ، وإن شِئتِ بثُلُثَيْهِ وإنْ شئتِ بِهِ أَجْمَعْ. فَقَالَت: بَلْ بِهِ أجمَعْ؛ فَهُو للشَّملِ أجمَعْ.

فافتُضِحتْ عِنْدَ العُقَلاءِ مِن أَصْحَابِها، فَقَالَ مِنهُم عُطارِد بنُ حَاجبٍ:

أَضْحَتْ نَبيَّتُنَا أُنْثَىٰ يُطَافُ بِهَا ** وَأَصْبَحَتْ أَنْبِيَاءُ النَّاسِ ذُكْرَانَا

فَلَعْنَةُ اللهِ رَبِّ النَّاسِ كُلِّهِمُ ** عَلَىٰ سَجَاحٍ وَمَنْ بِالإِفْكِ أَغْوَانَا

أَعْنِي مُسَيْلِمَةَ الكَذَّابَ لا سُقِيَتْ ** أَصْدَاؤُهُ مِنْ رُعَيْثٍ حَيْثُمَا كَانَا

ثُمَّ إنَّها رَجعَتْ عَنْ غيِّها وأَسْلَمتْ، ومَا زَالَتْ تَبِينُ فَضائحَ مُسيلِمةَ حَتَّىٰ قُتلَ.

ومنهُم: طُليحةُ بنُ خُويلدٍ؛ خَرجَ بَعدَ دعوىٰ مُسيلِمةَ النُّبوَّةَ، وتَبعهُ عوامٌّ، ونزلَ سَميراءَ، فتسمَّىٰ بذِي النُّون، يَقُول: إنَّ الَّذِي يأتيهِ يُقَال لَهُ ذُو النُّونِ، وكَانَ مِن كَلامه: إنَّ اللهَ لا يصنعُ بتعفيرِ وجُوهِكم ولا قُبحِ أَدْبَارِكم شَيئًا؛ فاذكُروا اللهَ أَعِفَّةً قِيامًا. ومِنْ قُرآنِه: والحَمامُ واليَمامْ، وللصُّرَدِ الصُّوَّامْ، ليبلغَنَّ مُلكُنَا العِراقَ والشَّامْ!

وتَبِعَهُ عُيينةُ بنُ حُصَينٍ، فقَاتلَه خَالِدُ بنُ الوَليدِ، فجَاءَ عُيينةُ إلىٰ طُليحةَ، فقَالَ: ويحَك! أجَاءكَ الملَكُ؟ قَالَ: لا، فارجِعْ فقَاتِل، فقَاتَل ثُمَّ عَادَ، فقَالَ: أَجَاءكَ؟ فقَالَ: لا، فعادَ فقاتلَ، ثُمَّ عَادَ فقَالَ: أجاءكَ؟ قَالَ: نعم، قَالَ: مَا قَالَ لكَ؟ قَالَ: قَالَ: إنَّ لَكَ حديثًا لا تَنْساهُ. فصاحَ عُيينةُ: الرَّجُل - واللهِ - كذَّابٌ. فانصرَفَ النَّاسُ مُنهزِمينَ، وهَربَ طُليحةُ إلىٰ الشَّام، ثُمَّ أسلمَ وصحَّ إسلامُه، وقُتِل بنَهاوَنْدَ.

وذكَر الواقديُّ أَنَّ رجُلًا من بني يَربُوع يُقَال لَهُ: جُندُب بنُ كلثومٍ، كَانَ يلقَّب كردَانًا، ادَّعىٰ النُّبوَّةَ عَلَىٰ عهدِ رَسُول اللهِ ﷺ، وكَانَ يَزْعُم أَنَّ دَلِيله عَلَىٰ نبوَّته أَنَّهُ يُسْرِجُ مَساميرَ الحَديدِ والطِّينَ؛ وهَذَا لأَنَّهُ كَانَ يَطْلِي ذَلِكَ بدُهنِ البيلِسَانِ؛ فتعملُ فِيهِ النَّارُ.

وقَدْ تنبَّأَ رَجُلٌ، يُقَال لَهُ: كهمَشٌ الكلابيُّ، وكَانَ يزعُم أَنَّ الله تَعَالَىٰ أوحَىٰ إليهِ: يَا أَيُّهَا الجَائعْ، اشْرَب لبنًا تشبَعْ، ولا تَضرِبِ الَّذِي لا ينفعْ، فإنَّه لَيسَ بمَقنَع! وزعمَ أَنَّ دَلِيلَه عَلَىٰ نبوَّته أَنَّهُ يُطرحُ بينَ السِّباع الضَّارية فَلا تأكُله، وحِيلَتُه فِي ذَلِكَ: أَنَّهُ يأخُذ دُهنَ الغَار وحَجرَ البرسَانِ، وقُنفُذًا مُحرَّقًا، وزُبْدَ البَحرِ، وصَدفًا مُحرَّقًا مَسْحُوقًا، وشَيئًا مِن الصَّبِرِ والحَبَطِ، فَيطْلِي بِهِ جِسْمَهُ، فَإذَا قَرُبتْ مِنْهُ السِّباعُ، فشمَّتْ تِلْكَ الأرياحَ وزُفورَتَها؛ نفرَتْ.

وتنبَّأَ بالطَّائف رَجُلٌ، يُقَال لَهُ: أَبُو جعوَانةَ العَامريُّ، وزَعمَ أَنَّ دَلِيله: أَنَّهُ يَطرحُ النَّارَ فِي القُطنِ فَلا يَحترِقُ؛ وهَذَا لأَنَّهُ يَدْهَنَه بدُهنٍ مَعروفٍ.

ومنهُم: هذيلُ بْنُ يعفُورٍ، من بنِي سعْدِ بنِ زُهيرٍ، حكَىٰ عَنْهُ الأصمَعيُّ أَنَّهُ عارَض سورةَ الإخْلَاصِ، فَقَالَ: قلْ هُوَ الله أَحَدْ، إلهٌ كالأسَدْ، جالسٌ عَلَىٰ الرَّصَدْ، لا يفوتُه أحدْ!

ومنهم: هُذيل بنُ واسِع؛ كَانَ يزعُم أَنَّهُ من ولدِ النَّابغة الذُّبيانِيِّ، عارَض سورةَ الكوثَر، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: مَا قُلْتَ؟ فَقَالَ: إنَّا أعطيناكَ الجَواهرْ، فَصَلِّ لربِّكَ وجَاهِرْ، فَمَا يَرُدَّنَّك إلَّا كُلُّ فَاجِرْ! فظهرَ عَلَيهِ السَّنُوريُّ فقتَلهُ، وصلَبهُ عَلَىٰ العَمُود، فعبَر عَلَيهِ الرَّجُل فَقَالَ: إنَّا أعطينَاكَ العَمُودْ، فَصَلِّ لربِّكَ مِن قُعودْ، بلا رُكوعٍ ولا سُجودْ، فَمَا أراكَ تعُودْ!

وممَّن ظَهَر، فادَّعىٰ أَنَّهُ يُوحَىٰ إليه: المُختار بْنُ أبي عُبيد، وكَانَ متخبِّطًا فِي دعواهُ، وقتَلَ خلقًا كَثيرًا، وكَانَ يزعُم أَنَّهُ ينصُرُ الحُسَين - رِضْوانُ اللهِ عَلَيهِ - ثُمَّ قُتِل.

ومنهُم: حنظلةُ بْن يَزيد الكُوفيُّ، كَانَ يزْعُم أَنَّ دَلِيله أَنَّهُ يُدْخِلُ البيضَةَ فِي القِنِّينةِ ويخرِجُها مِنهَا صَحِيحةً؛ وذاك أَنَّهُ كَانَ ينقعُ البيضةَ فِي الخلِّ الحامِضِ، فيَلينُ قِشرُها، ثُمَّ يصُبُّ مَاءً فِي قِنِّينةٍ، ثُمَّ يدسُّ البيضة فيها، فَإِذَا لقيت المَاء صَلبَتْ.

وقَدْ تنبَّأَ أقْوَامٌ قبلَ نَبِيِّنَا ﷺ: كزرَادُشْت ومَانِي، وافتُضِحوا، ومَا من المُدَّعين إلَّا من خُذِل.

وقَدْ جاءتِ القِرامطَةُ بحِيَلٍ عَجِيبة، وقَد ذكرتُ جُمْهُورَ هَؤُلاء وحيَلِهِم في كِتابِي التَّاريخ المُسمَّىٰ بـ «المُنتَظَم»، ومَا فِيهِمْ مَن يَتِمُ لَهُ أمرٌ إلَّا ويُفتضَحُ.

ودَلِيل صِحَّة نبوَّة نَبِيِّنَا ﷺ أَجْلَىٰ مِن الشَّمسِ:

فإِنَّه ظهرَ فَقيرًا، والخَلْقُ أعداؤُه، فوُعِدَ بالمُلكِ فمَلَكَ، وأخبرَ بِمَا سيكُون فكانَ، وصِينَ من زَمَن النُّبوَّة عَن الشَّره وخسَاسةِ الهِمَّة والكذبِ والكِبرِ، وأُيِّد بالثِّقة والأمانَةِ والنَّزاهَة والعِفَّة، وظهَرَت مُعجِزاتُه للبَعيدِ والقَرِيبِ.

وأُنزلَ عَلَيهِ الكِتَابُ العَزِيز، الَّذِي حارَتْ فِيهِ عُقُول الفُصَحاء، ولَمْ يقدِرُوا عَلَىٰ الإتيان بآيةٍ تُشبِهُه فَضلًا عَنْ سُورةٍ، وقَد قَالَ قَائِلُهم وافتُضِح، ثُمَّ أخبرَ أَنَّهُ لا

يعارض فِيهِ فكَانَ كَمَا قَالَ، وذَلِكَ قوله تَعَالَىٰ: ﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ ﴾ [البقرة: ٢٣]، ثُمَّ قَالَ: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ ﴾ [البقرة: ٢٤]، وكَذَلكَ قوله: ﴿ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ ﴾ [البقرة: ٩٤]، ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ ﴾ [البقرة: ٩٥]، فَمَا تمنَّاه أحدٌ؛ إِذْ لَوْ قَالَ قَائِل: قَدْ تمنَّيتُه لبطُلتْ دعواهُ.

وكَانَ يَقُولُ ليلةَ غزاةِ بدرٍ: «**غدًا مَصْرَعُ فُلانٍ هَاهُنَا**» فَلا يتعدَّاه[1]، وقَالَ: «**إذا هَلكَ كِسرَىٰ فَلا كسرَىٰ بعدَه، وإِذَا هلكَ قيصَرُ فَلا قَيصَر بعدَه**»[2] فَمَا ملكَ بعدَهُما من لَهُ كبيرُ قدرٍ، ولا من استَتبَّ لَهُ حالٌ.

ومن أعْظَم دَلِيل عَلَىٰ صدقِه: أَنَّهُ لَمْ يُرِد الدُّنْيَا، فكَانَ يبيتُ جائعًا، ويُؤْثِر إِذَا وَجَد، ويَلْبَس الصُّوفَ، ويقوم اللَّيْل، وإِنَّمَا تُطلَب النَّواميسُ لاجتلابِ الشَّهَوَات، فَلَمَّا لَمْ يُرِدها دلَّ عَلَىٰ أَنَّهُ يَدُلُّ عَلَىٰ الآخِرَة الَّتِي هي حَقٌّ.

ثُمَّ لَمْ يزَلْ دِينُه يعْلُو حَتَّىٰ عمَّ الدُّنْيَا، وإِنْ كَانَ الكُفرُ فِي زوَايا الأَرْضِ، إِلَّا أَنَّهُ مخْذولٌ.

وصَارَ فِي تَابعِيه مِن أُمَّته الفُقَهَاءُ، الَّذِينَ لَوْ سَمعَ كَلامَهُم الأَنْبِيَاءُ القُدَمَاءُ تحيَّروا فِي حُسْنِ استخرَاجِهم، والزُّهَّادُ الَّذِينَ لَوْ رآهُم الرُّهبانُ تحيَّروا فِي صِدقِ زُهْدهم، والفُطنَاءُ الَّذِينَ لا نَظيرَ لَهُم فِي القُدَمَاء.

أَوَلَيْسَ قَوْمُ مُوسىٰ يعبُدون بقرةً، ويتوقَّفونَ فِي ذبْحِ بقَرَة، ويعبُرونَ البَحرَ، ثُمَّ يَقُولُونَ: اجعَلْ لَنَا إلهًا؟! وقومُ عِيسَىٰ يدَّخرُون مِن المَائدَةِ وقَد نُهُوا، والمُعتدُون فِي السَّبتِ، يعصُون الله لأجلِ الحِيتَانِ؟!

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٧٧٩) من حديث أنس.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٦٢٩، ٣١٢١، ٣٦١٩)، ومسلم (٢٩١٩) من حديث جابر بن سمرة. والبخاري (٣٦١٨، ٦٦٣٠)، ومسلم (٢٩١٨) من حديث أبي هريرة.

وأمَّتُنا - بحَمدِ اللهِ تَعالَىٰ - سَليمةٌ مِن هَذِهِ الأشْيَاءِ، وإنَّمَا فِي بعضِها مَيلٌ إلىٰ الشَّهَواتِ المَنهيِّ عَنْهَا، وذَلِكَ مِن الفُرُوعِ لا مِن الأُصُولِ، فَإذَا ذُكِّرُوا بَكَوْا ونَدِمُوا عَلَىٰ تفريطِهِم؛ فنَحمدُ الله عَلَىٰ هَذَا الدِّين، وعَلَىٰ أنَّنَا مِن أمَّةِ هَذَا الرَّسُول ﷺ.

وقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِن المُتصنِّعينَ بالزُّهْد مَالُوا إلىٰ طلبِ الدُّنْيَا والرِّياسَةِ، فاستغوَاهُم الهَوَىٰ، فَخَرَّقُوا بإظهارِ مَا يُشبِهُ الكَرَامَاتِ؛ كالحلَّاج وابنِ الشَّاش وغيرِهما مِمَّنْ ذكرْتُ حَال تَلبيسِه فِي كتابِ «تَلبيسِ إبْلِيس»؛ وإنَّمَا فعلُوا ذَلِكَ لاختلافِ أغراضِهم.

ولَمْ يزلِ اللهُ يُنشئُ فِي هَذَا الدِّين مِن الفُقَهَاء مَن يُظهِر مَا أخفَاهُ القَاصِرُون، كَمَا يُنشئُ مِن عُلمَاءِ الحَدِيث مَن يهتِكُ مَا أشَاعَه الوَاضِعُون؛ حِفْظًا لهَذَا الدِّين، ودَفعًا للشُّبُهاتِ عَنْهُ.

فلا يَزَالُ الفقيهُ والمُحدِّثُ يُظهِرَانِ عوارَ كُلِّ مُلبِّسٍ بوضْعِ حَدِيثٍ أوْ بإظهار دعوَىٰ تزهُّدٍ وتَنْمِيسٍ، فَلا يؤثِّر مَا ادَّعياهُ إلَّا عِنْدَ جَاهِلٍ بعيدٍ مِن العِلْم والعَمَل؛ ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٨].

۞ فَصْل ۞

وا عَجَبًا مِن مَوْجُودٍ لا يَفْهَمُ مَعْنَى الوُجُودِ، فَإنْ فَهِمَ لَمْ يَعْمَلْ بِمُقْتَضَى فَهْمِهِ!

يَعْلَمُ أَنَّ العُمرَ قَصيرٌ وهُوَ يُضَيِّعه بالنَّوْمِ والبَطَالَةِ والحَدِيثِ الفارِغِ وطلبِ اللَّذَّاتِ، وإنَّمَا أيَّامُه أيَّامُ عَمَلٍ لا زَمَانُ فَراغٍ.

وقَد كُلِّف ببذلِ المَالِ ومُخَالفَةِ الطَّبْعِ مِن الشَّرْعِ، فَبَخِلَ بِهِ إلىٰ أَنْ يتضايَقَ الخِناقُ، فيقولَ حِينئِذٍ: فَرِّقُوا عَنِّي بَعدَ مَوْتِي، وافْعَلُوا كذا! فأيْنَ يَقَعُ هَذَا لَوْ فُعِلَ؟!

وبعيدٌ أَنْ يُفْعَلَ، وإنَّمَا يُرادُ بإنفَاقكَ فِي صحَّتكَ مُخَالفَةُ الطَّبْع فِي تكلُّف مشاقِّ الإخرَاج فِي زَمَن السَّلامَة؛ فَافْرُقْ بينَ الحَالتين، إنْ كَانَ لَكَ فَهْمٌ!

فالسَّعيدُ مَن انتبهَ لنَفْسه، وعملَ بمُقتَضَىٰ عقلِه، واغتنمَ زَمنًا نِهايتُه الزَّمَنُ[1]، وانتهَبَ عُمُرًا يَا قُرْبَ انقِطاعِهِ.

ويحَكَ! مَا تصنعُ بإدخالِ مَالٍ لا يؤثِّر حسنةً فِي صحيفةٍ ولا مَكْرُمَةً فِي تَاريخٍ؟! أمَا سَمِعتَ بإنفاقِ أبي بكرٍ وبُخل ثَعلبَة[2]؟! أمَا رَأيْتَ تأثيرَ مَدحِ حَاتمٍ وبُخلِ الحبَاحِبِ؟!

ويحكَ! لَوْ ابتلاكَ فِي مالكَ لاستَغثتَ، أوْ فِي بدَنِك ليلةً بمرَضٍ لشكَوتَ، فأنتَ تَسْتَوفِي مَطْلُوباتك مِنْهُ، ولا تَستوفِي حَقَّه عليكَ، ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١]!

ولْتَعلَمْ أَنَّ هَذَا القَدْرَ المُفرَّط فِيهِ يُحِلُّ الخلودَ الدَّائمَ فِي ثَوابِ العَمَل فيه.

فسُبحَانَ مَنْ منَّ عَلَىٰ أَقْوَامٍ فهِمُوا المُرَادَ فأتعبُوا الأجسادَ، وغطَّىٰ عَلَىٰ قلوبِ آخَرِين فوُجُودُهم كالعَدَم، وكَيفَ لا يُتعِبُ العَاقِلُ بَدَنَه إتعابَ البُدْنِ والمَقصُودُ مِنِّيٰ؟!

أَتُرىٰ مَا بالُ الحَقِّ مُتجلِّيًا فِي إيجادِكَ أيُّهَا العَبْدُ؟! بلىٰ - واللهِ - إنَّ وجُودَكَ دَلِيلُ وُجُوده، وإنَّ نِعمَه عَلَيْك دَلِيلُ جُودِه، فكَمَا قدَّمكَ عَلَىٰ سَائِرِ الحَيَوَاناتِ، فقدِّمْهُ فِي قَلْبكَ عَلَىٰ كُلِّ المَطْلُوباتِ.

---

(١) الزمن: المرض المزمن المقعد.

(٢) إن كان المؤلف قد قصد (ثعلبة بن حاطب رضي الله عنه)، فقصة منعه الزكاة قصة باطلة وليست صحيحة ونقضها أهل العلم، وهو صحابي جليل من الذين شهدوا بدرًا، فرضي الله عنهم ورضوا عنه.

وا خَيْبَةَ مَن جَهِلَه، وا فَقْرَ مَن أَعْرَضَ عَنْهُ، وا ذُلَّ مَن اعْتَزَّ بِغَيْرِه، وا حسرةَ مَن اشْتَغَلَ بغَيْرِ خِدمتِه!

❁ فَصْلٌ ❁

إِنِّي أَعْجَبُ مِن عَاقِلٍ يَرَى اسْتِيلاءَ المَوْتِ عَلَى أَقْرَانِهِ وجِيرَانِهِ؛ كَيْفَ يَطِيبُ عَيْشُهُ؟! خُصُوصًا إِذَا عَلَتْ سِنُّهُ!

وا عَجَبًا لمنْ يَرَىٰ الأفاعِي تَدِبُّ إِلَيْهِ وهُوَ لا يَنزعِجُ! أما يَرَىٰ الشَّيْخ دبيبَ المَوْت فِي أعضَائِه، قَدْ أَخرجَ سَكِينَ القُوىٰ، وأنزلَ متغَشرِمَ الضَّعفِ، وقَلَبَ السَّوادَ بَياضًا، ثُمَّ فِي كُلِّ يَوْم يزِيدُ النَّاقِصُ.

ففي نَظَرِ العَاقِلِ إِلىٰ نَفْسهِ مَا يَشْغَلُه عَن النَّظَر إِلىٰ خَرَابِ الدُّنْيا، وفِراقِ الإخوَانِ، وإنْ كَانَ ذَلِكَ مُزعجًا، ولَكِنَّ شُغْلَ مَن احتَرق بيتُه بنَقلِ مَتاعِه يُلهيهِ عَنْ ذِكر بُيوتِ الجِيرانِ.

وإنَّه لَمِمَّا يُسَلِّي عَن الدُّنْيَا، ويُهوِّنُ فِراقَها استبدالُ المَعارِف بمَنْ تُنْكِرُه؛ فقدْ رَأَيْنَا أغنِياءَ كَانُوا يُؤثِرُون، وفُقراءَ كَانُوا يَصبِرونَ، ومُحاسِبينَ لأنْفُسهِم يتورَّعون؛ فاستُبدِل السُّفهاءُ عَنِ العُقَلاء، والبُخلاءُ عَن الكُرمَاء.

فيا سُهولةَ الرَّحيلِ، لعلَّ النَّفْس تلقَىٰ مَن فَقدَتْ، فتلحَقَ بمَنْ أَحبَّتْ.

فَصْلٌ

نَظَرْتُ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾،

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ١٨]

فرَأيْتُ الجَماداتِ كُلَّها قَدْ وُصفتْ بالسُّجود، واسْتُثْنِي مِن العُقَلاءِ! فذكرتُ قَوْلَ بَعضِهِم:

مَا جَحَدَ الصَّامِتُ مَنْ أَنْشَأَهُ ** وَمِنْ ذَوِي النُّطْقِ أَتَىٰ الجُحُودُ

فقُلْتُ: إنَّ هَذِهِ لقُدرةٌ عَظيمةٌ، يُوهَبُ عقلُ الشَّخْص ثُمَّ يُسلَبُ فائدَتَه! وإنَّ هَذَا لَأقْوَىٰ دَلِيل عَلَىٰ قادرٍ قاهرٍ، وإلَّا فكَيفَ يَحسُن مِن عَاقلٍ ألَّا يَعْرِفَ بوجُودِه وُجُودَ مَن أَوْجَدَه؟ وكَيفَ يَنْحَتُ صنمًا بيدِهِ ثُمَّ يَعبُدُهُ؟!

غَيرَ أَنَّ الحَقَّ ﷻ وَهَبَ لأقوامٍ مِن العَقْل مَا يُثبتُ عَلَيهِم الحُجَّةَ، وأَعْمَىٰ قُلوبَهم - كَمَا شاءَ - عَن المَحَجَّةِ.

فَصْلٌ

مَا رَأَيْتُ أَكْثَرَ أَذًى لِلمُؤْمِنِ مِن مُخَالَطَةِ مَن لا يَصْلُحُ

فَإنَّ الطَّبْعَ يَسْرِقُ، فَإِن لَمْ يتشَبَّهْ بِهِم ولَمْ يَسْرِقْ مِنهُم فترَ عَنْ عَمَلِه.

وإنَّ رُؤيَةَ الدُّنْيَا تحثُّ عَلَىٰ طَلَبِها، وقَد رَأَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ سِترًا عَلَىٰ بَابه، فهتكَه.

وقَالَ: «مَا لِي وللدُّنيا»[١]، ولَبِسَ ثوبًا لَهُ طرازٌ، فرماهُ، وقَالَ: «شغلتنِي أَعْلامُهُ»[٢]، ولَبِسَ خَاتمًا ثُمَّ رماهُ، وقَالَ: «نظرتُ إلَيْكمْ ونظَرتُ إلَيهِ»[٣].

وكَذَلكَ رُؤيَة أرْبَابِ الدُّنْيَا ودُورِهم وأَحْوالِهم، خُصوصًا لمَنْ لَهُ نفسٌ تَطلُبُ الرِّفعةَ.

وكذا سَمَاعُ الأغانِي ومُخَالطَة الصُّوفِيَّة الَّذِينَ لا نظر لَهُم اليَوْم إلَّا فِي الرِّزقِ الحَاصِل، لَوْ كَانَ من أيِّ مكانٍ قَبلُوه، ولا يتورَّعونَ أَنْ يأخُذُوا مِن ظَالمٍ، ولَيْسَ عِنْدهم خوفٌ كَمَا كَانَ أوائلُهم؛ فقد كَانَ سَرِيُّ السَّقَطِيُّ يَبْكِي طولَ اللَّيْل، وكَانَ يبالغُ فِي الوَرع، وهُمْ لَيسَ لَهُم ورعُ سرِيٍّ، ولا لَهُم تعبُّد الجُنيدِ. وإنَّمَا ثَمَّ أَكْلٌ ورَقْصٌ وبَطَالةٌ وسماعُ أغَانٍ مِن المُردانِ، حَتَّىٰ قَالَ بَعْض مَن يُعْتَبَرُ قولُه: حضرتُ مع رَجُلٍ كبيرٍ يُومأُ إلَيْهِ مِن مَشايخِ الرُّبُطِ ومُغنِّيهُم أَمْرَدُ، فقامَ الشَّيْخُ ونَقَّطَهُ بدينارٍ عَلَىٰ خدِّه.

وادِّعاؤُهم أَنَّ سَمَاعَ هَذِهِ الأَشْيَاءِ يَدْعُو إلىٰ الآخِرَة؛ فَوْقَ الكذِبِ.

ولَيْسَ العجبُ منهم، إنَّمَا العَجبُ مِن جهَّال يَنْفقُون عَلَيهِم فَيُنْفِقُون عَلَيهِم.

ولَقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِن القُدَمَاء يَرَوْنَ أوائلَ الصُّوفِيَّةَ يتعبَّدُون ويتَورَّعون، فيُعجِبُهم حالُهم، وهم مَعذُورُون فِي إعجابِهم بِهم، وإنْ كَانَ أَكْثَرُ القَومِ فِي تَعبُّدِهِمْ عَلَىٰ غَيْرِ الجَادَّة، كَمَا ذكرتُ فِي كتابي المُسمَّىٰ بـ«تَلبِيسِ إبْلِيس».

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٦١٣) من حديث عبد الله بن عمر. والترمذي (٢٣٧٧) من حديث ابن مسعود، وقال: حسن صحيح. وأحمد (٢٧٤٤) من حديث ابن عباس.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣٧٣، ٥٨١٧)، ومسلم (٥٥٦) من حديث عائشة.

(٣) صحيح: أخرجه أخرجه أحمد (٢٩٦٠)، والنسائي (٥٢٨٩)، وفي «الكبرىٰ» (٩٤٧١)، وابن حبان (٥٤٩٣) من حديث ابن عباس، بلفظ: أن رسول الله ﷺ اتخذ خاتمًا فلبسه، قال: «شغلني هذا عنكم، منذ اليوم إليه نظرة وإليكم نظرة» ثم ألقاه.

فأَمَّا اليَوْمَ؛ فَقد بَرِحَ الخَفاءُ؛ أحدُهُم يتردَّدُ إلىٰ الظَّلَمَة، ويأكُلُ أموالَهُم، ويُصافِحُهم بقميصٍ لَيسَ فِيهِ طِرَازٌ، وهَذَا هُوَ التَّصوُّف فحَسب! أَوَلا يَستحِي مِن الله مَن زَهِدَ فِي رَفيعِ الأَثْوَابِ لأَجلِ الخَلائقِ لا لأَجلِ الحقِّ، ولا يزهدُ فِي مَطْعَمٍ ولا شُبهَةٍ! فالبُعدُ عَنْ هَؤُلاء لازمٌ.

ويَنْبَغِي للمنفَرِد لطَاعَة الله تَعَالَىٰ عَن الخَلْق ألَّا يَخْرُج إلىٰ سُوقٍ جَهْدَهُ، فَإِن خَرَجَ ضرورةً غضَّ بصَرَه، وألَّا يزورَ صَاحِبَ منصبٍ ولا يَلقَاه، فَإِنِ اضْطُرَّ دَارَىٰ الأمرَ، ولا يخالِطَ عَامِّيًّا إلَّا لضرورةٍ، مع التَّحرُّز، ولا يفتحُ عَلَىٰ نَفْسه بَابَ التَّزوُّج، بَلْ يقنعُ بامرأةٍ فِيهَا دِينٌ.

فَقد قَالَ الشَّاعِرُ:

وَالمَـــرْءُ مَـــا دَامَ ذَا عَـــيْنٍ يُقَلِّبُهَـــا ** فِي أَعْيُنِ العِيْنِ مَوْقُوفٌ عَلَىٰ الخَطَرِ
يَـــسُرُّ مُقْلَتَـــهُ مَـــا ضَـــرَّ مُهْجَتَـــهُ ** لا مَرْحَبًـا بِـسُرُورٍ عَـادَ بِالـضَّرَرِ

فإِنْ كَانَ يَغْلِبُ عَلَيهِ العِلْم؛ انفردَ بدرَاسَته، واحترزَ مِن الأتبَاع المُتعلِّمِين، وإِنْ غلبَت عَلَيهِ العِبادَةِ، زادَ فِي احترَازِه، وليجعَلْ خلوتَه أنيسَهُ، والنَّظَرَ فِي سِيَرِ السَّلَف جليسَهُ، وليكُنْ لَهُ وظيفةٌ مِن زِيارَة قُبورِ الصَّالِحِين والخَلوَة بِهَا.

ولا يَنْبَغِي أَنْ يفوتَهُ وِرْدُ قيام اللَّيْل، وليكُنْ بَعدَ النِّصْفِ الأوَّل، فليُطِل مهمَا قَدَرَ، فإِنَّه زَمَانٌ بعيدُ المِثْل، وليُمَثِّلْ رحيلَه عَنْ قُربٍ ليقصُر أَمَلُه، وليتزوَّدْ فِي الطَّرِيق عَلَىٰ قَدْرِ طُولِ السَّفر!

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ يقظةً مِن فَضْلِه، وإقبالًا عَلَىٰ خِدمَتِه، وألَّا يخذُلَنا بالالتفاتِ عَنْهُ؛ إِنَّهُ قَرِيبٌ مُجيبٌ.

۞ فَصْل ۞

كُلَّمَا نَظَرْتُ فِي تَواصُلِ النِّعَمِ عَلَيَّ تَحَيَّرْتُ فِي شُكْرِهَا!

وأَعْلَمُ أَنَّ الشُّكْرَ مِن النِّعَم، فَكَيفَ أَشْكُرُ؟! لكنِّي مُعْتَرِفٌ بالتَّقصِيرِ، وأرجُو أَنْ يَكُونَ اعتِرافِي قَائمًا بِبَعْضِ الحُقوقِ.

وعِنْدِي خَلَّةٌ أرجُو بِهَا كُلَّ خيرٍ، وهي أَنَّ مَن يَصومُ أَوْ يُصلِّي يَرَىٰ أَنَّهُ تعبَّد ويَخْدُمُ كأنَّه يَقْضِي حَقَّ المَخدُوم، وأَنَا أرىٰ أَنِّي إِذَا صَلَّيتُ رَكعتَين فإِنَّمَا قُمتُ أُكْدِي[1]، فلنَفْسِيَ أعملُ، إِذِ المخدُوم غَنِيٌّ عَنْ طاعَتِي. وكَانَ بَعْض المشَايخِ يَقُولُ: جَاءَ فِي الحَدِيث: «الدُّعَاءُ عِبادَةٌ»[2]، وأَنَا أقولُ: العِبادَةِ دعاءٌ.

فالعَجبُ مِمَّنْ يَقِف للخدمَة يَسْأَلُ حَظَّ نَفْسِه، كَيْفَ يَرَىٰ أَنَّهُ قَدْ فعلَ شَيئًا؟! إِنَّمَا أنت فِي حاجَتِك، ومنةُ مَنْ أيقظَكَ لا تُقاومُها خِدْمَتُك، فأنا أَقُولُ كَمَا قَالَ الأَوَّلُ:

يَـــا مُنْتَهَـــىٰ الآمَـــالِ أَنْـــــتَ كَفَلْتَنِـــي وَحَفِظْتَنِـــي **

وَعَـــدَا الزَّمَـــانُ عَلَـــيَّ كَـــيْ ** يَجْتَـــاحَنِي فَمَنَعْتَنِـــي

فَانْقَـــادَ لِـــي مُتَخَـــشِّعًا ** لَمَّـــا رَآكَ نَـــصَرْتَنِي

---

(١) أي: أستجدي.

(٢) صحيح: أخرجه من حديث النعمان بن بشير: أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩، ٣٢٤٧، ٣٣٧٢) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٣٨٢٨)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٤٠٠)، وأحمد (١٨٣٥٢، ١٨٣٨٦، ١٨٣٩١، ١٨٤٣٢، ١٨٤٣٦، ١٨٤٣٧)، وابن حبان (٨٩٠)، والحاكم (١/ ٤٩١)، وقال النووي في «الأذكار» (٤٧٨): «إسناده صحيح» وقال ابن حجر في «فتح الباري» (١/ ٦٤): «إسناده جيد».

وَكَسَوْتَنِي ثَوْبَ الغِنَىٰ ** وَمِنَ المُغَالِبِ صُنْتَنِي
فَإِذَا سَكَتُّ بَدَأْتَنِي ** وَإِذَا سَأَلْتُ أَجَبْتَنِي
فَإِذَا شَكَرْتُكَ زِدْتَنِي ** فَمَنَحْتَنِي وَبَهَرْتَنِي
أَوْ إِنْ أَجِدْ بِالمَالِ فَالْـ ** أَمْوَالَ أَنْتَ أَفَدْتَنِي

فَصْل

رَأَيْتُ أَكْثَرَ العُلَمَاءِ يَتَشَاغَلُونَ بِصُورَةِ العِلْمِ

فَهَمُّ الفَقِيهِ التَّدريسُ، وهَمُّ الوَاعِظِ الوَعْظُ:

فهَذَا يَرْعَىٰ دَرْسَه فيفرحُ بكَثرةِ مَن يَسمَعهُ، ويقدحُ فِي كلامِ مَن يُخالفُه، ويمضِي زَمانُه فِي التَّفكُّرِ فِي المُناقَضاتِ ليقهَرَ مَن يُجادِلهُ، وعينُه إلىٰ التَّصدُّر والارتِفَاعِ فِي المَجَالِس، ورُبَّما كَانَتْ هِمَّتُه جمعُ الحُطام، ومُخَالطَةُ السَّلاطِينِ.

والوَاعِظُ هِمَّته مَا يُزَوِّقُ بِهِ كَلامَه، ويُكَثِّرُ جَمْعَهُ، ويَجْلِبُ بِهِ قُلوبَ النَّاس إلىٰ تَعظِيمِه، فَإِنْ كَانَ لَهُ نظيرٌ فِي شُغلِهِ؛ أَخَذَ يطعنُ فيهِ.

وهَذِهِ قلوبٌ غافلةٌ عَنِ الله ﷻ، إذْ لَوْ كَانَتْ لَهَا بِهِ مَعْرِفَةٌ لاشتَغلَتْ بِهِ، وكَانَ أُنسُها بمناجَاتِه، وإيثارُها لطاعَاتِه، وإقبالُها عَلَىٰ الخَلوَة بِهِ، لكنَّها لَمَّا خَلَتْ مِن هَذَا تَشَاغَلتْ بالدُّنْيَا، وذاكَ دُنْيَا مِثلها، فَإِذَا خَلَتْ بخِدمةِ اللهِ تَعالَىٰ لَمْ تَجِدْ لَهَا طَعْمًا، وكَانَ جَمْعُ النَّاس أَحَبَّ إليها، وزيارةُ الخَلْقِ لَهَا آثَرَ عِندَهَا؛ وهَذِهِ علامةُ الخِذْلانِ.

وعَلَىٰ ضدِّ هَذَا؛ متىٰ كَانَ العَالِمُ مُقبلًا عَلَىٰ الله سُبْحَانَه، مَشغولًا بطاعتِهِ؛ كَانَ أصعبَ الأَشْيَاء عِنْده لقَاءُ الخَلْق ومُحادثَتُهم، وأحبَّ الأَشْيَاء إِلَيْهِ الخَلوَةُ، وكَانَ

عِنْدَه شُغلٌ عَن القَدحِ فِي النُّظَراءِ، أوْ عَنْ طلبِ الرِّياسَةِ، فَإِنَّ مَا عَلَّقَ بِهِ همَّتَه مِن الآخِرَة أعلىٰ مِن ذَلِكَ.

والنَّفْسُ لا بُدَّ لَهَا مِمَّا تُشاغَلُ بِهِ، فمَن اشتَغَلَ لخِدمةِ الخَلْق أَعْرَضَ عَنِ الحقِّ، فإنَّمَا يُربِّي رِياسَتَه، وذَلكَ يُوجِبُ الإعْرَاضَ عَن الحقِّ، ومَا جَعَل اللهُ لرَجُلٍ مِن قَلبينِ فِي جَوْفِهِ.

❁ فَصْل ❁

قَدْ جَاءَ فِي الأَثَرِ: «اللَّهُمَّ! أَرِنَا الأَشْيَاءَ كَمَا هِيَ»

وهَذَا كَلامٌ حَسَنٌ غَايَةَ الحُسْنِ.

وأَكْثَر النَّاسِ لا يرَونَ الأَشْيَاءَ بعينِها، فَإِنَّهُم يرَونَ الفَانِي كأنَّه باقٍ، ولا يكادُون يتخَايلُون زوَالَ مَا هُم فِيهِ، وإنْ عَلمُوا ذَلِكَ؛ إلَّا أَنَّ أعيُنَ الحِسِّ مَشغولةٌ بالنَّظَر إلىٰ الحاضرِ، ألا ترَىٰ زوالَ اللَّذَّة وبقاءَ إِثْمِها؟! ولَوْ رَأَىٰ اللِّصُّ قطعَ يدِه هانَ عِنْده المَسرُوق.

فمنْ جَمعَ الأموَالَ ولَمْ يُنفِقْها فَمَا رآهَا بعينِها؛ إذْ هي آلةٌ لتَحصِيل الأَغْرَاضِ، لا تُرادُ لذَاتِها، ومَن رَأَىٰ المَعصِيَة بعينَي الشَّهْوة فَمَا رآها؛ إذْ فِيهَا مِن العُيُوب مَا شِئتَ، ثُمَّ ثَمرَتُها عُقُوبَةٌ آجلةٌ، وفضيحةٌ عاجِلةٌ.

وانظُرْ إلىٰ أَكْبَر شَهَوات الحِسِّ، وهُوَ الوَطءُ؛ فَإِنَّ المَاءَ لا يحصلُ إلَّا بَعدَ مَطعمٍ ومَشربٍ، ومَن تَفكَّر فِي المَطْعم نظرَ إلىٰ حَرْثِ الأَرْضِ، وأنَّها تفتقِرُ إلىٰ بقرٍ للحرَاثةِ عليهِنَّ بالمِحراثِ، وهُوَ حديدٌ ومَعهُ خشَبٌ ويتعلَّق بِهِ حِبالٌ. فمن تفكَّر فِي عملِ الحِبالِ فِي زَرعِ القِنَّبِ وتَسريحِه وفَتلِه، والحَديدِ وجَلْبِه وضَربِهُ، والخَشبِ

ونبَاتِه ونِجارَتِه، ودورَانِ الدُّولابِ وعملِه، ثُمَّ استِحصادِ الزَّرعِ وحصدِه وتذرِيَتِهِ وطحنِه وعَجنِه وخَبْزِه، ومِن عَمَلِ التَّنُّورِ وجلبِ الشَّوكِ، ومِن هَذَا الجِنْسِ، إِذَا نَظَر فِيهِ كَثُر جدًّا، حَتَّىٰ قَالُوا: لا تُنَالُ لُقمَةٌ إِلَّا وقَد عَمِلَ فِيهَا ثَلاثمائةِ نفسٍ أَوْ نَحْوُهُم.

فَإِذَا أَكَلَ تِلْكَ اللُّقمةَ فليفكِّرْ فِي خلقِ الأسنَانِ لقَطعِها، والأَضْراسِ لطَحنِها، وعُذوبَةِ مَاء الفَمِ لخَلطِها، واللِّسَان لِيُقَلِّبها، وعَضَلاتِ الفَم يصعَدُ مِنهَا شَيْءٌ ويبقىٰ شَيْءٌ حَتَّىٰ يصلُحَ البَلعُ، ثُمَّ يتَناوَلُها المَعِيُّ فيُوصِلُها إِلىٰ الكبِدِ، فيقُومُ طَابخًا لَهَا، فَإِذَا صَارَتْ دمًا نفَتْ رُسوبَها إِلىٰ الطِّحَالِ، ومَائيَّتَها إِلىٰ المَثانَة، واسْتَخْلَصَتْ مِن أَخْلَص الدَّم وأَصْفَاهُ للكَبِدِ والدِّماغِ والقَلبِ، وأَخَذَتْ أَجْوَدَ ذَلِكَ فحَدَرَتْهُ إِلىٰ الأُنثَيينِ مُعَدًّا لخَلقِ آدمِيٍّ.

فَإِذَا تَحرَّكَت نِيرانُ الشَّهْوةِ تَدفَّقَتْ تِلْكَ النُّطفةُ، وقَد حَكمَ الشَّرْعُ بطَهارتِها، وحَكمَ لَهَا بطَهارَة الرَّحِم والمَحلِّ الَّذِي يُباشرُه الذَّكَرُ، فيُخْلَقُ مِنهَا الآدميُّ المُوحِّدُ، فَمَا جاءَ هَذَا الشَّخْصُ إِلَّا بأغلىٰ الغلاءِ، وبَعدَ عَجائبَ أَشَرنَا إِلَيهَا، لا أَنَّا عَدَدْناهَا!!

أَفمنْ فَهِمَ هَذَا يَحسُنُ مِنْهُ أَنْ يُبدِّدَ تِلْكَ النُّطفَةَ فِي حَرَامٍ، أَوْ أَنْ يَطأَ فِي مَحلٍّ نَجسٍ فتَضيعَ؟! فَكَمْ يَتعلَّقُ بالزِّنا مِن مِحَنٍ لا يَفِي مِعشارُ عُشرِها بلَذَّةِ لَحْظَةٍ؟! مِنهَا هَتكُ العِرضِ بين النَّاسِ، وكَشفُ العَوراتِ المُحرَّمةِ، وخِيانةُ الأخِ المُسلمِ فِي زَوجتِه إِنْ كَانَتْ مُتزَوِّجةً، وفَضيحةُ المَزْنِيِّ بِهَا وهي كأختٍ لَهُ أَوْ بنتٍ، فَإِنْ عَلِقت مِنْهُ ولها زَوجٌ أَلْحقتْهُ بذَلِكَ الزَّوجِ، وكَانَ هَذَا الزَّانِي سَببًا فِي مِيراثِ مَن لا يَستحقُّ، ومَنْعِ مَنْ يَستحقُّ، ثُمَّ يَتسلسَلُ ذَلِكَ مِن وَلدٍ إِلىٰ وَلدٍ.

وأمَّا سَخطُ الحَقِّ سُبْحَانَه؛ فمَعلومٌ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقَالَ ﷺ: «**مَا مِنْ ذَنبٍ بَعدَ الشِّركِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ مِن نُطْفَةٍ وَضَعَهَا رَجُلٌ فِي رَحِمٍ لا تحِلُّ لهُ**»(١)، ومَن لَهُ فَهمٌ يَعلمُ أَنَّ المُرَادَ مِن النُّطْفَةِ إيجَادُ المُوحِّدينَ.

ولَوْلا تَركيبُ الشَّهْوةِ لَمْ يَقَع الوَطءُ؛ لأنَّهُ التِقاءُ عُضوَينِ غَير مُسْتَحْسَنَيْنِ، ولا صُورَتُهما حَسنةٌ، ولا رِيحُهمَا طيِّبٌ، وإنَّمَا الشَّهْوةُ تُغَطِّي عَينَ النَّاظرِ ليَحصُلَ الوَلَدُ أصْلًا، فهي عَارضٌ، فمَنْ طَلبَ الشَّهْوَةَ، ونَسِيَ جِنايتَه بالزِّنا فَمَا رَأَىٰ الأَشْيَاءَ عَلَىٰ مَا هي، وقِسْ عَلَىٰ هَذَا المَطْعمَ والمَشرَبَ وجَمْعَ المَالِ وغَيْرَ ذَلِكَ.

❁ فَصْلٌ ❁

إِنْ قَالَ قَائِلٌ: أَيُّ فَائِدَةٍ فِي خَلْقِ مَا يُؤْذِي؟!

فَالجَوَابُ: أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَتْ حِكْمَةُ الخَالِقِ، فَإذَا خَفِيَتْ فِي بَعْض الأُمُورِ وَجَبَ التَّسْلِيمُ.

ثُمَّ إنَّ المُستَحسَناتِ فِي الجُمْلَةِ أُنموذَجُ مَا أُعِدَّ مِن الثَّوابِ، والمُؤذيَاتِ أُنْموذَجُ مَا أُعِدَّ مِن العِقابِ، وما خُلِقَ شَيْءٌ يَضرُّ إلَّا وفِيهِ مَنفعةٌ.

قِيلَ لبعضِ الأطبَّاءِ: إنَّ فُلانًا يَقُولُ: أنَا كالعَقْرَبِ أَضُرُّ ولا أنفَعُ، فَقَالَ: ما أَقَلَّ عِلمَه، إنَّهَا لتَنفعُ إذَا شُقَّ بطنُها ثُمَّ شُدَّ عَلَىٰ مَوضعِ اللَّسْعَةِ، وقَد تُجعلُ فِي جَوفِ

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن أبي الدنيا – كما في تفسير ابن كثير (٦/ ١٢٥) – وعنه المصنف في «ذم الهوىٰ» (ص ١٩٠) عن الهيثم بن مالك الطائي مرسلًا.

فَخَّارٍ مَسدُودِ الرَّأسِ مُطبقِ الجَوانِبِ، ثُمَّ يُوضعُ الفَخَّارُ فِي تَنُّورٍ، فَإِذَا صَارَت رَمَادًا سُقِيَ مِن ذَلِكَ الرَّمادِ مِقْدَارُ نِصفِ دَانِقٍ أَوْ أَكْثَر مَنْ بِهِ الحَصَاةُ، فَيُفَتِّتُها مِن غَيْر أَنْ يضُرَّ بشَيْءٍ مِن سَائِرِ الأعضَاءِ.

وقَدْ تَلْسَعُ العَقرَبُ مَنْ بِهِ حُمَّىٰ عَتيقةٌ فتزولُ، ولَسَعَتْ رجُلًا مَفْلُوجًا فزَالَ عَنْهُ الفَالِجُ، وقَدْ تُلقَىٰ فِي الدُّهنِ حَتَّىٰ يَجْتَذِبَ قُواهَا فيُزِيلُ ذَلِكَ الدُّهنُ الأورَامَ الغَليظَةَ، ومِثْل هَذَا كَثِيرٌ، فالجَاهِلُ عَدوٌّ لِمَا جَهِلهُ، وأكبَرُ الحَماقةِ رَدُّ الجَاهِلِ عَلَىٰ العَالِمِ.

فَصْل

كُلَّمَا أَوْغَلَتِ الفُهُومُ فِي مَعْرِفَةِ الخَالِقِ، فَشَاهَدَتْ عَظَمَتَهُ ولُطْفَهُ ورِفْعَتَهُ؛ تَاهَتْ فِي مَحبَّتِهِ، فَخَرَجَتْ عَنْ حَدِّ الثُّبُوتِ

وقَدْ كَانَ خلقٌ مِن النَّاسِ غَلَبتْ عَلَيهِم مَحبَّتُه، فَلَمْ يَقدِروا عَلَىٰ مُخَالطَةِ الخَلْقِ، ومنهُمْ مَن لَمْ يَقدِرْ عَلَىٰ السُّكوتِ عَنِ الذِّكرِ، وفِيهِم مَن لَمْ يَنَمْ إِلَّا غَلَبةً، وفِيهِم مَنْ هَامَ فِي البَرارِي، وفِيهِم مَنِ احْترَقَ فِي بَدَنِه! فيَا حُسنَ مَخمُورِهم مَا أَلَذَّ سُكْرَهُ، ويَا عَيشَ قَلِقهمْ مَا أَحْسنَ وَجْدِهِ!

كَانَ أَبُو عُبيدَةَ الخوَّاصُ قَدْ غَلبَه الوَجدُ، فكَانَ يَمشِي فِي الأَسْواقِ يَقُولُ: «وا شَوقَاهُ إلىٰ مَن يَرانِي ولا أَرَاهُ». وكَانَ فَتْحُ بنُ شخرفَ يَقُولُ: «قَدْ طَالَ شَوقِي إِلَيْكَ، فَعَجِّلْ قُدُومِي عَليكَ». وكَانَ قَيسُ بنُ الرَّبيعِ كأَنَّهُ مَخمورٌ مِنْ غَيْرِ شَرابٍ. وكَانَ ابنُ عَقيلٍ يَقُولُ: «التَّبذُّلُ فِيهِ سُبْحَانَه أَحْسنُ مِن التَّجمُّلِ فِي غَيرِه».

هَلْ رَأيْتَ قَطُّ عُراةً أحسَنَ مِن المُحرِمِينَ؟! هَلْ رَأيْتَ للمُتزيِّنينَ بِرياشِ الدُّنْيَا سَمتًا كَأَثْوابِ الصَّالِحِينَ؟! هَلْ رَأيْتَ خِمارًا أَحسَنَ مِن نُعاسِ المُتهجِّدينَ؟! هَلْ

رَأيْتَ سُكْرًا أَحْسنَ مِن صَعَقِ الوَاجِدِينَ؟! هلْ شَاهدْتَ مَاءً صَافيًا أَصْفَىٰ مِن دُموعِ المُتَأَسِّفينَ؟! هل رَأيْتَ رُؤوسًا مَائلةً كرُؤوسِ المُنْكَسِرينَ؟! هلْ لُصِقَ بالأَرْضِ شَيْءٌ أحسَنُ مِن جِباهِ المُصلِّينَ؟ هَلْ حَرَّكَ نَسيمُ الأَسْحَارِ أورَاقَ الأشْجَارِ فبَلَغَ تَحرِيكُهُ أذْيالَ المُتهجِّدينَ؟! هلِ ارتَفعتْ أكُفٌّ وانبَسطتْ أيدٍ فضَاهَتْ أكُفَّ الرَّاغِبينَ؟! هلْ حَرَّكَ القُلُوبَ صَوتُ تَرجيعِ لَحنٍ أوْ رَنَّةِ وَترٍ كَمَا حرَّكَ حَنينُ المُشتاقِينَ؟!

وإنَّمَا يَحسُن التَّبذُّلُ فِي تَحْصِيلِ أَوْفَىٰ الأَغْراضِ؛ فلِذلِكَ حَسُنَ التَّبذُّلُ فِي خِدمةِ المُنعِمِ.

❊ فَصْلٌ ❊

أَكْثَرُهُمْ لا يَعْرِفُ الدِّينَ، ولا يَتَأَدَّبُ بآدَابِه بِمَرَّةٍ

يَتَّفِقُ لَهُ قِلَّةُ العَقْلِ فِي أَصْلِ الوَضْعِ، ثُمَّ ذَلِكَ القَلِيلُ لا يُعَاوَن، بَلْ يُعَانُ عَلَيْهِ!

وذَاكَ أَنَّ الجَارحةَ إِذَا دَامَ تَعطُّلُها عَنْ عَملِها الَّذِي هُيِّئَتْ لَهُ؛ تَعطَّلتْ وخَمدَتْ؛ ولِهذَا تَنقصُ أَبْصَارُ النُّسَّاخِ والرَّفَّائِينَ، وتَحتدُّ أبصَارُ أَهْلِ البَوادِي؛ لأَنَّهُ لا صَادِمَ لأبصَارِهِم.

وشُغلُ العَقْلِ التَّفكُّرُ، والنَّظَرُ فِي عَوَاقِبِ الأحوَالِ، والاسْتدَلَّالُ بالشَّاهِدِ عَلَىٰ الغَائبِ، وهَؤُلاءِ يَمتلِؤُون مِن الطَّعَامِ دَائمًا، وذَلِكَ يُؤذِي العَقْلَ، ثُمَّ يُطِيلُونَ النَّوْمَ، فَإِذَا انتَبهُوا شَربُوا المُسْكِرَ؛ فاتَّفقَ للعَقلِ تَعطيلٌ وتَغطيةٌ، فسَاءَ التَّدبيرُ.

۞ فَصْل ۞

مِنَ المُخاطَراتِ تَحدِيثُ العَوامِّ بِمَا لا تَحْتَمِلُهُ قُلُوبُهم أَوْ بِمَا قَدْ رَسَخَ فِي نُفوسِهِمْ ضِدُّهُ

مِثالُه: أَنَّ قومًا قَدْ رَسَخَ فِي قُلوبِهم التَّشبيهُ، وأنَّ ذَاتَ الخَالِقِ سُبْحَانَه مُلاصقَةٌ للعَرشِ، وهي بقَدرِ العَرْشِ، ويَفضُل مِن العَرْشِ قَدرُ أربعِ أَصَابعَ! وسَمِعُوا مِثلَ هَذَا مِن أَشْيَاخِهم، وثَبتَ عِنْدهم أَنَّهُ إِذَا نَزلَ وانتقَلَ إلىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا خَلَتْ مِنْهُ سِتُّ سَمواتٍ!

فَإِذَا دُعِي أحدُهم إلىٰ التَّنزِيهِ، وقِيلَ لَهُ: لَيسَ كَمَا خَطرَ لكَ، إِنَّمَا يَنْبغِي أَنْ تُمرَّ الأحَادِيثَ كَمَا جَاءَتْ مِن غَيْرِ مُساكنةِ مَا توهَّمْتَهُ، صَعُبَ هَذَا عَلَيهِ؛ لوَجهَين: أَحَدُهُمَا: لغَلَبةِ الحِسِّ عَلَيه، والحِسُّ عَلَىٰ العَوامِّ أغلَبُ. والثَّانِي: لِمَا قَدْ سمِعهُ مِن ذَلِكَ من الأشيَاخِ الَّذِينَ كَانُوا أَجْهلَ منْهُ.

فالمُخاطِبُ لهَذَا مُخاطِرٌ بنَفْسهِ، ولَقَدْ بَلغنِي عَنْ بَعْضِ مَن كَانَ يَتديَّنُ مِمَّنْ قَدْ رَسَخَ فِي قَلبِه التَّشبيهُ، أَنَّهُ سَمعَ مِنْ بَعْضِ العُلَمَاءِ شَيئًا مِن التَّنزِيهِ، فَقَالَ: واللهِ؛ لَوْ قَدَرْتُ عَلَيهِ لقَتلتُه!

فاللهَ اللهَ أَنْ تُحدِّثَ مَخلُوقًا مِن العَوامِّ بِمَا لا يَحتمِلهُ دُونَ احتِيالٍ وتَلطُّفٍ؛ فإنَّه لا يَزولُ مَا فِي نَفْسهِ، ويُخاطِرُ المُحدِّث لَهُ بنَفْسهِ، فكَذَلكَ كُلُّ مَا يَتعلَّقُ بالأُصُولِ.

۞ فَصْلٌ ۞

لا يَغُرُّكَ مِنَ الرَّجلِ طَنْطَنَتُهُ ومَا تَراهُ يَفْعَلُ مِنْ صَلاةٍ وصَوْمٍ وعُزْلَةٍ عَنِ الخَلْقِ، إِنَّمَا الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يُرَاعِي شَيئَينِ: حِفْظَ الحُدُودِ، وإِخْلاصَ العَمَلِ

فكَمْ قَدْ رَأَيْنا مُتَعَبِّدًا يَخْرِقُ الحُدُودَ بالغِيبَةِ وفِعلِ مَا لا يَجُوزُ مِمَّا يُوافِقُ هَواهُ! وكَمْ قَد اعتَبَرْنَا عَلَىٰ صَاحِبِ دِينٍ أَنَّهُ يَقْصِدُ بِفعلِه غَيْرَ اللهِ تَعَالَىٰ! وهَذِهِ الآفَةُ تَزِيدُ وتَنقُص فِي الخَلْقِ.

فالرَّجلُ كُلُّ الرَّجُلِ هُوَ الَّذِي يُرَاعِي حُدودَ اللهِ، وهي مَا فُرِضَ عَلَيهِ وأُلْزِمَ بِهِ، ولا يَتَعَدَّاها إِلىٰ هَواهُ، والَّذِي يُحسنُ القَصدَ، فيَكُونُ عَملُه وقَوْلُه خَالصًا للهِ تَعَالَىٰ، لا يُرِيدُ بِهِ الخَلْقَ ولا تَعظِيمَهم لَهُ؛ فرُبَّ خَاشعٍ لِيُقالَ: نَاسكٌ! وصَامتٍ لِيُقالَ: خَائفٌ! وتَارِكٍ للدُّنيَا لِيُقالَ: زَاهدٌ!

وعَلامةُ المُخلِصِ: أَنْ يَكُونَ فِي جَلْوتِه كخَلْوتِه، ورُبَّما تكلَّف بينَ النَّاسِ التَّبسُّم والانبِساطَ لِيَنمَحِي عَنْهُ اسمُ زَاهِدٍ. فقَدْ كَانَ ابنُ سِيرينَ يَضْحكُ بالنَّهارِ، فإِذَا جَنَّ اللَّيْلُ فكَأَنَّهُ قَتلَ أَهْلَ القَريةِ.

واعْلَمْ؛ أَنَّ المَعمُولَ مَعهُ لا يُرِيدُ الشُّركاءَ، فالمُخلِص مُفردٌ لَهُ بالقَصدِ، والمُرائِي قَدْ أَشْرَكَ لِيحصُلَ لَهُ مَدحُ النَّاسِ، وذَلكَ يَنقلِبُ؛ لأَنَّ قُلوبَهم بيدِ مَن أَشْرَكَ مَعهُ، فهُو يُقلِّبُها عَلَيهِ لا إِلَيْهِ.

فالمُوفَّق مَن كَانَتْ مُعامَلتُه بَاطنةً، وأعمَالُه خَالصةً، وذَاكَ الَّذِي تُحبُّه النَّاسُ وإِنْ لَمْ يُبالِهم، كَمَا يَمْقُتُونَ المُرائِي وإِنْ زَادَ تَعبُّدُه.

ثُمَّ إِنَّ الرَّجلَ المَوصُوفَ بِهَذِهِ الخِصَالِ لا يَتناهَىٰ عَنْ كَمالِ العُلومِ، ولا يَقصُرُ عَنْ طَلبِ الفَضائلِ، فهُو يَملأُ الزَّمَانَ بأَكْثَرَ مَا يَسَعُه مِن الخَيْرِ، وقَلبُه لا يَفْتُرُ عَن العَمَلِ القَلْبِيِّ، إِلىٰ أَنْ يصيرَ شُغْلُه بالحَقِّ سُبْحَانَهُ.

۞ فَصْل ۞

رَأَيْتُ خَلْقًا يُفَرِّطُونَ فِي أَدْيَانِهِمْ، ثُمَّ يَقُولُونَ: احْمِلُونَا إِذَا مِتْنَا إِلَى مَقْبَرَةِ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللهُ!

أَتُراهُم مَا سَمِعُوا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ امتنعَ مِن الصَّلاةِ عَلَىٰ مَن عَلَيهِ دَينٌ[1]، وعلىٰ الغَالِّ، وقَالَ: «**ما ينفَعهُ صَلاتِي عَليْهِ**»[2].

ولَقَدْ رَأَيْتُ أَقْوَامًا مِن العُلَمَاءِ، حَمَلَهم حُبُّ الصِّيتِ عَلَىٰ أَنِ استَخرَجُوا إِذْنًا مِن السُّلطانِ، فدُفِنوا فِي دَكَّةِ أحْمَدَ بنِ حَنْبَل، وهُمْ يَعلمُونَ أَنَّ هُنَاكَ خَلْقًا رُفَاتُ بَعضِهم عَلَىٰ بَعضٍ، ومَا فِيهِمْ إِلَّا مَنْ يَعلَمُ أَنَّهُ مَا يَستحقُّ القُربَ مِن مِثلِ ذَلِكَ!

فأَينَ احتقارُ النُّفُوسِ؟! أمَا سَمِعُوا أَنَّ عُمرَ بنَ عَبْدِ العَزِيز قِيلَ لَهُ: تُدفَنُ فِي الحُجرَةِ؟ فقَالَ: «لَأنْ أَلْقَىٰ اللهَ بكُلِّ ذَنبٍ مَا خَلا الشِّرْكَ أَحبُّ إليَّ منْ أَنْ أَرَىٰ نَفْسِي أَهْلًا لِذلِكَ».

لكِنَّ العَاداتُ وحُبُّ الرِّياسَةِ غَلَبَتْ عَلَىٰ هَؤُلاءِ، فبَقِيَ العِلْمُ يَجْرِي عَلَىٰ الأَلْسُنِ عَادةً لا للعَمل بِهِ.

ثُمَّ آلَ الأَمْرُ إلىٰ جَمَاعَة، خَالطُوا السَّلاطِين، وباشَروا الظُّلْمَ، يُزاحِمون عَلَىٰ الدَّفنِ بمَقبَرةِ أَحْمَدَ، ويُوصُون بذَلِكَ، فلَيتَهُم أَوْصَوا بالدَّفنِ فِي مَوضعٍ فَارغٍ، إِنَّمَا

(١) صحيح: أخرجه البخاريُّ (٢٢٨٩) من حديث سلمة بن الأكوع. ومن حديث أبي هريرة (٢٢٩٨، ٥٣٧١).

(٢) حسن: أخرجه من حديث زيد بن خالد الجهنيِّ: مالك (٩٧٨)، وأحمد (١٧٠٧٢)، وعبد بن حميد (٢٧٢)، وأبو داود (٢٧١٠)، وابن ماجه (٢٨٤٨)، وابن الجارود (١٠٨١)، وابن حبان (٤٨٥٣)، والحاكم (٢٥٨٢) وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين.

يُدفَنونَ عَلَىٰ مَوتَىٰ، ويُخرَج عِظامُ أولَئِكَ فيُحشرُون عَلَىٰ مَا أَلفُوا مِن الظُّلمِ حَتَّىٰ فِي مَوتِهم، ويَنسَوْنَ أَنَّهُمْ كَانُوا مِن أعْوانِ الظَّلَمَة!

أَتُرَىٰ مَا عَلمُوا أَنَّ مُساعدَ الظَّالِم ظَالمٌ؟! وفِي الحَدِيثِ: «**كَفَىٰ بالمَرءِ خيانةً أَنْ يَكُونَ أَمِينًا للخَونةِ**»[1]، قَالَ السَّجَّانُ لأحْمَدَ بنِ حَنبَل: هَلْ أَنَا مِن أَعْوَانِ الظَّلَمَةِ؟ فَقَالَ: لا، أنتَ مِن الظَّلَمَة، إنَّمَا أعوَانُ الظَّلَمَة مَن أعَانَك فِي أَمْرٍ.

❁ فصل ❁

رَأَيْتُ النَّاسَ يذُمُّونَ الحَاسِدَ، ويُبالِغونَ

ويَقُولُونَ: لا يَحْسُدُ إلَّا شِرِّيرٌ يُعادِي نِعْمَةَ اللهِ ولا يَرضَىٰ بقَضَائِه، ويَبْخَلُ عَلَىٰ أَخِيهِ المُسْلِم. فَنَظَرْتُ فِي هَذَا، فَمَا رَأَيْتُه كَمَا يَقُولُونَ، وذَاكَ أَنَّ الإنْسَانَ لا يُحبُّ أَنْ يَرتفِع عَلَيهِ أَحَدٌ، فإذَا رَأَىٰ صَديقَه قَدْ عَلا عَلَيهِ تَأَثَّرَ هُوَ ولَمْ يُحبَّ أَنْ يَرتفِعَ عَلَيهِ، وَوَدَّ لَوْ لَمْ يَنَلْ صَديقُهُ مَا يَنالُ، أوْ أَنْ يَنالَ هُوَ مَا نَالَ ذَاكَ؛ لِئلَّا يَرْتَفِع عَلَيهِ وهَذَا مَعجونٌ فِي الطِّينِ، ولا لَومَ عَلَىٰ ذَلِكَ، إنَّمَا اللَّومُ أَنْ يَعْمَلَ بمُقتضَاهُ مِن قَوْلٍ أَوْ فِعلٍ.

وكُنتُ أَظُنُّ أَنَّ هَذَا قَدْ وَقعَ لي عَنْ دَرسِي وفَحصِي، فرَأَيْتُ الحَدِيثَ عَن الحسَنِ البَصريِّ قَدْ سَبقنِي إلَيهِ:

قال: أخْبَرَنا عَبْد الخَالِق بْن عَبْدِ الصَّمدِ قَالَ: أخبَرَنا ابنُ النَّقُّورِ قَالَ: أَخْبَرَنا المُخَلِّصُ قَالَ: حدَّثَنَا البَغويُّ قَالَ: حدَّثَنَا أَبُو رَوح قَالَ: حدَّثَنَا مَخلدُ بنُ الحُسينِ، عَنْ هِشامٍ، عَنِ الحَسنَ قَالَ: «**لَيسَ من وَلدِ آدمَ أحَدٌ إلَّا وقَدْ خُلِقَ مَعهُ الحَسدُ**».

فمَن لَمْ يُجاوِزْ ذَلِكَ بقَولٍ ولا بفِعلٍ؛ لَمْ يَتْبَعْهُ شَيْءٌ.

---

(١) من قول مالك بن دينار: أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (ص ٣٢٢ - ٣٢٣).

۞ فَصْلٌ ۞

مِنْ أَعْظَمِ الضَّرَرِ الدَّاخِلِ عَلَى الإِنْسَانِ كَثْرَةُ النِّسَاءِ

إِنَّهُ أولًا يَتَشَتَّتُ هَمُّه فِي مَحبَّتِهِنَّ، ومُداراتِهِنَّ وغَيْرَتِهنَّ، والإنفاقِ عَليهِنَّ، ولا يَأْمَنُ إِحْدَاهُنَّ أَنْ تَكْرَهَهُ وتُرِيدُ غَيْرَه فَلا تَتخلَّصُ إلَّا بقَتلِه.

ولو سَلِمَ مِن جَميع ذَلِكَ لَمْ يَسلَمْ فِي الكَسبِ لَهُنَّ، فَإِنْ سَلمَ لَمْ يَنجُ مِنَ السَّآمةِ لهنَّ أَوْ لبَعضِهنَّ، ثُمَّ يَطلُب مَا لا يَقدِر عَلَيهِ مِن غيرِهنَّ، حَتَّىٰ إِنَّهُ لَوْ قَدَرَ عَلَىٰ نِسَاءِ بَغدادَ كُلِّهِنَّ، فقَدِمتِ امرَأَةٌ مُستتِرةٌ مِن غَيْرِ البَلدِ؛ ظَنَّ أَنَّهُ يَجدُ عِندَهَا مَا لَيس عِندَهُنَّ! ولَعَمْرِي؛ إنَّ فِي الجِدَّةِ لذَّةٌ، ولَكِنْ رُبَّ مَستورٍ إِذَا انكَشفَ افتُضِحَ.

ولَوْ أَنَّهُ سَلِمَ مِن كُلِّ أَذًىٰ يَتعلَّقُ بِهِنَّ أَنْهكَ بَدنَهُ فِي الجِماعِ، فيَكُونُ طَلَبُه للالتِذاذِ مَانِعًا مِن دَوامِ الالتِذاذِ، ورُبَّ لُقمَةٍ مَنعَتْ لُقُماتٍ، ورُبَّ لَذَّةٍ كَانَتْ سَببًا فِي انقطاعِ لذَّاتٍ.

والعَاقِلُ مَن يَقْتَصِرُ عَلَىٰ الوَاحِدَة إِذَا وافقَتْ غَرَضَه، ولا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِيهَا شَيْءٌ لا يُوافِقُ، إنَّمَا العَمَلُ عَلَىٰ الغَالِب، فتُوهَبُ الخَلَّةُ الرَّديَّةُ للمُجِيدَةِ.

ويَنْبغِي أَنْ يَكُونَ النَّظَرُ إلىٰ بَاب الدِّين قبلَ النَّظَر إلىٰ الحُسْنِ؛ فإِنَّه إِذَا قَلَّ الدِّينُ لَمْ يَنتفِع ذو مُروءةٍ بتِلْكَ المَرْأَةِ.

وممَّا يُهلِكُ الشَّيْخَ سَريعًا الجِماعُ، فَلا يغترَّ بِمَا يَرَىٰ مِن انبساطِ الآلةِ وحُصُولِ الشَهْوَةِ، وذَلكَ مُسْتَخرِجٌ مِن قوَّته مَا لا يعودُ مثلُه، فَلا يَنْبغِي أَنْ يغترَّ بحَرَكَةٍ وشَهْوَةٍ، ولا يَقْرُبُ مِن النِّسَاء إنَّ كَانَ لَهُ رَأْيٌ فِي البقاءِ.

فصل

إذَا رَأَيْتَ قَلِيلَ العَقْلِ فِي أَصْلِ الوَضْعِ؛ فَلا تَرْجُ خَيْرَهُ فَأَمَّا إِنْ كَانَ وَافِرَ العَقْلِ، لَكِنَّهُ يَغْلِبُ عَلَيهِ الهَوَى؛ فَارْجُهُ

وعلامةُ ذَلِكَ: أَنَّهُ يُدبِّرُ أَمْرَه فِي جَهلِه، فيستَتِرُ مِن النَّاس إِذَا أَتَىٰ فاحِشةً، ويراقبُ فِي بَعْض الأَحوَالِ، ويَبْكِي عِنْدَ المَوْعِظَةِ، ويَحْتَرِمُ أَهْلَ الدِّينِ؛ فهَذَا عاقلٌ مغلُوبٌ بالهَوَىٰ، فَإذَا انتبهَ بالنَّدمِ انقبَضَ شيطَانُ الهَوَىٰ وجاءَ مَلَكُ العَقْلِ.

فأَمَّا إِذَا كَانَ قليلَ العَقْل فِي الوَضْعِ - وعلامَتُهُ: أَلَّا يَنْظُرَ فِي عَاقبةٍ عَاجلةٍ ولا آجِلةٍ، ولا يَستحِيَ مِنَ النَّاس أَنْ يَرَوْهُ عَلَىٰ فاحشةٍ، ولا يدبِّرُ أَمْرَ دُنياه -؛ فذَاك بعيدُ الرَّجاءِ.

وقَدْ يندُرُ مِن هَؤُلاءِ مَنْ يُفلِحُ، ويكُون السَّبَب فِيهِ خَمِيرةٌ مِن العقْلِ غَطَّىٰ عَليْهَا الهَوَىٰ، ثُمَّ تَكَشَّفَ قليلًا لِيَعودَ؛ فمَثَلُهُم كَمَثَلِ مَصْرُوعٍ أَفَاقَ.

فصل

يَنْبَغِي الاحْتِرَازُ مِن كُلِّ مَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُقالَ: الغَالِبُ السَّلَامَةُ

وقَدْ رَأَيْنا مَن نَزلَ معَ الخَيلِ فِي سَفِينَةٍ، فَاضْطَرَبَتْ، فغَرِقَ مَن فِي السَّفِينَةِ، وإِنْ كَانَ الغَالِبُ فِي هَذِهِ الحَالةِ السَّلَامَةَ.

وكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يُقدِّرَ الإنْسَانُ فِي نَفَقتِه، وإِنْ رَأَىٰ الدُّنْيَا مُقبِلَةً؛ لجَوَازِ أَنْ تَنقطِعَ تِلْكَ الدُّنْيَا، وحَاجةُ النَّفْسِ لا بُدَّ مِن قَضائِها، فَإِذَا بَذَّر وَقتَ السَّعةِ، فجَاءَ وقْتَ الضِّيقِ؛ لَمْ يَأمَنْ أَنْ يَدْخُلَ فِي مَداخِلَ سُوءٍ، وأَنْ يتعرَّض بالطَّلَبِ مِن النَّاسِ.

وكَذَلكَ يَنْبغِي للمُعافَىٰ أَنْ يَعُدَّ للمَرَضِ، وللقوِيِّ أَنْ يتهيَّأَ للهَرَمِ.

وفِي الجُمْلَةِ؛ فالنَّظَرُ فِي العَوَاقِب وفيمَا يَجُوزُ أَنْ يَقَعَ شأْنُ العُقَلاءِ، فأَمَّا النَّظَرُ فِي الحَالةِ الرَّاهنةِ فحَسبُ فَحَالةُ الجَهَلةِ الحَمْقَىٰ، مثلُ أَنْ يَرَىٰ نَفْسَه مُعافًىٰ ويَنسَىٰ المَرَضَ، أوْ غَنيًّا وينسَىٰ الفَقْرَ، أوْ يَرَىٰ لَذَّةً عاجِلةً وينسَىٰ مَا تَجْنِي عَوَاقِبُها.

ولَيْسَ للعَقْلِ شُغْلٌ إلَّا النَّظَرَ فِي العَوَاقِب، وهُوَ يُشِيرُ بالصَّوَاب مِن أيْنَ يُقبِلُ.

فَصْلٌ

يَبِينُ إِيمَانُ المُؤْمِنِ عِنْدَ الابْتِلَاءِ

فَهُو يُبالِغُ فِي الدُّعَاءِ ولا يَرَىٰ أَثَرًا للإجَابَةِ، ولا يتَغيَّرُ أَمَلُه ورَجَاؤُهُ، ولَوْ قَوِيَتْ أَسْبَابُ اليَأْسِ.

لعِلمِه أَنَّ الحَقَّ أَعْلَمُ بالمَصَالِح، أوْ لأَنَّ المُرَادَ مِنْهُ الصَّبْرُ أو الإِيمَانُ؛ فإِنَّه لَمْ يَحْكُمْ عَلَيهِ بذَلِكَ إلَّا وهُوَ يُرِيدُ مِن القَلْبِ التَّسْلِيمَ؛ لينظُرَ كَيْفَ صَبْرُهُ، أوْ يُرِيدُ كَثْرَةَ اللُّجَإِ والدُّعَاءِ.

فأَمَّا مَن يُرِيدُ تَعجيلَ الإجَابَةِ، ويتذَمَّرُ إنْ لَمْ تتعَجَّلْ؛ فذَاكَ ضَعِيفُ الإِيمَان، يَرَىٰ أَنَّ لَهُ حقًّا فِي الإجَابَةِ، وكأَنَّه يتقاضَىٰ أُجْرَةَ عَملِه!

أَمَا سَمِعتَ قِصَّة يَعقُوبَ ﷺ؛ بَقِيَ ثَمَانِين سنةً فِي البَلاءِ، ورجَاؤُه لا يتَغيَّرُ، فَلَمَّا ضُمَّ إلىٰ فَقْدِ يُوسُفَ فَقْدُ بِنيامينَ؛ لَمْ يتَغيَّرْ أملُهُ، وقَالَ: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف: ٨٣]؟

وقَدْ كَشفَ هَذَا المَعنَىٰ قولُهُ تعَالَىٰ: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة ٢١٤]، ومَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا لا يَصْدُر مِن الرَّسُولِ والمُؤْمِنينَ إلَّا بَعدَ طُولِ البَلاءِ وقُربِ اليَأْس مِن الفَرَج.

ومِن هَذَا: قَوْلُ رَسُول اللهِ ﷺ: «**لا يَزَال العَبْدُ بخيرٍ مَا لَمْ يَستعجِلْ**» قِيلَ لَهُ: ومَا يَستعجِلُ؟ قَالَ: «**يَقُولُ: دعوتُ فَلَم يُستجَبْ لِي**»(١).

فإيَّاكَ أَنْ تَسْتَطِيلَ زَمَانَ البَلاءِ، وتَضْجَرَ مِن كَثْرَةِ الدُّعَاءِ؛ فإنَّكَ مُبتلًىٰ بالبَلاءِ، مُتَعَبَّدٌ بالصَّبْرِ والدُّعَاءِ، ولا تيْأَسْ مِن رَوْحِ اللهِ وإنْ طَالَ البَلاءُ.

۞ فَصْل ۞

تَذَكَّرْتُ فِي سَبَبِ دُخُولِ جهَنَّمَ؛ فَإذَا هُوَ المَعَاصِي، فَنَظَرْتُ فِي المَعَاصِي؛ فَإِذَا هِي حَاصِلَةٌ مِن طَلَبِ اللَّذَّاتِ، فَنَظَرْتُ فِي اللَّذَّاتِ؛ فَرَأَيْتُها خُدعًا لَيسَتْ بشَيْءٍ، وفي ضِمنِها مِن الأَكْدارِ مَا يُصيِّرُها نَغصًا، فتَخرُج عَنْ كَونِها لذَّاتٍ، فَكَيفَ يَتبَعُ العَاقِلُ نَفْسَه ويَرضَى بجَهنَّم لأجلِ هَذِهِ الأكدارِ؟!

فمِنَ اللَّذَّاتِ: الزِّنا؛ فَإِنْ كَانَ المُرَادُ إرَاقةَ المَاء؛ فَقدْ يُرَاقُ فِي حَلالٍ، وإنْ كَانَ فِي المَعشوقِ؛ فمُرادُ النَّفْسِ دَوامُ البَقاءِ مع المَعشوقِ، فَإذَا هي مَلَكَتْهُ؛ فالمَمْلُوكُ مَمْلُولٌ، وإنْ هُوَ قَارَبهُ سَاعَةً ثُمَّ فارَقَه فحَسرةُ الفِراقِ تربُو عَلَىٰ لَذَّة القُرْبِ، وإنْ كَانَ

---

(١) صحيح: أخرجه من حديث أبي هريرة: مالك في «الموطإ» (٥٦٩)، وأحمد (٩١٤٨، ١٠٣١٢)، والبخاري (٦٣٤٠)، وفي «الأدب المفرد» (٦٥٤)، ومسلم (٧٠٣٤، ٧٠٣٥)، وأبو داود (١٤٨٤)، وابن ماجه (٣٨٥٣)، والترمذي (٣٣٨٧)، وابن حبان (٩٧٥).

وُلِدَ لَهُ مِن الزِّنا؛ فالفَضيحَةُ الدَّائمةُ، والعُقُوبَةُ التَّامَّة، وتَنكيسُ الرَّأس عِنْدَ الخَالِقِ والمخلوقِ. وأمَّا الجَاهِلُ فيرَىٰ لذَّتهُ فِي بُلوغِ ذَلِكَ الغَرَض، ويَنسَىٰ مَا يَجْنِي مِمَّا يُكدِّر عَيشَ الدُّنْيَا والآخِرَةِ.

ومن ذَلِكَ: شُربُ الخَمرِ، فإنَّه تَنجيسٌ للفَمِ والثَّوبِ، وإبعادٌ للعَقْلِ، وتأثيراتُه معلُومةٌ عِنْدَ الخَالِقِ والمخلوقِ، فالعَجبُ مِمَّنْ يُؤْثِر لَذَّةَ سَاعَةٍ تَجنِي عِقابًا وذهَابَ جَاهٍ، ورُبَّما خَرَجَ بالعَرْبَدَةِ إلىٰ القَتلِ.

وعَلَىٰ هَذَا فقِسْ جَميعَ المَذوقَاتِ؛ فَإِنَّ لذَّاتِها إِذَا وُزِنَتْ بمِيزانِ العَقْل لا تَفِي بمِعشارِ عُشَيرِ عَوَاقِبِها القِباحِ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ، ثُمَّ هي نَفْسها لَيسَتْ بكثيرِ شَيْءٍ، فكَيفَ تُباعُ الآخِرَة بمِثلِ هَذَا؟!

سُبحانَ مَن أَنْعَمَ عَلَىٰ أَقوَامٍ، كُلَّمَا لاحَتْ لَهُم لَذَّةٌ نَصَبُوا مِيزَانَ العَقْلِ، ونظَرُوا فِيمَا يَجنِي، وتَلمَّحوا مَا يُؤَثِّرُ تركُها، فرجَّحُوا الأَصْلحَ، وطَمَسَ عَلَىٰ قلوبٍ، فهي تَرَىٰ صُورَةَ الشَّيءِ وتَنسَىٰ جِنايَاتِه!

ثُمَّ العَجبُ أَنَّا نَرَىٰ مَن يَبْعُدُ عَنْ زوجَتِه وهُوَ شابٌّ ليَعْدُوَ فِي الطَّرِيقِ، فيُقالُ: سَاعٍ! فيغلِبُ هواهُ لطَلَبِ مَا هُوَ أعلَىٰ - وهُوَ المَدحُ -؛ كَيْفَ لا يترُك مُحرَّمًا ليُمدَح فِي الدُّنْيَا والأخرَىٰ؟!

ثُمَّ قَدِّرْ حُصُولَ مَا طلَبتَ مِن اللَّذَّات وذهَابَها، وأحسبُ أنَّها قَدْ كَانَتْ وقَد هانَتْ وتخلَّصتْ مِن مِحَنِها؛ أيْنَ أنتَ من غَيرِك؟! أيْنَ تَعبُ عَالِمٍ قَدْ درَسَ العِلْمَ خَمسينَ سنةً؟! ذَهَبَ التَّعبُ وحَصلَ العِلْمُ! وأيْنَ لَذَّةُ البطَّال؟! ذهبَتِ الرَّاحَةُ وأعقَبتِ النَّدَم!

۞ فَصْلٌ ۞

مَنْ وَقَفَ عَلَى مُوجِبَ الحِسِّ هَلَكَ، ومَنْ تَبعَ العَقْلَ سَلِمَ

لأَنَّ مُجرَّدَ الحِسِّ لا يَرَىٰ إِلَّا الحَاضِرَ، وهُوَ الدُّنْيَا، وأَمَّا العَقْلُ فإِنَّه ينظرُ إلىٰ المَخلُوقاتِ، فيعلَمُ وُجُودَ الخَالِقِ، ويَعلمُ أَنَّهُ قَدْ مَنحَ وأبَاحَ وأطلَقَ وحَظَرَ، وأخبرَ أنِّي سَائلُكم ومُبتلِيكُم، ليَظهرَ دَلِيلُ وجُودِي عِندَكم بتَركِ مَا تَشتهُون طَاعَةً لِي، وأَنِّي قَدْ بَنيتُ لكُمْ دَارًا غَيْرَ هَذِهِ؛ لإثَابَةِ مَنْ يُطيعُ، وعُقُوبَةِ منْ يُخالِفُ.

ثُمَّ لَوْ تُركَ الحِسُّ ومَا يَشتهِي معَ أَغْرَاضِه؛ قَرُبَ الأَمْرُ! إنَّمَا يزْني فيُجلَدُ، ويَشربُ الخَمرَ فيُعاقَبُ، ويَسرِق فيُقطعُ، ويَفعلُ ذَلَّةً فيُفضَحُ بينَ الخَلْقِ، ويُعرِضُ عَنِ العِلْمِ إلىٰ البَطالةِ فيَقعُ النَّدمُ عِنْدَ حُصُول الجَهْلِ.

ثُمَّ إِنَّا نَرىٰ الكَثيرَ مِمَّنْ عَمِلَ بمُقتضَىٰ عَقلِه قَدْ سَلمَتْ دُنياهُ وآخِرَتُه، ومُيِّزَ بينَ الخَلْقِ بالتَعظِيمِ، وكَانَ عَيشُه فِي لذَّاتِه غَالِبًا خَيرًا مِن عَيْشٍ مُوافِقٍ للهَوَىٰ.

فليَعتبِرْ ذُو الفَهْمِ بِمَا قُلْتُ، ولْيعْمَلْ بمُقتضَىٰ الدَّلِيلِ، وقَد سَلِمَ.

۞ فَصْلٌ ۞

العَجَبُ لِمُؤْثِرِ شَهَواتِ الدُّنْيَا

أَلَا يَتَدَبَّرُ أَمْرَها بالعَقْلِ قَبْلَ أَنْ يَصِيرَ إِلَىٰ مَنْقُولاتِ الشَّرْعِ؟!

إنَّ أَعْظَم لَذَّاتِ الحِسِّ الوطءُ؛ فالمَرْأَةُ المُسْتَحْسَنَةُ إِنَّمَا يَكُونُ حَالُ كَمَالِها مِن وَقْتِ بلُوغِها إلىٰ الثَّلاثِين، فَإِذَا بلغَتْهَا أَثَّر فِيهَا مَا مضَىٰ مِن عُمُرِها فِي الوِلادَةِ وغَيرِها، ورُبَّما ابيضَّتْ شَعَراتٌ مِن رَأْسِها فينفُرُ الإِنْسَانُ مِنهَا، وقَد يَقعُ المَلَلُ قَبلَ ذَلِكَ، وطولُ الصُّحبةِ يكْشِفُ العُيُوبَ.

ومَا عِيبَ نِسَاءُ الدُّنْيَا بأبلغَ من قَولِه: ﴿لَهُمْ فِيهَآ أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [النساء: ٥٧]، فلَوْ تفكَّرَ الإنْسَانُ فِي جَسدٍ مملوءٍ بالنَّجاسَة مَا طَابَ لَهُ ضمُّه، غَيْرَ أَنَّ الشَّهْوةَ تُغطِّي عينَ الفِكرِ، فالعَاقِلُ مَن حَفظَ دينَهُ ومُروءتَه بتَركِ الحَرَامِ، وحَفظَ قوَّتهُ فِي الحَلالِ، فأنفقَها فِي طلبِ الفَضائِلِ مِن عِلمٍ أوْ عَملٍ، ولَمْ يَسْعَ فِي إفناءِ عُمُره وتَشتيتِ قَلبه فِي شَيْءٍ لا تَحْسُنُ عَاقبَتُهُ:

مَا فِي هَوَادِجِكُمْ مِنْ مُهْجَتِي عِوَضٌ ** إِنْ مِتُّ شَوْقًا وَلا فِيهَا لَهَا ثَمَنُ

وعمُومُ مَن رَأيْنا مِن الكِبارِ غلبَتْ عَلَيهِم شَهْوَةُ الوَطءِ؛ فَانْهَدَمَتْ أَعْمَارُهم، ورحَلُوا سَرِيعًا، وقَدْ رَأيْنا مِنَ العُقَلاءِ مَن زَجَرَ نَفْسَه عَنْ هَذِهِ المِحنَة، ولَمْ يسْتعملْهَا إلَّا وقتَ الحَاجَة؛ فبقِيَ لَهُم سَوادُ شُعورِهم وقُوَّتهم، حَتَّىٰ تمتَّعُوا بِهَا فِي الحَيَاةِ، وحصَّلوا المَناقبَ، وعَرَفَتْ مِنهُم النُّفُوسُ قُوَّةَ العَزِيمَةِ؛ فَلَم تُطالِبْهُم بِمَا يُؤذِي.

فَصْلٌ

قَدْ أَشْكَلَ عَلَى النَّاسِ رُؤْيَةُ النَّبِيِّ ﷺ، وقَوْلُه: «مَنْ رَآنِي فِي المَنَامِ فَقَدْ رَآنِي»[1]

فَقَالَ: ظَاهِرُ الحَدِيثِ أَنَّهُ يَراهُ حَقِيقَةً، وفِي النَّاسِ مَن يَرَاهُ شَيْخًا وشَابًّا ومَرِيضًا ومُعافًىٰ!

فالجَوابُ: أَنَّهُ مَن ظنَّ أَنَّ جَسدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ المُودَعَ فِي المَدينةِ خَرجَ مِن القَبْرِ وحَضرَ فِي المَكانِ الَّذِي رَآهُ فِيهِ؛ فهَذَا جَهلٌ لا جَهلَ يُشبِهُهُ؛ فقَدْ يَراهُ فِي وقتٍ

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١١٠، ٦١٩٧، ٦٩٩٣) ومسلم (٢٢٦٦) من حديث أبي هريرة. والبخاري (٦٩٩٦) ومسلم (٢٢٦٧) من حديث أبي قتادة. والبخاري (٦٩٩٤) من حديث أنس. ومسلم (٢٢٦٨) من حديث جابر.

وَاحِدٍ ألفُ شَخْصٍ فِي ألفِ مَكانٍ عَلَىٰ صُوَرٍ مُختلفةٍ، فَكَيفَ يُتَصَوَّرُ هَذَا فِي شَخْصٍ وَاحِدٍ؟! وإِنَّمَا الَّذِي يُرَىٰ مِثالُهُ لا شَخْصُهُ، فيَبقَىٰ «مَنْ رَآنِي فَقدْ رَآنِي» مَعناهُ: قَدْ رَأَىٰ مِثالِي الَّذِي يُعَرِّفُهُ الصَّوابَ، وتَحصُلُ بِهِ الفَائِدَةُ المَطْلُوبةُ.

فإنْ قِيلَ: فَمَا تَقُولون فِي رُؤيَة الحَقِّ سُبْحَانَهُ؟

فنَقُولُ: يُرَىٰ مِثالًا لا مِثْلًا، والمِثالُ لا يفتَقرُ إلىٰ المُساواةِ والمُشابَهةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا ﴾ [الرعد: ١٧]، فضرَبَهُ مِثالًا للقُرآنِ وانتِفاعِ الخَلْقِ بِهِ.

ويُوضِّحُ هَذَا: أَنَّهُ إِنَّمَا يَرَىٰ مَن رَأَىٰ الحَقَّ ﷻ عَلَىٰ هيئةٍ مَخْصُوصةٍ، والحَقُّ ﷻ مُنزَّهٌ، قَدْ تَوحَّدَ؛ فوضَحَ مَا قُلناهُ.

فَصْل

هَذَا فَصْل غَزِيرُ الفَائِدَةِ:

اعْلَمْ أَنَّهُ لَو اتَّسعَ العُمُرُ لَمْ أَمْنَعْ مِن الإيغَالِ فِي كُلِّ عِلْمٍ إِلَىٰ مُنْتَهاهُ، غَيْرَ أَنَّ العُمُرَ قَصِيرٌ، والعِلْمَ كَثِيرٌ!

فيَنْبغِي للإنْسَانِ أَنْ يَقتصِرَ مِن القِراءاتِ إِذَا حَفظَ القُرْآنَ عَلَىٰ العَشْرِ، ومنَ الحَدِيث عَلَىٰ الصِّحاحِ والسُّنَنِ والمسانِيدِ المُصنَّفةِ؛ فَإِنَّ عُلومَ الحَدِيثِ قَدِ انبسَطتْ زَائدةً فِي الحَدِّ، والمُتونُ مَحصورةٌ، وإنَّمَا الطُّرُقُ تَختلفُ.

وعِلمُ الحَدِيثِ يتعلَّقُ بعضُه ببعضٍ، وهُوَ مُشتَهًىٰ، والفُقَهاءُ يُسمُّونَهُ علمَ الكُسَالَىٰ؛ لأَنَّهُم يَتشَاغَلونَ بكِتابَتِهِ وسمَاعِهِ، ولا يَكادُون يُعانُون حِفظَهُ، ويفُوتُهُم المُهِمُّ، وهُوَ الفِقهُ.

وقَدْ كَانَ المُحدِّثون قديمًا هُمُ الفُقَهَاءَ، ثُمَّ صَارَ الفُقَهَاءُ لا يعرِفُون الحَدِيثَ، والمحدِّثُون لا يعرِفونَ الفِقهَ، فمنْ كَانَ ذا هِمَّةٍ، ونَصَحَ نَفْسَه تَشاغلَ بالمُهمِّ مِن كُلِّ عِلمٍ، وجعلَ جُلَّ شُغلِه الفِقْهَ، فَهُو أعْظَمُ العُلومِ وأهمُّهَا.

وقَدْ قَالَ أَبُو زُرعَةَ: كَتبَ إليَّ أَبُو ثَورٍ: فَإِنَّ هَذَا الحَدِيثَ قَدْ رَواهُ ثَمانيةٌ وتِسعُونَ رَجلًا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ[1].

والَّذِي صَحَّ مِنْهُ طُرقٌ يَسيرةٌ، فالتَّشَاغُلُ بغَيْرِ مَا صَحَّ يَمنعُ التَّشَاغُلَ بِمَا هُوَ أهَمُّ، ولَوِ اتَّسعَ العُمرُ كَانَ استِيفاءُ كُلِّ الطُّرقِ فِي كُلِّ الأحَادِيثَ غَايةً فِي الجَودةِ، ولَكِنَّ العُمرَ قَصيرٌ.

ولَمَّا تَشاغَلَ بالطُّرقِ مِثْلُ يَحْيَىٰ بن مَعينٍ فَاتَه مِن الفِقهِ كَثِيرٌ، حَتَّىٰ إِنَّهُ سُئلَ عَنِ الحَائضِ: أيَجُوزُ أَنْ تغسلَ المَوْتىٰ؟ فَلمْ يَعلَم، حَتَّىٰ جَاءَ أَبُو ثَورٍ فَقَالَ: يَجُوز؛ لأنَّ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: كُنْتُ أُرَجِّلُ رَأسَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وأنَا حَائضٌ[2]. فيَحْيَىٰ أعْلَمُ بالحَدِيثِ مِنْهُ، ولَكِنْ لَمْ يَتشَاغَل بفَهمِه؛ فأنَا أَنْهَىٰ أَهْلَ الحَدِيثِ أَنْ تَشغَلهُم كَثْرةُ الطُّرقِ.

(١) الحديث المشار إليه هو - والله أعلم - حديث: «**من كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار**» فقد ذكر المصنف في مقدمة «الموضوعات» (١/ ٥٣) أنه رواه من الصحابة ثمانية وتسعون نفسًا. وفي «سؤلات البرذعي لأبي زرعة» (٢/ ٧٧٣): «سمعت أبا زرعة يقول: كتب إلي أبو ثور: لم يزل هذا الأمر في أصحابك حتىٰ شغلهم عنه إحصاء عدد رواة: من كذب علي متعمدًا؛ فغلبهم هؤلاء القوم عليه». وفي «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم (١/ ٣٤٤): «سمعت أبا زرعة يقول: كتب إلي أبو ثور، فقال في كتابه: كان الأمر قديمًا أمر أصحابك - يعنىٰ في التفقه - حتىٰ نشأ قوم فاشتغلوا بعدد الأحاديث وتركوا التفقه».

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٩٥، ٢٩٦، ٢٠٢٨)، ومسلم (٢٩٧).

ومِن أَقْبَحِ الأَشْيَاء أَنْ تَجرِي حَادثةٌ، يُسْأَلُ عَنْهَا شَيْخٌ قَدْ كَتبَ الحَدِيثَ ستِّينَ سنةً، فَلا يعرِفُ حُكمَ اللهِ ﷻ فيها.

وكَذَلكَ أَنْهَىٰ مَنْ يَتشَاغَلُ بالتَّزهُّد والانْقِطَاع عَنِ النَّاس أَنْ يُعْرِضَ عَنِ العِلْم، بَلْ يَنْبغِي أَنْ يَجعَل لنَفْسِه مِنْهُ حَظًّا؛ ليعلَمَ إنْ زلَّ كَيْفَ يتخلَّصُ.

۞ فَصْلٌ ۞

مَعْرِفَةُ اللهِ سُبْحَانَهُ لا تَحْصُلُ إِلَّا لِكَامِلِ العَقْلِ، صَحِيحِ المِزَاجِ وَالتَّرَقِّي إِلَى مَحَبَّتِهِ بِذَلِكَ يَكُونُ

وإِنَّ أَقْوَامًا قَلَّتْ عُقُولُهم، وفسَدَتْ أَمْزِجَتُهم؛ فسَاءتْ مَطاعِمُهُم، وقَلَّتْ، فتَخَايَلَتْ لَهُم الخَيَالاتُ الفاسِدَةُ، فادَّعَوْا مَعْرِفَةَ الحَقِّ ومحبَّتَهُ، ولَمْ يَكُنْ عِنْدهم مِن العِلْم مَا يصدُّهم عمَّا ادَّعُوا؛ فَهلَكُوا.

وعَلَىٰ المُؤمِنِ أَنْ يَرْعَىٰ حَقَّ بَدَنِه، وليتخيَّر لَهُ الأغذيَةَ، وليُعلم أَنَّ فِي المَأْكُولاتِ مَا يُسَبِّب إفسَادَ العَقْل، وفيها مَا يزيدُ فِي السَّوداءِ فيُوجِبُ المَاليخُوليَا، فترىٰ صَاحِبَها يحبُّ الخَلْوَةَ، ويَهْرَبُ مِن النَّاس، وقَد يُقلِّل المَطْعم، فيقْوىٰ مرضُهُ، فيتخَايلُ خيالاتٍ يظنُّها حقًّا، فمِنْهُم مَن يَقُولُ: إِنِّي رَأَيْتُ المَلائِكَةَ! وفِيهِم مَن يُخرجُه الأَمْرُ إلىٰ دَعوَىٰ مَحبَّةِ الحَقِّ والوَلَهِ فِيهِ، ولا يَكُون ذَلِكَ عَنْ أصلٍ مُعتمَدٍ عَليْهِ.

وإِنَّمَا العَاقِلُ العَالِم يَسِيرُ فِي الطَّرِيق بين الرَّفيقين: العِلْم والعَقْل؛ فإنْ تقلَّل مِن الطَّعَامِ فبعَقلٍ، وحدُّ التَّقلُّل تركُ فُضُولِ المَطْعم، ومَا يَخافُ شَرَّه مِن شُبهَةٍ أَوْ شَهْوَةٍ يَحْذَرُ تعوُّدَها، وأمَّا زِيادَةُ التَّقلُّل معَ القُدْرَة؛ فلَيْس لعَقْلٍ ولا شَرْعٍ؛ إلَّا أَنْ يَكُون الفَقْر عمَّ، فيَتقلَّل ضَرُورةً.

ومَنْ تَأمَّل حَالَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وأَصْحَابهِ، وجَدَهُم يأخُذونَ بمِقْدَارٍ، ولا يَتركُون حُظُوظَ النَّفْسِ الَّتِي تُصْلِحُها، وأحسَنُ الأَمْرِ وأعْدلُه قَوْلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ: **«ثُلثٌ طَعامٌ، وثُلُثٌ شَرابٌ، وثُلثٌ نَفَس»**[١]، وقَدْ قَالَ لعَليِّ بْنِ أَبِي طَالبٍ رضي الله عنه وهُوَ مَريضٌ: «أَصِبْ مِن هَذَا الطَّعَامِ، فَهُو أَوْفقُ لَكَ مِن هَذا»[٢]، وكَانَ ﷺ يُشاوِرُ الأَطبَّاءَ[٣]، ويَحتجِمُ[٤]، ويَحثُّ عَلَىٰ التَّدَاوِي، ويَقُولُ: **«ما أنزَلَ اللهُ دَاءً إلَّا وأنْزلَ لَهُ شِفاءً؛ فتَداوَوْا»**[٥].

---

(١) **صحيح**: أخرجه من حديث المقدام بن معد يكرب: الترمذي (٢٣٨٠) وقال: حسن صحيح. والنسائي (٦٧٦٨)، وابن ماجه (٣٣٤٩)، وابن حبان (٥٢٣٦)، والحاكم (٧١٣٩، ٧٩٤٥) وقال: صحيح الإسناد.

(٢) **حسن**: أخرجه أبو داود (٣٨٥٦)، والترمذي (٢٠٣٧) وقال: حديث حسن. وابن ماجه (٣٤٤٢)، وأحمد (٢٧٠٥١)، والحاكم (٧٤٥٢، ٧٤٥٣) وقال: صحيح الإسناد، من حديث أم المنذر بنت قيس الأنصارية.

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٢٠٧) من حديث جابر قال: بعث رسول الله ﷺ إلىٰ أُبَيّ بن كعب طبيبًا، فقطع منه عرقًا، ثم كواه عليه.

(٤) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٢٨٠)، ومسلم (٥٨٠١) من حديث أنس.

(٥) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٣٨٧٤) من حديث أبي الدرداء. وقال ابن الملقن في «تحفة المحتاج» (٢/ ٩): «إسناده صحيح». وأخرجه أحمد (١٢٥٩٦) من حديث أنس. وأخرجه الحميدي (٩٠)، وأحمد (٣٥٧٨، ٣٩٢٢)، وابن ماجه (٣٤٣٨) من حديث ابن مسعود بلفظ: «ما أنزل الله ﷻ داء، إلا أنزل له دواء، علمه من علمه، وجهله من جهله». وقال ابن حجر في «بذل الماعون» (٥١): «إسناده صحيح وله شواهد بعضها في صحيح مسلم». يشير إلىٰ ما عند مسلم (٢٢٠٤) من حديث جابر بن عبد الله بلفظ: «لكل داء دواء فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله ﷻ». وعند البخاري (٥٦٧٨) من حديث أبي هريرة بلفظ: «ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء».

فجاءَ أقْوَامٌ، جَهلُوا العِلْمَ والحِكْمَةَ فِي بُنيانِ الأبْدَانِ، فمِنْهُم: مَن أَقَامَ فِي الجِبَالِ يَأكُل البلُّوطَ فأصَابهُ القَولَنْجُ، ومِنْهُم: مَن قَلَّلَ المَطْعَمَ إلىٰ أَنْ ضَعُفَتْ قُواهُم، ومِنْهُم: مَنِ اقتصرَ عَلَىٰ نَباتِ الصَّحرَاء، ومِنْهُم: من كَانَ لا يَقُوتُ إلَّا البَاقِلَّاءَ والشَّعِيرَ؛ فأوْجَبتْ هَذِهِ الأفْعَالُ أَمرَاضًا فِي البَدَنِ، وترَقَّتْ إلىٰ إفْسادِ العَقْلِ.

واتَّفقَ لَهُم قِلَّةُ العِلْمِ؛ إذْ لَوْ عَلمُوا لفَهِموا أَنَّ الحِكْمَةَ تَنهَىٰ عَنْ مِثلِ هَذا، فَإِنَّ البَدَنَ مَبنيٌّ عَلَىٰ أَخْلاطٍ، إِذَا اعتَدلَتْ وقَعتِ السَّلامَةُ، وإِذَا زَادَ بعضُها وقَعَ المَرَضُ.

وأَكْثَرُ هَؤُلاء مرِضُوا وتعجَّلَ لَهُم المَوْتُ، وفِيهِم من خَرَجَ إلىٰ التَّسَوْدُنِ، وفِيهِم من لاحَتْ لَهُ لوائحُ، فادَّعىٰ رُؤيَة المَلائِكَة؛ إلىٰ غَيْر ذَلِكَ.

فأَمَّا أَهْلُ العِلْم والعَقْل؛ فَهَرَبُهُم مِن الخَلْق لخوفِ المَعاصِي ورُؤيَة المُنْكَر، وفِيهِم مَن قوِيَتْ معرِفتُه فشغلتهُ مَعْرِفَةُ الحَقِّ ومحبَّتُه عَنْ مُلاقاةِ الخَلْق؛ فهَذِهِ هي الخَلَواتُ الصَّافيةُ؛ لأَنَّهَا تَصْدُر عَنْ علمٍ وعقلٍ؛ فتحفظُ البَدَن؛ لأَنَّهُ ناقةٌ توصِلُ.

ولا يَنْبغِي أَنْ يُتَهاونَ بالمَأْكُولاتِ، خُصُوصًا مَن لَمْ يَعْتَدِ التَّقشُّفَ، ولا يلبسِ الصُّوفَ عَلَىٰ البَدَن مَن لَمْ يَعْتَدْهُ.

ولْيُنْظَرْ فِي طَرِيق رَسُول اللهِ ﷺ وصحَابتهِ؛ فَإِنَّهُم القُدوَة، ولا يُلْتَفَتُ إلىٰ بُنيَّاتِ الطَّرِيق، فيقالُ: فُلانٌ الزَّاهِدُ قَدْ أكلَ الطِّين، وفُلانٌ كَانَ يَمْشِي حافيًا، وفُلانٌ بَقِيَ شهرًا مَا أَكلَ، فَإِنَّ المُحقِّقين مِنْ هَؤُلاءِ المُخلصِينَ للهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ غَيْرِ الجَادَّة؛ لأَنَّ الجَادَّة اتِّبَاعُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وأَصْحَابه ومَا كَانُوا يفعلونَ.

هذا؛ ولَعَمْرِي! إِنَّهُ قَدْ كَانَ فِيهِمْ مَن يقنعُ بالمَذْقَةِ مِن اللَّبنِ، ويَصْبِرُ الأَيَّامَ عَنِ الطَّعَام، ولَكِن إِمَّا لضرورةٍ، أَوْ لأَنَّهُ معتادٌ لِذلِكَ، كَمَا يَعْتادُ البَدَويُّ شُرْب اللَّبن

وَحْدَه، ولا يُؤذِيه ذَلِكَ، وفِي الحَدِيث: «عَوِّدُوا كُلَّ بَدَن مَا اعتادَ»[١].

وفِي المُتزَهِّدينَ مَن أَخْرَجَ مالَه كُلَّه عَنْ يَدِه زُهدًا، ومعلومٌ أَن الحَاجَات لا تَنْقَضِي، فَلَمَّا احْتَاجَ تَعَرَّضَ للطَّلَبِ، وافتقرَ إلىٰ أَخْذِ مَالٍ مِن يَدِ مَن يَعْلَمُ أَنَّهُ ظالمٌ، وبِذُلِّ وَجْهِهِ!

وقَدْ كَانَتِ الصَّحَابَةُ تَتَّجِرُ وتَحفظُ المَالَ، وجُهَّالُ المُتزَهِّدينَ يَرَوْنَ جَمْعَ المَالِ يُنافِي الزُّهْدَ!

فَمَمْخَضَةُ هَذَا الفَصْلِ: أَنْ أَقُولَ:

يَنْبَغِي لمَن رُزِق فَهْمًا أَنْ يَسعىٰ فِي صَلاح بَدنِه، ولا يَحمِلَ عَلَيهِ مَا يُؤذِيه، ولا يُناولَه مِن القُوتِ مَا لا يُوافِقه، ولا يضيِّعْ مَالَه، ولْيَجْتَهدْ فِي استِثمَارِه؛ لِئلَّا يَحْتَاج، فإِنَّه مَا نَافقَ زَاهدٌ إلَّا لأَجْلِ الدُّنْيَا.

وَلْيَنْظُرْ فِي سِيَرِ الكَامِلِينَ مِن السَّلفِ، ولْيَتشَاغَلْ بالعِلْم؛ فإِنَّه الدَّلِيل، فحِينئِذٍ يَحملهُ الأَمْرُ عَلَىٰ الخَلْوَةِ بِرَبِّه، والاشتِغالِ بحُبِّه، فيَكُونُ مَا ظَهرَ مِنْهُ ثَمرَةً نَضِجَةً، لا فَجَّةً، واللهُ المُوفِّقُ.

---

(١) لا أصل له: قال ابن القيم في «زاد المعاد» (٤/ ١٠٤): «وأما الحديث الدائر علىٰ ألسنة كثير من الناس: الحمية رأس الدواء، والمعدة بيت الداء، وعودوا كل جسم ما اعتاد؛ فهذا الحديث إنما هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب، ولا يصح رفعه إلىٰ النبي ﷺ؛ قاله غير واحد من أئمة الحديث». وقال العراقي في «تخريج الإحياء» (٣/ ٤٩): «لم أجد له أصلًا».

❁ فَصْل ❁

مَا رَأَيْتُ أَظْرفَ مِنْ لَعِبِ الدُّنْيَا بِالعُقُولِ

وقَد سَمِعْنا ورَأَيْنَا جَمَاعَةً مِن الفُطَناء الكَامِلِي العَقْلِ لعبتْ بِهِم الدُّنْيَا حَتَّىٰ صَارُوا كالمَجانينِ، فَوَلُوا الولاياتِ، فخَرَجُوا إلىٰ القَتْلِ والضَرْبِ والحَبْسِ والشَّتْمِ، وذَهابِ الدِّين، والمُباشَرةِ للظُّلمِ؛ وذَلِكَ كُلّه لأَجْل دُنْيَا تَذْهَبُ سريعًا، وفي مُدَّة إقامتها هي معجونةٌ بالنَّغَصِ.

فيا أَيُّهَا المَرْزُوقُ عقلًا! لا تبخسْهُ حقَّه، ولا تُطفئْ نُورَه، واسْمَعْ مَا نُشِير بِهِ، ولا تلتفِتْ إلىٰ بُكاءِ طفل الطَّبْع لفَوَاتِ غَرَضِه؛ فإنَّك إنْ رحمتَ بكاءَه لَمْ تقدِرْ عَلَىٰ فِطامِه، ولَمْ يُمْكِنْكَ تَأْدِيبُهُ، فيبلُغَ جاهِلًا فَقِيرًا:

لا تَسْهُ عَنْ أَدَبِ الصَّغِيْـ ** ـرِ وَلَوْ شَكَا أَلَمَ التَّعَبْ

وَدَعِ الكَبِيرَ لِشَأْنِهِ ** كَبُرَ الكَبِيرُ عَنِ الأَدَبْ

واعْلَمْ أَنَّ زَمَانَ الابتلاءِ ضَيْفٌ قِرَاهُ الصَّبْرُ، كَمَا قَالَ أَحْمَد بْن حَنْبَل رَحِمَهُ اللَّهُ: إنَّمَا هُوَ طَعَامٌ دُونَ طَعامٍ، ولِباسٌ دُونَ لباسٍ، وإنَّها أَيامٌ قَلائِلُ.

فَلا تَنْظُرْ إلىٰ لَذَّة المُتْرَفِينَ، وتَلَمَّحْ عَوَاقِبَهم، ولا تَضِقْ صَدْرًا بضِيقِ المَعاشِ، وعلِّل النَّاقةَ بالحَدْوِ تَسِرْ:

طَاوِلْ بِهَا اللَّيْلَ مَالَ النَّجْمُ أَمْ جَنَحَا ** وَمَاطِلِ النَّوْمَ ضَنَّ الجَفْنُ أَمْ سَمَحَا

فَإِنْ تَشَكَّتْ فَعَلِّلْهَا المَجَرَّةَ مِنْ ** ضَوْءِ الصَّبَاحِ وَعِدْهَا بِالرَّوَاحِ ضُحَىٰ

وقَدْ كَانَ أُهدِي إلىٰ أَحْمَدَ بنِ حَنْبَل هديَّةٌ، فردَّها، ثُمَّ قَالَ بَعدَ سنةٍ لأَوْلَادِهِ: لَوْ كنَّا قَبِلناها كَانَتْ قَدْ ذهبَتْ.

ومرَّ بِشْرٌ عَلَىٰ بِئرٍ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبهُ: أَنَا عَطشَان. فَقَالَ: البِئرُ الأَخْرَىٰ. فمرَّ عَليْهَا، فَقَالَ لَهُ: الأخْرَىٰ. ثُمَّ قَالَ: كَذا تُقطعُ الدُّنْيَا.

ودَخلُوا إلىٰ بِشرٍ الحَافِي، ولَيْسَ فِي دَارِه حَصيرٌ، فقِيلَ لَهُ: ألا بِذَا تُؤذَىٰ؟ فَقَالَ: هَذَا أمرٌ يَنقضِي.

وكَانَ لدَاودَ الطَّائيِّ دَارٌ يَأوِي إلَيهَا، فوَقعَ سَقفٌ، فانتَقلَ إلىٰ سَقفٍ، إلىٰ أَنْ مَاتَ في الدِّهْلِيزِ.

فهَؤُلاء الَّذِينَ نظروا فِي عَوَاقِب الأُمُور، وبَعدَ هَذَا فَلا أُطالِبُكَ بِهَذِهِ الرتبة، بَلْ أقُولُ لك:

إنْ حَصَل لَكَ شَيْءٌ مِن المُبَاح، لا مَنٍّ فِيهِ ولا أَذًىٰ، ولا نِلْته بِسُؤالٍ، ولا مِن يَدِ ظَالمٍ تَعْلَمُ أَنَّ مالَه حرامٌ أوْ فِيهِ شُبهَةٌ؛ فَافسَحْ لنَفْسكَ فِي مُباحَاتِها بمِقْدَار مَا تَحتاجُ إلَيْهِ، وكُنْ مُقدِّرًا للنَّفقةِ غيْرَ مُبَذِّرٍ؛ فَإِنَّ الحَلالَ لا يَحْتَملُ السَّرَفَ، ومَتَىٰ أَسْرَفْتَ احْتَجْتَ إلىٰ التَّعرُّضِ للخَلْق، والتَّناوُلِ مِن الأَكْدَار.

وإنْ ضاقَ بِكَ أَمْرٌ فَاصْبِرْ، فَإِنْ ضَعُفَ الصَّبْرُ فَسَلْ فَاتِحَ الأَبْوابِ، فَهُو الكَرِيمُ وعِنْدَهُ مفَاتِحُ الغَيبِ، وإيَّاكَ أَنْ تبذُلَ دينَك بتَصَنُّعٍ للخَلقِ، أَوْ بتَقَرُّبٍ إلىٰ الأُمَراءِ، تَسْتَعْطِي أَمْوالَهُم، واذْكُرْ طَرِيقَ السَّلفِ.

كَانَ ابنُ سَمعُون لَهُ ثيابٌ يجلسُ فِيهَا للنَّاس، ثُمَّ يَطوِيها إلىٰ المَجْلِس الآخر؛ ورِثَها عَنْ أبيه، بَقِيَتْ أرْبَعِين سنةً. وكَانَت ميمُونةُ بنتُ شَاقُولةَ تعِظُ النَّاس ولها ثيابٌ قَدْ بقِيَت أرْبَعِين سنَة.

ومَن صفَا نَظَرُه وتَهذَّب لَفْظُهُ؛ نَفعَ وَعْظُهُ، ومَن كَدَّرَ كُدِّرَ عَليْهِ.

والحَالةُ العاليةُ فِي هَذَا: إقبالُ القَلْبِ عَلَىٰ اللهِ ﷻ، والتَّوكُّلُ عَلَيهِ، والنَّظَرُ إِلَيْهِ، والْتِفاتُ القَلْبِ عَنِ الخَلْقِ؛ فَإِنِ احْتَجْتَ فاسْأَلْهُ، وإنْ ضَعُفتَ فارْغَبْ إِلَيْهِ، ومَتَىٰ ساكَنْتَ الأَسْبَابَ انْقَطَعْتَ عَنْهُ، ومَتَىٰ استقامَ باطِنُك اسْتَقامَتْ لَكَ الأُمُورُ.

❁ فَصْل ❁

رَأَيْتُ نَفْسِي تَأْنَسُ بِخُلَطَاءَ نُسَمِّيهِمْ أَصْدِقَاءَ، فَبَحَثْتُ بالتَّجَارِبِ عَنْهُمْ، فإذا أَكْثَرُهُمْ حُسَّادٌ عَلَى النِّعَمِ، وَأَعْدَاءٌ لا يَسْتُرُونَ زَلَّةً، ولا يَعْرِفُونَ لِجَلِيسٍ حَقًّا، ولا يُواسُونَ مِن مَالِهِم صَدِيقًا!

فتَأَمَّلتُ الأَمْرَ؛ فَإِذَا الحَقُّ سُبْحَانَه يَغَارُ عَلَىٰ قَلْبِ المُؤمِنِ أَنْ يَجْعَلَ لَهُ شَيئًا يَأْنَسُ بِهِ، فَهُو يُكَدِّرُ عَلَيهِ الدُّنْيَا وأهلَها؛ ليكونَ أُنْسهُ بِهِ.

فيَنْبغِي أَنْ يَعُدَّ الخَلْقَ كُلَّهُم مَعارِفَ، لَيسَ فِيهِمْ صَديقٌ، بَلْ تَحْسَبُهم أعداءً.

ولا تُظهِر سِرَّكَ لمَخلوقٍ مِنهُم، ولا تَعِدَّنَّ مَنْ يَصْلُح لشِدَّةٍ؛ لا وَلَدًا ولا أَخًا ولا صَديقًا، بَلْ عامِلْهُم بالظَّاهِرِ، ولا تُخالِطْهُم إِلَّا حَالَةَ الضَّرورَةِ بالتَّوقِّي لَحْظَةً، ثُمَّ انفِرْ عَنهُم وأَقْبِلْ عَلَىٰ شَأْنِكَ؛ مُتوكِّلًا عَلَىٰ خالِقِك؛ فإِنَّه لا يَجلِبُ الخَيْرَ سِواهُ، ولا يَصرِفُ السُّوءَ إِلَّا إِيَّاهُ، فلْيَكُنْ جليسَك وأنِيسَك، ومَوضِعَ توكُّلِكَ وشَكواكَ، فَإِنْ ضَعُفَ بصَرُك فاستَغِثْ بِهِ، وإنْ قَلَّ يَقينُك فَسَلْهُ القُوَّةَ، وإِيَّاكَ أَنْ تَمِيلَ إلىٰ غَيْرِه؛ فإِنَّه غَيُورٌ، وأَنْ تَشكُو مِن أَقْدَارِه، فرُبَّما غَضِبَ ولَمْ يُعتِبْ.

أوحَىٰ اللهُ ﷻ إلىٰ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَنْ خَلَّصكَ مِن الجُبِّ؟ مَن فَعلَ؟ مَن فَعلَ؟ قَالَ: أنتَ. قَالَ: فَلِمَ ذَكَرْتَ غَيرِي؟! فَلأُطِيلَنَّ حبْسَكَ، أَوْ كَمَا قَالَ.

هَذا؛ وإنَّمَا تَعرَّض يُوسُفُ عليه السلام بسَبَبٍ مباحٍ: ﴿ ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ [يوسف: ٤٢]، ﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ ﴾ [التوبة:٢٥].

وما أَعْرِفَ العَيْشَ إلَّا لمَنْ يعرِفُه - جلَّ شأنُه - ويعيشُ مَعهُ، ويتأدَّبُ بينَ يَدَيْه فِي حرَكاتِه وكلِماتِه كأَنَّهُ يَراهُ، ويقفُ عَلَىٰ بَاب طَرْفِه حارِسًا مِن نَظْرةٍ لا تَصلُح، وعَلَىٰ بَابِ لسانِه حَافظًا لَهُ مِن كَلِمَةٍ لا تحسُنُ، وعَلَىٰ بَاب قلبِهِ حمايةً لمَسْكَنِه مِن دُخُول الأَغْيَار، ويستوحِشُ مِن الخَلْق شُغْلًا بِهِ، وهَذَا يَكُون عَلَىٰ سِيرةِ الرُّوحَانيِّينَ، فأَمَّا المُخلِّطُ؛ فالكَدَرُ غالِبٌ عَلَيهِ، والمُحِقُّ لا يطلُبُ إلَّا الأَرْفَعَ.

قَالَ القَائِلُ:

أَلَا لا أُحِـــبُّ الــسَّيْرَ إِلَّا مُــصَاعِدًا ** وَلَا البَــرْقَ إِلَّا أَنْ يَكُــونَ يَمَانِيَــا

۞ فَصْلٌ ۞

رَأَيْتُ أَكْثَرَ العُلَمَاءِ مُشْتَغِلِينَ بِصُورَةِ العِلْمِ دُونَ فَهْمِ حَقِيقَتِهِ وَمَقْصُودِهِ

فالقَارِئُ؛ مشغُولٌ بالرِّواياتِ، عاكفٌ عَلَىٰ الشَّواذِّ، يَرَىٰ أَن المَقصُودَ نفسُ التِّلاوَةِ، ولا يتَلَمَّحُ عَظَمة المُتكلِّم، ولا زَجْرَ القُرْآن ووَعْدَهُ، ورُبَّما ظَنَّ أَنَّ حِفظَ القُرْآن يدفعُ عَنْهُ، فتراهُ يترخَّصُ فِي الذُّنُوب، ولَوْ فهِم لَعَلِمَ أَنَّ الحُجَّةَ عَلَيهِ أَقْوَىٰ مِمَّنْ لَمْ يَقْرَأْ!

والمُحدِّثُ؛ يجمعُ الطُّرُقَ، ويحفظُ الأسانيدَ، ولا يتَأَمَّلُ مَقْصُود المنقُولِ، ويرىٰ أَنَّهُ قَدْ حَفظَ عَلَىٰ النَّاس الأحَادِيثَ، فَهُو يَرْجُو بذَلِكَ السَّلامَةَ، ورُبَّما ترخَّص فِي الخطايا؛ ظنًّا مِنْهُ أَنَّ مَا فَعَل فِي خِدْمَةِ الشَّرِيعَةِ يَدْفَعُ عَنْهُ!

والفَقِيهُ؛ قَدْ وقعَ لَهُ أَنَّهُ بِمَا قَدْ عَرَفَ مِن الجِدالِ الَّذِي يُقوِّي بِهِ خِصامَهُ، أوِ المَسائل الَّتِي قَدْ عَرَفَ فِيهَا المَذْهَب قَدْ حصَّل بِمَا يُفتِي بِهِ النَّاسَ مَا يرفعُ قَدْرَه، ويَمْحُو ذَنْبَه، فرُبَّمَا هَجَم عَلَىٰ الخَطَايا؛ ظنًّا مِنْهُ أَنَّ ذَلِكَ يدفعُ عنهُ، ورُبَّما لَمْ يَحفَظِ القُرْآنَ، ولَمْ يَعرفِ الحَدِيثَ، وأنَّهمَا يَنهيانِ عَنِ الفَواحِشِ بزَجْرٍ ورِفْقٍ، وينضَافُ إلَيْهِ مع الجَهْل بِهمَا حُبُّ الرِّياسةِ، وإيثارُ الغلبةِ فِي الجَدَلِ؛ فتَزيدُ قَسوةُ قَلبِهِ!

وعَلَىٰ هَذَا أكْثَرُ النَّاسِ، صُوَرُ العِلْمِ عِنْدَهم صِناعَةٌ، فهِيَ تُكْسِبُهُم الكِبْرَ والحَماقَةَ!

وقَدْ حَكَىٰ بَعْضُ المُعْتَبَرينَ عَنْ شَيْخٍ أفنَىٰ عُمْرَه فِي عُلُومٍ كَثيرَةٍ، أنَّهُ فُتِنَ فِي آخِرِ عُمرِه بفسقٍ أَصرَّ عَلَيهِ، وبارزَ اللهَ بِهِ، وكَانَت حَالُه تُعطِي بمَضمونِها: أَنَّ علِمي يَدْفَعُ عَنِّي شَرَّ مَا أنا فِيهِ، ولا يَبْقَىٰ لَهُ أَثَرٌ، وكَانَ كأنَّه قَدْ قَطَعَ لنَفْسِه بالنَّجاةِ، فَلا يُرىٰ عِنْدَه أثرٌ لخَوفٍ، ولا ندَمٌ عَلَىٰ ذَنبٍ. قَالَ: فتغيَّر فِي آخِرِ عُمُره ولازَمَه الفَقْرُ، فكَانَ يَلْقَىٰ الشَّدائدَ ولا يَنْتَهِي عَنْ قُبحِ حَالِه، إلىٰ أَن جُمعَتْ لَهُ يومًا قَرارِيطُ عَلَىٰ وَجْهِ الكُدْيَةِ[1]، فاسْتَحَىٰ مِن ذَلِكَ، وقَالَ: يَا ربِّ إلىٰ هَذَا الحَدِّ؟!

قَالَ الحَاكِي: فتعجبتُ مِن غَفْلَتِه؛ كَيْفَ نَسِيَ اللهَ عَجَّلَّ وأَرَادَ مِنْهُ حُسْنَ التَّدبيرِ لَهُ والصِّيانةَ وسِعةَ الرِّزقِ، وكَأنَّه مَا سَمعَ قولَه تَعالَىٰ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦]، ولا عَلمَ أَنَّ المَعاصِي تَسُدُّ أَبْوابَ الرِّزْق، وأنَّ مَن ضيَّع أَمْرَ الله ضيَّعَهُ الله، فَمَا رَأيْت عِلمًا مَا أفادَ كعِلمِ هذا؛ لأَنَّ العَالِم إِذَا زلَّ انْكسَرَ، وهَذَا مُصِرٌّ لا تُؤْلِمُهُ مَعْصِيتُه، وكَأنَّه يَجُوز لَهُ مَا يفعلُ، أوْ كَانَ لَهُ التَّصرُّف فِي الدِّين تحليلًا وتَحريمًا، فمرِضَ عَاجلًا، وماتَ عَلَىٰ أقبحِ حالٍ.

---

(١) أي: السؤال.

قال الحَاكِي: ورَأَيْتُ شَيخًا آخرَ حصَّل صُورَ علمٍ فَمَا أفادَتْهُ، كَانَ أيُّ فِسقٍ أَمْكَنَه لَمْ يتحَاشَ مِنْهُ، وأيُّ أمرٍ لَمْ يُعْجِبْهُ مِن القَدَر؛ عارَضَه بالاعتِراضِ عَلَىٰ المُقَدِّرِ واللَّومِ، فعاشَ أكدَرَ عيشٍ، وعَلَىٰ أقبحِ اعْتِقَادٍ، حَتَّىٰ درجَ.

وهَؤُلاء لَمْ يَفْهَمُوا مَعْنَىٰ العِلْم، ولَيْسَ العِلْم صُورَ الألْفَاظ، إنَّمَا المَقصُودُ فَهْمُ المُرَاد مِنْهُ، وذاكَ يورِثُ الخشيةَ والخَوْفَ، ويُرِي المِنَّةَ للمُنعِم بالعِلْم، وقوَّةَ الحُجَّةِ لَهُ عَلَىٰ المُتعلِّم.

نَسْأَلُ اللهَ عَجَّلَّ يقظةً تُفهِمُنَا المَقصُودَ، وتعرِّفنا المَعبُودَ. ونَعُوذُ باللهِ مِن سبيل رِعاعٍ يتَسَمَّون بالعُلَمَاء، لا ينهاهُم مَا يَحملُون، ويعلمُونَ ولا يَعمَلُون، ويتكبَّرون عَلَىٰ النَّاس بِمَا لا يَعمَلُون، ويأخذُون عَرَض الأدْنَىٰ وقَد نُهوا عمَّا يأخُذُونَ، غلَبتهُم طِباعُهم ومَا رَاضَتهم عُلومُهم الَّتِي يدْرُسونَ، فهُمْ أَخَسُّ حالًا مِن العَوامِّ الَّذِينَ يجهلُون، ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم:٧].

❁ فَصْلٌ ❁

للفَقيهِ أَنْ يُطالِعَ مِن كُلِّ فَنٍّ طَرَفًا

مِن تَارِيخٍ وحَدِيثٍ ولُغةٍ وغَيرِ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ الفِقْهَ يَحْتَاجُ إلىٰ جَمِيعِ العُلُومِ، فَلْيَأْخُذْ مِن كُلِّ شَيْءٍ مِنهَا مُهِمًّا.

ولَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ الفُقَهَاءِ يَقُول: اجتَمَعَ الشِّبليُّ وشَريكٌ القَاضِي! فاستَعجَبتُ لَهُ! كَيْفَ لا يَدرِي بُعدَ مَا بَينَهُما؟!

وقَالَ آخرُ فِي مُناظرةٍ: كَانَتْ الزَّوجيَّةُ بينَ فاطمةَ وعلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا غَير مُنقطِعةِ الحُكمِ؛ فلهَذَا غَسَّلها! فَقُلتُ لَهُ: وَيْحَكَ! فَقد تزوَّج أُمامةَ بنتَ زينب، وهي ابنةُ أُختِهَا! فانْقَطَع.

ورَأيْتُ فِي كتاب «إحْيَاء علوم الدِّين» للغزاليِّ مِن هَذَا مَا يُدْهِشُ مِن التَّخلِيط فِي الأحَادِيثِ والتَّوارِيخ؛ فجمعتُ مِن أغَاليطِه فِي كِتَابٍ.

وقَدْ ذكرَ فِي كتابٍ لَهُ سمَّاه «المُستظِهري»، وعرضَه عَلَىٰ المُستظِهر باللهِ: أَنَّ سليمانَ بنَ عَبْد الملكِ بعثَ إلىٰ أبي حازمٍ، فَقَالَ لَهُ: ابعَثْ لي مِن فُطورِك! فبعَث إِلَيهِ نُخالةً مَقْلُوَّةً، فأَفْطَرَ عَلَيهَا، ثُمَّ جامَعَ زوجَتهُ، فجاءَتْ بعَبْد العَزِيز، ثُمَّ وُلِد لَهُ عمرُ!

وهَذَا تخليطٌ قَبِيحٌ؛ فإِنَّه جعلَ عُمرَ بنَ عَبْد العَزِيز بنِ سُليمَانَ بْنِ عَبْد الملكِ! فجعَلَ سُليمانَ جَدَّهُ، وإِنَّمَا هُوَ ابنُ عَمِّه.

وقَدْ ذَكرَ أَبُو المَعَالِي الجُوينِيُّ فِي أَواخِرِ كتابِ «الشَّامل فِي الأُصُول»، قَالَ: قَدْ ذَكَرَتْ طَائِفَةٌ مِن الثِّقاتِ المُعتَنينَ بالبَحْث عَن البواطن أَن الحَلاجَ والجَنَّابِيَّ القَرْمَطيَّ وابنَ المُقَفَّع تَواصَوْا عَلَىٰ قَلْبِ الدُّول، وإفسَادِ المَملكةِ، واستِعطافِ القُلُوب، وارْتادَ كُلٌّ مِنهُم قُطْرًا، فَقَطَنَ الجَنَّابِيُّ فِي الأَحْسَا، وتوغَلَّ ابنُ المُقفَّع فِي أَطْرافِ بلادِ التُّركِ، وقَطَنَ الحلَّاجُ ببَغْدَادَ، فحكَمَ عَلَيهِ صَاحِباه بالهَلكَةِ والقُصورِ عَنْ بُلوغِ الأُمنيةِ؛ لبُعْد أَهْل بغدَاد عَن الانخِداعِ، وتوفُّر فِطْنَتهم، وصِدقِ فِراسَتِهم.

قُلْتُ: ولَوْ أَنَّ هَذَا الرَّجلَ - أَوْ من حكىٰ عَنْهُ - عرفَ التَّاريخَ؛ لعَلمَ أَنَّ الحَلَّاجَ لَمْ يُدرِك ابنَ المُقفَّعِ؛ فَإِنَّ ابنَ المُقفَّعِ أمرَ بقَتلِه المَنصُورُ، فقُتلَ فِي سنةِ أربَعٍ وأرْبَعِينَ ومَائةٍ، وأَبُو سعيدٍ الجَنَّابِيُّ القَرْمَطِيّ ظهَرَ إلىٰ سنةِ ستٍّ وثَمَانِين ومائتَينِ، والحَلَّاجُ قُتلَ سنةَ تسعٍ وثلاثِمائةٍ؛ فزمانُ القرْمطيِّ والحَلَّاجِ مُتقارِبانِ؛ فأَمَّا ابنُ المُقفَّع؛ فكَلَّا.

فيَنْبَغِي لكلِّ ذي عِلمٍ أَنْ يُلِمَّ بباقِي العُلومِ، فيُطالِعَ مِنهَا طرَفًا؛ إِذْ لكُلِّ عِلْمٍ بعِلْمٍ تَعلُّقٌ، وأَقْبِح بمحدِّثٍ يُسْأَلُ عَنْ حادثةٍ فَلا يَدْرِي، وقَد شغَله عَنهَا جمعُ طُرُق

الأَحَادِيث، وقَبِيحٌ بالفَقيهِ أَنْ يُقَال لَهُ: مَا مَعْنَىٰ قَوْل رَسُول اللهِ ﷺ كذا؛ فَلا يدرِي صِحَّةَ الحَدِيث ولا مَعناهُ.

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ همَّةً عاليةً لا تَرضَىٰ بالنَّقَائِص بمَنِّه ولُطفِه.

❁ فَصْل ❁

كَانتْ هِمَمُ القُدَمَاءِ مِن العُلَمَاءِ عَلِيَّةً

تَدلُّ عَليْهَا تَصَانِيفُهُم الَّتِي هِي زُبْدَةُ أَعْمَارِهم، إِلَّا أَنَّ أَكْثَرَ تَصانيفِهِم دَثَرَتْ؛ لأَنَّ هِممَ الطُّلَّاب ضَعُفَتْ، فصَارُوا يَطلُبونَ المُختَصَراتِ، ولا يَنْشطُونَ للمُطوَّلاتِ، ثُمَّ اقتَصرُوا عَلَىٰ مَا يَدْرُسُونَ بِهِ مِن بَعضِها، فدَثَرَتِ الكُتُبُ ولَمْ تُنْسَخْ.

فسَبيلُ طَالِبِ الكَمالِ فِي طَلَبِ العِلْم الاطِّلاعُ عَلَىٰ الكُتُبِ الَّتِي قَدْ تَخلَّفتْ مِن المُصنَّفاتِ، فليُكثِرْ مِن المُطالَعةِ؛ فإِنَّه يَرَىٰ مِن عُلوم القَوْمِ وعُلوِّ هِمَمِهمْ مَا يَشحَذُ خَاطِرَهُ، ويُحرِّكُ عَزِيمَتَهُ للجِدِّ، ومَا يَخْلُو كِتابٌ مِن فَائدَةٍ.

وأَعُوذ باللهِ مِن سِيَرِ هَؤُلاء الَّذِينَ نُعاشِرُهُم، لا نرىٰ فِيهِمْ ذا هِمَّةٍ عاليةٍ فيَقْتَدِي بِهَا المُبْتَدِي، ولا صَاحِبَ وَرَع فيستفيدُ مِنْهُ الزَّاهِدُ.

فاللهَ اللهَ؛ وعليكُم بمُلاحظَة سِيَرِ السَّلَف ومُطالَعة تَصانِيفِهم وأَخْبَارِهم؛ فالاستكثارُ من مُطالَعة كتُبهم رُؤيَةٌ لَهُم.

كَمَا قَالَ:

فَـــاتَنِي أَنْ أَرَىٰ الـــدِّيَارَ بِطَرْفِـــي ** فَلَعَلِّـــي أَرَىٰ الـــدِّيَارَ بِـــسَمْعِي

وإنِّي أُخبرُ عَنْ حَالِي: مَا أَشْبَعُ مِن مُطالعةِ الكُتُب، وإِذَا رَأَيْتُ كتابًا لَمْ أَرَه فكأنِّي وقعتُ عَلَىٰ كَنْزٍ، ولَقَدْ نظرتُ فِي ثَبَت الكُتُب الموقوفَة فِي المَدْرَسة النِّظَامية، فَإِذَا بِهِ يَحْتَوي عَلَىٰ نَحْو ستَّة آلاف مجلَّد، وفِي ثَبَت كتُب أبي حنيفة، وكتُبِ الحُميدِيِّ، وكتُبِ شيخنا عَبْد الوَهَّاب بنِ ناصرٍ، وكُتُب أبي مُحَمَّد بنِ الخَشَّاب وكَانَت أحمالًا، وغير ذَلِكَ مِن كُلِّ كتَابٍ أقدرُ عَليْهِ، ولو قُلْتُ: إِنِّي طَالعْتُ عِشرِينَ ألفَ مُجلَّدٍ؛ كَانَ أَكْثَر، وأنَا بَعدُ فِي الطَّلَب.

فاستفدتُ بالنَّظَر فِيهَا من مُلاحظةِ سِيَرِ القَومِ وقَدرِ هِمَمِهم وحِفظِهم وعِبادَاتِهم وغرائبِ عُلومِهم مَا لا يعرِفُه من لَمْ يُطالِعْ؛ فصِرتُ أَسْتَزْرِي مَا النَّاسُ فِيهِ، وأَحْتَقِرُ هِممَ الطُّلابِ. وللهِ الحَمْدُ.

❁ فَصْل ❁

لَيْسَ للآدَمِيِّ أَعَزُّ مِن نَفْسِهِ

وقَد عَجِبْتُ مِمَّنْ يُخاطِر بِها، ويُعرِّضُها للهَلاكِ، والسَّبَبُ فِي ذَلِكَ قِلَّةُ العَقْل وسُوءُ النَّظَر!

فمِنْهُم مَن يُعَرِّضها للتَّلف؛ ليُمدَحَ بِزَعْمِهِ؛ مِثْل قَوْمٍ يَخْرُجونَ إلىٰ قَتلِ السَّبُعِ، ومِنْهُم من يَصْعَدُ إلىٰ إيوانِ كِسرَىٰ؛ ليُقَالَ: شَاطِرٌ، وسَاعٍ يَمشِي ثَلاثِينَ فَرسَخًا؛ وهَؤُلاءِ إِذَا تَلِفُوا حُمِلُوا إلىٰ النَّارِ، فَإِنْ هَلكَ ذَهبتِ النَّفْسُ الَّتِي يُرادُ المَالُ لأجْلِهَا.

وأَعْجَبُ مِن الكُلِّ مَنْ يُخاطِرُ بنَفْسِه فِي الهَلاكِ، ولا يَدرِي؛ مِثْلُ أَنْ يَغضبَ فيَقْتُلَ المُسلِمَ فَيَشْفِيَ غَيْظَهُ بالتَّعذِيبِ في جهَنَّمَ!

وأَظْرَفُ مِن هَذَا اليَهُودُ والنَّصارَىٰ؛ فَإِنَّ أحَدَهم يَبلُغُ، فيَجِبُ عَليهِ أَنْ يَنظُرَ فِي نُبوَّة نَبيِّنا ﷺ؛ فإذَا فرَّطَ فمَاتَ؛ فلَهُ الخُلودُ فِي جَهنَّم.

ولَقَدْ قُلْتُ لبَعضِهمْ: وَيْحَكَ! تُخاطِر بنَفْسكَ فِي عَذَاب الأَبَد! نحنُ نؤمِن بنبيِّكم، فنَقُولُ: لَوْ أَنَّ مُسلمًا آمنَ بنبيِّنا، وكذَّب بنبيِّكم أوْ بالتَّوراة؛ خُلِّد فِي النَّار، فمَا بيننا وبينكُم خلافٌ؛ إذْ نحنُ مُؤمنونَ بصِدْقِهِ وكتَابه، فلو لَقيناه لَمْ نَخجَلْ، ولَوْ عاتَبنَا مثلًا وقَالَ: هَلْ قُمتُم بالسَّبت؟ والسَّبتُ مِن الفُرُوع، والفُرُوع لا يُعاقَب عَليْهَا بالخُلود. فقَالَ لي رَئيسُ القَومِ: مَا نُطالبُكم بِهَذَا؛ لأَنَّ السَّبتَ إنَّمَا يلزمُ بني إسْرَائيل. فقُلْتُ: فَقد سَلَّمنا بإجْمَاعكم، وأنتُم هَالِكون؛ لأَنَّكم تُخاطِرون بأرْوَاحِكم فِي العَذَابِ الدَّائمِ، والعَجبُ بمَن يُهمِلُ النَّظَرَ فِيمَا إِذَا توانَىٰ فِيهِ أَوْجَبَ الخُلودَ فِي العِقابِ الدَّائم!

وأَعْجَبُ مِن الكلِّ جاحِدُ الخَالِق، وهُوَ يَرَىٰ أَحْكَامَ الصَّنعة، ويقُولُ: لا صَانعَ! والسَّبَبُ فِي هَذِهِ الأَشْيَاءَ كُلِّها: قِلَّةُ العَقْلِ، وتَرْكُ إعمَالِه فِي النَّظَرِ والاسْتِدلَالِ.

❁ فَصْل ❁

لا يَنْبغِي للعَاقِلِ أَنْ يُظْهِر سِرًّا حَتَّى يَعْلمَ أَنَّهُ إِذَا ظَهَرَ لا يَتَأَذَّى بظُهُورِهِ

ومَعلومٌ أَنَّ السَّبَب فِي بثِّ السِّرِّ طلبُ الاستِراحَةِ بِبَثِّه، وذَلِكَ أَلَمٌ قَرِيبٌ؛ فَلْيَصْبِرْ عَلَيهِ؛ فرُبَّ مُظْهِرٍ سرًّا لزوجَتِه فَإِذَا طُلِّقت بثَّته وهَلَكَ، أَوْ لصديقِه فيُظْهِرُ عَلَيهِ حَسَدًا لَهُ إِذَا كَانَ مُماثلًا، وإنْ كَانَ عامِّيًّا فالعَامِّيُّ أَحْمَقُ، ورُبَّ سِرٍّ أُظْهِرَ فكَانَ سَببَ الهَلاكِ.

﴿ فَصْلٌ ﴾

مَا يَتَنَاهَى فِي طَلَبِ العِلْم إِلَّا عَاشِقُ العِلْم، والعَاشِقُ يَنْبغِي أَنْ يَصْبِرَ عَلَى المَكَارِهِ

ومِن ضَرُورةِ المُتشَاغَلِ بِهِ البُعدُ عَن الكَسْبِ، ومُذْ فُقِدَ التَّفقُّد لَهُم مِن الأُمَراءِ ومنَ الإخْوَانِ انْقطَعُوا، فلازَمَهم الفَقْرُ ضَرُورةً، والفَضائلُ تُنادِي: ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ١١]، فكُلَّما خَافتْ مِن ابتلاءٍ قَالَتْ:

لاتَحْسَبِ المَجْدَ تَمْرًا أَنْتَ آكِلُهُ ** لَنْ تَبْلُغَ المَجْدَ حَتَّىٰ تَلْعَقَ الصَّبِرَا

ولمَّا آثَرَ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ طَلبَ العِلْمِ، وكَانَ فَقيرًا؛ بَقِي أَرْبَعِينَ سَنةً يَتشَاغَلُ بِهِ ولا يَتزوَّجُ؛ فيَنْبغِي للغَيرِ أَنْ يُصابِرَ فَقرَه كَمَا فَعلَ أَحْمَدُ! ومَنْ يُطيقُ مَا أطَاقَ؟! فَقدْ رَدَّ مِنَ المَالِ خَمسينَ ألفًا، وكَانَ يأكُلُ الكَامَخَ، ويَتأدَّمُ بالمِلحِ؛ فمَا شَاعَ لَهُ الذِّكرُ الجَميلُ جُزافًا، ولا تَردَّدتِ الأقدَامُ إلىٰ قَبره إلَّا لمَعْنًىٰ عَجِيبٍ! فيَا لَهُ ثَناءً مَلأَ الآفَاقَ، وجَمالًا زَيَّن الوجُودَ، وعِزًّا نَسخَ كُلَّ ذُلٍّ؛ هَذا فِي العَاجلِ، وثَوابُ الآجِلِ لا يُوصَفُ.

وتَلمَّحْ قُبورَ أَكْثَر العُلَمَاءِ؛ لا تُعْرَفُ ولا تُزارُ؛ ترخَّصُوا وتأوَّلُوا، وخالَطُوا السَّلاطِينَ، فذَهَبَتْ بَركَة العِلْم، وَمُحِيَ الجاهُ، ووَرَدُوا عِنْدَ المَوْت حِياضَ النَّدَم! فيا لَهَا حَسَراتٍ لا تُتلافَىٰ، وخُسْرانًا لا يَنْجَبِرُ! وكَانَت صُحْبَةُ اللَّذَّات طَرْفَةَ عَيْنٍ، ولازِمُ الأَسَفِ دَائمًا.

فالصَّبْرَ الصَّبْرَ أَيُّها الطَّالِبُ للفَضَائل! فَإِنَّ لَذَّةَ الرَّاحَةِ بالهَوَىٰ أَوْ بالبَطَالَةِ تَذْهبُ، ويَبْقَىٰ الأَسَىٰ. وقَالَ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنهُ:

يَا نَفْسُ مَا هُوَ إِلَّا صَبْرُ أَيَّامٍ ** كَأَنَّ مُدَّتَهَا أَضْغَاثُ أَحْلَامِ

يَا نَفْسُ جُوزِي عَنِ الدُّنْيَا مُبَادِرَةً ** وَخَلِّ عَنْهَا فَإِنَّ العَيْشَ قُدَّامِي

ثُمَّ أَيُّهَا العَالِم الفَقِيرُ؛ أَيَسُرُّك مُلكُ سُلطانٍ مِن السَّلاطِينِ وأَنَّ مَا تَعْلَمُه مِن العِلْم لا تَعْلَمُه؟! كلَّا؛ مَا أظُنُّ بالمُتيقِّظ أَنْ يُؤْثِرَ هَذا، ثُمَّ أنتَ إِذَا وقعَ لَكَ خَاطِرٌ مُسْتحسنٌ أَوْ مَعْنًى عَجِيبٌ تَجِدُ لَذَّةً لا يَجِدُها مُلْتَذٌّ باللَّذَّات الحِسِّيَّة، فَقَدْ حُرِمَ مَن رُزِقَ الشَّهَواتِ مَا قَدْ رُزِقْتَ، وقَد شَارَكْتَهُم فِي قِوام العَيْشِ، ولَمْ يَبْقَ إِلَّا الفُضُولُ الَّذِي إِذَا أُخِذَ لَمْ يَكَدْ يَضُرُّ. ثُمَّ هُمْ عَلَى المُخاطَرَةِ فِي بَاب الآخِرَةِ غَالبًا، وأَنتَ عَلَى السَّلامَةِ فِي الأَغْلَب.

فتَلَمَّحْ يَا أَخِي عَوَاقِبَ الأَحْوالِ، واقْمَعِ الكَسَلَ المُثَبِّطَ عَن الفَضائل؛ فَإِنَّ كثيرًا مِن العُلَمَاء الَّذِينَ ماتُوا مُفَرِّطينَ يتقلَّبُونَ فِي حَسَراتٍ وأَسَفٍ!

رَأَى رَجُلٌ شَيْخَنا ابنَ الزَّاغُونِيِّ فِي المَنَام، فَقَالَ لَهُ الشَّيْخ: أَكْثَرُ مَا عِنْدكُم الغَفْلَةُ، وأَكْثَرُ مَا عِنْدَنا النَّدامَةُ.

فاهْرُب وفَّقكَ اللهُ قبلَ الحَبْسِ، وافسخْ عَقْدَ الهَوَى عَلَى الغَبْنِ الفَاحشِ، واعْلَمْ أَنَّ الفَضائلَ لا تُنَالُ بالهُوَيْنَا، وأَنَّ يَسيرَ التَّفريط يُشِينُ وَجْهَ المَحاسِنِ!

فالبَدارَ البدارَ ونَفَسُ النَّفْسِ يتردَّدُ، وملَكُ المَوْت غَائبٌ مَا قدِمَ بعْدُ، وانْهَضْ بعزيمَةِ عازِمٍ:

إِذَا هَمَّ أَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزْمَهُ ** وَنَكَّبَ عَنْ ذِكْرِ العَوَاقِبِ جَانِبَا

وَلَمْ يَسْتَشِرْ فِي أَمْرِهِ غَيْرَ نَفْسِهِ ** وَلَمْ يَرْضَ إِلَّا قَائِمَ السَّيْفِ صَاحِبَا

وارْفُضْ فِي هَذِهِ العَزِيمَةِ الدُّنْيَا وأَرْبَابَها، فبَارَكَ اللهُ لأَهْلِ الدُّنْيَا فِي دُنياهُم، فنَحنُ الأغنِياءُ، وهُمُ الفُقَرَاءُ، كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيم بنُ أَدْهَمَ: «لَوْ عَلمَ المُلُوكُ وأَبْنَاءُ المُلوكِ مَا نَحنُ فِيهِ؛ لجَالَدونَا عَلَيهِ بالسُّيوفِ».

فأبْناءُ الدُّنْيَا؛ أَحدُهُم لا يَكَادُ يَأكُل لُقمَةً إلَّا حَرامًا أَوْ شُبْهَةً، وهُوَ وإنْ لَمْ يُؤْثِر ذَلِكَ فوَكِيلُه يَفعلُه، ولا يُبالي هُوَ بقِلَّةِ دِينِ وَكيلِه، وإنْ عَمَرُوا دارًا سَخَّرُوا الفَعَلَةَ، وإنْ جَمَعُوا مَالًا فمِنْ وُجوهٍ لا تَصلُح، ثُمَّ كُلٌّ مِنهُم خائفٌ أَنْ يُقْتَلَ أَوْ يُعْزَلَ أَوْ يُشْتَمَ؛ فَعَيْشُهُم نَغَصٌ.

ونَحنُ نَأكُل مَا ظَاهِرُ الشَّرْعِ يَشهدُ لَهُ بالإبَاحَةِ، ولا نَخافُ مِن عَدوٍّ، ولا وِلَايَتُنا تَقْبَلُ العَزلَ، والعِزُّ فِي الدُّنْيَا لَنَا لا لَهُمْ، وإقبالُ الخَلْقِ علينَا، وتَقبيلُ أَيْدِينَا وتَعظِيمُنا عِنْدَهم كَثيرٌ، وفِي الآخِرَةِ بَينَنا وبَينَهم تَفَاوُتٌ إنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ.

فإنْ لفَتَ أَرْبَابَ الدُّنْيَا أَعْناقَهُم يَعْلَمُونَ قَدْرَ مَزِيَّتِنا، وإنْ غُلَّت أَيدَيْهم عَنْ إعطَائِنا؛ فَلَذَّة العَفافِ أَطْيَبُ، ومَرارَةُ المِنَنِ لا تَفِي بالمَأْخُوذِ، وإنَّمَا هُوَ طَعامٌ دُونَ طَعامٍ، ولِباسٌ دُونَ لِباسٍ، وإنَّها أَيَّامٌ قلائلُ.

والعَجَبُ لمَنْ شَرُفَت نَفْسُه حَتَّىٰ طلبَ العِلْم - إذْ لا يطلُبه إلَّا ذُو نفسٍ شَريفةٍ - كَيْفَ يَذِلُّ لِبَذْلِ مَنْ لا عِزَّه إلَّا بالدَّنانير، ولا مَفخرَة لَهُ إلَّا بالمَكِنَةِ؟!

ولَقَدْ أَنْشَدنِي أَبُو يَعْلَىٰ العَلَويُّ:

رُبَّ قَومٍ فِي خَلَائِقِهِمْ ** عَرَرٌ قَدْ صُيِّرُوا غُرَرَا
سَتَرَ المَالُ القَبِيحَ لَهُمْ ** سَتَرَىٰ إنْ زَالَ مَا سَتَرَا

أَيْقَظَنا اللهُ مِن رَقْدَةِ الغَافِلينَ، ورَزَقَنَا فِكرَ المُتيقِّظينَ، ووفَّقنا للعَملِ بمُقتضَىٰ العِلْمِ والعَقْلِ، إنَّهُ قَرِيبٌ مجيبٌ.

۞ فَصْلٌ ۞

لَا يَنْبَغِي للإِنْسَانِ أَنْ يَحْمِلَ عَلَى بَدَنِه مَا لَا يُطيقُ

فَإِنَّ البَدَنَ كالرَّاحِلَةِ؛ إِنْ لَمْ يُرْفَقْ بِهَا لَمْ تَصِلْ بالرَّاكِبِ.

فترَىٰ فِي النَّاسِ مَن يتزهَّدُ وقَد ربَّىٰ جَسَدَه عَلَىٰ التَّرَفِ فيُعْرِضُ عَمَّا أَلِفَه فتَتَجَدَّدُ لَهُ الأَمْرَاضُ، فتقطَعَه عَنْ كَثِيرٍ مِن العِبادَاتِ. وقَدْ قِيلَ: عَوِّدوا كُلَّ بَدَن مَا اعتادَ.

وقَد قُرِّب إلىٰ رَسُول اللهِ ﷺ ضَبٌّ، فَقَالَ: «أَجِدُنِي أعافُه؛ لأَنَّهُ لَيسَ بأرضِ قَومِي»[1]، وفِي حَدِيثِ الهِجرَة: أَنَّ أبَا بكرٍ رضي الله عنه طلبَ لرَسُول اللهِ ﷺ الظِّلَّ، وفرَشَ لَهُ فَرْوَةً، وصبَّ عَلَىٰ القدَحِ الَّذِي فِيهِ اللَّبنُ مَاءً حَتَّىٰ بردَ[2]، وجاءَ رَسُول اللهِ ﷺ عَلَىٰ قَوْمٍ فَقَالَ: «**إنْ كَانَ عندَكم مَاءٌ بَاتَ فِي شَنٍّ وإِلَّا كرَعنا**»[3]، وكَانَ ﷺ يأكُلُ لحْمَ الدَّجاجِ[4]، وفِي «الصَّحِيح»: أَنَّهُ كَانَ يُحبُّ الحَلْوَىٰ والعَسَل[5]، وكَانَ إِذَا لَمْ يَقدِر أكلَ مَا حضَرَ.

ولَعَمْرِي؛ إنَّ فِي العَرَبِ وأَهْلِ السَّوادِ مَن لا يُؤَثِّرُ عِنْده التَّخَشُّنُ فِي المَطْعم والمَلْبَس، وذاكَ إِذَا جَرَىٰ بَعدَ نَوبَتِه عَلَىٰ عادَتِهِ لَمْ يَسْتَضِرَّ، فأَمَّا مَن قَدْ أَلِفَ اللُّطْفَ؛ فإِنَّه إِذَا غيَّرَ حالتَه تَغيَّرَ بَدَنُه وقَلَّتْ عِبادَتُه.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٣٩١، ٥٤٠٠، ٥٥٣٧)، ومسلم (١٩٤٥، ١٩٤٦) من حديث خالد بن الوليد.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣٦١٥)، ومسلم (٢٠٠٩) من حديث البراء بن عازب.

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٥٦١٣، ٥٦٢١) من حديث جابر بن عبد الله.

(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٤٣٨٥، ٥٥١٧)، ومسلم (١٦٤٩) من حديث أبي موسىٰ.

(٥) صحيح: أخرج البخاري (٥٤٣١)، ومسلم (١٤٧٤) من حديث عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل.

وقَدْ كَانَ الحَسَنُ يُديمُ أَكْلَ اللَّحْمِ، ويقولُ: لا رَغيفي مَالِكٍ، ولا صَحْنَيْ فَرْقَدٍ. وكَانَ ابنُ سِيرينَ لا يُخْلِي مَنْزِلَهُ مِن حَلوَىٰ. وكَانَ سُفيَانُ الثَّورِيُّ يُسافِرُ وفِي سُفْرتِهِ الحَمَلَ المَشويُّ والفَالُوذَجُ. وقَالَتْ رابعةُ: مَا أرىٰ البَدَنَ يُراد بِهِ العَمَل للهِ إِذَا أكَلَ الفَالوذَج عَيْبًا.

فَمَنْ أَلِفَ التَّرفَ؛ فيَنْبغِي أَنْ يتلطَّفَ بنَفْسه إِذَا أَمْكَنَه. وقَدْ عرفتُ هَذَا مِن نَفْسِي؛ فَإِنِّي رُبيتُ فِي ترَفٍ، فَلَمَّا ابتدأتُ فِي التَّقلُّل وهَجْرِ المُشتَهَىٰ أَثَّر مَعِي مَرضًا قَطَعَنِي عَنْ كَثِيرٍ مِن التَّعبُّد، حَتَّىٰ إِنِّي قَرَأْتُ فِي أَيَّامٍ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَةَ أجزَاءٍ مِن القُرْآنِ، فتناوَلتُ يومًا مَا لا يَصلُح؛ فَلمْ أقدِر فِي ذَلِكَ اليَوْم عَلَىٰ قِراءَتِها. فَقُلْتُ: إنَّ لُقمَةً تُؤثِّر قِراءَةَ خَمْسةِ أجزَاء، بكُلِّ حرْفٍ عشْرُ حسنَاتٍ؛ إنَّ تَناوُلها لطَاعَةٌ عظيمةٌ، وإِنَّ مَطعمًا يُؤْذِي البَدَن، فيُفَوِّته فِعلَ خيرٍ؛ يَنْبغِي أَنْ يُهجَر!

وقَد رَأَىٰ رَسُول اللهِ ﷺ رجلًا مِن أَصْحَابِهِ حضَر عِنْدَه وقَد تغيَّر مِن التَّقشُّفِ، فَقَالَ لَهُ: «**منْ أمرَكَ بهذا؟!**»[1].

فالعَاقِلُ يعطِي بدَنَهُ مِن الغِذَاء مَا يُوافِقُه، كَمَا يُنقِّي الغَازِي شَعيرَ الدَّابَّة.

ولا تَظُنَّنَّ أَنِّي آمرُ بأكلِ الشَّهوَات، ولا بالإكثَارِ من المَلذُوذِ، إِنَّمَا آمُرُ بتنَاوُل مَا يَحفَظ النَّفْسَ، وأَنْهَىٰ عمَّا يُؤذِي البَدَنَ، فأَمَّا التَّوسُّع فِي المَطاعِم فإِنَّه سَببُ النَّوْم، والشِّبعُ يُعمِي القَلبَ، ويُهْزِلُ البَدَنَ ويُضْعِفُه.

فَافْهَمْ مَا أَشَرتُ إِلَيْهِ، فالطَّرِيق هِي الوُسطَىٰ.

---

(١) حسن: أخرجه أحمد (٢٠٣٢٣)، وأبو داود (٢٤٢٨)، وعبد بن حميد (٤٠٠)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٢٧٤٣)، وابن ماجه (١٧٤١)، من حديث رجل من باهلة قال: أتيت رسول الله ﷺ لحاجة مرة، فقال: «من أنت؟» قال: أو ما تعرفني؟ قال: «ومن أنت؟» قال: أنا الباهلي الذي أتيتك عام أول، قال: «فإنك أتيتني وجسمك ولونك وهيئتك حسنة، فما بلغ بك ما أرىٰ؟» فقال: إني والله ما أفطرت بعدك إلا ليلًا، قال: «من أمرك أن تعذب نفسك؟»... الحديث.

فَصْلٌ

إذَا تَكَامَلَ العَقْلُ قَوِيَ الذَّكَاءُ والفِطْنَةُ

والذَّكيُّ يَتخلَّصُ إِذَا وَقعَ فِي آفَةٍ، كَمَا قَالَ الحَسنُ: «إِذَا كَانَ اللِّصُّ ظَرِيفًا لَمْ يُقطَعْ، فأَمَّا المُغَفَّلُ فيَجْنِي عَلَىٰ نَفْسهِ المِحنَ».

هَؤُلاءِ إِخْوةُ يُوسُفَ عليه السلام؛ أَبْعدُوهُ عَنْ أَبِيهِ؛ ليَتقدَّمُوا عِندَه، ومَا عَلمُوا أَنَّ حُزْنَه عَلَيهِ يَشْغَلُهُ عَنْهُم، وتُهْمَتَهُ إِيَّاهُم تُبغِّضُهم إِلَيْهِ! ثُمَّ رَمَوْهُ فِي الجُبِّ، فَقَالُوا: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ [يوسف: ١٠]، ولَيْسَ بطِفلٍ، إِنَّمَا هُوَ صَبيٌّ كَبيرٌ، ومَا عَلمُوا أَنَّهُ إِذَا الْتُقِطَ يُحدِّثُ بحَالِه؛ فيَبلُغُ الخَبرُ إِلىٰ أَبِيهِ؛ وهَذَا تَغفيلٌ، ثُمَّ إِنَّهمْ قَالُوا: ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [يوسف:١٧]، وجَاءُوا بقَميصِه صَحِيحًا، ولَوْ خَرقُوه احتَملَ الأَمْرُ، ثُمَّ لَمَّا مَضَوْا إِلَيْهِ يَتمارَونَ قَالَ: ﴿ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم﴾ [يوسف: ٥٩]، فلوْ فَطنُوا عَلمُوا أَنَّ مَلكَ مِصرَ لا غَرضَ لَهُ فِي أَخِيهِم، ثُمَّ حبَسهُ بحُجَّةٍ، ثُمَّ قَالَ: هَذَا الصُّواعُ يُخبِرُنِي أَنَّهُ كَانَ كَذا وكَذا! هَذَا كُلُّه ومَا يَفطِنُون!

فَلَمَّا أَحسَّ بِهَذِهِ الأَشْيَاءَ يَعقُوبُ عليه السلام قَالَ: ﴿ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٧]، وكَانَ يُوسُف عليه السلام قَدْ نُهيَ بالوَحيِ أَنْ يُعْلِمَ أَباهُ بوُجُودِه؛ ولِهذَا لَمَّا التَقيَا قَالَ لَهُ: هَلَّا كَتبتَ إِليَّ. فَقَالَ: إِنَّ جِبريلَ عليه السلام مَنعنِي. فَلَمَّا نُهيَ أَنْ يُعرِّفهُ خَبرَه ليَنْفُذَ البَلاءُ؛ كَانَ مَا فَعلَ بأَخِيهِ تَنبيهًا، فصَارَ كَأَنَّه يُعَرِّضُ بخِطبَةِ المُعتدَّةِ، وعَلَىٰ فَهمِ يُوسُفَ -واللهِ- بَكَىٰ يَعقوبُ، لا عَلَىٰ مُجَرَّد صُورَتِه.

❁ فَصْلٌ ❁

الآدَمِيُّ مَوْضُوعٌ عَلَى مَطْلُوباتٍ تُشَتِّتُ الهَمَّ:

العينُ تَطلُبُ المَنظُورَ، واللِّسَانُ يطلبُ الكَلامَ، والبَطْنُ يطلُب المَأكولَ، والفَرْجُ المَنْكُوحَ، والطَّبْعُ يُحبُّ جَمْعَ المَال، وقَد أُمِرنا بجَمْعِ الهَمِّ لذِكرِ الآخِرَة، والهوَىٰ يُشتِّتُهُ!

فَكَيفَ إِذَا اجْتَمَعتْ إِلَيْهِ حاجاتٌ لازِمَةٌ مِن طَلَبِ قوتِ البَدَن وقوتِ العِيالِ؟!

وهَذَا يبكِّر إلىٰ دُكَّانِه، ويَفْتكِر فِي التَّحصِيل، ويَسْتعملُ آلةَ الفَهمِ فِي نَيلِ مَا لا بُدَّ مِنْهُ، فأيُّ هَمٍّ يجتَمعُ مِنهُ؟! خُصوصًا إنْ أخذَه الشَّرَهُ فِي صُورَةٍ، فيَمْضِي العُمُرُ، فينهَضُ الدُّكَّان إلىٰ القبرِ، فكَيفَ يَحْصُلُ العِلْمُ أو العَمَلُ أوْ إخلاصُ القَصْدِ أوْ طَلَبُ الفَضائلِ؟!

فمَنْ رُزِقَ يقظَةً، فيَنْبَغِي أَنْ يُصَابِرَ لنَيلِ الفَضائلِ؛ فإنْ كَانَ مُتزهِّدًا بغَيْرِ عَائلةٍ اكتَفَىٰ بسَعْيٍ قَليل؛ فَقدْ كَانَ السَّبتيُّ يعْمَلُ يَوْمَ السَّبتِ، فيَكتفِي بِهِ طُولَ الأُسبوعِ، فَإِنْ كَانَ لَهُ مَالٌ بَاضَعَ[1] بِهِ مَن يَكْفِيهِ بدينِه وثِقَتِه مِن أَنْ يَهتمَّ هُو، وإنْ كَانَ لَهُ عَائلَةٌ جَمعَ هَمَّه فِي نيَّةِ الكَسبِ عَلَيهِم؛ فيَكُونُ مُتَعَبِّدًا، أوْ أَنْ يَكُونَ قِنْيَةُ مَالٍ؛ كعَقارٍ ناصَفَهُ فِي نَفقتِه؛ ليَكْفِيهُ دَخْلَه، وليُقلِّلَ الهَمَّ عَلَىٰ مِقْدَارِ مَا يُمْكِنَهُ مِن حَذْفِ العَلائقِ جَهْدَهُ؛ ليَجمعَ الهَمَّ فِي ذِكرِ الآخِرَةِ. فَإِنْ لَمْ يَفعلْ أُخِذَ فِي غَفلتِه ونَدِمَ فِي حُفْرتِهِ.

وأَقبَحُ الأَحْوالِ حَالُ عَالِمٍ فَقِيهٍ، كُلَّمَا جَمعَ هَمَّهُ لِذكرِ الآخِرَة؛ شَتَّتَهُ طَلَبُ القُوتِ للعَائلةِ، ورُبَّما احْتَاجَ إلىٰ التَّعرُّضِ للظَّلَمَة وأَخذِ الشُّبُهاتِ، وبَذْلِ الوَجْهِ؛ فيَلزمُ هَذَا التَّقديرُ فِي النَّفقةِ، وإِذَا حَصلَ لَهُ شَيْءٌ مِن وَجْهٍ دبَّر فِيهِ.

---

(١) أي: اشترىٰ بضاعة وشارك غيره في التجارة فيها علىٰ سبيل المضاربة.

ولا يَنْبغِي أَنْ يَحملَه قِصَرُ الأَمَلِ عَلَىٰ إِخْرَاجِ مَا فِي يَدِهِ؛ فَقد قَالَ ﷺ: «لأَنْ تترُكَ وَرَثَتَكَ أَغْنياءَ خَيرٌ مِن أَنْ تَتركَهَا عَالةً يَتكفَّفونَ النَّاسَ»(١).

وأَذَلُّ مِن كُلِّ ذُلٍّ التَّعَرُّضُ للبُخلاء والأُمَراء؛ فليدبِّرْ أَمْرَه، ويُقلِّل العلائقَ، ويحفظْ جاهَهُ؛ فالأَيَّامُ قلائلُ.

وقَد بُعثَ إلىٰ أَحْمَدَ بنِ حَنْبَل مَالٌ، فسأَلَهُ ابنهُ قَبُولَهُ، فَقَالَ: يَا صَالحُ؛ صُنِّي! ثُمَّ قَالَ: أَسْتَخيرُ اللهَ. فأَصبحَ فَقَالَ: يَا بُنَيَّ؛ قَدْ عُزِمَ لي أَلَّا أَقبَلَه.

هَذَا؛ وكَانَ العطاءُ هَنيًّا، وجاءَهُ مِن وُجوهٍ، فانعَكسَ الأَمْرُ اليَوْمَ!

فَصْلٌ

العُزْلَةُ عَن الخَلْقِ سَبَبُ طِيبِ العَيْشِ، ولا بُدَّ مِن مُخَالَطةٍ بِمِقْدَارٍ

فدارِ العَدُوَّ واسْتَحِلَّه، فرُبَّمَا كادَكَ فأَهْلكَكَ، وأَحسِنْ إلىٰ مَن أساءَ إلَيْك، واستعِنْ عَلَىٰ أُمُورِكَ بالكِتمَان، ولْتكُن النَّاس عِنْدكَ مَعارِفَ، فأَمَّا أصدقَاءَ فلا؛ لأَنَّ أعزَّ الأَشْيَاء وُجُودُ صَديقٍ، ذَاكَ أَنَّ الصَّديقَ يَنْبغِي أَنْ يَكُونَ فِي مَرتَبَة مُماثِلٍ، فَإِنْ صادَفتَه عامِّيًّا لَمْ تنتفِع بِهِ لسُوءِ أَخْلاقِهِ وقِلَّة عِلمِه وأَدَبه، وإِنْ صَادَفتَ مُماثِلًا أَوْ مُقارِبًا حَسَدَكَ، وإِذَا كَانَ لَكَ يقظةٌ تَلمَّحتَ مِن أفعَالِه وأقوالِه مَا يَدُلُّ عَلَىٰ حَسَدِكَ، ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ [محمد: ٣٠]، وإذا أَرَدْتَ تَأكِيدَ ذَلِكَ فضَعْ عَلَيهِ مَن يَضعُكَ عِندَه، فَلا يخرُجُ إِلَيْهِ إِلَّا بِمَا فِي قَلْبه.

---

(١) صحيح: أخرجه مالك (١٤٥٦)، والبخاري (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨)، وأحمد (١٤٤٠)، وأبو داود (٢٨٦٤)، والترمذي (٢١١٦) وقال: حسن صحيح. والنسائي (٣٦٢٦)، وابن ماجه (٢٧٠٨)، وابن خزيمة (٢٣٥٥) من حديث سعد بن أبي وقاص.

فَإِنْ أردتَ العَيْشَ فابْعُدْ عَنِ الحَسودِ؛ لأنَّهُ يَرىٰ نِعمَتكَ، فرُبَّمَا أصابَها بالعَينِ، فَإِنِ اضْطُرِرْتَ إلىٰ مخالطَتِه فَلا تُفْشِ له سِرَّكَ ولا تُشاوِرْهُ، ولا يَغُرَّنَّكَ تملُّقُه لكَ، ولا مَا يُظهِرُه من الدِّين والتَّعبُّدِ؛ فَإِنَّ الحَسدَ يغلِبُ الدِّينَ؛ وقَدْ عَرَفْتَ أَنَّ قابيلَ أَخْرَجهُ الحَسدُ إلىٰ القَتلِ، وأنَّ إخوَةَ يُوسُفَ بَاعُوه بثَمنٍ بَخسٍ! وكَانَ أَبُو عَامِرٍ الرَّاهِبُ منَ المُتعَبِّدين العُقَلاءِ، وعَبْدُ الله بنُ أُبيٍّ مِنَ الرُّؤساءِ، أخرَجُهما حَسدُ رَسُولِ اللهِ ﷺ إلىٰ النِّفاقِ وتَركِ الصَّوَابِ.

ولا يَنْبغِي أَنْ تَطلُبَ لحَاسدِكَ عُقُوبَةً أكْثَرَ مِمَّا هُوَ فِيهِ، فإنَّه فِي أمرٍ عَظِيمٍ مُتَّصلٍ، لا يُرضيهِ إلَّا زَوالُ نِعمتِكَ، وكُلَّمَا امتدَّتْ امتدَّ عَذَابُه؛ فَلا عَيشَ لَهُ، ومَا طَابَ عَيشُ أَهْلِ الجَنَّة إلَّا حِينَ نُزِعَ الحَسدُ والغِلُّ مِن صُدُورِهم، ولَوْلا أَنَّهُ نُزِعَ تَحاسَدُوا وتنغَّصَ عَيشُهم.

❁ فَصْلٌ ❁

مَن سَارَ معَ العَقْلِ، وخَالَفَ طَرِيقَ الهَوَى، ونَظَرَ إلَى العَوَاقِبِ

أَمْكَنَهُ أَنْ يَتَمَتَّعَ مِن الدُّنْيَا أَضْعَافَ مَا تَمَتَّعَ مَن اسْتَعْجَلَ الشَّهَوَاتِ

فأَمَّا المُسْتَعْجِلُ فيُفَوِّتُ نَفْسَه حظَّ الدُّنْيَا والذِّكرَ الجَميلَ، ويكونُ ذَلِكَ سببًا لفَوَاتِ مُرادِه مِن اللَّذَّاتِ.

وبيانُ هَذَا مِن وَجْهَينِ:

أَحدُهُمَا: أَنَّ مَن مَال إلىٰ شَهَواتِ النِّكَاح وأَكْثَرَ مِنهَا؛ قَلَّ الْتِذَاذُه، وفَنِيَت حَرارَتُه، وكَانَ ذَلِكَ سَببًا فِي عَدَمِ مَطْلُوبه منها، ومنِ استَعملَ ذَلِكَ بمِقْدَار مَا يُجيزُه العَقلُ ويَحتَملُه؛ كَانَ الْتِذاذُه أكْثَرَ؛ لبُعدِ مَا بينَ الجِماعَيْنِ، وأمكنَهُ التَّردُّدُ لبَقاءِ الحَرارَةِ.

وكَذَلكَ مَن غَشَّ فِي مُعامَلتِه أوْ خَانَ؛ فإنَّه لا يعامَلُ، فيفوتُه رِبحُ المُعامَلَة الدَّائمَةِ؛ لخِيانَته مرَّةً، ولَوْ عُرِف بالثِّقةِ دامَتْ مُعاملةُ النَّاس لَهُ؛ فزادَ رِبحُه.

والثَّانِي: أَنَّهُ مَن اتَّقىٰ اللهَ، وتشاغَل بالعِلْم أوْ تَحقِيقِ الزُّهْد؛ فُتِح لَهُ مِن المُبَاحات مَا يَلْتَذُّ بِهِ كَثيرًا، ومَن تقاعَدَ بِهِ الكَسَلُ عَنِ العِلْم، أوِ الهَوَىٰ عَنْ تَحقِيقِ الزُّهْدِ؛ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ إلَّا اليَسِيرُ مِن مُرادِه، قَالَ ﷻ: ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾ [الجن:١٦].

فَصْلٌ

يَنْبغِي أَنْ يَكُونَ العَمَلُ كُلُّه للهِ ومَعَهُ ومِن أَجْلِهِ

وقَدْ كَفَاكَ كُلَّ مَخْلُوقٍ، وجَلَبَ لَكَ كُلَّ خَيْرٍ.

وإيَّاكَ أَنْ تَمِيل عَنْهُ بمُوافقَةِ هوًىٰ وإرْضاءِ مَخلوقٍ؛ فإنَّه يَعْكِسُ عَلَيْك الحَالَ، ويفوِّتُكَ المَقصُودَ، وفِي الحَدِيثِ: «**مَنْ أَرْضَىٰ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ عَادَ حامِدُهُ مِن النَّاسِ ذَامًّا**»(١)، وأَطْيَبُ العَيْشِ عيشُ مَن يَعِيشُ مَع الخَالِقِ سُبْحَانَه.

فإنْ قِيلَ: كَيْفَ يَعيشُ مَعهُ؟

---

(١) **صحيح**: أخرجه من حديث عائشة: الترمذي (٢٤١٤) وأشار إلىٰ الاختلاف في رفعه، والحميدي (٢٦٨)، وابن عدىٰ (٦/ ٥٣)، والعقيلىٰ (٣/ ٣٤٣) وقال: لا يصح فىٰ الباب مسندًا وهو موقوف من قول عائشة. لكن أخرجه عبد بن حميد (١٥٢٤) وابن حبان (٢٧٦، ٢٧٧) من وجه آخر عن عائشة، وقال ابن حجر في «الأمالي المطلقة» (١١٩): «حديث صحيح، وإسناده علىٰ شرط الشيخين».

قُلْتُ: بامْتِثالِ أمرِه، واجتنابِ نَهيِهِ، ومُراعاةِ حُدُودِه، والرِّضَىٰ بقَضائِه، وحُسنِ الأدبِ فِي الخَلوَةِ، وكَثرةِ ذِكرِه، وسَلامةِ القَلْبِ مِن الاعتِراضِ فِي أقدَارِه؛ فَإِنِ احتَجتَ سَألتَه، فَإِنْ أعطَىٰ وإِلَّا رَضيتَ بالمَنعِ، وعَلمتَ أَنَّهُ لَمْ يَمنعْ بُخلًا، وإِنَّمَا نَظرًا لكَ، ولا تَنقطِعْ عَنِ السُّؤالِ؛ لأَنَّك تتعَبَّد بهِ، ومتىٰ دُمتَ عَلَىٰ ذَلِكَ رَزقكَ محبَّتَه وصِدقَ التَّوكُّلِ عَلَيهِ، فصَارَتْ المَحبَّة تَدُلُّك عَلَىٰ المَقصُودِ، وأثمَرَتْ لَكَ مَحبَّتَهُ إِيَّاك، فحِينئِذٍ تَعيشُ عَيشَ الصِّدِّيقينَ، ولا خيرَ في عيشٍ إنْ لَمْ يَكُنْ كذا.

فَإِنَّ أكْثَر النَّاس مُخَبَّطٌ فِي عَيْشِه، يُدارِي الأَسْبَابَ ويَميلُ إِلَيهَا بقَلبِه، ويَتْعَبُ فِي تَحْصِيلِ الرِّزق بحرصٍ زائدٍ عَلَىٰ الحَدِّ، وبِرَغْبةٍ إلىٰ الخَلْق، ويعترِضُ عِنْدَ انكِسارِ الأَغْراضِ؛ والقَدَرُ يَجْرِي ولا يُبالي بِسَخَطٍ، ولا يَحْصُلُ لَهُ إِلَّا مَا قُدِّرَ، وقَدْ فَاتَه القُرْبُ مِن الحقِّ، والمَحبَّةُ لَهُ، والتَّأَدُّبُ مَعهُ؛ فذَلِكَ العَيْشُ عيشُ البهائمِ.

فَصْلٌ

نَظَرْتُ فِي حِكْمَةِ المَطْعَمِ والمَشْرَبِ والمَلْبَسِ والمَنْكَحِ

فرَأيْتُ أَنَّ الآدميَّ لَمَّا خُلقَ مِن أُصُولٍ تتحلَّل، وهي المَاءُ والتُّرابُ والنَّارُ والهواءُ، وبقاؤُه إِنَّمَا يَكُونُ بالحَرَارَةِ والرُّطوبَةِ، والحَرارةُ تُحلِّل الرُّطوبة دَائمًا؛ فَلم يَكُنْ لَهُ بدٌّ مِن شَيْءٍ يُخْلِفُ مَا بَطَلَ.

ولمَّا كَانَ اللَّحْمُ لا يَنُوبُ عَنْهُ إِلَّا اللَّحْمُ؛ أباح الشَّرْعُ ذبحَ الحَيَوان؛ ليتَقْوَّىٰ بِهِ مَن هُوَ أَشْرَفُ مِنهُ.

ولمَّا كَانَ بَدَنُه يحْتَاج إلىٰ كِسوةٍ، ولَهُ قدرةٌ تميِّزُ، وقدرةٌ يصنَع بِهَا مَا يقِيهِ الأَذَىٰ مِن القُطنِ والصُّوفِ؛ لَمْ يَجْعل عَلَىٰ جِلدِه مَا يقيهِ خِلْقَةً، بخِلافِ الحَيَوَانِ البَهيم؛ فإِنَّه لَمَّا لَمْ يَكُنْ لَهُ قُدرةٌ عَلَىٰ مَا يغطِّي جِلدَه عوَّضه بالرِّيش والشَّعرِ والوَبَرِ.

ولمَّا لَمْ يَكُنْ بدٌّ مِن فناءِ الآدميِّ والحَيَوان؛ هيَّج شَهْوَة الجِماعِ؛ لِتُخْلِفَ النَّسلَ.

فمُقتضىٰ العَقْل الَّذِي حُرِّك عَلَىٰ طَلب هَذِهِ المَصَالِح أَنْ يَكُونَ التَّناولُ للمَطعمِ والمَشرَبِ مِقْدَارَ الحَاجَة والمَصلَحَة؛ ليقعَ الالْتِذاذُ بالعَافِيَة. ومِن البَليَّة طلبُ الالتِذاذِ بالمَطْعمِ وإنْ كَانَ غَيْر صالحٍ، والشَّرَهُ فِي تَناوُلِه، وكَذَلكَ الكِسوةُ والنِّكَاح.

ومِن الحَزمِ جَمعُ المَالِ وادِّخارُه لعَارضِ حَاجَةٍ مِن ذَلِكَ. ومنَ التَّغفيلِ إنفَاقُ الحَاصِلِ، فرُبَّمَا عَرضَت حَاجَةٌ فَلم يَقْدِر عَلَيهَا، فَأَثَّر عَدَمُها فِي البَدَن أو فِي العَرضِ بطَلَبِها مِن الأَنْذَالِ!

ومِنْ أقبَح الأُمُورِ الانْهِماكُ فِي النِّكَاحِ طَلبًا لصُورَة اللَّذَّةِ، نَاسيًا مَا يَجنِي ذَلِكَ مِن انحِلالِ القُوَّةِ، ويَزيدُ فِي الحَرَامِ بالعُقُوبَةِ.

فمَن مَالَ إلىٰ تَدبيرِ العَقْلِ سَلمَ في دُنياهُ وآخِرَته، ومَن أَعرَضَ عَنْ مُشاورَته أو عَنِ القَبولِ مِنْهُ تَعجَّل عَطَبَهُ.

فَلْيُفْهَمْ مَقْصُودُ المَوْضُوعاتِ، وحِكَمُهَا والمُرَادُ منها، فمَن لَمْ يَفْهَمْ، ولَمْ يعْمَل بمُقتضىٰ مَا فَهِمَ كَانَ كأَجْهَلِ العَوامِّ، وإن كَانَ عالمًا.

۞ فَصْل ۞

العَجَبُ مِمَّنْ لَهُ مُسْكَةٌ مِن عَقْلٍ أَوْ عِنْدَهُ قَلِيلٌ مِن دِينٍ؛ كَيْفَ يُؤْثِرُ مُخَالَطَتَهُمْ؟!

فإِنَّه بالمُخَالطَة لَهُم أو العَمَل مَعَهُم يَكُونُ قَطْعًا خائفًا مِن عزلٍ أَوْ قَتلٍ أَوْ سُمٍّ، ولا يُمكنُه أَنْ يعْمَل إِلَّا بمُقتضىٰ أوامِرِهِم، فإنْ أمروا بِمَا لا يَجُوز لَمْ يقدِرْ أَنْ يُراجِعَ؛ فَقد باعَ دِينَه قَطْعًا بدُنياهُ، فَمَنَعَهُ الخَوْفُ مِن القِيامِ بأمرِ الله، وضاعتْ عَلَيهِ آخرَتُه، ولَمْ يَبْقَ بيَدِه إِلَّا عاجلُ التعظِيم، وأنْ يُقَال بين يَدَيْه: بسم الله! وأن يُنَفَّذَ أوامُرُه، وذَلِكَ بعيدٌ مِن السَّلامَة فِي بَاب الدِّين، ومَا يَلْتَذُّ بِهِ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا مَمْزُوجٌ بخوفِ العَزلِ والقَتلِ.

۞ فَصْل ۞

مِن الغَلَطِ العَظِيم أَنْ يُتَكَلَّمَ فِي حَقِّ مَعْزُولٍ بِمَا لا يَصْلُحُ

فَإِنَّه لا يُؤْمَنُ أَنْ يَلِيَ فَيَنْتَقِمَ.

وفِي الجُمْلَةِ؛ لا يَنْبغِي أَنْ يُظْهِرَ العدَاوةَ لأَحَدٍ أَصْلًا؛ فَقد يرتَفِعُ المُحتَقَرُ، وقَد يتمكَّن مَن لا يُعَدُّ.

بل يَنْبغِي أَنْ يُكْتَمَ مَا فِي النُّفُوس مِن ضَغَنٍ عَلَىٰ الأَعْداءِ، فَإِنْ أَمْكَنَ الانتقامُ مِنهُم كَانَ العفوُ انتِقامًا؛ لأَنَّهُ يُذِلُّهُم.

ويَنْبغِي أَنْ يُحسن إلىٰ كُلِّ أحدٍ، خُصوصًا مَن يَجُوز أَنْ يَكُون لَهُ ولايةٌ، وأَنْ يُخْدمَ المَعْزُولُ؛ فرُبَّمَا نفعَ فِي ولايتِه.

وقَدْ رُوِّينَا أَنَّ رَجلًا استأذنَ عَلَىٰ قَاضِي القُضاةِ ابنِ أَبِي دُؤادٍ، وقَالَ: قُولُوا لَهُ: أَبُو جَعفَر بالبَابِ، فَلَمَّا سَمعَ هَشَّ لِذلِكَ وقَالَ: ائذَنُوا لَهُ. فدَخلَ، فقَامَ، وتَلقَّاهُ وأكرَمهُ وأعطَاهُ خَمسةَ آلافٍ، وودَّعهُ، فقِيلَ لَهُ: رَجُلٌ مِن العَوامِّ فعلتَ بِهِ هَذَا؟ قَالَ: إِنِّي كُنْتُ فَقيرًا، وكَانَ هَذَا صَديقًا، فجِئتُه يومًا فَقُلتُ لَهُ: أنا جَائعٌ. فَقَالَ: اجلِسْ، وخَرجَ فجَاءَ بشِواءٍ وحَلوَىٰ وخُبزٍ، فَقَالَ: كُلْ. فقُلْتُ: كُلْ معي. قَالَ: لا، قُلْتُ: واللهِ لا آكُلُ حَتَّىٰ تَأكلَ مَعي، فأكَلَ، فجَعلَ الدَّمُ يَجْرِي فِي فَمِه. فقُلْتُ: مَا هَذَا؟ فَقَالَ: مَرضٌ، فقُلْتُ: واللهِ لا بُدَّ أَنْ تُخْبِرَنِي، فَقَالَ: إِنَّكَ لَمَّا جِئتَني لَمْ أكنْ أَمْلكُ شَيئًا، وكَانَت أسنَانِي مُضبَّبَةً بشَريطٍ من ذَهبٍ، فنزَعتُه واشتَريتُ بِهِ! فهلَّا أُكافِئُ مِثلَ هَذَا؟!

وعَلَىٰ عَكسِ هَذِهِ الأَشْيَاءَ: كَانَ ابنُ الزَّيَّاتِ وزِيرَ الواثِقِ، وكَانَ يَضعُ مِن المُتوكِّل، فَلَمَّا وُلِّي عذَّبهُ بأنوَاعِ العَذَابِ!

وكَذَلكَ ابنُ الجَزرِيِّ؛ كَانَ لا يُوقِّرُ المُسترشِدَ قَبلَ الولايَةِ، فجَرَتْ عَلَيهِ الآفَاتُ لَمَّا وَلِيَ.

فالعَاقِلُ من تَأمَّلَ العَوَاقِبَ ورَعاهَا، وتصوَّر كُلَّ مَا يَجُوزُ أَنْ يَقَعَ فَعَمِلَ بمُقتضَىٰ الحَزْم.

وأبلغُ مِن هَذَا: تَصْويرُ وُجُود المَوْتِ عَاجلًا؛ لأَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَأتِي بغتةً مِن غَيْر مرضٍ، فالحازمُ مَن استعدَّ لَهُ، وعمِلَ عمَلَ من لا يندمُ إِذَا جاءَهُ، وحذِرَ مِن الذُّنُوب؛ فإِنَّها كعَدُوٍّ مُراصِدٍ بالجَزَاءِ، وادَّخَرَ لنَفْسه صالحَ الأعمَالِ؛ فإِنَّها كصديقٍ ينفعُ وقتَ الشِّدَّة.

وأبلغُ مِن كُلِّ شَيْءٍ: أَنْ يعلمَ المُؤمِنُ أَنَّهُ كُلَّمَا زادَ عمَلُه فِي الفَضائِل علَتْ مرتَبتُه فِي الجَنَّة، وإنْ نقصَ نقصَتْ؛ فهو وإنْ دخلَ الجَنَّة فِي نقصٍ بالإضافَة إلىٰ كَمالِ غيرِه، غَيْرَ أَنَّهُ قَدْ رَضِي بِهِ ولا يشعرُ بذَلِكَ.

فرحِمَ الله مَن تَلمَّح العَوَاقِب، وعمِلَ بمقتضىٰ التَلمُّح، والله تَعالَىٰ المُوفِّقُ.

فَصْلٌ

لمَّا جَمَعْتُ كِتَابي المُسَمَّى بـ «المُنْتَظَمِ في تَارِيخ المُلُوكِ والأُمَمِ» اطَّلَعْتُ عَلَى سِيَرِ الخَلْقِ مِن المُلُوكِ والوُزَراءِ والعُلَماءِ والأُدَباءِ والفُقَهَاءِ والزُّهَّادِ وغَيْرِهِمْ، فرَأَيْتُ الدُّنْيَا قَدْ تَلاعَبَتْ بالأَكْثَرِينَ تلاعُبًا أَذْهَبَ أَدْيانَهُم، حَتَّى كَانُوا لا يُؤمِنُونَ بالعِقَابِ!

فمِن الأمَراءِ مَن يقتُل ويُصَادِرُ ويقطعُ ويحبِسُ بغَيْر حقٍّ، ثُمَّ يَنخرِطُ فِي سِلكِ المَعاصِي، كَأَنَّ الأَمْرَ إلَيْهِ، أَوْ قَدْ جاءَه الأَمْنُ مِن العِقابِ، فرُبَّمَا تخايَل أَنَّ حِفْظِي الرَّعايا يردُّ عنِّي! ويَنْسَىٰ أَنَّهُ قَدْ قِيلَ لرَسُول اللهِ ﷺ: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأنعام: ١٥].

وقَدِ انْخَرَطَ جمعٌ مِمَّنْ يتَّسمُ بالعِلْم فِي سلكِ المَعاصِي؛ لتَحْصِيلِ أغرَاضِهم العاجِلَةِ؛ فَمَا نَفعَهُم العِلْمُ!

ورَأَيْنا خَلقًا مِن المُتزَهِّدينَ؛ خَالفُوا لنَيْلِ أَغْرَاضِهم!

وهَذَا؛ لأَنَّ الدُّنْيَا فَخٌّ، والنَّاسُ كالعَصافِير، والعُصفورُ يُرِيدُ الحبَّةَ، ويَنْسَىٰ الخَنْقَ.

قدْ نَسيَ أَكْثَرُ الخَلْقِ مآلَهُم مَيْلًا إلىٰ عَاجِلِ لذَّاتِهم، فأقبَلُوا يُسامِرون الهَوَىٰ، ولا يَلتفِتونَ إلىٰ مُشاورَة العَقْلِ، فلقَدْ بَاعُوا بلذَّةٍ يَسيرةٍ خَيرًا كَثيرًا، واستَحقُّوا بشَهَواتٍ مَرذُولةٍ عَذَابًا عَظيمًا، فإذَا نزَلَ بأحدِهِم المَوْتُ قَالَ: لَيتَني لَمْ أَكُنْ! لَيتَني كُنْتُ تُرابًا! فيُقَالُ لَهُ: آلآنَ؟!

فوَا أَسَفًا لفَائتٍ لا يُمكنُ استِدراكُه، ولمُرتَهِنٍ لا يَصِحُّ فكَاكُه، ولنَدمٍ لا يَنقَطِع زَمانُه، ولمُعذَّبٍ عزَّ عَلَيهِ إيمانَه باللهِ!

باللهِ مَا نفعَتِ العُقُولُ إلَّا لمَن يَلْتَفِت إلَيهَا ويعوِّلُ عَلَيهَا، ولا يُمْكِنُ قبول مُشاوَرَتِها إلَّا بعزيمةِ الصَّبْرِ عمَّا يَشْتَهِي.

فتأمَّلْ فِي الأُمَراءِ عَمرَ بنَ الخطَّاب وابنَ عَبْد العَزِيز رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وفِي العُلَمَاء أحْمَدَ بنَ حَنْبَل رَحْمَةُ اللهِ عَلَيهِ، وفِي الزُّهَّاد أُوَيْسًا القَرَنِيَّ؛ لَقَد أَعْطَوُا الحَزْمَ حقَّهُ، وفهِمُوا مَقْصُودَ الوُجُودِ.

وما هلكَ الهالكُونَ إلَّا لقلَّةِ الصَّبْر عَنِ المُشتَهَىٰ، ورُبَّما كَانَ فِيهِمْ مَن لا يُؤمِن بالبَعثِ والعِقابِ.

ولَيْسَ العجبُ مِن ذَاكَ، إنَّمَا العجبُ مِن مُؤمنٍ يُوقِنُ ولا ينفعُه يقينُه، ويعقلُ العَوَاقِبَ ولا ينفعُه عقلُه!

۞ فَصْل ۞
مَن رُزِقَ هِمَّةً عَالِيةً يُعَذَّبُ بِمِقْدَارِ عُلُوِّهَا

كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

وَإِذَا كَانَـــتِ النُّفُـــوسُ كِبَـــارًا ** تَعِبَـــتْ فِـــي مُرَادِهَـــا الأَجْـــسَامُ

وقَالَ الآخَرُ:

وَلِكُـــلِّ جِـــسْمٍ فِـــي النُّحُـــولِ بَلِيَّـــةٌ ** وَبَـــلَاءُ جِـــسْمِي مِـــنْ تَفَـــاوُتِ هِمَّتِـــي

وبيانُ هَذَا: أَنَّ مَن عَلَتْ هِمَّتُه طَلَبَ العُلومَ كُلَّها ولَمْ يَقْتَصِرْ عَلَىٰ بعضِها، وطلبَ مِن كُلِّ علمٍ نِهايتَه، وهَذَا لا يحتَمِلُه البَدَن.

ثُمَّ يَرَىٰ أَن المُرَادَ العَمَلُ؛ فيجتهدُ فِي قِيامِ اللَّيْل، وصِيامِ النَّهَار؛ والجَمْعُ بين ذَلِكَ وبينَ العِلْم صعبٌ.

ثُمَّ يَرَىٰ تركَ الدُّنْيَا، ويحْتَاجُ إلىٰ مَا لا بُدَّ مِنْهُ، ويحبُّ الإيثار ولا يقدرُ عَلَىٰ البُخْلِ، ويتقاضاهُ الكَرمُ البذلَ، ويمنعُه عزُّ النَّفْس عَن الكَسْبِ مِن وُجوهِ التَّبذُّلِ؛ فَإِنْ هُوَ جَرَىٰ عَلَىٰ طَبْعِه مِن الكَرَم؛ احْتَاجَ وافْتَقَرَ وتأَثَّر بَدَنُه وعائلَتُه، وإن أَمْسَك؛ فَطَبْعُه يَأْبَىٰ ذَلِكَ.

وفِي الجُمْلَةِ؛ يَحْتَاجُ إلىٰ مُعاناةٍ وجَمْعٍ بينَ أَضْدادٍ؛ فَهُو أبدًا فِي نَصَبٍ لا يَنقضِي، وتعبٍ لا يَفْرَغُ، ثُمَّ إِذَا حقَّقَ الإِخْلاصَ فِي الأعمَالِ زَادَ تَعبُه، وقَوِيَ وصَبُه!

فأَيْنَ هُوَ ومَنْ دنَتْ همَّتُه؟! إنْ كَانَ فَقِيهًا فسُئِلَ عَنْ حَدِيثٍ قَالَ: مَا أعرِفُه! وإِنْ كَانَ مُحدِّثًا فسُئِلَ عَنْ مَسألَةٍ فِقهيَّةٍ قَالَ: مَا أدرِي! ولا يُبالِي إنْ قِيلَ عَنْهُ: مُقصِّرٌ.

والعَالِي الهمَّةِ؛ يَرَىٰ التَّقصِيرَ فِي بَعْضِ العُلومِ فَضِيحةً قَدْ كَشَفَتْ عيبَه، وقَد أَرَتِ النَّاسَ عَورَته!

والقَصيرُ الهِمَّةِ؛ لا يُبالِي بمنَنِ النَّاسِ، ولا يَستقبِحُ سُؤالَهم، ولا يأنَفُ مِن رَدٍّ، والعَالِي الهِمَّة لا يَحمِلُ ذَلِكَ.

ولَكِنْ تَعَبُ العَالِي الهِمَّةِ رَاحةٌ فِي المَعنَىٰ، ورَاحةُ القَصيرِ الهِمَّةِ تَعبٌ وشَينٌ؛ إنْ كَانَ ثَمَّ فَهمٌ.

والدُّنْيَا دَارُ سباقٍ إلىٰ أعَالِي المَعالِي؛ فيَنْبَغِي لِذي الهِمَّة أَلَّا يُقصِّر فِي شَوطِه، فَإِنْ سَبقَ فَهُو المَقصُودُ، وإنْ كَبا جَوادُه مع اجْتِهادِه لَمْ يُلَمْ.

فَصْلٌ

المُصِيبةُ العُظْمَى رِضَى الإنْسَانِ عَنْ نَفْسِهِ واقْتِنَاعِهِ بعِلْمِهِ!

وهَذِهِ مِحْنَةٌ قَدْ عمَّت أَكْثَرَ الخَلْقِ؛ فتَرَىٰ اليَهُوديَّ أو النَّصرانِيَّ يَرَىٰ أَنَّهُ عَلَىٰ الصَّوَاب، ولا يَبْحثُ ولا يَنْظُرُ فِي دَلِيل نُبُوَّة نَبِيِّنا ﷺ، وإِذَا سَمِعَ مَا يُلينُ قَلْبَهُ مثل القُرْآنِ المُعْجِزِ؛ هرَبَ لِئلَّا يسمَعَ!

وكَذَلكَ كُلُّ ذي هوًىٰ يثبتُ عَلَيهِ؛ إِمَّا لأَنَّهُ مَذْهَبُ أبيهِ وأهلِه، أوْ لأَنَّهُ نَظَرَ نظرًا أَوَّلَ فرآهُ صوابًا، ولَمْ ينظر فِيمَا يناقِضُه، ولَمْ يُباحِثِ العُلَمَاءَ لِيُبيِّنُوا لَهُ خطأَهُ.

ومِن هَذَا: حَالُ الخَوارجِ عَلَىٰ أَمِيرِ المُؤْمِنينَ عَليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ فَإِنَّهُم اسْتَحْسَنُوا مَا وَقَعَ لَهُم، ولَمْ يَرْجِعوا إلىٰ مَن يَعْلَمُ، ولمَّا لَقِيَهُم عَبْدُ الله بنُ عَبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فبيَّن لَهُم خطَأَهُم رَجعَ عَنْ مَذْهَبه مِنهُم ألفانِ.

وممَّن لَمْ يَرْجِعْ عَنْ هَواهُ: ابنُ مُلْجِمٍ، فرأىٰ مَذْهَبه هُوَ الحَقَّ، فاسْتَحَلَّ قتلَ أميرِ المُؤْمِنينَ رضي الله تَعالَىٰ عَنْهُ، ورآهُ دِينًا، حَتَّىٰ إِنَّهُ لَمَّا قُطِعَتْ أَعْضاؤه لَمْ يُمَانِعْ! فلمَّا طُلبَ لِسانُه ليُقْطَعَ انزَعجَ، وقَالَ: كَيْفَ أَبْقىٰ سَاعَةً فِي الدُّنْيَا لا أَذْكُر اللهَ؟! ومثل هَذَا مَا لَهُ دواءٌ.

وكَذَلكَ كَانَ الحَجَّاجُ يَقُول: والله؛ مَا أَرْجُو الخَيْرَ إلَّا بعدَ المَوْتِ! هَذَا قَوْلُه! وكَمْ قتلَ مَن لا يَحِلُّ قتلَه! مِنهُم سعيدُ بنُ جُبيرٍ.

وقَدْ أَخْبَرَنا عَبْدُ الوَهَّابِ وابنُ نَاصرٍ الحُفَّاظُ قَالَا: أَخْبَرَنا المُبَارَكُ بْنُ عَبْدِ الجبَّارِ قَالَ: أَخْبَرَنا الحُسَين بْنُ مُحمَّد النصيبيُّ قَالَ: أَخْبَرَنا إسمَاعيلُ بْن سَعيدٍ قَالَ: حدَّثَنَا أَبُو بَكْر بْنِ الأنبارِيِّ قَالَ: حدَّثَنَا أَبُو عِيسَىٰ الختلِيُّ قَالَ: حدَّثنَا أَبُو يَعلَىٰ قَالَ: حدَّثَنَا الأَصمعِيُّ قَالَ: حدَّثَنَا أَبُو عَاصمٍ، عَنْ عَبَّاد بنِ كَثِيرٍ، عَنْ قَحْذَمَ قَالَ:

وُجِدَ فِي سِجنِ الحجَّاجِ ثَلاثةٌ وثَلاثُونَ ألفًا، مَا يَجبُ عَلَىٰ وَاحِدٍ مِنهُم قَطعٌ، ولا قَتلٌ، ولا صَلبٌ.

قُلْتُ: وعُمومُ السَّلاطِينَ يَقتلُون ويَقطعُون ظَنًّا مِنهُم جَوَازَ ذَلِكَ! ولَوْ سَألُوا العُلَمَاءَ بيَّنوا لَهُمْ.

وعُمومُ العَوامِّ يُبارِزونَ بالذُّنُوبِ اعتِمادًا عَلَىٰ العَفوِ، ويَنسوْنَ العِقابَ! ومِنْهُم مَنْ يَعتمِدُ أَنِّي مِنْ أَهْلِ السُّنَّة، أَوْ أَنَّ لي حَسناتٍ قَدْ تَنفعُ؛ وكُلُّ هَذَا لِقوَّةِ الجَهْلِ.

فيَنْبغِي للإِنْسَانِ أَنْ يُبالغَ فِي مَعْرِفَةِ الدَّلِيل، ولا يُساكِنَ شُبهتَهُ، ولا يَثِقَ بِعْلِم نَفْسه؛ نَسْأَلُ اللهَ السَّلامَةَ مِن جَمِيعِ الآفاتِ.

❁ فَصْلٌ ❁

اعْلَمْ أَنَّ الجَزَاءَ بالمِرْصَادِ؛ إنْ كَانَتْ حَسَنةً، أَوْ كَانَتْ سَيِّئةً

ومِن الاغْتِرارِ أَنْ يَظُنَّ المُذْنِبُ - إِذَا لَمْ يرَ عُقُوبَةً - أَنَّهُ قَدْ سُومِحَ، ورُبَّما جاءتِ العُقُوبَة بَعدَ مُدَّةٍ، وقلَّ مَن فَعَل ذنبًا إلَّا وقوبِلَ عَليهِ، قَالَ ﷻ: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣].

هَذَا آدَم عليه السلام؛ أكل لُقمَةً؛ فَقَدْ عَرَفْتُمْ مَا جَرَىٰ عَليْهِ.

قال وَهْبُ بنُ مُنبِّهٍ: أَوحَىٰ الله تَعَالَىٰ إِلَيْهِ: أَلَمْ أَصْطَنِعْكَ لنَفْسِي وأَحْلَلْتُكَ دارِي، وأَسْجَدْتُ لَكَ ملائِكتِي؟! فعصيتَ أَمري ونَسيتَ عهدِي!! وعزَّتِي؛ لَوْ مَلأْتُ الأَرْضَ كُلَّهُم مثلكَ يَعبُدونَ ويسبِّحونَ فِي اللَّيْل والنَّهار، ثُمَّ عَصَوْنِي؛ لأنْزَلْتُهم مَنازِلَ العَاصِين. فنزعَ جبريلُ التَّاجَ عَنْ رأسِهِ، وحلَّ ميكائيلُ الإكليلَ عَنْ

جَبينِه، وجذَب بنَاصيتِه، فأُهْبِطَ، فبَكىٰ آدَمُ ثَلاثَمائةِ عام عَلَىٰ جبلِ الهِندِ، تجرِي دُموعُه فِي أودِيةِ جبَالِها، فنبَتَتْ بتِلْكَ المدَامِعِ أشجارُ طِيبِكم هَذَا.

وكَذَلكَ دَاودُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ نَظرَ نظرةً، فأوْجَبَتْ عتابَهُ وبُكاءَه الدَّائمَ، حَتَّىٰ نبت العُشبُ مِن دُموعِه.

وأمَّا سُليمانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فَإِنَّ قومًا اختصَمُوا إلَيْهِ، فكَانَ هَواهُ مع أحَدِ الخَصْمَينِ؛ فعُوقِب وتغيَّرَ فِي أَعْيُنِ النَّاس، وكَانَ يَقُول: أَطْعِمُونِي؛ فَلا يُطْعَمُ.

وأمَّا يَعقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فإِنَّه يقالُ: إِنَّهُ ذَبَح عِجلًا بين يَديْ أُمِّه؛ فعُوقبَ بفرَاقِ يُوسُفَ.

وأمَّا يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فأُخِذَ بالهَمِّ، وكُلُّ وَاحِدٍ مِن إِخْوَتِه وُلدَ لَهُ اثنا عشرَ ولَدًا، ونُقِصَ هُوَ ولدًا؛ لتِلْكَ الهَمَّةِ.

وأمَّا أيوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فإِنَّه قَصَّر فِي الإِنْكَار عَلَىٰ مَلِكٍ ظالمٍ لأَجْلِ خَيْلٍ كَانَتْ فِي نَاحِيَتِهِ؛ فَابْتُلِيَ.

وأمَّا يُونُس عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فخرَجَ عَنْ قَومِه بغَيْرِ إذنٍ؛ فالتَقمَهُ الحُوتُ.

وأَوْحَىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إلىٰ أَرْمِيَا: إنَّ قَومَكَ تَركُوا الأَمْرَ الَّذِي أَكرَمتُ بِهِ آبَاءَهم، وعزَّتِي؛ لأُهيِّجَنَّ عَلَيهِم جُنودًا لا يَرْحَمُون بُكاءَهم. فَقَالَ: يَا ربِّ؛ هُمْ ولدُ خَليلِكَ إبْرَاهِيمَ، وأمَّةُ صَفيِّكَ مُوسىٰ، وقُومُ نَبيِّكَ دَاودَ. فأوحَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ إلَيهِ: إنَّمَا أَكْرَمتُ إبْرَاهِيمَ ومُوسَىٰ ودَاودَ بطَاعتِي، ولَوْ عَصَوْنِي لأنْزَلْتُهم مَنازِلَ العَاصِينَ.

ونَظرَ بَعْضُ العُبَّادِ شَخْصًا مُسْتَحْسَنًا، فَقَالَ لَهُ شَيخُه: مَا هَذَا النَّظَرُ؟! سَتَجِدُ غِبَّهُ، فنَسِي القُرْآنَ بَعدَ أَرْبَعِين سَنَةً.

وقَالَ آخَرُ: قَدْ عِبتُ شَخصًا قَدْ ذَهَبَ بَعْضُ أَسنَانِه، فَانْتَثرَتْ أَسنَانِي، ونَظرتُ إلىٰ امرَأةٍ لا تحِلُّ، فنَظرَ إلىٰ زَوجتِي مَنْ لا أُرِيدُ!

وكَانَ بَعْضُ العَاقِّينَ ضَرَبَ أبَاهُ وسَحَبَه إلىٰ مَكانٍ، فَقَالَ لَهُ الأَبُ: حَسبُك؛ إلىٰ هَاهُنا سَحَبْتُ أَبِي!

وقَالَ ابنُ سِيرينَ: عيَّرْتُ رَجلًا بالإفلاسِ؛ فأفلَسْتُ!

ومِثلُ هَذَا كثيرٌ.

ومِن أَعْجَب مَا سَمِعتُ فِيهِ عَن الوَزيرِ ابن حصير المُلَقَّب بالنَّظَّام: أَن المُقْتَفِي غَضِبَ عَلَيهِ، وأَمَرَ بأَنْ يُؤخذَ مِنْهُ عشرةُ آلافِ دينارٍ، فدخَلَ عَلَيهِ أَهْلُه مَحْزُونينَ، وقَالُوا لَهُ: مِن أَيْنَ لَكَ عَشَرَةُ آلافِ دينارٍ؟! فَقَالَ: مَا يُؤخذُ مِنِّي عشرةٌ ولا خمسةٌ ولا أربعةٌ. قَالُوا: مِن أَيْنَ لك؟ قَالَ: إِنِّي ظَلَمتُ رجُلًا، فأَلْزَمْتُه ثلاثةَ آلافٍ، فَمَا يُؤخذ مِنِّي أَكْثَرُ منها، فَلَمَّا أَدَّىٰ ثلاثةَ آلافِ دينارٍ وقَّعَ الخليفةُ بإطلاقِه ومُسامحَتِه فِي الباقِي.

وأنا أَقُولُ عَنْ نَفْسِي: مَا نَزلَتْ بي آفةٌ أَوْ غمٌّ أَوْ ضيقُ صَدْرٍ إلَّا بزَلَلٍ أَعْرِفهُ، حَتَّىٰ يُمكنَني أَنْ أَقُولَ: هَذَا بالشَّيءِ الفُلانِيِّ، ورُبَّما تأَوَّلْتُ فِيهِ بَعْدُ، فأرَىٰ العُقُوبَة.

فيَنْبغِي للإِنْسَانِ أَنْ يترقَّب جزاءَ الذُّنُوبِ، فقلَّ أَنْ يَسْلَمَ مِنْهُ، وليجتهِدْ فِي التَّوْبَة، فَقد رُوِي فِي الحَدِيث: «**مَا مِن شَيْءٍ أَسْرَعُ لِحاقًا بشَيْءٍ مِن حَسَنةٍ حَدِيثةٍ لذَنبٍ قَديمٍ**»[1].

---

(١) موقوف: ففي «الدر المنثور» (٤/ ٤٨٥): «أخرج الحكيم الترمذي والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال: لم أر شيئًا أحسن طلبًا ولا أحسن إدراكًا من حسنة حديثة لسيئة قديمة ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾»، وفيه (٤/ ٤٨٩ - ٤٩٠): «أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: استعينوا علىٰ السيئات القديمات بالحسنات الحديثات، وإنكم لن تجدوا شيئًا أذهب لسيئة قديمة من حسنة حديثة، وتصديق ذلك في كتب الله تعالىٰ ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾». وفي «المجالسة» للدينوري (١٨٩٥): «وعظ عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلًا، فقال: لا يلهك الناس =

ومع التَّوْبَة يكُون خائفًا مِن المُؤاخَذةِ، مُتوقِّعًا لَهَا؛ فإِنَّ الله تَعَالَىٰ قَدْ تاب عَلَىٰ الأَنْبِيَاء ﷺ، وفِي حَدِيثِ الشَّفاعَةِ: «**يَقُولُ آدمُ: ذَنْبِي! ويقولُ إبْرَاهِيمُ ومُوسَىٰ: ذَنْبِي!**»(١).

فإنْ قَالَ قَائِلٌ: قولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣] خَبَرٌ، فَهُو يَقْتَضِي أَلَّا يُجاوِز عَنْ مُذنبٍ، وقَد عرَفنا قَبولَ التَّوْبَة والصَّفحِ عَن الخَاطِئينَ؟

فالجَوَابُ مِن وَجْهَينِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يُحْمَلَ عَلَىٰ مَن مَاتَ مُصِرًّا ولَمْ يَتُبْ؛ فَإِنَّ التَّوْبَة تَجُبُّ مَا قَبلَها.

والثَّانِي: أَنَّهُ عَلَىٰ إِطْلاقِه، وهُوَ الَّذِي أَخْتَارُه أَنَا، وأستدِلُّ بالنَّقْلِ والمَعنَىٰ:

أَمَّا النَّقْلُ؛ فإِنَّه لَمَّا نَزلتْ هَذِهِ الآيَةُ قَالَ أَبُو بكرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ أَوَنُجازَىٰ بكلِّ مَا نَعملُ؟ فَقَالَ: «أَلَسْتَ تمرضُ، أَلَسْتَ تحزنُ، أليسَ يُصيبُك اللَّأْوَاءُ؛ فذَلِكَ مَا تُجزَونَ بِهِ»(٢).

=

عن نفسك؛ فإن الأمر يصير إليك دونهم، ولا تقطع النهار سادرًا؛ فإنه محفوظ عليك ما عملت، وإذا أسأت فأحسن؛ فإني لم أر شيئًا أشد طلبًا ولا أسرع دركًا من حسنة حديثة لذنب قديم».

(١) **صحيح**: يشير إلىٰ حديث الشفاعة، وقد أخرجه البخاري (٤٤٧٦، ٦٥٦٥، ٧٤١٠، ٧٤٤٠)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس. والبخاري (٤٧١٢) ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة.

(٢) **حسن**: أخرجه أحمد (٦٨، ٦٩)، وابن حبان (٢٩١٠، ٢٩٢٦)، والحاكم (٤٤٥٠) وقال: صحيح الإسناد. عن أبي بكر بن أبي زهير عن أبي بكر. قلت: وإسناده منقطع بين ابن أبي زهير وأبي بكر. وقال ابن حجر في «الأمالي المطلقة» (٧٨): «حديث حسن». وأخرجه الترمذي (٣٠٣٩) وضعفه، وأحمد (٢٣) عن ابن عمر عن أبي بكر مختصرًا. وله طرق أخرىٰ. وأخرج الترمذي (٢٩٩١) وقال: حديث حسن: أن عائشة سئلت عن قول الله تعالىٰ: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ [البقرة: ٢٨٤] وعن قوله: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا

=

وأمَّا المَعنَىٰ؛ فَإِنَّ المُؤمِن إِذَا تاب ونَدمَ كَانَ أَسَفُه عَلَىٰ ذَنبه فِي كُلِّ وَقتٍ أَقْوَىٰ مِن كُلِّ عُقُوبَةٍ.

فالوَيلُ لمَنْ عَرفَ مَرارةَ الجَزاءِ الدَّائمِ، ثُمَّ آثَرَ لَذَّةَ المَعصِيَةِ لَحْظَةً!

فَصْلٌ

تَفَكَّرْتُ فِي نَفْسِي يومًا تَفَكُّرَ مُحَقِّقٍ، فَحَاسَبْتُهَا قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبَ، ووَزَنْتُهَا قَبلَ أَنْ تُوزَنَ

فرَأَيْتُ اللُّطْفَ الرَّبَّانِيَّ مِن بَدْءِ الطُّفُولَةِ وَإِلىٰ الآنَ.

أَرَىٰ لُطفًا بَعدَ لطفٍ، وسَترًا عَلَىٰ قَبيح، وعفوًا عَمَّا يُوجِب عُقُوبَةً، ومَا أَرَىٰ لِذلِكَ شُكرًا إلَّا باللِّسَان!

ولَقَدْ تفكَّرْتُ فِي خَطايا، لَوْ عُوقبتُ ببَعْضِها لهلكْتُ سَريعًا، ولَوْ كُشفَ للنَّاس بعضُها لاستَحييتُ.

=

يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣] فقالت: ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ فقال: «هذه معاتبة الله العبد بما يصيبه من الحمىٰ والنكبة حتىٰ البضاعة يضعها في كم قميصه فيفقدها فيفزع لها حتىٰ إن العبد ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبر الأحمر من الكير». وأخرج مسلم (٢٥٧٤) عن أبي هريرة، قال: لما نزلت ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣] بلغت من المسلمين مبلغًا شديدًا، فقال رسول الله ﷺ: «قاربوا، وسددوا، ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة، حتىٰ النكبة ينكبها، أو الشوكة يشاكها».

ولا يعتقدُ مُعتقدٌ عِنْدَ سَمَاع هَذَا أَنَّهَا مِن كَبائرِ الذُّنُوب، حَتَّىٰ يَظُنَّ فِيَّ مَا يُظنُّ فِي الفُسَّاق، بَلْ هِي ذُنوبٌ قَبيحَةٌ فِي حَقِّ مِثلِي، وقعَتْ بتأويلاتٍ فاسِدةٍ، فَصِرتُ إِذَا دَعَوْتُ أقولُ: اللَّهُمَّ بِحَمْدِك وسَتْرِكَ عَليَّ اغفِرْ لي! ثُمَّ طالبتُ نَفْسِي بالشُّكْر عَلَىٰ ذَلِكَ؛ فَمَا وجدتُه كَمَا يَنبَغِي.

ثُمَّ أَنَا أَتقاضىٰ مِنْهُ مُرادَاتِي ولا أتقاضَىٰ نَفْسِي بصبرٍ عَلَىٰ مكروهٍ، ولا بشُكرٍ عَلَىٰ نعمةٍ، فأخذتُ أنوحُ عَلَىٰ تَقصِيري فِي شُكرِ المُنعِم، وكَونِي أتلذَّذُ بإيرادِ العِلْم مِن غَيْر تَحقِيقِ عملٍ بِهِ.

وقَدْ كُنْتُ أرجُو مقَاماتِ الكِبارِ، فذَهبَ العُمرُ ومَا حصَلَ المَقصُودُ، فَوجَدتُ أبَا الوَفَاء بنَ عَقِيلٍ قَدْ نَاحَ نحوَ مَا نُحتُ؛ فأعْجَبتني نِياحتُه، فكتبتها هَاهُنا:

قَالَ لنَفْسه: يَا رَعناءُ! تُقوِّمين الألْفَاظ ليُقالَ مُناظِرٌ، وثمرةُ هَذَا أَنْ يُقالَ: يَا مُناظِرُ، كَمَا يُقَالُ للمُصارِع: الفَارِهُ!

ضَيَّعتِ أعزَّ الأَشْيَاء وأنَفَسَها عِنْدَ العُقَلاء، وهي أَيَّامُ العُمُر، حَتَّىٰ شاع لَكِ بينَ مَن يَمُوتُ غدًا اسمُ: مُناظِر! ثُمَّ ينسَىٰ الذَّاكرُ والمَذكُورُ إِذَا درسَتِ القُلُوبُ! هذا إنْ تَأَخَّر الأَمْرُ إلىٰ مَوتِكِ، بَلْ رُبَّمَا نَشأَ شَابٌّ أَفْرهُ مِنكَ فمَوَّهُوا لَهُ، وصَارَ الاسمُ لَهُ، والعُقَلاءُ عَنِ اللهِ تَشَاغَلُوا بِمَا إِذَا انطَوَوْا نَشرَهم، وهُوَ العَمَل بالعِلْمِ، والنَّظَرُ الخَالِصُ لنُفوسِهم.

أُفٍّ لنَفْسِي! وقَدْ سَطرْتُ عِدَّة مُجلَّداتٍ فِي فُنونِ العُلوم، ومَا عَبَقَ بِهَا فَضِيلَةٌ، إنْ نُوظِرَتْ شَمَخَتْ، وإنْ نُوصِحَتْ تَعجْرَفَتْ، وإنْ لاحَتِ الدُّنْيا طَارَتْ إلَيها طَيرانَ الرَّخَمِ، وسَقطتْ عَلَيْهَا سُقوطَ الغُرابِ عَلَىٰ الجِيَفِ، فليتَها أخذَتْ أَخْذَ المُضْطَرِّ مِن المَيتةِ! توفر فِي المُخَالطَة عُيوبًا تُبْلَىٰ، ولا تَحْتَشِم نَظَرَ الحَقِّ إلَيها، وإنِ انكَسرَتْ لَهَا غَرضٌ تَضجَّرَتْ، فَإِنْ أُمِدَّتْ بالنِّعَم اشتغَلَت عَنِ المُنعِمِ! أُفٍّ - واللهِ - مِنِّي اليَوْمَ عَلَىٰ وَجْهِ الأَرْضِ وغدًا تَحتَها!

والله؛ إنَّ نتنَ جَسَدي بَعدَ ثلاثٍ تَحْتَ التُّرابِ أقلُّ مِن نَتَن خَلائِقِي وأنَا بينَ الأَصْحَابِ!!

والله؛ إنَّني قَدْ بَهرَني حِلمُ هَذَا الكريم عَنِّي؛ كَيْفَ سَتَرَنِي وأنَا أتَهتَّكُ؟! ويجمَعُني وأنَا أتشتَّتُ؟! وغدًا يُقالُ: مَاتَ الحَبْرُ العَالِم الصَّالحُ، ولَوْ عرفُونِي حَقَّ معرِفَتي بنَفْسِي مَا دَفنُونِي!

واللهِ؛ لأنَادِيَنَّ عَلَىٰ نَفْسِي نداءَ المُكَشِّفينَ معَائبَ الأعداءِ، ولأنُوحنَّ نوحَ الثَّاكلينَ للأبْنَاءِ؛ إذْ لا نَائحَ لي ينُوحُ عَليَّ لِهَذِه المَصائِبِ المَكتُومَةِ، والخلَالِ المُغطَّاةِ الَّتِي قَدْ سترَها مَنْ خبرَها، وغطَّاها مَنْ عِلمِها.

واللهِ؛ مَا أَجِدُ لنَفْسِي خُلَّةً استحسِنُ أَنْ أقُولَ مُتوسِّلًا بها: اللَّهُمَّ اغفِرْ لي كَذا بكَذا.

واللهِ؛ مَا أَلْتفتُّ قطُّ إلَّا ووَجَدْتُ مِنْهُ سُبْحَانَه بِرًّا يَكْفِيني ووقايةً تَحمِيني مع تَسلُّط الأعدَاء، ولا عرَضَتْ حَاجَةٌ فمَدَدْتُ يَدِي إلَّا قضاهَا.

هَذَا فِعلُه مَعِي وهُوَ ربٌّ غنيٌّ عنِّي، وهَذَا فِعلِي وأنَا عَبْدٌ فقيرٌ إلَيْهِ، ولا عُذرَ لي فَأقُولُ: مَا دَريتُ، أوْ: سَهَوْتُ!

واللهِ؛ لَقَد خلَقني خلْقًا صَحِيحًا سليمًا، ونوَّرَ قَلْبي بالفِطنَةِ، حَتَّىٰ إنَّ الغَائباتِ والمَكتُوماتِ تنكَشِفُ لفَهمِي.

فوا حَسرتَاهُ عَلَىٰ عُمُرٍ انقَضَىٰ فِيمَا لا يُطابقُ الرِّضَىٰ! وا حِرمَانِي لمقاماتِ الرِّجَال الفُطناءِ! يَا حسرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فرَّطتُ فِي جَنبِ الله، وشَماتةِ العَدُوِّ بِي! وا خَيبةَ مَن أَحْسَنَ الظَّنَّ بي إذَا شَهِدَتِ الجَوَارِحُ عليَّ! وا خُذلانِي عِنْدَ إقَامَة الحُجَّةِ! سَخِرَ - واللهِ - مِنِّي الشَّيْطَانُ وأنَا الفَطِنُ!!

اللَّهُمَّ تَوبةً خَالصَةً مِن هَذِهِ الأَقْذارِ، ونَهضةً صَادقَةً لتَصْفِيةِ مَا بَقيَ مِن الأَكْدَارِ، وقَدْ جِئتُك بَعدَ الخَمسينَ وأنَا مِنْ خَلَقِ المَتاعِ، وأبَىٰ العِلْمُ إلَّا أَنْ يَأخُذَ بيَدِي إلىٰ مَعْدِنِ الكَرَمِ، ولَيْسَ لي وَسيلةٌ إلَّا التَّأسُّف والنَّدَم؛ فوَاللهِ؛ مَا عَصيتُك جَاهِلًا بمِقْدَارِ نِعمِكَ، ولا نَاسيًا لِمَا أَسْلَفتَ مِن كَرَمِكَ؛ فاغفِرْ لي سَالِفَ فِعْلِي.

فَصْلٌ

عَدَاوَةُ الأَقَارِبِ صَعْبَةٌ!

ورُبَّما دَامَت؛ كحَربِ بَكرٍ وتَغلبَ ابنَيْ وَائلٍ، وعَبسٍ وذِبيانَ ابنَيْ بغيضٍ، والأوسِ والخَزرجِ ابنَيْ قَيْلَةَ. قَالَ الجَاحِظُ: تَعَدَّتْ هَذِهِ الحَربُ أَرْبَعِينَ عَامًا.

والسَّبَبُ فِي هَذَا: أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الأَقَارِبِ يَكرَه أَنْ يفُوتَه قَرِيبُه، فيَقعُ التَّحاسُد؛ فيَنْبغِي لمَنْ فُضِّلَ عَلَىٰ أَقَارِبِه أَنْ يَتواضَع لَهُمْ، ويَرْفعَهم جَهْدَهُ، ويُرْفِقَ بِهِم؛ لعلَّه يَسْلَمُ!

قَالَ رَجُلٌ لرَسُولِ اللهِ ﷺ: «**لي أقَارِبُ؛ أَصِلُهم فَيَقْطَعُونِي؟**» فَقَالَ: «**فكَأنَّما تُسِفُّهُم المَلَّ، ولنْ يَزَالَ مَعكَ مِن اللهِ ظَهيرٌ مَا دُمتُ عَلَىٰ ذَلِكَ**»[1].

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٥٥٨)، وأحمد (٧٩٩٢، ٩٣٤٣، ١٠٢٨٤)، وابن حبان (٤٥٠، ٤٥١)، من حديث أبي هريرة. وله شاهد من حديث عبد الله بن عمرو: أخرجه أحمد (٦٧٠٠).

۞ فَصْل ۞

رَأَيْتُ كِلَابَ الصَّيدِ إِذَا مَرَّتْ بِكِلابِ المَحلَّةِ نَبَحَتْهَا هَذِه وبَالَغَتْ وأَسْرَعَتْ خَلْفَهَا، وكَأَنَّهَا تَرَاهَا مُكَرَّمَةً مُجَلَّلَةً، فَتَحْسُدُهَا عَلَى ذَلِكَ

ورَأيْتُ كلابَ الصَّيدِ حِينئِذٍ لا تَلْتفتُ إِلَيْها، ولا تُعِيرُها الطَّرفَ، ولا تعدُّ نباحَها شيئًا، فرَأيت أنَّ كَلابَ الصَّيدِ كأنَّها لَيستْ مِن جِنْس تِلْكَ الكِلابِ؛ لأَنَّ تِلْكَ غَلِيظَةُ البَدَنِ، كَثيفةُ الأَعْضاءِ، لا أمانةَ لَهَا، وهَذِهِ لَطيفَةٌ دقيقةُ الخِلْقةِ، ومعها آدابٌ قَدْ ناسَبَتْ خِلْقتَها اللَّطيفَةَ، وأنَّها تَحْبِسُ الصَّيدَ عَلَىٰ مالِكِها خَوْفًا مِن عِقابِه، أَوْ مُراعاةً لشُكْرِ نِعمَته عَلَيهَا.

فرَأيْتُ أَنَّ الأدبَ وحُسنَ العِشرةِ يَتبعُ لَطافةَ البَدَنِ وصفاءَ الرُّوحِ.

وهَكذَا المُؤمِنُ العَاقِل؛ لا يلتَفتُ إلىٰ حاسدِهِ، ولا يَعُدُّهُ شَيئًا؛ إذْ هُوَ فِي وادٍ وذاكَ فِي وادٍ؛

ذاكَ يَحْسُدُه عَلَىٰ الدُّنْيَا، وهَذَا هِمَّتُه الآخِرَةُ؛ فيا بُعْدَ مَا بَينَ الوَادِيينِ!

۞ فَصْل ۞

هَذا فَصْل مُلاحَظَتُه مِنْ أَهَمِّ الأَشْيَاءِ:

يَنْبغِي لِمنْ آمَنَ باللهِ تَعَالَىٰ أَنْ يُسلِّمَ لَهُ فِي أَفْعَالِه، ويَعْلَمَ أَنَّهُ حَكِيمٌ ومَالِكٌ، وأَنَّهُ لا يَعْبَثُ، فَإِنْ خَفِيتْ عَلَيهِ حِكْمَةُ فِعْله نَسَبَ الجَهْلَ إلىٰ نَفْسِهِ، وسَلَّم للحَكِيم المَالِكِ، فَإِذَا طَالَبَه العَقْلُ بِحِكْمَةِ الفِعْلِ قَالَ: مَا بَانَتْ لِي؛ فيَجِبُ عَليَّ تَسلِيمُ الأَمْرِ لمَالِكِهِ.

وإنَّ أَقْوامًا نَظرُوا بمُجرَّدِ العَقْلِ إلىٰ كَثِيرٍ مِن أَفعَالِ الحَقِّ سُبْحَانَه، فرَأَوْهَا لَوْ صَدَرَتْ مِن مَخلُوقٍ نُسبَتْ إلىٰ ضِدِّ الحِكْمَةِ، فنَسبُوا الخَالِقَ إلىٰ ذَلِكَ؛ وهَذَا الكُفرُ المَحْضُ، والجُنونُ البَارِدُ! والوَاجبُ نِسبةُ الجَهْلِ إلىٰ النُّفُوسِ؛ فَإنَّ العُقُولَ قاصِرةٌ عَنْ مُطالَعةِ حِكمتِه.

وأوَّلُ مَن فَعلَ ذَلِكَ إبْلِيسُ؛ فإنَّه قَدْ رَآهُ قَدْ فَضَّلَ طِينًا عَلَىٰ نَارٍ، والعَقْلُ يَرَىٰ النَّارَ أَفْضَل؛ فعَابَ حِكمَتَه.

وعَمَّتْ هَذِهِ المِحنَةُ خَلقًا مِمَّنْ يُنسَبُ إلىٰ العِلْمِ، وكَثيرًا مِن العَوامِّ، فكَمْ قَدْ رَأيْنا عَالِمًا يَعترِضُ وعَامِّيًا يردُّ فيكفُر!

وهَذِهِ مِحنةٌ قَدْ شَمِلتْ أَكْثَرَ الخَلْقِ؛ يَرونَ عَالِمًا يُضيَّقُ عَلَيهِ، وفَاسِقًا وُسِّعَ عَلَيهِ، فيَقُولُونَ: هَذَا لا يَلِيق بالحِكْمَةِ!

وقَدْ عَلِمَ العُلَمَاءُ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَدْ فَرضَ الزَّكواتِ والخَراجَ والجِزيةَ والغَنائمَ والكَفَّاراتِ ليَستغني بِهَا الفُقراءُ، فاختصَّ بذَلِكَ الظَّلَمَةَ، وصَانَع مَن تَجبُ عَلَيهِ الزَّكاةُ بإخرَاجِ بعْضِها؛ فجَاعَ الفَقِيرُ! فيَنْبغِي أَنْ نَذُمَّ هَؤُلاءِ الظَّلَمَةَ، ولا نَعْتَرِضَ عَلَىٰ مَن قدَّرَ الكِفايةَ للفُقَراءِ.

وقَدْ حَصَلَ فِي ضِمْنِ هَذَا عُقُوبَةُ الظَّالِمينَ مِن حَبْسِهِم الحُقوقَ، وابتِلاءُ الفُقَراءِ بِصَبْرِهِم عَنْ حُظُوظِهِم.

وأَكْثَرُ هَؤُلاءِ المُعْتَرِضِينَ لا يكَادُون يَسْلَمُونَ وقتَ خُرُوجِ الرُّوحِ مِن اعتِرَاضٍ يخرُجُ إلىٰ الكُفْرِ، فتخرُج النَّفْسُ كافِرةً، فَكَمْ عامِّيٍّ يَقُول: فُلان قَدْ ابتُلِي ومَا يَستحِقُّ! ومعناهُ: أَنَّهُ قَدْ فُعِل بِهِ مَا لا يَلِيق بالصَّوَاب.

وقَد قَالَ بَعْضُ الخُلعاءِ:

أَيَــا رَبِّ تَخْلُــقُ أَقْمَــارَ لَيْــلٍ ** وَأَغْــصَانَ بَــانٍ وَكُثْبَــانَ رَمْــلِ
وَتَنْهَــىٰ عِبَــادَكَ أَنْ يَعْــشَقُوا ** أَيَـا حَـاكِمَ العَـدْلِ ذَا حُكْـمُ عَـدْلِ

ومِثْلُ هَذَا يُنشِدُه جَمَاعَةٌ مِن العُلَمَاء ويستحسِنُونه، وهُوَ كفرٌ محضٌ!

ومَا فَهِمَ هَؤُلاء سِرَّ النَّهْي ولا مَعناهُ؛ لأَنَّهُ مَا نَهىٰ عَن العِشْق، وإِنَّمَا نَهىٰ عَن العَمَل بمُقتضَىٰ العِشْق مِن الأَشْيَاء المُحرَّمة؛ كالنَّظَر واللَّمْسِ والفِعْل القَبِيح، وفِي الامتِناع عَنِ المُشتَهَىٰ دَلِيلٌ عَلَىٰ الإيمَان بوجُود النَّاهي؛ كصَبرِ العَطشانَ فِي رَمضانَ عَنِ المَاء، فإنَّه دَلِيلٌ عَلَىٰ الإيمَان بوجُودِ مَن أَمَرَ بالصَّوْم، وتسليمُ النُّفُوس إلىٰ القَتل والجِهَاد دَلِيلٌ عَلَىٰ اليقينِ بالجَزاءِ، ثُمَّ المُسْتَحْسَنُ أُنمُوذَجُ مَا قَدْ أُعِدَّ؛ فأيْنَ العَقْلُ المتأمِّل؟! كلَّا؛ لَوْ تأمَّل وصَبَرَ قليلًا لربح كثيرًا.

ولوْ ذَهبتُ أذكُرُ مَا قَدْ عَرفتُ مِن اعتِراضِ العُلَمَاءِ والعَوامِّ؛ لطَالَ!

ومِنْ أحسَنِ النَّاسِ حَالًا فِي ذَلِكَ مَا يُحكَىٰ عَنِ ابنِ الرَّاونديِّ أَنَّهُ جَاعَ يَومًا واشتدَّ جُوعُه، فجَلسَ عَلَىٰ الجِسْرِ وقَد أَمَضَّهُ الجُوعُ، فمرَّتْ خَيلٌ مُزَيَّنَةٌ بالحَرِيرِ والدِّيباجِ، فَقَالَ: لمَنْ هذِه؟ فَقَالُوا: لعَليِّ بنِ بَلْتَقٍ غُلام الخَليفَةِ. فمَرَّتْ جَوارٍ مُستحسَناتٍ فَقَالَ: لمَنْ هذه؟ فقَالُوا: لعَليِّ بنِ بَلْتَقٍ. فمرَّ بِهِ رَجُلٌ، فرَآهُ وعَلَيهِ أثرُ الضُّرِّ، فرَمىٰ إِلَيْهِ رَغيفَينِ، فأَخَذهُما ورَمَىٰ بِهِمَا، وقَالَ: هَذِهِ لعلِيِّ بنِ بَلْتَقٍ وهَذانِ لي؟! ونَسيَ الجَاهِلُ الأحمَقُ أَنَّهُ بِمَا يَقُولُ ويَعترضُ ويَفعلُ أَهْلُ هَذِهِ المَجاعَةِ.

فيا مُعترضِينَ وهُم فِي غايةِ النَّقصِ، عَلَىٰ من لا عَيبَ فِي فِعلِه؛ أنتُم فِي البِدايةِ مِن مَاءٍ وطِينٍ، وفِي الثَّاني مِن مَاء مَهينٍ، ثُمَّ تحمِلُون الأنجاسَ عَلَىٰ الدَّوَام، ولَوْ حُبِس عنكُم الهواءُ لصِرتم جِيَفًا، وكَمْ مِن رَأْيٍ يَراهُ حازمُكم، فَإِذَا عَرَضَه عَلَىٰ غَيْرِه تَبيَّن لَهُ قبحُ رَأْيِه، ثُمَّ المَعاصِي مِنكُم زائدةٌ فِي الحدِّ، فَمَا فيكم بَعدُ إلَّا الاعتِراضُ عَلَىٰ المَالكِ الحَكيمِ؟!

ولَوْ لَمْ يَكُنْ فِي هَذِهِ البَلاوِي إلَّا أَنْ يُراد منَّا التَّسْلِيمُ؛ لكفَىٰ، ولو أَنَّهُ أَنْشأَ الخَلْقَ لِيَدُلُّوا عَلَىٰ وجُودِه، ثُمَّ أَهْلَكَهم ولَمْ يُعِدْهُم؛ كَانَ ذَلِكَ له؛ لأَنَّهُ مَالِكٌ، لكنَّه - بفَضْلِه - وَعَدَ بالإعادَةِ والجزاءِ والبقاءِ الدَّائم فِي النَّعِيم، فمَتىٰ مَا جَرَىٰ أَمْرٌ لا تَعْرِفُ عِلَّتَه فانْسُبْ ذَلِكَ إلىٰ قُصورِ عِلمِكَ.

وقَدْ تَرَىٰ مَقْتُولًا ظُلمًا، وكَمْ قَدْ قَتَلَ وظَلَم، حَتَّىٰ قُوبِلَ ببَعضِه، وقَلَّ أَنْ يَجْرِي لأَحَدٍ آفةٌ إلَّا ويستحقُّها، غَيْرَ أَنَّ تِلْكَ الآفاتِ المُجازَىٰ بِها غائبةٌ عنَّا، ورَأَيْنا الجزاءَ وَحْدَه؛ فَسَلِّمْ تَسْلَمْ، واحْذَرْ كَلِمَةَ اعتِراضٍ أَوْ إضْمَارٍ؛ فرُبَّمَا أَخْرَجَتْكَ مِن دَائرَةِ الإِسْلَامِ.

۞ فَصْلٌ ۞

رَأَيْتُ النَّاسَ يَوْمَ العِيدِ؛ فَشَبَّهْتُ الحَالَ بالقِيَامَةِ

فَإِنَّهُم لَمَّا انتبَهُوا مِن نَومِهم خَرَجُوا إلىٰ عِيدِهِم كخُروج المَوْتىٰ مِن قُبورِهم إلىٰ حَشْرِهم؛ فمِنهُم: مَن زِينَتُهُ الغَايَةُ ومَرْكَبُه النِّهايَةُ، ومِنهُم: المُتوسِّطُ، ومِنهُم: المَرْذُولُ؛ وعَلَىٰ هَذَا أَحْوال النَّاس يَوْمَ القِيامَة: قالَ تَعالَىٰ: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ [مريم: ٨٥] أيْ رُكبانًا ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ [مريم: ٨٦] أيْ عِطاشًا، وقَالَ ﷺ: **«يُحشَرونَ رُكبانًا ومُشاةً وعَلَىٰ وُجوهِهِمْ»**(١).

---

(١) حسن: أخرجه من حديث أبي هريرة: أحمد (٨٦٤٧، ٨٧٥٥)، والترمذي (٣١٤٢) وقال: حديث حسن. وله شاهد من حديث معاوية بن حيدة، عند أحمد (٢٠٠١١)، وآخر من حديث أبي ذر، عند أحمد أيضًا (٢١٤٥٦) والنسائي (٢٠٨٦) والحاكم (٣٣٨٩، ٨٦٨٥).

ومِنَ النَّاسِ مَن يُداسُ فِي زَحْمَة العِيدِ؛ وكَذَلكَ الظَّلَمَةُ يَطَأُهُم النَّاسُ بأَقدَامِهم فِي القِيامَةِ.

ومِنَ النَّاسِ يَوْمَ العِيدِ الغنِيُّ المُتصدِّقُ؛ كذَلِكَ يَوْمَ القِيامَة؛ «أَهْلُ المَعْرُوفِ فِي الدُّنْيا هُم أَهْلُ المَعْرُوفِ فِي الآخِرَةِ»(١).

ومنهُم الفَقِيرُ السَّائِلُ الَّذِي يَطلُب أَنْ يُعطَىٰ؛ كذَلِكَ يَوْمَ الجَزاءِ؛ «أَعْدَدتُ شَفاعتِي لأَهْلِ الكَبائِرِ»(٢).

ومنهُمْ مَنْ لا يُعْطَفُ عَلَيهِ؛ ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠-١٠١].

والأَعْلامُ مَنْشُورةٌ فِي العِيدِ؛ كذَلِكَ أَعْلامُ المُتَّقِينَ فِي القِيامَة، والبُوقُ يُضرَبُ؛ كذَلِكَ يُخْبرُ بحالِ العَبْد، فيُقالُ: يا أَهْلَ المَوْقِفِ! إنَّ فُلانًا قَدْ سَعِدَ سَعادةً لا شَقاوةَ بعدَها، وإنَّ فلانًا قَدْ شَقِيَ شَقاوةً لا سَعادةَ بعدَها.

ثُمَّ يَرْجِعُونَ مِن العِيدِ بالخَواصِّ إلىٰ بَابِ الحُجْرَةِ، ويُخبرُونَ بامتِثالِ الأَوامِرِ؛ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١١] فيخرُج التَّوقيعُ إليهِم ﴿وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا﴾ [الإنسان:

---

(١) ضعيف: أخرجه من حديث عليٍّ: الحاكمُ (٧٩٠٨) وقال: صحيح الإسناد. وتعقبه الذهبي في «التلخيص». وأورده ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٨٣٦). وأخرجه من حديث سلمان: الطبراني (٦/ ٢٤٦)، والعقيلىٰ (٤/ ٣٣٧، ترجمة ١٩٤٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١١١٨١)، وأورده ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٨٣٩).

(٢) صحيح: أخرجه من حديث أنس: أحمد (١٣٢٢٢)، وأبو داود (٤٧٣٩)، والترمذي (٢٤٣٥) وقال: حسن صحيح. وابن خزيمة في «التوحيد» (٢/ ٦٥١، ٦٥٢، ٦٥٣، ٦٥٦)، وابن حبان (٦٤٦٨)، والآجري في «الشريعة» (ص٣٣٨، ٣٣٩)، والحاكم (٢٢٨) وصححه علىٰ شرط الشيخين.

٢٢]، ومن هُوَ دُونَهم يختلفُ حالُهُ: فمِنهُم: مَن يرجِعُ إلىٰ بيتٍ عامِرٍ؛ ﴿بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]، ومِنهُم: مُتوسِّطٌ، ومِنهُم: مَن يعُودُ إلىٰ بيتٍ قَفرٍ؛ ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢].

فَصْلٌ

يَا قَوْمُ! قَدْ عَلِمْتُم أَنَّ الأَعمالَ بالنِّيَّاتِ

وقَد فهمتُم قولَه تَعَالَىٰ: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر: ٣]، وقَد سَمِعتُم عَنِ السَّلَف أَنَّهُمْ كَانُوا لا يَعمَلُون ولا يَقُولُونَ حَتَّىٰ تتقدَّم النِّيَّةُ وتَصِحَّ.

أَيَذْهَبُ زَمانُكُم - يَا فُقَهاءُ - فِي الجدلِ والصِّياحِ، وترتفعُ أصواتُكم عِنْدَ اجتِماعِ العَوامِّ تقصدُون المُغالبةَ؟! أوَمَا سمعتُم: «مَن طلبَ العِلْمَ ليباهي بِهِ العُلَمَاءَ، أَوْ ليمارِي بِهِ السُّفهاءَ، أَوْ ليَصْرِفَ بِهِ وُجوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ؛ لَمْ يَرِحْ رائحةَ الجَنَّةِ»[1]؟! ثُمَّ يُقدِمُ أحدُكُم عَلَىٰ الفَتوَىٰ ولَيْسَ مِن أهلِهَا، وقَدْ كَانَ السَّلَف يتدَافعُونَها!

ويَا مَعشرَ المُتزَهِّدينَ! إِنَّهُ يعلَمُ السِّرَّ وأخفَىٰ! أَتُظهِرونَ الفَقْرَ فِي لبَاسِكم وأنتُم تَسْتَوْفُونَ شَهَواتِ النُّفُوسِ؟! وتُظهِرون التَّخاشُعَ والبُكاءَ فِي الجَلواتِ دُونَ الخَلواتِ؟!

---

(١) ضعيف: أخرجه من حديث كعب بن مالك: الترمذي (٢٦٥٤) وضعفه. وأنكره ابن عدي في «الكامل» (١/ ٥٤١) وابن حبان في «المجروحين» (١/ ١٤٣)، وأشار المنذري في «الترغيب والترهيب» (١/ ٩٢) إلىٰ ضعفه. وأخرجه من حديث أبي هريرة: ابن ماجه (٢٦٠) وقال البوصيرىٰ (١/ ٣٨): إسناده ضعيف. وأشار المنذري في «الترغيب والترهيب» (١/ ٩٣) إلىٰ ضعفه. وأخرجه من حديث ابن عمر: ابن ماجه (٢٥٣).

كانُ ابنُ سِيرينَ يَضحكُ ويُقهقِهُ، فإذَا خَلا بَكىٰ أَكْثَر اللَّيْلِ. وقَالَ سُفيَانُ لصَاحِبهِ: مَا أَوْقَحَكَ! تُصلِّي والنَّاسُ يَرَوْنَك، وتَنَامُ حَيثُ لا تُرىٰ؟!

أُفْـدِي ظِبَـاءَ فَـلَاةٍ مَـا عُـرِفْنَ بِهَـا ** مَـضْغَ الكَـلَامِ وَلَا صَـبْغَ الحَوَاجِـبِ

آهٍ! للمُرائي مِن يَوْم ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ١٠]، وهي النِّيَّاتُ.

فأفِيقُوا مِن سُكْرِكم، وتُوبُوا مِن زَلَلِكُم، واستَقيمُوا عَلَىٰ الجَادَّة؛ ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

فَصْلٌ

رَأَيْتُ جُمْهُورَ النَّاسِ حَائدِينَ عَنِ الشَّرِيعَةِ، جَارِينَ عَلَى مَا أَلِفُوا مِن العَادَةِ

وَقَدْ يَخْلُصُ مِنْهُمْ فَرِيقَانِ: عُلَمَاءٌ وَعُبَّادٌ.

فتَأَمَّلتُ جُمْهُور العُلَمَاءِ؛ فرأيتُهُم فِي تَخليطٍ:

مِنهُم: مَن يَقتصِر عَلَىٰ علمِ مُعامَلاتِ الدُّنْيَا، ويعرِضُ عَنْ مُعامَلاتِ الآخِرَة؛ إمَّا لجهلِه بِها، أوْ لِثِقلِ أمرِها عَلَيه؛ فهُو لا يَجْرِي عَلَىٰ مَا يَثقُل عَلَيهِ مِمَّا يُوجِبه العِلْمُ، ويَتَّبعُ فِي البَاقِي العَاداتِ! ورُبَّما تخَايلَ أَنَّهُ يُسامَحُ فِي الخطَايَا؛ لكَونِه عَالمًا! وقَد نسِي أَن العِلْم حُجَّةٌ عَلَيْه.

ومِنْهُم: مَن هُوَ واقفٌ مع صُورَةِ العِلْم، غافلٌ عَنِ المَقصُود وهُوَ العَمَلُ!

وفِيهِم: مَن يُخالِط السُّلطانَ؛ فيتأذَّىٰ المُخالِطُ بِمَا يَرَىٰ مِن الذُّنُوب والظُّلم، ولا يُمكنُه الإنْكَار! ورُبَّما مدحَ هؤُلاء، ويتأذَّىٰ السُّلطان بصُحْبَته، فيقولُ: لَوْلا أَنِّي عَلَىٰ صَوابٍ مَا جالَسَني هذا، ويتأذَّىٰ العَوامُّ، فيَقُولُونَ: لَوْلا أَنَّ أَمْرَ السُّلطانِ قَرِيبٌ مَا خالَطه هَذَا العَالِم!

ورَأَيْتُ الأشرَاف يَثِقُون بشفاعةِ آبائِهم، ويَنْسَوْنَ أَنَّ اليَهُودَ مِن بني إسْرَائِيل!

وأمَّا الفريقُ الثَّاني، وهُمْ العُبَّاد؛ فرَأيْتُ أكْثرَهُم فِي تَخْليطٍ:

أمَّا الصَّحِيحُو القَصْدِ مِنهُم؛ فعلىٰ غَيْرِ الجَادَّة فِي أكْثَر عَملِهم، قَدْ وضعَ لَهُم جَمَاعَةٌ مِن المُتقدِّمين كُتُبا فِيهَا دَفائنُ قَبيحةٍ، وأحَادِيثُ غَيْر صَحِيحةٍ، ويَأْمُرون فِيهَا بأشياءَ تُخالِفُ الشَّرِيعَةَ؛ مثلَ كُتُب الحارِثِ المُحاسَبيِّ، وأبي عَبْد الله التِّرمذيِّ، و«قوتِ القُلُوب» لأبي طَالبٍ المكِّيِّ، وكِتابِ «الإحْيَاء» لأبي حَامِد الطُّوسيِّ.

فَإذَا فَتَحَ المُبتدِئُ عينَهُ، وهَمَّ بسُلوكِ الطَّرِيقِ بِهَذِهِ الكُتُبِ؛ حَملَته إلىٰ الخَطايَا؛ لأَنَّهُم قَدْ بَنَوا عَلَىٰ أحَادِيثَ مُحالةٍ، ويذُمُّون الدُّنْيَا ولا يَدرُون مَا المَذمُومُ مِنهَا، فيَتصوَّرُ المُبتدِئُ ذَمَّ ذَاتِ الدُّنْيَا، فيَهربُ المُنقَطِعُ إلىٰ الجَبلِ، ورُبَّما فَاتَتْهُ الجَمَاعَةُ والجُمُعَةُ، ويَقتصِرُ عَلَىٰ البلُّوطِ والكُمَّثْرَىٰ؛ فيُورِثُه القَولَنْج، ويَقنعُ بعضُهم بشُربِ اللَّبنِ؛ فيَنْحَلُ الطَّبْعُ، أوْ يأكُلَ البَاقِلَّاءَ والعَدسَ؛ فيَحدُثُ لَهُ قَراقِرُ!

وإنَّمَا يَنْبغِي لقَاصدِ الحجِّ أَنْ يَرْفُقَ أوَّلًا بالنَّاقةِ ليَصلَ، ألا تَرىٰ للفَطِنِ مِن الأترَاكِ يَهتمُّ بفرَسِه قَبلَ تَحصِيل قُوت نَفْسِه!

ورُبَّما تَصدَّىٰ القَاصُّ لشَرحِ أَحْوَالِ قَوْم مِن السَّلَفِ والمُتزَهِّدينَ، فيتبَعهُم المُرِيدُ، فيتأذَّىٰ بذَلِكَ! ومتىٰ رَدَدْنا ذَلِكَ المنقُولَ وبيَّنا خطأَ فَاعِلِهِ؛ قَالَ الجُهَّالُ: أَترُدُّ عَلَىٰ الزُّهَّادِ؟!

وإنَّمَا يَنْبغِي اتِّبَاع الصَّوَاب، ولا يُنْظَرُ إلىٰ أَسماءِ المُعظَّمِينَ فِي النُّفُوس؛ فإنَّا نَقُول: قَالَ أَبُو حَنيفةَ، ثُمَّ يُخالِفُه الشَّافِعِيُّ! وإنَّمَا يَنْبغِي أَنْ يُتَّبَعَ الدَّلِيلُ.

قَالَ المروزيُّ: مَدحَ أَحْمَد بنُ حَنْبَل النِّكَاحَ، فَقُلْتُ لَهُ: قَدْ قَالَ إبْرَاهِيمُ بنُ أَدْهَمَ. فَصَاحَ وقَالَ: وقعنا فِي بُنيَّاتِ الطَّرِيقِ! عَلَيْك بِمَا كَانَ عَلَيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ وأَصْحَابُه.

وتكلَّمَ أَحْمَدُ فِي الحارثِ المُحاسَبِيِّ، وردَّ عَلَىٰ سَرِيٍّ السَّقَطِيِّ حِينَ قَالَ: لَمَّا خَلَقَ الله الحُروفَ وقفَ الألفُ وسجَدتِ الباءُ؛ فَقَالَ: نَفِّروا النَّاس عَنْهُ.

فالحَقُّ لا يَنْبغِي أَنْ يُحابَىٰ؛ فإِنَّهُ جِدٌّ.

وإِنِّي أَرَىٰ أَكْثَر النَّاس قَدْ حادُوا عَنِ الشَّرِيعَة، وصَارَ كلامُ المُتزَهِّدينَ كأنَّه شَرِيعةٌ لهُم؛ فيُقالُ: قَالَ أَبُو طالبٍ المكِّيُّ: كَانَ من السَّلَفِ من يزِنُ قُوته بِكَرَبَةٍ، فيُنقِص كُلَّ يَوْم! وهَذَا شَيْءٌ مَا عرفَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ ولا أَصْحَابه وإِنَّمَا كَانُوا يَأكلُونَ دونَ الشِّبَع، فأَمَّا الحملُ عَلَىٰ النَّفْس بالجُوع فمنهيٌّ عَنهُ.

ويقولُ: قَالَ دَاودُ الطَّائيُّ لسُفيَان: إِذَا كُنْتَ تشرَبُ المَاءَ البَارِدَ؛ متىٰ تُحبُّ المَوْتَ؟! وكَانَ ماؤُه فِي دنٍّ! ومَا عَلمَ أَنَّ للنَّفْس حَظًّا، وأنَّ شُربَ المَاءِ الحارِّ يُرَهِّلُ المَعِدَة ويُؤذِي، وأنَّ رَسُول اللهِ ﷺ كَانَ يُبَرِّدُ المَاءَ[1].

ويقُولُ آخَرُ مِنهُم: مُنذُ خَمسينَ سَنَة أشتَهِي الشِّواءَ؛ مَا صَفا لِي دِرْهَمُه! ويقُولُ آخَرُ: أَشتَهي أَنْ أغمِسَ جزرَةً فِي دِبْسٍ؛ فَمَا صَحَّ لي! أَتُراهُم أَرَادُوا حبَّةً مُنذُ خَرجَتْ مِن المَعدنِ مَا دَخلتْ فِي شُبهَةٍ؟! هذا شَيْءٌ مَا نَظرَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ؛ وإنْ كَانَ الوَرعُ حَسنًا، ولَكِن لا عَلَىٰ حَملِ المَشاقِّ الشَّديدَةِ.

وهَذَا بِشرٌ الحَافِي يَقُولُ: لا أُحدِّثُ؛ لأنِّي أشتَهي أَنْ أُحدِّثَ! وهَذَا تعليلٌ لا يصلُح؛ لأَنَّ الإِنْسَانَ مأمورٌ بالنِّكَاحِ، وهُوَ مِن أَكْبَرِ المُشتَهىٰ.

---

(١) صحيح: أخرج البخاري (١٣٨، ٨٥٩)، ومسلم (٧٦٣) عن ابن عباس قال: بت عند خالتي ميمونة ليلة، فقام النبي ﷺ من الليل، فلما كان في بعض الليل قام النبي ﷺ فتوضأ من شَنٍّ معلق وضوءًا خفيفًا... الحديث. قال أهل اللغة: الشن القربة الخلق، والجمع شنان. وقال ابن الأثير: الأسقية الخلقية أشد تبريدًا للماء من الجدد.

وكَانَ بِشرٌ حَافيًا، حَتَّىٰ قِيلَ لَهُ الحَافِي! ولَوْ سَترَ أمرَه بنَعلَين كَانَ أَصْلحَ، والحَفَاءُ يُؤذِي العَينَ، ولَيْسَ مِن أمرِ الدُّنْيَا فِي شَيْءٍ؛ فَقدْ كَانَ لرَسُولِ اللهِ ﷺ نَعلانِ[(١)].

وما كَانَتْ سِيرةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وأَصْحَابِهِ عَلَىٰ مَا المُتزهِّدُونَ عَلَيهِ اليَوْمَ؛ فقد كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَضحكَ ويَمزحُ، ويَختارُ المُسْتَحْسَناتِ، ويُسابقُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا[(٢)]، وكَانَ يأكل اللَّحْمَ، ويحبُّ الحَلْوَىٰ[(٣)]، ويُستَعذَبُ لَهُ المَاءُ[(٤)]. وعَلَىٰ هَذَا كَانَ طَرِيقَةُ أَصْحَابِه.

فأَظْهَرَ المُتزهِّدُونَ طَرائقَ كأنَّهَا ابتِداءُ شَرِيعةٍ، وكُلُّها عَلَىٰ غَيْر الجَادَّة، ويحتجُّون بقولِ المُحاسِبيِّ والمكيِّ، ولا يحتجُّ أحَد مِنهُم بصحابيٍّ، ولا تابعيٍّ، ولا بإمامٍ مِن أئمَّة الإسلام، فَإِنْ رَأَوْا عَالمًا لبسَ ثَوبًا جميلًا، أَوْ تزوَّج مُستحسَنةً، أَوْ أَفطَر بالنَّهار، أَوْ ضَحكَ؛ عابُوه!

فيَنْبغِي أَنْ يُعلَمَ أَنَّ أَكْثَر مَن صَحَّ قصدُه مِنهُم عَلَىٰ غَيْر الجَادَّة؛ لقلَّة علمِهم، حتَّىٰ إنَّ بعضَهم يَقُولُ: منذ ثَمَانِين سنةً مَا اضْطَجَعْتُ، ويقولُ آخَرُ: حَلَفْتُ لا أَشْرَبُ المَاءَ سَنةً! وهَؤُلاءِ عَلَىٰ غَيْر الصَّوَاب؛ فَإِنَّ للنَّفْس حقًّا.

---

(١) صحيح: أخرج البخاري (٣١٠٧، ٥٨٥٨) عن عيسىٰ بن طهمان قال: خرج إلينا أنس بن مالك بنعلين لهما قبالان، فقال ثابت البناني: هذه نعل النبي ﷺ.

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٢٤٦١٩، ٢٦٧٨٢، ٢٦٨٠٧)، وأبو داود (٢٥٧٨)، وابن ماجه (١٩٧٩)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٨٨٩٣، ٨٨٩٥)، وابن حبان (٤٦٩١) من حديث عائشة.

(٣) صحيح: أخرج البخاري (٥٤٣١)، ومسلم (١٤٧٤) من حديث عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل.

(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٢٠٣٨) من حديث أبي هريرة. وأبو داود (٣٧٣٥) من حديث عائشة.

فأَمَّا مَن سَاءَ قَصْدُه مِمَّنْ نَافَق ورَاءَىٰ لاجتلابِ الدُّنْيَا وتَقْبيلِ الأَيدِي؛ فَلا كلامَ مَعهُ، وهُم جُمْهُورُ المُتصوِّفَة؛ فَإنَّهُم رقَّعُوا الثِّيابَ المُلوَّنةَ؛ ليَرَاهُم النَّاسُ بِعَينِ التَّركِ للزِّينةِ، ومَا مَعَهُم أَحسنُ مِن السفلاطُون.

وإنَّمَا رقَّع القُدَمَاءُ للفَقْرِ؛ فهم فِي اللَّذَّاتِ وجَمْع المَالِ وأخذ الشُّبُهات واسْتِعْمَالِ الرَّاحَةِ واللَّعِبِ ومُخَالطَةِ السَّلاطينِ، وهَؤُلاء قَدْ كَشَفُوا القِناعَ، وبَايَنُوا زُهْدَ أوائلِهم! بلىٰ؛ أعْجَبُ مِنهُم مَن يُنفِقُ عَلَيهِم!

❁ فَصْلٌ ❁

إنَّ اللهَ ﷻ جَعَلَ لأَحْوَالِ الآدَمِيِّ أَمْثِلَةً ليَعْتَبِرَ بِهَا

فمِن أمثِلةِ أَحْوَالِه: القَمرُ الَّذِي يَبتدئُ صَغِيرًا، ثُمَّ يتكامَلُ بَدرًا، ثُمَّ يَتناقصُ بانمِحاقٍ، وقَد يطرَأ عَلَيهِ مَا يُفسِدُه كالكُسوفِ.

فكَذَلكَ الآدميُّ؛ أوَّلُه نُطفةٌ، ثُمَّ يَترقَّىٰ مِن الفَسادِ إلىٰ الصَّلاحِ، فإذَا تَمَّ كَانَ بمَنْزِلةِ البَدرِ الكَاملِ، ثُمَّ تَتناقصُ أَحْوَالُه بالضَّعفِ، فرُبَّمَا هَجمَ المَوْتُ قبلَ ذَلِكَ هُجومَ الكُسوفِ عَلَىٰ القمرِ.

قَالَ الشَّاعِرُ:

وَالمَـرْءُ مِثْـلُ هِـلَالٍ عِنْـدَ طَلْعَتِـهِ ** يَبْـدُو ضَـئِيلًا لَطِيفًـا ثُـمَّ يَتَّسِقُ

يَـزْدَادُ حَتَّـىٰ إِذَا مَـا تَـمَّ أَعْقَبَـهُ ** كَـرُّ الجَدِيـدَيْنِ نَقْـصًا ثُـمَّ يَنْمَحِـقُ

ومِن أمثلةِ حالِه: دُودُ القَزِّ؛ فإنَّه يَكُونُ حيًّا إلىٰ أَنْ يَبتَدئَ نباتُ قُوتِهِ، وهُوَ وَرقُ الفرصَادِ، فإذَا اخْضَرَّ الورقُ دبَّتِ الرُّوحُ فِيهِ، ثُمَّ ينتقلُ مِن حَالٍ إلىٰ حَالٍ كانتقالِ

الطِّفل، ثُمَّ يَرْقُدُ كغفْلَةِ الآدَمِيِّ عَنِ النَّظَر فِي العَوَاقِب، ثُمَّ ينتبهُ فيحرِصُ عَلَىٰ الأَكْل كحِرْصِ الشَّرِهِ عَلَىٰ تَحْصِيلِ الدُّنْيَا، ثُمَّ يُسْدِي عَلَىٰ نَفْسه كَمَا يَحْطِبُ الآدَميُّ الأَوْزارَ عَلَىٰ دِينِه، فيرتَهنُ فِي ذَلِكَ الحبسِ كَمَا يرتَهِنُ الميِّتُ فِي قَبْره، ثُمَّ يَقْرُضُ فيخرُج خَلقًا آخرَ كَمَا تُنشرُ المَوْتىٰ غُرْلًا بُهْمًا.

وقَد دلَّه عَلَىٰ البعثِ؛ تَكُوُّن النُّطفَةُ كالميِّتِ ثُمَّ تصيرُ آدميًّا، وإلقاءُ الحبِّ تَحْتَ الأَرْضِ فيفسَدُ ثُمَّ يهتزُّ خَضِرًا.

إِذَا المَــرْءُ كَانَــتْ لَــهُ فِكْــرَةٌ ** فَفِــي كُــلِّ شَــيْءٍ لَــهُ عِبْــرَةٌ

فَصْلٌ

إِنَّمَا فَضْلُ العَقْلِ بِتَأَمُّلِ العَوَاقِبِ

فَأَمَّا القَلِيلُ العَقْلِ فَإِنَّهُ يَرَىٰ الحَالَ الحَاضِرَةَ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَىٰ عَاقِبَتِهَا.

فَإِنَّ اللِّصَّ يَرَىٰ أَخْذَ المَالِ ويَنْسَىٰ قَطْعَ اليَدِ! والبَطَّالَ يَرَىٰ لَذَّة الرَّاحَة ويَنْسَىٰ مَا تَجْنِي مِن فَوَاتِ العِلْم وكَسْبِ المَالِ، فَإِذَا كَبِرَ فسُئِلَ عَنْ عِلْمٍ لَمْ يَدْرِ، وإِذَا احْتَاجَ سَأَلَ فَذَلَّ؛ فَقد أَرْبَىٰ مَا حَصَل لَهُ مِن التَّأَسُّفِ عَلَىٰ لَذَّة البَطالَة، ثُمَّ يَفُوتُه ثَوابُ الآخِرَة بِتَرْكِ العَمَل فِي الدُّنْيَا.

وكَذَلكَ شَارِبُ الخَمرِ؛ يَلْتَذُّ تِلْكَ السَّاعَةَ ويَنْسَىٰ مَا يَجْني مِن الآفَاتِ فِي الدُّنْيَا والآخِرَة.

وكَذَلكَ الزِّنا؛ فَإِنَّ الإِنْسَانَ يَرَىٰ قَضَاء الشَّهْوَةِ، ويَنْسَىٰ مَا يَجْني مِنْهُ مِن فَضِيحَةِ الدُّنْيَا والحَدِّ، ورُبَّما كَانَ للمَرْأَةِ زوجٌ، فأَلْحقَتِ الحَمْلَ مِن هَذَا بِهِ، وتَسَلسَلَ الأمرُ.

فَقِسْ عَلَىٰ هَذه، وانتَبِهْ للعَوَاقِب، ولا تُؤْثِرْ لَذَّةً تُفَوِّتُ خَيرًا كثيرًا، وصابِرِ المشقَّةَ؛ تُحَصِّلْ رِبحًا وَافرًا.

فَصْلٌ

لَيْسَ فِي الدُّنْيَا عَيْشٌ إِلَّا لِعَالِمٍ أَوْ زَاهِدٍ

بَلَىٰ؛ قَدْ يَقَعُ فِي صَفاءِ حَالِهما كَدَرٌ، وهُوَ أَنَّ العَالِمَ يَشْتَغِلُ بالعِلْمِ، أَوْ بالانْقِطَاعِ عَنِ الكَسْبِ، وقَد يَكُونُ لَهُ عَائلةٌ، فرُبَّمَا تَعرَّضَ بالسُّلطانِ ففَسدَ حَالُه، وكَذَلكَ الزَّاهِدُ.

فيَنْبغِي للعَالِمِ والعَابِدِ أَنْ يتحرَّكا فِي مَعاشٍ؛ كنَسخٍ بأُجرةٍ أوْ عَملِ الخُوصِ، وإنْ فُتحَ لَهُ بشَيْءٍ اقتَنعَ باليَسيرِ؛ فَلا يَستعبِدهُ أحدٌ، كَمَا كَانَ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ لَهُ أُجرةٌ لَعلَّها لا تبلُغ دِينارًا يَتقوَّتُ بِها، ومتىٰ لَمْ يَقنعْ أفسَدتْ مُخَالطَةُ السَّلاطينَ والعَوامِّ دِينَه.

وفِي النَّاسِ مَن يُرِيدُ التَّوسُّعَ فِي المَطاعِمِ، ومِنْهُم من لا يُوافقُه خَشِنُ العَيْشِ، وهَيهَاتَ أَنْ يَصِحَّ الدِّينُ مع تَحصيلِ اللَّذَّاتِ!

وإِذَا قَنعَ العَالِمُ والزَّاهِدُ بِمَا يَكْفِي لَمْ يتبذَّلْ أحدُهُما للسُّلطانِ، ولَمْ يَسْتَخْدَمْ بالتَّردُّد إلىٰ بَابِه، ولَمْ يَحْتَجِ الزَّاهِدُ إلىٰ تَصنُّعٍ، والعَيْشُ اللَّذيذُ للمُنقطِعِ الَّذِي لا يَتبذَّلُ بِهِ ولا يُحَمَّلُ مِنَّةً.

فَصْل

مَا أكْثَرَ تَفَاوُتَ النَّاسِ فِي الفُهُومِ!

حَتَّىٰ العُلَمَاءُ يتَفَاوُتونَ التَفَاوُتَ الكثيرَ فِي الأُصُول والفُرُوع:

فَتَرىٰ أَقْوَامًا يَسْمَعُونَ أَخْبَارَ الصِّفَاتِ، فَيَحْمِلُونَها عَلَىٰ مَا يَقْتَضِيه الحِسُّ؛ كقَولِ قَائِلهم: يَنْزِلُ بِذَاتِه إلىٰ السَّمَاء ويَنْتَقِلُ.

وهَذَا فَهْمٌ رَدِيءٌ؛ لأَنَّ المُنْتَقِلَ يَكُون مِن مَكَانٍ إلىٰ مَكَانٍ، ويُوجِبُ ذَلِكَ كَوْنَ المَكَانِ أَكْبَرَ مِنْهُ، ويَلْزَمُ مِنْهُ الحَرَكَةُ؛ وكلُّ ذَلِكَ مُحالٌ عَلَىٰ الحَقِّ ﷻ.

وأمَّا فِي الفُرُوع؛ فكَمَا يُرْوَىٰ عَنْ داودَ أَنَّهُ قالَ فِي قَولِهِ ﷺ: «**لا يَبُولَنَّ أَحَدُكُمْ فِي المَاءِ الدَّائم ثُمَّ يَتَوَضَّأُ مِنْهُ**»[1]، فَقَالَ: إنْ بالَ غَيْرُه جَازَ!

فما يَفْهَم المُرَادَ مِن التَّنْجِيسِ، بَلْ يَأْخُذُ بمُجرَّدِ اللَّفظِ!

وكَذَلكَ يَقُولُ: لَحْمُ الخِنْزِيرِ حَرامٌ لا جِلْدُه! نَعُوذُ باللهِ مِن سُوءِ الفَهْمِ.

وكَذَلكَ يتَفَاوُت الشُّعَراءِ الَّذِينَ شُغْلُهُم التَّفَطُّنُ لدقائقِ الأَحْوَال:

كقَوْلِ قَائِلهم:

لَنَا الجَفَنَاتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بِالضُّحَىٰ ** وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا

والجَفَنَاتُ عددُ يَسيرٌ فلو قَالَ: الجِفَانُ؛ لكانَ أبلغَ، ولَوْ قَالَ: بالدُّجَىٰ؛ لكانَ أحسنَ، ويَقْطُرْنَ دَلِيلٌ عَلَىٰ القِلَّةِ.

وكَذَلكَ قَوْلُ القَائِل:

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٣٩)، ومسلم (٢٨٢، ٢٨٣) من حديث أبي هريرة.

هَمُّهَا العِطْرُ وَالفِرَاشُ وَيَعْلُو ** هَا لُجَيْنٌ مُنَظَّمٌ وَلَآلِي

وهَذَا قَاصِرٌ؛ فإِنَّه لَوْ فَعلتْ هَذَا سوداءُ؛ لحسَّنها!

إِنَّمَا المَادحُ هُوَ القَائِلُ:

أَلَمْ تَرَ أَنِّي كُلَّمَا جِئْتُ طَارِقًا ** وَجَدْتُ بِهَا طِيبًا وَإِنْ لَمْ تَطَيَّبِ

وكَذا قَوْلُ القَائِلِ:

أَدْعُو إِلَىٰ هَجْرِهَا قَلْبِي فَيَتْبَعُنِي ** حَتَّىٰ إِذَا قُلْتُ هَـذَا صَادِقٌ نَزَعَا

ولَوْ كَانَ صَادقًا فِي المَحبَّةِ لَمَا كَانَ لَهُ قلبٌ يُخاطِبهُ، وإِذَا خَاطبَه فِي الهَجرِ لَمْ يُوافِقْهُ! إِنَّمَا المُحبُّ الصَّادقُ هُوَ القَائِلُ:

يَقُولُونَ لَوْ عَاتَبْتَ قَلْبَكَ لارْعَوَىٰ ** فَقُلْتُ وَهَلْ لِلعَاشِقِينَ قُلُوبُ

ومِثلَ هَذَا إِذَا نُوقشَ كَثيرٌ.

فأَقَلُّ مَوجُودٍ فِي النَّاسِ الفَهْمُ والغَوْصُ عَلَىٰ دَقَائقِ المَعانِي.

فَصْلٌ

مَن تَأَمَّلَ الدُّنْيَا عَلِمَ أَنَّهُ لَيسَ فِيهَا لَذَّةٌ أَصْلًا فَإِنْ وُجِدَتْ لَذَّةٌ شِيبَتْ بِالنُّغَصِ الَّتِي تَزِيدُ عَلَى اللَّذَّةِ أَضْعَافًا

فمِن اللَّذَّات: النِّساء؛ فرُبَّمَا لم تَثبُتِ المُستحسَنَةُ، ورُبَّما لَمْ تُحبَّ الزَّوجَ؛ فمتىٰ عَلِمَ ذَلِكَ يَعزِلُ عنهَا، ورُبَّما خَانَت، وذَلِكَ الهلاكُ، فَإِنْ تمَّت المُراداتُ فَذِكْرُ الفِراقِ زائدٌ فِي التَّأَلُّم عَلَىٰ الالْتِذاذِ.

ومِنَ اللَّذَّاتِ: الوَلَد؛ ومقَاسَاةُ البِنْتِ إلىٰ أَنْ تتَزَوَّجَ ومَا تلقىٰ مِن زَوْجِها وخَوْفُ عَارِها مِحَنٌ قَبيحَةٌ. والابنُ إنْ مَرِضَ ذَابَ الفُؤادُ، وإنْ خَرَجَ عَنْ حدِّ الصَّلاحِ زادَ الأَسَفُ، وإنْ كَانَ عدوًّا فمُرادُه هَلاكُ الأَبِ، ثُمَّ إنْ تَمَّ المُرَادُ فَذِكْرُ فِراقِهِ يُذِيبُ القُلُوبَ.

ولو أَنَّ فاسقًا أحبَّ بَعْضَ المُردانِ؛ انْهَتَكَ عِرْضُه فِي الدُّنْيا، وذَهَب دِينُهُ، ثُمَّ لا يَلْبثُ أَنْ تتَغيَّرَ حِلْيَتُهُ، فيصِيرُ مَبْغُوضًا، مع مَا سَبَقَ مِن الهُتْكَةِ والإِثْمِ.

وكَمْ قَدْ غَلَبَتْ شَهْوَةُ رَجُلٍ؛ وَطِيءَ الجَوارِي السُّودَ، فجاء الوَلَدُ أَسْوَدَ؛ فبَقِيَ عارًا عَلَيهِ.

ومن هَذَا الجِنْسِ: الالْتِذَاذُ بالمَالِ، وفِي تَحْصِيلِه آثَامٌ، وفُراقُهُ حَسْرَةٌ، وذَهابُ العُمُرِ فِيهِ غَبْنٌ.

وهَذَا أُنْمُوذجٌ لِمَا لَمْ يُذْكَرْ.

فيَنْبغِي لمَن وفَّقَهُ اللهُ سُبْحَانَه أَنْ يَأْخُذَ الضَّروريَّ الَّذِي يَمِيلُ إلىٰ سَلامَةِ الدِّينِ والبَدَنِ والعَافِيَةِ، ويَهْجُرَ الهَوَىٰ الَّذِي نُغَصُه تَتَضاعَفُ عَلَىٰ لَذَّتِه.

ومَنْ صَبَرَ عَلَىٰ مَا يَكرهُ قَصْدَ النَّفْع فِي العَاقبةِ؛ الْتَذَّ أَضْعافًا؛ كطَالِبِ العِلْم، فإِنَّهُ يتعبُ يَسيرًا، وينالُ خيرَ الدَّارَين، مع سَلامةِ العاقبَةِ، ولذَّةُ البَطالةِ تعقُبُ عَدَمَ العِلْمِ والعَمَلِ؛ فيَزيدُ الأسَىٰ عَلَىٰ اللَّذَّةِ أَضْعافًا!

فاللهَ اللهَ أَنْ يَغلبَك هَواكَ العَاجلُ، ومتىٰ هَمَّ الهَوَىٰ بالتَّوثُّبِ فامنَعهُ، وزِنْ عَاجلَه بآجِلِه، ومَا يتذكَّرُ إلَّا أُولو الألبَابِ.

فَصْل

رَأَيْتُ إِبْلِيسَ قَد احْتَالَ بِفُنُونِ الحِيَلِ عَلَى الخَلْقِ

وأَمَالَ أكْثَرهم عَن العِلْم الَّذِي هُوَ مِصْبَاح السَّالكِ، فتَرَكَهُم يتخبَّطونَ فِي ظُلُماتِ الجَهْل، وشَغَلَهُم بأمُور الحِسِّ، فهُم يُحَسِّنُونَ ما يُحَسِّنُه الحِسُّ، ولا يَلْتَفِتُونَ إلىٰ مشُورَة العَقْل، فَإِذَا ضَاقَ بأحدِهم عَيْشُه، أوْ نُكِبَ؛ اعترَضَ فكَفَرَ:

فمِنْهُم: مَن يَنْسِب ذَلِكَ إلىٰ الدَّهر! ومِنْهُم: مَن يسُبُّ الدُّنْيَا! وهَذَا إِسْفَافٌ؛ لأنَّ الدَّهر والدُّنْيَا لا يَفْعلانِ، وإنَّمَا هُوَ عيبٌ للمقدِّر! ومِنْهُم: مَن يُخرِجُه الأَمْر إلىٰ جَحْدِ الحِكْمَة، فيقولُ: أيُّ فَائدَةٍ فِي نَقْضِ المَبْنَىٰ؟!

وزعَمَ بعضُهم أنَّهُ لا يُتَصوَّرُ عَوْدُ المَنقُوضِ، وأنْكَروا البَعْثَ، ويَقُولُونَ: مَا جَاءَ مِنْ ثَمَّ أحدٌ! ونَسُوا أنَّ الوجُودَ مَا انْتَهَىٰ بَعدُ، ولَوْ خُلِّفْنا لصارَ الإِيمَان بالغيبِ عَيانًا، ولا يصلحُ أنْ يُدَلَّ عَلَىٰ الإحْياءِ بالأَحْياءِ.

ثُمَّ نظرَ إبْلِيسُ؛ فرأَىٰ فِي المُسلِمِينَ قومًا فِيهِمْ فِطنةٌ، فأراهُم أنَّ الوُقُوفَ عَلَىٰ ظَواهرِ الشَّرِيعَة حَالَةٌ يُشارِكُهم فِيهَا العَوامُّ، فحسَّن لَهُم عُلومَ الكَلام، وصَارُوا يحتجُّون بقولِ بُقْراطَ وجَالينُوس وفيثَاغُورسَ! وهَؤُلاء ليسُوا بمتشرِّعينَ، ولا تَبعُوا نبيَّنا ﷺ، وإنَّمَا قَالُوا بمُقتضَىٰ مَا سَوَّلتْ لَهُم أنْفُسهُم.

وقَدْ كَانَ السَّلَف إِذَا نشأ لأحدِهم ولدٌ شغلُوه بحفظِ القُرْآن وسماعِ الحَدِيثِ؛ فيثبُتُ الإيمَانُ فِي قَلْبِه؛ فَقَدْ تَوانَىٰ النَّاسُ عَنْ هَذَا، فَصَارَ الوَلَد الفَطِنُ يَتشَاغَل بعُلُومِ الأَوائل، وينبُذُ أحَادِيثَ الرَّسُول ﷺ، ويقولُ: أَخْبَارُ آحاد! وأَصْحَابُ الحَدِيث عِنْدَهُم يُسَمَّونَ: حَشْوِيةً!

وَيَعْتَقِدُ هَؤُلاء أَنَّ العِلْمَ الدَّقيقَ عِلْمُ الطفرةِ والهُيولي والجزءِ الَّذِي لا يتجزَّأُ، ثُمَّ يتصاعَدُونَ إلىٰ الكَلام فِي صِفاتِ الخَالِق، فيدفَعُونَ مَا صَحَّ عَنْ رَسُول اللهِ ﷺ بواقعَاتِهم:

فيقولُ المُعْتزلَة إنَّ الله لا يُرَىٰ؛ لأَنَّ المَرْئيَّ يَكُون فِي جِهَةٍ! ويُخالفونَ قَوْلَ رَسُول اللهِ ﷺ: «**إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُم كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ، لا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ**»(١)؛ فأَوْجَبَ هَذَا الحَدِيثُ إِيثَارَ رُؤْيَتِه، وإِنْ عَجَزْنا عَنْ فَهْم كَيْفِيَّتِها.

وقَد عُزِلَ هَؤُلاءِ الأَغبياءُ عَن التَّشاغُل بالقُرْآن، وقَالُوا: مخلوقٌ! فزَالَتْ حُرْمَتُه مِن القُلُوبِ، وعَن السُّنَّة، وقَالُوا: أَخْبَارُ آحَادٍ! وإنَّمَا مَذاهبُهم السَّرِقةُ من بُقراطَ وجَالينُوسَ.

وقَدِ استفَادَ مَنْ تَبعَ الفلاسفةَ أَنَّهُ يُرفِّهُ نَفْسَه عَنْ تعبِ الصَّلاةِ والصَّوْمِ!

وقَدْ كَانَ كبارُ العُلَمَاءِ يذمُّونَ علمَ الكَلامِ، حَتَّىٰ قَالَ الشَّافِعيُّ: حُكمِي فِيهِمْ أَنْ يُرْكَبُوا عَلَىٰ البِغالِ، ويُشهَّرُوا، ويُقَالَ: هَذَا جَزاءُ مَن تَركَ الكِتَابَ والسُّنَّةَ واشتغلَ بالكَلامِ.

وقَدْ آلَ بِهِم الأَمْرُ إلىٰ أَن اعتَقدُوا أَنَّ مَن لَمْ يَعرفْ تَحريرَ دَلِيلِ التَّوحيدِ فلَيْسَ بمُسلمٍ!

فاللهَ اللهَ مِنْ مُخَالطَةِ المُبتدِعةِ، وعَليكُم بالكتَابِ والسُّنَّةِ؛ تَرشُدُوا.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٥٤، ٥٧٣، ٤٨٥١، ٧٤٣٤، ٧٤٣٦)، ومسلم (٦٣٣) من حديث جرير.

فَصْل

رَأَيْتُ العَادَاتِ قَدْ غَلَبَتِ النَّاسَ فِي تَضْيِيعِ الزَّمَانِ

وكَانَ القُدَمَاء يُحذِّرونَ مِن ذَلِكَ:

قَالَ الفُضَيْل: أَعْرِفُ مَن يَعُدُّ كَلامَهُ مِن الجُمُعةِ إلىٰ الجُمُعةِ.

ودخلُوا علَىٰ رَجُلٍ مِن السَّلَفِ، فَقَالُوا: لعلَّنا شغلنَاك، فَقَالَ: أَصْدُقُكم؛ كُنْتُ أَقْرَأُ، فتَرَكْتُ القِراءَةَ لأَجْلِكُم.

وجاءَ رَجُلٌ مِن المُتَعَبِّدين إلىٰ سَرِيٍّ السَّقَطِيِّ، فرأىٰ عِنْده جَمَاعَةً، فَقَالَ: صِرْتَ مُناخَ البطَّالينَ! ثُمَّ مضىٰ ولَمْ يجلسْ!

ومَتَىٰ لانَ المَزُورُ طَمِعَ فِيهِ الزَّائرُ، فأطَالَ الجُلوسَ؛ فَلَمْ يَسْلَمْ مِن أَذًىٰ.

وقَدْ كَانَ جَمَاعَة قعودًا عِنْدَ مَعْرُوفٍ؛ فأَطَالُوا، فَقَالَ: إنَّ مَلَكَ الشَّمْسِ لا يَفْتُرُ فِي سَوقِها؛ أَفَمَا تُريدونَ القِيامَ؟!

وممَّن كَانَ يَحفَظ اللَّحظاتِ عامرُ بنُ عَبْدِ قيسٍ؛ قَالَ لَهُ رجلٌ: قِفْ أُكَلِّمْكَ. قَالَ: فأمسِكِ الشَّمسَ.

وقيلَ لكُرْزِ بنِ وَبَرَة: لَوْ خَرَجْتَ إلىٰ الصَّحراءِ؟ فَقَالَ: يبطُلُ الزوجار!

وكَانَ داودُ الطَّائيُّ يَسْتَفُّ الفَتِيتَ ويَقُولُ: بينَ سَفِّ الفَتيتِ وأَكْلِ الخُبزِ قِراءةُ خَمسِينَ آيةٍ.

وكَانَ عُثمانُ الباقِلَّانِيُّ دائمَ الذِّكر للهِ تَعَالَىٰ، فَقَالَ: إِنِّي وقتَ الإفطارِ أَحِسُّ بروحِي كأنَّهَا تخرجُ؛ لأجلِ اشتِغالِي بالأَكْل عَن الذِّكر.

وأَوْصَىٰ بَعْضُ السَّلَف أَصْحَابَه، فَقَالَ: إِذَا خَرَجْتُم مِن عِنْدِي فتفرَّقُوا، لعلَّ أَحَدَكم يقرَأُ القُرْآنَ فِي طَرِيقِهِ، ومتىٰ اجْتمَعتُم تحدَّثتُم.

واعْلَمْ؛ أَنَّ الزَّمَان أشرَفُ من أَنْ يُضيَّع مِنْهُ لَحْظَةٌ؛ فَإِنَّ فِي «الصَّحِيح» عَنْ رَسُول اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَن قَالَ: سُبحَانَ اللهِ العَظِيم وبحَمدِه؛ غُرِسَتْ لَهُ بِهَا نَخْلَةٌ فِي الجَنَّةِ**»[1]، فكَمْ يُضيِّعُ الآدميُّ مِن سَاعَاتٍ يَفوتُه فِيهَا الثَّوابُ الجَزيلُ؟!

وهَذِهِ الأَيَّامُ مِثْلُ المَزْرَعَة؛ فكَأَنَّهُ قِيلَ للإنسَانِ: كُلَّمَا بذَرْتَ حبَّةً أَخْرَجنَا لَكَ أَلْفَ كُرٍّ[2]، فهلْ يَجُوزُ للعَاقِلِ أَنْ يتوقَّفَ فِي البَذْرِ ويتَوانَىٰ؟!

والَّذي يُعينُ عَلَىٰ اغتنَام الزَّمَانِ: الانْفِرَادُ والعُزْلَةُ مَهْمَا أَمْكَنَ، والاختصَارُ عَلَىٰ السَّلامِ أَوْ حَاجَةٍ مُهِمَّةٍ لِمَنْ يَلقَىٰ، وقلَّةُ الأَكْل؛ فَإِنَّ كثْرَتَهُ سَبَبُ النَّوْمِ الطَّويلِ وضَياعِ اللَّيْلِ.

ومَنْ نَظَرَ فِي سِيَرِ السَّلَفِ، وآمَنَ بالجَزاءِ؛ بانَ لَهُ مَا ذَكَرْتُه.

---

(١) **صحيح**: أخرجه من حديث جابر: الترمذي (٣٤٦٤، ٣٤٦٥) وقال: حسن صحيح. وابن حبان (٨٢٦)، والحاكم (١٨٤٧، ١٨٨٨) وقال: صحيح علىٰ شرط مسلم. وأخرجه من حديث معاذ بن أنس: أحمد (١٥٦٤٥)، وأبو داود (١٤٥٣).

(٢) الكر: مكيال عراقي.

فَصْل

يَنْبغِي للعَاقِلِ أَنْ يَتَخَيَّرَ امْرَأَةً صَالِحَةً، مِنْ بَيْتٍ صَالِحٍ

يَغْلُبُ عَلَيهِ الفَقْرُ؛ لِترَىٰ مَا يَأْتِيها بِهِ كَثيرًا، ولْيَتَزَوَّجْ مَن يُقارِبُه فِي السِّنِّ، فأَمَّا الشَّيْخُ؛ فإِنَّه إِذَا تَزَوَّجَ صَبِيَّةً آذاها، ورُبَّما فَجَرَتْ، أَوْ قَتَلَتْهُ، أَوْ طَلَبَتِ الطَّلَاقَ وهُوَ يُحِبُّها؛ فَيَتَأَذَّىٰ، ولْيُتَمِّمْ نَقْصَه بِحُسْنِ الأَخْلاقِ وكَثْرَةِ النَّفَقَةِ.

ولا يَنْبغِي للمَرْأَةِ أَنْ تَقْرَبَ مِن زَوجِها كثيرًا فتُمَلَّ، ولا تَبْعُدَ عَنْهُ فَيَنْسَاها، ولْتكُن وَقْتَ قُرْبِها إِلَيْهِ كَامِلَةَ النَّظَافَةِ مُتَحَسِّنَةً.

ولْتَحْذَرْ أَنْ يَرَىٰ فَرْجَها أَوْ جِسْمَها كُلَّه؛ فَإِنَّ جِسْم الإِنْسَانِ لَيس بمُسْتَحْسَنٍ، وكَذَلكَ يَنْبغِي أَنْ لا يُرِيَها جِسْمَه، وإِنَّمَا الجِماعُ فِي الفِراشِ.

ورَأَىٰ كِسْرَىٰ يومًا كَيْفَ يُسْلَخُ الحَيَوَانُ ويُطْبَخُ؛ فتقلَّبتْ نَفْسُه، ونفىٰ اللَّحْمَ، فَذَكَر ذَلِكَ لوَزِيرِه، فقَالَ: أَيُّهَا المَلِكُ؛ الطَّبيخ عَلَىٰ المَائدَةِ، والمَرْأَةُ فِي الفِراشِ. ومَعْنَاهُ: لا تُفَتِّشْ عَنْ ذَلِكَ.

قَالَتْ عَائِشَة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «مَا رَأَيْت مِن رَسُول اللهِ ﷺ، ولا رآه منِّي» (١)، وقَامَ ليلةً عُريانًا، فَمَا رَأَيْتُ جِسْمَهُ قَبْلَها(٢).

وهَذَا الحَزْمُ، وبذَلِكَ لا يَعِيبُ الرجلُ المَرْأَةَ؛ لأَنَّهُ لَمْ يرَ عُيوبَها.

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (٢٤٣٤٤)، وابن ماجه (٦٦٢، ١٩٢٢)، والترمذي في «الشمائل» (٣٥٩).

(٢) إسناده ضعيف: أخرجه الترمذي (٢٩٥١) وحسنه، عن عائشة قالت: قدم زيد بن حارثة المدينة ورسول الله ﷺ في بيتي، فأتاه فقرع الباب، فقام إليه رسول الله ﷺ عريانًا يجر ثوبه، والله ما رأيته عريانًا قبله ولا بعده؛ فاعتنقه وقبله.

وليكُن للمرأةِ فراشٌ ولَهُ فراشٌ، فَلا يجتمعان إلَّا فِي حَال الكَمالِ.

ومِن النَّاس مَن يَسْتَهِينُ بِهَذِهِ الأَشْيَاء، فيرىٰ المَرْأَة متبذِّلَةً؛ تَقُولُ: هَذَا أَبُو أَولادِي! ويتبذَّلُ هُوَ! فيَرىٰ كُلُّ وَاحِد مِن الآخر مَا لا يَشْتَهِي؛ فينفرُ القَلْب، وتبقىٰ المُعاشَرة بغَيْر المَحبَّة.

وهَذَا فَصْلٌ يَنْبغِي تَأَمُّلُه والعَمَل بِهِ؛ فإِنَّه أصلُ عظيمٌ.

فَصْل

لَا عَيْشَ فِي الدُّنْيَا إلَّا للقَنُوعِ باليَسِيرِ

فإِنَّه كُلَّمَا زادَ الحِرْصُ عَلَىٰ فُضُولِ العَيْش زادَ الهَمُّ وتشتَّتَ القلبُ، واستُعبِدَ العَبْدُ. وأمَّا القَنُوعُ فَلا يحْتَاج إلىٰ مُخَالطَة مَن فَوقَه، ولا يُبالِي بمَن هُوَ مِثْلُه؛ إذْ عِنْدَهُ مَا عِنْدَهُ.

وإنَّ أَقْوَامًا لَمْ يَقنعُوا، وطَلبُوا لذِيذَ العَيْشِ؛ فَأَزْرَوْا بِدينِهم، وذلُّوا لغَيرِهم، وخُصوصًا أَرْبَابَ العِلْم؛ فَإِنَّهُم تردَّدُوا إلىٰ الأُمراءِ فاستَعبدُوهم، ورَأَوا المُنْكراتِ فَلمْ يَقدرُوا عَلَىٰ إنْكَارِها، ورُبَّما مَدَحُوا الظَّالِم اتِّقاءً لشرِّهِ؛ فالَّذِي نَالهُم مِن الذُّلِّ وقِلَّةِ الدِّينِ أَضْعَافُ مَا نَالُوا مِن الدُّنْيَا.

ومِنْ أَقبَحِ النَّاسِ حَالًا مَن تعرَّض للقَضاءِ والشَّهادةِ، ولَقَدْ كَانَتا مَرتَبتَينِ حَسنتَينِ:

وكَانَ عَبْدُ الحَميدِ القَاضي لا يُحابِي، فبَعثَ إلىٰ المُعتضِد وقَالَ لَهُ: قَدِ استَأْجَرْتَ وقُوفًا، فأَدِّ أُجْرَتَها؛ ففَعلَ.

وقَالَ لَهُ المُعتضِدُ: قَدْ مَاتَ فُلانٌ ولَنَا عَلَيهِ مالٌ، فَقَالَ: أنتَ تذكُر لَمَّا وَلَّيْتَنِي قُلْتَ لِي: قَدْ أَخْرَجتُ هَذَا الأَمْرَ مِن عُنُقِي ووضَعتُه فِي عُنقِك، ولا أَقْبَلُ هَذَا الَّذِي تَقُولُ إلَّا بشَاهِدَيْنِ.

وكَذَلكَ كَانَ الشُّهُودُ:

دَخَل جَمَاعَةٌ عَلَىٰ بَعْضِ الخُلَفاءِ، فَقَالَ الخَادم: اشْهَدُوا عَلَىٰ مَوْلانا بكَذَا؛ فشَهدُوا! فتقَدَّم المجزوعيُّ إلىٰ السِّتْرِ فَقَالَ: يَا أمير المُؤْمِنينَ، أَشْهَدُ عَلَيْك بِمَا فِي هَذَا الكِتَاب؟ فَقَالَ: اشْهَدْ. قَالَ: إِنَّهُ لا يَكْفِي فِي ذَلِكَ، لا أَشْهَدُ حَتَّىٰ تَقُولَ: نَعَمْ. قَالَ: نَعَمْ.

فأَمَّا فِي زَمانِنا؛ فَتَغَيَّرتْ تِلْكَ القَواعِدُ مِن الكُلِّ، خُصوصًا مَن يُتَقَرَّبُ إِلَيْهِ بالمَالِ لِيُسْتَشْهَدَ، فتراهُ يُسْحَبُ لِيَشْهَدَ عَلَىٰ مَا لا يَرَىٰ!

قال لي أَبُو المَعالي بنُ شَافِعٍ: كُنْتُ أُحْمَلُ إلىٰ بَعْضِ أَهْل السَّوادِ وهُوَ مَحْبوسٌ وأَشْهَدُ عَلَيهِ، وأَعْلَمُ أنَّه لولا مكرُه لجَاءَ إليَّ بقَدَمَيْهِ، وأنَا أستغفرُ الله مِن ذَلِكَ.

ولَيْسَ للشُّهود جِرايةٌ[1] فَيحمِلونَ ذَلِكَ لأجلِها، وإنَّمَا الَّذِي يَحْصُلُ جَرُّ الطَّيلسانِ، وطرقُ البَاب، وقولُ المُعرِّفِ: حَرَسَ الله نِعْمَتَكَ؛ شَهَادَةً!

ولمَّا قِيلَ لإبْرَاهِيمَ النَّخَعِي: تَكُونُ قاضيًا! لَبِسَ قميصًا أحمرَ، وجلسَ فِي السُّوق، فَقَالُوا: هَذَا لا يصلُحُ!

ودَخَل بَعْضُ الكِبارِ عَلَىٰ الرَّشيد - وقَد أَحْضَرَه ليولِّيِه القَضَاءَ - فسلَّمَ، وقَالَ لَهُ: كَيْفَ أنتَ وكَيفَ الصِّبيَانُ؟ فقِيلَ: هَذَا مجنونٌ!

---

(١) الجراية: الرزق الذي يجري من الوظائف، وهو الأجرة.

فيا للهِ! جنونٌ هُوَ العَقْل.

ومَا أَظُنُّ الإِيمَانَ بالآخِرَة إلَّا مُتَزَلْزِلًا فِي أَكْثَرِ القُلُوب، نَسْأل اللهَ سُبْحَانَه سَلامَةً للدِّين؛ فإِنَّهُ قَادِرٌ.

۞ فَصْل ۞

قَدْ تَكَرَّرَ مَعْنَاهُ فِي هَذَا الكِتَابِ إِلَّا أَنَّ إِعَادَتَهُ عَلَى النُّفُوسِ مُهِمَّةٌ؛ لِئَلَّا يُغْفَلَ عَنْ مِثْلِهِ:

يَنْبَغِي للمُؤْمِنِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَه مَالِكٌ حَكِيمٌ لا يَعْبَثُ.

وهَذَا العِلْمُ يُوجِبُ نَفْيَ الاعْتِرَاضِ عَلَىٰ القَدَرِ.

وقَد لَهَجَ خَلْقٌ بالاعتِراضِ قَدحًا فِي الحِكْمَةِ، وذَلِكَ كُفرٌ.

وأَوَّلُهم إبْلِيسُ فِي قَولِهِ: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦]، ومَعْنَىٰ قَولُه: أَنَّ تَفْضِيلكَ الطِّينَ عَلَىٰ النَّار لَيسَ بحِكمةٍ!

وقَد رَأَيْتُ مَن كَانَ فَقِيهًا دَأَبُهُ الاعتِراضُ!

وهَذَا لأَنَّ المُعترِضَ يَنظُر إلىٰ صُورَةِ الفِعْلِ، ولَوْ أَنَّ صُورَةَ الفِعْل صدَرَتْ مِن مَخلوقٍ مِثلنَا حَسُنَ أَنْ يعترَضَ عَلَيهِ، فأَمَّا مَن نَقَصَتِ الأَفْهَامُ عَنْ مُطالَعةِ حِكمتِه؛ فاعتِراضُ النَّاقِص الجَاهِلِ عَلَيهِ جُنونٌ.

فأَمَّا اعتِراضُ الخُلعاءِ؛ فَدائمٌ؛ لأَنَّهُم يُرِيدُون جَريانَ الأُمُورِ عَلَىٰ أَغْرَاضِهِمْ، فمَتىٰ انكَسرَ لأَحَدِهم غَرضٌ اعترَضَ، وفِيهِم مَن يَتعدَّىٰ إلىٰ ذِكرِ المَوْتِ، فيقُولُ: بَنَىٰ ونَقضَ!

وكَانَ لَنَا رَفيقٌ، قرأ القُرْآن والقراءاتِ، وسمِعَ الحَدِيثَ الكثيرَ، ثُمَّ وَقَع فِي الذُّنُوب، وعَاشَ أَكْثَرَ مِن سَبْعينَ سنةً، فَلَمَّا نزل بِهِ المَوْتُ ذُكِرَ لي أَنَّهُ قَالَ: قَدْ ضاقَتِ الدُّنْيَا إِلَّا مِن رُوحِي!

ومِن هَذَا الجِنْس: سَمِعتُ شخصًا يَقُولُ عِنْدَ المَوْت: رَبِّي يَظْلِمُنِي!!

وهَذَا كَثِير، ويُكْرَهُ أَنْ يُحكَىٰ كلامُ الخُلعاءِ فِي جُنُونِهم واعتِراضَاتِهم البارِدَةِ.

ولَوْ فَهِمُوا أَنَّ الدُّنْيَا مِيدانُ مُسابَقةٍ ومارِسْتانُ[1] صَبْرٍ ليبين بذَلِكَ أَثَرُ الخَالِقِ؛ لَمَا اعْتَرَضُوا، والَّذِي طَلَبُوه مِن السَّلامَةِ وبلُوغِ الأَغْرَاض أَمامَهُم؛ لَوْ فَهِمُوا؛ فهُمْ كالزورَجارِي يتلوَّثُ بالطِّين، فَإِذَا فَرَغَ لبسَ ثِيابَ النظافةِ.

ولمَّا أُرِيدَ نَقْضُ هَذَا البَدَنِ الَّذِي لا يَصْلُح للبقاءِ؛ نُحِّيَتْ عَنْهُ النَّفْسُ الشَّرِيفةُ، ثُمَّ بُنِي بناءً يَقْبَلُ الدَّوَامَ.

وبعدَ هَذَا؛ فَقُلْ للمُعْترضِ: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥].

قل لَهُ: إنِ اعترضَ، لَمْ يمنع ذَلِكَ جَريانُ القَدَرِ، وإنْ سَلَّمَ جَرَىٰ القَدَرُ؛ فلأَنْ يَجْرِي وهُوَ مَأْجُورٌ خيرٌ مِن أَنْ يَجْرِي وهُوَ مَأْزُورٌ.

ومَا أَحْسَنَ سُكوتَ وضَّاح اليَمَن لَمَّا اخْتبَأَ فِي صُندوقٍ، فَقَالَ السُّلْطانُ: أَيُّهَا الصُّندوقُ! إنْ كَانَ فيكَ مَا نَظُنُّ فَقد مَحَوْنَا أَثرَكَ، وإن لَمْ يَكُنْ فلَيْس بدَفْنِ خَشَبٍ مِن جُناحٍ. فلو أَنَّهُ صَاحَ مَا انْتَفَعَ بشَيْءٍ، ولرُبَّما أُخْرِجَ فقُتِلَ أَقْبحَ قِتْلَةٍ.

---

(١) المارستان: المشفىٰ.

فصل

مَن تَلَمَّحَ أَحْوَالَ الدُّنْيَا عَلِمَ أَنَّ مُرَادَ الحَقِّ سُبْحَانَه اجْتِنَابُهَا

فمَن مَالَ إلىٰ مُباحِها لِيَلْتَذَّ وَجَد مَع كُلِّ فَرْحَةٍ تَرْحَةً، وإلىٰ جَانِب كُلِّ راحَةٍ تَعبًا، وَآخِرَ كُلِّ لَذَّةٍ نَغصًا يزِيدُ عَلَيهَا، ومَا رُفِعَ شَيْءٌ مِن الدُّنْيَا إلَّا وُضِعَ.

أَحَبَّ الرَّسُول ﷺ عَائِشَة رضي الله عنها فجاء حَدِيث الإفك، ومال إلىٰ زينب فجاء: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

ثُمَّ يَكْفِي أَنَّهُ إِذَا حَصَّلَ مَحْبُوبَه؛ فَعَينُ العَقْل تَرَىٰ فِراقَهُ، فَيَتَنَغَّصُ عِنْدَ وجُودِه.

كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

أَتَمُّ الحُزْنِ عِنْدِي فِي سُرُورٍ ** تَيَقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُهُ انْتِقَالا

فيَعلمُ العَاقِلُ أَنَّ مُرَادَ الحَقِّ بِهَذَا التَّكديرِ التَّنفيرُ عَن الدُّنْيَا، فيَبقَىٰ أَخْذُ البُلْغَةِ مِنهَا ضَرُورةً وتَركُ الشَّواغِل، فيَجتمِعُ الهَمُّ فِي خِدمةِ الحَقِّ، ومنْ عَدلَ عَنْ ذَلِكَ نَدِمَ عَلَىٰ الفَواتِ.

فصل

العَاقِلُ يُدَبِّرُ بِعَقلِهِ عِيشَتَهُ فِي الدُّنْيَا

فَإِنْ كَانَ فَقِيرًا؛ اجتَهدَ فِي كَسبٍ وصِناعةٍ تَكفُّهُ عَنِ الذُّلِّ للخَلقِ، وقلَّلَ العَلائقَ، واستَعملَ القَناعةَ؛ فعَاشَ سَليمًا مِن مِننِ النَّاسِ، عَزِيزًا بَينَهُم.

وإنْ كَانَ غنيًّا؛ فيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُدبِّر فِي نَفقتِه؛ خَوفَ أَنْ يَفتقِرَ، فيحْتَاجُ إلىٰ الذُّلِّ للخَلقِ، ومِنَ البَليَّةِ أَنْ يُبذِّرَ فِي النَّفقةِ، ويُباهِيَ بِهَا ليُكْمِدَ الأعدَاءَ، كأَنَّه يتعرَّضُ بذَلِكَ - إنْ أكْثَرَ - لإصَابتِه بالعَينِ!

ويَنْبغِي التَّوسُّط فِي الأحوَالِ، وكِتمانُ مَا يصلُح كِتمانُه، ولَقَدْ وجَدَ بَعْضُ الغسَّالِينَ مالًا فأكْثَرَ النَّفقةَ، فعُلِم بِهِ، فأُخذَ مِنْهُ المَالُ، وعادَ إلىٰ الفقْر، وإنَّمَا التَّدبيرُ حِفظُ المَال، والتَّوسُّطُ فِي الإنفَاقِ، وكِتمانُ مَا لا يَصلُح إظْهارُه.

ومِنَ الغَلَط إطْلاعُ الزَّوجَةِ عَلَىٰ قَدْرِ المَال؛ فإنَّه إنْ كَانَ قليلًا هَانَ عِندَهَا الزَّوجُ، وإن كَانَ كَثيرًا طَلبَتْ زِيَادَةَ الكِسوَة والحُلِيِّ! قَالَ الله ﷻ: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾ [النساء: ٥]، وكَذَلكَ الولَدُ.

وكَذَلكَ الأَسْرارُ؛ يَنْبغِي أَنْ تُحفظَ، وأن يُحذَر منها، ومنَ الصَّديقِ؛ فرُبَّمَا انقلبَ.

فَقدْ قَالَ الشَّاعِرُ:

احْـــذَرْ عَـــدُوَّكَ مَـــرَّةً ** وَاحْـــذَرْ صَـــدِيقَكَ أَلْـــفَ مَـــرَّهْ

فَلَرُبَّمَـــا انْقَلَـــبَ الـــصَّدِيـ ** ـــقُ فَكَـــانَ أَدْرَىٰ بِالمَـــضَرَّهْ

بِحَمْدِ اللهِ تَعَالَىٰ قَدْ نَجزَ مَا توخَّاه الفِكْرُ الفَاتِر، مِن تَقييدِ مَا جمَعهُ القلَمُ مِن صَيدِ الخَاطِر، مُقتصِرًا فِيهِ عَلَىٰ مَا بِهِ التَّخلِّي مِن الأمراضِ النَّفْسيَّة، والتَّحلِّي بالآدابِ الشَّرْعيَّة، والأَخْلاقِ المَرْضيَّة، جعلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ خيرَ هَادٍ عَلَىٰ مِنبرِ الوَعظِ والإرشَاد، وأنفعَ كِتابٍ تجلَّىٰ فِي مرَايَا الظُّهورِ لهِدَايَة العِبادِ، والحَمْدُ للهِ أوَّلًا وآخرًا، وصَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ سيِّدنا مُحمَّدٍ وعَلَىٰ آلِهِ وصَحبِه وسَلَّم.

الفهـــرس

الموضوع — الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع | الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع | الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع | الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

التنفيذ الطباعي

دار التربية الهادفة
طباعة . نشر . توزيع

بيروت ـ لبنان هاتف: 70 42 81 3 00961 / E-mail: dartarbiya@gmail.com / Dr.Husain.A@gmail.com